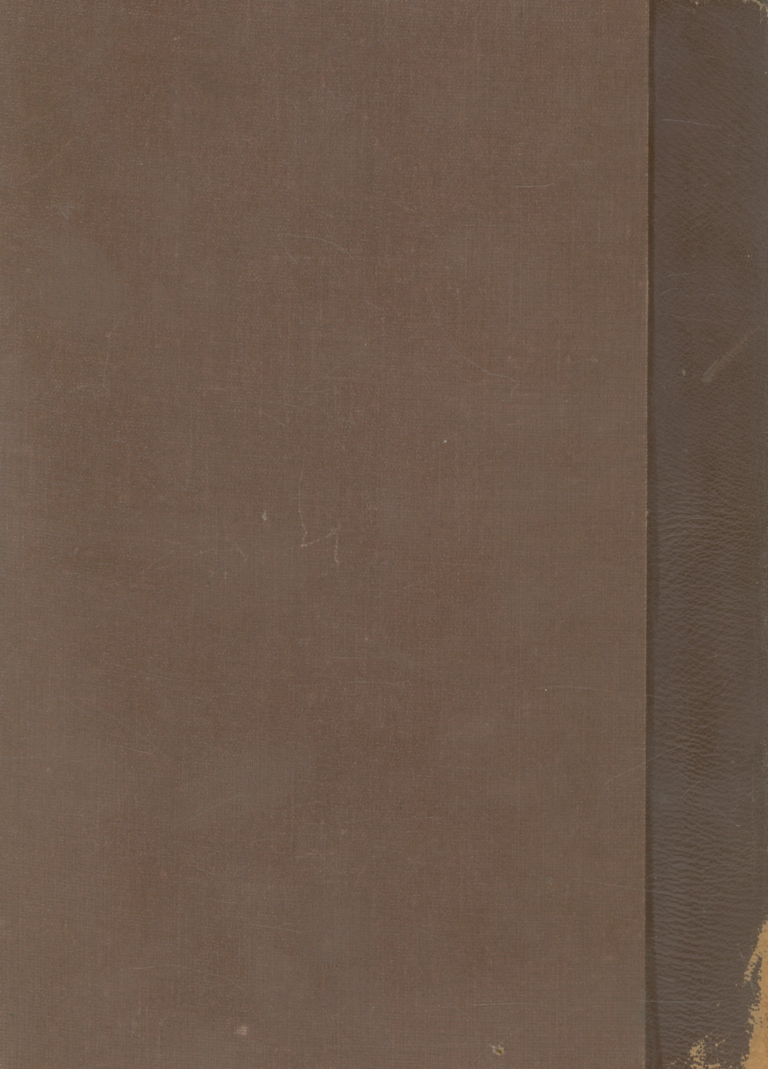


تراثنا



نهاية الأرب
في
فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

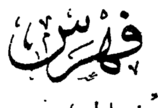
السِّفر الخامس عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهرة ت ٩٠٠١١٨
القاهرة



السفر الخامس عشر

من

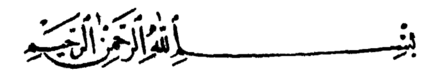
كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة



ذكر أخبار مصر

ومن ملكها من الملوك قبل الطوفان وبعده، وما بنوه بها من المدن، وما أقاموه من المنارات والأهرام والبرابى وغير ذلك من المبانى، وما وضعوه بها من العجائب والطّلّسمات والحكم، وما أثاروا من المعادن وما دبّروه من الصّنعة، وما شقّوه وأنبطوه من الأنهار وغير ذلك من عجائبها وأخبارها

فأمّا ملوكها قبل الطّوفان فقد ذكرهم إبراهيم بن القاسم الكاتب فى مختصر كتاب العجائب الكبير الذى ألّفه إبراهيم بن وَصِيف شاه. قال: أوّل مَن ملك مصر من الملوك قبل الطوفان نَقْرَاوُس[1]، ومعناه مَلِك قومه وعظيمهم. وذلك أن بنى آدم لمّا بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا وتغلّب عليهم بنو قابيل تحمّل نَقْرَاوس[2] الجبّار ابن مصرايم بن بَرَاكِيل بن زَرَابِيل بن غِرْناب بن آدم فى نيّف وسبعين رجلا من بنى غِرناب جبابرة، كلّهم يطلبون موضعا ينقطعون فيه من بنى آدم. فلمّا نزلوا على النيل ورأوا سَعَة البلد وحسنه أقاموا فيه وبنوا الأبنية، وقالوا: هذا بلد زَرْع؛ [وبنى نقراوس مصر][3] وسمّاها بآسم أبيه مصرايم ثم تركها[4]. وكان نقراوس

---

(١) ورد هذا الضبط بالقلم هكذا فى نسخة ب.

(٢) اختلفت المراجع فى ذكر هذه الأسماء فاكتفينا بما ورد فى الأصول.

(٣) التكملة من خطط المقريزى (ج ٢ ص ٦ طبعة فييت).

(٤) كذا فى خطط المقريزى. وفى الأصل: «تبرّكا به».

جبّارا له أيْدٌ و بَسْطة، وكان مع ذلك كاهنا عالما ، له مُعاون من الجنّ ، فملك بنى أبيه ولم يزل مطاعا فيهم . وقد كان وقع إليه من العلوم التى كان زرابيل عُلّمها من آدم . قال: فهو و بنوه الجبابرة الذين بنوا الأعلام، وأقاموا الأساطين العظام، وعملوا المصانع ، ووضعوا الطِّلَّسْمات ، وآستخرجوا المعادن ، وقهروا من ناوأهم من ملوك الأرض ولم يطمع طامعٌ فيهم . وكل علم جليل فى أيدى المصريين إنما هو من فضل علم أولئك القوم، كان مرموزا على الحجارة . فيقال إن فليمون الكاهن الذى كان ركب مع نوح عليه السّلام فى السفينة هو الذى فسّرها لهم وعلمهم كتابتها، وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر فليمون فى موضعه .

قال : ثم أمرهم نقراوس حين استقرّ أمرهم ببناء مدينة فقطعوا الصخور والأحجار من الجبال ، وأثاروا معادن الرصاص وبنوا مدينة وسمّوها أَمْسُوس[1] ، وأقاموا بها أعلاما ، طول كل علَمَ مائة ذراع ، وعمّروا الأرض، وأمرهم ببناء المدائن والقُرى، وأسكن أهل كل بيت ناحية من أرض مصر . وهم الذين حفروا النيل حتى أجرَوْا ماءه اليهم، ولم يكن معتدل الحفر إنما كان يتسطّح ويتفرّق فى الأرض . قال : ووجّه الى بلد النوبة جماعة حتى هندسوه وشقّوا منه أنهارا الى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنَوْها ، وشقّوا نهرا عظيما الى مدينتهم أَمسوس يجرى فى وسطها وغرسوا عليه الغروس ، فكثُر خيرهم وعزّت أرضهم وتجبّر ملِكهم . قال : و بعد مائة وعشرين سنة من مُلْكه أمر بإقامة الأساطين العظام وزبر عليها ذكر دخولهم البلد ، وكيف نزلوا به، وحربهم لمن حاربوه من

(١) أمسوس ، وردت مضبوطة بالقلم هكذا فى نسخة ب وهى أوّل مدينة بنيت بالديار المصرية قبل الطوفان . وموضعها خارج الاسكندرية تحت البحر الرومىّ (البحر الأبيض المتوسط) كما ذكره بعض المؤرّخين، وشق لها نهرا يتصل بها من النيل (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٩) .

الأمم . ثم أمر ببناء قبّة على أساطين مثبتة فى الرّصاص، طولها مائة ذراع، وجعل على رأسها مرآة من زبرجد أخضر، قُطْرها سبعة أشبار، ترى خُضرتها على أمد بعيد. قال: وفى مصاحف المصريين أنه سال الذى كان معه أن يعرّفه مخرج النيل، فحمله حتى أجلسه على جبل القُمْر[1] خلْف خطّ الآستواء على البحر الأسود الزّفتى[2]، وأراه النيل كيف يجرى فوق ذلك البحر[3] الأسود مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القُمْر، ثم يخرج الى بطائح[4] هناك . ويقال: إنه عمل بيت التماثيل هناك، وعمل فيه هيكلا للشمس. ورجع الى أَمْسُوس فقسم البلد بين بنيه، فجعل لنقارس الجانب الغربى، ولسورب الجانب الشرقى، ولآبنه الصغير وهو مصرام مدينة سمّاها برسان[5] وأسكنه فيها، وأقام فيها أساطين وشقّ لها نهرا وغرس بها غروسا. وعمل بأَمسوس عجائب كثيرة، منها صورة طائر على أُسطوانة عالية، يَصفِر كل يوم مرّتين عند طلوع الشمس وعند غروبها صفيرا مختلفا، فيستدلّون به على مايكون من الحوادث فيتأهّبون لها؛ ومخزن للماء المقسوم على جنّاتهم مائة وعشرين قسما لا يقدِر أحدٌ أن يحوز ما ليس له . وعمل وسط المدينة صنمين من حجر أسودَ، اذا تقدّم السارق لم يقدر على الزوال عنها حتى يسلك بينهما، [فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ[6]].

(١) المراد بخلف هنا شمال خط الاستواء .

(٢) هذه التسمية وردت هكذا أيضا فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٨ طبعة فييت) أثناء كلامه على نقراوس والعلة فى هذا أن النويرى والمقريزى ينقلان عن مرجع واحد وهو ابن وصيف شاه. ولم نوفق إلى تحقيقه فى مرجع آخر .

(٣) كرر المؤلف هنا عبارة «البحر الأسود الزفتى» ولا معنى له واكتفينا بما ورد فى خطط المقريزى .

(٤) المراد بالبطائح هنا منابع النيل .

(٥) ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٣١٩) هذه المدينة على أنها القاعدة الثانية من قواعد مصر قبل الطوفان ثم قال: «ولم أقف على مكانها» .

(٦) الزيادة من المقريزى (ج ٣ ص ٨ طبعة فييت) . وفى الأصلين مكانها: «يسقطان عليه» .

وله أعمال كثيرة سوى هذه . قال : وعمل فى برسان صورة [من] نحاس مذهب على منار عال لا تزال عليها سحب تظلّها ، مَن آستمطرها أمطرت عليه ماء ، فهلكت فى الطوفان . وعمل على حدود بلادهم أصناما من نحاس مجوّف وملأها نارًا وكبريتا وجلب اليها روحانيّة [النار] (١) ، فإن قصدهم قاصد بسوء أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارا أحرقته . وكان حدّ بلادهم الى داخل الغرب مسافة أيام كثيرة عامرًا كلّه بالقصور والبساتين ، وكذلك فى المشرق الى البحر ، ومن الصعيد الى بلاد علْوة (٢) . وعمل فوق جبال بطرس منارا يفور بالماء يسقى ما تحته من المزارع . وملكهم مائة وثمانين سنة . فلما مات لطّخوا جسده بالأدوية المُمْسكة ، وجعلوه فى تابوت من ذهب ، وعملوا له ناووسا مُصَفَّحا بالذهب ، وجعلوا معه كنوزا من أنواع الجواهر وتماثيل الزَّبرجد ، وكنزا من الصَّنْعة المعمولة ، وأوانى الذهب ، والطِّلَّسمات التى تدفع الهَوامّ وغيرها ، وزَبَروا عليه تاريخ الوقت .

ولما مات ملك بعده آبنه نقارس بن نَقْرَاوُس ، فتجبّر وعلا أمْرُه ، وبنى مدينة يقال لها خلجة (٣) ، وعمل فيها جنّة صفّح حيطانها بصفائح الذهب والحجارة الملوّنة ، وغرس فيها أصناف الفواكه والغروس الحسنة ، وأجرى تحتها الأنهار ، وأمر بإقامة الأساطين والأعلام ، وركّب (٤) عليها أصناف العقاقير والأدوية وجميع العلوم . وكان معه شيطان يعمل له التماثيل العجيبة . وهو أوّل مَن بنى بمصر هيكلا

---

(١) الزيادة من المقريزى . والعبارة فيه : « ووكل بها روحانية النار » .

(٢) بلاد علوة : هى من بلاد النوبة ، وتقع على ضفة النيل أسفل من مدينة دنقلة ، وبينهما مسيرة أيام فى النيل (راجع المغرب وأرض السودان ص ١٩ طبع مدينة ليدن) .

(٣) فى المقريزى (ج ٣ ص ١١ طبعة فييت) « خلجلة » وأشير فى الهامش الى أنها فى السيوطى « حلجة » .

(٤) لعله « وكتب » .

وجعل فيه صور الكواكب السبعة، وزَبَر على رأس كل كوكب محارته[1] وما يعمله من المنافع والمضارّ، وألبسه الثياب الفاخرة وأقام له كاهنا وسَدَنة . وخرج مغرِّبا حتى بلغ البحر المحيط وعمل عليه أعلاما ، وجعل على رأس كل علَم أصناما تُسْرَج عيونها بالليل كأنها مصابيح ، ورجع على بلاد السودان الى النيل، وأمر ببناء حائط على جانب النيل، وجعل له أبوابا يخرج الماء منها . وبنى فى صحراء الغرب وراء الواحات ثلاثَ مُدُن على أساطين ، وجعل شُرَفها من الحجارة الملوّنة التى تَشُفّ ، وجعل فى كل ناحية منها ثلاث خزائن للحكمة ،وهى أوّل عجائب الأرض ،جعل الدخول الى هذه المدائن من الأساطين التى بنيت عليها . ففى إحدى هذه الخزائن صنم الشمس الذى هو أعظم أصنامهم ، وهى معلقة عليه فى بيت شرفها[2]، وعلى رأسه إكليل فيه كواكبها الثابتة . وفى إحداها[3] صنم للشمس رأسه رأس طاووس فى جسد إنسان من ذهب أزرق، وعيناه جوهرتان صفراوان ، وهو جالس على سرير مغنطيس ،وفى يده مصحف العلوم . وفى إحداها صنم رأسه رأس إنسان وجسده جسد طائر، وصورة امرأة جالسة من زئبق معقود ،لها ذؤابتان ، وفى يدها مرآة وعلى رأسها صورة كوكب ، وهى رافعة بالمرآة الى وجهه ، ومطهرةٌ[4] فيها سبعة ألوان ، من الماء السائل لا يختلط بعضها ببعض ولا يوارى بعضها بعضا ، وصورة شيخ من حجر الفَيْروزَج ، وبين يديه

---

(١) المحارة : المكان الذى يحور أو يحار فيه (المدار) . والمحارتان : رأسا الورك المستديران اللذان يدور فيهما رءوس الفخذين . والمعروف أن لكل كوكب محور يدور فيه . وقيل له محور: للدوران ، لأنه يرجع إلى المكان الذى زال عنه ؛ فالمراد بالمحارة هنا الدائرة التى يدور فيها الكوكب .

(٢) بيت شرفها : أى محل عزها وعلوها وصعادتها وحلولها فى الحمل وهو محل قوة الكوكب ، فالشمس من أجل أنها إذا حلت الحمل تصاعدت فى الشمال وظهرت قوتها وصار شرفها فيه (راجع شرح العلامة الخضرى على متن اللمة ورقة ٨٧ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٨ ميقات) .

(٣) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «صورة أحدها» .

(٤) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «والآخر» .

صِبْيَةٌ يعلّمهم، وهم من أصناف العقيق والجوهر . وفى الخزانة الثانية صورة هِرْمِس [يعنى عُطَارِد][(١)] وهو مُكِبٌّ ينظر إلى مائدة بين يديه من نُوشَادِر على قوائم كبريت أحمر، وفى وسطها مثل الصَّحْفة من جوهر أحمر فيها دواء أخضر من الصنعة ،وصورة عُقَاب من زُمُرّد أخضر عيناه من ياقوت أصفر، وبين يديه حيّة من فضّة قد لوتْ ذنبها على رجليه ورفعت رأسها كأنها تريد أن تنفخ عليـه ، وفى ناحية منها صورة المِرّيخ راكبًا على فرس وبيده سيف مسلول من حديد أخضر، وعمود من جوهر أخضر، عليه قبّة من ذهب فيها صورة المُشْتَرِى ، وقبّة [من أدرك][(٢)] على أربعة أعمدة من جَزْع أزرق فى سقفها صورة الشمس والقمر متحاذيَيْن فى صورة آمرأة ورجل كأنهما يتحادثان، وقبة من كبريت أحمر فيها صورة الزُّهَرة على صورة آمرأة مُمْسكة بضفيرتها وتحتها رجلٌ من زبرجد أخضر، فى يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها[(٣)] . وجعل فى كل خزانة من بقية الخزائن من العجائب ما لا يحدّ، وعلى باب كل مدينة طِلّسمات تمنع من دخولها فى صـور مختلفة لا يشبه بعضها بعضا ، وفى كل مدينـة من الجوهر النفيس والذهب والفضة والكبريت الأحمر والتُّربة الصنعيّة فى البرانى الملوّنة . وصنوف الأدوية النفيسة المؤلّفـة والسموم القـاتلة . وعلّم كل باب من الأساطين بعلامة يعرف بها يُصعد اليها من مسارب تحت الأرض . قال : وجُعل بين هذه المدائن[(٤)]

(١) زيادة عن المقريزى (ج ٣ ص ١٠ طبعة فييت) .

(٢) زيادة من المقريزى (طبعة فييت) . والأدرك : الحجر الأحمر . وفى طبعة بلاق «من آنك» والآنك : القصدير .

(٣) كذا فى المقريزى (ج ٣ ص ١٠ طبعة فييت) وفى الأصول : « ... وكأنهم يقرءون عليه » .

(٤) يريد : وجعل بين أولى هذه المدائن وبين مدينة خلجة ، وهى التى عمل فيها الجنة ، سبعة أميال إلى الفـرسخ، وبين مدينة خلجة وبين الثانية أربعة عشر ميلا ، وبينها وبين الأخيرة واحد وعشرون ميـلا . ففى العبارة هنا قصور .

و بين مدينة خلجة، وهى التى عمل فيها الجنة، سبعة أميال الى الغرب، و بينها و بين
الأخرى أربعة عشر ميلا ، و بين الأخرى واحد وعشرون ميلا . وكان له من
مدينته إلى هذه المدائن أسراب تحت الأرض يصل منها اليها ، وكذلك من بعضها
الى بعض. وعمل عجائب كثيرة أزالها الطوفان، وركبت هذه الأرض الرمال فأزالت
طلّسماتها . قال : وملك نقارس مائة سنة وسبع سنين ثم هلك فعُمِل له ناووس ، ٥
وجُعِل معه من الأشياء العجيبة ما يطول الأمر بذكره .

ثم ملك بعده أخوه مِصرام بن نقراوس، فبنى للشمس هيكلا من المرمر الأبيض
وموّهه بالذهب، وجعل وَسَط الهيكل كالعرش (١) من جوهر أزرق عليه صورة الشمس
من ذهب أحمر وأرخى عليها كِلَل الحرير الملوّن، وأمر أن يوقد عليها بطيّب الأدهان،
وجعل فى الهيكل قنديلا من الزجاج الصافى، وجعل فيه حجرا مدبَّراً يضىء كما يضىء ١٠
السراج وأكثر منه ضوءا، وأقام له سَدَنةً، وعمل له سبعة أعياد فى السنة. وقيل : إن مصر
سمّيت به . وتسمّى به مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد الطوفان لأنه وجد
آسمه مزبورا على الحجارة . وكان فليمون الكاهن أخبرهم أخبار هؤلاء الملوك . وكان
مصرام هذا قد ذلّل الأُسْد فى وقته فكان يركبها. وصحبه الروحانىّ الذى كان مع أبيه
لما رأى من حرصه على لوازم الهياكل والقيام بأمور الكواكب ، وأمره أن ١٥
يحتجب عن الناس . وألقى على وجهه بسحره نورا عظيما لا يقدر أحد أن يتمكّن من
النظر اليه. فآدّعى أنه إله ، وغاب عن الناس ثلاثين سنة، وآستخلف عليهم رجلا من
ولد غرناب وكان كاهنا . و يقال : إنّ مصرام ركب فى عرش وحملته الشياطين حتى
آنتهى الى وسط البحر الأسود، فعمل فيه القلعة الفضّة وجعل عليها صنمين من
النحاس و زبر عليها : أنا مصرام الجبّار، كاشف الأسرار، الغالب القهار، صنعتُ ٢٠

(١) فى المقريزى (ج ٣ ص ١١ طبعة فييت) : « وفى وسطه قرس من جوهر » .

الطِّلّسمات الصادقة ، وأقمتُ الصُّـور الناطقة ، ونصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة ، ليعلم من بعدى أنه لا يملك أحد ملكى ، وكل ذلك فى أوقات السعادة . وكان قد عمل فى جنّته شجرة مولدة يؤكل منها جميع الفواكه ، وقبة من زجاج أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس ، ووكّل بها شياطين إذا آختلط الظلام نادَوْا : لا يخرج أحد من منزله حتى يُصبح وإلّا هلك ، وكان أوّل مَن عُمِـل له ذلك . ٥ وأمرهم أن يجتمعوا له ، وجلس لهم فى مجلس عال مزيّن بأصناف الزينة وتجلّى لهم فى صورةٍ هالتهم وملأت قلوبهم رعبا ، فخرّوا على وجوههم ودعَوْا له . فأمر بإحضار الطعام والشراب فأكلوا وشربوا ورجعوا إلى مواضعهم ثم لم يروه بعد . و بلغ بكهانته مالم يبلغه أحد من آبائه .

١٠ ثم ملك بعـده عِنْقام[1] الكاهن ، فعدل فيهم ، وعمل مدينة عجيبة قرب العريش جعلها لهم حرما . وقيل : إن إدريس عليه السلام رُفع فى زمانه . قال : ويحكى عنه أهل مصر حكايات كثيرة تخرج عن العقول . وكان قد رأى فى علمه كون الطوفان ، فأمر الشياطين التى تصحبه أن تبنىَ له مكانا خلف خطّ الآستواء بحيث لا يلحقه الفساد ، فبُنِىَ له القصر الذى فى سفح جبل القُمْر ، وهو قصر النحاس الذى فيـه التماثيل ، وهى خمسة وثمـانون تمثالا ، يخرج ماء النيـل من حُلوقها وينصبّ الى بطيحة . ١٥ ولمّـا عُمِل له ذلك القصر أحبّ أن يراه قبـل أن يسكنه ، فجلس فى قبّته وحملته الشياطين على أعناقها اليه . فلمّـا رأى حكمة بنيـانه وزخرفة حيطانه وما فيـه من النقوش وصور الأفـلاك والكواكب ، وغير ذلك من صنوف العجائب — وكان يُسرَج بغير مصابيح ، وتُنصب فيه موائد يُوجَد عليها من كل الأطعمة ولا يُدْرَى مَن يعملها ، وكذلك الأشربة فى أوانٍ ، يُستعمَل منها ولا تنقُص . وفى وسطه [بركة][2] ٢٠

(١) ضبط هكذا بالقلم فى نسخة ب . (٢) زيادة عن المقريزى (ج ٣ ص ١٢ طبعة فييت) .

من ماء جامد الظاهر تُرَى حركته من وراء ما جمد منه ، وأشياء كثيرة من هذا النوع وإن كانت تنبو عن العقول — أعجبه مارأى ، ورجع الى مصر فآستخلف آبنه عِرْناق وأوصاه بما يريده وقلّده المُلْك ، ورجع الى ذلك القصر فأقام به حتى هلك هناك . واليه تُعزى مصاحف القبط التى فيها تواريخهم وجميع ما يجرى الى آخر الزمان . قالوا : ولم تطل مدّة ملكه .

ثم ملك بعده آبنه عِرْناق بن عنقام[1] . ملك بعد أبيه وعمل عجائب كثيرة، منها شجرة صُفْر فيها أغصان حديد بخطاطيف حادّة اذا تقرّب منها الظالم والكاذب تقرّبت اليه تلك الخطاطيف فتعلّقت به وشكّت بدنه ولم تفارقه حتى يُحدّث عن نفسه بالصدق ويعترف بظلمه ويخرجَ عن ظُلامة خَصْمه . وعمل صنما من صَوّان أسود وسمّاه عبد قزويس[2]، أى عبد زُحَل، فكانوا يحتكمون اليه، فمن زاغ عن الحقّ ثبت فى مكانه فلم يقدر على الخروج منه حتى يُنْصِف من نفسه ولو أقام سنة أو أكثر . ومن كانت له حاجة منهم أو طلب شيئا بخّر الصنم ليلا ونظر الى الكواكب وذكر اسم عِرْناق وتضرّع فيُصبح وقد وجد حاجته على باب منزله . قال : وكان عِرْناق ربما حملته أطيار عظام وتمرّ به وهم يرونه . وكان ربما غضب على ناس فجعل ماءهم مُرّا لا يُذاق ، وسلّط عليهم وُحوش الأرض وسباعها وهوامّها . قال : وتجرّأ على صيد السباع والوحوش ، وعمل عجائب ، منها أنه عمل شجرة من حديد ذات أغصان لطّخها بدواء مدبّر، فكانت تجتلب كل صنف من الوحش . قال : وفى كتب المصريين أنّ هاروت وماروت كانا فى وقته وعلّما أهل مصر أصنافا من

(١) ضبطت هكذا بالقلم فى نسخة ب .

(٢) فى نسخة أ : « عبد فرديس » .

السحر، ونُقلا بعد الطوفان الى بابل. وكان عرناق يجتلب النساء بسحره و يغتصبهنّ، وكان يسكن الجنة التى عملها نقارس، فآحتالت عليه آمرأة من المغصوبات فسمّته فهلك و بقى مدّة لا يعرف خبره . وكان من رَسْمه - إذا خلا بنسائه - لا يقرَبه أحد، فلمّا تأخر خبره عن الناس هجم عليه فتًى من بنى نقراوس يقال له لُوخيم(١) ومعه نفر من أهله، فوجدوه ملقى فى فراشه جيفة. فأمر أن توقد له نار فأحرقه فيها. و جمع النسوة اللواتى كنّ فى الجنـة، فمن كانت من نسائه تركها ، ومن كانت من المغصـوبات سرّحها الى أهلها، ففرح الناس بذلك و بمـا نزل به .

وملك بعده لُوخِيم وجلس على سرير المُلْك ولبس تاج أبيه، وأمر بجمع الناس وقام فيهم وتكلّم وذكر ما كان عليه عِرْناق الأثيم من سوء السيرة وآغتصاب النساء وسَفْك الدماء ورفض الهياكل والآستخفاف بالكهنة الى أن هلك، وأنه أحقّ بتُراث أبيه(٢) وجدّه. وضمن للناس العدل والإحسان والقيام بأمرهم ودفع كل أذى عنهم. فرضى الناس به وأطاعوه وقالوا: أنت أحقّ بالمُلْك، ولا زلتَ دائم السعادة طويلَ العمر قائما بتجويد الهياكل وتعظيمها. فركب الى هيكل الشمس فقرّب له بقرا كثيرا، وسار فى الناس بالعدل . قال: وكانت الغَرانيق(٣) قد كثُرتْ فى زمن عِرْناق فأهلكت زروع الناس . فعمل لوخِيم أربع منارات من نحاس فى أربعة جوانب أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب فى فمه حيّة قـد آلتوت عليه فلم يقربهم شىء من تلك الطيور، فكانت كذلك حتى أزالها الطوفان .

---

(١) فى المقريزى (ج ٣ ص ١٤ طبعة فييت) : « لوجيم » بالجيم المعجمة .

(٢) فى أ : « أخيه » .

(٣) الغرانيق : الذكور من الطير واحدها غرنوق وغرنيق ، وهو طائر مائىّ طويل القوائم والعنق أسود وقيل أبيض (راجع شرح القاموس مادة غرنق) .

قال: ومن ملوكهم خصليم وهو أوّل من عمل مقياسا لزيادة المـاء؛ وذلك أنه جمع أصحاب العلوم والهندسة فعملوا بيتا من رُخام على حافة النيل، وجعل فى وسطه بركة من نحاس صغيرة فيها ماء موزون، وعلى حافَتَى البركة تمثالُ عُقابين من نُحاس ذكر وأنثى. فإذا كان فى أوّل الشهر الذى يزيد فيه المـاء[1] فتح باب البيت وحضر الكُهّان وأمناء الملك وتكلّموا بكلام لهم حتى يصفِر أحد العقابين، فإن صَفَر الذكر كان المـاء زائدا، وإن صفرت الأنثى كان المـاء ناقصا، ثم يعتبرون المـاء فكلّ إصبع يكون فى تلك البركة فهو ذراع من زيادة النيل، وكل إصبع ينقص فهو نقصان ذراع. فإذا علموا ذلك حفروا الترع وأصلحوا الجسور. وعمل على النيل القنطرة التى هى ببلاد النُّوبة. وكان له ابن سمّاه هِرْصال[2]، أى خادم الزُّهَرة، لرؤيا كانت رأتها أخت الملك أن الزُّهَرة تخاطبها، وكفلت الغلام عمّته، واسمها خِرداقة[3]، وأدّبته أحسن التأديب، وزوّجته عشرين[4] امرأة من بنات الملوك والعظماء، وبنت له مدينة فيها عجائب كثيرة، احتفلت بهـا وزيّنتها بأحسن النقوش والزينة والعمارة، وعملت فيهـا حمّاما معلّقا على أساطين يرتفع المـاء إليها حارّا من غير وَقِيد[5]. ولمـا هلك خصليم دُفن فى ناووس.

ثم ملك بعده ابنه هِرْصال بن خصليم فتحوّل إلى المشرق وسكنه، وبنى مدينة هى إحدى المدائن ذوات العجائب، وعمل فى وسطها صنما للشمس يدور بدَوَرَانها ويبيت مغرّبا ويصبح مشرّقا. ويقال: إنه عمل من تحت النيل سَرَبا. وهو أوّل

---

(١) كذا فى الأصول. وفى المقريزى (ج ٣ ص ١٤ طبعة فييت): «النيل».

(٢) ضبطت هكذا بالقلم فى نسخة ب.

(٣) ضُبطت هكذا (بكسر الخاء المعجمة) بالقلم فى نسخة ب.

(٤) فى نسخة (ب): «وزوّجته امرأة ...».

(٥) الوقيد: ما توقد به النار من الحطب ونحوه.

مَن عمل ذلك . وخرج متنكرا يشقّ الأمم إلى أن بلغ بابل ، ورأى ما عمل الملوك من العجائب . وعلم حالَ مَلِكها فى الوقت وسيرته ومجارى أموره . و يقال : إنّ نوحا عليه السلام وُلد فى وقته . قال : ووُلد لهرْصال عشرون ولدا ، جعل مع كل ولد منهم قاطرا (١) وهو رأس الكهنة . وتزعم القبط أنه بعد مائة وسبع وعشرين سنة من مُلْكه لزم الهيا كل وتعبّد للكواكب فأخفته عن أعين الناس . وأقام بنوه على حالهم كل واحد منهم فى قسمه الذى أعطاه إياه يدبّره ولا يشركه فيه غيره . وأمور النــاس جارية على سداد ، فأقاموا كذلك سبع سنين . ثم وقع بين الإخوة تشاجر ، واجتمع رأى الكهنة على أن يجعلوا أحــدهم ملكا ، و يقيم كل واحد منهم فى قسمه . فاجتمعوا فى ذلك اليوم فى دار المملكة ، وقام رأس الكهّان فتكلّم وذكر هِرْصالَ وسعادة أيامه وما شملهم فيها من الخير ، وأخبر بمـا رأته الجماعة من تقليد أحدهم المُلْك . فإن كان هِرْصالُ لم يمُت ورجع إليهــم لم ينكر ما فعلوه لأنهــم أرادوا بذلك حفظ ملكه ، و إن لم يرجع كان الأمر قد جرى على ماسلف من قيام ملك بعد ملك فاجتمع رأيهم على أكبر ولده وهو :

تَدْسان (٢) بن هِرصال . فملك وسار سيرة أبيه وحمد الناس أمره . وعمل قصرا من خشب ونقشه بأحسن النقوش ، وصوّر فيه صور الكواكب ونجّده بالفرش وحمله على المــاء وكان يتنزّه فيه . فبينما هو فيه إذ زاد النيــل زيادة عظيمة وهبّت ريح عاصــف فانكسر القصر وغرق المــلك . وكان قــد نفى إخــوته إلى المدائن

(١) فى المقريزى : « ناظرا » .

(٢) فى المقريزى (ج٣ص١٥ طبعة فييت) وحسن المحاضرة للسيوطى (ج١ص١٩) «قدرسان» وعبارة المقريزى : « ... وكان اسمه قدرشان وقيل قدرسان » . وفى صبح الأعشى (ج٣ص٤١١) : « بدرسان » .

الداخلة فى الغرب . وآقتصر على آمرأة من بنات عمّـه ، وكانت ساحرة، فتفرّد بها وآستخلف بعض وزرائه على المُلْك وأقبل على لذّته ولهوه . فلمّا هلك كتمت آمرأته الساحرة موته ، وكان أمرها ونهيها يخرجان إلى الوزير عن الملك . وأقام الناس تحت طاعته سبع سنين لا يعلمون بأمره . فلما رأى إخوته طول غيبته جمعوا جموعا كثيرةً وقدّموا على أنفسهم أحدهم وهو شمرود[(١)] الجبّار . وساروا إلى أمسوس . وبلغ ذلك آمرأة نَدْسان الساحرة فأمرت الوزير بالخروج إليهم ومُحاربتهم ، ففعل ذلك ولقيهم فمزّقوه وقتلوا كثيرا ممن كان معه ، ودخلوا مدينة أمسوس ، وأتوا دار المملكة فلم يروا نَدْسان وأيقنوا بهلاكه .

وملك شمرود بن هَرْصال فسُرّ الناس به ، ووعدهم بحُسن السِّيرة فيهم وتغيير ما كانوا يُنكرونه على أخيه . وآستولى على كنوزه وخزائنه ففرّقها على إخوته ، وأقطعهم جميع ما كان فى يد نَدْسان . وطلب آمرأته الساحرة وآبنها ليقتلهما ، فآنتقلت إلى مدينة أهلها من الصعيد ، وكانوا كلّهم كُهّانا سحرة ، فآمتنعت بهم ؛ وأرسلت إلى الناس وعرّفتهم أنّ آبنَها الملكُ فى وقته ؛ لأنّ أباه قلّده المُلْك وأمرها أن تدبّر أمره حتى يكبَر ، فصدّقوها وأجابوها وقالوا : إنّ الغلام مغصوب على ملك أبيه ، وإنّ شمرود متغلب . فآجتمع فى ناحيتها جماعة من أهل البلد وزحف آبن الساحرة وقد عمل له السحرة أصنافا من التخاييل الهائلة والنيران المحرقة ، فقامت الحرب بينهم أياما ؛ فآنهزم شمرود وإخوته وتعلّقوا ببعض الجبال .

وملك تُوميدون[(٢)] بن ندسان وهو آبن الساحرة . ودخل دار الملك وجلس على السرير ولبس التاج الذى كان لأبيه وأطاف به بطانة أبيه ، وهو يومئذ حَدَثُ السنّ ،

(١) فى المقريزى (ج ٣ ص ١٦ طبعة فييت) « نمرود » وقال : ويقال له « شمرود » .

(٢) فى المقريزى : « بوسيدون » وراجع تعليقاته عليه (ج ٣ ص ١٦ طبعة فييت) . وفى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١١) : « فرسيدون » .

وكانت أمه تدبّر أمره، فقتل كلّ من كان مع شمرود . وطلب شمرودَ حتى ظَفِر به، وآجتمع الناس لينظروا ما يصنع به، فشُدّ رأسه برأس أسطوانة قائمة، ورجلاه برأس أسطوانة أخرى . وكان طُوله فيما يذكر القبط عشرين ذراعا، ووكّلت الساحرة به حَرَسا لتقتلَه يومَ عيدها، وكان قريبا . فصاح بالليل صيحة مات منها بعض الحرس وهرب الباقون . فلمّا اتّصل بها ذلك أوقدت نارا وأمرت بإنزاله وجعلت تقطع منه عضوا عضوا وترميه فى النار . قال : وخرج ابنها كاهنا منجّما[1]، وعملت له الشياطين قبّة الزُّجاج[1] الكبيرة الدائرة على دوران الفلك، وصوّروا عليها صور الكواكب، وكانوا يعرفون الطالع منها وما يحدث بطلوعه بعد ستين سنة . ثم ماتت أمّه الساحرة وأوصت أن يجعل جسدها تحت صنم القمر فإنه يخبرهم بالعجائب وما يسألون عنه ففعلوا ذلك . وذل الناس لابنها وهابوه، وكان يتصوّر لهم فى صور كثيرة، وملكهم مائة سنة وستين سنة . ولمّا حضره الموت أمرهم أن يعملوا له صنما من زجاج على شقّين ويُطبق على جسده بعد أن يُطلَى بالأدوية المُمْسِكة ويُلحَم ويقام فى هيكل الأصنام، ويُجعَل له عيد فى السنة ويقرّب له قُربانٌ، وتُدفَن علومه وكنوزه تحته، ففعلوا ذلك كله .

ولمّا مات ملك بعده آبنه شرناق[2] بن توميدون، فعمل بسيرة أبيه وجدّته، وآجتمع الناس عليه . وزَحَف رجل من بنى صرابيس[3] بن إرم من ناحية العراق، فتغلّب

(١) عبارة المقريزى (ج ٣ ص ١٦ طبعة فييت) : «... وقام بوسيدون بن قدرشان بالملك فى مدينة أمسوس، وكان عالما فاضلا، فقوى بسحر أمه وعملت له أعمالا عجيبة، منها قبة من زجاج على هيئة الكرة تدور بدوران الفلك، وصورت فيها صور الكواكب . فكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع وعلوم العالم . فلما ماتت أمه الساحرة بعد ستين سنة من ملكه طلى جسدها بما يدفع عنه النتن والحشرات، ودفن تحت صنم القمر . ويقال إنها كانت بعد موتها يسمع من عندها صوت بعض الأرواح فتخبرهم بعجائب وتجيب عما تسأل عنه» .

(٢) فى المقريزى : «سرباق ويقال فيه شرباق» . وقد أوردت هذا الاسم عدّة مصادر بصور مختلفة .

(٣) فى المقريزى : «من بنى مراشى بن آدم، ويقال من بنى صوانيتى بن آدم» وقد أوردت هذين الاسمين عدّة مصادر بصور مختلفة .

على الشام، وأراد أن يزحف إلى مصر، فعرف أنه لا يصل اليها لسحر أهلها، فأراد أن يدخلها متنكّرا ليقف على أحوالها، فخرج فى نفر حتى بلغ الحصن الذى كانوا بنوه على مصر. فسألهم الحرس الموكّلون به عن أمرهم، فعرّفوهم أنهم قصدوا بلدهم ليسكنوه، فحبسوهم وطالعوا الملك بخبرهم. وكان الملك قد رأى فى منامه كأنه قائم على منار لهم عال، وكأن طائرا عظيما انقضّ عليه ليختطفه، فحاد عنه حتى كاد يسقط عن المَنارة فجاوزه ولم يَضُرّه، فانتبه مرعوبا، وبعث إلى رأس الكَهَنة فقصّ عليه رؤياه، فعرّفه أن مَلِكا يطلب مُلْكه فلا يصل اليه. فنظر فى علمه فرأى أنه قد دخل بلده. فلما وردت الرسل بذكر القوم علم أن المَلِك فيهم؛ فوجّه جماعةً من أصحابه فاستوثقوا منهم وحملوهم اليه، وقد كان أمرهم أن يطوفوا بهم فى أعمال مصر كلها ليروا ما فيها من الطِّلَّسمات والأصنام المتحرّكات والعجائب المعجزات، فبلغوا بهم الى الإسكندرية، ثم ساروا بهم إلى أمسوس وطيف بهم على عجائبها. ثم سيرَ بهم الى الجنّة التى عملها مِصْرام، وكان الملك مُقيما بها وأمر السحرةَ بإظهار التهاويل والتخاييل، فجعلوا يتعجّبون مما رأوا الى أن وصلوا الى شرناق الملك والكهنة حوله وقد أظهروا صنوف العجائب، وجعلوا بين يدى الملك نارا عظيمة لا يصل اليه إلا مَن خاضها ولا تضرّ إلا مَن أضمر للملك غائلة، وأمر بدخولها، فشقّوها واحدا واحدا لم ينلهم منها أذى، وكان الملك آخرَهم، فلمّا دنا من النار أخذته فولّى هاربا. فأُتِىَ به شرناق فسأله عن أمره فأقرّ، فأمر بقتله على أسطوانة عند باب الحصن من ناحية الشام، فقُتِل وزُبِر عليه: هذا فلان المتغلّب على الشام أضمر غائلة الملك، طلب ما لا يصل اليه فعوقب بهذا. وأمر بإخراج الباقين من بلاده فأُخرجوا. وقيل لهم: قد وجب عليكم القتل لصُحبتكم من أراد الفساد فى الأرض، ولكنّ الملك عفا عنكم. فكانوا لا يمرّون على أحد إلّا حدّثوه بما رأَوْا من العجائب، فانقطعت أطماع الملوك عن

الوصول الى مصر والتعرض إليها . وعُملت فى أيامه عجائبُ كثيرة ، منها أنه عمل على باب كل مدينة بطّة نحاس قائمة على أُسطوانة ، فإذا دخل الغريب من الباب صفّقت بجناحيها وصرّخت ، فيؤخذ ويكشف عن أمره . وشقّ الى مدائن الغرب نهرا من النيل ، وبنى على عِبْره منازل وأعلاما وغرس بينها غروسا ، وكان اذا خرج إليها سار فى عِمارة متّصلة . وملكهم مائة سنة وثلاثين سنة ثم مات . ٥

وملك بعده آبنه سهلوق بن شرناق ، وكان كاهنا منجّما ، فأفاض العدل وقسم ماء النيل قسما موزونا ، صرف الى كل ناحية قِسْمها ، ورتّب المراتب وجعلها على سبعة أقسام : فالطبقة الأولى الملك وولده وأهل بيته ومن يلى عهده ورأس الكهّان والوزير الأكبر وقائد الجيش الأكبر وصاحب خاتَم الملك وصاحبُ خزانته . والطبقة الثانية مراتب العمّال والمتولّين جباية الأموال والإشراف على النفقات فى أمر المملكة ومصالح البلد والعِمارات وقسمة المياه . والطبقة الثالثة الكهّان وأصحابُ الهياكل وخدمتها ومتولو القرابين والمشرفون على جميع ما يتقرّب به من بواكير الفواكه والرياحين وفُتِيِّ البقر والفراريج الذكور ورءوس خوابى الشراب . والطبقة الرابعة المنجّمون والأطباء والفلاسفة . والطبقة الخامسة أصحاب عِمارة الأرض ومتولّو أمر الزراعة . والطبقة السادسة أصحاب الصناعات والمِهَن فى كلّ فنّ ، والمشرفون على أعمالهم ونقلِ ما يستحسنون منها الى خزانة الملك . والطبقة السابعة أصحاب الصّيد من الوَحْش والسّباع والطير والهوامّ والخَشَاش ، والمشرفون على أخذ دمائها ومرائرها وشحومها وحملها الى الأطبّاء لإصلاح العقاقير وتأليف الأدوية . وتقدّم ألّا يدخل أهل مِهْنة ولا صناعة فى غيرهم ، ومن قصّر فى عمله عوقب ، ومَن أحسن فى عمله جوزى بقدره . وكانت رتبة الألحان والملاهى فى قسمة الملك : وتقدّم فى آستنباط المعادن وبناء المدائن ونصب الأعلام والمنارات وإبداع الصناعات وجرّ المياه وتوليد غرائب

(١١٠/١٢ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢٠)

الأشجار . وأقام على أعالى الجبال سَحَرة يقسمون الرياح و يمنعون مَن يقصدهم و يقصد بلادهم بأذًى، وكذلك كلّ مفسد من طائر وسبع ووحش وهوامّ، وأجرى أمر البلاد والناس على سَداد، وجعل فى كلّ صِنف من الناس صِنفا من الكَهَنة يعلّمونهم الدين، ودينهم يومئذ الصابئة الأولى . و يرفع كلُّ صنف منهم ما يجرى من أمر ما يتولّونه الى الملك فى كلّ يوم . وعمل البيت ذا القِباب النوريّة الثلاث، وأوقد فيه النار الدائمة تعظيما للنور . والقبط تزعم أنه أوّل من وضع بيتا لتعظيم النار . وقيل: إن جَمْ الفارسىّ إنما بنى بيت النار - وهو أوّل من عمل ذلك للفُرس - اقتداءً بسهلوق مصر . وكان السبب فى عمل سهلوق بيت النار أنه رأى أباه فى نومه يقول له : انطلق الى جبل كذا من جبال مصر فإنّ فيه كُوّةً من صفتها كذا وكذا، و إنك واجد على باب الكوّة أفعىّ لها رأسان، و إنها اذا رأتك كشّت فى وجهك، فليكن معك طيران صغيران، فإذا رأيتَ الأفعى فاذبحهما لها وألقهما إليها، فإنه يأخذ كلُّ رأس من رأسيها أحدَ الطيرين وتتنحّى الى سَرَب قريب من الكوّة فتدخله، فإذا غابت عنك فادخل الكوّة فإنك تنتهى الى آخرها (١) الى صورة امرأة جميلة الخَلْق ، وهى من نور حارّ يابس، وسوف يقع عليك وَهَجها وتُحِسّ بحرارة شديدة، فلا تقرُب منها فتحترق، وقِف وسلّم عليها فإنها تخاطبك فاسكن الى خطابها، وانظر ماتقوله لك فاعمل به، فإنك تشرُف بذلك . وهى حافظة كنوز جدّك مِصرام التى رفعها الى مدائن العجائب المعلّقة وهى تدلّك عليها . وتنال مع ذلك شرفا فى بلدك وطاعة فى قومك، ثم مضى وتركه . فلمّا انتبه سهلوق جعل يفكّر فيما رأى و يتعجّب منه، ورأى أن ينفّذ ما أخبره به أبوه، فمضى الى الجبل وحمل الطيرين معه وفعل جميع ما أمره أبوه الى أن وقف حذاء المرأة وسلّم عليها، فقالت له : أتعرفنى؟ قال : لا، لأنّى ما رأيتك قبل وقتى هذا .

(١) كذا فى الأصلين، ولعله : « فى آخرها » .

قالت : أنا صورة النار المعبودة فى الأمم الخالية، وقد أردتُ أن تُحيى ذكرى وتتّخذ لى بيتا وتُوقد فيه نارا دائمة بقدر واحد، وتتّخذ لها عيدا فى كل سنة تحضره أنت وقومك فإنك تتّخذ بذلك عنـدى يدًا وتنال به شرفا وملكا الى مُلْكك ، وأمنع عنك وعن بلدك من يطلبك ويعمل الحيلة عليك ، وأدلّك على كنوز جدّك مصرام . فلمّا سمع ذلك منها ضمِن لها أن يفعل، ودلّته على الكنوز التى كانت لجدّه تحت المدائن المعلّقة، ٥ وكيف يصير إليها ويمتنع من الأرواح الموكّلة بها وما يبخّرها به . فلمّا فرغ من ذلك قال لها : كيف لى بأن أراك فى الأوقات وأسألك عمّا أريده ، أأصير اليك فى هذا المكان أو غيره؟ قالت : أمّا هذا المكان فلا تقدر بعد وقتك هذا عليه؛ لأنّ الأفعى التى رأيتَها فيه قيِّمتُه لأنّ فيه آيةً تمنع أن يوقف عليها فى وقتنا هذا، ولكن إن أحببتَ أن ترانى فدخِّن فى البيت الذى تعمله لى بكذا وكذا : أشياءَ ذكرتْها له ، منها : عظام ١٠ ما يقرّبه له من القرابين والذبائح والصُّموغ، فإنى أتخيّل لك وأخبرك بكل حقّ وباطل مما يكون فى بلدك . فلمّا سمع ذلك منها سُرّ به وغابت عنه، وظهرت الأفعى.وخرج هاربا وجعـل على الكُوّة سَدّا، وعمل ما أمرتْه به وأخرج كنوز جدّه .

وعمل من العجائب بأمسوس وغيرها ما يطول شرحه . وعمل القبّة المركّبة على سبعة أركان، ولها سبعة أبواب، على كل باب صورةٌ معمولة، وكان يقال لها قبّة القصر . ١٥ وكان السبب فى بنائها أنّ بعض الكهّان جار فى قضيّة قضى بها، وذلك أن بعض العامّة أتاه يشكو آمرأته ــ وكان يحبّها والمرأة تُبغضه ــ وسأله أن يقوّمها له ، وكانت المرأة من أهل بيت الكاهن، فالأها على زوجها، وأمره بتخليتها فلم يفعل، فحبسه وشدّد عليه، وكان من أهل الصناعات، فاجتمع جماعة من أهل صَنعته ممّن كان قد عرف حال المرأة معه وأنها له ظالمةٌ وهو لها منصفٌ، فوقفوا على ظلم الكاهن فآستعدَوْا عليـه ٢٠ عند خليفة الملك . فأحضر الكاهن وسأله ، فذكر أنه لم يحكم إلّا بواجب . فأحضر

١١١/١٢

رؤساء الكهنة والقومَ الذين شهدوا للرجل، فوقف على ظلم الكاهن فأخرج الرجل وحبس الكاهن مكانه، وأمر بعقوبة المرأة وردّها إلى زوجها ورفع ذلك إلى الملك، فأمر بإخراج الكاهن من رسم الكهانة، وأن يُعاقَب ويحبس إلى أن يرى فيه رأيَه. واهتمّ الملك لذلك وخشي أن يجرىَ من غير ذلك الكاهن فى أمر الرعيّة مثلُ ماجرى منه، فبات مهموما. ثم فكّر فى أمر النار، فأَتى إلى بيت النار ودخّن بالدُّخْنة التى أمرته بها، فأتته وخاطبته. فسألها أن تعمل له عملا يقف به على حقيقة أمر المظلوم من الظالم، فأمرته أن يعمل بيتا مربّعا على سبعة أركان ويجعلَ له سبعة أبواب فى كل ركن باب، ويعمل فى وسطه قبّة من صُفْر، ويصوّرَ عليها صور الكواكب السبعة، ويعمل تحت القبّـة مَطْهَرة من جوهر ملوّن، ويجعل فيها سبعة أدهان من أشجار مختلفة، وتكون القبّة معلّقة على سبعة أساطين، ويُعمل على الباب الأوّل تمثال أسد رابض، وحذاءه من الجانب الآخر لبؤة رابضـةٌ من صُفْر ويقرّب لها جرو أسـد ويبخّرهما بشـعره. وعلى الباب الثـانى صورةُ ثور وبقرة ويذبح لها عجلا ويبخرهما بشعره. وعلى الباب الثالث صورة خنزير وحذاءه خنزيرة ويذبح لها خِنَّوصا[1] ويبخرهما بشعره. وعلى الباب الرابع صورة فرس وحِجْر[2] ويذبح لها مهرا ويبخرهما بشـعره. وعلى الباب الخـامس صورة ثعلب وحذاءه أُنثاه ويذبح لها جرو ثعلب ويبخّرهمـا بوَبَره. وعلى البـاب السادس صورة حمـار وحذاءه أتان ويذبح لها عيرا ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب السابع صورة ديك وحذاءه دَجاجة ويذبح لها فَرُّوجا ويبخّرهما بريشه. ويلطخ وجوهها جميعا بدم مايذبح. ثم يُحْرَق بقيّة القُرْبان ويُجْعَل تحت عَتَب أبوابها وتُغلَّق الأبواب، ويُقام للبيت سَدَنة يُوقدونه ليلَه ونهاره. فإذا فرغ ذلك[3]

---

(١) الخنّوص: ولد الخنزير. (٢) الحِجر (بالكسر): الأنثى من الخيل.

(٣) كذا فى الأصلين، ولعله: «فإذا فرغت من ذلك فتكلم ... الخ».

يتكلّم على باب الكواكب السبعة ، فإنى سوف ألقى روحانيّـة الكواكب على تلك الصور فتنطق . وإذا فرغت من ذلك فآجعل لكل مرتبة من المراتب التى قسمتها بابا من تلك الأبواب ، وليكن باب الأسـد لأهل بيت المملكة ، وسائر الأبواب لسائر المراتب . فإذا تقدّم الخصمان إلى شيء من تلك الصور آلتصقت بالظالم وشدّت عليه شدّا عنيفا يُؤلمه حتى يخرج لخصمه من حقه، الذكر للذكر، والأنثى للأنثى ، فيُعرف بذلك المظلوم من الظالم، ومن كان له قِبَلَ أحد حقّ ودعاه الى تلك الصور فلم يجئ معه فأتاه المظلوم،وقد عرّف الصورة ذلك ، أُقعد الظالم من رجليه وخَرِس لسانه ولم يتحرك . فآستراح الملك الى تلك الصورة . ولم تزل على ذلك حتى أزالها الطوفان مع ما أزال من أعمالهم وطِلّسماتهم وعجائبهم . وعُملت فى أيام سهلوق أعمال كثيرة ،وكُتبت سيرته وما عمل من العجائب فى مصحف . وعمل عقاقير كثيرة وتماثيل ومحرّكات وصَنْعة، وأمر أن يُحمل ذلك كلّه إلى ناووس عمله لنفسه فى الجبل الغربىّ ونقل اليه حِكَمه . وهلك بعد أن ملك تسعا وستين سنة وحمل إلى ناووسه، وأقام أهل المملكة ووجوه المدينة ونساؤهم عند ناووسه شهرا يبكون عليه ويتوجّعون عنده، وآغتمّوا عليه غمّا لم يغتمّوه على ملك قبله ، وأقاموا لناووسه سَدَنة يخدمونه .

وملك بعده آبنـه سُوريد بن سُهلوق ،وكان أبوه قد قلّده الملك قبل مَهْلِكه، فملك وآقتفى سيرة أبيه فى العمارة ومصالح البلد والإنصاف بين الناس والأخذ لهم من نفسه وأهل بيته ،وعمل الهياكل وبنى المنارات ، ونصب الأعلام والطِّلّسمات فأحبّه الناس . وبنى بالصعيد ثلاث مدائنَ وعمل فيهـا عجائب كثيرة . وهو أوّل من جبى الخراج بمصر، وألزم أهل الصناعات على أقدارهم ،وأوّل من أمر بالإنفاق على الزَّمْنَى والمرضَى من خزائنه . وعمل مرآة من أخلاط كان ينظر منها جميع الأقاليم ما أخصب منها وما أجدب وما حدث فيها ،وكانت المرآة على منارة من النحاس وسط مدينة أمسوس ،

وكان يعلم من المرآة مَن يقصد مدينته من جميع النواحى فيتأهّب له . وهو أوّل من عمل صحيفة فى كلّ يوم يكتب فيها جميع ما يكون فى يومه وما يعمله و يُرفَع اليه، ثم يُخلد فى خزانته يوما بيوم . و إذا مضى الشهر نُقلت إلى مصحف الملك وختمه بخاتَمه، وما صلح أن يُزبَر على الحجارة زَبَره : وكذلك ما عُمل من الصنائع وما أحدث منها . وكان يُعطى الرغائب على الصِّناعات العجيبة والحِكَم الغريبة . وعمل فى المدائن صورة آمرأة جالسة فى حِجرها صورة صبىّ كأنها تُرضعه ، فمن أصابتها عِلّة بجسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك الصورة فيزول عنها ما تجد، وكذلك إن قلّ لبنها مسحت ثديها، وإن أحبّت أن يعطف عليها زوجها مسحت وجهها بدهن طيِّب وقالت افعل كذا وكذا ، وإن قلّت حيضتها مسحت فوق رَكَبها ، وإن كثر دمها ونزفت مسحت تحت رَكَبها، وإن أصاب ولدها شىء فعلت مثل ذلك بالصبىّ فيبرأ ، وإن عزّت[1] ولادتها ومَسحت رأس الصبىّ سهلت ويسهل افتضاضها ، وإذا بخّرته ومسحته بدهن طيِّب منع جميع التوابع . وإذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تكفّ عن زناها . وما كان من أعمال الليل بُخّرت ليلا ، وما كان من أعمال النهار بُخّرت نهارا . وكانت تعمل أعمالا كثيرة إلى أن أزالها الطوفان . قال : وفى بعض كتب القِبط أنها وجدت بعد الطوفان وأنهم استعملوها وعبدوها. وصورتها مصوّرة فى جميع البرابى ، وآسمها نبسلوية ، والذى دلّهم عليها قرابة فليمون[2] الكاهن . قال : وعمل سوريد عجائب كثيرة، منها الصنم الذى يقال له نكرس[3] المعمول من عدّة أخلاط كان يعمل أعمالا كثيرة فى الطبّ ودفع الأسقام

(١) عبارة المقريزى (ج ٣ ص ٢١ طبعة فييت) : «وإن عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبىّ الذى فى حجر الصورة فتضع حملها» .

(٢) فى المقريزى (طبعة فييت) : «فيلمون» وفى معجم البلدان و بعض نسخ المقريزى : «قليمون» بالقاف . (٣) فى ب « تكرس » بالتاء .

والعِلل، ويعرِفون به من تُبْرِئه الأَدوية فيعيش، وإن كان يمـوت فله علامات فيُقْصِرون عن علاجه، وكانوا يغسلون المواضع التى بإزاء أعضاء العلّل منه ويُسقَى لصاحب الداء فيزول عنه . وهو أوّل من عمل الأفروثنات[(١)] وزبر فيها جميع العلوم . وهو الذى بنى الهرمين الكبيرين .

ذكر خبر بناء الأهرام وسبب بنائها وشىء من عجائبها

قال: كان بناء الأهرام قبل الطوفان بنحو ثلاثمائة سنة . وقد ذكرنا فيما سلف من كتابنا هذا نبذة من خبر الأهرام فى الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل[(٢)]؛ وذلك فى السِّفر الأوّل من هذه النسخة . ونحن الآن نذكر من خبرها خلاف ماقدّمناه مما أورده إبراهيم بن القاسم الكاتب مما اختصره من كتاب العجائب الكبير لإبراهيم بن وَصِيف شاه . قال: كان سبب بنائها أن الملك سُوريد رأى رؤيا أفزعته؛ رأى كأنّ الأرض انقلبت بأهلها، وكأنّ الناس يخِرّون على رءوسهم، وكأنّ الكواكب تتساقط ويصدِم بعضها بعضا بأصوات هائلة مفزعة، فغمّه ذلك ولم يذكره لأحد، وعلم أنه سيحدُث فى العالَم أمر عظيم . ثم رأى بعد ذلك [بأيام][(٢)] كأنّ الكواكب الثابتة [نزلت الى الأرض][(٣)] فى صوَر طيور تنصبّ[(٤)]، وكأنها تختطّف الناس وتُلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأنّ الجبلين انطبقا عليهم، وكأنّ الكواكب النيِّرة مظلمة كاسفة، فانتبه أيضا مذعورا فزعا، فدخل الى هيكل الشمس وجعل يمرِّغ خدّيه ويبكى . ولمّا أصبح أمر

(١) الأفـروثنات: لفظ يونانى معناه القبور . وفى معجم البلدان لياقوت (ج ٤ ص ٦٩٣ طبع أوربا): «الأفرونيات» .

(٢) راجع (ج ١ ص ٣٨٨ من هذه الطبعة) .

(٣) التكملة من خطط المقريزى (ج ٢ ص ١١٣ طبعة فييت)

(٤) فى خطط المقريزى: «... طيور بيض» .

بجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر فآجتمعوا، وكانوا مائة وثلاثين، فخلا بهم وقصّ عليهم رؤياه، فأعظموه وأكبروه وأوّلوه على أمر عظيم يحدث فى العالم . فقال لهم فليمون — وكان من كبارهم وكان لا يبرح من حضرة الملك لأنه رأس كهنة أمسوس — : إنّ فى رؤيا الملك لعجبا وأمرا كبيرا، والملوك رؤياهم لا تجرى على فساد ولا كذب لعظم أخطارهم، وكبر أقدارهم . وأنا أخبر الملك عن رؤيا رأيتها منذ سنة لم أذكرها لأحد من الناس . فقال له الملك : قُصَّها علينا . قال : رأيت كأنى مع الملك على رأس المنار الذى فى أمسوس ، وكأنّ الفلك قد آنحطّ من موضعه حتى قارب سَمْت رءوسنا ، وكان علينا كالقبّة[1] المحيطة بنا ، وكأنّ [الملك قد رفع يديه نحو السماء وكواكبها][2] قد خالطتنا فى صور مختلفة، وكأن الناس يستغيثون بالملك وقد آنضمّوا الى قصره ، وكأنّ الملك رافع يديه ليدفع الفلك أن يبلغ رأسه ، وأمرنى أن أفعل فعله ونحن على وجل شديد ، إذ رأينا منه نورا مضيئا طلعت علينا منه الشمس، فكأنّا استغثنا بها، فخاطبتنا بأنّ الفلك سيعود الى موضعه اذا مَضَت ثلاثمائة دورة، وكأنّ الفلك لصق بالأرض ثم عاد الى موضعه، ثم آنتبهت فزعا . فعند ذلك قال لهم الملك : خذوا آرتفاع الكواكب فآنظروا هل من حادثة تحدث . فنظروا فأخبروه بأمر الطوفان وبعده بذكر النار [التى تخرج من بُرْج الأسَد تحرق العالم][3] ، فذكروا له أن ذلك يكون فى وقت عيّنوه له من مقارنات النجوم ونزولها فى الأبراج على ما حرّروه من الدقائق ، وشرحه إبراهيم فى كتابه مما لا فائدة لنا فى ذكره . قال : فلما تبيّن ذلك له أمر بقطع الأساطين العظام ونشر البلاط

---

(١) كذا فى المقريزى (ج ٢ ص ١١٤ طبعة فييت) وفى الأصلين : «كالمكية» .

(٢) التكملة من خطط المقريزى . وفى الأصول : «وكأن كواكبه» .

(٣) الزيادة من خطط المقريزى .

الكبير المصفّح، واستخراج الرصاص من أرض المغرب ، وإحضار الصخور السود التى جعلها أساسا من ناحية أسوان ، وكانت تُحمَل على أطواف[١] . وقيل : كانت لهم فراقل من خوص لها عَذَبٌ وعليها كتابة منقوشة، فكانوا إذا ضربوا بها الحجارة عَدَتْ على وجه الأرض وحدها مقدار رمية سهم حتى وضعت الأساساتُ . وأمر أن يُزبَر على البلاط المنشور المهندم جميعُ علومهم . ثم بنى الأهرام الثلاثة الأُوَل : الشرقىّ، والغربىّ، والملوّن، فكانوا يجعلون فى وسط البلاطة قلب حديد قائما ويركّبون عليه بلاطة أخرى مثقوبة الوسط،ثم يُدْخَل ذلك القلب الحديد فى ثقب البلاطة التى تُطبَق عليه، ويذاب الرّصاص ويُصبّ حول البلاطة بعد أن تؤلّف الكتابة التى عليها . وجعل أبوابها من تحت الأرض بأربعين ذراعا فى آزاج[٢] مبنيّة بالحجارة فى الأرض، طول كل أزج مائة وخمسون ذراعا . قال : فأما باب الهرم الشرقىّ فإنه من الناحية الجنوبيّة[٣] على قياس مائة ذراع من وسط حائطٌ الهرم الى الناحية الجنوبيّة، ويحفر حتى ينزل الى باب الأزج ثم يدخل اليه منه . وأما باب الهرم الغربىّ فمن الناحية الغربيّة يُقاس أيضا من وسط الحائط الغربىّ الى الغرب مائة ذراع، ويحفر حتى ينزل الى باب الأزج المبنىّ ويدخل منه اليه . وأما باب الهرم الملوّن فمن الناحية البحرية[٤] يقاس أيضا من وسط الحائط البحرىّ مائة ذراع ، ويحفر حتى ينزل الى باب الأزج . وجعل طول كل واحد منها أربعمائة

---

(١) الطوف : خشب يشد بعضه الى بعض ويركب عليه فى الماء .

(٢) الأزج بالتحريك : بيت يبنى طولا ، ويقال له بالفارسية : « أوستان » وانظر الكلام عليه فى شرح القاموس واللسان والصحاح والمصباح وكتاب الألفاظ الفارسية المعربة لأدّى شير .

(٣) فى معجم البلدان لياقوت (ج ٤ ص ٩٦٤) : « الناحية البحرية » . وفى خطط المقريزى : « الناحية الشرقية » .

(٤) فى معجم البلدان لياقوت : « الناحية القبلية » . وفى خطط المقريزى : « الناحية الجنوبية » .

ذراع بالمَلِكى، يكون خمسمائة بذراعنا . وجعل تربيع كل واحد أربعمائة ذراع . وبناها فى الأستواء الى أربعين ذراعا ثم هرّمها[1] . وكان أوّل بنائهم لها فى أوقات السعادة، فلمّا فرغ منها كساها ديباجا مُلوّنا من أعلاها الى أسفلها، وعمل لها عيدا عظيما لم يبق فى المملكة أحد إلّا حضَره . ثم أمر بعمل[2] ثلاثين جزنا من حجارة الصوّان ملوّنة بجعلت فى الهرم الغربىّ، ونقل اليها من الكنوز والأموال والجواهر المعدنيّة، والجواهر المسبوكة الملوّنة، والآلات الزَّبَرْجَد، والتماثيل المعمولة، والطِّلَّسمات، والحديد الفاخر، والسلاح الذى لا يصدأ ، والزجاج الذى ينطوى[3] ولا ينكسر ، والنواميس والمولّدات والدُّخَن وأصناف العقاقير والمفردات والمؤلّفات والسموم وغير ذلك شيئا كثيرا لا يدرك وصفه . ونقل الى الآخر وهو الشرقىّ أصنام الكواكب والقباب الفلكيّة ، وما عمل أجداده من التماثيل والدُّخَن التى يتقرّب بها لها ومصاحفها، وما عمل لها من التواريخ والحوادث التى مضت ، والحوادث التى تحدث، والأوقات التى تحدث فيها ، ومن يلى مصر من الملوك الى آخر الزمان ، وكَون الكواكب الثابتة وما يحدث بكَوْنها وقتا وقتا، وجعل فيها المطاهر[4] التى فيها المياه المدبّرة والبودقات الدهنية وما أشبه هذه الأشياء . وجعل فى الهرم الآخر أجساد الكهنة فى توابيت من الصوّان الأسود ، وعند كل كاهن منهم مصحف فيه عجائب صناعته وسيرته وما عمل فى وقته . وكانوا سبع مراتب . فالمرتبة الأولى القاطرون ، وهم الذين يعبدون الكواكب السبعة لكل كوكب

(١) يلاحظ أن هذا الوصف ينطبق عما كان فى عصر المؤلف . وقد كشف العلم الحديث عن أشياء كثيرة تدل على عظمة بناء هذا الأثر الخالد .

(٢) عبارة المقريزى : « ثم عمل فى الهرم الغربى ثلاثين مخزنا من حجارة صوان ملون وملئت بالأموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة ... الخ » . (٣) كذا فى خطط المقريزى . «الذى لا يطوى» . (٤) كذا فى خطط المقريزى . وفى الأصلين « والمطاهر » .

سبع سنين ، ومعنى القاطرون جامع العلوم . والمرتبة الثانية لمن يعبد ستة من الكواكب وهم اللاحقون بالدرجة الأولى . ثم يسمّون صاحب الخمسة وما دونها كل واحد بآسم ، بجعل فى كل ناحية من الهرم مرتبة من هذه المراتب، فأجسادهم هناك وما عملوه من العجائب . وجعل فى الحيطان[(١)] من كل جانب مما يدور أصناما [تعمل[(٢)]] بأيديها جميع الصنائع على مراتبها وأقدارها ، وصفة كل صنعة وعلاجها وما يصلح لها، وكذلك أصحاب النواميس ومن عالج شيئا من الأشياء وجعل فيها أموال الكواكب التى أهديت إليها الكواكب وأموال الكهنة . وجعل لكل هرم منها خادما، فخازن[(٣)] الهرم الشرقى صنم من جزع أسود [مجزّع بأسود][(٣)] وأبيض له عينان مفتوحتان [براقتان، وهو[(٣)]] جالس على كرسى ، ومعه شبيه بالحربة ، إذا نظر إليه الناظر سمع من جهته صوتا كالرعد يكاد يفزع قلبه، فيهيم على وجهه ويُختلَس عقله ، ولا يكاد يفارق الهرم حتى يموت فيه . وجعل خازن الهرم الآخر من حجر الصوّان المجزّع ، معه شبيه بالحربة ، وعلى رأسه حيّة تطوّق[(٤)] بها ، من قَرُب منه وثبت عليه من ناحيته وتطوّقت فى عنقه فقتلته [ثم تعود إلى مكانها] . وجعل خازن الهرم الثالث صنما صغيرا من حجر البَهْتة[(٥)] على قاعدتيه، من نظر إليه آجتذبه إليه حتى يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت . فلمّا فرغ من ذلك حصنها[(٦)] بالأرواح وذبح لها

(١) كذا فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ١١٧ طبعة فييت) وفى الأصلين : «فى حيطان البربى مما يدور» .

(٢) الزيادة عن خطط المقريزى (ج ٢ ص ١١٧ طبعة فييت) .

(٣) فى خطط المقريزى كلمة "خادم" بدل "خازن" فى هذا المقام .

(٤) كذا فى خطط المقريزى . وفى الأصلين « مطوّقة » .

(٥) حجر البهتة ، ويقال له البهت والباهت ، يوجد فى المحيط الأطلنطى وكانت له شهرة فى أفريقية الغربية حيث يباع بثمن غال . وقد نسب اليه أهل الشرق خصائص عجيبة . (عن قاموس دوزى باختصار) .

(٦) كذا فى المقريزى . وفى الأصلين : «صمدها» .

الذبائح تمنع[1] عن نفسها [من أرادها] إلا من قرب إليها وعمل لها أعمال الوصول فإنه يصل إليها . قال : وذكر القبط أنه كُتِب عليها آسم الملك والوقت الذى بناها فيه ، ويقول : إنا بنيناها فى ستّ سنين[2] فقل لمن يأتى بعدنا يهدمها فى ستمائة سنة فإن الهدم أهون من البُنيان . وإنا كسوناها الدِّيباج الملون المذهب المرقوم بالذهب فقل لمن يأتى بعدنا يكسوها حصيرا . فنظروا فوجدوا أحدا لايقوم بهدمها وكسوتها لأنه لا يستطاع ذلك ولا يُقدَر عليه .

قال : وحُكى عن هذه الأهرام عجائب يطول الشرح بذكرها ، منها أن المأمون لمّا دخل إلى مصر أحبّ أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها ، فقيل له : إنك لا تقدر على ذلك . فقال : لا بدّ من فتح شىء منه[3] . فعولجت الثُّلمة المفتوحة منه فأنفق عليها مالا كثيرا لنار توقد وخلّ يُرشّ ومنجنيقات ترمى بها ، فوجد عرض الحائط قريبا من عشرين ذراعا . فلما آنتهوا الى داخل الهرم وجدوا خلف الحائط عند النقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب دنانير، وزن كل دينار أُوقية[4] من أواقينا ، وكان عددها ألف دينار ، فعجبوا من ذلك ولم يعرفوا ما معناه ، ثم أُتِى المأمون بالذهب والمطهرة فجعل يتعجّب من الذهب وحسنه وجودته وحمرته ، فقال : ارفعوا لى حساب ما أنفقتموه على هذه الثُّلمة ففعلوا ، فوجده بإزاء المال الذى أصابوه لا يزيد ولا ينقص . فعجب المأمون من معرفتهم على طول المُدَد بأنهم سيفتحونه من ذلك الموضع بعينه ، ومعرفتهم بمقدار ما يُنفَق عليه وتركهم مقداره

(١) فى الأصلين : «فتمنع» والتصويب من خطط المقريزى .

(٢) فى الأصلين : « فى ستة أشهر » .

(٣) وكان ذلك فى سنة ست عشرة ومائتين كما فى صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢٥ .

(٤) بهامش نسخة ب ما نصه : « الأوقية هى سبعة مثاقيل زنتها أربعون درهما فيما مضى . وأوقية الأطباء عشرة دراهم وخمسة أسباع درهم وهو أستار وثلثا أستار، وأوقية بزر القز إثنا عشر درهما » .

فى موضعه، فقال : كان هؤلاء القوم من العلوم بمنزلة لا ندركها نحن ولا أمثالنا .
وقيل : إن المطهرة التى وجد فيها الذهب كانت من زبرجد، فأمر المأمون بحملها
إلى خزانته، وكانت أحد ما حمل من عجائب مصر .

ومن عجائب أخبارها أن المأمون لما فتح الهرم أقام الناس سنين يقصدونه
ويدخلون فيه وينزلون الزلاقة التى فيه، فمنهم من يسلم ومنهم من يهلك . ٥
وأن جماعة من الأحداث اهتموا، وكانوا عشرين رجلا، على أن يدخلوا الهرم
ولا يبرحوا منه حتى يقفوا على منتهى أمره، فأخذوا معهم من الطعام والشراب
ما يكفيهم لشهرين، وأخذوا السكك والحبال والشمع والوقيد والفئوس والقفاف
ودخلوا الهرم، ونزل أكثرهم فى الزلاقة الأولى والثانية، ومضوا فى أرض الهرم فرأوا
فيه خفافيش بقدر العقبان تضرب وجوههم، فانتهوا إلى لصب[1] فى حائط تخرج ١٠
منه ريح باردة لا تفتر، فذهبوا ليدخلوا فانطفأت سرجهم، فجعلوها فى زجاج وذهبوا
ليدخلوا فكاد اللصب ينطبق عليهم فهابوه فقال أحدهم : اربطوا وسطى بحبل وأنا
أدخل، فإذا كاد اللصب ينطبق فجروني إليكم؛ وكان على باب اللصب أجرنة[2] فارغة
فعلموا أن أجساد موتاهم داخل ذلك اللصب، فربطوه بالحبل، فلما تقحم[3] اللصب
انطبق عليه بجزء أصحابه فلم يقدروا على نزعه وسمعوا عظامه تتكسر، وسمعوا صيحة ١٥
هائلة فسقطوا على وجوههم لا يعقلون . فلما أفاقوا طلبوا الخروج فأخرجهم
أصحابهم بشدة، وسقط بعضهم فى وقت صعودهم من الزلاقة فنزل، وخرجوا من
الهرم فجلسوا فى سفحه متعجبين، فإنهم كذلك إذ أخرجت لهم الأرض صاحبهم

١١٥/١٢

(١) اللصب (بالكسر) : الشعب الصغير فى الجبل .
(٢) أجرنة : الأجرنة جمع جرن بالضم وهو حجر منقور للماء . ٢٠
(٣) تقحم اللصب : دخل فيه .

يتكلّم بكلام كاهنىّ فسّره لهم بعض أصحاب الديارات بالصعيد: هذا جزاء من يطلب ما ليس له؛ ثم سقط ميّتا، فحملوه وفُطِن بهم فأُخذوا وأُتِىَ بهم إلى الوالى فحدّثوه بالخبر.

وفى خبر آخر: أنّ قوما دخلوا الهرم وآنتهوا إلى أسفله وطوّفوه فعَرض لهم مثلُ الطريق فساروا فيه فوجدوا قبّة تحتها كالمطهرة يقطُر فيها ماءٌ فينِشّ[1] ثم يَغيض[2] ولم يدرُوا ما هو، ووجَدوا موضعا كالمجلس المربّع حيطانه كلّها بحجارة مُلوّنة عجيبة، فقلَع أحدهم منها حجرا وجعله فى كمّه فآنسدّت أذناه من الريح، ولم تزل تَصِر[3] وهو معه، ووجدوا مكانا كالفوّارة العظيمة فيها ذهبٌ مضروبٌ كثير يكون الدينار منه زهاءَ مائة مثقال، فأخذوا منه شيئا فلم يستطيعوا أن يمشُوا ولم يتحرّكوا حتى تركوه من بين أيديهم. ووجدوا فى مكان آخر كالصُّفّة فيها شيخٌ من حنتمٍ[4] أخضرَ كأنه مشتمل بشَمْلة، و بين يديه تماثيلُ صِغار فى صُوَر الصِّبيان وكأنه يعلمهم، فأخذوا منه شيئا فلم يقدروا أن يتحرّكوا فردّوه، ومشَوْا أيضا فى ذلك الطريق فوجدوا بيتا مسدودا فيه دوىٌّ هائلٌ و زمزمةٌ فلم يتعرّضوا له، ومضَوْا فوجدوا كالمجلس المربّع فيه صورة ديك من جواهرَ معمولةٍ، قائم على أُسطوانة خضراءَ، وله عينان يُسرج منهما المجلس، فلما قربُوا منه صوّت بصوت مُفزِع وخفَق بجناحيه، فتركوه ومضَوا حتى بلغوا صنما من حجر أبيضَ فى صورة آمرأةٍ منكّسة على رأسها ومن جانبيها أسدان من حجارة كأنهما يريدان نهسها[5]، فجعلوا يتعوّذون و يقرءون إلى أن جاوزوها. قال: وقيل إنهم مشَوْا حتى لاح لهم نور فآتّبعوه فإذا بفُوّهة مفتوحة فخرجوا منها فإذا هم

(١) ينش: يأخذ مائه فى النضوب. (٢) يغيض: ينقص. (٣) تصر: تصوت صوتا شديدا. (٤) الحنتم: جرار خضر تضرب الى الحمرة.

(٥) نهسها: يقال نهسه الكلب والذئب والسبع بالسين المهملة، ونهشته الحية بالشين المعجمة.

فى صحراء، و إذا على باب تلك الفُوهة تمثالان من حجر أسوَد معهما كالمزراقين فعجبوا من ذلك . ووجدوا أجرنة منقورة وأسطوانات مخروطة ، فساروا منها بُعُدًا فأتهوا إلى ماء وجدوه فى نِقَارِ[1] حذاء تلك الفُوهــة، وأخذوا نحو المشرق فساروا يوما حتى وصلوا إلى الأهرام من خارج فأخبروا والى مصر بخبرهم ، فوجّه معهم مَن يدخل من تلك الفُوهة، فطافوا فلم يجدوها وأشكل عليهم أمرُها . و وجد الآخِذُ للحجر الحجرَ جوهرا نفيسا فباعه بمــال .

قال : وحُكى أنّ قوما فى زمن أحمــد بن طولون[2] دخلوا الهــرم فوجدوا فى طاق فى أحد بيوته أستاندانة زجاجا ثخينة فأخذوها وخرجوا ، ففقــدوا رجلا منهم فدخلوا فى طلبــه ، إذ خرج عليهم الرجل عُرْيانا يضحَك و يقول : لا تتعبوا فى طلبى، ورجع هاربا الى أن دخل، فعلموا أن الجنّ استهوته وشاع أمرُهم، فأخذوا الأستاندانة منهم ومُنع الناس من الدخول الى الهرم، ووُزنت الأستاندانة فكانت أربعــة أرطال زجاجا أبيضَ صافيا ، فأتنبه رجل من أهل المعرفة لهــا وقال : لم تُعمَل إلّا لشىء، وملأها ماء ووَزنهــا فوجد وزْنهــا وهى ملأى مثل وزْنها فارغة لا تزيد ولا تنقُص فكانت أُعجوبة .

وحُكى أن قوما دخلوا الهرم ومعهم مَن يريدون يعبثون به ، فلمّا همّوا بذلك خرج عليهم غلام أسـودُ أمردُ فى يده عصا فأخذ فى ضَرْبهــم ، فخرجوا هاربين وتركوا ما كان معهم من طعام وشراب و بعض ثيابهم .

وحُكى أن رجلا دخل بأمرأة ليفجُر بها فصُرعا جميعــا ولم يزالا مجنونَيْن مشهورَيْن حتى ماتا .

(١) نقار : النقار جمع نقرة بالضم ، الوهدة المستديرة فى الأرض غير كبيرة .

(٢) فى عقد الجمان للعينى : « طولون بضم الطاء اسم تركىّ معناه : البدر الكامل » .

قال : وفى بعض مصاحف القِبْط أن سُورِيد الملك لما أخبره كهَنَته بخبر النار المحرقة وأنها تخرُج من برج الأسَد فتحرق العالَم، عَمِل فى الأهرام مَسارِب موجّهة الى آزاج ضيّقة تجتلب الرياح الى داخل بصوت هائل . وعمِل فيها مَسارب يدخل منها ماء النيل الى مكان ينتهى الى موضع من أرض الغرب وأرض الصعيد، وملا تلك الأسراب عجائب وطلّسمات وأصناما تنطق .

قال : وحَكى بعض القِبْط أن سُوريد لمّا أخبره منجّموه قال : انظروا لبلدنا هذا هل تلحقه آفة ؟ فنظروا فقالوا : يلحقه طوفان ويلحقه خراب يُقيم فيه عدّة سنين وتغلب عليها التنانين . قال : كيف يكون خرابها ؟ قالوا : يقصدها ملك فيقتل أهلها ويَغْنَم مالها ويهدم مصانعَها . قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم تكون عمارتها من قبله . قال : ثم ماذا؟ قالوا : ثم يقصدها قوم مشوّهون من ناحية مصبّ النيل فيأتون على أكثرها . قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم ينقطع نيلها ويجلو أهلها عنها ؛ فأمر أن يكتب جميع ذلك على الأهرام .

قال : وذكر رجل من أهل الغرب ممن يختلف الى الواح ويحمل الشَّمار[1] على جمل له أنه بات فى بعض الليالى قُرب الهرم فما زال يسمع الضوضاء والعطعطة فهاله ذلك وتباعد عنه بجمله ، وكان يرى حول الهرم شِبْه النيران تأتلق، فلم يزل مرعوبا الى أن سرقته عيناه فنام وأصبح وهو فى الموضع الذى جمع منه الشَّمار وشَماره موضوع بحاله ، فتعجّب من ذلك وشدّ شَماره على جمله ورجع الى الفُسطاط وآلى على نفسه ألّا يقرُب من الهرم بعد ذلك .

(١) الشمار : هو الراز يانج تعريب راز يانه وهو الأنيسون، وأنواعه ثلاثة : بستانى و برى وشامى . وهو نبات بزره حرّيف مرّ .

قال: والقبط يذكرون أنّ روحانيّة الهرم الغربى فى صورة آمرأة عُرْيانة مكشوفة الفرج حسناء لهــا ذؤابتان ، فإذا أرادت أن تستفزّ الإنْسِىّ ضحكت اليه فاختلسته الى نفسها فيدنو منها فتستهويه ويزول عقله . قال : وقد رأى جماعة هــذه المرأة تدور حول الهرم وقت القائلة وعنــد غروب الشمس . وروحانيّة الهرم الشرقى غلام أمردُ أصفر عُريان له ذؤابة . قال : وقد رأوه أيضا يطوف حوله . وروحانيّة الهرم الملوّن فى صورة شيخ يرى عليه بُرْطُلّة [1] وفى يده مِجْمـرة من مجامر الكنائس وهو يبخّر كذلك فى جميع الأفروثنات [2] .

* * *

وأمّا روحانيّات البرابى: فبِرْبا إخميم [3] روحانيّتها غلام أسود عُرْيان . وروحانية بِرْبا قفـْـط [4] فى صورة جارية سوداء تحمـل صبيّا أسود صـغيرا . وروحانيــة بِرْبا دَنْدرة [5] فى صورة إنسان رأسه رأس أسَد وله قَرْنان . وروحانية بِربا بُوصير [6] فى صورة شيخ

(١) برطلة ، البرطلة (بضم البا، وفتح اللام وتشدّد) : المظلة الصيفية ، نبطية وقــد استعملت فى لفظ العرب .

(٢) راجع الحاشية رقم ٤ صفحة ٢٠ من هذا الجزء .

(٣) إخميم : من البلاد المصرية القديمة واقعة على الشاطىء الشرقى للنيل . وكانت إخميم فى عهد الفراعنة قاعدة قسم « خمينو » وفى عهد الرومان قاعدة قسم « بانوس » وفى عهد العرب قاعدة كورة الإخميمية ، واستمرت كذلك الى آخر حكم دولتى المماليك . وفى العهد العثمانى ألغيت الإخميمية وأضيفت بلادها الى ولاية جرجا وأصبحت إخميم إحدى بلاد مركز سوهاج . وفى سنة ١٩٠٣م صدر قرار من الداخلية بفصل البلاد الواقعة شرقى النيل من مركز سوهاج وجعلها مركزا باسم إخميم وهى قاعدة المركز من تلك السنة الى اليوم . (راجع النجوم الزاهرة الحاشية رقم ٢ ص ٣١٣ من الجزء الخامس طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) قفط : مدينة بالصعيد الأعلى ، اسمها القديم «قوبطى» ومنه اشتق اسم قبطى وأقباط المصريين . وهى وطن الوزير الصاحب جمال الدين القفطى الملقب بالقاضى الأكرم وزير حلب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

(٥) سيذكرها المؤلف فيما بعد أثناء كلامه على قفطريم بن قبطيم .

(٦) هى بوصير سمنود ، وكانت قاعدة شهيرة قبل الاسلام .

أبيض عليه زىّ الرهبان ومعه مصحف يحمله . وروحانية بربا سمنود (١) فى صورة شيخ آدم طوال أشيب صغير اللحية . وروحانيّة بربا عدىّ فى صورة راعٍ عليه كساء ومعه عصا . وهـذه البربا فى أعمال المرتاحيّة (٢) من عمل أشمون طنّاح (٣) بقرب تلبانة عدىّ (٤) .

قال : ولكلّ من هـذه الأهرام والبرابى قرابين وبخورات تظهر كنوزها وتؤلّف بين الناس والروحانيّين الذين بها .

(١) سمنود : مدينة شهيرة بالوجه البحرى بمصر ، واسمها الفرعونى تينوتير واليونانى سبنيطوس .

(٢) المرتاحية : هو اسم أحد الأقاليم المصرية بالوجه البحرى فى العهد العربى ، وكان يقال لها : كورة المرتاحيـة ثم الأعمال المرتاحية . وكان إقليم المرتاحية واقعا فى المنطقة التى تشمل اليوم بلاد مركزى المنصورة وأجا بمديرية الدقهلية ، وكان يجاوره من الجهة البحرية إقليم الدقهلية . وكان إقليم الدقهلية فى ذاك الوقت واقعا فى المنطقة ألتى تشمل اليوم بلاد مراكز فارسكور ودكرنس والمنزلة بمديرية الدقهلية . وفى زمن حكم دولتى المماليك جعـل هذان الإقليمان إقليما واحدا باسم إقليم الدقهليـة والمرتاحية . وفى عهد الحكم العثمانى اختصر باسم الدقهليـة ولم يزل يطلق لغاية اليوم على مديرية الدقهلية التى قاعدتها مدينـة المنصورة . (راجع النجوم الزاهرة الحاشية رقم ٣ ص ٣١٢ من الجزء الخامس طبع دار الكتب المصرية) .

(٣) أشمون طناح ، و يقال لها «أشموم طناح» : وهى من المدن المصرية القديمة واقعة على الشاطىء الشرق للبحر الصغير الذى كان يسمى بحر أشموم نسبة الى هذه المدينة ، وكان اسمها المصرى شمون أرمان ، والرومى بانيفوسوس ، وسماها العرب أشموم طناح نسبة الى كورة طناح التى كانت تقع أشموم فى دائرتها ، وتعرف اليوم باسم أشمون الرمان ، وهو اسمها القديم محرفا .

ولما تكلم عليها ابن دقاق فى كتاب الانتصار قال : « وتعـرف بأشموم طناح وأشمـوم الرمان ، وهى قصبة كورة الدقهلية ومدينة ذات حمامات وأسواق وجوامع وفنادق » وقد استمرت قاعدة لإقليم الدقهلية والمرتاحيـة الى آخر عهد المماليك . وفى أوائل الحكم العثمانى نقلت القاعدة الى مدينة المنصورة ومن ذاك الوقت اضمحلت أشمون الرمان وزال ما كان فيهـا من آثار المدنية والعمران ، وأصبحت اليوم قرية عادية من قرى مركز دكرنس بمديرية الدقهليـة . (راجع النجوم الزهرة الحاشـية رقم ٢ ص ٣٢٨ من الجزء السادس طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) تلبانة عدىّ : بلد بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية . وقـد ورد فى المشترك والتحفة السنية لابن الجيعان : أنها من أعمال الدقهلية والمرتاحية . وفى مساحة سنة ١٢٢٨ هـ وردت مختصرة باسمها الحالى .

*
* *

ولنرجع الى أخبار الملوك قال : وأقام سُورِيد فى الملك مائة سنة وسبع سنين، وقد كان منجّموه عرّفوه الوقت الذى يموت فيه واليوم والساعة، فأوصى الى آبنه هرجيبْ وعرّفه ما يعمل، وأمره أن يُدخل جسده الهرم ، وأن يجعله فى الجُرْن الذى أعدّه لنفسه ويغشّيه بكافور ، ويحمل معه ما أعدّه من فاخر الثياب والسلاح ٥ والآلات، فآمتثل جميع ما أمره به .

ولما مات ملك بعده آبنه هرْجيب[(١)] بن سُوريد فسار بسيرة أبيه فى العدل والعمارة والرأفة بالناس، فأحبّوه . وبنى الهرم الأوّل من أهرام دَهْشور وحمل اليه من المال والجوهر . وكان غرضه جَمْعَ المال وعَمل الكيمياء وآستخراج المعادن ودفن ما تهيّأ له من الكنوز فى كل سنة . وكانت له آبنة أفسدَت مع بعض خدمه ١٠ فنفاها الى ناحية الغرب، وأمر أن تُبنى لها مدينة هناك ويقام عليها علَم ويُزبَر عليها آسمها، وأسكن معها كل آمرأة مسنّة من أهل بيته . قال : وشجّ رجل رجلا فأمر بقطع أصابعه ، ووجد سارقا من العامّة فملّك رقّه الذى سرق منه، وعمل منارات ومصانع وطلّسمات ، وملكهم نيّفا وسبعين سنة .

وملك عليهم بعده آبنه منْقاوش بن هرجيب وكان جبّارا أثيما فآذى الناس ١٥ وسفَك الدماء وآغتصب النساء وآستخرج كنوز آبائه ، وبنى قصورا بالذهب والفضة [وأجرى][(٢)] فيها الأنهار ، وجعل حصباءها من صنوف الجواهر ، وتخرّق[(٣)] فى الهِبات وأغفل العمارات فأبغضه النـاس ، وأباح أصحابَه غَصْبَ نساء العامّة ، وأطاف به أهل الشرّ من كل ناحية ، وكان يَفْترِع النساء قبل أزواجهنّ، وآمتنع عليـه قوم

(١) فى خطط المقريزى : « هوجيت » . ٢٠
(٢) التكملة من خطط المقريزى . (٣) تخرّق فى الهبات : توسع فيها .

فى شىء أمرهم به فأحرقهم بالنار، وسلّط رجلا من الجبّارين ٱسمه قرناس(١) من ولد وراديس بن آدم على الناس ووجّهه لمحاربة الأمم الغربية فقتل منهم أمما. وكان أشجع أهل زمانه ثم هلك، فآغتمّ عليه الملك وأمر أن يدفن مع الملوك فى الهرم. ويقال: بل عمل له ناوُوسا وأقام عنده أعلاما وزبّر عليها ٱسمه وما عمله فى وقته. وملك منقاوش ثلاثا وسبعين سنة ومات، فجُعل فى الهرم مع أجداده فى حوض مرمر مصفّح بالذهب والجوهر، وحُمل معه كثير من ذخائره وأمواله وسلاحه وعجائبه.

وملك بعد ٱبنه أقروش(٢) بن منقاوش، وكان عاقلا نخالف آثار أبيه وعدل فى الناس وردّ النساء اللاتى غصبهنّ منقاوش الى أهلهنّ. وعمل فى وقته فوّارة قُطرها مائة ذراع وطُولها خمسون ذراعا، وركّب فى جميع جوانبها أطيارا تصفر بأصناف اللغات المطربة لاتفتُر. وعمل فى وسط المدينة منارتين من صُفر عليهما صورة رأس إنسان من صُفر كلّما مضت ساعةٌ من النهار صاح ذلك الرأس صياحا عاليا، وكذلك الليل، فيعلَم به دخول الساعات، وجعل فيه علامة لكلّ ساعة تمضى تُعرف بها عِدّتها. وعمل منارا آخر وجعل على رأسه قبّة صُفر مُذهَب ولَطخها بلُطوخات، فإذا غربت الشمس اشتعلت تلك القبّة نارا(٣) يُضىء بها أكثر المدينة لا تُطفئها الأمطارُ ولا الرّياح، فإذا كان النهار قلّ ضوءها بضوء الشمس. ويقال: إنه أهدى الدرمسيل [بن محويل](٤) الملك ببابِل مائدة من الزبرجد(٥) قُطرها خمسة أشبار، وكان استهداه ذلك ليجعلها فى بيت القُربان. ويقال إنها وُجدت بعد الطوفان. ويقال أيضا: إنه عمل على الجبل

---

(١) فى خطط المقريزى «قرماس» بالميم. (٢) فى خطط المقريزى: «أفراوس ابن مناوس». (٣) فى خطط المقريزى: «نورا». (٤) التكملة من خطط المقريزى. (٥) فى خطط المقريزى: «مدهنا».

الشرقيّ صنما عظيما قائمـا على قاعدة [وهو](١) مصبوغ بلَطوخ أصفر مصوّر بالذهب ووجّهه الى الشمس يدُور معها حتى تغرُب، ثم يدُور ليلا الى الناحية الجنوبيّة حتى يحاذى الشمس(٢) مع الصبح، فلم يزل الى أن سقط فى أيام فرغان(٣) الملك فتهشم. وكان نصبه تعظيما للشمس . ويقال : إن أقروش كان يطلب الولد فنكح ثلاثمائة آمرأة يبتغى الولد منهنّ فلم يكن ذلك . وقيل : إنّ فى عصره عَقَمت الأرحام لمـا أراد الله عزّ وجل من هَلاك العالَم بالطوفان، وعَقَمت أرحام البهائم ووقع الموت فيها . وقيل : إن الأُسْد كثُرت فى وقته حتى كانت تتخلّل البيوت، فآحتالوا لها بالطِّلّسمات المـانعة والحِيَل المضرّة لها، فكانت تغيب وقتا وتعود، فرفعوا ذلك الى الملك فقال: هـذه علامة مكروهة ، وأمر أن تُعمَل أخاديد وتُملأ ناراً وآجترُّوا إليهـا الأُسْد بالدُّخَن التى تجلب رُوحانيتها وألْقوها على تلك النِّيران، فآجتلبتها تلك الدخن فتهافتت فى تلك النيران فآحترقت . وبَنَى فى وقته مدائن فى ناحيـة الغرب تَلِفت بالطوفان مع أكثر مُدُنهم .

قال : وآرتفعت الأمطار عنهم وقلّ المـاء فى النيل فأجدبوا ، وهلك الزرع بالنار والريح الحـارّة وغيرها ، فأضرّ ذلك بهـم ، فآحتالوا لدفع النار بطِلّسماتهـم فكانت تذهب وتعود . وقيـل : إنّ الذى فعل بهـم ذلك ساحر من سَحَرتهم كان منقاوش غصبه آمرأته فكان يعمل الحيلة قليلا قليلا فى إفساد طِلّسماتهم؛ لأن لكل طلسم شىء تبطل به روحانيته . وبهذه العلّة دخل بختنصّر الفارسيّ مصر وقد كانت ممتنعة من جميع الملوك . فلمّا أفسد ذلك الساحر الطلّسمات، سلّط عليهم تلك الآفات وأفسد طلّسمات التماسيح فهاجت عليهم ومنعتهم المـاء وعذّبهم عذابا كبيرا الى أن

(١) التكملة من خطط المقريزى. (٢) فى خطط المقريزى : «حتى يحاذى المشرق مع الفجر» .
(٣) فى خطط المقريزى : « فرعان » بالعين المهملة .

فطنوا به من قِبَل تلاميذه، وذلك أن أحدهم لامه على فِعْله فسهره ونفخ فى وجهه فأظلم عليه بصرُه، فجاء الى وزير الملك وعرّفه القصّة فأنهاها الى الملك، فأمر الملك بإدخاله عليه فأُدخل، فسأله عن الخبر فعرّفه بفعل الساحر، فأنفذ اليه جيشا ليأتوه به، فلمّا نظر الساحر الى القوم وقد أقبلوا دخّن دُخْنـة أغشتْ أبصارَهم وارتفعت منها
٥ عَجاجةُ نارٍ أحرقَت وحالت بينه و بينهم، فهالهم ذلك، فرجعوا الى الملك وعرّفوه ما جرى فأمر بجمع السحَرة، وكان من رَسْم السحَرة أن يعاهـدوا ملوكهم على أن يكونوا معهم ولا يخالفونهم ولا ينالهم منهم مكروه ولا يبغُونهم الغوائلَ، فمن فعل ذلك سُلِب علمُه، وكان للملك أن يسفِك دمَه ودمَ أهل بيتـه وولده، وكانوا مع الملوك على هذه الحال يُوفُون بعهودهم. فلمّا اجتمع السحَرة عند الملك أخبرهم خبر الساحر،
١٠ وكان يقال له: أخْتاليس، و بما عمِله وقال: تُحضرونه إلىّ و إلّا أهلكتكم؛ فسألوه النَّظِرَة[1] فأنظرَهم، فأخذوا أولادهم ونساءهم وخرجوا هاربين، فلمّـا خرجوا عنـه تكلّموا بينهـم وقالوا: إنكم لتعرفون كثرة عِلْم أختاليس وشدّةَ سِحْره، وما نرى لنا به طاقةً، ومنقاوش الملك الذى نقَض عهده وتعدّى عليه وأخذ آمرأته غَصْبا، فآحتالوا لخلاصكم منه؛ فأجمعوا أنهم يَصدُقون الملك عن أنفسهم، و يستأذنونه فى الذهاب
١٥ اليه ومداراته حتى يأتُوه به بعد أن يأخذوا له أمانا منه ويجدّد العهد بينه و بينه. فمَضَوْا الى الملك وصدَقوه عن أنفسهم، فأجابهم الى ما سألوه من ذلك، ثم مضَوْا الى أختاليس فلطَفُوا به ووعَظُوه الى أنِ أجابهـم الى ما أرادوا، فكتبوا الى الملك بذلك، فكتب للساحر أمانا وعهدا، فرجع ورُدّت اليه آمرأته، فأكرمها وردّها الى دار الملك، وعرّفهم أنه لا يرى فى ذمّته أن يلابس آمرأة لابَسها الملك على حال من
٢٠ الأحوال لمـا كانوا يراعونه من حقوق الملك، فسُرّ الناس بذلك وعجبوا من عقله

(١) النظرة: التأخير والإمهال فى الأمر.

١١٨ / ١٢

وحكمته ، وصَلُح أمر النـاس ، وعمل أختاليس طِلَّسمات وعجائب كثيرة . قال :
وملَكَهم أقروش أربعا وستين سنة ، وهلك وليس له ولد ولا أخ ، فدُفن فى الهرم
وجُعلت معـه أمواله وذخائره وجواهره والصنائع التى عُملت فى وقتـه ، وآجتمع
الناس على تمليك رجل من أهل بيت الملك .

فملّكوا عليهم أرمالينوس ، فلمّا ملك أمر بجمع الناس وقال : أرى الأمم الغربية
قد تطرّقت إليكم فى نواحيكم ، و يُوشك أن تسير إليكم ، وأنا مانع لبلادكم ودمائكم منهم
بغزوهم والخروج إليهـم وتحويلكم إياهم ، وأحتاج الى معونة من حكمائكم بالأعمال
الهائلة والتخاييل العجيبة ، فشكروه ودعَوْا له بالتوفيق . وقالت الحكماء : نحن نخرج
مع الملك إذا خرج ونبلغ له محابه أو يقيم ونحن نخرُج مع الجيش مكانه ونبـذُل
أنفسنا دُونه . فآمتنع من ذلك وخرج فى جيش عظيم وحارب تلك الأمم ونكأ[1] فيها
أعظم نكاية ، ورجع غانما وخلّف فى وجوههم جيشا ، فآجتمعت تلك الأمم فهزمت
جيشه ورجع أصحابه مغلوبين فعظُم ذلك عليه . وكانت أصابته علّة من تغـيّر الهواء
فأنفـذ ابن عمّ له يقال له فِرْعان بن مِسْوَر ، وكان أحد الجبابرة الذين لا يطاقون ،
وهو أوّل فرعون تسمّى بهذا الآسم ومن سُمّى بعـده سُمّى تشبيها به[2] ؛ فأنفـذه الملك
أرمالينوس فى جيش عظيم فأجلى تلك الأمم ونفاها الى أطراف البحر ، وعاد ومعه
خلق كثير من الأسرى والرءوس ، فأمر الملك بنصب تلك الرءوس حول مدينته وقتل
جميع الأسرى . وكان منهم كاهن فأمر الملك أن يُوشَر[3] بمنشار ، وهو أوّل من فعل

(١) نكأ : قتل فيهم وجرح وأثخن .

(٢) وكذا ورد فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١٢) أنه أوّل من لقب بلقب الفراعنة .

(٣) يوشر ، يقال : وشر الخشبة بالمنشار إذا نشرها .

ذلك، فأعلم[1] الملكُ فرعانَ وألبسه خِلَعًا منظومةً بالجوهر، وأمر بأن يطاف به ويذكَر فضلُه، وأمر له ببعض قصوره .

وآتفق أن آمرأة من نساء الملك عشقته و راسلته فآمتنع فرْعان من ذلك وفاءً للملك، ولأنّ التحظّى الى نساء الملوك كان من الأمور العظيمة عندهم . فلمّا طال ذلك عليها أحضَرتْ ساحرةً ولاطفَتْها وذكرت لها حالها ووجْدَها بفرْعان، فضمِنت لها بلوغ مأربها منه وسَحرتْه لها ، فآهتاج اليها وندم على ردّها وجعل يدسّ اليها الى أن آجتمعت معه، وتمكّن حبّ كلّ واحد منهما من صاحبه، الى أن ذاكرتْه أمرَ الملك وأنها لا تأمن أن يتّصل به خبرهما وقالت : أنا أعمل الحيلةَ فى قتله وتكون أنت الملكَ وأكون لك ونأمن على أنفسنا . فمن شدّة ما عنده من حبّها حسّن لها ذلك، فسمّت الملكَ فى شرابه فمات لوقته وحُمل الى الهرم .

وملك بعده فِرْعان بن مِسْوَر وجلس على سرير المُلْك فلم ينازعه أحد، وفرح الناس بمكانته لشجاعته . وهو الذى كان الطوفان فى وقته . قال : ولمّا ملك علا فى الأرض وتجبّر وآغتصب الناسَ أموالَهم وأنفسَهم ونساءهم، وعمل مالم يعمله ملكٌ قبلَه ؛ وأسرف فى القتل وهابته الملوك وأقرّوا له . وهو الذى كتب الى الدرمسيل ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام . وذلك أن الدرمسيل بن مَحْويل كتب الى الأقاليم يسألهم : هل يعرفون آلهة غير الأصنام ؟ ويذكر قصّة نوح وأنه يريد تغيير ذلك، وأن له إلٰها غيرها، فكلٌّ أنكر ذلك . ولمّا أخذ نوح فى بناء السفينة كتب فرعان الى الدرمسيل يشير عليه بإحراقها ، وكان عند أهل مصر خبر الطوفان ولكنهم لم يُقدِروا كثرتَه وطولَ مقامه على الأرض ، فآتّخذوا السراديب تحت الأرض

(١) أعلمه : وسمه بسيماء الحرب .

١١٠ / ١٢ وصفّحوها بالزجاج وحبسوا فيها الرياح بتدبيرهم ، واتخذ فرعان منها عدّة له ولأهل بيته . وكان فرعان قد أقصى الكهّان و باعدهم ، وكانوا مع الملوك على خلاف ذلك . ولنصل هذا الخبر بخبر الكُهّان وما كانوا عليه .

ذكر خبر كُهّان مصر وحالهم مع الملوك

قال : وكُهّان مصر أعظم الكهان علما ، وأجلّهم فى الكهانة حديثا . وكان حكماء ٥ اليونان يصفونهم بذلك ، و يشهدون لهم به و يقولون : أخبرنا حكماء مصر بذلك فاستفدناه منهم . وكانوا يَنْحُون فى كهانتهم نحو الكواكب ، و يزعمون أنها هى التى تُفيض عليهم العلوم وتُخبرهم بالغيوب ، وهى التى علّمتهم أسرار الطبائع ، ودلّتهم على العلوم المكنونة ؛ فعملوا الطلّسمات المشهورة ، والنواميس الجليلة ، وولّدوا الولادات الناطقة ، والصوَر المتحرّكة ، وبنَوْا العالىَ من البنيان ، وزَبَروا علومهم ١٠ فى الصلب من الصّوّان ، وانفردوا بعمل البرابى ، ومنعوا بها الأعداء من بلدهم ، وعجائبهم ظاهرة . وكان الذى يتعبّد منهم الكواكب السبعة المدبّرة ، لكلّ كوكب سبع سنين ، فإذا بلغ هذه الرتبة سُمّى قاطِرا[1] ، وكان يجلس مع الملك فى المرتبة و يصدُر الملك عن رأيه ، و إذا رآه قام له .

وكان من رَسْمهم فى كل يوم أن يدخل القاطر إلى الملك فيجلس إلى جانبه ، ١٥ و يدخل الكهنة ومعهم أصحاب الصناعات فيقفوا حذاء القاطر ، وكلّ واحد من الكهنة منفردٌ بكوكب يخدمه لا يتعدّاه إلى سِواه ، ويُسمّى عبدَ كوكبِ كذا ، كما كانت العرب تُسمّى عبد شمس ، فيقول القاطر للكاهن : أين صاحبك؟ فيقول :

---

(١) القاطر : معناه جامع العلوم ، وهو الذى يعبد الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين ، كما ذكره المؤلف أيضا فيما سبق (ص ٢٣) من هذا الجزء . ٢٠

فى البُرج الفلانى فى الدرجة الفلانية فى دقيقة كذا ، ويسأل الآخر حتى إذا عرف مستقرّ الكواكب قال للملك : ينبغى لك أن تعمل اليوم كذا ، وتَضعَ بنيان كذا ، وتوجّه جيشا إلى ناحية كذا ، وتُجامع فى وقت كذا ، وتأكل فى وقت كذا ، وجميع ما يراه صَلاحا له فى أموره كلّها ؛ والكاتب قائمٌ يكتب جميع ما يقوله القاطر ، ثم يلتفت إلى أهل الصناعات فيقول : انقُشْ أنت صورة كذا على حجر كذا ، وآغرِسْ أنت كذا ، وآصنَعْ أنت كذا، حتى يمرّ على أهل الصناعات ؛ فيخرجون إلى دار الحكمة و يضَعون أيديَهم فى تلك الأعمال ، و يستعمل الملك جميع ما يأمره القاطر . و يُشرَح ذلك اليوم فى الصحيفة وتُطوَى وتُودَع فى خِزانة الملك ، فعلى ذلك كانت تجرى أمورهم .

وكان الملك إذا نابَه أمرٌ جمعهم وآصطفّ الناسُ لهم فى شارع المدينة ، ثم يدخلون رُكبانا يقدُم بعضهم بعضا ، ويُضرب بين أيديهم بطبل الآجتماع ، فيدخُل كلّ واحد منهم بأُعجوبة : فمنهم مَن يعلو وجهَه نورٌ كنور الشمس فلا يقدِر أحدٌ على النظر إليه ، ومنهم مَن يكون عليه بَدَنةٌ(١) جوهر أخضر أو أحمر أو من ذهب منسوج . ومنهم مَن يدخل راكبا أسدا متوشّحا بحيّات عِظام . ومنهم مَن تكون عليه قبّة من نور أو من جوهر فى صنوف من العجائب كثيرة . و يصنع كلّ واحد منهم ما يدلّه عليه كوكبُه الذى يعبدُه؛ فإذا دخلوا على الملك قالوا : أرادنا الملك لأمر كذا وقد علِمنا ، أو أضمر الملك كذا والصواب فيه كذا . فكانوا مع ملوكهم على هذه الحال حتى ملك فِرعان فأبعدهم . وكان فليمونُ(٢) رئيسَ الكهّان ، فرأى فيما يرى النائم كأنّ مدينة أمسوس قد آنقلبت بأهلها ، وكأنّ الأصنام

(١) بدنة : البدنة البقيرة ، وهى قميص لا كمين له ، تلبسه النساء .

(٢) فى خطط المقريزى : « فيلمون » .

تهوى على رءوسها ، وكأنّ ناسا ينزلون من السماء معهم مَقامع[1] فيضربون الناس بها ، وكأنه قد تعلّق بأحدهم وقال له : ما لكم تفعلون بالخَلْق هذا ! أما ترحمونهم؟ فقال : لأنهم كفروا بإلٰههم . قال : أفما لهم من خلاص؟ قالوا : نعم ، مَن أراد الخلاص فليَلْحَق بصاحب السفينة ، فأنتبه وهو يخاطبه ، فبقِيَ مرعوبا مما رآه . وكان له آمرأة وولدان ذكر وأنثى ومعه تلاميذه ، فأجمع على أن يَلحَق بنوح عليه السلام ، ثم نام أيضا فرأى كأنه فى رَوْضة خضراءَ ، وكأنّ فيها طيورا بيضاء تفُوح منها رائحة طيّبة ، وكأنه تعجّب من حُسنها إذ تكلّم بعض الطيور فقال لأصحابه : سيروا بنا نُنْجِ المؤمنين . قال له فليمون : ومَن هؤلاء المؤمنون؟ قال : أصحاب السفينة . فأنتبه مرعوبا وأخبر أهله وتلاميذه بذلك ثم نام .

فلمّا كان الغدُ أتى الملكَ فقال : إن رأى الملك أن يُنفِذَنى إلى درمسيل لأعرف حال هذا الرجل الذى عمل السفينة فأشاهده وأناظره على ما جاء به من هذا الدِّين الذى أظهره وأتبيّن حقيقة أمره فليفعل ؛ فإنى أرجو أن يكون ذلك سببا لهلاكه ودفعه عما يدّعيه ، فأعجب الملك ذلك منه وأذن له فى الخروج ، فسار بأهله وولده وتلاميذه حتى آنتهَوْا إلى أرض بابل وقصد نوحا وسأله أن يشرح له دينه ففعل ذلك ، فآمن به وجميعُ مَن معه ، فقال نوح عليه السلام : من أراد اللهُ عز وجل به الخيرَ لم يَصدُدْه أحد عنه . فلم يزل فليمون مع نوح عليه السلام يخدمه هو وولده وتلاميذه إلى أن ركبوا السفينة .

وأمّا فِرْعان الملك فإنه أقام مُنهمكا فى ضلاله وظُلمه ، مقبلا على لَهْوه ، وآستخفّ بالكَهنة والهياكل ، وضاقت الدنيا بأهلها ، وكثُر الهَرْج والظلم ، وفسَدت الزروع ،

(١) مقامع : المقامع جمع المقمعة ، وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذل و يهان .

وأجدبت النواحى ، وظلَم النـاسُ بعضهم بعضا ، ولم يكن أحدٌ ينكر ذلك عليهـم ، وسُدّت الهياكل والبرابى ، وطُيِّنت أبوابها ، وجاءهم الطوفان وأقبل المطر عليهم ، وكان فِرْعان سكران فلم يقُم إلّا بخرير المـاء ، فوثب مُبادرا يريد [الهرب إلى] (١) الهرم فتخلخلتِ الأرض به ، وطلب الأبواب فخانتـه رجلاه وسقط على وجهـه وجعل يخُور كما يخُور الثور ، إلى أن أهلكه الله تعالى بالطوفان ، ومَن دخل الأسراب منهم هلك بغمّها ، ولحق المـاءُ من الأرض والأهرام إلى آخر التربيع ، وهوظاهر عليها إلى الآن ، وانقرضت ملوك الدنيا أجمع بالطوفان ولم يسلم إلا أصحاب السفينة كما تقدّم . فعدّة مَن سُمِّى لنـا من ملوك مصر قبل الطوفان على هذا السِّياق تسعة عشر ملكا ، ثم ملكها بعد الطوفان مَن نذكره .

ذكر مَن ملك مصر بعد الطوفان من الملوك

قال إبراهيم بن القاسم الكاتب : قال إبراهيم بن وَصِيف شاه : أجمع أهل الأثر أن أوّل مَن ملك مصر بعد الطوفان مصرِيم بن بيْصر بن حام بن نوح عليه السلام ، وذلك بدعوة سبقت له من جدّه . وكان السبب فى ذلك أنّ فليمون الكاهن سأل نوحا عليه السلام أن يخلطه بأهله وولده وقال : يا نبيّ الله ، إنى قصدتك رغبةً فى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتصديقك يا نبيّ الله ، وتركت وطنى وبلدى فاجعل لى رفعةً وقدرا أذكَر بهما من بعدى ، فزوّج نوحٌ عليه السلام بيْصَر بن حام بنتَ فليمون الكاهن فولدت له ولدا سمّـاه فليمون مصريم (٢) باسم بلده ، فلمّا أراد نوح قسمة الأرض بين بنيـه قال له فليمون : ابعث معى يا نبيّ الله ابنى حتى أمضى به إلى بلدى وأظهره على كنوزه وأوقفه على علومه ورموزه ، فأنفذه معه فى جماعة من أهل بيته ، وكان

(١) التكلة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٢٥ طبعة فييت) .

(٢) فى خطط المقريزى (ج ١ ص ٧٣ طبعة فييت) : «مصرايم» .

غلاما مراهقا ، فلمّا قرُب من مصر بنى له عَرِيشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض ، ثم بنَى له بعد ذلك فى الموضع مدينة وسمّاها دَرْسان(١) ، أى باب الجنة ؛ فزرعوا وغرسوا الأشجار والأجنّة من درسان الى البحر . [فصارت هنالك(٢)] زروع وأجنّة وعمارة وكان الذين مع مِصْريم جبابرة ؛ فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع وأقاموا فى أرغد عَيْش .

ونكح مصريم آمرأة من بنات الكَهَنة فولدت له ولدا سمّاه قبطيم ، ونكح قُبْطيم بعد سبعين سنة من عمره آمرأة ولدت له أربعة نفر ، وهم : قُفْطَريم ، وأُشمون ، وأَتريب ، وصا ، وكثروا وعمّروا الأرض وبُورك لهم فيها . وقيل : كان عدد مَن وصل مع مصريم ثلاثين نفرا فبنَوْا مدينة سمَّوْها مافَهْ ، ومعنى مافَهْ ثلاثون بلغتهم ، وهى مَنف ؛ وكشف أصحاب فليمون عن كنوز مصر وعلّموهم خطّ البرابى ، وأثاروا لهم المعادن من الذهب والزبرجد والفَيروزَج والأسباد شم(٣) وغير ذلك ، ووصفوا لهم عمل الصنعة ، فجعل الملك أمرها الى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام ، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى فسُمِّىَ به المُقَطّم ، وعلّموهم أيضا عمل الطلّسمات . وكانت تخرُج من البحر دوابّ تفسد زرعهم وأجنّتهم و بنيانهم فعملوا لها الطلّسمات فغابت ولم تعُد . و بنَوْا على عَبْر البحر مُدُنا منها : رَقُودة مكان الإسكندرية ، وجعلوا فى وسطها قبّة على أساطين من نُحاس مُذهَب والقبّة مُذهَبة ، ونصبوا فوقها مرآة من أخلاط شتّى قُطْرها خمسة أشبار ؛ وكان آرتفاع القبّة مائة ذراع ؛ فكانوا اذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم ، فإن كان مما يهمّهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شُعاعها على ذلك الشىء فأحرقته ؛ فلم تزل على حالها الى أن غلب عليها

(١) درسان : هى مدينة العريش . (٢) التكملة من خطط المقريزى (ج ١ ص ٧٣ طبعة فييت) .
(٣) فى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٨٠ طبع بلاق) : « الاشباد جشم » وذكر أنه نوع من الجواهر تتخذ منه النصول وغيرها .

البحر فنسفها . وقيل : إن الإسكندر إنما عمل المنارة تشبّها بها . وقد ذكرنا خبر المنارة فيما تقدّم من كتابنا هذا[1] .

وقال : لما حضرت مِصْرِيم الوفاة عهد الى ابنه قُبْطيم بن مصريم؛ فقسم قبطيم مصر بين بنيه الأربعة: فجعل لابنه قُفْطَرِيم من قِفْط الى أُسوان الى النُّوبة، ولأُشمون من أشمون الى مَنْف، ولأَتْريب الحَوْف كلَّه الى الشجرتين الى أيلة من الحجاز، ولِصَا من ناحية صَا البحيرة الى قُرْب بَرْقة؛ وقال لأخيه فارق: لك من برقة الى المغرب، فهو صاحب إفريقية . وولده الأفارق . وأمر كل واحد من بنيه أن يبنيَ لنفسه مدينة فى موضعه . وأمر مصريمُ عند موته أن يحفروا له فى الأرض سَرَبا وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض ويجعلوا فيه جسده، ويدفنوا معه جميع مافى خزائنه من الذهب والجوهر، ويَزبروا عليه أسماء الله تعالى المانعةَ من أخذه . فحفروا له سربا طوله مائة وخمسون ذراعا، وجعلوا فى وسَطه مجلسا مصفّحا بصفائح الذهب، وجعلوا له أربعة أبواب ، على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصّع بالجوهر، جالس على كرسيّ من ذهب قوائمه من زَبرجَد، وزبروا فى صدر كل تمثال آيات عظاما مانعة، وجعلوا جسده فى جُرْن من المرمر مُصفَّح بالذهب وزَبَرُوا على مجلسه : مات مصريم بن بيصر بن حام بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان، ومات ولم يعبد الأصنام ، إذ لا هَرَم ولا سَقام ، ولا حُزْن ولا اهتمام ، وحصنه بأسماء الله العظام، لايصل اليه إلا ملك ولدته سبعة ملوك تَدين بدين الملك الديّان، ويؤمن بالبعث والفُرقان ، الداعى الى الإيمان فى آخر الزمان . وجعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط، وألفَ تمثال من الجوهر النفيس، وألفَ

(١) راجع (ج ١ ص ٣٩٥ من هذه الطبعة) .

برنية [مملوءة](١) من الدرّ الفاخر والصّنعة الإلهية ، والعقاقير السِّريّة ، والطلّسمات العجيبة ، وسبائك الذهب مكدّسة بعضها على بعض ، وسقّفوا ذلك بالصخور العظام وهالوا فوقها الرمال [بين جبلين](١) .

وآستقلّ قبْطيم بالملك بعد أبيه .

ويقال : إنّ قِبْط مصر منسوبون اليه . وهو أوّل مَن عمِل العجائب وأثار المعادن ، وشقّ الأنهار . ويقال : إنه لحق البلبلة(٢) وخرج منهم بهذه اللغة القِبْطية ، وعمِل ما لم يعمله أبوه من نَصْب الأعلام والمنارات والعجائب والطلّسمات . وملَكهم قبطيم [أربعمائة و](٣) ثمانين سنة ومات ؛ فآغتمّ عليه بنوه وأهله ودُفن فى الشرق فى سَرَب تحت الجبل الكبير الداخل ، وصفّحوه بالمرمر الملوّن وجعلت فيه منافذ للرِّياح ؛ فهى تُخترق فيه بدوىّ عظيم هائل ، وجُعل فيه من الكبريت الأحمر وأُكَر من نحاس مطليّة بأدوية مُشعلة لاتُطفأ ، ولطّخوا جسده بالمرّ والكافور والمُوميا ، وجعلوه فى جُرْن من ذهب فى ثياب منسوجة بالمَرجان والدرّ ، وكشفوا عن وجهه وجعلوه تحت قبّة ملوّنة ، فى وَسَطها درّة معلّقة تُضىء كالسراج ، والقبّة على أعمدة بين كلّ عمودين تمثالٌ فى يده أُعجوبة ، وجعلوا حول الجُرْن توابيتَ مملوءة جوهرا وذهبا وتماثيل وصَنْعة وغيرَ ذلك ، وحول ذلك مصاحف القِبْط والحكمة ، وسدّوا عليه بالصخور والرَّصاص وزَبَروا عليه كما زَبَروا على ناووس أبيه .

وملك بعده آبنه قُفْطريم بن قُبْطيم ؛ وكان أكبرَ ولد أبيه ؛ وكان جبّارا عظيم الخَلْق ، وهو الذى وضع أساسات الأهرام الدَّهْشوريّة وغيرها ليعمل منها كما عمل الأوّلون ، وهو الذى بنى دَنْدَرة ومدينة الأصنام . ودَنْدَرة : بلد من بلاد إقليم قوص ، وهى فى البرّ الغربىّ مشهورة هناك . قال : وأثار من المعادن ما لم يُثره غيره ،

(١) التكملة من خطط المقريزى (ج١ ص ٧٥ طبعة فبيت) . (٢) البلبلة : اختلاط الألسن .
(٣) التكملة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٣٣٠ طبعة فبيت) .

وكان يحتز من الذهب مثلَ حَجر الرحى، ومن الزَّبرجد كالأُسطوانة، ومن الأسباد شم في صحراء الغَرْب كالقلة. وعمِل من العجائب شيئا كثيرا. و بَنى منارا عاليا على جبل قِفْط يُرَى من البحر الشرقي، ووجد هناك مَعدن زئبق فعمل منه بِركة كبيرة، فيقال إنها هناك الى الآن؛ وأما المنار فسقط. وعمِل عجائب كثيرة. ويقال: إنه بَنى المدائن الداخلة وعمــل فيها عجائب كثيرة، منها: المــاء الملفوف القائم كالعمود لا ينحــلّ ولا يذوب، والبركة التي تسمّى فلسطين، أى صيّادة الطير، إذا مرّ عليها الطير سقط فيها ولم يمكنه أن يبرح حتى يؤخَذ. وعمِل أيضا عمودا من نحاس عليه صورة طائر إذا قرُبت الأُسْد والحيّات والأشياء المضرّة من تلك المدينة صفر صفيرا عاليا فترجع تلك الدوابّ هاربة. وكان على أربعة أبواب هــذه المدينة أربعةُ أصنام من نحاس لا يقرُب منها غريب إلّا ألقِىَ عليــه النوم والسُّبات، فينام عندها ولا يستيقظ حتى يأتيه أهل المدينة وينفخون في وجهه فيقوم، وإن لم يفعلوا ذلك لم يزل نائمــا عند الأصنام حتى يهلك. وعمِل منارا لطيفا من زجاج ملوّن على قاعدة من نحاس، وعلى رأس المنارة صورة صنم من أخلاط كثيرة، وفي يده كالقوس كأنه يرمى عنها، فإن عاينه غريب وقف في موضعه لم يبرح حتى يُنحِّيَه أهل المدينــة. وكان ذلك الصنم يتوجّه إلى مهبّ الرياح الأربع من نفسه.

قال وقيــل: إن هذا الصنم على حالته إلى الآن، وإنّ النــاس تحامَوْا تلك المدينــة على كثرة ما فيهــا من الكنوز والعجائب الظاهرة خوفا من ذلك الصــنم أن تقع عين الإنسان عليــه فلا يزال قائمــا حتى يتلف. قال: وكان بعض الملوك عمِل على قلعه فمــا أمكنه، وهلك لذلك خلق كثير. ويقال: إنه عَمِل في بعض المــدن الداخلة مرآة من أخلاط ترى جميــع ما يسأل الإنسان عنــه وهى غربىّ البــلد. قال: وعمــل خلف الواحات الداخلة مُدُنا عمِــل فيها عجــائب كثيرة

ووكّل بها الروحانيّين الذين يمنعون منها ؛ فما يستطيع أحد أن يدنوَ منها ولا يدخلها أو يعملَ قرابين أولئك الروحانيين فيصل إليها حينئذ و يأخذ من كنوزها ما أحبّ من غير مشقّة ولا ضرر. قال : وأقام قفطريم ملكا أربعمائة سنة . وأكثر العجائب عُملت فى وقته ووقت آبنه البودسِير[1] . وكان الصعيد أكثرَ عجائب من أسفل الأرض . قال : وفى آخر أيام قفطريم هلكت عاد بالريح العقيم .

ولمّا حضرت قفطريم الوفاةُ عُمِل له ناووس من الجبل الغربىّ قرب مدينة الكَهَنة، كان عمله لنفسه قبل موته فى سَرَب فى الجبل كهيئة الدار الواسعة وجعل دورها خزائن منقورة، وجعل فى سقوفها مسارب للرياح، و بنى ذلك بالمرمر، وجعل فى وسط الدار مجلسا على ثمانية أركان مصفحا بالزجاج الملوّن المسبوك، وجعل فى سقفه جواهر وحجارةً تسرج ، وجعل فى كل ركن من أركان المجلس تمثالا من الذهب بيده كالبوق ، وجعل تحت القبّة دكّة مصفّحة بالذهب، وجعل لها حوافَ زَبَرْجَد، وفرش فوق الدكّة فرش الحرير، وجعل عليها جسده بعد أن لُطخ بالأدوية الممسكة، ومن جوانبه آلات الكافور المخروطة، وسُدِلت عليه ثياب منسوجة بالذهب، ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج مُلكه، وعن جوانب الدكّة أربع تماثيل مجوّفات من زجاج مسبوك مثل صُوَر النساء وألوانهن، بأيديهن كالمراوح من ذهب، وعلى صدره من فوق الثياب سيف صاعقىّ قائمه من الزبرجد، وجُعل فى تلك الخزائن: من الزبرجد وسبائك الذهب والتيجان والجواهر و برانى الحِكَم وأصناف العقاقير والطّلّسمات، ومن المصاحف الحاوية لجميع العلوم، مالا يحصى قدره كثرة ، وجُعل على باب المجلس ديك من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين مزبور عليه آيات عظام مانعة، وجُعل على مدخل كل أَزَج صورتين من نحاس مشوّهتين بأيديهما

(١) فى خطط المقريزى : « البودشير » بالشين المعجمة .

سيفان كالبرق ، ووراءهما بلاطة تحتها لوالب فمن وطئها ضرباه بأسيافهما فقتلاه ، وفى سقف كل أَزَج كرة عليها لَطُوخ مدبّر يُسرَج ، وسُدّ باب الأَزَج بالأساطين ورصُّوا على سقفه البلاط العظام و ردموا فوقها الرمال ، و زبروا على باب الأَزَج : هـذا الداخل إلى جسد الملك العظيم المهيب الكريم الشديد قفطريم ذى الأَيْد والفخر، والغلبة والقهر ، أفَل نجمه و بقِىَ ذكره وعلمه ، فلا يصل أحد اليه ، ولا يقدر بحيلة عليه ، وذلك بعد سبعمائة وسبعين ، ودورات مضت من السنين .

قال : ولمّا مات قُفطريم ملك بعده ٱبنه البُودسير بن قفطريم ؛ فتجبّر وتكبّر وعمِل بالسحر وٱحتجب عن العيون ، وقد كان أعمامه أشمون وأتريب وصا ملوكا على أحيازهم إلّا أنه قهرهم بجبروته وقوّته ، فكان الذكر له كما كان لأبيه . و يقال : إنه أرسل هِرْمِس الكاهن المصرىّ إلى جبل القُمْر الذى يخرج النيل من تحته حتى عمِل هناك هيكل التماثيل النحاس ، وعدل إلى البطيحة التى ينصبّ اليها ماء النيل . و يقال : إنه الذى عدّل جانبى النيل وقد كان يفيض [فى مواضع وينقطع فى مواضع](١) ، وأمره البودسير أن يسير مغربا فينظر الى ماهناك ، فوقع على أرض واسعة متخرّقة بالمياه والعيون كثيرة العُشْب ، فبنى منائر ومتنزهات ، وحوّل اليها جماعة من أهل بيته فعمَروا تلك النواحى و بنَوْا فيها حتى صارت أرض الغرب كلها عمارة ، وأقامت كذلك مدة كثيرة وخالطهم البربر فتناكحوا ؛ ثم إنهم تحاسدوا و بغى بعضهم على بعض ، وكانت بينهم حروب فخرب البلد و باد أهله إلا بقية منازل تسمى الواحات هى موجودة الى وقتنا هذا .

و يقال : إنه عمل عجائب كثيرة فى وقتـه ، منها : قبّة لهـا أربعة أركان وفى كلّ ركن منها كوّة يخرج منها كالدخان الملتفّ فى ألوان شتّى [يستدلّون بكل

(١) التكملة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٣٧ طبعة فييت) .

اون على شىء] [1] ؛ فما خرج منه أخضر دلّ على العمارة وحسن النبات والزرع وصلاحه ، وإن خرج الدخان أبيض دلّ على الجدب وقلّة الزكاء [2] ، وإن خرج أحمر دلّ على الدماء والحروب وقَصْد الأعداء ، وإن كان أسود دلّ على كثرة الأمطار والمياه وفساد بعض الأرض بذلك ، وإن كان أصفر دلّ على النيران وآفاتٍ تحدُث فى الفلَك ، وما كان منها مختلطا دلّ على مظالم الناس وتعدّى بعضُهم على بعض وإهمالِ ملوكهم لهم ، وأشياء من هذا الضرب . وكانت هذه القبّة على منار أقام زمنا طويلا ثم هدمه بعض الملوك البربر ؛ لأنه أراد غزو قوم بتلك الناحية فعلموا بحاله فانتقلوا عن ذلك الموضع الى قُرب النيل فلمّا جاء ولم يجدهم هدمه .

ومما عُمِل له فى الصحراء التى تقرُب منه — وكانت الوحش قد كثُرت وأفسدت عليهم زرعهم وكذلك خنازير الماء — شجرةٌ من نحاس عليها أمثالُ تلك الوحوش مُلجَمة أفواهُها بخيوط من نحاس ، فما يجوز بها من الوحش لا يستطيع الحراك ولا البَراح من عندها حتى يُؤخَذ قَبْضا ويُقتَل ؛ فأشبع الناسَ فى لحوم تلك الوحوش وانتفعوا بجلودها زمانا طويلا إلى أن انتزعها بعض ملوك الغرب سرّا من أهل مصر وقدّر أن ينصبها فى بلدهم فتعمل له مثل ذلك ، فلمّا عمِلها بطَلت ؛ لأنهم كانوا يعملون ما يعملون بطالع يأخذونه له ، فلا يزال عمله مستقيما إلى أن تغيّر عن مكانه فبطَل عمله .

ومما عُمِل فى وقته أنّ غرابا نقَر عين صبىّ من أولاد الكهنة فقلعها ، فعمِل شجرة من نحاس عليها تمثالُ غراب من نحاس فى منقاره حربة بادية الطرفين ، منشور الجناحين ، وكتب على ظهره كتابا ؛ فكانت الغربان تَقَع على تلك الشجرة

(١) التكملة من خطط المقريزى . (٢) الزكاء : النماء ، يقال زكا الشىء يزكو زكاء وزكوا ، نما .

ولا تبرح حتى تؤخَذ فتُقتل، ففنِيَ أكثر الغربان وزالت عن تلك الناحية إلى ناحية الشام . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن أصاب بعضَ ملوكهم علّةٌ ووُصِف له فيها لحمُ غراب يطبُخه ويأكله ويشرب من مرقه فلم يُوجَد، فوجّه الى آخر العمل الذى بمصر من ناحية الشام من يأتيه بغراب فأبطأ عليه، فأمر بنزع الشجرة فرجع الغربان وأخذ منها ماعولج به الملك قبل أن يرجع رسوله . ٥

ومما عُمِل فى وقته — وكانت الرمال قد كثُرت عليهم من ناحية الغرب حتى ظهرت على زروعهم — فعَمِل لذلك صنماً من صوّان أسود على قاعدة منه وعلى كتفه شبه القفّة فيها كالمسحاة، ونقش على جبهته وصدره وذراعيه وساقيه حروفا ، وأقامه الكاهن بطالع أخذه له ووجهه إلى الغرب ؛ فآنكشفت تلك الرمال ورجعت إلى ورائها . فتلك الأكداس العالية فى صحراء الغرب منها . ولم تزل الرمال تندفع عنهم ١٠ إلى أن زال ذلك الصنم عن موضعه . قال : وأقام البودسير مدّة وآحتجب عن الناس ، وكان يتجلّى لهم فى صورة وجه عظيم ، وربما خاطبهم ولا يرَوْنه، ثم غبر[1] مدّة وهم فى طاعته إلى أن رآه آبنه عديم وهو يأمره بالجلوس على سرير الملك .

فجلس عديم[2] بن البودسير على الملك وكان جبارا لا يطاق، عظيم الخَلْق، فأمر بقطع الصخور ليعمل هرما كما عمل الأوّلون . قال : وكان فى وقته الملكان اللذان ١٥

---

(١) غبر : مكث وبقى .

(٢) فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٣٨ طبعة ڤييت) مانصه : «فلما مات ملك بعده آبنه أرقليمون، وكان كاهنا ساحرا، فعمل أعمالا عظيمة، منها : أنه كان يجلس فى السحاب فيرونه فى صورة إنسان عظيم، وأقام مدّة على ذلك، ثم إنه غاب عن أهل مصر وصاروا بغير ملك، ثم رأوا صورة بحذاء جرم الشمس عند حلولها أوّل برج الحمل، فأمرتهم أن يقلدوا الملك عديم بن قفطريم : وأعلمتهم أنه ما بقى ٢٠ يعود إليهم . فولوا عليهم ملك مصر عديم بن قفطريم، وكان جبارا عظيما ... الخ» .

هبطا من السماء، وكانا فى بئر يقال لها أفناوه، وكانا يعلّمان أهل مصر السحر. و يقال: إن عديم استكثر من علمهما ثم نُقلا إلى بابل .

قال : وأهل مصر من القبط يقولون إنهما شيطانان يقال لهما : مُهلة ومَهَالة، وليس هما المَلَكين . والمَلَكان ببابل فى بئر هناك يغشاها السحَرة إلى يوم الساعة .

ولنصل هذا الفصل بخبر هاروت وماروت و إن لم يكن منه ؛ و إنما الشيء بالشيء يذكر . والله أعلم . ٥

ذكر خبر هاروت وماروت

١٢٤/١٢ قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾(١) الآية . قال أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسيره : وكانت قصّتهما — على ما ذكره ابن عباس ١٠ رضى الله عنه والمفسّرون — أنّ الملائكة رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة ؛ وذلك فى زمن إدريس عليه السلام فيعيّرونهم بذلك ، ودعت عليهم الملائكة وقالوا : هؤلاء الذين جعلتهم فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك ؛ فقال الله عزّ وجل لهم : لو أنزلتكم إلى الأرض و ركّبت فيكم ما ركّبت فيهم لركبتم ما ارتكبوا ؛ فقالوا : سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك ؛ قال الله تعالى : فاختاروا مَلَكين ١٥ من خياركم أهبطهما إلى الأرض ، فاختاروا هاروت وماروت ، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم . قال : وقال الكلبىّ : قال الله لهم : اختاروا ثلاثة فاختاروا عَزًا وهو هاروت ، وعَزَايا وهو ماروت ، وغُيّر اسمهما لمّا قارفا الذنب ، وعزاييل ؛ فركّب الله فيهم الشهوة التى ركّبها فى بنى آدم وأهبطهم إلى الأرض ، وأمرهم أن يحكموا

(١) سورة البقرة آية ١٠٢

بين الناس بالحق ، ونهاهم عن الشرك والقتل بغير حق ، ونهاهم عن الزنا وشُرب الخمر . فأما عزابيل فإنه لمّا وقعت الشهوة فى قلبه استقال ربَّه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه ؛ فسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه . ولم يزل بعد ذلك مطأطئا رأسه حياءً من الله تعالى . وأما الآخران فإنهما بقيا على ذلك، وكانا يقضيان بين الناس يومَهما فإذا أمسيا ذكرا آسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء . قال قَتادة : فما مرّ عليهما أشهر حتى افتتنا .

قال الثعلبيّ : قالوا جميعا : وذلك أنه اختصم اليهما ذات يوم الزُّهَرة، وكانت من أجمل النساء . قال علىّ رضى الله عنه : كانت من أهل فارس ، وكانت ملكة فى بلدها ، فلمّا رأياها أخذت بقلوبهما ، فراوداها عن نفسها فأبت وآنصرفت ، ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلا مثل ذلك، فأبت وقالت : لا ! إلا تعبدا ما أعبد، وتصلّيا لهذا الصنم ، وتقتلا النفس ، وتشربا الخمر . فقالا : لا سبيل إلى هذه الأشياء ؛ فإن الله عز وجل نهانا عنها ، فآنصرفت ؛ ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفى أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا : الصلاة لغير الله عظيم ، وقتل النفس عظيم ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ؛ فشربا فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا ، فلمّا فرغا رآهما إنسان فقتلاه . قال الربيع بن أنس : وسجدا للصنم فمسخ الله عز وجل الزُّهَرة كوكبا .

وقال علىّ بن أبى طالب والسدّى والكلبىّ رضى الله عنهم : إنها قالت لهما : لن تدركانى حتى تخبرانى بالذى تصعدان به إلى السماء . فقالا : بآسم الله الأكبر . قالت : فما أنتما بمدركانى حتى تعلمانيه . فقال أحدهما لصاحبه : علّمها ! قال : إنى أخاف الله . قال الآخر : فأين رحمة الله ! فعلّماها ذلك . فتكلّمت به وصعدت

إلى السماء . فمسخها الله تعالى كوكبا . فعلى قول هؤلاء هي الزُّهَرة بعينها، وقيّدوها فقالوا : هي هذه الكوكبة الحمراء واسمها بالفارسية «ناهيد» ، وبالنبطية «بيدخت» .

قال : ويدلّ على صحة هذا القول مارواه الثعلبيّ بسنده إلى عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رأى سُهَيلا قال : " لعن الله سُهَيلا إنه كان عشّارا[1] باليمن ولعن الله الزُّهَرة فإنها فتنت مَلَكين " .

وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما ذاتَ ليـلة فقال لى : ارمُق الكوكبة فإذا طلعت فأيقظنى، فلمّـا طلعت أيقظته، فجعل ينظـر إليها ويسبّها سبّا شـديدا ، فقلت : رحمك الله تسبّ نجما سامعا مطيعا لله؟ ماله يُسَبّ! فقال : إن هذه كانت بغيًّا فلقِيَ المَلَكان منها ما لقِيا . وقال نافع : كان ابن عمر رضى الله عنهما إذا رأى الزُّهَرة قال : لا مرحبًا بها ولا أهلا . وروى أبو عثمان النهدى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن المرأة التى فُتِن بهـا المَلَكان مُسِخَت ، فهى هـذه الكوكبةُ الحمراءُ، يعنى الزُّهَرة .

قال الثعلبيّ : وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا : إن الزهرة من الكواكب[2] السبعة السيّارة التى جعلها الله قِواما للعالَم ، وإنما كانت هذه التى فَتَنت هاروت وماروت امرأة ، كانت تسمّى زُهَرة من جمالها ، فلمّا بغت جعلها الله تعالى شهابا ،

(١) العشار : الذى يقبض عشر الأموال .

(٢) ويؤيد هذا ماقاله الإمام القرطبي فى تفسيره لهذه الآية الكريمة (ج ٢ ص ٢ ٥) : هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره ، لايصح منه شيء ، فانه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ، (بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) ، (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) . وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهـم خلاف ما كلفوه ، ويخلق فيهـم الشهوات ؛ إذ فى قدرة الله تعـالى كل موهوم ؛ ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح . ومما يدل على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ؛ ففى الخبر : ...

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزهرة ذكر هذه المرأة لموافقة الآسمين فلعنها، وكذلك سُهَيل العشّار . والله أعلم .

قالوا : فلما أمسَى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فعلما ما حلّ بهما فقصدا إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل ففعل ذلك ، فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فآختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع، فهما ببابل يعذّبان . واختلف العلماء فى كيفيّة عذابهما فقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: هما معلّقان بشعورهما إلى قيام الساعة . وقال قَتادة : كُبِّلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما . وقال مجاهد : إن جُبًّا مُلِئ نارا جُعِلا فيه . وقال خُصَيف : معلّقان منكّسان فى السلاسل . وقال عُمَير بن سعد : منكوسان يُضرَبان بسياط الحديد . ورُوى أنّ رجلا أراد تعلم السحر فقصد هاروت وماروت فوجدهما معلّقين بأرجلهما، مُزرقّة أعينهما ، مُسودّة جلودهما ، ليس بين ألسنتهما و بين الماء إلّا قدرُ أربع أصابع، وهما يعذّبان بالعطش، فلمّا رأى ذلك هاله مكانهما فقال : لا إله إلا الله، وقد نُهِىَ عن ذكر الله هنالك . فلمّا سمعا كلامه قالا : مَن أنت ؟ قال : رجل من الناس . قالا : من أىّ أمة أنت ؟ قال : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . قالا : وقد بُعِث؟ قال نعم . قالا : الحمد لله! وقد أظهرا الآستبشار . فقال الرجل : وممّ استبشاركما ؟ قالا : إنه نبىّ الساعة ، وقد دنا آنقضاء عذابنا .

= "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوّارة زحل والمشترى و بهرام وعطارد والزهرة والشمس والقمر". وهذا معنى قول الله تعالى : (وكل فى فلك يسبحون). فثبت بهذا أن الزهرة وسهيلا قد كانا قبل خلق آدم، ثم إن قول الملائكة : ما كان ينبغى لنا عوده ، لا نقدر على فتنتنا ، وهذا كفر نعوذ بالله منه ومن نسبته إلى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وقد نزهناهم وهم المنزهون عن كل ما ذكره ونقله المفسرون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ».

قال: وأمّا كيفية تعلّم السحر، فقد رُوِىَ فيه خبرٌ جامعٌ، وهو ما رواه أبو إسحاق بسنده عن هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: قدمت علىّ آمرأة من أهل دُومَة الجندل جاءت تبتغى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته تسأله عن شىء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به؛ قالت عائشة رضى الله عنها لعُروة: يابن أختى، فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت تبكى حتى إنى لأرحمها! تقول: إنى أخاف أن أكون قد هلكت؛ قالت: كان لى زوج فغاب عنّى فدخلتْ علىّ عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت: إن فعلتِ ما آمرك به فلعلّه يأتيك، فلمّا كان الليل جاءتنى بكبشَيْن أسودَيْن فركبتْ أحدهما وركبتُ الآخر، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابِل، فإذا برجلين معلّقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بكِ؟ فقلت: أتعلّم السحر، قالا: إنما نحن فتنة فلا تكفُرى وآرجعى، فأبيت فقلت: لا، فقالا: إذهبى إلى ذلك التنّور فبُولى فيه، فذهبت ففزعت فلم أفعل، فرجعت إليهما فقالا: فعلتِ؟ قلت نعم، قالا: هل رأيت شيئا؟ قلت: لم أر شيئا، فقالا: لم تفعلى، إرجعى إلى بلادك فلا تكفُرى، قالت: فأبيت، فقالا: إذهبى إلى ذلك التنّور فبُولى فيه، فذهبت فآقشعر جلدى فرجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا: هل رأيتِ شيئا؟ فقلت: لم أر شيئا، فقالا: كذبتِ لم تفعلى، إرجعى إلى بلادك فلا تكفُرى فإنك على رأس أمرك؛ قالت: فأبيت، فقالا: إذهبى إلى ذلك التنّور فبُولى فيه، فذهبتُ إليه فبلتُ فرأيت فارسا مقنّعا بحديد خرج منّى حتى ذهب فى السماء وغاب عنّى حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت؛ قالا: فما رأيتِ؟ قلت: رأيتُ فارسا مقنّعا بالحديد خرج منّى حتى ذهب فى السماء حتى ما أراه، قالا: صدقتِ، ذلك إيمانك خرج منك؛ اذهبى. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئا، وما قالا لى شيئا. فقالت: لن تريدى شيئا إلا كان؛ خذى هذا القمح فآبذُرى،

٥

فبذَرْت(١)، قلت: أطلُعى، فأطْلعت، فقلت، أحقِلى، فأحقَلت(٢)، ثم قلت: أفركى(٣)، فأفركت، ثم قلت: أطحنى، فأطحنت، ثم قلت: أخبزى، فأخبزت . فلما رأيت أنى لا أريد شيئا إلا كان، سُقِط فى يدى وندِمت . والله يا أمّ المؤمنين ما فعلتُ شيئا قطّ، ولا أفعله أبدا .

قال: وقال بعضهم: إنهما لا يتعمّدان تعليم السحر ولكنهما يصفانه ويذكران بطلانه ويأمران بآجتنابه، فيتعلّم الشقىّ منهما فى خلال صفتهما ويترك موعظتهما ونصيحتهما، فلا يكون على هذا التأويل كفرا وإنما يكون العمل به كفرا. وقد أنكر بعضهم أن يكونا مَلَكين قال: وإنما كانا مَلِكَيْن . وقرئ فى الشواذّ: ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ ﴾ (بكسر اللام) . وقيل: كانا علجين(٤) ببابل . حكاه القاضى عياض فى كتاب الشفا(٥) . والله تعالى أعلم .

ولنرجع إلى أخبار عَديم بن البـودسير الملك . قال: وعديم أوّل من صلب(٦)؛ وذلك أنّ آمرأة زَنَت برجل من أهل الصناعات، وكان لها زوج من أصحابه، فأمر

١٢٦ / ١٢

(١) أطلعت: أطلع الزرع، بدا . (٢) أحقلت: أحقل الزرع، تشعب ورقه قبل أن تغلظ سوقه . (٣) أفركى: يقال أفرك الزرع إذا بلغ أن يفرك باليد .

(٤) ورد بهامش نسخة ب هذه الحاشية ونصها: «والصحيح الذى ذكره القاضى عياض، وأما الذى ذكر أوّلا ليس بصحيح، فان صاحب العقل الراجح الصحيح هو الذى يقـول بقول العلماء الأقدمين الذين درسوا العلوم الالهية الحقيقية والمعارف العقلية، وهم الفلاسفة العظام الذين هم فى مراتب الأنبياء العظام مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى وهارون ويوشع وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، لأن الملائكة خلقهم الله تعالى خلقة غير خلقة ابن آدم وجعل فيهم من القوّة والتلوّن، يتصوّرون بكل صـورة أرادوا، وهم شباب لم يموتوا ولم يتغـيروا ولم يجبروا ولم يرهم بشر إلا إن أرادوا ذلك . والصحيح أن هاروت وماروت ليسا ملكين وإنمـا كانا علجين ظالمين فأهلكهما الله سبحانه وضرب بهما المثل» .

(٥) راجع صفحة ١٧٢ طبع الآستانة . (٦) يعنى لأجل الزنا .

بصلبهما على منارتين، وجعل ظهر كلّ منهما إلى ظهر صاحبه ، وزَبَر على المنارتين
آسمهما وما فعلاه وتاريخ الوقت الذى عُمِل ذلك بهما فيه، فآنتهى الناس عن الزنا.
قال : وبنى أربع مدائن وأودعها صنوفا كثيرة من عجائب الأعمال والطِّلّسمات
وغير ذلك، وكنز فيها كنوزا كثيرة . وعمِل فى الشرق منارا وأقام على رأسه صنما(١)
موجّها إلى الشرق، مادّا يديه يمنع دوابّ البحر والرمال أن تتجاوز حدّه، وزبر
فى صدره تاريخَ الوقت الذى نصبه فيه؛ ويقال: إن هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا؛
ولولاه لغلب المـاءُ المالح من البحر الشرقىّ على أرض مصر. وعمل قنطرة على النيل
فى أوّل بلاد النوبة ونصب عليها أربعة أصنام موجّهة [إلى أربع جهات الدنيا](٢)
فى يدى كل صنم جرسٌ يضرب به إذا أتاهم آتٍ من تلك الناحية؛ فلم تزل بحالها
إلى أن هدمها فِرعَوْن موسى . وهو الذى عمل البربا على باب النوبة، ويقال :
إنه عَمِل فى إحدى المدائن الأربع التى ذكرناها حوضا من صَوّان أسود مملوءا ماء
لا ينقُص على طول الدهر ولا يتغيّر؛ وكان أهل تلك الناحية يشربون منه ولا
ينقُص ماؤه ؛ وإنما عمل ذلك لبعدهم عن النيل وقُربهم من البحر المـالح . وقد
ذكر بعض كهنة القبط أن ذلك لقربهم من البحر المـالح، لأن الشمس فيما ذكروا
ترفع بحرّها بخارا فيحصُل من ذلك البخار حرّ بالهندسة ، وقيل بالسحر . وملكهم
عَدِيم مائة سنة وأربعين سنة ، ومات وهو آبن سبعمائة سنة وثلاثين سنة . وقيل :
إنه دُفن فى إحدى المـدائن ذات العجائب فى أَزَج من رخام ملوّن بزرقة ، مبطَّن
برخام أصفر ، وطُلِىَ جسده بمـا يُمسكه ، وجُعل حوله كثير من ذخائره ، وذلك
وسط المدينة، فهى محروسة بمـا يمنع منها من الروحانيّين .

(١) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «منارا عليه صنما» .

(٢) التكلة من خطط المقريزى .

قال : وذكر بعض القبط أنّ عديعا هذا عمل لنفسه فى صحراء قِفْط على وجه الأرض قبّة عظيمة من زجاج أخضر برّاق، معقودة على ثمانية آزاج من صِنْفها، على رأسها أكرة من ذهب، عليها طائر من ذهب، متوشّح بجوهر، منشور الجناحين، يمنع من الدخول إليها ، وقطرها مائة ذراع فى مثلها، وجعل جسده فى وسطها على سرير من ذهب مشبّك وهو مكشوف الوجه، وعليه ثياب منسوجة بذهب مغروزة بجوهر منظوم ؛ والآزاج مفتحة ، طول كل أَزَج ثمانية أذرع ، وآرتفاع القبّة أربعون ذراعا تُلِقى الشعاعَ على ما حولها من الأرض ، وجُعل حوله فى القبّة مائة وسبعون مصحفا من مصاحف الحكمة، وسبع موائد عليها أوانيها، منها : مائدة من أدرك رمّانىّ أحمر وآنيتها منها. ومائدة من ذهب فيلمونى[1] يخطَف البصر، وهو من الذهب الذى تعمل منه تيجان الحكماء، وآنيتها منها . ومائدة من حجر الشمس المضئ بآنيتها. ومائدة من الزبرجد المخروط الذى يخالطه شعاع أصفر بآنيتها، قال ; وهذا الزبرجد إذا نظرت إليه الأفاعى سالت عيونها. ومائدة من كبريت أحمر مدبّر بآنيتها. ومائدة من ملح مدبّر برّاق يكاد نوره يخطف الأبصار بآنيتها. ومائدة من زئبق معقود وقوائمها وحافاتها من زئبق أصفر معقود مضىء، وعليها آنية من زئبق أحمر معقود. وجُعل فى القبّة جواهر كثيرة ملوّنة و برانىّ صنعة مدبّرة، وجُعل حوله سبعة أسياف صاعقية وكاهنية وأتراس من حديد أبيض مدبّر، وجُعل معه تماثيل أفراس من ذهب، [عليها سروج من ذهب][2] وسبعة توابيت من الدنانير التى ضربها وصوّر عليها صورته، وجُعل معه من أصناف العقاقير والسمومات والأدوية فى برانىّ الحَنْتم[3]، ومن أصناف الأحجار شىء كثير .

(١) كذا فى خطط المقريزى، وفى الأصول «فلزنى»، وفى هامش خطط المقريزى طبعة فييت « فلمونى » . (٢) التكلة من المقريزى . (٣) الحنتم : جرار خضر تضرب إلى الحمرة

قال : وقد ذكر من رأى تلك القبة وأقاموا عليها أياما فما قدروا على الوصول إليها، وأنهم إذا قصدوها وكانوا منها على مقدار ثمانية أذرع دارت القبّة عن أيمانهم وشمائلهم وقد عاينوا ما فيها . ومن أعجبَ ما ذكروا أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزَجا أزَجا فلا يرون غير الصورة التي يرونها من الأزَج الآخر على معنى واحد . وذكروا أنهم رأوا وجهه فى قدر ذراع ونصف بالذراع الكبير، ولحيته كبيرة مكشوفة ، وقدّروا طول بدنه عشرة أذرع وزيادة، وأنهم لمّا تهيأ أن يصلوا إليها فنيَ ماؤهم وخافوا على أنفسهم فرجعوا ليمتاروا ما يكفيهم من الزاد ففعلوا ، ثم رجعوا فأقاموا أياما يطوفون تلك الصحراء ، ثم أخبروا أنهم رأَوْا بها عجائب كثيرة وصنوفا من الوحش لم يَرَوْا مثلها .

قال : وفى كتبهم أنهم لا يصلون إليها إلا بأن يُذبَح لها ديك أفرق ويبخّر بريشه من بعد، ثم يسأل من المرِّيخ الوصول حتى يصل، وتكون الكواكب النيّرة على مثل ما كانت عليه وقتَ نَصَبَهَا من اجتماعها فى البروج : يكون زُحَل والمُشْتَرِى والمرِّيخ فى بُرْج واحد، والشمسُ والقمر فى بُرْج واحد ، والزُّهَرة وعُطارد فى بُرْج واحد، ويتكلّم عليها بصلاة الكهنة سبع مرّات، فإذا وصل إليها لطّخ حائطها بدم الديك الذى قرّبه لها ويأخذ ما شاء من المال والتماثيل ولا يكثر المقام فيها ولا يقيم غير ساعة واحدة .

قال : وذكر هؤلاء الذين رأَوْها أنهم لم يكونوا من تلك الناحية وإنما خرجوا يطلبون غيرها ؛ فإنهم سألوا أهل قِفْط عنها فلم يجدوا مَن يعرفها ولا رآها غير رجل شيخ منهم ، فإنه ذكر أن أبا له خرج فى بعض الأمور ومعه جملٌ له فرآها ولم يصل إليها ، وبحث عن أمرها فعرف أن قوما من الشرق جاءوا فى طلبها وأنهم أقاموا يطوفون بقِفْط أياما وخرجوا إليها فما رجع أحدٌ منهم ولا عُرِف لهم خبر .

قال : وكان عديم قد أوصى إلى آبنه شذات عند موته أن ينصِبَ فى كل حيّز من أحياز عُمومته منارا و يزبرَ عليه آسمه، فآنحدر إلى الأُشمونين فعمل منارا وزبر عليه آسمه وعمل بها ملاعب ، وعمل فى صحرائها منارا وأقام عليه صنما ذا رأسين بآسم كوكبين كانا مقترنين فى الوقت [(١)] . وخرج إلى أتريب وبنى فيها قبّة عظيمة مرتفعة [(٢)] على عُمُد وأساطين بعضها فوق بعض ، وجعل على رأسها صنما صغيرا من ذهب، وعمل هيكلا للكواكب . وكان أبوه البودسير أوّل من أقام للكواكب فأخذ ذلك عنه . ومضى إلى حيّز صا فعمل فيه منارا على رأسه مرآة من أخلاط تورِى الأقاليم، ورجع إلى أبيه فعهد له بالملك .

فملك شدّات [(٣)] بن عَديم وهو الذى بنى الأهرام الدهشوريّة من الحجارة التى قُطعت فى زمان أبيه . قال : مَن أنكر أن يكون العاديّة دخلوا مصر إنما غلطوا بآسم شدّات بن عديم فقالوا شدّاد بن عاد لأنه أكثر ما يجرى على ألسنتهم، وقلة ما يجرى على ألسنتهم شدّات بن عديم ؛ وإلا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر ولا قوى على أهلها غير بُخْتَ نصّر . وشدّات الذى عمل مصاحف النارنجيّات [(٤)]، وعمل هيكل أرمنت [(٥)] وأقام فيه أصناما بأسماء [(٦)] الكواكب من ذهب وفضة وحديد أبيض ونحاس

---

(١) عبارة المقريزى : « كانا مقترنين فى الوقت الذى خرج فيه الى أتريب، وبنى فيها ... الخ » .

(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصول : « مربعة » .

(٣) كذا فى الأصل وكتاب الانتصار لآبن دقاق (ج ٥ ص ٣٨). وفى المقريزى (ج ٣ ص ٣٩ طبعة فييت) وصبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١٣) : « شدات » بالشين المعجمة والتاء المثناة .

(٤) كذا فى الأصل . والذى فى القاموس « النيرنج » قال شارح القاموس : « هكذا فى سائر النسخ ، والمنقول عن نص كلام الليث « النيرج » بإسقاط النون الثانية . وكذا ورد فى لسان العرب لابن منظور . وهو أُخَذٌ كالسحر وليس به، إنما هو تشبيه وتلبيس » .

(٥) أرمنت : بلدة بصعيد مصر الأعلى، بينها وبين الأقصر فى سمت الجنوب بعض مرحلة، وبينها وبين أسوان مرحلتان (راجع معجم البلدان والانتصار لابن دقاق) .

(٦) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «أصنام الكواكب» .

مذهب ، رصاص مُصفّى وزئبق معقود. وهذه الأجساد المعدنيّة فى طباع الكواكب وفى قسمتها . فلما فرغ منه زيّنه بأحسن زينة ونقشه بأحسن النقوش من الجواهر الملوّنة والزجاج المعمول الملوّن وكساه الوشى والديباج ولم يترك شيئا من التحف إلا عمله ، وكذلك عمل فى المدن الداخلة من أنْصِنا[1] هيكلا ، والقبّة التى أقامها بأتريب[2] وهيكلا شرقىّ الإسكندرية ، وأقام لزُحَل صنما من صَوّان أسـود على عبر النيل من الجانب الغـربىّ . وبنى شدّاث من الجانب الشرقىّ مدائن وجعل فيها صورة صنم قائم له إحليـل إذا أتاه المعقود والمسـحور ومن لاينتشر فمسّه بكلتا يديه أزال عنه ذلك وانتشر وقَوِىَ على الباه ، وجعل فى إحداها بقرة لها ضَرْعان كبيران إذا مسحتهما المرأة التى آنعقد لبنها درّ وصلُح أمرها .

وفى أيامه بُنِيت قُوص[3] العاليـة ، بناها لآبنٍ له كان سَخِط على أمّه فحوّلها إليها وأسكن معها قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعات . وقيـل : إن شُطْب[4] بُنِيت فى أيامه ؛ وعمِل الصورتين المتصقتين لكثرة النسـل . وكانت الحبش والسودان عاثوا فى بلده فأخرج لهم آبنـه منقاوش فى جيش عظيم فقتـل منهم وسبى وآستعبد الذين سباهم وصار ذلك سـنّة لهم ، واقتطع معدن الذهب من أرضهم وأقام ذلك

(١) أنصنا : بلدة بالصعيد الأوسط ، وبها آثار عظيمة أوّلية ، وهى على شط النيل من البر الشرقى قبالة الأشمونين من البر الآخر ، ولها مزدرع كثير ، وهى المدينة المشهورة بمدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون (راجع تقويم البلدان) . (٢) أتريب : كورة فى شرقى مصر ، بناها أتريب بن قبطيم بن مصر ، وقد وصفها المقريزى وشرح ما فيها من آثار وعجائب (راجع ج ١ ص ١٧٥ طبع بلاق) .

(٣) قوص : أعظم مدائن الصعيد وهى على ضفة النيل الشرقية ، سميت باسم قوص بن قفط بن أخميم ، وهى باب مكة واليمن وسواكن ، وقد وصفها المقريزى فى خططه (ج ١ ص ٢٣٦) وآبن دقاق فى كتاب الانتصار (ج ٥ ص ٣٨) ووصفها الأدفوى كذلك فى كتابه الطالع السعيد (ص ٨) وصفا بديعا وذكر كثيرا من الأشعار التى قيلت فيها . (٤) شطب : مدينة من المدن التى أخربها بخت نصر وأحرقها ، وهى بالقرب من أسيوط . (راجع كتاب الانتصار ج ٥ ص ٢٤ ومعجم البلدان لياقوت) .

السبْيَ يعملون فيه ويحملون الذهب إليـه ؛ وهو أوّل من أحَبّ الصيد واتخذ الجوارح ، وولّد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب الأهلية ، وعمِل البَيْطرة وما تعالج به الدوابّ ، وعمل من العجائب والطلَّسمات لكل فنّ ما لا يُحصَى كثرة ، وجمع التماسيح ، بطلّسم عمله لها ، إلى بركة بناحية أسيوط فكانت تنصبّ إليها من النيـل انصبابا فتقتلها ، وتستعمَل جلودها فى السـفن وغيرها ، وتستعمَل لحومها فى الأدوية والعقاقير المؤلّفة . قال : وبعض القبط يَحكى أنه عمل بمصر اثنى عشرة ألف أُعجوبة وطلَّسما ، ولم يعمل فى بلد كما عمل فيها ولا تهيّأ لأهله ما تهيّأ لهم من ذلك .

قال : وأقام شدّاث فى المُلْك تسعين سنة وخرج يَطرد[1] فأكبّ فرسُه فى وَهْدة فقتله . وفى بعض كتبهم : أنه أخذ بعض خدمه ، وقد خالفه فى أمر من الأمور ، فأمر بطرحه من أعلى الجبـل إلى أسفل فطُرح فتقطّع جسده ، وندم على فعـله ذلك فرأى فى منامه أنه سيصيبه مثل ذلك فكان يتوقّاه ، وآلى على نفسه ألا يعلو جبلا ، وأوصى إن أصابه شيء أن يُجعل ناووسه فى الموضع الذى يلحقه فيه مايلحقه ، ويُزبر عليه : ليس ينبـغى لذى القُدرة أن يخرج عن الواجب ويفعل مالا يجوز له فعله ، وهذا ناووس شدّاث بن عَديم بن قفطريم الملك ، عَمِل ما لا يحلّ له فكوفئ عليه بمثله .

قال : ولمّـا هلك عُمِل له سَرَب فى سفح الجبَـل فيه قبّة على مجلس قد صُفّح بالفضّة وجُعل فيـه على سرير مُلْكه ، وجُعل معه من الأموال والجواهر والتماثيل وأصناف الحِكَم والمصاحف شيءٌ كثير . وكان له أربعمائة وأربعون سنة .

وملك بعده ٱبنه منقاوُش[2] بن شدّاث ، فملك بحزم وحُنْكة وأظهر مصاحف الحِكَم وأمر بالنظر فيها ، وأن يُنسَخ منها لهم بخطّ العامّة ليفهموها ، وردّ الكهنة إلى

(١) يطرد : يصطاد .
(٢) فى المقريزى : «منقاوس» بالسين المهملة .

مراتبهم. وهو أوّل مَن عُمل له الحمّام من ملوك مصر. وكان كثير النكاح، تزوج عدّة
نساء من بنات عمه و بنات الكهنة، وجعل لكل آمرأة منهن مكانا بجميع ما يُصلحه
من البنيان العجيب والصور المتقنة والفروش الحسنة والآلات العجيبة، وأسكنهنّ
فيها. وقد قال بعض أهل الأثر: إنه الذى بنى منف لبناته وكنّ ثلاثين بنتا ونقلهنّ
إليها، وعَمِل مدنا غيرها ومصانع، وعمل هيكلا لصُوَر الكواكب وأصنامها على ثمانية ٥
فراسخ من منف، وعمل بتلك الناحية طلّسمات كثيرة وعجائب أغرب فيها بفضل
حكمة أبيه وجدّه، وعمل فى السنة آثنى عشر عيدا لكل شهر عيدٌ يُعمَل فيه من الأعمال
ما كان موافقا لبُرْج ذلك الشهر، وكان يُطعم الناس فى تلك الأعياد و يوسّع عليهم،
ففرح الناس به ورأَوْا معه مالم يَرَوْه مع غيره، وفُتح عليه من المعادن مالم يُفتَح على
أحد، وألزم أصحاب الكيمياء العملَ فكانوا لا يفترُون ليلا ولا نهارا، فآجتمع عنده ١٠
أموال عظيمة وجوهرٌ كثيرٌ و زجاجٌ نفيس مسبوك وغير ذلك، فأحبّ كنزه فدعا
أخا له فقال له: قد ترى كثرة هذا الذهب والجوهر، وما عُمل من هذه التماثيل
الكثيرة، ولست آمَنُ أن يتسامع بنا الملوك فيُغزُونا من أجله، فآمض فى أرض الغرب
ثم انظر مكانا حريزا خفيَّ الأثر ثم أحرزه فيه ثم آستره بعلامات وآكتب صفة المكان
وطريقه وعلامته. قال: ويقول أهل الأثر: إنه حمل معه آثنتى عشرة ألف عجلة، ١٥
منها من الجوهر ثلاثمائة عجلة، وسائرها من الذهب الإبريز الصفائح والمضروب،
ومن آلات الملوك وطرائفهم وسلاحهم وأوانيهم؛ فسار فى الجنوب يوما ثم أخذ
مغتربا اليوم الثانى و بعض الثالث، فآنتهى الى جبل أسود مُنيف ليس له مصعد
بين جبال مستديرة حوله، فعمل تحت ذلك الجبل أسرابا ومغاور ودفن فيها ما كان
معه وردمها وزبر عليها ورجع؛ فمكث أربع سنين يبعث كل سنة عَجَلا عظيمة ٢٠
تُدفَن فى نواح شتّى

وهو الذى عمل فى أنديمس المدينة بيتا تدور به تماثيل لجميع العلل، وكتب على رأس كل تمثال ما يصلح له من العلاج، فانتفع الناس بها زمانا إلى أن أفسدها بعض الملوك ضنّا بالحكمة . وعمل فى هذه المدينة صورة امرأة مبتسمة لا يراها مهموم إلا زال همّه ونسيه، وكان الناس يأتونها ويطوفون حولها ثم عبدوها من بعد . وعمل تمثالا روحانيّا من صُفْر مُذهب بجناحين [illegible] زانٍ ولا زانية إلا كشف عورته بيده، وكان الناس يُمتحَنون به فامتنعوا [illegible] فرقًا منه، واستمر كذلك إلى زمن كَلْكَن الملك، وذلك أن بعض نسائه، وكانت حظية عنده، عشقت رجلا من خدم الملك وخافت أن ينتهى إليه خبرها فيمتحنها بذلك الصنم فيقتلها . فاحتالت لذلك فخلا بها الملك فى بعض الليالى، وهما يتسامران، فأخذت فى ذكر الزوانى وجعلت تسبهنّ وتذمهنّ، فذكر الملك ذلك الصنم وما فيه من المنافع للناس، وما يستحقّ مَن عمله من الثناء والذكر الجميل؛ فقالت المرأة : إنه كذلك وقد صدق الملك، غير أن منقاوش لم يُصب الرأى فى أمره؛ قال الملك : وكيف قلت ذلك ؟ قالت : لأنه أتعب نفسه وحكماءه فيما جعله لصلاح العامّة دون نفسه، وهذا أكبر العجز؛ وإنما كان حُكْم هذا التمثال أن يُنصَب فى دار الملك حيث تكون نساؤه وجواريه، فإن اقترفت إحداهنّ ذنبا علم بها فيكون رادعا لهنّ متى عرض بقلوبهنّ شىء من الشهوة؛ لأن شهواتهنّ أغلب وأكثر من شهوات الرجال؛ ولو حدث — وأعوذ بسعد الله الأعلى — فى دار الملك شىء من هذا فأحبّ امتحانه فضح نفسه وشاع فى الخاصّ والعامّ أمره، وإن عاقب بغير أمر يحققه كان متعدّيا آثما، وإن لم يمتحنه صبر على المكروه . قال الملك : صدقت، فكيف الوجه فى هذا الأمر؟ قالت : يأمر الملك بنزع هذا الصنم من مكانه ونقله إلى داره ففعل فبطل عمله، وامتحن فلم يصنع شيئا، فعملت المرأة ما كانت همت به وانهمكت فيه .

قال : ويقال : إن منقاوش بنى هيكلا للسَّحَرة على جبل القصير وقدّم عليه رجلا منهم يقال له مسّيس ، فكانوا لا يطلقون الرياح للراكب المقلعة إلّا بضريبة يأخذونها منهم للملك . وكان الملك إذا ركب عملوا بين يديه التخاييل[1] العجيبة ، فيجتمع الناس إليهم ويعجبون من أعمالهم ، وأمر أن يُبنَى لهم هيكل للعبادة يكون لهم خصوصا ، وجعل فيه قبّة فيها صورة الشمس والكواكب ، وجعل حولها أصناما وعجائب ، وكان الملك يركب إليه ويقيم سبعة أيام ، وجعل فيه عمودَيْن زبر عليهما تاريخ الوقت الذى عُمل فيه ، وهما بعين شمس ، ونقل منقاوش إلى عين شمس كنوزا وجواهر وطلّسمات وعقاقير وعجائب ودفنها بها وبنواحيها .

قال : وكان منقاوش قسم خراج البلاد أرباعا : فربع منه للملك خاصة يعمل منه ما يريد ، وربع لأرزاق خدمه ، وربع ينفق فى مصالح الأرض وما يحتاج إليه من حفر ترعها وعمل جسورها وتقوية أهلها على العمارة ، وربع يدفن لحادثة تحدُث وحاجة تنزل . وكان خراج البلد فى ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف دينار . وهو مقسوم على مائة وثلاث كور بعدّة الآلاف . وأقام ملكا إحدى وسبعين سنة ، ومات من طاعون أصابه ، وقيل : من سمّ جُعل له فى طعامه ، وعُمل له ناووس فى صحراء المغرب ، وقيل : فى غربىّ قُوص ، ودُفن معه من مصاحف الحكمة والصنعة المعمولة وتماثيل الذهب والجوهر . ومن الذهب المضروب شىء كثير ، ودُفن معه روحانىّ الشمس من ذهب يلمع ، وله جناحان من زَبَرْجَد ، وصنم على صورة امرأته التى كانت أحظى نسائه عنده وكان يحبّها ، فأمر أن تُعمَل صورتها

---

(١) التخاييل : هى التمويه بالحيل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى ، فيخيل للناظر أنها بخلاف ما هى به ، كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيرا حقيقيا يخيل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه .

فى هيا كلهم جميعا، فعُمل له تمثالها من ذهب بذؤابتين من ذهب أسود، وألبست حلّة من جواهر منظومة وجعلت جالسة على كرسىّ، فكانت تجعل بين يديه فى موضع تجلس فيه يتسلّى بذلك عنها، فدُفنت معه عند رجليه .

وملك بعده آبنــه مناوش بن منقاوش؛ ملك بوصيّة من أبيه، فطلب الحكمة على عادة أبيه وآستخرج كتبها وأ كرم أهلها، وبذل فيهم الجوائز وطلب الإغراب فى عمل العجائب ، وكان كل واحد من ملوكهم يجهد جهده فى أن تُعمَل له غريبة من الأعمال لم تُعمَل لمن كان قبله وتثبت فى كتبهم وتزبر على الحجارة فى تواريخهم. قال : ومناوش هذا أوّل من عبد البقر من أهل مصر، وكان السبب فى ذلك أنه اعتلّ علّة يئس منه فيها ، وأنه رأى فى منامه صورة روحانىّ عظيم يخاطبه ويقول له : إنك لا يخرجك من علّتك إلا عبادة البقر لأن الطالع كان وقت حلولها بك فى صورة ثور بقرنين؛ ففعل ذلك ، وأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصــورة ، وعمل له مجلسا فى قصره وسقفه بقبّة مذهبة، فكان يبخّره ويطيّب موضعه ، ووكّل به سادنا يقوم به ويكنس تحتــه ، وكان يتعبّد له سرّا من أهل مملكته ، فبرأ من علّته وعاد إلى أحسن أحواله .

ويقال : إنه أوّل من عمــل العَجَل وضبّبها بالذهب ، وعمــل فيها قبابا من الخُشب المذهبة وفُرشت بأحسن الفرش، وكان يركب عليها مع مَن أحبّ . وقيل: إنه عُمل له ذلك فى علّته لأنه كان لا يقدر على الركوب؛ وكانت البقر تجزه فإذا مرّ بالمكان النزه أقام فيه، وإن مرّ بالمكان الخراب أمر بعمارته . وقيل : إنه نظر إلى ثور أبلق من البقر الذى يجر عجلته فأعجبه حُسن بَشَرته فأمر بترفيهه وسَوْقه بين يديه إلى كل موضع يسلكه إعجابا به، وجعل عليه جُلّا من الدِّيباج المنسوج بالذهب، فلما كان فى بعض الأيام ــ وقد خلا فى موضع منفرد عن أتباعه والثور قائم بين يديه ــ

إذ خاطبه الثور وقال: لو رفّهني الملك عن السير معه وجعلني في الهيكل وعبدني وأمر أهل مملكته بعبادتي كفيته جميع ما يريده، وعاونته على أمره، وقويته في مُلْكه، وأزلت عنه جميع عِلَله؛ فآرتاح لذلك وأمر بالثور أن يُغسل ويطيّب وينظّف ويدخل الهيكل، وأمر بعبادته. وعُبد ذلك الثور مدّة وصارت فيه آية أنه لا يبول ولا يَرُوث ولا يأكل إلّا أطراف ورق القصب الأخضر في كل شهر مرّتين، فآفتتن الناس به وصار ذلك أصلا لعبادة البقر.

١٣٠ / ١٢

قال: وابتنى مناوش مواضع وكنز فيها كنوزا وأقام أعلاما. وبنى في صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس وأقام فيها منارا ودفن حولها كنوزا. قال: ويقال: إن هذه المدينة قائمة، وإن قوما جازوا بها من نواحي الغرب وقد أضلّوا الطريق فسمعوا بها عَزِيف الجنّ ورأوْا أضواء نيرانهم. قال: وفي بعض كتبهم أنّ ذلك الثور، بعد مدّة من عبادتهم له، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف، ويُؤخَذ من رأسه هو شعرات، ومن ذنبه ومن نحاتة قرونه وأظلافه، ويُجعَل ذلك في التمثال، وعرّفهم[1] أنه يُلحَق بعالَمه وأمرهم أن يجعلوا[2] جسده في جُرْن من حجر [أحمر][3] ويُدفَن في الهيكل ويُنصَب تمثاله عليه، ويكون ذلك وزُحَل في شَرفه والشمس مسعودة تنظر إليه من تثليث والقمر في الزيادة، ويُنقَش على التمثال علامات الكواكب السبعة ففعلوا ذلك، وعملت الصورة من ذهب ملمّع على شِبْه الثور، وجُعل له قرنان من ذهب وكُلِّلا بأصناف الجواهر، وجعلوا عينيه جَزْعتين سوادا في بياض، ودفن جسد الثور في الجرن الأحمر.

قال: وجعل في المدينة شجرة تُطْلِع كل لون من الفاكهة، ومنارا في وسطها طوله ثمانون ذراعا، وعلى رأسه قبّة تتلوّن في كل يوم لونا حتى تمضي سبعة أيام

(١) كذا في المقريزي (ج ١ ص ٢٣٨ طبع بلاق). وفي الأصل: «وعرفه».

(٢) كذا في المقريزي. وفي الأصل: «بعالمه فيجعلوا». (٣) التكملة من المقريزي.

ثم تعود إلى اللون الأوّل فيكسو المدينة من تلك الألوان، وجعل حول المنار ماء شقّه إليه من النيل ، وجعل فى ذلك الماء سمكا من ذلك اللون ، وجعل حول المدينة طِلّسمات رءوسها رءوس قِرَدة وأبدانها أبدان الناس ، كل واحد منها لدفع مضرّة أو اجتلاب منفعة، وعمل على أبواب المدينة، وهى أربعة أبواب[1]، على كل باب صنما، ودفن تحت كلّ صنم كنزا من الكنوز، وباب كل واحد منها على قياس مائة ذراع منه إلى الجهة التى وجهه منصرف إليها، وكتب على كل واحد منها قُربانه وبخوره والوصول إليه ، وأسكنها السحرة فكانت تعرف بمدينة السحرة ، ومنها كانت أصناف السحرة تخرج .

قال : وأقام مناوش فى الملك سبعا وثلاثين سنة وهلك ، وعُمِل له ناووس تحت الجبل الغربىّ ، وجعل وصيّته إلى ابنه من بعده هِرْميس بن منقاوش ، فملك إحدى عشرة سنة لم يبن بنيانا ولا نصب منارا ولا عمل فى أيامه أعجوبة حتى إنه لم يكن يذكر فى عداد ملوكهم . فهذا ما أورده فى أخبار قفطريم بن قبطيم وبنيه على توالٍ واتساق فلنذكر أخبار أشمون .

ذكر أخبار أشمون ومَن ملك من بنيه

هو أُشمون بن قبطيم بن مِصْريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، وهو أخو قفطريم أبى الملوك الذين قدّمنا ذكرهم . كان مُلْكه من أُشمونين إلى منف ، ومن الشرق إلى البحر المالح، ومن الغرب إلى حدود برقة، وهو آ[illegible] مصر

(١) وفى المقريزى (ج ١ ص ١٣٨ طبع بلاق) فى كلامه على أشمون بن قبطيم : [illegible] فى سفح الجبل لها أربعة أبواب من كل ناحية باب ، فعلى الباب الشرقى صورة عقاب ، وعلى الباب الغربى صورة ثور ، وعلى الباب الشمالى صورة أسد ، وعلى الباب الجنوبى صورة كلب ، وفى هذه الصور [illegible] إذا قدم غريب لا يقدر على الدخول إليها إلا بإذن الموكلين بها ودفن تحت ... الخ .

ومن الصعيد إلى حدّ أخميم . وكان ينزل مدينة الأشمونين وله بُنيت وبآسمه سُمّيت، وكان طولها آثنى عشر ميلا فى مثلها . قال إبراهيم : وأشمون أوّل من آتخذ الملاعب بابصنا والبهنسا وغيرها، وبنى القصور وغرس الغروس، وبنى مدينة تُعرف بقمنطر ذات العجائب، وهى بالقُرب من مدينة السحَرة التى تقدّم ذكرها فى أخبار منقاوش . قال : وفى وسط هذه المدينة قبّة تُمطر شتاء وصيفا مطرا خفيفا، وتحت القبّة مطهرةٌ فيها ماء أخضر يُتداوَى به من كل داء فيبرئه ، وفى شرقها سَرَب لطيف له أربعة أبواب، لكل باب منها عضادة صورة وجه يخاطب كل واحد منها صاحبه بما يحدُث فى قومه ، ومَن دخل تلك البربا على غير طهارة نفخوا عليه فأصابته عِلّة فظيعة لا تفارقه إلى أن يموت . وكانوا يقولون إنّ فى وسطه مهبط النور وهو فى صورة العمود ، مَن اعتنقه لم يحتجب عن نظره شىء من الروحانيّات ، ويسمع كلامهم ويرى ما يعملون ، وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب فى يده مصحف فيه علوم الكهنة ، فمن أحبّ ذلك العلم أتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرّهما على صدره، فيثبت ذلك العلم فى صدره . ويقال : إن هاتين المدينتين قمنطر ومدينة السحَرة بُنيتا على آسم هِرْمِس وهو عُطارد، وأنهما بحالها .

قال : وحُكى عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان، وهو على مصر، فعرّفه أنه تاه فى صحراء الشرق وأنه وقع على مدينة خراب ، وأنه وجد فيها شجرة تحمل من كل فاكهة، وأنه أكل منها وتزوّد؛ فقال له رجل من القبط : هذه إحدى مدينتى هِرْمس وفيها كنوز كثيرة؛ فوجّه عبد العزيز معه جماعة وحمل معهم زادا وماء ، فأقاموا يطوفون شهرا فى تلك الصحارى فلم يقفوا لها على أثر . ويقال : إن أُشمون عمِل فى وقته على باب الأشمونين إوزّة من نحاس، فكان الغريب إذا دخل المدينة صاحت الإوزّة وخفقت بجناحيها فيعلَم به، فإن أحبّوا منعوه، وإن أحبّوا تركوه .

قال : وفى أيامه كثُرت الحيّات فكانوا يصيدونها و يعملون من لحومها الأدوية والدِّرياقات ، ثم ساقوها بسحرهم إلى وادى الحيّـات فى جبال لو بيــة ومراقية فسجنوها هناك . قال : وهو أوّل من عمل النوروز بمصر ورتبه سبعة أيام يدمنون فيها الأكل والشرب واللهو . وفى زمانه بُنيت البهنسا وأقام بها أسطوانات، وجعل فيها مجلسا من زُجاج أصفر وعليه قبّة مذهبة(١)، فكانت الشمس إذا طلعت على القبّة ألقت شعاعها على المدينة . وعمل فيها عجائب كثيرة يطول الشرح بذكرها .

قال : و يقال إن أشمون كان أوّل إخوته ملكا، وكان أعدل بنى أبيه وأرغبَهم فى صنعة تبقَى و يبقَى ذكرها . وهو الذى بنى المجالس المصفّحة بالزجاج الملوّن فى وسَط النيــل . وتزعم القِبْط أنه بنى سَرَبا تحت الأرض من الأُشمونين إلى أَنْصِنا تحت النيل . وقيل : إنه عمله لبناته لأنهنّ كنّ يمضِينَ إلى هيكل الشمس . وكان هذا السَرَب مبلّط الأرض والحِيطان والسقف بالزجاج الثخين الملوّن . وقيل : إنه كان أطول إخوته مُلْكا . وقال أهل الأثر : إنه ملك ثمانمائة سنة، وإن قوم عاد انتزعوا منه المُلْك بعــد ستمائة سنة من مُلْكه وأقاموا تسعين سنة وآستوبَئُوا البلد فآنتقلوا [إلى الدَّثِينة من طريق الحجاز إلى وادى القرى فعمروها](٢) وآتخذوا [بها](٢) المنازل والمصانع فسلّط الله عليهم الذّر فأهلكهم، وعاد ملك مصر إلى أُشمون بعد خروجهم من البلد . و يقال : إنه ملكهم ثمانمائة سنة وثلاثين سنة، ودُفن فى أحد الأهرام الصِّغار القبليّة . وقيل : بل عُمل له ناووس فى غربى الأشمونين ودُفن معه فيه من الأموال والعجائب شىء كثير، وأصنام الكواكب السبعة التى كانت فى هيكل المرآة التى تُرى منها الأقاليم ، ودُفن معــه ألف سَرْج من ذهب وفضّة ، وعشرة آلاف

(١) فى المقريزى (ج ١ ص ٢٣٨ طبع بلاق) : « فيما فوقها » .

(٢) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٢٣٩) . والدثينة : ناحية بين الجند وعدن .

...... من ذهب وفضة وزجاج ، وألف عُقّار مدبّرة لفنـون الأعمال وزُبر
عليه ... مُلكه والوقت الذى مات فيه .

واستخلف ابنه مناقيوس بن أشمون . وكان جلْدا محنّكا فاستأنف العمارة وبنى
... الأعلام ، وجمع الحكمة ومصاحف الملوك والحكماء وعمل العجائب ،
... وانفرد بها ، وعمل عليها حصنا ونصب عليه أربعة أعلام ، فى كل
ركن ... علَم ، وبين تلك الأعلام ثمانون صنما من نحاس وأخلاط ، فى أيديها
آلات ... وزُبر على صدرها آياتها .

... وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر وأبصرهم
... والسباع ، وكان يعلّم الغلمان السحر فإذا حذقوا علّم غيرهم ؛ فأمر الملك
أن ... يحوّل إليها فبنيت ، وهى إخميم . وملك مناقيوس نيّفا وأربعين سنة
ومات ، ودفن فى الهـرم المحاذى لإطفيح ، ونُقل معه شىء كثير من المـال والجواهر
والآنية والتمـاثيل ، وزُبر عليه اسمه والوقت الذى مات فيه .

... ابنه — ولم يُسمّه إبراهيم (١) — فكان أحزم من أبيه ، فعظُم فى عيون
أهل مصر ... وهو أوّل مَن عمل الميْدان وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه . وأوّل
من عمـل البيمارستانات لعـلاج المرضَى والزمْنَى وأودعهـا العقاقير ورتّب فيهـا
الأطبّاء وأجرى عليهم ما يسعهم ، وأقام الأمناء على ذلك ، وصنع لنفسه عيدا وسمّاه
عيـد الملك ؛ فكان الناس يجتمعون اليه فى يوم من السـنة ، فيأكلون ويشربون

(١) هو إبراهيم بن القاسم الكاتب مختصر كتاب العجائب الكبير الذى ألفه إبراهيم بن وصيف شاه
وهو الذى اعتمد عليه المؤلف فى النقل فى كلامه على ملوك مصر كما أشار الى ذلك فى أوّل هـذا الجزء .
وقـد رجعنا الى بعض المصادر التاريخية التى بأيدينا فلم نوفق الى معرفة اسم هـذا الملك ، بل رأينا بعض
المؤرخين يكرّره (راجع الهامش رقم ٢ ص ٤٤ ج ٣ من خطط المقريزى طبعة بيت) .

سبعة أيام وهو يُشرف عليهم فى مجلس قد بُنِىَ له على عمد قد طُوِّقت ... الصفائح فاخر الذهب المنسوج، وعليه قبّـة مصفّحة من داخلها وخارجها بالذهب ... المسبوك، وكان يعطى كلّ قوم قسطهم من النظر ثم يُكثرون الدعاء له و ينصرفون الى مواضعهم .

وفى أيامه بنيت سَـنْتَرِيَّة[1] فى صحـراء الواحات ، عملها مر... مربّعة على تقـدير واحد، وجعل فى كل حائط من حيطانها بابا ... يتنهى الى الحائط المجاور له من الجهة الأخرى، وجعـل فى كل ... و يَسرة تنتهى طرقاتها الى داخل المدينة، وجعل فى وسط هذه المدينة ... به من كل ناحية سبع درج ، وجعل عليه قبّـة من خشب مدهون[2] ... من رخام ، وفى وسطه منار من رخام عليه صنم من صوّان أسود ... بدَوَرَانها ، و بسائر نواحى القبّـة صور معلّقة تصفر وتصيح بلغات ... وكان الملك، يجلس على الدرجة العالية من المنصب وحوله بنوه وأقار به ... وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة [والوزراء][3] ، وعلى الثالثة رؤساء الجند ... أصحاب الفلسفة والمنجّمون والأطبّـاء وأصحاب العلوم ، وعلى الخامسة أصحاب العمارات ، وعلى السادسة أصحاب المِهَن ، وعلى السابعة العامّة، ... منهم : انظروا مَن دُونكم ولا تنظروا مَن فَوْقكم، فإنكم لا تلحقونهم ... من هذا ضربٌ من التأديب .

قال : وكان للملك عدّة نسـوة ، وكان يحبّ منهنّ آمرأتين ... و يجمع بينهما فى مجلس واحد ، فقـال لإحديهما فى بعض الأيام دون الأخرى ...

(١) سنترية، مدينة فى غربى الفيوم دون قزان السودان وهى آخر أعمال مصر .

(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «على خشب عظيمة من زجاج» وهو تحريف .

(٣) التكلة من المقريزى .

وغَرّب عقلها وتناولت سكّينا ودخلت الى الملك وهو منقر وتلك المرأة جالسة الى جنبه فضربتها بالسكّين، وقام الملك دُونها لِمنعها منها فضربته على فؤاده فخرّ صريعا، وقُبض على المرأة وحُبست، ومات الملك. وقد أوصى بقتل المرأة ووضع رأسها على ناووسه. ومدّة مُلكه ستون سنة.

وملك بعده آبنه مرقورة الملك، فدخل عليه العظماء وهنّوه ودعَوْا له بدوام المُلك والنعمة، وكان حازما عاقلا، فأخذ فى حُسْن التدبير وتقويم العمارة وترتيب المراتب، وجعل لرأس الكهّان الحكومة فى أمر الدّين. قال: وفى كتبهم أنه أوّل مَن ذلّل السباع بمصر وركبها. قال: وبنى [المدن وعمّر][1] الميا كل وأقام الأصنام التى غربى منف، وكان مُلكه نيّفا وثلاثين سنة، وعُمل له ناووس على طريق الغرب على مسافة يومين.

وقلّد آبنه بلاطس بن مرقورة، فملك وهو صبيّ. وكانت أمّه تدبّر الملك مع الوزراء والكهنة، وكانت حازمة مجرّبة، فأجرت الأمور على ما كانت فى حياة أبيه، وأحسنت الى الأولياء، وعدلت فى الرعيّة، ووضعت عنهم بعض الخراج فأحبّوها. وعُملت فى وقته البركة العظيمة فى صحراء الغَرْب، وجُعل فى وسطها عمود طوله ثلاثون ذراعا، فى أعلاه قصعة من حجارة يفور منها الماء فهى لا تنقُص أبدا، وجُعل حولها أصنام حجارة ملوّنة من كل صنف على صُوَر الحيوان والوحش والطير، وكان كل جنس يأتى الى صورته و يألفها فيُؤخَذ ولا يدرى.

قال: ولمّا ترعرع الملك أحبّ الصيد ولَهِج به، فعملت له أمّه متنزّها فيه مجالس مركّبة على أساطين من المرمر مصفّحة بالذهب، عليها قباب مرصّعة بالتصاوير

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٣٨ طبع بلاق).

العجيبة والنقوش المؤلّفة، يطلُع من تحتها المـاء فى فوارات وتنصب الى أنهار مصفّحة بالفضّة تُفضى الى حدائق فيها بدائع الغروس، عليها تماثيل تصفر بأصناف اللغات، ونُضِّدت بأنواع الفواكه ،وأرخت عليها ستورالدِّيباج المنسوجة بالذهب، وآختارت له من بنات الملوك الحسان وأزوجته منهنّ، وبنت حول تلك الجنة مجالس يجلس فيها الوزراء والكهنة وأشراف أهل الصناعات يرفعون اليه ما يعملونه، فكان أكثر مقام الملك فى تلك الجنـة ، فإذا فرغوا من أعمالهم نُقِل اليهم الطعام والشراب من مطبخه، ولا يزالون فى أكل وشرب بقية يومهم وليلتهم، وأقاموا على ذلك والأمور جارية على السداد .

وكانت أيامه سـعيدة كثيرة الخصب والسعة للناس والعـدل فيهم والإحسان اليهم . وكان له يوم يخرج فيـه الى الصيد ويرجع الى جنّته فيأمر لمن معه بالجوائز والأطعمة والأشربة ، ويجلس يوما للناس فينظر فى أمورهم ومصالحهم ويقضى حوائجهم ، ويجلس يوما للخلوة بنسائه، ثم جُدر فمات ؛ وعُمل له ناووس فى جنّته وجعل فيه من الأموال والجواهر والصنعة والتماثيل كما كان يجعل لآبائه . وكان ملكه ثلاث عشرة سنة، وآنتقل المُلْك إلى أعمامه .

ذكر أخبار أتريب الملك

هو أتريب بن قِبطيم بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام . قال: وكان أتريب قد انتقل إلى حيِّزه بعد وفاة أبيـه قبطيم ، وهى المدينة التى كان أبوه بناها له ، وكان طولها آثنى عشر ميلا ، ولهـا آثنا عشر بابا ، وفى شارعها الأعظم ثلاثُ قِباب عالية على عمد بعضها فوق بعض ، منها قبّـة فى وسط المدينة ، وقبّتان فى طرفيها ، وجعل على كل ركن منها مرقبا كبيرا يُوقَد ليلا ، وعلى كل باب من أبوابها

حرسا كثيرا، وجعل فى كل جانب منها ملعبا ومجالس ومتنزّهات تشرف من تلك
المجالس عليها، وشقّ فى عرضها [(1)] نهرا وعمل عليه قناطر معقودة، وبنى فوقها مجالس
يتّصل بعضها ببعض، وجعل حوله منازل تدور بالخليج متّصلة بالقناطر على رياض
مزروعة وخلفها الأجنّة والبساتين؛ وعلى كل باب من أبوابها أعجوبة من تماثيل
وأصنام متحرّكة وأصنام ينبع الماء من آذانها، ومن داخل كل باب صورة شيطانين
من صُفر، فكان إذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذى عن يَمنة
الباب، وإن كان من أهل الريب [(2)] بكى الشيطان الذى عن يَسرة الباب، وجعل
فى كل متنزّه منها من الوحوش الآلفة والطير المغرّدة كل مستحسَن، وجعل فوق
قباب المدينة صورا تصفر إذا هبّت الرياح، ونصب له فيها مرايا ترى البلدان
البعيدة والعجائب الغريبة، وبنى حذاءها فى الشرق مدينة وجعل فيها ملاعب
وأصناما بارزة كثيرة فى خلق مختلفة، وجعل فى وسطها بركة إذا مرّ بها الطير سقط
عليها فلا يبرح حتى يؤخذ، وجعل لها حصنا [بأثنى عشر بابا [(3)]] وجعل على كل
باب من أبوابها تمثالا يعمل أعجوبة وعمل حولها أجنّة، وجعل ما يقرُب منها من
ناحية الشرق مجلسا منقوشا على ثمانى أساطين، وفوق المجلس قبّة عليها طائر منشور
الجناحين يصفر كل يوم ثلاث صَفَرات: بكرة، ونصف النهار، وعند الغروب،
وأقام فيها أصناما وعجائب كثيرة، وبنى مدنا كثيرة وأكثر من العمارات، وأقام رجلا
يقال له برسان يعمل الكيمياء، وضرب منها دنانير، فى كل دينار سبعة مثاقيل عليها
صورته، وعمل منها تماثيل كثيرة. وعاش أتريب فى الملك ثلاثمائة سنة وستين سنة،

---

(1) فى المقريزى (ج ١ ص ١٧٥ طبع بلاق): «غربيها».
(2) فى المقريزى: «الشرّ».
(3) التكلة من المقريزى (ج ١ ص ١٧٦ طبع بلاق).

وكانت سنّه خمسمائة سنة . وعُمل له ناووس فى جبل بالشرق حُفر [له] (١) تحته سَرَب بُطِّن بالزجاج [والمرمر] (١) وجُعل على سرير من ذهب [مرصّع] (١) وحُملت إليه ذخائره، وجُعل على بابه صورة تنّين لا يدنو منه أحد إلّا أهلكه، وزبر عليه آسمه وتاريخ وقته، وسفَوْا عليه الرمال .

٥ وملكت بعده آبنته [تدرورة] (٢) فدبّرت الملك وساسته بأيد وقوة خمسا وثلاثين سنة ثم ماتت .

فقام بالملك بعدها أخوها (٣) فليمون (٤) بن أتريب، فردّ الوزراء إلى مراتبهم، وأقام الكهّان [على مواضعهم] (٥) ولم يخرج الأمر عن رأيهم، وجدّ فى العمارات وطلب الحكَم وعمل بها . وفى أيامه بُنيت تنّيس الأولى التى غرقها البحر، وكان بينها وبين ١٠ البحر شىء كثير، وحولها الزروع والأشجار والكروم والقُرى ومعاصر الخمر وغيرها وعمارة لم يكن أحسن منها، فأمر الملك أن يُبنَى له [فى] (٥) وسطها مجالس، ويُنصَب له عليها قباب، وتزيّن بأحسن الزينة والنقوش، وأمر بفرشها وإصلاحها، وكان إذا بدأ النيل فى الزيادة انتقل الملك إليها فأقام بها إلى النَّوْروز ورجع . وكان للملك بهـا أمناء يقسّمون المياه ويُعطون كل قرية قسطها، وكان على تلك القُرَى حصن ١٥ يدور بقناطر، وكان كل ملك يأتى يأمر بعمارتها والزيادة فيهـا ويجعلها له متنزّها .

---

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٧٦) . (٢) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٣٨)، ووصف هذه الملكة بقوله : « وكانت كاهنة ساحرة، فساست الملك أحسن سياسة، ودبرت الملك أجود تدبير؛ وعملت طلسمات عجيبة، منها طلسم منع الوحش والطير أن يشرب من النيل حتى مات أكثرها عطشا، ووقعت فى زمانها صيحة ارتجت لها الأرض فهلكت » . (٣) فى المقريزى (ج ١ ص ١٧٦): ٢٠ « ابن أختها » . (٤) فى المقريزى : « قليمون » بالقاف . (٥) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٧٦) .

ويقال: إن الجنّتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه كانتا لأخوين من أهل بيت الملك أقطعهما الملك ذلك الموضع . وقد تقدّم ذكر خبرهما عند ذكرنا لبحيرة تِنّيس[1]، وهو فى الباب السادس من القسم الرابع من الفن الأوّل فى ذكر البحار والجزائر وهو فى السفر الأوّل من كتابنا هذا .

قال : وفى زمان فليمون بُنيت دمياط على آسم غلام له كانت أمّه ساحرة لفليمون. قال: وملك فليمون تسعين سنة، وعمل لنفسه ناووسا فى الجبل الشرقى، وحوّل إليه من الأموال والجواهر وسائر الذخائر شيئا كثيرا، وجعل من داخله تماثيل تدور بلوالب فى أيديها سيوف فمن دخلها قطّعته بسيوفها. وجعل عن يمينه ويساره أسدين من نحاس مذهب بلوالب أيضا فمن دنا منهما حطّماه، وزبر على الناووس: هـذا قبر فليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصريم ، عمّر عمرا، وبقى دهرا ، وأتاه الموت فما آستطاع له دفعا ، فمن وصل إليه فلا يسلبه ما عليه، وليأخذ مما بين يديه .

وصار المُلْك بعده إلى آبنه قرسون بن فليمون؛ وجلس على سرير الملك ، ودخل إليه عظماء أهل البلد والخاص والعام فهنّئوه بالملك، فتقدّم فى أمر الهيا كل والكهنة وطلب الحكمة ؛ وكان حَدَثا جميلا فعشقته إحدى نساء أبيه، وكانت تتولى طيبة[2] وتزعم أن أباه أمرها بذلك ، ثم بعثت إلى ساحرة من أعلم السحرة بمنف[3]

(١) راجع (ج ١ ص ٢٥٢ من هذه الطبعة) .

(٢) طيبة : هى ثيبة عاصمة الصعيد فى أيام الفراعنة وذات المائة باب، وفى بعض مكانها الآن مدينة الاقصر أو قصور أبى الحجاج (راجع قاموس الجغرافية القديمة للرحوم أحمد زكى باشا) .

(٣) منف : هو الاسم العربى لعاصمة مصر فى أيام الفراعنة ، وتسمى عند اليونان منفيس ، وعند قدماء المصريين مانوفرى، وفى بعض محلها الآن قرية ميت رهينة بالجيزة. (راجع قاموس الجغرافية القديمة) .

فسألتها أن تسحره لها و بذلت لها على ذلك أموالا ، و إذا الساحرة قد عشقته أشدّ من عشقها ، فسَعَت بآمرأة أبيــه وعرّفته ما بذلت لهــا على ذلك ، فأبعدها عن مجلسه ومنعها من الدخول إليه .

وبلغ ملكا من ملوك حِمْيَر أن مُلْك مصر صار إلى غلام حَدَث غِرّ فطمع فيه وسار إليه فى جموع عظيمة ، فخرج قرسون نحوه فآلتقوا بأيلة[1] وآقتتلوا قتالا شديدا حتى تفانَى الفريقان ، فأتت تلك الساحرة إلى الملك فقالت : ماتجعل لى إن أعنتك على عدوّك حتى تفضّ جموعه وتظفر به ؟ قال حُكْمك ، فأخذت عليه بذلك العهود والمواثيق ، وأصــبحوا للحرب فدخّنت الساحرة بدخن عجيبة وأظهرت تخاييــل هائلة ، فهرب الحميرىّ فى نَفَر يسير من ثقاته ، وقتل بقية أصحابه ، وحاز جميع ما كان فى خزائنهم ، وعاد الملك إلى منف بالظفــر والغنيمة ، فأتتــه الساحرة فسألتــه الوفاء بالشرط فقال : احتكمى ما أحببتِ ، فهــذه الأموال والخزائن بين يديك ؛ فقالت : ما أريد غير الملك ؛ فقال : ويحك ! إنك لست من أهل بيت الملك ، وقد علمت ما فى هذا على الملك ؛ فقالت : قــد كان الملوك قبلك يغصبون نساء النــاس ويلدن منهــم ولا يسألون عن ولاداتهــم ، وأنا آبنــة فلان رئيس الكهنة ، ويوشِــك أن يحتاج الملك إلىّ بعد هذا . ولم تزل به حتى انصرف قلبه اليها ، فتزوّجها وأحبّها وحظيت عنــده . فضاقت الأرض بآمرأة أبيــه فأخذت فى أعمال الحيــلة عليها ؛ فدسّت جارية لها عاقلة لطيفة على ساقى الملك الذى يتولّى شرابه ، فاختلطت بجواريه حتى

---

(١) أيلة : فرضة على خليج العقبة ، سميت باسم أيلة بن مدين بن إبراهيم عليه السلام ، كانت مدينة شهيرة فى الأزمان الخالية ، وفيها قلعة شيدها أحمد بن طولون صاحب مصر ، وفى جنوبها على ساحل بلاد العرب كانت مدينــة أزيونجابر القــديمة . وخليج أيلة ، أو العقبة ، يعــرف فى كتب اليونان باسم : « إلانيتيك » . (راجع معجم الخريطة التاريخية الإسلامية للرحوم أمين واصف بك) .

تمكّنت من إناء كان فيه شراب الملك فألقت فيه سمًّا وعادت فى الوقت إلى مولاتها وأخبرتها ، فدخلت إلى الملك فسجدت له وقالت : قد كنتُ للملك ناصحة ، وعليه مشفقة ، فأقصانى وآختصّ هذه الساحرة الفاجرة ، وقد سمّت شرابه فى إناء من صفته كذا وكذا ، فليسقها الملك منه ليعلم صدقى ؛ فدعا الملك بالإناء فوجده على ما ذكرت ، فأحضر الساحرة وأمرها بشرب قدح منه فشربته ولم تعلم ما فيه فسقط لحمها عن عظمها . فأمر بدفنها فى ناووس وزبر عليه آسمها وما همّت به وما صار أمرها إليه ، وعاد إلى آمرأة أبيه وتزوّج بها وحسنت حالها عنده .

قال : وفى أيامه عُمل المنار على بحر القُلزُم[1] وجُعلت على رأسه مرآة من أخلاط تجتذب المراكب على شاطىء البحر ، فلا يمكنها أن تبرح أو تعشّر ، فإذا عشّرت سترت المرآة فتجوز المراكب .

قال : وأقام قرسون ملكا مائتين وستين سنة ؛ وقد كان عمل لنفسه ناووسا خلف الجبل الأسود الشرقىّ ، وجعل فى وسطه قبّة فيها آثنى عشر بيتا ، فى كل بيت أعجوبة لا تشبه الأخرى ، وزبر عليها آسمه ومدّة ملكه . قال : وملك بعده ثلاثة أو أربعة . فهؤلاء الذين سمّاهم من أولاد أترب ممن ملك منهم . والله أعلم[2] .

---

(١) هو الآن البحر الأحمر .

(٢) هنا ينتهى السفر الثانى عشر من هذا الكتاب من تجزئة الأصل من النسختين المأخوذتين بالتصوير الشمسى المحفوظتين بدار الكتب المصرية تحت رقمى ٥٤٧ ، ٥٥١ معارف عامة . وصورة ماجاء فى آخر هذا السفر من النسخة الأولى : « كمل الجزء الثانى عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى فى أواسط شهر ربيع الأوّل من شهور سنة سبع وستين وتسعمائة على يد كاتبه أفقر الخلق الى رحمة الحق نور الدين بن شرف الدين العاملىّ بلدا الشافعىّ مذهبا غفر الله له ولوالديه ولمن يقرأ له الفاتحة و يهديها للنبىّ ثم له آمين » .

وصورة ماورد فى النسخة الثانية : « كمل الجزء الثانى عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم البكرى التيمى القرشى المعروف بالنويرى عفا الله عنهم . يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء الثالث عشر منه ذكر أخبار صا بن قفطيم بن مصريم بن بيصر ابن حام بن نوح عليه السلام .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

ذكر أخبار صا بن قبطيم بن مصريم بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام[1]

قال: ولما قسم قبطيم الأرض بين بنيه الأربعة كما تقدّم وانتقل كل واحد منهم إلى حيّزه، خرج صَا بأهله وولده وحشمه إلى حيّزه، وهو بلد البحيرة وما يليها إلى برقة، ونزل مدينة صَا، وذلك قبل أن تُبنَى الإسكندرية. وكان صا أصغر ولد أبيه وأ... إليه، فلمّا ملك حيّزه أمر بالنظر فى العمارة، وبنى المدائن و البلدان والهياكل[2]... فى إظهار العجائب كما صنع إخوته، وطلب الزيادة فى ذلك. وكان ...[3] صاحب سياسته[4]، نبنى له من حدّ صا إلى حدّ لوبية ومراقيه على شاطئ البحر ... وجعل على رءوس تلك الأعلام مرايا من أخلاط شتى: فكان منها ما ... دوابّ البحر وأذاهم، ومنها ما إذا قصدهم عدوّ من الجزائر الداخلة وأصابها الشمس ألقت شعاعها على مراكبهم فأحرقتها، ومنها ما يُرى المدائن التى تجاورهم من ... البحر وما يعمله أهلها، ومنها ما ينظر منها إلى إقليم مصر فيعلم ما يخصب وما يجدب منه فى كل سنة. وجعل فيها حمامات تُوقد من نفسها ومستشرفات. وكان ... يوم فى موضع منها بمن يخصّه من حشمه وخدمه، وجعل حولها بساتين وسمّى ... الطيور المغرّدة والوحش المستوحش والمستأنس والأنهار المطردة والرياض ...

(١) أوّل الجزء الثالث عشر من تجزئة الأصل. وكتب المرحوم أحمد زكى باشا فى أول هذا الجزء من نسخة ب ما نصه: «يظهر لى أن هذا الجزء كتب فى أيام المؤلف، وفى آخره عبارة هذا نصها: "بلغ مؤلفه مقابلته بأصله والحمد لله" وهى بخط المؤلف كما يظهر من مضاهاتها بالأجزاء الأخرى المكتوبة بخطه».

(٢) كذا فى المقريزى (ج ١ ص ١٨٢ طبع بلاق) ونسخة (ب). وفى نسخة (أ): «مرخوب».

(٣) كذا فى الأصل والمقريزى. وفى تعليقات المقريزى (ج ٣ ص ٢١٨ طبعة فييت): ...

(٤) فى المقريزى طبعة فييت: «صاحب بابه».

وجعل على شرف القصر من حجارة ملوّنة تلمع إذا أصابتها الشمس فتنشر شعاعها على ما حولها ؛ ولم يدع شيئا من آلة النعمة والرفاهية إلا استعمله . فكانت العمارة ممتدّة إلى برقة فى رمال من رشيد إلى الإسكندرية إلى برقة . وكان الرجل يسافر فى أرض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ، ولا يسير إلا فى ظلال تستره من الشمس . وعمل فى تلك الصحارى قصورا وغرس فيها غروسا ، وساق إليها من النيل أنهارا . وكان يسلك من الجانب الغربىّ إلى حدّ الغرب فى عمارة متصلة .

قال : فلما آنقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد أهلها . قال : ولا يزال مَن دخل تلك الصحارى يحكى ما رأى فيها من الآثار والعجائب .

قال : ومن ملوكهم مرقونس ، وكان [فاضلا][1] حكيما ، محبّا للنجوم والحكمة ، فعُمل فى أيامه درهم إذا آبتاع به صاحبه شيئا اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم ولا يطلب عليه زيادة ، فيغترّ البائع بذلك و يقبل الشرط ، فإذا تمّ ذلك بينهما وقع فى وزن الدرهم أرطال كثيرة تساوى عشرة أضعافه ، و إن أحبّ أن يُدخل فى وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل . قال : وقد وُجد هذا الدرهم فى كنوزهم فى أيام بنى أميّة ، فكان الناس يتعجّبون منه . وقد كانوا وجدوا درهما آخر قيل إنه عُمل فى وقته أيضا يكون فى ميزان الرجل ، فإذا أراد أن يبتاع حاجة أخذ الدرهم من ميزانه وقلبه[2] وقال : اذكر العهد ، ومضى فآبتاع به ما أراد ، فإذا أخذ السلْعة ومضى إلى بيته

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٣٩ طبع بلاق) .

(٢) فى المقريزى (ج ١ ص ٣٤) « وقبلة » .

وجد الدرهم قد سبقه إلى منزله ، ووجد البائع حيث وضعه ورقة آس أو قرطاس أو مثل ذلك بدور الدرهم [١] .

وقيل : إن في وقته عُملت الآنيــة الزجاج التى توزَن ، فإذا مُلئت [ثم] [٢] وُزنت لم تزد على وزنها الأول شيئا ، وهى تحمل من المـاء بوزنها . وعُمِـل أيضا فى وقته الآنيــة التى إذا جُعل المـاء فيها صار خمرا فى لونه ورائحته وسكره . قال : وقد وُجد من هــذه الآنية بإطفيح [٣] فى إمارة هارون بن خُمَارويه بن أحمـد ابن طولون شربة جِزْع [٤] بعُـروة زرقاء ببياض . وكان الذى وجدها أبو الحسن [الصائغ] [٥] الخراسانىّ هو ونفرٌ معه ، فجلسوا ليأكلوا على عَبْر النيل وشربوا المـاء بها فوجدوه خمرا فسكروا منه ورقصوا ، فوقعت الشربة فانكسرت على عدّة قطع ، فاغتمّ الرجل وجاء بهـا إلى هارون مكسورةً ، فأسـف عليهـا وقال : لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض مُلْكى .

وفى أيامه عُملت الصورة الحنتمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر الحشرات [٦] ، فكانت إذا جُعلت فى موضع من المواضع اجتمع إليها ذلك الجنس بعينه ولا يقــدر أن يفارقها حتى يُقتَل . وعمل فى صحـراء الغرب ملعبـا من زجاج ملوّن ، وجعل فى وسطه قبّــة من الزجاج خضراء صافية اللون ، وكانت إذا طلعت عليها الشمس ألقت شعاعها على المواضع البعيدة . وعمل من أربع جهاته أربعة مواضع عالية من الزجاج ، كلّ مجلس منها بلون ، ونقش كلّ مجلس منها بمـا

(١) كذا فى الأصل والمقريزى . وفى تعليقات المقريزى (ج ١ ص ١٥٠ طبعة فييت) : «بدـ ـ» .
(٢) التكملة من المقريزى . (٣) إطفيح : هى الآن إحدى بلاد مركز الصف بمديرية الجيزة . وهارون بن خمارويه ولى مصر فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين .
(٤) سمى جزعا لأنه مقطع بألوان مختلفة ، أى قطع سواده بياضه وصفرته . (٥) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٣٤ طبع بلاق) . (٦) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «الدبابات» .

يخالف لونه من الطلّسمات العجيبة والنقوش الغريبة والصور البديعة ؛ كل ذلك من زجاج مطابَق يَشِفّ . وكان يقصد هذا الملعب ويُقيم فيه الأيام الكثيرة . وعمل له ثلاثة أعياد فى كل سنة ، فكانوا يحجّون إليه ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام؛ فلم يزل ذلك الملعب بحاله تقصده الأمم لتنظر إليه لأنه لم يكن له نظير ولا شكل ، ولا عُمل [فى العالم][1] مثلُه إلى أن هدمه بعض الملوك لأنه تعاطى مثله فلم يقدر على ذلك .

وكانت أمّ مرقونس آبنة ملك النوبة ، وكان أبوها يعبد نجما يقال له السُّها ، ويسمّيه إلٰها ، فسألت آبنها أن يعمل لها هيكلا ويفردها[2] به ، فعمله لها وصفّحه بالذهب والفضّة [وأقام فيه صنما][1] وأرخت عليه ستور الحرير ، فكانت تدخل إليه مع جواريها وحشمها وتسجُد له كل يوم ثلاث مرّات . وعَمِلت فى كل شهر عيدا تقرّب له فيه القرابين وتبخّره ليله ونهاره ، ونصبت له كاهنا من النوبة فكان يقوم به ويبخّر [ه][1] ويقرّب [له][1] ، ولم تزل بآبنها حتى سجد له ودعا الناس إلى عبادته .

قال : ولمّا رأى الكاهن أنّ الأمر قد أُحكِم له من جهة الملك فى عبادة الكواكب ، أحبّ أن يكون له مثالا فى الأرض على صورة شىء من الحيوان يتعبّد له ليكون حذاء عينيه ؛ فأقام يعمل الحيلة فى ذلك إلى أن آتفق بمصر كثرة العِقْبان حتى أضرّت بالناس ، فأحضره الملك وسأله عن كثرتها فقال : إنّ إلٰهك أرسلها لتعمل له نظيرا يُسجَد له . فقال الملك : إن كان ذلك يُرضيه فأفعله ، فعمل تمثال عُقاب طوله ذراعان فى عرض ذراع من ذهب مسبوك ، وعمل عينيه من ياقوتتين ،

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٣٥ طبع بلاق) .

(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « و يعرده » .

وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر [أخضر][1]، وجعل فى منقاره كرة[2] معلقة وسَرْوَله بأدوك أحمر ، وأقامه على قاعدة [من][1] فضة منقوشة ، وركّبها على قائمة زجاج أزرق، وجعله فى أزَج عن يمين الهيكل، وألقى عليه ستور الحرير ، وجعل [له] دُخْنة معمولة من جميع الأفاويه والصمغ، وقرّب له بعجل أسود و بكارة الفراريج و بواكير الفواكه والرياحين . فلما تمّت له سبعة أيام دعاهم إلى السجود له فأجابوه . ولم يزل [الكاهن][1] يُجهد نفسه فى عبادته، وعَمِل له عيدا دعاهم فيه إلى أن يبخّر له فى أنصاف الشهور بالمندَل وترشّ الهياكل بالخمر العتيقة [التى تؤخذ][1] من رءوس الجوابى[3]، ونطق لهم العُقاب وعرّفهم أنه أزال عنهم العِقبان وضررَها ؛ وكذلك يفعل فى غيرها ممّـا يخافون؛ فسُرّ الكاهن بذلك ووجّه إلى أمّ الملك فعرّفها ذلك فصارت الى الهيكل ، فلمّا سمعت كلام العقاب سرّها ذلك وأعظمته، و بلغ الملك خبره فركب إلى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه ، فسجد له وأقام له سَدَنة وأمر أن يزيّن بأصناف الزينـــة ، وكان الملك يقوم بذلك الهيكل و يســجد لتلك الصورة و يسألها عمّا يريد[4] فتخبره .

وعمل من الكيمياء والذهب ما لم يعمله أحد من الملوك . فيقال : إنه دَفَن فى صحراء الغرب خمسمائة دَفين . ويقال : إنه عمـــل على باب صَـــا عمودا وجعل عليـــه صنما فى صورة آمرأة جالســـة وفى يدها مرآة ينظر فيها العليل [أو ينظر له أحد فيها][1] فإن كان يموت رآه ميّتا ، و إن كان يعيش رآه حيّا؛ والمسافر ، فإن كان مُقبلا بوجهه علموا أنه راجع ، و إن رآه مولّيا علموا أنه متماد ، و إن كان مريضا أو ميّتا رأوه كذلك . وعمل بالإسكندرية صـــورة راهب جالس على قاعدة وعلى

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٣٥) . (٢) فى المقريزى : «درّة» . (٣) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « الخوابى » . (٤) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « أحب » .

رأسه كالبرنس[1] وفى يده كالعكّاز إذا مرّ به رجل تاجر جعل بين يديه شيئا من الذهب على قدر بضاعته، وإن حاذاه عن بُعد[2] ولم يفعل ذلك لم يقدر على الجواز ويبيت قائما مكانه ، فكان يجتمع من ذلك مالٌ عظيم يفرّق فى الزمْنَى والفقراء.

وعمل فى وقته كل أعجوبة طريفة، وأمر أن يُزبَر آسمه عليها وعلى كل علَم وكل طِلَّسم وصنم . وعمل لنفسه ناووسا فى داخل أرض الغرب عند جبل يقال له سدنلم، وعمل تحته رحًى طوله مائة ذراع فى آرتفاع ثلاثين ذراعا فى عرض عشرين ذراعا، وصفّحه بالمرمر والزجاج الملوّن المسبوك وسقفه بالحجارة الصافية، وعمل فيما دار به مصاطب لطافا مبلّطة بالزجاج، وعمل على كل مصطبة فيها أعجوبة وتمثالا ممّا عُمل فى وقتــه ، وعمل فى وسط الأزَج دكّة من زجاج ملوّن ، على كل ركن من أركانها صورة تمنع من الدنوّ إليها ، وبين كل صورتين كالمنارة عليها جوهر مضىء ، وجعل فى وسَط الدكّة حوضا من ذهب يكون جسده فيه بعد تضميده بالأدوية الممسكة، ونقل إليــه ذخائره من الجوهر والذهب وغير ذلك ، وأمر أن يُسَدّ باب الأزَج بالصخور والرَّصاص وتُهال عليــه الرمال . وكان مُلكه ثلاثا وسبعين سنة ، وعمره مائتين وأربعين سنة، وكان جميلا ذا وَفْرة حَسنة فنسَكت طاقة نسائه بعده ولزِمن الهيكل .

وعهد بالملك إلى آبنــه أنساد بن مرقونس ؛ فملك بعد أبيه وهــو غلام آبن خمس وأربعين سنة ، وكان مُعجبا جبّارا طمّاح العين ، فنكح آمرأة من نساء أبيــه وآنكشف أمره معها ، وكان أكبر همّه اللهو واللعب ، فجمع كل مُلْهٍ كان فى مملكته رقصده كل مَن هذه سبيله ، وجعل تدبير المُلْك لحمدويه له يقــال له

(١) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « كالريش » .

(٢) فى المقريزى : « تجاوزه » .

مسرور ، ورفض العلوم والهيا كل والكهنة والنظرّ فى أمور الناس . وعمل قصورا من خشب عليها قباب من خشب منقوشة مموّهة وجعلها على أطواف فى النيل ، فكان يشرب عليها مع من يحبّه من نسائه وخدمه ومَن يُلْهيه . وعمل عَجَلا فى البرّ وحمل عليها الأروقة المذهبة وفرشها بفاخر الفرش ، فكان يتنزّه عليها ويجرّها البقر ويقيم فى نزهته شهورا لا يمرّ بموضع نزه إلاّ أقام فيه أياما . وولّد من الشجر توليدا كثيرا . وٱستنفد أكثر ما فى خزائن أبيه لجوائز المُلْهين والنفقات فى غير وجه . فلمّا أسرف فى ذلك اجتمع الناس إلى وزيره فأنكروا عليه حاله وسألوه مسألته والمشورة عليه أن يقع عمّا هو عليه فضمن لهم ذلك ، وناوضه فيه فلم ينته عنه ، وسلّط أصحابه على الناس فأساءوا إليهم وأضروا بهم . وخرج فى بعض الأيام إلى متنزّه كان له قد صفّح مجالسه بصفائح الذهب والفضة ، وغريب الزجاج الملوّن ، والجواهر المخروطة ، والصهاريج المرخّمة الملوّنة ، وأمال إليه المياه ، وغرس فيه الرياحين والثمار ، وفرش مجالسه بأصناف الفرش ؛ وكان إذا أحبّ أن يخلو بٱمرأة من نسائه خلا بها هناك ؛ فإنه فى ذلك المكان ، وقد أقام به أياما ، إذ خرج غلام لبعض حُرَمه فأتى بعض التجّار فى حاجة أراد أخذها بغير ثمن ، فمنعه التجّار منها ، فوثب بهم فضربوه حتى أسالوا دمه وحمل ، وٱتصل الخبر بالوزير وصاحب الجيش فركبا إلى الموضع وأنكرا على الناس فأغلظوا لهما ، فٱنصرفا وعرّفا الملك الخبر ، فأراهما أنه لم يحفل بذلك ، وأمر بالنداء فى الناس مَن تعرّض لكم من خدم الملك وأصحابه بأذى فاقتلوه ، فشكره الناس وحمدوا فعله على ذلك ، وتواصَوْا بالوثوب على أصحابه ، حتى إذا مضى لذلك أسبوع وجه الملك إلى الوزير وصاحب الجيش فعرّفهما أنه قد عزم على الركوب إلى صحراء الغرب يتصيّد هناك ، وامر أن يركب معه الجيش ويتزوّدوا لثلاثة أيام ففعلوا ، وخرج إلى البرّية فسار حتى إذا اختلط

الظلام رجع الجيش حتى وافى باب المدينة ، وأمر أصحابه أن [illegible]
فى الناس فقتلوا خلقا كثيرا ، ثم أمر أن ينادى : هذا جزاء من أقدم [illegible]
رعاياهم وأصحاب مهنهم ، وأخرب الموضع الذى ضُرب فيه الفلا [illegible]
الناس ، فتقدّم إلى وزيره أن يطرح نفسه بين يديه ويسأله فيهم [illegible]
وقال : مَن عاد إلى مثل ما كان فقد حلّ لنا دمه ، فدعَوْا له وآنصرفوا [illegible]
عن الناس وآستخفّ بالكهنة والهيا كل فأبغضته العامة والخاصة [illegible]
فآحتال عليه خاصّته بطبّاخه وساقيه فسمّاه وهو آبن مائة وعشرين [illegible] .

وصار الملك من بعده إلى آبنه صا بن أنساد بن [illegible]
قال : وأكثر القبط تزعُم أن صا بن مرقونس أخو أنساد . فملك [illegible]
فوعدهم بالعدل فيهم ، والإحسان إليهم ، وحُسْن النظر لهم ، وسكن منف [illegible]
الأحياز كلها ، وعمِل بها عجائب وطِلّسمات ، وردّ الكهنة إلى مراتبهم ، [illegible]
وأهل الشرّ ممن كان يصحب أخاه ، ونصب العُقاب الذى كان أبوه [illegible]
هيكله ودعا إليه . وعمل فى منف مرآة كان يرى منها ما يُخصب من [illegible]
وبنى بداخل الواحات مدينة غرس حولها نخلا كثيرا . ونصب قُرْ [illegible]
كثيرة . وعمل خلف المقطّم صنما يقال له صنم الحِيلة ، فكان كل من [illegible]
يأتيه فيبخّره فيتيسّر عليه ذلك الأمر[1] . وجعل على أطراف مصر [illegible]
يرفعون إليه ما يجرى فى حدودهم . وعمل على غربى النيل منائر يُوقَد عليها إذا [illegible]
قاصد أو نابهم أمرٌ . ويقال : إنه بنى أكثر منف وكل بنيان عظيم بالإسك[illegible]

قال : وكان لمّا ملك البلد بأمره جمع الحكماء إليه ونظر فى النجوم — [illegible]
حاذقا — فرأى أن بلده لا بدّ أن [illegible] بالطوفان من نيلها ، ورأى أنها [illegible]

(١) وورد فى المقريزى (ج ١ ص ٥ ٤ ١ طبعة فييت) بعد هذا ما نصه : «وجعل بحافة [illegible]
منارا يعلم منه أمر البحر وما يحدث [illegible] ما يصل اليه البصر على مسيرة أيام وهو أول [illegible]

يه ... من ناحية الشأم ، بجمع كل فاعل بمصر وبنى فى الواح الأقصى ... جعل طول حصنها فى الآرتفاع خمسين ذراعا وأودعها جميع الحكم والأموال .

وبنى المدينة التى وقع عليها موسى بن نُصَير[2] فى زمن بنى أمية ، وكان قد أخذ على الواح الأقصى ، وكان عنده علم منها ، وأقام سبعة أيام يسير فى رمال وصحارى سَمْتَ الغرب والجنوب إلى أن ظهرت له مدينة عليها حصنٌ وأبواب حديد . فأصعد إليها الرجال ، فوقفوا على ما فيها لمّا لم يمكنه فتح أبوابها ، ولغلبة الرمال على ما حولها ؛ فكانوا إذا علوا الحصن وأشرفوا عليها وثبوا إليها ؛ وعَرْض حصنها عشرون ذراعا ، فلمّا أعياه أمرها تركها ومضى ، فهلك فى تلك الطريق جماعة من أصحابه . فلم يُسمَع بأحد بعد موسى بن نُصَير ولا قبله وقع عليها .

قال : وفى تلك الصحارى أكثر متنزّهاتهم ومدائنهم العجيبة ؛ إلا أن الرمال غلبت عليها . ولم يبق بمصر ملك إلا وقد عمل للرمال دفعا ثم تفسد طِلَّسماتهم على تقادُم الأيام .

---

(١) التكملة من المقريزى (ج ٣ ص ٤٨ طبعة فييت) .

(٢) هذه المدينة تسمى « مدينة النحاس » ويقال لها « مدينة الصفر » وتقع فى بعض مفاوز الأندلس . قال ياقوت فى معجمه : « ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة وأنا برىء من عهدتها ، إنما أكتب ما وجدته فى الكتب المشهورة التى دونها العقلاء ، ومع ذلك فهى مدينة مشهورة الذكر فلذلك ذكرتها » ثم ذكر عن ابن الفقيه أن ذا القرنين بناها وأودعها كنوزه وعلومه وطلسم بابها فلا يقف عليه أحد ، وبنى داخلها بحجر البهتة وهو مغناطيس الناس ، وذلك أن الإنسان اذا نظر اليها لم يتمالك أن يضحك ويلق نفسه عليها فلا يزايلها أبدا حتى يموت . ولما بلغ عبد الملك بن مروان خبرها وخبر ما فيها من الكنوز والعلوم وأن الى جانبها بحيرة بها كنوز عظيمة كتب الى موسى بن نصير عامله على المغرب يأمره بالمسير اليها والحرص على دخولها وأن يعرفه ما فيها ، ودفع الكتاب الى طالب بن مدرك فحمله وسار حتى انتهى الى موسى بن نصير وكان بالقيروان ، فلما أوصله اليه تجهز وسار فى ألف فارس نحوها فلما رجع كتب الى عبد الملك بن مروان ... وساق الكتاب الذى وصف فيه رحلته الى هذه المدينة وما صادفه فيها (راجع معجم البلدان فى كلامه على مدينة النحاس) .

وقال : وحكى قوم من الثُّنَّاء(١) فى ضياع الغرب : أنّ عاملا من عمّالهم عَنُفَ بهم فهربوا ودخلوا فى صحـراء الغرب وحملوا معهم زادا إلى أن يصلح أمرهم ويرجعوا إلى بلادهم ، وكانوا على يوم وبعض آخر قد لجئوا(٢) فى سفح الجبل ، فوجدوا عَيْرا أهليّا قد خرج من بعض شِـعابه ، فتبعه نفر منهم ، فأخرجهم إلى مساكن وأشجار ونخل ومياه تَطَّرِدُ(٣) وقوم يسكنون هناك ويزرعون، فخاطبوهم وعجبوا منهم وسألوهم عن حالهم فعرّفوهم أنهم منـذ كانوا يسكنون تلك الناحيـة ويتناسلون ويزرعون ولا يطالبهم أحدٌ بخراج ولا يُؤْذيهم، وأنهم لم يدخلوا إلى ضياع الغرب قطّ ، وقالوا لهم آنتقلوا إلينا ؛ فخرج القوم بعد أن صلحت أمورهم وآجتمعوا على الرجوع إلى ذلك الموضع والسكنَى فيـه بأهليهم ومواشيهم ، فخرجوا يطلبون الطريق مدّة فمـا عرفوا الطريق ولا تأتّى لهم الوصول إليه بعد ذلك فأسِفوا على مافاتهم منه .

وحُكى أيضا عن آخرين ضلّوا الطريق فى الغرب ، فوقفوا على مدينة عامرة ، كثيرة الناس والمواشى والنخيل والشجرَ، فأضافوهم وأكلوا عندهم وشربوا ، وباتوا فى طاحونة يعمل فيها الخبز(٤)، فسكروا من الشراب وناموا ، فلم ينتبهوا إلّا عند طلوع الشمس ، فوجدوا أنفسهم فى مدينـة كبيرة خراب ليس فيها أحدٌ، فآرتاعوا لذلك وخرجوا على وجوههم كالهاربين، وساروا يومهم على غير سَمْت حتى قرب المساء، فظهرت لهم مدينـة أخرى عظيمة أكبر من الأولى وأعمر ، وأكثر أهلا ودوابّ ومواشِىَ وشجرا ونخـلا ، فأنِسُوا بهم وأخبروهم بخبر المدينة ، فجعلوا يعجبون منهم ويضحكون ؛ وإذا لبعض أهل المدينة وليمةٌ فآنطلقوا بهم معهم ، فأكلوا وشربوا

---

(١) الثناء : المقيمون ؛ يقال : تنـأ بالبلد يتنو تنوءا أقام به وقطنه . ويقال : هو من بناء تلك الكورة، أى أصله منها .

(٢) لجج بالمكان : لزمه .

(٣) تطرد : تجرى .

(٤) كذا فى نسخة ب وفى نسخة أ : « الخمر » .

وغنّوهم بأصناف الملاهى ، وسألوهم عن حالهم فحدّثوهم أنهم ضلّوا عن الطريق فى هذه الصحَارِى، فقالوا لهم: الطريق بين أيديكم واضح مستقيم لا يمكن أن تغلطوا فيه ، فإن أحببتم المسير وجّهنا معكم مَن يُوقفكم على سَنَن الطريق الكبير الذى يوصلكم إلى منازلكم، وإن أحببتم أن تقيموا عندنا رفدناكم وكنتم إخواننا وأحبابنا.
٥ قالوا : فسُررنا بذلك من قولهم ، وأجمع بعضنا على المُقام معهم ، وأجمع من كان له منا أهلٌ وولدٌ على أن يسير إلى منزله ويحملَ أهله وولده ويعودَ إليهم. قال: وبتنا عندهم فى خير مَبيت، فرحين بما ساق الله إلينا . فلمّا كان من الغد انتبهنا فوجدنا أنفسنا فى مدينة عظيمة ليس فيها أحدٌ من الناس وقد تشعّب بعض حصنها، إلّا أن حولها نخلا قد تساقط ثمره وتكدّس حَوله ، فلحقَنا من الخوف لذلك والارتياع
١٠ ما استوحشنا له ، وخرجنا على وجوهنا هار بين مفكّرين فيما عايناه من أهلها، وإنّا لنجدُ روائح الشراب منّا ومعانى الخُمار ظاهرة ، فلم نزل نسير يومنا أجمع وليس بنا جوع ولا عطشٌ، حتى إذا كان المساء رأينا راعيا يرعَى غنما فسألناه عن العمارة وعن الطريق فدلّنا على الطريق وقال : إنّ العمارة حذاؤكم ؛ وإذا بنِقار[1] من ماء المطر فشربنا منه وبتنا عليها، ثم أصبحنا فإذا نحن فى خلاف موضعنا الذى كنّا فيه، وإذا آثار العمارة
١٥ والناس فما سرنا إلّا بعض يوم حتى دخلنا مدينة الأشمونين بالصعيد ، فكنّا نحدّث الناس ولا يقبلون منا .

قال : وهذه مدائن القوم القديمة قد غلب عليها الجانّ، ومنها ما قد سترته عن العيون فلا ينظر إليها أحد .

قال : وذكر بعض القبط أن رجلا من بنى الكهنة الذين قتلهم أنساد سار إلى
٢٠ ملك الإفرنجة فذكر له كنوز مصر وعجائبها وخيرها، وضمِن له أن يوصّله إلى مُلْكها

(١) النقار : جمع نقرة (بالضم)، وهى الوهدة المستديرة فى الأرض .

وأموالها، ويدفع عنه أذى طِلَّسماتها حتى يبلُغ جميع ما يريده ويعرّفه مواضع الكنوز.
فلمّا آتصل بصَا الملك أنّ صاحب الإفْرَنْجة يتجهّز إليه، عمد إلى جبل بين البحر
المالح وشرق النيل فأصعد إليه أكثر كنوزه وما فى خزائنه، وبنى عليها قِبابا وصفّحها
بالرّصاص، وأمر ففتحوا جوانب الجبل إلى منتهى خمسين ذراعا، وجعلوا فى آنتهاء
المنحوت منه شبه الطرر البارزة خارجة من النحت بقدر مائة ذراع وهو بين جبال ٥
وعرة، فحصّن أمواله هناك. وتجهّز إليه صاحب الإفْرَنْجة فى ألف مركب، فكان
لا يمرّ بشىء من أعلام مصر ومناراتها وأصنامها إلّا هدمه وكسره بمعونة الكاهن له.
حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها وهدم كثيرا من معالمها إلى أن دخل النيل من
ناحية رشيد وصعد إلى منف فحارب أهل النواحى، وجعل ينهَب ما مرّ به ويقتُل
مَن قَدر عليه إلى أن طلب المدائن الداخلة ليأخذ كنوزها فوجدها ممتنعة بالطلّسمات ١٠
الشداد والمياه العميقة والخنادق الشدّاخات، فأقام عليها أياما كثيرة يعالج أن يصل
إليها، فلمّا لم يُمكنه ذلك قتل الكاهنَ، وهلك جماعةٌ من أصحابه، وآجتمع أهل
النواحى على مراكبه وأصحابه فقتلوا منهم خلقا وأحرقوا بعض المراكب. ولما تيقّن
أهل مصر تلفَ الكاهن الذى كان معه أرسلوا إليه سحرهم وتهاويلَهم، وأتت مع ذلك
رياح غرقت كثيرا من مراكبه، وكان جلّ مرامه أن ينجو بنفسه فما عاد إلى ١٥
الإفرنجة إلا وَقِيذا[1] بجراحات أصابته، ورجع النـاس إلى منازلهم وقُراهم، ورجع
صا إلى منف فأقام بها وترك ما كنزه على حاله.

قال: ولم يزل بعد ذلك يغزو بلاد الروم وأهل الجزائر ويخربها فهابته الملوك،
وتتبّع الكهنة فقتل منهم خلقا، وأقام سبعا وستين سنة، وكانت سنه مائة وسبعين
سنة وهلك، فدُفن بمنف فى ناووس عمله وسَط المدينة من تحت الأرض، وجعل ٢٠

(١) الوقيذ: الشديد المرض المشرف.

المدخل إليــه من خارج المدينــة من الجهة الغربية ، وحمل إليــه أموالا عظيمة وجواهر كثيرة، وتمــاثيلَ وطلّسمات وغيرَ ذلك كما فعل أجداده. وكان فيه أربعةُ آلاف تمثال ذهب على صُوَر شتّى برّية وبحرية ، وتمثال عُقاب من جوهر أخضر جُعل عند رأسه ، وتمثال تنّين من ذهب مشبّك عند رجليه وزبر عليه ٱسمه وسيرته وغلبته للملوك .

وعهد إلى ٱبنــه تدارُس بن صــا ، فملك الأحياز كلها بعد أبيه وصفا له مُلْك مصر . وكان محنّكا مجرّبا ذا أيد وقوّة ومعرفة بالأمور ، فأظهر العــدل ، وأقام الهياكل وأهّلَها قياما حسنا . وبنى غربى منف بيتا عظـيما للزُّهَرة وزبر جميــع الأخبار — وكانـــ صنم الزهرة من لازَوَرْد مذهّب متوّجا بذهب — وسوّره بسوارين من الزَّبَرْجَد الأخضر ؛ وكان فى صورة ٱمرأة لهـا ضفيرتان من ذهب أسود مدبّر، وفى رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب ، وفى يدها قضيبُ مَرجان وهى تشير بسبّابتها كالمسلّمة على مَن فى الهيكل ، وجعل حذاءها من الجانب الآخر تمثــال بقرة ذات قرنين وضَرعين من نحاس أحمر مموّه بذهب موشّحة بحجر اللازورد ، ووجه البقرة محاذيا(١) لوجه الزهرة ، وجعل بينهما مطهرة من أخــلاط للأجساد على عمــود رُخام مجزّع فيهــا ماء مدبّر يُستشفَى به من كل داء ، وفرش الهيكل بحشيشــة الزهرة يبدلونها فى كل سبعة أيام ، وجعل فيه كراسيّ للكهنة مصفّحة بذهب وفضّة، وقرّب له ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير، وكان يحضر يوم الزهرة ويطوف به. وكانت فُرُش الهيكل وستوره عن يمين تمثال الزهرة ويساره. وكان فى قبّته صورة رجل راكب على فرس له جناحان وله حربة فى سنانها رأس إنسان معلق، وبقى هذا إلى زمان بُخْتَ نصر

(١) فى المقريزى (ج ١ ص ١٥٦ طبعة فييت) «تجاه وجه» .

وهو الذى هدمه . ويقال : إن تدارُس الملك هذا هو الذى حفر خليج سخا ، وآرتفع مال البلد فى أيامه مائة ألف ألف [دينار](١) وخمسين ألف [ألف](١) دينار . وقصده بعض عمالقة الشام فخرج إليه وآستباحه ودخل إلى فلسطين فقتل منها خلقا كثيرا وسبى بعض حكمائها وأسكنهم مصر وهابته الملوك .

قال : وعلى رأس ثلاثين سنة من مُلْكه طمع السودان من الزَّنج والنُّوبة فى أرضه فعاثوا وأفسدوا ، فأمر بجمع الجيوش وأعدّ المراكب ووجّه قائدا من قوّاده يقال له : بلوطس فى ثلثمائة ألف ، وقائدا آخر فى مثلها ، ووجّه فى البحر(٢) ثلثمائة سفينة فى كل سفينة كاهنٌ يعمل أعجوبة من العجائب [ثم خرج فى جيوش كثيرة ، فلقى جموع السودان](٣) وكانوا فى زُهاء ألف ألف فهزموهم ، وقتلوا أكثرهم أبرح قتل ، وأسر منهم خلقا كثيرا ، وتبعهم حتى وصل إلى أرض الفيلة من بلاد الزَّنج(٤) فأخذ منها عدّة من النمور والوحش وذللها وساقها معه إلى مصر . وعمل على حدود بلده منارات وزبر عليها مسيرَه وظفرَه والوقتَ الذى سار فيه . ولمّا وصل إلى مصر آعتلّ ورأى رؤيا تدلّ على موته ، فعمل لنفسه ناووسا ونقل إليه شيئا كثيرا من أصنام الكواكب والذهب والجوهر والصنعة والتماثيل وهلك ؛ فحُمل إليه وزُبر عليه آسمه وتاريخُ الوقت الذى هلك فيه ، وجُعل عليه طِلَّسما تمنع منه .

وعهد إلى آبنه ماليق بن تدارس ؛ فملك بعد أبيه . وكان غلاما كريما حسنَ الوجه ، مجتربا ، مخالفا لأبيه وأهل بلده فى عبادة الكواكب والبقر .

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٢٨٨ طبعة فييت) .

(٢) فى المقريزى : « فى النيل » .

(٣) التكملة من المقريزى . وفى الأصل : « وتوجه هو » .

(٤) بلاد الزنج هى الآن بلاد الصومال والحبشة و بلاد زنجبار (راجع معجم الخريطة التاريخية) .

ويقال : إنه كان موحدا على دين أجداده قبطيم ومصريم ، وكانت القبط تذمّه لذلك . وكان سبب إيمانه فيما حُكى أنه رأى فى منامه أن رجلين لهما أجنحة أتياه فاختطفاه وحملاه إلى الفلك ، فأوقفاه بين يدى شيخ أسود أبيض الرأس واللحية ، فقال : هل عرفتنى ؟ فدخلته فزعة الحداثة ، وكانت سنه نيّفا وثلاثين سنة ، فقال له : ما أعرفك ! فقال : أنا قرويس ، يعنى زُحَل ، فقال : قد عرفتك ، أنت إلٰهى ، فقال : إنك وإن كنتَ تدعونى إلٰها فإنى مربوب مثلك ، وإلٰهى الذى خلق السمواتِ والأرضَ وخلقنى وخلقك ، فقال : وأين هو ؟ فقال : هو فى العلو لا تراه العيون ، ولا تلحقه الأوهام ، وهو الذى جعلنا سببا لتدبير العالَم الأسفل . قال له ماليق الملك : فكيف أعمل ؟ قال : تُضمِر فى نفسك ربوبيّته علينا . وتُخلِص فى وحدانيّته وتعرف بأزليّته . ثم إنه أمر الرجلين فأنزلاه ، فانتبه وهو مذعور ، فدعا رأس الكهنة فقصّ عليه رؤياه فقال : قد نهاك عن عبادة الأوثان فإنها لا تضُرّ ولا تنفع ، فقال له : مَن أعبد ؟ قال : الله الذى خلق السمواتِ والكواكب التى فيها والأرض ومَن عليها . فكان الملك يحضر الهيكل فإذا سجد انحرف عن الصنم وأضمر السجود لخالق السمواتِ والأرض دون غيره ، ثم أخذ فى الغزو والغيبة عن أهل مصر وجال فى البلدان .

قال : وقال بعض أهل مصر : إنّ الله تعالى أيّده بملك من الملائكة يعضّده ويرشده ، وربما أتاه فى نومه ، فأمره أن يأمر الناس باتخاذ كل فاره من الخيل ، واتخاذ السلاح وما يصلُح للأسفار ، وإعداد الزاد ، واتخذ فى بحر الغرب مائتى سفينة ، وخرج فى جيش عظيم فى البرّ والبحر ، فلقيه جموع البربر فى جموع لا تُحصَى فهزمهم واستأصل أكثرهم ، وبلغ إلى إفريقية وسار منها ، وكان لا يمرّ بأمة إلّا أبادها إلى أن عدّى من ناحية الأندلس يريد الإفرَنجة ، وكان بها ملك عظيم يقال له : أرقيوس ، فأقام يحاربه شهرا ثم طلب صلحه وأهدى له هدايا كثيرة فسار عنه ، ودوّخ الأمم المتّصلة

بالبحر الأخضر[1] وأطاعه أكثرها . ومر بأمة عُراة لهم حوافر فى أرجلهم ، وقرون صغار ، وشعور كشعور الدوابّ ، ولهم أنياب بارزة من أفواههم ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى أثخنهم ، فنفَروا منه إلى غِيرانٍ[2] لهم مظلمة عظام .

والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة ، وعمل أعلاما على البحر وزبر عليها آسمه ومسيره ، وخرب مدن البربر حيث كانت ، وألجأهم إلى قرون الجبال ورجع ؛ فتلقّاه أهل مصر بأصناف اللهو والطيب والرياحين ، وفُرشت له الطرقات ولقوه بآبنه إيهقانس وكان وُلد بعد مسيره فسُرّ به . واتصل خبره بالملوك فهابوه وحملوا إليه الهدايا من كل وجه ومكان .

قال : وبلغه أن قوما من البربر سحرةً لهم تخاييل عجيبة وبخورات يدلّون بها ، وأنهم فى مدينة لهم يقال لها : قرميدة ، فى الغرب من مصر ، قد ملّكوا عليهم آمرأة ساحرة يقال لها : اسطافا ، فاتصل به كثرة أذاهم للناس فغزاهم ، فلما قرب منهم ستروا عنه مدينتهم بسحرهم فلم يرها ، وطمّوا مياههم فلم يعرفها ، فهلك أكثر أصحابه عطشا . فلما ستروا عنه البلد صعد إلى ناحية الجنوب ، ثم رجع على غير الطريق التى سار إليهم فيها ، فمرّ بهيكل كان لهم يحضرونه فى أعيادهم ، فهدم بعضه وسقط منه موضع على جماعة ممن تولّى هدمه فأهلكهم ، فلما رأى ذلك تركهم وآنصرف ، وخرجوا إلى هيكلهم فبنَوْا ما سقط منه وحرسوه بطِلّسمات محكمة ، ونصبوا فوق قبّته طِلّسما من نحاس مذهب ، وكان إذا قصده أحد صاح صياحا منكرا يَرْعَد منه مَن سمعه ويبهت فيخرجون إليه ويصطلمون[3] . وكانت ملكتهم أحذق منهم بالسحر فقالت :

(١) البحر الأخضر ، ويقال له بحر الظلمات : هو المحيط الأطلنطى ، ويسمى أيضا : بحر الظلمة أو بحر أقيانس أو البحر الأعظم ، ويقرأ فى بعض الكتب « بحر أقناس » وهو تصحيف ظاهر (راجع معجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية للرحوم أمين واصف بك) . (٢) الغيران : جمع غار ، وهو ما ينحت فى الجبل شبه المغارة فاذا اتسع قيل كهف . (٣) يصطلمون : يستأصلون .

إنى أعمل الحيلة فى إفساد مصر وأضرّ وآذى أهلها، فعملت أشياء وأرسلتها مع مَن ألقاها فى النيـل، ففاض النيل على مزارعهم وغلّاتهـم، وكثرت فيـه التمـاسيح والضفادع ، وكثرت العلل فى الناس ، وانبثّت فيهم الثعابين والعقارب ، فأحضر ماليق الكهنة والحكماء وقال : أخبرونى عن هذه الحوادث التى حدثت فى بلادنا ما هى ؟ ولِمَ لم تشرحوها فى طـالع السـنة ؟ فاجتمعوا فى دار حكمتهـم ونظروا حتى علموا أنه من ناحية الغرب ، وأن امرأة عملته وألقته فى النيل ، فعلم أنه من فعل تلك الساحرة، فقال لهم :اجهدوا أنفسكم فى هلاكها فقد بلغت فيكم مرادَها، فاجتمعوا للهيكل الذى فيه صور الكواكب وأصنامها، وسألوا الملك الحضور معهم فلم يمكنه الخلافُ عليهم . فلما أمسى لبس مِسْحا وافترش رمادا واستقبل مصلاه وأقبل على الابتهال إلى الله والتضرّع وقال: يا ربّ يا الله، أنت إله الآلهة ، وخالق الخلق، ولا يكون شيء إلا بقضائك، أسألك أن تكفينى أمر هؤلاء القوم، وغلبه السهر فأغفى فى مصـلاه ، فرأى آتيا يقول له : قد رحم الله تضرّعك ، وأجاب دعاءك ، وهو مُهلك هؤلاء القـوم ومدمّر عليهـم، وصارف عنك المـاء المفسـدَ والدوابّ المضرّة . فلمّا أصبح الكهنة غَدْوا عليه وسألوه حضور هيكلهم، فقال لهم: قد كفيتكم أمر عدوّكم وأهلكتهم، وأزلت المـاء الفاسـد والدوابّ المضرّة عنكم ، ولن ترَوْا بعـدها شيئا تكرهونه ، فنظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين لقوله وقالوا : قد سررنا بمـا ذكره الملك ، وهم يضمرون الاستهزاء به والتكذيب له، ومضَوْا إلى دار الحكمة فقال بعضهـم : الرأى ألا تقولوا فى هـذا شيئا، فإن كان حقّا وقفـتم عليه، وإن كان باطلا اتسع لكم اللفظ فى لومه، وسيتبين لكم أمره .

فلما كان بعد يومين انكشف ذلك الماء الفاسد، وهلكت تلك الدوابّ المضرّة، فعلموا أن الذى أخبرهم به حقّ؛ وأمر قائدا من قوّاده ورجالا من الكهنة أن يمضوا

حتى يعلموا علم هؤلاء القوم، فأتوا المدينة فوجدوا حصنها قد سقط وقد هلكوا بأجمعهم واحترقوا وآسودّت وجوههم ؛ ووجدوا الأصنام منكّسة على وجوهها ، وأموالَهم ظاهرة بين أيديهم ، فطرقوا المدينة فلم يجدوا فيها غير رجل واحد كان مخالفا لهم بسبب رؤيا رآها ؛ ووجدوا من الأموال والجواهر وأصنام الذهب والتماثيل ما لا يُحصى ولا تعرف له قيمة ، ووجدوا صورة كاهن لهم من زبرجد أخضر على قائمة من حجر الأسباذشم ؛ ووجدوا صورة روحانىّ من ذهب، ورأسه من جوهر أحمر، وله جناحان من درّ، وفى يده مصحف فيه كثير من علومهم فى دفّتين مرصّعتين بجوهر ملوّن ؛ ووجدوا مِطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة من زجاج أخضر مسبوك ، وفيها فضلة من الماء الدافع لأسقامهم ، وفرسا من فضّة مَن عزم عليه بعزائمه ودخنه بدُخنة وركبه طار به فيما يزعمون، وغير ذلك من العجائب والأصنام ؛ فحملوا من ذلك ما قدروا عليه من الأموال والجواهر ، وسأل الملك ذلك الرجل : ما أعجب ما رأيت من أعمالهم ؟ فقال : نعم أخبرك أيها الملك؛ إنه قصدهم بعض ملوك البربر، وكان جبّارا من أهل بيت سحر، فجاء بالجموع الكثيرة وتخاييل هائلة ، فأغلق أهلُ مدينتنا حصنهم ولجأوا إلى أصنامهم يخضعون لها ويتضرّعون إليها ، وكان لهم كاهن عظيم الشأن، فسار إليه رؤساؤهم وشكَوْا اليه ما دهمهم من عدوّهم ، فأتى إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها ، فجلس على حافّتها وأحاط رؤساء الكهنة بها وزمزم على ماء البركة ، فلم يزل كذلك حتى فار الماء وفاض ، وخرجت من وسطه نار تتأجج ، وظهر من وسطها وجه كدارة الشمس وعلى صورتها وضوئها، فخرّ الجماعة وسجدوا لذلك الوجه، وتجلّلهم نور؛ وجعل يعظم حتى ملأ البركة ، وصعد حتى خرق سقف القبّة ، ثم ارتفع إلى رأسها وسمعتُه يقول : قد كفيتكم شرّ عدوّكم، وأمرهم أن يأخذوا دوابّهم ففعلوا

ذلك ، وهَلَكَ الملك الذى قصدهم وجميعُ مَن كان معه، وآنصرفوا ؛ فأقبلوا يأكلون ويشربون، فقلت لبعض الكهنة: لقد رأيت عجبا من ذلك الوجه فما هو؟ فقال: تلك الشمس تبدّت لنا فى صورتها وأهلكت عدوّنا ، صاحت بهم صيحة أحرقتهم فأصبحوا خامدين .

٥ قال : وكان هذا الرجل عاقلا فاتخذه ماليق وزيرا . ولم يزل ماليق على التوحيد ، وهو مع ذلك يساير أهل البلد خوفا من آضطراب مُلكه ، وأمر أن يُعمَل له ناووس ، فكان يقصده ويتعبّد فيه ، وأمر ألا يُدفَن معه ذهب ولا جوهر ، فلم يُدفَن معه شىء سوى الطِّيب وصحيفة مكتوبة بخطه فيها : هذا ناووس ملك مصر ماليق ، مات مؤمنا بالله العظيم لا يعبد معه غيره ،

١٠ بريئا من الأصنام وعبادتها ، مؤمنا بالبعث والحساب والمجازاة على الأعمال ، عاش كذا وكذا سنة ، ملك فيها كذا وكذا ، فمن أحبّ النجاة من عذاب الآخرة فليدن بما دان به . وأوصى ألا يُدفَن معه فى ناووسه أحد من أهله ، وكان قد كنز كنوزا عظيمة وزبر عليها أن تخرجها أمة النبىّ المبعوث فى آخر الزمان .

وآستخلف آبنه حِرما[1] بن ماليق . قال : وكان لينا سهلَ الخُلُق، لم يمت أبوه

١٥ حتى شرح له التوحيد ، وأمره أن يدين به ، ونهاه عن عبادة الأصنام ؛ وكان معه على ذلك فى حياته ، ثم رجع عنه بعد وفاته الى دينهم . وكان سبب رجوعه الى عبادة الأصنام أنّ أمه كانت من بنات كبار الكهّان ، فنقلته بعد موت أبيه الى دينها وغلبته على رأيه ، وأمرت بتجديد المياكل وتشدّدت فى عباده الأصنام . وتزوّج حرما آمرأة من بنى عمّه فأحبها حبّا شديدا وهام بها ، فأفسدته على جميع نسائه ،

---

٢٠ (١) فى المقريزى (ج ٣ ص ٩ ؛ طبعة فييت) : « خربتا » .

فاشتدّ ذلك على أمه، وكانت له قَهْرَمانة من أهـل سُيُوط ساحرة لا تطاق، وكانت تميل الى هـذه المرأة لأنها كانت تعشـق أخاها ؛ فزادت فى سحرها لتـلك المرأة فأوحشت ما بين الملك وأمّه حـتى رفضها وآستخفّ بأمرها ، وزاد الأمر حتى حلف ألاّ يجاورها ، وأنه يغزو وينصرف فلا يرجع الى مصر أو يتّصل به موتُها ، ففعل ذلك وغزا بلد الهنـد وأرض السودان . ٥

وكان سبب خروجه الى الهند أن ملكا من ملوكها يقال له مسور خرج فى عدد كثير وسايرته مراكبه فى البحر ففتح بلدانا وجزائر، وأكثر القتل والسبى؛ وذُكِرت له مصرُ فقصـدها وآعتلّ فرجع من طريقه ؛ فأمر حرما الملكُ بعمل مائة سفينة على شكل سفن الهنـد، وتجهّز وركب وحمل معـه المرأة ووجوه أصحابه وقوّاده، وآستخلف آبنـه كلكن على مصر وكان صبيًّا ، وجعـل معه وزيرا يقال له لاون، ١٠ وكاهنا يقال له ويسموس ، وخرج فـرّ على ساحل اليمن وعاث فى مدائنه . وكان لا يمرّ بمدينة إلا أقام صنما وزبر عليه آسمَه ومسيرَه ووقتَـه ، وبلغ سرنديب[1] فأوقع بأهلها، وغَنِم منها مالا وجوهرا كثيرا، وحمل معه حكيما لهم، وبلغ جزيرةً بين الهند والصين بهـا قوم سمرٌ طوال يجزون شعورهم، ورأى لهم الدوابّ والطيـور وشجر الطيب والنارَجيل والفواكه التى لا تكون إلا عندهم ، فأذعنوا له بالطاعة وحملوا ١٥ اليه أموالا وهدايا فقبلها وسار عنهم . وأقبـل يتنقّل فى تلك الجزائر عدّة سنين ؛ فقيل : إنه أقام فى سفره سبعَ عشرةَ سـنة ، ورجع إلى مصر بالظّفَر والغنيمة ، ووجد أمه قد هلكت ، ووجد آبنه على الملك كما آستخلفه ؛ فسُرّ بذلك وهابه مَنْ حوله من الملوك . وبنى عدّة هياكل وأقام فيها أصنام الكواكب؛لأنها — فيما زعم — هى التى أيّدته فى سـفره حتى ظَفِر بما ظفـر به وغَنِم ما غنمه . وقـد كان حمـل ٢٠

(١) سرنديب : هى جزيرة سيلان الآن .

معه من الهند حكيما وطبيبا ، وكان معهما من كتبهم وحكمهم ما أظهرا به فى مصر عجائب مشهورة ، وحمل معه صنما من أصنام الهند من الذهب مقرّطا بالجوهر، فنصبه على بعض الهياكل التى عملها . وكان حكيم الهند يقوم به ويخدُمه و يقترب له . وكان يخبرهم بما يريدون منه .

٥ قال : وأقام حرما بعد مُنْصَرَفه من الهند مدّة ثم غزا نواحىَ الشام فأطاعه أهلها وهادَوْه ورجع إلى مصر . ثم غزا نواحى النوبة والسودان فصالحوه على خراج يحملونه له ، ورفع أقدار الكهنة وزاد فى تعظيم دينهم ؛ فصوّروه فى هياكلهم ومضاجعهم ، وملكهم خمسا وسبعين سنة . وعمل لنفسه فى صحراء الغرب ناووسا، وعمل برقودة[1] مصانع وعجائب ، وأقام بها إلى أن مات وآبنُه كلكن بمنف ، فضمد ١٠ جسده بالموميا والكافور والمرّ، وجعل فى تابوت من ذهب، وجُعل معه مالٌ كثير، وجوهر نفيس ، وسلاح عجيب ، وتماثيلُ وصنعة وعقاقيرُ ، ومصحف الحكمة . وصوّر فى جانب الناووس صورا وزبر عليها ذكرَ السفن التى سار فيها، والبلدانَ التى فتحها، وسدّ باب الناووس وزبر عليه اسمَه ومدّتَه وتاريخَ الوقت الذى هلك فيه ، وقتل جماعةٌ من نسائه أنفسَهنّ عليه . وكان جميلا سمح الأخلاق، وآغتمّ عليه ١٥ الكهنة لإكرامه لهم ، وأهل المملكة لاتباعه لهم .

وملك بعده آبنه كلكن بن حرما ، وعقد التاج على رأسه بالإسكندرية بعد موت أبيه وأقام بها شهرا ورجع إلى منف . وكان أصناميّا على دين أبيه وآستبشر به أهل مصر . وكان يحبّ الحكمة و إظهار العجائب و يقرّب أهلها ويُكثر جوائزهم . ولم يزل يعمل الكيمياء فى مدّة ملكه ؛ فخزن أموالا عظيمة بصحارى ٢٠ الغرب . وهو أوّل من أظهر علم الكيمياء بمصر وكان مكتوما . وكان الملوك قبله

(١) رقودة : هى مدينة الإسكندرية .

أمروا بترك صنعتها لئلا تجتمعَ ملوك الأمم على غزوهم ، فعملها كلكن وملا دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهبُ بمصر أكثر منه فى وقته ولا الخراجُ ؛ لأنه كان فى وقته — فيما حكاه القبط — مائةَ ألفِ ألفِ وبضعةَ عشرَ ألفِ ألفِ مثقال. قال : وكان المثقال الواحد من الصّنعة يطرح على القناطير الكثيرة فيصبغها ، فآستغنوْا عن إثارة المعادن لقلّة حاجتهم إليها . وعمل من الحجارة المسبوكة الملوّنة الصمِّ التى تَشِفّ[1] شيئا كثيرا لم يعمل مثله أحدٌ ممن تقدّمه . وعمل من الأدرك الملوّن والفيروزج أشياء تخرج عن العقول، حتى كان يسمّى حكيمَ الملوك . وغلب جميع الكهنة فى علومهم، وكان يخبرهم بما يَغيب عنهم، فهابوه وآحتاجوا إلى علمه. وكان نمروذ بن كنعان الذى أهلكه الله تعالى على يد إبراهيم الخليل عليه السلام فى وقته، فيقال : إنه لما آتصل بنمروذ خبر حكمته استزاره فوجّه إليه أن يلقاه منفردا من أهله وحشمه بموضع كذا ، ففعل النمروذ ذلك وسار إلى الموضع الذى ذكره ، وأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله ذوات أجنحة ، وقد أحاط به نور كالنار، وحوله صُوَرٌ هائلة قد خَيَّل بها، وهو متوشّح بثعبان محترما ببعضه، والثعبان فاغرٌ فاه، ومعه قضيب آس أخضر كلما حرّك الثعبان رأسه ضربه بالقضيب. فلما رآه النمروذ هاله أمره وخاطبه ؛ فاعترف له بجليل الملك والحكمة، وسأله أن يكون ظهيرا له .

وتقول القبط : إن كلكن الملك كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربىّ فى قبّة تلوح على رأسه . وكان أهل البلد إذا دهمهم أمر آجتمعوا حول الهرم . ويقولون : إنه ربما أقام على رأس الهرم أياما لا يأكل ولا يشرب ، ثم آستتر عنهم مدّة حتى توهّموا أنه هَلَكَ . وكان يجول فى الأرض وحده حتى طَمِعت الملوك التى حوله

(١) أنظر الحاشية رقم ٢ ص ٥ من هذا الجزء.

فى ملكه ؛ فقصده ملك من ملوك الغرب يقال له «سادوم» فى جيش عظيم، وأقبل من ناحية المغرب من نحو وادى هيبب[(١)] ليكبس البلد، فأقبل حتى وافاهم، ثم جلّلهم بشىء من سحره كالغمام شديد الحرارة، فأقاموا تحته أياما لا يدرون أين يتوجّهون، فطار إلى مصر فآستأنس الناس لمقدَمه، فعرّفهم ما جرى وأمرهم بالخروج اليهم ليعرفوا خبرهم، فوجدوهم ودوابّهم أمواتا فعجبوا لذلك، وهابه الكهنة هيبة لم يهابوها أحدا قبله، وصوّروه فى جميع الهياكل، وملكهم زمانا .

وبنى فى آخر عمره هيكلا لزُحَل من صوّان أسود فى ناحية الغرب، وجعل له عيدا، وجعل فى وسطه ناووسا، وحمل إليه ما أراد من ذهب وجوهر، وحِكَم وعقاقير، وعرّفهم بموته، وجعل على باب الناووس طِلّسمات تمنع منه، وغاب عنهم فلم يقفوا على موته .

وكان قد أوصى إلى آبنه ماليا بن كلكن فملك بعد أبيه . وكان شَرِهاً كثيرَ الأكل والشرب، منفردا بالرفاهة، غيرَ ناظر فى شىء من الحكمة، وجعل أمر البلد إلى وزير له . وكان معجبا بالنساء؛ وكان له ثمانون آمرأة، ثم آتخذ آمرأة من بنات الملوك التى بمنف وكانت عاقلة سديدة الرأى، وكان بها مُعْجَبًا فحمته النساءَ . وكان له بنون وبنات، وكان أكبر بنيه يقال له : طوطيس، فكان يستجهل أباه فأعمل الحيلة فى قتله، وإنما حملته على ذلك أمه وجماعة نسائه وبعض وزراء أبيه؛ فهجم عليه فى وزرائه وهو سكران وتلك المرأة عنده فقتله وقتل المرأة وصلبها .

(١) وادى هيبب : هذا الوادى بالجانب الغربىّ من أرض مصر فيما بين مريوط والفيوم، يجلب منه الملح والنطرون . عرف بهبيب بن محمد الغفارىّ أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . شهد فتح مصر (راجع خطط المقريزى ج ١ ص ١٨٦ طبع بلاق) .

وملك بعده ابنه طوطيس بن ماليا وجلس على سرير الملك . وكان جبّارا جريئا شديد البأس مهيبا ؛ فدخل عليه الأشراف وهنئوه ودعَوْا له ، وأمرهم بالإقبال على مصالحهم وما يَعنيهم ، ووعدهم الإحسانَ .

والقبط تزعم أنه أوّل الفراعنة بمصر ، وهو فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام . ويقولون إن الفراعنة سبعة هو أوّلهم . قال : ثم تذاكر الناس ما فعله بأبيه وأنكروه واستقبحوا صلبَه المرأة فأنزلها ودفنها ، واستخفّ بالكهنة والهياكل .

ولنذكر خبره مع إبراهيم الخليل عليه السلام فى أمر سارة[1] ، ونورد من ذلك ما أورده أهل الأثر وما ورد فى الحديث الصحيح النبوىّ من هذه القصة . قال إبراهيم بن القاسم الكاتب فى سياقه أخبارَه : لما فارق إبراهيم عليه السلام قومَه والنمروذَ بنَ كنعان ونزل الشام ثم خرج إلى مصر ومعه سارة امرأته وخلّف ابن أخيه لوطا بالشام وسار إلى مصر ، وكانت سارة أحسن نساء العالمين فى وقتها ، ويقال إن يوسف الصدّيق ورث جزءا من حسنها لأنها جدّة أبيه . قال : فلما سار إبراهيم إلى مصر وأتى الحرس المقيمون على أبواب المدينة فرأوا سارة وعجبوا من حسنها ورفعوا خبرها إلى طوطيس[2] . وقد روينا فى ذلك حديثا بسندنا الذى قدّمناه إلى أبى عبد الله البخارىّ رحمه الله قال : حدثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب قال : حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل بها قرية[3] فيها ملك

---

(١) سارة : بتخفيف الراء، وقيل بتشديدها .

(٢) فى شرح البخارى للقسطلانى (ج ٤ ص ١٢٢ طبع بلاق سنة ١٢٩٣ هـ) أن اسم هذا الملك صاروق ، وقيل سنان بن علوان ، وقيل عمرو بن امرئ القيس بن سبأ ، وكان على مصر .

(٣) فى شرح البخارى للقسطلانى : «هى مصر . وقال ابن قتيبة : الأردن» .

من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل : دخل إبراهيم بآمرأة هى من أحسن النساء، فأرسل إليه أنْ يا إبراهيم مَنْ هذه التى معك؟ قال : أختى . ثم رجع إليها فقال : لا تكذّبى حديثى فإنى أخبرتهم أنكِ أختى ، والله إنْ[1] على الأرض من مؤمن غيرى وغيرك ، فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت تَوَضَّأُ وتصلى ، فقالت : اللهم إن كنتُ آمنتُ بك و برسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلّط علىّ هذا الكافرَ ، فغُطّ[2] حتى ركض برجله . قال الأعرج : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : إن أبا هريرة قال : قالت : اللهم إن يمت يقال[3] هى قتلته فأرسل ، ثم قام إليها فقامت تَوَضَّأُ وتصلى وتقول : اللهم إن كنتُ آمنتُ بك و برسولك وأحصنتُ فرجى إلا على زوجى فلا تسلّط علىّ هذا الكافر ، فغُط حتى ركض برجله . قال عبد الرحمن : قال أبو سلمة : قال أبو هريرة : فقالت : اللهم إن يمت فيقال هى قتلته فأُرسل فى الثانية أو فى الثالثة . فقال : والله ما أرسلتم الىّ إلا شيطانا ! إرجعوها الى إبراهيم وأعطوها آجر[4] ، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام فقالت : أشعَرْتَ أن الله كبَت الكافرَ وأخدم وليدةً" . هذا ما رويناه من صحيح البخارى . وقد ورد فى أخبار طوطيس[5] زيادات نذكرها ، وهو أن الملك لما أطلقته فى المرة الثالثة قال لها : إن لك ربّا عظيما لا يُضيِّعك ، وأعظم قدرها وسألها عن إبراهيم فقالت : هو قريبى وزوجى . قال : فإنه ذكر أنك أخته . قالت : صدق أنا أخته فى الدين ، وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا . قال : نعم الدينُ دينكم ! ووجهها الى ابنته حوريا ، وكانت من العقل والكمال بمكان كبير ، فألقى الله تعالى محبة سارة فى قلبها فعظّمتها حوريا وأضافتها أحسن ضيافة ، ووهبت لها جوهرا ومالا ، فأتت

---

(١) إن بكسر الهمزة وسكون النون نافية بمعنى « ما » . (٢) غط : بضم الغين المعجمة وتشديد الطاء المهملة ، أى أخذ بمجارى نفسه حتى سمع له غطيط . (٣) يقال هى قتلته : بإثبات الألف فى « يقال » على أن جواب الشرط المجزوم محذوف تقديره « ... أعذب و يقال ... » .
(٤) هى هاجر أم اسماعيل كما سيأتى بعد . (٥) راجع (ج ٣ ص ٥ ٣ طبع بلاق سنة ١٢٩٠) .

به إبراهيمَ عليه السلام فقال لها : رُدِّيه فلا حاجة لنا به فردته؛ فذكرت حوريا ذلك لأبيها فعجب منها وقال : هؤلاء من قوم كرام ومن أهل بيت طهارة فتحيّلي في برّها بكل حيلة ، فوهبت لها جاريةً قبطيةً من أحسن الجواري يقال لها آجر، وهي هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وعملت لها سِلالا من الحلوى وقالت : يكون معك هذا للزاد. وجعلت تحت الحلوى جوهرا نفيسا وحلياً مصبوغا مكلّلا. فقالت : أشاور صاحبي ؛ فأتت إبراهيم عليه السلام فشاورته فقال: إذا كان مأكولا فخذيه، فقبلته منها وخرج إبراهيم عليه السلام . فلما أمعنوا في السير أخرجت سارة بعض تلك السلال فأصابت الجوهر والحليّ، فعرّفت إبراهيم ذلك، فباع بعضه وحفر من ثمنه البئر التي جعلها للسبيل وفرّق بعضَه في وجوه البرّ. وكان يُضيف كل من مرّ به .

قال : وعاش طوطيس إلى أن وجهت إليه هاجر من مكة تعرّفه أنها بمكان جدب وتستغيثه، فأمر بحفر نهر في شرقيّ مصر يمرّ بسفح الجبل حتى ينتهى إلى مرفأ السفن في البحر المالح ، فكان يحمل إليهما الحنطةَ وأصناف الغلّات فتصل إلى جُدّة وتحمل من هناك على المطايا، فأحيا بلد الحجاز مدّة . ويقال : إن كل ما حُلِّيتْ به الكعبة في ذلك العصر هو مما أهداه ملك مصر. ويقال : إنه لكثرة ما كان طوطيس يحمله إلى الحجاز سمّته العرب «جُرْهَمَ الصادق» وكذلك يسمّيه كثير من أهل الأثر. وقد تقدّم في قصة[1] إبراهيم الخليل عليه السلام أن آسم الملك صادوق، ويقال : إنه سأل إبراهيمَ عليه السلام أن يبارك له في بلده، فدعا بالبركة لمصر، وعرّفه إبراهيم أن ولده سيملكها ويصير أمرها إليه .

قال : وطوطيس أوّل الفراعنة بمصر؛ وذلك أنه أكثر القتل حتى قتل قراباته وأهلَ بيته وبني عمه وخدمه ونسائه، وأكثر الكهنة والحكماء . وكان حريصا على الولد

(١) راجع (ج ١٣ ص ١١٥ من هذه الطبعة).

فلم يرزقه الله ولدا غير آبنه حوريا، وكانت عاقلة حكيمة تأخذ على يده كثيرا وتمنعه من سفك الدماء، فأبغضته وأبغضه الخلق : الخاص والعام . فلما رأت أمره يزيد خافت على زوال ملكهم فسمّته فهلك . وكان ملكه سبعين سنة . ولما مات اختلفوا فيمن يملّكوه عليهم بعده فقالوا : لا يُمَلَّكُ علينا أحد من أهل بيته، وأرادوا تمليك بعض ولد أتريب ؛ فقام بعض الوزراء ودعا إلى تمليك آبنته لصنيعها فيه، ولما كانت تنكر عليه، وتبعه أكثر القوّاد والوجوه فتمّ لها الأمر .

وملكت حوريا بنة طوطيس وجلست على سرير الملك، ووعدت الناس بالإحسان، وأخذت فى جمع الأموال وحفظها، فاجتمع لها من الأموال والجوهر والحلىّ والطيب ما لم يجتمع لملك، وقدّمت الكهنةَ وأهلَ الحكمة ورؤساءَ السَّحَرة ورفعت أقدارهم، وأمرت بتجديد الهياكل وتعظيمها . وسار مَنْ لم يرضها إلى مدينة أتريب وملّكوا عليهم رجلا من ولد أتريب يقال له أنداخس ؛ فعقد على رأسه تاجا وآنضمّ إليه جماعة من بنى عمه وأهل بيته، فأنفذت إليه جيشا فحاربه ؛ فلما رأى أنه لا طاقة له بها دعاها إلى الصلح وخطبها إلى نفسه وقال لها : إن الملك لا يقوم بالنساء، وخوّفها أن يزول ملكهم بمكانها ؛ فعملت صنيعا وأمرت أن يحضره الناس على منازلهم ، فحضروا وأكلوا وشربوا و بذلت لهم الأموال وعرّفتهم ما جرى من خِطبتها، فبعضٌ صوّب الرأى، وبعضٌ امتنع وقالوا : لا يتولّى علينا غيرها لمعرفتنا بعقلها وحكمتها ، وهى وارثة الملك ؛ ووثبوا على نفر ممن خالفها فقتلوهم ، وخرجوا فى جيش كثيف فلقوا جيش الخارج بأتريب فهزموه وقتلوا كثيرا من أصحابه ، فهرب إلى أرض الشام وبها الكنعانيون من ولد عمليق، فاستغاث بملكهم وضَمِن له أخذَ مصر وفتحها، فجهزه بجيش عظيم إلى مصر، فاجتمع الناس كلهم إلى حوريا، ففتحت خزائن أبيها وفرّقت مافيها على الناس فأحبّوها، وقوّت السحرة بالمال ووعدتهم الإحسان .

فلما تقدّم أنداخس بالجيوش أمرت السَّحرةَ أن يعمَلوا له عمــلا ، وكان على جيوشهم قائدٌ من عظماء قواد ملكهم يقال له جيرون ؛ فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرا لهـا من عقلاء النساء إلى جيرون سرًّا من أنداخس تعرّفه رغبتها فى تزويجه، لأنها لا تختار أحدا من أهل بيتها، وأنه إن قَتَل أنداخس تزوجت به وسلمت إليه ملك مصر ومنعت منــه صاحبه . فرغِب فى ذلك وسمّ أنداخس بسمّ أنفذته إليه فقتله ؛ فوجهت إليه أنه لايجوز أن أتزوّجك حتى تُظهِرَ فى بلدى قوّتك وحكمتك وتبنىَ لى مدينة عجيبة — وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان و إقامة الأعلام وعمل العجائب — وقالت له : انتقل من موضعك هــذا إلى غربىّ بلدى فثمّ آثار لنا كثيرة فاقتف تلك الأعمــال الغريبة وآبن عليها . ففعل ذلك و بنى لهــا مدينة بصحراء الغرب يقال لها تندومة[1]، وجرّ إليها من النيل نهرا وغرس عليها غروسا كثيرة، وأقام بها منارا عاليا، وعمل فوقه منْظرا وصفّحه بالذهب والفضة والصُّفْر والرخام الملوّن والزجاج المسبوك وأبدع فى عمله . وكانت تمدّه بالأموال وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لا يعلم .

فلما فرغ من بنــاء المدينة قالت له : إن لنا مدينة حصينة كانت لأوائلنا وقد خَربت منها أمكنة [وتشعّث حصنها][2] فامض إليها واعمل فى إصلاحها إلى أن أنتقلَ إلى هــذه المدينة التى بنيتها وأنقل إليها جميع ما يُحتاج إليه ، فإذا فرغتَ من إصلاح تلك المدينة فانفذ إلىّ جيشا حتى أصير إليك وأنظرَ ماصنعته ، وأبعد عن مدينتى وأهل بيتى فإنى أكره أن آتيك بالقرب منهم . فمضى وجدّ فى عمل الإسكندرية الثالثة .

قال : وأهــل التاريخ يسوقون شيئا من أخبار أنداخس و يذكرون أنه الذى قصد الوليد بن دومع العمليق ، وهو ثانى الفراعنة . وكان سبب قصده له أنه كانت به علّة فوجّه إلى المواضع ليُحمل إليه من مياهها حتى يعرف مايلائم جسده ، فوجّه

(١) فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٧٤ طبعة فييت) : «أندومة» . وأشار فى الهامش الى أنها وردت أيضا باسم . «تندومة . قندومة . فندومة» .

(٢) الزيادة من المقريزى .

علاما له فأتى مملكة مصر ووقف على كثرة خيراتها[1] وحمل إلى صاحبه من مائها والطافنا وعاد إليه ، فعرّفه حالَ مصر فقصدها فى جيش كثيف حتى حطّ عليها ، وكاتب الملكة وخطب إليها نفسها ، فوجهت إليه مَنْ أشرف على حاله فوجد قوما عظاما لا يقوم بحربهم ، فأجابته إلى التزويج وألطفته وشرطت عليه أن يبنيَ لها مدينة يُظهر فيها أَيْدَه وقوته و يجعلها مهرا لها ، فأجابها ودخل مصر وانتهى إلى ناحية الغرب ليبنيَ لها المدينة ناحية الإسكندرية ، فأمرت أن يُتلقّى بأصناف الرياحين والفواكه وتُخَلَّق وجوه الخيل ؛ فمضى إلى الإسكندرية — وقد خربت بعد خروج العادية[2] منها — فنقل منها ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها ووضع أساس مدينة عظيمة وبعث إليها مائة ألف فاعل ، فأقام فى بنائها مدّة وأنفق جميع ما كان معه من المال ، وكان كلما بنى بناء خرجت من البحر دوابُّ تقلعه فإذا أصبح لم يجد منه شيئا ؛ فاهتمّ لذلك .

وكانت حوريا قد أنفذت إليه ألف رأس من المَعَزِ اللبون يستعمل ألبانها فى مطبخه ، وكانت مع راع يثق به ، وكان ذلك الراعى يطوف بها ويرعاها هناك ، فكان إذا أراد أن ينصرف عند المساء خرجت إليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسُه إليها ، فإذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه فإن صرعها كانت له وإن صرعته أخذت رأسين من المَعَز ؛ فكانت على طول الأيام تصرعه وتأخذ من الغنم حتى أخذت أكثر من نصفها وتغير باقيها لشغله بحب تلك الصورة عن رعيها ، وتغير هو أيضا فى جسمه ونَحَل ، فمرّ به صاحبه وسأله عن حاله وحال الغنم فخبّره الخبر خوف سطوته فقال : أى وقت تخرج ؟ قال : قرب المساء . فلبس ثياب الراعى وتولَّى رِعْيَة[3] الغنم يومَه إلى المساء ، وخرجت الجارية فشرطت عليه كما شرطت على الراعى ، فأجابها وصارعها فصرعها وقبض عليها وشدّها فقالت له : إن كان لا بدّ

(١) كذا فى المقريزى . وفى الأصول : « خزائنها » . (٢) كذا فى الأصول والمقريزى . والعادية : نسبة إلى قبيلة عاد البائدة . (٣) رعية : بكسر الراء ، اسم من رعى الماشية يرعاها .

من أخذني فسلمني لصاحبي الأوّل فإنه ألطف بي، وقد عذّبته مرةً بعد مرة، فردّها إليه وقال له : سلها عن هذا البنيان الذى بنيته ويزول من ليلته مَنْ يفعل به ذلك؟ وهل فى بنائه من حيلة ؟ فسألها الراعى عن ذلك فقالت : إن دوابّ البحر التى تقرِع بنيانكم . قال : فهل فيها من حيلة؟ قالت : نعم . قال : وما هى ؟ قالت : تعمَل توابيتَ من زجاج كثيف بأغطية وتجعل فيها قوما يُحسنون الصناعة فى التصوير، وتجعل معهم صحفا وأقلاما وزادا يكفيهم أياما، وتجعل التوابيتَ فى المراكب بعد أن تَشُدّها بالحبال ، فإذا توسّطوا الماء صوّر المصوّرون جميع ما مرّ بهم وتُرفع تلك التوابيتُ من الماء، فإذا وقفتم على تلك الصور فآعملوا لها أشباها من الصُّفْر أو من الحجارة أو من الرصاص وآنصبوها أمام البنيان الذى تبنونه من جانب البحر، فإن تلك الدوابّ إذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد . فعرّفه الراعى ذلك ففعله ؛ وتمّ بناء المدينة .

وقال قوم من أهل التاريخ : إن صاحب البناء والغنم جيرون [المؤتفكىّ](١) وكان قَصَدهم قبل الوليد، وإنما أتاهم بعد حوريا وقهرهم جيرون وملك مصر . وذكروا أن الأموال التى كانت مع جيرون نَفِدت كلها فى تلك المدّة ولم يتم البناء، فأمر الراعى فسأل تلك الجارية فقالت : إن فى المدينة التى خَرِبت ملعبا مستديرا حوله سبعة عُمُدٍ على رءوسها تماثيلُ [من](١) صُفْرٍ قيام، فقرّب لكل تمثال منها ثورا سمينا ولطِّخ العمودَ الذى عليه التمثال من دم الثور، وبخّره بشعر من ذنبه وشىء من نُحاتة قرونه وأظلافه، وقل له : هذا قربانك فأطلق لى ماعندك، ثم قِسْ من كل عمود إلى الجهة التى يتوجّه إليها وجهُ التمثال مائةَ ذراع وآحفر، وليكن ذلك فى وقت آمتلاء القمر واستقامة زُحَل؛ فإنك تنتهى بعد خمسين ذراعا إلى بلاطة عظيمة فلطِّخها بمرارة الثور وأقلعها فإنك تنزل منها إلى سَرَب طوله خمسون ذراعا فى آخره خزانة مقفلة ومفتاح

(١) الزيادة من المقريزى .

القفل تحت عتبة البـاب نخذه ولطّخ الباب ببقية مرارة الثور ودمه و بخره بنُحاتة قرونه وأظلافه وشعره، وآدخل الباب بعد أن تخرُجَ الرياحُ التى فيه، فإنه يستقبلك صنم فى عنقه لوحٌ من صُفْر معلّقٌ مكتوب فيه جميع ما فى الخزانة من مال وجوهر وتمثال وأعجوبة، نخذ منه ما شئت ولا تتعرض لميت تجده ولا لمـا عليه؛ وكذلك فآفعل بكل عمود وتمثـاله؛ فإنك تجد فى تلك الخزائن نواويسَ سبعةٍ من الملوك وكنوزَهم. فلما سمع ذلك سُرّ به وفعله فوجد ما لا يُدرك وصفه، ووجد من العجائب شيئا كثيرا؛ فتم بناء المدينة. وآتصل ذلك بجوريا فساءها؛ وإنمـا كانت أرادت إتعابه وهلاكه بالحيلة عليه. فيقال: إنه فيما وُجد من العجائب درجُ ذهب مختومٌ بطين ذهب فيه مكحلة زبرجد فيها ذَرورٌ أخضر ومعها عِرقُ جوهر أحمرُ، من اكتحل من ذلك الذّرور وكان أشيب عاد شابا وآسودّ شعره وأضاء بصره حتى يدرك النظر إلى أصنـاف الروحانيين، ووُجد تمثـالٌ من الذهب إذا أُظهر غيمت السماء وأمطرت، وتمثال غراب من حجر إذا سئل عن شىء صوّت وأجاب عنه. ويقال: إنه كان فى كل خزانة عشر أعجوبات.

قال: فلما فرغ جيرون من بناء المدينة وجه إليها يعلمها ذلك ويحثّها على القدوم. فحملت إليه فُرُشا فاخرة وقالت: ابسطها فى المجلس الذى تجلس فيه، وأقسم جيشك أثلاثا وأنفذ إلىّ ثلثه، حتى إذا بلغتُ ثلث الطريق فأنفذ إلىّ الثلث الآخر، فإذا جزتُ نصف الطريق فأنفذ إلىّ الثلث الباقى، ويكونون من ورائى لئلا يرانى أحد إذا دخلت عليك، ولا يكن عندك إلا صِبْيةٌ تثق بهم يخدمونك فإنى أوافيك فى جوارٍ تكفيك الخدمة ولا أحتشمهنّ؛ ففعل. وأقامت تحمل إليه الجهاز والأموال حتى علم بمسيرها ووجه إليها ثلث جيشه فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة، فلما أتوْها استنزلهم جواريها وحشمها وأقبلوا عليهم بتلك الأطعمة والأشربة والطيب والكساء

واللهو فلم يصبح منهم أحد يعيش ، ولقيها الثلث الثانى والثالث بعده ففعلت بهم كذلك ، وهى توجّه إليه أنهـا أنفذت جيشه إلى قصرها ومملكتها يحفظونه . إلى أن دخلت عليه هى وظِئرها وجوارٍ كنّ معها ، فنفخت ظِئرُها فى وجهه نفخة بهت إليها رشّت عليه ماء كان معها فآرتعدت مفاصله فقال : من ظنّ أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه وغلبته النساء ، ثم فصـدت عروقه وأسالت دمه وقالت : دماء الملوك شـفاء . وأخذت رأسه فوجّهت به إلى قصرها فنُصب عليه وحملت تلك الأموال الى منف . وبنت منارا بالاسكندرية وزبرت عليه آسمها وآسمه وما فعلت به وتاريخ الوقت .

قال : ولمـا آتصل خبرُها بالملوك الذين يتاخمون بلدها ، هابوها وأذعنوا لهـا وهادَوْها . وعملت بمصر عجائب كثيرة ، وأقطعت أهل بيتها وقوادها وحشمها أقطاعا كثيرة ، وأمرت أن يبنى على حدّ مصر من ناحيـة النوبة حصنٌ وقنطرة يجرى ماء النيل من تحتها . وآعتلت حوريا فاجتمع اليها أهل مملكتها وسألوها أن تقدّم عليهم ملكا ، ولم يكن فى ذلك الوقت من ولد أبيها وأهل بيته من يصلح لذلك ، فقلدت عمتها دليفة بنت ماموم (١) ، وكانت عذراء من عقلاء النساء وكبراهنّ ، فعهدت اليها وأخذت لها المواثيق على أهل مصر ألا يُسْلِموها وأن يتبعوا أمرها ، وسلمت اليها مفاتيح خزائنها ، وأطلعتها على مواضع كنوز آبائها وكنوزها ، وأمرت أن يضمّد جسدها بالكافور وتحمـل الى المدينة التى بنيت لهـا فى صحراء الغرب ، وقد كانت عملت لهـا فيها ناووسا وعملت فيه عجائب ونقلت اليه أصنام الكواكب ، وزينته بأحسن الزينة ونصّبت له قَوَمة ، وأسكنت تلك المدينة جماعةً من الكهنة وأصحاب العلوم والمهن وبعض الجيش ، وعمرت تلك المدينـة فلم تزل على حالهـا من العمارة الى أن خرّبها بُخْتَنَصّر وحمل بعض كنوزها .

(١) فى المقريزى : « مامون » بالنون .

وجلست دليفة بنت ماموم على سرير الملك بعد وفاة حوريا، واجتمعت الكلمة عليها وأحسنت الى الناس ووضعت عنهم خراج سنة. وقام عليها أيمين يطلب بثأر خالة انداخس، واستنصر بملك العمالقة[1] فوجه معه قائدا من قواده فى جيش كثيف، فأخرجت اليه دليفة بعض قوادها فالتقوا بالعريش، وجعل سحرة الفريقين يظهرون التخاييل الهائلة والعجائب العظيمة والأصوات التى تقرع الأسماع وتؤلمها، فأقاموا مدة يتكافئون الحرب ويتراجعون فهلك بينهم خلق كثير، ثم آنهزم أصحاب دليفة الى منف وسار أصحاب أيمين فى آثارهم، ومضت دليفة فى جمع من جيوشها الى ناحية الصعيد فنزلت الأشمونين وأنفذت من قدرت عليه من الجيوش ووقعت الحرب بينهم بناحية الفيوم وخلّى أصحابُ دليفة الماءَ بينهم وبين عدوّهم، وآستنجدت دليفة بأهل مدائن الصعيد فحاربوا أصحاب أيمين حتى أزالوهم عن منف، وكانوا قد ظفروا بها وعاثوا فيها، فهزموهم حتى ركبوا المراكب وعدوا الى ناحية الحَوْف، وكان معهم ساحر من أهل ناحية قفط فأظهر بسحره نارا حالت بينهم وبين أصحاب دليفة، فلما زاد الأمر وأشفق أهل مصر من خروجها عن أيديهم سَفَرَ السفراء بينهم على أن يجعلوا البلد قِسْمةً بينهم فأجاب كل منهما الى الصلح، ثم غدرت دليفة بعد ذلك بأيمين وأخرجت الأموال والجواهر وفرقتها فى الناس، وكان بعضهم قد لامها فى الصلح، فرجعت الى الحرب فأقاموا ثلاثة أشهر ثم ظهر أيمين عليها وهزمها الى ناحية قوص وسار خلفها وتمكن من المملكة، فلما رأت ذلك سمّت نفسها فهلكت.

وملك بعدها أيمين، فتجبر وقتل خلقا كثيرا ممن كان حاربه. وكان الوليد بن دومع العمليق قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها ليسكن

(١) العمالقة: من ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ما يوافقه منها، فلما صار بالشام انتهى اليه خبر مصر وعظم قدرها ، وأن أمرها قد صار الى النساء وبادت ملوكها، فوجه غلاما له يقال له عون، فسار الى مصر وفتحها وحوى أموالا، ومولاه لا يعرف خبره ولا يشك فى هلاكه وهلاك الجيش الذى معه ، لما كان يسمع عنها بمصر من الطلّسمات والسحر ؛ ثم اتصل به خبره فسار الى مصر فتلقاه عون وعرّفه أنه كان عزم على المسير اليه وإنما أراد تعديل البلد وإصلاحه فقبل قوله ودخل .

وملك مصر الوليد بن دومع العمليقىّ ، واستباح أهلها وأخذ أموالها وقتل جماعة من كهنتها، ثم سنح له أن يخرج فيقف على مصبّ النيل ويعرف ما بناحيته من الأمم ويغزوهم ، فأقام ثلاث سنين يستعدّ لخروجه ، وأصلح ما يحتاج اليه ، واستخلف عونا على البلد وخرج فى جيش كثيف فلم يمرّ بأمة إلا أبادها . فيقال : إنه أقام فى سفره سنين كثيرة ، وإنه مرّ على أمم من السودان وجاوزهم ، ومرّ على أرض الذهب وفيها قضبان نابتة، ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة[(١)] التى ينصبّ ماء النيل اليها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القُمر[(٢)]، ثم سار حتى بلغ هيكل الشمس فدخله . ويقال : إنه خوطب فيه . وسار حتى بلغ جبل القمر، وهو جبل عال . وإنما سمى جبل القُمْر لأن القمر لا يطلع عليه لخروجه عن خط الاستواء . ونظر الى النيل يخرج من تحته . وقد تقدّم خبر النيل[(٣)] .

---

(١) توجد بالجهات الاستوائية فى المصورات الجغرافية القديمة ومنها «الخريطة المنسوبة إلى الإدريسى عن ملّر» ثلاث بحيرات هى التى تسمى : البطيحة الغربية ، والبطيحة الشرقية ، وبينهما البطيحة الكبرى ، وهى التى يخرج منها نهر النيل المصرى ، ونهر النيل السودانى الذى يطلق عليه اسم النيجر ، وإلى الجنوب من هذه البطائح توجد سلسلة جبال القمر ، ويظن أن البطيحة الكبرى هى التى تسمى الآن «فيكتوريا نيانزه» وهى التى أشار اليها المؤلف هنا (أفادنيه الأستاذ الجليل الشيخ محمد فخر الدين بك) .

(٢) ضبطه بعض أهل الجغرافيا بفتح القاف والميم . والثقات منهم على أنه بضم القاف وسكون الميم (انظر تقويم البلدان ص ٦٤ طبع باريس) .

(٣) راجع (ج ١ ص ٢٦٢ من هذه الطبعة) .

قال : ودخل الوليد القصر الذى فيه تماثيل النحاس التى عملها هِرْمِس الأوّل فى وقت البودسير الأوّل بن قفطريم . قال : ولما بلغ الوليد جبل القُمْر رأى جبلا عاليا فأعمل الحيلة وصعد عليه ليرى ما خلفه، فأشرف على البحر الأسود الزِّفتىّ المنتن ، ونظر إلى النيل يجرى عليه كالأنهار الرقاق ، وأتته من ذلك البحر روائحُ ٥ منتنة هلك كثير من أصحابه من ريحها فأسرع النزولَ بعد أن كاد يَهْلِك .

قال : وذكر قوم أنهم لم يروْا شمسا ولا قمرا و إنما رأوْا نورا أحمر كنور الشمس عند مغيبها . وأقام الوليد فى غيبته أربعين سنة . وأما عَوْن الذى استخلفه بمصر فإنه فعل فى غيبة الوليد ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خبر عون وما فعله فى غيبة الوليد وخبر المدينة التى بناها

١٠ قال: ولما مضت من غيبة الوليد بن دومع سبعُ سنين تجبّر غلامه عونٌ بمصر، وآدّعى أنه الملك ، وأنكر أن يكون غلاما للوليد، وأنه أخوه وقلّده الملك بعده، ووثب على الناس وغلبهم بالسحرة وأسنى جوائزهم ولم يمنعهم محابّهم ؛ فمالوا إليه ووثقوا أمره ، فلم يترك آمرأة من بنات ملوك مصر إلا نكحها ، ولا مالا إلا أخذه وقتل صاحبه . وكان مع ذلك يلزم الهياكل ويُكرم الكهنة ، فكانوا يُمسكون عنه إشفاقا ١٥ منه وخوفا من السحرة الذين معه ؛ إلى أن رأى فى منامه الوليدَ بن دومع وكأنه يقول له : مَنْ أمرك أن تتسمى بآسم الملك ، وقد علمتَ أنه من فعل ذلك استحق القتل ، ونكحتَ بنات الملوك وأخذتَ الأموالَ بغير واجب ، ثم أمر بقدور فملئت زيتا وأُحميت على أنه يغمر فيها ، فلما غلت أمر بنزع ثيابه فأتى طائر فى صورة عُقاب فاختطفه من أيديهم وحلق به فى الجو وجعله فى هوّة على رأس ٢٠ جبل، وأنه سقط من رأس الجبل إلى واد فيه حية، فانتبه مرعوبا طائر العقل. وقد

كان فى فعله ذلك وتملُّكه إذا خطرت بقلبه من ذكر الوليد خطرةٌ كاد عقله يزول، خوفا منه لِمَا يعلمه من فظاظته و بطشه وقوّته . ولم يتيقّن هلاكه وأضمر فى نفسه الهربَ من مصر بمـا معه من الأموال .

قال : ولما رأى الرؤيا لم يشك فى حياة الوليد وأنه سيعود ، فأطلع بعضَ السَّحَرةِ ممن يثق به على أمره وقال : إنى خائف من الوليد وقد عزمت على الخروج من مصر فما الوجه عندكم ؟ قالوا : نحن نُنْجيك منه على أن تقبل منا . قال : قولوا ، قالوا : تعمل عُقابا وتعبده ؛ فإن الذى حصّنك منه أحدُ الروحانيين وهو يريد ذلك منك . قال عون : أشهد لقد قال لى وأنا معه : أعرفْ لى هذا المقام ولا تَنْسَه . قالوا : قد بينا لك . فأجابهم إلى ذلك وعمل عُقابا من ذهب وعمل عينيه جوهرتين ووشّحه بأصناف من الجوهر، وعمل له هيكلا لطيفا وجعله فى صدره وأرخى عليه ستور الحرير، وأقبل أولئك يبخّرونه و يقربون إليه و يَسْحَرُون إلى أن نطق لهم، فأقبل عون على عبادته ودعا الناس إليها فأجابوه .

فلما مضى لذلك مدّة أمره العقاب ببناء مدينة يحوله إليها وتكون مَعْقلا له وحرزا من كل أحد . فأمر عون أصحابه أن يخرجوا إلى صحارَى الغرب و يطلبوا كل أرض سهلة حسنة الاستواء، و يكون المدخل إليها بين هُجُول[1] صعبة وجبال وعرة، و يتوخّوْا أن تكون قريبة من ناحية مَغِيض الماء التى هى اليوم الفيوم . وكانت مغيضا لماء النيل حتى أصلحها يوسف عليه السلام على ما نذكره إن شاء الله . وإنما أراد عون بذلك ليجرّ الماء منها إلى مدينته التى يبنيها ؛ فخرج أصحابه وأقاموا شهرًا يطوفون الصحارى حتى وجدوا له بغيته ، ولم يبق فاعل ولا مهندس ولا أحد ممن

(١) هجول : جمع هجل (بفتح فسكون)، وهو المطمئن من الأرض .

يبصر البناء ويقطع الصخور وينحتها إلا وجّه به عون إليها ، وأنفذ معهم ألف رجل من جيشه وسبعمائة ساحر يعاونونهم بالروحانيين الذين فى طاعتهم ، وأنفذ معهم جميع الآلات وأقام يحمل لهم الزاد إلى هناك شهورا على العَجل ؛ وطريق العجل على الفيوم واضحة فى صحراء الغرب وخلف الأهرام — وهى التى يقصدها أصحاب المطالب — مشهورة .

٥ قال : فلما تكامل له ما أراد من ذلك ومن نحت الأحجار خطّوا المدينة فرسخين فى فرسخين ، وحفروا فى الوسط بئرا وجعلوا فى تلك البئر تمثالَ خنزير من نحاس بأخلاط ونصبوه على قاعدة من نحاس وجعلوا وجهه إلى الشرق ، وكان ذلك بطالع زُحَل واستقامته وسلامته من المتضادين له فى شرفه ، وأخذوا خنزيرا فذبحوه له ولطخوا وجهه بدمه وبخروه بشعره ، وأخذوا شيئا من عظامه ولحمه ومرارته بجعلوه ١٠ فى جوف ذلك الخنزير النحاس ، وجعلوا فى أذنيه شيئا من مرارته ، وأحرقوا بقية الخنزير ، وجعلوا رماده فى قلة نحاس بين يدى الخنزير النحاس ، ونقشوا عليه آيات زحل ، ثم شقوا فى البئر أُخدودا من أربعة وجوه شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، ومدّوا تلك الأخاديد إلى حيطان المدينة ، وعملوا على أفواهها مسارب تجتلب الرياحَ إليها ، ثم سدّوا البئر وعملوا عليها قبة على عمد مربعة ، وجعلوا منها شوارع كل شارع ينتهى ١٥ إلى باب من أبواب المدينة وفصلوها بالطرقات والمنازل ، وجعلوا حول القبة تماثيل فُرسان من نُحاس بأيديها حِرابٌ ووجوهها مقابلة لتلك الأبواب ، وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود وفوقه أحمر وفوقه أصفر وفوقه أخضر ، وفوق الجميع أبيض يشفّ ، مثبتة كلها بالرصاص المصبوب بين الحجارة ، وقلوبها أعمدة من حديد على وضع بناء الأهرام ؛ وجعل طول حصنها ستين ذراعا فى عرض عشرين ذراعا ، ٢٠ ونُصب على كل رأس باب من أبوابها فى أعلا الحصن تمثالُ عُقاب كبير من صفر وأخلاط ناشرَ الجناحين أجوفَ ، وعلى كل ركن صورةُ فارس بيده حربة ووجهه

١٨/١٣ إلى خارج المدينة، وساق الماء إلى ناحية الباب الشرقى ينحدر فى صبب إلى الباب الغربى ويخرج إلى صهاريج هناك، وكذلك من الباب الجنوبى إلى الشمالى، وقرب لتلك العقبان عقبانا ذكورا، واجتذب الرياح إلى أفواه التماثيل، فكانت الرياح إذا دخلتها سُمعت لها أصواتٌ شديدة لا يسمعها أحد إلا هلك، وصمّدها(١) بعفاريت تمنع الداخل إليها إلا أن يكون من أهلها، ونصب العُقاب الذى كان يعبده تحت القبة التى فى وسط المدينة على قاعدة لها أربعة أركان فى كل ركن منها وجه شيطان، وجعلها على عمود يديرها، والعقاب يدور إلى كل الجهات الأربع، ويقيم فيها ربع السنة، يقرب إليه من جهتها .

فلما فرغ من ذلك كله حمل إليها جميع الأموال والجواهر المخزونة بمصر وما وجده فى خزائن الملوك، ومن التماثيل والحكم وتراب الصنعة والعقاقير والسلاح وغير ذلك، وحوّل إليها كبارَ السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار، وقسم المساكن بينهم لا يختلط أهلُ صنعة بغيرها، وعمل لها رَبضا(٢) يحيط بها، وبنى فيه منازل لأصحاب المهن والزراعة، وعقد على تلك الأنهار قناطر يمرّ عليها الداخل إلى المدينة، وجعل الماء يدور حول الرَّبض، ونصب عليها أعلاما وحرسا، ثم غرس وراء ذلك بالبرية النخل والكروم وأصناف الأشجار، ومن وراء ذلك مزارع الغلات من كل جهة، وكان يرتفع له بها فى كل سنة مايكفيه لعشر سنين، كل ذلك خوفا من الوليد .

قال : وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام، فكان عونٌ يخرج إليها فيقيم بها عشرة أيام ثم يعود إلى منف، وكان لها أربعة أعياد فى السنة، وهى الأوقات التى يتحوّل العُقاب فيها . فلما تمّ ذلك كله لعون اطمأنّ قلبه، وسكنت نفسه .

(١) فى خطط المقريزى (ج ١ ص ٢٤١ طبع بلاق) : «ووكل بها أرواحا تمنع الداخل إليها ...» .
(٢) الربض هنا : سور المدينة .

ذكر عود الوليد إلى مصر وهرب عون إلى مدينته

قال : ثم وافا كتاب الوليد بن دومع من نواحى النوبة إلى عون يأمره أن يُنْفِذَ إليه الأزوادَ وينصبَ له الأسواق؛ فوجّه إليه ذلك فى المراكب وعلى الظهر[1]، وحوّل جميع عياله ومن آصطفاه من بنات ملوك مصر وكبرائها إلى المدينة ، حتى إذا قرب دخولُ الوليد إلى مصر خرج عون إلى مدينته وخلّف خليفة على مصر يكون بين يدى الوليد . ودخل الوليد مدينة منف وتلقاه أهل مصر وشكَوْا إليه عوناً وما حلّ بهم منه . قال : وأين هو؟ قالوا : فرّ منك . فغضب الوليد وأمر بجيش كثيف ينفذ إليه ، فعرّفوه أن الجيش لا يصل إليه ، وأخبروه خبر المدينــة وكيف بناها وخبر السّحرة الذين معه . فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ويحذّره التخلفَ عنه ، ويُقسم أنه إن لم يفعل وظفر به بضّع لحمــه بِضَعًا . فردّ جوابه يقول : ما على الملك منى مؤنة ، وأنا لا أتعرّض إلى بلده ولا أعيث فيه ؛ لأنى عبده ، وأنا له فى هذا الموضع أردّ كل عدوّ يأتيه من نواحى الغرب ، ولا أقدر على المصير إليه لخوفى منه ، فليقرّنى الملك بحالى كأحد عمّاله وأوجه إليــه ما يلزمنى من الخراج والهــدايا . ووجه إليه بأموال جليلة وجوهر نفيس . فلمــا رأى ذلك كفّ عنــه . وأقام الوليد بمصر فآستعبد أهلها وآستباح حريمهم وأموالهم . وملكهم مائة وعشرين ســنة فأبغضوه وسئموا أيامه . وآتفق أنه ركب فى بعض الأيام إلى الصيد فألقاه فرســه فى وهدة فهلك . وكان آبنــه الريان يُنكر عليــه فعلَه ولا يرضاه . فلما هلك عمل له ناووسا قرب الأهرام . وقيل : بل دفن فى الهرم .

---

(١) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال فى السفر، لحملها إياها على ظهرها .

١٩/١٣ ثم ملك بعده ابنه الريان بن الوليد بن دومع؛ وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نهراوش[1]، وجلس على سرير الملك . وكان عظيم الخَلْق، جميل الوجه، عاقلا متمكنا؛ فتكلم ومنَّى الناس وضمِن لهم الإحسان وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، فأثنوا عليه وشكروه، وأمر بفتح الخزائن وفرّق ما فيها على الخاصّ والعامّ، وتمكنت منه أرْيحيّة الصِّبا فملّك على الرعية رجلا ٥ من أهل بيته يقال له أطفين، وقيل في اسمه : قطفير، وقيل : قوطيفر، وهو الذى يسميه أهل الأثر العزيز . وكان من أولاد الوزراء . وكان عاقلا أديبا متمكنا صائب الرأى كثير النزاهة مستعملا للعدل والعمارة والإصلاح . وأمر الريان أن يُنصب له فى قصر الملك سرير من الفضة يجلس عليه و يغدو و يروح إلى باب الملك، و يخرج بجميع الوزراء والعمال والكتّاب بين يديه؛ فكفى الريّانَ ماخلف سريره[2] وقام بجميع أمره ١٠ وأخلاه للذّاته؛ فأقام الريان منعكفا على قصفه ولهوه منغمسا فى لذّته لا ينظر فى عمل ولا يظهر للناس ولا يخاطبهم، فأقاموا بذلك حينا . هذا والبلد عامر .

و بلغ الخراج فى وقته سبعة وتسعين ألف ألف مثقال فجعلها أقساما، فما كان للملك وأسبابه وموائده حُمل إليه، وما كان فى أرزاق الجيش والكهنة والفلاسفة وأصحاب الصنائع ومصالح البلد وأهل المهنة صُرف إليهم، والملك مع ذلك غير سائل عن شىء؛ ١٥ قد عُملت له مجالسُ من الزجاج الملوّن وأُجْرِىَ حولها الماء وأُرسلت فيها الأسماك المقرْطة، فكانت الشمس إذا وقعت على المجلس منها أرسل شعاعا عجيبا يبهَر العيون . وعملت له عدّة متنزهات على عدد أيام السنة، فكان كل يوم فى موضع منها، وفى كل موضع منها من الفرش والآنية والآلات ما ليس فى غيره .

(١) هو أحد العمالقة ، وكان أقوى أهل الأرض فى زمانه وأعظم ملكا . والعمالقة : ولد عمليق بن ٢٠ لاوذ بن سام بن نوح (راجع المقريزى) .

(٢) فى المقريزى : « ما خلف ستره » .

فلما اتصل بملوك النواحى تشاغلُ الريان بلذاته وتدبير العـزيز لأمره، قصده رجل من العمالقة يقال له عاكن بن بيحوم وكنيته أبوقابوس، وقصد مصر حتى نزل على حدودها، فأنفذ إليه العزيز جيشا كثيفا وجعل عليه قائدا يقال له بريانس، فأقام ثلاث سنين يحاربه، ثم ظفر به العمليق ودخل من الحدود وهدم أعلاما ومصانع كثيرة، وتمكن طمعه فى البلد فأعظم أهلُ مصر ذلك واجتمعوا إلى قصر الملك وجعلوا يصيحون و يستغيثون ويرفعون أصواتهم حتى سمعها الملك فقال : مابال الناس؟ فأُخبر خبر العمليق وأنه قد دخل عَمَلَ مصر وعاث وأفسد المزارع والمصانع والأعلام، وأنه سار بجيشه إلى قصر الملك، فارتاع الريان لذلك وأنف منـه وانتبه من غفلته وعرض جيوشه وأصلح أمره وخرج فى ستمائة ألف مقاتل سوى الأتباع، فالتقوا من وراء الأحواف فى تلك الصحراء، واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم العمليق واتبعه الريان إلى حدود الشام وقتـل من أصحابه خلقـا وأفسد زرعهم وأكثرَ أشجـار الفواكه والزيتون، وأحرق وصلب ونصب أعلاما على الموضع الذى بلغه وزبر عليها : إنى لمَن يجاوز هذا المكان بالمرصاد . فلما تمّ له هذا الظفر هابته الملوك ولاطفوه وأعظموه . وقيل : إنه بلغ الموصل وضرب على الشام خراجا وبنى عند العريش مدينة لطيفة وشحنها هى وتلك الناحية بالرجال، ورجع إلى مصر لحشد جنوده من جميع الأعمال، واستعدّ لغزو ملوك الغرب فخرج فى تسعمائة ألف واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحّى عن طريقه، ومنهم من دخل تحت طاعته . ومرّ بأرض البربر فاجلى كثيرا منهم، ووجه قائدا يقال له مريطس فى سفن فركب البحر من ناحية رقودة . ومرّ الريان بجزائر بنى يافث فعاث فيها واصطلم أهلها [1]، وخرج من ناحية أرض البربر فقتل بعضهم وصالح بعضهم وحملوا إليـه الأموال ، ومضى إلى إفريقية وقرطاجنّة فصالحوه على أموال

(١) اصطلم أهلها : استأصلهم .

وألطاف كثيرة حملوها إليه، ومرّ حتى بلغ مصبّ البحر الأخضر[(١)] وهو موضع الأصنام النحاس، فأقام هناك صنما وزبر عليه اسمه وتاريخَ الوقت الذى خرج فيه، وضرب على أهل تلك النواحى خراجا، وعدّى إلى الأرض الكبيرة وصار فى الإفرنجة، والأندلس فى حوزهم وعليها لذريق الأصغر، فحار به أياما وقتل من أصحابه خلقا وصالحه بعد ذلك على ذهب مضروب، وعلى ألا يغزوَ مصر ويمنع من رام ذلك من جميع أهل النواحى، وانصرف مشرّقا فشقّ بلد البربر فلم يمر بموضع إلا خرج أهله بين يديه وأهدوا له ودخلوا تحت طاعته. ثم أخذ نحو الجنوب ومر ببلد الكوسانيين فحاربوه فقتل خلقا كثيرا، وبعث قائدا إلى مدينة على عبر البحر الأخضر[(٢)] فخرج إليه ملك المدينة وأهلُها فعرّفهم حال الريان ومصالحة الملوك له فقالوا: ما بلغنا أحد قط، وسألهم هل ركب هذا البحر أحدٌ؟ فقالوا: ما يستطيع أحد أن يركبه، وأخبروه أنه ربما أظله الغمام فلا يرونه أياما، وأتى الريان فتلقَّوْه بهدايا وفاكهة أكثرها الموز؛ وحجارة سود فإذا جعلت فى المـاء صارت بيضاء، ثم تركهم وسار إلى أمم السودان حتى بلغ ملك الدمدم[(٣)] الذين يأكلون الناس، فخرجوا إليه عُراة بأيديهم العمد الحديد، وخرج ملكهم على دابة وهو عظيم الخلق له قرون، وكان جسيما أحمر العينين، فظفر بهم فانهزموا إلى أوحال وأدغال فلم يتهيأ له اتباعهم فيها، وجازهم إلى قوم على خلق القرود لهم أجنحة صغار يثبون بها من غير ريش. ومرّ على عبر البحر المظلم فغشيهم منه غمام فرجع شمالا حتى انتهى إلى جبل يقال له وسن، فرأى فوقه تمثالا من حجر أحمر يومى

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ٩٦ من هذا الجزء.

(٢) فى المقريزى «على البحر الأسود».

(٣) كذا فى الأصل. وفى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ج ١ ص ٤٩) «تمتم» وكتب بالهامش ما نصه: «ولعلها تمتم».

بيده : إرجعوا ، وعلى صدره مزبور: ما ورائى أحد . فتركه وسار راجعا فانتهى إلى مدينة النحاس فلم يصل إليها . ومضى حتى بلغ الوادىَ المظلم فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة ولا يرَوْن أحدا لشدّة ظلمته . وسار حتى آنتهى إلى وادى الرمل ورأى على عَبْره[1] أصناما عليها أسماء الملوك قبله فأقام معها صنما وزبر عليها آسمه . فلما أسبت الرمل جاز عليه إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود، وسمع جلبة وصياحا هائلا فخرج فى شجعان أصحابه حتى أشرف على السباع المقرنة الأنوف، فإذا بعضها تهِرّ وتأكل بعضها بعضا ، فعلم أنه لا مذهب له من ورائها فرجع ، وعدّى وادىَ الرمل ومرّ بأرض العقارب فهلَكَ بعض أصحابه ورفعوها عنهم بالرُّقَى التى يعرفونها، ثم جاوزهم حتى آنتهى إلى مكان صلوفة وهى حية عظيمة ، فهجموا عليها ولم يعرفوها وظنوا أنها جبل، ثم عرجوا عنها وتعوّذوا منها بالرُّقَى . قال : ويزعم القبط أنه منعها من الحركة بسحره وتركها فهلَكت . وقيل : إن تعريجَ هذه الحية ميلٌ وأنها كانت تبتلع السباع هناك .

وسار حتى بلغ مدينة الكند[2]، وهى مدينة الحكماء، فتهاربوا منه إلى جبل صَعِدوه من مواضع يعرفونها من داخل مدينتهم لم يعرفها غيرهم ، ولم يجد الريان ومن معه إلى الصعود إليها سبيلا ، فأقاموا عليها أياما وكادوا يهلكون من العطش ، فنزل إليهم من الجبل رجل يقال له مندوس ، كان من أفاضل الحكماء وقد لبس شعرُه جسدَه ، فقال: أين تريد أيها المغرور الممدود له فى الأجل! المرزوق الكفاية ! أتعبت نفسك وجيشك ! ألا اقتنعت بما تملكه وآتكلت على خالقك [ووجدت الراحة][3] وتركت العناء والغرور بهذا الخلق . فعجب الملك من قوله وسأله عن الماء فدلّه عليه ، وسأله عن

(١) أسبت هنا : سكن ولم يتحرك .

(٢) فى هامش خطط المقريزى طبعة فييت : «الكهنة» .

(٣) التكلة من المقريزى .

موضعهم فقال: موضع لا يصل إليه احد ولا بلغه قبلك أحد. قال: فما عيشكم؟ قال: من أصول نبات لنا نعتصم به ونقنع بأكله ويكفينا اليسير. قال: فمن أين تشربون؟ قال: من نِقار المـاء من الأمطار. قال: فلمَ هربتم منا؟ قال: رغبة عن خلطتكم وإلا فليس لنـا ما نخاف عليه. قال: فكيف تكونون إذا حَمِيت عليكم الشمس؟ قال: فى غِيرَانٍ تحت هذه الجبال. قال: فهل تحتاجون إلى مال أخلفه لكم؟ قال: إنمـا يريد المالَ أهلُ البذخ ونحن لا نستعمل منه شيئا، آستغنينا عنه بمـا قد اكتفينا به، وعندنا منه مالو رأيتَه لحقَّرت ما عندك. قال: فأَرِنيه، فانطلق به مع نفـر من أصحابه إلى أرض فى سفح جبلهم فيها قضبان الذهب نابتة، وأراهم واديا حافتاه حجارة الزبرجد والفيروذج، فأمر الرّيان أصحابه أن يأخذوا من كِبار تلك الحجـارة ففعلوا، ورآهم الحكيم يصلّون إلى صنم يحملونه معهم، فسألهم ألا يقيموا بأرضهم خوفا من عبادة الأصنام، فسأله الملك أن يدله على الطريق ففعل، وودّع الحكيمَ وسار على السمتِ الذى وصفه له. فـلم يمر بأُمة إلا أبادها وأثر فيها الى أن بلغ بلدَ النوبة، فصالح أهلها على مال يحملونه إليه، ثم أتى دُنْقُلَةَ فأقام بها عَلَما وزبر عليه آسمه ومسيره. ومرّ يريد منف، فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقّونه بالفرح والسرور والطيب والرياحين والملاهى إلى أن بلغ منف، فـلم يبق أحد من أهلها إلا خرج إليه مع العزيز وتلقّوه بأصناف الطيب والبَخورات والرياحين.

وكان العزيز قد بنى له مجلسا من الزجاج الملوّن وفرشه بأحسن الفُرُش المذهبة، وغرس حوله جميـع الأشجار والرياحين، وجعل فيـه صِهْريجا من زجاج سمائى، وجعل فى أرضه شبه السمك من زجاج أبيضَ وأنزله فيـه، وأقام الناس يأكلون ويشربون أياما كثيرة. وأمر بعرض جيشه فوجد أنه قد فُقِد منهم سبعون ألفا، وكان قد خرج فى ألف ألف، ووجد من آنضاف إليه من الغرباء والمأسورين نيّفا

وخمسين ألفا، وكان سيره وغيبته إحدى وعشرين سنة . فلما سمع الملوك بذكره وما فتح من البلاد وما أسر هابوه، وخافوا شدّة بأسه وعظم سلطانه . وتجبّر وبنى بالجانب الشرقى قصورا من الرخام ونصب عليها أعلاما، فكان يقيم بها الأيام الكثيرة . وكان الخراج قد بلغ فى وقته سبعة وتسعين ألف ألف فأحبّ أن يتمه مائة ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمارات و إصلاح الجسور والزيادة فى آستنباط الأراضى حتى بلغ ذلك وزاد عليه .

ثم كان من خبر يوسف الصديق عليه السلام و بيعه بمصر وخبره مع آمرأة العزيز وسجنه وقصته مع صاحبي الملك ورؤيا الملك وتعبيرها وتولية الريان بن الوليد يوسفَ عليه السلام رتبةَ العزيز وخبرِ القحط، ماقدّمنا ذكره فى أخبار يوسف عليه السلام، وهو فى السفر الحادى عشر من نسخة الأصل[1] . فلا فائدة فى إعادته . إلا أنه قد وردت زيادات أخرُ لم ترد هناك نحن نذكرها الآن . وهو ما حكاه مؤلف هذا الكتاب الذى نقلنا منه إبراهيمُ بن القاسم الكاتب عن إبراهيم بن وصيف شاه قال: إن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر بأهله وولده، خرج يوسف عليه السلام فى وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك؛ وكان يعقوب عليه السلام مَهيبا جميلا فقرّبه الملك وعظّمه وقال له : يا شيخ، كم سنوك وما صناعتك وما تعبد ؟ فقال : أما سنّى فعشرون ومائة سنة ، وأما صناعتى فإنا غنم نرعاها وننتفع بها ، وأما الذى أعبد فربُّ العالمين، وهو الذى خلقنى وخلقك ، وهو إله آبائى و إلهك و إله كل شىء .

قال: وكان فى مجلس الملك فنيامين، وهو كاهن جليل القدر، فلما سمع كلامَ يعقوب ضاق به ذرعا وقال للملك بلغتهم : أخاف أن يكونَ خرابُ مصر على يد ولد هذا.

---

(١) راجع (ج ١٣ ص ١٣٠ — ١٥٦ من هذه الطبعة) .

فقال له الملك : فأنّى لنا خبره[1]؟ فقال الكاهن : أرنا إلهك أيها الشيخ . قال : إلهى أعظم من أن يُرى . قال : فإنا نحن نرى آلهتنا . قال : لأن آلهتكم ذهبٌ وفضة ونحاس وخشب ، وما يعمله بنو آدم عبيدُ إلٰهى الذى آحتجب عن خلقه بعزّ ربوبيته ، لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم . قال له فنيامين : إن لكل شىء دليلا ، وكل شىء لا تراه العيون فليس بشىء ، فغضب يعقوب وقال : كذبتَ يا عدوّ الله وطغيت فى هذه الدنيا ، إن الله سبحانه وتعالى شىءٌ وليس كالأشياء ، وهو خالق كل شىء لا إلٰه إلا هو . قال : فصفه لنا . قال : إنما يوصف المخلوقون ولا يوصف الخالق عز وجل ، لأنه يرتفع عن الصفات ، لأنه واحد قديم مدبّر للأشياء فى كل مكان يَرَى ولا يُرَى . ثم قام يعقوب مُغْضَباً ، فأجلسه الملك وأمر فنيامينَ أن يكفّ عنه ويكونَ بين يديه ويأخذَ فى غير هذا . ثم قال الملك : كم عدّةُ من دخل معك إلى مصر؟ قال ستّون رجلا . قال الكاهن : كذلك نجده فى كتبنا ، إن خراب مصر يجرى على أيديهم . قال الملك : فهل يكون فى أيامنا؟ قال : لا ، ولا إلى مدّة كبيرة . والصواب أن يقتله الملك ولا يستبق من ذرّيته أحدا . قال الملك : إن كان الأمر كما تقول فما يمكننا أن ندفعه ولا نقتلَ هؤلاء ، وإن لهم إلٰها عظيما ، وقد قبل قلبى هذا الشيخَ ، وما لى إلى قتله من سبيل ، فخاطبه بألين الكلام ، فجرت بينهما بعد ذلك مخاطبات ألان له فيها القول .

قال : ثم إن يعقوب عليه السلام أحبّ أن يعرفَ خبرَ مصر ومدائنها وكيف بُنيت وخبرَ طلّسماتها وعجائبها . فسأله عن ذلك وساله بحقّ الملك ألا يكتمه شيئا من أمرها فأخبره . قال : وأقام يعقوب عليه السلام مع الريان بن الوليد الملك يعظّمه ويبجّله إلى أن حضرته الوفاة ، فأوصى أن يُحمل إلى مكانه من الشام ، فحُمل فى تابوت

(١) كذا فى خطط المقريزى ، وفى الأصل «أين» .

وخرج معه يوسف عليه السلام ووجوه مصر حتى بلغ الى موضعه ورجعوا . وقيل : إن عيصو منعهم من دفنه هناك لأن إسحاق عليه السلام كان قد وهبه الموضع فاشتراه يوسف عليه السلام منه . ويقال : إن الريان آمن بيوسف وكتم إيمانه خوفا من فساد ملكه .

٥ وملك الريان مائة وعشرين سنة . وفى وقته عَمِل يوسف عليه السلام الفيوم لابنة الملك، وكان أهل مصر قد وَشَوْا به وقالوا : قد كَبِر ونقص نفعه فاختبرْه . فقال له الملك : قد وهبتُ هذه الناحيةَ لابنتى ، وكانت مغايضَ للماء فدبّرْها . قال : فقلع أدغالها ، وساق المنهى(١) ، وبنى اللاهون(٢)، وجعل الماء فيه مقسوما موزونا، وفرغ من ذلك كله فى أربعة أشهر، فعجبوا من حكمة يوسف عليه السلام .

١٠ قال : ولما مات الريان بن الوليد ملك بعده ابنه درِيموس(٣) بن الريان ابن الوليد ويسميه أهل الأثر دارم، وهو الفرعون الرابع عندهم . قال: ولما ملك خالف سنّة أبيه ، وكان يوسف عليه السلام خليفتَه كما كان مع أبيه ، وذلك بأمر الريان. وكان يوسف يسدّده فربما قبل منه وربما خالفه ، وظهر فى وقته معدن فضة على ثلاثة أيام من النيل فأبانَ(٤) منه شيئا عظيما، وعمل منه صنما على اسم القمر ؛ لأن ١٥ طالعه كان بالسرطان، ونصبه على القصر الرخام الذى كان أبوه بناه فى شرق النيل، ونصب حوله أصناما كلّها من الفضة وألبسها الحريرَ الأحمر، وعمل لها عيدا فى كل سنة(٥)، وهو إذا نزل القمرُ السرطان .

---

(١) المنهى : اسم فم النهر الذى احتفره يوسف الصديق يفضى الى الفيوم مأخذه من النيل .

(٢) اللاهون : هو السّكْر الذى بناه لردّ الماء الى الفيوم .

٢٠ (٣) كذا فى نسخة «ب» والمقريزى . وفى نسخة «ا» ديموش بالشين المعجمة .

(٤) أبان : فصل .

(٥) كذا فى نسخة ا . وفى نسخة ب «شهر» .

وكان يتنقّل الى مواضع شتّى يتنزّه فيها ، وإذا أراد أن يضرّ الناسَ بشيء منعه يوسفُ عليه السلام ودفعه عنـه الى أن تُوفّى يوسف عليه السلام، كما تقدّم فى خبر وفاته، فاستوزر الملك دارمُ بعده بلاطسَ بن منسا الكاهن، فكان بلاطس يُطلق له ما كان يوسف يمنعه عنه، وحمله على أذى الناس وأخْذ أموالهم فبلغ منهم كل مبلغ. وعمـل الوادى المنحوت بين الجبلين فى الناحية الغربيـة وكنز الأموال فلا يُوصل إليها، وجعل صقالة من الوادى الى باب الخباء، وجعل له بابا من الحديد يُتوصّل إليه من تلك الصقالة، وصمده بجماعة من العفاريت يمنعون من ذلك الخبـاء، فمن رامه من الناس سقط فى الوادى . وقال آخرون : كنزها فى موضع منه يُدخَل إليه ويُنظر الى الأموال مكشوفةً مضروبةً، فى كل دينار عشرة مثاقيل عليها صورته ، فإن أخذ الداخل منهـا شيئا انطبق عليه الباب فلم يقدر على الخروج، فإذا ردّه الى موضعه انفتح له الباب . وهو بحاله الى هذا الوقت كما زعموا .

قال : ثم زاد دارمُ فى التجبّر الى أن اختلع كلّ امرأة جميلة بمدينـة منف من أهلها، ولا يسمع بامرأة حسناء فى ناحية من النواحى إلا وجّه فحُملت إليه. وفشا ذلك فى المملكة واضطرب الناس من فعله وشقّ عليهم أمره الى أن شَغَبُوا عليـه وعطّلوا الصنائع والأعمال والأسواق فعـدا على جماعة منهم فقتلهم . وزاد الأمر حتى اجتمعوا على خلعه ، فخاف بلاطس الوزير أن يَفْسُدَ أمر المملكة فدخل على الملك وأشار عليه أن يتودّد الى الناس ويعتذر إليهم ويردّ نساءهم فأبى إلا مخالفتَه، وهمّ أن يخرج الى الناس فى خاصّته ويقتـلَ منهم وقال : إنمـا هم عبيدى وعبيد آبائى . فلم يزل يرفُق به الى أن سكن غضبه؛ فأمره أن يعتذر الى الناس عنه، ففعل الوزير ذلك وذكر عنه جميلا، فأبى الناس أن يقبلوا منه دون مخاطبتهم الملك فَضَمِن لهم ذلك وخاطبه وأشار به عليه، فأمره أن ينادىَ فى الناس بالحضور فى يوم عيّنه،

ثم لبس أرفعَ ثيابه وأكبر تيجانه وجلس ودخل الناس عليه فذكروا ما حلّ بهم من أخذ أموالهم ، وعرّفوه أنه لم يجـر عليهم من مَلِكٍ قبله مثلُ هـذا ، فاعتذر إليهم ووعدهم الإقلاعَ عما شكوا منه وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين .

ثم أمر بعمل قصر من خشب على أساطين خشب ممدودة بأضلاع مسمّرة يتنزّه فيه ، فعُمل ودُهن بالأدهان والأصباغ الملونة المذهبة ، وضُبِّبَ بالفضة والنحاس المذهب ، وعَمِل فوقه قبة من الفضة المذهبة مصوّرةً بالزجاج الملون وعلّق فيها الحجر المضيء الذى أتى به أبوه من المغرب . فلما فرغ القصر فرشه بأحسن الفرش وجعله طبقتين : طبقة له يجلس فيها مع من يحبّه ، وطبقة لحشمه ، وجعل حول ذلك أرْوِقة ملصقة بالمجلس يجلس فيها من يريد ؛ فكان يركب فيه بمن أحبّه من خاصته ونسائه ويُصعِّد فيه فى المـاء إلى ناحية الصعيد وتتبعه المراكب فيها أصحابه وغلمانه بالعُدد والسلاح وينحدر إلى أسفل الأرض ، فإذا مرّ بمكان يستحسنه أقام فيه أياما .

وآتفق أنه خرج فى بعض الأيام مُصَعِّدًا فوثب رجل من الإسرائيليين على رجل من سَدَنَة الهياكل فضربه حتى أدماه وعاب دينَ الكهنة ، فغضب القبط لذلك وخاطبوا خليفة الملك أن يُخرجهم من مصر فآمتنع دون مشاورة الملك ، وكتب إليه يعرّفه ذلك ، فكتب إليه ألا يُحدث فى القوم حادثة دون موافاته ، فشَغَبوا وأجمعوا على خلعه وتمليك غيره ، وتعرّض بعضهم الى ذكر الملك فحشد أهلَ الصعيد وآنحدر اليهم ، فحاربوه فهلّك بينهم خلق كثير . وعاونته آمرأة أبيه ، وكانت ساحرة ، فأظهرت من سحرها وتخاييلها ودُخَنها ما أعمـاهم عن النظر ، وأضعف حواسهم وأسكرهم ، فقتل خلقا منهم وصلب خلقا على عبر النيل ، ورجع إلى أكثر ممـا كان عليه من ابتزاز النساء ونهب الأموال وآستخدام الأشراف والوجوه من القبط ومن بنى إسرائيل ؛

فأجمع الكل على ذمه . وكانت الساحرة لا تُخلّيه من معونتها الى أن ركب في ذلك القصر في بعض الليالى وقد أحدق النيل بالبلد، وهو من الجبل الى الجبل، وامتدّ القمر على الماء ، فأراد أن يعدّى من العُدوة الى العدوة الأخرى فلم يتهيأ له سَوْقُ القصر بسرعة لعظمه ، فركب مركبا لطيفا مع ثلاثة من خدمه والساحرة ، فلما توسّط البحرَ هاجت ريح عاصف فغرق هو ومن معه، وأصبح الناس شاكّين ٥ في أمره لا يعلمون ما نزل به، الى أن وُجدت جثته بشَطْنُوف[1] فعُرِف بخاتمه وبجوهر كان يتقلّد به فحُمل الى منف .

وملك بعده آبنه معاديوس بن دريموس ؛ ويسميه أهل الأثر معدان آبن دارم ، وهو الفرعون الخامس . وذلك بتدبير الوزير ؛ فأجلسه على سرير الملك وبايعه الجيش ، وكان صبيا فكرهه الناس ثم رَضُوا به ، فأسقط عن الناس ١٠ الخراج الذى كان أبوه أسقطه ، وزادهم سنة وأحسن إليهم فأطاعوه؛ وآستقام له الأمر وردّ نساءهم . وكان ينكر على أبيه فعله ولا يرضاه ؛ فلذلك رضُوا به .

قال : وفى زمانه كان طوفانٌ أضرّ ببعض البلد فلزم الملك الإقبال على الهياكل والتعبد ، وطلب القاطر ووجوه الكهنة بالحضور معه، وأنصف بعضَ الناس من بعض . وكثر بنو إسرائيل وعابوا الأصنام وثلبوها . وكان الوزير قد هلك ١٥ فآستوزر كاهنا يقال له املاده ، فلما رأى ما فعله بنو إسرائيل أنكره وأمر أن ٢٤/١٣ يُفردوا بناحية من البلد لا يختلط بهم أحد غيرهم ، فأقطعهم موضعا فى قبليّ منف، واجتمعوا إليه وعملوا لأنفسهم معبدا كانوا يتلون فيه صحف إبراهيم عليه السلام ، وآتفق أن رجلا من أهل بيت الكهنة عشق امرأة من بنى إسرائيل كانت قد جاءته

(١) شطنوف : بلدة — مركز أشمون — مديرية المنوفية . ٢٠

لتشتكى أخاها أنه غصبها ميراثها ، وأرادت أن يعتنى بأمرها عند وزير الملك ، فرآها ابنه فأحبها وسأل والده أن يزوجه منها ، فخطبها من أهلها فأبوا ذلك ، فانكر الناس فعلهم واجتمعوا الى الوزير وقالوا : هؤلاء قوم يعيبوننا ويرغبون عنا ، ولا نحب أن يجاورونا إلا أن يدينوا بديننا . فقال الوزير : قد علمتم إكرام الريان الملك لجدهم يوسف عليه السلام ، وقد وقفتم على بركة جثم يوسف عليه السلام حتى جعلتم قبره وسط النيل فأخصب جانبا مصر بمكانه فلا تخوضوا فى هذا ، فأمسكوا .

قال : وتغلب أحد ملوك الكنعانيين على الشام وامتنع أهله أن يحملوا الضريبة التى كانت عليهم لملك مصر ، فانكر أهل مصر ذلك وأشفقوا من غلبة صاحب الشام على بلدهم ، فحضوا الملك على غزو الشام فقال : إن رام أحد حدود بلدنا غزوناه ، وما لنا فى ذلك البلد من حاجة ، فاستنقصوا رأيه . وأقام على ملازمة الهياكل والتعبد فيها ، فيزعم القبط أنه بينا ذات يوم قائم فى هيكل زحل حذاء صورته ، وقد أجهد نفسه فى التعبد ، إذ تغشاه النوم فتجلى له زحل وخاطبه وقال : قد جعلتك ربا على أهلك وأهل بلدك ، وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم ، وسأرفعك إلى فلا تخل من ذكرى ؛ فعظم عند نفسه ، واتصل خبره بأهل البلد ، وأخبرهم سدنة الهيكل أنهم رأوا النور وسمعوا الخطاب ، وأعظم الناس أمره ، فتجبر فى نفسه وأمر الناس أن يسموه ربا ، وترفع أن ينظر فى شىء من أمر الملك ، وأحضر الناس وقال : قد وقفتم على ما خصصت به دون الملوك ، وهذه موهبة يلزمنى الشكر لواهبها عليها ، ولست أتفرغ للنظر فى أموركم ، وقد رأيت أن أجعل الملك إلى ابنى أكسامس ، وأكون من ورائه إلى أن يغيب شخصى عنكم كما وعدت ، وقد أيدته بالقاطرين ، فانظروا كيف تكونون ، ولا تتظالموا فإنكم منى بمرأى ومسمع ،

فرضُوا بذلك وقالوا : نحن عبيد الملك ومن رضيته الآلهة لحكم الخلق أن يَرْضوه ولا يخالفونه .

فملك ابنه أكسامس بن معاديوس ؛ ويسميه أهل الأثر كاسم آبن معدان ، وهو الفرعون السادس ، وجلس على سرير الملك وتُوّج بتاج أبيه وقام القاطرون بين يديه ، فجعل لكل واحد منهم رتبةً ، ورتّب الناس مراتب ، ٥ وقسم الكُوَر والأعمال ، وأمر باستنباط العمارات وإظهار الصناعات ، ووسع على الناس فى أرزاقهم وعلى حاشيته وحاشية أبيه ، وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها ، وزاد فى القرابين ؛ وكلما أتى شيئا من ذلك لم تخالفه الكهنة وقدّروا أن ذلك عن أمر أبيه برضى الكواكب ، وآحتجب أبوه عن الناس . وأقام كاسم أعلاما كثيرة حول منف وجعل عليها أساطين يُمَرّ عليها من بعضها إلى بعض . ١٠ وعمل برقُودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الأرض مدنا كثيرة وأعلاما ومنائر للوقود والطلّسمات . وعمل كُرَة من الفضة على عمل البيضة الفلكية ونقش عليها صور الكواكب الثابتة ودهنها بدُهن الصينى وركّبها على منار فى وسط منف . وعمل فى هيكل أبيه روحانىّ زُحَل من ذهب أسودَ مدبّرًا . وعمل فى وقته الميزان الذى يعتبر به الناس ، وجعلت كِفّتاه من ذهب وعلائقه من فِضّة وخيوطه سلاسل ذهب ، ١٥ وكان معلقا فى هيكل الشمس ، وكتب على إحدى كِفّتيه حقّ ، والأخرى باطل ، وتحته فصوص قد نقش عليها أسماء كل شىء من الكواكب ؛ فيدخل الظالم والمظلوم ويأخذ كل واحد منهما فصّا من تلك الفصوص ويسمى عليها ما يريد ، ويجعل أحد الفصين فى كفّة والآخر فى الأخرى ، فتثقل كفة الظالم وترتفع كفة المظلوم . وكذلك من أراد سفرا أخذ فصين فذكر على واحد آسم السفر ، والآخر ٢٠ اسم الجلوس ، ويجعل كل واحد فى كفة ، فإن لم يرتفع أحدهما على الآخر جلس ،

٢٥/١٣

وإن ارتفعا خرج ، وإن ارتفع أحدهما مكث شهرا . ومن نحو هذا من غائب ودين وفساد وصلاح . ويقال إن بُخْتَنَصَّر لما ظَفِر بمصر حمله فى جملة ما حمل الى بابل وجعله فى بيت من بيوت النار .

قال : وطالب كاسم الناسَ بلزوم الأعمال وإظهار الصنائع ، فعُملت كل غريبة منها : التنّور الذى يَشوى من غير نار فيه ، والقدور التى يطبخ فيها من غير نار ، والسكين التى تُنصب فإذا رآها شيء من البهائم أقبل حتى يذبح نفسه بها ، والماء الذى يستحيل نارا ، والزجاج الذى يستحيل هواء ، وأشياء من ذلك .

قال : فأقام فى أوّل ولايته ثلاث سنين بأجمل أمر وأصلح حال ، ومات وزير أبيه الذى كان معه فاستخلف رجلا من أهل بيت المملكة يقال له طلما ، وكان شجاعا فارسا كاهنا كاتبا حكيما دهيّا متصرّفا فى كل فنّ ، وكانت نفسه تنازعه المُلْكَ فصلُح أمر المملكة بمكانه وأحبه الناس ، فعمل معالم كثيرة وعمر خرابا وبنى مدنا من الجانبين . ورأى فى نجومه أنه ستكون شدّةٌ فاستعمل ما آستعمله نهراوش ، وبنى بناحية رقودة والصعيد ملاعب ومصانع . وشكا القبط اليه حال الإسرائليين فقال : هم عبيد لكم ، فكان القبطىّ اذا أراد حاجة سخر الإسرائيلى ، وكان القبطىّ يضرب الإسرائيلىَّ فلا يُنكر عليه أحد ، وإن ضرب الإسرائيلىُّ القبطىَّ قُتل ، فكان أوّل من أذى بنى إسرائيل ، ويفعل نساء القبط بنساء بنى إسرائيل ما يفعل الرجال بالرجال من السُّخَر والضرب .

قال : وفى أيام أكسامس بُنيت منارة الإسكندرية . وفى زمانه هاج البحر المالح فغرّق كثيرا من القرى والجنان والمصانع . وحكى أن أكسامس تغيّب عن الناس مدّة ، وقيل : مات وكتموا موته . وكانت مدّة ملكه إلى أن غاب إحدى وثلاثين سنة ، وأقام طلما إحدى عشرة سنة يدبّر المملكة ثم اضطرب الناس على

طلما وتغيّروا واتصل بهم أنه قتَل الملك بسم سقاه إياه فآجتمعوا وقالوا : لابدّ لنا من النظر إلى الملك، فعرّفهم أنه قد تخلّى عن المُلك وولّى ابنه لاطس فلم يقبلوا ذلك .

فأمر طلما الجيوش فركبت فى السلاح وأجلس لاطس بن أكسامس على سرير الملك ولبس التاج ، وكان جريئا معجَبا فوعد الناس جميلا وقال : أنا مستقيم لكم ما استقمتم، و إن ملتم عن الواجب ملت عنكم، وأمر ونهى وألزم الناس أعمالهم ، وحطّ جماعة من الوجوه عن مراتبهم ، وصرف طلما عن خلافة المملكة وآستخلف رجلا يقال له لاهوق من ولد صا الملك ودفع إليه خاتمه ، وأنفذ طلما عاملا على الصعيد وأنفذ معه جماعة من الإسرائيليين ، وعمل الأعلام وأصلح الهيا كل و بنى قرى كثيرة ، وأُثيرت فى أيامه معادنُ كثيرة وكنوز فى صحراء المشرق ، واستعمل آنية كثيرة من الجوهر الأخضر وأصناف الزجاج . وكان محبّا للحكم ثم تجبّر وعلا ، وأمر ألا يجلس أحد فى مجلسه ولا فى قصر الملك من الكهنة وغيرهم ، بل يقومون على أرجلهم إلى أن ينصرفوا ، وزاد فى أذى الناس والعنف بهم ، ثم منع الناس فُضولَ ما بأيديهم وقصرهم على القوت ، وجمع أموالهم وطلب النساء فانتزع كثيرا منهنّ ، وفعل فى ذلك أكثر من فعل مَنْ تقدّمه من الملوك ، وقهر الناس بالسطوة واستعبد بنى إسرائيل وقتل جماعة من الكهنة فأبغضه الخاص والعامّ .

وكان طلما لما صرفه لاطس عن خلافته وَجَدَ(٢) فى نفسه وأضمر الغدر به . فلما خرج إلى الصعيد احتجز الأموال فلم يحملها ، وحال بين الملك و بين المعادن ، وأراد أن يقيم ملكا من ولد قبطريم ويجلسه فى الملك ، فأشار بعض الكهنة على طلما أن يطلب المُلك لنفسه وعرّفه أنه سيكون له حال . فلما شجّعه الكاهن وجرّأه على

(١) أثيرت : من الإثارة ، وهى الإخراج من تحت الأرض .

(٢) وجد بالتحريك : غضب .

ذلك دعا إلى نفسه وكاتب وجوه أهل البلد، فبعض أجابه وبعض توقف، ورفع كل واحد من ولد الملوك رأسه وطمع فى الملك .

قال : وفى بعض كتبهم أن بعض الروحانيين ظهر له وقال : إنى أطيعك إن أطعتنى ، وأقلدك مصر زمانا طويلا ، فأجابه إلى ماسأله وقرّب له أشياء ذكرها له ، منها غلام إسرائيلىّ ؛ فعاونه حينئذ وكان له رسولا الى رؤساء مصر ، فكان يُتصوّر بصور بعضهم ويشير بتمليكه عليهم إلى أن آستقام له الأمر ، قال : ولما منع طلما لاطسَ من مال الصعيد كتب بصرفه عن العمل فأبى أن ينصرف، فوجه اليه قائدا من أهل بيته وقلده مكانه وأمره أن يحمله اليه ، فحاربه وأعانه الروحانىّ فظفر به طلما وآعتقله ثم خلّاه وقرّبه وأدخله فى جملته ، وآتصل الخبر بلاطس فأنفذ اليه قائدا آخر فهزمه طلما وسار فى أثره بجيش كثيف ، وكاتب جميع القوّاد وأهل البلد و بذل لهم الأموال ، وخرج اليه لاطس فحاربه طلما وعاونه الروحانىّ فظفر به طلما وقتله وسار حتى دخل منف وعاث فيها .

وملك طلما بن قومس ؛ ونزل قصر المملكة وجلس على سرير الملك وحاز جميع ما كان فى خزائنهم . قال : وطلما هذا هو آبن قومس، وهو الذى يذكر القبط أنه فرعون موسى عليه السلام . وأهل الأثر يسمونه الوليد بن مصعب وأنه من العمالقة . وذكروا أن الفراعنة سبعة فأوّلهم : طوطيس بن ماليا، ثم الوليد بن دومع ، ثم آبنه الريان بن الوليد ، ثم دريموس بن الريان ، ثم معاديوس بن دريموس ، ثم أكسامس بن معاديوس ، ثم طلما .

قال : وكان طلما فيما زعموا قصيرا . قيل : كان طوله أربعة أشبار ، طويل اللحية ، أشهل العينين ، صغير العين اليسرى ، فى جبينه شامة . ويقولون : إنه

كان أعرج . وزعم قوم أنه من القبط . قال : والدليل على ذلك ميلُه إليهم ونكاحه فيهم ، ونسبُ أهل بيته مشهورٌ عندهم .

وقد اختلف الناس فى سبب ملكه وعمن تلقّى الملك ، فقيل ما ذكرناه ، وقيل ما قدمناه(١) فى قصة موسى بن عمران عليه السلام ، والله تعالى أعلم .

قال : ولما جلس طلما على سرير الملك اضطرب الناس عليه فبذل الأموال وأرغب من أطاعه ، وقتل من خالفه ، فاعتدل الأمر له . وكان أول ما عَمِل أن رتّب المراتب ، وشيّد الأعلام ، وبنى المدن ، وخندق الخنادق ، وعمل بناحية العريش حصنا ، وكذلك على حدود مصر ، واستخلف هامان ، وكان يَقْرُب منه فى نفسه ونسبه ، فأثار بعض الكنوز وصرفها فى بناء المدن والعمارات ، وحفر خلجانا كثيرة . ويقال : إنه الذى حفر خليج السُّرْدوس(٢) ، وكان كلما عرّجه الى قرية من قرى الحوف حمل إليه أهلها مالا ، فاجتمع له من ذلك شىء كثير ، فأمر بردّه على أهله(٣) .

(١) راجع (ج ١٣ ص ١٧٥ من هذه الطبعة) .

(٢) ذكر ابن دقاق فى كتاب الانتصار (ج ٥ ص ٤٧) هذا الخليج أثناء كلامه عن مدينة قليوب فقال : « وبها خليج السردوس وهو أحد نزهات الدنيا وهو خليج يسار فيه بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة وفواكه دانية ... ... الخ » . وورد فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٣٠٤) بعد وصفه لهذا الخليج ما نصه : « قلت : أما الآن فقد ذهب ذلك ، وبطل الخليج وعوّض عنه بحر أبى المنجا » .

(٣) هذا ما رواه ابن وصيف شاه . وذكر المقريزى بعد هذا ما قاله ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو متمم لهذه الرواية ونصه :

« إن فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم ويعطونه مالا . قال : وكان يذهب به الى هذه القرية من نحو الشرق ثم يردّه الى أهل قرية من نحو دبر القبلة ثم يردّه الى قرية فى الغرب ثم يردّه الى أهل قرية فى القبلة ويأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار فأتى بذلك يحمله الى فرعون فسأله عن ذلك فأخبره بما فعل فى حفره ، فقال له فرعون : ويحك ! إنه ينبغى للسيد أن يعطف على عباده ويفيض عليهم ولا يرغب فيما بأيديهم ؛ ردّ على أهل كل قرية ما أخذت منهم . فردّه كله على أهله » (وراجع أيضا فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٦ طبع أوروبا) اهـ .

وانتهى الخراج فى وقته الى سبعة وتسعين ألف ألف دينار ، وكان يُنزل الناس على مراتبهم . وهو أوّل من عرّف العُرفاء على الناس ، وكان ممن صحبه من الإسرائيليين رجل يقال له إمرى ، وهو عمران أبو موسى عليه السلام ، وهو أخو مزاحم لأبويه ، ومزاحم أبو آسية ، فهى آبنة عمّ موسى و بنت خالته ، ٥ فجعل فرعون عمران حارسا لقصره يتولى حفظه وفتحه وإغلاقه . وكان رأى فى كهانته أن هلاكه على يد مولود من الإسرائيليين ، فمنعهم المناكحة ثلاث سنين؛ لأنه رأى أن ذلك المولودَ يكون فيها . ثم كان من خبر موسى فى حمل أمه به وولادته وغير ذلك من أمره ما قدّمنا[1] ذكره فى قصة موسى عليه السلام فلا فائدة فى إعادته .

١٠ وقد نقل أن موسى عليه السلام لمّا كبر عند فرعون عظُم شأنه وردّ فرعون إليه كثيرا من أمره وجعله من قوّاده ، وكانت له سطوة ؛ ثم وجهه فرعون لغزو الكوثانيين ، وكانوا قد عاثوا فى أطراف مصر ، فخرج فى جيش كثيف فرزقه الله عز وجل الظَّفَر ، فقتل منهم خلقا وأسر خلقا وآنصرف سالما فسُرّ به فرعون وآسية . قال : وآستولى موسى وهو غلام على كثير من أمر فرعون وأراد أن ١٥ يستخلفه حتى قتل رجلا من أشراف القبط فكان من أمره ما تقدّم ذكره . والله أعلم .

٢٧ / ١٣

هذا ما أورده إبراهيم فى كتابه ؛ ولم يذكر من أخبار ملوك مصر بعد غرق فرعون شيئا ولا ذكر مَنْ ملك بعده. وقد أشار المسعودى فى مروج الذهب الى نبذة من أخبار مَنْ ملك مصر بعد غرق فرعون نحن نذكرها . وأما سياقة أخباره فيما كان ٢٠ قبل فرعون فهذا الذى ذكرناه أتمّ منه وأكثر استيعابا .

(١) راجع (ج ١٣ ص ١٧٣ — ٢٣٢ من هذه الطبعة) .

ذكر نبذة من أخبار من ملك مصر بعد غرق فرعون

قال أبو الحسن على بن عبد الله المسعودى فى كتابه مروج الذهب[(١)] ومعادن الجوهر : لما أهلك الله تعالى فرعون وقومه بالغرق خشى من بقى بمصر من الذرارى والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب؛ فملكوا عليهم آمرأة يقال لها دَلُوكة؛ فبنت على أرض مصر حائطا يحيط بجميع البلاد من حدّ أرض رَفَح الى برقة، وجعلت الحرّاس على مسافة كل ميل منها يصل أخبار بعضهم الى بعض، فإذا حدث أمر فى أوّل ملكها بليل رُفعت النيران فى وقت حدوثه فعلم فى آخر المملكة بالخبر من ليلته، وإن كان بالنهار دخن . وهذا الحائط موجود الى حين وضعنا لهذا الكتاب ويسمى حائط العجوز . وقيل فيه : حائط الجوز[(٢)] . وقيل : إنها بنت هذا الحائط من خوفها على ولدها .

واتخذت دلوكة بمصر البرابى وصوّرت فيها الصور، وأحكمت آلات السحر، وجعلت فى البرابى صُوَرَ من يرد فى البر ودوابّهم إبلا كانت أو خيلا ، ومن يرد

---

(١) راجع (ج ١ ص ١٧١ طبع بلاق) .

(٢) ذكر المؤلف فيما سبق (ج ١ ص ٣٩٢ من هذه الطبعة) ما نصه :

«وهذا الحائط من العريش (وهو حدّ مصر من جهة الشام) الى أسوان (وهى حدّ مصر من جهة النوبة) شاملا للديار المصرية من الجانب الشرقى» .

وقد وصف ابن فضل الله العمرى جزءاً من هذا السور فى كتابه مسالك الأبصار (ج ١ ص ٢٣٩) فقال :

«وهو حائط يستدير بالديار المصرية ، ممتدّا على جانبى المزدرع بها ، كأنه قد جعل حاجزا بين الرمل والمزدرع . على أنه غير عالى الذرى .

مشيت معه الى دندرا ، من الصعيد الأعلى ، ورأيته قد دثر غالبه ، ومنقطعه أكثر من متصله ، وهو مبنىّ من طوب ، ليس بعريض السمك ولا عالى الجدار .... وأنه يصل الى ما بين العريش ورفح ، منتهى الحدّ الفاصل بين مصر و بين الشام . وليس له هناك أثر، بل ولا فى أسافل أرض مصر» .

فى البحر فى المراكب من بلاد الغرب وسواحل الشام، وأحكمت جميع ذلك بحركات فلكية، فكان إذا ورد عليها عدو من نحو الحجاز واليمن عورت تلك الشخوص التى فى البرابى من الإبل وغيرها فيحدث الغور فى ذلك الجيش ويهلك دوابهم، وكذلك كل من يقدم عليها من البر والبحر إذا بلغها خبر مقدمه صنعت فى تلك الصور ما يحدث مثله فى ذلك الجيش من الآفات؛ فهابها سائر ملوك الأمم. وخبر هذه المرأة مشهور. وأكثر هذه البرابى باق الى وقتنا هذا وفيها التصاوير إلا أنها لا فعل لها. وقد قيل فى البرابى: إنها اتخذت مع الأهرام قبل الطوفان، والله تعالى أعلم.

وقيل أيضا: إن مما أنشأته هذه المرأة منارة الإسكندرية؛ وقد تقدم ذكر خبرها فى المبانى القديمة وهو فى السفر الأول[1] من كتابنا هذا من هذه النسخة.

قال: وملكت هذه المرأة نحوا من ثلاثين سنة؛ وقيل أقل من ذلك.

ولما هلكت دلوكة ملك بعدها دركوس[2] بن بلوطس. ثم ملك بعده ولده بورش[3]. ثم ملك بعده ولده بغاش[4] بن بورش نحوا من خمسين سنة. ثم ملك بعده دنيا[5] ابن بورش نحوا من عشرين سنة. ثم ملك بعده بلوطس عشرين سنة. ثم ملك بعده بلوطس بن متنا كيل[6] أربعين سنة. ثم ملك بعده مالس[7] بن بلوطس. ثم ملك

(١) راجع (ج ١ ص ٣٩٥ من هذه الطبعة).

(٢) فى المقريزى: « دركون » وفى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١٦): « دركون بن بطلوس، ويقال: دركوس بن ملوطس ».

(٣) فى المقريزى: « بورس » وفى صبح الأعشى: « تودس ».

(٤) فى المقريزى: «لقاس».

(٥) فى المقريزى: « مرنيا بن مرينوس ».

(٦) فى المقريزى: « منا كيل » وفى صبح الأعشى: « ميا كيل ».

(٧) فى المقريزى وصبح الأعشى: « مالوس ».

بعده بوليه[1] بن متنا كيل[2]، وكانت له حروب وسِيَرٌ فى الأرض وهو فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل وخرّب بيت المقدس. ثم ملك بعده وينوس بن مرينوس[3] ثمانين سنة . ثم ملك بعده قومس[4] بن بغاس[5] عشر سنين . ثم ملك بعده مكاييل وكانت له حروب مع ملوك الغرب ، وهو الذى غزاه بختنصّر فقتله وقتل رجاله وخرّب أرض مصر، فقيل إنها خربت مدة أربعين سنة . وانقرض ملك الفراعنة . ٥

***

٢٨/١٣ وملك الروم أرض مصر فتنصّر أهلها، ولم تزل بيد ملوك الروم الى أن ملك كسرى أنو شروان فارس فغلبت جيوشه على الشام وسارت نحو مصر ، فملك الفرسُ أرضَ مصر ، وغلبوا عليها نحوا من عشر سنين . وكانت بين الروم وفارس حروبٌ كثيرة، فصار أهل مصر يؤدّون خراجين: للروم وللفرس، ثم انجلت الفرس ١٠ عن الشام ومصر لأمر حدث فى بلادهم ، فغلبت الروم على مصر والشام وأظهروا النصرانية ، واستمرّ ذلك الى أن جاء الله تعالى بالإسلام . وكان المقوقس ينوب عن ملك الروم، وهادى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . ولم تزل الديار المصرية

(١) فى المقريزى : «بولة» .

(٢) ورد فى المقريزى (ج ٣ ص ٦٢ طبعة فييت) ما نصه : « وقيل له الأعرج لأنه لما غزا ١٥ بيت المقدس ونهبها وسبى ملكها يوشيا بن آمون بن منشا بن حزقيا هم أن يصعد على كرسىّ نبىّ الله سليمان ابن داود وكان بلولب لايمكن أحدا أن يصعد عليه إلا برجليه جميعا فصعد برجل واحدة وهى اليمنى فدار اللولب على ساقه الأخرى فاندقت، فلم يزل يجمع بها الى أن مات فلذلك سمى الأعرج » .

(٣) فى المقريزى : «مرينوس بن بولة» ثم ذكر أن الذى استخلف بعده ابنه « فرقورة » ومكث ملكه ستين سنة . ثم توفى واستخلف أخاه « نقاس بن مرينوس» . وانهدم البربا فى زمنه فلم يقدر أحد ٢٠ على إصلاحه . ثم توفى نقاس واستخلف ابنه « قوميس بن نقاس... » .

(٤) فى المقريزى : « قوميس » .

(٥) فى المقريزى : « نقاس » . وفى صبح الأعشى : « بغاش » .

والشام بيد ملوك الروم الى أن فُتحت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه على ما سنورد ذلك إن شاء الله تعالى فى خلافة عمر فى الباب الثانى من القسم الخامس من هذا الفن، وهو فى السفر السابع عشر من هذه النسخة .

قال المسعودى رحمه الله : والذى اتفقت عليه التواريخ ، مع تباين ما فيها ، فى عدد ملوك مصر الى آخر أيام الفراعنة أنهم اثنان وثلاثون ملكا . قال : فمن ملوك بابل الى آخر أيام آبنة ماموم — يشير الى دليفة — أحد عشر ملكا وملكة . ومن العماليق أربعة ملوك . ومن الفراعنة من لَدُن الوليد بن مصعب فرعون موسى بن عمران عليه السلام، والى أن خرج بختنصّر الفارسىّ على مكابيل وقتله سبعة عشر ملكا بما فى ذلك من مُلْك دَلوكة، وهو إنما يشير الى مَنْ ملكها بعد الطوفان . وأما مَن ملكها قبل الطوفان فإنه لم يتعرّض الى ذكرهم . قال : وملكها من الروم سبعة ملوك . ومن اليونان عشرة ملوك . قال : وذلك قبل ظهور المسيح عليه السلام . قال : وملكها أناس من الفرس فكانت مدّة من ملكها من الفراعنة ومن بعدهم والعماليق والفرس والروم واليونان ألفى سنة وثلثمائة سنة . والله أعلم بالصواب .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الخامس

في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم، وهم ملوك الفرس الأول، وملوك الطوائف من الفرس، والملوك الساسانية، واليونان والسريان والكلوانيين والروم والصقالبة والنوكبرد والإفرنجة والجلالقة وطوائف السودان

ذكر أخبار ملوك الفرس

وهم الفرس الأول

وقد اختلف الناس في الفرس وأنسابهم وكم من دولة كانت لهم . وسنذكر ها هنا مقالاتهم في ذلك واختلافهم . فمن الناس من زعم أنهم من فارس بن ياسور ابن سام بن نوح، وهذا قول هشام بن محمد . ومنهم من زعم أنهم من ولد يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . ومنهم من زعم أنهم من ولد هدرام ابن أرنخشد بن سام بن نوح ، وأنه وُلِد له بضعةُ عشر رجلا كلهم كان فارسا شجاعا ؛ فسمّوا الفرس لفروسيتهم، وفي ذلك يقول حطّان بن المعلّى الفارسيّ :

وبنا سُمِّيَ الفوارس فُرسا نا ومنّا مناجبُ الفتيان[1]

وزعم قوم أن الفرس من ولد لوط من ابنتيه رشا ورغوشا . وذكر آخرون أنهم من ولد بوّان بن أران بن الأسود بن سام بن نوح، ولبوّان هذا ينسب شِعب بوّان وهو أحد متنزّهات الدنيا . وقد تقدّم ذكره في باب الرياض[2] من الفن الرابع .

---

(١) في مروج الذهب للمسعودي (ج ١ ص ١١٢ طبع بلاق) (... مناجب الفرسان) وبعد البيت :

وكهول طواهم الركب والكـ ـر كمثل الكرات يوم الطعان

(٢) راجع (ج ١١ ص ٢٥٧ من هذه الطبعة) .

ومن الناس من يرى أن الفرس من ولد إيران بن أفريدون ، ولا خلاف بين الفرس أجمع أنهم من ولد كيومرث[1] وهو الأشهر، وإليه يرجع جميع الفرس الأُوَل وملوك الطوائف والملوك الساسانية .

وأما التنازع فى دولهم فمن الناس من زعم أنهم أربعة أصناف، وأن الصنف الأوّل منهم كان من كيومرث إلى أفريدون وهم الجرهانية، وقيل الجهدهانية . والصنف الثانى من كان إلى دارا بن دارا وهم الكيانية . والصنف الثالث ملوك الطوائف . والصنف الرابع الساسانية . ومن الناس من جعلهم صنفين : فجعل الصنف الأوّل من كيومرث إلى دارا بن دارا . والصنف الثانى من أردشير بن بابك إلى يزدجرد ابن شهريار المقتول فى خلافة عثمان رضى الله عنه . فمدّة ملكهم فى الدولة الأولى ثلاثة آلاف سنة وثلثمائة وستة وعشرون سنة . وعدّة ملوكهم عشرون ملكا فيهم امرأة واحدة .

فأوّل مَلِك مَلَك من الفرس الأُوَل كيومرث وقيل فيه جيومرث .

وقد اختلف فى نسبه[2]، فمن الناس من قال : إنه ولد آدم لصلبه . ومنهم من قال : إنه ولد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . وقد قيل : إنه أوّل مَلِك ملَك من بنى آدم . وكان السبب فى ملكه أنه لمّا كثر البغى والظلم فى الناس اجتمع أكابر أهل زمانه ورأوا أنه لا يُقيم أمرَهم إلا ملك يرجعون إليه فيما يأمر وينهى، فأتوه وقالوا : أنت أكبر أهل زمانك وبقية أبينا ، والناس قد بَغَى بعضهم على بعض ، وأكل القوىّ الضعيف، فضمّ أمرنا إليك وكن القائم بصلاحنا . فأخذ عليهم العهود والمواثيق بالسمع والطاعة له وترْك الخلاف عليه . فصنعوا له تاجا ووضعوه على رأسه . وهو أوّل من وضع التاج على رأسه . فاستوثق له الأمر وقام

(١) كذا فى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٠٥ طبع بلاق) وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٢) . وفى الأصل : « كيومرت » بالتاء المثناة . (٢) وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « وزعم علماء الفرس أن كيومرث هو آدم عليه السلام » .

بأمر الناس وحسُنَت سيرته فيهم . وكانت مدّة ملكه عليهم أربعين سـنة . وكان ينزل إصطخر من أرض فارس حتى مات . وآختُلِف فى مقـدار عمره ، فقيل : إنه عاش ألف سنة ، وقيل غير ذلك . والله تعالى أعلم .

فلما مات قام بالأمر من بعده أوشهنج ابنه وقيل : أخوه ، وقيل : أوشهنج ابن فيشداد بن كيومرث[1] . وفى الناس من يزعم أنه أوّل مَلِكٍ ملَك من الفرس ، وهو الذى جمع الأقاليم السبعة ، ورتب المُلك ونظّم الأعمال ، ولقِّب بفيشداد ، وتفسيره بالعربية أوّل سيرة العدل . ويقال : إن أوشهنج هذا كان بعد الطوفان بمائتى سنة ، وهو أوّل من قطع الحجر وبنى به ، وآستخرج المعادن ، وبنى مدينتى بابل والسوس . وكان فاضلا حسن السياسة محمودَ الأثر . قال : ونزل الهند وتنقّل فى البلاد وعقد التاج وجلس على السرير . وكان من حسن سياسته أنه نفى أهل الفساد والدعارة من البلدان وألجأهم إلى رءوس الجبال وجزائر البحر ، وآستخدم منهم من كان يصلُح لخدمة وسمّاهم الشياطين والعفاريت ، وقرّب أهل الخير والصلاح . وكانت مدّة ملكه أربعين سنة .

ولمـا مات ملك بعده طهمورث[2] وقيل فيه طهورث بن أنوجهان بن أوشهنج ، وقيل بل بينهما عدّة آباء . قال : ولمـا ملك سار فى الناس سيرة جدّه أوشهنج . وكان ينزل نيسابور . وقيل إنه الذى أنشأها ثم جدّدها بعد ذلك سابور . وقيل : إنه أوّل من كتب بالفارسية[3] ونفى أهل الدعارة والشرّ وآستقام له نظام الملك . قيل : وفى أيامه ظهر بوداسف[4] الذى أحدث دينَ الصابئة . وكان ملكه ثمانين سنة . وقيل ثلاثين سنة .

---

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٢٠٧ من القسم الأول طبع أوربا) : «أوشهنق بن فرواك» . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « أوشهنج بن سيامك بن كيومرث » . (٢) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ١٧٤ من القسم الأول طبع أوربا) ومروج الذهب للسعودى وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم . وفى الأصل : « طهومرث » . (٣) فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ١٠٠) : « بالفهلوية » . (٤) كذا فى الأصول ، وفى الطبرى (ص ١٧٦ من القسم الأول) : «بوداسب» بالباء الموحدة ؛ وفى مروج الذهب (ج ١ ص ١٠٧ طبع بلاق) : « أيوداسف » .

ولما مات ملك بعده أخوه جمشيد[١]، وتفسير شيد : الشعاع ، سمي بذلك لوضاءة وجهه . قال : ولما ملك سلك سيرة من تقدّم وزاد عليها بأن صنَّف الناس وطبَّقهم ورتّب منازل الكتّاب وأمر لكل واحد وظيفة وأمره أن يلزمها . وعمل أربعة خواتيم : خاتما للحرب والشُّرَط[٢] وكتب عليه الأناة، وخاتما للخراج وجباية الأموال وكتب عليه العمارة، وخاتما للبريد وكتب عليه الوحا ، وخاتما للظالم وكتب عليه العدل . فبقيت هذه الرسوم فى ملوك الفرس الى أن جاء الإسلام .

وكان ملكه ستمائة سنة . وقيل سبعمائة سنة وستة أشهر . وقيل ألف سنة إلا عشر سنين . وفى أيامه أحدث النيروز[٣] وجعله عيدا ، وأمر الناس أن يتنعموا فيه . ثم بدّل سيرته بالجور بعد الإنصاف ، والظلم بعد العدل ، والإساءة بعد الإحسان، فثقُلت وطأته على الناس . ثم أظهر الكِبْر على وزرائه وكتّابه وقوّاده . ثم آنهمك على لذّاته وترك مراعاة كثير من السياسة الملوكية التى جرت عادة الملك أن يتولّاها بنفسه . وقيل : إنه آدّعى الإلهية فخرج عليه بيوراسب ، وكان من جملة عمّاله ، وآستجلب الناس و جمعهم عليه وآستصلحهم لنفسه ، وقصد جمشيد بعد أن كثرت أتباعه وقويت شوكته ، فهرب منه فآتبعه حتى أدركه وظفر به ونشره بمنشار .

وملك بعد جمشيد بيوراسب ؛ وهو الذى يسمّيه العرب الضحّاك . قالوا : وهو بيوراسب[٤] بن أروند اسف بن بغاداس بن طوخ بن قروال بن ساعل بن فرس آبن كيومرث ، وهو الدّهّاك ، فعُرّب اسمه فقيل الضحّاك . وقيل : إنه ملك ألف سنة . وزعم قوم أنه نمروذ . وزعم قوم آخرون أنه كان من عمّال بيوراسب على كثير من أعماله .

(١) راجع معناه فيما تقدّم (ج ١ ص ١٨٥ من هذه الطبعة) . (٢) الشرط هنا : أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت . (٣) تقدّم الكلام عليه فى الجزء الأول (ص ١٨٥ من هذه الطبعة) .
(٤) ورد هذا النسب فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٠٧ طبع بلاق) باختلاف فى الأسماء .

قال : ولما ملك بيوراسب ظهر منه خبث شديد وفجور كثير، وملك الأرض كلها، فسار فيها بالجَوْر والعَسْف وسَفْك الدماء والصلب، وهوّل على الناس ومحا سيرة من تقدّمه من الملوك، وسنّ الأعشار واتخذ الملاهىَ والغناء . وكان على منكبيه سِلعتان[1] يحرّكهما إذا شاء كما يحرّك يده ، فادّعى أنهما حيّتان تهويلا على ضعفاء الناس . وقد تقدّم ذكره فى الباب الرابع من القسم الثالث من الفنّ الأوّل، وهو فى السفر الأوّل[2] من نسخة الأصل فى أخبار أعياد الفرس ، فلا حاجة الى إعادة ما قدّمنا ذكره من أمره .

قال : ولما عمّ الناس جَوْره كان من سوء عاقبة ذلك أن ظهر بأصبهان رجل يقال له كابى[3] من عوامّ الناس . ويقال : إنه كان حدّادا . وكان الضحّاك قتل لكابى ابنين ، فبلغ به الجزع على ولديه مبلغا عظيما ، فقام وأخذ عصا وعلّق عليها جرابا . وقيل : بل علّق النِّطع الذى كان يشدّه على وسطه يتّقى به النار إذا صنع الحدادة . وقيل : بل كان جلد أسد . وقيل : بل جلد نمر، ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب ، فحمل الناسَ ما كانوا فيه من البلاء إن اتبعوه وأطاعوه، فاستفحل أمره، وكثرت أتباعه، واجتمع عليه أشراف الناس وأكابرهم؛ فقصد بيوراسب . فلما أشرف عليه هرب عن منازله ، فجاء أشراف الناس إلى كابى الأصبهانى واجتمعوا عليه ليملّكوه، فامتنع من ذلك وقال : إنى لست من بيت الملك، ولكن التمسوا من هو من بيت الملك فنولّيَه علينا . وكان أفريذون[4] بن اثفيان قد استخفى من الضحاك

(١) سلعتان : مثنى سلعة بالكسر، وهى زيادة تحدث فى الجسد مثل الغدّة تمور بين الجلد واللحم إذ أضغطت، وتكون من قدر حمصة الى بطيخة . (٢) راجع (ج ١ ص ١٨٨ من هذه الطبعة) .

(٣) فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٣٢) : « كاوة » .

(٤) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٢٠٣١ من القسم الأوّل) وغرر أخبار الفرس وسيرهم (ص ٣٥١) وخطط المقريزى (ج ٣ ص ١٠٣ طبعة نييت) . وفى الأصل : « أفريدون » بالدال المهملة .

فى بعض النواحى ، فجاء إلى كابى الأصبهانى ففرح الناس به واستبشروا بمقدمه ، وكان مرشحا للملك فملكوه عليهم ، وصار كابى من جملة أعوان أفريذون .

قال : وتفاءل الفرس وتبركوا بذلك العلم الذى كان قد رفعه كابى الأصبهانى وعظموه ورصعوه بعد ذلك بالجواهر وسموه الدرفس وجعلوه علمهم الأكبر الذى يتبركون به ، وهو الذى صار الى المسلمين فى وقعة القادسية[1] ، وكانت الفرس لا ينشرونه إلا فى الأمور العظيمة .

قال : ولما هرب بيوراسب ملك بعده أفريذون ، وهو التاسع من ولد جمشيد . قال : فأول ما بدأ به أن اتبع بيوراسب فأدركه بدنباوند[2] وقتله . وفى يوم قتله أحدث المهرجان على ما قدمناه[3] . قال : ثم رد أفريذون مظالم الناس وأمر بالإنصاف وبسط العدل ، ونظر الى ما كان بيوراسب قد اغتصبه من أموال الناس وأملاكهم وأراضيهم ، فرد ذلك على أهله ، وما لم يجد أهله وقفه على المساكين ومصالح العامة . وكان مؤثرا للعلم وأهله . وكان صاحب طب وفلسفة ونجوم . وزعم بعض الفرس أن بيوراسب الضحاك هو النمروذ ، وأن أفريذون هو إبراهيم عليه السلام . قال : ودام ملكه خمسمائة سنة . وقال : هو أول من تسمى بكى ، فكان يقال له : كى أفريذون ، وهى كلمة يراد بها التنزيه ؛ أى روحانى منزه متصل بالروحانية . وهو أول من ذلل الفيلة وقاتل بها الأعداء . قال : وكان لأفريذون

(١) القادسية : بلدة قرب الكوفة بينها و بين الكوفة خمسة عشر فرسخا ، و بينها و بين العذيب أربعة أميال ؛ وكانت بها وقعة القادسية المعروفة بين المسلمين والفرس فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ١٦ من الهجرة . وهذه الوقعة من أعظم وقائع المسلمين خيرا و بركة .

(٢) دنباوند : جبل من نواحى الرى ، وهو جبل عال مشرف شاهق شامخ لا يفارق أعلاه الثلج شتاء ولا صيفا ، ولا يقدر أحد من الناس يعلو ذروته ولا يقاربها ، و يعرف بجبل البيوراسف يراه الناس من مرج القلعة ومن عقبة همذان ، والناظر اليه من الرى يظن أنه مشرف عليه ، وأن المسافة بينهما ثلاثة فراسخ أو أربعة ... و بهذا الجبل عيون كبريتية (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٣) راجع الجزء الأول (ص ١٨٨ من هذه الطبعة) .

ثلاثة أولاد وهم : سَرْم وقيل فيه سلم ، وطوخ[1] ، وإيرج وقيل فيه إيران ؛ فخشى أفريذون ألا يتفقوا بعده وأن يبغىَ بعضهم على بعض ، وظن أنه إذا قسم الملك بينهم فى حياته بقىَ الأمر بعده على انتظام واتساق فقسمه بينهم . فجعل الرومَ والشامَ وناحيةَ المغرب لسرم . وجعل التركَ والصينَ لطوخ . وجعل العراقَ والهندَ لإيرج ، وهو صاحب التاج والسرير . ففى ذلك يقول شاعرهم :

وقَسَمنا ملكنا فى دهرنا * قسمة اللحم على ظهر الوَضَمْ[2]
فجعلنا الرومَ والشامَ الى * مغرب الشمس الى المَلْكِ سَرَمْ
ولطوخ جُعِلَ التُّركُ له * فبلادُ الصين يحويها آبنُ عم
ولإيرانَ جعلنا عنوة * فارسَ الملك وفزنا بالنعم

فلما مات أفريذون وثب طُوخ وسَرَم بأخيهما إيران فقتلاه وملكا الأرض بينهما ، ولذلك نشأت العداوة بين الترك والروم ، وقامت الحروب ، وطلب بعضهم بعضا بالدماء . فكان من سوء عاقبة غدرهما بأخيهما وتغلبهما على ملكه أن نشأ آبن لإيران بن أفريذون يقال له منوجهر ، وقيل اسمه منواشجهر ، وقيل فيه منوشهر ، فغلب على ملك أبيه إيران .

وملك منوجهر بن إيران بلاد فارس ، ثم نشأ آبن لطوخ التركى فنفى منوجهر عن بلاده وجرت بينهما حروب ، ثم ظَفِر منوجهر وعاد الى ملكه ، ونفى ولدَ طوخ وقوى أمره وظهر آسمه . وكان منوجهر موصوفا بالعدل والإحسان فى مملكته . ويقال : إنه أوّل من خندق الخنادق ، وجمع آلة الحروب ، وأوّل من وضع الدّهقنة[3] ، وجعل لكل قرية دُهقانا ، وجعل أهلها عبيدا وخَوَلا وألبسهم لباس

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٢٣٠ من القسم الأوّل) : « طوج » . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « توز » . (٢) الوضم : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم .

(٣) الدهقنة : مصدر واسم من دهقن ، والدهقان (بالكسر ويضم) هنا : رئيس الإقليم ، معرّب دهحان . (عن محيط المحيط للبستانى) مادة دهقن .

المذلّة . ولما قوى أمره سار نحو الترك وطلب بدم أبيه فقتل عمّيه اللذين قتلا أباه ، وأدرك ثأره وآنصرف الى بلاده .

ثم نشأ فراسياب[1] بن ترك من ولد طوخ بن أفريذون و إليه ينسب الترك ، فحارب منوجهر وحاصره بطَبَرِسْتان[2] ، ثم اصطلحا وضربا بينهما حدّا لايجاوزه واحد منهما ، وهو نهر بلخ ، فانقطعت الحرب بين فراسياب ومنوجهر . وكان لمنوجهر هذا خُطَبٌ تدل على سداد رأيه ، ووفور عقله ، وجَوْدة فهمه ، قد ذكرنا بعضها فى الباب الرابع[3] من القسم الخامس من الفنّ الثانى فى وصايا الملوك . قال : وفى أيام منوجهر ظهر موسى بن عمران عليه السلام .

قال : ولما مات منوجهر تغلّب فراسياب على إقليم بابل آثنتى عشرة سنة ، وأكثر الفساد ، وخرّب البلاد ، وطمّ الأنهار ودفن القُنَى ، فقحط الناس الى أن ظهر زوّ بن طهماسب فأخرجه عن بلاد فارس الى تركستان .

وملك زوّ بن طهماسب وقيل فيه : زاع ، وقيل فيه : زاب ، وقيل : راسب ، وهو من أولاد منوجهر ، و بينه و بين منوجهر عدّة آباء . قال : ولما ملك ابتدأ فى عمارة ما خرّبه فراسياب ، وأمر ببناء ما هدم من الحصون ، وحفر الأنهار والقُنَى ، حتى عادت البلاد إلى أحسن ما كانت عليه ، ووضع عن الناس الخراج

---

(١) كذا فى نسخة (أ) ومروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٠٨) . وفى نسخة (ب) وتاريخ الطبرى (ص ٤٣٤ من القسم الأوّل طبع أوربا) : « فراسيات » بالتاء المثناة .

(٢) طبرستان : ناحية واسعة الأرجاء ببلاد الفرس بين جرجان والديلم ، على بحر قزوين الذى يسمى أيضا باسمها « بحر طبرستان » وأشهر مدنها : آمل ، أو عامل ، والدامغان ، وقومسان (وهى الآن إقليم مازندران) من مملكة إيران ، فتحها سويد بن مقرّن فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (راجع معجم الخريطة الإسلامية لارحوم أمين واصف بك) .

(٣) فى الأصل « الباب الثالث » وما أثبتناه هو ما ورد فى (ج ٦ ص ١٦ من هذه الطبعة) ، وقد راجعنا هذا الباب فلم نجد لتلك الخطب أثرا ، ولعلها سقطت من الأصل .

سبع سنين، فعمرت البلاد فى أيامه، ودرت معايش الناس، واحتفر بالسواد[1] نهرا وسماه الزاب، و بنى على حافتيه مدينة وهى التى تسمى المدينة العتيقة، وكوّرها كورا، وجعلها ثلاثة طساسيج[2]: الزاب الأعلى، والزاب الأوسط، والزاب الأسفل، ونقل إليها بذور الرياحين، وأصول الأشجار.

وزو هـذا أوّل من اتخذ ألوان الطبيخ، وأنواع الأطعمة، وقسم الغنائم على جنده. وكانت مدّة ملكه ثلاث سنين.

ثم ملك بعده كرشاسب بن أسباس، وأمه من سبط يامين بن يعقوب عليه السلام. قال: وكان مسكنه ببابل. ومدّة ملكه عشرون سنة. و بعض المؤرخين لم يذكره فى الملوك. وقال الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن مسكو يه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم: إن كرشاسب كان وزيرا لزو بن طهماسب، وأنه من أولاد طوخ ابن أفريذون. قال: وقد حكى أن زوا وكرشاسبا اشتركا فى الملك. قال: والصحيح من أمره أنه كان وزيرا لزو ومعينا له، والذى أثبت كرشاسب فى الملوك الشيخ عبد الملك بن عبد الله بن عبدون الحضرمى الشلبى فى كتابه المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرر، وقال: ولم يذكره بعض المؤرخين.

ثم ملك بعده كيقباذ بن زو، وقيل فيه: ابن زاب بن تور، وسلك سبيل أبيه فكوّر الكور، وبين حدودها، وأمر الناس بالعمارات، وأخذ العشر من الغلات لأرزاق الجند. وكان حريصا على العمارة، مانعا لحوزته، والملوك الكيية[3] من نسله. وكان بينه وبين الترك حروب كثيرة. وكانت إقامته فى الحد

---

(١) يريد بالسواد العراق. (٢) طساسيج: جمع طسوج بالتشديد، وهى الناحية.

(٣) الكيية: الذين تبتدئ أسماؤهم بلفظ (كى) وهى كلمة يراد بها الت...

الذى بين مملكة الفرس والترك بناحية بلخ . وكان ملكه مائة وعشرين سنة ثم مات .

وملك بعده كيقابوس[1] بن كينة بن كَيْقُباذ الملك . قال : ولما ملك شدد على أعدائه ، وقتل خلقا كثيرا من عظماء البلاد وسكن بلخ ، وولد له ابن لم يُرَ مثله فى عصره جمالا وتمامَ خلقة ،وسمّاه سياوخش وضمه الى رستم الشديد بن دستان من ولد كرشاسب . وكان أصبهذا بسجستان وما يليها من قبل كيقابوس وأمره بتربيته . فمضى به رستم الى سجستان وتخيّر له الحواضن والمراضع الى أن عَقَلَ ، فجمع له المعلمين ، ثم علّمه الفروسية حتى فاق فيها ، فقدم به على أبيه وهو كامل الصفات من العقل والأدب والفروسية ، فآمتحنه والده فوجده فوق ما يجب .

قال : وكان لكيقابوس زوجة بارعة الجمال يقال إنها بنت فراسياب ملك الترك ؛ ويقال : إنها آبنة ملك اليمن ، فهَوِيت سياوخش وهَوِيَها ، ويقال : إنها كانت ساحرة فسحرته ، وآل أمرهما الى أن انكشف لأبيه كيقابوس وآطّلع على ما كان من أمر آبنه وزوجته ، فأشفق سياوخش على نفسه وخشى عاقبة أبيه فتلطف فى البعد عنه ، فسأل رستم أن يُشير على أبيه لإرساله لحرب فراسياب ملك الترك ،وكان قد تجدّدت بين فراسياب وكيقابوس وَحْشةٌ ، ففعل رستم ذلك وخاطب كيقابوس فيه واستأذن له فى جند يضمهم إليه ، فأذن له وضمّ إليه جندا كثيفا وأشخص سياوخش الى بلاد الترك ، فسار حتى التقى بفراسياب فآنتظم الصلح بينهما من غير حرب ، فكتب سياوخش الى أبيه يخبره بما كان بينه و بين فراسياب من الصلح والاتفاق ، فكتب إليه كيقابوس بإنكار ذلك عليه وأمره بمناهضته ومناجزته الحرب ، فرأى سياوخش

(١) كذا فى نسختى (أ) و(ب) . وفى تاريخ الطبرى (ص ٦٠٠ من القسم الأول طبع أوربا) : « كيقاوس بن كينة » . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « كيكاوس و يقال له بالعربية قابوس » .

٣٣ / ١٣

أنه إن فعل ما أمره به والده من الحرب ونقض الهدنة من غير سبب وقع يوجب نقضها، يكون ذلك عارا عليه ومَنْقصَةً،فامتنع من إنفاذ أمر أبيه وأجمع رأيه على الهرب منه ، فكتب الى فراسياب ملك الترك يطلب منه الأمان لنفسه ، وعرّفه أنه آثر اللحاق به فأجابه الى ذلك . وكان السفير بينهما أحد عظماء الترك وأكابرهم يسمى قيران . فلما استوثق سياوخش من ملك الترك سار نحوه وانصرف مَنْ كان ٥ معه من جند أبيه ورجعوا إليه . قال : ولما وصل سياوخش الى فراسياب ملك الترك أكرمه وعظّمه وزوجه بابنته، وهى أم كيخسرو الذى ملك الفرس . ولم يزل على إكرامه الى أن ظهر له من أدبه وحسن سياسته وجميل تلطفه ما أشفق منه وخشِى على مُلكه لميل الناس إليه فقتله .وكانت ابنة الملك قد اشتملت من سياوخش على حَمْلٍ، فقصد أن يُسقطه وتحيّلوا فى ذلك فلم تسقط؛ ثم جاء قيران،وهو الذى كان ١٠ السفير فى الصلح بين الترك وسياوخش، وأنكر ما كان من فعل الملك وحذّره عاقبة الغدر والطلب بالثأر، وأشار عليه أن يدفع ابنته زوجةَ سياوخش إليه لتكون عنده الى أن تضع وقال : اذا أردت بعد ذلك قتل ولدها فاقتله ، فأجابه الملك الى ذلك وسلّم إليه ابنته ، فكانت عنده الى أن وضعت كيخسرو ؛ فلما وضعته امتنع قيران من قتله وستَر أمرَه ، فكان عند قيران حتى بلغ ، ثم احتال جدّه كيقابوس الى أن ١٥ أخرجه هو وأمّه من بلاد الترك .

قال أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم : وللفرس فى أمر كيقابوس خرافاتٌ كثيرة منها : أنهم يزعمون أن الشياطين مسخوه، وقوم منهم يزعمون أن سليمان بن داود عليهما السلام أمرهم بذلك فى خرافات كثيرة ظاهرة الإحالة : من الصعود الى السماء، و بناء مدينة كنكر بأسوار من ذهب وفضة ٢٠

وحديد ونحاس وأنهار، وأنها ما بين السماء والأرض، وأشباه ذلك مما تحيله العقول السليمة، لأن ذلك ليس فى قدرة البشر .

قال : ولما تمّ لكيقابوس أكثرُ ما كان يقصده سار من خراسان ونزل بَابِلَ وترك ما كان يتولاه بنفسه من السياسات، واحتجب عن الناس وتعاظم عليهم، وآثر الخلوة، فكان من عاقبة ذلك أن فسد عليه ملكه وغزته الملوك، فكان بعد ذلك يغزوهم فيظفَر بهم مرّة ويُنكَب أخرى، الى أن غزا بلاد اليمن ، والملك بها يومئذ ذوالأذعار بن أبرهة بن ذى المنار . فلما أتاه كيقابوس خرج اليه ذوالأذعار فى جموعه من حِميْر وولد قحطان، فظَفِر به ذو الأذعار وأسره واستباح عسكره وحبسه فى بئر وأطبق عليه طبقا، فخرج رستم الشديد من سجستان فى جموع كثيرة من الفرس، فالفرس تزعم أنه أوغل فى بلاد اليمن واستخرج كيقابوس من محبِسه، واليمن تقول غير ذلك، وأن ملكهم ذاالأذعار لما بلغه إقبالُ رستم خرج اليه فى جموعه وجنود عظيمة، وخندق كل منهما على نفسه وعسكره، وأنهما أشفقا على جندهما من البَوار، فاتفقا على أن دفع لهم ملكُ اليمن كيقابوسَ وانصرف رستم من غير حرب ورجع بكيقابوس الى بابل ، فكتب له كيقابوس كتابا بالعتق وأقطعه سجستان . ونسخةُ الكتاب الذى كتبه : من كيقابوس بن كيقباذ الى رستم . إنى قد أعتقتك من العبودية ، وملّكتك بلاد سجستان ، وأجلس على سرير من فضة مموّه بالذهب ، والبس قلنسوة من الحرير منسوجة بالذهب متوجة . قال : ومما يدل على صحة ما نقل من أمر كيقابوس قول الحسن بن هانىء :

وقاظ قابوسُ فى سلاسلنا * سنينَ سبعا وَفَتْ لحاسبها

(١) قاظ : أقام .

ولما مات كيقابوس ملك بعــده ولد ابنه كيخسرو بن سياوخش بن كيقابوس . قال : ولما ملك عقد التاج على رأسه وخطب رعيته خطبة بليغة أعلمهم فيها أنه على الطلب بدم أبيه سياوخش قِبَل فراسياب ملك الترك، وكتب إلى جوذرز بأصبهان — وكان أصبهبذا على خراسان — يأمره بالمسير إليه، وأمره أن يعرض جنده وأن ينتخب ثلاثين ألف راجل ويضمهم إلى طوس [بن نوذران][1] وكان فيمن أشخص معه برزافره [بن كيقاوس][1] عم كيخسرو وابن جوذرز وجماعة من إخوته ، وتقدم كيخسرو إلى طوس، وأمره أن يقصد فراسياب وطراختنه[2] وحذره من ناحية ببلاد الترك فيها أخ له من أبيه سياوخش يقال له فروذ ، وكان قد رُزِقه من بعض نساء الأتراك، كان سياوخش قد تزوجها لما سار إلى فراسياب فولدت له فروذ ، وأقام بموضعه إلى أن شبّ، فسار طوس وكان من غلطه الذى فعله أنه لما صار بالقرب من المدينة التى فيها فروذ حار به فقُتِل فروذ فى الوقعة . فلما اتصل الخبر بكيخسرو غضب لذلك وشقّ عليه، فكتب إلى عمه برزافره ذلك كتابا غليظا يخبره بما ورد عليه من خبر طوس ومخالفته له ومحاربته لأخيه فروذ وقتله إياه، وأمره بإشخاص طوس إليه مقيدا مغلولا، وأن يتقدّم هو على العسكر ويتوجه . ففعل برزافره ذلك وتولى أمر العسكر، وسار وعبر النهر المعروف بكاشرود، وانتهى خبره إلى فراسياب فوجه للقائه وحربه جماعة من إخوته وطراختنه ، فالتقوا وفيهم قيران وإخوته، فاقتتلوا قتالا شديدا، وظهر من برزافره عمّ كيخسرو فى ذلك اليوم فشلٌ لمّا اشتدت الحرب، فهرب وانحاز بالعلم إلى رءوس الجبال ، واضطرب على ولد جوذرز الأمرُ ، فقُتِل منهم فى تلك الملحمة فى وقعة

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى .

(٢) طراخته : الطراخنة جمع طرخان (بالفتح) ، والطرخان : زعيم القوم المعنى من الضرائب (فارسى) .

واحدة سبعون رجلا، وقتل خلق كثير، وآنصرف برزافره ومن أفلت معه إلى كيخسرو، فرُئيت الكآبة فى وجهه وآمتنع عن الطعام والشراب أياما، ثم أتاه جوذرز وشكا إليه عمه برزافره وأنه كان سبب الهزيمة، ولاطفه كيخسرو وقال : إن حقك لازم لنا لخدمتك إيانا، وهذا جندنا وخزائننا مبذولة لك فاطلب تِرَتك[1] واستعدّ وتجهز للتوجه إلى فراسياب . فنهض جوذرز وقبّل يده وقال : نحن رعيتك وعبيدك أيها الملك، فإن كانت آفة أو نازلة فلتكن بالعبيد دون الملوك، وأولادى الذين قُتلوا فداؤك، ونحن من وراء الانتقام من فراسياب والاستيفاء[2] من الترك . فكتب كيخسرو إلى وجوه عساكره وأكابر أجناده يأمرهم بموافاته فى صحراء تعرف بشاه أسطون من كورة بلخ فى وقت وَقّته لهم، فوافَوه فى ذلك الوقت، وشخص كيخسرو بأصبهبذيته وأصحابهم وفيهم برزافره عمه وجوذرز وولده، فعرض كيخسرو الجند بنفسه حتى عرف عدّتهم وآطّلع على أحوالهم، ثم أحضر جوذرز وثلاثةَ نفر معه من القوّاد فأعلمهم أنه يريد إدخال العساكر على الترك من أربعة وجوه ليُحيطوا بهم من جميع جهاتهم، وقوّد على تلك العساكر، وجعل أعظمها إلى جوذرز، ودفع اليه يومئذ دِرَفْس[3] كابيان، ولم يكن يُدفع قبل ذلك لأحد من القوّاد، بل مع أولاد الملوك .

قال : وأمر أحدَ القوّاد بالدخول مما يلى الصين وضم اليه ثلاثين ألف رجل، وأمرهم بالدخول من ناحية الخزر من طريق بين جوذرز وبين الذى دخل من طريق الصين، ودخل جوذرز من ناحية خراسان وبدأ بقيران والتحمت بينهما

(١) الترة هنا : الثأر . (٢) فى تاريخ الطبرى : « والاشتفاء » .

(٣) فى تاريخ الطبرى (ص ٦٠٩ من القسم الأوّل) : « درفش كابيان » بالشين المعجمة وقال : إنه العلم الأكبر الذى كانوا يحملونه .

الحرب وآشتدّ القتال ، فقتل جوذرز أخا لقيران ، ثم قتـل قيرانَ مبارزة ، ثم قصد فراسياب وآلتحمت عليـه العساكر من كل جهة ، وآتبع كيخسرو القومَ بنفسـه وقصد الوجه الذى كان فيه جوذرز ، وقد أثخن فى القتل وقتل أصبهبذَ فراسياب والمرشّحَ للملك بعده ، وجماعةً كثيرة من إخوته وأولاده ، وأسر برويز وهو الذى قتل سياوخش .

قال : ولما جاء كيخسرو وجد جوذرز قد أحصى الأسرى والقتـلى وما غنم من الكُرَاع[1] والأموال ، فوجد ما فى يده من الأسرى ثلاثين ألفا ، ومن القتلى خمسمائة ألف ونيفا وستين ألفا على ما تزعم الفرس ، وحاز من الكُرَاع والأموال مالا يحصى كثرة ، وأمر كل واحد من الوجوه الذين كانوا معه أن يجعل أسيره ورأس قتيله [عند علمه[2]] لينظر إلى ذلك كيخسرو عنـد موافاته . فلما وافى كيخسرو موضعَ الملحمة تلقاه جوذرز وعرض عليه الأسرى والقتلى ، فرأى قيرانَ قتيلا ، وأُتى بقاتل أبيـه[3] الذى مثّل به بعد قتله . فقتله كيخسرو شرّ قِتْلة ، قطعه عضوا عضوا ثم ذبحه ، وأحسن صلة جوذرز وفوّض إليـه الوزارة التى يقال لها بزرجفرمذار[4] وجعل إليه مع ذلك أصبهان وجرجان ، وأحسن لكل من أبلَى من قواده ورجاله ، ثم أتتـه أخبار قواده الثلاثة الأخر أنهم قـد أحاطوا بفراسياب ، وبرز فراسياب ومن بقى من ولده وعساكره وتوجه نحو كيخسرو بجيوش عظيمة ، فيقال إن كيخسرو أشفق منـه وهابه حتى ظن أنه لا قبـل له به ، ودام القتـال بين العسكرين أربعة أيام ، فقتل شيده مقـدّم عسكر فراسياب ، وكانت هـذه

(١) الكراع بالضم : اسم يجمع الخيل والسلاح . (٢) التكملة من تاريخ الطبرى (ص ٦١٢ من القسم الأوّل) والعبارة فى الأصل مضطربة . (٣) فى تاريخ الطبرى أن اسم هذا القاتل «بروا بن فشنجان» . (٤) كذا فى الطبرى وفى نسخة (أ) «بزرج فرمدار» وفى نسخة (ب) «بزرخ فرمدار» .

الحرب معه ، ثم أقبل فراسياب فى جمع عظيم من الأتراك وآلتقى هو وكيخسرو ونشبت بينهما حروب عظيمة يقال إنه لم يُرَ مثلها قبلها قط على وجه الأرض ، فكانت الدائرة على الترك ، وآنهزم فراسياب وكثر القتل فى أصحابه وأتبعه كيخسرو حتى أدركه بأذربيجان فظفر به وآستوثق منه بالحديد و وبّخه على ما كان منه من قتل سياوخش ، فلم يكن له حجة ، فذبحه ثم آنصرف . وقد غنم غنائم عظيمة لا تحصى وأدرك بثأره .

قال : ولما فرغ كيخسرو من أمر الترك ورجع إلى بلاده واستقر بدار ملكه زَهِد فى الملك وتنسّك ، وأعلم وجوه أهل بيته وأكابر مملكته أنه قد عزم على التخلى والآنفراد وتَرْك الملك ؛ فجزعوا من ذلك وسألوه ألا يفعل ، فأبى عليهم . فلما أيسوا منه سألوه أن ينصب فى الملك من يراه له أهلا ، فأشار بيده إلى لهراسف وأعلمهم أنه خاصته ووصيته ، فقبل لهراسف ذلك وأقبل الناس عليه . وفُقِد كيخسرو . فمنهم من يقول : إنه غاب للتنسك ، و بعضهم يقول غير ذلك ، إلا أنه لم تُعلَم جهة وفاته . قال : وكان ملكه ستين سنة . قال : وفى أيام ملكه كان سليمان بن داود عليه السلام .

ثم ملك بعده لهراسف[1] ، وقيل فيه بهراسف بن تنوفى بن كيمش وهو آبن أخى كيقابوس و يلقب بكى لهراسف . قال : ولما ملك اتخذ سريرا من ذهب مكللا بالجوهر للجلوس عليه ، و بنيت له بأرض خراسان مدينة ، وسماها بلخ الحسناء .

قال : وهو أوّل من دوّن الدواوين ، وقوى ملكه بانتخاب الجنود ، وعَمَر الأرض . وكانت شوكة الأتراك اشتدّت فى زمانه ، فنزل بلخ لمقاتلتهم ، ووجه بختنصر

(١) كذا فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) « كهراسف » وفى تاريخ الطبرى : "كى لهراسب" وفى مروج الذهب (ج ١ ص ١٠٩ طبع بلاق) : « لهراسب » .

أصبهبذًا ما بين الأهواز إلى أرض الروم، من غربىّ الفرات . وسنذكر أخباره إذا انتهت أخبار لهراسف .

قال : وكان لهراسف بعيد الهمة ، طويل الفكرة ، شديد القمع للملوك المحيطة لإيران شهر . وكانت ملوك الروم والمغرب والهند يؤدّون إليه إتاوة معلومة فى كل سنة ، ويُقرّون له أنه ملك الملوك هيبةً له ، واستمرّ فى الملك إلى أن كَبِرت سنّه وأحس بالضعف فاعتزل الملك ونصب آبنه بشتاسب[1] . وكان ملكه فيما ذكر مائة وعشرين سنة .

ذكر أخبار بختنصّر

ويقال فى آسمه بالفارسية بخترشه[2] ، وكان مَرْزُبانا للهراسف ، ومعنى المرزبان أنه مَلِكٌ على ربع من أرباع المملكة . وقد قدّمنا أن الملك لهراسف كان قد جعله أصبهبذا ما بين الأهواز إلى أرض الروم . قال : فسار حتى أتى دِمَشق فصالحه أهلها، ووجه قائدا له فأتى بيتَ المقدس فصالح ملك بنى إسرائيل، وهو رجل من بنى داود النبىّ عليه السلام، وأخذ منه رهائن وانصرف . فلما بلغ طبَرية وثب بنو إسرائيل على مَلِكهم فقتلوه وقالوا له : إنك هادنت أهل الكفر وخذلتنا واستعدّوا للقتال ؛ فكان عاقبة ذلك أن قائد بختنصر — لما بلغه ما كان من بنى إسرائيل — كتب إليه يخبره بقتلهم مَلِكهم ، فأجابه بختنصر أن يقيم بموضعه حتى يوافيه ، وأمره بضرب أعناق الرهائن الذين معه . وسار بختنصر حتى أتى بيت

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى غرر أخبار ملوك الفرس : « بشتاسف » وفى نسختى ا ، ب : « بستاسف » .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى : (ص ٦٤٥ من القسم الأوّل) وغرر أخبار الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٤٤ طبع باريس) . وفى نسخة (ا) هكذا « نخت نرسى » وفى نسخة (ب) « بخت يرسى » .

المقدس فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتِلة وسبى الذرية وهرب الباقون إلى مصر ، فكتب بختنصر إلى ملك مصر : أن عبيدا لى هربوا منى إليك فسرّحهم إلىّ وإلا غزوتك وأوطأت خيلى بلادَك ، فكتب إليه ملك مصر : إنهم ليسوا عبيدك ، ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار، وآمتنع من إنفاذهم اليه ، فغزاه بختنصر وقتله وسبى أهل مصر ، ثم سار فى أرض المغرب حتى بلغ أقصى نواحيها .

قال صاحب كتاب تجارب الأمم : وقد حكى أهلُ التوراة وغيرهم فى أمر بختنصر أقوالا مختلفة ، فذكروا منها : أن بختنصر لما خرّب بيت المقدس أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم تُرسه ترابا ثم يقذفه فى بيت المقدس ، فقذفوا فيه من التراب ما ملأه . قال : ولما آنصرف إلى بابل آجتمع معه سبايا بيتِ المقدس من بنى إسرائيل وغيرهم ، فاختار منهم سبعين ألف صبىّ ، فلما فرّق الغنائم على جنوده سألوه أن يقسم فيهم الصبيان ، فقسمهم فى الملوك منهم ، فأصاب كل رجل منهم أربعة ، وكان من أولئك الغِلْمة الذين سباهم ، دانيال النبىّ وحنين ومنشايل ، وسبعة آلاف من أهل بيت داود ، وأحد عشر ألفا من سبط بشر بن يعقوب . ثم غزا بختنصر العرب ، وذلك فى زمن معدّ بن عدنان .

قال : وكانت مدّة غلبة بختنصر إلى أن مات أربعين سنة ، ثم قام آبن له يقال له أونمروذ[1] ثم [هلك ، وملك مكانه آبن له يقال له][2] بلتنصر ، وذلك فى زمن بهمن ، فلم يرض بهمن أمره فعزله وملك مكانه كيرش ، وتقدّم إليه بهمن أن يرفُق ببنى إسرائيل ويمكّنهم من النزول حيث سألوا ، أو الرجوع إلى أرضهم ، وأن يولّىَ

(١) فى تاريخ الطبرى : « أولمردوخ » .

(٢) التكملة من تاريخ الطبرى . وفى نسخة (أ) هكذا : « ثم بن بلتنصر » . وفى نسخة (ب) : « ثم ابن يقال له بلتنصر » .

عليهم من يختارونه ، فاختاروا دانيال فولاه أمرهم . فكانت مدّة خراب بيت المقدس سبعين سنة . وقيل غير ذلك . ولنرجع إلى أخبار الفرس .

ولما آعتزل لهراسف المُلك كما ذكرناه، ملك بعده كى بشتاسف[1] بن كى لهراسف . قال : ولما ملك بنى مدينة فسا[2] ، وهو أوّل من بسط دواوين الكتّاب لا سيما ديوان الرسائل . وكان له ديوانان أحدهما : ديوان الخراج ، والآخر ديوان النفقات ، فكل ما يَرِد فإلى ديوان الخراج ، وكل ما يصرف فمن ديوان النفقات . وكان له كاتب موكل بدار المملكة ، فإن وقع تقصير بأحد فى منزلته ، أو حُطّ من درجته رجع إلى ذلك الكاتب ليبين له حال مرتبته فيجرى على رسمه وعادته .

وفى أيامه ظهر زرادشت [بعد ثلاثين سنة من ملكه فآدّعى النبوّة[3]] فأراده على قبول دينه فامتنع من ذلك ثم صدّقه وقَبِل دعواه ، وأتاه بكتاب يكتب فى جلد آثنى عشرة ألف بقرة حفرا فى الجلود ونقشا بالذهب ، فصير بشتاسف ذلك الكتاب بإصطخر ووكل به الهرابذة[4] ، ومنع من تعليمه العامة . وبنى ببلاد الهند بيوتا للنيران ، وتنسّك واشتغل بالعبادة ، وهادن كى خرزاسف بن كى سواسف آبن أخى[5] فراسياب ملك الترك على ضروب من الصلح ، وفى جملة شريطة الصلح ألا يكون

---

(١) فى تاريخ الطبرى : « كى بشتاسب بن كى لهراسب » .

(٢) فسا (بالفتح والقصر) ويقال لها بسا (بالباء) : مدينة بفارس أنزه مدينة بها فيما قيل ، بينها وبين شيراز أربع مراحل ، وهى مدينة واسعة الشوارع تقارب فى الكبر شيراز ، وهى أصح هواء منها .

(٣) التكملة من تاريخ الطبرى (ص ٦٧٦ من القسم الأوّل طبع أوربا) .

(٤) الهرابذة جمع الهربذ (بالكسر) : هم خدّام النار . وقيل : حكام المجوس الذين يصلون بهم . (راجع المعرّب للجواليق ص ٣٥١ طبع دار الكتب المصرية) .

(٥) فى تاريخ الطبرى : « أخى » .

ببلاد خرزاسف دابة موقوفة فى منزلة الدوابّ التى تكون على أبواب الملوك ، وغير ذلك مما وقعت عليه المهادنة . فأشار زرادشت على بشتاسف بنقض الهدنة ومفاسدة ملك الترك ، فبلغ ملكَ الترك ذلك ، فغضب وكتب إليه كتابا غليظا من جملته أن يوجه إليه زرادشت ، وأقسم إن امتنع أن يغزوَه حتى يسفك دمه ودماء أهل بيته ؛ فأجابه بشتاسف بجواب أغلظ من كتابه وآذنه بالحرب وأعلمه أنه غير ممسك عنه إن أمسك هو . فسار كل منهما الى الآخر ، ومع كل واحد منهما إخوته وأهل بيته ، والتقَوْا واقتتلوا قتالا شديدا ، فكانت الدائرة على الترك ، وقتل اسفنديار بن بشتاسف بيدرفش[1] الساحر مبارزة ، وقُتِلت التركُ قتلا ذريعا ، وهرب ملكهم خرزاسف ورجع بشتاسف الى بلخ .

قال : فلما مضت لتلك الحرب سنون سعى رجل يقال فروخ[2] بإسفنديار الى بشتاسف ونسبه أنه تطاول للملك ، وزعم أنه أحقُّ به ، فأفسد بذلك قلب بشتاسف عليه ، وصدق مقالة فروخ ، فأخذ فى التدبير على إسفنديار وجعل يرسله الى حرب بعد حرب ، وهو يظفر وينجح ويرجع بالغنائم ، ثم أمر بتقييده فقُيِّد ، وصيره فى الحبس فى حصن من حصونه ، وسار بشتاسف الى جبل يقال له طميدر لدراسة دينه والتنسك هناك ، وخلّف أباه لهراسف فى مدينة بلخ ، وقد كبرت سنه وهرم وعجز .

قال : فاتصل هذا الخبر بخرزاسف ملك الترك ، فجمع من الجنود مالا يحصى كثرة ، وشخص من بلاده نحو بلخ حتى [إذا][3] انتهى الى تخوم ملك فارس قدّم أمامه

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصول : « بندرفش » بالنون .

(٢) فى تاريخ الطبرى : « قرزم » .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

جوهرمز[1] أخيه، وكان مرشحا للملك، فى جماعة كثيرة من المقاتلة، وأمرهم أن يغذّوا السير حتى يتوسطوا المملكة؛ ثم يوقعوا بأهلها ويشنوا الغارة على المدن والقرى. ففعل جوهرمز ذلك وسفك الدماء واستباح الحرم؛ وسبى ما لا يحصى، وأتبعه خرزاسف ملك الترك حتى انتهى الى مدينة بلخ، فأحرق الدواوين وقتل لهراسف والهرابذة، وهدم بيوت النيران، واستولى على الأموال والكنوز، وسبى ابنتين لبشتاسف وأخذ دِرَفْس كابيان، وسار فى طلب بشتاسف فتحصن منه فى جبل طميدر؛ فعند ذلك ندم بشتاسف على ما كان منه فى حق ابنه إسفنديار؛ فيقال: إنه وجه من استخرجه من محبسه، وجاءه به؛ فلما دخل عليه اعتذر منه ووعده عقْدَ التاج على رأسه، وأن يفعل معه كما فعل لهراسف به. وقلده أمر عساكره وندبه لحرب ملك الترك. فطابت نفس إسفنديار بكلام أبيه له، وتأهب لوقته، وسار بالجنود صبيحة النهار نحو الترك. فلما قَرُب منهم تبادروا لحربه؛ فكان ممن خرج اليه منهم جوهرمز واندرمان، فالتقَوْا والتحمت بينهم الحرب، فانقضّ إسفنديار على عساكر الترك بنفسه واختلط بهم، وقاتل حتى ثلم فيهم ثُلمة عظيمة، وفشا فى الترك أن إسفنديار قد أُطلق من محبسه، وأنه هو الذى يقاتلهم، فانهزموا لا يلوون على شىء. واسترجع إسفنديار من الترك الدِّرَفْس وعاد الى أبيه، فاستبشر وأمره باتّباع القوم وقتال خرزاسف وقتله — إن ظَفِر به — بجدّه لهراسف، وقَتْل جوهرمز واندرمان بمن قُتِل من ولده. وأن يهدم حصون الترك ويحرّق مدنهم ويقتل أهلها بمن قتلوا من أهل بلاده، ويستنقذ من سَبَوْه من بناته. فدخل إسفنديار بلاد الترك ورام ما لم يَرُمْه أحد قبله، واعترض العنقاء ورماها على ما يزعم الفرس، ودخل مدينة الصفر عنوة، وقتل ملكها وأخوته ومقاتلته، واستباح

(١) [illegible]

أمواله وسبى ذراريه ونساءه واستنقذ أختيه، وكتب بالفتح الى أبيه. ولم يستقل إسفنديار هذا بالملك .

والذى ملك الفرس بعد بشتاسف أردشير[1] بهمن بن إسفنديار بن بشتاسف . وتفسير بهمن بالعربية : الحَسَن النيّة .

٥ قال : ولما ملك أردشير انبسطت يده وتناول الممالك حتى ملك الأقاليم . وكانت ملوك الأرض تحمل اليه الإتاوة، وآبتنى بالسواد مدينة وهى المعروفة بهمينيا[2]، وهو أبو دارا الأكبر، وأبو ساسان . قال : وكان بهمن كريما متواضعا . وكانت تخرج كتبه : من أردشير بهمن عبد الله وخادم الله والسائس لأمركم . ويقال : إنه غزا رومية الداخلة فى ألف ألف مقاتل . ومن المؤرخين من ذهب الى أن

١٠ بهمن هذا هو الذى جهز بختنصر لغزو العرب وغيرهم . وكانت مدة ملك أردشير [مائة و][3] آثنتى عشرة سنة .

ولما مات ملكت بعده آبنته جماز هرازاد، وهى جمانى[4] أم آبنه دارا . قال : وكانت قد حملت منه بدارا الأكبر وسألته أن يعقد التاج للذى فى بطنها ويؤثره بالملك، ففعل أردشير ذلك . وكان آبنه ساسان يتصنع للملك ولا يشك أنه يكون

١٥ هو الملك بعد أبيه . فلما رأى ما فعل أبوه شق ذلك عليه، فلحق بإصطخر وتزهد، وخرج عن حلية الملوك، وآتخذ غُنَيْمَةً وكان يتولاها بنفسه، فاستشنع[5] الناس ذلك

٣٨/١٣

---

(١) كذا فى نسخة (ب) وتاريخ الطبرى . وفى نسخة (ا) «أزدشير» بالزاى المعجمة .

(٢) همينيا ويقال لها همانية : قرية كبيرة كالبلدة بين بغداد والنعمانية فى وسط البرية ليس بقربها شىء من العمارات وهى فى ضفة دجلة .

(٣) التكملة من تاريخ الطبرى .

٢٠ (٤) كذا فى نسخة (ب) وفى نسخة (ا) «حمانى» بالحاء المهملة . وفى تاريخ الطبرى (ص ٦٨٨ من القسم الأول) : «خمانى» بالخاء المعجمة .

(٥) استشنع الناس ذلك : أستقبحوه واستهجنوه .

من فعله وقالوا : صار ساسان راعيا، ولم تزل جمانى قائمة بأمر الملك، ضابطة له، وأغزت الروم جيشا [بعد جيش][1] وأوتيت ظَفَرا، فقمعت الأعداءَ وشغلتهم عن التطرّق الى شيء من بلادها، ونال رعيّتَها بتدبيرها رفاهية وأمنٌ الى أن كبر آبنها .

فلك دارا بن أردشير بهمن . قال : ولما كبر حُوِّل التاجُ الى رأسه ونزل بابل . وكان ضابطا لملكه، قاهرا لمن حوله من الملوك، يؤدون اليه الخراج . وآبتنى بفارس مدينة وسماها دارا بَجِرْد . ورتّب دوابّ البريد . وكانت مدّة ملكه آثنتى عشرة سنة .

وملك بعده آبنه دارا بن دارا بن أردشير؛ وكان دارا هذا حقودا جبارا، فملّه قومه . وغزاه الإسكندر بن فيلبس اليونانى، والتقَوا واقتتلوا قتالا شديدا، فقتل دارا بن دارا . وسنذكر خبر مقتله فى أخبار الإسكندر .

فهؤلاء ملوك الفرس الأول . ثم تبدّد ملك الفرس وآنتثر لقتل دارا بن دارا، واستقل الإسكندر بالملك . وملك بعده مَنْ نذكره من ملوك اليونان، وتفرّق مُلك الفرس أربعمائة سنة الى أن عاد الى بنى ساسان . وهأنا ذاكر خبر ملوك الطوائف ما بين دارا بن دارا وأردشير بن بابك .

ذكر أخبار ملوك الطوائف

وملوك الطوائف هم الذين ملكوا بلاد فارس ما بين دارا بن دارا وأردشير ابن بابك الذى جمع مُلك الفرس بعد تبدّده، ونظّمه بعد انتثاره . وكان من خبرهم أن الإسكندر لما قتل دارا بن دارا وغلب على بلاد الفرس همّ بقتل أكابرهم، فكتب الى معلّمه أرسطاطاليس يستشيره فى ذلك، فنهاه عن قتلهم وقال : هذا

---

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى .

من الفَساد فى الأرض ، وإذا قتلتَهـم أنبتت أرضُ بابل امثالهم ؛ وأشار عليه أن يفرّق المملكة بين أولاد الملوك ، فإنهم يتنافسون المُلكَ فلا يجتمعون على مَلِكٍ واحد منهم ، فتى خالفك واحد كانت مؤنته عليك خفيفة ؛ ففعل ذلك ، وفرّق المُلك حتى أمكنه أن يتجاوز أرض فارس الى بلاد الهنـد والصين . فكانت ملوك الطوائف
٥ فى إقليم بابل لا يَدِين بعضهم الى بعض .

فكان من ملوكهم الذين ملكهم الإسكندر : أشك بن دارا الأكبر ؛ فقَوِى أشك هذا وعظّمته الملوك وقدّموه على أنفسهم ، و بدأوا به فى كتبهم إليه إجلالا له ، و بدأ فى كتبه اليهم بنفسه ، وسمّوْه ملكا ، وأهْدَوْا اليه من غير أن يُطيعوه أو يستعمل أحدا منهم أو يَعزِله ، وكثرت جموعه وسار الى أنطيخس ، وكان مقيما بسواد العراق
١٠ من قبل الروم ، وتقدّم أنطيخس اليه وآلتقيا ببلاد الموصل وآقتتلا فقُتِل انطيخس ، وغلب أشك على السواد ، وصار فى يده من الموصـل الى الرىّ وأصفهان ، ولذلك عظّمته ملوك الطوائف .

ثم ملك جوذرز بن أشكان . وهو الذى غزا بنى إسرائيل المرة الثانية ؛ وذلك بعد قتلهم يحيى بن زكرياء عليهما السلام ، فسلطه الله تعالى عليهم فأكثر فيهم القتل
١٥ فلم يَعُدْ لهم جماعة بعد ذلك ، ورفع الله عنهم النبوة وأنزل بهم الذل .

وكان من سُنّة الفرس بعد الإسكندر أن يخضعوا لمن ملك بلاد الجبل ، وهم الأشغانية ؛ فأوّلهم أشك بن أشكان ، ثم سابور بن أشكان ، وفى أيامه ظهر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بأرض فِلَسطين . ثم ملك جوذرز بن أشغانان الأكبر . ثم ملك بيزن الأشغانى . ثم ملك جوذرز الأشغانى . ثم نرسى الأشغانى . ثم هرمز .
٢٠ ثم أردوان الأشغانى . ثم كسرى الأشغانى . ثم بلاش الأشغانى . ثم أردوان الأصغر

الأشغانى . ثم اردشير بن بابك . فكانت مدة هؤلاء ، الى أن وثب أردشير بن بابك على الأردوان فقتله ، مائتين وستا وستين سنة .

وفى أيام ملوك الطوائف اصطلمت[1] طسم وجديس . وسنذكر إن شاء الله خبرهم .

ذكر أخبار الملوك الساسانية

وهم الفرس الأخر . وأول من ملك منهم أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر . وكان من أعظم ملوك الطوائف وملوك الأشغانية ، فوثب بالأردوان وقتله واستولى على الممالك وقاد الملوك الى طاعته رغبةً ورهبةً . وكتب الى ملوك الطوائف يدعوهم الى الاجتماع اليه : بسم الله ولىّ الرحمة . من أردشير المستأثرِ دونه بحقه ، المغلوبِ على تراث آبائه ، الداعى الى قوام دين الله وسنته ، المستنصرِ بالله ، الذى وعد المحقّين الفَلَح[2] ، وجعل لهم العواقب ، الى مَنْ بلغه كتابى هذا من ملوك الطوائف . سلام عليكم بقدر ما تستوجبون بمعرفة الحق ، وإنكار الباطل والجَوْر . ودعاهم الى الطاعة : فمنهم من أقرّ له بالطاعة ، ومنهم من تربّص حتى قَدِم عليه ، ومنهم من عصاه فكانت عاقبة أمره الى القتل والهلاك ، حتى استوثق له الأمر . فكانت طائفة الأشكانية ممن امتنعت من طاعة أردشير ، فأقسم أنه لا يُبقى منهم — إن قدر عليهم — رجلا ولا امرأة . فلما غَلَب عليهم ما نجا منهم إلا من أخفَى اسمه ونسبه . وقد كان أخذ فى جملة من أخذ منهم ابنةَ ملكهم ، وكانت بارعة الجمال ، وافرة العقل . فلما رآها قال لها : أنت من بنات ملوكهم؟ قالت : بل من خدمهم . فاصطفاها لنفسه ، فحملت منه . فلما علمت بالحمل شهرت نفسها وقالت : أنا ابنة ملكهم .

(١) اصطلمت : أبيدت .

(٢) الفلح (محركة) : الفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال .

فعند ذلك أمر شيخا من رجاله الذين يثق بهم يقال له هرجند[1] [بن سام] بأن يودعها فى بطن الأرض إشارة الى قتلها . فقالت : أيها الشيخ ، إنى قد حملت من الملك فلا تُبطل زرعَه . فعَمل لها سَرَبًا تحت الأرض وجعلها فيه، ثم عَمَد الى مذاكيره فجبّها ووضعها فى حُقّ وختم عليه ورجع الى الملك وقال : قد أودعتها بطن الأرض ؛ ودفع له الحُقّ وقال : إن فيه وديعةً وأحب أن يكون عند الملك الى أن أحتاج اليه ، فاستودعه الملكَ ؛ وأقامت الجارية فى السَّرَب حتى كملت مدّة حملها ، فوضعت غلاما فسماه الشيخ : شاه بور ، أى ولد الملك؛ فسماه الناس سابور . وبقى أردشير هـذا دهرا لا يُولَد له ، فرآه الشيخ فى بعض الأيام وقد ظهر عليه الحزن ، وكان خاصا به ، فقال له : ما هـذا الحزن سرّك[2] الله أيها الملك وعمّرك . فقال : من أجل أنه ليس لى ولد يرث ملكى . فقال له الشيخ : إن لك عندى ولدا طيبا فادع بالحُقّ . وأمر أردشير بإحضاره فأحضر ، ففضّ ختمه فإذا فيه مذاكيرُ الشيخ وكتاب فيه : إنه لما أمرنى الملك بقتل المرأة الأشكانية التى عَلِقَتْ من ملك الملوك أردشير لم أر أن أبطل زرع الملك الطيب فأودعتها بطن الأرض كما أمرنى ، وتبرأت اليه من نفسى لئلا يجد عائب الى عيبها سبيلا ؛ فسرّ أردشير بذلك ، وأمر الشيخَ أن يجعل الغـلام بين مائة غلام من أشباهه فى الهيئة وأقرانه فى السن ، ثم يُدخلَهم عليه ، ففعل ذلك ، فعرفه أردشير من بينهم وقبلته نفسه ، ثم أمرهم أن يلعبوا فى حجـرة الإيوان بالصَّوالج ، فدخلت الأُكرة الإيوان ، فأحجم الغلمان عن دخولها وأقدم سابور . فأمر أردشير عند ذلك بعقد التاج له .

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٨٢٣ من القسم الأول طبع أوروبا) . وفى نسخة أ : «جدنان» . وفى نسخة ب : «جند» . والتكملة منه

(٢) كذا فى الطبرى، وفى نسخة (ب) «بشرك» ، وفى نسخة (أ) «يسرك» .

وكان أردشير من أهل العقل والمعرفة وحسن التدبير، وله وصايا ومكاتبات صدرت عنه تدل على حكمة ورجاحة عقل . وقد تقدّم إيرادها فى الباب الرابع[١] من القسم الخامس من الفنّ الثانى فى وصايا الملوك . وكانت مدّة ملكه أربع عشرة سنة وستة أشهر .

ثم ملك بعده ابنه سابور بن أردشير، والعرب تسميه سابور الجنود . وسابور هذا هو الذى حصر الضَّيْزَن[٢]، وملك حصن الحَضْر، وهو من مبانى العرب المشهورة . وقد تقدّم ذكره فى الباب[٣] الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل، وهو فى السفر الأوّل . فلا حاجة الى إعادة ذكره .

وفى أيامه ظهر مانى الزِّنديق تلميذ قاردون وقال بالاثنين، فرجع سابور الى مذهب مانى والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد الى دين المجوسية وترك المانَوِيَّة، وهو المسمى عندهم بدين الثَّنَوِيّة . وكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة . وقيل إحدى وثلاثين سنة ونصف سنة وثمانية عشر يوما .

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن سابور، وهو الذى يدعى هرمز البطل، ويلقّب أيضا بالجرىء . وبنى مدينة رامهرمز بين كُوَر الأهواز . وكانت مدة ملكه سنة وعشرة أشهر .

ثم ملك بعده ابنه بهرام بن هرمز . قال : ولما ملك جاءه مانى الزنديق فعرض عليه مذاهب الثنوية فأجابه الى ذلك احتيالا منه عليه، الى أن أحضر له دعاته المتفرقين فى البلاد الذين يدعون الناس فى مذاهب الثنوية . فلما أحضرهم اليه قتلهم وقتل مانى وسلخه .

(١) فى الأصل « الباب الثالث » وما أثبتناه هو ما ورد فى (ج ٦ ص ١٦ من هذه الطبعة)
(٢) هو الضيزن بن معاوية بن العبيد من قبيلة قضاعة ويلقب بالساطرون .
(٣) راجع (ج ١ ص ٣٠١ من هذه الطبعة) .

وفى أيام مانى هذا ظهر اسم الزنادقة الذين أضيفت اليهم الزندقة . وذلك أن الفرس كان لهم كتاب يسمونه السنا، وكان له شرح يسمى الزند . فكان من أتاهم بزيادة على ما فى كتابهم يسمونه زنديا . فلما جاءت العرب أخذت هـذا المعنى من الفرس فعربته وقالت زنديق . فالثنوية هم الزنادقة ، فألحق هذا الاسم بسائر من اعتقد القِدَم وأبى حدوث العالم وأنكر البعث .

والذى أتى الفرسَ بهذا الكتاب زرادشت فى زمن الفرس الأوّل . وقد قدّمنا ذكره فى أخبار بشتاسف . وهـذا زرادشت هو الذى تزعم المجوس أنه نبيُّها الذى أرسل اليها . وكان زرادشت خادم شعيا فدعا شعيا عليه فبَرِصَ . وكان صاحب نِيرَجات[1] وسحر . وكان يحزُرُ[2] بعض الكوائن قبل أن تقع مما كان قد سمعه من شعيا وقت خدمته له ، وآدّعى النبوّة فى المجوس وعمـل لهم الكتاب الذى قدّمنا ذكره، وزعم أنه أُنزِل عليـه من السماء، وجعل كلامه فيه يدور على نيِّف وسبعين حرفا، فلم يقدر أحد منهم على قراءته فآختصره لهم وسمى مختصره الزند .

فلما قام مانى بدين الثنوية سمته المجوس "زندين" وسموا أصحابه الزنادقة لأنه زاد فى شرعهم الذى شرعه لهم زرادشت ، فقتل بهرام هـذا مانيًا وصلبه على باب[3] من أبواب مدينة من مدنه بالعراق؛ فيُدعى ذلك الباب الى آخر وقت بابَ مانى . وكانت مدة ملك بهرام ثلاثا[4] وثلاثين سنة وثلا[ثة أ]شهر .

ثم ملك بعده آبنه بهرام بن بهرام . قال : ولمـا ملك أقبل فى أوّل ملكه على اللهو والصيد والنُّزَه، وترك ملكه لا يفكر فيه ولا فى رعيته . [فخربت] البلاد ونقصت

---

(١) النيرجات : جمع نيرج . والنيرج : أخذ كالسحر وليس بسحر، إنما هو تشبيه وتلبيس .
(٢) حزر الشيء : قدّره بالحدس . (٣) فى تاريخ الطبرى (ص ٨٣٤ من القسم الأول طبع أوربا) . « فأمر بقتله وسلخ جلده وحشوه تبنا وتعليقه على باب من أبواب جنديسابور يدعى باب المانى » . (٤) فى تاريخ الطبرى : « ثلاث سنين » .

بيوت الأموال . فلما كان فى بعض الأحيان ركب الى بعض متنزهاته وصيده
بجنّه الليل وهو يسير نحو المدائن، وكانت ليلة قمراء. فدعا بالمُوبَذ لأمر خطر بباله،
والموبذ عند المجوس كالقسيس عند النصارى ، فجعل يحادثه فتوسطا فى مسيرهم
بين خرابات كانت من أمهات الضياع فخربت فى ملكه، وإذا بُومٌ يصيح وآخر
يجاوبه ، فقال الملك : أَتُرى أحدًا من الناس أُعطِىَ فَهْمَ ما يقول هذا الطائر؟ ٥
فقال الموبذ : أنا أيها الملك ممن خصه الله تعالى بذلك . قال : فما يقول هذا
الطائر، وما يقول الآخر؟ فقال الموبذ : هذا بوم ذكر يخاطب بومة أنثى ويقول :
متّعينى من نفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله تعالى . فأجابته البومة :
إن الذى دعوتنى اليه هو الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، إلا أنى أشترط عليك
شرائطَ . فقال : وما هى؟ فقالت : أن تُقطِعَنى من خرابات أمهات الديار عشرين ١٠
قرية مما خَرِبت فى أيام هذا الملك السعيد . فقال له المَلك : فما الذى قال الذكر ؟
قال الموبذ: كان من قوله لها : إن دامت أيام هذا الملك السعيد أقطعتُك منها ألف
قرية ، فما تصنعين بها؟ قالت : فى اجتماعنا ظهور النسل وكثرة الولد ، فنُقطِع كل
واحد من الأولاد ضَيْعة . فقال الذكر : هذا سهل ما حَيِىَ الملك .

فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذ عَمِل فى نفسه وفكر فيما خوطب به ، ١٥
فنزل من ساعته وخلا بالموبذ وقال له : ما هذا الكلام الذى خاطبتنى به؟ فقد حركت
منى ما كان ساكنا . فقال : صادفت من الملك وقت سعد بالعباد والبلاد، فجعلت
الكلام مثلا وموقظا على لسان الطائر عند سؤال الملك إياى . فقال له الملك :
أيها الناصح للملك ، [المنبه على] [1] ما أغفله من أمور ملكه، وأضاعه من أمور بلاده
ورعيته، اكشف لى عن هذا الغرض ما المراد منه. فقال له : أيها الملك! ان المُلك ٢٠

(١) التكملة من مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٢١ طبع بلاق) .

لا يتمّ إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته ، ولا قِوام للشريعة إلا بالملِك ، ولا عزّ للملك إلا بالرجال ، ولا قيام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل ، والعدل هو الميزان المنصوب بين البرية ، نصبه الربّ وجعل له قيّما وهو المَلِك .

٥ قال : أما ما وصفت فحقّ ، فأَبِنْ لى عما اليه تقصد ، وأوضح لى فى البيان .

قال : نعم أيها الملك ! عمدتَ الى الضياع فأقطعتها الخدمَ وأهل البطالة فعمدوا الى ما تعجل من غلاتها فاستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يُصلح الضياع ، وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على الرعية وعُمّار الضياع فانجلوا عن ضياعهم ، وقلّت الأموال ، وهلكت الجند والرعية ، وطمع

١٠ فى ملك فارس من طمع فيه من الملوك والأمم ، لعلمهم بانقطاع المواد التى بها تستقيم دعائم الملك . فلما سمع الملك ذلك أقام فى موضعه ثلاثة أيام . وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين ، فانتُزِعت الضياع من أيدى الخاصة والحاشية ورُدّت إلى أربابها ، وحُملوا على رسومهم السالفة ، وأُخِذوا بالعمارة ، وقوِىَ من ضعف منهم ، وعَمَرت البلاد ، وكثرت الأموال ، وقويت الجند ، وانتظم ملكه حتى كانت

١٥ أيامه تدعى بالأعياد ، لما عمّ النّاسَ من الخصب ، وشملهم من العدل . وكان ملكه سبع عشرة سنة .

ثم ملك ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام البطل ، وكان يدعى شكان شاه ، وهو الذى يقال له شاهنشاه[1] . فكان ملكه أربعين[2] سنة وأربعة أشهر .

ثم ملك بعده أخوه نرسى بن بهرام الثانى فكان ملكه تسع سنين . وقيل

٢٠ سبع سنين وخمسة أشهر .

---

(١) شاهنشاه : معناه ملك الملوك . (٢) فى تاريخ الطبرى : « أربع سنين » .

ثم ملك بعده آبنه هرمز بن نرسى . قال : وكان فظا إلا أنه كان يرفق بالرعية ، وكان حسن السيرة فيهم . وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر .

ثم ملك بعده آبنه سابور بن هرمز ، وهو الملقب بذى الأكتاف . وكان هرمز قد تركه حملا فى بطن أمه ، فعقدوا التاج على بطنها ، وقام الوزراء بتدبير الأمر مدّة حملها ، وفى مدّة رضاع سابور وطفولته وصغره حتى كبر ، فكتب إليه الناس الكتب من الآفاق وأجابهم ، ووجه البريد إلى الآفاق والأطراف ، ورتّب الوزراء والكتّاب وقرّر العمال . ٥

قال : وكان قد شاع فى الممالك أن ملك الفرس صغيرُ السنّ ، وأنه يتدبّر برأى وزرائه ، ولا يدرى ما يراد منه ، ولا ما يكون من الأمر ، فطمع فى مملكة الفرس الترك والروم والعرب . وكانت أدنى بلاد الأعداء إلى الفرس بلادُ العرب . وكانت العرب من أحوج الأمم إلى تناول شىء من المعاش لسوء حالهم وشظف عيشهم ، فانبسطت أيديهم فى البلاد وغلبوا أهلها عليها وآتسعت حالهم وكثرت مواشيهم ، وأفسدوا فى بلاد فارس ، ومكثوا كذلك حينا ، وقد أمنوا جانب الفرس وآطمأنوا من قتالهم لقلة هيبتهم . وكان الذى غلب على سواد العراق من العرب جمرةُ العرب ولدُ إياد بن نزار . وكان يقال لها طبق لإطباقها على البلاد ، ومَلِكُها يومئذ الحارث بن الأغر الإيادى . قال : ولما ترعرع سابور جعل الوزراء يعرضون عليه أمر الجنود الذين فى الثغور ، وأن الأخبار وردت عليهم أن أكثرهم قد أخلّ ، وعظّموا عليه الأمر وهوّلوه ، فقال لهم : لا يَهُولنّكم ذلك ، فالخطب فيه غيرُ جسيم ، والحيلة فى ذلك يسيرة . وأمر الكتّاب أن يكتبوا الى أولئك الجنود أنه قد انتهى إلىّ طولُ مكثكم فى النواحى التى أنتم فيها ، وعِظَمُ عنائكم وذبّكم عن إخوانكم وأوليائكم ، فمن أحب منكم الانصراف الى أهله فلينصرف مأذونا له فى ذلك ، ١٠ ١٥ ٤٢/١٣ ٢٠

ومن أحبّ أن يستكمل الفضل بالصبر فى موضعه عرفنا له ذلك ، وتقدّم الى من اختار الانصراف منهم بلزوم أهله وبلاده الى وقت الحاجة إليه . فلما سمع الوزراء قوله ورأيه استحسنوه وقالوا : لو كان هذا قد أطال تجربة الأمور وسياسة الجنود مازاد على ماسمعناه . ثم تتابعت آراؤه فى تقويم أصحابه وقمع أعدائه ، حتى إذا تمت له ستّ عشرة سنة جمع أساورته وأمرهم بالاستعداد لقتال العرب . وكانت إياد تَصيف بالجزيرة وتَشتو بالعراق . وكان فى جيش سابور رجل منهم يقال له لَقيط،[1] فكتب الى إياد شعرا ينذرهم وهو :

سلامٌ فى الصحيفة من لَقيط ... الى مَنْ بالجزيرة من إياد

بأن الليث آتيكم دَليفا[2] ... فلا يحبسْكُمُ سَوْقُ النِّقاد

أتاكم منهمُ سبعون ألفا[3] ... يُزَجُّون الكتائب كالجراد

---

(١) هو لقيط بن بكر، شاعر جاهلىّ قديم مقل، كما ورد فى كتاب الأغانى (ج٢٠ ص٢٣ طبع بلاق). وفى المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم للآمدى (ص ١٧٥ طبع مصر) وكتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ١٠٤ طبع أوربا) : « لقيط بن معبد الإيادى » . وفى كتاب « منتهى الطلب من أشعار العرب » لمحمد بن المبارك المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣ أدب ش خمس ورقات (من ص ٣٥٠ — ٣٥٩) كتب فى أولها : « ديوان شعر لقيط بن يعمر الإيادى » ، وتشتمل هذه الورقات على الأبيات المذكورة هنا وقصيدته العينية المشهورة التى مطلعها :

يا دار عمرة من محتلها الجرعا ... هاجت لى الهمّ والأحزان والوجعا

(٢) كذا فى شرح القاموس مادة « دلف » والمؤتلف والمختلف . وفى الأصول : « يأتيكم دلافا » وهو تحريف . وورد هذا البيت فى الأغانى ومنتهى الطلب هكذا :

بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكم سوق النقاد

وقوله : « آتيكم دليفا » يريد : يمشى مشى المقيد . والنقاد : الغنم .

(٣) فى المؤتلف والمختلف ومنتهى الطلب :

* أتاكم منهم ستون ألفا *

فلم يعبئوا بكتابه ، وسراياهم تكرّ نحو العراق وتُغير على السواد . فلما تجهّز القوم نحوهم ظفر بهم سابور فعمّهم بالقتل، وما أُفلت منهم إلا نفرٌ لحقوا بأرض وَبَارِ[1]، وخلع سابور أكتاف كثير منهم ، فلذلك سُمّى ذا الأكتاف . وكان سابور فى مسيره أتى البحرين وفيها بنو تميم فهربوا ، وشيخُها يومئذ عمرو بن تميم بن مرة وعمره ثلثمائة سنة، وكان يُعلّق فى عمود البيت فى قُفّة، فأرادوا حمله فأبى عليهم إلا أن يتركوه فى ديارهم وقال لهم : أنا هالك اليوم أو غدا فتركوه . فلما صبحت خيل سابور الديار لقوها خالية ، فلما سمع عمرو صهيل الخيل جعل يصيح بصوت ضعيف، فحمل إلى سابور ، فلما نظر إلى دلائل الهَرَم ومرور الأيام عليه قال له : من أنت أيها الفانى ؟ قال : أنا عمرو بن تميم بن مرة، قد بلغت من الكِبَر ما ترى ، وقد هرب الناس منك لإسرافك فى القتل ،فآثرت الفناء على يديك ليبقى من بقى من قومى، ولعل الله يُجرى على يديك فرَجهم، وأنا سائلك عن أمر إن أذنت فيه؛ فقال سابور: قُلْ نَسمعْ؛ فقال : ما الذى حملك على قتل رعيتك من رجال العرب؟ فقال سابور : أقتلهم لما ارتكبوا فى بلادى وأهل مملكتى؛ فقال عمرو : فعلوا ذلك ولستَ بقيّم عليهم؛ فلما ملكت وقفوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك؛ قال سابور : وأقتلهم لأنا نجد فى مخزون علمنا وما سلف من أنباء أوائلنا أن العرب ستُدَال علينا . فقال عمرو : هذا أمر تظنه أم تحققه ؟ قال : بل أتحققه ولا بدّ أن يكون ؛ فقال عمرو : فلِمَ تسئ إليها؟ والله لئن تُبقِ عليها وتُحسن إليها ليكافئون قومك عند إدالة الدول إليهم بإحسانك، وإن أنت طالت بك المدّة كافئوك عند مصير الأمر إليهم إن كان حقا ، وإن كان باطلا فلِمَ تتعجل الإثم وتَسفِك دماء رعيتك ؟ فقال

---

(١) فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٢٢) «أرض الروم» ، و «وبار» على وزن قطام وحذام : أرض واقعة ما بين الشحر الى تخوم صنعاء . (انظر معجم البلدان لياقوت) .

سابور : الأمر صحيح والحق ما قلت ، ولقد صدقت فى القول ونصحت .
فنادى منادى سابور بأمان الناس ورفع السيف . ويقال : إن عمرا بقى بعد هذا
الوقت ثمانين سنة .

ثم سار سابور إلى أرض الروم ففتح المدن وقتل خلائق من الروم وقال لمن
٥ معه : إنى أريد أن أدخل بلاد الروم متنكرا لأتعرف أحوالهم وسيرهم ومسالك[1]
بلادهم . فإذا بلغت من ذلك حاجتى انصرفت الى بلدى فسرت إليهم بالجنود ؛
فحذروه التغرير بنفسه فلم يقبل قولهم . وسار متنكرا الى أرض القسطنطينية فصادف
وليمة لقيصر اجتمع فيها الخاص والعام ، فدخل فى جملتهم وجلس على بعض
موائدهم . وقد كان قيصر أمر مصورا أتى عسكر سابور فصوره وجاء الى قيصر
١٠ بالصورة ، فأمر بها فصورت على آنية الشراب من الذهب والفضة ، وأتى
بعض من كان على المائدة التى عليها سابور بكأس ، فنظر بعض الخدم الى الصورة
التى على الكأس ، وسابور مقابل له ، فانطبعت مثالا لصورة سابور . فقام الى
الملك فأخبره ، فمثل بين يدى الملك . فسأله عن خبره فقال : أنا من أساورة
سابور وهربت منه لأمر خفته منه[2] . فلم يقبل ذلك منه ، وقدم إلى السيف فأقر
١٥ بنفسه ، فجعل فى جلد بقرة ، وسار قيصر فى جنود حتى توسط العراق ، فافتتح
المدن ، وشن الغارات ، وعقر النخل ، وانتهى الى مدينة نيسابور ، وقد تحصن بها
وجوه فارس ، فنزل عليها وحضر عيدا للنصارى فأغفل الموكلون بسابور أمره ،
وأخذ منهم الشراب . وكان بالقرب من سابور أسارى من الفرس ، فراطنهم بالفارسية
أن يحل بعضهم بعضا ، وأمرهم أن يصبوا عليه زقاق الزيت[3] ففعلوا . فلان عليه

٢٠ (١) كذا فى كتاب المعرف لابن قتيبة (ص ٣٢٤ طبع أوربا) . وفى الأصل : « ممالك » .
(٢) كذا فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٢٤ طبع بلاق) . وفى الأصل : « إليه » .
(٣) الزقاق : جمع زق (بالكسر) ، والزق جلد يجز ولا ينتف يستعمل للشراب وغيره .

الجلد وتخلص، وأتى المدينة فراطنهم فرفعوه بالحبال ، ففتح خزائن السلاح وخرج على الروم فكبسَ جيشهم عند ضرب النواقيس ، فانهزم الروم ، وأُتِىَ بقيصر أسيرا ، فأبق عليه وضمّ إليه من أُسِرَ من أصحابه ، وأخذهم بغرس الزيتون بالعراق بدلا من النخل التى عقروها ؛ ولم يكن الزيتون بالعراق قبل ذلك . وفى فعل سابور ودخوله الى أرض الروم يقول بعض شعراء الفرس :

وكان سابورَ صفوا فى أُرومته * اختير منها فأضحى خيرَ مختار

إذ كان بالروم جاسوسا يجول بها * حوم المنيّـة[1] من ذى كيد مكّار

فاستأسروه ، وكانت كبوة عجبا * وزلّة سبقت من غير عثّار

وأصبح الملكُ الرومىُّ مغتربا * أرضَ العراق على هول وأخطار

فراطن الفرسَ بالأبواب فافترقوا * كما تجاوَبُ أُسْدُ الغاب[2] بالغار

جذّ بالسيف أصلَ الروم فامتُحقوا * لله دَرُّكَ من طَلّاب أوتار

إذ يغرسون من الزيتون ما عَضَدُوا * من النخيل وما حَفُّوا بمنشار

وسابور هذا هو الذى بنى الإيوان المعروف بإيوان كسرى ، وبنى السّوس[3] والكرج[4] ونيسابور[5] . قال صاحب كتاب تجارب الأمم : وبنى بالسواد مدينة بحس سابور ، وبنى الأنبار[6] . قال : وبنى مدائن أُخر بالسند وسجستان ، ونقل ١٥

(١) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصل : «بجزل البرية» . (٢) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصل : «الغار» . (٣) السوس : مدينة قديمة بخوزستان فيها قبر دانيال النبىّ ولها بساتين وورد فى معجم البلدان لياقوت أن أوّل من بنى كور السوس وحفر أنهرها ردشير بن نهجن . (٤) الكرج : وتسمى قديما ايبريا ، وهى بين جبال القبج من الشمال وأرمينية وأرّان من الجنوب ؛ وأشهر مدنها : تفليس وباكو . واسم الكرج مشتق من نهر الكر الذى يجرى هناك ؛ وهى إقليم القوقاز الآن . (٥) نيسابور : ٢٠ حاضرة خراسان ، واسمها أيضا « نشاور » وكانت قاعدة الدولة الظاهرية (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) .

(٦) الأنبار : هى « فيروز سابور » مدينة بالعراق بينها وبين بغداد ١٠ فراسخ على نهر الفرات قرب مخرج نهر عيسى . واختلف المؤرخون فيمن بناها ، فقيل هو سابور بن هرمز (ذو الأكتاف) كما أورده المؤلف هنا . وقال ابن الأثير : بنيت الحيرة والأنبار أيام بختنصر . وفتحت هذه المدينة فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه سنة ١٢ من الهجرة على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه . ٢٥

طبيبا من الهند وأسكنه السوس، فورِث طِبَّه أهلُ السوس . وهلك سابور بعد آثنتين وسبعين سنة من ملكه .

ثم ملك بعده أردشير بن هرمز وهو أخو سابور بن هرمز هذا . قال : ولما ملك ظهر منه شرّ كثير وقتل من العظماء وذوى الرياسة خلقا كثيرا، فاجتمع الناس على خلعه فخلعوه بعد أن ملك أربع سنين .

ثم ملّكوا عليهم بعده سابور بن سابور . قال : ولما ملك استبشرت الرعية برجوع ملك أبيه إليه، فأحسن السيرة ورَفَق بالرعيّة . وكانت له حروب كثيرة مع إياد بن نزار وغيرها [من العرب][1]، وفيه يقول شاعر إيادىّ :

على رغم سابور بن سابور أصبحت * قِبابُ إياد حولها الخيل والنَّعَمْ

وكان ملكه خمس سنين وأربعة أشهر، وسقط عليه فُسطاط كان ضرب عليه فمات .

وملك بعده أخوه بهرام بن سابور ذى الأكتاف، وهو الملقّب كِرْمان شاه؛ لأن سابور كان ولّاه كِرْمان . قال : وكان حسن السيرة ، جميل السياسة، محمود الأثر ، محبّبا للرعية . وكان ملكه عشر سنين . وقيل إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما .

وملك بعده آبنه يزدجرد بن بهرام المعروف بالأثيم . قال : وكان فظًّا غليظا ، ذا عيوب كثيرة ، وكان من أشدّ عيوبه وضعُه ما آتاه الله من ذكاء ذهن وحسن أدب فى غير موضعهما ؛ وذلك أنه كان كثير الرَّوِيّة فى المضارّ من الأمور، واستعمل الذى أوتيه فى الدهاء والحِيَل، واستخفّ بكل علم كان عند الناس، وآحتقر آدابهم، وتعاظم عليهم واستطال بما عنده . وكان مُعْجَبا بنفسه سيء الخلق، حتى بلغ من شدته وحدّته أنه كان يستعظم صغار الزلات، ولا يرضى فى عقوبتها إلا بما لا يُستطاع .

(١) الزيادة من مروج الذهب .

وكان لا يقدر أحد من بطانته — وإن كان لطيف المنزلة منه — أن يشفع عنده لمن ابتُلِيَ به وإن كان ذنب المُبتلَى به يسيرا، ولم يكن يأتمن أحدا على شيء ألبتّة، ولا يكافئ على حسن البلاء . وكان يعتدّ بالخسيس من المعروف اذا أولاه ويستجزل ذلك ، فإن جَسَرَ على كلامه أحد فى أمر قال له : ما قدر جَعَالتك فى هذا الأمر الذى كلمتنا فيه ، وما الذى بُذِل لك بسببه ؟ وما أشبه ذلك . فلما اشتدت بليّة الناس به ، وكثرت إهانته للعظماء، وأكثر من سفك الدماء ، واستعمل الضعفاء فى الأعمال الشاقّة، وحمّلهم مالا طاقة لهم به، تضرّعوا الى الله عز وجل وسألوه أن يُنقِذهم منه . فزعم الفرس أنه كان ذات يوم مطلعا من قصره إذ رأى فرسا عائرا لم يُرَ مثله قط فى الخيل من حسن الصورة وتمام الخلقة حتى وقف على بابه، فتعجب الناس من ذلك، فأمر يزدجرد أن يُسرج ويُلجم ويُدخل عليه به، فحاول السوّاس وأصحاب المراكيب أن يُلجموه أو يُسرجوه فعجزوا عن ذلك، ولا مكّنهم الفرس من نفسه، فخرج يزدجرد بنفسه الى الفرس وتقدم اليه وأسرجه وألجمه ولبّبه وهو لم يتحرّك، فلما استدار ورفع ذنبه لِيُثْفِره(1) رمحه الفَرَسُ على فؤاده رَمْحَةً فهلك منها لساعته، ثم لم يُعاين الفرس بعد ذلك، فأكثرت الفُرْس فى حديثه فظنّوا الظنون . وكان أحسنهم مذهبا وأمثلهم طريقة مَنْ قال : إنما استجاب الله عز وجل دعاءنا . فكان ملكه الى أن هلك إحدى عشْرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما . وقيل اثنين وعشرين سنة غير شهرين .

قال : وكان ابنه بهرام جور فى حِجْر النعمان بن المنذر بن ماء السماء أسلمه أبوه اليه ليربّيه بالحيرة لصحة هوائها . وقد تقدّم خبره فى ذكر بناء الخورنق والسدير(2) .

(1) أثفره : وضع الثفر تحت ذنبه . والثفر (بالتحريك ويسكن) السير الذى يوضع فى مؤخر الرحل وتحت ذنب الدابة .

(2) راجع (ج ١ ص ٣٨٥ من هذه الطبعة) .

فعدل الفرس عنه لسوء أثر يزدجرد فيهم وملكوا عليهم كسرى، وهو رجل من عترة ساسان، فاستعان بهرام جور بالعرب وأرسل الى الفرس وأعلمهم إنكاره سيرة أبيه، ووعدهم بإصلاح ما فسد، وأنه إن مضى للملك سنة ولم يف لهم بما بذل تبرأ من المُلك طائعا، فمال اليه قوم و بقيت طائفة مع كسرى، فتراضوا أن يوضع تاج الملك

٥ بين أسدين مُشْبِلَيْن فمن تناوله فهو الملك . وكان بهرام جور شجاعا بطلا، فلما وقف هو وكسرى الى جانب الأسدين هابهما كسرى، فوثب بهرام جور فإذا هو على ظهر الأسد وعصر جنبيه بفخذيه، فلما تمكّن منه قبض على أذنيه، ولم يزل يضرب رأس الأسد برأس الآخر حتى قتلهما . فكان كسرى أوّل من هتف به وأذعن له .

فملك بهرام جور بن يزدجرد، فأحسن السيرةَ، وجلس سبعة أيام متوالية

١٠ للجند والرعيّة، يَعِدُهم الخير من نفسه و يحضّهم على تقوى الله وطاعته . وكان جلوسه على سرير الملك وهو ابن عشرين سنة، فغبر زمانا وهو يحسن السيرة، و يَعْمُر البلاد، و يدرّ الأرزاق، ثم آثر اللهو على ذلك وكثرت خلواته بأصحاب الملاهي حتى كثُرت عليه الملامة من أرباب دولته، وطمع مَنْ حوله من الملوك فى استباحة بلاده والغلبة على مُلْكه . وكان أوّل من سبق الى مغالبته ومكاثرته خاقانُ ملك الترك، وغزاه

١٥ فى مائتى ألف وخمسين ألفا من الأتراك، فبلغ الفُرْسَ إقبالُ الترك فى هذه الجموع العظيمة فهالهم ذلك، ودخل على بهرام جور جماعة من عظماء الفرس وأهل الرأى والنجدة وقالوا : أيها الملك، قد أرهقك من بائقة[1] عدوّك ما يشغلك عما أنت فيه من اللهو والتلذذ، فتأهّب له لئلا يلحقك منه أمر يلزمك فيه مسبّة وعار . وكان بهرام لثقته بنفسه و رأيه يجيب القوم بأن يقول : الله ربنا ونحن أولياؤه . ثم يقبل

٢٠ على ما هو عليه من اللهو والصيد .

(١) البائقة : الداهية .

قال: ثم أظهر بهرام جور التجهز الى أذربيجان ليتنسّك فى بيت نارها، ويتوجه منها الى أرمينية ويتصيّد فى آجامها ، وسار فى سبعة رَهْطٍ من عظماء الفرس وأهل البيوتات، وثلثمائة رجل من رابطته ذوى بأس وشدّة ونجدة، واستخلف أخا له يقال له نرسى على ملكه، فما شك الناس — لمـا بلغهم ذلك — أنه هرب من خاقان، فتآمر الفـرس فى مراسلة خاقان والانقياد الى طاعته والإقرار له بالخراج ؛ مخافة منه أن يستبيح بلادهم، فاتصل هـذا الخبر بخاقان فاطمأنّ وترك التحفظ والاستعداد وآثر المسالمة . وتعرّف بهـرام خبرَ خاقان وحال جنده وماهم عليه من الطمأنينة والفتور وعدم الاستعداد ، فسار بمن معه وبيّت خاقان وقتله بيـده . فلما علم الأتراك أن ملكهم خاقان قـد قتل انهزموا لا يَلْوُون على شيء وخلّفوا أثقالهم وأموالهم . فأكثر بهرام فيهم القتل وأمعن فى طلبهم، وحاز غنائم لم يسمع بمثلها، وسبى من ذرّيتهم كثيرا. وكان مما غَنِمه تاجُ خاقان وإكليلُه، وغلب على بلاد الترك وانصرف بالظفر والغنائم، وكتب الى أهل مملكته يعلمهم بما حصل له من الظفر بخاقان وجموعه بمن كان معه من أولئك القوم الذين استصحبهم معه .

وكان بهرام يتكلّم بلغات كثيرة، منهـا اللغـة العربية . وممـا حُفِظَ من شعره يوم ظَفَره بخاقان :

أقول له لمـا فَضَضْتُ جمـوعَه * : كأنك لم تسمع بصولات بهرام

وأنّى حامى مُـلْكَ فارس كلِّهـا * وما خير مُلْكٍ لا يكون له حامى

ومن شعره أيضا :

لقـد علـم الأنامُ بكل أرض * بأنهـمُ قـد أضحَـوْا لى عبيـدا

ملكتُ ملوكَهم وقهرتُ منهـم * عزيزَهم المُسـوّدَ والمَسُـودا

فتلك أسودهم تبغى حِذَارى[1] * وترهب من مخافتى الوُرودا
وكنتُ إذا تشاوس[2] مَلْكُ أرض * عَبَأْتُ له الكتائبَ والجنودا
فيعطينى المقادةَ أو أوافى * به يشكو السلاسلَ والقيودا

قال : ولما قُتِل خاقان بعث بهرام جور أحدَ قوّاده إلى ما وراء النهر فغزاهم وأقرّوا لبهرام بالعبودية وأداء الجزية . قال : وأسقط بهرام جور عن رعيته إثر هذا الظفر خراج ثلاث سنين ، وترك ما كان قد بقى من الخراج ولم يُستخرج من قسط تلك السنة ، وكان سبعين ألف ألف درهم ، وقسم فى الفقراء مالا عظيما وفى أهل البيوتات والأحساب عشرين ألف ألف درهم ؛ ونَحَل بيت النار بأذربيجان جميعَ ما غنمه من الترك من اليواقيت والجواهر والتاج والإكليل .

ويقال إن بهرام دخل إلى أرض الهند متنكرا فمكث حينا لا يُعرف حتى بلغه أن فيلا قد هاج وقطع السُّبُل وأهلك الناس ، فسألهم أن يَدُلّوه عليه ، فرُفِع أمره إلى الملك فأرسل معه رسولا ، فلما انتهى إليه أوفى[3] الرسول على شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل ، فصرخ بالفيل فخرج اليه ، فجعل يرميه و يثبّت النُّشّاب بين عينيه ، ثم دنا وأخذ بمِشْفره وجذبه جذبة خرّ منها الفيل ، ثم احتز رأسه وأقبل به إلى الملك فحباه وأحسن اليه .

ثم إن ملكا من أعداء ذلك الملك أقبل لغزوه فَجَزِع ذلك الملك من كثرة جنود الملك الذى أتى نحوه ، فقال له بهرام : لا يهولنّك أيها الملك أمره ؛ فركب بهرام وقال لأساورة الهند : احموا ظهرى ، وانظروا إلى عملى ، وكانوا لا يُحسنون الرمى ، وأكثرهم رَجّالة ، فحمل عليهم حملة هدّهم بها ، ثم جعل يضرب الرجل فيقطعه

(١) فى مروج الذهب للسعودى « تقعى » ، والإقعاء : أن يلصق أليتيه بالأرض . ينصب ساقيه و يضع يديه على الأرض . (٢) تشاوس اليه ، نظر اليه بمؤخر العين تكبرا .
(٣) أوفى : أشرف عليها .

عصفين ، و يأتى الفيل فيضرب بمشفره و يكُبّه و يأخذ مَنْ عليه فيقتله ، و يأخذ الفارس فيذبحه على قَرَبوس سرجه، و يتناول الرجلين فيضرب أحدهما بالآخر فيموتان جميعا ، و يرمى فلا تقع له نُشابة إلا فى رَجُل ، فولّوْا أمامه منهزمين ، وحمل الذين كانوا يحرُسون ظهوره عليهم فأكثروا القتل فيهم ، فزوّجه ملك الهند بنته ونَحَلَه الدَّيْبُل[1] ومُكران وما يليهما من أرض السند وأشهد له بذلك ، وانصرف بهرام جور إلى مملكته وضمّ ذلك إلى بلاده وحمل خراجها إليه ، ثم أغزى بهرام جور أخاه نرسى إلى بلاد الروم فى أربعين ألفا فدخل القسطنطينية وهادن ملك الروم على إتاوة يحملها إلى أخيه . ثم مضى بهرام جور إلى أرض السودان على طريق اليمن فأوقع بهم وعاد إلى مملكته وهلك بعد ذلك فى ماء . وذلك أنه توجه إلى الصيد فشدّ على عَيْر وأمعن فى طلبه ، فارتطم فى ماء فى سبخة فغرق فيه ، فسارت أمه إلى ذلك الموضع بمال عظيم ونزلت بالقرب منه ، وأمرت بإنفاق تلك الأموال على من يخرجه ، فنقلوا طينا عظيما وحمأة كثيرة حتى صار من ذلك آكاما عظاما ولم يقدروا على [استنقاذ][2] جثته . وكان ملكه ثلاثا وعشرين سنة .

وحُكى عنه فى صغره ما يدلّ على نباهته ، وجَودة فكرته وجميل رأيه . فمن ذلك أنه قال للنعمان بن المنذر لما بلغ عمره خمس سنين : أحضر لى مؤدّبين ليعلّمونى الكتابة والفقه والرمى والفروسية . فقال له المنذر : إنك بعدُ صغير السنّ ، ولم يأنِ لك ذلك بعدُ . فقال له بهرام : أمَا تعلم أيها الرجل أنى من ولد الملوك ، وأن المُلك

(١) الديبل (بفتح الدال المشددة وسكون الياء التحتية وضم الباء الموحدة) : بلد صغير شديد الحر على شط ماء السند ، وهى من أكبر فرضه وأشهرها ، وبها سمسم كثير ، و يجلب إليها التمر من البصرة ، و يجلب منها المتاع الديبلى . ومكران (بضم الميم وسكون الكاف) : بلدة من بلاد كرمان ؛ وهى ناحية واسعة عريضة ، والغالب عليها المفاوز والقحط والضيق اهـ ملخصا من كتاب تقويم البلدان لأبى الفداء ، طبع باريس .

(٢) الزيادة عن كتاب غرر ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٥٦٨ طبع أوربا) .

صائر إلىّ ، وأولى ما كُلِّف به الملوك وطلبوه صالحُ العلم؛ لأنه زَيْنٌ لهم وركن ، وبه يُعرفون . أما تعلم أن كل ما يُتقدّم فى طلبه ، ينالُ فى وقته ، وما لم يُتقدّم فيه ويُطلب فى وقته ، يُنال فى غير وقته ، وما يُفرّط فيه وفى طلبه يفوت ولا يُنال ؟ عجِّل علىّ بما سألتك . فبعث المنذر من ساعته إلى باب الملك من أتاه برهط من المعلمين الفقهاء والرماة ، وجمع له حكماء الروم وفارس وغيرهم ، وألزمهم إياه ، ووقّت أوقاتا لكل منهم ؛ فتعلّم بهرام من كل علمٍ أحسنه ، وسمع الحكمة ووعى ما سمع منها ، وثقُف كلَّ ما علم بأيسر شىء ، وبلغ أربعَ عشرة سنة ، وقد فاق معلّميه ، وحفظ للنعمان حقّ التربية ، فملّكه على العرب لمّا صار الملك إليه .

ولما هلك بهرام جور ملك بعده ابنه يزدجرد بن بهرام جور ، فسار بسيرة أبيه ، ولم يزل قامعا لعدوّه ، كثير الرفق برعيته . وكان له ابنان أحدهما يسمّى هرمز ، والآخر فيروز . ودام ملك يزدجرد تسعَ عشرة سنة ، وقيل ثمانى عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما ثم هلك .

فتغلّب على الملك بعده ابنه هرمز بن يزدجرد . ولما ملك هرمز هرب منه فيروز ولحق ببلاد الهياطلة[1] ، وأخبر ملكها بقصته وقصة أخيه هرمز ، وذكر أنه أحقُّ منه بالملك ، وسأله أن يمدّه بجيش يقاتل به أخاه ، فأبى عليه ملك الهياطلة وقال : سأعلم خبره ثم آمرك بعد ذلك بما تفعل . وكشف ملك الهياطلة عن خبر هرمز وتعرّف أحواله فبلغه أنه غَشوم ظَلوم ؛ فقال عند ذلك : إن الجور لا يرضاه الله تعالى ، ولا يصلح عليه الملك ، ولا تقوم به سياسته ؛ وأمدّ فيروز بالعساكر ودفع له الطالقان[2] ؛ فأقبل فيروز من عنده بجيش طخارستان وطوائف خراسان ، فظفر بأخيه فحبسه .

(١) الهياطلة : الصغد ، وهم بين بخارى وسمرقند .

(٢) طالقان : بلدة بخراسان بين مرو الروز و بلخ بينها و بين مرو الروز ثلاث مراحل وهى أكبر مدينة بطخارستان . عن (معجم البلدان لياقوت) .

وملك فيروز بن يزدجرد . ولما ملك أظهر العدل وحسن السيرة ، وكان يتديّن إلا أنه كان مشئوما على رعيته ، فقحطَ الناسُ فى زمانه سبع سنين ، فأحسن فيها الى الناس ، وقسم ما فى بيوت الأموال . ويقال : إن الأنهـار غارت فى مدّة القحط ، وكذلك القُنِى والعيون ، وقلت الأشجار والغياض ، وهلكت الوحـوش والطير ، وجاعت الدوابّ حتى كادت لا تطيق الحُمولة ، وعمّ أهلَ البلاد الجهدُ والمجاعةُ ، فبلغ من حسن سـياسة فيروز لهذا الأمر أن كتب الى جميع الرعية : أنه لا خراج عليكم ولا جزية ولا سخرة ، وأنه قد ملّكهم أنفسهم ، وأمرهم بالسعى فيما يقُوتهم ويُصلحهم ، وكتب بإخراج ما فى المطامير من الأطعمة وقسمها فى الناس ، وترك الاستئثار عنهم وتساوَى بهم ، وأخبر أهل الغنى والشرف ، بكل مدينـة وقرية ، أنه إن بلغه أن إنسانا مات جوعا عاقب أهل تلك المدينة أو الجهة التى يموت بها ، ويُنَكِّل بهم أشدّ النكال . فقيل إنه لم يَهْلِك فى هذا القحط والمجاعة من رعيته إلا رجل واحد من رُستاق[1] .

قال : ثم أغاثه الله فأمطرت السماء ، وجرت الأنهـار ونبعت العيون ، وصَلُحت الأشجار ، وسمِنت المواشى ؛ فاسـتوثق له الملك ، وأخذ فى غزو أعدائه وقهرهم . وبنى مدنا إحداها بين جرجان [وباب صول][2] وأخرى بناحية آذربيجان . ثم سـار بجنوده نحو خراسان لقصـد حرب أخشنوار[3] ملك الهياطلة لأشـياء كانت فى نفسه ، ولأن الهياطلة كانوا يأتون الذُّكران ويركبون الفواحش فسار اليهم ؛ فلما

(١) رستاق (بضم الراء) : مدينة بفارس من ناحية كرمان .

(٢) التكلة من الطبرى (ص ٨٧٤ من القسم الأوّل) .

(٣) كذا فى تاريخ الطبرى وكتاب المعارف لابن قتيبة (ص ٣٢٧) . وفى الأصل «اخشنيار» .

بلغ أخشنوار ملكُ الهياطلة خبره خافه وآشتدّ رعبه منه، وعلم أنه لا طاقة له به، وأن جيشه يضعف عن مقابلة الجيوش التى أقبل بها فيروز لخار فى أمره؛ فتقدّم اليه رجل كبير السنّ من أهل بلاده وقال: أنا أفدى الملك وأهل مملكته بنفسى، فليأمر الملك بقطع يدىّ ورجلىّ ويؤثر فى جسدى آثار العقوبة بضرب السياط،
٥ ويُلْقِنى فى الطريق التى يمرّ فيروز بها، ويُحسن إلى ولدى وعيالى الذين أخلفهم؛ ففعل به ذلك وأمر بإلقائه فى الطريق. فلما مرّ به فيروز أنكر حاله، فأخبره أن أخشنوار فعل به ذلك؛ لأنه أشار عليه بالانقياد إلى طاعة فيروز والإقرار بعبوديته، وأن يحمل إليه من الأموال والتحف ما يُرضيه؛ فرقّ له الملك فيروز ورَحِمَه وأمر بحمله معه، فنهاه أكابر قومه عن تقريبه فلم يرجع إليهم؛ ثم قال له ذلك الأقطع
١٠ كالمتنصّح[1] له: أنا أدُلّ الملك على طريق مختصر تدخل منه فى مفازة إلى بلاد أخشنوار، فتصادف غِرّته؛ وسأله أن يشتفىَ له منه. فاغترّ فيروز بذلك؛ وأخذ الأقطعُ بفيروز ومن معه وعدل بهم عن الطريق الجادّة وشرع يقطع بهم مفازة بعد مفازة. فلما شَكَوْا العطشَ منّاهم بقرب الماء وقطع المفازة. ولم يزل يتقدّم بهم حتى بلغ بهم موضعا علم أنهم لا يقدرون فيه على التقدّم ولا الرجوع، فتبين لهم
١٥ أمره، فعندها سُقِطَ فى أيدى القوم وقالوا لفيروز: ألم نَنْهَك عن هذا الرجل فلم تنته؟ فهلك أكثر أصحابه من العطش، ومضى على وجهه بمن نجا معه؛ فوافى أخشنوار وقومَه؛ وهو ومن نجا معه على أسوإ حال، وقد أجهدهم العطش، فدعَوْا أخشنوار إلى الصلح على أن يُخلِّىَ سبيلهم وينصرفوا إلى بلادهم، وعاهدوه على ألا يغزوَهم أبدا، فرضى أخشنوار بذلك وحصل آتفاقهما على أن يجعلا بينهما حدّا لا يتجاوزه
٢٠ واحدٌ منهما، ووُضِعَ عند الحدّ حجر، وحلّفه أخشنوار أنه لا يتجاوز ذلك الحجر،

(١) المتنصح: الذى يتشبه بالنصحاء.

لحلف له وأخذ عليه العهود والمواثيق وأطلقه أخشنوار ، فعاد فيروز إلى بلاده .

فلما سار إلى مملكته داخلته الحمية وحملته الأنفة على محاربة أخشنوار والغدر به ، فنهاه أهل مملكته عن ذلك وقبحوا عليه نقض العهود والمواثيق ، فلم يرجع الى أقوالهم وأبى الا غزوه . وسار بجيوشه حتى أتى الحد الذى بينهما والحجر الذى حلف أنه لا يتجاوزه الى بلاد الهياطلة ، فأمر فيروز بالحجر أن يصمد فيه خمسون فيلا وثلثمائة رجل ، بجره أمامه وأمر العسكر ألا يتجاوز ذلك الحجر ولا يتقدم الفيلة ، وزعم أنه يكون قد وفى بيمينه ولم يتجاوز ما عاهد عليه . فلما بلغ أخشنوار ذلك أرسل اليه يقول : إن الله عز وجل لا يخادع ولا يماكر ، ونهاه عن الغدر وقبحه عليه ، وهو لا يكترث بقوله ، وأحجم أخشنوار عن محاربة فيروز وكرهها ، ثم أعمل الفكرة وأخذ يفكر فى وجوه المكايد والمكر والخداع ، فحفر حول عسكره خندقا عرضه عشرة أذرع ، وعمقه عشرون ذراعا ، وغطاه بخشب ضعيف وألقى عليه التراب ، ثم ارتحل بمن معه ومضى غير بعيد ، فبلغ فيروز رحيل أخشنوار بجنده من معسكره ، فما شك أنه انهزم منه ، فركب فى طلبه وأغذ السير بجنوده — وكان مسلكهم على الخندق — فلما مروا عليه تردى فيروز وعامة جنوده فيه فهلكوا عن آخرهم وعطف عليهم أخشنوار واحتوى على كل شىء كان فى معسكر فيروز ، وأسر مُوبَذان مُوبَذ وجماعةً من نساء فيروز منهن دخت ابنة فيروز ، فكان هذا عاقبة مكره . وكان ملكه سبعا وعشرين سنة .

ولما هلك تنازع الملك بعده ابناه قباذ و بلاش ، فملك بلاش بن فيروز ابن يزدجرد . وكان حسن السيرة حريصا على العمارة ، و بلغ من حسن نظره أنه كان لا يبلغه أن بيتا خرب وجلا عنه أهله إلا عاقب صاحب القرية التى فيها ذلك

البيت على تركهم إنعاش أهله وسدّ فاقتهم حتى لا يضطرون إلى الجلاء عن أوطانهم . ثم هلك بعد أربع سنين .

وملك بعده أخوه قُباذ بن فيروز . قال : وكان قباذ لما ملك أخوه بلاش سار الى خاقان يستنصره على أخيه ويذكر أنه أحقّ منه بالملك ؛ فمطَله بذلك
٥ أربع سنين ثم جهزه بجيش، فلما عاد وبلغ نيسابور بلغه وفاة أخيه بلاش . وكان قباذ فى مسيره إلى خاقان مرّ على نيسابور متنكرا وتزوّج بها بآبنة رجل من الأساورة وواقعها، فحملت منه بأنو شروان وتركها بنيسابور ، فلما عاد فى هذا الوقت سأل عن الجارية فأُتِى بها وآبنه منها أنوشروان، فتبرّك بهما وفرح بابنه، ثم عاد إلى بلاد فارس وبنى مدينة أرّجان وحُلوان وعدّة مدن أخر .

١٠ قال : وكان لقباذ خال يقال له سوخرا وقيل فيه : ساخورا(١)، وكان يخلُف فيروز والد قباذ على مدينة الملك بالمدائن، فجمع جموعا كثيرة من الفرس وقصد أخشنوار ملكَ الهياطلة وحاربه وآنتقم منه وآستنقذ جميع من كان أسره من الفرس ومن سباه من نساء فيروز ، وأكثر ما كان قد آحتوى عليه أخشنوار من خزائن فيروز ؛ فعظُمَ قدره عند الفرس ، وحَسُنَ فيهم أثره ، وكبُرت منزلته عند بلاش وقباذ إلى
١٥ أن لم يبق بينه وبين الملك إلا مرتبةٌ واحدة، وتولى سياسة الأمر بحُنْكة وتجربة ؛ ومال إليه الناس وأطاعوه ، وآستخفوا بقباذ ولم يعبأوا بأمره، وهان عندهم فما حملت نفسه هذه الإهانةَ والذُّلَّ ، فأخذ فى التدبير على ساخورا وكتب إلى سابور الرازى، وهو الذى يقال له اللبيب، وهو أصبهبذُ البلاد، فى القدوم عليه بمن قِبَله من الجند، فقدم بهم سابور فخاطبه قباذ فى أمر خاله ، فوافقه سابور عليه ، فأمره

٤٩/١٣٠

٢٠ (١) كذا فى نسخة ا وتاريخ الطبرى . وفى نسخة ب « سوخرا وقيل فيه ساجورا » بالجيم المعجمة .

قبـاذ بالتلطف فى هذا الأمر وكتمانه ، و إعمال الحيلة وحسن التدبير فيه ، فغدا سابور على قبـاذ فوجد خاله ساخورا عنده ، فتقدّم سابور إليه وهو آمن ، فألقى وهْقـا[(١)] فى عنقه واجتـذبه وأوثقه بالحديد ثم أودعه السجن ، وقتله قبـاذ وخافته الفرس بعده .

وفى أيام قباذ ظهر مَزدق — ويقال فيه : مَزْدَك ، وتفسيره : حديد الملك ؛ ٥ و إليه تضاف المزدقية ، ويقال لهم العدلية — وقال : إن الله تعالى إنما جعل الأرزاق فى الأرض مبسوطة ليقسِّمها عبادُه بينهم بالسوية ، ولكن الناس يظلِمون ، واستأثر بعضهم على بعض ، فانضم اليه جماعة وقالوا : نحن نقسِم بين الناس بالسويّة ونردّ على الفقراء حقوقهم من الأغنياء ، ومَنْ عنـده فضلٌ من المـال والقوت والنساء والمتاع وغيرِ ذلك فليس هو له ولا أولى به من غيره ؛ فافترص السِّفْلة ذلك واغتنموه ١٠ واتبـعوا مَزْدَكَ وأصحـابه ، فقوِىَ أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلِبونه على ما فيها من ماله ونسائه ولا يستطيع أن يردّهم عنه ولا يدافعهم . ورأى الملك قباذُ رأى مزدك وأصحابه وتابعهم فازداد قوة ، فلم يلبث الناس إلا قليلا حتى صار الأب لا يعرف ولده ، ولا الولد يعرف والده ، ولا يملك أحد شيئا ، وصيّرت العدليـةُ قباذَ فى مكان لا يصل اليه غيرُهم ، فاجتمعت الفرس على خلـع قباذ من ١٥ الملك ففعلوا ذلك .

وملّكوا عليهم عند ذلك جاماسف بن فيروز ، وهو أخو قباذ . وقيل : إن المزدكية هم الذين أجلسوه . قال : ولـمـا ملك جاماسف قبض على أخيه قباذ وحبسه فاحتالت أخت قباذ فى خلاصـه . وذلك أنها أتت الى الحبس الذى هو

(١) الوهق (بتحريك الهاء وتسكينها) : الحبل فى طرفيـه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ . ٢٠

فيه وحاولت الدخول الى أخيها ، فمنعها الموكَّل به من الدخول اليه، وطمع أنه يفضحها، وأعلمها أنه لا يمكّنها من العبور إليه إلا إن وافقته على قصده، فأطمعته فى نفسها وقالت : إنى لا أخالفك فى شىء ممـا تهواه منى، فمكّنها من الدخول الى السجن والاجتماع بأخيها قباذ، فدخلت اليه وأقامت عنده أياما، ثم لفته فى بساط
٥ أمرت بعض الغلمان أن يحمله فحمله على عاتقه ، فلما مر الغلام بالموكَّل بالحبس سأله عن حمـله فاضطرب الغـلام فلحقته وقالت : إنه فراشٌ كنت أفرشه تحتى وعَرَكْتُ فيه[1]، وأنها خرجت لتتطهر وتعود، فصدّقها ولم يَمَسّ البساط ولم يَدْنُ منه استقذارا له على مذهبهم فى ذلك، فمضى الغلام به وخرجت أخته فى أثره، وهرب قباذ فلحق بأرض الهياطلة يستمد ملكها ليمده بجيش يحارب من خالفه، ويقال :
١٠ إن زواجه بأم كسرى أنو شروان كان فى هـذه السفرة لا فى تلك ، وأنه تزوجها بأَبْرَشَهْر[2]، وهى ابنـة رجل من عظمائها ، وأنه رجع به وبأمه عنـد عوده من بلاد الهياطلة . قال : وسار قباذ الى ملك الهياطلة فأقام عنده عدّة سـنين ، ثم عاد الى بلاده بأمداده ، فغلب على أخيه ونزعه من الملك بعد أن ملك ستّ سنين .

ثم عاد قباذ الى الملك ثانيـا ، ولمـا عاد الى الملك وجد ابن ساخورا قد وثب
١٥ فى جماعة من أصحابه على مَزْدَك فقتله ، فسُعِىَ به الى قباذ فقتله بمزدك . قال : ثم غزا الروم وافتتح آمد، ثم أدبر ملكه لسوء عقيدته . وهلك قباذ إثر ذلك .

٥٠/١٣ وكان سبب هلاكه أن الحارث بن عمرو الكندى قتل النعمان بن المنذر ابن امرئ القيس ، وملك العـرب وما كان ملكه النعمان ، فبعث قباذ بن فيروز

---

(١) عركت المرأة : حاضت .

٢٠ (٢) كذا فى تاريخ الطبرى ومعجم البلدان لياقوت وذكر أن شهر بالفارسية هو البلد، وأبر : الغيم، وما أراهم أرادوا إلا خصبه . وأبرشهر هى نيسابور . وفى الأصل : « بأرشهر » .

إلى الحارث بن عمرو يقول : إنه كان بيننا و بين الملك الذى كان قبلك عهدٌ، و إنى أحبّ لقاءك ، وخرج للقائه فى عَدَد وعُدّة ، وجاءه الحارث والتقيا بمكان ، فأمر قباذ بطبق من تمر فنُزِع نواه و بطبق آخر على حالته ، فوضعا بين أيديهما ، وجُعل المنزوع بين يدى قباذ ، والذى هو بنواه بين يدى الحارث ، فجعل الحارث يأكل التمر ويُلقِى النوى ، وقباذ يأكل التمر ولا يحتاج إلى إلقاء شىء . فقال للحارث : مالك لا تأكل كما آكل؟ فقال الحارث : إنما يأكل النوى إبلُنا وغنمنا ، وعلم أن قباذ يهزأ به . ثم آفترقا على الصلح على ألا يجاوز الحارث وأصحابه الفرات ، إلا أن الحارث استضعف قباذ وطمع فيه . فأمر أصحابه أن يعبروا الفرات و يغيروا على قرى السواد ففعلوا ذلك ، فجاء الصريخ الى قباذ وهو بالمدائن ، فكتب الى الحارث بن عمرو أن لصوصا من العرب قد أغاروا على السواد ، وأنه يحب لقاءه فلقيه ، فقال قباذ كالعاتب له : قد صنعتَ صنيعا ما صنعه أحد قبلك ، فطمع الحارث فيه من لين كلامه وقال : ما علمتُ بذلك ولا شعُرت به ، و إنى لا أستطيع ضبط لصوص العرب ، وما كل العرب تحت طاعتى ، ولا أتمكن منهم إلا بالمال والجنود . فقال له قباذ : فما الذى تريد ؟ قال : أريد أن تعطِيَنى من السواد ما أتخذ به سلاحا ، فأمر له بما يلى جانب العرب من أسفل الفرات ؛ وهو ستة طساسيج ؛ فعند ذلك زاد طمع العرب فيه ، وأرسل الحارث بن عمرو الى تُبَّع وهو باليمن : إنى قد طمِعت فى ملك الأعاجم ، وقد أخذت منه ستة طساسيج ، فآجمع الجنود وأقبل فإنه ليس دون ملكهم شىء ؛ لأن الملك عليهم لا يأكل اللحم ولا يستحل هراقة الدماء ، وله دين يمنعه من ضبط الملك ، فبادر إليه بجندك وعدّتك ، وأطمعه فى الفرس . فجمع تُبّع جنوده وسار حتى نزل الحيرة ، وقرب من الفرات ، فآذاه البق ، فأمر الحارث بن عمرو أن يُشق له نهر الحيرة فنزل عليه ، ووجه آبن أخته

شمِـرًا ذا الجنـاح إلى قُباذ فقاتله فهـزمه شمر حتى لحـق بالرىّ ، ثم أدركه بهـا فقتـــله .

وملك بعده ابنه كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز . ولمـا ملك استقبل الأمر بجدّ وسياسة وحزم . وكان جيّد الرأى، كثير النظر، صائب التدبير، طويل الفكر، فجدّد سيرة أردشير وعمِل بها، ونظر فى عهده وأخذ نفسه به، وأدّب رعيته وبطانته، وبحث عن سياسات الأمم فاستصلح لنفسه منها ما رضيه، ونظر فى تدابير أسلافه المستحسنة فاقتدى بها . وكان أوّل ما بدأ به أن أبطل مِلّة زرادشت الثانى الذى كان من أهل فَسَا، وأبطل ملة المزدكية وقتل على ذلك خلقا كثيرا، وسـفك من الدماء بسبب إبطال هذين المذهبين مالا يحصى كثرةً، وقتل قوما من المانَوِيَّة، وثبّت مـلة المجوسية القـديمة ، وكتب فى ذلك كتبا بليغـة الى أصحاب الولايات والأصبهبذين، وقوّى مُلك الفرس بعد ضعفه بإدامة النظر وهَجْر الملاذّ وترك اللهو، وقوّى جنوده بالأسلحة والأمتعة والكُرَاع[1] ، وعمّر البـلاد وحفظ الأموال وثمّرها، وسدّ الثغور واستعاد كثيرا من الأطراف التى غلب عليها الأمم .

قال : وأما تدبيره فى أمر المـزدكية وإبطال ما فعـلوه فإنه ضرب أعنـاق رؤسائهم، وقسّم أموالهم فى أهل الحاجة ، وقتل جماعة كثيرة ممن عَرَف من الذين كانوا يدخلون على النـاس فى بيوتهم ، ويشاركونهم فى أموالهم وأهاليهـم ، وردّ الأموال الى أربابهـا . وأمر بكل مولود اختُلِف فيه أن يُلحق بمن هو فى سيمائه، وأمر بكل امرأة غُلِب عليها أن يؤخذ الغالب عليها حتى يَغرَم لها مهر مثلها، ثم تُخيَّر المرأة بين الإقامة عنده وبين تزويج غيره؛ إلا أن يكون لها زوج أوّل فتُرَدّ اليه . وأمر بكل من أضرّ برجل فى ماله أو ظلمه أن يؤخذ منـه الحق، ويعاقب الظالم

(١) الكراع (بالضم) : اسم يجمع الخيل والسلاح .

بعد ذلك بقدر جرمه . وأمر بعيال ذوى الأحساب الذين مات قيِّمهم فكُتِبوا له
فأنكح بناتهم للأكفاء وجعل جهازهم من بيت المال ، وأنكح بنيهم من بيوتات
الأشراف وأغنيائهم . وأمرهم بملازمة بابه ليستعين بهم فى أعماله ، وخيّر نساء والده
أن يقمن مع نسائه فيواسَيْن ويصيّرن فى الأخرار، ويبتغى لهنّ الأكفاء من البعول،
ثم أمر بكرْى الأنهار وحفر القُنَى . وأمر بإعادة كل جسر قطع، أو قنطرة خَرِبت
أن تردّ الى أحسن ما كانت عليه ، وتخيّر الحكام والعمال وأمرهم أن يسيروا بسيرة
أردشير ووصاياه .

فلما آنتظمت له هذه الأمور وآستوثق له الملك ووَثِق بجنده سار نحو أنطاكية
فافتتحها، وأمر أن تصوّر له المدينة على هيئتها وذَرْعها وطرقها وعدّة منازلها،
وأن تُبنى له مدينة على صفتها الى جانب المدائن، فبنيت المدينة المعروفة بالرومية،
ثم نقل أهل أنطاكية اليها . فلما دخلوا باب المدينة مضى كل أهل بيت الى ما يشبه
منازلهم التى كانوا فيها بأنطاكية . وفتح مدينة هرقل ثم الإسكندرية، ثم أخذ نحو
الخَزَر، ثم الى الهياطلة فقتل ملكهم بفيروز، وصاهر خاقانَ ملك الترك، وتجاوز
بلخ وأنزل جنوده فَرْغانة، وبنى بابَ الأبواب . وقد ذكرناه فى المبانى القديمة[(١)] .

ولما بنى هذا السورَ هابته الملوك وراسلته وهادنته ؛ فورد عليه رسول ملك
الروم بهدايا فنظر الى إيوانه فرأى فى ميزانه اعوجاجا ، فقال : ما هذا الأعوجاج؟
فقيل له : إن عجوزا لها منزل فى جانب هذا الاعوجاج فأرادها الملك على بيعه
وأرغبها فى الثمن فأبت، فلم يُكرِهْها وبقى الاعوجاج على ما ترى . فقال الرومىّ : هذا
الأعوجاج أحسن من هذا الاستواء . وكتب إليه ملك الصين : من نقفور[(٢)] ملك

(١) راجع (ج ١ ص ٣٧٩ من هذه الطبعة) .
(٢) كذا فى الأصل : وفى مروج الذهب (ج ١ ص ١٢٨ طبع بلاق) : « يعبور » .

الصين ، صاحب قصر الدرّ والجوهر ، الذى يخرج من قصره نهران يسقيان العود والكافور ، والذى توجد رائحتــه على فرسخين ، والذى يخدِمه بنات ألف ملك ، والذى فى مَرْبِطه ألف فيل أبيض ، الى أخيه كسرى أنوشروان . وأهــدى إليه هدايا عظيمة . وكتب إليه ملك الهنــد : من ملك الهنــد وعظيم ملوك الشرق ، وصاحب قصر الذهب، وأبواب الياقوت والدرّ، الى أخيه كسرى أنوشروان ملكِ فارس ، صاحبِ التــاج والراية . وأهدى إليه هدايا ؛ منهــا ألف منّ(١) من العود يذوب على النار كالشمْع، ويختم عليه كما يختم على الشمع . وجامٌ من الياقوت الأحمر فتحته شبر مملوء درّا ، وعشرة أمنانٍ كافور كالفستق ، وجاريةٌ طولها سبعة أذرع تضرب أشــفارُ عينيها خدّيها ، وكأن بين أجفانها لمعان البرق مع إتقان شــكلها ، مقرونةُ الحاجبين ، لهــا ضفائر تجرها ؛ وفراشٌ من جلود الحيّات ألين من الحرير وأحسن من الوَشْيِ . وكان كتابه فى لِحَا(٢) الشجر المعروف بالكاذى مكتوبا بالذهب . وكتب إليه ملك التُّبّت : من ملك التبت ومشارقِ الأرض المتاخمة للصين والهند، الى أخيه كسرى المحمودِ السيرة والقدر ، ملكِ المملكة المتوسطة فى الأقاليم السبعة ، أنوشروان . وأهدى إليه أنواعا مما عُمِلَ من عجائب أرض تبت ، منها مائةُ جوشن ومائة ترس تُبَّتِيّة مذهبــة ، وأربعة آلاف مَنٍّ من المســك من نوافِجَ غزلانية . واستغاث به ابن ذى يَزَن يستصرخه على الحبشة فبعث معه قائدا من قوّاده . وسنورد ذلك إن شاء الله فى خبر سيف بن ذى يزن .

(١) المنّ : لغة فى المنا الذى يوزن به وهو رطلان . وجمعهما أمنان ، وأمناء .

(٢) اللحاء : ما على العصا من قشرها ، يمد و يقصر . والكاذى : نوع من النبات عجيب ، لحاؤه أرق من الورق الصينى تتكاتب فيه ملوك الصين والهند . وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين . (راجع مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٢٨ طبع بلاق) .

ولما استتبَّ له الأمر ووظّف الوظائفَ على الترك والخزر والهند والروم وغيرهم ، نظر فى الخراج وأبواب المال . وكانت رسوم الناس جارية على الثلث من البقاع ، ومن بعضها الربع والخمس والسدس على حسب العمارة . وكان قباذ أبوه قد مسح الأرض وهلَك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة ؛ فجمع أنوشروان أهل الرأى فاتفقوا على أن جعلوا على كل جَرِيب من الحنطة والشعير درهما ، وعلى الجريب من الكرم ثمانية دراهم ، وعلى الرِّطَاب تسعة دراهم ، وعلى كل أربع نَخَلات فارسية درهما ، وعلى كل ستّ نَخَلاتِ دَقَلٍ[1] مثل ذلك ، وعلى كل ستة أصول زيتون مثل ذلك ، ولم يضعوا إلا على نخل فى حديقة ، أو مجتمع غير شاذّ ، وتركوا فيما سوى ذلك من الغلّات السبع ، وألزموا النّاس الجزية ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهرابذة والكتّاب ، ومن كان فى خدمة الملك ، وصيروها على طبقات : اثنى عشر درهما ، وثمانية دراهم ، وستة دراهم ، وأربعة دراهم ، على قدر إكثار الرجل و إقلاله ، ولم يُلزموا الجزيةَ من كان أتى له من السنين دون العشرين أو فوق الخمسين ، ورفعوا هذه الوضائعَ الى كسرى فرضيَها وأمر بإمضائها وجباية مبلغها فى ثلاثة أنجم فى كل سنة ، وسماها ابراسيار . ومعنى ذلك الأمر المُتراضَى به .

وكان أنوشروان — لما أراد أن يضع هذه الوضائع — أمر بإتمام المساحة التى بدأ بها قباذ ، وأحصى النخل والزيتون وغير ذلك ، والجماجم ؛ ثم أمر الكتّاب فأخرجوا جُمَـلَ ذلك غير تفصيله ، وأذِنَ للناس إذنا عاما ، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليهم الجمل المستخرجة من أصناف الغلّات وعدد النخل والزيتون والجماجم ، فقرأ ذلك عليهم . ثم قال كسرى : إنا قد رأينا أن نضع على ما أُحْصِىَ من جِرْبان[2]

(١) نخلات دقل : الدقل (بالتحريك) أردأ التمر .

(٢) جربان : جمع جريب ، والجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع . وقيل : عشرة آلاف ذراع .

هذه المساحة وضائعَ ، ونأمرَ بإنجامها فى السنة ثلاثة أنجم ، ونجمعَ فى بيوت أموالنا من الأموال ما لو أتانا عن ثغر من الثغور أو طَرَف من الأطراف فتقٌ(١) أو ما نكرهه وآحتجنا الى تداركه أو حسمه بذلنا الأموال التى عندنا ولم نحتج الى استئناف جبايتها، فما الذى ترون فيما رأيناه من ذلك وأجمعنا عليه ؟ فلم يُشِرْ عليه أحد منهم بمشورة، ولا نطق بكلمة . فكرر كسرى عليهم القول ثلاثا، فقام رجل من عُرْضهم وقال : أتضع أيها الملك — عمرك الله — خالدا من هذا على الفانى؟ من كرم يموت، وزرع يَهيج، ونهر يَغيض، وعين أو قناة ينقطع ماؤها . فقال له كسرى : ياذا الكُلْفَة المشئوم ، من أىّ طبقات الناس أنت ؟ فقال : من الكُتّاب . فقال كسرى : اضربوه بالدُّوِىّ حتى يموت، فضربه الكُتّاب خاصة تبرؤًا منهم الى كسرى من رأيه، وما صدر من مقالته حتى قتلوه . وقال الناس : نحن راضون بما ألزمتنا أيها الملك به من خراج . ثم اجتمعت الآراء على وضع ماذكرناه من الوضائع، فاستقرّت على ذلك إلى أن جاء الإسلام ، وبها أخذ عمر رضى الله عنه لما فتحت بلاد فارس .

ذكر قطعة من سِيَر كسرى أنوشروان وسياسته

قال الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم : إنه قرأ فيما كتبه أنوشروان من سيرة نفسه فى كتاب عَمِلَه فى سيرته وما ساس به مملكته : قال كسرى : كنت يوما جالسا بالدَّسْكَرة وأنا سائر الى همَذان لتصيف هناك ، وقد أُعدّ الطعام للرسل الذين بالباب من قِبَل خاقان والهياطلة والصين وقيصر ونقفور ، ودخل رجل من الأساورة مخترطا سيفه حتى وصل الى السِّتر فى ثلاثة أماكن ، وأراد الدخولَ حيث نحن والوثوبَ علينا، فأشار علىّ بعض خدمى

(١) فتق بين القوم تَرَشَّق عصاهم فرجعت الحرب بينهم .

أن أخرجَ إليه بسيفى ، فعلمت أنه إن كان إنما هو رجل واحد فسوف يحال بيننا وبينه ، وإن كانوا جماعة فإنّ سيفى لا يغنى شيئا ؛ فلم أَخَف ولم أتحرك من مكانى ؛ وأخذه بعض الحرس فإذا هو رجل رازىٌّ من حشمنا وخاصّتنا ، فلم يَشكّوا أنّ على رأيه كثيرا من الناس ، فسألونى ألّا أجلسَ ولا أحضُر للشرب حتى يستبين الأمر ، فلم أُجبهم الى ذلك لئلّا ترى الرسُل منّى جُبْنًا ، فخرجت لِشَرْبِى[(١)] ، فلما فرغنا هدّدت الرازىَّ بالعقوبة وقطع اليمين ، وسألته أن يَصْدُقنى عن الذى حمله على ذلك ، وأنه إن صَدَقنى لم تنله عقوبة بعد ذلك ؛ فذكر أنّ قوما وضعوا من قِبَل أنفسهم كتبا وكلاما ، وذكروا أنه من عند الله ، أشاروا عليه بذلك وأخبروه أنى إن قتلته وإن قتلنى أدخِل الجنة . فلما فحصت عن ذلك وجدته حقّا ؛ فأمرت بتخلية الرازىّ وبردّ ما أخذ منه ، وتقدّمت بضرب رقاب أولئك الذين أشاروا عليه حتى لم أدع منهم أحدا .

وقال أنوشروان : إنى لما أحضرت القوم الذين اختلفوا فى الدين وجمعتهم للنظر فيما يقولونه ، بلغ من جرأتهم وخبثهم وقوّة شياطينهم أنْ لم يبالوا بالقتل والموت فى إظهار دينهم الخبيث ، حتى إنى سألت أفضلَهم رجلا على رءوس الناس عن استحلاله قتلى ، فقال : نعم ، استحلّ قتلك وقتل من لا يطاوعنا على ديننا ! فلم آمر بقتله حتى إذا حضر وقت الغداء أمرت أن يُحْبس الغداء وأرسلت اليه بطُرف الطعام ، وأمرت الرسول أن يبلّغه عنّى أنّ بقائى له أنفعُ مما ذكر ؛ فأجاب الرسولَ إنّ ذلك حقٌّ ، ولكن سألنى الملك أن أَصْدُقَه عن ذات نفسى ولا أكتمه شيئا مما أدين به ، وإنما أدين بما أخذته من مؤدّبى .

---

(١) الشرب (بفتح الشين المشدّدة) هنا : الجماعة يشربون الخمر .

قال أنو شروان: لمّا غدر بى قيصر وغزوته فذلّ وطلب الصلح وأنفذ إلىّ بمال وأقرّ بالخراج والفدية، تصدّقت على مساكين الروم وضعفائهم وضعفاء مزارعيهم مما بعث به قيصر بعشرة آلاف دينار، وذلك فيما وطئته من أرض الروم دون غيرها.

وقال: لمّا أمرت بتصفح أمر الرعية بنفسى ورفع البلاء والظلم عنهم وما ينوبهم من ثقل الخراج؛ فإنّ فيه مع الأجر تزيين [أهل][1] المملكة وغناهم وقدرة الوالى على أن يستخرج منهم إنْ هو آحتاج الى ذلك — وقد كان فى آبائنا من يرى أنّ وضع الخراج عنهم السنة والسنتين والتخفيف أحيانا ممّا يقوّيهم على عمارة أرضيهم — جمعت العمال ومن يؤدّى الخراج فرأيت من تخليطهم ما لم أر له حيلة إلا التعديلَ والمقاطعةَ على بلدة بلدة، وكورة كورة، ورُستاق رُستاق، وقرية قرية، ورجل رجل؛ فاستعملت عليهم أهل الثقة والأمانة فى نفسى، وجعلت فى كل بلد مع كل عامل أمناء يحفظون عليه، ووليت قاضىَ القضاة بكل كورة النظرَ فى أهل كورته، وأمرت أهل الخراج أن يرفعوا مايحتاجون الى رفعه إلينا الى القاضى الذى وليته أمرَ كُوَرِهم حتى لا يقدرَ العامل أن يزيد شيئا، وأن يؤدّوا الخراج بمشهد من القاضى، وأن تعطى به البراءة، وأن يرفع خراج من هلك منهم، ولا يزاد الخراج ممن لم يُدرِكْ من الأحداث، وأن يرفع القاضى وكاتبُ الكورة وكاتبُ أهل الكورة وكاتب أهل البلد والعامل محاسبتهم الى ديواننا وقت الكَتْب بذلك.

وقال: رفع الينا مُوبَذان مُوبَذ أنّ قوما سمّاهم من أهل الشرف، بعضهم بالباب كان شاهدا وبعضهم ببلاد أخر، دينهم مخالف لما رويناه عن نبينا وعلمائنا، وأنهم يتكلمون بدينهم سرًّا ويَدعون اليه الناس، وأن ذلك مَفسدةٌ للملك، وحيث

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

لا تقوم الرعيّة [إلا][1] على هوًى واحد، فيحرّمون جميعا ما يحرّم الملك، و يستحلّون مايستحلّ الملك فى دينه ؛ فإنّ ذلك إذا اجتمع للملك قوِىَ بجنده لأجل الموافقة بينهم و بين الملك، فآستظهر على قتال الأعداء ؛ فأحضرتُ أولئك المختلفين فى الأهواء ، وأمرتُ أن يخاصَموا حتى يقفوا على الحقّ و يُقِرّوا به، وأمرت أن يُقصَوْا عن مدينتى وعن بلادى ومملكتى، ويُتّبع كل من هو على هواهم فيُفعل به ذلك . ٥

وقال : إن الترك الذين فى ناحيــة الشمال كتبوا إلينا بما أصابهم من الحاجة ، وأنهم لايجدون بدّا — إن لم نعطهم شيئا — منّ أن يغزونا، وسألوا خصالا إحداها أن نتخــذهم فى جندنا ، ونُجرِىَ عليهم ما يعيشون به ، وأنْ نُعطيَهم من أرض الكَرَج[2] و بَلَنجَر[3] وتلك الناحيــة ما يعيشون به، فرأيت أن أسـير فى ذلك الطريق الى باب صُول[4]، وأحببت أن يَعرِفَ مَنْ قبلنا من الملوك هناك نشاطنا للأسفار وقوّتنا عليها ١٠ متى هممنا ، وأن يَرَوْا مَا رأوْا من هيبة الملوك وكثرة الجنود وتمــام العُــدّة وكمال السلاح مايقوَوْن به على أعدائهم، و يعرفون به قوّة مَنْ خلفهم إن هم آحتاجوا اليه، وأحببنا بمسيرنا أن نُجرىَ لهم على أيدينا الجوائز والحُمْلان[5]، والقربَ من المجالس واللطفَ فى الكلام ليزيدهم ذلك مودّة لنــا ورغبةً فينا، وحرصا على قتال أعدائنا ، وأحببت أيضا التعهدَ لحصونهم ، وأن أسأل أهل الخراج عن أمرهم فى مسيرنا . ١٥ ٥٤/١٣

فسرت فى طريق همذان وأذربيجان. فلمابلغت الى باب الصول ومدينة فيروز خسرو يمّمت تلك المدائنَ العتيقة، وتلك الحدود، وأمرت ببناء حصون أُخَر . فلمــا بلغ

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) الكرج : مدينة بين همذان وأصبهان فى نصف الطريق والى همذان أقرب . (٣) بلنجر : وراء مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب ، فتحها عبد الرحمن بن ربيعة وقال البلاذرى : سلمان بن ربيعة الباهلى . ٢٠

(٤) صول : مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب وهو الدربند .

(٥) الحملان (بالضم) : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة .

خاقانَ الخزَر نزولَنا هناك تخوّف أن نغزوه، فكتب أنه لم يزل — منذ ملكتُ — يحب موادّعتي، وأنه يرى الدخول فى طاعتي، ورأى بعض قوّاده — لمّا شاهد حاله — تركَه وأتانا فى ألفين من أصحابه، فقبلناه وأنزلناه فى تلك الناحية، وأجريت عليه وعلى أصحابه الرزق، وأمرت لهم بحصن هناك، وأمرت بمصلًّى لأهل ديننا، وجعلت فيه مُوبَذًا وقوماً نُسّاكاً، وأمرتهم أن يُعلموا من دخل من الترك فى طاعتنا ما فى طاعة الولاة من المنفعة العاجلة فى الدنيا، والثواب الآجل فى الأخرى، وأن يحثّوهم على المودّة والصحبة (١) والعدل والنصيحة ومجاهدة العدوّ، وأن يُعلّموا أحداثهم رأينا ومذهبنا، وأقمتُ لهم فى تلك التخوم (٢) الأسواقَ، وأصلحت طرقهم وقوّمت السكك. ونظرنا فيما اجتمع لنا هناك من الخيل والرجال فإذا هو بحيث لو كان بوسط فارس لكان منزلنا بها فاضلا.

وقال: فلما أتى لملكنا ثمانٍ وعشرون سنة جدّدتُ النظر فى أمر المملكة والعدلَ على الرعية، والنظرَ فى أمرهم، وإحصاءَ مظالمهم، وإنصافَهم. وأمرتُ مُوبَذَ كل ثغر ومدينة وبلد وجُنْد بإنهاء ذلك الىّ. وأمرتُ بعرض الجند، من كان منهم بالباب بمشهدٍ منّى، ومَن غاب فى الثغور والأطراف بمشهدٍ من القائد وبادوستان (٣) والقاضى وأمينٍ من قِبلَنا. وأمرت بجمع أهل كُوَر الخراج فى كل ناحية من مملكتى الى مصرها مع القائد وقاضى البلد والكاتب والأمين (٤). وسرّحتُ من

(١) فى الأصل: «الصحة» والسياق يقتضى ما أثبتناه.

(٢) فى الأصل: «طروسهم» وهو تحريف، والسياق يقتضى ما أثبتناه.

(٣) كذا فى الأصول. ولعلها «باذاستان» وهى كلمة فارسية مركبة من كلمتين باد (بالباء الفارسية) ومعناها الكورة وتخفف بحذف الألف، يريد حاكم الجهة (راجع القاموس الفارسى الانجليزى لاستنجاس ومقدّمة قاموس الأمكنة والبقاع للرحوم على بهجت بك).

(٤) كذا فى الأصول.

قِبَلى مَنْ عرفتُ صحبتَه وأمانته ونُسُكَه وعلمه، ومن جرَت ذلك منه الى كل مصر ومدينــة حيث أولئك العمالُ والغلمانُ وأهــلُ الأرض ليجمعوا بينهــم و بين أهل أراضيهم وبين وضيعهم وشريفهم، وأن يُرفع الأمرُ كلُّه على حقه وصدقه، فما نفذ لهم فيه أمر أو صحّ فيه القضاءُ فرضىَ به أهلُه فرَغوا منه هنالك، وما أَشكل عليهم رفعوه الىّ .

وبلغ اهتمامى بتفقّـد ذلك مالولا الذى أُدارِى من الأعداء والثغور لبـاشرت أمرَ الخراج والرعية بنفسى قـرية قريةً حتى أتعهدَها وأكلّم رجلا رجلا من أهل مملكتى؛ غير أنى تخوّفت أن يضيع بذلك السبب أمرٌ هو أعظم منــه ، الأمر الذى لا يُغنى فيه أحدٌ غنائى ولا يقـدِر على إحكامه غيرى، ولا يكفينيه كافٍ، مع الذى فى الشخوص الى قـريةٍ قريةٍ من المئونة على الرعيــة من جندنا ، ومَنْ لا نجـد بدّا من إخراجه معنا . وكرهنا أيضا إشخاصَهم إلينـا مع تخوّفنا أن يشتغل أهل الخراج عن عِمارة أراضيهم ، أو يكونَ فيهم من يدخُل عليــه من ذلك مئونة فى تكلُّف السير الى بابنا، وقد ضيّع قُرَاه وأنهاره وما لا يجد بدّا من تعهده فى السنة كلها فى أوقات العمارة، ففعلنا ذلك بهــم ووكّلنا مُوبَذان مُوبَذ[1] بذلك ، وكتبنا به الكتب وسرّحنا مَنْ وَثِقنا به ، ورجونا أن يجرى مجرانا وأشخصناه وقلّدناه ذلك .

قال : ولمـا أمّن الله جميعَ أهل مملكتنا من الأعداء فلم يبق منهم إلا نحو ألفى رجل من الديلم الذين عَسُر افتتاحُ حصونهـم لصعوبة الجبال عليها ، لم نجـد شيئا أنفع لمملكتنا من أن نفحص عن الرعيــة، وأولئك الأمناءِ الذين وصّيناهم بإنصاف أهــل الخراج . وكان بلغنا أن أولئك الأمنــاءَ لم يبالغوا على قدر رأينـا فى ذلك،

(١) موبذان موبذ : قاضى القضاة فى دولة الفرس قبل الإسلام . وقد بقيت وظيفة الموبذ (القاضى) الى أواخر الدولة العباسية ، للقيام بأمور المجوس الذين دخلوا فى الذمة .

فأمرت بالكتب الى قاضى كورةٍ كورةٍ أن يجمع أهلَ الكورة بغير علم عاملهم وأُولى أمرهم فيسألَهم عن مظالمهم وما استُخرِج منهم ، ويفحصَ عن ذلك بمجهود رأيه ويبالغَ فيه ، ويكتبَ حالَ رجلٍ رجلٍ منهم ويختِمَ عليه بخاتمه وخاتم الرضا من أهل تلك الكورة ، ويبعثَ به الىّ ويسرّحَ ممن يجتمع رأى أهل الكورة عليه بالرضا نفرا ، وإن أحبّوا أن يكون فيمن يُشَخَّصُ بعضُ سِفلتهم أيضا فعل ذلك .

٥

فلما حضروا جلست للناس وأذِنت لهم بمشهد من عظماء أرضنا وملوكهم وقضاتهم وأحرارهم وأشرافهم ، ونظرت فى تلك الكتب والمظالم ، فأيّة مظلمة كانت من العمال ومن وكلائنا ، أو من وكلاء أولادنا ونسائنا وأهل بيتنا حططناها عنهم بغير بينة ؛ لعلمنا بضعف أهل الخراج منهم ، وظلم أهل القوّة من السلطان لهم ، وأيّةُ مظلمة كانت لبعضهم من بعض ووَضَحت لنا ، أمرت بإنصافهم قبل البَراح ، وما أشكل وأوجب الفحصُ عنه شهودَ البلد وقاضيها سرّحت معه أمينا من الكتّاب ، وأمينا من فقهاء ديننا وأمينا ممن وثقنا به من خدمنا وحاشيتنا ، فأحكمت ذلك إحكاما وثيقا . ولم يجعل الله لذوى قرابتنا و رحمنا وخدمنا وحاشيتنا منزلة عندنا دون الحقّ والعدل ؛ فإن من شأن قرابة الملك وحاشيته أن يستطيلوا بعزّته وقوّته ، فإذا أهمل السلطان أمرَهم هَلَكَ من جاوره إلّا أن يكون فيهم متأدّب بأدب مَلِكه ، محافظ على دينه ، شفيق على رعيّته ، وأولئك قليل ؛ فدعانا الذى أطلعنا عليه من ظلم أولئك ألا نطلبَ البيّنةَ عليهم فيما ادُّعِيَ قِبَلهم . ولم نزل نردّ المظالم ، ولم نرِد أيضا ظلم أحد ممن كان عزيزا بنا ، منيعا بمكانه ومنزلته عندنا ، فإن الحق واسع للضعفاء والأقوياء والفقراء والأغنياء ؛ ولكنا لما أشكلت الأمور فى ذلك علينا كان الحَملُ على خواصّنا وخدمنا أحبَّ الينا من أن نحمل على ضعفاء الناس ومساكينهم ، وأهل الفاقة والحاجة منهم . وعلمنا أن أولئك الضعفاء لايقدرون على ظلم مَنْ حولنا . وعلمنا مع ذلك

١٠

١٥

٢٠

٥٥/١٣

أن الذين أعدينا[1] عليهم من خاصّتنا يرجعون من نعمتنا وكرامتنا الى ما لا يرجع اليه أولئك . ولعمرى إن خواصّنا الينا، وآثر خدَمنا فى أنفسنا الذين يحفظون سيرتنا فى الرعية، و يرحمون أهل الفاقة والمسكنة و ينصفونهم؛ فإنه قد ظلمنا مَنْ ظلمهم، وجار علينا مَنْ جار عليهم، وأراد تعطيل ذمتنا التى هى حرزُهم وملجأهم .

قال : ثم كَتَب الينا على رأس سبع وثلاثين سنة من ملكنا، أربعةُ أصناف من الترك من ناحية الخزر، ولكل صِنْف منهم ملك، يذكرون مادخل عليهم من الحاجة، وما لهم من الحظ فى عبوديتنا ، وسألوا أن نأذن لهم فى القدوم بأصحابهم لخدمتنا، والعمل لما نأمرهم به، وألا نحقد عليهم ما سلف منهم قبل مُلكنا ، وأن تُنزلهم منزلة سائر عبيدنا، فإنا سنرى فى كل ما نأمرهم به من قتال وغيره كأفضل ما نرى من أهل نصيحتنا، فرأيت فى قبولى إياهم عدة منافع، منها : جلَدهم و بأسُهم، ومنها : أنى تخوفت أن تحملهم الحاجة على إتيان قيصر أو بعض الملوك فيقووْا بهم علينا، وقد كان فيما سلف يستأجر منهم قيصر لقتال ملوك ناحيتنا بأغلى الأجرة . وكان لهم فى ذلك القتال بعضُ الشوكة بسبب أولئك الأتراك ؛ لأن الترك ليس عندهم لذةٌ للحياة، فهو الذى يجرئهم مع شقاء معايشهم على الموت؛ فكتبت اليهم إنّا نقبل من دخل فى طاعتنا ، ولا نبخل على أحد بما عندنا، وكتبت الى مَرزُبان[2] الباب آمره بأن يُدخلهم أوّلا أوّلا، فكتب الىّ إنه قد أتاه منهم خمسون ألفا بنسائهم وأولادهم وعيالهم . ولما بلغنى ذلك أحببت أن أقرّبهم الىّ ليعرفوا إحسانى إليهم، وأعظّمهم ليطمئنّوا الى قوّادنا، حتى إذا أردنا تسريحهم مع بعض قوّادنا كان كل واحد بصاحبه واثقا، فشخصنا الى أذربيجان، فلما نزلنها أذنت

(١) أعدينا عليهم : ظلمناهم .

(٢) المرزبان : الرئيس من الفرس .

لهم فى القدوم، وأتانى عنـد ذلك طرائف من هدايا قيصر، وأتانى رسول خاقان
الأكبر، ورسول صاحب الروم، ورسول صاحب خوارزم، ورسول ملك الهند،
والداور (١)، وكابل شاه (٢)، وصاحب سَرَنْديب (٣)، وصاحب كله (٤)، وكثير من الرسل، وتسعة
وعشرون ملكا فى يوم واحد، وانتهيت الى أولئـك الأتراك الثلاثة والخمسـين ألفا
فأمرت أن يُصَفُّوا هناك وركبت لذلك، فكان يومئـذ من أصحابى وممن قدم علىّ
وممن دخل فى طاعتى وعبوديّتى مَنْ لم يسعهم مَرْجٌ كان طوله عشرة فراسخ، فحمدتُ
الله كثيرا وأمرت أن يُصَفَّ أولئك الأتراك فى أهل بيوتاتهم على سبع مراتبَ،
ورأست عليهم منهـم، وأقطعتهم وكسوت أصحابهـم، وأجريت عليهم الأرزاق،
وأمرت لهم بالميـاه والأَرضين، وأسكنت بعضهم مع قائد لى باللان (٥)، وقسمتهم
فى كل ما احتجنا اليه من الثغور، وضممتهم الى المرزُبان؛ فلم أزل أرى من مناصحتهم
واجتهادهم فيما نوجههم له ما يسرنا فى جميع البلدان والثغور وغيرها .

(١) الداور : وأهل تلك الناحية يسمونها زمنداور، ومعناه أرض الداور، وهى ولاية واسعة ذات
بلدان وقرى مجاورة لولاية رخج وبست والغور . قال الاصطخرى : الداور : اسم إقليم خصيب، وهو
ثغر الغور من ناحية سجستان . ومدينة الداور، تل، ودرغور؛ وهما على نهر هندمند (راجع معجم البلدان لياقوت).

(٢) كابل وملكها يقال له الشاه : ولاية ذات مروج كبيرة بين هند وغزنة، وقيل : هى من ثغور
طخارستان . ولها من المدن : واذان، وخواش، وخشك، وخبر، وبها العود والنارجيل والزعفران
والأهليلج لأنها متاخمة للهند (راجع معجم البلدان لياقوت وتقويم البلدال لأبى الفدا) .

(٣) سرنديب : هى جزيرة سيلان الآن .

(٤) كله : فرضة بالهند وهى فى منتصف الطريق بين عمان والصين، يسكنها المسلمون والهند والفرس،
وبها معادن للرصاص ومنابت الخيزران وشجر الكافور (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا ومعجم البلدان لياقوت).

(٥) اللان : بلاد واسـعة فى طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخزر، والعامة يغلطون
فيهم فيقولون علان، وهم نصارى تجلب منهم عبيد أجلاد . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

٥٦
١٣

قال : وكتب الىّ خاقان الأكبر يعتذر الىّ من بعض غَدَراته و يسأل المراجعة والتجاوزّ ، وذكر فى كتابه و رسالتـه أن الذى حمـله على عداوتى وغزو أرضى مَنْ لم يُنْظَر له ، وناشدنى الله أن أتجاوز عنه ، وتوثّق لى بمـا أطمئنّ اليـه . وذكر أن قيصر قد أرسل اليـه وزعم أنه يستأذننى فى قبـول رسله ، وأنه لا يعمل فى قبول رسل أحد إلا بمـا آمره ، ولا يجاوز أمرى ، ولا يرغب فى الأموال ولا فى المودّات لأحد إلا برضائى ، وكان دَسِيسٌ(١) لى فى الترك يكاتبنى بندم خاقان وندم أصحابه على غدره وعداوته إياى ، فأجبته : إنى لعَمْرى ما أبالى إن طبيعة نفسـك وغريزتك غدرت بنا أم أطعتَ غيرك فى ذلك ، وما ذنبـك فى طاعة مَنْ أطعتَ فى ذلك إلا كِذْبتك فيما فعلتَه برأى نفسك ، وإنى قد استحققتُ أشد العقوبة . وكتبتُ أنى لا أظن شيئا من الوثيقة تفى لكم إلا وقد كنتَ ضيعتَه ، ولا أظن شيئا وثقت لنا به من قبل اليوم ثم غدرتم ، فكيف نطمئنّ اليك ونثق بقولك ؟ ولسنا نأمنك على مثل ما فعلت من الغدر ونقض العهد والكذب فى اليمين . وذكرتَ أن رسل قيصر عندك ، ووقفنا على استئذانك إيانا فيهم ؛ وإنى لست أنهاك عن مودّة أحد . وكرهت أن يرى أنى أتخوّف مصادقته وأهاب ذلك منـه ، وأحببت أن أعلمه أنى لا أبالى بشىء ممـا جرى بينهما . ثم سرحت لمرمة المدائن والحصون التى بخراسان وجمع الأطعمة والأعلاف اليها ما يحتاج اليـه الجند ، وأمرت أن يكونوا على اسـتعداد وحذر ، ولا يكون من غفلتهم ما كان فى المرة الأولى وهم على حال الصلح .

قال : وكان شـكرى لله تعالى لمـا وهب لى وأعطانى متصلا بنعمه الأول التى وهبها لى فى أوّل خلقه إياى ؛ فإنمـا الشكر والنِّعم عِدْلا كِفَّتى الميزان أيهما رجح بصاحبه احتاج الأخفّ الى أن يُزاد فيـه حتى يعادلَ صاحبه ، فإذا كانت النعم

(١) الدسيس : من تدسه ليأتيك بالأخبار (الجاسوس) .

كثيرة والشكر قليلا انقطع الحمل وهلك ظهرُ الحامل ، وإذا كان ذلك مستويا استمرّ الحامل . وكثيرُ النعم يحتاج صاحبها الى كثير الشكر ، وكثيرُ الشكر يجلب كثير النعم . ولما وجدت الشكر بعضه بالقول ، وبعضه بالعمل ، ونظرت فى أحبّ الأعمال الى الله وجدته الشيءَ الذى أقام به السموات والأرضَ ، وأرسى به الجبال ، ٥ وأجرى به الأنهار وبرأ به البريّة . وذلك الحقُّ والعدلُ فلزمتهما . ورأيت ثمرة الحقّ والعدل عمارة البلدان التى بهـا معايش الناس والدوابّ والطير وسكان الأرض .

ولما نظرت فى ذلك وجدت المقاتِلة أُجَراء أهل العمارة ، ووجدت أهل العمارة أجراء المقاتلة ، فإنهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكان البلدان لمدافعتهم عنهم ، ومجاهدتهم من ورائهم ، فحَقٌّ على أهل العمارة أن يوفّوهم أجورهم ؛ فإن ١٠ عمارتهم تتمّ بهم ، وإن أبطأوا عليهم بذلك أو هنوهم فقوى عدوّهم ؛ فرأيت من الحق على أهل الخراج ألا يكون لهم من عمارتهم إلا ما أقام معايشهم ، وعمروا به بلدانهم ، ورأيت ألا أجتاحهم وأستفرغَ ذات أيديهم للخزائن والمقاتلة ، فإنى إذا فعلت ذلك ظلمت المقاتلة مع ظلم أهل الخراج ؛ وذلك أنه إذا فسد[1] العامر فسد المعمور ، وكذلك أهل الأرض والأرض ، فإنه إذا لم يكن لأهل الخراج ١٥ ما يعيشهم ويعمرون به بلادهم هلكت المقاتلة الذين قوتهم بعمارة الأرض ؛ فلا عمارة للأرض إلا بفضل ما فى يد أهل الخراج ؛ فمن الإحسان الى المقاتلة والإكرام لهم أن أرفُق بأهل الخراج وأعمر بلادهم ، وأدع لهم فضلا فى معايشهم ؛ فأهل الأرض وذوو الخراج أيدى المقاتلة والجند وقوتُهم ، والمقاتلة أيضا أيدى أهل الخراج وقوتُهم .

ولقد ميزت ذلك بجهدى وطاقتى ، وفكرت فيه فما رأيت أن أفضّل هؤلاء ٢٠ على هؤلاء إذ وجدتهما كاليدين المتعاونتين والرجلين المترادفتين .

(١) فى الأصل : قصد ، والسياق يقتضى ما أثبتناه .

ولعمرى ما أعفى أهلَ الخراج من الظلم من أضرّ بالمقاتلة ، ولا كفّ الظلمُ عن المقاتلة مَنْ تعدّى على أهل الخراج . ولولا سفهاء الأساورة لأبقوا على أهل الخراج والبلاد إبقاء الرجل على ضيعته التى منها معيشته وحياته وقوته ، ولولا جهّال أهل الخراج لكفّوا عن أنفسهم بعض ما يحتاجون إليه من المعايش إيثارا للمقاتلة على أنفسهم .

٥٧/١٣ قال : ولما فرغنا من إصلاح العامة والخاصة بهذين الركنين من أهل الخراج والمقاتلة ٥ كان ذلك ثمرةَ العدل والحقّ الذى دبّر الله العظيمُ خلائقَه به ، وشكرت الله على نعمته والمقاتلةَ فى أداء حقه على مواهبه ، وأحكمنا أمر المقاتلة وأهلِ الخراج ببسط العدل ، وأقبلنا بعد ذلك على السِّيَرِ والسُّنَن ، ثم بدأنا بالأعظم فالأعظم من أمورنا ، والأكبرَ فالأكبر عائدا على جندنا ورعيتنا ، ونظرنا فى سِيَرِ آبائنا من لَدُنْ بستاسف الى مُلْكِ قُباذ أقربِ آبائنا . ثم لم نترك إصلاحا فى شىء من ذلك إلا أخذناه ، ولا فسادا ١٠ إلا أعرضنا عنه ، ولم يَدْعُنا حبُّ الآباء إلى قبول ما لا خير فيه من السنن ، ولكنّا آثرنا حبَّ الله وشكره وطاعته .

ولما فرغنا من النظر فى سير آبائنا وبدأنا بهم ، وكانوا أحق بذلك ، فلم نَدَعْ حقا إلا آثرناه ، ووجدنا الحق أقرب القرابة . نظرنا فى سير أهل الروم والهند فاصطفينا محمودها ، وجعلنا عيار[1] ذلك عقولنا ، وميزانه بأحلامنا ، فأخذنا من جميع ١٥ ذلك ما زيّن سلطاننا ، وجعلناه سنة وعادة ، ولم تنازعنا أنفسنا الى ما تميل به أهواؤنا ، وأعلمناهم ذلك وأخبرناهم به ، وكتبنا إليهم بما كرهنا لهم من السير ونهيناهم عنه وتقدّمنا إليهم فيه ؛ غير أنا لم نُكرِه أحدا على غير دينه وملّته ، ولم نحسُدهم ما قِبَلنا ، ولا منع ذلك انقباضٌ بعلم ما عندهم ، فإن الإقرار بمعرفة الحقّ

(١) عيار : العيار والمعيار ما جعل نظاما للشىء يقاس به ويسوى . ٢٠

والعلم والاتباع له من أعظم ما تزينت به الملوك . ومن أعظم المضرة على الملوك الأَنَفةُ من العلم والحميّة من طلبه ، ولا يكون عالمـا من لا يتعلّم :

ولمـا استقصيت ما عند هاتين الأمتين من حكمة التدبير والسياسة ، ووصلت بين مكارم أسلافى ، وما أحدثتُه بالرأى ، وأخذت به نفسى ، وقبلته عن الملوك الذين لم يكونوا منا ، وثبت على الأمر الذى نلت به الظفر والخير ، ورفضت سائر الأمم لأنى لم أجد عندهم رأيا ولا عقولا ولا أحلاما ، ووجدتهم أصحاب بَغْى وحَسَد وكَلَب وحرص وشحّ وسوء تدبير وجهالة ولؤم عهد وقلة مكافأة . وهذه أمور لا تصلح عليها ولاية ، ولا تتم لها نعمة .

قال ابن مسكويه : وقرأت مع هذه السير فى آخر هذا الكتاب الذى كتبه أنو شروان فى سيرة نفسه أن أنو شروان لمـا فرغ من أمور المملكة وهذبها جمع إليه الأساورة مع القوّاد والعظماء والمرازبة والنساك والموابذة وأماثل الناس معهم فخطبهم فقال :

ذكر خطبة أنو شروان

قال : أيها الناس ، أَحْضِرونى فهمَكم ، وأرعُونى أسماعَكم ، وناصحونى أنفسَكم ، فإنى لم أزل واضعا سيفى على عنقى منذ وَلِيتُ عليكم غرضا للسيوف والأسنة ، وكل ذلك للمدافعة عنكم ، والإبقاء عليكم ، و إصلاح بلادكم مرة بأقصى الشرق ، وتارة فى آخر المغرب ، وأخرى فى نهاية الجنوب ، ومثلها فى جانب الشمال ، ونقلت الذين اتهمتهم إلى غير بلادهم ، ووضعت الوضائع فى بلدان الترك ، وأقمت بيوت النيران بقسطنطنية ، ولم أزل أصعد جبلا شامخا وأنزل عنه ، وأطأ حزونه بعد سهوله ، وأصبر على المخمصة[1] والمخافة ، وأكابد البرد والحر ، وأركب هول البحر وخطر المفازة ؛

(١) المخمصة : خلاء البطن جوعا .

إرادة هذا الأمر الذى قد أتمه الله لكم : من الإثخان فى الأعداء، والتمكن فى البلاد، والسعة فى المعاش ، ودَرْك العز ، وبلوغ ما نلتم ؛ فقد أصبحتم بحمد الله ونعمته على الشرف الأعلى من النعمة ، والفضل الأكبر من الكرامة والأمن ، وقد هزم الله أعداءكم وقتلهم؛ فهم بين مقتول هالك، وحىّ مطيع لكم سامع؛ وقد بقى لكم عدوّ عددهم قليل، وبأسهم شديد، وشوكتهم عظيمة؛ وهؤلاء الذين بقَوْا أخوف عندى عليكم ، وأحرى أن يهزموكم ويغلبوكم من الذين غلبتموهم من أعدائكم ، وأصحاب السيوف والرماح والخيول ؛ وإن أنتم أيها الناس غلبتم عدوّكم هذا الباقى، غَلَبتكم لعدوّكم الذين قاتلتم وحاصرتم، فقد تمّ الظّفَر والنصر، وتمّت فيكم القوّة، وتمّ بكم العزّ ، وتمّت عليكم النعمة، وتمّ لكم الفضل، وتمّ لكم الاجتماع والألفة والصحة والسلامة؛ وإن أنتم قصّرتم ووهنتم ، وظفِرَ هذا العدوّ بكم فأين الظّفَر الذى كان منكم ، فاطلبوا أن تقتلوا من هذا العدوّ الباقى مثل ما قتلتم من ذلك العدوّ الماضى؛ وليكن جِدّكم فى هذا واجتهادكم واحتشادكم أكبرَ وأجلّ وأحزم وأعزم وأصح وأشدّ، فإن أحقّ الأعداء بالاستعداد له أعظمُهم مكيدة، وأشدهم شوكة، وليس الذى كنتم تخافون من عدوّكم الذى قاتلتم بقريب من هؤلاء الذين آمركم بقتالهم الآن؛ فاطلبوه وصلوا ظفرا بظفر ، ونصرا بنصر ، وقوّة بقوّة ، وتأييدا بتأييد ، وعزما بحزم وعزم، وجهادا بجهاد؛ فإن بذلك اجتماعَ إصلاحكم، وتمامَ النعمة عليكم، والزيادة فى الكرامة من الله لكم ، والفوزَ برضوانه فى الآخرة .

ثم اعلموا أن عدوّكم من الترك والروم والهند وسائر الأمم لم يكونوا ليبلغوا منكم — إن ظهروا عليكم وغلبوكم — مثل الذى يبلغ هذا العدوّ منكم إن غلبكم وظهر عليكم؛ فإن بأسَ هذا العدوّ أشدُّ ، وكيدَه أكبرُ، وأمرَه أخوف من ذلك العدوّ

يأيها الناس، إنى قد نَصِبْتُ[1] لكم كما رأيتم، ولقيتُ ما قد علمتم بالسيف والرمح والمفاوز والبحار والسهولة والجبال؛ أقارع عدوّا عدوّا ، وأكالب جندا جندا، وأكابد ملكا ملكا ، لم أتضرّع إليكم هذا التضرّع فى قتال أولئك الجنود والملوك، ولم أسألكم هذه المسألةَ فى طلب الجدّ منكم ، والاجتهادِ والاحتفالِ والاحتشادِ، وإنما فعلت هذا لعِظَم خطره ، وشدّة شوكته، ومخافةِ صولاته بكم. وإن أنا أيها الناس لم أَغلِبْ هذا العدوّ وأنفِه عنكم ، فقد أبقيت فيكمْ أكبرَ الأعداء ، ونفيت عنكم أضعفها، فأعينونى على نفى هذا العدوّ المَخُوف عليكم ، القريبِ الدار منكم؛ فأُنشِدكم اللهَ أيها الناس لمّا أعنتمونى عليه حتى أنفيَه عنكم، وأخرجَه من بين أظهركم فيتمّ بلائى عندكم، وبلاءُ الله فيكم عندى، وتتمّ النعمةُ علىّ وعليكم، والكرامةُ من الله لى ولكم، ويتمّ هذا العز والنصر، وهذا الشرفُ والتمكين، وهذه الثروة والمنزلة .

يأيها الناس ـ إنى تفكرت بعد فراغى من كتابى هذا، وما وصفتُ من نعمة الله علينا فى الأمر الذى لمّا غلب دارا الملوكَ والأممَ وقهرها، واستولى على بلادها، ولمّا تحكّم أمر هذا العدوّ؛ هلك وهلكت جنوده بعد السلامة والظَّفَر والنصر والغلبة؛ وذلك أنه لم يرض بالأمر الذى تمّ له به المُلك، واشتدّ به السلطان ، وقوى به على الأعداء، وتمّت عليه به النعمةُ، وفاضت عليه من وجوه الدنيا كلّها الكرامةُ، حتى احتال له بوجوه النميمة والبغى؛ فدعا البغى الحسدَ[2] فتقوّى به وتمكّن ، ودعا الحسدُ بغض أهل الفقر لأهل الغنى ، وأهل الخمول لأهل الشرف ؛ ثم أتاهم الإسكندر وهم على ذلك من تفرّق الأهواء ، واختلاف الأمور ، وظهور البغضاء

(١) نصبت : يقال نصب الرجل (بكسر الصاد) نصبا بفتحها : أعيا وتعب .

(٢) فى الأصول : فدعا البغى والحسد، ولعل هذه الواو مقحمة من الناسخ .

وقوّة العداوة فيما بينهم والفساد منهم . ثم آرتفع ذلك إلى أن قتله صاحب حرسه وأمينه على دمه، للذى شمل قلوب العامة من الشر والضغينة، ونبت فيها من العداوة والفُرقة ، وكفى الإسكندر مؤنة نفسه؛ وقد اتعظتُ بذلك اليوم وذكرتُه .

يأيها النـاس، فلا أسمعنّ فى هـذه النعمة تفرقا ولا بغيا ولا حسدا ظاهرا ، ولا وشاية ولا سعاية، فإن الله قد طهّر من ذلك أخلاقنا ومُلْكنا، وأكرم عنه ولايتنا، ٥ وما نلت ما نِلت بنعمة ربنا وحمده بشىء من الأمور الخبيثة التى نفتها العلمـاء ، ونافتها الحكماء؛ ولكن نلت هذه الرتبة بالصحة والسلامة، والحب للرعية، والوفاء والعدل والاستقامة والتؤدة . وإنما تركنا أن نأخذ عن هذه الأمم التى سميناها، أعنى من الترك والبربر والزنج والجبـال وغيرهم، مثل ما أخذنا عن الهند والروم لظهور هـذه الأخلاق فيهم وغلبتها عليهم . ولا تصلح أمة قط وملكها على ظهور هـذه ١٠ الأخلاق التى هى أعدى أعدائكم .

يأيها النـاس، إن فيما بسط الله علينا بالسلامة والعافيـة والاستصلاح غِنًى لنا عمـا نطلب بهـذه الأخلاق الرديئة المشئومة؛ فاكفونى فى ذلك أنفسكم، فإنّ قهر هذه الأعداء أحبُّ إلىّ وخير لكم من قهر أعدائكم من الترك والروم . فأما أنا أيها الناس فقد طِبتُ نفسا بترك هذه الأمور ومحقها وقمعها ونفيها عنكم . ١٥ ٥٩/١٣

يأيها الناس، إنى قد أحببت أن أنفىَ عدوّكم الظاهر والباطن ؛ فأما الظاهر منهما فإنّا بحمد الله ونعمته قد نفيناه وأعاننا الله عليه وحصد لنا شوكته ، وأحسنتم فيه وأجملتم وآسيتم وأجهدتم ، فآفعلوا فى هذا العدوّ كما فعلتم فى ذلك العدوّ، وآعملوا فيه كالذى عملتم فى ذلك، وآحفظوا عنّى ما أوصيكم به فإنى شفيق عليكم ناصح لكم .

أيهـا النـاس، من أحيا هذه الأمورَ فينا فقد أفسد بلاءه عندنا بقتاله مَنْ كان يقاتلنا من أعدائنا، فإن هذه أكثر مضرةً، وأشد شوكةً، وأعظم بليةً، وأضر تَبِعةً .

وآعلموا أن خيركم يأيها الناس من جمع إلى بلائه السالف عندنا المعونةَ لنا على نفسه في هذا الغابر . وآعلموا أن من غلبه هذا غلبه ذاك ، ومن غلب هذا فقد قهر ذاك ؛ وذلك أن بالسلامة والألفة والمودّة والاجتماع والتناصح منكم يكون العزّ والقدرة والسلطان ، ومع التحاسد والبَغْي والنميمة والسبِّ يكون ذهاب العز ، وآنقطاع القوّة وهلاك الدنيا والآخرة ؛ فعليكم بما أمرناكم به ، وآحذروا ما نهيناكم عنه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . عليكم بمواساة أهل الفاقة ، وضيافة السابلة[1] ، وأكرموا جوار من جاوركم ، وأحسنوا صحبة من دخل فيكم من الأمم ، فإنهم في ذمّتي ، ولا تَجْبَهوهم ولا تظلموهم ، ولا تَسَلَّطوا عليهم ، ولا تُحرجوهم ، فإن الإحراج يدعو إلى المعصية ، ولكن اصبِروا لهم على بعض الأذى ، واحفظوا أمانتكم وعهدكم ، واحفظوا ما عَهِدت إليكم من هذه الأخلاق ، فلا تَصلُحوا إلا معها ، وبالله تعالى ثقتنا في الأمور كلها . ثم هلك أنو شروان بعد ثمان وأربعين سنة من ملكه .

* * *

ثم ملك بعده آبنــه هرمز بن كسرى أنو شروان . وأمه قاقم بنة خاقان ملك الترك . وقيــل : بل ابنــة ملك من ملوك الخــزر . قال : وكان كثيرَ الأدب ، حسن السياسة ، جميل النية ، وافر الإحسان إلى الضعفاء والمساكين .

وكان من سيرته المرتضاة أنه يُجرى الخير والعدل على الرعية ، ويشدّد على العظماء المتسلطين على الضعفاء . وبلغ من عدله أنه كان يسير إلى المياه لِيَصيفَ هناك ، فأمر فنودِي في مســيره أن يُتحامى مواضعُ الحروث ، ولا يسيرُ فيها الراكب لئــلا يضروا بأحد ، ووكّل بتعهد ما يجرى في عسكره ، ومعاقبةِ من تعدّى أمره وتغريمه لصاحب

(١) السابلة هنا : المارون على الطريق المسلوك .

الحرث عوضا عما أفسده له . وكان آبنه كسرى أبرويز فى عسكره فغار مركَبٌ من مراكبه ووقع فى حرث كان على الطريق، فأفسد ما مرّ عليه ، فأُخذ ودفع إلى الرجل الموكل من جهة هرمز بمعاقبة من أفسد هو أو دوابُّه شيئا من الحرث، فلم يجسر الرجل الموكل من جهة هرمز أن ينفِّذ أمر هرمز فى آبنه أبرويز ، فرفع الأمر إلى هرمز فأمره أن يجدع أذنيه ، ويبتُرَ ذنَبَه ، ويغرّم كسرى أبرويز لصاحب الحرث ؛ فخرج الرجل لإنفاذ الأمر، فدس له كسرى رهطا من العظماء يسألونه التثبت فى الأمر ، فكلّموه فلم يُجِب إلى ذلك ، فسألوه تأخير [illegible]ذ الأمر فى المركَبِ حتى يكلموا هرمز ، ففعل ، ولقى أولئك الرهطُ هرمزا وأعلموه أن ذلك المركب الذى غار إنما غار زَعارةً[1]، وأنه أُخِذَ لوقته، وسألوه أن يأمر بالكف عن جدعه وبتره ، لما فى ذلك من سوء الطِّيرَة فلم يجبهم إلى ما سألوه ، وأمر بالمركب فجدعت أذناه وبتر ذنبه، وغَرِم كسرى كما يغرَم غيره من الجند ثم ارتحل .

قال : وركب ذات يوم فى أوان إيناع الكَرْم يريد ساباط المدائن[2]، وكان ممرُّه على بساتين وكروم ، فنظر بعض الأَساوِرَة إلى كرم فرأى حِصْرِما، فأصاب منه عناقيدَ ودفعها إلى غلامه وقال : اذهب بها إلى المنزلة وآطبخها بلحم وآصنع منها مرقة فإنها نافعة فى هذا الإبّان ، فأتاه حافظ ذلك الكرم فلزمه وصاح به ، فبلغ إشفاق الأُسوار من عقوبة هرمز أن دفع إلى حافظ الكرم مِنْطَقة محلّاةً بالذهب كانت فى وسطه ، وسأله أن يأخذها عوضا [illegible] أخذه من الحِصْرِم ، ولا يرفع الأمر إلى الملك .

(١) زعارة : شراسة وسوء خلق .

(٢) ساباط المدائن : مدينة فى جانب دجلة الغربى (راجع تقويم البلدان لأبى الفداء) .

فهذه كانت سيرته فى العدل ، وهذا كان خوف جنده وأساورته منه . وكان مظفّرا منصورا، وكان أديبا داهيا، إلا أنه كان مُقْصيًا للأشراف وأهلُ البيوتات والعلماء . وقيل : إنه قتل ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل منهم ، ولم يكن له رأى إلا فى تألف السُّفْلة وأسقاط الناس واستصلاحهم . وحبس خلقا كثيرا من العظماء ، وحطّ مراتب جماعة كبيرة، وقصّر بالأساورة ففسدت عليه نيات أكابر جنده وعظماء مملكته ، فكان عاقبة سوء هذا التدبير أن خرج عليه جماعة من الملوك منهم شابه [شاه] (١) ملك الترك فى ثلثمائة ألف مقاتل، وسار إلى باذَغيس (٢)، وذلك بعد مضىّ إحدى عشرة سنة من ملكه، وخرج عليه ملك الروم فى ثمانين ألف مقاتل، وخرج عليه ملك الخزر حتى سار إلى باب الأبواب، وخرج عليه من العرب خلق كثير، فنزلوا فى شاطئ الفرات وشنّوا الغارات على أهل السواد ، فاجترأ عليه أعداؤه وغزوا بلاده .

فأما شابه [شاه] (١) ملك الترك فإنه أرسل إلى هرمز وإلى عظماء مُلكه من الفرس يؤذنهم بإقباله فى جيوشه زُمَرًا زُمَرًا ، وأعلمهم أنه يريد غزو الروم ، ويسلك إليهم من بلادهم ، وأمرهم أن يعقدوا له قناطر على كل نهر يمر عليه فى بلادهم من الأنهار التى لا قناطر عليها ، وكذلك فى الأودية ، وأن يسهّلوا له الطرق والمسالك وقال : فإنى قد أجمعت على المسير إلى بلاد الروم من بلادكم ، فاستفظع هرمز ما ورد عليه من ذلك ، وجمع أكابر مملكته وعرض ذلك عليهم ، وشاورهم فيما يفعله ، فاجتمعت الآراء على قصد ملك الترك وحربه ، فندب إليه رجلا من أهل الرأى والنجدة يقال له بهرام جُوبين ، فاختار بهرام من العسكر اثنى عشر ألفا

(١) التكلة من غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٦٤٢) .
(٢) باذغيس : ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ .

من الكهول دون الشباب، وسار بهم حتى انتهى إلى هراة[1] و باذغيس، ولم يشعر شابه [شاه][2] ملك الترك ببهرام حتى وافاه ونزل بالقرب من معسكره، فكانت بينهما حروب كثيرة آخرها أن بهرام جوبين قتل شابه برمية رماه [بها][3] فاستباح عسكره، وأقام بهرام موضعه، فوافاه برموذة[4] بن شابه وكان يعدل بأبيه، فحارب فهزمه بهرام جوبين وحصره فى بعض الحصون، ثم ألح عليه حتى استسلم له، فوجهه أسيرا إلى هرمز، وغنم كنوزا عظيمة، فيقال إنه حمل إلى هرمز من الأموال والجواهر والأوانى وسائر الأمتعة وقر مائتى ألف وخمسين ألف بعير فى مدة تلك الأيام؛ فشكره هرمز على ذلك، وأمره أن يتقدم بمن معه إلى بلاد الترك فلم يره بهرام صوابا، ثم خاف سطوة هرمز.

وحكى له أن الملك يستقل ما حمله إليه من الغنائم فى جنب ما وصل إليه منها، وأنه يقول فى مجالسه قد ترفه بهرام واستطاب الدعة، و بلغ ذلك الجند فخافوا مثل خوفه. فيقال إن بهرام جمع ذات يوم وجوه عسكره وأجلسهم على مراتبهم ثم خرج عليهم فى زى النساء و بيده مغزل وقطن حتى جلس فى موضعه؛ وحمل إلى كل واحد من أولئك القوم مغزل وقطن ووضع بين أيديهم، فامتعضوا من ذلك وأنكروه وقالوا: ما هذا الزى! فقال بهرام: إن كتاب الملك ورد على بذلك ولا بد من امتثال أمره إن كنتم طائعين له، فأظهروا أنفة وحمية وأجمعوا كلهم على خلع

(١) هراة: مدينة عظيمة مشهورة بخراسان خربها الترك، وكانت فتحت فى أيام عثمان رضى الله عنه. (راجع تقويم البلدان لأبى الفداء).

(٢) التكملة من غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٦٤٢).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٩٩٣ من القسم الأول طبعة أوربا). وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٣٤٢ طبعة أوربا): «برموده بن شابه» وفى الأصول: «رموزة».

هرمز ، فخلعوه وأظهروا أن ابنه كسرى أبرويز أصلح للملك منه ، وساعدهم على ذلك خلق كثير ممن كان بحضرة هرمز .

ولما اتصل ذلك بهرمز أنفذ جيشا كثيفا مع بعض قوّاده لمحاربة بهرام جوبين ، فأشفق أبرويز من الحديث وخاف سطوة أبيه بهرام ، فهرب إلى أذربيجان ، فاجتمع إليه هناك عدّة من المرازبة ومن الأصبهبذين ، فأعطوه بيعتهم ولم يُظهر أبرويز شيئا ، وأقام بمكانه إلى أن بلغه قتل القائد الذى كان قد بعثه هرمز لمحاربة بهرام جوبين ، وهو أذبيحشيش ، وهزيمة الجيش الذى كان معه واضطراب أمر هرمز أبيه ، وكتبت أخت أذبيحشيش إلى كسرى أبرويز تخبره بضعف أبيه هرمز . وأعلمته أن العظماء والوجوه قد أجمعوا على خلعه ، وأن بهرام جوبين إن سبقه إلى المدائن احتوى على الملك . قال : ولم يلبث العظماء أن وثبت على هرمز وفيهم بندويه[1] و بسطام خالا أبرويز وخلعوه وسملوا عينيه ، وتركوه تحرّجا من قتله . فكان ملكه إلى أن خُلع وسُمِل اثنتى عشرة سنة .

⁂

ثم ملك بعده ابنه كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان . قال :

ولما ملك بادر بمن معه إلى المدائن وسبق إليها بهرام جوبين وتتوّج وجمع إليه الوجوه والأشراف ، وجلس على السرير ومنّاهم ، وأمرهم بالسمع والطاعة ، فاستبشر الناس به ودعَوْا له وأجابوه ودخلوا تحت طاعته . فلما كان فى اليوم الثانى أتى إلى أبيه فسجد له ، واعتذر وقال : إنك تعلم أيها الملك إنى برىء مما جناه إليك هؤلاء القوم الذين فعلوا بك ما فعلوا ، وإنما هربتُ خوفا منك وإشفاقا على نفسى ، فصدّقه هرمز وقال : يا بنىّ ! إن لى إليك حاجتين فأسعفنى بهما ، إحداهما : أن

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٢١٦٩ من القسم الأوّل طبعة أوربا) فى كلامه على السقاطية بكسكر: «ابنا خال كسرى بندويه و يترويه ابنا بسطام» .

تنتقم لى ممن عاون على خلعى وسَمَل عينىّ ولا تأخذك بهم رأفة ، والأخرى تُؤْنسنى كل يوم بثلاثة نفر ممن لهم أصالة رأى ، وتأذن لهم بالدخول إلىّ ؛ فتواضع له أبرويز وقال : عمرك الله أيها الملك ، إن المارِق بهرام قد أطلّنا(١) ومعه أهل الشجاعة والنجدة ، ولسنا نقدِر أن نمدّ يدا إلى من أتى إليك ما أتى ؛ فإنهم وجوه أصحابك ؛ ولكن إن أمكننى الله من المنافق فأنا خليفتك وطوع أمرك . ٥

قال : وأما بهرام جوبين فإنه ورد إلى النهروان ، فخرج كسرى أبرويز إليه وواقفه بها وجعل النهر بينه وبينه ، ودار بينهما كلام كثير ، كل ذلك فى استصلاح بهرام ورجوعه إلى الطاعة ، وهو لا يُجيب إلى ذلك ولا يردّ إلا ما يسوء أبرويز حتى يئس منه وأجمع على حربه والتقَوْا واقتتلوا . وكان بينهما أخبار كثيرة وأحاديث طويلة آخرها أن أبرويز ضَعُفَ عنه بعد أن قتل بيده ثلاثة نفر من الأتراك ، ١٠ وكانوا من أشدهم وأعظمهم شجاعة ووَسامة ، وكانوا قد التزموا لبهرام بقتل أبرويز ، وتحمّل لهم بهرام على ذلك أموالا عظيمة .

قال : ثم رأى أبرويز من أصحابه فتورا فسار الى أبيه وشاوره فرأى المسير الى الروم ، وأحرز نساءه وشخَص فى عدّة يسيرة فيهم بِنْدَوَيْه وبسطام وكُرْدى أخو بهرام ؛ لأنه كان معاديا لأخيه ، شديد الطاعة والنصيحة لأبرويز . فلما خرجوا ١٥ من المدائن خاف القوم من بُهرام ، وأشفقوا أن يردّ هرمز الى الملك ، ويكاتب ملك الروم عن هرمز فى ردّهم فيتلفوا ؛ فذكروا ذلك لأبرويز واستأذنوه فى إتلاف هرمز فلم يُحِرْ جوابا ، فانصرف بِنْدَوَيْه وبسطام وطائفة معهما الى هرمز فخنقوه ثم رجعوا الى كسرى فقالوا : سر على خير طالع ، وأيمن طائر ، فحثّوا دوابّهم وساروا الى الفُرات فقطعوه ، وأخذوا طريق المفازة بدلالة رجل يقال له : خُرْشِيذان ٢٠

(١) أطلنا : أشرف علينا .

وساروا الى بعض الديارات التى فى أطراف العمارة ، فلما أوطنوه للراحة لحقتهم خيل بهرام جوبين ، فلما نذروا بهم أنبه بندويه أبرويز من نومه وقال له : احتل لنفسك فإن القوم قد طلبوك[1] ، فقال كسرى : ما عندى حيلة . فقال بندويه : إنى سأحتال لك بأن أبذل نفسى دونك؛ قال : وكيف ذلك؟ قال : تدفع لى ثوبك وزينتك لأعلو الدير وتنجو أنت ومن معك من وراء الدير ، فإن القوم إذا وصلوا ورأوا هيئتك علىّ اشتغلوا بى عن غيرى ، وطاولتهم حتى تفوتهم ، ففعل ذلك . وخرج أبرويز ومن معه ، ثم وافت خيل بهرام الدير وعليهم قائد لهم يقال له بهرام ابن سياوش فاطلع عليهم بندويه من فوق الدير وعليه زينة أبرويز وثيابه ، وأوهمهم أنه هو ، وسأله أن ينظره الى غد ليصير فى يده سلما ويسير به الى بهرام جوبين ، فامسك عنه وحفظ الدير ليلة كاملة بالحرس . فلما أصبح اطلع عليه فى بزّته وحليته وقال : إن علىّ وعلى أصحابى بقيةَ شغل من استعداد وصلوات وعبادات فامهلنا . ولم يزل يدافعه حتى مضى عامة النهار وأمعن أبرويز ، وعلم بندويه أنه قد فاتهم ، ففتح الباب حينئذ وأعلم بهرام سياوش بأمره ، فانصرف به الى بهرام جوبين فحبسه .

وأما بهرام جوبين فإنه دخل المدائن وجلس على سرير الملك ، وجمع العظماء فخطبهم وذمّ أبرويز ودار بينهم كلام ، فكان كلهم منصرفا عنه إلا أن بهرام تتوج وانقاد له الناس خوفا ، ثم إن بهرام بن سياوش واطأ بندويه على الفتك ببهرام جوبين ، فظهر بهرام على ذلك ، فقتل سياوش وأفلت بندويه ولحق بأذربيجان ، وسار أبرويز حتى أتى أنطاكية فكاتب ملك الروم منها ، وراسله بجميع من كان معه وسأله نصرته ، فأجابه الى ذلك وزوّجه ابنته مريم وحملها إليه ، وأمدّه بثياذوس أخيه ومعه ستون ألفا من المقاتلة ، عليهم رجل يقال له سرجس ، يتولى تدبير

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٩٩٨ من القسم الأول طبع أوربا) : « أطلوك » .

أمرهم، ورجل آخر من أبطال الروم، كان يعدّ بينهم بألف رجل، وسأله ترك الأتاوة التى كان أبوه ومَنْ قبله من ملوك الفرس يستأدونها من ملوك الروم إذا هو مَلَك، فأجابه الى ذلك، وفرح بالجيش الذى أمدّه به ملك الروم، واغتبط بهم وأراحهم خمسة أيام، ثم عرضهم وعرّف عليهم العرفاء وسار بهم حتى نزل من أذربيجان فى صحراء تدعى الدنق[1] فوافاه هناك بندويه ورجل من أصبهبذى الناحية ٥ يقال له موسيل فى أربعين ألف مقاتل، فانضمّوا إليه، ووافاه الناس بالخيل من أصبهان وفارس، وانتهى الى بهرام جوبين مكانه بصحراء الدنق، فشخص نحوه من المدائن، فجرت بينهما حروب شديدة قتل فيها الكمىّ الرومىّ بضربة ضربه بها بعض الفرس على رأسه فقدّ رأسه وبدنه، وعاد فرسه بنصف بدنه الباقى الى المعركة.

فلما رآه أبرويز استضحك، فعظم ذلك على الروم وعاتبوا أبرويز وقالوا له: هذا ١٠ جزاؤنا منك! يقتل كمِيّنا وواحد عصره فى طاعتك وبين يديك ونصحك ونصرتك وأنت تضحك لقتله! فاعتذر بأن قال: إنى والله ماضحكت لما تكرهون، ولقد شقّ علىّ أن فقدتُ مثله أكثر مما شقّ عليكم، ولكنى رأيتكم تستصغرون شأن جوبين وتُنكرون هربى منه، فذكرت ذلك من قولكم الآن وعلمت أنكم برؤيتكم هذه الضربة تعذروننى وتعلمون يقينا أن هربى إنما كان من أمثال هؤلاء القوم الذين هذا مبلغ ١٥ نكايتهم فى الأبطال. ويقال إن أبرويز حارب بهرام منفردا عن العسكر بأربعة عشر رجلا منهم كردى أخو جوبين وبندويه وبسطام حربا شديدا وصل فيها بعضهم الى بعض، وآخر الأمر إن أبرويز استظهر استظهارا يئس منه بهرام جوبين، وعلم

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٠٠ من القسم الأول طبع أوروبا) وفى الأصل وردت هكذا «الرق» بإهمال الحرف الذى قبل القاف. ونبه مصحح الطبرى بالهامش بأنها وردت فى بعض النسخ ٢٠ هكذا: «الرق، الريق، الدنق، الرتق».

أنه لا حيلة له فيه ولا قدرة عليــه ، فانحاز عنــه نحو خراسان، ثم سار الى الترك، وسار أبرويز الى المدائن بعد أن فرق فى الجنود من الروم أموالا عظيمة وصرفهم الى ملك الروم .

قال : ولبث بهرام جوبين فى الترك مكرما عند الملك حتى احتال عليه كسرى أبرويز بتوجيهه رجلا يقال له هرمز الى الترك بجوهر نفيس وغيره من الهدايا الى امرأة ملك الترك حتى دسّت لبهرام من قتله ؛ فاغتمّ خاقان لموته وأرسل إلى أخته كردية وامرأته يعلمهما بلوغ الحوادث ببهرام، وسأل كردية أخت بهرام أن يتزوجها وفارق امرأته خاتون بهذا السبب ، فأجابته كردية جوابا لينا، ثم ضمت إليهــا مَنْ كان مع أخيها بهرام من المقاتلة، وخرجت بهــم من بلاد الترك إلى حدود مملكة فارس، فأتبعها ملك الترك أخاه نطــرا[1] فى اثنى عشر ألف فارس . فيقال إن كردية قاتلت وقتلت نطرا بيــدها ، ومضت لوجهها حــتى بلغت حدود أرض فارس ، وكتبت إلى أخيها كردى فأخذ لهــا أمانا من أبرويز، فلما قدمت عليه اغتبط بها وتزوج بها أبرويز .

قال : ولم يزل أبرويز يلاطف ملك الروم الذى نصره وأمدّه و يهاديه إلى أن وثبت الروم عليه فى شىء أنكروه منه فقتلوه وملّكوا غيره، فبلغ ذلك أبرويز فتألم له وأوى إلى أبرويز ابن الملك المقتول، فتوجه أبرويز وملكه على الروم، ووجه معه جنودا كثيفة مع شهرياز فدوّخ بهم البلاد . وملك صاحب كسرى بيت المقدس وأخذ خشبة الصلب و بعث بها إلى كسرى ، وذلك فى أربع وعشرين سـنة من ملكه ، ثم احتــوى على مصر والاسكندرية وبلاد النــوبة، و بعث مفاتيح ثغــر الإسكندرية إلى كسرى فى سنة ثمان وعشرين من ملكه ، وقصد قسطنطينية فأناخ

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « بطرا » .

على ضفة الخليج الذى هو بالقرب منها وخيم هنالك، فأمره كسرى بخرب بلاد الروم غضبا على أهلها لما انتهكوا من ملكهم وانتقاما له، ومع ذلك لم يخضعوا لابن ملكهم المقتول ولا منحوه الطاعة، ولا مال اليه واحد منهم؛ غير أنهم قتلوا الملك الذى ملكوه عليهم بعد أبيه المسمى فوقا لما ظهر لهم من فجوره وسوء تدبيره؛ وملكوا عليهم رجلا يقال له هرقل. فلما رأى هرقل عظم ما فيه أهل بلاد الروم من تخريب جنود فارس بلادهم، وقتلهم مقاتلتهم، وسبيهم ذراريهم، واستباحتهم أموالهم تضرع إلى الله وأكثر الدعاء وابتهل. فيقال إنه رأى فى منامه رجلا ضخم الجثة رفيع المجلس قد دخل عليه، فدخل عليهما داخل فألقى ذلك الرجل عن مجلسه وقال لهرقل: إنى قد أسلمته فى يدك، فلم يقصص رؤياه تلك فى يقظته على أحد حتى توالت عليه أمثالها، فرأى فى بعض لياليه كأن رجلا دخل عليهما وبيده سلسلة طويلة فألقاها فى عنق صاحبه، أعنى صاحب المجلس الرفيع، ثم دفعه إليه وقال له: ها قد دفعت اليك كسرى برقبته.

فلما تتابعت هذه الأحلام قصها على عظماء الروم وذوى العلم منهم، فأشاروا عليه أن يغزوه. فاستعد هرقل واستخلف ابنه على مدينة قسطنطينية، وأخذ عن الطريق الذى فيه شهرياز صاحب كسرى وعدل الى غيرها، وسار حتى أوغل فى بلاد أرمينية ونزل نصيبين سنة. وكان صاحب ذلك الثغر من قبل كسرى استدعى لموجدة كانت من كسرى عليه. وأما شهرياز فقد كانت كتب كسرى ترد عليه فى الجثوم على الموضع الذى هو به وترك البراح، ثم بلغه أن هرقل قد أقام بجنوده

---

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٠٢ من القسم الأول): «شهربراز» وأشار مصححه بالهامش الى أنه ورد فى بعض المراجع: «شرمريران» و«شريريار».

بنصيبين، فوجه كسرى لمحاربة هرقل رجلا من قوّاده يقال له : راهزار[1] فى آثنى عشر ألف رجل من الأنجاد، وأمره أن يقيم بنينوى — وهى الموصل — على شاطئ دجلة ويمنع الروم أن يجوزوها . وكان كسرى بلغه خبرُ هرقل ، وهو يومئذ بدَسْكَرة[2] المُلْك، فنفذ الجيش لمنعه من جواز دجلة، فعسكروا حيث أمرهم كسرى، فقطع هرقل دجلة من موضع آخر الى الناحية التى فيها جنود فارس، فأذكى راهزار العيون عليه، فأخبروه أن هرقل فى سبعين ألف مقاتل، فأيقن راهزار ومن معه من الجند أنهم عاجزون عن مناهضته ، فكتب الى كسرى غير مرة أن هرقل قد دهمه بما لا طاقة له به ولا قبل من الجنود الكثيرة . كل ذلك يجيبه كسرى بأنه إن عجز عن الروم فلن يعجز عن استقبالهم ، وبَذْلِ دماء الفرس فى طاعته .

فلما تتابعت على راهزار أجوبة كسرى بذلك عبّا جنده وناهض الروم بهم ، فقتلت الروم راهزار وستة آلاف رجل من الفرس ، وانهزم بقيتهم وهربوا على وجوههم لا يلوون على شىء، وبلغ كسرى ذلك فانحاز من دسكرة المُلك الى المدائن، وتحصّن بها لعجزه عن محاربة هرقل ، وسار هرقل بجيوش الروم حتى كان قريبا من المدائن، فاستعدّ كسرى لقتاله، فلما بلغه ذلك آنصرف الى أرض الروم، وكتب كسرى الى قوّاد الجند الذين انهزموا يأمرهم أن يدلّوه على كل رجل انهزم منهم، ومن فشل فى تلك الحرب، ولم يرابط مركزه، وأمر بعقوبتهم بحسب ما استوجبوا، فأحوجهم بهذا الكتاب الى الخلاف عليه، وطلب الحيَل لنجاة أنفسهم منه، وكتب الى شهرياز يأمره بالقدوم عليه ويستعجله فى ذلك ويصف ما نال هرقل منه ومن بلاده .

(١) كذا فى تاريخ الطبرى، وكتب مصححه بهامشه : «راهزاذ» وفى الأصل : «زاهراده» .

(٢) الدسكرة : بناء شبه قصر حوله بيوت يكون للملك (المعرّب للجواليقى) .

وقد حكى أن كسرى عرِّف أن له آمرأة فى فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال فدعاها وقال : إنّى أريد أن أبعث الى الروم جيشا وأستعمل عليهم رَجُلا من بَنِيك فأشيرى علىّ أيّهم أستعمل، فوصفتْ له أولادُها فقالت : هــذا فَرُّخان أنفذ من سِنان، وهذا شَهْرَياز[1] أَحْكَمَ من كذا، وهذا فلان أَرْوَغُ من كذا، فآستعمل شَهْرَياز، فسار الى الروم فظهر عليهم وهزمهم وخرّب مدائنهم . ٥

فلمّا ظهرتْ فارس على الروم جلس فى بعض الأيام فَرُّخان يشرب ، فقال فَرُّخان لأصحابه : لقــد رأيتُ أنّى جالس على سرير كِسْرى، فبلغتْ كلمتُه كِسْرى، فكتب الى شَهْرَياز : اذا أتاك كتابى هذا فآبعث إلىّ برأس فَرُّخان ، فكتب اليه : أيها الملك ، إنك لن تجد مثــل فرّخان ، وإن له نكايةً فى العدوّ وصيتا فلا تفعل ، فكتب اليــه : إنّ فى رجال فارس خَلَفا منه ، فعجِّل إلىّ برأسه ، فراجعه فغضب ١٠ كسرى ولم يُجِبــه ، وبعث بَرِيدا الى أهل فارس : إنّى قــد نزعتُ عنكم شهرياز وآســتعملتُ فَرُّخان، فآنقاد له شهرياز وقال : سمعا وطــاعةً ، ونزل عن سريره وجلس عليــه فَرُّخان ، ثم دفع البريد صحيفةً صــغيرةً الى فرّخان كان كسرى قــد أعطاها له وقال له : اذا آنقاد شهرياز الى طــاعة فَرُّخان فآعط فَرُّخان هــذه الصحيفة ، فلمــا قرأها فرّخان قال : علىّ بشهرياز ! فأُتى به فقُدِّم ليضرب عنقه ١٥ فقال : لا تعجِّل علىّ حتى أكتب وصيّتى، ثم دعا بسَفَط وأخرج منه ثلاث صحائف، وهى التى كان كِسْرى أمر شَهْرَياز فيها بقتل فَرُّخان وقال له : كلّ هــذه راجعت كسرى فيها عنك، وأنت تريد أن تقتلنى بكتاب واحد؟ فردّ المُلْك[2] إلى أخيه وآعتذر

٦٤ / ١٣

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٠٧ من القسم الأوّل طبــع أوربا) : « شهربراز » وقد ورد فيه هذا الخبر . ٢٠

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « على » .

منه، فكتب شهرياز الى هِرَقْل ملك الروم : إنّ لى إليك حاجة لا تحملها البُرُد، ولا تُبلِّغها الصُّحُف، فالقِنى ولا تأتينى إلّا فى خمسين روميّا ، فإنّى أيضا ألقاك فى خمسين فارسيّا، فأقبل هِرَقْل فى خمسمائة [ألف][1] رومىّ، وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق ، وخاف أن يكون قد مُكِرَ به ، فأتته عيونه أنه ليس مع شَهْرياز إلا خمسين رجلا .

قال : ثم ٱلتقيَا وقد بُسِط لهما فى قُبّة من الدِّيباج ضُرِبت لهما، فٱجتمعا ومع كلّ واحد منهما سِكّين، ودعَوْا تُرْجُمانا يترجم لكلٍّ منهما عن قول الآخر، فقال شهرياز لهرقل : إنّ الذين خرّبوا مدينتك وبلغوا منك ومن جُنْدك ما بلغوا أنا وأخى بشجاعتنا وكَيْدنا، وإنّ كِسرى حَسَدَنا وأراد قَتْلَ أخى وكتب الىّ بقتله فأبيتُ، ثم أمر أخى أن يقتلنى وقد خلعناه جميعا ونحن نقاتله معك . قال : قد أصبتما ووفِّقتما ، ثم أشار أحدهما الى صاحبه : إنّ السرّ إنما يكون بين ٱثنين فإذا جاوز ٱثنين فشا، قال الآخر : نعم، فقاما جميعا الى الترجمان بسكّينَيْهما فقتلاه، وٱتفقا على قتال كسرى أبرويز .

ومما ٱتفق فى أيامه من الحوادث يوم ذى قار، وسنذكره — إن شاء الله تعالى — فى أيام العرب ووقائعها ، ولم نذكر فى هذا الموضع يوم ذى قار على سبيل الإيراد له بل على سبيل التنبيه عليه .

ذكر حيلة لأبرويز على ملك الروم

قال : كان أبرويز وجّه رجلا من جِلّة[2] أصحابه فى جيش جرّار الى بلاد الروم ، فنكأ[3] فيهم، وبلغ منهم، وفتح الشام ، وبلغ الدرب فى آثار الروم ، فعظُم أمرُه حتى خافه

(١) التكملة من تاريخ الطبرى .

(٢) الجلة (بالكسر) : العظام السادة ذوو الأخطار .

(٣) نكأ فى العدوّ : قتل فيهم وجرح وأثخن .

أبرويز، فكاتبه بكتابين ، يأمره فى أحدهما أن يستخلف على جيشه مَنْ يثق به ، ويُقبل إليه ، ويأمره فى الكتاب الآخر أن يُقيم بمكانه ، وأنه لما تدبّر أمره ، وأجال الرأى لم يرَ مَنْ يسُدّ مَسَدّه ، ولم يأمن الخلل إن غاب عن موضعه ، وأرسل بالكتابين رسولا من ثِقاته وقال له : أعطه الكتاب الأوّل بالأمر بالقدوم ، فإن أجاب الى ذلك فهو ما أردت ، وإن كَرِه وتثاقل عن الطاعة فاسكُت عليه أياما وأعلمه أن الكتاب الثانى ورد عليك وأوصله اليه ليقيم بموضعه . فخرج رسول كسرى حتى أتى صاحب الجيش ببلاد الشام فأوصل اليه الكتاب ، فلما قرأه قال : إمّا أن يكون كسرى قد تغيّر لى وكَرِه موضعى ، أو يكون قد اختلط عقلُه بصرف مثلى وأنا فى نَحْر العدوّ ؛ فدعا أصحابه وقرأ عليهم الكتاب فأنكروه . فلما كان بعد ثلاثة أيام أوصل اليه الكتاب الثانى بالمقام وأوهمه أنّ رسولا ورد به . فلمّا قرأه قال : هذا تخليط . ولم يقع منه موقعا ، ودسّ الى ملك الروم من باطنه فى إيقاع الصلح بينهما على أن يُخلِى الطريق لملك الروم حتى يدخل الى بلاد العراق على غِرّة من كِسْرى ، وعلى أنّ لملك الروم ما يغلب عليه من دون العراق ، وللفارسىّ ما وراء ذلك من بلاد فارس . فأجابه ملك الروم الى ذلك وتنحّى الفارسىّ عنه فى ناحية من الجزيرة ، وأخذ أفواه الطريق ، فلم يعلم كسرى حتى ورد خبر ملك الروم من ناحية قرقيسيا (١) ، وكسرى على غير استعداد ، وجُنده متفرّقون فى أعماله . فلما أتاه الخبر وثب عن سريره وقال : هذا وقت حيلة ومكيدة ، لا وقت شدّة ، وجعل ينكُث الأرض مليّا ، ثم دعا برَقّ فكتب فيه كتابا صغيرا بخطّ دقيق الى صاحبه بالجزيرة يقول فيه : قد علمتَ ما كنتَ أمرتُك به من مواصلة صاحب الروم وأطماعهم فى نفسك ، وتخلية الطريق حتى اذا تُولِج بلادنا أخذته من أمامه ، وأخذته ومَن ندبناه معك من خَلْفه فيكون فى ذلك

(١) قرقيسيا : مدينة بالجزيرة مصب نهر الخابور بالفرات .

بوارُه، وقد تمّ فى هذا الوقت مادبّرناه ، وميعادك فى الإيقاع به يوم كذا وكذا، ثم دعا راهبا فى دَيْر بجوار مدينته وقال له : أىّ جارٍ كنتُ لك، قال : أفضل جار، فقال : قد بدتْ لنا اليك حاجة، فقال الراهب : الملك أجلّ من أن يكون له إلىّ حاجة ، ولكن عندى بذل نفسى ، فما الذى يأمر به الملك ؟ قال كسرى : تحمل لى كتابا الى فلان صاحبى، قال نعم ، قال كسرى : ستمرّ بأصحابك النصارى فأخفه ؛ فلما ولّى عنه الراهب قال له كسرى : أعلمتَ ما فى الكتاب ؟ قال لا ، قال : فلا تحمله حتى تعلم ما فيه . فلما قرأه أدخله فى جيبه ثم مضى . فلما صار فى عسكر الروم ونظر إلى الصُّلبان والقِسّيسين وضَجِيجهم بالتقديس والصلوات آحترق قلب الراهب وأشفق عليهم وقال فى نفسه : أنا شرّ الناس إنْ حملتُ بيدى حَتْفَ النصرانية، وهلاك هؤلاء الخلق ؛ فصاح الراهب : أنا لم يُحملنى الملك كسرى رسالة ولا معى كتاب، فأخذوه فوجدوا الكتاب معه، وقد كان كسرى أيضا وجّه رسولا قبل ذلك وأمره أن يمرّ بعسكر الروم كأنه رسولٌ الى كسرى من صاحبه الذى وافق ملك الروم ومعه كتابٌ فيه : إنّ الملك كان قد أمرنى بمقاربة ملك الروم، وأن أخدعه وأُخلى له الطريق ، فيأخذه الملك من أمامه وآخذه أنا من خَلْفه ، وقد فعلتُ ذلك ، فرأى الملك فى إعلامى وقت خروجه اليه . فأخذ ملك الروم الرسول وقرأ الكتاب وقال : قد عجبتُ من أن يكون هذا الفارسىّ معى على كسرى، ووافاه كسرى أبرويز فيمن أمكنه من جُنده، فوجد ملك الروم قد ولّى هاربا فآتبعه يقتل ويأسر مَن أدرك ، وبلغ صاحب كسرى هزيمة الروم فأحبّ أن يُخلِىَ نفسه ويستر ذنبه . فلمّا فاته ما دبّر خرج خلف ملك الروم يقتل فيهم ويأسر ، فلم يسلم منهم إلّا القليل .

ذكر سبب هلاك أبرويز وقتله

قال : وكان سبب ذلك تجبّره وآحتقاره للعلماء وعُتُوّه ، وذلك أنه آستخفّ بما لا يستخفّ به الملك الحازم ، وكان قد جمع من المال ما لم يجمعه أحدٌ من الملوك ، وبلغتْ خيله الى قسطنطينية وأفريقية ، وكانت له آثنتا عشرة ألف آمرأة وجارية ، وألف فيل إلّا فيل واحد ، وخمسون ألف دابّة ، ومن الجواهر والأوانى والآلات ما يليق بذلك ، وأمر أن يُحصى ما جُبِيَ من بلاده وسائر أبواب المال سنة ثمانى عشرة من مُلْكه ، فرُفِعَ إليه أنّ الذى جُبِيَ فى تلك السنة من الخراج وسائر الأبواب كان ستمائة ألف ألف درهم ، وأمر أن يُحوَّل إلى بيت مالٍ بُنِيَ بمدينة طَيْسَفُون(١) من ضَرْب فَيْروز بن يَزْدَجِرْد وقُباذ بن فَيْروز آثنتى عشرة ألف بَدْرة من أنواع الجواهر وغير ذلك .

قال : فعتا وتجبّر وآستهان بالناس والأحرار ، وبلغ من جُرأته أنه رأى رجلا كان على حَرَس باب الخاصّة ، يقال له : زاذان فَرُّوخ ، فأمره أن يقتل كل مقيّد فى سجنٍ من سجونه ، فأحصَوْا مَن بالسجون من المقيّدين فبلغوا ستّة وثلاثين ألفا ، فلم يقدر زاذان فَرُّوخ على قتلهم ، وتوقّف عن إمضاء أمر كسْرى وأعدّ عِللا له فيما أمره به فيهم ، فكان هذا أحد الأسباب التى كسب بها كسرى عداوة أهل مملكته مع وجود آحتقاره إيّاهم ، وآستخفافه بهم ، وآطّراحه لعظمائهم . ومن ذلك أنه سلّط عِلْجا ، يقال له : فَرُّخان زاذ ، على الخراج فاستخرج بقاياهم منهم بعُنْف وعذاب . ومن ذلك أنه أجمع على قتل الفَلّ(٢) الذين آنصرفوا إليه من

(١) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة كسرى التى فيها الإيوان ، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ . وفى الأصل : « بطيسون » وتاريخ الطبرى : « طيسبون » .

(٢) الفل (بالفتح) : الجماعة .

قبل هرقل ، فأكدت هذه الأسباب بغضه ، وآستطال الناس مدته ، فكان نتيجة ذلك أن قوما من العظماء آنصرفوا إلى عقر بابل[1] ، وفيه شيرى[2] بن أبرويز مع إخوته . وقد كان كسرى أبرويز وكّل بهم مؤدّبين وأساورة ، يحولون بينهم وبين من يجتمع بهم من الناس ، ويمنعونهم من البراح ، فأخذه العظماء وأقبلوا به إلى مدينة بهرسير[3] ودخلوها ليلا ، فخلّى عمّن كان فى سجونها وأخرجهم ، وآجتمع إليه الفلّ الذين كانوا غلبوا وفرّوا من هرقل وأمر كسرى بقتلهم ، فنادوا : قباذ شاهنشاه ، وصاروا كلّهم عند الصباح إلى رحبة كسرى ، فهرب الحرس ، وآنحاز كسرى بنفسه إلى باغ[4] له بالقرب من قصره ، يعرف بباغ الهندوان[5] ، فارًّا مرعوبا ، فأخذ وحبس بمكان غير دار المملكة ، فى دار رجل يقال له : مارا سفنّد ، إلى أن قتل بعد حديث طويل ومراسلات كانت بينه وبين آبنه شيرى بمواطأة العظماء ، بعد تقريع عظيم ، وتوبيخ كثير ، على ما كان منه ، ومن سوء تدبيره ، وقبح فعاله ، وهو يجيبهم بأجوبة إقناعيّة ، وله مراسلاتٌ ووصايا كتبها إلى آبنه من السجن ، قد ذكرنا بعضها فيما سلف من هذا الكتاب . وكان هلاكه بعد ثمانٍ وثلاثين سنةً من ملكه . وبمضىّ آثنتين وثلاثين سنة وخمسةَ أشهر وخمسةَ عشرَ يوما من ملكه ، كانت هجرة سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة .

---

(١) عقر بابل : موضع قرب كربلاء من الكوفة .

(٢) هكذا يسميه العرب فى كتبهم ، والفرس يسمونه : « شيرويه » .

(٣) بهرسير : من نواحى سواد بغداد قرب المدائن . وقيل : هى إحدى المدائن السبع التى سميت بها المدائن .

(٤) ورد فى هامش نسخة ب حاشية نصها : « الباغ : البستان » .

(٥) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « باغ المنداران » .

قال : ولمّا قُبِض على كِسْرى خلّف فى بيت المال من الوَرِق(١) أربعمائة ألف بَدْرة سِوَى الكنوز والذخائر والجواهر والآلات .

وكان وزيرُه والقائمُ بتدبير دولته بُزُرْجِمْهر الحكيم . ولبُزُرْجِمْهر هذا قضايا وحِكَم ومواعظَ فى أيدى الناس. ويقال: إنّ بُزُرْجِمْهر هذا إنما كان وزيرا لكسرى أنو شِرْوان ، وهو الذى قتله . وذلك أنّ بُزُرْجِمْهر ترك المجوسيّة ورجع الى دين ٥ عيسى بن مريم عليه السلام ودان به ، فقتله كسرى لذلك . ويقال : إنه وُجِد فى مِنْطَقَته لمّا قُتِل كتابٌ فيه : إذا كان القَدَرُ حقًّا فالحِرْصُ باطلٌ ، وإذا كان الغَدْرُ فى الناس طباعا فالثِّقةُ بكلّ أحدٍ عَجْزٌ، وإذا كان الموتُ نازلا فالطُّمأنينةُ إلى الدنيا حُمْقٌ .

قالوا : ولمّا بلغ بُزُرْجِمْهر من العُمْر خمسَ عشرةَ سنةً دخل على كسرى ، ١٠ وقد جلستْ الوزراء على كَرَاسيها والمَرَازِبة(٢) فى مجالسها ، فوقف وحيّا الملِك بتحيّة الملوك ثم قال : الحمدُ لله المأمونِ نِعَمُه ، المَرْهوبِ نِقَمُه ، الدالّ عليه ، بالرغبة اليه ، المؤيِّد المُلْك ، بسعوده فى الفُلْك ، حتى رفَع شأنَه ، وعَظُم سلطانُه ، وأنار به البلاد ، وأنعش به العباد ، وقسّم به فى التقدير ، وجوه التدبير ، فرعى رعيّته بفضل نعمته ، وحَمَاها المو بِلات، وأوردها المُعْشِبات(٣) ، وذاد عنها الأكّالين ، ١٥ وألّفها بالرِّفْق واللين ، إنعاما من الله عليه ، وتثبيتا لما فى يديه . وأسأله أن يبارك له فيما آتاه ، ويخيِّر له فيما آسترعاه ، ويرفع قدرَه فى السماء ، ويسير ذكره على وجه الماء ، حتى لا يبقى له بينهما مناوى ، ولا يُوجَد له مساوى . وأستوهب الله له

(١) الورق : الدراهم المضروبة من الفضة .

(٢) المرازبة : رؤساء الفرس . ٢٠

(٣) الأصل : « ودادها » والسياق يقتضى ما أثبتناه .

حياةً لا يتنغّص فيها ، وقُدرة لا يَحيد أحدٌ عنها ، ومُلْكا لا بُؤْس فيه ، وعافيةً تُديم له البقاء ، وتُكثِر له النَّماء ، وعزّا يؤمّنه من انقلاب رعيّته ، أو هجوم بليّته ، فإنه مُؤتِى الخير ، ودافعُ الشرّ .

فلمّا سمعه كسرى أمر فحُشِىَ فمُه بنفيس الجواهر ، ولم تمنعه حداثةُ سنّه أن ٥ آستوزَره ، وقلّده خيرَه وشرَّه ؛ فكان أوّلَ داخل ، وآخرَ خارج . وكان أبوه خاملَ القَدْر ، وَضِيعَ الحال ، سَفِيهَ المنطق ، آسمه البَخْتَكان .

قال : ولمّا قُبِض على أَبرويز ملك بعده ابنه : قُبَاذ بن أبرويز ويُعرَف قُبَاذ بشيرويه . وقُبَاذ هذا هو القابضُ على أبيه والقاتلُ له ، وقتل سبعةَ عشرَ ٦٦/١٣ أخًا له ، وقيل ثمانيةَ عشرَ ، ذوى آدابٍ وشجاعة ؛ فكان عاقبةُ ذلك أنّ الله عزّ وجلّ ١٠ آبتلاه بالأسقام ، فآنتقض عليه بدنه ، ولم يلتذ بشئ من ملاذّ الدنيا ، وجَزِع بعد قتل إخوته جَزَعا شديدا ؛ وكان يبكى حتى يرمىَ التاج عن رأسه ، وعاش ما عاش مهموما حزينا مُدنَفا . وفى أيامه فشا الطاعون فأهلك أكثر الفُرْس . وكان مُلْكه ثمانيةَ أشهر ، وقيل أكثر من ذلك .

وملك بعد وفاته آبنه أَرْدَشِير بن شِيرَوَيْه وهو آبن سبع سنين ولم يوجد ١٥ من بيت الملك غيره .

قال : ولمّا ملّكته الفُرْس عليها حضنه رجلٌ يقال له : مِهَاذَرْجُشْنَس[1] ، فأحسن سياسة المُلْك . وكان شَهْرَبراز[2] المقيم بثغر الروم فى جُنْدٍ ضمّهم اليه كِسْرى أبرويز

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ، وفى الأصول : «مهادر حشيس» بالميم ، وفى موضع آخر : «بهادر حشيس» بالباء .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى ، وهو ماه إسفنذار . وفى الأصل : «شهر بران» .

وآبنه شيرَوَيْه ، وكانا يكتبان اليه ويستشيرانه فى الأمر الذى يهمهما ويعملان برأيه . فلمّا مات شيرَوَيْه وملّكتْ الفُرْس عليها أبنه أردشير — مع حداثة سنه — لم يشاوره عظماء الفرس فى ذلك ، فعظُم عليه آنفرادهم عنه ، وجعل ذلك ذنبا لهم ، وبسط يده وطمع فى المُلْك ، وآستهان بعظماء الفرس ، ودعا الناس لنفسه ، وأقبل بجُنده نحو المدائن ، فعمد مِهآذَرْ جُشْنَس الى مدينة طَيْسَبُون ، فحصّنها وحوّل أردشير ومَنْ بَقِىَ من نَسْل الملوك ونسائهم والأموال والخزائن والكُرَاع(١) وغير ذلك إليها ؛ فورد شَهْرَبَراز الى مدينة طَيْسَبُون وحاصرها ونصب عليها المجانيق ، فعجز عنها لحصانتها ، فأخذ فى أعمال المكايد والحِيَل ، فلم يزل يتلطّف برجل يقال له : بيوخسرو ويراسله هو وغيره ، حتى فتحوا له باب المدينة فدخلها ، وقتل جماعة من الرؤساء وآستصفى أموالهم وقتل أردشير بن شيرويه . وكان مُلْكه سنة ونصفا ، وقيل : إنما ملك نصف سنة ، وقيل : خمسة أشهر .

وملك بعده شَهْرَبَراز ، وقيل فيه : شَهْرِيار ، ولم يكن من أهل بيت المملكة .

قال : ولمّا جلس على سرير المُلْك ضرب عليه بطنه ، وبلغ من شدّة ذلك عليه أنه لم يقدر على إتيان الخلاء ، فدعا بالطست ، فوُضع أمام ذلك السرير ، ومدّ أمامه ما يستتر به ، وبقى يتبرّز فى ذلك الطست .

قال : ثم آمتعض رجلٌ يقال له : فُسْفَرّوخ(٢) [بن ماخُرْشيذان(٣)] وأخَوان له من قتل شَهْرَبَراز أردشير بن شيرويه وغلبته على المُلْك ، فتحالَفوا على قتله . وكان من السنّة إذا ركب الملك أن يقف له حرسه سِمَاطين عليهم الدروع والبِيض ،

(١) الكراع (بالضم) : يطلق على الخيل والبغال والحمير .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « اسفروج » .

(٣) التكملة من تاريخ الطبرى .

وبأيديهم السيوف والتِّراس[1] والرِّماح، فإذا حاذاهم الملك وضع كلّ واحدٍ منهم تُرْسه على قَرَبُوس سَرْجه، ثم يضع جبهته عليه كهيئة السجود .

قال : وآتفق ركوب شَهْرِبَراز فى بعض الأيام فوقف فُسْفَرُّوخ وأخواه وهم بالقُرْب من بعضهم بعضا، فلمّا حازاهم شهربراز طعنه فُسْفَرُّوخ، ثم طعنه أخواه فسقط عن دابّته، فشدّوا رجله بحبل وجرّوه إقبالا و إدبارا ساعةً، وساعدهم العظماء[2] على ذلك، وقتلوا جماعةً ممن كان قد ساعد شَهْرِبَراز على قتل أردشير . فكان مُلْكه أربعين يوما، وقيل عشرين يوما .

وملكتْ بعده بُوران بنت كسرى أبرويز ويقال لها : بوران دخت .

قال : فأحسنتِ السِّيرة وبسطتِ العدل، وأمرت برمّ القناطر والجسور، وإعادة ماتشعّث من العمارات، ووضعتْ بقايا الخَرَاج، وكتبت الى الناس عامّة كتبا تعلمهم ما هى عليه من الإحسان، وأنها ترجو أن يريهم الله من الرفاهية والآستقامة بمكانها، ومن العدل وحفظ الثغور ما يعلمون أنه ليس ببطش الرجال تُدوّخ البلاد، ولا ببأسهم تُستبَاح العساكر، ولا بمكائدهم ينال الظفَر وتُطفَأ النوائر؛ ولكنّ ذلك بالله عزّ وجلّ، وحُسْن النيّة وآستقامة التدبير . وأمرتْ بالمُناصحة وحُسْن الطاعة، وردّت خشبة الصليب على مَلِك الروم . وكان مُلْكها سنةً وأربعةَ أشهر .

ثم ملك رجلٌ يقال له : جُشْنَسْدِه وهو آبن عمّ أبرويز، وكان مُلْكه أقلّ من شهر، وقيل : إن الذى ملك يَزْدِجِرْد بن كسرى وهو طفل .

(١) التراس (بالكسر) : جمع تُرس، وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه .

(٢) فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٦٣ من القسم الأول طبع أوروبا) : « وساعدهم على قتله رجل من العظماء يقال له : زاذان فرّوخ بن شهرداران، ورجل يقال : له ماهياى، كان مؤدّب الأساورة، وكثير من العظماء ... الخ » .

ثم ملكتْ بعده آزَرْمِيدُخت بنت كسرى أبرويز، وكانت من أجمل نساء دهرها، وكان عظيم فارس يومئذ فَرُّخ هُرْمُز أصْبِهْبذ خراسان، فأرسل إليها يسألها أن تزوّجه نفسها، فأرسلت اليه : التزويج للملكة غير جائز، وقد علمتُ أن أُرِيَك فيما ذهبتَ اليــه قضاء حاجتك منّى، فصِرْ الىّ ليلة كذا وكذا، ففعل وركب اليها في تلك الليلة، وتقدّمت الى صاحب حرسها أن يرصده فى الليلة التى تواعدا للالتقاء فيها، فإذا رآه يقتله، فرصده صاحبُ الحرس، فلمّا جاء قتله وجرّ برجله وطرحه فى رحبة دار المُلْك .

فلمّا أصبح الناس ورأَوْه علموا أنه لم يُقتَل إلّا لأمر عظيم، ثم أمرتْ بتغييب جثته فغُيِّبت . وكان رُسْتَم بن فرّخ هُرْمُز هذا — وهو رُسْتَم صاحب القادسيّة — عظيم البأس، قويّاً فى نفسه، فلمّا بلغه ما صُنع بأبيه أقبل فى جُنْد عظيم حتى نزل المدائن، فقبض على آزَرْمِيدُخت وسَمَل عينيها وقتلها بعد ذلك . فكانت مدّة مُلْكها ستةَ أشهر .

واختُلف فيمَن ملك بعــد آزَرْمِيدُخت، فقيل رجل من عَقِب أردشير بن بابك كان ينزل الأهواز يقال له : كِسْرَى [بن] مِهْرجُشْنَس[1]، فلبس التاج وقتل بعــد أيام . ويقال : بل كان رجل يسكن مَيْسان يقال له فَيْروز، فملّكوه كُرْهاً . وكان ضخم الرأس، فلمّا تُوِّج قال : ما أضيقَ هذا التاج ! فتطيّر العلماء من افتتاح الأمر بالضيق وقتلوه . ثم أُتِىَ برجُل من أولاد كِسْرى كان قد لجأ الى موضع من الغرب بالقرب من نَصيبين، يقال له : «حصن الحجارة» حين قتَل شِيرَوَيْه بن كِسْرى أبرويز إخوته، وهو فَرُّخ زاذ[2] خُسْرو بن كِسْرى أبرويز، فانقاد الناس له طَوْعا زمانا

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصول : «كسرى بهرحشيش» .
(٢) كذا فى تاريخ الطبرى وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٧٣٧ طبع أوروبا) . وفى الأصول : «فرخ باذ» .

يسيرا ثم آستعصَوْا عليه وخالفوه . وكان مُلْكه ستةَ أشهر . وكان أهل اصطخر قد ظفروا بيَزْدَجِرْد بن شَهْريار بن أبرويز بآصطخر، وكان قد هرب إليها حين قتل شِيرَويه إخوته . فلمّا بلغ عظماء أهل اصطخر أنّ مَن بالمدائن خالفوا الملك فَرُّخ زاذ خُسْرَوْ أتَوْا يَزْدَجِرْد ببيت نار أردشير، فتوّجوه هناك وملّكوه وكان

٥ حَدَثا، ثم أقبلوا به الى المدائن وقتلوا فَرُّخ زاذ خُسْرَوْ بحيل احتالوها عليه .

وملك يَزْدَجِرْد بن شَهْريار بن كسرى أبرويز بن هُرمُز بن كِسْرى أنوشِرْان بن بَهْرام بن يزدجرد بن سابور بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك؛ فملك وكان العظماء والوزراء يدبّرون المُلْك لحداثة سنّه . وهو آخرُ الملوك الساسانيّة وعليه آنقرضتْ دولتهم، فلم تقُم لهم قائمة، وتردّد الى بلاد خراسان والى بلاد الترك،

١٠ وعاد فقُتِل بمَرْو من بلاد خراسان فى سنة إحدى وثلاثين من الهجرة لسبع سنين خلت من خلافة عثمان بن عفّان رضى الله عنه .

وكانت مدّة مُلْك يَزْدَجِرْد منذ ملك وإلى أن قُتِل عشرين سنةً ، إلّا أنّ فيها مدّة لا يعدّ فيها مع الملوك؛ لأنه كان مشرّدا طريدا على ما نذكر أخباره مفصّلة، وكيف فُتحتْ بلاده ومُدُنه بلدا بلدا ، ومدينةً مدينةً فى خلافة عمر بن الخطاب ٦٨/١٣

١٥ وعثمان بن عفّان رضى الله عنهما .

فعدّة ملوك الفرس الأُوَل والساسانيّة على هذا المساق الذى ذكرناه آثنان وخمسون ملكا منهم ثلاث نسوة . فالفرس الأُوَل عشرون ملكا منهم آمرأة واحدة . والملوك الساسانيّة آثنان وثلاثون ملكا فيهم آمرأتان . وذكر بعض المؤرّخين أنّ ملوك الفرس ستّون ملكا ، وأنّ مدّة مُلْكهم أربعة آلاف سنة

٢٠ وسبعون سنة وشهورا . والله أعلم .

ذكر أخبار ملوك اليونان وأنسابهم

قد تنازع الناس فى اليونانيّين، فذهبت طائفة منهم أنهم ينتمون الى الروم ويضافون الى ولد إسحاق؛ وقالت طائفة: إنّ يونان هو ابن يافث بن نوح. وقال آخرون: إنه يافث بن الأصغر. وذهب قوم الى أنهم من ولد أوراش بن[1] ماذان ابن سام بن نوح. وذهب آخرون الى أنهم من قبيل متقدّم فى الزمن الأوّل.

وقال المسعودىّ: وقد ذكر أنّ يونان أخو قحطان، وأنه من ولد عابر بن شالخ، وأن أمره فى الانفصال عن دار أخيه كان سبب[2] الشكّ فى الشركة فى النسب، وأنه خرج من أرض اليمن. وكان يونان جبّارا عظيما، وسيما جسيما. وكان جزل الرأى، كبير الهمّة، عظيم القدر. وهكذا ذكر يعقوب بن إسحاق الكندىّ فى نسب يونان أنه أخٌ[3] لقحطان، وردّ عليه أبو العباس [عبد الله بن محمد] الناشى فى قصيدته حيث قال:

أبا يوسفَ إنّى نظرتُ فلم أجد ... على الفحص رأيا صحّ منك ولا عقدا

وصرتَ حكيما عند قوم إذا امرؤٌ ... بلاهم جميعا لم يجد عندهم عهدا

أتقرنُ إلحادًا بدين محمد ... لقد جئت شيئا يا أخا كندةَ إدّا

وتخلط قحطانا بيونان ضلّةً ... لعمرى لقد باعدتَ بينهما جدّا

قيل: ولمّا كثُر ولد يونان خرج يطلب موضعا يسكنه، فأتى الى موضع من الغرب، فأقام به هو ومن معه من ولده، وكثُر نسلُه إلى أن أدركه الموت، فجعل

---

(١) فى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٣٧ طبع بلاق): «أوراس بن ياوران».

(٢) هذه عبارة المسعودى فى مروج الذهب (ج ١ ص ١٣٧ طبع بلاق) وعبارة الأصل: «وأن أمره كان فى الانفصال عن ديار أخيه قحطان وأنه ... الخ».

(٣) التكملة من السعودى.

وصيّته إلى الأكبر من ولده وآسمه جريبوش ، وأوصاه بأولاده ونسله ، ومات وبقى آبنه على مكانه ، وكثر نسلهم فغلبوا على بلاد الغرب من الفرنجة والنوكبرد والصقالبة وغيرهم .

وذكر بطليموس فى كتابه : أن أوّل ملك ملك من ملوك اليونانين فيلبّس وتفسيره محبّ الفرس ، وقيل آسمه نفليص ، وقيل فيلفوس . وكانت مدّة ملكه سبع سنين .

ثم ملك بعده آبنه الإسكندر ذو القرنين وليس هو صاحب الخضر رضى الله عنه . والإسكندر هذا هو الذى قتل دارا بن دارا ملك الفرس ، وتثرعقد مملكة فارس ، وقرّر ملوك الطوائف فيما ذكرناه .

١٠ وكان سبب قتله لدارا أن سائر الملوك كانت تؤدّى الإتاوة الى ملوك الفرس منذ دوّخ بختنصّر البلاد ، وذلّل لهم الملوك على ما ذكرناه آنفا فى أخبار الفرس ، ولا حاجة الى إعادته .

قالوا : وكان فيلبّس أبو الإسكندر قد صالح دارا على إتاوة يؤدّيها اليه فى كل سنة . فلمّا ولى الإسكندر وظهر أمره ، وكان بعيد الهمّة ، فآمتنع أن يؤدّى الى دارا ١٥ الخراج الذى كان يحمله أبوه اليه ، فأسخط دارا ذلك ، فكتب اليه يؤنّبه بسوء صنيعه بتركه حمل ما كان أبوه يحمله من الخراج وقال فى كتابه : إنما دعاك الى حبس ذلك الصّبا والجهل ، و بعث اليه بصولجان وكرة وبقفيز من السمسم . يعلمه بذلك أنه إنما ينبغى لك أن تلعب مع الصبيان بالصولجان ولا تتقلّد الملك ولا تلبث به ، ويعلمه أنه إن لم يقتصر على ما أمره به وتعاطى الملك بعد أن أمره بآعتزاله بعث ٢٠ اليه بمن يأتيه به فى وثاق ، وأنّ عدّة جنوده الذين يبعث بهم اليه كعدّة حبّ السمسم الذى بعث به إليه .

فكتب إليه الإسكندر فى جواب ذلك : أنه قد فهم ما كتب به ، ونظر الى ما أرسله إليـه من الصَّوْلجان والكُرَة وتيمّن به لإلقـاء الملقِى الكُرَة الى الصَّوْلجان وإحرازه إيّاها ، وأنه شبّه الأرض بالكرة ، وتفاءل بملكه إياهَا وٱحتوائه عليها ، وأنه يجترّ مُلْك دارا الى مُلْكه ، وبلاده الى حيِّزه ؛ وأنه نظر الى السمسم الذى بعث به كنظره الى الصولجان والكرة لدَسَمه ، وبُعْده عن المرارة والحَرَافة(١) ، وبعث الى دَارا مع كتابه بصُرّة من خَرْدل ، وأعلمه فى الجواب أنّ مابعث به إليه قليل ، غير أن ذلك مثل الذى بعث به فى القوّة والحَرَافة والمرارة ، وأنّ جنوده فيما وصف به منه .

فلمّا وصل الى دارا جـواب كتاب الإسكندر ، جمـع جُنْده وتأهّب لحربه وسار نحو بلاده ، وتأهّب الإسكندر أيضا للقائه وسار نحو دارا ، فٱلتقيا جميعـا بأرض الجزيرة(٢) وٱقتتلا سنة ، وقد كان دارا مَلَّه قومُه وأحبّوا الراحة منه ، فلحق كثير من وجوه الفرس بالإسكندر وأطلعوه على عَوْرة دارا وقوّوه عليه ، ثم وثَب على دارا حاجِباه فقتلاه وتقرّبا برأسه إلى الإسكندر ، فلما أتَوْه بها أمر بقتلهما وقال : هذا جزاء مَن تجرّأ على مَلِكه .

وقد ذُكِر أنه سِيق اليه أسيرٌ غَدَر به صاحبُ شُرْطته ، فقال له الإسكندر : بما ٱجـترأ عليك صاحبُ شُرْطتك ؟ قال : بتركى تَرهيبَه وقتَ إساءته ، وإعطائى إيّاه وقتَ الإحسان باليسير من فعـله نهايةَ رغبته ، فقال الإسكندر : نعم العَوْنُ على إصلاح القلوب الموغَرَةِ الترغيبُ بالأموال ، وأصلحُ منه الترهيبُ وقتَ الحاجة ، ثم أمر الإسكندر بقتله .

---

(١) الحرافة : طعم يحرق اللسان والفم .

(٢) المراد بأرض الجزيرة : بلاد الجزيرة الحالية التى عاصمتها بغداد . وقد سميت الوقعة التى ٱلتحم فيها الجيشان (سنة ٣٣١ ق . م) وقعة إربل لقرب ميدان الحرب من تلك المدينة (راجع تاريخ اليونان للمرحوم محمود فهمى ص ٢٤٣ طبع مصر) .

وقد قيل : إنه لمّا هزمه الإسكندر فرّ جريحا فخرج فى طلبه فى ستّة آلاف حتى أدركه ، ثم لم يلبث دارا أن هلك ، فأظهر الإسكندر عليه الحزن ودفنه فى مقابر الملوك[1] .

وقيل : إنّ الإسكندر كان قد نادى ألّا يُقتَل دارا وأن يُؤسَر . فلمّا علم الإسكندر بما تمّ على دارا سار حتى وقف عنده [فرآه يجود بنفسه][2] فنزل [الإسكندر][2] عن دابته وجلس عند رأسه ، وأخبره أنه ما أمر بقتله ، وأنّ الذى أصابه لم يكن عن رأيه . وقال : سَلْنى مابدا لك فإنّى أسعفك به ، فقال له دارا : لى اليك حاجتان : إحداهما أن تنتقم لى من الرجلَين اللذَين قتلانى وسمّاهما له ، والأخرى أن تتزوّج آبنتى روشنك ، فأجابه الى ذلك ، وأمر بصلب الرجلَين اللذَين فتكا بدارا . ويقال : إنّ الرجلَين اللذَين قتلاه إنما فعلا ذلك عن رأى الإسكندر ، وأنه كان شرط لهما شرطا على قتله ، فلمّا طعناه دفع اليهما ما كان شرطه لهما ثم قال : قد وفَّيتُ لكما بالشرط ولم تكونا شرطتما لأنفسكما وأنا قاتلكما لا محالة ، فإنه ليس ينبغى لقَتَلَة المَلِك أن يُستبقوا إلّا بذمّة لا تُخفَر ، فقتلهما وصلبهما .

---

(١) المعروف فى كتب التاريخ أنه بعد انتصار الاسكندر وآحتلاله مدينة بابل قرر الاسكندر متابعة الزحف جهة الشمال للقبض على دارا والقضاء على دولته ، فخرج دارا من قلب مملكته طريدا شريدا هائما على وجهه طالبا النجاة بنفسه والاسكندر لم يغمض عينا ولم يهدأ بالا مادام لم يقبض عليه . ذلك لعلمه بأنه قادر على المقاومة إما فى الشمال من هضبة إيران ، وإما فيا وراء جبال بار باميسادس فى سهول التركستان الفسيحة لأن سكان تلك الأقاليم الواقعة بين بحر قزوين و بحيرة آرال و بين نهرى سيحون وجيحون يعترفون لملك الفرس بالسيادة عليهم .

وبينا الاسكندر يقتفى أثره ، ويتتبع خطاه اذ علم بأن المرزبان فسوس قبض عليه وقتله بالقرب من هيكا تميل فحزن لذلك حزنا شديدا ، واحتفل بتشييع جنازته احتفالا مهيبا ، وتتبع القاتل حتى أدركه فيا بين النهرين وسلمه الى آل دارا فقتلوه شر قتلة . (راجع تاريخ اليونان ص ٢٤٤ — ٢٤٥) .

(٢) التكملة من تاريخ الطبرى (ص ٦٩٦ من القسم الأوّل طبع أوروبا) .

ويقال : إن الإسكندر فى الأيّام التى نازل فيها دارا كان يسير اليه بنفسه على أنه رسولٌ فيتوسّط العسكر ويعرف كثيرا مما يحتاج اليه ، فكان دارا يَستحسن سَمْتَه ، ويُحسن صِلَته ومجازاته ، ثم آتّهمه ، وأحسّ الإسكندر بذلك فما عاد اليه بعدها .

ذكر شيء من مكايد الإسكندر وحِيَله فى حروبه

من ذلك أنه لمّـا آلتقى بدارا يوم الحرب أمر مناديه فنادى : يامعشر الفرس ، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات ، فمن كان منكم على الوفاء فليعتزل عن العسكر وله منّا الوفاء بما ضمنّاه ، فآتهمت الفرس بعضها بعضا ، وكان ذلك أوّل آضطراب حدث فيهم .

ومن ذلك أنه لمّـا شَخَص عن فارس الى أرض الهند تلقاه ملكها قور (1) فى جمع عظيم من الهنود ومعه ألف فيل عليها المقاتلة بالسلاح وفى خراطيمها السيوف والعمد ، فلم تقف لها دوابّ الإسكندر وفرّت فكانت الهزيمة عليه ، فلمّـا بلغ الإسكندر مأمنه أمر بآتّخاذ فِيَلة من نحاس (2) مجوّفة وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها ، ثم أمر فمُلِئت نِفْطا وكبريتا ، وألبسها الدروع وجرت على العَجَل ، وعاود حرب الهند ، وجعل بين كلّ تمثالين جماعة من أصحابه . فلمّا نشبت الحرب أمر بإشعال النيران فى أجواف تلك التماثيل وآنكشف أصحابه عنها وغشيتها فيلة الهند ، فخرجت

٧٠
١٣

(١) كذا ورد فى هذا الكتاب (ج ١٤ ص ٣٢١ من هذه الطبعة) ومروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ٣٩ طبع بلاق) . وورد فى هذا الموضع فى نسخة (ا) باسم : « ذر » . وفى نسخة (ب) باسم : « فوز » . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٤١٦ طبع باريس سنة ١٩٠٠) : « فور » .

(٢) فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم . « فقدّم بصنعة تماثيل مجوّفة من النحاس والحديد تحكى صور الرجال » .

النيران من خراطيم التماثيل فولّت الفِيَلة مُدْبِرة ورجعت على أصحابها، فكانت الدائرة على الهند وقتل ملكهم فور .

ومما يُحكَى عنه أنه نزل على مدينة حصينة فتحصّن فيها أهلها ، فتعرّف خبرها فقيل له : إن فيها من المِـيرة مايكفيهم زمنا طويلا ، وإن بها من العيون والأنهار ما لا يقدر على قطعه، فارتحل عنها ودسّ جماعة من التّجار متنكّرين، فدخلوها وأمدّهم بالأموال الكثيرة، وأمرهم أن يبتاعوا الأقوات و يغالوا فى أثمانها، ففعلوا ذلك حتى حازوا أكثر مافيها. فلما علم الإسكندر بذلك كتب اليهم يأمرهم بإحراق ماحصلوه من الأقوات وأن يهربوا ، ففعلوا كما أمرهم ، وعاد الى المدينة وحاصرها وزحف عليها فأعطوه الطاعة وملك المدينة . وكان إذا أراد أن يحاصر مدينة شرّد مَن حولها من أهـل القرى وتهدّدهم بالسبي فيلجأوا الى المدينـة و يعتصموا بها ، فلا يزال كذلك حتى يعلم أنه قد دخلها أضعاف أهلها وأسرعوا فى المِيرة فيحاصرهم حينئذ فيفتتح المدينة .

ومما يُحكَى عنه أنه كتب الى معلّمه أرسطاطاليس (1) ، وكان الإسكندر يشاوره فى كثير من أموره ، و يقتدى بآرائه ، ويعمل بمـا يشير به عليه ولا يعدل عنه . وأرسطاطاليس هذا هو تلميذ أفلاطون ، وأفلاطون صاحب الفِراسة تلميذ سقراط .

---

(١) هو أعظم الحكماء الأقدمين و رأس الفلاسفة المعـروفين بالمشائين لأنه كان من عادته إلقاء الدروس على تلاميذه فى بستان وهو يتمشى ، ومن هنا سمى مشاء ، وسمى أتباعه بالمشائين . و يعرف بالمعلم الأوّل لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية ، وقد آختاره فيلبس أستاذا لآبنه الاسكندر وأرسل اليه خطابا يقول فيه : « إنى لا أهنىء نفسى بولادة آبنى بمقدار ما أهنئها بولادته فى أيامك » . وكان الاسكندر فى السـنة الثالثة عشرة من عمره . فعلمه وهذبه . وكان له منزلة ونفوذ عند فيلبس وآبنـه وأقام على ذلك سنين عديدة (راجع تاريخ اليونان للرحوم محمود فهمى)

ويُحكَى عن أفلاطون أنه كان يصوّر له صورة إنسان لم يره قطّ ولا عرفه فيقول: صاحب هـذه الصورة من أخلاقه كذا ، ومن هيئتـه كذا ، فيكون الرجل كما أخبر عنه ، فيقال: إنه صوّر له صورة نفسه ، فلمّا عاينها قال: هذا رجل محبّ فى الزنا فقيـل له : إنها صورتك، فقال : نعم أنا كذلك، ولولا أنى أملك نفسى لفعلت وإنى لمحبّ فيه .

* * *

نرجع إلى أخبار الإسكندر فيما كتب به الى أرسطاطاليس وما أجابه به قالوا: إنه كتب اليه يخبره أنّ فى عسكره من الروم جماعة من خاصّته لا يأمنهم على نفسه لمـا يرى من بُعْد هِمَمِهم فى شجاعتهم وكثرة آلتهم، وأنه لا يرى لهم عقولا تفى بتلك الفضائل التى تمنعهم من الإقدام والجُرأة عليـه، وأنه يكره الإقدام عليهم بالقتل بمجرّد الظّنّة مع وجوب الحُـرْمة .

فكتب إليه أرسطاطاليس : قـد فهمتُ كتابك ، وما وصفتَ به أصحابك . أمّا ما ذكرتَ من بُعْد هِمَمِهم فإنّ الوفاء من بُعْد الهمّة . وأمّا ما ذكرتَ من شجاعتهم ونَقْص عقولهم عنها ، فمن كانت هـذه حالُه فرفِّهه فى معيشـته وٱخصُصْه بحِسَان النساء ، فإنّ رفاهيَـة العيش تُوهِن العزْم ، وتحبب السـلامةَ، وتباعد من ركوب الخطَر والغَـرر[1] ، وليكن خُلُقك حسنا تخلص اليك النيّات ، ولا تتنـاول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساط إخوتك مثلَه، فليس ينبغى مع الآستئثار محبّـة ، ولا مع المواساة بغضة . وٱعلم أنّ المملوك إذا ٱشترُى لم يسأل عن مال مولاه ، وإنما يسأل عن خُلُقه .

---

(١) الغرر (محركة) : التعريض للهلكة .

وكتب اليه الإسكندر يُعلمه أنه شاهد بإيران شهر(١) رجالا ذوى أصالة فى الرأى، و جمال فى الوجوه ، ولهم مع ذلك صَرامةٌ وشجاعةٌ ، وأنه رأى لهم هيئات وخِلَقا لو كان عرف حقيقتها لما غزاهم ، وأنه إنما ملكهـم بحُسْن الاتفاق والبخت، وأنه لا يأمن إذا ظعن عنهم وُثُوبَهم ولا تسكُن نفسُه إلّا ببوارهم .

٥ فكتب إليه أرسطاطاليس : فهمتُ كتابك فى رجال فارس ؛ فأما قتلهم فهو من الفساد فى الأرض ، ولو قتلتهـم لأنبتَتْ أرضُ فارسَ أمثالَهم ، لأنّ إقليم بابل يُولد أمثـال هؤلاء الرجال من أهل العقـل ، والسداد فى الرأى ، والاعتـدال فى التركيب؛ فصاروا أعداءك وأعداءَ عَقِبك بالطبع ، لأنك تكون قد وترتَ القوم وكثَّرت الأحقاد على أرض الروم منهم وممّن بعدَهم ، وإخراجك إيّاهم فى عسكرك ١٠ مخاطرة بنفسك وأصحابك؛ ولكنّى أشير عليك برأى هو أبلغ لك فى كل ماتريد من القتل وغيره ، وهو أن تستدعىَ أولاد الملوك منهم وممّن يُستصلح للمُلْك و يُترشَّح له ، فتقلّدهم البـلدانَ وتولِّيهم الولايات ليصـير كلّ واحدٍ منهم ملكا برأسـه ، فتتفرّق كلمتهم، ويجتمعوا على الطاعة لك، ولا يؤدِّى بعضُهم إلى بعض طاعةً،ولا يتفقوا على أمرٍ واحد، ولا تجتمع كلمتُهم . ففعل الإسكندر ذلك، فتمّ أمرُه وأمكنه أن ١٥ يتجاوز أرضَ فارس إلى أرض الهند حتى قتل ملكَها مبارزةً بعد حروب عظيمة. ثم صار إلى أرض الصِّين وطاف ممـا يلى القُطْبَ الشمالىَّ ورجع إلى العراق فمـات فى طريقه بشَهْرزُور(٢)، و يقال : بل فى قرية من قُرَى بابل . وكان عمره ستّا وثلاثين

٧١/١٣

(١) إيران شهر : هى بلاد العـراق وفارس والجبال وخراسان يجمعها كلها هذا الاسم (راجع معجم البلدان لياقوت) .

٢٠ (٢) شهر زور : بلدة بين الموصل وبين همذان ، بناها زور بن الضحاك فقيل شهر زور ، ومعناه مدينة الضحاك (تقويم البلدان لأبى الفدا) .

سنة . وفى بعض النسخ ثلاثا وثلاثين سنة . وكان ملكه ثلاث عشرة سنة وشهورا، وقيل : سبعة عشر سنة . وقتل دارا فى السنة الثالثة من ملكه .

قال : وبنى الإسكندر اثنتى عشرة مدينة وسمّاها كلّها الإسكندرية منها : مدينة جىّ (١) بأصبهان ، وثلاث مدن بخراسان وهى : هراة (٢) ومرو (٣) وسمرقند . وبنى بأرض بابل مدينة لروشنك (٤) . وبنى بأرض يونان سبع مدن .

ومن عجيب ما قيل فى نسب الإسكندر : أنه من ولد دارا الأكبر ، وأنه أخو دارا الأصغر ، وذلك أن دارا الأكبر بن أردشير تزوج ببنت ملك الزّنج هلاى ، فلمّا حملت منه استخبث ريحها (٥) ، فأمر أن تحتال لذلك ، فكانت تغتسل بماء السندروس (٦) فأذهب ذلك كثيرا من دفرها (٧) ، ثم عافها وردّها [إلى أهلها (٨)] وقد علقت منه بالإسكندر فقيل له الإسكندروس . هذا ما نقله عبد الملك بن عبدون فى كتابه المترجم

(١) جىّ (بالفتح ثم التشديد) : اسم مدينة ناحية أصبهان القديم ، وهى الآن كالخراب منفردة ، وتسمى الآن عند العجم : شهرستان وعند المحدثين المدينة . وفيها مشهد الراشد بن المسترشد معروف يزار ، وهى على شاطىء نهر زندرود (راجع معجم البلدان لياقوت) وورد فى تاريخ الطبرى (ص ٧٠٢ من القسم الأول طبع أوربا) أنها بنيت على مثال الجنة .

(٢) هراة : كانت مدينة عظيمة مشهورة بخراسان خربها التتر ، فتحت فى زمان عثمان رضى الله عنه . (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا) .

(٣) هى مرو الشاهجان ، ومعناه روح الملك . وهى مدينة عظيمة مشهورة بالفواكه . وبينها وبين كل واحد من نيسابور ، وهراة ، وبلخ وبخارا ، مسيرة اثنى عشر يوما (راجع تقويم البلدان) .

(٤) هى روشنك بنت دارا .

(٥) فى شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٥ طبع أوربا) : «سمات اليه» .

(٦) السندروس : صمغ أصفر يشبه الكهرباء فى قوته إلا أنه أرخى منه وفيه شىء من مرارة ، وله عدة فوائد شرحها ابن البيطار فى مفرداته (راجع ج ٣ ص ٣٨) .

(٧) الدفر (بسكون الفاء وفتحها) : خبث الرائحة .

(٨) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون .

بكمامة الزهر وصدفة الدرّ[1]، قال : وآختلف فى مدّته فذكر الخوارزمىّ فى تاريخه أنه [كان][2] قبل الهجرة بتسعمائة سنة ، وثلاث وثلاثين سنة . وذكر أبو محمد ابن قتيبة فى كتاب المعارف : أن بينه و بين الهجرة أربعمائة سنة[3] . والله أعلم بالصواب .

٥

ذكر شىء من أخبار الإسكندر

وما آتفق له مع ملكَى الهند والصين

فأما خبره مع ملك الهند قال عبد الملك بن عبدون : إن الإسكندر لمّا دوّخ البلاد وقهر الملوك سار نحو الهند وقتل ملكها الأعظم فُورًا صاحب مدينة المانكير[4]. فلما دانت له ملوك الهند بلغه أنّ بأقاصى ديارها مَلِكا من ملوكها ذا حكمة وسياسة وإنصاف لرعيّته ، وأنه ليس فى بلاد الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله يقال له

١٠

(١) ويسمى هذا الكتاب أيضا : « كمامة الزهر وفريدة الدهر » ويسمى أيضا : « شرح البسامة بأطواق الحمامة » وهو شرح للعلامة أبى مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمى السبتى من أدباء النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ، على القصيدة الرائيّة المسماة بالبسامة بأطواق الحمامة المنسوبة للوزير أبى محمد عبد المجيد بن عبدون الفهرى ، وزير بنى مسلمة ، المعروفين بنى الأفطس بالأندلس ، المتوفى سنة ٥٢٠ ه التى رثى بها ملوك بنى الأفطس ، وذكر فيها من أباده الحدثان من ملوك كل زمان ، وضمنها حكما ومواعظ وأخلاقا أدبية . وأوّل القصيدة :

١٥

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

وقد طبع هذا الكتاب بمدنية ليدن سنة ١٨٤٦ م وعنى بتصحيحه المسيو رينحرت دوزى . و يعرف بشرح قصيدة آبن عبدون .

(٢) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون .

٢٠

(٣) فى كتاب المعارف لآبن قتيبة (ص ٢٨ طبع أوروبا) مانصه : « وكان بين الاسكندروس و بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نحو من تسعمائة سنة » وهو يخالف ماذكره المؤلف .

(٤) هذه المدينة يقال لها بلهر باسم ملك من ملوك الهند يقال له بلهر وكان يقيم فيها (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٤٤ طبع أوروبا) .

كند كان، وأنه قاهر لنفسه مانع [لها][(١)] من الشهوة الغضبية، فكتب إليه الإسكندر كتابا يقول فيه : أما بعد ، فإذا أتاك كتابى هذا فإن كنت قائما فلا تقعد ، وإن كنت ماشيا فلا تلتفت حتى تدخل فى طاعتى، وإلّا مزّقتُ مُلْكك وألحقتُك بمن مضى من ملوك الهند من قبلك .

فلمّا ورد عليه الكتاب أجاب بأحسن جواب، وخاطبه بملك الملوك، وأعلمه ٥ أنه قد اجتمع عنده أشياء لم تجتمع عند غيره مثلها : فمن ذلك ابنةٌ له لم تطلُع الشمس على أحسن منها ؛ وفيلسوفٌ يخبرك بمرادك قبل أن تسأله لحدّة مزاجه وحسن قريحته ، واعتداله فى بِنْيته ، واتساعه فى علمه؛ وطبيبٌ لا يُخْشى عليه معه داء ولا شيءٌ من العوارض إلا ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البِنْية ، وحلّ العقدة التى عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسّىّ ، وإذا كانت بِنْية الإنسان وهيكلُه قد نُصِبا فى هذا العالَم غرضا للآفات والحتوف والبلايا؛ وقدحٌ اذا ملأته شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقص منه شىء ، وإنّى منفذ جميع ذلك الى الملك وصائر اليه .

فلمّا قرأ الإسكندر كتابه قال : كون هذه الأشياء عندى ونجاة هذا الحكيم من صَوْلتى أحبّ الىّ من ألا تكون عندى ويهلك . فأنفذ اليه الإسكندر جماعة من ١٥ الحكماء اليونانيين والروم فى عدّة من الرجال وتقدّم اليهم أنه إن كان قد صدق فيما كتب به إلىّ فآحملوا ذلك الى عندى واتركوه فى موضعه، وإن تبيّنتم الأمر على خلاف ذلك، وأنه أخبر عن الشىء على خلاف ماهو به فقد خرج عن حدّ الحكمة فأشخصوه الىّ . فلمّا انتهَوْا الى مملكة الملك خرج اليهم وتلقّاهم بأحسن لقاء، وأنزلهم بأحسن منزل . فلما كان فى اليوم الثالث جلس لهم مجلسا خاصّا للحكماء دون من كان معهم من المقاتلة . فقال بعضهم لبعض : إن صَدَقَنا فى الأوّل صَدَقَنا فيما بعد ذلك مما ذكر .

(١) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون .

٧٢/١٢

فلمّا أخذت الحكماء مراتبها وآستقرّت بها مجالسها أقبل عليهم مباحثا فى أصول العلوم الفلسفية وفروعها، وعلى كم فنّ يحتوى العلم الفلسفىّ فى أصوله، والى كم يتفرّع.

قال عبد الملك بن عبد الله بن عَبْدون — رحمه الله — : وقد ذكر أن العلم الفلسفىّ ينقسم على أربعة أنواع : أحدها الرياضيّات ، والثانى المنطقيّات ، والثالث الطبيعيّات ، والرابع الإلٰهيّات . قال :

فأما الرياضيّات فأربعة أنواع : الواحد علم الحساب ، والثانى علم الهندسة ، والأصل فيه النقطة ، وهى فيه كالواحد فى علم الحساب ، والثالث علم النجوم، والرابع علم الموسيقى، وهو علم تأليف الألحان .

وأما العلوم المنطقيّات فخمسة أنواع : الواحد معرفة صناعة الشعر ، وأنواع البديع كالتكافؤ والتفريع والحَشْو والتتبيع والتسميط والترصيع والالتفاتة والإشارة والمقابلة والآستعارة والتبليغ والتلويح والتصدير والتوشيح والتجنيس والتضادّ والترديد والآستطراد والتقسيم والتسهيم والإحالة والتتميم . والثانى معرفة صناعة الخطابة . والثالث صناعة الجَدَل . والرابع صناعة البرهان . والخامس صناعة المغالطين فى المناظرة والجدَل .

وأما العلوم الطبيعيّات فسبعة أنواع : الواحد علم المبادى الجسمانيّة ، وهى خمسة أشياء : الهَيُولَى والصورة والزمان والمكان والحركة . والثانى علم السماء والأرض، وهو معرفة ماهية جواهر الأفلاك والكواكب وكيفيتها وكيفية تركيبها وعلّة دورانها ، وهل تقبل الكَوْن والفساد كما تقبل الأركان الأربعة التى دون فلك القمر أو لا ، وما علّة حركات الكواكب وآختلافها فى السرعة والإبطاء، وما علّة سكون الأرض فى تَوَسّط الفلك فى المركز، وهل خارج العالم جسم آخر أم لا . وهل

فى الكَوْن والفساد موضع فارغٌ لا شىء فيه، وما شاكل هذه المباحث . والثالث علم الكون والفساد وهو علم معرفة جواهر الأركان [الأربعة[1]] التى هى النار والهواء والماء والأرض . والرابع علم حدوث الجواهر بتغيّرات الهواء وتأثيرات الكواكب بحركاتها ومطارح شعاعاتها على الأركان الأربعة وآنفعالاتها بعضها ببعض بقدرة الله تعالى . والخامس علم المعادن التى تنعقد من البخارات المختنقة فى بطن الأرض والعصارات المتحلّلة من الهواء . والسادس علم النبات على آختلاف أنواعه فى هيآته وأشكاله وآختلاف صموغه وطعومه وخواصّه وروائحه ومنافعه ومضارّه . السابع علم الحيوان، وهو معرفة كلّ جسم يغتذى ويحسّ ويعيش ويتحرك على آختلاف أنواعه ، وما شاكل ذلك مما ينسب الى علم الطبيعيّات كعلم الطبّ والبيطرة وسياسة الدوابّ والسباع والطيور والحرث والنسل وعلم الصنائع أجمع داخل فى علم الطبيعيات .

وأما العلوم الإلهيّات فخمسة أنواع ؛ أولها : معرفة البارى سبحانه وتعالى بجميع صفاته، وأنه أوّل كلّ شىء وآخر كلّ شىء، والخالق لكلّ شىء، والعالم بكلّ شىء، وأنه ليس كمثله شىء . والثانى علم الروحانيّات من الجواهر البسيطة العقليّة، وهى الصورة المجرّدة من الهيولَى المستعملة للأجسام المطهّرة، ومعرفة آرتباط بعضها ببعض ، وقبض بعضها عن بعض ، وهى أفلاك روحانيّة تحيط بأفلاك جسمانيّة . والثالث علم النفوس والأرواح السارية فى الأجسام الفلكيّة والطبيعيّة من لدن الفلك المحيط الى منتهى مركز الأرض . والرابع علم السياسة وهى خمسة انواع ؛ أولها : السياسة النبويّة ، والسياسة الملوكيّة ، والسياسة العامّية والسياسة الخاصّية والسياسة الذاتيّة . فأما السياسة النبويّة فالله تبارك وتعالى يختصّ بها من يشاء من

(١) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٨ طبع أوربا) .

عباده ويهدى لأتباعهم مَن يشاء لا معقِّب لحكمه، لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون .
وأما السياسة الملوكية فهى حفظ الشريعة على الأمة وإحياء السنّة والأمر بالمعروف
والنهى عن المنكر . وأما السياسة العاميّـة فهى الرياسات على الجماعات كرياسة
الأمراء على البُلدان وقادة الجيوش وترتيب أحوالهم على ما يجب وينبغى من الأمور
٥ وإتقان التـدبير . وأما السياسة الخاصّية فهى معرفة كلّ إنسان بنفسه ، وتدبيره
أمر غلمانه وأولاده ، ومَنْ يليهم من أتباعه وقضاء حقوق الإخوان . وأما السياسة
الذاتية فهى أن يتفقّد الإنسان أفعالَه وأحوالَه وأخلاقَه وشهوتَه فيزمّها بزمام عقله ،
وغضبَه فيردعه وما شاكل ذلك . والخامس من العلوم الإلٰهيات علم المعاد وكيفية
انبعاث الأرواح وقيام الأجساد وحشرها للحساب يومَ الدين ، ومعرفة حقيقة جزاء
١٠ المحسنين وعقاب المسيئين .

* * *

نرجع إلى خبر الملك الهندىّ مع أصحاب الإسكندر، قال : ولمّا تكلّم مع الحكماء
اليونانيين فى العلوم الفلسفية وطال الخطب فى مناظرتهم أخرج الجارية اليهم ، فلمّا
ظهرت لأبصارهم لم يقـع طَرْف كلّ واحد منهـم على عضو من أعضائها فتعدّى
١٥ ببصره إلى غير ذلك العضو اشتغالا بحسنه عمّا سواه حتى خاف القوم على عقولهم ،
ثم رجعوا إلى أنفسهم وقهروا سلطان هواهم ، ثم أراهم بعـد ذلك ما تقدّم الوعد
به وصرفهم ، وبعث بالفيلسوف والطبيب والجارية والقدح [معهم][1] .

فلمّا وردوا على الإسكندر أمر بإنزال الفيلسوف والطبيب ، ونظر إلى الجارية
فحار عند مشاهدتها ، فأمر قيِّمة الجوارى بالقيام عليها ، ثم صرف همّته إلى الفيلسوف
٢٠ والطبيب وإلى علم ما عندهما ، وقصّ عليه الحكماء ما جرى لهم مع الملك الهندىّ من

(١) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٢٠) .

المباحث فى العلوم الفلسفيّة ، فأعجبه ذلك وتأمّل أغراض القوم ومقاصدهم ، وأقبل ينظر فى مطاردة الهند يعلّلها فى معلولاتها ، وما يصفه اليونانيون أيضا من عِلَلها فى معلولاتها على حَسَب ما قدّمتُ من أوضاعها ، ثم أراد مِحْنة الفيلسوف على حسب ما خُبِّر عنه ، فأجال فكره فيما يختبره به ، فدعا بقَدَح فملأه سمنا ولم يجعل للزيادة عليه موضعا ، ودفعه لرسولٍ وقال : احمل هذا إلى الفيلسوف ولا تكلّمه بشىء ، فلمّا دفعه اليه دعا الفيلسوف بألف إبرة فغرزها فى السمن وصرفه اليه ، فأمر الإسكندر بضَرْب تلك الإبر كُرَةً متساويةَ الأجزاء وردّها اليه ، فأمر الفيلسوف ببسطها وجلائها حتى صارت جسما ترد صورة مقابليها لصفائها وردّها إلى الإسكندر ، فدعا بطست وجعل تلك المرآة فيه وصبّ عليها الماء حتى غمرها وردّها اليه ، فأخذها الفيلسوف وعَمِل منها طَرْجهارة[1] طافية على الماء وصرفها اليه ، فملأها الإسكندر ترابا وردّها اليه ، فلمّا نظر الفيلسوف إلى التراب تغيّر لونه وبكى ثم ردّها إلى الإسكندر ولم يضع فيها شيئا .

فلمّا كان فى اليوم الثانى جلس الإسكندر جلوسا خاصّا ودعا بالفيلسوف ، ولم يكن رآه قبل ذلك اليوم ، فلمّا أقبل نظر الإسكندر [من الفيلسوف][2] الى رجلٍ طويلِ الجسم رَحْبِ الجبين معتدلِ البِنْية فقال فى نفسه : هذه بِنْيةٌ تضادّ الحكمة ، فإذا اجتمع له حُسْن الصورة والفهم كان أوحد زمانه ، فأدار الفيلسوف إصبعه حول وجهه ثم وضعه على أرنبة أنفه وأسرع نحو الإسكندر وحيّاه بتحية الملك ، فأشار اليه بالجلوس وقال : لم أدرتَ إصبعك حولَ وجهك ووضعتها على أرنبة

(١) طرجهارة و يقال لها : طنجهارة من كلمة تركهار الفارسية : نوع من الصفحات أو الصحون يقطع عليها اللبن المتجمد (راجع قاموس دوزى) .

(٢) التكلة من شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٢١) .

أنفك؟ قال : علمتُ أنك تقول فى نفسك، إذا نظرت إلى حُسْن صورتى و إتقان بِنْيتى قلّما تجتمع هذه الخِلْقة مع الحكمة، و إذا كان على هـذا كان صاحبها أوحدَ زمانه، فأريتُـك مصداقا لِمَـا سَنَح لك أنه كما ليس لك فى الوجه إلا أنف واحدٌ فكذلك ليس فى ديار الهند على هذه الصفة أحدٌ غيرى .

٧٤ / ١٣

فقال الإسكندر : حَسَنٌ ما أتيتَ به! فما بالك حين بعثتُ اليك بالقدح السمن غرزتَ فيه الإبر ورددتَه؟ قال الفيلسوف : علمتُ أنك تقول إنّ قلبى قـد آمتلأ علما فليس لأحد فيـه مستزاد، فأعلمتُك أنّ علمى سيزيد فيـه كما زادتْ هذه الإبر فى هذا السمن . قال : فما بالك حين عَمِلتُ لك الإبر كُرَة صنعتَ منها مرآةً صقيلةً وصرفْتَها إلىّ؟ قال الفيلسوف : علمتُ أنك تقول إنّ قلبى قد قسا من سَفْك الدماء

١٠ وآشتغل بهذا العالَم فلا يقبل العلم ولا يرغب فيه، فأخبرتك أنى سأعمل الحِيلَةَ فى ذلك، كما جعلتُ من الكُرَة مرآةً مُوريةً للأجسام . قال : فما بالك حين جعلتها لك فى الطست وصببتُ عليها المـاء جعلتها طَرْجهارةً طافيةً على المـاء؟ قال الفيلسوف : علمتُ أنك تقول إنّ الأيام قـد قَصُرت والأجل قريب ، ولا يُدرَك العلم الكثير فى المهل القليـل، فأخبرتُك أنى سأعمل الحيلَة فيـه فى غير مدّة طويلة، كما جعلتُ

١٥ هذه المرآة الراسبة طافيةً فى أسرع وقت . قال : فما بالك حين ملأتُ ذلك الإناء ترابا رددته إلىّ ولم تُحدث فيه شيئا؟ . قال : علمتُ أنك تقول : ثم الموت، وأنه لابدّ منـه ، فأخبرتك أن لا حِيلَةَ فى ذلك . قال الإسكندر : قـد أجبتَنى على مُرادى فى جميـع ذلك ولأُحسنَنّ إلى الهنـد من أجلك ، وأمر له بجوائز كثيرة . فقال له الفيلسـوف : لـو أحببتُ المـال لَمَـا كنتُ عالمـا ، ولستُ أُدخِل على علمى

٢٠ مايضادّه، فإن القنية تُوجب الخدمة، وقد ملكتَ أيها الملك الرحيم بسيفك أجسام رعيّتك فاملك قلوبهم بإحسانك فهو خِزَانة سلطانك، وآحذر العامّة فإنها إذا قَدَرتْ

أن تقول قَدَرتْ أن تفعل فآحترزْ من أن تقول تأمَنْ أن تفعل، فالملكُ السعيدُ من مَلَك الرعيّة بالرغبة والرهبة، وأشبهُ الأشياء من أفعال الناس بأفعال بارئهم الإحسان، فخيّره الإسكندرُ فى المُقام معه، أو الآنصراف إلى بلاده، فاختار الرجوع إلى موضعه.

وأمّا القدحُ فملأهُ ماءً ثم أورد عليه الناسَ فلم ينقص شربهم منه شيئا، فيقال إنه كان معمولا من خواصّ الهند الروحانيّة مما تدّعيه الهند. ويقال إنه كان لآدم أبى البشر عليه السلام، مباركٌ له فيه حين كان بأرض سَرَنْديبَ، فوُرِثَ عنه إلى أن آنتهى إلى هذا الملك الهندىّ.

وأما الطبيبُ فإنه كان له معه مناظراتٌ دلّت على ثبوت قدمه فى علمه، وأنه كما وَصَف صاحبُه أو كاد. هذا خبره مع ملك الهند.

***

وأما خبره مع ملك الصين، قال أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم: وفى الرواية الصحيحة أن الإسكندر لمّا آنتهى إلى بلاد الصين أتاه حاجبُه وقد مَضَى من الليل شَطْرُه فقال: هذا رسولُ مِلكِ الصين بالباب يستأذنُ فى الدخول عليك، قال: أدخلْه، فأدخلَه فوقف بين يدى الإسكندر وسلّم ثم قال: إن رأى الملك أن يَستخلينى فعل، فأمر الإسكندر مَن بحضرته أن ينصرفوا. فانصرفوا كلّهم عنه وبقى حاجبُه فقال: إنّ الذى جئتُ له لا يحتمل أن يسمعه غيرُك، فأمر الإسكندر أن يُفتَّش ففتّش، فلم يجد معه سلاحا، فوضع بين يديه سيفا مسلولا وقال له: قِفْ مكانك وقُلْ ما شئتَ، وأخرج الحاجبَ ومن كان قد بَقِىَ عنده، فلمّا خلا المجلس قال له: أنا ملكُ الصين لا رسولُه، جئتُ لأسألك عما تريد، فإن كان ممّا يمكن عَمَلُه ولو على أصعب الوجوه عمِلْتُه

وأغنيتُك عن الحرب ، فقال له الإسكندر : وما الذى آمنَك منّى ؟ قال : علمى بأنك عاقلٌ حكيمٌ ، ولم تك بيننا عداوةٌ ولا مطالبةٌ بذَحْل[1] . وأنك تعلم أنك إن قتلتنى لم يكن ذلك سببا لتسليم أهل الصين إليك مُلْكهم ، ولم يمنعهم قتلى من أن ينصبوا لأنفسهم مَلِكا غيرى ثم تنسب [أنت][2] إلى غير الجميل وضدّ الحزم . فأطرق الإسكندر وعلم أنه رجلٌ عاقلٌ ، ثم قال له : إن الذى أريد منك ارتفاع مملكتك[3] لثلاث سنين عاجلا ونصف ارتفاع مملكتك لكلّ سنة . قال : هل غير هذا ؟ قال لا ، قال : قد أجبتُك ، ولكن سَلْنى كيف تكون حالُك ، قال : كيف تكون؟ قال : أكون أوّلَ قتيلِ مُحارب ، وأوّلَ أَكِيلة مُفترس . قال : فإن قنعتُ منك بآرتفاع سنتين . قال : أكون أصلحَ قليلا وأفسحَ مدّة . قال : فإن قنعتُ بآرتفاع سنة . قال : يكون فى ذلك بقاءُ مُلْكى ، وذهابٌ لجميع لذّتى . قال : فإن قنعتُ منك بثلث الآرتفاع كيف تكون حالك ؟ قال : يكون السدس للفقراء ومصالح العباد ، ويكون الباقى لجيشى[4] ولسائر أسباب الملك . قال الإسكندر : قد آقتصرتُ منك على هذا ، فشكره وآنصرف .

فلمّا طلعت الشمس أقبل جيش الصين وقد طبّق الأرض وأحاط بجيش الإسكندر حتى خافوا الهلاك ، وتواثبَ أصحابه فركبوا الخيل وآستعدّوا للحرب بعد

(١) الذحل : الثأر . (٢) التكملة عن كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٣٧) .

(٣) عبارة كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٣٧ — ٤٣٨) « إن الذى أريد منك ارتفاع مملكتك فى خمس سنين فقال : هل تريد شيئا غير ذلك ؟ قال : لا ؛ قال : قد أجبتك إليه ؛ قال : فكيف تكون حالك حينئذ؟ قال أكون قتيل أول محارب ، وأكيل أول مفترس ؛ قال : فإن قنعت منك بارتفاع ثلاث سنين كيف تكون حالك ؟ قال : تكون أصلح من ذلك وأفسح ؛ قال : فإن قنعت منك بارتفاع سنة واحدة ؛ قال : يكون ذلك سدادا لأمر ملكى ، ومذهبا لجميع لذاتى ... الخ » .

(٤) فى كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « لحاشيتى » .

الأمن والطمأنينة إلى السِّلْم. فبينما هم كذلك إذ طلع ملك الصين وهو راكب وعليه التاج، فلمّا تراءى الجمعان نظر الإسكندر إلى مَلِك الصين فظنّ أنه حضر للحرب، فصاح به: أغدرتَ؟ فترجّل ملك الصين وقال: لا والله، قال: فَآدْنُ منّى فدنا منه، فقال له الإسكندر: ما هذا الجيش الكثير؟ فقال: إنّى أردتُ أن أُرِيكَ أنّى لم أطعك من قِلّة وضَعْف، ولكنّى رأيتُ العالَمَ العُلْوِىّ مقبلا عليك ممكّنا لك ممن هو أقوَى منك وأكثر عددا، ومَن حاربَ العالم العُلْوىّ غُلِب، فأردتُ طاعته بطاعتك، والتذلّل له بالتذلّل لك، فقال الإسكندر له: ليس مثلك مَن يُسَام الذّل، ولا مَن يؤدّى الجزية، فما رأيتُ بينى وبين الملوك مَن يستحقّ التفضيل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرفٌ عنك. فقال ملك الصين: ولستَ تخسر [إذا](١) ثم آنصرف عنه الإسكندر. فبعث إليه ملك الصين بضعف(٢) ما قرر معه وآنصرف عن الصين.

كلام الحكماء عند وفاة الإسكندر

قال: لمّا تُوُفّى الإسكندر جُعِل فى تابوت من الذهب، وآجتمع الحكماء فتقدّم الأوّل(٣) فقال: قد كان الإسكندر يخبأ الذهب، وقد أصبح الآن يخبؤه الذهب. وتقدّم الثانى(٤) إليه والناس يبكون و يجزعون فقال: حرّكنا بسكونه. وتقدّم

(١) التكملة من كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وغيرهم (ص ٤٣٩).

(٢) ورد فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٣٩) الأشياء التى بعث بها ملك الصين إلى الإسكندر وهى: «ألف حريرة وألف فرند وألف ديباجة وألف من فضة ومن كل من جلود السمور والفنك والقاقم والسنجاب والخز ألف جلدة وألف مثقال عنبرا وألف نافجة مسكا وألف رطل عودا وألف طاس ذهبا وفضة ومائة سيف هندية محلاة بالذهب والجوهر ومائة سرج ومائة لجام صينية مذهبة ومائة درع سابغة والتزم الضريبة كل سنة فأخذها الإسكندر كلها وارتحل بها».

(٣) هو ديوجانس الفيلسوف. (٤) هو أفلاطون الفيلسوف.

الثالث[1] اليه فقال : قد كان يعظنا فى حياته ، وهو اليوم أوعظُ منه أمس . وتقدّم اليه الرابع فقال : قــد جاب الأَرَضِين وسلكها ، ثم حصل منها فى أربعة قوائم . ووقف عليه الخامس[2] فقال : انظروا إلى حُلْم النائم كيف آنقضى ، و إلى ظِلّ الغمام كيف آنجلَى . ووقف عليه السادس فقال : قد أمات هذا الميّت كثيرا من الناس لئلا يموتَ ، وقد مات الآن . ووقف عليه السابع[3] فقال : مالك لا تقلّ عضوا من أعضائك ، وقد كنتَ تستقلّ بمُلْك العباد . وقال الثامن[4] : مالك لاترغبُ بنفسك عن المكان الضيِّق ، وقد كنتَ ترغب بها عن رَحْب البلاد . وقال التاسع : كان لا يُقدَر عنــده على الكلام، واليوم لا يُقدَر عنــده على الصَّمْت . وقال العاشر : قد كان غالبا فصار مغلوبا ، وآكلا فصار مأكولا . وقال الحادى عشر[5] : ما كان أقبحَ إفراطُك فى التجبرُّ أمس مع شــدّة خضوعك اليوم ! . وقالت بنت دارا : ما كنتُ أحسَــبُ أنّ غالبَ أبى يُغلَبُ . وقال رئيس الطبّاخين : قــد نضّدتُ النضائد ، وألقيتُ الوسائد ، ونَصبتُ الموائد، ولستُ أرى عميدَ القوم .

قال : ولمـا مات الإسكندر عُرِض المُــلْك على آبنــه من بعده فأباه وآختار العبادة والنُّسك .

فملك بعد الإسكندر على اليونانيين بطليموس، وهذه التسمية لكلّ من ملك اليونان ككِسْرى للأكاسرة من الفُرْس ، وقَيْصر للروم ، وخاقان للترك ، وطَرْخان للخزر، والنجاشيّ للحبشة .

قال : وكان بطليموسُ هذا شابّا مدبّرا حكيما عالمـا . وكان مُلْكه أربعين سنة ، وقيل عشرين سنة، وقيل إنه أوّل من آقتنى البُزَاة وضرّاها ولعب بها .

---

(١) هو سقراط الحكيم . (٢) هو بطليموس الفيلسوف . (٣) هو بليناس الفيلسوف .
(٤) هو ديمقراطيس الفيلسوف . (٥) هو طوبيقا الفيلسوف .

٧٠/١٢ ثم ملك بعده بطليموس الثانى، وهو الذى يقال له : محبّ الأخ ، وآسمه هيقلوس، وكان ملكه ستّا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأب، وكانت مدّةُ ملكه سبعَ عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده بطليموس، وهو صاحبُ علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطى. فكان ملكه أربعا وعشرين سنة . ٥

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأم . فكان ملكه خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الصائغ . فكان مُلْكه سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الإسكندرانىّ . فكان ملكه اثنتى عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الحديدىّ . فكانت مدّة مُلْكه ثمانين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الجوّال . فكان ملكه أيضا ثمانين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك . ١٠

ثم ملك بعده بطليموس الحرب . فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة .

ثم ملكت بعده آبنته قُلُوبَطْرة، وكانت حكيمة متفلسفة معظّمة للحكماء ، ولها كتب مصنّفة فى الطبّ والزينة وغير ذلك ، مترجمة بآسمها ومنسوبة إليها ، وكان زوجها بطليموس ويسمّى أنطونيوس مشاركا لها فى مُلْك مقدونية وهى مصر . ١٥

فلمّا أراد الله تعالى ذهاب ملك اليونانيين أيّد عليهم مَلِك رومية وهو أغسطس ، فسار إليها ، وكان له مع الملكة قلوبطرة وزوجها حروبٌ كثيرة ، فقُتل زوج قلوبطرة ، فأراد ملك الروم أن يتزوجها لعلمه بحكمتها وليتعلّم منها ، فراسلها فعلمتْ مرادَه منها ، فطلبت حيّة تكون بالحجاز ومصر والشام ، وهى نوع من الحيّات تراعى الإنسان حتى إذا نظرت الى عضو من أعضائه قَفَزت أذرُعا نحوه فلم تخطئ ذلك العضو بعينه ٢٠

حتى تثفُل عليه سمّا فيموت لوقته ولا يعلم ماخبره ، فيتوهّم الناس أنه مات بحاة
حَتْف أنفه . فآحتُملتْ لها . فلمّا كان فى اليوم الذى علمت فيه أن أغسطس يدخل
فى قصرها أمرتْ بأنواع الرياحين والزهور أن تُبسَط فى مجلسها وأمامَ سريرها ،
وجلست على سرير مُلْكها والتاجُ على رأسها وفرّقتْ حشَمها وقربت يدها من الإناء
الذى فيه تلك الحيّة فضربتها فماتت لوقتها ، وآنسابتْ الحيّة فى تلك الرياحين ودخل ٥
أغسطس حتى آنتهى الى المجلس ، فنظر إليها جالسةً وهو يظنّ أنها باقية ، فدنا منها
فتبيّن له أنها قد ماتت ، فنظر الى تلك الرياحين فقفَزت عليه تلك الحيّة فرمتْه بسمّها
وقد خفّ ، فبطل شقّه الذى ضربته من جهته ، ولولا أنّ سمّها كان قد نَقُص لمات ،
فعجب من قتلها لنفسها وما كادته به من القاء الحيّة . وكانت قلوبطرة هذه آخر
مَنْ مَلَك من اليونانيين . والله أعلم . ١٠

ذكر أخبار ملوك السّريان

قال أبو الحسن علىّ بن عبد الله المسعودىّ فى كتابه المترجم بمروج الذهب[1] :
ذكر ذوو العناية بأخبار ملوك العالَم أنّ أوّل الملوك بعد الطوفان ملوك اليونان ، قال:
وقد تُنُوزِع فيهم وفى النبَط ، فمن الناس مَن رأى أنّ السريانيين هم النَّبَط ، ومنهم
من رأى أنهم إخوةٌ لولد ماس بن نَبِيط[2] ، ومنهم مَن رأى غير ذلك على حسب تبايُن ١٥
الناس فى الأجيال الماضية والقرون الخالية .

قال : فكان أوّلَ مَن ملك منهم رجلٌ يقال له سُوشان ، وهو أوّل من وضع
التاج على رأسه فى تاريخ السريانيّين . قال : وآنقاد له ملوك الأرض ، فكان
ملكه ستّ عشرةَ سنة باغيا فى الأرض ، ومفسدا فى البلاد ، وسفّاكا للدماء .

(١) راجع (ج ١ ص ١٠٠ طبع بلاق) . ٢٠
(٢) كذا فى مروج الذهب للسعودى . وفى الأصول : « اوذمانين » وهو تحريف .

ثم ملك بعده يريز، وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة .

ثم ملك بعده سماسير بن أبو با . فكان ملكه تسع سنين .

ثم ملك بعده أهريمون فخطّ الخطط، وكوّر الكُوَر ، وجدّ فى أمره ، وأتقن مُلْكه ، وعمر أرضــه . فلّما آستقامت له الأحوال وآنتظم ملكه بلغ بعض ملوك الهند وهو رُتبيــل ، وهو آسم لمن يملك هــذه الجهة من الهند ، ما القومُ عليه من القوة ، وما بلادُهم عليه من العمارة ، وأنهم يحاولون المــالك ، وقد كان هــذا الملك الهندىّ غَلَب على مَن حوله من ممالك الهند وآنقادتْ إلى أحكامه ، وذلك أنّ ملكه كان مما يلى بلاد الهند والسّند ، فسار نحو بلاد بُست(٢) وغزنين(٣) ونغر(٤) وبلاد الداور(٥) على النهر المعروف با لهندمِنْد ، وهو نهر ببلاد سِجِسْتان و يُعرَف بنهــر بُسْت تجرى فيه السفن منها إلى سِجِسْتان .

٧٧ / ١٣

قال : وكان بين ملك الهنــد وملك السريانيّين حروبٌ كثيرةٌ نحواً من ســنة ثم أجلتْ الحرب عن قتل السريانىّ وآحتوى الهندىّ على الصُّقع ومَلَكه ، فكان مُلْك أهريمون عشر سنين .

---

(١) فى مروج الذهب للسعودى : « يرندس » .

(٢) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينــة بين سجستان وغزنين وهراة ، وهى من البلاد الحارّة المزاج ، وهى كبيرة ، ويقال لناحيتها اليوم كرم سـير ، معناه النواحى الحارّة المزاج ، وهى كثيرة الأنهار والبساتين . وفى نسخة أ « قسط » . وفى نسخة ب « بسط » وهما محرفتان .

(٣) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان ، وهى الحدّ بين خراسان والهند . وفى نسخة أ « غريين » . وفى نسخة ب « رنين » وهما محرفتان .

(٤) كذا فى معجم البـلدان لياقوت . وهى مدينة ببلاد السند ، بينها وبين غزنين ستة أيام ، تعدّ فى أعمال السند . وفى الأصول « نغنين » وهو تحريف .

(٥) بلاد الداور : هى ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رُخّج وبست والغور . وأهل تلك الناحية يسمونها زمنداور ، ومعناه أرض الداور .

قال : وبق ذلك الصُّقع بيــد الملك الهندىّ حتى سار إلى بعض الملوك فأتى عليه وملك العراق وردّ السريانيين .

فملّكوا عليهم تسنوا بن سماسير[1] . فكان مُلْكه إلى أن هلك ثمانى سنين .

ثم ملك بعده أهريمون . فكانت مدّة مُلْكه آثنتى عشرة سنة .

ثم ملك بعــده آبنه هوريا فزاد فى العمارة وأحسن للرعايا وغرَس الأشجار . فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ماروت[2] وآستولى على المُلْك . فكان مُلْكه خمس عشرة سنة . وقيل أكثر من ذلك .

ثم ملك بعــده أزور وسلحاس[3] ، ويقال إنهما كانا أخوَيْن . قال : فأحسنا السيرة ، وتعاضَدا على تدبير المُلْك . ويقال : إنّ أحد هــذين الملِكَيْن كان جالسا ذاتَ يوم فى أعلا قصره فنظر إلى طائر قــد فرّخ هنالك ، وهــو يصيح ويضرب بجناحه ، فنظر إلى حيّــة تنساب إلى الوَكْر لتأكل الفراخ التى للطائر ، فدعا بقَوْس وسهم ورمى الحيّة فقتلها ، وســلمت الفراخ ، وغاب الطائر وعاد إلى الملك بعــد هُنَيهــة وفى منقاره حبّة وفى مخاليبه حبّتان ، وطار حتى وازَى الملك ، وألقى الحبّ بين يديه فتناوله الملك وقال : ما ألقى هذا الطائر هــذا الحبّ إلا لأمر قصــد به مكافأتنا على ما فعلناه من خلاص فراخه ، ولم يعرف ما هو ذلك الحبّ ، وآستدعى الحكماء وأراهم فمــا عرَفوه ، فقــال له حكيم : ينبغى أن يُزرَع هذا الحبّ ببطن الأرض لينُظَــرَ ما يكون منــه ، فأحضر الأَكَرَة وأمرهم بزرعه فزرَعوه ، والملك

(١) كذا فى الأصول . وفى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٠٢ طبع بلاق) : «سير» .

(٢) كذا فى نسخة ا وفى نسخة ب «ماروب» بالباء الموحدة ; وفى مروج الذهب : «مارث» .

(٣) كذا فى نسخة ا وفى نسخة ب « حلحاس » وفى مروج الذهب « خلنجاس » .

يراعيه حتى طلع وأزهر وحصرم وأعنب ، وهم لا يقربونه خشية أن يكون متلفا ، فأمر الملك أن يعصر ماؤه و يودع الآنيـة وأخرج الحب منـه وترك بعضـه على حاله . فلمّا صار فى الآنية غلا وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة، فقال الملك: علىّ بشيخ كبير ، فأُتِىَ به ، فسقاه من هـذا العصير . فلمّا شرب منه ثلاثا صال وتكلّم وصفّق بيديه وحرّك رأسـه ووقع برجليه على الأرض ، فظهر عليه الطّرب والفرح وتغنّى . فقال الملك : هـذا شرابٌ مذهبٌ للعقل ، وأخلق به أن يكون قتّالا ، ألا ترون إلى هذا الشيخ كيف عاد الى حال الصّبا وقوّة الشباب ، ثم أمر الملك بالشيخ فوقّد ، فسكن ونام . فقال الملك : هلك ، ثم أفاق الشـيخ وطلب الزيادة من الشراب وقال: لقد شربته فكشف عنّى الهموم والغموم، وأزال عنّى الأحزان . فقال الملك : هذا أشرفُ شراب الرجل ، فأكثر من غرْس الكروم ، واختصّ به دون غيره من الناس ، واستعمله بقيّة أيامه، ثم نمـا بعد ذلك وكثُر فى أيدى الناس . وهذا آخر ما أورده المسعودىّ من أخبار السّريان .

ذكر أخبار الملوك الكلوانيّين

وهم ملوك النّبط ملوك بابل

قال المسعودىّ[1] ، ذهب[2] جماعةٌ من أهـل البحث والعناية بأخبار ملوك العالَم أنهم ملوك العالَم الذين مهّدوا الأرض بالعمارة، وأنّ الفُرْس الأوَل إنما أخذوا المُلْك من هؤلاء كأخذ الروم المُلْك من اليونان .

فكان أوّل مَن ملك منهم نُمروذ الجبّار . فكان مُلْكه نحوا من ستين سَنة . وقد قدّمنا أخبار نُمروذ[3] فى قصّة إبراهيم عليه السلام .

---

(١) راجع مروج الذهب (ج ١ ص ١٠٣ طبع بلاق) . (٢) فى مروج الذهب : «ذكر» .

(٣) راجع (ج ١٣ ص ٩٦ — ١٠٠ و ١١٣ — ١١٤ من هذه الطبعة)

قال : ونُمْروذ هذا هو الذى احتفر أنهارا بالعراق آخذةً من الفُرات، فيقال : إنّ من ذلك نهر كُوثى(١) على طريق الكوفه ، وهو بين قصر آبن هُبَيرة(٢) و بغداد .

٧٨/١٣

ثم ملك بعده أبولس ، وكان عظيم البطش جبّارا فى الأرض. وكان مُلْكه نحوا من سبعين سنة .

٥ ثم ملك بعده فيزمنوس . وكان باغيا فى الأرض، ملك نحوا من مائة سنة .

ثم ملك بعده سوسوس . فكان مُلْكه نحوا من تسعين سنة .

ثم ملك بعده كورس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده اذفرنجوا(٣) . فكان ملكه نحوا من عشر سنين .

ثم ملك بعده سيهزم . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة ، وقيل أكثر .

١٠ ثم ملك بعده قوسيس . فكان ملكه نحوا من سبعين سنة .

ثم ملك بعده أنبوش(٤) . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده إيلاوس . فكان ملكه نحوا من خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده الجلوس . وكان مُلْكه نحوا من أربعين سنة .

---

(١) نهر كوثى : هو أوّل نهر أخرج بالعراق من الفرات ، وسمى بكوثى من بنى أرفخشد بن سام ابن نوح عليه السلام، وهو الذى كراه فنسب اليه ، وهو جدّ إبراهيم عليه السلام أبو أمه بونا بنت كرنبا (راجع معجم البلدان لياقوت) .

١٥ (٢) قصر ابن هبيرة : ينسب الى يزيد بن عمر بن هبيرة، بناه بالقرب من جسر سورا لما ولى العراق من قبل مروان بن محمد . فلما ملك السفاح نزله وآستتم تسقيف مقاصير فيه و زاد فى بنائه وسماه الهاشمية وكان الناس لا يقولون إلا قصر ابن هبيرة على العادة الأولى (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٣) فى مروج الذهب : « أنمر » .

(٤) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب « أنبوس » . وفى مروج الذهب : « أينوس » .

ثم ملك بعده أونوبس[١] . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده بعنكلوس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين شهرا .

ثم ملك بعده سفرين[٢] . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة ، وقيل أقلّ .

ثم ملك بعده مارنوس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده رسطاليم[٣] . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة .

ثم ملك بعده أسطوس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده تاولوس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده العداس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده أطيروس . فكان ملكه نحوا من ستين سنة .

ثم ملك بعده ساوساس . فكان ملكه نحوا من عشرين سنة .

ثم ملك بعده فاريتوس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة ، وقيل خمسا وأربعين سنة .

ثم ملك بعده أدرموس . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة . وغزاه ملك من ملوك فارس فى عُقْر داره .

ثم ملك بعده مسروس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده أفروس . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة .

ثم ملك بعده طاطاوس . فكان مُلْكه نحوا من أربعين سنة .

---

(١) كذا فى نسخة ا وفى نسخة ب « أوموبس » وفى مروج الذهب : « أومونوس » .

(٢) كذا فى نسخة ا وفى نسخة ب « سفرمن » . وفى مروج الذهب : « سفروس » .

(٣) فى مروج الذهب : « رسطالين » . وقد ورد فيه أيضا خلاف فى بعض أسماء الملوك الذين ذكروا هنا فا كتفينا بما ورد فى الأصول عوضا عن التنبيه فى كل اسم .

ثم ملك بعده لاوسيس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة ، وقيل خمسا وأربعين سنة .

ثم ملك بعده قريطوس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده قروطاوس . فكان ملكه نحوا من عشرين سنة .

ثم ملك بعده قراقريس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة ، وقيل اثنتين وأربعين سنة .

ثم ملك بعده بوليس قنطروس . فكان ملكه نحوا من عشرين سنة .

ثم ملك بعده قولا قسما . [فكان ملكه](1) نحوا من ستين سنة .

ثم ملك بعده هيقلس . فكان ملكه خمسا وثلاثين سنة ، وقيل خمسين سنة . وكانت له حروب مع ملوك الصقالبة .

١٠ ثم ملك بعده سموجد . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده مردوج . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك .

ثم ملك بعده سنحاريب . فكان ملكه نحو من ثلاثين سنة ، وهو الذى ابتنى بيت المقدس .

ثم ملك بعده منوشا . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك .

١٥ ثم ملك بعده بُخْتَنَصَّر الجبّار . فكان ملكه خمسا وأربعين سنة ، وقد تقدّم أن بختنصّر(2) لم يكن ملكا و إنما كان مَرْزُبانا للملوك الفُرْس الأُوَل ، إلا أن يكون هذا غير ذاك . والله أعلم .

ثم ملك بعده بطسفر . فكانت مدّة ملكه نحوا من ستّين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك .

٢٠ (١) زيادة يقتضيها السياق مراعاة لما ورد قبله وما بعده .

(٢) راجع (ج ١٤ ص ١٥٣ من هذه الطبعة) .

ثم ملك بعده دارنوس . فكان مُلْكه إحدى وثلاثين سنة ، وقيل أكثر من ذلك .

ثم ملك بعده كشرخوش [فكان ملكه] عشرين سنة .

ثم ملك بعده قرطياسة تسعة أشهر .

ثم ملك بعده فيجسمنه . فكان ملكه إحدى وأربعين سنة .

ثم ملك بعده أجرست . فكان ملكه ثلاثا وستين سنة . ٥

ثم ملك بعده شعيا . فكان ملكه ثلاثين سنة[1] ، وقيل تسعة أشهر .

ثم ملك بعده داريوس . فكان ملكه عشرين سنة ، وقيل تسع عشرة سنة .

ثم بعده أنطجست . فكان ملكه تسعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده اليسع . فكان ملكه خمس عشرة سنة ، وقيل عشرين سنة .

١٠ قال المسعودىّ : فهؤلاء الملوك الذين أتينا على أسمائهم ، وذكرنا مدّة ملكهم ، هم الذين شيّدوا البنيان ، ومدّنوا المدن ، وكوّروا الكُوَر ، وحفروا الأنهار ، وغرسوا الأشجار ، وآستنبطوا المياه ، وأثاروا الأرض ، وآستخرجوا المعادن من الحديد والنحاس والرصاص وغير ذلك ، وطبعوا السيوف ، واتّخذوا عدّة الحروب ، ونصبوا قوانين الحروب ، ورتّبوا الميمنة والميسرة والأجنحة ، وجعلوا ذلك مثالا ١٥ لأجزاء أعضاء الإنسان ، ورتّبوا الأعلام ؛ فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيلة والنسور وما عظُم من أجناس الحيوان ؛ وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صورة السباع ؛ وجعلوا فى الأجنحة أمثال مالطف منها كالنمر والذئب ؛ وجعلوا فى الطلائع كصُوَر الحيّات وما خَفِىَ فعله من هوامّ الأرض ؛ وتغلغل القوم فى هذه المعانى .

قال : والذى ذكرناه من أخبارهم هو المشهور . والله تعالى أعلم .

٧٩/١٣

٢٠ (١) فى مروج الذهب : « سنة وقيل تسعة أشهر » ولعلّ كلمة ثلاثين مقحمة من الناسخ .

ذكر أخبار ملوك الروم وأنسابهم

قال المسعودى[1] : قد تنازع الناس فى الروم ولأى علة سموا بهذا الآسم، فقيل لإضافتهم لمدينة رُومِيَة وآسمها بالرومية روماس. فعُرّب هذا الآسم فسُمّى مَن كان بها روما، والروم لا يسمّون أنفسهم فى لغتهم إلّا رومس[2] . ومنهم مَن رأى أن هذا ٥ الآسم آسم الأب الأوّل، وهو روم بن سماخلين بن هُوبان بن علفا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . ومنهم مَن رأى أنهم سُمّوا بآسم جدّهم رومس آبن لبطى بن نوبفل بن رومى بن الأصغر بن النفر بن العيص، وقيل غير ذلك . وقد ذكرنا فى الأنساب شيئا من ذلك .

قال المسعودى : وغلبت الروم على ملك اليونانيين، فكان أوّل مَن ملك منهم ١٠ طوخاس وهو جانيوس الأصغر بن روم بن سماخلين ، فكان مُلكه آثنتين وعشرين سنة .

وقيل إنّ أوّل مَن ملك من ملوك الروم قيْصَر، وآسمه غالوس أوليوس . فكان مُلكه ثمانى عشرة سنة .

وقيل أوّل مَن ملك منهم بعد ملوك اليونانيين برومية بوليس. فكان مُلكه سبع ١٥ سنين ونصفا . قال : ورومية بُنِيت قبل الروم بأربعمائة سنة .

ثم ملك بعده آبنه أغسطس قيْصَر. وكان مُلكه ستّا وخمسين سنة، وهو أوّل مَن تَسمَّى بقيْصَر ، وإنما سُمّى بذلك لأنّ أمّه ماتت وهى حامل به فشُقّ بطنُها عنه، ومعنى قيْصَر بقر، وكان يفتخر بأنّ النساء لم تلده ، وحقيقة هذه اللفظة بالعجمية

(١) راجع مروج الذهب (ج ١ ص ١٤٨ طبع بولاق) .

٢٠ (٢) فى مروج الذهب : « رومس » .

جَيْشَر ، قيل إنما سمى جيشر لأنه ولد بشعر يبلُغ عينيه ، وآسم الشعر بالعجميّة حساريه وقيل جشايره ، فعرِّب فقيل قَيْصَر ، وهو صاحب قُلُوبَطْرَة ملكة اليونان على ما ذكرناه . وآحتوى هذا الملك على مَقْدُونية وهى مصر والإسكندرية ، وحاز ما فيهما من الخزائن ، وكانت له حروبٌ كثيرةٌ، وكان يعبد الأوثان . وبنى بأرض الروم مُدُنا تنسب إليه، وكوّر كُوراً . فمن مُدُنه قيْسارية . ولآثنتين وأربعين سنة خلت من مُلْكه ولد المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام ، وعاش هذا الملك بقيّة عمره وقد بطل شقّه لما نفُلت عليه الحيّة على ماقدّمناه فى أخبار قُلُوبَطْرَة .

ثم ملك بعده طياريس . فكان مُلْكه آثنتين وعشرين سنة . قال : ولثلاث سنين بقيتْ من ملكه رُفِع المسيح عليه السلام . قال : ولمّا هلك هذا الملك برُومِيَة اختلفت الروم وتحزّبت وأقاموا على آختلاف الكلمة والتنازُع مائتَىْ سنة وثمانيا وأربعين سنة لا نظام لهم ولا ملك يجمعهم .

ثم ملّكوا عليهم طباريس عابس بمدينة رُومِيَة . فكانت مُدّة ملكه أربع سنين .

ثم ملك بعده قلورس برومية . فكان ملكه أربع عشرة سنة، وهو أوّل مَلِكٍ من ملوك الروم شرع فى قتل النصارى وآتباع المسيح عليه السلام، فقتل منهم خلقا كثيرا، وكانت الروم تعبد التماثيل .

ولما هلك هذا الملك ملك بعده نيرون . قال : وآستقام مُلْكه ورغب فى عبادة التماثيل والأصنام، وكان ملكه أربع عشرة سنة وشهورا .

ثم ملك بعده ططس واسبابوس مشتركَيْن فى المُلْك . فكان ملكهما ثلاث عشرة سنة، ولسنة من ملكهما سارا الى الشام، فكانت لهما حروب عظيمة مع بنى إسرائيل قتل فيها من بنى إسرائيل ثلثمائة ألف وخرّبا بيت المقدس وأزالا رسمه، وكان يعبدان الأصنام .

قال المسعودىّ : وذكر فى بعض التواريخ أنّ الله تعالى عاقب الروم من ذلك اليوم الذى خرّبوا فيه بيت المقدس أن يُسبى منهم فى كلّ يوم سَبْىٌ فلا يومٌ إلّا والسّبْىُ واقعٌ فيهم قلّ ذلك أو كثُر .

ثم ملك بعدهما ذو مطيانس . فكانت مدّة ملكه خمس عشرة سنة .

٥ ثم ملك بعده ترنوس . فكانت مدّة ملكه سنة واحدة .

ثم ملك من بعده طومانوس . فكانت مدّة ملكه تسع عشرة سنة .

ثم ملك بعده أذربالس . فكانت مدّة ملكه إحدى عشرة سنة، وخرّب سائر ما بَقِىَ بالشام لبنى إسرائيل .

ثم ملك بعده أبطونيس . فكان ملكه ثلاثا وعشرين سنة . قال : وبنى بيت ١٠ المقدس وسمّاه إيلياء .

ثم ملك بعده قرمودس . فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده سيرِيرس . فكانت مدّة ملكه ثمانى عشرة سنة .

ثم ملك بعده ولده أنطويس . فكانت مدّة ملكه تسع سنين .

ثم ملك بعده أنطويس الثانى . فكانت مدّة ملكه أربع سنين، وفى آخر ملكه ١٥ مات جالينوس الطبيب .

ثم ملك بعده الإسكندر مامياس، وتفسير مامياس العاجز . فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده عرديانس . فكانت مدّة ملكه ستّ سنين .

ثم ملك بعده ديقيوس وقيل فيه دقيوس . فكانت مدّة ملكه ستين سنة .

٢٠ قال : فأمعن فى قتل النصارى، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف .

ذكر خبر أصحاب الكهف

قال الشيخ عبد الوهّاب بن المبارك بن أحمد بن الحسين الأنماطيّ فى كتاب المبتدإ يرفعه الى وَهْب بن مُنبِّه : إنّ أصحاب الكهف كانوا فِتْية من الروم ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه العزيز فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (١) الآيات التى فى سورة الكهف . قال : وكان فى إيمانهم عِبْرةٌ وتفكّر منهم فى عِظَم الله وجلالِه ومُلْكه وسلطانِه وأصنافِ خَلْقه ، لم يأتهم بذلك وَحْى ولم يقرءوا كتابا ، ولم يُدْرِكوا زمانَ نبوّة ، وكانوا فى زمن فترة قبل أن يبعث الله عزّ وجلّ عيسى بن مريمَ عليه السلام ، وهذا القول مخالفٌ لما ذكرناه آنفا ، فإنّ المساق الذى قدّمناه من أخبار ملوك الروم يقتضى أن بين رفع عيسى عليه السلام و بين مُلْك دقيوس ما يزيد على مائتى سنة . والله عزّ وجلّ أعلم .

قال : وكانوا شبّانا متقاربين فى السنّ قلّما يتفاوتون ، وكانوا من فَصيلة واحدة يجمعهم النَّسَب ، وكانوا فى حَسَبٍ عظيمٍ من أحساب الروم ، من ولد عظمائهم وملوكهم وأشرافهم ، وكان للروم فيهم هوًى وصبابةٌ شديدةٌ ، وكان مُلْك الروم الأوّل فى آباء أولئك الفتية ويُنقَل فى فَصيلتهم التى كانوا منها أكثر من أربعمائة عام حتى انقرضت تلك الفصيلة و زال الملك عنهم ، فكان أولئك الفتيةُ عَقِبَ أولئك الملوك و بقيّتهم ، وكان الروم يتمنّون مُلْكهم و يمدّون اليهم أعناقهم لما قد بلغهم ما كان الناس فيه فى زمن أسلافهم من الخَفْض والدعة والعافية والبَسْط والأمن والسّعة ، فكانوا يؤمّلونهم و يرجونهم ، وكانت ملوك الروم قد جفَوهم وحرموهم وأقصوهم وأضرّوا بهم مخافةً منهم على مُلْكهم لما يعلمون من رأى الروم فيهم ، وكانوا مع

---

(١) سورة الكهف آية ١٣ وما بعدها

ذلك يكفّون عنهم أذاهم، و يعرفون أنهم مَفْزَعُ الروم إن آختلفوا ومُعوّلهم عليهم ،
فلم تزل تلك حالهم فيما بينهم و بين ملوكهم وقومهم حتى أراد الله تعالى بهم ما أراد
من هُداهم والإيمان الذى نوّره الله فى قلوبهم .

٨١ / ١٣

قال قائلٌ منهم : إنى قد رأيتُ رأيا وقع فى قلبى وأمرًا ثبت فيه ، فلستُ
أبصرُ غيره ، وليس يُخْرِجُه من قلبى شىء ؛ اسمعوا أَعرِضْ عليكم ، إنّى فكّرتُ
فى خلق السموات والأرض ، وآختلاف الليل والنهار ، والشمس والقمر ،
والنجوم والسحاب والمطر ، والأحياء والأموات ، والنبات ، والصِّغار والكِبار ،
والبقاء والفناء ، والشدّة والرخاء ، وتقلُّب الدنيا بأهلها ، والأطباق التى تنصرف
عليها الخلق طَبَقا بعد طَبَق ، وقوما عن قوم : من مَوْت وحياة ، ونَقْص وزيادة ،
وخَفْض ورَفع ، وغِنًى وفقر ، وطُول عُمْر ونَقْص آخر ، ومَوْت صغير وهَرَم كبير ،
وأشباه لذلك كثيرة ، وهى أكثر من أن تُعَدّ وتُوصَف أو تحصَى ؛ فلمّا نَظَرتُ
فيها وأعملتُ الرأى والنظرَ أجمع رأيى على أنّ لها خالقا بديعا آبتدعها ، وربًّا يملكها
ويُدَبِّرها ، ويخلقها ويرزقها ، ويُغْنيها ويُفْقِرها ، ويَرْفعها ويَخْفِضها ، ويُحْيِيها
ويُميتها ويُفْنيها ، تتقلّب فى قَبْضته وتعيش برزقه ؛ فلمّا تمّ لى الرأى نظرتُ فى عظمة
هذا الربّ الذى آبتدع هذا الخلقَ وضَبَطَه ، ودبَّره وأحكم أمره ، فإذا قُدْرتُه تأتى
من وراء ذلك كلّه ، ليس من هذا الخلق شىءٌ يفُوتُها ولا يخرج منها ، وإذا هى محيطةٌ
بكلّ شىء ومن وراء كلّ شىء ، ثم نظرتُ فى عظمة الربّ هل أصفها كما وصفتها
القُدرة ، وهل أعلم كُنْهَهَا ؟ فتحيّرتُ فيها ، وعجز عنها الحلم والعلم ، وحَسَر عنها
العقل والنظر ، وما بَقِىَ مما لم أذكره لكم معرفة القلب ولا تَصِفُه إلّا أنه قد أُلهم بمعرفته
وأُسرّ بها أكثر وأعظم وأعجب ممـا وصفتُ وشرحتُ لكم ، فماذا تقولون ، وماذا
تعرفون ، وماذا تفعلون ؟

قالوا : قد قُلتَ قولا عظيما ووصفتَ أمرا عجيبا ، وما نَحسَبك إلّا قد أصبتَ فيه الرأيَ والنظرَ ، وقد صدّقناك وتابعناك ورأينا رأيَك و واقعٌ قلوبَنا منه ومن معرفته مثلَ الذى عرَفتَ وواقعٌ قلبَك ، و إن كنّا لنرى مثلَ الذى رأيتَ من أعاجيب هذا الخَلْق وعظمة هذا الخالق ، و إن كان ليكثُر أن يخطُر على قلوبنا منه مثلُ ما خطَر على قلبك ، ولكنّا لم نشرح منه ما شرحتَ ولم نصف منه ما وصفتَ ، ولم نعمل الرأيَ والنظرَ فى معرفته مثلَ ما أعملتَ وعَرفتَ . ولكنّ اللهَ أراد هُداك وتفضيلَك و إكرامَك بما سبقتَ إليْه من هذا القول وهذا العلم وهذه المعرفة . ولكن حدِّثنا عمّا نسألك عنه . و إنما نظرنا فيه بعدَ ما سمعنا قولَك ؛ هل ينبغى لهذا الربّ الذى وَصفتَه بما وَصَفتَه من العظمة أن يكون له شريكٌ فى مُلْكه ، أو حاجةٌ إلى شىء من خَلْقه ، أو هل يَغْلبه شىءٌ يستعين عليه بغيره ؟

قال لهم : لو كان له شريكٌ فى شىء من أمره لضَبط ما ضَبَط ، ولو كانت به حاجةٌ إلى أحدٍ من خَلْقه لكان مثلَهم ، ولو كان يستعين على شىء يغلبه بغيره إذًا ما بلَغتْ قُدرتُه ما بلَغتْ ، ولا أحاطتْ بما أحاطتْ به ، ولا وَسِع ما آتّسع له من أمر خَلْقه ، وتدبير ما خَلَق ورَزَق وأمات وأحيا .

قالوا له : صدقت وعرفنا ما تقول وثبَت فى قلوبنا . ولكن حدّثنا ما بال خلقه يشركون به وهم يعرفونه حقَّ معرفته . قال : لأنه خلق فيهم الأهواء وطبع فيهم الشهوات ، وجَبَلهم على الضعف ، وثبّتَ معهم الشيطان . فمن قِبَل هذا عدَلوا به وهم يعرفون أنّ الذين يدعون من دونه لا يُحيونهم ولا يُميتونهم ، ولا يخلقونهم ولا يرزقونهم . ولا يضرّونهم ولا ينفعونهم . إذا مسّهم الضرّ فإيّاه يدعون و إليه يجأرون ؛ فعند ذلك آجتمع رأيهم على أن يأوُوا إلى الكهف ، وأن يتزلوا قومهم

وما يعبدون من دون الله، فعندها قالوا: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ قال: فلما اعتزلوهم وما يعبدون من دون الله آووا إلى الكهف رجاء أن ينشر لهم ربهم من رحمته ويهيئ لهم من أمرهم مرفقا. قال: وأرادوا أن يكونوا في عزلة من قومهم وشركهم حتى يفرق لهم رأيهم، فألقى الله عليهم السُّبات.

قال: وهم من مدينة من مدائن الروم يقال لها أُفْسُوس (١)، وملك الروم يومئذ دقيوس، ويقال — والله أعلم — إنّ عدّتهم سبعة، كان عبد الله بن عباس يسمّيهم بأسمائهم ويقول: ما يعلمهم إلا قليل وأنا من أولئك القليل، منهم مرطالوس، ونونوس، ودانيوس، وسراقيون، واسطاطالوس، ومكسلميس، وتمليخا، وهو الذى بعثوه بورقهم إلى المدينة ليرتادَ لهم. هذا قول ابن عباس، قال: وكانوا قوما يطلبون الصّيد لِمَا مسّهم من الضّر والحاجة ليس لهم كبيرُ معيشةٍ غيره، فقالوا قولهم هذا ونظروا ما نظروا، وهم يومئذ فى الجبل الذى فيه كهفهم يطلبون الصيد ومعهم كلابهم وبُزاتُهم وقِسيُّهم ونَبْلُهم. فلمّا أجمع رأيهم أن يأووا إلى الكَهْف ليأتمروا فيه، هل يُقيمون مع قومهم على شِرْكهم، أم يفارقونهم فينتجعون ناحيةً من الأرض يحلُّون فيها ويوحّدون فيها ربّهم. فبينا هُمْ على ذلك ألقَى الله عليهم السُّباتَ وأخفَى على جميع خَلْقه مكانهم، وصَرَف عنهم الأبصار والعقول، فليس يُبصرهم أحدٌ ولا يَفْطِن بمكانهم، فلَبِثوا فى كَهْفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تِسْعا، حتى انقرضَتِ الأمّةُ التى كانوا فيها والمَلِك الذى كان عليهم، وظهر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وآمنَ به الناس واتّبعوا ملّته و رفعه الله اليه وذهب زمانُه وزمانُ أهل ملّته وهم فى كهفهم.

(١) أفسوس: مدينة فى جزيرة باسمها فى البحر الأبيض على مقربة من ساحل آسيا الصغرى.

قال : وقد كان عيسى بن مريم عليه السلام قبل أن يرفعه الله يحدّث عنهم وعن إيمانهم وبصيرتهم ، وكيف تفكّروا فى عظمة إلهم ، وكيف ألقى الله عليهم السُّباتَ فى كهفهم ، وكيف أخفى مكانهم عن الناس ، ولا ينبغى لأحد أن يهتدى إليهم ولا يعرف مكانهم ، وكان يخبر أنّ الله سيردّ إليهم أرواحهم ويدلّ على كهفهم ليكونوا عِبْرة لمن خَلفهم إن أراد أن يعتبر بهم . ٥

قال : فردّ الله إليهم أرواحهم بعد أن لَبِثوا فى كهفهم العِدّة التى ذكرها الله عزّ وجلّ فى القرآن ولَزِمَهم كلبُهم ، فلبِثَ سِنِيهم كلّها ، كما أخبر الله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ . والوصيد : فناء الكَهْف الذى فيه موضع الباب ، وكان الكلب من كلاب صَيْدهم ولم يطعم ولم يشرب ليجعله الله آية من آياتهم .

قال : فلمّا ردّ الله عليهم أرواحهم ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ وهم حينئذ يظنّون أنّ قومهم أحياء ، وأنهم على ما يعهَدون من حالهم وشركهم وعُتُوّ مَلِكهم ، فانطلق رجل منهم يقال له تمليخا ، وكان أشدّهم وأنجدهم ، فتوجّه حتى إذا خالط رَبَض المدينة أنكره وأنكر ما وجد به من الناس والدوابّ والبُنيان وغير ذلك ، ووجد الناس على حال لم يكن يعهدها وسُنّةٍ لم يكن يعرفها ، ووجدهم يبتاعون بوَرِقٍ لا يُشْبِه الوَرِق الذى معه . فتحيّر وأنكر وأقبلَ وأدبر ، وأبطأ على أصحابه حتى خافوا عليه ، وظنّوا أنه فُطِن به وقُدِر عليه . فلمّا طال عليه ذلك دخل المدينةَ من ناحيةٍ أخرى من نواحيها خفيّةً فوجد حالَ أهل المدينة على حال أهل الرَّبَض فى كلّ شىء ، فلمّا شكّ وارتاب والتبس عليه رأيُه عَمَد إلى مشيخةٍ من أهل المدينة توسّم فيه الخير ليتجسّس ويسمعَ قولهم . فوجد معهم الإنجيل يقرءونه ، فسمع ما فيه من توحيد الله وعظمته وعذابه وسُنّته وشرائعه وحلاله وحرامه ، فعرف ذلك وأذعَنَ اليه وأنصتَ يسمع حتى إذا

فرغوا من قراءتهم سألهم عن كتابهم فقالوا : هذا كتاب الله الإنجيل الذى أُنزِل على
عيسى بن مريم عليه السلام نبيّه . قال : وأين عيسى؟ قالوا : قد رفعه الله تعالى
اليه . قال : وكم لبث فيكم؟ قالوا : ثلاثا وثلاثين سنة . قال : وهل رأيتموه
وأتيتموه وأدركتم زمانه؟ قالوا : لا، كان قبل أن نُولَد، ووجدنا كتابه فى أيدى
آبائنا . قال : أفكلّ هذه المدينة تؤمن بهذا النبىّ و بهذا الكتاب وتعمل بما فيه
مما أسمع من حلاله وحرامه ؟ قالوا : نعم ، إلّا مستحقًّا بذنب أو ظالما لنفسه .
قال : فهل سمعتم بالملك الذى يقال له دقيوس ؟ قالوا : نعم . قال : فكم له منذ
هلك ؟ قالوا : أكثر من ثلثمائة عام . قال : فهل بَقِىَ له عَقِبٌ، أو لأحدٍ من أهل
مملكته يعمل بعمله ؟ قالوا : لا . قال : فلو أراد أحد أن يعمل بمثل عمله
ما كنتم تفعلون به ؟ قالوا : نقتله أو نخرجه من بين أظهرنا .

فلمّا آمنهم وآطمأنّ إليهم ورأى سَمْتَ الإسلام وهَدْيَه عليهم وفّقه الله وهداه
لمسألة سألهم عنها . قال : أخبرونى، هل كان نبيّكم عيسى عليه السلام يخبركم عن
سبعة رَهْط خرجوا من هذه المدينة فى زمن دقيوس وقومه، وهربوا إلى الله بأنفسهم
ودينهم فراراً من دقيوس وقومه ، وما كانوا يعبُدون من دون الله حتى آوَوْا الى
الكهف فى هذه الجبال فآستخفُوا فيها . فلمّا قال لهم هذا أوجسوا فى أنفسهم
أنه منهم، قالوا : نعم ، قد كان يخبرنا عنهم فلعلك منهم فإنّا ننكر حالك كلّه .
قال : فهل كان عيسى عليه السلام فيما بلّغكم سمّى أصحاب الكهف ؟ قالوا : نعم؛
قال : فسمّوهم لى بأسمائهم، فسمّوهم حتى إذا ذكروا آسمه تمليخا قال : فأنا تمليخا
وأنا أحدهم، فخرّوا له سجّدا كما صنع إخوة يوسف بيوسف يوم دخلوا عليه؛ وكانت
تحيّتهم فيما بينهم السجودَ يومئذ ؛ ثم أدخلوه مسجدهم وعظّموه ووقّروه وأكرموه
ورفعوه وجمعوا له أهلَ مدينتهم وقرّاءهم وفقهاءهم ، فتبرّكوا به ، وجعلوا له عيدا

عظيما، وأقام أياما بين أظهرهم ثم قال لهم : إنّ أصحابى الذين يحدثكم عنهم عيسى عليه السلام لا أراهم إلا وقد خافوا علىّ وساء ظنّهم وهم يظنّون أنّ دقيوس حىّ، وأنّ زمانَه، وأنّ الدين دينُه، فانطلقوا بنا نُعلمهم كيف أهلكه الله وقومَه وطهّر الأرض منهم، وكيف ٱستبدل الله به وبأهل ملّته أمّة يوحّدونه ويعرفونه ويهدون بالحقّ وبه يَعدِلون . فٱنطلقوا معه حتى ٱنتهَوْا الى الكهف فوجدوا كلبهم باسطا ذراعَيْه بالوصيد فقالوا حين رأَوْه : وهذا الكلبُ أيضا من علاماتكم التى كان يحدّثنا عنها عيسى عليه السلام، وقد كان يحدِّث أنّ أصحاب الكهف لا ينظر إليهم أحدٌ من خلق الله من يوم يدخلون الكهف إلى أن ينزل عيسى بن مريم عليه السلام إلا رجلٌ واحدٌ منهم، وهو الذى يدلّ عليهم وعلى مكانهم، وأنت هو؛ فدخل على أصحابه فأخبرهم بما رأى وما لَقِىَ، ثم كان آخر العهد بهم . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ . قال : فبنوه حول الكهف وجعلوا الكهف فى وسطه وكتبوا القصّة على حيطانه .

قال وهب : فبلغنى — والله أعلم — أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : إنّ نزول أخى عيسى بن مريم عليه السلام عِلْمٌ للساعة، وإنّ الله يبشّرهم عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام، وإنه يحجّ فى سبعين ألفا فيهم أصحابُ الكهف لأنهم لم يموتوا، ثم تُقبل ريحٌ صفراء يمانيّة، ألين من الحرير، وريحُها ريحُ المسك فتقبض روح عيسى عليه السلام وأرواحَ مَنْ معه . انتهى خبر أصحاب الكهف، فلنرجع إلى ما كنّا فيه من أخبار ملوك الروم .

قال : ثم ملك بعد دقيوس جالش . فكانت مدّة ملكه ثلاث سنين . ثم ملك بعده فليطانس . فكانت مدّة ملكه عشرَ سنين . ثم كانت بعده ملوك الروم المتنصّرة .

ذكر أخبار ملوك الروم المتنصرة

وهم ملوك القسطنطينية

قال المسعودى[(١)] : لما هلك قليطانس ملك بعده قسطنطين برومية ، وهو أوّل من انتقل من ملوك الروم عن رومية إلى بيزنطيا ،-وهى القسطنطينية ، فبناها هذا الملك وسمّاها بهذا الاسم . قال : وكان خروجه من رومية ودخوله فى دين النصرانية لستّ خلتْ من مُلْكه ، وذلك أنّ أمّه هلانا[(٢)] خرجتْ إلى أرض الشام وبنت الكنائس وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى تزعُم النصارى أنّ عيسى عليه السلام صُلِبَ عليها ، فلمّا ظفِرتْ بها حلّتها بالذهب والفضة واتّخذت يومَ وجودها عيدا ، وهو عيدُ الصليب ، لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول . وهى التى ابتنت كنيسة حمص على أربعة أركان ، واستخرجت الدفائن بمصر والشام ، وصرفت ذلك فى بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية ، فكلّ كنيسة بالشام ومصر من بناء هذه الملكة هلانا .

قال : ولسبع عشرة سنة خلتْ من مُلْك قُسْطَنطين اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا بمدينة نيقية[(٣)] بأرض الروم فأقاموا دين النصرانية . وهذا الاجتماع أوّل

(١) (راجع ج ١ ص ١٥٢ طبع بلاق) .

(٢) كذا فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٥٢ طبع بلاق) ، وفى نسختى أ و ب « هلاى » وهو تحريف .

(٣) قال ابن الهروى : مدينة نيقية من أعمال اصطنبول على البر الشرقى وهى المدينة التى اجتمع بها آباء الملة المسيحية ، وكانوا ثلثمائة وثمانية عشر أبا يزعمون أن المسيح عليه السلام كان معهم فى هذا المجمع ، وهو أول المجامع لهذه الملة وبه أظهروا الأمانة التى هى أصل دينهم وصورهم وصورة كراسيهم بهذه المدينة فى بيعتها ولهم فيها اعتقاد عظيم ، وفى الطريق من هذه المدينة إلى بلاد الروم الشمالية قبر أبى محمد البطال على رأس تل عال فى حدّ تخوم البلاد (راجع معجم البلدان لياقوت فى كلامه على نيقية) .

الاجتماعات الستة التى تذكرها الروم فى كلامهم وتسميها القوانين ، ومعنى هـذه الاجتماعات السنودسات واحدها سونودس. فالأول بنيقية وكان الاجتماع فيه على أرنوس، وهذا اتفاق من سائر أهل دين النصرانية. والسنودس الثانى بقسطنطينية على مقدونس ، وعدة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلا . والثالث بأفسيس وعدة من اجتمع فيه من الأساقفة مائة رجل . والرابع بخلقدونية[1] وعددهم ستمائة وستون رجلا . والخامس بقسطنطينية وعددهم مائة وستة وأربعون رجلا . والسادس كان فى [ملكة[2]] المدن ، وعدتهم مائتان وثمانون رجلا .

قال : وكان السبب فى دخول قسطنطين فى دين النصرانية أنه خرج فى بعض حروب أبرجان أو غيرهم من الأمم ، فكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة ، ثم كانت عليه فى بعض الأيام فقتل من أصحابه خلق كثير وخاف البوار[3] فرأى فى نومه كأن رماحا نزلت من السماء فيها عذب[4] وأعلام على رأسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع الجواهر والخشب ، وقيل له : خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوك تنتصر، فجعل يحارب فى النوم فرأى عدوه قد انهزم ، فاستيقظ من نومه ودعا بالرماح وركب عليها الصلبان مثل ما رأى ، ورفعها فى عسكره وزحف إلى عدوه فكسرهم وأخذهم السيف ، فرجع إلى مدينة نيقية وسأل عن تلك الصلبان وهل يعرفون ذلك فى شىء من الآراء والنحل ؟ فقيل له : إن بيت المقدس من أرض الشام يجمع هـذا المذهب ، وأخبروه بما فعله من قبله من الملوك من قتل

---

(١) هكذا فى مروج الذهب للمسعودى ، وفى نسختى ا ، ب « بخلفورية » .

(٢) التكملة من مروج الذهب للسعودى .

(٣) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصول : « ذرى » .

(٤) عذب : جمع عذبة ، وعذبة الرمح خرقة تشد على رأسه .

النصارى ، فبعث إلى الشام و بيت المقدس وحشر له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا فأتوه بنيقية فقصّ عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانيّة ؛ فهذا هو السّنودس الأوّل .

وقيل : إنّ أمّه كانت قد تنصّرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا . وكان ملكه إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة ، وقيل خمسا وعشرين .

ثم ملك بعده قُسْطنطين بن قُسْطنطين . فكانت مُدّة ملكه أربعا وعشرين سنة . وآبتنى كنائس كثيرة وشيّد دين النصرانيّة .

ثم ملك بعده آبن عمه بوليانس[1] المعروف بالحُنَيفى ويسمّى البِرْباط . قال : ولمّا ملك رجع عن دين النصرانية وغيّر رسومها وغزا العراق فى ملك سابور بن أردشير فأتاه سَهْم غَرْبٍ[2] فذبحه . ولمّا هلك جَزَع مَن كان معه من الملوك والبطارقة ففزعوا إلى بِطْريق كان معظّما عندهم يقال له يونياس[3] ، وقيل : إنه كان كاتبا للملك الماضى ، فأبى عليهم إلّا أن يرجعوا إلى دين النصرانية ، فأجابوه إلى ذلك فملّك عليهم يونياس المذكور .

قال : ولمّا ملك كان له مراسلات مع سابور ومُهادنة وآجتماع ، ثم آنصرف بجيوش النصرانيّة موادعا لسابور وأخلف عليه ما أتلف الملك الماضى من أرضه بأموال حملها إليه وهدايا من ألطاف الروم ، وشيّد النصرانيّة وأعاد معالمها ، ومنع من عبادة الأصنام والتماثيل . وقتل مَن كان على عبادتها . فكان مُلْكه سنة .

---

(١) كذا فى مروج الذهب للسعودى ، وفى نسخة أ « بقرياس » وفى نسخة ب « لقيانس » .

(٢) سهم غرب ، بالإضافة وعلى الوصف ، : أى لا يدرى راميه .

(٣) فى مروج الذهب للمسعودى : « مريناس » .

ثم ملك بعده أوالس قال : ولمّا ملك كان على دين النصرانيّة ثم رجع عنه ، وهلك فى بعض حروبه ، فكان مُلْكه الى أن هلك أربع عشرة سنة . وقيل : إن فى أيامه آستيقظ أهل الكهف .

ثم ملك بعده غراطيانس[1] . فكانت مدّة مُلْكه خمس عشرة سنة ، ولسنةٍ من مُلْكه كان آجتماع النصرانيّة ، وهو آخر الآجتماعات، فأتمّوا القول فى روح القدس، وهو السُّنودس الثانى . ٥

ثم ملك بعده بدرسيس الأكبر ، وتفسير هذا الآسم عطيّة الله . قال : ولما ملك قام بدين النصرانيـة وعظّم أمرها وأبتنى الكنائس، ولم يكن من أهل بيت المقدس ولا من الروم؛ بل كان أصله من الأشبان، وهم بعض الأمم السالفة . قال : وقد كانت ممن ملكت الشام ومصر والمغرب والأندلس . وقد ١٠ تنازع الناس فيهم ، فذكر الواقدىّ فى كتاب فتوح الأمصار أنّ بدءهم من أهل أصبهان، وأنهم ناقلة من هنالك، وهذا يُوجِب أنهم من قِبَل ملوك فارس .

قال : وذكر عُبَيد الله بن خُرّدَاذْبَه نحو ذلك ، وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السِّير والأخبار .

قال المسعودىّ : والأشهر من أمرهم أنهم من ولد يافث بن نوح ، وهم ١٥ اللذارقة ملوك الأندلس واحدهم لَذْرِيق، وقد تُنُوزع فى دياناتهم، فمنهم من رأى انهم على دين المجوس ، ومنهم مَن رأى أنهم على مذهب الصابئة وغيرهم من عَبَدَة الأصنام . قال : وكان مُلْك بدرسيس الى أن هلك تسعَ عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده أوقاديس[2] . فكان مُلْكه أربعَ عشرةَ سنة [وكان][3] على دين النصرانية .

(١) فى مروج الذهب : (ج ١ ص ١٥٥ طبع بلاق) : « غراطفامس » . ٢٠
(٢) فى مروج الذهب : (أرباديس) . (٣) التكملة من مروج الذهب .

٨٥/١٣

ثم ملك بعده بدرسيس الأصغر ، وذلك بمدينة أفسس : وجمع مائتى أسقف وهو الآجتماع الثالث من الأسنودسات ، ولعن فيه نسطورس البطرك ، وإليه تنسب النسطوريّة من النصارى . وكان مُلْك هذا الملك الى أن هلك اثنتين وأربعين سنة .

٥ ثم ملك بعده مرقيافس[(١)] وزوجته بلجاريا . فكانت ملكة معه . وكان مُلْكهما سبع سنين ، وفى أيامهما كان خبر اليعاقبة ووقوع الخلاف بينهم فى الثالوث . قال : وأكثر اليعاقبة من النصارى بالعراق وتكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها إلا اليسير فإنهم مَلَكيّة ، والنوبة والأرمن يعاقبة ؛ ومطران اليعاقبة بين الموصل وبغداد وتكريت ، وكان لهم بالقرب من رأس عين[(٢)] واحد فمات ، وآنتقل مطرانها

١٠ الى بلاد حلب وقِنّسرين والعواصم .

قال المسعودىّ : وكرسى اليعاقبة [رسمه[(٣)]] أن يكون بمدينة أنطاكية ، وكذلك لهم كرسى بمصر .

ثم ملكا بعدهما ليون الأصغر بن ليون . فكان ملكه ستّ عشرةَ سنة ، وفى أيامه أحرم مسعدة[(٤)] اليعقوبىّ بطرك الإسكندرية ، وآجتمع له من الأساقفة ستمائة وثلاثون

١٥ أسقفا . وفى تاريخ الروم أنّ عدّة المجتمعة ستمائة وستون رجلا ، وذلك بخلقدونية ، وهذا الآجتماع هو السُّنودس الرابع عند الملكية . واليعاقبة لا تعتدّ بهذا السنودس .

(١) فى مروج الذهب : (مرقيانوس) .

(٢) رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر ، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخا ، وقريب من ذلك بينها وبين حران وهى إلى دنيسر أقرب بينهما نحو عشرة فراسخ

٢٠ (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٣) التكملة من مروج الذهب للسعودى .

(٤) كذا فى مروج الذهب ، وفى الأصول (أخرج لسفره ...) وهو تحريف .

قال : واليعاقبة أضيفتْ الى يعقوب البرذعىّ وبه عُرفت، وكان من أهل أنطاكية، وكان يعمل البراذع بها .

ثم ملك بعده ابنٌ له على دين الملكية . فكانت مدّة مُلْكه الى أن هلك سنة .

ثم ملك بعده بير وهو من بلاد الأَرْمينان، وكان ملكه سبعَ عشرةَ سنة، وكان يميل الى رأى اليعاقبة ، وكان له حروب مع خَوارجَ خرجوا عليه فى دار مُلْكه فظفِر بهم .

ثم ملك بعده نسطاس، وكان يذهب الى مذهب اليعاقبة، وهو الذى بنى مدينة عَمُّورِيّة، وأصاب كنوزا ودفائن عظيمة . وكان ملكه تسعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده توسطيانس تسع سنين .

ثم ملك بعده سطيانس . فكان ملكه تسعا وثلاثين سنة، وبنى كنائس كثيرة، وشيّد دين النصرانيّة وأظهر مذاهب الملكية، وبنى كنيسة الرُّها ، وهى إحدى عجائب مبانى العالَم .

قال : وقد كان فى هذه الكنيسة مِنديل يعظّمه أهل دين النصرانية، وهو أن اليسوع الناصرىّ حين أُخرج من ماء المعمودية نُشِّف به، فلم يزل هذا المِنْديل يُتَداوَل الى أن قرّر على كنيسة الرُّها، فلمّا آشتدّ أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرُّها فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أعطى هذا المنديل للروم فوقعت الهدنة عليه، وفرح الروم به فرحا عظيما .

ولما هلك هذا الملك ملك بعده قوسطيس وهو آبن أخيه ، وكان ملكه الى أن هلك ثلاث عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده طباريس . فكان ملكه أربع سنين، وأظهر فى مدّة ملكه أنواعا من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك .

ثم ملك بعده مورقيس، وقيل فيه موريقس، فكانت مدّة ملكه عشرين سنة، وهو الذى نصر كسرى أبرويز على بهرام جوبين على ما قدّمناه ، ثم قتل وانتصر أبرويز لولده وبعث بجيوش الفرس، وكانت له حروب ذكرناها .

ثم ملك بعده قرقاس[1]. فكان ملكه الى أن قُتل أيضا ثمانى سنين .

ثم ملك بعده هِرَقْلُ وكان بطريقا فى بعض الجزائر قبل ذلك . قال : ولمّا ملك عمّر بيت المقدس وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام، وبنى الكنائس . ولسبع سنين خلت من ملكه كانت هجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام

قال المسعودىّ : وجدتُ فى كتب التواريخ تنازُعا فى مولد النبىّ صلى الله عليه وسلم وفى عصر مَن كان من ملوك الروم؛ فمنهم من ذهبَ الى ما قدّمناه ، ومنهم من رأى أنّ مولده صلى الله عليه وسلم كان فى مُلْك نوسطينوس . وكان ملكه سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده نوسطينوس الثانى، وكان ملكه عشرين سنة .

ثم ملك بعده هِرَقْل بن نوسطينوس ، وهو الذى ضرب الدنانير والدراهم الهِرَقْلية . وكان ملكه خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده ابنه مورق بن هرقل ، وهو الذى كتب الزِّيجات فى النجوم، وعليه يَعمَل أهل الحساب . وفى تواريخ ملوك الروم فيمن سلف وخلف أنّ المَلِك

(١) فى مروج الذهب : (قرماس) بالميم .

للروم كان فى وقت ظهور الإسلام وخلافة أبى بكر وعمر هِرَقْل . وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب تواريخ أهل السِّيَر . وفى تواريخ أصحاب السِّيَر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر وملك الروم قيصر بن فوق .

ثم ملك بعده قيصر بن قيصر ، وذلك فى أيام أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه .

ثم ملك بعده هرقل بن قيصر فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو الذى حاربه أمراء الإسلام الذين فتحوا الشام على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى خلافة عمر رضى الله عنه .

ثم ملك بعده مورق بن هِرَقْل فى خلافة عثمان بن عفّان رضى الله عنه .

ثم ملك بعده فوق بن مورق فى خلافة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وأيام معاوية بن أبى سفيان .

ثم ملك بعده فلقط (١) بن مورق بقيّة أيام معاوية بن أبى سفيان ، وكانت بينهما مراسلات ومُهادنات ، وكان مُلْكه فى آخر أيام معاوية وأيام يزيد ابنه ومعاوية ابن يزيد ومَرْوان بن الحكم وصَدْرا من أيام ابنه عبد الملك بن مَرْوان .

ثم ملك بعده لاوِى (٢) بن فلقط فى بقيّة أيام عبد الملك بن مروان .

ثم ملك بعده جيرون بن لاوِى فى أيام الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك أخيه وعمر بن عبد العزيز ، ثم اضطرب مُلْك الروم لما كان من أمر مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان وغَزْو المسلمين لهم فى البرّ والبحر ، فملّكوا عليهم رجلا من غير

---

(١) فى مروج الذهب : (قلفط) بالقاف .

(٢) فى مروج الذهب : (لاون) .

أهل بيت المُلك من أهل مَرْعَش[1] يقال له جرجس[2]. فكان مُلكه تسع عشرة سنة. ولم يزل مُلك الروم فى آضطراب الى أن مَلَك عليهم قسطنطين بن اليون، وذلك فى خلافة أبى العباس السفّاح وأبى جعفر المنصور.

ثم ملك بعده اليُون بن قُسطنطين، وكانت أمّه أرسى ملكةً معه ومشاركةً له فى المُلك لصغر سنّه. وملك فى أيام المهدى والهادى.

ثم ملك بعده قسطنطين بن اليون بن قسطنطين، وكانت أمّه مشاركة له وسملت عيناها بعد موته.

ثم ملك بعده نقفور بن استبراق، وكان لهذا الملك مراسلاتٌ وحروبٌ مع الرشيد، وغزاه الرشيد فأعطى القَوَد من نفسه من بعد بَغْى كان منه فى بعض مراسلاته، فآنصرف الرشيد عنه ثم غدر ونَقَض ما كان أعطاه من الآنقياد، فكتم الرشيد أمره لعارض عِلّة كان وَجَدها بالرَّقّة[3]، ثم تجهّز وغزاه فنزل على هِرَقْلَة[4]، وذلك فى سنة سبعين ومائة، فحاصرهما سبعةَ عشرَ يوما فأصيبَ خلقٌ من المسلمين وفَنِيتْ الأزواد والعلوفات، ثم فتحها عَنْوة. وقيل: إنهم بادروا لمّا فتحها بطلب الأمان فأُمِّنوا. والأشهر أنه فتحها عَنْوة.

ثم ملك بعده استبراق بن نقفور بن استبراق. وكان مُلكه فى أيام الأمين، ولم يزل ملكا حتى غَلَب على المُلك قسطنطين بن فلقط، وكان مُلكه فى خلافة المأمون.

---

(١) مرعش: بلدة من الشام. (٢) فى مروج الذهب: «جرجيس».

(٣) الرقة: مدينة على الفرات من ديار مضر، و يقال لها: «الرافقة».

(٤) هرقلة: هى فى شرق نهر ينزل من جبل العلايا الى آخر سنوب، وهى عليه فى قرب البحر، وفى شرقها جبل الكهف عند الروم.

ثم ملك بعـده توفيل[1] وذلك فى خلافة المعتصم ، وهو الذى فتح زِبطرة وغزاه المعتصم بعد فتح عَمُّورِيّة .

ثم ملك بعده ميخائيل بن توفيل، وذلك فى خلافة الواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين ، ثم كان بين الروم تنازُعٌ فى الملك ، فملّكوا عليهم توفيل بن ميخائيل ابن توفيل .

٥

ثم غلب على الملك بسيل الصقلبىّ[2] ولم يكن من أهل بيت الملك . وكان مُلْكه فى أيام المعتزّ والمهتدى و بعض أيام المعتمد .

$\frac{٨١}{١٢}$

ثم ملك بعده اليون بن بسيل . فكان مُلْكه بقيّة أيام المعتمد وصَدْرا من أيام المعتضد الى أن هَلَك .

١٠ ثم ملك بعده الإسكندروس فلم تحمد الروم أمره فخلعوه .

وملّكوا عليهم أخاه لاوى بن اليون بن بسيل الصقلبىّ . فكان ملكه بقيّة أيام المعتضد وأيام المكتفى وصَدْرا من أيام المقتدر .

---

(١) زبطرة : ضبطها ياقوت بكسر الزاى ، وضبطها صاحب تقويم البلدان بفتحها وفتح الباء وسكون الطاء . قال ابن حوقل : وأما زبطرة فإنها حصن من أقرب الثغور الى بلد الروم ، خربها الروم .

١٥ وقال صاحب تقويم البلدان : وزبطرة اليوم خراب خالية من الزرع والسكان ولم يبق منها غير رسم سورها وليس بالكثير ، وهى فى أرض مستوية والجبال تحيط بها والشجرة من جميع جهاتها على القرب منها وهى فى الجنوب عن ملطية على نحو مرحلتين ، وهى فى جهة الغرب عن حصن منصور على مرحلتين أيضا و بينها و بين حصن منصور الجبل والدربند ، ولقد اجتزت بها فى عام فتحنا ملطية فى المحرم سنة خمس عشرة وسبعمائة وكان فى شهر نيسان واصطدنا من أرض زبطرة بين شجر البلوط صيودا كثيرة وهى أرانب كبار الى الغاية لا يوجد فى الشام أرانب تقارب بهن فى القدر . (راجع تقويم البلدان ص ٢٣٤ طبع أوربا) . ٢٠

(٢) كذا فى الطبرى (ص١٨٥٨ ، ١٨٥٩ من القسم الثالث طبع أوربا) ومروج الذهب للسعودى . وفى الأصول : « الصقلى » .

ثم هلك وخلّف ولدا صغيرا يقال له قسطنطين فملك وُغلب على مشاركته فى الملك أرمنوس بطريق البحر صاحب حربه . قال: فزوج قسطنطين الصبي بآبنته ، وذلك فى بقيّة أيام المقتدر وأيام القاهر والراضى والمتق ، وذلك فى سنة آثنين وثلاثين وثلثمائة .

٥ قال المسعودى : فملوك الروم فى هذا الوقت ثلاثة ، فالأكبر منهم والمدبّر للأمور أرمنوس المتغلّب على المُلْك ، ثم قسطنطين بن لاوى بن اليون بن بسيل ، والثالث آبنٌ لأرمنوس يُخاطَب بالمَلِك آسمه اسطفانس وجعل أرمنوس آبنا له آخر صاحب الكرسى بالقسطنطينية ، وهو البطريك الأكبر الذى يأخذون عنه دينهم ، وقد كان خصاه قبل ذلك أبوه وقرّبه الى الكنيسة . وهذا آخر من ذكره المسعودى
١٠ من ملوك الروم ولم نجد من ضبط أمرهم بعده على آتساق فنذكره .

قال : فعدّة ملوك الرُّوم المتنصِّرة من قسطنطين بن هلاى الذى أظهر دين النصرانيّة بالروم الى هذا الوقت أحد وأربعون ملكا، ولم يعدّ [ابن](١) أرمنوس . وسنيهم خمسمائة سنة وسبع سنين .

وقال فى ملوك رُومِيَة : والذى وجدت فى أكثر كتب التواريخ مما آتفقوا
١٥ عليه أن عدّة ملوك الروم الذين ملكوا مدينة رُومِيَة، وهم الذين ذكرهم فى كتابه وذكرناهم نحن فى كتابنا هذا، تسعة وأربعون ملكا(٢)، وجميع عدد سنى مُلْكهم، من أوّل مَن مَلَكهم على حسب ما ذكرناه من الخلاف فى صدر هذا الفصل إلى قسطنطين ابن هلاى ، أربعمائة سنة وثلاثون سنة وسبعة أشهر وستة أيام . والله أعلم .

---

(١) التكملة من المسعودى .
٢٠ (٢) فى المسعودى . (اثنان وأربعون) .

ذكر أخبار ملوك الصَّقَالِبَة والنُّوكَبَرْد

قال المسعودىّ : الصقالبة من ولد ماراى بن يافث بن نوح ، و إليـه يرجع سائر أجناس الصقالبـة و به يُلْحَقُون فى أنسابهم . ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانيّة اليعاقبة ، ومنهم من لا كتابَ له ولا ينقاد إلى شريعة . وهم أجناس : فنهم جنس كان المُلْك فيهم قديمـا فى صَدْر الزمان ، وكان مَلِكهم يُدعَى ماجك ، وهذا الجنس يدعى لبنانا[1] ، وكان يتلو هذا الجنس قديما فى صَدْر الزمان سائر أجناس الصقالبة وهم اصطبرانة ، ومَلِكُهم يُدعَى بصقلابح . وجنسٌ يقال له ناجين ، ومَلِكُهم يدعى عرابة[2] ، وهذ الجنس أشجعُ الصقالبة ، وجنس يدعى مَنَاى[3] ، وملكهم رتبيل ، ثم جنْس يقال له سِرْتين ، وهو جِنْسٌ مَهِيبٌ عنـدهم ، ثم جِنْسٌ يقال له مراوة ، ثم جروانيق وصَاصِين وخشانين وزانجابين .

قال : والجنْس الذى يُدعَى سِرتين يحرقون أنفسهـم بالنار ، و إذا مات لهم ملك أو رئيس يحرقونه و يحرقون دوابّه ، ولهم أفعالٌ كأفعال الهند .

قال : ومن الصقالبة جِنْسٌ ٱلتحق بالخَزَر والروس . قال : والأوّل من ملوك الصقالبة ملك الدير ، وله مُدُن واسـعة وعمائر كثيرة ، وهو يحارب الروم والفرنج والنوكبرد وغيرهم من الأمم ، والحـرب بينهم سِجَال : ثم يلى هـذا الملك من بلاد الصقالبة ملوك الترك . قال : والصقالبة أجناس كثيرة ، ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم فزال نظامهم وملَّك كلّ جِنْس منهم عليهم ملكا .

هذا ما أورده المسعودى من أخبار الصقالبة . والله أعلم .

---

(١) فى المسعود : (ج ٣ ص ٦٢ طبع أوربا) « واينانا » .

(٢) فى المسعودى طبع أوربا : «عزنة» .

(٣) فى المسعودى : « منابن » .

*
* *

وأما النُّوكَبَرْد فقال المسعودى فيهم : إنهم أيضا من ولد يافث و بلادهم متّصلة ببلاد المغرب ، ولهم جزائر كثيرةٌ فيها أممٌ من الناس . وهم ذو بأس شديد ومَنَعَة ، ولهم مُدُنٌ كثيرةٌ ويجمعهم بلدٌ واحدٌ .

٥ قال : وأسماء ملوكهم فى سائر الأعصار أريكس ، والمدينة العُظْمَى من مُدُنهم ودار مملكتهم تُبُتٌ[1] وهى مدينـةٌ عظيمةٌ يخترقها نهر عظيم من أعظم الأنهار آسمـه سابيط والمدينة على جانبيه .

٨٨ / ١٣

قال : ومن مُدُنهم التى كان المسلمون ببلاد الأندلس قد غلبوهم عليها وسلبوها منهـم وسكنوها ثم آستعادها النُّوكَبَرْد بعد ذلك من المسلمين مدينـة تارة ومدينة ١٠ طارينو ومدينة سـيرنية ، ولم يذكُر من أمرهم خلافَ ذلك فنذكره .

ذكر خبر ملوك الإفرنجة والجلالقه

قال المسعودى[2] : لاخلافَ أنّ الإفرِنجةَ والجلالِقَة والصقاليةَ والنُّوكَبَرْد والأسبان والترك والخـزَر وبُرْجان واللان و يأجوج ومأجوج وغيرَ مَن ذكرنا ممن سكن بلاد الشمال من ولد يافث بن نوح .

١٥ قال : والإفرنجةُ أشـدّ هؤلاء الأجنـاس بأسا ، وأمنعُهـم وأكثرُهم عُدّة ، وأوسعُهم مُلْكا ، وأحسنُهم نظاما ، وآنقيادا لملوكهم ، وأكثرُهم طاعةً .

قال : والجلالقةُ أشـدُّ من الإفرنجة وأعظمُ منهم نِكايةً . والرجلُ الواحدُ من الجلالقة يقاوم عِدّة من الإفرِنجة . ثم قال : وكلمة الإفرنجة متّفقةٌ على ملك واحد

(١) كذا فى المسعودى (ج ١ ص ١٩٧ طبع بلاق) ووردت فى الأصول هكذا : «بتبت» .

٢٠ (٢) راجع (ج ١ ص ١٩٦ طبع بلاق) .

لا تنازع بينهم فى ذلك ، ومُدُنهم تزيد على مائة وخمسين مدينة غير الكُور .
وكانت أوائل بلادهم قبل ظهور الإسلام فى البحر فى جزيرة رودس وجزيرة
إقريطش ، ثم ملكوا بلاد الغرب وٱستولوا عليها .

قال : وأول ملوك الإفرنجة قلويا[1] وكان مجوسيًّا فنصّرته ٱمرأته عرضلة .

ثم ملك بعده ٱبنه لذريق .

ثم ملك بعده ٱبنه دفسوت[2] .

ثم ملك بعده ٱبنه قادله .

ثم ملك بعده ٱبنه بيبق .

ثم ملك بعده قادله . وكانت ولايته ستًّا وعشرين سنة ، وذلك فى أيام الحَكَم
صاحب الأندلس ، وتدافع أولادُه بعده ووقع الأختلاف بينهم حتى تفانت ١٠
الإفرنجة بسببهم .

وسار لذريق بن قادله فملك ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، وهو الذى
أقبل إلى طرطوشة فحاصرها .

ثم ملك بعده قادله بن لذريق تسعا وثلاثين سنة وستّة أشهر .

ثم ملك بعده ٱبنه لذريق ستّة أعوام ، ثم خرج عليه قائدٌ للإفرنجة يسمّى يُوسَة ١٥
فملك الإفرنجة وأقام فى الملك ثمانى سنين . وهو الذى صالح المجوس على بلده سبع
سنين بستمائة رطل ذهبا وستمائة رطل فضّة يؤدّيها صاحب الإفرنجة إليهم .

---

(١) فى المسعودى طبع أوربا : « قلودية » .

(٢) فى المسعودى طبع أوربا : « دقشرت » .

ثم ولى بعده قادله وأقام فى الملك إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر .

ثم ولى بعده لذريق بن قادله وآستمرّ فى الملك إلى سنة ستّ وثلاثين وثلثمائة .

هـذا ما أورده المسعودىّ من أخبارهم فى كتابه المترجم بمروج الذهب[١] ومعادن الجوهر .

٥ ثم آقتسمت بعد ذلك ممالكهم وآنبسطت أيديهم وآستولوا على أكثر بلاد الغرب وغيرها .

ذكر طوائف السودان وشىء من أخبارهم ونسبهم

قال المسعودىّ : لمّـا تفرّق ولدُ نوح فى الأرض سـار ولدُ كُوش بن كَنْعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر . ثم آفترقوا فسارتْ طائفةٌ منهم متيمّين المشرق، ١٠ وهم النُّوبة والحَبَشة والزنج . وسار فريقٌ منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة : الزغاوَة والكانم ومَرْتَك[٢] وكَوْكَو[٣] والجى وغانَة وغير ذلك من أنواع الأحابش والدمادِم، ثم آفترق الذين يمّموا بين المشرق والمغرب، فصارت الزّنج من المكين[٤] والمسكو وذبرا وغيرهم من أنواع الزّنج .

قال : ومن مدنهم بَرْبَرَا وهى مدينة على خليج من البحر الحبشىّ يسمّى الخليج ١٥ البربرىّ، طوله خمسمائة ميل وعرضه مائة ميل .

---

(١) الذى فى مروج الذهب للسعودى يخالف ما هنا فى بعض المواضع فراجعه .

(٢) كذا فى المسعودى (طبع أوربا) وفيه (طبع بلاق) « التابو » وفى الأصول « القافر » .

(٣) كذا فى المسعودى (طبع بلاق) وفى الأصول « اكى » .

(٤) كذا بالأصل، والذى فى مروج الذهب (طبع أوربا) « المكير والمشكر »، وفيه (طبع بلاق)
٢٠ «المكين والمسكون وبربرا» .

قال : وليستْ هذه بَرْبَرَا هى التى تُنسَب إليها البرابرة الذين بالمغرب من أرض إفريقية . قال : ولباسُ هؤلاء الزَّنج جلود النمورة ، وهى جلودٌ كبيرةٌ تُحمَل من أرضهم الى بلاد الإسلام . قال : وأقاصِى بلاد الزنج بلاد سفالة وأقاصيه بلاد الواق واق ، وهى أرضٌ كثيرةُ الذهب كثيرةُ العجائب والخصب ، حارّة . واتّخذ بها الزنج دار مملكة وملّكوا عليهم مَلِكا آسمه « وَقْلِيمِى » وهى نسبةٌ لسائر ملوكهم فى سائر الأعصار . ٥

قال : ويرَكب وَقْلِيمِى وهو ملك من ملوك الزنج فى ثلثمائة ألف راكب ، ودوابّهم البقر ، وليس فى أرضهم خيلٌ ولا بغالٌ ولا إبِلٌ ولا يعرفونها ، وإنما يركبون البقر بالسروج واللُّجُم ، ويقاتلون عليها وهى تعدو بهم كالخيل .

قال المسعودىّ : رأيتُ بالرىّ نوعا من هذه البقر تبرك كما يبرك الجمل وتحمل وتثُور بأحمالها ، وتحمل عليها الميتة من الخيل والإبل وغيرها فتنهض بحملها . ١٠ والغالبُ على هذا النوع من البقر حُمْرة الحدَق وسائر البقر تنفر منها . قال : ولا يقع البردُ فى بلاد الزّنج . قال : ومنهم ناسٌ مُحدَّدو الأسنان يأكل بعضُهم بعضا . قال : ومساكن الزّنج من حدّ الخليج المشعَّب من أعلى النيل الى بلاد سفالة والواق واق ، ومقدار مسافة مساكنهم واتصالها فى الطول والعرض سبعمائة فرسخ : برٌّ وأوديةٌ وجبالٌ ورِمالٌ . ١٥

قال المسعودىّ : ومعنى تسمية ملك الزنج « وَقْلِيمِى » أى آبن الربّ الكبير ؛ لأنه آختارهم لملكهم والعدل فيهم ، فمتى جار الملك عليهم فى حُكمه أو حادّ عن الحقّ قتلوه وحرّموا عقِبَه المُلْكَ . وزعموا أنه إذا فعل ذلك فقد بطَل أن يكون آبن الربّ الذى هو ملك السماء والأرض ، ويسمّون الخالق عزّ وجلّ (مكليجو) وتفسيره الربّ الكبير . ٢٠

قال: والزّنج أولو فصاحة فى ألسنتهم وفيهم خطباء بلغتهم؛ يقف الرجلُ الزاهدُ منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم يرغّبهم فى القُرْب من ربّهم ويبعثهم على طاعته، ويُرهبهم من عقابه، ويذكّرهم مَن سَلَف من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعةٌ يرجعون اليها بل رسومٌ لملوكهم، وأنواعٌ من السياسات يرجعون اليها ويَسُوسُون بها رعيّتهم ، وأكثرُ أكلهم المَوْز ، وهو كثيرٌ ببلدهم ، وغالبُ أقواتهم الذُّرَة ونَبْتٌ يقال له الكلارى[1] يُقتلَع من الأرض كالكَمْأة والراسن، ويأكلون العسَل واللحم .

قال : ومَن هَوِى منهم شيئا من نباتٍ أو حيوانٍ أو جمادٍ عَبَدَه . وجزائرُهم لا تُحصَى كثرةً وفيها النارجيل .

وأمّا النّوبة وما قيل فيها فآفترقتْ فرقتين فى شرقىّ النيل وغربيّه وأناخت على شطّيه وآتّصلتْ ديارُها بديار مصر، وآتّسعتْ مساكنُها على شاطئ النيل مُصعدةً . ومدينتهم دُنْقُله . والفريق الآخر من النوبة يقال له عَلْوة وينزل مدينة الملك وآسمها سُرْبة .

وأمّا البُجَة وما قيل فيها فإنّها نزلتْ بينَ بحر القُلْزُم ونيلِ مصر وتشعّبوا فِرَقا وملّكوا عليهم ملوكا ، وفى أرضهم معادن الذهب . قال : وآنضافَ إلى البُجَة طائفةٌ من العرب من ربيعة بن نزار بن معدّ بن عَدْنان وتزوّجوا من البُجَة .

وأمّا الحَبَشَة وما قيل فيها فإنّ دارَ مُلْكهم كَعْبَر ، وهى مدينة عظيمة ، وهى دارُ مملكة النجاشىّ . وللحَبَشة مُدُنٌ كثيرةٌ وعمائرُ واسعةٌ ، ويتّصل مُلْك النجاشىّ بالبحر الحَبَشىّ ، وله ساحلٌ فيه مدينةٌ كبيرةٌ ، وهو مقابلٌ لبلاد اليمن . فمن مُدُن الحبشة

(١) فى المسعودى : « ويشبه هذا الكلارى القلقاس الذى يكون بالشام ومصر » .

على الساحل : الزَّيْلَع والدَّهْلَك وناصِع؛ وفى هذه المُدُن جماعةٌ من المسلمين إلّا أنهم فى ذمّة الحبشة .

قال : وبين ساحل الحبشة ومدينة غَلافقة ، وهى ساحل زبيد من أرض اليمن ، ثلاثة أيام عرض البحر . قال : ومنه عَبَرت الحبشة الى اليمن حين ملكته فى أيام ذى نُوَاس ، وهذا الموضع هو أقلّ هذا البحر عرضا . ٥

قال : وهنالك جزائر بين الساحلين منها : جزيرة العقل فيها ماء يُشرب فيفعَل فى القرائح والذكاء فعلا جميلا ، وبها جزيرة أسقطرة . وأما غير هؤلاء من الحبشة فنهم من أمعن فى المغرب مثل : الزَّغاوَة والكَوْكَوْ والقواقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطين ودُوَيْلة والقرمة . قال : ولكل طائفة من هؤلاء الطوائف وغيرهم ملكٌ يرجعون اليه . ١٠

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أخبار ملوك العرب ويتّصل بهذا الباب خبر سَيْل العَرِم

٩٠
١٣

ذكر أخبار ملوك قَحْطان

٥ قال المؤرّخون : لم يكن للعرب مُلْك حقيقىّ ، وإنما كان من مَلَك حِمْير فى بلاد اليمن سُمّى مَلِكا ، وقد كانوا فى بعض الأوقات يخرجون من بلادهم ويَسِيحون فى الأرض حتّى بلغوا أقصى المغرب ، وبلغوا من حدود المشرق سَمَرْقَنْد ، وبلغوا باب الأبواب ، ودخلوا بلادَ الهند ولم يستقرّوا فى غير بلادهم ، فلا يُعدّ ذلك مُلْكا ، وإنما هو غارة .

١٠ فأوّلُ ملوك قَحْطانَ عبدُ شمس ، وهو سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، وإنما سُمّى سبأ لأنه أوّل مَن أدخل بلاد اليمن السَّبْى . قال عبد الملك بن عَبْدون فى كتابه المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرّ (١) : إنّ عبد شمس هذا ملك أربعمائة سنة وأربعا وثمانين سنة . قال : وقد اختلف فى أوّل مَن ملك منهم ، فقيل يَعْرُب بن قَحْطان . قال : وهو أوّل من ١٥ نطق بالعربيّة ، وأوّل مَن حيّاه ولده بتحية الملك : أبَيْتَ اللّعن ، وأَنْعِم صباحا . والأشهر أنّ عبد شمس سبأ هو أوّل ملوكهم . والله أعلم .

ثم ملك بعده ٱبنه حِمْير بن سبأ ، قال : وكان أشجعَ الناس فى وقته ، وأفرسَهم وأجملهم . وقيل : إنه إنما سُمّى حِمْير لكثرة لباسه الأحمر من الثياب ، وكان يلقّب

(١) راجع (ص ٧٧ طبع أوربا) .

بالعَرَنْجَج ، وهو أوّل مَن وضع تاجَ الذهب على رأسه من ملوك اليمن . وكان مُلْكه خمسين سنة ، وذلك فى عصر قَيْذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

ثم ملك بعده أخوه كَهْلان بن سبأ . فكان مُلْكه إلى أن هلك ثلثمائة سنة .

وآختلف فيمنْ مَلَك بعده ، فقيل : ملك بعده أبو مالك بن عسكر بن سبأ . فكان ملكه ثلثمائة سنة . وقيل ملك بعد كَهْلانَ الرائشُ وهو الحارث بن شدّاد [١] ، وكان الحارث أوّلَ مَن غزا منهم ، وأصاب الغنائم ، وأدخلها اليمن ، و بينه و بين حِمْير خمسة عشر أباً ، وسُمّى الرائشَ لأنه لمـّا أدخل الغنائمَ والأموالَ والسَّبْىَ بلادَ اليمن فراش الناسَ [فى أيامه] [٢] . وفى عصره مات لقمانُ النسور . قال : وذكر الرائشُ هذا نبيّنا صلى الله عليه وسلم فى شعره ، فقال من قصيدته :

ويملك بعدهم رجلٌ عظيمٌ نبىٌ لا يرخِّص فى الحرام
يسمَّى أحمدًا ياليتَ أنّى أعمَّر بعد مخرجه بعام

قال : وكان مُلْكه مائةً وخمسا وعشرين سنة . هكذا نقل عبد الملك بن عبدون وذكر الخلاف فى أبى مالك والرائش على ما ذكرناه . وأمّا غيرُه فإنه لم يذكر كَهْلان ابن سبأ ولا أبا مالك ، بل قال : إنّ حِمْير عهد إلى آبن آبنه الملْطاط بن عمرو بن حمير . قال : وفى أيامه آنقرض مُلْك صحار وجاسم آبنَىْ دارم و بادوا .

قالوا : ثم ملك بعده آبنه أَبْرَهَة ويقال له ذو المنار . قالوا : سُمّى بذلك لأنه أوّل مَن أقام المنار فى مغازيه على الطريق ، وذلك أنه أوغَلَ فى بلاد المغرب والسودان ، وآتّخذها ليهتدىَ بذلك فى قُفوله . وكان مُلْكه مائةً وثلاثين سنة ،

(١) كذا فى الأصول . وفى شرح قصيدة ابن عبدون الذى ينقل عنه المؤلف « سدد » وفى تاريخ الطبرى (ص ٤٤٠ من القسم الأوّل طبع أوربا) « آبن أبى سدد » .

(٢) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون .

وقيل مائة وثلاثا وثمانين سنة . هكذا ذكر ابن قتيبة فى كتاب المعارف أن الذى ملك أبرهة . وقال المسعودىّ : إنّ الذى ملك بعد الرائش جبّار بن غالب بن زيد ابن كهلان وقال : إنّ مُلْكه كان مائة وعشرين سنة . والله أعلم .

ثم ملك بعد أبرهة على ما ذكر ابن حمدون فى تذكرته ابنه إفْرِيقِش . وهو ذوا الأذعار . قال : سُمّى بذلك لأنه خرج نحو بلاد المغرب وأوقع بقوم لهم خِلَقٌ منكرة فذُعِر الناس منهم وفرّقوا . قال ابن عبدون : وغزا إفريقش بلاد المغرب حتى أتى طَنْجة ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم ببلاد المغرب . وكان البربر بقيّة من قَتَل يوشع بن نون . قال : وإفريقش هو الذى بنى إفريقية وبه سُمّيت .

ثم ملك بعده ابنه العبد ويلقّب ذا الشناتر ، وهى الأصابع فى لغة حِمْير . قال : وخرج نحو العراق فاحتُضِر فى طريقه . هكذا ذكر ابن حمدون . وقال عبد الملك : إنّ الذى ملك بعد إفريقش أخوه العبد بن أبرهة . قال : وهو ذو الأذعار ، سُمّى بذلك لأنه كان فيما ذكر أهلُ الأخبار غزا بلاد النسناس فقتل منهم مقتلةً عظيمةً ، ورجع إلى اليمن من سَبْيهم بقوم وجوههم فى صدورهم فذُعِر الناسُ منهم فسُمّى بذى الأذعار . وكان مُلْكه خمسا وعشرين سنة . وقد قدّمنا أنّ ذا الأذعار هو إفريقش . والله أعلم .

ثم ملك بعده الهدهاد بن عمرو بن شَرَحْبِيل . هكذا قال ابن حمدون والسعودىّ ، إلّا أنّ المسعودىّ لم يذكر عمرا وقال الهدهاد بن شُرَحْبيل . وسمّاه ابن قتيبة هدّاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش ، وهو أبو بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام . وكانت مُدّة ملكه عشرين سنة ، وقيل سبعة ، وقيل ستة . وقد قدّمنا

خبر بلقيس وأنها آبنة ذى أَشْرَح ، وأنّ والدها لم يكن ملكا وإنما كان وزيرا لملك حمير وهو شراحى الحِمْيَرِىّ . والله تعالى أعلم .

وآختُلِفَ فيمن ملك بعد الهدهاد، قال المسعودىّ : تُبَّع الأوّل . وكان مُلْكه أربعمائة سنة . وقال آبن قتيبة أقلّ من ذلك، وقال: ملك بعد الهدهاد آبنته بلقيس وهى صاحبة سليمان بن داود عليهما السلام . وكان مُلْكُها مائةً وعشرين سنة . وقد أتينا على أخبارها فيما سلف من هذا الكتاب فى قصّة سليمان عليه السلام[1] .

ثم ملك بعدها ياسر بن عمرو بن شرحبيل وهو ناشر النِّعم، قالوا : سُمّى بذلك لإنعامه على العرب ، وكان شديد السلطان، وسار غازيا وأوغَلَ فى بلاد المغرب حتى بلغ وادى الرمل ولم يبلغه أحدٌ قبلَه ، وهو رَمْلٌ جارٍ ، ولم يجد وراء ذلك مجازا لكثرة الرمل وجَرَيانه، فبينما هو مُقيم إذ آنكشف الرمل فأمرَ بعضَ أهلِ بيته أن يعبُرَ هو وأصحابُه فعبروا فلم يعودوا إليه وهلكوا عن آخرهم ، فأمر بصنم من نحاس فنُصِبَ على صخْرة عظيمة على شفير الوادى وكَتَب على صدره بقلم المسند[2] : هذا الصنمُ لناشِر النِّعَم الحِمْيَرِىّ ليس وراءه مذهبٌ ولا يتكلّفَنَّ أحدٌ ذلك فيعطَب ، ورجع من هناك . وكان مُلْكه خمسا وثمانين سنة على رواية آبن قتيبة . وقال المسعودىّ : خمسا وثلاثين .

ثم ملك بعده أبوكرب شَمِر بن إفريقش ، ويسمَّى يرعش لآرتعاش كان به . قال : وخرج نحو العراق فى زمن بستاسف أحد ملوك الفرس فأعطاه بستاسف الطاعة ، وسار نحو الصين حتى نزل فى طريقه ببلاد الصغد ، فآجتمع أهل تلك

---

(١) راجع (ج ١٤ ص ١١١ — ١٢٤) من هذه الطبعة .

(٢) المراد بالمسند : الخط الحميرى .

الأرض بمدينة سَمَرْقَنْد فاحاط بهم شَمِر وآفتتحها عَنْوة وأسرف فى القتل وخرّب المدينة وهدمها فسمّيت شَمِرْكَنْد، وعُرِّبت بعد ذلك فقالوا : سَمَرْقَنْد . ومعنى شمركند، أى خرّبها شَمِر . وفيه يقول دِعْبِل بن علىّ يفتخر باليمن من قصيدة :

همو كتبوا الكتّاب بباب مَرْوٍ وباب الشاش(١) كانوا كاتبينا
وهم سَمَّوا بشَمْرٍ سَمَرْقَنْداً وهم غَرَسُوا هناك التُّبَّتِينا

٥ قال : ولما فرغ من بلاد الصُّغْد سار نحو الصين فأيقن مَلِكُهَا بالبَوار ، فآحتال وزيرٌ له بأن جَدَع أنفه وأتى الى شَمِر، وهو بمفازة بينها و بين الصين عشر مراحل ، ومتّ إليه بأن ملك الصين فعل به ذلك لأنه نصحه ألّا يحارب شمر وخالف رأيه ، فسأله شمر عن الطريق والماء، فقال له : بينك و بين الماء ثلاث مراحل، فتزوّد لثلاثة أيام، فلمّا قطعها أعوزه الماء وكشف له الرجل أمره فمات هو وأصحابه عطشا .

١٠ قال آبن قتيبة : وكانت مدّة مُلْكه مائةً وسبعا وثلاثين سنة . وقال المسعودىّ : ثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده آبنه أبو مالك بن شمر ، قال : وتأهّب للأخذ بثأر أبيه فبلغه أنّ بالمغرب واديا من الزبرجد، فحمله الشَّرَه على طلبه وترك ما عَزَم عليه فمات فى طريقه.

١٥ ثم ملك بعده آبنُه تُبَّع الأقرن بن أبى مالك بن شمر. قال : وطلب ثأر جدّه وأتى سمرقند فعمّرها وجدّد بناءها ، ثم أتى الصين وأخرب مدينتها وآبتنى هناك

---

(١) الشاش : مدينة جليلة من عمل سمرقند ، وهى فى أرض سهلة وعامة دورها يجرى فيها الماء ، وهى من أنزه بلاد ماوراء النهر . وفى معجم البلدان لياقوت أثناء كلامه على سمرقند روى البيتين هكذا :

٢٠ همو كتبوا الكتّاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم خربوا سمرقندا بشمر وهم غرسوا هنا التبتينا

مدينة أسكن فيها ثلاثين ألف رجل . قال الحمدونىّ فى كتابه المترجم بالتذكرة : هم إلى اليوم هناك فى زىّ العرب، ولهم بأس وشدّة — يعنى يوم صنّف كتابه وهو فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أو نحو ذلك — قال : وفى أوانه كان بَوَار طَسْم وجَدِيس على ما نذكره فى وقائع العرب .

٩٢/١٣

قال : وفى أوانه أيضا كان سَيْلُ العَرِم وتفرُّقُ سبأ . وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى . ٥

قال آبنُ قُتيبة : وكان مُلْك تُبّع الأَقْرَن ثلاثا وخمسين سنة . قال المسعودىّ : إنّ مُلْكه كان مائةً وثلاثا وستّين سنة، ولم يذكرا المَلِك الذى كان قبله، ونسبا هذا الملِك أنه آبن شَمِر .

ثم ملك بعده على ماروواه آبن حَمْدون — وهو إن شاء الله أشبه بالصواب — أسعد ابن عمرو . قال : وملك والمُلْك متشتّت فآستفزّ قومه فنهضوا معه فى ملوك اليمن حتى قتلهم مَلِكا مَلِكا، وآنتظم له مُلْك اليمن، فوجّه بآبن عمّ له يقال له القَيْطون إلى الحجاز فبغى وظلم فقتله اليهود . ولمّا بلغ أسعد ذلك غضب وحلف ليقتلنّ كلّ يهودىّ فى الأرض، وتجهّز فى مائة ألف حتى وَرَد يَثْرِب، فآجتمع الأَوْس والخَزْرَجُ وأخبروه بقصّة آبن عمّه وبَجْره وظُلْمه فعفا عن اليهود وقال : لستُ أرضَى بالمظلم ولو علمتُ ذلك منه لقتلتُه، وأتاه بنو هُذَيل بن مدركة فرغّبوه فى الكعبة وما فيها من الذهب والجوهر، فقدِمَ مكّة لذلك، فآجتمع إليه أحبارُ اليهود وقالوا : إنّ هذا البيتَ العتيقَ الذى ليس لله عزّ وجلّ بيتٌ فى الأرض غيرُه وقد رامَ إفسادَه كثيرٌ من الملوك فأبادهم الله . وفى هذه البلدة يكون مَوْلدُ نبىّ آخرِ الزمان آسمه محمدٌ وأحمدُ من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام . وهو خاتَم الرسُل، و إنّما أراد مَن ذلك على

١٠ ١٥ ٢٠

ذلك هلاكك ، فضرب أعناقَ الهُذَليّين وأقام بمكة ستّة شهور يَنْحَر فى كلّ يوم ألفَ ناقة ، وكسا البيت وعلّق عليه بابا من الذهب .

ولمّا هَلَك مَلَك بعده آبنُ عمّه مَرْثَد بن عَبْد كَلَال بن تُبَّع الأَقْرَن المعروف بذى الأعواد . قال : وكان مُلْكه أربعين سنة . ولمّا هَلَك مَلَك بعده أولاده وكانوا أربعةً مشتركين فى المُلْك على كلّ واحد منهم تاجٌ . قال : وخرجوا إلى مكة ليقلعوا الحجرَ الأسودَ ويبتنوا بيتا بصنعاء يكون حجّ الناس إليه ، فاجتمعتْ كِنَانةُ وقلّدوا أمرهم فِهْرَ بنِ مالك وآلتقَوْا فقُتِل ثلاثةٌ من الملوك وأُسِرَ الرابع .

ولمّا أُسِر هؤلاء ملكتْ بعدهم أختهم أبضعةُ آبنةُ ذى الأعواد . قال : وكانت فاجرة فقتلها قومُها .

ثم ملك بعد أولاد ذى الأعواد مَلْكِيكَرِب بن عمرو بن سعد بن عمرو، وكانت مُدّة مُلْكه عشرين سنة ، وتحرّج عن سَفْكَ الدماء فلم يَغْزُ ولم يخرُج من اليمن .

ثم ملك بعده تُبَّع أسعد بن ملكيكرب . قال : ولمّا ملك غزا بنى معدّ بتهامة فى ثلثمائة ألفِ طالبا لدماء الملوك الأربعة ، وآجتمع بنو معدّ وعَقَدوا الرِّياسة لأميّة ابن عَوْف الكِنانىّ المعروف بالعنسىّ ، ثم نَفَسَتْ ربيعةُ أن تكون الرِّياسة فى مُضَر فقعَدَت عنهم ، فضَعُفَتْ مُضَر عن تُبّع وسألوه الصلح على أن يؤدّوا إليه عقلَ الملوك الأربعة ، عن كلّ ملكٍ ألفَ ناقة . وكذلك كانت دِيَة الملوك فى الجاهليّة . ودِيَاتُ مَن قُتِل معهم من الجنود لكلّ رجُلٍ مائة ناقة ، فقبِلَ تُبّع ما بذلوه وآنصرف إلى أرضه ووقع الشرّ بين الحيّين : ربيعة ومُضَر ، فأرسلَتْ ربيعةُ إلى تُبّع رُسُلا فعقَد بينهم حِلْفا وعَقْدًا ، وهو الحِلْف الباقى بين ربيعةَ واليمن إلى أن جاء الإسلام . وأقام تُبّع هذا بأرض الشام ما شاء الله ، ثم سار إلى الهند فى البحر و باشرَ الحربَ بنفسه فبرزَ

اليه مَلِك الهند ، وهو ٱبنُ فَوْز الذى قتل الإسكندر أباه فقتله تُبّع بيده، وتحصّنت اليهود بمدينتهم وحاصرهم تُبّع شهرا حتى سألوه الأمان فآمنهم وقفل إلى بلاده .

ثم ملك بعده ٱبنُه حسّان بن تُبّع . قال : فغزا العراق فى ثلثمائة ألف وأتى فى طريقه مكة ، وقد عادت إليها خُزَاعة عند وفاة فِهْرِ بنِ مالك ، فأعطاه بنو نِزَار الطاعة . ورُوِىَ عنه شعر يخبر فيه ببعثة نبيّنا صلى الله عليه وسلم :

٩٣/١٣ ٥

شَهِـدْتُ على أحمـدَ أنّه رسـولٌ من الله بارِى النَّسَمْ
فلو مُدّ عُمْـرِى إلى عُمْـرِه لكنتُ وزيرًا له وٱبنَ عَمّ

قال : ولمّا وَرَد العراق وَجَد الفُرْس وسلطانَهم واهٍ وقد مات هُرْمُز وولدت ٱمرأته غلاما ، وهو سابور ذو الأكتاف ، ومُرَبِّيه أحدُ عظماء الفُرْس ، فلم يقم بضبط المُلْك ، فٱستقبلوه بالطاعة وأقرّوا له بالخراج ، فأقام بالعراق حَوْلا وعزم على غَزْو الصين فساء ذلك حِمْير وقالوا : نَغيب عن أولادنا وعيالنا ولا ندرى ما يحدُث بهم ، فمَشَوْا إلى عمرو أخى حسّان الملك و بعثوه على قتل أخيه على أن يملّكوه عليهم و يعود بهم الى بلادهم ، وأعطَوه العهود والمواثيق إلّا رجلٌ يقال له ذو رُعَين ، فقال لهم : إنكم إن قتلتم مَلِكَكم ظلما خرج الأمرُ منكم فلم يحفلوا به ، فأقبل بصحيفة مختومة وقال لعمرو بن تُبّع : لتكن هذه الصحيفةُ وديعةً لى عندك الى وقت حاجتى إليها ، وأقبل عمرو ليلا الى أخيه حسّان وهو نائمٌ فى فراشه فقتله وٱنصرفتْ حِمْير الى بلادها . هكذا نقل ٱبن حمدون فى تذكرته .

١٠

١٥

وقال أبوعلىّ أحمد بن محمد بنُ مِسْكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم فى أخبار الفرس : إنّ ملك الفُرْس يومَ ذاك هو قُبَاذ بن فَيْروز وهو أبو كِسْرَى أنو شروان ، و إنّ الملك الذى عرا؛ من ملوك حمير هو تُبّع والد حسّان ، وكان معه لما غزا

الفُرْس ٱبنُه حسّان وٱبنُ أخيه شَمِـر . قال : فسار تُبّع حتى نزل الحِيرَة ووجّه ٱبنَ أخيه شَمِرا ذا الجناح الى قُبَاذ فقاتله فهزمه شَمِر حتى لحق بالرىّ، ثم أدركه بها فقتله .

قال : ثم إنّ تُبّعا أمضى شَمِرا ذا الجناح وٱبنَه حسّان إلى الصُّغْد وقال : أيّكما سبق إلى الصين فهو عليهـا . وكان كلّ واحد منهمـا فى جيش عظيم يقال إنهما ستمائة ألف وأربعون ألفا، و بعث ٱبن أخيه — وٱسمه يَعْفُر — إلى الروم .

٥

قال : فأمّا يَعْفُـر فإنه سار حتى أتى القسطنطينية ، فأعطَوْه الطاعةَ والأتاوَة ومضى إلى رُومِيَة فحاصرها ، ثم أصابهم جوعٌ ووقع فيهم الطاعون فتفرّقوا ، وعلم الروم بذلك فوثَبوا عليهم فلم يُفْلِت منهم أحدٌ .

وأمّا شَمِرٌ ذو الجناح فإنه سار حتى ٱنتهى إلى سَمَرْقَنْد فحاصرها فلم يَظْفَر منها بشىء، فلمّـا رأى ذلك طاف بالحَرَس حتى أخذ رجلا من أهلها فٱستمال قلبَه ثم سأله عن المدينـة ومَلِكها فقال : أمّا مَلِكُها فأحمقُ الناس ليس له همّ إلّا الأكل والشرب والجماع، ولكن له بنتٌ هى التى تقضى أمر الناس، فمنّاه ووعده حتى طابتْ نفسُه، ثم بعث معه هديّة إليها وقال : أخبرها أنى إنما جئتُ من أرض العرب للذى بلغنى من عقلها لتنكحنى نفسَها ، فأصيب منها غلاما يملك العرب والعجم ، وإنّى لم أجئ ألتمسُ مالا ، و إنّ معى من المـال أربعـةَ آلاف تابوت ذهبا وفضّة هاهنا ، وأنا أدفعها إليها وأمضى إلى الصين ، فإن كانت لى الأرض كانت ٱمرأتى ، و إن هلكتُ كان المـال لها . فلمّا ٱنتهت رسالته إليها قالت : قد أجبته فليبعث بالمـال، فأرسـل إليها بأربعة آلاف تابوت ، فى كلّ تابوت رجلان، وكان بسَمَرْقَنْد أربعةُ أبواب على كلّ باب منها أربعـةُ آلاف رجل . قال : وجعـل شَمِـرٌ العلامة بينه و بينهم أن يضرب لهم بالجُلْجُل، وتقدّم بذلك الى رُسُله الذين وجّههم، فلمّا صاروا

١٠

١٥

٢٠

بالمدينة ضرب لهم بالجُلْجُل فخرجوا وأخذوا بالأبواب، ونَهَد[١] شَمِرٌ فى الناس فدخل المدينة وقتل أهلها، وآحتوى على ما فيها . ثم سار إلى الصين فلقِىَ التركَ فهزمهم، وآنتهى إلى حسّان بن تُبَّع بالصين فوجده قد سبقه إليها بثلاث سنين .

قال : وفى بعض الروايات وهى المجتمع عليهـا : إنّ حسّان وشَمِـرًا آنصرفا فى الطريق الذى كانا أخذا فيـه حتى قَدِما على تُبّع بمـا حازا من الأموال بالصين وصنوف الجوهر والطِّيب والسَّبْى، ثم آنصرفوا جميعا إلى بلادهم ، فكانت وفاة تُبّع باليمن . وكان مُلْكه مائة سنة و إحدى وعشرين سنة .

قال : وأمّا فى الرواية الأخرى فإنّ تُبّعـا أقام وواطأ آبنَـه حسّان وآبنَ أخيه شمر أن يملكا الصين ويحمـلا إليه الغنائم ، ونَصَبَ بينه وبينهـم المنار ، فكان إذا حَدَثَ حَدَثٌ أوقدوا النار، فأتى الخبر فى ليلة .

قال : وقد ذكر بعضُ الرُّواة أنّ الذى سار فى المشرق من التبابعة تُبّع الأخير، وهـو تُبّع تبّان أسعد أبوكَرِب بن مليك بن زَيد بن عمـرو بن ذى الأذعار ، وهو أبو حسّان . آنتهى ما أورده ابنُ مِسكويه من أخبارهم ، فلنرجع إلى مساق ما قدّمناه مما نقله آبن حمدون .

قال : ثم ملك بعده حسّان بن تُبّع أخوه ، فقتله عمرو بن تُبّع . قال : وآنصرف بالقوم إلى بلادهم فسلّط الله عليـه السَّهَر فكان لا ينـام ، فجمع الكَهَنة والقيَاف والعرّافين فسألهم عن ذلك فلم يعرفوه، فقال له رجلٌ منهم : إنه يقال مَن قتل أخاه ظلما سلّط الله عليـه السهر وحُرِمَ النومَ ، فأحال بالذنب على حِمْير وجعل يقتل مَن أشار عليه بقتل أخيه واحدًا بعدَ واحد، ثم أرسلَ إلى ذى رُعَين ليُلحِقَه بمَن قُتِل من

(١) نهد : نهض ومضى .

أصحابه، فقال: أيها الملك إنى خالفتُ القوم فيما زيّنوا لك من قتل أخيك. قال: ومَن يعلم ذلك؟ قال: الصحيفةُ التى أودعتُها عندك، فأخرجها فقرأها فإذا فيها:

ألا مَنْ يَشْتَرِى سَهَرًا بِنَوْمٍ   خَلِىٌّ مَنْ يَبِيتُ قَرِيرَ عَيْنِ
فإنْ تَكُ حِمْيَرٌ غَدَرَتْ وخَانَتْ   فمعذرةُ الإلٰه لِذِى رُعَيْنِ

قال: فخلّى عمرو سبيلَه.

قال: ولمّا قتَل عمرو أشرافَ قومه وصناديدَهم تضعضع أمرُ حِمْيَرَ ووَهَى مُلْكُها، فطَمِعَ فيه بنوكَهْلان بن سبأبن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، فوثبَ ربيعةُ ابنُ نصر بن الحارث بن عمرو بن عدىّ بن مُرّة بن زَيْد بن مَذْحِج بن كَهْلان فى قومه وجمعهم من أقطار الأرض، وجمع له عمرو بن تُبّع والتقَوْا فقُتِل عمرو بنُ تُبّع.

وملك بعده ربيعةُ بن نصر المقدّم ذكره قال: وكان قد رأى رؤيا أزعجَتْه وعُبِّرت له أنّ الحبشةَ تملك بلاده، فوجّه آبنَ أخيه جَذِيمةَ بن عمرو بن نصر ومعه آبْنَه عدىُّ بنُ ربيعة وهو صبىّ، ووجّه معهما حَرَمَه وخزائنَه، وكتب لهم الى سابور ذى الأكتاف، فأسكنهم سابورُ الحِيرَة وملّكهم ما حَوْلها.

قال: ولمّا بلغ عَدِىُّ بنُ ربيعة الحُلُم زوّجه جَذِيمةُ أختَه رَقَاش فولدتْ له عمرو بنَ عدىّ. وهؤلاء ملوك الحيرَة على مانذكره فى أخبارهم.

قال: ولمّا مات ربيعةُ بنُ نصر تجمّعت حِمْيَر فآذنتْ كَهْلانَ بحربٍ أو إعادة المُلْك فيهم، ودخل بينهم السفراءُ فسلّموا المُلْك الى حِمْير فملّكتْ حِمْيَرُ عليها أبرهة ابن الصبّاح بن لَهِيعة[1] بن شَيْبةَ الحمْد بن مَرْثَد بن الحَيْر بن سيف بن منسلح

(١) فى تاريخ أبى الفداء (ص ١١٠ طبع أوربا) ومروج الذهب للمسعودى (ص ٢١٦ ...
« وكيعة » . وفى مروج الذهب (ح ٣ ص ١٥٥ طبع أوربا) « وليعة » باللام .

ابن عمرو بن مالك بن زَيْد بن سعد بن عَوْف بن عدىّ بن مالك بن زيد بن سعد ابن زُرْعة بن ذى المنار .

قال : فملك عليهم ومكث طولَ أيّام سابور ذى الأكتاف ثم مات .

فملك بعده ابن عمه صُهْبان بن محرّث . قال : فبعث عمّاله على أرض العرب، وآستعمل على ولد سعد بن عدنان آبنَ خاله الحارثَ بن عمرو بن معاوية بن كِنْدة ٥ ابن عَدىّ بن مُرّة بن زَيْد بن مَذْحِج بن كَهْلان ،وكان الحارث يلقّب بآكل المرار، وهو جدّ آمرئ القيس الشاعر بن حُجْر بن الحارث ، وهو جدّ الأشعث بن قيس ابن مَعْديكرب بن جَبَلَة بن عَدِىّ بن الحارث المذكور ؛ فقسّم الحارث مملكته بين ولده، وكانوا ثلاثة : فملّك آبنَه حُجْرا على أَسَد وكِنانةَ ، وملّك شُرَحْبيل على قَيْس وتميم ، وملّك [سَلَمة](١) على ربيعة ، فمكثوا كذلك حينا حتى مات أبوهم الحارث ١٠ فوثبتْ بنو أَسَد على حُجْر فقتلوه ، ووثبتْ قيس وتميم على شُرَحْبيل فطردوه ، فغضب صُهْبان وتجهّز للسير الى مُضَر ، فآستغاثت مُضَر بربيعة وجاءت وفودهم اليهم وآستنصروهم ، ورئيسهم كُلَيب بن ربيعة بن الحارث بن زُهَير بن جُشَم ابن بكر بن حَبِيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب بن وائل ، وآجتمعتْ ربيعة ومُضَر والرياسة على الحيّين لكُلَيب ؛ فقاتلوا صُهْبان وعظماءَ قومه ، وهو اليومُ المشهور ١٥ فى العرب ، فقُتِل صُهْبان . وفى هذا اليوم يقول عمرو بن كُلْثوم :

ونحنُ غداةَ أُوقِد فى خَزَازٍ(٢) رَفَدْنا فوقَ رِفْد الرافدينا
فكُنّا الأَيْمنينَ إذا آلتقينا وكان الأيسرين بنوا أَبِينا

(١) التكملة عن النقائض (ص ١٠٧٣ طبع أوربا) .

(٢) خزاز (بفتح أوله) : جبل لغنىّ أحمر وله هضبات حمر ، وفى أصله ماء لغنىّ يقال له (خزازة) ٢٠ وهو فى ناحية منعج دون أمرة وفوق عاقل على يسار طريق البصرة الى المدينة (راجع معجم ما استعجم) .

فآبوا بالنِّهاب و بالسَّبَايا   وأُبْنَا بالملوك مُصَفَّدينا

قال : ولمّا قُتل صُهبان بن مُحَرِّث ملك بعده الصَّبّاح بن أبرهة بن الصَّبّاح .

٩٥/١٣ قال : وكان نَجْدًا جَلْدًا ، فسار الى مَعَدّ فى مِئَتَىْ ألف يطلب ثأر صُهْبان . قال : وتجمّعت مَعَدّ ورئيسهم كُلَيب أيضا ، وكانت الحرب بينهم بموضع يسمّى الكُلَاب ، فانهزمت اليمن . وهذان اليومان من مفاخر نِزَار على اليمن ، وآمتنعتْ معدّ بعد ذلك على اليمن حتى قتل كُلَيب بن ربيعة .

قال : ولما مات الصّبّاح ملك بعده آبنُ عمٍ له فاسقٌ ، وقيل : إن الذى ملك لَخْنِيعة ذو شناتر، قال : ولم يكن من أهل بيت المُلْك، فأُغْرِىَ بحبّ الأحداث من أبناء الملوك ، فكان يطالبهم بما يُطالَب به النسوان ، وكان لايسمع بأحد من فِتْيان العرب وأولادِ الملوك حَسَن الصورة إلّا آستدعاه وطالبه بهذا الفعل القبيح، ولم يزل على هذه الطريقةِ المذمومة حتّى نشأ غلامٌ من أبناء ملوك حِمْير آسمُه زُرْعة ابن كعب و يُدعَى ذا نواس؛ سُمّى بذلك لأنه كان له ذؤابتان تَنُوسان على عاتقه ، وكان وضيئا ، فآستدعاه لمثل ما كان يدعو اليه غيره ، فجعل تحتَ إخْمِصه سِكِّينا، فلمّا خلا به الملك واثبَه ذو نُوَاس فقتله ثم حَزّ رأسه ، وكان له كُوّة يُشرف منها على عَبِيده إذا قَضَى حاجتَه من الغلام الذى يكون عنده و يضع مِسْواكا فى فِيه، فلمّا قتَله ذو نواس جعل السواك فى فِيه، وجعل رأسه فى تلك الكُوّة التى كان يُشْرف منها على عَبيده، ثم خرج على العبيد فقالوا [له](١) : ذو نُوَاس، أَرَطْبٌ أم يَبَاس؟ . فقال لهم : سل نَخماس، استرطبان ذو نواس . استرطبان لاباس(٢) . وتفسير ذلك :

(١) زيادة من السيرة لابن هشام (ص ٢٠ طبع أوربا) .

(٢) وردت هذه العبارة فى السيرة لابن هشام بألفاظ فيها تقديم وتأخير .

سلوا الرأس التى فى الكُوّة تخبركم وآتركوا ذا نواس ، قال : فأجمعت حِمْير عليه أمرها وقالوا : ينبغى أن نملّكه لأنه أراحنا من هذا الفاسق .

فملك عليهم ذو نُوَاس زُرْعة هذا . قال : ولمّا ملك وآستتبّ له الأمرُ فارق عبادةَ الأوثان ودخل فى دين اليهوديّة وقتل مَنْ كان فى بلاد اليمن على دين عيسى ابن مريم عليه السلام ممن آمتنع من موافقته ، ثم قصد نَجْران وبها عبد الله بن الثامر وأصحابُه وهم على دين عيسى عليه السلام ، فسألهم الدخولَ فى اليهوديّة فآمتنعوا ، فقتَل عبدَالله بن الثامر بالسيفْ وأضرمَ للباقين نارا عظيمةً فألقاهم فيها، وهم أصحابُ الأُخدود الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه العزيز فقال : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[1]. قال : ولم ينجُ منهم إلا نفرٌ قليلٌ .

وكان سببُ تَهوُّده أنّ حِمْير كان لها بيتَ نارٍ فيه أصنامهم ، وكان يخرج من تلك النار عنقٌ يمتدّ مقدار فرسخين ، فحضر عنده قومٌ من اليهود وقالوا : أيها الملك إنّ هذا العنقَ من النار شيطانٌ ، فطلب منهم تبيان ذلك ، فنشروا التوراةَ وقرءوها فتراجع ذلك العُنق وطُفئت تلك النار ، فأعظم ذو نُوَاس ذلك ودخل فى دين اليهوديّة .

قالوا : ثم إنّ أحدَ الناجين من نَجْرانَ — ويُعْرف بدوس بن ذى ثعلبان[2] — قصد قَيْصَر ملك الروم مُستنجدا به ، ومُعظِّما عنده ماجَرى على قومه وهم على دينه ، فاعتذر اليه ببُعد دياره وقال : سأكتب لك الى ملكٍ على دينك قريبٍ من ديارك ، فكتب الى النجاشىّ ملك الحبشة ، فلمّا عَرَض عليه الكتاب وحدّثه بما جرى على أهل ملّته غضب وحَمِىَ لأهل دينه ، وندَب من جنوده سبعين ألف رجل مع

(١) سورة البروج آيات ٤ — ٨

(٢) فى السيرة لابن هشام (ص ٢٥ طبع أوربا) « دوس ذو ثعلبان » .

ابن عمه أرياط[1] ، وتقدّم إليــه بأن يقتل كلّ من باليمن على دين اليهودية ، فركب أرياط فى البحر حتى آنتهى الى عَدَن فأحرق السفنَ وقال : يامعشرَ الحبشة، العدوّ أمامكم ، والبحرُ وراءكم، ولا مَنْجَى لكم إلّا الصبر حــتى تظفَروا أو تموتوا كراما . قال : وآلتقَوْا وآقتتلوا فآنهزمتْ حِمْير بعد حربٍ عظيمةٍ وقَتَل منهــم خلقا كثيرا .

٥ قال : وآقتحــم ذو نُوَاس البحر بفرســه وقال : واللهِ الغَرَقُ أفضلُ من أَسر السُّودان ، فغَرِق . وكان مُلْكه مائتى سنة وستين سنة ، وهو آخر مَن ملك اليمن من قَحْطان . بجميع ماملكوا من السنين ثلاثةُ آلاف سنة وآثنتان وثمانون سنة .

وآستولتْ الحبشة على مُلك اليمن ففرّق أرياط الأموالَ على أشراف الحبشة وحَرَم الضعفاء ، بخمع أَبْرَهَةُ أحدُ قوّاد الحبشة جمعا منهم وخرج على أرياط وحاربه ١٠ فقتله أبرهةُ بيده وآستولَى أبرهة على مُلْك اليمن .

ولمّـا بلغ خبرهما النجاشيّ غضب لقتل أرياط وحَلَف لَأطأنّ أرضَ أبرهة سَهْلَها وجَبَلَها برجلى، ولَأَجُزّنّ[2] ناصيتَه بيدى، ولَأُهْرِقَنّ دمَه بكفّى، وتجهّز للسير الى أرض اليمن ، فبلغ ذلك أبرهة فملأ جِرَابَيْن من تراب السَّهْل والجَبَــل ، وعمد الى ناصيته بجزّها ووضعها فى حُقّ ، وآحتجم وجعل دمَه فى قارورة وختَم عليه وعلى الحقّ الذى ١٥ فيه ناصيته بالمسك ، وبعث بذلك الى النجاشىّ وكتب إليه يعتذر ممـا فعله أرياط وأنه خالف سيرتك فى العدل ، وقد بلغنى ما حلفت ، وقد بعثتُ إليك بجرَابَيْن من تراب السهل والجبــل ، فطأْها هنالك برِجلك ، وجُزّ ناصيتى بيدك ، وأهرِقْ دَمِى بكفّك ، وبرّ فى يمينك ، ولْطُفْ غضبك عنّى فإنمـا أنا عبدٌ من عبيدك ، وعاملٌ من

(١) فى الأصــول : « أرباط » بالباء الموحدة ، وهو تحريف ، وما أثبتناه نقلا عن المسعودىّ ٢٠ فى مروج الذهب (ج ٣ ص ١٥٧ طبع أوربا) وسيرة ابن هشام (ص ٢٥ طبع أوربا) .

(٢) كذا فى المسعودى وسيرة آبن هشام . وفى الأصول : « لأحزن » بالحاء ، وهو تحريف .

عمّالك . فأعجبَ النجاشيَّ عقل أبرهة وأقرّه على مكانه ورضيَ عنه ، فبقيَ الى زمان كِسرَى أنو شِروانَ وهو صاحبُ الفيل .

وكانت قصّته أنه نظر الى أهل اليمن يتأهّبون للحجّ ، فسأل عن أمرهم ، فأخبر أنهم يخرجون حُجّاجا الى مكة فقال : أنا أكفيهم تجشّم هذا السفر البعيد ببيعةٍ أبنيها بصنعاء فيكون حجُّ اليمن إليهـا ، وأمر ببنائها فبُنِيتْ . وقد تقدّم وصفها فى الفنّ الأوّل فى المبانى[1] ، ونصَب عند المذبح دُرّة عظيمةً تُضىء فى الليلة الظلماء كما يُضىء السِّراج ، ثم نادى فى أهل مملكته بالحجّ إليها ، فغضِب العرب لذلك ، فآنطلق رجُلان من خَثْعَم فأحدثا فى البيت الذى بناه ولطّخاه بالعَذِرة .

وقيل : إنّ الذى فعل ذلك رجلٌ من كِنانة ، فآتّهم أَبْرَهَةُ قريشا بذلك ، وكان حينئذ بصنعاء تجّارٌ من قريش فيهـم هشامُ بنُ المغـيرة ، فاحضرهم وسألهم عمّن أحدَث فى بيعته ، فأنكروا أن يكونوا عَلِموا بشىء من ذلك ، فقال أبرهة : ظننتُ أنكم فعلتم ذلك غضبا لبيتكم الذى يحجّ إليه العرب ، فقال هشام بن المغيرة : إنّ بيتنا حِرْزٌ تجتمع فيه السِّباع مع الوُحُوش ، وجوارحُ الطير مع البُغَاث ، ولا يعرض منها شىءٌ لصاحبه ، و إنما ينبغى أن يحجّ الى بيعتك هذه مَن كان على دينك ، فأمّا من كان على دين العرب فلا يؤثر على ذلك شيئا . فأقسم أبرهةُ ليسيرنّ الى البيت فيهدِمَه حَجَرًا حَجَرًا . فقال له هشام بن المغيرة : إنه قد رام ذلك غيرُ واحدٍ من الملوك فما وصَلوا إليه لأنّ له ربّا يمنعه . فخرج أَبْرَهَةُ فى أربعين ألفا وسار بالفيل ، فغضبت لفعله هَمْدان وجمعتْ إليها قبائل من اليمن — وكان ملكهم رجلا من أشراف اليمن يقال له ذو نفر — فآستقبلوه فحاربوه فهزمهم وظفر بذى نفـر ملك هَمْدان ونُفَيل بن

(١) راجع الجزء الأوّل (ص ٣٨٢ من هذه الطبعة) .

حبيب سيّد خَثْعَم أسيرين فأمر بضرب عنقهما . فقالا : أيها الملك ، استبقنا لندُلّك على الطريق فإنّا من أدلّ العرب ، ففعل ذلك . فلمّا صاروا فى مَفْرَق الطريقَيْن : مكّة والطائف ، قال ذو نفر لآبن حبيب : كفى بنا عارا أن ننطلق بهـذا الأسود الى بيت الله تعـالى فيهدِمه ! قال آبن حبيب : هلمّ بنا لنأخذ به طريق الطائف فيشتغل بثُقيف ولعلّه يرى ما يسوءه ، فلم يشعُر أهلُ الطائف صباحا إلّا والجيوشُ قد وَرَدَت عليهم ، فخرج أبو مسعود الثقفىّ فى نَفَر منهم ، فأعلم أبرهة أنها ليست طريقَهُ ، وسار أبرهةُ حتى أتى مكة وآستاق السوائم ونزل على حدّ الحَرَم ؛ فكان فيما ساق مائتا ناقةٍ لعبد المطّلب بن هاشم ، فركب عبدُ المطّلب فرسَـه وقصد العسكر ودخل على أبرهة فأعجبَه جماله وأكرمه ونزل عن سرير كان عليه وجلس دُونه حتى لا يرفع عبد المطلب إليه ، ثم قال له : ما حاجتك؟ قال : حاجتى أن يَرُدّ علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى . فلمّـا قال له ذلك ، قال له أبرهة : قـد كان بلغنى شرفك فى العرب وفضلك فأحببتك ، ثم دخلتَ علىّ فرأيتُ من جمالك ووسامتك ما زادنى حبّا ، فنقصتَ عندى فى سؤالك إياىَ مائتى ناقة وتركتَ أن تسألنى فى الرجوع عمّا هممتُ به من هَدْم هذا البيت الذى هو شرفُك وعزُّك ! قال عبد المطلب : أيها الملك ، إنّ لهذا البيتِ ربّا سيمنعه منك وأنا ربّ إبِلى ، وقد رامَ هَدْمَه مَن لا يُحصَى من الملوك فرجعوا بين أسيرٍ وقَتيل ، فردّ إبلَه ، وآجتمع الى عبد المطّلب أشرافُ قومه فقالوا : اجعل له مالًا نجمعه له ليرجع عمّا همّ به من هَدْم هذا البيت . قال لهم عبد المطلب : وما عسى أن نجعل له من المـال مع عِظَم ما هو فيه من المُلْك والسلطان! آطمئنّوا ، الله أمندكم(١) ، فوالله لا يصل إليه أبدا . ثم أنشد عبد المطلب يقول :

يارِبّ إنّ المـرءَ يمـ * ـنعُ جارَه فآمْنـعْ حِلالَكْ

(١) كذا فى نسخة ا . وفى نسخة ب « لله أبوكم » .

لا يَغْلِبَنّ صليبُهم * بغيًا وما جمعوا مِحالَكْ
إن كنتَ تاركهم وقبـ * ـلتَنا فأمْرٌ ما بَدَالَكْ[1]

ثم عَلا جبلَ أبى قُبيس هو وحَكيمُ بنُ حِزَام ونفرٌ من سادات قُرَيش، وهَرب الناس فلحقوا برءوس الجبال، وأمَّ أَبْرهَةُ البيتَ وقدّم أمامه الفيل، وكان أكبر فيل رآه الناس كالجبل العظيم، وآسمه بلسان الحَبَشة محمود؛ فلمّا آنتهى الفيلُ إلى طَرَف الحَرَم بَرَك، فكانوا يَنخسونه، فإذا أخذوا به يمينا وشمالا هَرْوَل، وإذا أقْحموه بَرَك. فلم يزل كذلك بقيّة يومهم. فلمّا قاربَ المَساء نظروا إلى طَيْر قد أقبلتْ من نحو البحر لا تُحصَى كثرةً أصغرُ من الحَمام، فعجِبُوا من كثرتها ولم يعرفوها ولا رَأَوْا على خِلقتها طيورا، وكان مع كلّ طَيْر ثلاثةُ أحجار: حَجَران فى رجلَيه، وحجرٌ فى مِنْقاره، على مقدار الحمص، فرفرفت على رءوسهم وأظلّت عسكرَهم، ثم قذفت بالحجارة عليهم، وهبّتْ ريحٌ شديدةٌ فزادتِ الحجارة صعوبةً وقوّة، فكان الحجر منها إذا وقع على رأس الرجل منهم نَفَذ حتى يخرُج من دُبُره، فإذا سقط على بطنه خرج من ناحيــة ظهره؛ فكان ما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم فى سورة الفيل: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾[2]. وخرج عبدُ المطّلب وأصحابُه فملأُوا أيديَهم من المــال، وأرسل

(١) هذه الأبيات الثلاثة وردت هكذا فى الأصول، وورد البيتان الأوّل والثانى منهما فى غير الأصول باختلاف فى بعض الألفاظ؛ إذ ورد البيت الأوّل فى اللسان « مادّة حلل » وسيرة ابن هشام (ص ٣٥ طبع أوربا) هكذا:

لاهُمّ إنّ العبد يمـ * ـنع رحله فامنع حلالك

وورد البيت الثانى فى اللسان (مادة محل) وسيرة ابن هشام هكذا:

لا يغلبن صليبهم * ومحالهم عدوا محالك

والحلال (بالكسر): القوم المقيمون المتجاورون؛ يريد بهم هنا سكان الحرم. والمحال (بالكسر) هنا: الكيد والقوّة.

(٢) سورة الفيل آية ٥

إلى قريش فجاءوه من الجبال وغنموا ما شاءوا ، فعظُمَت قريش فى أعين العرب وسمّوهم آلَ الله ، وآزدادَ عبدُ المطّلب وأصحابُه شرفا . وولِد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومهم بخمس وخمسين ليلةً . وكان ذلك بعد عشرين سنة من مُلْك أنو شِرْوَان .

وملك اليمن بعد أبْرَهَة آبنُه يَكْسُوم .

ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة ، وهو الذى زال مُلْكُه على يد سَيْف بنِ ذى يَزَن على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكرُ خبرِ سَيْفِ بنِ ذى يَزَن
وعَوْدُ المُلْك إلى حِمْيَر

وذلك أنّ حِمْيَرَ لمّا رأتْ مُلْك الحَبَشة قد دام عليهم ونوارثوه فيهم ، اجتمع ساداتُهم إلى سَيْف بن ذى يَزَن — وهو من أولاد ذى نُوَاس الذى غلَب الحبشةَ على اليمن فى أيام مُلْكه — و بذلوا له أن يجمعوا له نفقةً تُقيمه ليسير إلى بعض الملوك فيستنجدَه ففعل ذلك ، وسار حتى وافَى القُسْطَنْطينة إلى قَيْصر ملك الروم ، فآستنجده فقال له قَيْصر : إنّ الجيش على دِينى ، وما كنتُ لأُعِينَك عليهم ، وأمرَ له بعشرة ألف درهم ، فأبَى أن يقبلها وقال : إذا لم تنصُرْنى فلا حاجةَ لى إلى مالك . وآنصرف إلى كِسْرَى وآستنجدَه ، فقال له كِسْرَى : بَعُدَت بلادُك عن بلادنا مع قِلّة خيرها ، إنما فيها الشاءُ والبعيرُ وما لا حاجةَ لى فيه . فقال له سَيْف : لا تزهدَنّ أيها الملك فى بلادى فإنها فُرْضَة العرب ، وأرضُ التبابعة الذين مَلَكوا أقطار أقاليم الأرض ، ودانَ لهم أهلُ الشرق والغرب . قال كِسْرَى : ما كنتُ لأُغَرِّرَ بجُنْدى

فيما لا ينفعنى وأمرَ له بعشرة آلاف درهم. فلمّا آنتهى إلى باب القصر نثرها فى الناس حتى أتى عليها، فبلغ ذلك كسرى فغضب وقال له : ما الذى حملك على آستخفافك بصلتى حتى نثرتها فى الناس؟ قال : ما أصنعُ بالمال وترابُ أرضى ذهبٌ وفضّة! ثم خنقته العَبْرة ، فرقّ له كسرى ووعده بالآنتصار له ، فأشار عليه بعضُ وزرائه فقال : إنّ فى سجونك بشرًا كثيرًا ممن آستوجبَ القتلَ، فمُرْ بإطلاقهم، وقوّهم بالمال والكُرَاع[1] والسّلاح، ووجّههم مع هذا العربى، فإن ظَفِروا كان ذلك زيادةً فى مُلْكك، وإن قُتِلوا كان ذلك جزاءً عن جرائمهم . فأعجبَ كِسْرى هذا الرأى وعَمِل به وقدّم عليهم وَهْرِزَ بنَ كامخان ، وكان من فُرسان العَجَم وأهلِ البيوتات، وقد أناف على المائة من السنين، وكانت عِدّتهم ثلاثةَ آلاف وستمائة رجل، فركبوا البحر فى سبع سُفُن ، وأرسل سيفٌ إلى اليمن ومخاليفها ، فأتوه من أقاصى اليمن وأدانيها حتى صاروا فى عشرين ألفا ، وتجهّز إليهم مَسْروقٌ، فلمّا آلتقيا قال وَهْرِز لسيف : أرِنى مَلِكَهم ، فأراه إيّاه، وهو على فِيلٍ وعلى رأسه التاجُ وفيه ياقوتةٌ حمراءُ مدلاّةٌ على جبينه ، فلبث ساعةً ثم تحوّل إلى فرس ثم تحوّل إلى بَغْلة، فقال وَهْرِز : ذلّ الأسودُ وباد مُلْكه ؛ وأنا أرميه فتأمّل الرَّمْية ، فإن رأيتَ أصحابه تصدّعوا عنه وحاصُوا[2] يمينا وشمالا فآعلم أنّى قتلتُه ، وإن لم يتحرّكوا من منازلهم فلم أصنع شيئا ؛ ورماه ، ففلَقَ السهمُ الياقوتةَ نصفَيْن وخرج من مؤخَّر رأس مسروق ، وآضطربت الحَبَشة وماجُوا، وحمل عليهم وَهْرِز ومَن معه والعربُ فولّوا منهزمين ، ودخلوا صنعاء وقتلوا كلّ أسود يُوجد فى اليمن . وكتب وَهْرِز إلى كسرى بالفتح، فكتب

٩٨ / ١٣

---

(١) الكُراع : الخيل .

(٢) حاصوا : حادوا ؛ قال : وعدل .

إليه كسرى أن يسال عن سَيْف بن ذى يَزَن (١)، فإن كان من أبناء الملوك فأقره على مُلْكه وآنصرِف عنه ، وإن لم يكن من أبنائهم فآضرب عنقه وأقم فى الأرض متوليًّا لهم .

قال : فسلّم وَهْرِز إليه مُلْكه وخلف من كان معه مَن العجم بصنعاء وآنصرف إلى كسرى ، وملك سَيْف اليمن لكسرى ، وتداولتها الوُلاة بعده من قبل كسرى. وكان مُلْك الحبشة على اليمن آثنتين وسبعين سنة ثم آنتزع عنهم .

ذكر أخبار ملوك الشام من ملوك قحطان

قال عبد الملك بن عَبْدون فى كتابه المترجم بكِمَامة الزهر وصَدَفَة الدرّ (٢) : ومن أهل اليمن مَن خرج منها فملك الشام ،وهم آل جَفْنَة وأوّلهم : الحارث بن عمرو بن عامر ابن حارثة [بن آمرئ القيس بن مازِن بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك] (٣) بن زَيْد ابن كَهْلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان ، ويكنى الحارث بأبى شَمِر . ثم تداولها منهم سبعٌ وثلاثون ملكا . ومُدّة ما ملكوا من السنين ستمائة سنة وست عشرة سنة إلى أن كان آخرهم جَبَلَة بن الأَيْهم ، وهو الذى تنصّر فى أيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بعد أن كان قد أقبل إلى عمر وأسلم .

---

(١) كذا وردت هذه القصة فى الأصول وكتب التاريخ والطبرى فى إحدى روايتيه منسوبة إلى سيف آبن ذى يزن . وفى مروج الذهب والرواية الأخرى فى تاريخ الطبرى أنها منسوبة إلى معد يكرب بن سيف آبن ذى يزن .

راجع تاريخ الطبرى (ص ٩٤٩ — ٩٥٨ من القسم الأوّل طبع أوربا) ومروج الذهب (ص ١١٢ — ١٧٦ ج ٣ طبع أوربا) .

(٢) راجع هذا الكتاب (ص ٨٧ طبع أوربا) .

(٣) الزيادة من كمامة الزهر .

ثم إنه كان فى الطواف فداس رجلٌ طَرَفَ ردائه فلطمه جَبَلَةُ ، فأتى الرجلُ عمرَ رضى الله عنه فطلب جَبَلَةَ ليقيدَه منه فتنصّر جبلةُ ولحق بهِرَقْل صاحب القسطنطينية ، فأقطعه هِرَقْل الأموال والضياع والرباع ، ثم نَدِم جبلة على ما كان منه وقال :

تنَصّرتِ الأشرافُ من أجل لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ

تكنّفنى منها لَجَاجٌ ونَخْوَةٌ * فبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ

فياليتَ أمّى لم تلدنى وليتنى * رجعتُ إلى القول الذى قاله عُمَرْ

وياليتنى أرعَى المخاضَ بقفرةٍ * وكنتُ أسيرا فى ربيعة أو مُضَرْ

ويا ليتَ لى بالشام أدنَى معيشةٍ * أجالسُ قومى ذاهبَ السّمعِ والبَصَرْ

وحُكِى أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى هِرَقْل رسولا يدعوه إلى الإسلام أو الى الجِزْية فأجاب إلى الجزية ، فلمّا أراد الرسول الانصراف قال له هرقل : ألقيتَ ابنَ عمّك هذا الذى عندنا — يعنى جَبَلة — الذى أتانا راغبا فى ديننا ؟ فقال : ما لقيتُه . قال ألْقه ، قال الرسول : فذهبتُ إلى باب جَبَلة فإذا عليه من القهارمة والحجّاب والبهجة وكَثْرةِ الجمع مثل ما على باب هرقل . قال : فتلطّفت فى الدخول عليه حتى أذِنَ لى ، فدخلتُ فرأيتُه أصْهَبَ اللحية ، وكان عهدى به أسودَ اللحية والرأس ، فأنكرتُه وإذا هو قد ذرّ سُحَالة[1] الذهب على لحيته حتى صار أصْهَبَ ، وهو قاعدٌ على سرير من قوارير، قوائمُه أربعةُ أسود من الذهب . قال : فلمّا عَرَفنى رفعنى معه على السرير . قال : وجعل يسألنى عن المسلمين وعن عُمَر رضى الله عنه ؛ فذكرتُ خيرا وعرّفته أنّ المسلمين كَثُرُوا .

(١) السحالة (بالضم) : ما سقط من برادة الذهب .

ثم انحدرتُ عن السرير فقال لى : لِمَ تأبى الكرامة التى أكرمناك بها ؛ قلتُ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهى عن هذا . قال : نعم ! صلى الله عليه وسلم ، ولكن نَقِّ قلبك من الدنَس ولا تُبالِ على ما قعدتَ . فلمّا سمعتُه يصلّى على النبيّ صلى الله عليه وسلم طمعتُ فيه فقلتُ له : ويْحَك يا جَبَلة ! ألا تُسلِمُ وقد عرفتَ الإسلامَ وفضلَه ؟ قال : أبعدَ ما كان منّى ؟ قلتُ : نعم . قال : إن كنتَ تضمن لى أن يزوّجنى عمرُ ابنتَه ويولّيني الإمْرةَ بعده رجعتُ إلى الإسلام . قال الرسول : فضمِنتُ له التزويج ولم أضمن له الإمْرة . قال : ثم أومأ إلى خادم كان على رأسه فذهب مُسْرعا فإذا خدّامٌ قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام ، فوُضعتْ ونُصِبتْ موائدُ الذهب وصِحاف الفضّة ، وقال لى : كُلْ . فقبضتُ يدى وقلتُ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهى عن الأكل فى آنية الذهب والفضّة . قال : نعم ! صلى الله عليه وسلم ، ولكن نَقِّ قلبك وكُلْ فيما أحببتَ . قال : فأكل فى الذهب وأكلتُ فى الخَلَنْج[1] ، ثم جِىء بطسات الذهب وأباريق الفضّة فغسَل يده فيها وغسلتُ فى الصُّفْر[2] ، ثم أومأ إلى خادم فمرّ مُسْرعا فإذا خدَمٌ معهم كراسىّ الذهب مُرصَّعةٌ بالجواهر ، فوُضعت عشرةٌ عن يمينه وعشرةٌ عن شماله ، ثم جاءت الجوارى عليهنّ تيجانُ الذهب مُرصَّعةٌ بالجواهر ، فقعدْنَ عن يمينه وعن شماله على تلك الكراسى ، ثم جاءت جاريةٌ كأنها الشمس حُسْنا على رأسها تاج ، على ذلك التاج طائرٌ وفى يدها اليمنى جامةٌ فيها مِسْك فَتيت ، وفى يدها اليسرى جامةٌ فيها ماء ورد ، فأومأت الجاريةُ أو صَفَّرت بالطائر الذى على تاجها فوقع فى جام ماءِ الورد

(١) الخلنج (فارسى معرب) : شجر بين صفرة وحمرة يكون بأطراف الهند والصين ورقه كالطرفاء وزهره أحمر وأصفر وأبيض . وأصل معناه المتنوع الألوان تتخذ من خشبه الأوانى .

(٢) الصفر (بالضم) : النحاس الأصفر .

فاضطرب فيه ، ثم أومأت إليه أو صفرت فوقع فى جام المسك فتمرّغ فيه، ثم أومأت فطار حتى نزل على تاج جبلة ، فلم يزل يرفرف حتى نفض ما عليه فى رأسه ، فضحك جبلة سرورا به ، ثم التفت الى الجوارى اللواتى عن يمينه وقال لهنّ : بالله أضحكننا ، فاندفعن يغنين بخفق عيدانهنّ ويقلن :

لله درّ عصابة نادمتهم * يوما بجلّق (١) فى الزمان الأوّلِ ٥
يسقون من ورد البريص (٢) عليهم * بردى (٣) يصفّق بالرحيق السلسلِ
يغشون حتى ما تهرّ كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبلِ
بيض الوجوه كريمة أحسابهم * شمّ الأنوف من الطراز الأوّلِ
أولاد جفنة عند قبر أبيهم * قبر ابن مارية (٤) الكريم المفضلِ

قال : فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : أتدرى من يقول هذا ؟ قلت لا ، ١٠ قال : حسّان بن ثابت ، ثم أشار الى الجوارى اللواتى عن يساره فقال لهنّ : بالله أبكيننا ، فاندفعن يغنين بخفق عيدانهنّ ويقلن :

لمن الدار أقفرت بمعان (٥) * بين أعلى اليرموك (٦) فالخمّان (٧)
ذاك مغنًى لآل جفنة فى الدهـ * ـر وحقٌّ تعاقب الأزمان

---

(١) جلق (بكسرتين وتشديد اللام) : هو اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل : بل هى دمشق ١٥ نفسها ، وقيل : موضع من قرى دمشق .   (٢) البريص : اسم غوطة دمشق .

(٣) بردى : نهر دمشق .   (٤) ابن مارية : هو الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وكان أميرا عندهم .

(٥) معان (بضم أوله) : حصن كبير من أرض فلسطين على خمسة أيام من دمشق فى طريق مكة .

(٦) اليرموك : واد بناحية الشام ، وكانت فيه الواقعة المشهورة التى عرفت بيوم اليرموك فى زمن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وكان من أعظم فتوح المسلمين . ٢٠

(٧) الخمان (بفتح أوله وتشديد ثانيه) : موضع بالشام .

قد أرانى هناك دهراً مَكيناً * عندَ ذى التاج مَقْعَدى ومكانى(١)

قال : فبكى حتى سالت دموعه على لحيته، ثم قال : أتدرى مَن يقول هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسّان ، ثم أنشد : تنصّرت الأشراف الأبيات ثم سألنى عن حسّان أحىٌّ هو؟ قلت : نعم، فأمر له بكسوة ولى بمثلها، وأمر بمالٍ لحسّان ونُوق مُوقَرة بُرًّا ثم قال : إنْ وجدتَه حياً فآدفعْ الهديّة إليه، وإنْ وجدتَه ميتّا فآدفعها إلى أهله وآنحرِ النُّوق على قبره .

قال : فلمّا أخبرتُ عُمَرَ بخبره وما آشترط علىّ وما ضَمِنْتُ له قال : فهلّا ضَمِنْتَ له الأمر فإذا أفاء الله به قضَى الله علينا بحكمه! ثم جهّزنى عُمَرُ إلى القسطنطينية إلى هِرَقْل ثانيةً وأمرنى أن أضمن له ما آشترط، فلمّا دخلتُ القسطنطينية وجدتُ الناس قد آنصرفوا من جنازته، فعلمتُ أنّ الشقاء غَلَبَ عليه فى أمّ الكتاب .

ذكر أخبار ملوك الحِيرَة

وهم من آل قحطان

وأوّلهم مالكُ بن فَهْم بن غَنْم بن دَوْس بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك ابن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان(٢) . وكان قد خرج من اليمن مع عمرو بن عامر حين أحسُّوا بسَيْل العَرِم، وقد ذكرنا أنّ الملك ربيعة ابن نصر كان قد بعثهم إلى سابور فأسكنهم الحيرة ومَلَكُوا ما حَوْلها . والله أعلم .

قال : وكان مُلْك مالك على الحيرة عشرين سنة .

(١) رواية الديوان (ص ٥٥ طبع أوربا) :

قد أرانى هناك حق مكين * عند ذى التاج مجلسى ومكانى

ورواية الأغانى (ج ١٤ ص ٦ طبع بلاق) :

قد أرانى هناك حقا مكينا * عند ذى التاج مقعدى ومكانى

(٢) ورد هذا النسب فى تاريخ أبى الفدا (ص ١٢٠ طبع أوربا) ببعض تغيير بالزيادة والنقصان .

ثم ملك بعده ابنه جَذِيمة[1] وهو الوضّاح . قال : وكان يقال له ذلك لبَرَص كان به ، ويقال أيضا فيه الأبرش ، وكان ينزل الأنبار ، وكان لا ينادم أحدًا من الناس ذهابا بنفسه على الندماء ، وكان ينادم الفرقدين فإذا شرب قدحا صبّ [في الأرض][2] هذا قدحا وهذا قدحا ، ويقال : إنه أوّل من عَمِل المنجنيق من الملوك ، وأوّل من حُذِيتْ له النعال . وأوّل من وُقِد بين يديه الشمع ، وهو الذى قتلته الزّبّاء بحيلة .

ثم ملك بعده ابنُ أخته عمرو بن عَدِىّ بن ربيعة . قالوا : وعمرو هذا هو الذى استهوته الجنّ دهرا طويلا ثم رَجَع ، فبينا مالك وعَقيل ابنا فارج ويل — قالخ — يقصدان جَذِيمة الملك بهديّة إذ نزلا على ماء ومعهما قَيْنة يقال لها : أمّ عمرو ، فتعرّض لهما عمرو ، وقد طالت أظفاره وشعره وساءتْ حالتُه وهيئتُه ، فجلس إليهما — وكانا يأكلان — فمدّ إليهما يدَه مُستطعِما فناولته تلك الجاريةُ طعاما فأكله ، ثم مدّ يده ثانية فقالت : إنْ يُعطَ العبدُ كُرَاعًا يَتّبع ذراعا ! ثم ناولتْ صاحبيها من شرابها وأوكأتْ[3] سقاءها ، فقال عمرو :

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أمّ عَمْرو * وكان الكأسُ مَجْرَاها اليمينا

وما شَرُّ الثلاثةِ أمّ عَمْرو * بصاحِبِك الذى لا تَصْبَحِينا[4]

---

(١) فى تاريخ أبى الفداء (ص ٢٠ طبع أوربا) أن الذى ملك بعد مالك بن فهم أخوه عمرو ابن فهم ، ثم ملك بعده جذيمة بن مالك .

(٢) التكلة من عيون الأخبار (ج ٣ ص ٢٧٤ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) أوكأت سقاءها : شدّت فمه بسير أو خيط ، أى ربطته .

(٤) هذان البيتان من معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة . وبعضهم يروى هذين البيتين لعمرو بن أخت جذيمة الأبرش كما ورد هنا والأغانى (ج ١٤ ص ٧٣ طبع بلاق) .

فقالوا له : مَنْ أنت ؟ فانتسب لهما، ففرِحا به وأقبلا على خاله — وقد كان جعل الجعائل لمن يأتيه به — فلمّا أتياه به قال جَذيمة لهما : لكما حُكْمكما . فقالا : مُنادمتك . فكانا كما اختارا، وسار بهما المثل . ويقال : إنهما نادَماه أربعين سنة، فما أعادا عليه حديثا ممّا حدّثاه به مرّة أخرى ، بل كانا يحدّثانه بحديث جديد لم يسمعه منهما قبلُ .

وعَمْرو هذا هو الذى أخذ بثأر خاله جَذيمة من الزَّبّاء وقتَلَها . وذلك أنّ قَصير ابنَ سعد كان من غِلْمان جَذيمة قال لعمرو : اضرِبْ ظهرى واقطَعْ أرنبةَ أنفى واتركنى والزّبّاء، فإنّى سأحتال لك عليها ، ففعل به ذلك ، ففرّ قَصيرٌ إلى الزّبّاء وصار فى جملة رجالها وأراها النصح والاجتهاد فى حوائجها ، وأنه غاشّ لعمرو ابن عَدِىّ ؛ وجعل يتّجر لها ويذهب لعمرو فى السرّ فيُعطيه الأموال فيأتيها بها، كأنّ ذلك من اجتهاده وحِذْقه فى التجارة حتى اطمأنّتْ له ؛ فذهب إلى عمرو وأخذه وأخذ معه ألفَىْ رَجُل وجعلهم فى جَوالق على ألف جمل ، ومعهم دروعهم وسيوفُهم وجاء بهم على طريق يقال له الغُوَير(1) ، ولم يكن يسلكه قبل ذلك ، فلمّا قرُبَ من حصنها تقدّم إليها وأعلمها أنه قد أتاها بمالٍ صامتٍ، فأشرفتْ من أعلى قصرها تنظر إلى الجمال ، فرأتْها وكأنّها تَنزِع أرْجُلَها من أوحالٍ لِثِقَل ماعليها، فقالت : « عَسَى الغُوَيرُ أبْؤُسًا » . فذهبتْ مثلا . ثم قالت :

ما لِلْمَطايا مَشْيُها وَئِيدَا * أجَنْدَلًا يَحْمِلْنَ أمْ حَدِيدَا
أم صَرَفانًا(2) بارِدًا شَدِيدَا * أمْ الرِّجالَ جُثَّمًا قُعُودَا

(1) الغوير : موضع على الفرات .

(2) صرفانا باردا : قال فى شرح القاموس (مادة صرف) : «الصرفان (محركة) : الموت عن ابن الأعرابى ؛ وقال ابن عباد : هو النحاس ، وفى اللسان : الرصاص القلعىّ ، وبهما فسر قول الزباء : =

وقد كان قَصِيرٌ قال لها قبل ذلك كالناصح : ما ينبغى لمثلك(١) إلا أن يكون له موضع ليوم، فإنه لا يَدْرى ما تُحْدِثه الأيام؛ فأرته سِرْباً فى ناحية قَصْرِها قد نفذت فيه إلى حصن أختها — وكانا على صَفَّتَى الفُرَات — قال : فلما دخلتْ الإبل على البوّاب ضجر لكثرتها، حتى إذا كان آخرها طَعَن فى جوالق سُود كان فى يده، فقابلتْ الطعنة خاصرةَ الرجُل الذى كان فى الجوالق فحتق فقال البوّاب : لشنا لشنا(٢) ؛ أى شىء فى الجــوالق ، فثارت الرجال من الجوالق بأيديهــم السيوف ، فهربت الزَّبَّاء إلى ذلك السِّرْب فإذا هى بقَصِير عند النفق ومعه عمرو بنُ عدىّ ، والسيف فى يده ، فمصَّتْ خاتَماً كان فى يدها فيه سمّ ساعة وقالت : « بِيَدِى لا بِيَد عمرو » . وفى ذلك يقول المُتَلَمِّس :

وفى طَلَبِ الأوتارِ ما حَزَّ أنْفَـــهُ * قَصِيرٌ ورَامَ الموتَ بالسيف بَيْهَسُ

= « ما للجمال مشيها وئيدا ... » وذكر البيتين ، متابعا فى ذلك ما جاء فى اللسان (مادة صرف) مع بعض تغيير فى اللفظ . ثم قال بعد ذلك : « وقيل الصرفان هنا : تمر رزين مثل البرنى لأنه صلب المضاغ علك ؛ والناس يدخرونه » .

ولعل تفسير البيتين بالتمر أنسب ؛ فإن شارح القاموس قال بعد ذلك : قال أبو عبيد : ولم يكن يهدى للزباء شىء أحب إليها من التمر الصرفان وأنشد :

ولما أتتها العـــير قالت أبارد * من التمر أم هــذا حديد وجندل

وقــد ذكر صاحب اللسان قول أبى عبيد والبيت الذى أنشده . وقال الجـــوهرىّ فى الصحاح (مادة صرف) : والصرفان : الرصاص ، والصرفان أيضا : جنس من التمر قالت الزباء .

* ما للجمال مشيها وئيــدا ... الخ *

(١) كذا فى شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٩٣ طبع ليدن) وفى الأصول : « الملك » .

(٢) كذا فى الأصول ، وفى مروج الذهب (ج ١ ص ٢٢٥ طبع بلاق) . « فقال سوّاب : بشنا بشنا بالنبطية ؛ أى فى الجوالق شرّ » . وفيه (ج ٣ ص ١٩٧ طبع أوربا) : « فقال البوّاب : بشقا بشقا ؛ أى شر فى الجوالق » .

عمرو هذا هو الذى يقال فيه : « شَبَّ عمرو عن الطَّوْق» . وكانت مدة مُلْكه مائة سنة .

ثم ملك بعده ابنه امرؤ القيس . فكان مُلْكه ستين سنة .

ثم ملك بعده ابنه عمرو بن امرئ القيس وهو مُحَرِّق العرب[1] . وكان مُلْكه خمسا وعشرين سنة ، وكانت أمه مَارِيَة التى يُضْرب المثل بقُرْطَيْها .

101/13

ثم ملك بعده النعمان[2] بن المنذر فارس حليمة[3]،وهو الذي بنى الخَوَرْنَق[4] وكَرْدَس[5] الكراديس . وكان أعور[6] ، ويقال : إنه أشرف فى بعض الأيام على ما حَوْل الخَوَرْنَق فقال : أكلّ ما أرى إلى نَفَاد؟ قيل : نعم . قال : فأىُّ خير فى مُلْك يكون آخره إلى نَفَاد ! ثم انخلع من مُلْكه ولبس المُسُوح وساح فى الأرض . وقد ذكره عدىّ بن زَيْد فقال:

وتَفَكَّرْ رَبُّ الخَوَرْنَقِ إذ أشْـ * ـرَفَ يوماً وَلِلْهُدَى تفكيرُ
سَرَّه حالُه وكَثْرَةُ ما يَمْـ * ـلِكُ والبحرُ مُعْرِضاً[7] والسَّدِيرُ

(١) فى الأصل : « الحرب » . وما أثبتناه عن مروج الذهب . وفيه وفى تاريخ أبى الفدا ص ١٢٢ طبع أوربا) أن الذى يسمى محرّقا هو امرؤ القيس بن عمرو بن امرئ القيس ، وإنما سمى محرّقا لأنه أول من عاقب بالنار .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى مروج الذهب : أن الذى ملك بعده النعمان بن امرئ القيس ، ثم المنذر ابن النعمان بن امرئ القيس ، ثم النعمان بن المنذر .

(٣) كذا فى مروج الذهب وشرح قصيدة ابن عبدون ، وفى الأصل : « حمله » .

(٤) الخورنق : قصر بناه سنمار على ثلاثة أميال من الحيرة .

(٥) كردس القائد خيله : أى جعلها كتيبة كتيبة . والكراديس : كتائب الخيل ، واحدها كردوس .

(٦) فى تاريخ أبى الفداء : أن الذى كان أعور هو النعمان بن امرئ القيس بن عمرو .

(٧) معرضا : معرض بمعنى متسع ، ومنه أعرض الثوب ، أى اتسع وعرض .

فارْعَوَى قلبُه وقال : فما غِبْـ * ـطَةُ حَيٍّ إلى المَمَاتِ يَصِيرُ؟

وكان مُلْكُه خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك الأسودُ بنُ النعمان ، فكان ملكه عشرين سنة . ويقال : إنّ الأسودَ هذا هو الذى ٱنتصر على غسّانَ وأَسَرَ عِدّةً من ملوكهم ، وأراد أن يَعْفُوَ عنهم ، وكان للأسود ٱبنُ عمٍّ يقال له : أبو أُذَيْنة ،قد قَتَلَ آلُ غسّانَ له أخًا فى بعض الوقائع ، فقال قصيدته المشهورة يُغْرِى بهم الأَسْودَ بن النعمان :

ما كلَّ يومٍ ينال المرءُ ما طَلَبَا * ولا يُسَوِّغه المِقْدارُ[1] ما وَهَبَا

وأحزَمُ الناس مَنْ إن فُرْصةٌ عَرَضَتْ * لم يجعل السببَ المَوْصولَ مُقْتضبَا

وأنصفُ الناسِ فى كلِّ المواطن مَنْ * سَقَى المُعَادين بالكأس الذى شَرِبَا

وليس يَظْلِمُهم مَنْ راح يَضْرِبُهم * بحدِّ سَيفٍ به مَنْ قبلَهم ضَرَبَا

والعفوُ إلّا عن الأكفاء مَكْرُمةٌ * مَنْ قال غيرَ الذى قد قُلْتُه كَذَبَا

قتلتَ عمرًا وتَسْتَبْقِى يزيدَ لقد * رأيتَ رأيا يجرّ الوَيْلَ والحَرَبَا

لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأَفعَى وتُرْسِلَها * إن كنتَ شَهْمًا فأَتْبِعْ رأسَها الذَّنَبَا

هم جَرَّدوا السيفَ فٱجعلْهم له جَزَرًا[2] * وأَوْقَدُوا النارَ فٱجعلْهم لها حَطَبَا

إن تَعْفُ عنهم تقول الناسُ كلُّهُمُ * لم يَعْفُ حِلْمًا ولكن عَفْوُه رَهَبَا[3]

وكان أَحْسَنَ مِن ذا العفو لو هربوا * لكنّهم أَنِفوا مِنْ مِثْلِكَ الهَرَبَا

هُمُو أُهَيْلةُ غسّانَ ومَجْدُهُمُ * عالٍ فإن حاولوا مُلْكًا فلا عَجَبَا

وعَرَّضُوا بِفِداءٍ واصِفِين لنا * خَيْلًا وإبْلًا تَرُوقُ العُجْمَ والعَرَبَا

(١) المقدار هنا : القدر (بالتحريك) .

(٢) جزرا : قطعا . (٣) رهبا : خوفا .

أيحلبون دمًا منا ونحلبهم * رسْلًا لقد شرّفونا فى الورى حلبًا[1]
علام تقبل منهم فدية وهمو * لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا

فلمّا أنشده هذه القصيدة رجع عن رأيه فى العفو عنهم وقبول الفداء منهم وقتلهم . والله أعلم .

٥ ثم ملك بعده المنذر بن الأسود[2]؛ وكانت أمّه ماء السماء[3] . وكانت مدّة مُلكه أربعا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده عمرو بن المنذر . فكان مُلكه أربعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده المنذر بن عمرو بن المنذر . وكان مُلكه ستّين سنة .

ثم ملك بعده قابوس بن المنذر . فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة .

١٠ ثم ملك بعده أخوه المنذر بن المنذر بن ماء السماء .

ثم ملك بعده النعمان بن المنذر؛ وهو الذى قيل له : « أبيتَ اللّعن » وهو آخر مَنْ ملك من لخم . وكان مُلكه آثنتين وعشرين سنة . وها نحن نذكر ما قيل فى سبب مُلكه وزواله .

قالوا : وكان عدىّ بن زَيْد العُبادىّ وآبنه زيد بن عدىّ سَبَبَ ولايته وسَبَبَ هلاكه . وذلك أنّ عديًّا وأخَوَيْه ، وهما عمّار وعمرو ، كانوا فى خدمة ١٥ الأكاسرة ولهم من جهتهم قطائع ، وكان قابوسُ الأكبر عمّ النعمان بعث إلى كسرى أبرويز بعدىّ بن زَيْد وأخَوَيْه ليكونوا فى كُتّابه يترجمون له ، فلمّا مات

(١) الرسل (بالكسر) : اللبن . والحلب (بالتحريك) : استخراج ما فى الضرع من اللبن .

(٢) ذكر أبو الفدا فى تاريخه (ص ١٢٦ طبع أوربا) ما يخالف ذلك فانظره .

٢٠ (٣) اسمها ماوية بنت عوف بن جشم ، وإنما لقبت ماء السماء لحسنها وجمالها . (راجع تاريخ أبى الفداء ص ١٢٦ طبع أوربا وشرح قصيدة آبن عبدون ص ٩٦ طبع لندن) .

المنذر ترك من الأولاد آثنى عشر رجلا ، وهُم الأشاهِبُ[(١)] ، سُمُّوا بذلك لجمالهم ، وفيهم يقول الأعشى :

وبنو المنــذر الأشاهِبُ بالحِـ * ـيرة يَمْشُونَ غُدْوَةً كالسيوفِ[(٢)]

١٠٦ / ١٣

فجعل المنذرُ آبنَــه النعمان فى حجر عدىّ بن زيد هــذا ، وجعل آبنه الأســود فى حجر رجل يقال له : عدىّ بن أوْس بن مَرِينا ، و بنو مَرِينا[(٣)] قومٌ لهــم شَرَف ، وهم من لَخْم ، وترك المنــذر بقيَّةَ بنِيه ، وهم عشرة ، يستقلّ كلّ واحد منهــم بنفسه ، وجعل المنذر على أمره كلّه إياس بن قَبِيصة الطائىّ ، فلمّا مات قابوس طلب كسرى مَنْ يملّكه على العرب ، فدعا عدىّ بن زيد فقال له : مَنْ بَقِىَ من بنى المنذر ، وماهم؟ وهل فيهم خيرٌ؟ فقال : بقيتهم فى ولد هذا الميِّت ، يعنى المنذر ، وهم رجالٌ نجباء ؛ فكتب إليهم بالقدوم عليه ، فقَدِمُوا فأنزلهم على عدىّ بن زيد ، وكان عدىّ يرى موضع النعمان لأنه فى حِجْره ويختاره على بقيّة إخوته فى الباطن ، وهو يُظهر لهم خلاف ذلك ويفضّلهم عليه فى الظاهر ، و يكرم نُزُلَهم ويخلو بهم ويريهم أنه لا يرجو النعمان ، كلّ ذلك ، ليطمئنّوا إليه و يرجعوا إلى رأيه ، ثم خلا بكلّ منهم على آنفراده وقال لهم : إنّ سألكم المَلِك : أتكفوننى العرب فقولوا : نكفيهم إلّا النعمان ، وقال للنعمان : إن سألك الملك عن إخوتك فقُلْ له : إنْ عجزتُ عنهم فإنّى عن غيرهم أعجز .

(١) الشهبة فى الأصل : بياض يخالطه سواد ، وقيل : البياض الذى يغلب على السواد ، وقد يقال على مطلق البياض كما قالوا : سنة شهباء : أى بيضاء لكثرة الثلج وعدم النبات . وفى القاموس : «والأشاهب بنو المنذر لجمالهم » قال شارحه السيد مرتضى : « سموا ... »

(٢) كذا فى شعر الأعشين (ص ٢١٢ طبع أوربا) وفى الأصول : « بالسيوف » .

(٣) بنو مرينا : قوم من أهل الحيرة من قبائل العباد ، وهم الذين ذكرهم آمرؤ القيس فى قوله :

فلو فى يوم معركة أصيبوا * ولكن فى ديار بنى مرينا

وليس مرينا بكلمة عربية (انظر تاج العروس واللسان مادة مرن) .

قال : وكان عدىّ بن أوْس بن مَرِينا داهيــةً أريبا ، وكان يُوصى الأســود ٱبن المنذر ويقول : قد عرفتُ أنّى لك راجٍ ، وأنّ طُلْبتى اليك ورغبتى أن تخالف عدىّ بنُ زيد فيما يشير به عليك ، فإنه والله لا ينصح لك أبدا ، فلم يلتفت الأسودُ الى قوله . فلمّا أمر كسرى عدىّ بن زَيْد أن يُدْخلهم عليــه قدّمهم رجلا رجلا ، وكسرى يرى رجالا قلمّا رأى مثلهم ، فإذا سألهم هل تكفوننى العرب قالوا : نكفيك العرب كلّها إلّا النعمان . فلمّا دخل النعمان عليه رأى رجلا دميما قصيرا أحمرَ الشعر فكلّمه وقال : هــل تستطيع أن تكفينى العــرب ؟ قال نعم ، قال : فكيف تصنع بإخوتك ؟ قال : أيّها الملك إن عجزتُ عنهم فإنّى عن غيرهم أعجز . فملكه وكساه وألبسه تاجا قيمته ستّون ألف درهم . فلمّا خرج وملك على العرب قال عدىّ ٱبن أوْس بن مَرِينا للأسود بن المنذر : دونك فإنك خالفتَ الرأى .

قال : ثم إنّ عدىّ بن زيد صنع طعاما فى بِيْعة وأرسل الى ابن أوْس أن ٱئتنى مع مَن أحببتَ فإن لى حاجةً ، فأتاه فى أناس فتغدّوْا فى البِيْعة . فقال عدىّ بن زَيْد لعدىّ بن أوْس : ياعدىّ إنّ أحق مَن عَرَف الحق ثم لم يَلُم عليه مَن كان مثلك ، إنّى عرفتُ أنّ صاحبك الأســودَ كان أحبَّ إليك أن يُمَلَّك من صاحبى النعمان ، فلا تَلُمنى على شىء كنتَ على مثــله ، وأنا أحبّ ألّا تَحقِد علىّ شيئا لو قدَرْت عليه ركبتَــه ، وأحبّ أن تعطِيَنى من نفسكِ ما أعطيك من نفسى ، فإنّ نصيبى من هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك . فقام عدىّ بن زَيْد الى البيعــة وحلف ألّا يهجُوَه ولا يبغيه غائلةً أبدا ، ولا يَزْوِى عنه خيرا ، وحلف عدىّ بن أوس على مثل يمينه ألّا يزال يهجوه أبدا ويبغيه الغوائل ما بَقِىَ . وخرج النعمان حتى أتى منزله بالحيرة ، وٱفترق العدِيّان على وحشة ، فقال عدىّ بن أوس للأسود : إن لم تظفَر أفلا تعجز أن تطلب بثأرك من هــذا المعدّىّ الذى عمل بك ما عَمِل؟ فقــد كنتُ أخبرتك

أن معدًّا لا تنام عن مكرها، وأمرتُك أن تخالفه فعصيتنى. قال: فما تريد؟ قال: ألّا تأتيك فائدة من مُلكك ولا أرضك إلّا عرضتها علىّ، ففعل. وكان عدىّ بن أوس كثير المال، فلم يمر به يومٌ إلّا بعث فيه الى النعمان هديّة أو تُحفة. فلمّا توالَى ذلك وكثُرت هداياه عند النعمان صار من أكرم الناس عليه، وصار لا يقضى فى مُلكه شيئا إلّا برأى عدىّ بن أوس. فلمّا رأى مَن يطيف بالنعمان منزلة ابن أوس عنده ٥ تابعوه ولزِمُوه، فكان يقول لمن يثق به من أصحاب النعمان: إذا رأيتمونى أذكر عدىَّ بنَ زيد عند الملك بخير فقولوا: إنه لكما يقول ولكنّه لا يُسلِّم عليه أحد، وإنه يقول: إن الملك — يعنى النعمان — إنما هو عامله، وإنه هو الذى ولّاه ما ولّاه.

١٠ فلم يزالوا بهذا وأشباهه حتى أضغنوا النعمان عليه. ثم إنهم كتبوا كتابا عن عدىّ الى قَهْرمانٍ[1] كان له، ودسّوا مَنْ أخذ الكتاب وأتى به النعمان فقرأه فغضب، وأرسل الى عدىّ بن زيد يقول: عزمتُ عليك إلّا زرتنى فإنى قد اشتقتُ إليك، وكان عند كسرى، فاستأذنه فى زيارة النعمان فأذِنَ له، فلمّا أتاه لم ينظر اليه حتى حبسه، فجعل يقول الشعر ويستعطفه به، فكان مما قاله:

١٥ أبلِغ النُّعمانَ عنّى مألُكاً[2] * إنه قد طالَ حَبْسِى وانتظارى

لو بغير الماءِ حلْقِى شَرِقٌ * كنتُ كالغَصّانِ بالماءِ اعتصارِى[3]

(١) القهرمان: الوكيل، أو أمين الدخل والخرج.

(٢) مألُكا: المألك (بفتح اللام وضمها): الرسالة، لأنها تؤلك فى الفم (تلاك)، قال ابن برّى: وقد يقال مألُكَة، وروى عن محمد بن يزيد أنه قال: مألك جمع مألكة. (انظر اللسان مادة ألك). وقال البغدادىّ فى خزانة الأدب (ج ٣ ص ٥٩٧): والمألك (بسكون الهمزة وضم اللام): ٢٠ الرسالة، وقال الزجاج: مألك جمع مألكة.

(٣) اعتصارى: قال الجوهرى: الاعتصار: أن يغَصّ الإنسان بالطعام فيعتصر بالماء، وهو أن يشربه قليلا قليلا ليسيغه، وأنشد هذا البيت. وقال البغدادىّ فى الخزانة (ج ٣ ص ٥٩٦): =

وقال أشعارا كثيرةً كانت تبلُغ النعمان فندِمَ على حبسه وعَلِمَ أنه كِيدَ فيه ، فكان يُرسل إليه ويَعِدُه ويُمَنِّيه ، فلمّا طال سجنُه وأعياه التضرّع إلى النعمان كتب إلى أخيه أُبَيّ — وهو عمّار — وهو مع كِسْرَى يخبره بحاله ، ويبعثه على السعى فى خلاصه ، فدخل أُبَيّ على كسرى وكلّمه ، فكتب إلى النعمان فى أمره وبعث رسولا بكتابه ، فقال له أُبَيّ : إبدأ بعدىّ وٱنظُره قبل أن تجتمع بالنعمان ، ورشاه على ذلك ، ففعل الرسولُ ذلك ودخل الى الحبس وٱجتمع بعدىّ وقال له : ما تحبّ أن أصنع؟ قال: أُحبّ ألّا تخرُج من عنـدى ، وأعطِنى كتاب كسرى لأُرسله من قِبَـلِى . قال : لا أستطيع ذلك . قال: فإنك إن خرجتَ من عندى قُتلتَ . فقال: لا بدّ أن آتِىَ النعمانَ وأُوَصِّله الكتابَ من يدى ، فٱنطلَق إلى النعمان وأوصله الكتابَ فقَبِلَه وقال : سمعاً وطاعةً ، ووَصَلَه بأربعة آلاف مثقال [ذهبا][1] وجارية [حسناء][1] وقال: إذا كان من غدٍ فٱدخُل عليه وأخرِجْه بنفسك . وكان أعداء عَدِىّ أتوا النعمان وأخبروه أنّ رسول كسرى دخل إلى عدىّ وأنه إن خرج من الحبس لم يَسْتبقِ منّا أحدًا ، ولم تنجُ أنتَ ولا غيرُك ، فأمرَهم النعمانُ بقتله ، فدخلوا عليه لمّا خرج الرسولُ من عنـده وغَمّوه[2] حتى مات ، فلمّا أصبح الرسولُ دخل السجن فقال له الحَرَس : إنّ عديًا قد مات منـذ أيام ، ولم نجرؤ أن نُخبر النعمان فَرَقاً منه لعلمنا بكراهيته لذلك ، فرجع الرسولُ إلى النعمان فقال :

= وتحقيقه أن الاعتصار الالتجاء ، كما قال أبو القاسم على بن حمزة البصرىّ فيما كتبه على النبات لأبى حنيفة الدينورىّ . وساق البغدادىّ كلام أبى القاسم هذا بنصه ، ثم قال : وقـد صار هذا البيت مثلا للتأذى ممن يرجى إحسانه . وقد أورد الميدانىّ فى مجمع الأمثال المثل : « لو بغير الماء غصصت » وقال : إنه يضرب لمن يوثق به ثم يؤتى الـواثق من قِبَله واستشهد بهـذا البيت . وفى الأصول : « انتصارى » وهو تحريف .

(١) التكلة من الأغانى (ج ٢ ص ١٢١ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) يريد أنهم غطوا وجهه بشىء حتى اختنق .

إنى كنتُ بدأتُ به فدخلتُ عليــه وهو حىٌّ . فقال له النعمان : يبعثـك الملك إلىّ فتدخُل إليه قبلى ، كذبتَ ! ولكنّك آرتشَيْتَ وتهدّده ، ثم آستدعاه بعد ذلك وزاده جائزةً وكسوةً وآستوثق منه[1] وصرَفَه الى كِسْرى . فلمّا رجع إليه قال له : قــد مات قبل مقدَمى على النعمان .

قال : ثم نَدِم النعمان على قتْل عدىّ ندما شديدا وآجترأ أعداءُ عدىّ على النعمان وهابهم ، ثم ركب النعمانُ فى بعض أيامه للصَّيد فلقِىَ آبنًا لعدىّ بنِ زيد ، فكلّمه فإذا هو غلامٌ ظريفٌ ففرِحَ به النعمان وقرّبه ووَصَلَه وآعتذر إليه ، ثم جهزه[2] الى كسرى وكتب إليه : إنّ عدِيّا كان ممن أُعِينَ به الملك فى نصيحته ورأيه ، فآنقضت مُدّته وآنقطع أجله ، ولم يُصَبْ به أحدٌ أشدّ من مصيبتى ، و إنّ المَلِكَ لم يكن ليَفقِدَ رجلا من عبيده إلّا جعل الله له منه خَلَفًا ، وقد أدرك له آبنٌ ليس هو دُونه ، وقد سرّحته إلى المَلِك فإن رأى أن يجعله مكانَ أبيه و يصرِفَ عمّه إلى عَمَلٍ آخر فعَــل . فأجابه كسرى إلى ذلك ورتّبه فى وظيفة أبيه ، وسأله عن النعمان فأحسن الثناء عليه ، فمكث سنوات على منزلة أبيه وأُعجِبَ به كسرى . وكان لصاحب هــذه الرُّتْبة على العرب وظيفةٌ فى كلّ سنةٍ من الأفراس والمهارة[3] والكَمْأة والأَقِط والأُدْم وغير ذلك ، وهو يلى ما يُكتَب عن كسرى إلى العرب .

قال : ثم تمكّن زَيْدُ بنُ عدىّ بن زَيْد عند كسرى حتى كان يجتمع به فى أوقات خَلَوَاته ، فدخل عليه فى بعض الأيّام فكلّمه فيما دخل بسببه ، ثم جرى ذكر النساء . وكانت عند الأكاسرة صفاتُ آمرأة ، ومن رَسْمهم أن يطلبوا للملك مَنْ هى متّصفةٌ

(١) عبارة الأغانى : « وتوثّق منه ألّا يخبر كسرى إلّا أنه قد مات قبل أن يقدَمَ عليه » .

(٢) جهزه : أعدّ له معدّات السفر .

(٣) المهارة : جمع المهر ، والمهر أوّل ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية وغيرها .

بتلك الصفات. وكانت الصفةُ أنّ المنذرَ الأكبرَ أهدى إلى أنُو شرْوَانَ جارية كان أصابها لمّا أغار على الحارث الأكبر الغسّانيّ، فكتب إلى أنُو شرْوَانَ بصفة الجارية فقال: هي معتدلةُ الخَلْق، نقيّةُ اللّون والثّغر، بيضاء قمراء وطفاءُ[1] دعجاء[2] حوراء عيناء [قنواء][3] شمّاء[4] [برجاء][5] زجّاء[6] أسيلةُ الخدّ، [شهيّةُ المقبّل][7] جثْلةُ[8] الشّعْر، عظيمةُ الهامة، بعيدةُ مهوى القُرط عيْطاءُ[9]، عريضةُ الصدر، كاعبُ الثدى، ضخمةُ مُشاش[10] المنْكِب والعضد، حسنةُ المِعْصَم، لطيفةُ الكفّ، سبْطةُ البنَان، لطيفةُ طىِّ البطن، خميصةُ الخصْر، غرْثَى الوشاح[11]، ردَاحُ الأقبال[12]، رابيةُ الكفَل، مُفعمةُ الساق[13]، لفّاءُ الفخذين، ريّا الروادف، ضخمةُ المأْكمتَيْن[14]، عظيمةُ الركبة، مُشبَعةُ الخلْخال[15]، لطيفةُ

(١) الوطفاء: غزيرة الأهداب وشعر الحاجبين.

(٢) الدعج: شدّة سواد العين وشدّة بياض بياضها.

(٣) زيادة من الأغانى (ج ٢ ص ١٢٣ طبعة دار الكتب المصرية)، والقنواء: وصف من القنا وهو ارتفاع فى أعلى الأنف واحديداب فى وسطه وسبوغ فى طرفه.

(٤) الشمم فى الأنف: ارتفاع القصبة وحسنها.

(٥) زيادة من الأغانى. والبرجاء: الجميلة الحسنة الوجه.

(٦) الزجاء: دقيقة الحاجبين فى طول. (٧) زيادة من الأغانى.

(٨) الجثلة: كثيفة الشعر سوداؤه. (٩) العيطاء: الطويلة العنق.

(١٠) المشاش: رءوس العظام مثل المنكبين والركبتين والمرفقين.

(١١) غرثى الوشاح: دقيقة الخصر.

(١٢) الرداح: العجزاء الثقيلة الأوراك التامة الخلق. والأقبال (بالفتح): ما استقبلك من مشرف والواحد قبل (بالتحريك).

(١٣) مفعمة الساق: ممتلئتها.

(١٤) المأكمتان: اللحمتان اللتان على رءوس الوركين، الواحدة مأكمة.

(١٥) مشبعة الخلخال: كناية عن السمن، وفى اللسان: امرأة شبعى الخلخال: ملأى سمنا.

الكعب [والقدم، قَطُوف المشى]، مِكسَالُ[1] الضُّحَى[2]، بَضَّةُ[3] المتجرَّد، سَمُوعٌ للسيِّد، ليست بخَنْساء[4] ولا سَفْعاء[5]، رقيقةُ الأنف، عزيزةُ النفس، لم تُغذَّ فى بؤس، حَيِيَّةٌ رَزِينةٌ، حليمةٌ رَكِينةٌ[6]، كريمةُ الخال، تقتصر بنسب أبيها[7]، و بفصيلتها دون جِمَاع قبيلتها، قد أحكمتها التجارِبُ فى الأدب[8]، رأيها رأىُ أهل الشرف، وعملُها عملُ أهل الحاجة، صَنَاعُ الكفَّين، قَطِيعةُ[9] اللسان، رَهْوةُ[10] الصوت [ساكنته][11]، تَزِينُ البيتَ[12] وتَشِينُ العدوَّ، إن أردتَها اشتهتْ، وإن تركتَها انتهتْ، مُحَمْلِقٌ[13] عيناها، ومحمرٌّ وجنتاها، مُتَذَبْذِبٌ شفتاها، وتبادِرُكَ الوثبةُ [إذا قمتَ، ولا تجلسُ إلا بأمرك إذا جلستَ][14]. فقبِلَها أَنُوشِرْوَانُ وأمر بإثبات هذه الصفة فى ديوانه[15] فكانت تتوارثُ

(1) زيادة من الأغانى. والقطوف: وصف من القطاف وهو تقارب الخطو.

(2) المكسال: المرأة التى لا تكاد تبرح مجلسها، وهو مدح لها مثل نؤوم الضحى.

(3) البضة: الناعمة، يقال: امرأة بضة المتجرد (بالفتح) أى بضة عند التجرد، فالمتجرد على هذا مصدر. ومن قال: بضة المتجرد (بالكسر) أراد الجسم.

(4) الخنساء من الخنس (بالتحريك) وهو تأخر الأنف إلى الرأس وارتفاعه عن الشفة وليس بطويل ولا مشرف، وقيل هو قريب من الفطس وهو لصوق القصبة بالوجنة وضخم الأرنبة.

(5) السفعاء من السفع (بالتحريك) وهو السواد والشحوب. وفى الحديث: «أنا وسفعاء الخدين الحانية على ولدها يوم القيامة كهاتين» وضم أصابعه، أراد بسفعاء الخدين أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها واسودّ، إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها.

(6) ركينة: ساكنة وقورة.

(7) عبارة الأغانى هنا: «تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها، وتستغنى بفصيلتها دون جماع قبيلتها».

(8) فى الأغانى: «الأمور».

(9) كذا فى الأصول بهاء التأنيث، وفى القاموس واللسان: «وامرأة قطيع الكلام بغير هاء إذا لم تكن سليطة».

(10) رهوة الصوت: رقيقته سهلته.

(11) التكملة من الأغانى.

(12) فى الأغانى «الولى».

(13) فى اللسان: والمحملق من الأعين: ما حول مقلتها بياض لم يخالطه سواد.

(14) التكملة من الأغانى.

(15) فى الأغانى: «دواوينه».

حتى أنتهى المُلْك إلى كِسرى أَبْرَوِيزبن هُرمُز. فلمّا قُرِئَتْ هذه الصفة عليه قال له
زَيْد بن عدىّ : أيها الملك، أنا أخبر بآل المنذر، وعند عبدك النعمان من بناته و بنات
عمّه وأهله أكثرُ من عشرين آمرأة على هذه الصفة . فقال له كسرى : اكتب فيهن
إليه . فقال : أيها الملك، إنّ شرّ شىء فى العرب وفى النعمان [خاصّةً] (١) أنهم يتكرّمون
٥ — [زعموا] (٢) فى أنفسهم — عن العجم (٣)، فآبعثنى إليه وآبعثْ معى رجلا [من ثقاتك] (٤)
يفقه العربية . فبعث معه رجلا جَلْدا [فَهِمًا] (٥)، فخرج به زيد حتى أتى الحيرة ودخل
على النعمان، فلما دخل عليه عظّم الرسول أمر كسرى وقال له : إنه قد آحتاج إلى نساء
لأهله وولده فأراد كرامتك [بِصِهْره] (٦) وبعث إليك فيهنّ . فقال النعمان : وما صفةُ
هؤلاء النّسوة؟ قال : هذه صفتُهنّ قد جئناك بها، وقرأها على زَيْد بن عدىّ، فشقّ
١٠ ذلك على النعمان وقال لزيد وللرسول : أمَا فى مَهَا السّواد وعِين فارسَ ما تبلُغون به
حاجتَكم؟ فقال الرسولُ لزيد : ما المَهَا والعِينُ؟ قال : البقر . فقال زيد للنعمان : إنما
أراد الملكُ كرامتَك، ولو علِم أنّ ذلك يشُقُّ عليك لمَا كَتَبَ إليك، فأنزلهما [يومين
عنده] (٧) ثم كتب الى كسرى . إنّ الذى طلب الملكُ ليس عنـدى . ثم قال لزيد :
أعذِرْنى عنده . فلمّا رجعا الى كِسْرَى قال لزيد : أين ما كنتَ أخبرتَنى به؟ قال :
١٥ قد كنتُ أخبرتك بضِنّتهم بنسائهم على غيرهم، وإنّ ذلك من شقائهم، فسَلْ هذا
الرســول عن مقالة النعمان فإنى أكره أن أواجه الملك بمـا قاله . فقال للرســول :
وما قال؟ قال إنه قال : أمَا فى بقَرِ السواد [وفارسَ] (٨) ما يكفى الملك حتى يطلبَ

---

(١) زيادة من الأغانى . (٢) زيادة من الأغانى .
(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « على » . (٤) زيادة من الأغانى .
٢٠ (٥) زيادة من الأغانى . (٦) زيادة من الأغانى . (٧) زيادة من الأغانى .
(٨) زيادة من الأغانى .

ما عندنا ! فعُرِفَ الغضبُ في وجه كسرى ثم قال : رُبَّ عبدٍ قد قال هذا فصار أمره إلى التَّبَاب[1]، فبلغ كلامُه النعمانَ[2] . وسكتَ كسرى على ذلك أشهُرًا، وهو يستعدّ ويتوقَّعُ حتى أتاه كتابُ كسرى يستدعيه، فانطلق النعمانُ حتى أتى جبال طَيِّئٍ وهو متزوج منهم[3]، فأرادهم أن يمنعوه فأبَوْا ذلك وقالوا : لولا صِهْرُكَ لقتلناكَ، فإنه لا حاجة لنا في مُعاداة كسرى، فأقبل يعرِض نفسه على العرب فلا يقبلوه، حتى نزل بذى قارٍ[4] ببني شَيْبانَ سِرًّا فلقِيَ هانئَ بن قَبِيصة [بن هانئ][5] بن مسعود فأودعه سلاحه وتوجه إلى كسرى فلقِيَ زَيْدَ بن عديّ على قنطرة سَاباطَ[6]، فقال له : انجُ نُعَيْمُ! فقال : أنت يا زيدُ فعلتَ هذا! أمَا والله لئن أُفلت لأَسقينَّك بكأس أبيك! فقال له زَيْد : امضِ نُعَيم، فقد والله وضعتُ لك عنده أَخِيَّةً[7] لا يقطعها المُهْرُ الأَرِنُ[8] . قال : فلما بلغ كسرى أنه بالباب أمر به فقُيِّد وأبعده إلى خَانِقِين[9]، فلم يزل بالسجن حتى مات بالطاعون،

(١) التباب : الهلاك والخسران . (٢) يريد النعمان .

(٣) كان عنده منهم فرعة بنت سعد بن حارثة بن لأم، وزينب بنت أوس بن حارثة كما في الأغاني .

(٤) ذو قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط ، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس .

(٥) زيادة من النقائض (ص ٦٣٩ طبع أوروبا) وهنا في الأغاني (ج ٢ ص ١٢٦ طبع دار الكتب المصرية) حديث دار بين النعمان وبين قبيصة بن هانىء توجه على أثره النعمان لمقابلة كسرى، فانظره .

(٦) ساباط : موضع بالمدائن لكسرى أبرويز .

(٧) الأخية (بتشديد الياء) كأبية، ويقال أخية بتخفيف الياء، وآخية بالمد والتشديد : عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشدّ اليه الدابة . وقال ابن السكيت : الأخية : أن يدفن طرفا قطعة من الحبل في الأرض وفيها عصية أو حجير ويظهر منه مثل عروة تشد إليها الدابة، وإنما تؤخى الأخية في مهواة الأرضين لأنها أرفق بالخيل من الأوتاد الناشزة عن الأرض .

(٨) الأرن : النشيط .

(٩) خانقين : بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال، وبها عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل .

قال ابن مسكويه فى كتاب تجارب الأمم : والناس يظنون أنه مات بساباط لبيت قاله الأعشى[(١)] . والصحيح ما قلناه .

وقال ابن عبدون : إنّ النعمان لمّا أقبل الى[(٢)] المدائن[(٣)] صفّ له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهنّ المصبّغات وجعلهنّ صفّين ، فلمّا صار النعمان بينهنّ قلن له : أمَا فينا للملك غنًى عن بقر السّواد ؟ وأنّ كسرى أمر بالنعمان فحُبس بساباط المدائن ، ثم أمر به فرمى بين أرجل الفيلة فوطئته حتى مات . وفى ذلك يقول سلامة بن جندل[(٤)] وذكر [قتل[(٥)]] كسرى أبرويز [للنعمان[(٥)]] فقال :

هو المُدخِل النُّعمان بيتًا سماؤُه * نُحورُ الفُيولِ بعدَ بيتٍ مُسَرْدَقِ[(٦)]

ثم ملك بعده إياسُ بنُ قَبيصة وأتى الله تعالى بالإسلام . فهؤلاء ملوك العرب بالیمن والشام والحِيرة .

(١) البيت هو :

فذاك وما أنجى من الموت ربه * بساباط حتى مات وهو محزرق

والمحزرق : المضيق عليه فى حبسه . ويروى : «محرزق» بتقديم الراء على الزاى . قال فى اللسان : « روى ابن جنى عن التوزىّ قال : قلت لأبى زيد الأنصارى : أنتم تنشدون قول الأعشى « ... ... حتى مات وهو محزرق » وأبو عمرو الشيبانى ينشده بتقديم الراء على الزاى فقال : إنها نبطية ، وأم أبى عمرو نبطية فهو أعلم بها منا » .

(٢) راجع شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٣١ طبع أوربا) .

(٣) المدائن : الموضع الذى كان مسكن الملوك من الأكاسرة ، فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التى قبلها وسماها باسم فسميت المدائن بذلك . وكان فتحها فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه على يد سعد بن أبى وقاص فى صفر سنة ١٦ هـ .

(٤) هو من بنى عامر بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم جاهلىّ قديم ، وهو من فرسان تميم المعدودين (راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٧ طبع أوربا) .

(٥) التكملة من لسان العرب مادة « سردق » .

(٦) فى اللسان مادة « سردق » ورد هذا البيت وفيه « صدور الفيول » بدل «نحور» . والبيت المسردق : هو الذى يكون أعلاه وأسفله مشدودا كله .

ذكر خبر سدّ مأرب (١) وسيل العرم

قد ذكر الله عزّ وجلّ ذلك فى كتابه العزيز فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسَاكِنِهِمْ (٢) آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الآية (٣) . رُوِىَ عن فروة (٤) بن مُسَيك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لمّا أنزل فى سبأ ما أنزل قال رجل : يارسول الله، وما سبأ؟ أرضٌ أو آمرأة؟ فقال : "ليس بأرضٍ ولا آمرأةٍ، ولكنّه رجلٌ وَلَدَ عشرة من العرب فتيامَنَ منهم ستّة وتَشاءم منهم أربعة ، فأمّا الذين تشاءموا فلَخْم وجُذام وغَسّان وعامِلَة ، وأمّا الذين تيامَنُوا فالأزْد والأشعرون (٥) وحِمْير وكِنْدة ومَذْحِج وأنمار" فقال رجلٌ: يارسول الله، وما أنمار؟ قال : "الذين منهم خَثْعَم وبَجِيلة" . أخرجه أبو داود فى سننه والترمذىّ فى جامعه .

وكانت أرض مأرِبَ من بلاد اليمن متّصلةَ العمارةِ مسيرةَ ستّة أشهر، وقيل أزيد من شهرين للراكب المجدّ، وكانوا يَقتبِسون النار بعضهم من بعض مسيرةَ ستّة أشهر ؛

(١) السدّ (بالفتح والضم) : الجبل والحاجز وبهما قرئ قوله تعالى : «حتى اذا بلغ بين السدّين» .

(٢) «فى مساكنهم» قراءة نافع، وقراءة حفص : «فى مسكنهم» .

(٣) الآيتان ١٥ و ١٦ من سورة سبأ .

(٤) كذا فى تهذيب التهذيب (ج ٧ ص ٢٦٥ طبع الهند) وتفسير القرطبى (ج ١٤ ص ٢٨٢ طبع دار الكتب المصرية) . وهو فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة بن الحارث بن كريب، ويقال بدل كريب ذوشنبين بن الك بن منبه بن عطيف المرادى ثم الغطيفى . له صحبة ، أسلم سنة تسع وسكن الكوفة ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم، واليه وعنه روى أبو سبرة النخعى وهانىء بن عروة المرادى وعامر الشعبى وسفيان بن أبيض بن جمال وغيرهم . وفى الأصول : «عروة» وهو تحريف .

(٥) الأشعرون: نسبة الى الأشعر، وهو أبو قبيلة من اليمن، وهو أشعر بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان ، وتقول العرب : جاءتك الأشعرون، بحذف ياءى النسب (راجع لسان العرب مادة شعر) . وفى تفسير القرطبى (ج ١٤ ص ٢٨٣ طبع دار الكتب) : «الأشعريون» باثبات ياءى النسب .

فكانت المرأة إذا أرادت أن تجتنى من ثمارها [شيئا][1] وضعت المِكْتَل[2] على رأسها وخرجت تمشى بين الأشجار وهى تغزل وتعمل ماشاءت ، فلا ترجع إلا وقد آمتلأ مكتلها مما يتساقط فيه من الثمار .

واختُلف فى مأرب، فقيل: إنه آسم مَلِك تلك الأرض فسُمّيت به، قال الشاعر[3]:

مِنْ سَبأَ[4] الحاضرين مأربَ إذ * يَبْنُون مِن دُونِ سَيْلِه العَرِما

وقيل : هو آسمٌ لقصر الملك، وفيه يقول أبو الطَّمَحان :

ألم تَرَوْا مأرِبًا ما كان أَحْصَنَهُ * وما حَوَالَيْهِ من سُورٍ وبُنيانِ

قال : وكان أوّل مَنْ خرج من اليمن بسبب سَيْل العَرم عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا ، وقد ذكرناه فى الأنساب[5] ، وإنّ سببَ تسميته مُزَيْقِيَا أنه كان يلبس فى كلّ يوم حُلّة وقيل حُلّتين ، وهو الأشهر، ثم يمزّقهما عشيّة نهاره لئلا يلبسهما غيره، فكان هذا دأبه فى كلّ يوم .

---

(١) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون .

(٢) المكتل : زنبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره .

(٣) هو النابغة الجعدىّ : وهو أبو ليلى قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب آبن ربيعة بن عامر بن صعصعة . شاعر إسلامى، وكان أوصف الناس للتخيل .

(٤) سبأ (بفتح الهمزة) على أنه ممنوع من الصرف لأنه آسم قبيلة ، وبهذه الرواية قرأ أبو عمرو وآبن كثير . وفى طبقات الشعراء لابن سلام (ص ٢٧ طبع أوربا) : «أخبرنا ابن سلام قال : قلت ليونس : كيف تقرأ : (وجئتك من سبأ بنبإ يقين) ؟ فقال : قال الجعدىّ وهو أفصح العرب :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ * يبنون من دون سيله العرما

وهو على قراءة «أبى عمرو ويونس» . والعرم (بالكسر) : هو هنا الأحباس تبنى فى أوساط الأودية وهو جمع واحده عرمة . وهذا البيت من قصيدة للجعدىّ ذكرها ابن قتيبة فى كتابه «الشعر والشعراء» (ص ١٦٣ طبع أوربا) .

(٥) راجع (ج ٢ ص ٣١٤ من هذا الكتاب) .

وكان سببُ خروجه من اليمن وآطّلاعه على خبر سَيْلِ العَرِم قبلَ حدوثه دُونَ غيره من الناس أنه كان له آمرأةٌ كاهنةٌ يقال لها : طُرَيفة الخير، وكانت قد رأتْ فى منامها أنّ سحــابةً غَشِيتْ أرضَهــم فأرعَدَتْ وأبرقَتْ ثم أصعقَتْ فأحرقَتْ كلّ ما وقَعَتْ عليه، ففَزِعَتْ طُرَيفةُ الخيرِ لذلك فَزَعاً شديدًا وأتتْ إلى زوجها عمرو بن عامر وقالت : ما رأيتُ اليومَ أزال عنى النوم . فقال لها : مارأيتِ ؟ قالت : رأيتُ غَيما أرعدَ وأبرقَ طويلا ثم أصعقَ فــا وقع على شىء إلّا آحترق . قال : فلمّا رأى ما داخَلَها من الرَّوْع والفَزَع سكّنها .

ثم إنّ عَمرًا بعد ذلك دخل حديقةً له ومعه جاريةٌ من بعض جواريه، فبلغ ذلك آمرأتَه طُرَيفةَ فخرجتْ إليه ومعها وَصِيفٌ لها آسمه سنان [1] ، فلمّــا برزت من بيتها عَرَض لها ثلاثَ مناجد منتصباتٍ على أرجلها ، واضعاتٍ أيديها على أعينها . قال : والمناجد : دوابّ تشبه اليرابيع [2] . فلمّــا نظرت طُريفة إليهــا قعدت الى الأرض ووضعت يديها على عينيها وقالت لغلامها : إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرنى، فلمّا ذهبت أعلمها فآنطلقتْ مسرعة، فلمّا عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو وثبت سُلَحفاةٌ من المــاء فوقعتْ فى الطريق على ظهرها وجعلتْ تَرُوم الآنقلاب ولا تستطيع، وتَسْتعِفر بيديها وتحثُو التراب على بطنها من جَنَباته وتَقذِف بالبَوْل . فلمّا رأتْها طُرَيفة الخير جلست إلى الأرض . فلمّا عادتِ السُّلَحفاةُ إلى المــاء مَضَتْ طُرَيفة حتى دخَلَتِ الحديقة على عمرو حين آنتصَفَ النهار فى ساعةٍ شــديدةِ الحرّ فإذا الشجرُ يتكافأ من غير ريح، فلمّا رآها عمرو آستحيى منها وأمر الجارية بالتنحّى

(١) كذا فى شرح قصيدة آبن عبدون (ص ٩٩ طبع أوربا) وفى الأصل : « سنا » .

(٢) ورد فى اللسان (مادة خلد) : « الخلد والخلد : ضرب من الفأرة أو هو الفأرة العمياء وجمعها مناجد على غير لفظ الواحد، كما أن واحدة المخاض من الإبل خلفة » .

ثم قال لها : ما أتى بك يا طُرَيفة ؟ فكهنت وقالت : والنورُ والظلماء، والأرضُ والسماء، إنّ الشجرَ لهالك، وليعودنّ الماء كما كان فى الزمن السالك . قال لها عمرو: ومَن خبّرك بهذا؟ قالت : أخبرنى المناجيدُ بسنين شدائد، يقطع فيها الولدُ الوالد . قال : فما تقولين ؟ قالت : أقول قولَ النُّدمان لَهْفا، لقد رأيتُ سُلَحفاةً تجرف التراب جَرْفا ، وتقذف بالبَوْل قذْفا ، فدخلَت الحديقة فإذا الشجرُ من غير ريح يتكافأ . قال عمرو :وما تَرَيْن فى ذلك؟ قالت : هى داهيةٌ دهياءُ من أمورٍ جسيمة، ومصائبَ عظيمة . قال : وماهو وَيْلك ؟ قالت : أجل، إنّ فيه الويل ، ومالك فيه من نيل ، وإنّ الويل فيما يجىء به السيل . فألقى عمرو نفسه على فراشه وقال : ما هذا ياطُرَيفة ؟ قالت : هو خَطْبٌ جليل، وحزنٌ طويل، وخَلَفٌ قليل، والقليلُ خيرٌ من تركه . قال : وما علامةُ ما تذكُرِين ؟ قالت : اذهبْ الى السدّ فإن رأيتَ جُرَذًا يكثر يديه فى السدّ الحَفْر، ويَقْلِب برجليه مَرَاجِلَ الصَّخْر، فاعلم أن الغُمر[(١)] غَمر، وإن [قد][(٢)] وقع الأمر . قال : وما هذا الذى تذكُرِينَ؟ قالت : وَعْدٌ من الله نَزَل، وباطلٌ بطَل، ونكالٌ بنا نكَل . قال : فانطلق عمرو الى السدّ يحرسه فإذا الجُرَذ يَقْلِب برجليه صخرةً ما يَقْلِبها خمسون رجلا، فرجع إليها وهو يقول :

أبصرتُ أمرًا عادنى منه أَلَمْ * وهاجَ لى من هوله بُرحُ السَّقَمْ
من جُرَذٍ كفَحْل خنزير الأَجَمْ * أوكَبْش صَرم من أفاويق الغَنَمْ
يَقْلِب صخرًا من جلاميد العَرِمْ * له مخاليبٌ وأنيابٌ قُضُمْ
* مافاته صخرٌ من الصخر قَصَمْ *

(١) الغمر : الماء الكثير . وفى الأصول : «الغفر غفر» وهو تحريف . وما أثبتناه عن شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٠٠ طبع أوربا) . وفى التعليق على هذه الكلمة بأسفل الصفحة إشارة إلى اختلاف الروايات فيها فيما بين : الغفر غفر والحفر عقر والعفر غفر .

(٢) زيادة من شرح قصيدة ابن عبدون .

فقالت طُرَيفة : وإنّ من علامة ماذكرتُ لك أن تجلس فتأمر بزجاجة بين يديك ، فإنّ الريح تملأُها بتراب البَطحاء من سهل الوادى ورَمْله ، وقد علمتُ أنّ الجنانَ مُظَلّلةٌ ما يدخلها شمسٌ ولا ريحٌ . فأمر عمرو بزُجاجةٍ فوُضِعَتْ بين يديه فلم تمكُث إلّا قليلا حتى آمتلأتْ من تراب البطحاء . فقال لها عمرو : متى يكون هلاكُ السدّ؟ فقالت : فيما بينك و بين سبع سنين . فقال : ففى أيّها يكون؟ فقالت : لايعلم ذلك إلّا اللهُ ، ولو علمه أحدٌ لعلمتُه ، ولا تأتى علىّ ليلةٌ فيما بينى و بين السبع سنين إلّا ظننتُ أنّ هلاكَنا فى غَدِهَا أو مَسائها .

ثم رأى عمرو بعد ذلك فى منامه سَيل العَرِم وقيل له : آيةُ ذلك أن ترى الحَصْباء[1] قد ظَهَرتْ فى سَعَف النخل وكَرَبه[2] ، فنظر إليها فوجد الحَصْباءَ قد ظَهَرتْ فيها فعَلِم أنّ ذلك واقعٌ ، وأنّ بلادَهم ستَخْرَب لا محالةَ ، فكتم ذلك وأخفاه وأجمع على بيع كلّ شىء له بأرض مأرِب ويخرج منها هو وولَدُه ، ثم خَشِىَ أن ينكر الناسُ حاله فصنع وليمة جمع الناس لها وقرّر مع أحد أولاده أنه يأمره بأمر فى ملإ القوم فيخالفه فإذا لطَمَه عمرو فيلطِمَه الآخر، ففعل ذلك . فلمّا لطمه آبنُه ــ وكان اسمه مالكا ــ صاح عمرو : واذُلّاه ! يومَ فَخْرِ عمرو يُهِينُه صبىٌّ ويَضرِبُ وجهه ! وحلف ليقتلنّه، فسأله القوم ألّا يفعل، فحلف ألّا يقيم بموضع صُنِع به فيه هذا، وليبيعنّ أموالَه حتى لا يُورَث بعدَه . فقال الناس بعضُهم لبعض : اغتنموا غَضْبةَ عمرو وآشتروا منه قبل أن يرضى ، فابتاع الناسُ منه جميعَ ما هو له بأرض مأرِبَ ، وفشا بعضُ حديثه فباع أُناس من الأزْد ، فلما كثُر البيْع آستنكر الناسُ ذلك فأمسكوا عن الشراء، فلمّا آجتمعت لعمرو أموالُه أخبر الناسَ بشأن سَيْل العَرِم وخرج من اليمن ، وخرج

(١) المراد بالحصباء هنا أشبه بالبثور التى تخرج بالبدن وتظهر فى الجلد .

(٢) الكرب (محركة) : أصول السعف الغلاظ العراض التى تقطع معها .

لخروجه منها خَلْقٌ كثيرٌ فنزلوا أرضَ عَكّ حتى مات عمرو بن عامر وتفرّقوا بعده
فى البلاد ؛ فمنهم مَن صار الى الشام ، وهم أولادُ جَفْنة بن عمرو بن عامر ، ومنهم من
صار الى يَثْرِبَ ، وهم أبناء قبيلة الأَوْس والخَزْرَج ، وأبوهما حارثةُ بنُ ثعلبة بن عمرو
ٱبن عامر ، وصارت أَزْدُ الشَّرَاة الى أرض الشَّراة ، وأَزْدُ عُمَان الى عُمَان ، ومالك بن
فهم الى العراق .

ثم خرجتْ بعدَ عمرو بيسير من أرض اليمن طيِّء فنزلت بجبلَىْ طيِّء : أجَا
وسَلْمى ، ونزل ربيعةُ بنُ حارثة بن عمرو بن عامر تِهَامة ، وسُمُّوا خُزَاعة لانخزاعهم
[من أخواتهم] (١) ، وتمزّقوا فى البلاد كما أخبر الله تعالى عنهم فقال : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ
كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ ثم أرسل الله عزّ وجلّ السيلَ على السدّ فهدمه .

وٱختُلِف فى العَرِم ماهو ؟ فقيل : السدّ واحدتُه عَرِمَة ، وقيل : هو الجُرَذ .
وكان السدّ فيما يُذكَر قد بناه لُقْمانُ الأكبرُ بن عادٍ ، وكان صفّه لحجارة السدّ بالرّصاص
فرسخا فى فرسخ . ويقال : إنّ الذى بناه كان من ملوك حِمْير . وقد ذكر ذلك ميمون
ابن قيس الأعشى فقال :

وفى ذلك للمُؤتَسِى أُسْوَةٌ * ومأرِبُ عفّى عليها العَرِمْ
رُخامٌ بَنَتْه لهم حِمْيَرٌ * إذا جاء مَوّاره لم يَرِمْ
فصاروا أيادى ما يقدرو * ن منه على شُرْب طِفْلٍ فُطِمْ
فأروَى الزروعَ وأعنابَها * على سعةٍ ماؤها إذ قُسِمْ

(١) زيادة من شرح قصيدة ٱبن عبدون .

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أيام العرب ووقائعها فى الجاهليّة ؛ وأنها لمن مآثرها السنيّة ، واذا تأمّلها المتأمّل دلّته على مكارم أخلاقهم وكَرَم نجارهم، وحقّقتْ عنده أنهم ما أحجموا عن طلب أوتارهم، وعلم مكافأتهم للأقران، وسماحتهم بالنفوس والأبدان، وإقدامهم على الموت ، ومبادرتهم عند الإمكان خشيةَ الفَوْت .

وقيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم : ما كنتم تتحدّثون به إذا خلوتم فى مجالسكم؟ فقال : نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليّتنا .

وقال بعضهم : وددت أنّ لنا مع إسلامنا كَرَمَ أخلاق آبائنا فى الجاهليّة . ألا ترى أنّ عنترةَ الفوارس جاهلىّ لا دينَ له ، والحسَنَ بنَ هانئ إسلامىّ ، فمنع عنترةَ كرمه ما لم يمنع ابنَ هانئ دينه ، فإنّ عنترة يقول :

وأغُضّ طَرْفِى إنْ بَدَتْ لى جارتى * حتى يُوارِى جارتى مأواها

وقال أبو نُوَاس الحسن بن هانئ :

كأنّ الشباب مَطيّةُ الجهل * ومُحَسِّن الضَّحكاتِ والهَزْلِ

والباعِثى والناسُ قد هَجَعُوا[1] * حتى أبيتَ خليفةَ البَعْلِ

وسأذكر من وقائعهم ما يُقَوِّى الجَنَان، ويبعث الجبان .

(١) فى ديوانه : « رقدوا » بدل هجعوا .

ذكر وقعة طَسْم وجَدِيس

وطَسْمُ بنُ لاوَذ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بن نُوحٍ عليه السلامُ، وجَدِيسُ بنُ عابِرِ بنِ إرَمَ ابنِ سام بنِ نُوحٍ عليه السلام، وهم العربُ العاربة، على ما ذكر بعض المؤرّخين . وكان منزلها اليمامة(١)، وآسمُها فى وقتهم جَوّ، وكان الملك عليهما رجلا من طَسْم يقال له : عِمْلِيق، وكان غَشوما ظَلوما . وكان سبب فنائهما أنّ عِمْليقا أتتـه ذاتَ يوم آمرأةٌ آسمُها هُزَيْلة بنت مازِن مع زوج لها آسمه ماش(٢)، وكان قد طلّقها وأراد أخذ ولده منها، فترافعا إليه ليحكم بينهما، فقالت هُزَيْلة : «أيها الملك، هذا آبنى حملته تسعا، ووضعته دَفْعًا، وأرضعته شَفْعًا، ولم أنل منه نفعا، حتى إذا تمّت أوصالُه، وآستوتْ خِصالُه(٣)، أراد أن يأخذه منّى قهرًا(٤) ويَسْلُبنيه سرّا، و يترك يدى منه صِفْرا» . فقال الزوج : « قد أخذتِ المَهْرَ كاملا، ولم أنَلْ منكِ طائلا، إلّا ولدا جاهلا(٥)، فآفعلْ ما كنتَ فاعلا » . فأمر الملك أن يجعل الولد فى غلمانه، فقالت هُزَيْلة :

أتينـا أخا طَسْم ليَحْكُمَ بيننـا * فأبرمَ حُـكْمًا فى هُزَيْلةَ ظالمـا
لَعَمْرِى لقـد حُكِّمْتَ(٦) لا مُتورِّعًا * ولا فَهِمًا عنـدَ الحكومةِ عالمـا
نَدِمْتُ فـلم أقدِر على مُتَزَحْزَحٍ * وأصبح زَوْجِى عاثرَ الرأى نادما

---

(١) اليمامة : مدينة بالبادية من بلاد العوالى، و بها قد تنبى مسيلمة الكذاب، وهى بلاد بنى حنيفة، وهى عن البصرة ست عشرة مرحلة، وعن الكوفة مثل ذلك . (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا) .

(٢) فى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٤ طبع دار الكتب المصرية) : « قرقس » .

(٣) فى الأغانى : « ودنا فصاله » . (٤) فى الأغانى : « كرها، و يتركنى من بعده ورها » .

(٥) فى الأغانى : «إلا وليدا خاملا » .

(٦) فى الصبح المنـير (ص ٧٥ طبع أوربا) : « حكمت » بفتح التاء على الخطاب . ورواية الشطر الثانى فيه هكذا : * ولا كنت ممن يبرم الحـكم عالما *

ورواية الأغانى هكذا : * ولا كنت فيا تبرم الحـكم عالما *

فلمّا بلغ عِمْلِيقًا ذلك غَضِبَ وأقسم أنه لا تُهْدَى عَرُوسٌ فى جَدِيس لبعلها حتى يكون هو الذى يبدأ بها قبل زَوْجها . فلم يزل على ذلك دهرا حتى أُهْدِيت عُفَيْرة[1] بنت عَفَار[2] الجَدِيسيّة أخت الأسْوَد بن [illegible][2] جَدِيس إلى بعلها ، ويقال : إنّ اسمها الشَّمُوس ، فحُمِلَتْ إلى عِمْلِيق ، فلمّا آفترعها وخلّى سبيلَها خرجتْ على قومها فى دمائها شاقّة جيبها عن قُبُلِها ودُبُرِها وهى تقول :

لا أحدٌ أذَلّ من جَدِيس * هكذا يُفْعَلُ بالعَرُوس

يرضَى بهذا يالَقَوْمِى حُرٌّ * أهْدَى وقد أعطَى وسِيقَ المَهْرُ

لأَخذةُ الموتِ كذا لنفسه * خيرٌ مِنَ أنْ يُفْعَلَ ذا بعِرْسِه

ثم قالت تحرّض جَدِيسًا على طَسْم :

أيَصْلُحُ ما يُؤْتَى إلى فَتَيَاتِكم * وأنتم رجالٌ فيكُمُ عَدَدُ الرَّمْلِ[3]

أيَصْلُحُ تَمْشِى فى الدِّماء فتياتُكم * صَبِيحةَ زُفَّتْ فى النساء إلى البعل

فإن كنتمو لا تغضَبُوا عند هذه * فكونوا نساءً لا تَفِيق من الكُحْل

ودونكُمُ طِيبُ العروس فإنما * خُلِقتم لأثواب العرائس والغِسْل

فلو أننا كُنّا رجالًا وكنتم * نساءً لَكُنّا لا نُقِرّ على الذُّلّ

فقُبْحًا وسُحْقًا للذى ليس دافعًا * ويختال يَمْشِى بيننا مِشْيَةَ الفَحْل

فموتُوا كِرامًا وآصبِرُوا لعدوّكم * لحربٍ تلظّى بالضِّرام من الجَزْل

ولا تجزَعُوا فى الحرب ياقومُ إنها * تقوم بأقوامٍ كرامٍ على رِجْل

(١) ورد فى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٥ طبع دار الكتب المصرية) : « عفيرة » مضبوطا بالقلم (بفتح العين وكسر الفاء) وصوابه كما ورد فى لسان العرب والقاموس وشرحه مادة عفر (ضم العين وفتح الفاء بصيغة التصغير (كَجُهَيْنَة) وهو ما أثبتناه هنا . (٢) كذا فى الأصول والصبح المنير وشرح قصيدة ابن عبدون والكامل لابن الأثير (ج ١ ص ١٥٤ طبع أوروبا) . وفى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٨ طبع دار الكتب المصرية) : « عباد » . (٣) كذا فى الأصول . وفى الأغانى والصبح المنير وشرح قصيدة ابن عبدون : « [illegible] » .

فاجتمعتْ جَدِيسٌ فقال لهم الأسود بن عفّار، وكان مُطاعا فيهم: لتُطيعُنّي [فيما آمركم به] (١) أو لأتّكئنّ على سيفي حتى يخرُج من ظهري. قالوا: فإنّا نُطيعك. قال: إنّ طَسْما ليسوا بأعزّ منكم، ولكن مُلْك صاحبهم هو الذي يُذْعِنُنَا إليهم بالطاعة، ولو امتنعتم منهم لكان لكم النَّصَفُ (٢). قالوا: إنّ القوم أكثرُ منّا عَدَدا ومُدَدا. قال: إنّي صانعٌ طعامًا فادعوهم إليه، فإذا جاءوكم متفضّلين في الحُلَل نهضنا إليهم بأسيافنا. فقالت عُفَيرة لأخيها: لا تفعل! فإنّ الغَدْر ذِلّة وعارٌ، ولكن كاثروا القومَ في ديارهم فتظفَروا أو تموتوا كِراما. قال: بل نمكُر بهم فنكون أمكنَ منهم. ثم صنع الأسودُ طعاما وأمر قومه أن يخترِطوا سيوفَهم ثم يدفنوها في الرمل. ودعا عِمْليقا وقومه، فلمّا أتَوْا استثارتْ جَدِيسٌ السيوفَ وشدُّوا عليهم فما أفلت منهم إلّا رِيَاح بن مُرّة، ففرّ إلى حسّان بن تُبّع فاستغاث به وأخبره بما صنعتْه جَدِيس بطَسْم فوعده النصرة، ثم نادى حسّان في حِمْير بالمسير وأخبرهم بما صَنَعتْ جَدِيسٌ بطَسْم؛ فقالوا: وما جَدِيسٌ وطَسْم؟ قال: هما أخَوان. قالوا: فما لنا في هذا من أرَب. قال حسّان: أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حَسَنا لمِلِكِكُم أن يُهْدِر (٣) دماءكم. وما علينا في الحُكْم إلّا أن نُنصِف بعضَهم من بعض. فقالوا: الأمرُ أمرُك أيها الملك فمُرْنا بما أحببْتَ. فأمرَهم بالمسير، فساروا حتى إذا كانوا من اليمامة على ثلاث ليالٍ قال رِيَاحُ بن مرّة لحسّان بن تُبّع: أبيتَ اللعن! إنّ لي أختا متزوّجةً في جَدِيس تنظُر الراكب على مسيرة ثلاثِ ليالٍ وأخاف أن تُنذِر قومَها، فأمرْ كلَّ إنسان أن يقتلع شجرةً من الأرض ويجعلَها أمامَه، فأمرَهم حسّان بذلك. ثم ساروا، فنظرتْ أختُ رِيَاح فقالت: ياجَدِيس! لقد سارتْ إليكم الشَّجَر. فقالوا لها:

---

(١) التكلة من شرح قصيدة ابن عبدون. (٢) النصف (بالتحريك): إعطاء الحق.

(٣) كذا في شرح قصيدة ابن عبدون. وفي الأصل: «يضيع».

وما ذاك ؟ قالت : أرى شجرا، من ورائه بشرا، وإنى لا أرى رجلا من وراء شجرة ينهش كتفا أو يخصف نعلا، فكذبوها وغفلوا عن أخذ أهبة الحرب حتى صبحتهم حمير . ففى ذلك تقول زرقاء اليمامة :

خذوا لهم حذركم ياقوم ينفعكم * فليس ما قد أراه اليوم يحتقر
إنى أرى شجرا من خلفه بشر * فكيف تجتمع الأشجار والبشر
صفوا الطوائف منكم قبل داهية * من الأمور التى تخشى وتنتظر
إنى أرى رجلا فى كفه كتف * أو يخصف النعل خصفا ليس يعتذر(1)
ثوروا بأجمعكم فى وجه أولهم * فإن ذلك منكم ـ فاعلموا ـ ظفر
وغوروا كل ماء دون منزلهم * فليس من دونه(2) نحس ولا ضرر
أو عاجلوا القوم عند الليل إن رقدوا * ولا تخافوا لها(3) حربا وإن كثروا

فلما كان حسان على مسيرة ليلة عبأ جيشه ثم صبحهم فاستباح اليمامة قتلا وسبيا، وهرب الأسود حتى نزل بطيء فأجاروه من كل من يطلبه وهم لا يعرفونه . وقبيلته فى طيء مذكورة . ثم إن حسانا أمر باليمامة فنزع عينيها فإذا فى داخلها عروق سود، فسألها عن ذلك فقالت : حجر أسود كنت أكتحل به يقال له الإثمد فثبت لى بصرى . وقيل : إنها أول من اكتحل بالإثمد، فأمر بها فصلبت على باب جو . وقيل : سمى جو باليمامة من ذلك الوقت . وفى ذلك يقول رياح بن مرة لما أخذ بثأره :

(1) يعتذر : تريد انه لا عذر له فى خصفها . وفى شرح قصيدة ابن عبدون : « يعتسر » وأشير فى الهامش الى رواية « يعتسذر » . وفى الصبح المنير (ص ٨٢ طبع أوربا) : « يقتدر » وأشير فى الهامش الى رواية « يعتبر » .

(2) كذا فى الصبح المنير وشرح قصيدة ابن عبدون . وفى الأصول : « دونهم »

(3) كذا فى الأصول وشرح قصيدة ابن عبدون وفى الصبح المنير : « لهم » .

غَدَرَ الحَىُّ من جَدِيسٍ بطَسْمٍ * آلَ طَسْمٍ كما تُدانِى تُدِينِى
قد أتيناهم بيوم كيوم * تَرَكُوا فيه مِثْلَ ما تَرَكُونِى
ليتَ طَسْمًا على منازلها تَمْ * لَمُ أنّى قَضَيْتُ عنّى دُيُونِى

وقد كثرت الشعراء قصّة هذه المرأة وجَوّ . فمن ذلك قول الأعشى على
٥ رواية ابن قُتَيبة :

قالتْ أرَى رجُلًا فى كفِّه كَتِفٌ * أو يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهْفِى آيَةً صَنَعَا[1]
فكذّبوها بما قالتْ فَصَبَّحَهُمْ * ذُو آلِ حَسّانَ يُزْجِى السمَّ والسَّلَعا[2]
فاسْتَنْزَلُوا آلَ جَوٍّ من مساكنهم * وهدَّمُوا رافِعَ البُنْيانِ فاتّضعا[3]

وروى ابن إسحاق :

١٠ كُونى كمثل التى إنْ غاب واحدُها[4] * أهدتْ له من بعيدٍ نظرةً جَزَعا

ثم أتى بالأبيات التى ذكرها ابن قتيبة . وقال المُسَيَّبُ بنُ عَلَس : ١١١/١٣

لقد نَظَرَتْ عينٌ إلى الجِزْعِ نَظْرَةً * إلى مثل مَوْجِ المُفْعَمِ المتلاطِمِ
إلى حِمْيرٍ إذ وُجِّهوا من بلادهم * تَضيقُ بهم لأيًا فروجُ المخارِمِ[5]

---

(١) كذا فى الصبح المنير ، تريد أنها تلهفت حين لم تستبنه أىّ الفعلين فعل . وفى الأصول وشرح
١٥ قصيدة ابن عبدون : « لهفا آية » .

(٢) السلع (بالتحريك) : شجر مرّ وله ثمر مثل عناقيد العنب صغار ، فإذا أينع أسود فتأكله
القرود ولا تأكله الناس ولا السائمة ، وفى الصبح المنير : « ... ... يزجى الموت والشرعا » . والشرع
(بالكسر) : الأوتار ، واحده شرعة .

(٣) فى الأصول وشرح قصيدة ابن عبدون : « فاتسعا » وما أثبتناه عن الصبح المنير ، وفيه :
٢٠ « شاخص » بدل « رافع » . وفى شرح قصيدة ابن عبدون : « يافع » .

(٤) فى الصبح المنير : « إذ غاب وافدها » .

(٥) المخارم : واحدها مخرم (بكسر الراء) وهو منقطع أنف الجبل .

وفيها يقول النَّمِرُ بنُ تَوْلَب :

وفتاتُهم عَنْزٌ غَداةَ تبيّنتْ * من بعد مَرْأَى فى الفضاء ومَسْمَع
قالتْ أرى رَجُلا يُقلِّبُ نعلَه * تقليبَ ذى وَصْلٍ له ومُشَسَّع
ورأتْ مقدّمةَ الخميس ودُونها * رَكْضَ الجِياد إلى الصَّباح يُتَبّع

ذكر حروب قيس فى الجاهلية

يومُ مَنْعِجٍ لِغَنِىٍّ على عَبْس

يومُ مَنْعِج[1] هو يوم الرَّدْهَة[2] وفيه قُتِلَ شأس بن زُهَير بن جَذِيمة بن رَوَاحة العَبْسىّ، قتله رِيَاح بن الأَشَلّ[3] الغَنَوىّ . وذلك أنّ شأسا أقبلَ من عند النعمان بن المنذر وقد أجزل حِبَاءَه . وكان من حِبَائه قَطيفةٌ حمراءُ ذاتُ هُدُب[4] وطيبٌ، فورد مَنْعِجًا — وهو ماء لغنىّ — فأناخ راحلته إلى جانب الرَّدْهة وعليها خِباء لرياح بن الأشلّ، وجعل يغتسل وامرأةُ رِيَاح تنظُر إليه، وهو كالثَّوْر الأبيض، فانتزعه رِيَاح بسهم فقتله، وضمّ متاعه ونحر ناقتَه وأكلها وغَيَّب أثره . وفُقِدَ شأس بن زُهَير، حتى وجدوا القطيفةَ الحمراء بسوق عُكَاظ قد باعتها امرأةُ رِياح، فعلموا أنّ رياحا صاحبُ ثأرهم، فغَزَتْ بنو عَبْس غَنِيًّا قبل أن يطلبوا قَوَدًا أو ديةً، مع الحُصَين بن زُهَير ابن جَذِيمة والحُصَين بن أُسيد بن جَذِيمة . فلمّا بلغ ذلك غَنيًّا قالوا لرِيَاح : انْجُ، لعلّنا

(١) منعج (بفتح فسكون فكسر) : واد يأخذ بين حفر أبى موسى والنباج ويدفع فى بطن فلج .

(٢) الردهة : (بسكون الدال المهملة) : النقرة فى الجبل أو فى الصخرة يستنقع فيها الماء .

(٣) فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٤١١ طبع أوربا) : « رياح بن [illegible] الموحدة » وفى الأغانى (ج ١١ ص ٧٦ طبع دار الكتب المصرية) . « رياح من الأسك » .

(٤) (الهدب بسكون الدال المهملة وضمها) : أطراف الثوب مما يلى طرّته .

نُصالح القومَ على شيء [أو نرضيهم بدية(١)] . فخرج رياح رَديفا(٢) لرجل من بنى كِلَاب ، وهما يظنّان أنهما قد خالفا وجهةَ القوم ؛ فمرّ صُرَدٌ(٣) على رءوسهما فصَرْصَرَ ، فما راعهما إلّا خيلُ بنى عَبْس ، فقال الكِلَابىّ لرِيَاح : انحدرْ من خَلْفى والتمسْ نَفَقًا فى الأرض فإنى شاغلٌ القومَ عنك ، فآنحدر رِيَاح من عَجُز الجمل حتى أتى ضَفَّةً(٤) فآحتفر تحتها مثل مكان الأرنب ووَلَجَ فيه ، ومضى صاحبُه ، فسألوه فقال : هذه غَنِيٌّ جامعة ، وقد آستمكنتم منهـم ، فصدّقوه وخَلَّوْا سبيله ، فلمّا وَلَّى رأَوْا مركب الرجل خلفه فقالوا : مَنِ الذى كان خلفك؟ فقال : لا كَذِبَ! رياح بن الأشلّ ، وهو فى أولئك الصُّعُدَات(٥) . فقال الحُصَيْنان لمن معهما : قد مكّننا اللهُ من ثأرنا ولا نريد أن يَشْركَنا فيه أحد ، فوقفوا عنهما ، ومضَيَا فجعلا يُريغان رياحا بين الصُّعُدات ، فقال لهما : هذا غرزُ الكَمِىّ الذى تُريغانه ، فآبتدراه فرمى أحدَهما بسهم فأقْصَدَه(٦) ، فطعنه الآخر فأخطأه ، ومرّت به الفَـرَس ، فآستدبره رِيَاحٌ بسهم فقتـله ثم أتى قومه . ففى ذلك يقول الكُمَيْتُ بنُ زَيْدِ الأَسَدىُّ ، وكانت له أُمّان من غَنِيٍّ :

أنا آبنُ غَـنِيٍّ والداىَ كلاهمـا ❊ لأُمَّيْنِ منهم فى الفُروع وفى الأَصْل

---

(١) التكلة من كتاب الأغانى (ج ١١ ص ٧٩ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) الرديف : الراكب خلف الراكب .

(٣) الصرد : طائر أبقع ضخم الرأس يكون فى الشجر ، نصفه أبيض ونصفه أسود ؛ وهو من سباع الطير ، ضخم المنقار عظيم البرثن ، كانت العرب تتطير من صوته .

(٤) كذا فى الأغانى . والضفة : جانب النهر أو الوادى . وفى الأصل : « صعدة » .

(٥) فى الأغانى : « ... فى الأول من السمرات » .

(٦) أقصده : الإقصاد : أن تضرب الشىء أو ترميه فيموت مكانه ، ويقـال : أقصدت الرجل اذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطئ مقاتله فهو مقصد « بالبناء للجهول » .

هم استودعوا زهرا نسيب بن سالم[1] * وهم عدلوا بين الحُصَينين بالنَّبْل
وهم قتلوا شأس الملوك ورغّموا * أباه زُهَيراً بالمذلّة والثُّكْل

يوم النَّفَراوات[2]

لبنى عامر على بنى عبس

فيه قُتِل زُهَيرُ بنُ جَذِيمة بن رَوَاحة العَبْسىّ . وكانت هَوَازِنُ تُؤَدِّى إليه إتاوة ، فأتته عَجُوزٌ رَهيش[3] من بنى نَصْر بن معاوية بسَمْن فى نِحْيٍ[4] ، وشكَتْ سنين تتابعت على الناس ، فذاقه فلم يَرْضَ طَعْمَه ، فدعّها[5] بقَوْس فى يده عُطُلٍ[6] فى صدرها ، فاستلقت على قفاها مُنْكشفةً[7] ، فتألّى[8] خالدُ بن جعفر وقال : والله لأجعلنّ ذراعى فى عُنُقه حتى يُقتَل أو أُقتَل . وكان زُهَير مِقْداماً فتفرّد من قومه ببنيه وبنى أخويه أُسَيد وزِنْباع يَرِيغ[9] الغيثَ فى عُشَرَاوَاتٍ[10] له وشَوْل ؛ فأتاه الحارث [بن عمرو][11]

(١) كذا فى الأصول والعقد الفريد (ج ٣ ص ٦١ طبع بلاق) وفى الجزء الثانى من العقد الفريد المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤١٣ أدب ورقة ٦٨ ورد هذا الشطر هكذا : «هم استودعوا زهرا بسيب بن سالم» وفى الأغانى : «هم استودعوا هوى شبيب بن سالم» .

(٢) كذا فى معجم ما استعجم ، وقد ذكره فى رسم «ركبة» وأشار الى قتل زهير بن جذيمة . قال : نفرى (بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده راء مهملة مقصور على وزن فعلى ، ويمدّ : موضع فى بلاد غطفان . وكذلك فى العقد الفريد المخطوط . وفى الأصول والعقد الفريد المطبوع : «النقروات» (بالقاف) . وفى الأغانى (ج ١١ ص ٨٤ ، ٨٥ طبع دار الكتب المصرية) : «النفرات» . وكلاهما محرّف . (٣) رهيش : ضعيفة أو مهزولة . (٤) النحى : الزق الذى يجعل فيه السمن .

(٥) دعها : دفعها بعنف . (٦) قوس عطل : لا وتر فيها .

(٧) يريد انكشفت عورتها . (٨) تألى : حلف . (٩) يريغ : يطلب .

(١٠) العشراء من النوق : التى مضى لحملها عشرة أشهر ثم لا يزال يطلق عليها هذا الاسم الى ما بعد الوضع ، فهى بعد الوضع عشراء أيضا . قال ابن الأثير : قد اتسع فى هذا حتى قيل لكل حامل عشراء . والشول : جمع شائلة ، على غير قياس ، وهى الناقة التى أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر فخف لبنها وارتفع ضرعها . (١١) زيادة من الأغانى .

آبن الشَّرِيد، وكانت تُمَاضِرُ بِنْتُ [عمرو بن] الشَّرِيد تحتَ زُهَير، فلمّا عَرَف الحارث مكانه أنذر عليــه بنى عامر بن صعصعة رَهْط خالد بن جعفر ، فركب منهم ستّةُ فوارسَ فيهم خالدُ بنُ جعفر وصَخْر بن الشَّرِيد وحُنْدُجُ بنُ البَــكَّاء ومعاويةُ بنُ عُبَادة آبن عُقَيْل فارس الهَرَّار . ويقال لمعاوية : الأَخْيَل، وهو جَدّ ليلى الأخيليّة . فقال أُسَيدٌ لزُهَير : أَعْلَمَتْنى راعيةُ غَنَمى أنهــا رأتْ على رأس الثنيّة أشباحا ولا أحسبها إلّا خيلَ بنى عامر ، فالحقْ بنا بقومنا . فقال له زُهَير : " كُلُّ أَزَبَّ[(١)] نَفُورٌ " وكان أشــعر القفا ، فذهبتْ مثلا ، فتحمّل أُسَــيد بمن معــه وبقى زُهَير وآبنــاه ورقاءُ والحارثُ . وصبّحتهم الفوارس فآرمدّت[(٢)] بزهير فرسُه القَعْساءُ ولحقه خالد ومعاوية الأَخْيَل، فطعَن معاويةُ القعساءَ فقلبت زهــيرا ، وخرّ خالدٌ فرفع المِغْفَر عن رأس زهير وقال : يالَعَامرٍ اقتلونا جميعا ! وأقبل معاويةُ فضرب زُهَيرا على مَفْرِق رأســه ضربةً بلغتْ الدِّماغ ، وأقبل ورقاءُ بنُ زهير فضرب خالدا وعليه دِرْعَان فــلم تُغْنِ شيئا ، وأجهض[(٣)] آبنا زهير القوم عن زهير وآحتملاه وقد أثخنتْه الضربةُ فمنعوه المــاء . فقال : اسقُونى وإن كانت نفسى فيه، فسَقَوه فمات بعــد ثالثة من الأيام ، فقال فى ذلك ورقاءُ بن زُهَير :

رأيتُ زُهَيرًا تحتَ كَلْكَلِ خالدٍ * فأقبلتُ أَســعَى كالعَجُول[(٤)] أُبادِرُ
فشَلَّتْ يمينى يومَ أضرِبُ خالدًا * ويمنعــه مــنّى الحــديدُ المُظَاهِرُ

(١) الزبب : كثرة الشعر وطوله . والبعير الأزب، وهو الذى يكثر شعر حاجبيه ، ينفر اذا ضربت الريح شعرات حاجبيه .

(٢) ارمدّت : عدت عدو الرمد ، أى النعام .

(٣) أى نحاهم عنه ، وغلبهم عليه .

(٤) العجول من النساء والإبل : الواله التى فقدت ولدها الثكلى لعجلتها فى جيئتها وذهابها جزعا .

فياليتَ أنى قبـــلَ أيام خالدٍ * ويـومِ زُهَـيْرٍ لم تَلِدنى تُماضِرُ (١)

لَعَمْرِى لقد بُشِّرتِ بى إذ وَلَدْتِنى * فماذا الذى رَدَّتْ عليكِ البشائرُ

وقال خالد بن جعفر فى قتله زهيرا :

بل كيف تكفُرنى هوازنُ بعد ما * أعتقتُهــم فتَــوالَدُوا أحرارا

وقتلتُ رَبَّهُــمُ زهـيراً بعدما * جَدَعَ الأُنوفَ وأكـثر الأوتارا ٥

وجعلتُ مَهْـرَ بناتِهم ودياتِهـم * عَقْـلَ الملوك هجائنًا وبــكارا (٢)

يـوم بطنِ عاقـل

لذُبْيانَ على بنى عامر

فيه قُتِل خالدُ بنُ جعفر ببطنِ عاقل (٣). وذلك أنه قدِمَ على الأسـود (٤) بنِ المُنذر أخى النعمان ومعه عُرْوةُ الرَّحال بن عتبةَ بن جعفر، فٱلتقى خالدُ بنُ جعفر والحارثُ ٱبن ظالم بن غيظ بن مُرّة بن سـعد بن ذُبْيان عند الأسود بنِ المنذر، فجعل خالد يقول للحارث بن ظالم : ياحارِ، أما تشكر يدى عندك أنْ قتلتُ عنك سـيّد قومك زهيرا وتركْتُك سـيِّدَهم ؟ فقال : سأُجزيك شكرَ ذلك . فلمّا خرج الحـارثُ قال الأسودُ لخالد : مادعاك إلى أن تتحرّش بهذا الكلبِ وأنتَ ضيفى ؟ فقال : إنمـا هو عبدٌ من عبيدى ، ولو وَجَدَنى نائما لما أيقظنى . وٱنصرف خالد إلى قُبَّته فلامه ١٥

---

(١) هى تماضر بنت عمرو بن الشريد بن رياح .

(٢) فى الأغانى : « أبكارا » .

(٣) بطن عاقل : موضع على طريق حاج البصرة بين رامتين وإمرة .

(٤) كذا فى الأصول والعقد الفريد المخطوط ، وهو موافق لما جاء فى الكامل لابن الأثير فى احدى روايتيه ، وفى الرواية الأخرى أن الملك الذى اجتمع عنده خالدبن جعفر والحارث بن ظالم ثم قتل الحارث خالدا فى جواره ثم قتل ٱبنـه بعد ذلك فأخذ يطارد الحارث لقتـله ٱبنه ومن استجار به ، هـو النعمان ٱبن ٱمرئ القيس ملك الحيرة . ٢٠

عُروةُ الرّحال، ثم ناما وأشرجت عليهما القبّةُ[1]، وكان مع الحارث تبيع له من بنى مُحارِب يقال له خِرَاش، فلمّا هدأت العيونُ أخرج الحارث ناقته وقال لخراش: كن لى بمكان كذا، فإن طلع كوكبُ الصبح ولم آتك فانظر أحبَّ البلادِ اليك فاعْمِد لها، ثم انطلق الحارثُ حتى أتى قُبّةَ خالدٍ فهتكَ شرَجها ثم ولجها وقتله، فنادى عُروةُ عند ذلك: واجوارَ الملك! فأقبل إليه الناسُ، وسمع الأسود المُتاف وعنده امرأةٌ من بنى عامرٍ يقال لها: المُتَجرِّدة، فشقّتْ جيبَها. ففى ذلك يقول عبد الله ابنُ جَعْـدَة:

شقّتْ عليكَ العامِريّةُ جَيْبَها[2] * أسَفًا وما تَبْكى عليك ضَلالا
ياحارِ لو نَبّهتَه لَوَجَدْتَه * لا طائشًا رَعِشًا[3] ولا مِعْزالا[4]
واغْرَوْرقتْ عيناىَ لمّا أُخبِرَتْ * بالجَعْفَرِىّ وأسبلت إسْبالا
فلنقتُلَنّ بخالدٍ سَرَوَاتِكم * ولنجعلَنْ للظالمين نَكالا
فإذا رأيتُمْ عارضًا متهلّلًا * منّا فإنّا لا نُحاوِلُ مالا

يـوم رَحْرَحان

لعامر على تميم

ولمّا هرب الحارثُ بنُ ظالم ونَبَتْ به البلادُ لجأ الى مَعْبَد بنِ زُرارة فأجاره، فقالت بنوتميم لمعبد: مالك أوَيْتَ هذا المشئومَ الأنكد وأغرَيْتَ بنا الأسْوَد؟ وخذلوه غير بنى ماويّة و بنى عبدالله بن دارِم. و بلغ الأحوصَ بنَ جعفر بن كلاب مكان الحارث بن ظالم، وأنه عند مَعْبد بنِ زُرارة، فغزا معبدا فالتقوا برَحْرَحان[5] فانهزمت

(١) أشرجت: جمعت. (٢) فى الكامل لابن الأثير: «الجعفرية».
(٣) الرعش (ككتف): الجبان. (٤) المعزال: من لا رمح له.
(٥) رحرحان: اسم جبل قريب من عكاظ خلف عرفات.

بنو تميم وأُسِرَ مَعْبَدُ بنُ زُرارة، أسره عامر والطُّفَيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب، فوفد لَقيط بن زُرارة عليهما فى فدائه فقال لهما: لكما عندى مائتا بعير، فقالا: أبا نَهْشَل، أنتَ سيِّد الناس، وأخوك مَعْبَدٌ سيِّدُ مُضَر فلا تقبل فيه إلا دِيَة ملك، فأبى أن يزيدهم وقال: إنّ أبانا أوصانا ألا نزيد أحدا فى ديتنا على مائتى بعير، وقال: لا توكلوا العرب أنفسكم ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم، ورحل لقيط عن القوم. ٥

قال: فمنعوا معبدًا المـاءَ وضارُّوه حتى مات هُزَالًا. وقيل: بل أَبَى معبدٌ أنْ يُطْعَمَ شيئا أو يُشْرَبَ حتى مات هُزَالًا. ففى ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل:

قَضَيْنَا الجَوْنَ عَنْ عَبْسٍ وكانتْ * مَنِيَّــةُ مَعْبَـدٍ فينا هُـــزَالَا

وقال جرير:

ولَيلَةَ وادِى رَحْرَحانَ رَفَعْـتُمُ[1] * فِـرارًا ولم تَلْوُوا رَفِيقَ النَّعـائِمِ ١٠

تَرَكْتُمْ أبا القَعْقاعِ فى الغُلِّ مَعْبَدًا * وأىّ أخٍ لم تُسْـلِمُوا لِلْأَداهِمِ

وقال ايضـا:

وبِرَحْرَحَانَ غَداةَ كُبِّـلَ مَعْبَـدٌ * نُكِحَتْ فَتَاتُـكُمُ بِغَــيْرِ مُهُـورِ

يومُ شِـعْبِ جَبَـلَةَ

لعـامرٍ وعَبْسٍ على ذُبْيـان وتميم ١٥

قال أبو عُبَيدة مَعْمَرُ بنُ المُثَنَّى: يومُ جَبَلَة[2] أعظمُ أيام العرب[3]، وذلك أنه لمـّا انقضتْ وَقْعـة رَحْرَحان جمع لَقِيطُ بنُ زُرارةَ ابنى عامر وألّب عليهم. و بينَ يومِ

(١) كذا فى النقائض (ص ٢٢٩ طبع أوربا). وفى الأصل: «فررتم».

(٢) جبلة: هضبة حمــراء بنجد بين الشريف والشرف. والشريف: ماء لبنى نمير. والشرف:

(٣) عظام أيام العرب ثلاثة: يوم كلاب ربيعة، ويوم جبلة هذا، ٢٠

يام كذلك لـ[illegible] من كان فيها من المقاتلين.

رَحْرَحان ويومِ جَبَلة سنة . ويومُ جَبَلَة قبل الإسلام بأربعين سنة [1] ، وهو عامُ مَوْلِدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت بنو عَبْس يومئذ فى بنى عامر حُلَفاءَ لهم ، فآستعدَى لَقِيطُ بنى ذُبْيان لعَدَاوتهم لبنى عَبْس من أجل حَرْب داحِس ، فأجابته غَطَفانُ كلّها غيرَ بنى بدر، وتجمّعت لهم تميمٌ كلُّها غيرَ بنى سعد ، وخرجت معه بنو أسَد لِحلْف كان بينهم وبين غَطَفان ، ثم أتى لَقيطُ الجَوْنَ [2] الكِنْدِىّ وهو ملك هَجَر [3] [وكان يُجْبَى مَن بها من العرب] [4] فقال له : هل لك فى قومٍ عادِين قد ملأوا الأرض نَعَماً [5] وشاءً، فأرسل معى آبنَيك فما أصبنا من مالٍ وسَبْيٍ فلهما، وما أصبنا من دَمٍ فلى، فأجابه الجَوْن الى ذلك وجعل له موعدا رأسَ الحَوْل، ثم أتى لَقِيطُ النعمانَ آبنَ المُنْذر فآستنجده وأطمعه فى الغنائم، وكان لَقيطٌ وجيها عند الملوك، فلمّا كان على قَرْن الحَوْل من يوم رَحْرَحان أقبلتْ الجيوش الى لَقيط، وأقبل سِنَان بن أبى حارثة المُرِّىّ فى غَطَفان وجاءت بنو أسَد ، وأرسل الجَوْنُ آبنيه معاويةَ وعَمْرًا، وأرسل النعمانُ أخاه لأمّه حسّانَ بن وَبْرة الكَلْبِىّ . فلمّا توافَوْا خرجوا الى بنى عامر وقد أنذروا بهم وتأهّبوا لهم ، فقال الأحوصُ بنُ جعفر ، وهو يومئذ رَحَى هَوَازِن لقيس بن زُهَير : ما ترى ؟ فإنك تزعُم أنه لم يَعرِض لك أمران إلّا وجدتَ فى أحدهما المَخْرَج ! فقال قيس بن زُهَير : الرأى أن تَرْحَل بالعيال والأموال حتى

(١) فى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٠ طبع دار الكتب المصرية) : « بتسع وخمسين سنة » . وفى النقائض (ص ٦٧٦ أوربا) « بسبع وخمسين سنة » .

(٢) الجون : هو معاوية بن آكل المرار الكندى سمى بذلك لشدة سواده . وفى الأصل : « الجون الكلبى » .

(٣) هجر : مدينة بالبحرين .

(٤) التكملة من العقد الفريد لأبن عبد ربه (ج ٣ ص ٦٣ طبع بلاق) .

(٥) النعم (بفتحتين) : الإبل خاصة .

تدخُل شِعْبَ جَبَلة فتقاتل القوم [دونها](1) من وجه واحد ، فإنهم داخلون عليك الشِّعْب ، وإنّ لَقِيطا رجلٌ فيه طَيْش فسيقتحم عليك الجبل . فأرى أن تأمر بالإبل فلا ترعَى ولا تُسْقَى وتُعْقَل ، ثم تجعل الذرارى وراءَ ظهورنا وتأمر بالرَّجالة فتأخذ بأذناب الإبل ، فإذا دخلوا علينا الشِّعْب حلَّت الرجّالةُ عُقُلَ الإبل ثم لَزِمت أذنابها فإنها تنحدر عليهم وتَحِنّ الى مراعِيها ووِرْدها ، ولا يردُّ وجوهها شيء ، ويخرج الفُرْسان فى أثر الرجّالة الذين خَلْف الإبل فإنها تُحَطِّم ما لَقِيَتْ وتُقبِل عليهم الخيل وقد حُطِّموا من عَلٍ . فقال الأحوص : نِعْمَ ما رأيتَ وأخذ برأيه ، وكان مع بنى عامرٍ يومئذ بنو عَبْس ، وغَنِيٌّ فى بنى كلاب ، وباهلةُ فى بنى صَعْب ، والأبناء أبناء صَعْصَعة . وكان رَهْط المُعَقِّر البارقىّ يومئـذ فى بنى نُمَير بن عامر ، وكانت قبائل بَجِيلة كلّها فيهـم غير قيس .

قال أبو عُبَيدة : وأقبل لَقِيطٌ والملوكُ ومَن معهم فوجدوا بنى عامرٍ قد دخلوا شِعْبَ جَبَلَة فنزلوا على فَمِه ، فقال لهم رجلٌ من بنى أَسَد : خذوا عليهم فَمَ الشِّعْب حتى يَعْطَشُوا ويجوعوا ، فأتَوا حتى دخلوا عليهـم الشِّعْب ، وكانوا قد عَقَلوا الإبل [وعطّشوها](2) ثلاثة أخماس ، وذلك أنها عشرة ليلة لم تُطعَم شيئا ، فلمّا دنَوْا حَلّوا عُقُلَها فاقبلتْ تَهـوِى ، فظنّ القوم عند ذلك أنّ الشِّعْب قد هُدَّ عليهم ، والرجّالة فى آثارها آخذين بأذنابها فدقَّت كلّما لَقِيت ، فانهزموا لا يَلْوُون على أحد ، وقُتِلَ لَقِيطٌ وأُسِر حاجِبُ بنُ زُرَارة ، أسره ذُو الرُّقَيْبة ، وأُسِر سِنَان بن أبى حارثة المُرِّىّ أسره عُرْوة الرحّال ، بجَزّ ناصيتَه وأطلقه ، وأُسِر عمرو بنُ أبى عمرو بن عُدُس ، أسره قيس بن المُنْتَفِق ، بجَزّ ناصيتَه وخلاه طمعا فى المكافأة فلم يفعل ، وقُتِل معاويةُ بنُ

(1) التكملة من العقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٣ ص ٦٣ طبع بلاق) .

(2) التكملة من العقد الفريد (ج ٣ ص ٦٤ طبع بلاق) .

الجَوْن ومُنقذُ بن طُرَيف الأَسَدى، ومالك بن رِبْعِىّ بن جَنْدَل بن نَهْشَل ، فقال جرير فى ذلك :

كأنكَ لم تَشْهَد لَقيطًا وحاجبًا * وعمرَو بنَ عمرٍو إذ دَعَوْا يالَ دارمِ
ويَوْمَ الصفا كنتم عَبِيدًا لعامرٍ * وبالحَزْن أصبحتم عَبِيدَ اللهازمِ

٥ يعنى بالحَزْن يوم الوَقيط . وقال أيضا فى بنى دارم :

ويَوْمَ الشِّعْب قد تَرَكوا لَقيطًا * كأنَّ عليه حُلَّةَ أُرْجُوَان
وكُبِّل حاجِبٌ بِشَمَام حَوْلًا * فحَكَّمَ ذا الرُّقَيْبَة وَهْوَ عانِى

وقالت دَخْتَنُوس أختُ لَقيط تَرثى لَقيطًا :

فَرَّتْ بنو أَسَدٍ فرَا * رَ الطَّيْرِ عن أربابها
عن خَيْرِ خِنْدِفَ كلِّها * من كَهْلِها وشبابها
وأَتَمِّها حَسَبًا إذا * ضُمَّتْ الى أحسابها[1]

يوم الحُرَيْبَة

وفيه قُتِل الحارث بن ظالم

قال أبو عبيدة : لمـا قَتَل الحارثُ بنُ ظالم خالدَ بنَ جعفر الكِلابىّ أتى صديقا ١٥ له من كِنْدَةَ . فألتفَّ عليه وطلبَه الملك فخفىَ ذِكرُه ، ثم شخص من عند الكِنْدىّ وأضمرتْه[2] البلادُ حتى ٱستجار بزياد أحد بنى عِجْل بن لُجَيْم، فقام بنو ذُهْل بن ثعلبةَ وبنو عمرو بن شَيْبان فقالوا لعجل: أخرجوا هذا الرجلَ من بين أظهركم فإنه لا طاقة

(١) هذه رواية الأصل والعقد الفريد (ج ٣ ص ٦٤ طبع بلاق) ورواية النقائض (ص ٦٦٦ طبع أوربا) والأغانى (ج ١١ ص ١٤٦ طبع دار الكتب المصرية) هكذا :

٢٠ بكر التى بخـير خنـ * ـدف كهلها وشبابها
وبخيرها نسبا إذا * عدّت الى أنسابها

(٢) اضمرت الأرض الرجل : غيبته إما بسفر أو بموت .

لنا بالشَّهباء ودَوْسَر، وهما كَتيبتان للأَسْود بن المنذر ، فأبتْ عِجْلٌ ذلك عليهم ، فلمّا رأى الحارثُ بنُ ظالم ذلك كَرِهَ أن تقع الفتنةُ بينهما بسببه ، فارتحل من بنى عِجْل الى جَبَلَىْ طيِّىء فأجاروه ، فقال فى ذلك :

لَعَمْرِى لقد حلَّتْ بِىَ اليومَ ناقتى * الى ناصرٍ من طَيِّىءٍ غيرِ خاذلِ
فأصبحتُ جارًا للمَجَرَّةِ فيهمُ * على باذخٍ يَعلُو يدَ المُتَطاوِلِ
اذا أَجَأٌ لَفَّتْ علىَّ شِعَابَها (١) * وسَلْمَى فأنَّى أنتمُ مِنْ تَنَاوُلِى

فمكث عندهم حينا . ثم إن الأسود بن المنذر لمّا أعجزه أمرُه أرسل الى جاراتٍ كُنَّ للحارث بن ظالم استاقهنّ وأموالهنّ ، فبلغ ذلك الحارث ، فخرج من الجبلين فآندسّ فى الناس (٢) حتّى عَلِمَ مكانَ جاراته ومَرْعَى إبلِهِن فأتاهنّ وآستنقذهنّ وآستاق إبلَهُنّ فألحقهنّ بقومهنّ . وآندسّ فى بلاد غَطَفَان حتّى أتى سِنَان بن أبى حارثة المُرّىّ وهو أبو هَرِم بن سِنَان ممدوح زُهَير . وكان الأسود بن المنذر قد آسترضع آبنَه شُرَحْبِيلَ عند سَلْمَى آمرأة سِنَان، وهى من بنى غَنْم بن دُودان بن أَسَد ، فكانت لا تأمن على آبن الملك أحدا ، فاستعار الحارث بن ظالم سَرْجَ سِنَان ، وهو فى ناحية الشَّرَبَّة ، فأتى به سَلْمَى آمرأة سِنَان وقال لها : يقول لك بَعْلُك : ابعثى آبنَك مع الحارث فإنى أريد أن أستأمِنَ له الملك ، وهذا سَرْجُه لك آيةٌ . قال : فزيّنته ودفعته اليه ، فأتى به ناحية من الشَّرَبَّة فقتله وهرب من فوره ، وهرب سِنَان بن أبى حارثة . فلمّا بلغ الأسودَ قَتْلُ آبنه شُرَحْبِيل غزا بنى ذُبْيان فقَتَل وسَبَى ، وأخذ الأموال ، وأغار على بنى دُودان رهط سَلْمَى ، فقتلهم وسباهم ، ثم وجد بعد ذلك نعلَىْ شُرَحْبِيل فى جانب الشَّرَبَّة عند بنى مُحَارِب بن خَصَفة ، فغزاهم وأسرهم وأحمى لهم الصَّفا وقال : إنى أحذيكم نِعَالا ، فأمشاهم عليها ، فسقطت أقدامهم . ثم إن سَيَّار بن عمرو بن جابر

(١) أجأ وسلمى : جبلان لطيء .
(٢) عبارة الأغانى (ج ١١ ص ١٠٧ طبع دار الكتب المصرية) : « فآنساب فى غمار الناس » .

الفَزاري احتمل للأسود دِيَةَ آبنه ألفَ بعير ورهَنَه بها قوسه، فوفاه بها وقال فى ذلك:

ونحن رَهَنَّا القوسَ ثُمَّتَ فُودِيَتْ * بألفٍ على ظَهرِ الفزاريِّ أقرعَا
بعَشرِ مِئينٍ للملوك وَفَى بها (١) * ليَحمَدَ سَيّارُ بنُ عمرٍو فأسرعَا

قال: ثم هرب الحارث فلحق بمعبد بن زُرارة فآستجار به فأجاره، وكان من

٥ سببه وقعة رَحرَحان التى تقدّم ذكرها. ثم هرب حتى لحق بمكة وقريش لأنه يقال: إنّ مُرّة بن عَوف بن سعد بن ذُبيان إنما هو مُرّة بن عوف بن لؤىّ بن غالب، فتوسّل إليهم بهذه القرابة وقال فى ذلك:

اذا فارَقْتُ ثعلبةَ بنَ سَعْدٍ * وإخوتَهم نُسِبْتُ الى لُؤَىّ
الى نَسَبٍ كريمٍ غيرِ وَغْلٍ * وحَىٍّ من أكارمِ كلِّ حَىّ
١٠ فإنْ يَكُ منهم أصلى فمنهم * قوانينُ الإلٰه بنو قُصَىّ

فقالوا له: هذا نَسَب رَحِم كَرِشاء (٢) اذا آستغنيتم عنها أدبرتم. قال: فشَخَص [الحارث] (٣) عنهم غضبانَ وقال فى ذلك:

$\frac{٥}{٣}$

أَلَا لستم منّا ولا نحنُ منكمُ * برئنا إليكم من لُؤَىّ بنِ غالبِ
غَدَونا (٤) علــى نَشْرِ (٥) الحجاز وأنتمُ * بمُنشَعَبِ (٦) البطحاء بين الأخاشبِ (٧)

١٥ وتوجّه الى الشام فلحق بيزيد بن عمرو الغسّانىّ فأجاره وأكرمه. وكانت ليزيد ناقةٌ مُحَمّاة، فى عُنقها مُدْيَةٌ وزِنَاد وصُرّة مِلح، يمتحن بها رعيّته لينظر مَن يجترئ عليه،

(١) فى الأغانى (ج ١١ ص ١١١ طبع دار الكتب المصرية) وخزانة الأدب (ج ٣ ص ٣٠٤) «سعى بها ... ليوفى» وقد صححها المرحوم الشنقيطى: «سعى لها». (٢) الرشاء: الحبل. (٣) زيادة من العقد الفريد (ج ٣ ص ٦٧ طبع بلاق). (٤) كذا فى العقد الفريد. والنشز: ٢٠ المتن المرتفع من الأرض، أو ما آرتفع عن الوادى الى الأرض وليس بالغليظ. (٥) المنشعب الطريق: تفرّق. (٦) البطحاء: كل موضع متسع. (٧) الأخاشب: جبال مكة.

فوجدت امرأةُ الحارث فاشتهت شحمًا فانطلق الى الناقة فانحرها وأتاها بشحمها وفُقِدَتْ الناقة فأرسل الى الخِمْس التغلبيّ، وكان كاهنا، فسأله عنها، فأخبره أنّ الحارث صاحبها، فهمّ به الملك ثم تَذَمَّم[1] من ذلك، فأوجس الحارثُ فى نفسه شرًّا فأتى الخِمْس التغلبيّ فقتله، فلمّا فعل ذلك دعا به الملك فأمر بقتله، فقال: إنك قد أجرتَنى فلا تَغْدُرْنى، قال الملك: لا ضَيْرَ إن غَدَرْتُ بك مرّةً فقد غَدَرْتَ بى مِرارًا، وأمر ابنَ الخمس به فقتله، وأخذ ابنُ الخِمْس[2] سيفَ الحارث، فأتى به سُوقَ عُكاظَ فى الأشهُر الحُرُم[3]، فأراه قيسَ بنَ زهير العبسيّ فضربه به قيسٌ فقتله.

ذكر حَرْب داحِسٍ والغَبْراء

وهى من حروب قيس

قال أبو عُبَيدة: حربُ داحِسٍ والغَبْراء بين عَبْسٍ وذُبْيانَ ابنَى بَغِيض ابن رَيْث بن غَطَفان. وكان السبب الذى هاجها أنّ قيسَ بنَ زُهَير وحَمَلَ ابن بدر تراهنا على داحِسٍ والغبراء أيّهما يكون له السَّبْق. وكان داحسٌ فحلا لقيس بن زهير. والغَبْراء حِجْر[4] لحَمَل بن بدر، فتواضعا الرِّهان على مائة بعير، وجعلا

(١) تذمم: استنكف.

(٢) اسمه «مالك» كما فى الأغانى (ج ١١ ص ١١٩ طبع دار الكتب المصرية).

(٣) وردت هذه العبارة فى الأغانى (ج ١١ ص ١١٩ طبع دار الكتب المصرية) هكذا: «فأتى به سوق عكاظ فى الحرم ...» وضبط لفظ «الحرم» بالقلم بفتح الحاء والراء المهملتين. وبهذا الضبط يتبادر إلى ذهن القارئ أنه قتله بالحرم (أى الكعبة) ويؤيد هذا تكرار هذه الكلمة بهذا الضبط فى السطر التالى لها، وهذا خطأ، والصواب أنه قتله فى الأشهر الحرم (بضم الحاء والراء المهملتين) بسوق عكاظ، وهى سوق بصحراء بين نخلة والطائف، كانت تقوم هلال ذى القعدة وتستمر عشرين يوما، تجتمع قبائل العرب فيتعا كظون، أى يتفاخرون ويتناشدون.

(٤) الحجر: الفرس الأنثى لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر. وأحجار الخيل: ما يتخذ منها للنسل لا يفرد لها واحد.

مُنتهى الغاية مائة غَلْوة، والمضمار أربعين ليلةً، ثم قاداهما إلى رأس المَيْدان بعد أن ضَمَّراهما أربعين ليلةً . وكان فى طَرَف الغاية شِعَاب كثيرةٌ، فأكمن حَمَل بن بدر فى تلك الشِّعَاب فِتْيانا على طريق الفَرَسَيْن وأمرهم إن جاء داحسٌ سابقا أن يردّوه عن الغاية ، ثم أرسلوهما ، فلما أُحضِرا خرجتِ الأنثى عن الفحل فقال حَمَل بن بدر : سبقتُك ياقيس ، فقال قيس : رُوَيْدًا يَعْدُوان الجَدَدَ إلى الوَعْث وترشَح أعطاف الفَحْل ، فلمّا أوْغَلا عن الجَدَد وخرجا إلى الوَعْث بَرَّز داحسٌ عن الغبراء فقال قيس : « جَرْىُ المُذَكِّيَاتِ(١) غِلَابٌ(٢) » فذهبتْ مثلا . فلمّا شارف داحسٌ الغايةَ ودنا من الفِتْية وثبوا فى وجه داحِسٍ فردّوه عن الغاية ، ففى ذلك يقول قيس بن زُهَير :

وما لاقَيتُ من حَمَل بن بَدْرٍ * وإخوتِهِ على ذاتِ الإصَادِ(٣)

هُمُو فَخَرُوا علىّ بغير فَخْرٍ * وردّوا دُون غايتِهِ جَوَادِى

وثارت الحرب بين عبس وذُبْيان ابنَىْ بغيض ، فركدت أربعين سنة لم تُنْتَج ناقةٌ ولا فرسٌ فيها لاشتغالهم بالحرب . فبعث حُذَيفةُ بْنُ بدر ابنَه مالكا إلى قيس بن زهير يطلب منه حقّ السَّبْق ، فقال قيس : كلّا لامطلتك به ، ثم أخذ الرمح فطعنه فدقّ صُلْبه ، ورجعت فرسُه غائرة ، واجتمع الناس فحملوا دِيَة مالك مائة ناقة عُشَراء(٤) وزعموا أنّ الرَّبيع بن زِيَاد العبسىّ حملها وحده فقبضها حُذَيفة وسكّن الناس .

---

(١) المذكّية من الخيل : التى قد أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

(٢) الغلاب : المغالبة . أى إن المذكى يغالب مجاريه فيغلبه لقوته .

(٣) ذات الإصاد : موضع ببلاد بنى فزارة .

(٤) العشراء : التى أتى على حملها عشرة أشهر من ملقحها .

ثم إن مالك بن زهير نزل اللقاطة[1] من أرض الشَّرَبَّة[2] فأُخبِرَ حُذَيفةُ بمكانه، فعدا عليه فقتله، ففى ذلك يقول عنترة :

فللهِ عَيْنًا مَنْ رأى مثلَ مالكٍ * عَقِيرةَ قومٍ أن جَرَى فَرَسانِ

فليتهما لم يَجْرِيَا قِيدَ غَلْوَةٍ * وليتهما لم يُرْسَلا لِرِهَانِ

فقالت بنو عبس : مالك بن زُهَير بمالك بن حُذَيفة وردُّوا علينا مالنا، فأبى حُذَيفةُ أن يردّ شيئا، وكان الربيع بن زياد مجاورًا لبنى فَزارة .

قال : فلمّا قُتِل مالك بن زهير جعل بنو فَزارة يتساءلون ويقولون : ما فعل حِمارُكم ؟ قالوا : صِدْناه، فقال لهم الربيع : ما هذا الوحى ؟ قالوا : قتلنا مالك آبن زُهَير، قال : بئس ما فعلتم بقومكم ! قَبِلتم الدِّية ورَضِيتم بها ثم غدرتم ! فقالوا : لولا أنك جارُنا لقتلناك، وكانت خَفَرة الجار ثلاثا، فقالوا له : بعدَ ثلاث ليال أُخرجْ عنّا، فخرج وآتّبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه، وأتاه قيس بن زهير فعاقده. ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غَطَفان إلى بنى فَزَارة وذُبْيان ورئيسهم الربيع بن زياد، ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر .

يوم المُرَيْقِب
لبنى عَبْس على بنى ذُبْيان

فآلتقَوْا بذى المُرَيْقِب[3] من أرض الشَّرَبَّة فآقتتلوا، فكانت الشوكة فى بنى فَزارة قُتِل منهم عوفُ بن بدر بن عمرو بن أبى الحصين، أحد بنى عدىّ بن فزارة وجماعةٌ كثيرة . وفى هذه الوقعة يقول عَنْترة الفوارس :

ولقد عَلِمْتَ إذ آلتقتْ فُرسانُها * يومَ المُرَيْقِب أنّ ظنَّك أحمقُ

(١) اللقاطة : موضع قريب من الحاجر من منازل بنى فزارة .
(٢) الشربة : موضع بين السليلة والربذة، وقيل : إذا جاوزت النقرة وماوان تريد مكة وقعت فى الشربة .
(٣) المريقب : تصغير مَرْقَب : موضع من الشربة .

يوم ذى حُسًى
لذُبيان على عبْس

ثم إن ذُبيان تجمّعت لمـا أصابتْ بنوعبس منهم يوم المُرَيْقِب فَزارة بن ذُبيان ومرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان وأحلافهم،فنزلوا فتوافَوْا بذى حُسًى[١]،وهو وادى الصفا من أرض الشَّرَبَّة ، فهُزِمت بنو عبس وخافت ألّا تقوم بجماعة بنى ذبيان واتّبعوهم حتى لحقوهم ، فقالوا : التفانى أو تُقِيدونا ، فأشار قيسُ بنُ زهير على الربيع بن زياد ألّا يناجزهم،وأن يُعطوهم رهائنَ من أبنائهم حتى ينظروا فى أمرهم، فتراضَوْا أن يكون رهنهم عند سُبَيع بن عمرو أحد بنى ثعلبة بن سعد بن ذُبْيان ، فدفعوا إليه ثمانية من الصِّبْيان ، فٱنصرفوا وتكافأ الناس ، فكث رهنهم عند سُبَيع حتى حضرته الوفاة ، فقال لٱبنه مالكِ بنِ سُبَيع : إنّ عندك مكْرُمةً لا تَبِيد[٢] إن أنت احتفظتَ بهؤلاء الأغَيْلمة ، وكأنى بك لومُتُّ قد أتاك خالُك حُذَيفة بن بدر فعصر لك عينيه وقال : هلك سيّدُنا ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم، فلا تَشْرُفُ بعدها أبدا ، فإن خِفْتَ ذلك فٱذهب بهم إلى قومهم . فلما هلك سُبَيع أطاف حُذَيفة بٱبنه مالك وخدعه حتى دفعهم إليه، فأتى بهم اليَعْمَرِيّة[٣]، فجعل يُبْرِزُ كلّ يوم غلاما فينصبه غَرَضا ويقول له : نادِ أباك ، فينادى أباه حتى يقتله .

(١) ذوحسى : موضع بالعالية فى أرض غطفان .

(٢) لا تبيد : لا تنقطع ولا تذهب . وفى الأصل « لا ضير » .

(٣) اليعمرية : ماء بواد من بطن نخل من الشربة لبنى ثعلبة .

يوم اليَعْمَرِيَّة

لعبس على ذبيان

قال : فلما بلغ ذلك من فعله بنى عبس أتوهم باليَعْمَرِيَّة فلقوهم بحوّتها فقتلوا منهم اثنى عشر رجلا ، منهم مالكُ بن سبيع الذى نبذ بالغلمة إلى حذيفة ، وأخوه يزيد بن سبيع ، وعامر بن لوذان ، والحارث بن زيد ، وهرم بن ضمضم أخو حُصَين . ويقال ليوم اليعمريّة : يوم ذى نفر لأنهما متجاوران .

يوم الهَباءة

لعبس على ذبيان

قال : ثم اجتمعوا فالتقَوْا فى يوم قائظ إلى جنب جَفر الهباءة(١) واقتتلوا من أول النهار إلى أن انتصف ، وحجز الحرُّ بينهم ، وكان حُذَيفة بن بدر يحرق فخذيه الركضُ ، فقال قيس بن زهير : يا بنى عبس ، إن حُذَيفة غدًا إذا احتدمت الوديقة(٢) مُستنقِعٌ فى جَفْر الهباءة فعليكم بها ، فخرجوا حتى وقعوا على أثر صارِف : فرس حذيفة ، والحيفاء : فرس حَمَل بن بدر ، فقفَوْا أثرهما حتى توافَوْا مع الظهيرة على الهباءة ، فبصُربهم حَمَل بن بدر فقال : هذا قيسُ بنُ زهير قد أتاكم ، فوقف قيس وأصحابُه على جَفْر الهباءة وهو يقول : لَبّيكم لَبّيكم ! يعنى إجابةَ الصِّبْيَة الذين كانوا ينادونهم إذ يُقتَلون ! وفى الجفر حُذَيفةُ وحَمل وبدر ومالك بنو بدر ، وورقاء بن بلال(٣)

(١) الهباءة : أرض ببلاد غطفان . وجفر الهباءة : مستنقع فى هذه الأرض .

(٢) الوديقة : شدّة الحرّ .

(٣) كذا فى كتاب النقائض (ص ٩٥ طبع أوربا) والأغانى (ج ١٦ ص ٣١ طبع بلاق) . وفى الأصول والعقد الفريد : « هلال » .

من بنى ثعلبة بن سعد . وحنش بنُ عمرو (١) ، فوقف عليهم شدّاد بن معاوية العبسىّ ، فحال بينهم وبين خيلهم ، ثم توافت فُرسانُ بنى عبس فقال حمَل : ناشدتك بالرحم يا قيس ، فقال : لَبّيكم لَبّيكم ! فعرف حذيفةُ أنه لن يدعَهم فانتهر حَمَلا فقال : إيّاك والمأثورَ من الكلام ، فذهبتْ مثلا ، وقال لقيس : لئن قتلتنى لا تصلُح غَطَفان بعدها أبدا ! فقال : أبعدَها الله ولا أصلحها ، وجاءه قرواشٌ بِمِعْبلةٍ (٢) فقصَم صُلْبه ، وقتل الربيعُ بنُ زياد حَمَل بن بدر ، فقال قيس بن زهير يرثيه :

تَعَلّمْ أنّ خيرَ الناسِ مَيْتٌ * على جَفْرِ الهَبَاءةِ ما يَرِيمُ (٣)

ولولا ظُلْمُه ما زِلْتُ أبكى * عليه الدهرَ ما بَدَتِ النجومُ

ولكنّ الفتى حَمَلَ بنَ بدْرٍ * بَغَى والبَغْىُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ

أظُنّ الحِلْمَ دلّ علىّ قومى * وقد يُسْتَجْهَل الرّجلُ الحليمُ

ومارَسْتُ الرجالَ ومارَسُونى * فَمُعْوَجٌّ وآخَرُ مُستقيمُ

ومثّلوا بحذيفة بن بدر كما مُثّل بالغلمة ، فقطعوا مذاكيره وجعلوها فى فيه وجعلوا لسانه فى آسته ، ففى ذلك يقول قائلهم :

فإن قتيلًا بالهباءة فى آسته * صحيفتُه إن عاد للظُّلْمِ ظالمُ

متى تقرأوها تَهْدِكم من ضلالكم * وتُعْرَف إذا ما فُضَّ عنها الخواتمُ

---

(١) كذا فى كتاب النقائض والأغانى . وفى الأصول : « وهب » وفى العقد الفريد : « حسن بن وهب » وهو تحريف .

(٢) المعبلة : نصل عريض طويل .

(٣) ما يريم : أى ما يبرح .

وقال عمرو بن الأسلع[1] :

إنّ السماءَ وإنّ الأرضَ شاهدةٌ * واللهُ يَشْهَدُ والإنسانُ والبَلَدُ
أنى جَزَيْتُ بنى بدرٍ بسَعْيهمُ * على الهباءة قتلًا ما له قَوَدُ
لمّا ٱلتقينا على أرجاء جَمّتها * والمَشْرَفيّة فى أيمانِنا تَقِدُ
عَلَوْتُهُ بحُسَامٍ ثم قلتُ له : * خُذْها حُذَيْفُ فأنت السيّد الصَّمَدُ

فلمّا أصيب أهلُ الهباءة وٱستعظمت غَطَفانُ قَتْلَ حُذَيفةَ، تجمّعوا، وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مُقَام بأرض غطفان، فخرجوا الى اليمامة فنزلوا بأخوالهم من بنى حنيفة ، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببنى سعد بن زَيْد مَناة .

يوم الفَرُوق

لبنى عبس

ثم إنّ بنى عبس غدروا بجوارهم فأتَوْا معاويةَ بنَ الجَوْن فٱستجاشوا عليهم وأرادوا أكلهم، فبلغ ذلك بنى عبس ففرّوا ليلا، وقدّموا ظُعُنَهم، ووقفت فُرْسانهم بموضع يقال له الفَرُوق، وأغارت بنو سعد ومن معهم من جنود الملك على محلّتهم فلم يجدوا إلّا مواقد النيران فٱتبعوهم حتى أتوا الفَرُوق ، فإذا بالخيل والفُرْسان وقد تواترت الظُّعُن عنهم، فانصرفوا عنهم؛ ومضى بنو عبس فنزلوا ببنى ضَبّة فأقاموا فيهم . وكان بنو حذيفة من بنى عبس يسمّون بنى رواحة ، وبنو بدر من فَزَارة يسمّون بنى سودة، ثم رجعوا إلى قومهم وصالحوهم، فكان أوّل مَنْ سَعَى فى الحمالة حَرْملة بن الأشعر بن صرمة بن مرّة، فمات، فسعى فيها ٱبنُه هاشمُ بن حرملة ، وإليه أشار الشاعر :

أحْيَا أباه هاشمُ بنُ حرملهْ * يومَ الهباءتَيْنِ ويومَ اليَعْمَلهْ
ترى الملوكَ حولَه مُرَعْبَلهْ * يَقْتُلُ ذا الذنبِ ومَن لاذنبَ له !

(١) فى الأصول : « الربع » .

يوم قَطَن

فلمّا توافَوْا للصلح وقَفَتْ بنو عبس بقَطَن[1] وأقبل حُصَينُ بنُ ضَمْضَم فلقى تيحان أحد بنى مخزوم بن مالك فقتله بأبيه ضمضم ، وكان عنترة بن شـدّاد العبسىّ قتـله بذى المُرَيْقب ، فأشارت بنـو عبس وحُلفاؤهم بنو عبـد الله بن غَطَفان وقالوا : لا نصالحكم ما بلّ البحر صُوفةً وقد غدرتم بنا غير مرّة ، وتناهض الناس : عبس وذبيـان ، فالتقَوْا بقَطن ، فقتَل يومئذ عمرُو بنُ الأسلع عُتبةَ ، ثم سفرت السفراء بينهم ، وأتى خارجةُ بنُ سنان أبا تيحان بابنه فدفعـه اليه وقال : فى هـذا وفاءٌ من آبنـك ! فأخذه فكان عنـده أياما ، ثم حمل خارجةُ لأبى تيحان مائةَ بعـير فأدّاها اليه وآصطلحوا وتعاقدوا .

يومُ غَدير قَلْبَى

قال أبوعبيدة : فاصطلح الحيّان إلّا بنى ثعلبة بن سـعد بن ذُبيان ، فإنهم أبَوْا ذلك وقالوا : لا نرضى حتى يُودُوا قتلانا أو يُهدَرَ دمُ مَن قتلها ، فخرجوا من قَطَن حتى وَرَدُوا غَدير قَلْبَى ، فسبقتهم بنـو عبس الى المـاء فمنعوهـم حتى كادوا يموتون عَطَشا ، فأصلح بينهم عَوْفُ ومَعقِل آبنا سُبَيع من بنى ثعلبة وإياهما يعنى زُهير بقوله :

تَدارَكْتُمَا عبسًا وذُبيانَ بعـدَمَا * تَفَانَوْا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ[2]

فوردوا حربا وخرجوا عنه سلما . تمّ خبر داحس والغبراء .

---

(١) قطن : جبل لبنى أسد .

(٢) منشم : اختلف فيها ، فقيل : إنها آمرأة عطارة من خزاعة ، فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا ، فصار هؤلاء مثل أولئك فى شدّة الأمر . وقال أبو عمرو الشيبانى : هى آمرأة من خزاعة كانت تبيع عطرا ، فإذا حاربوا اشـتروا منها كافورا لموتاهـم ، فتشاءموا بها ، وكانت تسكن مكة . وقال ابن الحبى : هى آمرأة من جرهم . وقال أبو عمرو بن العلاء : منشم ، إنمـا هو من التنشيم فى الشرّ . ومنـه قولهم : لمـا نشم الناس فى عثمان . (أى طعنوا فيـه ونالوا منه) راجع شرح ديوان زهير للإمام ثعلب ص ١٥ طبع دار الكتب المصرية .

يومُ الرَّقَم

لغطفان على بنى عامر

غزتْ بنو عامر فأغاروا على بلاد غَطَفان بالرَّقَم[(1)] — وهو ماء لبنى مُرّة — وعلى بنى عامر : عامرُ بنُ الطُّفَيل — ويقال يزيد بن الصَّعِق — فركب عُتبة بن حُصَين فى بنى فَزَارة، ويزيد بن سِنَان فى بنى مُرّة — ويقال الحارث بن عَوْف — فانهزمت بنو عامر ، فزعمتْ غَطَفان أنهم أصابوا من بنى عامر يومئذ أربعة وثمانين رجلاً، فدفعوهم إلى أهل بيت من أشْجَع، كانت بنوعامر قد أصابوا فيهم، فقتلوهم أجمعين.

وٱنهزم الحكَم بن الطُّفَيل فى نَفَرٍ من أصحابه، فيهم خوَات بن كعب حتى ٱنتهَوْا إلى ماء يقال له : المرورات ، فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخَنَق الحكَم ابن الطفيل نفسَه مخافةَ المُثْلة ، فقال فى ذلك عُرْوة بن الوَرْد :

عَجِبتُ لهم إذ يَخْنُقُون نُفُوسَهم * ومَقْتَلُهُمْ تحتَ الوَغَى كان أعذَرَا[(2)]

يوم النَّتَاءة[(3)]

لعبس على بن عامر

يقال : خرجت بنوعامر تريد أن تُدرِك بثأرها يومَ الرَّقَم، فهجموا على عبس بالنَّتاءة وقد أُنذِروا بهم ، فالتقَوْا، وكان على بنى عامر : عامرُ بنُ الطُّفَيل، وعلى بنى عبس . الربيع بن زِياد، فٱقتتلوا قتالا شديدا، فٱنهزمتْ بنو عامر، وقُتِل منهم هزار بن مُرّة، قتله الأحنف بن مالك، ونهشل بن عُبَيدة بن جعفر، قتله أبو زغبة بن حارث وعبد الله بن أنس بن خالد، وهُزِمت بنوعامر هزيمة قبيحة .

(١) فى معجم ما استعجم للبكرى : « الرقم بفتح أوّله وثانيه : موضع بالحجاز قريب من وادى القرى » (٢) أى كان أعذر لهم من خنقهم أنفسهم (راجع شرح ديوان عروة ص ١٣٥ طبع أوربا) . (٣) النتاءة : نخيلات لبنى عطارد .

يومُ شُوَاحِطٍ (١)

لبني مُحارب على بني عامر

غزت سَرِيّةٌ من بني عامر بن صَعْصَعَة بلادَ غسّان ، فأغاروا على إبل لبني مُحارب بن خَصَفَة، فأدركهم الطلبُ ، فقتلوا من كلاب تسعةَ (٢) نفر وارتدّوا إبلَهم فلما رجعوا وثَبَتْ بنو كلاب على جَسْر — وهم من بني مُحارب، وكانوا حاربوا إخوتهم ، فخرجوا من عندهم فحالفوا بني عامر بن صَعْصَعَة — فقالوا : نَقتُلهم بقتلى بني مُحارب مَنْ قَتَلوا منّا ، فقام خِدَاشُ بنُ زُهَيرٍ دُونهم حتى منعهم من ذلك وقال :

أيا راكبًا إمّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ * عقيلًا وأبلغْ إنْ لَقِيتَ أبا بَكْرِ

فيا أخَوَيْنا مِنْ أبِينا وأُمّنا * إليكم إليكم لاسبيلَ الى جَسْرِ

دَعُوا جانبي إنّي سأترك جانبا * لكم واسعا بين اليمامة والقَهْرِ (٣)

أنا فارسُ الضحياءِ عمرُو بنُ عامرٍ * أبَى الذمَّ واختار الوفاءَ على الغَدْرِ

يوم حَوْزَةَ الأوّل (٤)

لسُلَيم على غَطَفان

قال أبو عُبَيدة : كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد وبين هاشم بن حَرْمَلَة أحد بني مُرّة : — مُرّة غطفان — كلام بعكاظ ، فقال معاوية : والله لَوَدِدْتُ أنى قد سمعتُ بظعائن يَنْدُبْنَكَ ، فقال هاشم : والله لَوَدِدْتُ أنى قد بَرَيْتُ الرطبة — وهى جُمّة

---

(١) شواحط : جبل مشهور بين مكة والمدينة .

(٢) فى معجم ما استعجم للبكرى فى كلامه على شواحطه : « سبعة نفر » .

(٣) القهر : موضع باليمامة . (٤) حوزة : واد بالحجاز .

معاوية ، وكانت الدهرَ تنطف ماءً ودُهْنا وإن لم تُدهَن — فلمّا كان بعد [حين] [1]
تهيّأ معاوية ليغزو هاشما ، فنهاه أخوه صخر ، فأبى وغزاهم يومَ حَوْزة، فرآه هاشم
ابن حَرْملة قبل أن يراه معاوية، وكان هاشم ناقها من مرض أصابه ، فقال
لأخيه دُرَيد بن حَرْملة : إنّ هذا إن رآنى لم آمَنْ أن يشُدّ علىّ، وأنا حديثُ عهد
بشَكِيّة ، فاستطرِدْ له [دونى] [2] حتى تجعلَه بينى وبينك، ففعل، فحمل عليه معاويةُ ٥
وأَرْدَفه [3] هاشم ، فاختلفا طعنتين فأردى [4] معاويةُ هاشما عن فرسه الشمّاء ، وأنفذها
هاشم سنانَه عن عانة معاوية، وكرّ عليه دُرَيد وظنّه قد أردَى هاشما، فضرب معاوية
بالسيف فقتله ، وشدّ خُفاف بن عمرو على مالك بن حِمار الفَزارىّ [فقتله] [5] .

قال : وغارت الشمّاء فرس هاشم حتى دخلت فى جيش بنى سُليم فأخذوها وظنّوا
أنها فرس الفزارى الذى قتله خُفاف، ورجع الجيش، فلما دنَوْا من صخر أخى معاوية ١٠
قال لهم : ما صنع معاوية ؟ قالوا قتل ! قال : فما هذه الفرس ؟ قالوا : قتلنا
صاحبها ! قال : إذا قد أدركتم ثأركم ، هذه فرس هاشم بن حرملة .

قال : فلمّا دخل رجبٌ ركب صخرُ بنُ عمرو الشمّاءَ صبيحةَ يومِ حَرام ، فأتى
بنى مُرّة، فلمّا رأَوْه قال لهم هاشم : هذا صخر فحيّوه وقولوا له خيرا، وهاشم مريضٌ
من الطعنة التى طعنه معاويةُ ، فقال : مَن قتل أخى ؟ فسكتوا ، فقال : لمن ١٥
هذه الفرس التى تحتى ؟ فسكتوا، فقال هاشم : هلمّ أبا حسّان إلى مَن يُخبرك !
قال : مَن قتل أخى ؟ فقال [هاشم] [5] : إذا أصبتنى أو دريدا فقد أصبتَ ثأرك!
فقال : هل كفّنتموه ؟ قال : نعم ، فى بُردين : أحدهما بخمس وعشرين بَكرة

(١) التكملة من العقد الفريد . (٢) التكملة من العقد الفريد .
(٣) أردفه : تبعه . (٤) أرداه : أسقطه
(٥) التكملة من العقد الفريد .

٢٠

وأَرَوه قبره ، فلمّا رأى القبر جزع عنده ثم قال : كأنكم أنكرتم ما رأيتم من جزعى ، فوالله ما بتّ منذ عقلت إلّا واترا أو موتورا ، وطالبا أو مطلوبا حتى قُتِل معاوية ، فما ذقتُ طعمَ نوم بعده .

يوم حَوْزة الثانى

٥ قال : ثم غزاهم [صخر] فلما دنا منهم مضى على الشمّاء ، وكانت غرّاء مُحجَّلةً ، فسوّد غُرّتها وتحجيلها ، فلما رأته بنتٌ لهاشم قالت لعمّها دُرَيد : أين الشمّاء؟ قال : هى فى بنى سُلَيم . قالت : ما أشبهها بهذه الفرس ! فقال : هذه بهيم[1] والشمّاءُ غرّاء مُحجّلة ، ثم اضْطَجع فلم يشعُر حتى طعنه صخر ، قال : فثاروا وتنادَروا ، وولّى صخرٌ وطلبتْه غَطَفان عامّةَ يومها ، وعارض دُونه أبو شجرة بن عبد العُزّى ، وكانت أمّه خنساء
١٠ أخت صخر ، وصخرٌ خاله ، فردّ الخيلَ عنه حتى أراح فرسَه ونجا إلى قومه ، فقال خُفاف بن نُدْبة لمّا قتل معاوية : قتلنى الله إن برحتُ من مكانى حتى أثأر به ! فشدّ على مالك سيّد بنى شَمْخ فقتله ، وقال صخرٌ فى قتله دُرَيدا :

ولقد دفعتُ إلى دُرَيدٍ طَعْنَةً * نجْلاءَ تُزْغِلُ[2] مثل غَطّ المِنْخَرِ
ولقد قتلتكم ثُناءً ومَوْحَدًا * وتركتُ مُرّةَ مِثلَ أمْسِ الدّابِرِ

١٥ قال أبو عبيدة : وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج منتجعا فلقيه عمرو بن قيس الجُشَمىّ ، فتبعه وقال : هذا قاتل معاوية ، لا وَأَلَتْ نفسى إن وَأَلَ[3] ، فلمّا دنا منه أرسل عليه معبلةً ففلَق قحفه فقتله .

---

(١) البهيم : الأسود ، وما لاشية فيه من الخيل للذكر والأنثى .
(٢) تزغل : تخرج الدم قطعا قطعا .
٢٠ (٣) وأل : نجا .

يومُ ذات الأَثْلِ

قال أبو عبيدة : ثم غزا صخرُ بنُ عمرو بن الشَّريد بنى أسد بن خُزَيمة فاكتسح إبلَهم ، فأتى الصريخُ بنى أسد ، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأَثْل ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فطعن ربيعة الأسدىّ صخرا فى جنبه وفات القومُ بالغنيمة ، ومرض صخر من الطَّعنة قريبا من الحَوْل حتى ملّه أهلُه ، فسمع امرأة من جاراته تسألُ سَلْمى امرأته : كيف بَعْلُك ؟ قالت : لاحىٌّ فيُرْجَى ، ولا مَيْتٌ فيُنْسَى ، لقد لقِينا منه الأَمَرَّين ! وكانت أمّه إذا سئلت عنه تقول : أرجو له العافية إن شاء الله ! فقال فى ذلك :

أرى أمَّ صخرٍ لا تَمَلُّ عِيادتِى * ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجعى ومكانى

فأىُّ امرىءٍ ساوَى بأمٍّ حليلةً * فلا عاش إلّا فى أذًى وهَوَانِ

وما كنتُ أخشى أن أكونَ جنازةً[1] * عليكِ ومَنْ يَغْتَرُّ بالحَدَثانِ

لَعَمْرِى لقد نبَّهتُ مَنْ كان نائما * وأسمعتُ مَن كانت له أُذُنانِ

أَهُمُّ بأمرِ الحَزْمِ لو أستطيعه * وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزَوانِ

قال : فلمّا طال عليه البلاء — وقد نتأتْ قطعةٌ من جنبه مثلَ اليد فى موضع الطعنة — قالوا له : لو قطعتَها لرجَوْنا أن تبرأ ، فقال شأنكم ! فقطعوها فمات ، فقالت أخته الخنساء ترثيه :

وقائلةٍ والنعشُ قد فات خَطْوُها * لِتُدْرِكَهُ يالَهْفَ نفسى على صخرِ!

ألا ثَكِلَتْ أمُّ الذين غَدَوْا به * إلى القبر ماذا يحملُون إلى القبرِ!

---

(١) اذا ثقل المريض على قومه واغتموا به فهو جنازة عليهم . هكذا ورد فى لسان العرب مادة (جنز) واستشهد بهذا البيت على ذلك .

يومُ اللِّوَى (١)

لغطفان على هوازن

قال أبو عُبيدة : غزا عبد الله بن الصِّمّة — واسمُ الصِّمّة: معاويةُ الأصغر — من بنى غزيّة بن جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوَازن — وكان لعبد الله ثلاثةُ أسماء وثلاث كُنًى ، فاسمُه : عبدُ الله ، وخالد ، ومعبد ، وكنيته أبو فرعان ، وأبو دُفافة ، وأبو وفاء ، وهو أخو دُرَيد بن الصِّمّة لأبويه — فأغار على غَطَفان فأصاب منهم إبلا عظيمة فاطّردها ، فقال له أخوه دُرَيد : النجاء فقد ظَفِرْتَ ، فأبى عليه وقال : لا أبرحُ حتى أنتقع نقيعتى — والنقيعة : ناقةٌ ينحرها من وَسَط الإبل فيصنع منها طعاما لأصحابه ، ويقسم ما أصاب عليهم — فأقام وعصى أخاه ، فتبعتْه فَزَارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له اللِّوَى ، فقُتل عبد الله ، وارتُثّ (٢) دريد فبقى فى القتلى ، فلما كان فى بعض الليل أتاه فارسان ، فقال أحدُهما لصاحبه : إنى أرى عينيه تبصّ ، فانزل فانظر إلى سُبّته (٣) ، فنزل فكشف ثوبه فإذا هى ترمَّز (٤) ، فطعنه ، فخرج دمٌ قد احتُقِنَ .

قال دريد : فأفقتُ عندها ، فلمّا جاوزوا نهضتُ ، فما شعرتُ إلّا وأنا بين عرقوبَىْ جَمَل امرأةٍ من هَوَازن ، فقالت : مَن أنتَ؟ أعوذ بالله من شرّك ! قلتُ : لا ، بل مَنْ أنتِ؟ ويلك! قالت : امرأةٌ من هوَازِنَ سيّارةٌ . قلتُ : وأنا من هَوَازِنَ ، أنا دُرَيدُ بن الصِّمّة . قال : وكانت فى قوم مختارين لا يشعرون بالوقعة ، فضمّته وعالجته حتى أفاق .

---

(١) اللوى : واد من أودية بنى سليم .

(٢) المرتث : من حمل من المعركة جريحا وبه رمق .

(٣) السبة : الاست . (٤) ترمز : تضطرب .

يوم الظعينة

بين دُرَيد بن الصِّمَّة وربيعة بن مُكَدَّم

قال أبو حاتم عن أبي عبيدة قال : خرج دُرَيدُ بنُ الصِّمَّة فى فوارسَ من بنى جُشَم حتى إذا كانوا فى وادٍ يقال له : الأخْرَم ، وهم يريدون الغارة على بنى كنانة ، إذ رُفع له رجلٌ فى ناحية الوادى ومعه ظَعينة ، فلمّا نظر اليه قال لفارس من أصحابه : صِحْ به : خَلِّ الظَّعينة وانْجُ بنفسك ، فانتهى اليه الفارسُ ، فصاح به وألحَّ عليه ، فألقىَ زِمامَ الراحلة وقال للظعينة :

سِيرى على رِسْلِكِ سَيْرَ الآمِنِ * سَيْرَ رَدَاحٍ ذاتِ جَأْشٍ ساكِنِ

إنّ انْثنائى دُونَ قِرْنِى شائِنِى * أبْلِى بَلائِى وآخْـبُرِى وعَايِنِى

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه للظَّعينة ، فبعث دُرَيد فارسا آخر لينظُرَ ما صنع صاحبُه ، فلمّا انتهى اليه ورآه صَريعا صاح به فتصامّ عنه ، فظنّ أنه لم يسمع ، فغَشِيَهُ ، فألقىَ زِمام الراحلة إلى الظَّعينة ورجع وهو يقول :

خَلِّ سبيلَ الحرّة المَنِيعـةْ * إنَّك لاقٍ دُونَها رَبِيعـةْ

فى كَفِّه خَطِّيَّةٌ مُطِيعـةْ * أوْ لا فَخُذْها طَعْنَةً سَرِيعةْ

* والطَّعْنُ مِنِّى فى الوَغَى شَرِيعةْ *

ثم حمل عليه فصرعه ، فلمّا أبطأ على دُرَيد بعث فارسا [ثالثا][1] لينظُرَ ما صنعا ، فلما انتهى إليهما رآهما صَريعَيْن ونظر إليه يقُودُ ظَعينته ويجُرّ رُمْحَـه ، فقال له : خَلِّ سبيلَ الظَّعينة ، فقال للظعينة : اقصِدى قَصْدَ البيوت ، ثم أقبل عليه فقال :

ماذا تُرِيدُ من شَتِيمٍ عابِسِ * ألم تَرَ الفارسَ بعـدَ الفارِسِ

* أرْداهما عامِلُ رُمْحٍ يابِسِ *

(١) التكملة من أمالى القالى (ج ٢ ص ٢٧١ طبع دار الكتب المصرية) .

ثم حمَل عليه فصرَعه وآنكسر رمحُه ، وآرتاب دُرَيدٌ وظنّ أنهم قد أخذوا الظَّعينة وقتلوا الرجل ، فلَحِق ربيعةَ وقد دنا من الحىّ ، فوجد أصحابَه قد قُتلوا ، فقال : أيها الفارس ، إنّ مثلَك لا يُقتَل ، ولا أَرَى معك رُمحا والخيلُ ثائرةٌ بأصحابها ، فدُونَك هذا الرُّمح فإنّى منصرفٌ إلى أصحابى فمُثبِّطهم عنك ، فآنصرف دُرَيدٌ وقال لأصحابه : إنّ فارسَ الظَّعينة قد حماها وقتَل فُرْسانَكم وآنتزع رُمْحى ، ولا مَطمَعَ لكم فيه فآنصرِفُوا ، فآنصَرَف القوم ، فقال دُرَيد :

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله * حامِى الظَّعينةِ فارسًا لم يُقتَلِ

أرْدَى فوارسَ لم يكُونُوا نُهْزَةً * ثم آستمَرَّ كأنه لم يفعَلِ

مُتهلِّلًا تبدُو أسِرَّةُ وجهِه * مثلَ الحُسامِ جلَتْه كفُّ الصَّيقَلِ

يُزْجِى ظَعينتَه ويَسْحَبُ رُمْحَه * مُتوجِّهًا يُمْناهُ نحوَ المنزِلِ

وتَرَى الفوارسَ من مَخافة رُمحِه * مِثلَ البُغاثِ[(1)] خَشِينَ وقْعَ الأجْدَلِ

يا ليتَ شِعْرِى مَنْ أبوه وأمُّه * يا صاحِ مَنْ يَكُ مِثْلَه لا يُجْهَلِ

وقال ربيعةُ بنُ مُكَدَّم :

إنْ كانَ ينفعُك اليقينُ فسائِلى * عنِّى الظعينةَ يومَ وادى الأخْرَمِ

إذْ هِى لأوّلِ من أتاها نُهبةٌ * لولا طِعانُ رَبيعةَ بنِ مُكَدَّمِ

إذْ قالَ لى أدْنَى الفوارِسِ مِيتةً * خَلِّ الظَّعينةَ طائعا لا تَندَمِ

فصرَفْتُ راحلةَ الظَّعينةِ نحوَه * عَمْدًا ليَعلَمَ بعضَ ما لم يَعلَمِ

وهتَكتُ بالرُّمحِ الطويلِ إهابَهُ * فهَوَى صَريعًا لليَدَيْنِ وللفَمِ

(1) قال أبو علىّ القالى : البغاث (بضم الباء الموحدة وكسرها) والضم أكثر وأشهر (راجع الأمالى ج ٢ ص ٢٧٢ طبع دار الكتب المصرية) .

وَمَنَحْتُ آخَرَ بعدَه جَيَّاشَةً ۝ نَجْلاءَ فاغِرةً كشِدْقِ الأَضْجَمِ

ولقد شَفَعْتُهما بآخَرَ ثالثٍ ۝ وأَبَى الفِرارَ لِيَ الغَداةَ تَكَرُّمِي

ثم لم تلبث بنو كِنانة(١) أن أغارتْ على بني جُشَم(٢) فقتلوا وأسروا دُرَيْدَ بن الصِّمَّة فأخفى نفسه ، فبينا هو عندهم محبوسٌ إذ جاءه نسوةٌ تهادَيْن إليه . فصرخت إحداهنّ وقالت : هلكتُم وأهلكتُم ! ماذا جرّ علينا قومُنا ! هذا والله الذي أعطى ربيعةَ رُمحَه يومَ الظَّعينة ! ثم ألقتْ عليه ثوبَها وقالت : يا آل فِراس ، أنا جارةٌ له منكم ، هذا صاحبُنا يومَ الوادى ! فسألوه : مَنْ هو ؟ فقال : أنا دُرَيدُ بن الصِّمَّة فمَنْ صاحبي ؟ قالوا : ربيعةُ بنُ مُكَدَّم ، قال : فما فعل ؟ قالوا : قتلتْه بنو سُلَيم ! قال : فما فَعلتِ الظَّعينة ؟ قالتِ المرأة : أنا هِيَهْ ، وأنا امرأته ، فحبسه القومُ وآمَرُوا أنفسهم ، فقال بعضهم : لا ينبغي لدُرَيدٍ أن تُكفَر نعمتُه على صاحبنا ! وقال آخرون : والله لا يخرج من أيدينا إلا برضا المُخارِق الذى أسره ، فانبعثت المرأةُ في الليل ، وهي رَيْطة بنتُ جِذْلِ الطِّعان ، تقول :

سَنَجْزِي دُرَيدًا عن ربيعةَ نِعْمَةً ۝ وكلُّ امرئٍ يُجْزَى بما كان قدَّما

فإن كان خيرًا كان خيرًا جزاؤه ۝ وإن كان شرًّا كان شرًّا مُذَمَّما

سَنَجْزِيه نُعْمَى لم تكن بصغيرةٍ ۝ بإعطائه الرُّمحَ الطويلَ المُقَوَّما

[فقد أدركتْ كفّاه فينا جزاءه ۝ وأهلٌ بأن يُجْزَى الذى كان أنعما(٣)]

فلا تَكْفُروه حقَّ نُعْماه فيكمُ ۝ ولا تَرْكَبوا تلكَ التي تَمْلَأُ الفَما

فلو كان حيًّا لم يَضِقْ بثوابه ۝ ذِراعًا غَنِيًّا كان أو كان مُعْدِما

١٢١ / ١٣

(١) بنو كنانة : رهط ربيعة بن مكدم

(٢) بنو جشم : رهط دريد .

(٣) الزيادة من أمالي القالي .

[فكُّوا قُيَيْدنا من إسارِ مُضايِقٍ • ولا تجعلوا البؤسى إلى الشرّ سُلَّما][1]

فلما أصبحوا أطلقوه، فكَسَّه وجهَّزه ولَحِقَ بقومه، فلم يزل كافًّا عن غزو بنى فِراسٍ حتى هلك .

يومُ الصَّلْعاء

لهَوازِن على غَطَفان

قال : فلمّا كان فى العام المقبل غزاهم دُرَيد بن الصِّمّة بالصَّلْعاء[2]، فخرجت إليه غَطَفان فقال دريد لصاحبه : ما ترى ؟ قال : أرى خيلا عليها رجال كأنهم الصبيان ، أسنّتها عند آذان خيلها . قال : هذه فَزَارة ، ثم قال : أُنظر ما ترى ؟ قال : أرى قوما كأن عليهم ثيابا غُمِست فى الجُبَاب المِغْرَى ، قال : هذه أشجع ، ثم قال : أنظر ما ترى ؟ قال : أرى قوما يهزّون رماحهم سودا، يخدّون الأرض بأقدامهم ، قال : هذه عَبْس ، أتاكم الموت الزؤام فاثبتوا ، فالتقوا بالصلعاء فاقتتلوا، فكان الظفر لهوزان على غطفان، وقتل دُرَيدٌ ذُؤابَ بنَ زيد بن قارب .

ذكر حرب قيس وكنانة

يومُ الكَدِيد[3] لسُلَيم على كنانة

فيه قُتِل ربيعةُ بنُ مُكَدَّم فارسُ بنى كنانة، وهو من بنى فِراس بن غَنْم بن مالك ابن كنانة، وهم أنجدُ العرب ، كان الرجل منهم يَعْدِل بعشرة من غيرهم ، وكان

---

(١) الزيادة من أمالى القالى . (ج ٢ ص ٢٧٣ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) الصلعاء (بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده عين مهملة ممدود) : أرض لبنى عبد الله بن غطفان ولبنى فزارة بين النقرة والحاجر تطؤها طريق الحاج الجادة الى مكة .

(٣) الكديد (بفتح أوله وكسر ثانيه بعده دال مهملة أيضا) : موضع بين مكة والمدينة بين منزلتى أمج وعسفان وهو ماء عين جارية عليها نخل كثير .

ربيعة بن مكدَّم يُعقر على قبره فى الجاهلية ، ولم يُعْقَر على قبر أحد غيره ، وقتلته بنو سُلَيم يوم الكَدِيد ، ولم يحضر يوم الكَدِيد أحدٌ من بنى الشَّرِيد .

يومُ فَزَارة
لِكنانة على سُلَيم

قال أبو عبيدة : لمّا قتلت بنو سُلَيم ربيعةَ بنَ مُكدَّم فارسَ كنانة ورجعوا ، أقاموا ما شاء الله ، ثم إنّ ذا التاج مالكَ بنَ خالد بن صَخْر بن الشَّرِيد — واسم الشَّرِيد عمرو ، وكانت بنو سُلَيْم قد توّجوا مالكا وأمّروه عليهم — فغزا بنى كنانة ، فأغار على بنى فِراس ببُرْزة[1] ، ورئيسُ بنى فِراس عبد الله بن جِذْل ، فدعا عبد الله إلى البراز ، فبرز إليه هِندُ بن خالد بن صَخْر بن الشَّرِيد ، فقال له عبد الله : مَن أنت ؟ قال : أنا هندُ بنُ خالد ، قال عبد الله : أخوك أسنّ منك ، يريد مالك ابن خالد ، فرجع فأخبر أخاه ، فبرز له ، فشدّ عبد الله على مالك بن خالد فقتله ، فبرز إليه أخوه كُرْزُ بنُ خالد بن صخر ، فشدّ عليه عبد الله أيضا فقتله ، فشدّ عليه أخوهما عمرو بن خالد بن صخر ، فتجالدا طَعْنتين ، فجرح كلُّ واحد منهما صاحبه وتحاجزا .

يومُ الفَيفاء[2]
لسُلَيم على كِنانة

قال أبو عبيدة : ثم إنّ بنى الشَّرِيد حرّموا على أنفسهم النساءَ والدُّهْن أو يُدْرِكوا ثأرَهم من كنانة ، فغزا عمرو بن خالد بن صخر بن الشَّرِيد بقومه حتى أغار على

(١) كذا فى معجم ما استعجم للبكرى . وبرزة (بضم أوّله وإسكان ثانيه بعده راء) : موضع فى ديار بنى كنانة . وفى الأصول والعقد الفريد « برزة » بتقديم الراء على الزاى وهو تحريف .

(٢) أصل الفيفاء : المفازة لا ماء فيها وأطلقت على موضع .

بنى فِرَاس، فقتل منهم نفرا؛ منهم : عاصم بن المُعَلَّى ، ونَضْلة ، والمعارك، وعمرو ابن مالك ، وحِصْن ، وشُرَيح ؛ وسبى سبيا فيهم ٱبنة مُكَدَّم أخت ربيعة ، فقال عباسُ بنُ مِرداس فى ذلك :

ألا أبلغنْ عنّى ٱبنَ جِذْل ورَهْطَه * فكيف طلبناكم بكُوذٍ ومالكِ
غداةَ فَجَعْناكم بحِصْن وبٱبنه * وبٱبنِ المعلّى عاصم والمعارِكِ
ثمانية منهم ثأرناهم به * جميعا وما كانوا بَوَاءً(١) بمالك
نُذيقكم ـ والموتُ يَبْنِى سُرَادِقًا * عليكم ـ شَبَاحدِّ السيوف البواتك
تلوح بأيدينا كما لاحَ بارقٌ * تلألأ فى داجٍ من الليل حالكِ

ذكر حرب قيس وتميم

يومُ السُّؤْبان(٢) لبنى عامر على بنى تميم

قال أبو عبيدة : أغارت بنو عامر على بنى تميم وضبّة فاقتتلوا، ورئيسُ ضبّة حسّان بن وَبْرة ، وهو أخو النعمان بن المنذر لأمّه ، فأسره يزيد بن الصَّعِق ، وٱنهزمت تميم؛ فلمّا رأى ذلك عامرُ بنُ مالك بن جعفر حسده،فشدّ على ضِرَار بن

(١) البواء : الكفء .

(٢) كذا فى كتاب النقائض (ص ٣٨٦ طبع أوربا) ومعجم ما ٱستعجم للبكرى (ص ٧٥٩ طبع أوربا) وورد فيه : « السؤبان بضم أوّله وإسكان ثانيه بعده باء معجمة بواحدة على وزن فعلان : واد فى ديار بنى تميم ... ويوم من أيام حروب بنى عامر وبنى تميم يسمى يوم السؤبان ، وفى ذلك سمى عامر ابن مالك ملاعب الأسنة ، وفيه فرّ طفيل ، قال أوس بن حجر :

فـودّ أبو ليلى طفيل بن مالك * بمنعرج السوبان لو يتقصع
يلاعب أطراف الأسنة عامر * وسار له حظ الكتيب أجمع

ثم قال :

كأنهم بين الشميط وصارة * وجرثم والسوبان خشب مصرع

عمرو الضبيّ[1] ، وهو الرُّدَيم[2] ، فقال لابنه : إذا همّ أغنه عنّى ، فشدّ عليه فطعنه ، فتحوّل عن سَرْجه إلى جَنْب أبدانه ، ثم لحقه ، فقال لأحد بنيه : أغنه عنّى ، ففعل مثلَ ذلك ، ثم لحقه ، فقال لابنٍ له آخر ، ففعل مثلَ ذلك . فقال : ما هذا إلا مُلاعِبُ الأسنّة ! [فسُمّى عامر من يومئذ مُلاعِبَ الأسنّة[3]] فلما دنا منه قال له ضِرار : إنى لأعلم ما تريد ، أتريد اللُّبب[4] ؟ قال نعم ! قال : إنك لن تَصِلَ إلىّ ومن هؤلاء عين تَطرِف ، كلهم بنو عامر ، قال له عامر : فاحلنى على غيرك ، فدلّه على حُبَيْش بن الدُّلَف وقال : عليك بذلك الفارس ، فشدّ عليه فأسره ، فلما رأى سوادَه وقِصَرَه ، جعل يتفكّر ، وخاف ابن الدُّلَف أن يقتله ،

= قوله : يتقصع ، أى يدخل القاصعاء » اه .

وفى معجم البلدان لياقوت : « السُّلان : بضم أوله وتشديد ثانيه ، وهو فعلان من السل والنون زائدة : موضع بين البصرة واليمامة ... قال أبو أحمد العسكرى : يوم السلان السين مضمومة : يوم بين بنى ضبة و بنى عامر صعصعة طعن فيه ضرار بن عمرو الضبى وأسر جيش بن دلف فصل ذلك بها عامر مالك ، وفى هذا اليوم سمى ملاعب الأسنة » اه .

وورد فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٧٩ طبع بلاق) : «السريان » وورد هكذا أيضا فى العقد الفريد (ج ٦ ص ٤١ طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة) بتحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان وكتب بهامشه : « كذا بالأصل ، ولا نعرفه » وورد فى نسخة أ « السيوبات » وفى نسخة ب هكذا « السوبات » بإهمال بعض الحروف ، وقد تبين مما وضحناه أن كلاهما محرف ، والصواب ما ذكرناه .

(١) كذا فى كتاب النقائض (ص ١٨٨ طبع أوربا) . وفى الأصول : « القيسى » وهو خطأ .

(٢) كذا فى كتاب النقائض . وسمى « رديما » لأنه كان يحمل على بعير بن يقرن بينهما لثقله . وفى الأصول : « الرويم » وهو تحريف .

(٣) التكملة من العقد الفريد (ج ٣ ص ٧٩ طبع بلاق) . وكتاب النقائض (ص ٣٨٦ طبع أوربا) ومعجم ما استعجم للبكرى (ص ٧٥٩ طبع أوربا) .

(٤) اللبب : موضع المنحر من كل شىء .

فقال : ألستَ تريد اللَّبَب ؟ قال بلى ، قال : فأنّى لك به . وفادى حسّانُ بنُ وَبْرة نفسه من يزيد بن الصّعِق بألف بعير ، [فداءَ الملوك][1][2] فكثر مال يزيد ونبه .

قال أبو عبيدة : ثم أغار بعد ذلك يزيد بن الصّعِق على عصافير النعمان بذى لُبَان ، وذو لبان : عن يمين العرنيين .

يوم أقرن

لبنى عَبْس على بنى دارم

قال : غزا عمرُو بنُ عُدُس من بنى دارم ، وهو فارسُ بنى مالك بن حنظلة ، فأغار على بنى عَبْس ، فأخذ إبلا ونساءً[3] ثم أقبل ، حتى إذا كان أسفل من ثَنِيَّة أَقْرُن نزل فابتنى بجارية من السَّبْى ، ولحقه الطلب فاقتتلوا ، فقتل أَنَسُ الفوارسُ بن زِيَاد العَبْسىّ عمرًا : وانهزمتْ بنو مالك بن حنظلة ، وقتلتْ بنو عبس أيضا حَنْظلةَ بن عمرو — وقال بعضهم : قُتِل فى غير هذا اليوم — وارتدّوا ما كان فى أيدى بنى مالك .

يومُ المَرُّوت[4]

لبنى العَنْبَر على بنى قُشَير

أغار بَحِيرُ[5] بنُ سَلَمة بن قُشَير على بنى العَنْبَر بن عمرو بن تميم ، فأتى الصريخُ بنى عمرو بن تميم حتى لحقوه وقد نزل المَرُّوت ، وهو يَقْسِم المِرْبَاع ويُعطى مَن معه ،

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصول : « بمائة » .
(٢) التكملة من العقد الفريد .
(٣) كذا فى معجم ما استعجم (ص ١١٧ طبع أوربا) وفى الأصول « شاء » .
(٤) المروت (بفتح أوله وتشديد ثانيه) : واد بالعالية بين ديار بنى قشير وديار بنى تميم .
(٥) كذا فى كتاب النقائض (ص ٧٠ طبع أوربا) ومعجم ما استعجم للبكرى (ص ٢٤ ٥ طبع أوربا) وفى الأصول والعقد الفريد : « بجير » بالجيم المعجمة وهو تحريف .

فتلاحق القوم واقتتلوا ، فطعن قَعْنَبُ بنُ عتّاب المثلَّمَ بنَ عامر القُشيرى فصرعه فأسره، وحمل الكدّام، وهو يزيد بن أُزَيهر المازنى على بجير بن سَلَمَة فطعنه فأرداه عن فرسه ، ثم أسره ، فأبصره قَعْنَبُ بنُ عتّاب ، فحمل عليه بالسيف فضربه فقتله ، وانهزم بنو عامر .

يومُ دارَةَ مَأْسَل

لتميم على قيْس

غزا عُتْبَةُ بنُ شُتَير بن خالد الكِلَابيّ بنى ضَبّة ، فاستاق نَعَمَهم ، وقتل حُصَينَ بنَ ضِرَار الضبيّ زيدَ الفوارس، فجمع أبوه ضِرَار قومَه وخرج ثائرا بابنه حُصَينَ، وزيدُ الفوارس يومئذ حَدَثٌ لم يُدْرِك، فأغار على بنى عمرو بن كِلاب، وأفلت منه عُتبة بن شُتَير وأسر أباه شتير [بن خالد](١) وكان شيخا كبيرا، فأتى به قومَه فقال : ياشُتَير، اختَرْ واحدةً من ثلاث، قال : اعْرِضها علىّ ، قال : إمّا أن تَرُدّ ابنى حُصَينًا ! قال : إنّى لا أنشُرُ الموتَى ! قال : و إمّا أن تدفع إلىّ ابنَك عُتْبة أقتله به ! قال : لا يَرْضَى بذلك بنو عامر، قال : و إمّا أن أقتلك. قال : أما هذه فنعم ! فأمر ضِرَارٌ ابنَه أدهَمَ أن يقتله ، فلمّا قدّمه ليضرب عنقه نادى شُتَير : ياآل عامر، صَبْرًا بصبيّ ! كأنه أنِفَ أن يُقتَل بصبيّ ، فقال فى ذلك شمعلة :

وخيّرنا شُتَيراً مِنْ ثلاثٍ * وما كان الثلاثُ له خِيارَا

جَعَلْتُ السيف بين اللِّيتِ(٢) منه * وبين قُصَاصِ لِمّتِه عِذَارَا

---

(١) التكملة من العقد الفريد .

(٢) الليت (بالكسر) : صفح العنق .

أيامُ تميم على بكر

يومُ الوَقيط (١)

قال فِرَاسُ بن خِنْـدِف : تجمّعت اللّهازِم لتُغير على تمـيم وهم غارُّون (٢) ، فرأى ذلك ناشِبُ بنُ بَشَـامة العَنبرىّ الأعْوَر ، وهـو أسيرٌ فى بنى سـعد بن مالك من بنى ثعلبة ، فقال لهم : أعطونى رسولا أُرسله إلى بنى العنبر أوصيهـم بصاحبكم خيرا ليُولوه ما تُولونى من البِرّ . وكان حَنْظَلة بن طُفَيل المَرْثَدىّ أسيرا فى بنى العَنْبَر ، فقالوا : على أن تُوصِيَه ونحن حضُور ، قال نعم ، فأتَوْه بغلام (٣) ، فقال : أتيتمونى بأحْمق ، وما أراه مُبلِّغا عنّى ! قال الغـلام : لا والله ما أنا بأحمق ، وقُل ما شئتَ فإنّى مُبَلِّغه ، فملأ الأعْور كفّه من الرمل فقال : كم فى كفّى منه؟ قال : شىء لا يُحْصَى كثرةً ، ثم أومأ الى الشمس فقال : ما تلك ؟ قال : هى الشمس . قال : فاذهبْ إلى أهلى فأبلغهم عنّى التحيّة وقُل لهم : ليُحْسِنوا إلى أسيرهم [و يكرموه] (٤) فإنى عند قوم مُحسنين إلىّ [مُكرمين لى] (٤) وقُل لهم ليُعْرُوا جَمَلى الأحمر : و يركبوا ناقتى العَيْساء (٥) ، و يَرْعَوا حاجتى فى بنى مالك ، وأخبرهم أن العَوْسج (٦) قد أوْرَق ، وقد اشتكت النساء ، وليَعْصُوا همّام بن بَشَامة فإنه مشئوم مَحْـدُود (٧) . ويُطيعوا ابنَ الأخْنَس فإنه حازمٌ مَيْمُونٌ .

(١) الوقيط : المكان الصلب الذى يستنقع فيه الماء ، أطلق على موضع .

(٢) الغار : الغافل .

(٣) فى أمالى القالى (ج ١ ص ٦ طبع دار الكتب المصرية) « بغلام بعيد أسود » و بعض عباراته تختلف عما هنا فراجعه .

(٤) التكملة من كتاب النقائض (ص ٣٠٦ طبع أوروبا) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٨١ طبع بلاق) .

(٥) العيساء : الناقة يخالط بياضها شقرة .

(٦) العوسج : شوك .

(٧) المحدود : الممدود : الممنوع .

قال : فأتاهم الرسول فأبلغهم ، فقال بنو عمرو بن تميم : ما نعرفُ هذا الكلام، ولقد جُنَّ الأعور، والله ما نعرف له ناقةً عَيْساءَ،ولا جَملا أحمر ! فشخص الرسول، ثم ناداهم هُذَيل : يابنى العنبر، قد بيّن لكم صاحبكم، أمّا الرملُ الذى قبض عليه فإنه يُخبركم أنه أتاكم عددٌ لا يُحْصَى ، وأمّا الشمسُ التى أومأ إليها فإنه يقول : إن ذلك أوضح من الشمس ، وأمّا جملُه الأحمرُ فهو الصَّمّان[1] : يأمركم أن تُعْروه[2] ، وأما ناقته العَيْساء فهى الدَّهْناء[3] ، يأمركم أن تحترزوا فيها ، وأما أبناء مالك فإنه يأمركم أن تُنْذِروا بنى مالك بن زَيْد مَنَاة ، وأن تمسكوا الحِلْف بينكم وبينهم ، وأما العَوْسج الذى أورق ، فيخبركم أنّ القومَ قد لبسوا السلاح، وأمّا تشكّى النساء فيخبركم أنهنّ قد عَمِلْنَ حجلا يغزون به .

قال : فتحرّزت عمرو فركبت الدَّهناء، وأنذَروا بنى مالك فقالوا : ما ندرى ما تقول بنو عمرو، ولسنا مُتَحَوِّلين لما قال صاحبهم . قال : فصبَّحت اللهازم بنى حنظلة فوجدوا عمرا قد جَلَتْ، وكان على الجيش أبجر بن جابر العِجْلىّ، وشهدها ناسٌ من بنى تَيْم اللات، وشهدها الفِرز بن الأسود بن شريك فى بنى شيبان، فاقتتلوا، فأُسر ضِرَار بن القَعْقاع بن زُرَارة، وتنازع فى أَسْره بِشْر بن العَوْراء من تيم اللات ، والفِرْز بن الأسود فجزّوا ناصيته وخلوا أسره من تحت الليل ، وأسر عمرو بن قيس من بنى ربيعة بن عِجْل عَثْجل بن المأموم بن شيبان بن عَلْقمة من بنى زُرَارة ، ثم منّ عليه، وأُسِرتْ غَمامةُ بنت الطَّوْد بن عُبَيد بن زُرارة ، واشترك فى أسْرها الحطيم بن هلال، وظَرِبان بن زياد ، وقيْس بن خُلَيد ، فردّوها إلى أهلها، وأُسر

---

(١) الصمان : جبل أحمر فى أرض بنى تميم .

(٢) تعروه : يعنى ترتحلوا عنه .

(٣) الدهناء : سبعة أجبل من الرمل ، وهى ديار لعامة تميم .

حنظلة بن المأموم بن شَـيْبان بن عَلْقمة ، أسره طلبةُ بن زياد أحدُ بنى ربيعة بن عِجْل ، وأُسِرَ حَوْثرة بن بدر من بنى عبد الله بن دارم ، فلم يزل فى الوثاق حتى قال أبياتا يمدح فيها بنى عِجل فأطلقوه ، وأُسِرَ نُعَيْم بن القعقاع بن مَعْبَد بن زُرارة ، وعمرو بن ناشب ، وأُسِرَ سِنَان بن عمرو أحد بنى سلامة من بنى دارم ، وأُسِرَ حاضر بن ضَمْرة ، وأُسِرَ الهيثم بن صعصعة ، وهرب عوف بن القعقاع عن إخوته ، وقُتِلَ حَكِيم النَّهشلىّ ، وكان يقاتل ويرتجز :

كلُّ آمرئٍ مُصَبَّحٌ فى أهـلِهِ * والموتُ أدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

وفيه يقول عنترة :

وغادَرْنـا حَكِـيمًا فى مَجَـالٍ * صَرِيعًا قـد سَلَبْنَاهُ الإزَارَا

يوم النِّبَاج وثَيْتَل (١)

لبكر على تميم

قال أبو عُبَيدة مَعْمَر بن المثنّى : غدا قيسُ بن عاصم فى مُقَاعِس وهو رئيس عليها — ومُقَاعِس هم : صريم ، وربيع ، وعبيد ، بنو الحارث بن عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم — ومعه سَلَامة بن ظَرِب بن نمر الحمانى فى الأجارب وهم : حمان ، وربيعة ، ومالك ، والأعرج ، بنو كعب بن سعد ابن زيد مَناة بن تميم ، فغزَوْا بكر بن وائل فوجدوا بنى ذُهْل بن ثعلبة بن عكابة ، واللهازم وهم : بنو قيس وتَيْم اللات بن ثعلبة ، وعِجْل بن لُجَيْم ، وعنزة بن أسد ابن ربيعة بالنِّبَاج وثَيْتَل ، وبينهما روحة ، فتنازع قيسُ بن عاصم وسلامةُ بن ظَرِب فى الإغارة ، ثم آتفقا على أن يُغِيرَ قيس على أهل النِّبَاج ، ويُغِيرَ سلامةُ على

(١) النباج : موضع قريب من ثيتل . وثيتل : ماء على عشر مراحل من البصرة .

أهل ثَيْتَل . قال : فبعث قيسُ بن عاصم الأهتم سبقةً له — والسبقةُ : الطليعة — فأتاه الخبرُ فلما أصبح قيس سقى خيله ، ثم أطلق أفواه الروايا وقال لقومه : قاتلوا فإنّ الموتَ بين أيديكم ، والفلاةَ من ورائكم . فلما دَنَوا من القوم صُبحا سمعوا ساقيا يقول لصاحبه : ياقيسُ ، أورد ، فتفاءلوا به ، فأغاروا على النِّبَاج قبل الصبح ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، ثم إنّ بكرا انهزمت ، فأسر الأهتمُ حُمْرانَ بنَ بشر بن عمرو ابن مرثد ، وأصابوا غنائم كثيرةً ، فقال قيس لأصحابه : لا مقام دون الثيتل ، فالنجاءَ ، فأتوا ثيتل ولم يغزوا سلامةَ وأصحابه بعد ، فأغار عليهم قيسُ بن عاصم ، فقاتلوه ثم انهزموا ، فأصاب إبلا كثيرةً ، فقال ربيعة بن طَريف :

فلا يُبْعِدَنْك الله قَيْسَ بنَ عاصِمٍ * فأنتَ لنا عِزٌ عزيزٌ ومَوْئِلُ

وأنتَ الذي حَرَبْتَ[1] بكر بن وائلٍ * وقد عضَّلَتْ[2] منها النِّبَاجُ وثَيْتَلُ

غَداةَ دعَتْ يا آلَ شيبانَ إذْ رأَتْ * كَرَادِيسَ[3] يَهْدِيهِنَّ وِرْدٌ مُعَجَّلُ

وقال قُرّة بن قيس بن عاصم :

أَنَا ابنُ الذي شَقَّ المَزادَ[4] وقَدْ رأَى * بِثَيْتَلَ أحْيَاءَ اللَّهَازِمِ حُضَّرَا

فَصَبَّحَهُمْ بالجيشِ قَيْسُ بنُ عَاصِمٍ * فَلَمْ يَجِدُوا إلاَّ الأَسِنَّةَ مَصْدَرَا

عَلَى الجُرْدِ[5] يعْلُكْنَ الشَّكِيمَ[6] عَوابِسًا * إذَا المَاءُ مِنْ أعطافِهِنَّ تَحَدَّرَا

فَلَمْ يَرَهَا الرَّاءُونَ إلا فُجَاءَةً * يُثِرْنَ عَجَاجًا بالسَّنابِكِ أَكْدَرَا

(١) حربه : سلب ماله .

(٢) عضلت الأرض بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم .

(٣) كراديس : جمع كردوس ، وهى الخيل العظيمة ، وقيل : القطعة من الخيل العظيمة

(٤) المزاد : جمع مزادة ، وهى الرواية :

(٥) فرس أجرد : قصير الشعر ، وقيل : الأجرد : الذى رق شعره وقصر ، وهو مدح .

(٦) الشكيم فى اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس التى فيها الفأس .

سقاهم بها الذيفانَ قيس بن عاصم * وكان إذا ما أوردَ الأمرَ أصدرا
وحُمْرانَ أدّتْه إلينا رماحُنا * فنازع غُلّاً في ذراعيه أسمرا
وجثامةَ الذُّهْليّ قُدناه عنوةً * إلى الحيّ مصفودَ اليدين مُفكَّرا

يوم زَرُود الثانى (١)

لبنى يربوع على بنى تغلب

أغار خُزَيمةُ بنُ طارق التغلبيّ على بنى يربوع وهم بزَرُود، فاقتتلوا قتالا شديدا، ثم انهزمت بنو تغلب، وأُسِرَ خُزَيمةُ بن طارق، أسره أنيف بنُ جَبَلةَ الضبىّ — وهو فارسُ السليط، وكان يومئذ نقيلا (٢) فى بنى يربوع — وأُسَيدُ بنُ حِنّاءة السليطى، فتنازعا فيه، فحكّما بينهما الحارث بن قراد، فحكم بناصية خزيمة للأنيف، على أنّ لأسيد على أنيف مائةً من الإبل. قال: ففَدَى خزيمةُ نفسه بمائتى بعير وفرس، فقال أنيف:

أخذتُك قسرًا يا خُزَيمَ بنَ طارقٍ * ولاقيتَ منّى الموتَ يومَ زَرُودِ
وعانقتُه والخيلُ تَدْمَى نُحُورُها * فأنزلتُه بالقاع غيرَ حميدِ

يوم ذى طُلوح (٣)

لبنى يربوع على بكر

كان عَمِيرةُ بنُ طارق بنِ حصينةَ بنِ أريم بن عبيد بن ثعلبة، تزوج مَرِيّةَ بنت جابر، أخت أبجر بن جابر العِجْلىّ، فابتنى بها فى بنى عجل، فأتى أبجر أختَه امرأةَ

---

(١) زرود: رمال بطريق الحاج من الكوفة.

(٢) النقيل: الغريب.

(٣) ذو طلوح: موضع فى حزن بنى يربوع بين الكوفة وفيد.

عَمِـيرة يَزُورُها فقال لهـا : إنى لأرجو أن آتيَك ببنتِ النِّطف امرأةِ عَمِـيرة التى فى قومها، فقال له عَميرةُ : أترضى أن تحارِبَنِى وتَسبِينى؛ فندِمَ أبجرُ وقال لِعَميرَةَ : ما كنتُ لِأَغْزُوَ قومَك، ثم غزا أبجر والحَوْفَزَان متساندين ، هذا فيمن تبعه من بنى شيبان، وهذا فيمن تبعه من اللهازم، وساروا بعميرةَ معهم قد وكل به أبجرُ أخاه حُرْقُصةَ بن جابر، فقال له عَميرةُ : لو رجعتُ إلى أهلى فاحتملتُهم ، فقال حُرْقُصَةُ : افعل، فكرَّ عَميرةُ على ناقته، فسار يومين وليلةً حتى أتى بنى يَرْبوع، فأنذرهم الجيشَ، فاجتَمَعُوا حتى ٱلتقَـوْا بأسـفل ذى طُلُوح ، فكان أوّل فارسٍ طلع عليهم عَميرةُ ، فنادى : يا أبجَرُ ، هلمَّ! فقال مَنْ أنت؟ قال: أنا عَميرةُ، فكذَّبه، فسفر عن وجهه، فعرفه، فأقبل إليه، والتقَتْ الخيلُ بالخيل، فأُسِرَ الجيشُ إلا أقلَّهم ، وأَسَر حنظلةُ ابنُ بشر بن عمرو بن عُدُس بن زيد بن عبدالله بن دارم — وكان فى بنى يربوع — الحَوْفزانَ بنَ شَريك ، أخذه معه أبو مُلَيلٍ[1] ، وأخذ ابنُ طارق سـوادةَ بنَ يحيى ابن عم أبجر، وأُخِذ أبو عنَمَةَ الضَّبِّىُّ الشاعِرُ مع بنى شيبان، فافتكّه متمّمُ بنُ نويرةَ ، وأُسِر شريكُ بنُ الحوفزان ، وأسـودُ وقَلْحَسُ، وهما من بنى سعد بن همّام، فقال جرير يذكر يومَ ذى طُلُوح :

ولمَّا لقِينا خَيْـلَ أبجَـرَ تَدَّعى * بِدَعْوى لُجَيـمٍ قبْلَ مَيْلِ العَوَاتِقِ

صَـبَرْنا وكانَ الصَّـبْرُ مِنّا سَجِيّـةً * بأسـيافنا تحتَ الظِّلَالِ الخوافِقِ

فلَمّـا رأوا أنْ لا هَوادةَ عِنـدَنا * دَعَوْا بعدَ كربٍ يا عُمَيرَ بنَ طارقِ

(١) كذا فى كتاب النقائض . وفى الأصول والعقد الفريد : «أبو مليك» .

يَوْمُ الحائر وهو يومُ مَلْهَم

لبنى يربوع على بنى بكر

وذلك أنّ بنى مُلَيل عبد الله بن الحارث بن عاصم بن عُبَيْد ، وعلقمة أخاه انطلقا يطلبان إبلًا لهما حتى وردا ملهمَ من أرض اليمامة ، فخرج عليهما نفرٌ من بنى يشكر، فقتلوا علقمةَ وأخذوا أبا مُلَيل ، فكان عندهم ما شاء الله ثم خَلَّوا سبيلَه ، وأخذوا عليه عهدا وميثاقا ألا يُخبِرَ بأمر أخيه أحدا ، فأتى قومَه فسألوه عنه فلم يخبرهم، فقال وَبْرةُ بنُ حمزه : هذا قد أُخِذَ عليه عهدٌ وميثاق، فخرجوا يقصّون الأثر و بينهم شهابُ بنُ عبدِ القيس حتى وردوا مَلْهَم (١)، فلما رآهم أهلُ مَلْهَم تحصّنوا، فحرقت بنو يربوع بعضَ زرعِهم ، وعقروا بعضَ نخلِهم ، فلمّا رأى ذلك القومُ نزلوا إليهم فقاتلوهم ، فهُزِمت بنو يشكر ، وقُتِل عَمرُو بنُ صابر صَبْرًا ، ضربوا عنقَه ، وقَتَل عيينةُ بنُ الحارث بن شهاب بن مُثَلَّم بن عُبَيْد بن عمرو رجلا آخر منهم ، وقَتل مالكُ بنُ نُوَيرة حُمْرانَ بن عبد الله وقال :

طلبنا بيوم مثلَ يومِك عَلْقَمًا * لَعَمْرِى لَمَنْ يَسْعَى بها كان أكرمَا

قتلنا بجنبِ العِرْضِ عمرَو بنَ صابر * وحُمْرانَ أقصدْ نَاهمَا والمثلَّمَا

فلله عينَا مَنْ رأى مِثْلَ خَيْلِنَا * وما أدركتْ من خَيْلِهم يومَ مَلْهَمَا

يوم القحقح وهو يوم مالة

لبنى يربوع على بكر

أغارت بنو أبى ربيعة بن ذُهْل بن شيبان على بنى يربوع ورئيسهم مجبة ابنُ ربيعة بن ذهل، فأخذوا إبلًا لعاصم بن قرط أحد بنى جميد، وانطلقوا، فطلبهم

(١) ملهم : قرية باليمامة لبنى يشكر وأخلاط من بكر .

بنو يربوع، فناوشوهم، فكانت الدائرة على بنى ربيعة، وقتل المنهالُ بنُ عصمة المجبّةَ بن ربيعة، فقال فى ذلك ابنُ حُمْرانَ الرياحىّ :

وإذا لَقِيتَ القومَ فاطعنْ فيهم * يومَ اللّقاءِ كَطَعْنَةِ المِنْهَالِ
تَرَكَ المَجبّةَ للضباعِ مجدّلا * والقومُ بين سوافلٍ وعوالِ

يوم رأس العين

لبنى يربوع على بكر

أغارت طوائف من بنى يربوع على بنى أبى ربيعة برأس العين فاطّردوا النَّعَم، واتبعهم معاوية بن فِرَاس فى بنى أبى ربيعة فأدركوهم، فقُتِل معاويةُ وفاتوا بالإبل، فقال سُحيم فى ذلك :

أليسَ الأكرمون بنو رياح * نَمَوْنى منهم عمّى وخَالى
هُمُو قتلوا المجبةَ وابنَ تيمٍّ * تَنُوحُ عليهما سُودُ المآلِ
وهُمْ قَتَلُوا عميدَ بنى فِرَاس * برأسِ العَيْنِ فى الحِجَجِ الخوالى
وذادوا يوم طخفةَ عن حِمَاهم * ذِيادَ غرائبَ الإبلِ النّهالِ

يوم العظالى (1)

لبنى يربوع على بكر

قال أبو عبيدة : وهو يوم أعشاش ويوم الأُفاقة ويوم الإياد ويوم مُلَيْحَة. قال : وكانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس، فكانوا يجيرونهم ويجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر فى ثلثمائة فارس متساندين، يتوقعون انحدارَ بنى يربوع فى الحَزْن — قال : وكانوا يشتون خفافا فإذا انقطع الشتاء انحدروا إلى الحزن —

(1) سمى يوم العظالى لأنه تعاظل على الرياسة بسطام وهانئ بن قبيصة ومفروق بن عمرو فى هذا اليوم.

قال : فاحتمل بنو عتيبة وبنو عبيد وبنو زبيد من بنى سليط ، أوّل الحىّ ، حتى أسهلوا ببطن مُلَيْحَة ، فطلعت بنو زبيد فى الحَزْن حتى حلّوا الحُدَيْقة بالأُفاقة ، وحلّت بنو عبيد وبنو عتيبة بروضة الثمد . قال : وأقبل الجيشُ حتى نزلوا هضبةَ الحصىّ ، ثم بعثوا رَئِيسَهم فصادفوا غلاما شابّا من بنى عبيد يقال له قرط بنُ أضبط ، فعرفه بسطام فقال له : أخبرنى ما ذاك السواد الذى أرى بالحُدَيقة ؟ قال : هم بنو زبيد .

٥

قال : أَسِيد بن حِنّاءة ؟ قال : نعم ، قال : كم هم ؟ قال خمسون بيتا ، قال : فأين بنو عتيبة وبنو أريم ؟ قال : نزلوا روضةَ الثمد . قال : فأين سائرُ الناس ؟ قال هم محتجزون بجفاف[1] . قال : فمن هنـاك من بنى عاصم ؟ قال : الأُحَيْمِرُ وقَعْنَب ومُعْدان أبناء عصمة . قال : فمن فيهم من بنى الحارث بن عاصم ؟ قال : حصينُ ابنُ عبد الله . فقال بسطام لأصحابه : أطيعونى تقبضوا على هذا الحىّ من زبيد، وتصبحوا سالمين غانمين . قالوا : وما يغنى عنّا بنو زبيد لا يودون رحلتنا . قال : إن السـلامةَ إحدَى الغنيمتين . فقال له مغروق : انتفخ سَحرك يا أخا الصهباء ، قال له هانئٌ : أجبنا . قال : ويلكم إنّ أَسِيدًا لم يظلّه بيتٌ قط شاتيا ولا قائظًا، إنمـا بيتُه القفرُ، فإذا أحسّ بكم أحال على الشـقراء، فركَضَ حتى يَشرف مُلَيحةَ[2]، فينادى : يا آلَ يربوع! فيركب فيلقاكم طعنٌ ينسيكم الغنيمة، ولا يبصر أحدُكم مصرعَ صاحبـه ، وقد جئتمونى وأنا تابعكم ، وقـد أخبرتكم ما أنتم لاقون غدًا . فقالوا : نلتقط بنى زبيد، ثم نلتقط بنى عبيد وبنى عتيبة كما نلتقط الكمأة، ونبعثُ فارسين فيكونان بطريق أَسِـيد ، فيحولان بينـه وبين بنى يربوع، ففعلوا . فلما أحسّ بهم أسـيد ركب الشقراء وخرج نحو بنى يربوع ، فابتدره الفارسان فطعنه

١٠

١٥

(١) جفاف، وتسمى جفاف الطير : أرض لأسد وحنظلة واسعة فيها أماكن يكون فيها الطير .

(٢) مليحة : موضع فى بلاد بنى تميم .

٢٠

أحدهما فألقى نفســه فى شقّ فأخطأه ، ثم كرّ راجعا حتى أشرف مُلَيحَة ، فنادى :
١٢٦/١٣ ياصباحاه ! يا آل يربوع ، غشيتم ، فتلاحقت الخيل حتى توافَوْا بالعظالى ، فاقتتلوا ،
فكانت الدائرةُ على بكر ، قُتِـل منهم مفروقٌ بن عمـرو ، فدُفن بثنيّة مفروق ، و به
سُمّيت ، وغيره . وأما بسطام فألحّ عليه فارس من بنى يربوع ، وكان دارعا على ذات
٥ النسوع[1] ، وكانت إذا أجدّت[2] لم يتعلق بهـا شىء من خيلهم ، ففاقت الطلب حتى
أتى قومه .

يوم الغبيط

لبنى يربوع على بكر

و يقال له يومُ الثعالبِ[3] . قال : غزا بسطامُ بنُ قيس ، ومفروق بن عمرو ،
١٠ والحـارثُ بنُ شريك — وهو الحوفزان — بلادَ بنِى تميم ، وهـذا اليوم قبل يوم
العظالى ، فأغاروا على بنى ثعلبة بن يربوع ، وثعلبة بن سعد بن ضبة ، وثعلبة بن عدىّ
ابن فَزَارة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ، فلذلك قيل له يومُ الثعالب . وكان هؤلاء
جميعا متجاورين بصحراء فلج[4] فاقتتلوا ، فانهزمت الثعالبُ ، فأصابوا فيهم واستاقوا
إبلا من نعمهم ، ولم يشهد عتيبة بن الحارث بن شهاب هذه الوقعة لأنه كان نازلا
١٥ يومئذ فى بنى مالك بن حنظلة . قال : ثم أسروا على بنى مالك ، وهم بين صحراء فلج
و بين الغبيط ، فاكتسحوا إبلَهم ، فوكبت عليهم بنو مالك ، فيهم عتيبة بن الحارث
ابن شهاب ، ومعه فارسان من فرسان بنى يربوع ، وتأنّف[5] اليهم الأحيمرُ بنُ عبدالله ،
وأسيدُ بنُ حنّاءة ، وأبو مرحب ، وجزء بن سـعد الرياحىّ — وهو رئيس

(١) ذات النسوع : فرس بسطام . (٢) أجدّت : سلكت الطريق الوعر .
٢٠ (٣) الثعالب : أسماء قبائل اجتمعت فيـه . (٤) صحراء فلج : واد لبنى العنبر بن تميم ،
يقع أوّل الدهناء . (٥) تأنف : يريد تبعهم وتحوطهم مثل تأنف الأثافى الرماد .

بنى يربوع وربيع، والحليس، وعمارة، بنو عتيبة بن الحارث، ومَعْدان وعصمة ابنا قعنب، ومالك بن نُوَيْرة، والمنهال بن عصمة أحد بنى رياح بن يربوع، وهو الذى يقول فيه مُتمّم بنُ نُوَيْرة فى شعره الذى يرثى به أخاه مالكا :

لقد كفّن المنهالُ تحتَ ردائه فتى غيرَ مِبْطانِ العشيات أرْوَعَا

فأدركوهم بغبيط المَدَرة، فقاتلوهم حتى هزموهم، وأدركوا ما كانوا استاقوا من أموالهم، وأسر بسطامٌ، أسره عتيبةُ، فلم يزل عنده حتى فادى نفسه. قيل: إنه فدى نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرسا، ولم يكن غيره عُكاظىّ أعلى فداءً منه، على أن جزّ ناصيته وعاهده ألا يغزو بنى شهاب أبدا .

يومُ مُخَطَّط

لبنى يربوع على بكر

قال أبو عبيدة : غزا بسطامُ بنُ قيس والحَوْفزان الحارثُ متساندَيْن يقودان بكرَ بنَ وائل، حتى وردوا على بنى يربوع بالفِرْدَوْس، وهو بطن لإياد، وبينه وبين مخطط ليلة، وقد نَذِرت بهم بنو يربوع فالتقَوْا بالمُخَطَّط، فاقتتلوا، فانهزمت بكر، وهرب الحَوْفَزَان وبسطام ففاتا ركضا، وقُتِل شَريك بن الحَوْفَزان، قتله شهابُ ابنُ الحارث أخو عتيبة، وأسر الأُحَيمر بن عبد الله بن الضريس الشَّيْبانىّ .

يوم جدود

غزا الحَوْفَزَان وهو الحارثُ بن شَريك فأغار على مَنْ بالقاعة من بنى سعد بن زيد مناة، فأخذ نَعَمًا كثيرا ونساء فيهنّ الزرقاء من بنى ربيع بن الحارث، فأعجب بها وأُعجبت به، فلم يتمالك أن وقع بها، فلما انتهى الى جدود[1] منعهم بنو يربوع

(١) جدود : اسم موضع فى بلاد بنى تميم قريب من حزن بنى يربوع على سمت اليمامة، فيه الماء الذى يقال له الكلاب .

آبن حنظلة أن يَرِدُوا المـاء ، ورئيسُهم عتيبةُ بنُ الحـارث بن شهاب ، فقاتلوهم ، فلم يكن لبنى بكر بهم يدٌ[1]، فصالحوهم على أن يُعطوا بنى يربوع بعض غنائمهم حتى يَرِدُوا المـاء، فقبلوا ذلك منهم وأجازوهم ،فلما أتى الصريخُ بنى سعد ، ركب قيسُ آبنُ عاصم فى أثر القوم حتى أدركهم بالأشيمَيْن[2]، فألحّ قيسُ على الحَوْفَزَان ،وقد حمل الزرقاء خَلفه رديفا على فرسه الزَّبِد، وعقد شعرَها على صدره ،فأخذ قيس بن عاصم بحيث يكلّم الحوفزان، فقال له قيس: يا أبا حمّاد، أنا خيرٌلك من الفلاة والعطش، قال له : ما يشاء الزبد . فلما رأى قيس أنّ فرسَــه لا يلحقُه نادى الزرقاءَ فقال : ميلى به يا جعار، فجزّ الحوفزان قرونَها بالسيف ودفعها بمرفقه وألقاها عن عجز فرسه فردّها قيسُ بن عاصم الى بنى ربيع .

يومُ سَفَوَان

قال أبو عبيــدة : التقت بنو مازن و بنــو شَيْبان على ماء يقال له سَــفَوَان ، فزعمت بنو شيبانَ أنه لهم، وأرادوا أن يُجلوا تميما عنــه ، فآقتتلوا قتالا شــديدا ، فظهرت عليهــم بنو تميم وشلوهم حتى بلغوا المحــدث، وكانوا قبل ذلك يتوعّدون بنى مازن، فقال فى ذلك الودّاك المـازنىّ :

رُوَيْدًا بَنى شَيْبانَ بعضَ وَعِيــدِكم * تُلاَقُوا غدًا خَيْــلِى عَلَى سَــفَوَانِ
تُلاَقُوا جِيادًا لَا تَحِيدُ عن الوَغَى * إذَا الخيلُ جَالَتْ فى القنَا المُتَدَانِى
عَليهَــا الكُمَاةُ الغُــرُّ من آلِ مَازِنٍ * لُيوثُ طِعانٍ كلَّ يوم طِعَانِ
تُلَاقُوهُمُ فَتَعرِفُوا كيفَ صَــبْرُهُمْ * علَى ماجَنَتْ فيهــم يَدُ الحــدَثانِ

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصل : « الغزىّ بحربهم يد » .
(٢) الأشيمان ؛ فى بلاد بنى سعد بالبحرين دون هجر .

مَقَادِيمُ وصَّالُونَ فى الرَّوْعِ خَطْوَهُمْ * بِكُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ يَمَانِ
إذا ٱستُنْجِدُوا لم يَسْأَلُوا مَن دَعَاهُمُ * لأيَّةِ حَرْبٍ أمْ لِأَىِّ مَكَانِ

١٢٧/١٣

يوم نقا الحَسَن

وهو يوم الشَّقيقة[1] لبنى ضبّة على بنى شَيْبان

فيه قتل بسطام . قال أبو عبيدة : غزا بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس آبن خالد — وقيسُ بنُ مسعود هو ذو الجَدَّين، وأخوه السايل بنُ قيس من بنى ضبة ابن أدّ بن طابخة — فأغار على ألف بعير لمالك بن المنتفق فيها فحلُها قد فقأ عينه، وكان فى الإبل مالك بن المنتفق، فركب فرسا له ونجا ركضًا حتى إذا دنا من قومه نادى : يا صَبَاحَاه، فركبت بنو ضبّة ، وتداعت بنو تميمْ ، فتلاحقوا بالنقا ، فقال عاصم بنُ خليفة لرجل من فرسان قومه : أيُّهم رئيسُ القوم ؟ قال : حاميتُهم صاحب الفرس الأدهم — يعنى بسطامًا — فعلا عاصمٌ عليه بالرمح فطعنه، فلم تخطئ صماخ أُذُنه حتى خرج الرمح من الناحية الأخرى وخرَّ . فلما رأى ذلك بنو شيبان خَلَّوا سبيل النَّعَم وولَّوا الأدبارَ ، فمن قتيل واسير ، وأَسَر بنو ثعلبة نجادَ بن قيس أخا بسطام فى سبعين من بنى شيبان : وقال شَمْعلة بنُ الأخضر بن هُبيرة :

و يومَ شقائِقِ الحَسَنَيْنِ لاقتْ * بنُـو شَيْبانَ آجالاً قِصَارَا
شَكَكْنَا بالرِّماحِ وهُنَّ زُورٌ * صِمَاخَىْ كَبْشِهِم حتى ٱسْتَدَارَا

أيام بكر على تميم

يوم الزُّوَيْرين

قال أبو عبيدة : كانت بكر بن وائل تنتجع أرضَ بنى تميم فى الجاهلية ترعى بها إذا أجدبوا ، فإذا أرادوا الرجوعَ لم يدعوا عودة يصيبونها ولا شيئا يظفرون به

(١) الشقيقة : كل جد (بفتح الجيم المعجمة وسكون الميم) بين حبلى رمل ، والجد : غلظ وصلابة .

إلا اكتسحوه، فقال بنو تميم : امنعوا هؤلاء القومَ من رَعْى أرضكم ، فحشدت تميم ، وحشدت بكر واجتمعت ، فلم يتخلّف عنهم إلا الحَوفزان بن شريك فى أناس من بنى ذُهل بن شيبان، وكان غازيًا ، فقدّمت بكر عليهم عمرًا الأصمّ أبا مفروق — وهو عمرو بنُ قيس بن مسعود بن عمرو بن أبى ربيعة بن ذُهل بن شيبانَ — فحسد سائرُ ربيعة الأصمَّ على الرياسة ، فأتوه فقالوا : يا أبا مفروق، إنّا قد زحفنا لتميم وزحفوا لنا أكثر ما كنّا وكانوا قط . قال : فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن نجعل كلّ حىّ على حياله ، ونجعل عليهم رجلا منهم، فنعرف غناء كل قبيلة، فإنه أشدّ لاجتهاد الناس . قال : والله إنى لأبغض الخلاف عليكم ، ولكن يأتى مفروق فينظر فيما قلتم . فلما جاء مفروق شاوره أبوه ، فقال له مفروق : ليس هذا أرادوا، وإنما أرادوا أن يخدعوك عن رأيك وحسدوك على رياستك، والله لئن لقيتَ القوم فظفرت لايزال لنا الفضلُ بذلك أبدا، ولئن ظُفر بك لا تزال لنا رياسة نُعرف بها، فقال الأصمُّ : ياقوم، قد استشرتُ مفروقًا فرأيتُه مخالفا لكم، ولستُ مخالفا رأيَه وما أشار به . فأقبلت تميم بجملين مجلَّلين مقرونين مقيَّدين وقالوا: لا نولِّى حتى يولى هذان الجملان، وهما الزَّوَيْران، فأخبرت بكر بقولهم الأصمّ فقال: وأنا زُوَيْرُكم إن خشُّوهما فخشونى ، وإن عقروهما فاعقرونى ، قال : والتقى القوم فاقتتلوا قتالا شديدا . فأسرت بنُو تميم حراثَ بن مالك أخا بنى مرّة بن همام، فركض به رجلٌ منهم وقد أردفه، فأتبعه ابنه قتادة بن حراث حتى لحق الفارس الذى أسر أباه، فطعنه فارداه عن فرسه ، واستنقذ أباه ، ثم انهزمت بنُو تميم .

وقال رجلٌ من بنى سدوس :

يا سَلْمُ إنْ تسألى عنّا فلا كَشُفٌ * عِنْدَ اللِّقاءِ وَلَسْنَا بالمَقاريبِ

نحنُ الذين هزَمنـا يومَ صبَّحَنا * جيشَ الزُّوَيْن فى جَمْع الأحاليف
ظلُّوا وظلنا نَكُرُّ الخَيْلَ وَسْطَهُـمُ * بالشِّيبِ مِنّا وبالمُـرْد الغطاريف

يوم الشَّيِّطَيْن

لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : لمّا ظهر الإسلامُ — قبل أن يسلم أهلُ نجد والعراق — سارت بكر بنُ وائل الى السواد وقالت : نُغير على بنى تميم بالشَّيِّطَيْن(١) ، فإن فى دين آبن عبد المطلب أنه مَنْ قتل نفسا قُتِل بها ، فنُغير هذه الغارة ثم نُسْلِم عليها .

فآرتحَلُوا من لَعْلَع بالذَّرارِىّ والأموال، فأتوا الشَّيِّطَيْن فى أربع، وبينهما مسيرةُ ثمانية أميال فسبقوا الخبر فصبَّحوهم وهم لا يَشْعُرون ، ورئيسهم يومئذ بِشْرُ بنُ مسعود بن قَيْس بن خالد ذى الجدّين ، فقتلوا بنى تميم قتلا ذريعا وأخذوا أموالهم . قال : قُتِـل من بنى تميم يوم الشَّيِّطَيْن ولَعْلَع ستمائة رجل ، قال : فوفد وفدٌ من بنى تميم الى النبىّ صلى عليه وسلم فقالوا : اُدعُ الله على بكر بن وائل ! فأبى صلى الله عليه وسلم .

يومُ صَعفوق

لبكر على تميم

أغارت بنو ربيعة على بنى سليط بن يربوع يومَ صَعفوق، فأصابوا منهم أسرى، فأتى طَريفُ بن تميم العنبرىّ فروةَ بن مسعود، وهو يومئذ سيّدُ بنى ربيعة، ففدى منهم أسرى بنى سليط ورهَنَهم آبنَه، فأبطأ عليهم فقتلوا آبنه .

---

(١) الشيطان : واديان .

يومُ مُبَايِض
لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : كانت الفُرسان إذا كانت أيام عُكَاظ فى الشهر الحرام، وأمِنَ بعضُهم بعضا، تقنّعوا كى لا يُعرفوا، فكان طَرِيف بن تميم لا يتقنّع، فوافى عُكاظ وقد كشفت بكر بن وائل، وكان طَريف قد قَتل شَرَاحيل الشيبانىّ أحد بنى عمرو بن ربيعة، فقال حَمِيصة : أرونى طَريفا، فأروه إيّاه، فتأمّله ونظر إليه، ففَطِن له طريف فقال : مالك تنظر؟ فقال : أتَوَسَّمُك لأعرفك، فلله علىّ إن لقيتُك أن أقتُلَك أو تقتُلَنى.

قال : فمضى لذلك ما شاء الله، ثم إن بنى عائدة حُلَفاء بنى ربيعة بن ذُهْل، خرج منهم رجلان يصيدان، فعرض لهما رجلٌ من بنى شيبان، فذعر عليهما صيدَهما، فوثبا عليه فقتلاه، فثارت بنو مُرّة بن ذُهْل بن شيبان يريدون قَتلَهما، فأبت بنو ربيعة ذلك عليهم، فقال هانئ بن مسعود : يا بنى ربيعة، إنّ إخوتكم قد أرادوا ظُلْمَكم فآنمازوا[1] عنهم، ففارقوهم، وساروا حتى نزلوا بمبايض: — ماء لهم — فأبَقَ عبدٌ لرجل من بنى ربيعة، وسار إلى بلاد تميم، فأخبرهم أن حيّا جديدا، أى منشقّ من قومه، من بكر بن وائل نُزُولٌ على مُبَايِض وهم بنو ربيعة، فقال طَريف العنبرىّ : هؤلاء ثأرى يا آل تميم، وأقبل معه أبو الجدعاء أخو بنى طُهَيّة، وجاءه فَدَكِىّ بن أَعْبَدَ المِنْقَرِىّ فى جمع من بنى سعد بن زَيد مَنَاة، فأنذرت بهم بنو ربيعة، فآنحاز بهم هانئ بن مسعود، وهو رئيسهم، إلى عَلَم مُبَايض، وأقام عليه وشرّفوا بالأموال والسرح[2]، وصبّحتهم تميم، فقال لهم

(١) انمازوا : انفصلوا .

(٢) السرح : المال الراعى .

طريف : أطيعونى وافرغوا من هؤلاء الأكُلُب يَصْفُ لكم ما وراءهم ، فقال لهم أبو الجدعاء — رئيس حنظلة — وفَدَكىّ — رئيس بنى سعد بن زيد مناة : أنقاتل أكلبا أحْرَزوا أنفسهم ونترك أموالهم ؟ ماهـذا برأى ! وأبَوْا عليه . وقال هانئ لأصحابه : لا يقاتل رجل منكم ، ولحقت تميم بالنَّعم والبغالِ فأغاروا عليها، فلمـا امْلأوا أيديهم من الغنيمة قال هانئ بنُ مسعود لأصحابه : احملوا عليهم ، فهزموهم . وقُتِل طَريف العنبرىّ ، قتله حميصة الشيبانىّ .

يومُ فَيْحانَ

لبكرٍ على تميم

قال أبو عبيدة : لمـا فدى نفسَه بسطامُ بنُ قيس من عتيبة بنِ الحارث إذ أسره يومَ الغبيط بأربعمائة بعير فقال : لأدركنّ عقرَ إبلى ، فأغار بفَيْحان ، فأخذ الربيعَ بنَ عتيبة وآستاقَ مالَه ، فلمّا سار يومين شُغلوا عن الربيع بالشراب، فبال على قيده حتى لانَ؛ ثم خَلَعه وآنحلّ منه ، ثم أجال فى متن ذات النسوع — فرس بسطام — وهرب ، فركبوا فى أثره، فلمّا يَئسُوا منه ناداه بسطامُ : يا ربيعُ، هلُمّ طليقا ، فأبى ، وأتوه فى نادى قومه يحدّثهم ، فجعل يقول فى أثناء حديثه : إيهـا يا ربيع ! انج يا ربيع ! وأقبل ربيع حتى آنتهى إلى أدنى بنى يربوع فإذا هو براع فآستسقاه وضربت الفرس برأسها فماتت، فسُمّى ذلك المكانُ هبير الفرس ، فقال له أبوه عتيبة : أما إذ نجوتَ بنفسك فإنى مخلِّف لك مالَكَ .

يومُ ذى قار الأوّل

لبكرٍ على تميم

قال : فخرج عتيبةُ فى نحو من خمسة عشر فارسا من بنى يربوع ، فكمن فى جنبى ذى قار حتى مرّت بهم إبلُ بنى الحُصَين ، وهى بالعدوانة : اسم ماء لهم ،

فصاحوا بمن فيها من الحامية والرعاية ، ثم آستاقوها ، فأخلف للربيع ما ذهب له وقال :

أَلَمْ تَرَنِى أفأْتُ عَلى رَبِيعٍ * جِلَادًا فى مَبَارِكِهَا وَخُورَا

وأنّى قدتركتُ بَنِى حُصَينٍ * بذى قار يَرُمُّون الأُمُورَا

يَوْمُ الحاجز

٥

لبكرٍ على تميم

قال أبوعبيدة : خرج وائلُ بْنُ صُرَيمٍ اليشكرىّ من اليمامة، فلقيه بنو أُسَيْد ابن عمرو بن تميم، فأسروه وجعلوا يغمسونه فى الماء فى الركِيّة و يقولون :

* يأيها المائحُ دَلْوى دُونَكَا *

حتى قتلوه ، فغزاهم أخوه باعث بن صُرَيم يوم حاجز ، فأخذ ثمامة بن باعث ابن صُرَيم رجلا من بنى أُسَيد وجيها فيهم فقتَله ، وقتَل على الظِّنة مائةً منهم .

١٠

يومُ الشقيق

لبكرعلى تميم

قال أبو عبيدة : أغار أبجرُ بنُ جابرالعِجْلىّ على بنى مالك بن حنظلة ، فسبى سليمى بنت محصن ، فولدت له أبجر ، ففى ذلك يقول أبوالنجم :

١٥

ولقد كَرَرْتُ على طُهَيَّةَ كَرَّةً * حتّى طَ‍رَقْتُ نِسَاءَهَا بِمساءِ

ذكر حرب البسوس

وهى حرب بكر وتغلب آبنى وائل

قال أبو المنذر هشامُ بنُ محمد بنِ السائب : لم تجتمع مَعَدّ كلُّها إلّا على ثلاثة من رؤساء العرب، وهم : عامر بنُ الظَّرِب بن عمرو بن بكر بن يشكُر بن الحارث،

٢٠

١٢٩/١٣

وعامر هو قائد معدّ يوم البيداء حين تمذْحجت مَذْحِج وسارت الى تهـامة ، وهى أوّل واقعة كانت بين تهامة واليمن .

والثـانى : ربيعةُ بنُ الحارث بن مرّة بن زُهَير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن كلب وهو قائد معدّ يومَ السُّلَّان ، وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن .

٥ والثالث : كليبُ بنُ ربيعة ، وهو الذى يقال فيه : أعزّ من كُلَيب وائل ، وقاد معـدّا كلّها يوم خَزاز ، ففضّ جُموعَ اليمن وهزمهـم ، وآجتمعت عليه معَدّ كلُّها وجعلوا له قَسْم الملك وتاجَه وتحيته وطاعته ، فغبَر(1) بذلك حيناً من الدهر ، ثم دخلَه زَهوٌ شديدٌ و بَغى على قومه حتى بلغ من بَغْيه أنه كان يحمى مواقعَ السحاب فلا يُرعَى حِمَاه و يقول : وَحْشُ أرض كذا فى جوارى فلا يُهاج ، ولا تُورَدُ إبلُ أحد مع إبله ،
١٠ ولا تُوقَد نارٌ مع ناره .

وكانت بنو جُشَم و بنو شَـيْبان فى دار واحدة بتهامة ، وكان كُلَيبٌ قد تزوّجَ جليلةَ بنـةَ مرّة بن ذُهْل بن شيبان أختَ جسّاس بن مُرّة ، وكانت لها ناقةٌ يقال لها : السرابُ ، و بها يُضرب المثلُ فى التشاؤم ، فيقال : « أشأمُ من السراب » و « أشأم من البسوس » وهى معقولة بفناء بيتها فى جوار جسّاس بن مُرّة ، فمرّت
١٥ بهـا إبلٌ لكليب ، فلما رأت السرابُ الإبلَ تازعتْ عِقالَها حتى قطعتـه ، وتبعت الإبلَ وآختلطت بها حتى آنتهت الى كُلَيب ، وهو على الحوض ، ومعه قوسٌ وكِنانةٌ ، فلمّا رآها أنكرها ، فآنتزعها بسهـم فخرم ضَرْعَها ، فنفـرت وهى تَرغُو ، فلما رأتهـا البَسُوس قَذَفَتْ خمارها عن رأسها وصاحت : واذُلّاه ! واجاراه .

---

(1) غبر : مكث و بقى .

ذكر مقتل كليب وائل

قال : فأجشت جسّاسا، فركب فرسا له مغرورا به ، وتبعه عمرُو بنُ الحارث ابنِ ذُهـل بن شيبان على فرسـه، ومعه رمحُه، حتى دخلا على كليب الحِمَى، فطعنه جسّاس فقصم صُلْبَه، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع قَطَنَه، فوقع كُلَيب وهـو يفحص برجله وقال لجسّاس : أغثنى بشَرْبةٍ من ماء ، فقال له : تجـاوزتَ شُبيثا[1] والأَحَصّ[2] ، ففى ذلك يقول عمرُو بنُ الأهتم :

و إنّ كُلَيبا كان يَظْـلِمُ قَوْمَـه * فأَدركَهُ مِثْـلُ الذى تَرَيَانِ

فلمّا حَشَاهُ الرمْحَ كفُّ ٱبن عمّه * تذَكّرَ ظُـلْمَ الأهل أىَّ أوانِ

وَقالَ لجسّـاسٍ أغثنى بشَرْبَةٍ * وَ إلّا فَخَـبِّرْ مَنْ رَأَيْتَ مكَانِى

فقال تجاوَزتَ الأحصَّ وماءَه * وَبطْنَ شُبيثٍ وهُوَ غيرُ دَِفانِ

وقال نابغةُ بنى جعد :

أبلغ عقالًا أنّ خُطّـةَ داحسٍ * بكَفّيك فٱستأخِرْ لها أو تَقَدّمِ

كُلَيبٌ لعَمْرى كانَ أكثرَ ناصرًا * وأيسَرَ ذَنْبًا منك ضُرِّجَ بالدّمِ

رَمَى ضَرْعَ نابٍ فٱستمَرّ بِطعْنَةٍ * كحاشيةِ البُرْدِ اليَمَـانى المُسَهَّمِ

وقال لجسّـاسٍ أغثنى بشَربةٍ * تَدارَكْ بها مَنّـا علىّ وأنعِـمِ

فقال تجاوزْتَ الأحصَّ وماءَه * وبَطْنَ شُبَيْثٍ وهُو ذو مُتَرَسَّمِ

قال : فلما قُتِـل كُلَيْبٌ ٱرتحلت بنـو شيبانَ حتى نزلوا بمـاء يقال له النِّهْى ، وتشمّرَ المهلهلُ أخو كليب — وٱسمه عَدِىُّ بنُ ربيعة ، و إنمـا قيل له المهلهل لأنه

---

(١) شبيث : ماء معروف لبنى تغلب .

(٢) الأحصّ : واد لبنى تغلب .

أوّل من هلْهَل الشعر ، أى أرقّه — فآستعدّ المهلهلُ لحرب بكر ، وترك النساءَ والغزل ، وحرّم القمارَ والشرابَ ، و جمع اليه قومَه ، فأرسل رجالا منهم الى بنى شيبان يعذر اليهم فيما وقع من الأمر ، فأتوا مرّةَ بنَ ذهل بنِ شيبان وهو فى نادى قومه ، فقالوا له : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كُلَيبًا بنابٍ من الإبل ، فقطعتم الرَّحِم ، وآنتهكتم الحُرْمَة ، وإنّا كرهنا العَجَلة عليكم دون الإعذار إليكم ، ونحن نعرض

٥ عليكم خلالًا أربعًا ، لكم فيها مخرجٌ ولنا مقنعٌ ، قال مرّةُ : ما هى ؟ قالوا : تُحيى لنا كُلَيبا أو تدفع لنا جسّاسا قاتله فنقتله به ، أو همّاما فإنه كفءٌ له ، أو تمكّننا من نفسك فإنّ فيك وفاءً من دمه ، فقال : أمّا إحيائى كُلَيبا فهذا ما لا يكون . وأمّا جسّاسٌ فإنه غلام طعن طعنةً على عَجَل ثم ركب فرسه فلا أدرى أىّ البلاد آحتوت

١٠ عليه . وأمّا همّام فإنه أبو عَشَرة وأخو عَشَرة وعمّ عَشَرة ، كلّهم فرسانُ قومهم فلن يُسلِّموه لى فأدفعَه اليكم يُقتَل بجريرة غيره . وأمّا أنا فما هو إلّا أن تجولَ الخيلُ جَوْلةً غدًا فأكونَ أوّل قتيلٍ بينهما ، فما أتعجّلُ من الموت ، ولكن لكم عندى خصلتان : أما إحداهما فهؤلاء بنىّ الباقون فعلّقوا فى عُنُق أيّهم شئتم نِسْعةً فآنطلقوا به إلى رحالكم فآذبحوه ذبح الجزور وإلّا فألفُ ناقةٍ سوداء المُقَل أقيم لكم بها كفيلا من

١٥ بكر بن وائل ، فغضب القوم وقالوا : لقد أسأتَ ، تبذُل لنا صغار ولدك وتسُومنا اللبن من دم كليب .

ووقعت الحرب بينهم ، ولحقتْ جليلةُ زوجة كُلَيب بأبيها وقومها ، وآعتزلت قبائل بكر بن وائل ، وكرِهوا مُجامعةَ بنى شيبان ومساعدتَهم على قتال إخوتهم ، وأعظموا قتل جسّاس كُلَيبا بنابٍ من الإبل ، فظعنت لُجَيم عنهم ، وكفّت يشكُر

٢٠ عن نصرتهم ، وآنقبض الحارث بنُ عُبَاد فى أهل بيته ، وهو أبو بُجَير وفارس النعامة . وقال المهلهلُ يرثى كليبًا من أبيات :

باتَ لَيْلِي بالأنْعَمَيْنِ[1] طَويلَا * أرقُبُ النَّجمَ ساهِرًا أنْ يزولَا

كيفَ أهدَى ولا يزالُ قتيلٌ * مِنْ بَنِي وائلٍ يُنَسَّى قَتِيلَا

فى قصيدة طويلة .

وقال أيضا يرثيه من أخرى :

نَعَى النعاةُ كُلَيبًا لِى فقلتُ لَهُمْ * مَالَتْ بنا الأرضُ أو زَالَتْ رَوَاسِيهَا

القائدُ الخَيْلَ تَرْدِى فى أعنّتِها * زَهْوًا إذا الخيلُ لَجَّتْ فى تعادِيها

مِنْ خَيْلِ تغلبَ ما تُلْقَى أسِنَّتُها * إلّا وقَدْ خَضَّبُوها من أعادِيها

يُهَزْهِزُون من الخطِّىِّ مُدْمَجَةً * كُمْتًا أنابيبُها زُرْقًا عَوَالِيها

تَرَى الرِّمَاحَ بأيدينا فَتُورِدُها * بِيضًا ونُصْدِرُها حُمْرًا أعالِيها

لا أصلَحَ اللهُ يَوْمًا مَنْ يُصَالِحُكُمْ * ما لاحتِ الشَّمْسُ فى أعلَى مجارِيها

يومُ النَّهْى

فالتقَوْا بماء يقال له : النَّهْى[2]، كانت بنو شيبان نازلةً عليه، ورئيسُ تغلب المهلهلُ، ورئيسُ شَيْبان الحارثُ بنُ مُرَّةَ ، فكانت الدائرةُ لبنى تغلب ، ولم يُقتل فى ذلك اليوم أحدٌ من بنى مرّة .

يومُ الذنائب

ثم ٱلتقَوا بالذنائب، وهى أعظم وقعة كانت لهم، فظفرت بنو تغلب وقُتل من بكر مقتلة عظيمة، وفيه قُتل شَراحيل بن مرة بن همّام بن مرّة بن شيبان، وهو جدّ الحَوْفَزان ، قتله عتّاب بن سعد بن زهير بن جشم ، وقُتل من بنى ذُهْل بن

(١) الأنعمان (بالعين المهملة تثنية أنعم) : موضع بناحية نعمان ، وهو وادى النعيم .

(٢) النهى (بالكسر فى لغة أهل نجد، وغيرهم يقوله) بالفتح : الغدير، وهو أيضا الموضع الذى له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه .

ثعلبة عمرو بن سدوس بن شيبان ، وقُتل من بنى قيس بن ثعلبة سعدُ بنُ ضبيعة بن قيس وتيم بن قيس بن ثعلبة ، وهو أحد الحرقيين[1] ، وكان شيخا كبيرا ، فحمل فى هَوْدج ، فلحقه عمرو بن مالك بن الفدوكس بن جشم فقتله .

يومُ واردات

٥ ثم التقَوْا يوم واردات وعليهم رُؤساؤُهم الذين تقدّم ذكْرُهم ، فظفرت بنو تغلب ، واستحرّ[2] القتلُ فى بنى بكر ، فيومئذ قُتِلَ الشعثمان : شعثم وعبدُ شمس ابنا معاوية بن عامر بن ذُهْل بن ثعلبة وسيّار بن الحارث بن سيّار ، وفيه قتل همّام ابنُ مرّة أخو جسّاس لأبويه ، فمرّ به مهلهل مقتولا فقال : والله ما قُتِل بعد كُليب قتيلٌ أعزّ علىّ فقدًا منك يومَ عُنَيزة .

١٠ يوم عُنَيزة

ثم التقَوْا بعُنَيزة ، فظفرت بنو تغلب ، ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة كل ذلك كانت الدائرة فيها لبنى تغلب على بنى بكر ، فمنها يوم الحِنْو ، ويوم عويرضات ، ويوم أنيِن ، ويوم ضرية ، ويوم القُصيبات ، كلها لتغلب على بكر ، أصيبت فيها بكر حتى ظنوا أن لن يستقبلوا أمرهم .

١٥ وقال المهلهل يصف هذه الأيام وينعاها على بكر فى قصيدة طويلة أوّلها :

أَلَيْلَتَنَا بذى حُسُمٍ[3] أَنِيرِى * إذا أنتِ انقضَيْتِ فلا تَحُورِى[4]

فإنْ يَكُ بالذنائب[5] طال لَيْلِى * فقد أبكى من اللَّيْلِ القَصِيرِ

(١) الحارقة : عصبة متصلة بالورك . (٢) استحرّ : اشتدّ .

(٣) ذو حسم : موضع . (٤) تحورى : ترجعى .

٢٠ (٥) الذنائب : عن يسار فلجة مصعدا الى مكة . ومقتل كليب بالذنائب ، وبها قبره .

فَلَوْ نُبِشَ المقابرُ عن كُلَيب * لأُخْبِرَ بالذنائب أىّ زِير
وإنّى قد تركت بواردات(١) * بُجَيْرًا فى دمٍ مثل العبير(٢)
هتكتُ به بيوتَ بنى عُبادٍ * وبعضُ القتل أشفى للصدور
على أنْ ليس عدلًا من كُليب * إذا برزت مخبّأةُ الخدور

وقال المهلهل أيضا وقد أسرف فى الدماء :

أكثرتُ قتلَ بنى بكر بربّهمُ * حتّى بكيتُ وما يبكى لهم أحدُ
آليتُ بالله لا أرضى بقتلهمُ * حتّى أُبَهْرِجَ بكرًا أينما وُجِدُوا

أُبهرجُ : أى أدعهم بهرجًا ، لا يُقتَل بهم قتيلٌ، ولا تُؤخذ بهم ديةٌ .

وقال أيضا :

قتلوا كُليبًا ثمّ قالوا أربِعُوا * كذَبوا وربِّ الحِلّ والإحرام
حتى تَبِيدَ قبيلةٌ وقبيلةٌ * ويعَضّ كُلٌّ مُثقَّف بالهام
ويُقمنَ رباتُ الخدور حواسرًا * يَمسحنَ عَرْضَ ذوائب الأيتام
حتى يعضّ الشيخُ بعدَ حَميمِه * ممّا يرى ندما على الإبهام

يومُ قِضَة

قال : ثم إنّ المهلهل أسرف فى القتل ولم يُبالِ بأىّ قبيلة من قبائل بكر وقع، وكانت أكثر بكر قعَدت عن نصرة بنى شَيْبان لقتلهم كُلَيبا ، وكان الحارث بنُ عُبَاد قد اعتزل تلك الحروبَ ، حتى قُتِل ابنُه بُجَيرُ بن الحارث بن عُبَاد ، فلمّا بلغه قتله قال : نعم القتيلُ قتيلٌ أصلح بين ابنَىْ وائل، وظنّ أنّ المهلهل قد أدرك به ثأر

(١) واردات : موضع عن يسار طريق مكة .

(٢) العبير : الزعفران .

كُلَيب وجعله كفؤًا له، فقيل له : إنما قتله بِشِسْع نَعْل كُلَيب . وكان المهلهل قال لمّا قَتَل بُجَير بن الحارث : بُؤْ بشسْع نَعْل كُلَيب، فلمّا سمع الحارث ذلك غضب، وكان له فرس يقال له النعامة، فركبها وتولّى قتال تغلب بنفســه، فكانت الدائرة فيه على تغلب، فتفرّقت قبائل تغلب وهرب المهلهلُ . وقال الحارث بن عُبَاد :

قَـرِّبَا مَربَطَ النعامَـةِ مِـنِّى * لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عنْ حِيَالِى

قَـرِّبَا مَرْبِطَ النعامَـةِ مِـنِّى * شابَ رَأْسِى وأنكرتنى رِجَالى

لم أكنْ من جُناتهـا عَـلِمَ اللّٰـ * ـهُ وإنِّى بحرِّها اليـومَ صَـالِ

فى قصيدة طويلة نحو المـائة بيت كرّر فيها :

* قرّبا مربط النعامة منّى *

فى خمسين بيتا .

وكان أوّل يوم شهـده الحارثُ يومَ قِضَة، وهـو يومَ تَحْلاق اللِّمم، وفيـه يقول طَرَفة :

سَـائِلُوا عنَّـا الَّذى يَعْـرِفُنَا * بِقُـوَانا يومَ تَحْـلاقِ اللِّمَمْ

يوم تُبدِى البِيضُ عنْ أَسْوُقِهَا(1) * وتَلُفُّ(2) الخيـلُ أعراجَ(3) النَّعَـمْ(4)

(1) أسؤق : جمع لساق، همزت الواو فيه لتحمل الضمـة؛ أى يوم تكشف النساء البيض عن سيقانها من الفزع .

(2) تلف : تجمع .

(3) كذا فى الأغانى (ج ٥ ص ٤٤ طبع دار الكتب المصرية) وأعراج : جمـع عرج (بالفتح ويكسر) وهو القطيع من الإبل نحو الثمانين أو منها إلى تسعين، أو هـو مائة وخمسون وفويقها، أو من خمسمائة الى ألف . وفى الأصول : «أفراخ» .

(4) النعم (بالتحريك وقد تسكن عينه) : الإبل .

يوم تَحْلَاقِ اللِّمَم

ويوم تَحْلَاق اللِّم، إنما سُمِّى بذلك لأن الحارثَ بن عُبَاد لمّا تولَّى الحربَ قال لقومه : احمِلوا معكم نساءكم يكُنّ من ورائكم ، فإذا وَجَدْنَ جريحا منهم قتلوه، وإذا وجَدْنَ جريحا منّا سَقَيْنَه وأطْعَمْنَه ، فقالوا : ومن أين يتميّز لهنّ ؟ فقال : احلقوا رءوسكم لتمتازوا بذلك، ففعلوا، فسُمِّى به، فقال جَحْدَر بن ضُبَيعة — وكان من شجعانهم — : اتركوا لِمَّتِي وأقتل لكم أوّل فارس يقدمهم، فتركوه، وهو الذى قتل عمرًا وعامرًا التغلبيّان، طعن أحدهما بسنان رمحه[1] ، والآخر بزجه[2] ، ثم صرع بعد ذلك، فلمّا رأته نساء بكر دون حلق ظنّوه من تغلب فأجهزوا عليه .

وفى هذا اليوم أَسَر الحارثُ بنُ عُبَاد المهلهلَ عَدِىَّ بنَ ربيعة وهو لا يعرفه فقال له : دُلَّنى على عَدِىّ وأُخْلِى عنك، فقال له عَدِىّ : عليك العهدُ بذلك إن دللتك عليه ، قال نعم ، قال فأنا عَدِىٌّ ، فجزّ ناصيتَه وتركه وقال فيه :

لَهْفَ نَفْسِى عَلى عدِىّ ولم أعـ * ـرِف عَدِيًّا إذ أَمْكَنَتْنِى اليَدَانِ

وكان الحارث آلى ألّا يصالحَ تغلبًا حتى تكلّمه الأرض ، فلمّا كثُرت وقائعه فى تغلِب ورأت تغلب أنها ما تقوم له حفروا سربا تحت الأرض وأدخلوا فيه رجلا وقالوا له : اذا مرَّ بك الحارثُ فغنّ بهذا البيت :

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بعضَنا * حَنَانَيْك بعضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ منْ بعضِ

فلما مرَّ الحارثُ اندفع الرجلُ وغنَّى بالبيت ، فقيل للحارث قد برّ بقسمك فأبقِ بقيّة قومك ، فأمسك، فاصطلحت بكر وتغلب .

---

(١) عالية الرمح : سنانه .

(٢) زجّ الرمح : حديدة فى أسفله .

ثم إنّ المهلهلَ فرّ بنفسه فنزل بمَذْحِج فى بنى جَنْب[١]، فخطبوا اليه آبنته، وقيل أخته، فمنعهم، فأجبروه على تزويجها وساقوا اليه جُلودًا من أَدَم، فقال فى ذلك :

أَعْـزِزْ على تَغْلِب بمـا لَقِيَتْ * أختُ بَنِى الأكْرَمِينَ مِنْ جُشَمِ

أنكحها فَقْـدُها الأراقِـمَ[٢] فى * جَنْب وكانَ الْحِبـاءُ من أدَمِ

لَـوْ بأبانَيْن[٣] جاء يخْطُبُهـا * ضُرِّجَ ما أنفُ خاطبٍ بِـدَمِ

لَيسُوا بأكْفائنا الكـرام ولاَ * يُغنُون فى ذلّةٍ ولاَعَـدَمِ

ثم آشـترى المهلهل عبـدَيْن يغزوان معـه، فغزا بهما حتى طال عليهما ذلك، فآختارا الراحةَ منه، فأجمعا على قتله بموضع قفرٍ، فلمّا شعر بمـا همّا به ولم يرلنفسه ملجأ قال لهما : أبلغا عنّى هذه المراسلة، فقالا هات، فقال :

منْ مبلغُ عنِّى بأنَّ مهلهـلًا * لله درّكُمَا ودرّ أبيكُمَا

فلمّا قتلاه وآنصرفا نحو بيته فقالا : ماتَ بأرض كذا وذكرا وصيّته، فلم يدر أحد ما أراد، فقالت آبنته : والله ما كان أبى رديَّ الشعر، ولا سَفْسَاف الكلام، وإنما أراد أن يخبركم أنّ العبدين قتلاه، وإنما معنى البيت :

مَنْ مُبْلِـغٍ عنّى بأنّ مُهَلْهِلًا * أضْحَى قتيلًا بالفَلاَ مُجَـدَّلَا

لله دَرّكما ودرُّ أبيـكُمَا * لا يبرح العبدان حتّى يُقتَلَا

فقتل العبدان بعد أن أقرّا بذلك . وقيل : إنه أصبح قتيلا بين رجلى جمـل هاج . والله تعالى أعلم بالصواب .

---

(١) جنب : حىّ من مذحج ، وهم سـتة رجال : منبه والحارث والعلى وسيحان وشمـران وهفان، يقال لهم جنب لأنهم جانبوا أخاهم صداء (راجع معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٧٧ طبع أوربا) .

(٢) الأراقم : حىّ من تغلب . (٣) أبانين : جبلان، قيـل : يقال لأحدهما : أبان الأبيض، وللآخر : أبان الأسود .

الكلابُ الأوّل

قال أبو عبيـدةَ : لمّـا تسافهت بكر بنُ وائل وغلبهـا سفهاؤُها ، وتقاطعت أرحامُها ، ارتأى رؤساؤهم فقالوا : إنّ سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا ، فأكل القوىُّ الضعيفَ ، فنرى أن نملِّكَ علينـا مَلِكا نُعطيه الشاةَ والبعيرَ ، فيأخذ للضعيف من القـوىّ ، ويردّ على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن أن يكونَ من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون ، فيفسد ذات بَيْننا ، ولكنّنا نأتى تُبّعا فنملّكه علينا ، فأتوْه [فذكروا له أمرهم][1] فملّك عليهم الحارثَ بن عمرو آكلَ المرار الكِنْدىّ ، فقـدم فنزل بطنَ عاقِـــل[2] .

ثم غزا ببكر بن وائل حتى آنتزع عامّة ما فى أيدى ملوك الحِيرة اللخميّين ، وملوك الشام الغسانيّين ، وردّهم الى أقاصى أعمالهم ، ثم طُعِن فى نيطة فمـات فدُفن ببطن عاقل . وآختلف آبناه شُرَحبيل وسلَمَة فى المُلْك ، فتواعدا الكُلاب[3] ، فأقبل شُرَحبيل فى ضبّة والرِّباب كلّها ، وبنى يربوع ، وبكر بن وائل . وأقبل سَلَمة فى تَغْلب والنَّمِر وبَهْراء ومَن تبعه من بنى مالك بن حنظلة ، وعليهم سُفيان بنُ مُجاشع ، وعلى تغلب السـفّاحُ ، وإنمـا قيل له السفّاحُ لأنه سفح أوعيـة قومه وقال لهم : اندروا الى ماء الكُلاب ، فسبقوا ونزلوا عليـه ، وإنمـا خرجت بكر مع شُرحبيل لعـداوتها لبنى تغلب ، فآلتقوا على الكُلاب ، وآستحرّ القتل فى بنى يربوع ، وشدّ أبو حَنَش على شُرَحْبيل فقتله ، وكان شُرَحبيل قد قتل آبنه حَنَشا ، فأراد أبو حنش أن يأتىَ برأسه الى سلمة ، فخافه فبعثه مع عسيف له ، فلما رآه سَلَمة دمعت عيناه وقال له :

---

(١) التكملة من العقد الفريد . (٢) عاقل : واد بنجد .

(٣) الكلاب : اسم ماء بين الكوفة والبصرة . وقيل : ماء بين جبلة وشمام على سبع ليال من اليمامة .

أنت قتلته ؟ قال لا، ولكن قتله أَبُو حَنَش، إنما أدفع الثواب الى قاتله ، فهرب أبو حَنش منه، فقال سلمة فى ذلك :

ألا أبلـغْ أبَا حَنَشٍ رَسُـولًا * فـالك لا تجيءُ الى الثّـوابِ

تَعـلَّم أنّ خيرَ النـاسِ طـرًّا * قَتيلٌ بيْنَ أحجار الكُلَاب

يومُ الصَّـفْقة

وهو يومُ الكُلاب الثانى

قال أبو عبيدة : كان يومُ الكُلاب متّصلا بيوم الصّفقة[1] . وكانَ من حديث الصفقة أنّ كسرى كان قـد أوقع ببنى تميم ، فأخذ الأموال وسبى الذرارىّ بمدينة هَجَر[2]، وذلك أنهـم أغاروا على لطيمةٍ له فيها مسك وعنبر وجوهر كثير، فسمّيت تلك الوقعـة يوم الصَّفْقة ، ثم إنّ بنى تميم أداروا أمرهم ، وقال ذو الحجى منهم : إنكم قد أغضبتم الملك، وقـد أوقع بكم حتى وهنتم، وتسامعت بمـا لقيتم القبائلُ، ولا تأمنون دَوَرانَ العرب .

فجمعوا سبعةً من رؤسائهم وشاوروهم فى أمرهم ، وهم : أكثم بنُ صيفىّ الأسدىّ ،والأُحَيمر بنُ يزيد بن مُرّة المـازنىّ ، وقيسُ بنُ عاصم المِنْقرِىّ ، وأُبير بن عصمة التيمىّ ، والنعمان بن جسّاس التيمىّ ، وأُبين بن عمرو السعدىّ ، والزبرقان بن بدر السعدىّ فقالوا لهم : ماذا تَرَوْن؟ فقال أكثم بن صيفىّ ، وكان يكنى أبا حنش : إنّ الناس قد بلغهم مالقينا، ونخاف أن يطمعوا فينا وإنى قد نيّفت على التسعين ، وقـد نحل قلبى كما نحل جسمى ، وأخاف ألّا يدرك ذهنى الرأىَ لكم ، فليعرض علىّ

(١) سمى الصفقة ، لأن كسرى أنو شروان أصفق الباب على بنى تميـم فى حصن المشقر ، ويسمى أيضا : يوم المشقر، والمشقر : حصن بالبحرين . (٢) هجر : اسم الأرض بالبحرين .

كلُّ رجل منكم رأيَه وما يُحضره فإنى متى أسمع الحزمَ أعرفه، فقال كلٌّ منهم ما عنده، وأكثم [ساكتٌ] لا يتكلّم، حتى قام النعمانُ بن الحسّاس فقال: ياقومُ، أنظروا ماءً يجمعكم ولا يعلم الناس بأىّ ماء أنتم حتى تنفرجَ الحلقةُ عنكم، وقد صلُحت أحوالكم، وانجبر كَسِيرُكم، وقَوِىَ ضعيفُكم، ولا أعلم ماءً يجمعكم إلّا قِدَة، فقال أكثم: هذا [هو] [1] الرأى، فارتحلوا حتى نزلوا الكُلابَ، وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم، وأعلاه مما يلى اليمن، وأسفله مما يلى العراق. فنزلت سعد والرِّباب بأعلى الوادى، ونزلت حنظلة بأسفله.

قال: وكانوا لا يخافون أن يُغْزَوا فى القيْظ، لبُعْد تلك الصحارى وشدّة الحرّ بها وقلة المياه، فأقاموا بقيّة القيظ لا يعلم أحدٌ بمكانهم، حتى اذا تهوّر [2] القيظ بعث الله ذا العُيَيْنَتَيْن، وهو من أهل مدينة هَجَر، فمرّ بقِدَة وصحاريها، فرأى ما بها من النَّعم، فانطلق حتى أتى أهلَ هَجَر فقال: هل لكم فى جارية عذراء، ومُهْرة شَوْهاء [3]، وبَكْرة حمراء، ليس دونها نكبة؟ قالوا: ومن لنا بذلك؟ قال: تلكم تميم ألْقاءٌ [4] مطروحون بقِدَة. فمشى بعضُهم الى بعض وقالوا: اغْتَنِموها من بنى تميم. فأخرجوا معهم أربعةَ أملاك يقال لهم اليزيديون: يزيد بنُ هَوْبَر، ويزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المأموم، ويزيد بن المخرّم، وهم كلّهم حارثيّون ومعهم عبد يَغوث الحارثىّ، وكان كلُّ واحد منهم على ألفيْن، فمضَوْا حتى إذا كانوا ببلاد باهلة قال جرير بن جزء الباهلىّ لابنه: يا بنىّ، هل لك فى أكرومة لا يُصاب أبدًا مثلُها؟ قال: وما ذلك؟ قال: هذا الحىُّ من تميم قد لجأوا ها هنا مخافة كسرى، وقد قصصت أثر الجيش يريدونهم، فاركبْ جملى الأرْحَبىّ، وسِرْ سيرًا رُوَيدًا

(١) التكملة من العقد الفريد. (٢) تهوّر القيظ: ذهب. (٣) الشوهاء من الخيل: الطويلة الرائعة. (٤) ألقاء: جمع لَقًى، وهو ما طرح على الأرض.

عقبةً[1] من الليـل ، ثم حلّ عنه حبليه وأنخهُ وتوسّدْ ذراعه ، فإذا سمعتَه قـد أفاض بجرّتِه وبال فاستنقعت ثِفناته فى بَوْله ، فشـدَّ حبليه ثم ضع السَّوْطَ عليه ، فإنك لا تسأل جملك شيئا من السير إلا أعطاكه حتى تصبّح القوم . ففعل ما أمره به .

قال الباهلىّ : فحللتُ بالكُلاب قبـل الجيش فناديت : يا صباحاه ! فإنهـم لَيَثِبون إلىّ ليسألونى مَن أنت ؟ إذ أقبل رجلٌ منهـم من بنى شقيق على مُهر قـد كان فى النَّعم فنادى : ياصباحاه ، قـد أُتِى على النَّعم ، ثم كرّ راجعا نحـو الجيش ، فلقيه عبـد يغوث الحارثىّ وهو أوّل الرعيل ، فطعنه فى رأس مَعِـدته فسبق اللّبنُ الدم ، فقال عبـدُ يغوث : أطيعونى وآمضوا بالنَّعم وخلُّوا العجائز من تميم ساقطـة أفواهُها ، فقالو : أما دون أن تُنْكَح بناتهُم فلا .

وقال ضَمْرة بن لبيد الحماسىّ ثم المذحجىّ الكاهن : أنظروا اذا سُقْتُم النَّعم فإن أتتكم الخيل عُصَبًا [عُصَبًا] تنتظر العصبة أن تنتظم الأخرى حتى تلتحق بهـا فإن أَمْرَ القوم هيّنٌ ، وإن لحق بكم القومُ ولم ينتظر بعضُهم بعضا حتى يردّوا وجوهَ النَّعم فإن أمرهم شديدٌ .

وتقدّمت سـعد والرِّبابُ فى أوائل الخيل وآلتقَوْا بالقـوم فلم يلتفتوا إليهم ، وآستقبلوا النَّعم ولم ينتظر بعضُهم بعضًا . ورئيسُ الرباب النعمانُ بن الجسّاس ، ورئيسُ بنى سعد قيسُ بنُ عاصم ، فآلتقى القومُ ، فكانَ النعمانُ أوّلَ صريع ، وآقتتل الفريقان حتى حجز بينهم الليلُ ، ثم أصبحوا على راياتهم ، فنادى قيسُ بنُ عاصم : يا آل سعد ! يريد سعدَ بن زيد ، ونادى عبدُ يغوث : يا آل سعد ! يريد سعد العشيرة ، فلمـا سمع قيس ذلك نادى : يا آلَ كعب ! يريد كعب بنَ سـعد ، ونادى عبد يغوث : يا آل كعب ! يريد كعب بن عمرو ، فلما رأى ذلك نادى :

(١) عقبة من الليل : أى ساعة .

يا آل مُقَاعِس ! فلما سمع وَعْلة آبن عبد الله الجرْمىّ — وكان صاحبَ لواء أهل اليمن — نادى : يا آلَ مُقَاعِس ، تفاءل به فطرح له اللواء ، وكان أوّل من آنهزَم ، فحملت عليهم سعد والرباب فهزموهم ، ونادى قيسُ بنُ عاصم : يا آلَ تميم ، لا تقتلوا إلّا فارسا فإنّ الرجّالة لكم ، ثم جعل يرتجز ويقول :

لمّا تولّوا عُصَباً شَــوازِبَا[1] * أَقْسَمْتُ لَا أَطْعَنُ إلّا راكِبَا

* إِنّى وَجَدْتُ الطَّعْنَ فيهمْ صَائِبَا *

وأمر قيسُ بنُ عاصم أن يتبعوا المنهزمةَ ، ويعرقبوا مَنْ لحقوه ، ولا يشتغلوا بالقتل عن اتباعهم ، فجزّوا دوابرهم ، وفى ذلك يقول وَعْلة :

فِدًى لكم أهْلِى وأمِى وَوَالِدِى * غداةَ كُلَاب إذْ تُجَــزُّ الدوابِرُ

وأسر عبد يغوث ، أسره مَصاد بن ربيعة بن الحارث وكتّفه وأردفه خلفه ، وكان مَصاد قــد أصابته طعنــة فى مأبضِه ، وكان عِرْقه يهمى[2] ، فنزفه الدم ، فمال عن فرســه مقلوبا . فلما رأى ذلك عبدُ يغوث قطع كِتَافــه وأجهز عليه وآنطلق على فرســه ، وذلك أوّلُ النهار ، ثم ظفر به بعــد فى آخره ، ونادى مناد : قتــل اليزيدون ، وشدّ قَبِيصة بن ضِرار الضّبّىّ على ضَمْرَة بن لَبِيد الحماسىّ الكاهن فطعنه فخرّ صريعا ، فقال له قَبِيصة : ألا أنبأك تابعُك بمصرعك اليوم ، ثم أُسر عبدُ يغوث ، أسره عصمةُ بن أُبَير التيمىّ .

قال أبو عبيدة : انتهى عصمةُ بن أُبَير إلى مَصاد فوجده صريعًا ، وكان قبل ذلك رأى عبدَ يغوث أسيرًا فى يديه ، فعلم أنه الذى أجهز عليه فآقتصّ أثَرَه فلحقه وقال : ويحك ! إنى رجل أُحبّ اللبن ، وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش . قال : ومَن أنت ؟ قال : عصمةُ بنُ أُبَير ، فآنطلق به عصمة حتى جثاه عند الأهتم على

---

(١) شوازبا : ضوامر . (٢) يهمى : يسيل .

أن جعل له من فدائه جُعْلا ، فتركه الأهتم عند آمرأته العبشمية ، فأعجبها جمالُه وكمالُ خلقته، وكان عصمةُ الذى أسره غلاما نحيفا، فقالت له : مَن أنت ؟ قال: أنا سيّدُ القوم ، فضحكت وقالت : قبّحك الله سيّدُ قوم حين أسَرك مثلُ هـذا ، ففى ذلك يقول عبدُ يغوث :

وتَضْحَكُ منّى شَيْخةٌ عَبْشَمِيّةٌ * كأنْ لم تَرَىْ(١) قَبْلِى أسيرًا يمـانيَا

٥

فآجتمعت الرِّبابُ الى الأهتم وقالت : ثأرنا عندك ، وقد قُتل مَصاد والنعمان فأخرِجه إلينا ، فأبى الأهتم أن يُخرجه إليهم ، فكاد أن يكون بين الحيّيْن : الرِّباب وسعد، فتنة حتى أقبل قيسُ بنُ عاصم المِنْقَرِىّ فقال: أيؤتَى قطع حلف الرِّباب من قِبَلنا؟ فضرب فاه بقوس فهتّمه ، فسمّى الأهتم، فقال الأهتم: إنما دفعه إلى عصمة ابن أُبير ، ولا أدفعـه إلّا لمن دفعـه إلىّ ، فليجئْ فيأخذْه ، فأتوا عصمة فقالوا : ياعصمة ، قُتِل سيّدُنا النعمانُ وفارسُنا مَصاد ، وثأرُنا أسيرُك ، فمـا كان ينبغى لك أن تستحييه ! فقال : إنى مُمْعِل وقد أصبتُ الغنى، ولا تطيب نفسى على أسيرى، فآشتراه بنـو جسّاس بمائة بعير ، فدفعه إليهـم ، فخشوا أن يَهْجُوَهم ، فشدّوا على لسانه نِسعة ، فقال : إنكم قاتلىّ لا محالة ، فدعونى أذمّ أصحابى وأنوح على نفسى ! فقالوا : إنك شاعرٌ ونخـاف أن تهجُوَنا ، فعقد لهم ألاّ يفعلَ ، فأطلقوا لسانه ، فقال قصيدته التى أوّلهـا :

١٠

١٥

(١) قال أبو على القالى فى أماليه (ج ٣ ص ١٣٤ طبع دار الكتب المصرية) : « قال الأخفش : رواية أهل الكوفة : كأن لم تَرَن قبلى، وهذا عندنا خطأ، والصواب : ترى بحذف النون علامة للجزم » . وهذا مبنىّ على أن الفعل مسند لياء المخاطبة على معنى كأن لم ترى أنت، فيكون فيه إلتفات من الغيبة الى الخطاب ولم يحكه أحد من النحاة ؛ بل الذى ذكره صاحب المغنى أن أبا علىّ خرج البيت على أن أصل الفعل ترأى بهمزة بعدها ألف ثم حذفت الألف للجازم ، ثم أبدلت الهمزة ألفا ، وعلل بمـا يطول فانظره فى مبحث « لم » .

٢٠

أَلَا لَا تَلُومانِى كَفَى اللَّومَ مَا بِيَا * فَمَا لَكُمَا فِى اللَّومِ خَيْرٌ ولَا لِيَا

ومنها :

أقولُ وقد شَدُّوا لسَانِى بِنِسْعَةٍ[1] * أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا لِى لِسانِيَا

أَمَعْشَرَ تَيْمٍ قد مَلَكْتُمْ فأَسجِحُوا[2] * فإنّ أسارِى لم يكُنْ مِنْ توانِيَا[3]

وقد عَلِمَتْ عِرْسِى مُلَيكةُ أنّنِى * أنا اللَّيْثُ مَعْدِيًّا عليه وعَادِيَا ٥

ومنها :

كأنِّىَ لم أركَبْ جَوَادًا ولَمْ أَقُلْ * لِخَيْلِىَ كُرِّى[4] قَاتِلِى عن رجَالِيَا

ولم أَسْبَإِ[5] الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أَقُلْ * لأيسَارِ صِدْقٍ أعظِمُوا ضَوْءَ نَارِيَا

قال : فلما ضُرِبت عنقه قالت ٱبنةُ مَصاد : بُؤْ بمَصَاد![6] فقال بنو النعمان :

يا لكاع ! نحن نشتريه بأموالنا ونبؤ بمَصَاد ، فوقع بينهم فى ذلك الشرّ ، ١٠

ثم ٱصطلحوا .

---

(١) ذكر أبو على القالى فى أماليه (ج ٣ ص ١٣٣ طبع دار الكتب المصرية) ما نصه : «وقوله : وقد شدّوا لسانى بنسعة ، قال : هذا مثل ، لأن اللسان لا يشدّ ، بنسعة ، وإنما أراد : افعلوا بى خيرا ينطلق لسانى بشكركم ، فإن لم تفعلوا فلسانى مشدود لا يقدر على مدحكم» .

(٢) أسجحوا : أى سهلوا ويسروا فى أمرى . ١٥

(٣) رواية الأمالى :

* فإن أخاكم لم يكن من بوائيا *

قال : البواء : السواء ، يريد إن أخاكم لم يكن نظيرا لى فأكون بواء له .

(٤) كرى : نفسى .

(٥) السباء : اشتراء الخمر . ٢٠

(٦) بؤ بفلان ، أى اذهب به ، يقال ذلك للقتول بمن قتل .

يومُ طِخْفَة (١)

قال : كانت الرِّفادة، وقيل الردافة، (٢) ردافة الملوك لعتّاب بن هَرْمِيّ بن رِيَاح، ثم كانت لقيس بن عتّاب ، فسأل حاجبُ بن زرارة النعمانَ أن يجعلَها للحارث بن مرط بن سفيان بن مُجاشع ، فسألها النعمانُ بنى يربوع وقال : أعقبوا إخوتكم فى الرفادة، قالوا : إنهم لا حاجة لهم فيها، وإنما سألها حاجبٌ حسدًا لنا وأبَوْا عليه، فقال الحارث بن شهاب وهو عند النعمان : إنّ بنى يربوع لا يسلِّمون ردافتَهم إلى غيرهم . وقال حاجب : إن بعث الملك إليهم جيشا لم يمنعوه ولم يمتنعوا . فبعث النعمانُ إليهم قابوسًا ٱبنَه، وحسّانَ بن المنذر، فكان قابوس على الناس، وحسّان على المقدّمة، وبعث معهم الصنائع والوضائع — فالصنائع : مَنْ كان يأتيه من العرب، والوضائع : المقيمون بالحيرة — فالتقَوْا بطِخْفَة، فٱنهزم قابوس ومَن معه، وضَرب طارقُ بنُ عميرة فرسَ قابوس فعقره ، وأخذه ليجزّ ناصيتَه، فقال قابوس : إنّ الملوك لا تُجَزّ نواصيها، فجهّزه وأرسله إلى أبيه ، وأما حسّان بنُ المنذر فأسره بِشْر ابنُ عمرو الرياحىّ، ثم منّ عليه وأرسله، ففى ذلك يقول مالك بنُ نُوَيْرة :

ونحنُ عَقَرْنَا مُهْرَ قابوسَ بعدَ مَا * رأى القومُ منه الموتَ والخيلُ تَلْحَبُ (٣)

عليه دِلَاصٌ (٤) ذاتُ نَسْجٍ وسَيْفُه * جُرَازٌ من الهندىّ أبيضُ مِقْضَبُ

---

(١) طخفة : موضع فى طريق البصرة إلى مكة .

(٢) الردافة : كانت الردافة بمنزلة الوزارة . وكان الرديف يجلس على يمين الملك إذا جلس، ويردفه وراءه إذا ركب، وإذا نزل جلس عن يمينه فتصرف إليه كأس الملك إذا شرب ، وله ربع غنيمة الملك من كل غزوة يغزو، وله إتاوة على كل من فى طاعة الملك .

(٣) تلحب : تلهث .

(٤) الدلاص من الدروع : اللينة .

يومُ فيف الريح [1]

قال أبو عبيدة : تجمّعت قبائل مَذْحِج وأكثرها بنو الحارث بن كعب، وقبائل من مراد وجُعْفِي وزُبَيْد وخَثْعم، وعليهم أَنَس بن مُدْرِك، وعلى بنى الحارث الحُصَيْن، فأغاروا على بنى عامر بن صعصعة بفَيْف الرِّيح ، وعلى بنى عامر ، عامرُ بنُ مالك مُلاعبُ الأسنّة .

قال : فاقتتل القومُ ، فكسروهم، وارفضت قبائل من بنى عامر، وصبرت بنو نمير، وأقبل عامرُ بنُ الطُّفَيل وخَلْفه دعِىٌّ بنى جعفر فقال : يا معشرَ الفتيان، من ضرب ضربة أو طعن طعنة فليشهدنى [فكانَ [2]] الفارس إذا ضرب ضربة أو طعن طعنةً، قال عند[ذلك] : أباعلى، فبينما هوكذلك إذ أتاه مُسْهِر بن يزيد [3] الحارثى، فقال له من ورائه : عندك يا عامر والريح عند أذنه فوهصه — أى طعنه —، فأصاب عينه، فوثب عامر عن فرسه ونجا على راحلته، وأخذ مسهر رمحَ عامر، ففى ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل من أبيات :

لَعمْرى وما عَمْرى علىَّ بهَيِّنٍ * لقد شانَ حَرَّ الوَجْهِ طَعْنَةُ مُسْهِرِ

وقال مُسْهِر — وقد زعم أنهم أخذوا امرأة عامر — :

وَهَصْتُ بخُرْص [4] الرمح مُقْلَةَ عامرٍ * فأضحَى نحيفًا فى الفَوارِس أَعْوَرَا
وغادَرَ فينَا رُمْحَه وسِلاَحَه * وأَدْبرَ يدْعُو فى الهَوالك جَعفرَا
وكنّا إذا قَيْسِيّةٌ ذهبَتْ بِنَا * جَرى دَمْعُها مِنْ عَينِهَا فتحدَّرَا
مخافَةَ ما لاقَتْ حَليلةُ عامرٍ * من الشرِّ إذ سِرْبالُها قد تعفَّرَا

(١) فيف الريح : موضع بأعلى نجد . (٢) التكملة من العقد الفريد .
(٣) فى أمالى القالى (ج ٣ ص ١٤٧ طبع دار الكتب المصرية) : «مسهر بن زيد» .
(٤) خرص الرمح : سنانه .

قال : وكانت هذه الوقعـةُ وقد بُعث رسـول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وأدرك مُسْهِرُ بنُ يزيد الإسلام فأسلم .

يومُ زَرُود الأوّل

غزا الحَوْفَزانُ حتى آنتهى الى زَرُود[1] خلف جبل من جبالها ، فأغارُوا على نَعَمٍ كثيرٍ لبنى عَبْس فآجتازوها ، وأتى الصريخُ[2] لبنى عبس فركبوا ، ولحق عمارةُ بن زياد العبسىّ الحَوْفَزان فعرفه — وكانت أمُّ عمارة قد أرضعت مُضَرَ بنَ شَرِيك ، وهو أخو الحَوْفَزان — فقال : يا بنى شَرِيك ، قد علمتم ما بيننا و بينكم ، قال الحوفزان — وهو الحارثُ بنُ شَرِيك — : صدقتَ يا عمارة ، فانظر كلّ شىء هو لك فخُذْه ، فقال عمارةُ : لقـد علمتْ نساءُ بنى بكر بن وائل أنّى لن أملأ أيدىَ أزواجهنّ وأبنائهنّ شفقةً عليهنّ من الموت ، فخلّ عمارة ليعارض النَّعَم ليردّه ، وحال الحَوْفَزان بينه و بين النَّعَم ، فعثرت بعمارة فرسُه فطعنه الحَوْفَزان ، وطعنه نعامةُ بنُ عبد الله بن شَرِيك : وأُسِر آبنا عمارة : سِنان وشدّاد ، وكان فى بنى عبس رجلان من طيىء : آبنان لأوس ابن حارثة ، مجاورين لهم ، وكان لهما أخٌ أسيرٌ فى بنى يشكُر ، فلمّا فقـدته بنو شيبان نادوا : يا ثارات معدان ! فعند ذلك قتلوا آبنَىْ عمارة وهرب الطائيّان بأسيرهما .

فلما برئ عمارة من جراحه أتى طيئاً فقال : ادفعوا إلىّ هذا الكلب الذى قُتِلْنا به ، فقال الطائىّ لأوس : ادفع الى بنى عبس صاحبَهم ، فقال لهم : تأمرننى أن أعطىَ بنى عبس قطرةً من دمى ، و إن آبنى أسـير فى بنى يشكُر ؟ فوالله ما أرجو فكاكه

(١) زرود : رمال بطريق الحاج من الكوفة .

(٢) الصريخ : المستغيث .

إلّا بهذا . فلما قفل الحَوْفَزان من غزوه بعث الى بنى يشكُر فى ٱبن أوس ، فبعثوا به اليه، فٱفتدى به معدان، وقال نعامةُ بنُ شريك :

اسْتَنْزَلَتْ رِماحُنا سِنَانَا * وشَيْخنا بِطَخْفَةٍ عنانا

ثم أخوه قد رَأى هَوَانَا * لمّا فقَدْنَا بيننا مَعْدانا

يومُ غَوْل الأوّل

وهو يومُ كِنْهِل

قال أبو عبيدة : أقبل ٱبنا هُجيمة — وهما من غسّان — فى جيش فنزلا فى بنى يربوع، فجاورا طارقَ بنَ عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع، فنزلا معه على ماء يقال له : كِنْهِل، فأغار عليهما أناسٌ من ثعلبة بن يربوع ، فٱستاقوا نَعَمهما وأسروا من كان فى النَّعم، فركب قيسُ بنُ هُجَيْمَة بخيله حتى أدرك بنى ثعلبة ، فكَرَّ عليه عُتَيْبة بن الحارث، فقال له قيس : هل لك ياعُتَيْبة الى البراز؟ قال، ما كنتُ لأسألَه وأدعه ، فبارزه ، قال عُتَيْبة : فما رأيتُ فارسا أملأ لعينى منه ، فطعنَنى فأصاب قربوسَ سَرْجى ، حتى وجدتُ مسّ السِّنان فى باطن فخذى ، ثم أرسل الرمْحَ وهو يرى أن قد أثبتَنى [وٱنصرف](١) فأتبعته الفرس، فلما سمع زَجَلَها(٢) رجع جانحا على قربوس سَرْجه ، و بدا لى فرج الدِّرع فطعنتُه بالرمح ، فقتلتُه وٱنصرفتُ فلحقتُ النَّعَم ، وأقبل الهِرْماسُ بنُ هُجَيْمة فوقف على أخيه قتيلا ، ثم ٱتبعنى فقال : هل لك فى البراز ؟ فقلت : لعلّ الرجعة خيرٌ لك ، قال : أبعدَ قيس ؟ ثم شدّ علىّ وضربنى على البيضة ، فخلص السيف الى رأسى، فضربتُه فقتلتُه، فقال جرير :

وساقَ ٱبنَىْ هُجَيْمَةَ يَوْمَ غَوْلٍ * الى أسْيافنا قَدَرُ الحِمَامِ

---

(١) التكملة من العقد الفريد .

(٢) الزجل : الصوت .

يومُ الحُبابات (١)

قال أبو عبيدة: خرج بنو ثعلبة بن يربوع فمرّوا بناس من طوائف بكر بن وائل بالحُبابات، خرجوا سُفّارا، فنزلوا وسرَّحوا إبلهم ترعى، وفيها نفرٌ منهم يرعونها، منهم: سَوادةُ بنُ يزيد بن بُجَير العِجْلىّ، ورجلٌ من بنى شَيْبان، وكان محوما، فمرّت بنو ثعلبة بن يربوع بالإبل فاطَّرَدوها وأخذوا الرجلين من بنى شيبان، فسألوهما: مَنْ معكما؟ قالا: معنا شيخ من بنى يزيد بن بُجَير العِجْلى فى عصابةٍ من بكر بن وائل خرجوا سُفّارا يريدون البحرين، فقال الربيعُ ودَعْموص ابنا عُتَيْبة بن الحارث بن شهاب: اذهب بهذين الرجلين وهذه الإبل ولم يعلموا مَنْ أخذها، ارجعوا بنا حتى يعلموا من أخذ إبلهم وصاحبيهم لنُعْنيهم بذلك، فقال عَميرة لهما: ما وراءكما إلا شيخ ابن يزيد قد أخذتما أخاه وأطردتما إبله بعد عاد، فأبيا ورجعا إليه وأخبراهم وتسمّيا لهم، فركب شيخ ابنُ يزيد فأتبعهما وقد ولّيا، فلحق دَعْموصا فأسره، ومضى ربيعٌ حتى أتى عَميرةَ فأخبره أن أخاه قد قُتِل، فرجع على فرس له يقال لها الخنساء حتى لحق القومَ، ففتك منهم دَعْموصًا على أن يردّ عليهم أخاهم وإبلهم، فردّها إليهم، فكفر بنو عُتَيبة ولم يشكروا عَميرةَ، فقال عَميرةُ فى ذلك:

ألم تر دَعْموصًا يَصُدُّ بوجهه	إذا ما رآنى مُقْبِلا لم يُسَلِّمِ
ألَمْ تَعْلَما يا ابنَىْ عُتَيْبةَ مَقْدَمى	على ساقطٍ بينَ الأسنّة مُسْلَمِ
فمارضْتُ فيه القومَ حتى انتزعتُهُ	جِهَارًا ولم أَنْظُرْ له بالتَّلَوُّمِ

يوم الشُّعْب

غزا قيسُ بنُ شرقاء التغلبىّ، فأغار على بنى يربوع بالشُّعْب، فاقتتلوا، فانهزمتْ بنو يربوع، فأُسِر سُحَيْمُ بنُ وَثيل الرِّياحىّ، فقال سُحَيم فى ذلك:

(١) الحبابات: موضع بين ديار بكر والبحرين.

أقولُ لهم بالشِّعْب إذْ يأسِرونَني * ألم تعْلَموا أنّى ٱبنُ فارِس زَهْدَمِ

ففدى نفسَه، وأُسِر أيضا مُتَمِّمُ بنُ نُوَيْرة، فوفد مالك بنُ نُوَيْرة على قيس بن شرقاء في فدائه فقال:

هَلْ أنتَ يا قَيْسُ بنُ شرقاء مُنْعِمٌ * أو الجهْـدَ إنْ أعطيتَه أنتَ قابِلُهْ

فلما رأى وسامَتَه قال: بل مُنْعِم، فأطلقه له.

يومُ غَوْل الثاني

فيه قَتَل طَرِيفٌ شَراحِيلَ وعمْرَو بنَ مَرْثَد المُحَلِّمِيَّ.

غزا طَرِيفُ بنُ هشيم في بني العنبر بن تميم، فأغار على بكر بن وائل بغَـوْل، فٱقتتلوا، ثم إنّ بكرا ٱنهزمت، فقتَـل طَرِيفٌ شَراحيلَ أحد بني ربيعة، وقتَـل أيضا عمرو بنَ مَرْثَد، وقتل المُجَشِّر.

يومُ الخَنْدَمة[(1)]

كان رجلٌ من مُشْرِكي قُرَيش يُحِدّ حربةً يومَ فَتح مكة، فقالت له ٱمرأتُه: ما تصنع بهـذه؟ قال: أعددتُها لمحمد وأصحابه! [فقالت له: ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء[(2)]] فقال: والله إني لأرجو أن أُخدِمَك بعضَ نِسَائهـم، وأنشأ يقـول:

إنْ يُقبِلُوا اليومَ فما لِي عِلَّةٌ * هـذا سِلاحٌ كاملٌ وَأَلَّهْ

* وذو غِرارَيْن سَريعُ السَّلَّهْ *

(1) الخندمة: اسم جبل بمكة.

(2) التكملة من العقد الفريد ومعجم ما استعجم للبكري في كلامه على الخندمة.

فلما لقيهم خالد [بن الوليد] (١) يوم الخَنْدَمة انهزم الرجلُ لايلوِى على شيء ، فلامته امرأتُه فى ذلك ، فقال :

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ * إذ فرَّ صَفْوَانٌ وفرَّ عِكْرِمَهْ

ولَقِيَتْنَا بِالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ * يَفْلِقْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وجُمْجُمَهْ

ضَرْبًا فلا تُسْمَعُ إلّا غَمْغَمَهْ * لَمْ تَنْطِقِى فِى اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ

وهذه القصّة نذكرها — إن شاء الله — فى أثناء السيرة النبويّة فى يوم فتح مكة .

يَوْمُ اللُّهَيْمَاء (٢)

قال أبو عبيدة : كان سببُ الحربِ التى كانت بين [عمرو بنِ الحارث بن تميم ابن سعد بن هُذَيل ، و بين عمرو] (٣) بن عدىّ بن الدُّئل بن بكر بن عبد مَنَاة ، أنّ قيسَ بنَ عامر بن غريب أخا بنى عمرو بنِ عدىّ وأخاه سالمـا ، خرجا يريدان بنى عمرو بنِ الحارث ، على فرسَيْن ، يقال لأحدهما : اللُّعاب ، والآخر : عَفْزَر ، فباتا عند رجل من بنى نُفَاثة ، فقال النُّفَاثىّ لقيس واخيه : أطيعانى وارجعا ، لأعرفنّ رماحَكما تُكَسر فى قتاد نَعمان ، قالا : إنَّ رِمَاحَنا لا تُكَسر إلّا فى صدور الرجال ! قال : لا يضرّكما ، وستحمدان أمرى ، فأصبحا غاديين . فلما شارفا مَتْن اللُّهَيْمَاء من نَعمان ، و بنو عمرو بن الحارث فُوَيق ذلك بموضع يقال له أُدَيْمَة ، وأغارا على غنم لجندب بن أبى أعيبس ، وفيها جندب ، فتقدّم إليه قيسٌ ، فرماه جندب على حلمة ثديه و بعجه قيسٌ بالسيف فأصابت ضبّةُ السيف وجهَ جندب ، وحزّ قيس

(١) التكلة من العقد الفريد .

(٢) التكلة من العقد الفريد .

(٣) كذا فى معجم ما استعجم للبكرى على لفظ التصغير ممدودا . وفى الأصول ورد مقصورا .

ونفرت الغنمُ نحوَ الدارَ فتبعها وحملَ سالم على جندب بفرسه عفزر، فضرب جندب خطم الفرس بالسيف فقطعه، وضربه سالم بالسيف فقطع إحدى ثدييه، فخرَّ جندب ووقف عليه سالم، وأدرك العشى سالمًا، فخرج وترك سيفه فى المعركة وثوبه بحقويه، ولم ينج إلا بجفن سيفه ومئزره فقال حذيفةُ بنُ أنس فى ذلك من أبيات :

كَشَفَتْ غِطاءَ الحرب لمَّا رأيتُها • تَمِيلُ عَلَى صَفْوٍ من اللَّيْلِ أعسَرا

أخُو الحَرْب إنْ عضَّت به الحربُ عَضَّها • وإنْ شَمَّرتْ عن سَاقِهَا الحربُ شَمَّرا

وَيَمْشِى إذَا مَا الموتُ كانَ أمامَهُ • كَذَا الشِّبْلُ يَحمِى الأنْفَ أنْ يتأخَّرا

نَجَا سَالِمٌ والنفسُ مِنه بِشِرقَةٍ • ولَمْ يَنْجُ إلا جَفْنَ سَيفٍ وَمئزَرا

وَطابَ عَنِ اللَّعْابِ نَفْسًا وَرِمَّةً • وغَادَرَ قيسًا فى المَكَرِّ وعفزرا

يومُ خَزاز

قال أبو عُبيدة: تنازع عامرٌ ومِسمعٌ ابنا عبد الملك، وخالدُ بنُ جَبَلة، وإبراهيم بنُ محمد بن نوح العطاردى، وغسّان بن عبد الحميد، وعبد الله بن سالم الباهلى، ونفرٌ من وجوه أهل البصرة كانوا يتجالسون يومَ الجمعة ويتفاخرون ويتنازعون فى الرياسة يومُ خَزاز. فقال خالدُ بنُ جَبَلة: كان الأحوصُ ابنُ جعفر الرئيس. وقال عامرٌ ومسمعٌ: كان الرئيس كليب وائل. وقال ابنُ نوح: كان الرئيس زرارة بن عدس، وهذا فى مجلس أبى عمرو بن العلاء، فتحاكموا إليه فقال: ما شهدها عامرُ بن صعصعة، ولا دارمُ بنُ مالك، ولا جشم بن بكر، اليوم أقدم من ذلك، غير أن أهلَ اليمن كان الرجلُ منهم يجئُ ومعه كاتبٌ وطنفسة يقعدُ عليها، فيأخذ من أموالِ نزار ما شاء، كعُمّال صدقاتهم اليوم،

وكان أوّلُ يوم امتنعتْ مَعَدٌّ عن [الملوكِ][1] : ملوكِ حِمْيَر، وكانت نزارُ لم تكثر بعد، فأوقَدُوا نارا على خَزَاز ثلاثَ ليال، ودخَّنوا ثلاثة أيام، فقيل له : وماخَزَاز؟ قال: هو جبلٌ [قريبٌ من أَمَرَة على يسار الطريق][1] خلفه صحراء مَنْعِج[2]، ففى ذلك اليوم امتنعت نزار من أهلِ اليمن، قال عمرُو بنُ كلثوم :

ونحنُ غَـدَاة أوقَـدَ فى خَزَاز * رَفَـدْنا فَـوْقَ رِفْد الرّافِـدينَا

فَكُنّا الأيْمَنِيـن إذا التقَيْنـا * وكانَ الأيسَرِين بنُو أبينَا

فصَالُوا صَـوْلةً فيمنْ يَليهِـمْ * وصُلْنَـا صَـوْلةً فيمَنْ يلينَـا

فـآبُوا بالنِّهَـاب وَ بالسبـايَا * وأُبْنَـا بالملُوكِ مُصَفَّدِينَـا

قال أبو عمرو بن العلاء : ولو كان جدّه كليبُ وائل قائدهم ورئيسهم ما ادّعى الرفادة وترك الرياسة .

يومُ النِّسار

قال أبو عبيدة : تحالفت أسَـدٌ وطيءٌ وغَطَفان ، ولحقت بهم ضَبَّةُ وعَدِىٌّ، فغزوا بنى عامر فقتلوهم قتلًا شديدًا، فغضبت بنوتميم لمقتل بنى عامر، فتجمَّعوا حتى لحقوا طيئًا وغطفان وحلفاءَهم من ضبّة وعَدِىّ يومَ الفِجار، فقتلت تميم [طيِّئًا][1] أشدّ ممـا قُتِلَتْ عامرٌ يوم النِّسار ، فقال بِشرُ بنُ أبى خازم :

غَضِبَتْ تميمٌ أن تقتّـل عَامرٌ * يومَ النِّسَـارِ فأُعْقِبُوا بالصَّيْلَم

يومُ ذات الشُّقُوق

قال : لحلف ضَمْرَةُ بنُ ضَمْرَةَ النهشَلِيُّ وقال : الخمرُ علىَّ حرامٌ حتى يكونَ لنا يومٌ يكافئه، فأغار عليهم يومَ ذاتِ الشقوق فقتلهم وقال فى ذلك :

(١) التكلة من العقد الفريد .   (٢) منعج : على مقربة من حمى ضرية .

الآنَ سَاغَ لِى الشَّرَابُ ولَمْ أكُنْ * آتى الفجَارَ ولَا أشُدُّ تَكلُّمِى
حَتّى صَبَحْتُ عَلَى الشُّقُوقِ بغَارَةٍ * كالتَّمْرِ تُنْثَرُ فى جَرِينِ الجُرَّمِ[1]
وأفَأْتُ يومًا بالجِفَارِ بِمِثْلِه * وأجزتُ نصْفًا مِنْ حَدِيثِ المَوْسِمِ
ومَشَتْ نِسَاءٌ كالنِّسَاءِ عَوَاطِلًا * مِنْ بَيْنِ عَارِفَةِ النِّسَاءِ وأيِّمِ
ذَهَبَ الرِّمَاحُ بِزَوْجِهَا فتركْنَهُ * فى صَدْرِ مُعْتَدِلِ القَنَاةِ مُقَوَّمِ

يوم خَوّ

قال أبو عبيدة : أغارت بنو أَسَد على بنى يربوع فاكتَسَحُوا إبلَهُم ، فأتى الصريخُ الحىَّ فلم يتلاحقُوا إلّا مساءً بموضع يقال له خَوٌّ[2] ، وكان ذُؤاب بنُ ربيعة الأسَدِىّ على فرس أنثى ، وكان عُتَيبةُ بنُ الحارث بن شهاب على حصان يستنشى ريحَ الأنثى فى سواد الليل و يتبعُها ، فلم يعلم عُتَيبة إلّا وقد أقحم فرسه على ذُؤاب ابنِ ربيعة ، وعُتَيبةُ غافلٌ لا يبصر ما بين يديه ، فرآه ذؤاب فطعنه فى نحره فقتله ، ولحق الربيعُ بنُ عُتَيبة فشدّ على ذُؤاب فأسره وهو لا يعلم أنه قاتلُ أبيه ، فلم يزل عنده أسيرا حتى فاداه أبوه ربيعة بإبلٍ قاطعه عليها ، وتواعدا بسوق عُكَاظ فى الأشهر الحُرُم أن يأتىَ هذا بالإبل وهذا بالأسير ، فأقبل أبو ذؤاب بالإبل ، وشُغل الربيع بن عُتَيبة فلم يحضر سوقَ عكاظ ، فظنّ ربيعة أبو ذؤاب أن ذؤابا قُتِلَ بعتيبة ، فقال يرثيه :

أبلغْ قبائلَ جعفرٍ مخصُوصَةً * ما إنْ أُحاولُ جَعْفَرَ بنَ كِلَابِ
إنّ المَوَدَّةَ والهَوَادَةَ بيننَا * خَلَقٌ كسَحْقِ الرَّيْطةِ المُنْجابِ
ولقد علِمْتُ عَلَى التجلّدِ والأسَى * أنّ الرَّزِيّةَ كان يومَ ذُؤابِ

---

(١) الجرين : موضع التمر الذى يجفف فيه . (٢) خو : كثيب معروف بجد بين دبار بنى أسد ودبار بنى يربوع .

إنْ يَقْتُلوكَ فقدْ هتكتَ بُيُوتَهُمْ * بِعُتَيْبَةَ بن الحارث بن شَهابِ

بِأَحَبِّهِم فقْـدًا عَلَى أعدائِه * وأشدِّهِمْ فقدًا على الأَصْحابِ[1]

فلما بلغ إليهم الشعر قتلوا ذؤابَ بنَ ربيعة .

أيامُ الفِجَار[2]

الفِجارُ الأوّل

قال أبو عبيدة : أيامُ الفِجارِ عِدَّةٌ ، فأوّلها بين كنانة وهَوازن . وكان الذى هاجه أنّ بدْر بنَ معشر أحد بنى عقال بن مُلَيك بن ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة جعل له مجلسا بسوق عُكاظ ، وكان منيعا فى نفسه ، فقامَ فى المجلس وقام على رأسه قائم وأنشأ يقول :

نَحْنُ بنو مُدْرِكَة بن خِنْدِف * مَن يَطْعَنُوا فى عَيْنه لا يَطْرِف

ومَنْ يكونوا قومَه يُغَطْرِف[3] * كأنّهم لُجَّةُ بَحْرٍ مُسْدِف[4]

قال : ومدّ رجله وقال : أنا أعزّ العرب ، فمن زعم أنه أعزّ منّى فليَضربها ، فضربها الأُحَيمرُ بنُ مازن أحد بنى دُهْمان بن نصر بن معاوية ، فأندرها[5] من الرُّكْبة

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصول : « إلى » .

(٢) سميت الفجار لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وهى الشهور التى يحرّمونها ففجروا فيها ، وهى فجاران ، الفجار الأوّل ثلاثة أيام ، والفجار الثانى خمسة أيام فى أربع سنين ، وقد حضر النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل ، وانتهت سنة ٥٨٩ م .

(٣) الغطريف والغطارف : السيد الشريف السخيّ الكثير الخير .

(٤) مسدف : مظلم .

(٥) أندرها : قطعها .

وقال : خذها إليك أيها الخندفُ ! قال أبو عبيدة : إنما خرصها خُرَيصية يسيرة وقال فى ذلك :

نَحْنُ بنُو دُهْمَانَ ذُو التَّغطْرُفِ * بحرٌ لبحرٍ زَاخرٍ لم يُستَرَفِ

[* نَبْنى على الأحياء بالمُعتَرَفِ *] (١)

قال أبو عبيدة : فتحاور الحيّان عند ذلك حتى كاد يكون بينهم قتالٌ، ثم تراجعوا ورأَوا أنّ الخطبَ يسيرٌ . ٥

الفِجَارُ الثانى

قال : كان الفجارُ الثانى بين قُرَيش وهَوَازِن ، وكان الذى هاجه أنّ فِتْيةً من قريش قَعَدوا الى امرأةٍ من بنى عامر بن صعصعة وضيئةٍ بسوق عُكَاظ . وقالوا : بل أطاف بها شبابٌ من بنى كنانة وعليها برقع [فأعجبهم ما رأَوا من هيئتها] (١) ، ١٠ فسألوها أن تسفر عن وجهها ، فأبت عليهم ، فأتى أحدُهم من خلفها فشدّ دُبُرَ دِرْعها بشوكة إلى ظهرها وهى لا تدرى ، فلما قامت تقلّص الدِّرعُ عن دُبُرِها ، فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر الى وجهها فقد رأينا دُبُرَها ، فنادت المرأةُ : يا آلَ عامر ! فتحاور الناسُ ، وكان بينهم قتالٌ ودماء يسيرة ، فحملها حربُ بنُ أُميّة وأصلح بينهم .

الفِجَارُ الثالثُ وهو بين كِنانةَ وهَوَازِن ١٥

وكان الذى هاجه أنّ رجلا من بنى كنانة كان عليه دَيْنٌ لرجل من بنى نصر بن معاوية ، فأعدم الكنانىّ ، فوافى النصرىّ بسوق عُكاظ بقرد ، فأوقفه فى سوق عكاظ فقال : مَنْ يبيعنى مثلَ هذا بما لى على فلان حتى أكثر فى ذلك . وإنما فعل ذلك تعييرا للكنانىّ ولقومه ، فمرّ به رجلٌ من بنى كنانة فضرب القردَ بالسيف

(١) التكملة من العقد الفريد .

فقتله، فهتف النضرىُّ : يا آلَ هوازن ! وهتف الكنانىُّ : يا آلَ كنانة ! فهاج الناسُ حتى كاد أن يكونَ بينهم قتالٌ، ثم رأوا الخطبَ يسيرا فتراجعوا .

قال أبو عبيدة : إنما سُميتْ هذه الأيامُ بالفجَار لأنها كانت فى الأشهر الحُرُم، وهى الشهور التى يحرّمونها، وهذه يقال لها أيامُ الفجار الأوّل .

الفجار الآخر وهو بين قريش وكنانة كلها وبين هَوَازِن

وإنما هاجها البَرّاضُ بقتله عُرْوَةَ الرحّال بن عُتْبة بن جعفر بن كلاب، فأبت أن تقتل بعُروة البَرّاض لأن عُرْوَة سيّدُ هوازن، والبرّاضُ خليعٌ من بنى كنانة، وأرادوا أن يقتلوا به سيّدا من قريش .

وهذه الحربُ كانت قبل مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بستّ وعشرين سنة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كنتُ أنبُلُ على أعمامى يومَ الفِجَار وأنا ابنُ أربع عشرة سنة" يعنى أُناولهم النبل .

وكان سببُ هذه الحرب أنّ النعمانَ بنَ المنذر اللخمىّ ملكَ الحيرة كان يبعث الى سوق عكاظ فى كلّ عام لَطيمة[1] فى جوار رجل شريف من أشراف العرب يُجيرها له، حتى تباعَ هنالك ويشترى له بها من أدَم الطائف ما يحتاج إليه. وكانت سوق عكاظ تقوم فى أوّل يوم من ذى القعدة، فيتسوّقون إلى حضور الحجّ، ثم يحجّون، فجهّز النعمان عير اللطيمة ثم قال : مَنْ يُجيرُها ؟ فقال البرّاضُ بنُ قيس الضمرىّ : أنا أُجيرها على بنى كنانة، فقال النعمان : ما أريد إلّا رجلا يُجيرها على أهل نجد وتهامة، فقال عُرْوة الرحّال — وهو يومئذ رجل هوازن — أكلبٌ خليع يجيرها لك ؟ أبيتَ اللعن ! أنا أُجيرها لك على أهل الشِّيح والقَيْصوم من أهل

(١) اللطيمة : العير التى تحمل الطيب و بزّ التجار .

نجد وتهامة ! فقال البرّاض : أعلى بنى كنانة تُجيرها يا عُرْوةُ ؟ قال : وعلى النــاس كلّهم ! فدفعها النعمانُ إلى عُروةَ ، فخرج بها وتَبِعه البرّاضُ ، وعُرْوةُ لا يخشى منه شيئا ، إلى أن نزل بأرض يقال لها أُوَارَة[1]، فشرب من الخمر وغنّته قَينــةٌ، ثم نام، فجاء البرّاض فدخل عليــه ، فناشده عُروة وقال : كانت منّى زلّة، وكانت الغَفْـلة منى ضَلّةً ، فقتله وخرج وهو يرتجز ويقول :

قَدْ كانتِ الغفـلةُ مِنّى ضَـلّهْ ٭ هَلّا على غيْرِى جَعَلْتَ الزَّلّهْ

٭ فسوفَ أعْلو بالحُسَامِ القُلّهْ ٭

وقال :

وَدَاهيــةٍ يُهَـالُ الناسُ منْهَـا ٭ شَدَدْتُ لَهَـا بَنِى بكْرٍ ضُلوعِى

هَتَكْتُ بها بيوتَ بَنِى كِلَابٍ ٭ وأرْضَعتُ المَـوَالِى بالضُّرُوعِ

جَمَعْتُ له يَدَىَّ بِنَصْلِ سَيْفٍ ٭ أفلّ فخـرّ كالجِـذْعِ الصَّرِيعِ

واستاق اللطيمةَ إلى خَيْـبر ، واتّبعه المُسَاوِرُ بنُ مالك الغطفانىّ ، وأَسَـدُ بنُ خَيْثم الغَنَوِىّ حتى دخلا خيبرَ ، فكان البرّاضُ أوّلَ مَن لقيهما ، فقال لهما : مَن الرجلان؟ قالا : من غَطَفانَ وغَنِىّ . قال البرّاض : ما شأنُ غَطَفان وغَنِىّ بهذا البلد؟ قالا : ومَن أنت ؟ قال : من أهل خيبر . قالا : ألك علمٌ بالبرّاض ؟ قال : دخل علينا طَريدا خَليعا فلم يُؤْوِه أحدٌ بخيبر ولا أدخله بيتا . قالا : فأين يكون؟ قال : وهل لكما [به][2] طاقةٌ إن دللتكما عليه ؟ قالا : نعم . قال : فانزلا ، فنزلا وعقـلا راحلتَيْهما . قال : أيّكما أجرأُ عليه وأمضى مقدَما وأحدُّ سـيفا ؟ قال الغَطَفانىّ : أنا . قال : فانطلقْ أدلّك عليه ، فانطلقا حتى انتهيا إلى خَرِبَة فى جانب خيبر خارجةٍ عن البيوت ، فقال البرّاض : هو فى هذه الخربة وإليها يأوِى ، فانظرْنى حتى أنظُر

(١) أوارة (بضم أوّله وبالراء المهملة) : ماء دون الجريب لبنى تميم .

(٢) التكملة من العقد الفريد .

أَثَمَّ هو أم لا ، فوقف له ودخل البرّاض ثم خرج إليه وقال : هو قائمٌ فى البيت الأقصى خلف هذا الجدار ، فهل عند سيفك صَرَامةٌ ؟ قال : نعم . قال : هات سيفك أنظر إليه أصارمٌ هو؟ فأعطاه سيفه ، فهزّه البرّاض ثم ضربه فقتله ، ووضع السيفَ خلف الباب وأقبل إلى الغَنَوىّ فقال : ماوراءك؟ قال : أَجْبَنُ من صاحبك ، تركتُه قائمـا فى البيت الذى فيه الرجل ، والرجل نائمٌ لا يتقدّم إليه ولا يتأخّر عنه ، ٥ قال الغَنَوىّ : يا لهفاه! لو كان لى من ينظر راحلتينا ، قال البرّاض : هما علىّ إن ذَهَبْتا ، فآنطلق الغنوىّ والبرّاض خلفه حتى إذا جاور الغنوىّ باب الخَرِبة أخذ البرّاض السيف من خلف الباب ثم ضربه حتى قتله وأخذ سلاحَيْهما وراحِلَتَيْهما وآنطلق. ١٣٩/١٣

وبلغ قُرَيشا خبرُ البرّاض بسـوق عُكَاظ ، فخلصوا نَجِيًّا ، وآتّبعتهم قيسٌ لمّـا بلغهم أنّ البرّاض قتل عُرْوَةَ الرّحال ، وعلى قيس أبو براء عامر بن مالك ، فأدركوهم ١٠ وقد دخلوا الحـرم ، فنادوهم : يا معشرَ قريش ، إنّا نعاهد الله ألّا نُبطل دَمَ عُرْوة أبدا ، أو نقتُل به عظيما منكم ، وميعادُنا معكم هذه الليلة من العـام القابل ، فقال حرب بن أميّة لأبى سفيان آبنه : قل لهم : إنّ موعدكم قابلٌ فى هذا اليوم ، فقال خِدَاش بن زُهَير فى هذا اليوم ، وهو يوم نخلة ، من أبيات أوّلها :

يا شِـدَّةً ما شَدَدْنا غيرَ كاذِبَةٍ * على سَخِينَةَ لولا الليلُ والحُـرُمُ ١٥

وكانت العرب تسمّى قريشا سَخِينة لأكلها السُّخْن .

يومُ شَمْطَةَ[1] وهو يومُ نَخْلَةَ من الفجّار الآخر

قال : فجمعتْ كِنَانةُ قُرَشيّها وعبدَ مَنَاتها والأحابيشَ ومَنْ لحق بهـم من بنى أَسَـد بن خُزَيمة ، وألبس يومئذ عبدُ الله بنُ جُدْعان مائةَ كَمِىّ[2] السـلاح بأداة

(١) شمطة (بفتح أوّله وإسكان ثانيه بعده ظاء معجمة) : موضع قريب من عكاظ . ٢٠
(٢) الكمىّ : الشجاع .

كاملة، سوى ما ألبس من قومه، والأحابيشُ بنو الحارث بنِ عبدِ مَنَاة بن كنانة. قال: وجمعت سُلَيم وهَوَازن وجموعهما وأحلافهما، غيرَ كلاب وبنى كعب، فإنهما لم يشهدا يوما من أيام الفِجار غيرَ يومِ نَخْلة، فآجتمعوا بشَمْظَةَ من عُكَاظ فى هذه الأيام التى تواعدوا فيها على قَرْن الحَوْل، وعلى كلّ قبيلة من قُرَيش وكنانة سيِّدُها، وكذلك على قبائل قيس، غيرَ أنّ أمرَ كنانة كلّها الى حرب بن أميّة، وعلى إحدى مُجنَّبَتَيْها عبدُ الله بنُ جَدْعان، وعلى الأخرى كُرَيْز بن ربيعة، وحرب بن أميــة فى القلب، وأمرُ هَوَازن كلّها الى مسعود بن معتب الثقفىّ، فزحف بعضهم الى بعض، فكانت الدائرة فى أوّل النهـار لكنانة على هَوَازن، حتى إذا كان من آخر النهار تداعت هَوَازن وصابرت، وآنكشفت كنانة فآستحرّ القتل فيهم، فقُتِل منهم تحت رايتهم مائةُ رجل، ويقال ثمانون، ولم يُقتَــل من قريش أحدٌ يذكر، فكان هذا اليومُ لهوازن على كنانة.

يوم العَبْــلاء

قال: ثم رجع هؤلاء وأولئك فآلتقَوْا على قَــرْن الحَوْل من يوم عُكَاظ، والرؤساء عليهــم الذين ذكرناهم فى يوم شَمْظَة، فكان هــذا اليومُ أيضا لهَوَازِن على كنانة. وفى هــذا اليوم قُتِل العوّام بن خُوَيلد والد الزبير، قتــله مُرّة بن معتب الثقفىّ، وقال رجلٌ من ثقيف:

مِنّا الذى ترك العوّام مُجَنْــدَلا ٭ تنتــابه الطيرُ لحمــا بين أحجار

يومُ شَــرِب [1]

ثم جمع هؤلاء وأولئك فآلتقَوْا على قَرْن الحَوْل فى اليوم الثالث من أيام عُكَاظ، فآلتقوا بشَرِب، وهو أعظمُ أيامهم والرؤساء عليهم وعلى المجنبتَيْن مَنْ ذكرنا، وحَمل

(١) شرب (بفتح أوّله وثانيه بعده باء بواحدة، هكذا ثبتت الرواية عن أبى الحسن الطوسىّ فيه، ورواه ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعىّ بكسر الراء): موضع قرب مكة.

ٱبنُ جدعان يومئذ مائةَ رجل على مائة بعير ممن لم تكن له حمولة ، فٱلتقَوْا ، وقد كان لهوازن على كنانة يومان متواليان : يوم شَمْظَة والعبلاء ، فحمشت قريش وكنانة ، وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر، فٱنهزمت هوازن وقُتلت قتلا ذريعا ، فقال عبدُ الله بن الزِّبَعْرى يمدح بنى المغيرة :

ألا لله قــومٌ ولدتْ أُخْتُ بنى سَهْمِ
هِشَامٌ وأبو عبــد مَنَافٍ مِــدْرَهُ[1] الخَصْمِ
وذو الرُّمحين أشْبَاكَ[2] مِنَ القُــوّة والحَــزْم
فهــذان يَذُودَانِ وذا مِنْ كَثَبٍ يَرْمِى

وأبو عبد مناف : هاشم بن المغيرة . وذو الرُّمحين : أبو ربيعة بن المغيرة ،قاتل يومَ شَرِب برمحين . وأمّهم رَيْطة بنت سعد بن سَهْم ، فقال فى ذلك جِذْل الطعان :

جاءتْ هَوَازِنُ أرسالًا وإخوَتُها بنو سُلَيْم فهابُوا الموتَ وٱنصَرَفُوا
فٱسْتَقْبِلُوا بِضِرَابٍ فَضَّ جَمْعَهُمُ مِثْلِ الحَرِيقِ فما عاجُوا ولا عَطَفُوا

يومُ الحُــرَيْرة[3]

ثم جمع هؤلاء وأولئك وٱلتقَوْا على رأس الحَوْل بالحُرَيْرة ، وهى حَرَّة إلى جَنْب عُكَاظ ، والرؤساء على هؤلاء [وأولئك][4] هم الذين كانوا فى سائر الأيام ، وكذلك على المجنّبتَين إلا أن أبا مُسَاحِق بن قيس اليَعْمَرِىّ قد كان مات ، فكان بعده على بكر بن عَبْد مَنَاة ابن كنانة أخوه جُثَامة بن قيس ، فكان يوم الحُرَيْرة لهوازن على كنانة ، وهو آخرُ الأيام الخمسة التى تزاحفوا فيها ، فقُتِل يومئذ أبو سُفيان بن أميّــة أخو حرب بن

(١) المدره : زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم ، وقد أطلق تجوزا الآن على المحامى .
(٢) يقال : أشباك لفلان ، كما يقال : حسبك لفلان .
(٣) الحريرة : موضع بين الأبواء ومكة قرب نخلة . (٤) التكملة من العقد الفريد .

أميّة ، وقُتِل من بنى كنانة ثمانية نَفَر ، قتلهم عثمان بن أُسَيد بن مالك من بنى عامر ابن صعصعة ، وقُتِل جماعة أخر ، فقال خِدَاش بن زُهَير :

١٤٠
١٣

إِنِّى مِنَ النَّفَرِ المُحْمَرِّ أَعْيُنُهُم * أَهْلِ السَّوَامِ وأَهْلِ الصَّخْرِ واللُّوبِ

الطَّاعِنِينَ نُحُورَ الخَيْلِ مُقْبِلَةً * بِكُلِّ سَمْرَاءَ لم تُغْلَبْ ومَغْلُوبِ

وقد بَلَوْتُمْ وأَبْلَوكُمْ بلاءَهُمُ * يَومَ الحُرَيْرَةِ ضَرْبًا غيرَ تَكْذِيبِ

٥

لاقَيْتُمُ مِنْهُمُ آسَادَ مَلْحَمَةٍ * لَيْسُوا بِزَرَّاعَةٍ عُوجِ العَرَاقِيبِ

فالآنَ إن تَقْبَلُوا نَأْخُذْ نُحُورَكُمُ * وإنْ تُبَاهُوا فإنّى غيرُ مَغْلُوبِ

وقال الحارثُ بنُ كَلَدَةَ الثَّقَفِىّ :

تركتُ الفارسَ البَذَّاخَ مِنْهُم * تَمُجُّ عُرُوقُهُ عَلَقًا عَبِيطَا

دَعَسْتُ لَبَانَهُ بالرُّمحِ حتّى * سَمِعْتُ لِمَتْنِهِ فِيهِ أَطِيطَا

١٠

لقد أَرْدَيْتَ قَوْمَكَ يابنَ صَخْرٍ * وقد جَشَّمْتَهُمْ أمرًا سَلِيطَا

وكم أَسْلَمْتَ مِنكُمْ مِنْ كَمِىٍّ * جَرِيحًا قد سَمِعْتُ له غَطِيطَا

مَضَتْ أيّام الفِجَار الآخِر ، وهى خمسة أيام فى أربع سنين .

قال أبو عبيدة : ثم تَدَاعَى الناسُ إلى السِّلْم على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا .

١٥

يومُ عَيْنِ أُباغ [(١)]

قال أبو عبيدة : كان ملك العرب المُنْذِر الأكبر بن ماء السماء ، ثم مات فملك آبنه عمرو ، ثم هلك فملك بعده أخوه قابوس ، ثم مات فملك أخوه المنذر بن المنذر

(١) أباغ الذى تنسب إليه عين أباغ (بضم الهمزة وغين معجمة وبفتح الهمزة أيضا) : بطرف أرض العراق مما يلى الشام .

٢٠

ابن ماء السماء . وذلك فى مملكة كِسْرى بن هُرْمُز، فغزاه الحارث الغسّانىّ، وكان بالشام من جهة قَيْصر، فالتقوا بعَيْن أُبَاغ ، فقتِل المُنْـذِر، فولَّى كِسْرَى النعمان بن المُنْذر، ثم سُعِىَ الى كِسْرى فى النعمان فقتله ، وقد تقدّم ذكر سبب ولايته ومقتله .

وكان النعمان لمّا تحقق غَضَب كِسْرَى عليه هرب، ثم علم أنه لا مَنْجَى له من يَدِ كسرى فقَدِم إليه فقتَله . واستعمل كسرى على العرب إيَاس بن قَبِيصة الطائىّ . وكان النعمان لمّا شَخَص الى كسرى أَوْدَعَ حَلقته، وهى ثمانمائة دِرْع وسلاحا كثيرا، هانىءَ بن مسعود الشَّيْبانىّ، وجعل عندَه ابنَتَـه هندًا التى تُسَمَّى حُرَقة، فلمّا قُتِل النعمانُ قالت فيه الشعراء، فقال زُهَير بن أبى سُلْمَى من أبيات :

ألم تَـرَ للنعمان كان بِنَجْوَةٍ * من الشرّ لَوْ أنّ آمْرَأً كان ناجِيَـا
فـلم أرَ مَخْذُولًا له مثـلَ مُلْكِهِ * أقَلَّ صـديقًا باذلًا أو مُوَاسِـيَا

يومُ ذى قارٍ

قال أبو عبيدة : يومُ ذى قار هو يومُ الحِنْو، و يوم قُرَاقِر، و يومُ الجُبَابات، و يومُ ذات العُجْرُم، و يومُ بَطْحاء ذى قار، وكلُّها حول ذى قار .

قال أبو عبيدة : لم يكن هانىءُ بنُ مسعود المستودِع حَلقة النعمان، و إنمـا هو آبنُ آبنه ، وآسمه هانىء بن قَبِيصة بن هانىء بن مسعود ، لأنّ وقعة ذى قار كانت وقـد بُعِثَ النبىّ صلى الله عليـه وسلم وخبَّر أصحابه بهـا فقال : "اليومُ أوّلُ يوم انتصفت فيه العرب من العجم، و بى نُصِروا" .

ولمـا قُتِـل النعمانُ كتب كسرى إلى إيَاس بن قَبِيصة يأمره أن يضمّ ما كان للنعمان، فأبى هانىء بن قَبيصة أن يسلِّم ذلك إليه، فغَضِبَ كسرى وأراد آستئصال بكر بن وائل، فقَدِمَ عليـه النعمانُ بنُ زُرْعَة التغلبىّ فقال : يا خَيْرَ الملوك ، ألا أدُلُّك

على غِرَّة بكر بن وائل ، قال نعم ، قال : أَقِرّها وأظهر الإضراب عنها حتى يُخْليها القَيظ ويُدنيها منك ، فأقرّهم ، حتى إذا قاظوا نزلت بكر حِنو ذى قار ، فأرسل إليهم كسرى النعمانَ بن زُرْعة يخيرهم بين ثلاث خِصال : إمّا أن يُسَلّموا الحَلْقة ، وإمّا أن يُعَرُّوا الدِّيار ، وإمّا أن يأذنوا بحَرْب . فتنازعتْ بكر بينها ، فهمّ هانىءُ بنُ قَبيصة بركوب الفَلاة ، وأشار به على بكر وقال : لا طاقةَ لكم بجموع الملك ، فلم تَرَ من هانىء سقطة قبلها .

١٤١ / ١٣

وقال حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجْليّ : لا أرى غيرَ القتال ، فإنّا إن ركبنا الفَلاة لُمتنا عَطَشا ، وإن أعطينا بأيدينا تُقتَل مقاتِلتُنا وتُسبَى ذرارِيّنا ، فراسلت بكر عنها وتوافت بذى قار ، ولم يشهدها أحدٌ من بنى حنيفة ، ورؤساء بكر يومئذ ثلاثةُ نَفَر : هانىء بن قَبيصة الشيبانيّ ، ويزيد بن مُسْهِر الشَّيْبانيّ ، وحنظلة بن ثعلبة العِجْليّ . ١٠

فقال حنظلة بن ثعلبة لهانىء بن قَبيصة : يا أبا أمامة ، إنّ ذمّتكم ذِمّتنا عامّة ، وإنه لن يُوصَل إليك حتى تَفْنَى أرواحنا ، فأخرج هذه الحلقة ففرِّقْها بين قومك ، فإن تظفر فستُرَدّ عليك ، وإن تَهلِك فأهون مفقود ، ففَرّقها فيهم . وقال للنعمان : لولا أنك رسولٌ ما أُبْتَ إلى قومك سالمًا . ١٥

قال : فعقد كسرى للنعمان بن زُرْعة على تغلب والنَّمِر . وعقد لخالد بن يزيد البهرانيّ على قُضاعة وإياد . وعقد لإياس بن قَبيصة على جميع العرب ، ومعه كتيبتاه : الشهباء ودَوْسَر . وعقد للهامَرْز التُّسْتَرِيّ على ألف من الأساورة ، وكتب إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذى الجَدَّيْن — وكان عامله على طَفّ سَفَوان — يأمره أن يوافى إياس بن قَبيصة ، فسار إليه . ٢٠

وسار إياس بمَنْ معه من الجُند وغيرهم، فلما دنَوْا من بكر أقبل قيس بن مسعود الى قومه ليلا، فأمرهم بالصبر ثم رَجَع .

فلما ٱلتقى الزَّحْفان وتقرّب القوم، قام حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجْلِيّ فقال: يا معشر بكر، إنّ نُشّابَ الأعاجم يفرّقكم، فعاجلوهم الى اللِّقاء وابدءوهم بالشدّة ،

٥ وقال هانىء بن مسعود : يا قوم، مَهْلَكٌ مقـدور، خيرٌ من منجىً مغرور . إنّ الجزع لا يَرُدّ القَـدَر، و إنّ الصبرَ من أسباب الظفَر، المنيّـة خيرٌ من الدنيّة ، وٱستقبال المنيّة خيرٌ من ٱستدبارها ، فالجدّ الجدّ، فما من الموت بدّ .

ثم قام حنظلةُ بنُ ثعلبة فقَطَع وُضُنَ[(١)] النساء فسَقَطْنَ الى الأرض وقال : ليقاتل كلّ رجل عن حَليلته ، فسُمّيَ مُقَطِّع الوُضُنَ .

١٠ قال : وقطع يومئذ سبعمائة من بنى شـيبان أيدى أَقْبِيَتهم من مناكبها لتخفّ أيديَهم لضرب السيوف فتجالد القوم ، وقَتَـل يزيد بن حارثة اليَشكُرِيّ الهـامَرْزَ مبارزة، ثم قُتِل يزيد بعد ذلك . فضرب الله وجوه الفُرْس فٱنهزموا ، وٱتبعتهم بكر حتى دخلوا السوَادَ فى طلبهم، وأُسِرَ النعمان بن زُرْعة التغلبيّ . ونجا إياس بن قَبِيصة على فرسه الحمامة ، فكان أوّل من ٱنصرف إلى كسرى بالهزيمة هو . وكان لا يأتيه

١٥ أحدٌ بهزيمـة جيش إلّا نزع كتفيه . فلمّـا أتاه إياس بن قَبِيصة سأله عن الجيش فقال : هَزَمْنا بكرَ بنَ وائل وأتيناك ببناتهم . فأعجب ذلك كسرى وأمر له بكسوة، ثم ٱستأذنه إياس فقـال : أخى قيس بن قَبِيصة مريض بعَيْن التمْـر ، فأردتُ أن آتيه ، فأذنَ له .

ثم أتى كسرى رجلٌ من أهل الحيرة وهو بالخَوَرْنَق فسأل: هل دخل على الملك

٢٠ أحد ؟ فقالوا : إياس، فظنّ أنه قد حدّثه الخبر، فدخل عليه وأخبره بهزيمة القوم

(١) الوضن : حزم الرحال .

وقتلهم، فأمر به فنُزِعَتْ كتفاه . وقد أكثرت الشعراء فى يوم ذى قار . فمن ذلك ما قاله أعشى بكر من قصيدة له :

لَوْ أَنَّ كُلَّ مَعَدٍّ كان شارَكَنا • فى يومِ ذى قارٍ ما أخطاهُمُ الشَّرَفُ
لمَّا أمالُوا الى النُّشَّابِ أيديَهُمْ • مِلْنا بِبِيضٍ لمثلِ الهَامِ تَختطفُ
بَطَارِقٌ وبنو مَلْكٍ مَرَازِبَةٌ • من الأعاجِمِ فى آذانها النُّطُفُ
كأنما الآلُ فى حافاتِ جَمْعِهِمُ • والبِيضُ بَرْقٌ بدا فى عارِضٍ يَكِفُ
ما فى الخُدُودِ صُدُودٌ عن سيوفِهِمُ • ولا عَنِ الطَّعنِ فى اللَّبَّاتِ مُنْحَرفُ

وقال الأعشى يلوم قيسا من أبيات :

١٤٢ / ١٣

أقيسَ بنَ مسعودِ بنِ قيسِ بنِ خالدٍ • وأنتَ أمرؤٌ ترجو شَبابَكَ وائلُ
رَحَلْتَ ولم تَنظُرْ وأنتَ عَمِيدُهُمْ • فلا يَبْلُغَنِّى عنكَ ما أنتَ فاعِلُ
فعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جَمَعْتَهُ • كما عُرِّيَتْ مِمَّا تُمِرُّ المغازِلُ
شَفَى النفسَ قَتلَى لم تُوَسَّدْ خُدُودُها • وِسادًا ولم تَعْضَض عليها الأنامِلُ
لعلَّكَ يومَ الحِنْوِ إذ صَبَّحَتْهُمُ • كَتائبُ لم تَغضبْكَ بِهِنَّ العوادِلُ[1]

قال : ولما بلغ كسرى خبر قيس بن مسعود بما فعل مع قومه حبسه حتى مات فى حبسه، ففيه قال الأعشى :

• وعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جَمَعْتَهُ •

صورة ما ورد بآخر الجزء الثالث عشر فى أحد الأصلين الفتوغرافيين المرموز له بنسخة (١)

[انتهت أيام العرب على وجه الاختصار وحذف التكرار من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » لمؤلفه أحمد بن عبد الوهاب القُرَشىّ المعروف بالنُّوَيْرِىّ

(١) رواية العقد الفريد : • كتائب موت لم تعطلك العواذل •

رحمة الله تعالى عليه وغُفرانه على يد كاتبه فقير رحمة ربه الشامل نور الدين بن شرف الدين العالمى ، فى اليوم السابع والعشرين من شهر رجب الفرد من شهور سنة سبع وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا دائمًا أبدًا الى يوم الدين،ويليه الجزء الرابع عشر من نسخة الأصل وأوله : (القسم الخامس من الفنّ الخامس فى أخبار الملّة الإسلامية)] .

صورة ما ورد بآخر الجزء الثالث عشر أيضا فى الأصل الثانى الفتوغرافى المرموز له بنسخة (ب)

[انتهت أيام العرب على وجه الاختصار، وحذف التكرار، بعون الله تعالى وتوفيقه ويُمْنه ، وبتمامها كمل الجزء الثالث عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء الرابع عشر من الكتاب ، وهو الجزء الرابع من التاريخ : القسم الخامس من الفنّ الخامس فى أخبار الملّة الإسلامية . وحسبنا الله ونعم الوكيل] .

« وكتب بالهامش ما نصه : بلغ مؤلفه مقابلة بأصله والحمد لله » .

* * *

أنجزت — بعون الله وحسن توفيقه — تصحيح وتحقيق الجزء الخامس عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » من تجزئة طبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأحد ١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٦٨ هـ (٩ أكتوبر سنة ١٩٤٩ م) .

ويليه الجزء السادس عشر وأوله : « القسم الخامس من الفنّ الخامس فى أخبار الملّة الإسلامية » .

محمد عبد الجواد الأصمعىّ
المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ت ٩٠٠٦١٨
القاهرة

تراثنا



في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء السادس عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

• شارع وقف الخربوطلي بالظاهر – ٩٠١١٨

القاهرة

كان الاعتماد فى تحقيق هذا الجزء على
مخطوطة « كبريلى » بالآستانة . وصورتها
محفوظة بدار الكتب برقم ٥٤٩ معارف عامة.
وقد رمز إليها بالحرف « ا »

فهرس

السِّفر السادس عشر

من

كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرىّ

القسم الخامس من الفن الخامس فى أخبار الملة الإسلامية

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ذكر الحوادث بعد الهجرة ، من السنة الأولى إلى العاشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما

القسم الخامس من الفن الخامس

فى أخبار الملّة الإسلاميّة

لمّا انتهى الغَرَض فى التاريخ إلى الغاية التى ذكرتُها ، والقَصَص فى الأخبار التى أوردتُها ، والدول والوقائع التى انتخبتُها ، مما طالعتُه وحررتُها ؛ عَمَدتُ إلى ذكر الملّة الإسلامية التى فضّلها الله تعالى على سائر المِلَل ، ورفع أهلَها بالعمَل الصالح ووفّقهم لصالح العمَل ، ووَعدهم برحمته ؛ فهم من وَعْده فى أَمن ، وحذّرهم عقابه ؛ فهم من وعيده على وَجَل ، و بعث فيهم رسولا من أنفُسِهم وأنفَسِهم فبلّغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونَصَح الأمّة وعَدَل ، وجعله شافعا لذنوبهم فى يومٍ أحجم فيه مَن سواه عن الشفاعة و بنفسه اشتغل ، وجعلهم به خيرَ أمّة أُخرِجت للناس يأمرون بالمعروف و يَنهَوْن عن المنكر ، و يؤمنون بالله ؛ إذ جَحَد غيرهم ونَكَل ؛ فهم الشهداء على الناس لأنبيائهم ، وناهيك بها رُتبةً تقدّم بها أواخرُ القوم على الأُوَل . وقلتُ : بالله التوفيق ، ومنه الإعانة وعليه المُتكَل .

الباب الأوّل

من القسم الخامس من الفن الخامس

فى سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهى السيرة التى ظهرتْ آياتُها ، واشتهرتْ مُعجزاتُها ، وأشرقتْ أنوارُها ، وانتشرتْ أخبارُها ، وعمّت فضائلُها ، وطابتْ بُكَرُها وأصائلُها ، وحسُنتْ أوصافُها ، وكثُر إنصافُها ، وجاءت فى ظُلْمة الضّلالة تتّقد ، وما أنكرَ العدوّ فضائلَها بل شَهِد ؛ ٥

وفضائلٍ شهِد العدوّ بفضلها * والفضلُ ما شَهِدت به الأعداءُ

تالله لقد عجِز الواصفون عن وصفها ، واعترف المادحون بالتقصير عن بلوغ اليسير من مَدَى مدحها :

وإذا أردتُ لك الثناءَ فما الّذى * — والله قد أثنى عليكَ — أقولُ ١٠

ولنبدأ بذكر نَسَبه الطاهر صلى الله عليه وسلم ، وإن كنا قدّمناه مُستوفًى فى باب الأنساب[1]، فلا غُنْية عن سَرْده ههنا .

هو أبو القاسم محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله ، بن عبد المطّلب — واسم عبد المطّلب : شَيْبة الحمد — بن هاشم — واسم هاشم عمرو — بن عبد مَنَاف —[واسمه][2] المُغيرة — بن قُصَى — واسمه زَيْد — بن كِلاب ، بن مُرّة ، بن كعب ، ١٥ ابن لُؤَىّ ، بن غالب ، بن فِهْر . وإلى فِهْر جُمّاع قُرَيش ، ومَن كان فوق فِهْر فليس

---

(١) ٢ : ٣٧٦ وما بعدها .

(٢) تكملة عن المؤلف نفسه فيما يأتى له بعد

هو بقُرَشيّ . وفهر هو آبن مالك، بن النَّضْر، بن كنانة، بن خُزَيمة، بن مُـدرِكة — وآسم مُدرِكة عامر[1] — بن اليأس ، بن مُضَر، بن نِزار، بن مَعَدّ، بن عدنان .

رُوِى عن آبن عباس ، رضى الله عنهما ، أنّ رسـول الله صلى الله عليه وسـلم كان إذا آنتسب لم يُجـاوِز فى نَسَبه مَعَـدّ بن عَدنان بن أُدَد، ثم يمسك و يقول: "كَذَبَ النسّابون"[2] . قال الله عز وجـل : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾[3] . قال آبن عباس : لو شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه لعلمه .

وعن هشام بن محمـد[4] قال : سمعتُ مَن يقول: "كان مَعَدّ على عهد عيسى بن مَريَم عليه السلام" .

وقـد تقدّم فى باب الأنساب ، وهو الباب الرابع من القسم الأوّل من الفنّ الثانى من كتابنا هذا ، فى السفر الثـانى من هذه النسخة[5] ، ما آختاره الشريف أبو البركات[6] محمـد بن أسعد بن على بن مَعْمَـر الحُسَينىّ الجَـوّانىّ[7] النسابة

---

(١) سيذكر المؤلف فى ص ١٢ عن ابن السائب : أن مدركة يسمى «عمرا» أيضا ، وفى نسب قريش (الورقة ٣ ب) : «فولد الياس بن مضر مدركة ، واسمه عامر ، وطابخة ، واسمه عمرو ، وقمعة ، واسمه عمير» .

(٢) رواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٢ : ١٦٩ . ويقول السهيلى فى الروض الأنف ١ : ٨ : « والأصح فى هذا الحديث أنه من قول ابن مسعود » . وانظر الجامع الصغير ٣ : ١٩٠ .

(٣) الفرقان ٣٨ .

(٤) هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى النسابة الكوفىّ المتوفى سنة ٢٠٤ ، على خلاف . انظر وفيات الأعيان ٢ : ٢٥٨ .

(٥) ٢ : ٣٧٦

(٦) كناه المؤلف هنا وفى باب الأنساب — فيما سلف له — أبا البركات ؛ وهى كنية أبيه أسعد .

(٧) هو أبو على محمـد بن أبى البركات أسـعد بن على الحسـينى الجوّانى (٥٢٥ — ٥٨٨) ينتسب إلى « الجوانيـة » بفتح الجيم وتشديد الواو ؛ وهى قرية قرب المدينة . انظر تاج العروس (جون) ، معجم البلدان (٣ : ١٥٦) .

فى «مقدّمته» بعد معدّ : بنّ عدنان،بن أدّ[١]، بن أدَد[٢]، بن اليَسع، بن الهَمَيْسَع، بن سَلامانَ، بن نَبْت، ابن حَمَل، بن قَيْذارَ، بن إسماعيل الذبيح، بن إبراهيم الخليل، صلى الله عليهم وسلم، ابن تارَح، وهو آزَر، بن ناحُور، بن سارُوغَ[٣]، بن أَرْغُو، ابن فالَغ، بن عابَر، وهو هود النبىّ عليه السلام — وهو جُمَّاع قَيس و يَمَن ونِزار وخِنْدِف — بن شالَخ، بن أرْفَخْشَذَ، بن سام، بن نوح [النبىّ[٤]] عليه السلام، بن لَمَك، بن مَتُّوشَلَخ، بن أَخنُوخَ، وهو إدريس النبىّ عليه السلام، بن يارِد، ابن مَهلائيل بن قَيْنانَ، بن أنُوش[٥]، بن هبة الله شِيث، بن أبى البَشَر آدم عليه السلام.

هذا ما أورده الشريف الجَوّانى قال : وعليه أكثر أئمة الأنساب .

وسنزيد إن شاء الله تعالى، فى أخبار آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم، زيادةً حسنة يحتاج إلى إيرادها من عدنان فمَن بعده، تقف[٦] عليها قريبا، إن شاء الله تعالى، بعد ذِكرنا لأمهاته صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سماها مرتضى الزبيدى « المقدمة الفاضلية » لأن الجوانىّ ألفها باسم القاضى الفاضل، وجعلها مقدمة لكتابه الجوهر المكنون، فى القبائل والبطون . وقد جاء النص الذى نقله النويرى عنها فى (الورقة ٩ ب، ١٤ أ) من مخطوطة دار الكتب رقم ١٩ م تاريخ .

(٢) علماء النسب فى « أد » و « أدد » فريقان : الأول أنهما شخصان ابن ووالد، وهو الذى حكاه المؤلف هنا عن الجوانىّ (الورقة ١٤ أ) وقالت به طائفة ؛ والفريق الثانى أن مسماهما شخص واحد، يقال فيه «أد» مرة، و « أدد » مرة أخرى .

(٣) ورد هذا العلم فى مقدمة الجوانى بالغين المعجمة (الورقة ٩ ب، ٥٣ ب) وبالعين المهملة فى (الورقة ١٤ أ) .

(٤) إضافة عن مقدمة الجوانى (ورقة ١٤ أ) .

(٥) تختلف كتب النسب فى رواية هذه الأعلام اختلافا كبيرا . وقد اعتمدت فيها رواية الجوانى كما وردت فى نسخة (١٩ م تاريخ) لأن العلماء بالنسب تداولوها وصححوها .

(٦) فى الأصل : « تقف عليه » .

ذكر أمهات رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال أبو عبد الله محمد بن سعد رحمه الله تعالى فى طبقاته[(١)] الكبرى :

" أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ عن أبيه قال :

أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، آمنة بنت وَهْب ، بن عبد مَناف، ابن زُهْرة ، بن كِلاب بن مُرّة . وأمّها برّة ، بنت عبد العُزّى ، بن عثمان ، بن عبد الدّار، بن قُصَىّ، بن كِلاب . وأمّها أمّ حبيب ، بنت أَسَد، بن عبد العزّى، ابن قُصَىّ بن كلاب . وأمّها برّة بنت عَوْف، بن عَبِيد ، بن عَوِيج، بن عدِىّ، ابن كعب، بن لُؤَىّ . وأمّها قِلابة بنت الحارث، بن مالك، بن حُبَاشة، بن غَنْم ، بن لِحيان، بن عادية ، بن صَعْصَعة ، بن كَعْب، بن هِند، بن طابخة، بن لِحيان، بن هُذَيل، بن مُدْرِكة ، بن الياس ، بن مُضَر . وأمّها أُمَيمة بنت مالك، ابن غَنْم بن لِحيان، بن عادِيَة، بن صَعْصَعة . وأمّها دُبّ[(٢)] بنت ثَعلبَة، بن الحارث ، ابن تميم ، بن سعد، بن هُذَيل، بن مُدْرِكة . وأمّها عاتكة بنت غاضرة ، بن حُطَيط ، بن جُشَم ، بن ثَقِيف ، بن مُنَبّه[(٣)] ، بن بكر، بن هَوازِن، بن منصور، بن عِكْرِمة، بن خَصَفَة، بن قيس ، بن عَيْلان — واسمه النّاس — بن مُضَر . وأمّها لَيلى بنت عَوْف ، بن ثَقِيف[(٤)] . وأمّ وَهب بن عبد مَناف بن زُهْرة بن كِلاب قَيْلة . ويقال : هند بنت أبى قَيْلة " .

وقال ابن الكلبيّ : " كتبت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خمسمائة أم، فما وجدتُ فيهنّ سِفاحا ، ولا شيئا ممّا كان من أمر الجاهلية " .

(١) ١ : ٣٠ — ٣١ (قسم أول) .

(٢) فى نسب قريش (الورقة ٨ أ) ، والروض الأنف ١ : ٧٨ : « وأم أمية دبة » .

(٣) فى طبقات ابن سعد ١ : ٣٠ (قسم أول) : « ثقيف ، وهو قسى بن منبه » .

(٤) فى طبقات ابن سعد ١ : ٣٠ (قسم أول) : «عوف بن قسى ، وهو ثقيف» .

وعن محمد بن عليّ بن الحسين[1] أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنما خرجتُ من نِكاح ولم أخرج من سِفاح من لَدُنْ آدم، لم يُصبني من سِفاح أهل الجاهلية شيء ؛ لم أخرُج إلّا من طُهْرة[2]" . والله الفعّال .

ذكر نُبذة من أخبار آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم

فمَنْ بعده إلى أبيه عبد الله بن عبد المطّلب

قد تقدّم ذكر آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم في باب الأنساب ، وذكرنا كلّ أب من آبائه وأولاده ومَن أعقَب منهم ، وجعلنا العُمْدة على سَرْد عمود النسبَ الشريف على ما تقف عليه هناك في السفر الثاني من كتابنا هذا[3] من هذه النسخة ، وسردنا النسَب أيضا آنفا . وقد رأينا أن نذكر في هذا الموضع نُبذةً أخرى زيادة على ذلك نذكر فيها الأسماءَ، والكُنَى، والأمّهات، وبعض الوقائع والأخبار، مما لم يتقدّم ذكره، فنقول وبالله التوفيق :

أمّا عَدْنان فإليه انقطع علمُ أهل الأنساب حقيقة؛ لِمَا رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا انتهى في النَّسب إلى مَعَدّ بن عَدْنان أمسَك ، ثم قال : "كَذَبَ النسّابون". قال الله جلّ ثناؤه : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ . وقد رُوِي أنه قال : "عدنان بن أُدَد" . والله أعلم .

(١) هو أبو جعفر الباقر محمد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب . مدنى تابعى ، فى مولده ووفاته خلاف . انظر تهذيب التهذيب ٩ : ٣٥٠ .

(٢) هذه رواية ابن سعد ١ : ٣٠ ، وهى تنفرد « بزيادة إنما » فى أوّل الحديث ، وزيادة « لم أخرج إلا من طهرة » فى آخره . وقد رواه الطبرانى فى معجمه الأوسط، وابن عساكر ، وابن عدى فى الكامل ، وابن كثير فى البداية والنهاية ٢ : ٢٥٦ باختلاف فى الرواية ، وقال عقبه : « هذا غريب من هذا الوجه ولا يكاد يصح» .

(٣) ٢ : ٣٥٨ — ٣٧٧

وأمّا معدّ بن عدنان ، فكنيتُه أبو قُضاعة ، كُنِّيَ بولده قُضاعة وهو بِكْره .[(1)]
ومَعَدّ (بتحريك العين وتشديد الدال) ، وفى طَيِّء مَعْد (بتسكين العين) بنُ مالك ابن قَيِنة[(2)] ، وفى خَثْعم أيضا مَعْد (بتسكين العين) بن الحارث ، بن تَيْم ، بن كَعب ، بن مالك ، بن قُحافة . وأمّ معدّ بن عدنان : مَهْدَد ، بنت اللَّهِم بن جَلْحَب الجُرهُمية[(3)] ، وقيل فيها مهاد بنت لَهِم[(4)] . وقيل اللّهم بنت جَلْحَب ، وفى رواية خُلَيد ، بن طَسْم[(4)] ، بن يَلْمع ، ابن عابر ، بن اسليخيا ، بن لاوِذ[(5)] ، بن سام ، بن نوح . حكاه الزُّبير بن بكّار .

٣/١٤

وذكر عبدُ الملك بن حَبيب أنّ ولد مَعدّ بن عَدنان سبعةَ عشرَ رجلا ، دَرَج منهم بلا عَقِب تسعة ، وأعقب ثمانية .

وقال أبو الربيع بن سالم[(6)] : ذكر الزُّبير بن أبى بكر[(7)] ، أن بُخْتَنَصّر لمّا أُمِر بغزو بلاد العرب[(8)] ، و إدخال الجنود عليهم وقتلهم لقتلهم[(9)] أنبياءَ الله تعالى ، وردّهم رسالاتهم ،

(١) فى الأصل : « وكنيته » ، والمكان للفاء .

(٢) فى الأصل : « قنة » ، وانظر شرح الحماسة للتبريزى ٣ : ١٤٣ ، تاج العروس (قنّ) .

(٣) فى « مقدمة » الجوانى (الورقة ٤٨ ب) : « بنت اللهم الجديسية » . ومر للمؤلف (٢ : ٣٤١) أنها : « بنت اللهم الجرهمية » . وانظر تاريخ الطبرى ٢ : ١٩١ ، وابن الأثير ٢ : ١٢ .

(٤) فى نسب قريش لمصعب الزبيرى (الورقة ٢ ب) : « فولد عدنان بن أدد معدّا ، والحارث وهو عك ، وأمهما مهاد بنت لهم بن جليد بن طسم » ، وفى طبقات ابن سعد ١ : ٣٦ (قسم أول) : « مهدد بنت اللهم ابن جلحب بن جديس بن جاثر بن إرم » .

(٥) فى الأصل : « لود » . وانظر تاج العروس « لوذ » .

(٦) سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى الأندلسى (٥٦٥ — ٦٣٤) . من مؤلفاته كتاب الاكتفا ، بما تضمنه من مغازى المصطفى ، وعنه نقل المؤلف ، وقد ورد هذا النقل فى (الورقة ٢ أ) من مخطوطة دار الكتب المصرية .

(٧) هو الزبير بن بكار بن عبد الله : أبو عبد الله بن أبى بكر النسابة القاضى المدنى (١٧٢ — ٢٥٦) انظر تهذيب التهذيب ٣ : ٣١٢ .

(٨) فى الأصل : « بلاد المغرب » ، والمثبت رواية الاكتفا ، والخبر عن البشر ٣ : ١٧ (قسم أول)

(٩) فى الأصل : « وقتلهم ، لقتل » . والمثبت عن الاكتفا . وفى الخبر عن البشر ٣ : ١٧ (قسم أول) : « وقتل مقاتلهم » .

أمر إرميا بن حلقيا — وكان فيما ذكر نبيّ بنى إسرائيل فى ذلك الزمان — أن آئت مَعَدّ بن عَدنان الذى من ولده خاتم النبيين، وآحمله معك إلى الشام، وتولَّ أمره .

وقال السُّهيلىّ : «وأوحى الله تعالى إلى إرْمِيَا أن آحمل مَعَدّ بن عَدْنان على البُراق إلى أرض العراق(١)، فإنى مُستخرجٌ من صُلبه نبيًّا آسمه محمد ؛ فحمل معه مَعَدّ وهو آبن آثنتى عشرة سنة، وكان مع بنى إسرائيل إلى أن كبر وتزوّج آمرأة آسمها مُعَانة» .

قال أبو الرَّبيع بن سالم: «ويقال المحمول عَدنان، والأوّل أكثر . قال: وفى حديث آبن عبّاس رضى الله عنهما : إن الله تعالى بعث مَلَكين فاحتملا معدًّا، فلما رفع الله تعالى بأسَه عن العرب، ردّاه إلى موضعه من تِهامَة؛ فكان بمكة ونواحيها مع أخواله من جُرْهُم» .

وقال الزُّبير: «حدّثنى علىّ بن المغيرة قال: لمّا بلغ بنو مَعَدّ عشرين رجلا، أغاروا على عَسكر موسى عليه السلام ، فدعا عليهم ثلاثَ مرّات فقال : يا رب ، دعوتُك على قوم فلم تُجبنى فيهم بشىء . قال : يا موسى، دعوتَ على قوم فيهم خِيرتى(٢) فى آخر الزمان» .

وفى هذه الرواية ما فيها من المنافاة لما تقدّم من أنه كان مع إرْمِيَا، ومن قال إنه كان على عهد عيسى عليه السلام(٣) . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع .

وأمّا نِزَار بن مَعَدّ، فكنيته(٤) أبو إياد، وقيل أبو ربيعة . ونزار (بكسر النون). قال السهيلىّ : «من النَّزْر(٥) وهو القليل. وكان أبوه حين وُلد له، ونظر إلى النور بين

(١) سقط من السهيلى ١ : ٩ : «إلى أرض العراق» وقد تصرف المؤلف فى النص .

(٢) فى الخبر عن البشر ٣ : ١٧ (قسم أوّل) : «م خيرتى» .

(٣) تقدم ذلك فى ص ٣ .

(٤) فى الأصل : «وكنيته» .

(٥) الروض الأنف ١ : ٨ .

عينيه، وهو نور النُّبُوّة الذى كان ينتقل فى الأصلاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فرح به فرحا شديدا ، ونحر وأطعم وقال : إنّ هـذا كلّه نَزْر لحقّ هذا المولود، فسمّى نزارا لذلك» . وأمّ نزار: مُعَانة بنت جَوْشَم[1] بن جُلْهُمة، بن عمرو[2]، بن هُلَيْنِيه بن دوّة[3]، بن جُرهُم . قال السهيلى : «ويقال آسمها ناعمة» .

٥ وأما مُضَر بن نزار فأمه [و][4] أم إياد: سَوْدة بنت عَكّ، بن الذِّيب[5]، بن عدنان . وقال محمد بن الحسين فى كتاب «التحفة»[6] : إنّ أم مُضَر اسمها سَوْدة بنت عكّ ، قال : وقيل حُبَيّـة بنت عكّ وقاله الزبير بن بكّار . وروى أن أم مضر خاصّةً سَودة بنت عكّ، وربيعةُ وأنمارُ وإيادُ أمهم شقيقة بنت عكّ؛ وإلى مضر تنتسب مضر الحمراء لسكناها قِباب الأَدَم، ومضر السّوداء سُميت بذلك لسكناها المظالّ .

١٠ وقال الزبير عن غير واحد من أهل العلم بالنّسب : إنهم قالوا : لما حَضَرت نزارًا الوفاة، آثر إيادًا بولاية الكعبة ، وأعطى مُضَر ناقة[7] حمراء فسُمّى مضر الحمراء،

---

(١) هكذا ورد هذا العلم فى تاريخ ابن الأثير . وفى البداية والنهاية ٢ : ١٩٤ ، والروض الأنف ١ : ٩ : « جوشن » . وفى الخبر عن البشر ٣ : ١٧ قسم أول : « عنة ابنة جوشن » . وفى المقدمة الفاضلية (الورقة ٤١ ب) « معانة بنت جرهم الجرهمية » . (٢) فى الأغانى ٧ : ٧٧ ، نسب قريش

١٥ (الورقة ٢ ب) والخبر عن البشر ٣ : ٧ (قسم أول) : « بن عامر بن عوف بن عدى بن دب » .

(٣) رواية الأصل وابن سعد فى الطبقات ١ : ٣٠ (قسم أول) ، والخبر عن البشر ٣ : ١٧ (قسم أول) : « ... بن جلهمة بن دوة بن هلية بن جرهم » ، والتصويب عن نسب معد لابن الكلبى ١ : ٣ وانظر تاج العروس ٩ : ٣٦٧ . وفى السهيلى ١ : ٩ ، ونسب قريش ، والبداية والنهاية : « دب بن جرهم » .

(٤) فى الأصل : « وأمه » . (٥) الذيب ، بالذال المعجمة وبعدها ياء والباء الموحدة

٢٠ رواية الزبير بن بكار والجوانى ، ويقال فيه : « الديث » بالدال المهملة والثاء المثلثة . وانظر تاج العروس (علك) ، والإكمال لابن ماكولا ١ : ٢٨٧ ب ، والروض الأنف ١ : ١٣ .

(٦) حكاه أيضا الكلاعى فى الاكتفاء (الورقة ٤ أ) . (٧) هـذه رواية الجوانى فى مقدمته (الورقة ٤٢ أ) ، وجاء فى (الورقة ٤٢ ب) منها أيضا : « وأعطى مضر قبة حمراء » .

وأعطى ربيعة فرسَه، فسُمّوا ربيعة الفَرَس، وأعطى أنمارا جارية له تسمى بَجِيلة فحضنت بَنِيه[1]، فسُمّى بَجِيلة أنمار .

وقد تقدم ذكر خبر أولاد نزار فى الأمثال عند قولهم : « إن العصا من العُصيّة »[2]، و«إن خُشَينا من أخشن»[3]، وقصتهم مع الأفعى الجُرْهُمى[4]، وهو فى الباب الأول من القسم الثانى من الفن الثانى فى السفر الثالث من هذه النسخة من كتابنا هذا[5] .

قال ابن الأثير الجَزَرى[6] : «ومُضَر أوّل من حَدا، وكان سببُ ذلك أنه سقط عن بعيره، فانكسرت يدُه فجعل يقول : يا يدَاه! يا يدَاه! فأتته الإبل من المرعَى، فلما صلح وركب حَدا ، وكان من أحسن الناس صوتا . وقيل بل انكسرت يد مولى له فصاح، فاجتمعت الإبل، فوضع مُضَر الحُداء وزاد الناس فيه » .

قال السُّهيلى : وفى الحديث : "لا تَسُبُّوا ربيعة ولا مُضَر فإنهما كانا مؤمنين"[7] وروى عبد الملك بن حَبيب بسنده إلى سعيد بن المسَيّب أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : "لا تَسُبُّوا مضَر فإنه كان مسلما على ملة إبراهيم"[8] . وعن عبد الملك بن حَبيب والزبير وجماعة : أن رَبيعة ومُضَر الصَّريحُ من ولد إسماعيل ابن إبراهيم، عليهما السلام . قال : وحدثنى أبو مُعاوية، عن ابن جُرَيج، عن عَطاء،

---

(١) فى الأصل : « نبته » تصحيف ، والتصحيح عن مقدمة الجوانى (الورقة ٢٢ ب) .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ١٣ . (٣) مجمع الأمثال ١ : ١١ ، ومعجم البلدان ٣ : ٤٤٣ .

(٤) هو الأفعى بن حصين بن غنم، أحد حكام العرب . انظر المحبر لابن حبيب ص ١٣٢ ومجمع الأمثال ١ : ١٠ . (٥) ٣ : ٧ . (٦) فى الكامل ٢ : ١١ . (٧) الروض ١ : ٨ ، وفى الاكتفاء (الورقة ٢ ب) : « كانا مسلمين » . والحديث رواه الديلمى فى مسند الفردوس . انظر كنوز الحقائق للناوى ص ١٨٢ . (٨) رواه ابن سعد فى الطبقات بلفظ : « لا تسبوا مضر فانه كان قد أسلم » انظر الجامع الصغير ٢ : ٤٤٦ .

عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: «مات أدد والد عدنان، وعدنان، ومعد بن عدنان، وربيعة، ومضر، وقيس عيلان، وتميم، وضبة، وأسد، وخزيمة، على الإسلام على ملة أبيهم إبراهيم، فلا تذكروهم إلا بما يذكر به المسلمون»[1]. والله الموفق.

٤/١٤

٥ وأما الياس بن مضر، فكنيته[2] أبو عمرو. وقال صاحب الأشتمال[3]: قال الزبير: ولد مضر بن نزار الياس بن مضر، فلما أدرك الياس أنكر على بنى إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم وسيرهم، وبان فضله فيهم، ولان جانبه لهم، حتى جمعهم رأيه ورضوا به، فردهم إلى سنن آبائهم، حتى رجعت سنتهم تامة على أولها.

وهو أول من أهدى البدن إلى البيت، وهو أول من وضع [حجر[4]] الركن للناس بعد

١٠ غرق البيت وانهدامه زمن نوح. فكان الياس أول من ظفر به، فوضعه فى زاوية البيت.

وبعض الناس يقولون: إنما كان ذهب بعد إبراهيم وإسماعيل. قال: وفى هذا كله نظر. قال: وقال الزبير: ولم تزل العرب تعظم الياس بن مضر تعظيم أهل الحكمة، كتعظيمها لقمان وأشباهه. قال ابن دحية[5]: وهو وصى أبيه، وكان ذا جمال بارع ودين، تعظمه العرب قاطبة، وهو أول من مات بالسل. قال السهيلى[6]: «وإنما

١٥ سمى السل داء ياس[7] وداء الياس لأن الياس بن مضر مات به[8]».

(١) نص هذا الحديث فى الإنباه لابن عبد البر ص ٧٨: «مات تميم بن مر، وأسد بن خزيمة، وضبة بن أد، على الإسلام؛ فلا تذكروهم إلا بما يذكر به المسلمون». (٢) فى الأصل: «وكنيته». (٣) لعل صحة الكلمة «صاحب الاكتفاء»، وقد ورد هذا النص فى الاكتفاء (الورقة ٤ أ). (٤) التكلة من كلام المؤلف الآتى. (٥) أبو الخطاب عمر بن الحسن

٢٠ ابن على المعروف بذى النسبين الأندلسى (٥١٤ — ٦٣٣). وفيات الأعيان ١: ٤٨١.

(٦) الروض الأنف ١: ٧. (٧) فى الأصل: «دراء الياس». تصحيف.

(٨) فى الروض الأنف ١: ٧: «مات منه».

ولما مات أسفت امرأته خندف عليه أسفًا شديدا . وكانت نذرت، إن هلك ، [أ] لا تقيم فى بلد مات فيه ، ولا يظلها بيت ، وتسيح فى الأرض ، وحرمت الرجالَ والطيب بعده . فلما هلك خرجت سائحة حتى هلكت . وكانت وفاته يوم الخميس ، فنذرت أن تبكيه كلما طلعت شمس يوم الخميس حتى تغيب الشمس . قال السهيلى[1] : «ويُذكَر عن النبى صلى الله عليه وسلم [أنه] قال : «لا تسبوا الياس فإنه كان مؤمنا» . وذكر أنه كان يسمع فى صلبه تلبيةَ النبى، صلى الله عليه وسلم، بالحج[2] » . والله أعلم .

وأما مُدْرِكَةُ بن الياس فقال[3] ابن السائب : واسمه عَمرو . وقال ابن إسحاق والزبير : عامر[4] ، وكنيته أبو الهُذَيل ، وقيل أبو خُزَيمة . وأمه خِنْدِف ، واسمها ليلى بنت حُلوان بن عِمْران بن الحافِ بن قُضَاعة . واسم أمها ضَرِيَّة بنت ربيعة بن نزار ، وبها سمى «حِمى ضَرِيَّة[5] » .

وأما خُزَيمة بن مُدْرِكَةَ فكنيته[6] أبو أسد ، وأمه سَلْمَى بنت أسلُم بن الحافِ ابن قُضاعة . وقيل سَلْمَى بنت أَسَد بن ربيعة ، وخُزَيْمَةُ هذا هو الذى نصب هُبَل على الكعبة ، فكان يقال هُبَل خُزَيمة[7] ، هكذا ذكره ابن الأثير . وروى عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن خزيمة مات على ملة إبراهيم عليه السلام .

(١) تكملة من الروض الأنف ١ : ٢ (٢) الروض الأنف ١ : ٨ (٣) فى الأصل : « قال » . (٤) فى الخبر عن البشر ٣ ٢٧ (قسم الأول) : « وقال الزبير : فولد الياس ابن مضر مدركة واسمه عامر ، ويقال عمرو » . (٥) قرية بين البصرة ومكة ، وهى إلى مكة أقرب ، وانظر خلافهم فى تحديد هذا الحمى ، وفى سبب نسبته الى ضرية ، فى معجم البلدان ٥ : ٤٣٣ ، تاج العروس (ضرى) . (٦) فى الأصل : « وكنيته » . (٧) فى الكامل ٢ : ١١

أما كِنَانَةُ بنُ خُزَيْمَة، فكنيتُه[1] أبو النَّضْر، وأمّه عَوانةُ بنت سَعد بن قيس [بن عيلان][2]، ويقال: بل هند بنت عمرو بن قيس بن عَيْلان. قال أبو الحسن سلّام ابن عبد الله بن سلام الإشبيليّ: وقال أبو عمرو العدوانى لابنه فى وصيته: يا بنى أدركتُ كِنَانَة بن خُزَيمة — وكان شيخا مُسِنًّا عظيمَ القدر، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله — فقال: إنه قد آن خُروج نبيّ بمكة يُدعى أحمد، يدعو إلى الله، وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتّبعوه تزدادوا شرفا إلى شرفكم، وعِزًّا إلى عِزّكم، ولا تتعدوا ما جاء به، فهو الحق». والله الموفق.

وأما النَّضْر بن كِنَانة، فكنيته[1] أبو يَخْلُد، كُنِّيَ بابنه يَخْلُد[3]. واسم النَّضْر قيس. قال أبو ذَرّ الخُشَنيّ: النَّضْر: الذَّهَب الأحمر[4]. وهو النُّضار؛ سُمِّي النَّضْر بذلك لوَضاءته وإشراق وجهه. وأُمّه بَرَّة بنت مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مُضَر أختُ تَميم بن مُرّ. والذى عليه أكثرُ أهل السِّيَر والمؤرّخين أن كِنانة خَلَف على بَرّة بعد أبيه خُزيمة، على ما كانت الجاهلية تفعله؛ إذا مات الرجل خَلَف على زوجته بعده أكبرُ بنيه من غيرها[5]. ويردّ هذا ما رُوى عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ما ولدنى من سِفاح أهل الجاهلية شيء؛ ما ولدنى إلا نكاح كنكاح أهل الإسلام"[6]، وقول ابن الكلبيّ: "كتبتُ لرسول الله، صلى الله عليه وسلم خمسمائة أمّ، فلم أجد فيها شيئا مما كان من أمر الجاهلية". وقد تقدّم ذكر ذلك آنفا.

---

(١) فى الأصل «وكنيته». (٢) عن الخبر عن البشر ٢: ٣٣ (قسم أول).
(٣) فى الأصل «بأبيه». تصحيف. (٤) انظر شرح السيرة للخشنى ١: ٣
(٥) وكان الذى يخلف أباه على زوجته يسمى الضيزن (لسان العرب — ضزن). وفى المحبر لابن حبيب ص ٣٢٥ تفصيل لأسماء الذين فعلوا ذلك. (٦) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ٢: ٢٥٦، بعد رواية هذا الحديث عن ابن عباس: «وهذا أيضا حديث غريب، أورده الحافظ ابن عساكر، ثم أسنده من حديث أبى هريرة. وفى إسناده ضعف، والله أعلم».

وقد اعتذر القائلون هذا القولَ عنه بأعذار، وأقاموا أدلةً على أنه ليس بسفاح ولا من أمر الجاهلية . وفى أعذارهم وأدلتهم بعض تكلُّف . وقد حصل الظفر — ولله الحمد والمنّة — بما يُزيل هذا الإشكال، ويرفع هذا الاحتمال، ويخلِّص من مهاوى هذه الشُّبَه ؛ وهو الصحيح ، إن شاء الله تعالى ، وسنذكره بعد ذكر أعذارهم وأدلَّتهم .

أما ما استدلوا به على تقدير أن يكون كنانة خلَف على برّة بنت مُرّ بن اد بعد أبيه ، فقال السُّهيلىّ[1] ، رحمه الله ، فى قوله تعالى : ﴿ولا تَنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكم من النِّساء إلّا ما قد سلَفَ﴾[2]؛ أى إلا ما قد سَلف من تحليل ذلك قبل الإسلام، قال : وفائدة الاستثناء ألا يُعابَ نَسَبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليُعلَمَ أنه لم يكن فى أجداده بغِيّة ولا سِفاح؛ ألا ترى أنه لم يَقُل فى شىء نهى عنه فى القرآن (إلا ما قد سَلَفَ) نحو : ﴿ولا تقرَبُوا الزِّنا﴾[3] ؛ ولم يقل (إلا ما قد سَلَفَ) ﴿ولا تَقتُلُوا النَّفس التى حَرّم اللهُ إلا بالحقّ﴾[4] ولم يقل (إلا ما قد سَلَفَ)، ولا فى شىء من المعاصى التى نَهى عنها إلا فى هذه [الآية][5]، وفى الجمع بين الأختين؛ لأن الجمعَ بينهما قد كان مُباحا فى شَرع مَن قَبلَنا؛ وقد جمع يعقوبُ عليه السلام، بين راحيل وأختها ليا[6] ؛ فقوله : (إلا ما قد سَلَفَ) التفاتٌ إلى هذا المعنَى وتنبيه على هذا المغزَى . ونقَل السُّهيلىّ هذه النكتة عن القاضى أبى بكر بن العربىّ .

واعتذارُ مَن اعتذَر عن هذه الواقعة على هذا المنوال .

(١) نقل هذا الاستدلال عن السهيلى، الدميرى فى حياة الحيوان ٢ : ٢١٥ ، والزرقانى فى شرح المواهب ١ : ٩٣ . (٢) النساء ٢٢ . (٣) الإسراء ١٧ (٤) الأنعام ٦

(٥) التكملة عن الدميرى ٢ : ٢١٥ (٦) فى شرح المواهب اللدنية ١ : ٩٣ : « يقال راجيل بالجيم وبالحاء » ، وفى جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٤٦٩ : « لياء » بالمد .

وأما ما ارتفع به هذا الإشكال، فهو ما نقله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — رحمه الله — فى كتاب له سماه «كتاب الأصنام» قال فيه : «وخلف كنانة بن خزيمة على زوجة أبيه بعد وفاته ، وهى برة بنت أد بن طابخة بن الياس بن مضر، وهى أم أسد بن الهون ؛ ولم تلد لكنانة ولدا ذكرا ولا أنثى ، ولكن كانت ابنة أخيها، وهى برة بنت مر بن أد بن طابخة أخت تميم بن مر (١) عند كنانة بن خزيمة، فولدت له النضر بن كنانة» . قال : «وإنما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كنانة خلف على زوجة أبيه لاتفاق اسمهما وتقارب (٢) نسبهما» . قال : «وهذا الذى عليه مشايخنا وأهل العلم بالنسب» . قال : «ومعاذ الله أن يكون أصاب [نسب] (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم مقت نكاح؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما زلت أخرج من نكاح كنكاح الإسلام، حتى خرجت من أمى وأبى"» . قال : «ومن اعتقد غير هذا فقد كفر وشك فى هذا الخبر . قال : والحمد لله الذى طهره من كل وصم وطهر به» .

وأما مالك بن النضر، فكنيته (٤) أبو الحارث، وأمه عاتكة بنت عدوان، وهو الحارث بن عمرو بن قيس عيلان، ولقبها عكرشة، وقيل عوانة بنت سعد القيسية، وقيل غير ذلك . ومالك هو أبو قريش كلها .

وأما فهر بن مالك — وهو قريش، وفهر لقب غلب عليه — فكنيته (٤) أبو غالب، وهو جماع قريش فى قول هشام بن الكلبى . وأم فهر جندلة بنت عامر بن الحارث ابن مضاض الجرهمى (٥)؛ ومن جاوز فهرا فليس هو من قريش .

(١) فى حياة الحيوان ٢ : ٢١٥ : «تحت كنانة» . (٢) فى الأصل : «ولاتفاق اسمها» ، تصحيف . (٣) التكملة من حياة الحيوان، ٢ : ٢١٥ وشرح المواهب ١ : ٩٣ .
(٤) فى الأصل : «وكنيته» . (٥) هذه رواية ابن السائب والبلاذرى . وفى رواية الزبير بن بكار : «جندلة بنت الحارث بن جندل بن عامر» ، وروى الزبير أيضا : «جندلة بنت الحارث بن عمرو أو عامر» . انظر الخبر عن البشر ٣ : ٣٩٦٣٨ (قسم أول) .

وقد اختلف فى تسمية قُريش قُرَيشا، ومَن أوّلُ من تَسمى به، فقال محمد بن كَعْب[1] : إنما سُميت قُريش قُرَيشا لتجمّعها بعـد تفرُّقها، وقال محمد بن سلام : لما جمع قُصَىّ قبائلَ النَّضر، وحارَب بهم خُزاعة، وغلَب على الحَرَم، سُمُّوا قُرَيشا لاجتماعهم. وقيل : إنما سُمُّوا قُرَيشا لأنهم يتقرّشون البضاعات فيشترونها. وقيل: جاء النَّضر بن كِنانة فى ثَوب له فقالوا : قد تقرّش فى ثوبه كأنه جَمَل قَرِيش، أى شديد مُجتمع. وقيل : أوّلُ من سَماهم بهذا الاسم قُصَىّ بن كِلاب. قاله المبرّد. وقال الشَّعبىّ: النَّضر بن كِنانة هو قُرَيش، وإنما سُمى قُرَيشا لأنه كان يقرِّش عن خَلَّة الناس وحاجتهم فيسُدّ ذلك بماله، والتقريش: هو التفتيش، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم فيُزَوِّدونهم[2] بما يُبَلِّغهم، فسموا بذلك مِن فعلِهم.

وقال الزبير بن بكّار قال عمى: قُرَيش بن بَدْر بن يَخْلُد بن النَّضر كان دليلَ بَنى كِنانة فى تجارتهم، فكان يقال «قدمت عِير قريش»، وأبوه بَدْر بن يَخْلُد صاحب بَدر [الموضع][3] الذى كانت به الوَقعة المشهورة، وذكر عن عمه أن فِهرا هو قُرَيش، قال: وقد اجتمع[4] النُّسّاب من قُرَيش وغيرهم أن قُرَيشا إنما تفرّقت عن فِهر. والذى عليه من أدركتُ من نسّاب قريش أن وَلَد فهر بن مالك قُرَيش، ومن جاوز فِهرا فليس من قُرَيش.

(١) محمد بن كعب بن سليم القرظى، تابعى مقرئ. فى تحديد وفاته خلاف. انظر طبقات القراء ٢ : ٢٣٣.

(٢) فى الروض الأنف ١ : ٧٠، والبداية والنهاية ٢ : ٢٠٠، والخبر عن البشر ٣ : ٣٨ (قسم أول) : «فيرفدونهم».

(٣) التكلة عن نسب قريش (الورقة ٤ ب)، والروض الأنف ١ : ٧٠

(٤) فى البداية والنهاية ٢ : ٢٠٠، والروض الأنف ١ : ٧٠ : «وقد أجمع»، وفى الخبر عن البشر ٣ : ٣٨ (قسم أول)، «وقد أجمع نساب قريش».

وروى عن هشام بن السائب : أن النَّضر بن كِنانة هو قُريش . وقيل عنه في موضع آخر : وَلَد مالكُ بن النَّضر فِهْرا وهو جُمَّاع قُريش . وقال أبو عُبيدة مَعْمَر ابن المثنَّى : أوّلُ من وقع عليه آسم قُريش النَّضر بن كِنانة ، فولدُه قُريش دون سائر بَنى كنانة . وقال أبو عُمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : قُريش مأخوذ من القَرْش ، وهو وَقْع الأسِنّة بعضِها على بعض[1] ؛ لأن قُرَيشا أحذقُ الناس بالطِّعان .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما أنه سأل[2] عمرو بن العاص : لم سميت قُريش قُريشا ؟ قال : بالقِرْش ، دابّة فى البحر تأكل الدوابّ لشدّتها . وقال : المطرِّزىّ[3] : هى ملِكة الدواب ، وسيّدة الدواب وأشدّها ، فكذلك قُرَيش سادات الناس .

وكان فِهر رئيسَ الناس بمكّة . والله أعلم .

وأما غالب بن فِهر ، فكُنيته[4] أبو تَيْم ، وأمه لَيلَى بنت الحارث ، بن تميم[5] ، بن سَعْد ، بن هُذَيل ، بن مُدْرِكة ؛ ولغالب هذا من الولد : لُؤىّ ، وتَيم الأدرم ؛ وكان تَيم كاهنا ، وإنما قيل له تَيم الأَدْرَم لأن أحد لِحْيَيه كان أنقص من الآخر ، وفى قريش تَيْمان : تَيم بن مُرّة ، وتَيْم الأَدْرَم[6] . قال آبن قُتيبة : «بنو الأَدْرَم من أعراب قُريش ليس بمكّة منهم أحد»[7] . والله أعلم .

---

(١) انظر لسان العرب « قرش » . (٢) فى البداية والنهاية ٢ : ٢٠٢ : أن معاوية قال لابن عباس الخ . والذين رووا هذا الخبر اتفقوا على أنه عن ابن عباس ؛ فالمسؤول ابن عباس ، وهو المألوف . فلعل صحة الكلام : «رضى الله عنهما إنه سأله» وانظر شرح المواهب للزرقانى ١ : ٧٦ ، خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٩٨ — ٩٩ . (٣) فى الأصل : « وقال الطرز» ، والتصحيح عن حياة الحيوان ٢ : ٢١٠ . (٤) فى الأصل : « وكنيته » .

(٥) فى الكامل لابن الأثير ٢ : ٤٠ : «الحارث بن تيم» . (٦) المعارف ص ٣٢ .

(٧) فى الروض الأنف ١ : ٧١ : « قال الزبير : وبنو الأدرم هؤلاء هم أعراب مكّة ، وهم من قريش الظواهر لا من قريش البطاح » ، وانظر المحبر لابن حبيب ص ١٦٨ .

وأما لُؤَىّ بن غالب، فكنيتُه[1] أبو كعب، وأمه عاتكة بنت يَخْلُد، بن النَّضْر بن كِنانة، وهى إحدَى[2] العواتك اللّاتى وَلدن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم؛ وقيل: بل أمه سَلْمَى بنت عمرو بن ربيعة (وهو لُحَىّ[3] بن حارثة) الخُزاعية.

وأما كعب بن لُؤَىّ، فكنيته أبو هُصَيْص،[1] وأمه ماوِيَة[4] بنت كَعب بن القَيْن ابن جَسْر القُضاعية. قيل: إنما سُمى كَعب كعبا لارتفاعه على قومه، وشرفه فيهم. وكان عظيمَ القدر عند العرب؛ فلهذا أرّخوا بموته إلى عام الفيل، ثم أرّخوا بالفيل؛ رَوَى أبو نُعَيم فى "الدّلائل" عن الطَّبَرانى بسنده إلى عبد العزيز بن أبى ثابت قال: «أرّخت كِنانةُ من موت كعب بن لُؤَىّ، وأرّخت قُرَيش بعدَ موته من عام الفيل، وبين موت كعب والفيل خمسمائة سنة وعشرون سنة[5]».

«وكَعب هذا أوّلُ من سَمى يومَ الجُمعة الجُمعة، وكانت العرب تسمّى يوم الجمعة العَرُوبَة» ؛ قاله السهيلى[6]. ومعنى العَروبة الرحمة فيما بلغنى عن أهل العلم، وإنما سماه الجمعة لاجتماع قُرَيش فيه وخطبته [فيهم[7]].

وأوّل من قال «أما بعد» كَعب؛ فكان يقول: «أما بعد، فاسمَعوا وافهموا». ثم قال: «حَرَمكم عظِّموه وتمسّكوا به، وسيأتى لكم نبأ[8] عظيم، وسيخرج له نبىّ كريم».

---

(١) فى الأصل: «وكنيته». (٢) فى ابن الأثير ٢ : ١٠، والطبرى ٢ : ١٨٦ : «وهى أوّل العواتك». (٣) فى الأصل وابن الأثير ٢ : ١٠ : «وهو يحيى بن حارثة» تصحيف: وانظر الروض الأنف ١ : ٦١ — ٦٢ (٤) كأنها نسبت إلى الماء لصفائها. الروض الأنف ١ : ٦١. (٥) فى الوافى بالوفيات ١ : ١٠ : «والفيل مئة سنة» ؟

(٦) الروض الأنف ١ : ٦. (٧) تكملة عن الاكتفاء (الورقة ٥ أ)، وفى الخبر عن البشر ٣ : ٤٤ (قسم أوّل) : «لاجتماع قريش فيه إلى كعب بن لؤى وخطبته».

(٨) فى الخبر عن البشر ٣٠ : ٤٥ (قسم أوّل) : «فسيأتى له نبأ عظيم، وسيخرج به نبى».

قال السُّهيلىّ : « وكان يخطبهم ويُذَكِّرهم[1] بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُعْلِمهم أنه من ولده، ويأمرهم بآتباعه والإيمان به »، وينشد ويقول :

ياليتنى شاهدٌ فحواء دعوته * إذا قريش تبغى الحقّ خذلانا[2] »

وأما مُرَّةُ بن كَعْب، فكنيته[3] أبو يَقَظَة، وأمه مَخْشِية، وقيل وَحْشِية بنت شيبان، بن مُحارب، بن فِهر. وفى مُرّة يجتمع نَسَب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونَسَبُ أبى بكر الصِّديق، وطلحة بن عُبيد الله رضى الله عنهما.

وأما كِلَابُ بنُ مُرّة، فكنيته[3] أبو زُهْرَة، وآسمُه حَكيم. وكلاب لقَب غلبَ عليه، وسبب ذلك أنه كان مُحبًّا للصيد مولَعا به، وكان أكثرُ صيده بالكلاب، وجمع منها شيئا كثيرا، فكان إذا مرّ بقوم بكلابه قالوا : هذه كلاب آبن مرة، فغلبَ ذلك عليه؛ وفيه يقول الشاعر :

حكيمُ بنُ مُرَّةَ سادَ الورَى * ببذل النَّوالِ وكَفِّ الأذَى

وأُمّ كلاب هند بنت سُرَير[4]، بن ثَعلبة، بن الحارث، بن فِهر، بن مالك، بن كِنانة. ويقال : إن كلابا هذا أوّلُ من جعل فى الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرةً للكعبة.

---

(١) فى الأصل : « ويذكر بمبعث ». والمثبت عن الروض الأنف ١ : ٦

(٢) فى الاكتفاء (الورقة ٥ أ)، والخبر عن البشر ٣ : ٤٦ (قسم أوّل) :

* حين العشيرة تبغى الحق خذلانا *

وفحواء الكلام، وفحواه : معناه. وانظر شرح الزرقانى على المواهب ١ : ٧٥.

(٣) فى الأصل « وكنيته ».

(٤) فى المقدمة الفاضلية (الورقة ١٨ أ) : « هند بنت سر الفهرية »، وورد اسمها فى الخبر عن البشر ٣ : ٤٧ (قسم أوّل) : « نعم بنت السرير »، وفى المعارف لابن قتيبة ص ٥٧ : « نعيم ابنة سرير ».

وأما قُصَىّ بن كلاب فاسمه زيد[١]، وكنيته أبو المغيرة، وقُصَىّ لقبه، ويلقب أيضا مُجَمِّعا. قال السُّهيلىّ، فى قُصَىّ: «تصغير قَصِىّ: أى بعيد». وقال الرُّشاطىّ: «وإنما قيل له قُصَىّ لأن أباه كلاب بن مُرّة كان قد تزوّج فاطمة بنت سَعْد بن سَيَل، واسم سَيَل، خَيْر[٢] بن حَمالة، بن عَوف[٣]، بن عثمان، بن عامر (وهو الجادر)[٤] [٥] بن جعثمة[٦]، وهو يَشْكُر[٧]، وهم من الأزد فولدت له زُهْرة وزَيْدا، ثم هلك كلاب وزَيد صغير فَطِيم»، وقال السُّهيلى[٨]: إنه كان رضيعا، «فتزوّج فاطمة أم قُصَىّ ربيعة بن حَرام، بن ضِنّة، بن عبد، ابن كَبير[٩]، بن عُذرة، بن سَعْد، بن زيد، بن قضاعة، فاحتملها ربيعة ومعها زيد، فربِى زيد فى حجر ربيعة، فسُمِّى قُصَيّا لبُعده عن دار قومه».

وقال الخطّابى: «سُمى قُصَيا لأنه قصَّى قومَه، أى تقصّاهم بالشام فنقلهم إلى مكة». قال الرُّشاطى: «ثم إن[١٠] زيدا وقع بينه وبين ربيعة شر، فقيل له: ألا تلحق بقومك؟ وعُيِّر بالغُربة، وكان لا يعرف لنفسه أبًا غير ربيعة، فرجع قُصَىّ إلى أمه، وشكا لها ما قيل له، فقالت له: يا بُنَىّ،

(١) فى الأصل: «واسمه». (٢) فى الإكمال لابن ماكولا ٢: ٦٩ ب: «خير بن جمال»، وفى ابن الأثير ٢: ٧: «جبر بن جمالة». (٣) هكذا ورد فى الإكمال لابن ماكولا ٢: ٦٩ ب: «عوف بن عثمان»، وفى الاشتقاق لابن دريد ص ٢٥، ونسب قريش (ق ٥ أ)، والطبرى ٢: ١٨١، والخبر عن البشر ٣: ٤٨ (قسم أوّل): «عوف بن غنم».
(٤) فى الأصل: «عامر بن الجادر»، وهى إحدى روايتى الإكمال، والمثبت رواية الروض الأنف (١: ٨٤)، وتوافق رواية الإكمال الثانية. (٥) سمى الجادر لأنه أوّل من جدر الكعبة. (٦) تكرر وورود هذا العلم فى الخبر عن البشر ٣: ٤٨، ٥٠ (قسم أوّل) هكذا: «خثعمة» بالخاء المعجمة بعدها ثاء مثلثة. (٧) فى سيرة ابن هشام ١: ١٠٩، والطبرى ٢: ١٨١، والإكمال والخبر عن البشر ٣: ٤٨، ٥٠ (قسم أوّل): «جعثمة ابن يشكر».
(٨) فى الروض الأنف ١: ٨٤. (٩) فى الأصل: «حرام بن ضبة بن عبد كثير»، وفى ابن الأثير ٢: ٧: «ضبة بن عبد بن كثير» تصحيف، وانظر الإكمال ١: ١٣٣ ب، والطبرى ٢: ١٨١، والإنباه لابن عبد البر ص ٨١. (١٠) فى الأصل: «قال الرشاطى وإنه».

أنت أكرم منه نفسًا وأبًا، أنت ابنُ كلاب بن مُرّة، وقومُك بمكة عند البيتِ الحرام.
فأجمع قُصَيّ[1] على الخروج ، فقالت له أمه : أَقِم حتى يدخُل الشّهر الحرام، فتخرج
فى حاجّ العرب ، فلما دخَل الشهر الحرام خرج مع حاجّ قُضَاعة حتى قَـدِم مكة ،
فحجّ وأقام بمكة »

٥ وكان الذى يلى أمر البيت يومئذ حُلَيل ، بن حُبْشِيّة، بن سَلول، بن كعب،
ابن عمرو الخُزَاعى . فخطب إلى حُلَيْل بن حُبْشِية ابنتَـه حُبّى . فعرَف حُلَيل نَسَبه
فزوّجه، وأقام قُصىّ معه، فولدت له حُبّى أولادَه، وهم: عبد مَناف، وعبد العُزّى،
وعبد الدار، وعبد، و بَرّة، وتَخْمُر (وهى بالتاء المثناة من فوق وخاء معجمة ساكنة
وميم مضمومة وراء) .

١٠ فلما انتشر ولده، وكثُر ماله ، وعظُم شَرَفـه هلك حُلَيْل، وأوصى بولاية البيت
لابنته حُبّى. فقالت : إنى لا أَقدر على فتح الباب وإغلاقه، فجعلت[2] ذلك إلى سُلَيم
ابن عمرو، بن بُوَىّ، بن مِلْكان، وهو أبو غُبْشَان، ويقال له المحترش، فاشترى قُصَىّ
منه ولايةَ البيت بزِقّ خمر وقَعود[3]، فضربت به العرب المثل، فقالوا : «أخسر من
صَفْقة أبى غُبْشان[4]» . فنازعته خُزاعة البيت فانتزعه منهم . والله الناصر .

٧/١٤

---

١٥ (١) فى الأصل : « فاجتمع » ، والمثبت عن الطبرى ٢ : ١٨٢ .

(٢) فى ابن الأثير ٢ : ٨ : « فجعل ذلك » .

(٣) القعود : البكر من الإبل حين يمكن ظهره من الركوب ، وأدنى ذلك أن يأتى عليه سنتان .

(٤) أورد الميدانى (١ : ١٤٦) المثل بصيغة : « أحمق من أبى غبشان » ، وحكى رواية النويرى
أيضا ، وانظر تاج العروس (غبش) .

ذكر خبر انتزاع قُصَىّ البيت ومكّة من خُزاعة
ومن ولِى البيت بعد إسماعيل عليه السلام إلى أن انتزعه قُصَىّ بن كلاب

قال محمد بن إسحاق بن يَسَار(١): «لمّا توفّى الله تعالى إسماعيلَ بن إبراهيم عليهما السلام، ووَلِى البيتَ بعده ابنُه نابت بن إسماعيل ما شاء الله أن يليَه، ثم ولى البيتَ بعده مُضَاض ابن عَمْرو الجُرْهُمى، وبنو نابت مع جدّهم مُضاض بن عمرو وأخوالهم من جُرْهُم، وجُرْهُم وقَطُوراء يومئذ أهل مكّة، وهما ابنا عمّ، وكانا ظَعَنا من اليمن، فأقبلا سيّارة(٢)، وعلى جُرهم مُضاض بن عمرو، وعلى قَطُوراء السَّمَيْدَع(٣)، رجل منهم. فلما نزلا مكة رأيا بلدا ذا ماء وشجر، فأعجبهما فنزلا به؛ فنزل مُضاض بمن معه من جُرْهم أعلى مكة بقُعَيقِعانَ(٤) فما حاز، ونزل السَّمَيْدَع بقَطُوراء أسفلَ مكة بأَجْيَاد(٥) فما حاز، وكان كلّ منهما يعشِّر(٦) من دخل مكة ممّا يليه، وكلٌّ منهما فى قومه لا يدخل على صاحبه» .

«ثم إن جرهما وقَطُوراء بَغَى بعضُهم على بعض، وتنافسوا الملك بها، ومع مُضاض بنو إسماعيل وبنو نابت، وإليه ولاية البيت دون السَّمَيْدَع، فسار بعضهم إلى بعض؛ فخرج مُضاض بن عمرو من قُعَيقعان فى كتيبته سائرا إلى السَّمَيْدَع ومع كتيبته عُدّتها من الرماح والدَّرَق والسيوف والجِعاب، يُقَعْقِع [بذلك](٧)؛ فيقال ما سمى قُعَيقعانُ قُعَيْقعانَ إلا لذلك. وخرج السَّمَيْدَع من أَجْياد ومعه الخيل والرجال، فيقال ما سمى أجيادُ أجيادا

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ : ١١٧ . (٢) السيارة : القافلة . (٣) وكانوا إذا خرجوا من اليمن جعلوا عليهم ملكا يقوم بأمرهم . الروض الأنف ١ : ٨٠ . (٤) قعيقعان، بضم القاف الأولى وكسر الثانية، وفتح العين : جبل بمكة . معجم البلدان ٧ : ١٣٣ . (٥) أجياد : موضع بمكة مما يلى الصفا ياقوت ١ : ١٢٧ . (٦) يعشر : يأخذ عشر أموالهم . (٧) زيادة عن سيرة ابن هشام ١ : ١١٧ .

إلا لخروج الجياد من الخيل منه مع السَّمَيْدَع. فالتقوا بفاضح[2] واقتتلوا قتالا شديدا، فقُتِل السَّمَيْدَع، وفُضِحت قَطُوراء؛ فيقال ما سُمِّى فاضحٌ فاضحا إلا لذلك».

ثم إن القوم تداعوا إلى الصُّلح، فساروا حتى نزلوا المَطابخ: شِعْبا بأعلى مكة، فاصطلحوا به، وأسلموا الأمر إلى مُضاض. فلما اجتمع إليه أَمرُ مكة، وصار مُلكُها له، نحرَ للناس فطبخوا وأكلوا[3]، فيقال ما سميت المَطَابخُ المطابخَ إلا لذلك».

٥ وبعض أهل العلم يزعم أنها إنما سميت المطابخ لما كان تُبَّع نحَرَ بها وأطعم وكانت منزله. والله أعلم».

«فكان الذى كان بين مُضاض والسَّمَيْدَع أولَ بَغْيٍ كان بمكة. ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة، وأخوالُهم من جُرْهُمْ وُلاةُ البيت والحكّامُ بمكة، لا ينازعهم ولد

١٠ إسماعيلَ فى ذلك لخئولتهم وقرابتهم، وإعظاما للحُرمة أن يكون بها بَغْى أو قتال؛ فلما ضاقت مكةُ على ولَد إسماعيل آنتشروا فى البلاد، فلا يناوئون قوما إلا أظهرَهم الله عليهم بدينهم».

«ثم إن جُرهما بغَوْا بمكة، وآستحلّوا خِلالاً من الحُرمة، وظلموا مَن دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدَى لها، فرقَّ أمرُهم. فلما رأت بنو بكر بن

١٥ عبد مَناة بن كنانة، وغُبشان من خُزاعة ذلك، أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة؛ فآذنوهم بالحرب فآقتتلوا، فغلبتهم بنو بكر وغُبشان، فنفوهم من مكة؛ وكانت مكةُ فى الجاهلية لا تُقِر فيها ظلما ولا بَغْيا».

(١) أجياد: جمع جواد؛ يقال فرس جواد: بين الجودة والجمع أجياد. فلا محل لاعتراض السهيلى فى الروض الأنف ١: ٨٠، وانظر تاج العروس «جود».

٢٠ (٢) فاضح: موضع قرب مكة عند جبل «أبى قبيس». ياقوت ٦: ٣٣٢.

(٣) فى سيرة ابن هشام ١: ١١٧: «نحر للناس فأطعمهم، فاطّبخ الناس وأكلوا».

قال ابن إسحاق : «فخرج عمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرْهُمىّ بغزالَى الكعبة[1] وبحَجَر الركن ، فدفنها فى زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جُرْهُم إلى اليمن . فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة ومُلْكِها حزنا شديدا ، فقال عمرو بن [الحارث][2] بن مُضاض فى ذلك ، وليس بمُضاض الأكبر» . والله المعين :

[وقائلةٍ والدمعُ سَكْبٌ مُبادِرٌ * وقد شَرِقَتْ بالدمع منها المحاجِرُ][2]

كأنْ لم يكن بينَ الحَجُونِ[3] إلى الصَّفا * أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامِرُ

[فقلتُ لها والقلبُ منّى كأنّما * يُلَجْلِجُه بينَ الجناحينِ طائرُ][2]

بلَى ! نحن كنّا أهلَها فأزالنا * صُروفُ الليالى والجُدودُ العواثِرُ

وكنّا وُلاةَ البيت من بعد نابتٍ * نطوفُ بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ

ونحن وَلِينا البيت من بعد نابتٍ * بعزٍّ فما يَحظَى لدينا المُكاثِرُ

مَلَكنا فعزَّزنا فأعظِمْ بمُلْكِنا * فليس لحىٍّ غيرِنا ثَمَّ فاخِرُ

ألم تُنكِحوا من خير شخصٍ علمتُه[4] * فأبناؤه منّا ونحن الأصاهِرُ

فإن تَنثَنِ الدنيا علينا بحالِها * فإنّ لها حالًا وفيها التشاجُرُ

فأخرجَنا منها المليكُ بقُدرةٍ * كذلك يا للنّاسِ تجرى المقادرُ

أقولُ إذا نام الخَلِىُّ ولم أنَمْ : * أذَا العرشِ لا يُبْعَدْ سُهَيلٌ وعامِرُ

وبُدِّلْتُ منها أوجُهًا لا أُحِبُّها * قبائلَ منها حِمْيَرٌ ويُحابِرُ[5]

وصِرنا أحاديثًا وكنّا بغِبطةٍ * بذلك عَضَّتنا السِّنونُ الغوابِرُ

(١) هما تمثالان لغزالين من ذهب ، دفنهما عمرو بن الحارث فى زمزم . انظر الروض الأنف ١ : ٩٧ ، ١٠١ ، وشرح المواهب ١ : ٩٢ . (٢) إضافة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٢٠ .

(٣) الحجون بفتح الحاء : جبل بأعلى مكة . ياقوت ٣ : ٢٢٧ . (٤) يريد إسماعيل عليه السلام . الخشنى ١ : ٣٨ . (٥) يحابر بوزن (يقاتل) : قبيلة من اليمن ، أو قبيلة مراد . انظر تاج العروس (حبر) ، الخشنى ١ : ٣٨ .

[وبـدّلنـا كعبٌ بهـا دارَ غُربة * بهـا الذئب يَعْوِى والعدوُّ المكاشِرُ] (١)

فسَحّت دموعُ العين تبكى لبلدة * بهـا حَرَم أمنٌ وفيهـا المشاعِر (٢)

وتَبكِى لبيتٍ ليس يُؤذَى حَمامُه * يَظَلُّ به أمنًـا وفيـه العصافِر

وفيـه وُحوشٌ لا تُرام أنيسةٌ * اذا خَرَجت منـه فليست تُغادَر

وقال أيضا يشير إلى بَكْرٍ وغُبْشان الذين خلفوا مكة بعدهم :

يأيهـا الناسُ سيروا إنّ قصْرَكم (٣) * أن تُصبِحوا ذاتَ يوم لا تَسيرونا

حُثّوا المطِىّ وأرخُوا من أزِمّتها * قبلَ الممـات وقَضّوا ما تُقضّونا

كُنّا أُناسًـا كما كنتُم فغـيَّرنا * دَهرٌ فأنـتم كما كُنّا تكـونا

قال ابن هشام (٤) : « لحدّثنى بعض أهل العلم بالشعر، أن هذه الأبيات أوّلُ شعرٍ قيل فى العرَب، وأنها وُجِدَت مكتوبة فى حَجَر باليمَن، ولم يُسَمّ لى قائلها » .

قال ابن إسحاق (٤) : « ثم إنّ غُبْشان من خُزاعة وَلِيَتْ البيت دون بنى بَكر ابن عبد مَناة ، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغُبْشانىّ، وقُرَيش إذ ذاك حُلول وصِرَم (٥) ، وبيوتات متفرّقون فى قومهم من بنى كنانة ، فوليت خُزاعة البيت يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى كان آخرَهم حُلَيل بن حُبْشية بن سَلول بن كعْب ابن عمرو الخُزَاعىّ . فخطب قُصَىّ بن كلاب إلى حُلَيل ابنته حُبّى ، فرغب فيـه حُليل فزوّجه، فولدت له عبدَ الدار، وعبدَ مَناف، وعبدَ العُزّى، وعبدا » .

«فلما انتشر ولَدُ قُصَىّ وكثُرَ مالُه، وعظُم شرفُـه هلك حُلَيل، فرأى قُصَىّ أنه أولَى بالكعبـة، وبأمرِ مكة من خُزاعة وبنى بَكر، وأنّ قُريشا فَرْعةُ (٦) إسمـاعيل بن

(١) عن معجم البلدان ٣ : ٢٢٨ . (٢) المشاعر: مواضع مشهورة يتعبد فيها . الخشنى ١ : ٣٨ .
(٣) قصركم : نهايتكم وغايتكم . (٤) سيرة ابن هشام ١ : ١٢٢ . (٥) الحلول : جماعة البيوت المجتمعة ، والصرم : الجماعة ينزلون بإبلهم ناحية على ماء . (٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٢٣ : «قرعة» بالقاف ، والقرعة بضم القاف : نخبة الشىء وخياره ، والمراد بالقرعة هنا أن قريشا أهل ولد إسماعيل .

إبراهيم وضريح وَلَده، فكلَّم رجالًا من قُرَيش وبَنى كنانة، ودَعاهم إلى إخراج خُزاعة وبنى بكر من مكة، فأجابوه » .

وكان ربيعة بن حَرام من عُذْرة بن سَعْد بن زيد مناة قد قَدِم مكة بعد هلاك كلاب، فتزوّج فاطمة بنت سَعد بن سَيَل — وزُهْرة يومئذ رجل، وقُصَىّ فَطيم — فاحتملها إلى بلاده، فحملت قُصَيًّا معها وأقام زُهْرة، فولدت لربيعة رِزاحا . فلما بلغ قُصَىٌّ وصار رجلًا أتى مكة فأقام بها، فلما أجابه قومه إلى ما دعاهم إليه كتب إلى أخيه من أمه رِزَاح بن ربيعة، يدعوه إلى نُصْرته والقيام معه ؛ فخرج رِزاح بنُ ربيعة ومعه إخوته : حُنّ بن ربيعة، ومحمود ابن رَبيعة، وجُلْهُمة بن رَبيعة، وهم لغير فاطمة، فيمن تَبِعهم من قُضاعة فى حاجّ العرب، وهم مُجمِعون لنُصْرة قُصَىّ » .

«وكان الغَوْثُ بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مُضَر يَلى الإجازة للناس بالحج من عَرَفة، ووَلَدُه مِن بعده، وكان يقال له ولولده صُوفة[1] . وإنما وَلِى الغَوْثُ ذلك لأن أُمّه كانت من بنى جُرْهُم، وكانت لا تَلِد ، فنذرت لله إن هى وَلَدت رجلًا أن تَصَدَّق به على الكعبة عبدًا لها يخدُمها، ويقوم عليها ؛ فولدت الغَوْث، فكان يقوم على الكعبة فى الدَّهر الأوّل مع أخواله من جُرْهُم، فولِى الإجازةَ بالناس من عَرَفة، لمكانه الذى كان به من الكعبة ، ووَلَدُه مِن بعده حتى انقرضوا » .

« وكان الغَوْث بن مُرّ إذا دفع بالناس قال :

لا هُمَّ إنى تابع تَبَاعَهْ * إن كان إثم فعلَى قُضَاعَهْ[2]

(١) فى سبب تسميته صوفة أقوال ذكرها السهيلى فى الروض الأنف ١ : ٨٥ .

(٢) التباعة : ما يتبعه الإنسان ويقتدى به ، وإنما قال : « إن كان إثم الخ » ، لأنه كان فى قضاعة من يستحل الأشهر الحرم ، فحمل إثم ذلك عليهم . الخشنى ١ : ٤٠ .

قال ابن إسحاق : « كانت صُوفَة تدفع بالناس من عَرَفة، وتُجيز بهم إذا نفَروا من مِنًى ، حتى إذا كان يومُ النَّفر أتَوا لرَمْى الجمار، ورجل من صُوفَةَ يَرْمى للناس ، لا يَرمُون حتى يَرْمى ، فكان ذوو الحاجات المتعجِّلون يأتونه فيقولون له : قم فارم حتى نرمىَ [معك] (١)؛ فيقول: لا والله، حتى تَميلَ الشمس؛ فيَظَلّ ذوو الحاجات يرمونه بالحجارة ويقولون له : ويلك ! قم فارمِ، فيأبىَ عليهم؛ حتى إذا مالت الشمس قام فرمى، ورمى الناسُ معه » .

٩/١٤

« فإذا فرغوا من رَمْى الجمار، وأرادوا النَّفر من مِنًى أخذت صُوفَة بجانبَى العَقَبة، فحبسوا النـاسَ وقالوا : أجيزى صُوفة، فلم يَجُز أحد من النـاس حتى يمرّوا، فإذا نفَرت صُوفَة ومَضَت خلِّى سبيل النـاس فانطلقوا بعـدَهم ؛ فكانوا كذلك حتى انقرضوا ، فورثهم فى ذلك بنو سـعد بن زيد مَناة، من تميم ؛ وكانت من بنى سعد فى آل صَفوان بن الحارث بن شِجْنَة ؛ فكان صَفوان هو الذى يُجيز النـاس بالحج من عَرَفة ، ثم بنوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام كَرِب بن صَفوان ؛ وفى ذلك يقول أَوس بن مَغْراء من قصيدة :

لا يبرح الناسُ ما حجُّوا مُعرَّفهم * حتّى يُقـالَ أَجيزوا آلَ صَفْوانا (٢)

« وكانت الإفاضة فى عَدْوان يَتَوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى كان آخرَهم الذى قام عليه الإسلام أبُو سَيّارة عُمَيْلة بن الأعزل ، وكان أبو سَيّارة يدفع بالناس على أَتانٍ له، وبه ضُرِب المَثَل : « أَصبر من عَيْر أبى سَيّارة » (٣)؛ لأنه دَفع بأهل الموسم عليه أربعين عاما » .

(١) التكلة عن الطبرى ٢ : ١٧٣ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١٢٦ . (٢) المعرّف : الموقف بعرفات . ورواية اللسان (صوف ، عرف) :

* ولا يريمون فى التعريف موقفهم *

(٣) رواية الميدانى ١ : ٢٧٧ ، ولسان العرب (سير) : « أصح من عير أبى سيارة » .

نعود إلى أخبار قُصَىّ بن كلاب ، « [فلما كان ذلك العام ، فعلت صُوفة كما كانت تفعل ، وقد عَرَفت ذلك لها العرب ، وهو دينٌ فى أنفسهم من عهد جُرهُم وخُزاعة وولايتهم ، فأتاهم قُصَىّ][1] بمن معه من قومه من قُريش و كنانة وقُضاعة عند العَقَبة فقال : لا تُجُز — لنحن أولَى بهذا منكم[2] — ، فقاتلوه ، فاقتتل الناس قتالا شديدا ، ثم انهزمت صُوفةُ ، وغلبهم قُصَىّ على ما كان بأيديهم من ذلك » .

«وانحازت عند ذلك خُزاعة وبنو بَكْر عن قُصَىّ ، وعرفوا أنه سَيحول بينهم و بين الكعبة وأَمْرِ مكة ، فلما انحازوا عنه باداهم[3] وأجمع لحربهم ، وخرجت إليه خُزاعة وبنو بكر ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا حتى كثُرت القتلَى فى الفريقين ، ثم تداعوا إلى الصلح ، وأن يُحكّموا بينهم رجلا من العرب ، فحكموا يَعْمَر[4] بن عَوْف بن كَعب بن عامر بن لَيْث بن بَكْر بن عبد مَناة بن كنانة ، فقضَى أن قُصَيًّا أولَى بالكعبة وأَمْرِ مكة من خُزاعة ، وأن كلّ دَمٍ أصابه قُصَىّ من خُزاعة و بنى بكر موضوعٌ يَشْدَخُه تحت قدميه ، وأن ما أصابت خُزاعة و بنو بكر من قُريش وكنانة وقُضاعة ففيه الدِّيَة مُؤَدّاة ، وأن يُخَلِّى بين قُصَىّ و بين الكعبة ومكة[5] . فسُمّى يَعْمَر بن عَوْف يومئذ الشَّدّاخ ، لِما شَدَخ من الدّماء ووضع منها » .

قال[6] : «فولى قُصَىّ البيتَ وأمرَ مكة ، وجمعَ قومَه من منازلهم إلى مكة ، وتملّك على قومه وأهلِ مكة فملّكوه ، إلا أنه أقرّ للعرب ما كانوا عليه ، وذلك أنه كان يراه

(١) التكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٣٠ ؛ حيث النقل عن ابن إسحاق أيضا ، وانظر الطبرى ٢ : ١٨٣ . (٢) فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٨٣ : «منكم فناكروه الخ» . (٣) باداهم : كاشفهم . (٤) كان يعمر هذا أحد حكام العرب . انظر المحبر لابن حبيب ص ١٣٣ (٥) هذا هو المعروف بين المؤرخين ، وفى المحبر أنه «حكم بينهم ، و باءوا (سوّى) بين الدماء ، وعلى أن لا يخرج خزاعة من الكعبة» . (٦) لا يزال النقل عن ابن إسحاق ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ١٣٢

دِينًا فى نفسه لا ينبغى تغييرُه ؛ فأقرّ آل صَفْوان، وعَدْوان، والنَّسَأة[1]، ومُرّة بن عَوْف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام ، فهدم الله به ذلك كلَّه » .

«فكان قُصَىّ أولَ من أصاب مُلْكًا من بنى كَعْب بن لُؤَىّ، وكانت إليه الحِجابة، والسِّقاية، والرِّفادة، والنَّدْوة، واللِّواء؛ فحاز شرفَ مكةَ كلَّه، وقطع مكّةَ رِباعا بين قومه، فأنزل كلّ قوم من قُرَيش منازلَهم من مكة، فسمّته قُرَيش مُجمِّعا لما جمع من أمرها، وتيمّنت بأمره؛ فما تُنكح امرأة، ولا يتزوّج رجل من قُرَيش، ولا يتشاورون[2] فى أمر نزل بهم، ولا يَعقدون لواءً لحرب قوم غيرِهم إلا فى داره؛ يعقده لهم بعضُ ولده، وما تَدَّرِع جاريةٌ إذا بلغت أن تدَّرِع من قُرَيش إلا فى داره؛ يُشَق عليها فيها دِرعها ثم تَدَّرِعه، ثم يُنطلَق بها إلى أهلها » .

«فكان أمره فى قومه من قُرَيش فى حياته و بعدَ موته، كالدِّين المتَّبَع لا يُعمل بغيره. واتخذ لنفسه دار النَّدْوة، وجعل بابَها إلى مسجد الكعبة؛ ففيها كانت قُرَيش تَقضِى أمورها » قال الشاعر :

قُصَىٌّ لَعَمْرِى كان يُدعَى مُجَمِّعًا[3] * به جَمَّع الله القبائلَ من فِهْرِ

قال ابن إسحاق[4] : « فلما فرغ قُصَىّ من حَربه انصرف أخوه رِزاح بنُ رَبيعة بمن معه إلى بلاده» . قال : «فلم يزل قُصَىّ على ذلك، فلما كبر ورقّ عظمه — وكان عبد الدار بِكْرَه، وكان عبدُ مَناف قد شَرُف فى زمان أبيه وذهب كُلَّ مذهب،

(١) جمع ناسئ . وهم قوم من كنانة كان العرب إذا صدروا عن « منى » يقولون لأحد النسأة : «أنسئنا شهرا» ، أى أخّرعنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر؛ و بذلك تصبح الاغارة فى شهر المحرم حلالا لهم . وفى تاج العروس (نسأ)، والروض الأنف ١ : ٤١ — ٤٢ ذكر للذين كانوا يتولون إنساء الشهور.

(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٣٢ «وما يتشاورون» . (٣) رواية اللسان (جمع)، وتهذيب الكمال المزى (الورقة ٤ أ) : * أبوكم قصىّ كان يدعى مجمعا * والبيت لحذافة بن غانم العدوى .

(٤) سيرة بن هشام ١ : ١٣٣، ١٣٦

وعبدُ العُـزَّى وعبدٌ — قال لابنـه عبد الدار : أمَا والله يابني لأُلحِقنَّك بالقـوم و إن كانوا قد شَرُفوا عليك؛ لايدخل رجلٌ منهم الكعبةَ حتى تكونَ أنت تَفْتحها له ، ولا يَعْقِد لقريش لواءً [لحربها] [1] إلا أنت بيدك، ولا يَشرب رجل بمكة إلا من سِقايتك، ولا يأكل أحد من أهـل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تَقطع قُرَيش أمرا من أمورها إلا فى دارك . ، فأعطاه دارَه : دار النَّدْوة التى لا تَقضِى قُرَيش أمرا إلا فيها، وأعطاه الحِجابة واللِّواء والسِّقاية والرِّفادة » .

« وكانت الرِّفادة خَرجًا تُخْرِجه قريش فى كل مَوْسِم من أموالهـا إلى قُصَىّ بن كِلَاب ، فيصنع به طعاما للحاجّ ، فيأكله من لم تكن له سَعة ولا زاد . وقُصَىّ هو الذى فرض ذلك ، فقال [لهم] [2] حين أمَرَهم به : يا معشر قُرَيش، إنكم جِيران الله وأهلُ بيته وأهلُ الحَرَم، و إن الحاجّ ضيف الله وزُوّار بيته، وهم أحق الضَّيف بالكرامة ، فاجعـلوا لهم طعامًا وشرابا أيامَ الحج ، حتى يَصـدُروا عنكم . ففعلوا . قال [3] : «فلما هلك قُصَىّ بن كِلَاب أقام أمْرَه فى قومه مِنَ بَعـده بنوه، فاختطّوا مكة رِبَاعا ، بعـد الذى كان قـد قَطعَ لقومه [4] بهـا ، فكانوا يعطونها [5] فى قومهم وفى غيرهم مِن حُلفائهم، ويَبيعونها، فأقامت قُرَيش على ذلك معهم ليس بينهم آختلاف ولا تنـازع » ، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعـالى فى هاشم بن عبد مَناف .

وحَكى أبو عبد الله محمد بن عائذ [6] الدمشقى فى "مغازيه" زيادةً فى خبر قُصَىّ نذكرها فى هـذا الموضع ، و إن كان قد نَقَص فى غيره ، فقال فى أثناء ما حكاه :

(١) التكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٣٦، والطبرى ٢ : ١٨٤ (٢) التكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٣٧ . (٣) القائل ابن إسحق ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ١٣٨ . (٤) فى الأصل : «قد وقع لقومه» . (٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٣٨ : « فكانوا يقطعونهـا » . (٦) محمد بن عائذ (بالذال المعجمة) بن أحمد القرشى أبو عبـد الله الدمشقى (١٥٠ — ٢٣٣) له ترجمة فى تهذيب التهذيب ٩ : ٢٤٢ .

«إن البيت كان حوله غَيْضة والسَّيْل يدخله ، ولم يُرفع البيتُ حينئذ ، فإذا قدم الحاجّ وَطِئوه حتى تذهبَ الغَيْضة ، فإذا خرجوا تَبِنت» . قال : «فلما قدم قُصَىّ قطع الغَيْضة ، وآبتنى حول البيت دارا ، ونكح حُبَّى بنت حُلَيل» .

وقال أيضا : «إن قُصَيًّا قال لآمرأته حُبَّى : قولى بلحدتك تَدُلُّ بنتك على الحجر ، فلم تزل بها حتى قالت : إنى أَعقِل أنهم حين خرجوا إلى اليمن سرقوه ، ونزلوا مَنزِلا وهو معهم ، فبرك الجمل الذى كان عليه الحجر ، فضربوه فقام ، ثم ساروا فبرك ، فضربوه فقام ، ثم برك الثالثة فقالوا : ما بَرك إلا من أجل الحجَر ، ودفنوه ، وذلك أسفلَ مكة ، وإنى لأعرف حيث بَرك ، فخرجوا بالحديد وخرجوا بها معهم ، فأَرَتْهم حيثُ بَرَك أولا وثانيا وثالثا ، فقالت : آحفروا ههنا . فحفروا حتى يئسوا منه ، ثم ضربوا فأصابوه وأخرجوه ، فأُتِى به قُصَىّ ، فوضعه فى الأرض ، فكانوا يتمسحون به وهو فى الأرض ، حتى بَنَى قُصَىّ البيت» . قال : «ومات قُصَىّ ودفن بالحَجُون» . والله أعلم بالصواب .

وأما عبد مناف بن قصى فكنيته[1] أبو عبد شمس ، وآسمه المغيرة ، وعبد مَناف [لقبه][2] ، وسبب ذلك أنّ أمه حُبَّى بنت حُلَيل الخُزاعية أَخدَمته مَناة ، وكان مَناة صنما عظيما لهم ، فسمى عبدَ مَناة به . ثم نظر قُصَىّ ، فرآه يوافق عبد مَناة بن كنانة ، فحوّله عبد مناف . قاله السُّهيلى[3] . [و][4] مَناف «مَفْعَل» من أناف يُنيف إنافة إذا آرتفع . وقال المفضَّل : الإنافة الإشراف والزيادة ، وبه سُمّى عبد مَناف لطوله ، ومنه تقول : مائة ونَيِّف ، أى شىء زائد على المائة .

(١) فى الأصل : «وكنيته» . (٢) تكملة يقتضيها السياق . وفى الأصل : «وعبد مناف ، وسبب الخ» (٣) الروض الأنف ١ : ٦ ، وفى الأصل : «قال السهيلى» .
(٤) فى الأصل : «مناف الخ» ، على أنه مقول قال ، والمثبت استظهار . لعله القريب من الصواب .

وكان قُصَىّ يقول : لى أربعة بنين سَمّيتُ ٱبنين بإلهى، وهما عبد مَناف وعبد العُزّى، وواحدا بدارى. وهو عبد الدار، وواحدا بى، وهو عبد قُصَىّ . حكاه محمد بن عائذ فى "مغازيه" عن أمّ سلمة .

وقال محمد بن سعد(١) : «أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبىّ عن أبيه قال : لما هلك قُصَىّ بن كِلاب قام عبد مَناف بن قُصَىّ على أمر قُصَىّ بعده وأمرُ قُرَيش إليه، وٱختطّ بمكة رِباعا بعد الذى كان قُصَىّ قطع لقومه» .

قال : «وولد(٢) عبد مَناف ستة نفر، وست نسوة، وهم : عبد المُطَّلب بن عبد مَناف وكان أكبرهم، وهو الذى عَقَد الحِلف لقُرَيش من النَّجاشىّ فى مَتْجرها إلى أرضه، وهاشم، وٱسمه عمرو، وهو الذى عَقَد الحِلف لقُرَيش من هِرَقْل لأن تختلفَ إلى الشأم آمنة، وعبد شَمْس بن عبد مَناف، وتُمَاضر بنت عبد مَناف، وحَيّة(٣)، وقِلابة، وبَرّة، وهالة، وأمّهم عاتكة الكُبْرى(٤) بنت مُرّة، بن هِلال، بن فالِج، بن ثعلبة(٥) بن ذَكْوان، بن ثَعْلبة، بن بُهْثَة، بن سُلَيم، بن منصور، بن عِكْرمة، بن خَصَفَة، بن قيس عَيْلان، بن مُضَر. ونَوْفل بن عبد مَناف، وهو الذى عَقَد الحِلف لقُرَيش من كِسْرَى إلى العراق، وأبو عمرو بن عبد مَناف، وٱسمه عبيد(٦)، دَرَج ولا عقب له، وأمهم واقدة بنت

(١) فى الطبقات ١ : ٤٢ (قسم أوّل). (٢) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٢ (قسم أوّل): «ولد عبد» . (٣) فى الأصل، وطبقات ابن سعد ١ : ٤٣ قسم أوّل)، وتاريخ اليعقوبى ١ : ٢٠٠ : «وحنة»، والمثبت عن نسب قريش (الورقة ٥ ب)، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٢ .
(٤) هى إحدى النسوة اللواتى كنّ يشترطن، لشرفهن إذا تزوّجن، أن يكون أمرهن بيدهن فى المقام والرواح . انظر المحبر لابن حبيب ص ٣٩٩ . (٥ فى ابن الأثير ٢ : ١٣، وسيرة ابن هشام ١ : ١١١، وتاريخ اليعقوبى ١ : ٢٠٠ : «فالج بن ذكوان» . (٦) فى الأصل : «ابن عبد مناف، وأبا عبيد»، تصحيف .

أبى عَدِىّ، وهو عامر، بن عبد نُهم، بن زيد، بن مازن[1]، بن صعصعة؛ ورَيطة بنت عبد مَناف، ولدت بَنى هلال، بن معيط[2] من بنى كنانة، بن خزيمة، وأمها الثقفية[3]».

وأما هاشم بن عبد مَناف، فكنيته[4] أبو نَضْلة، وقيل أبو يزيد، وقيل بل كان يُكنّى بأبنه أَسَد؛ وأسمه عمرو، وهاشم لَقَب لُقِّب به. رُوِى عن أبن عبّاس[5] رضى الله عنهما أنه قال[6]: «كان أسم هاشم عَمرا، وكان صاحبَ إيلاف قُرَيش، وإيلاف قُرَيش: دأب قُرَيش، وهو أوّل من سَنّ الرحلتين لقُرَيش؛ تَرحل إحداهما فى الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النَّجاشىّ فيُكرمه ويَحبوه، ورحلةً فى الصَّيف إلى الشام إلى غَزَّة وربما بلَغ أَنْقِرة[7]، فيدخل على قَيْصَر فيُكرمه ويَحبوه؛ فأصابت قُرَيشا سنواتٌ ذهبن بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام، فأَمَر بخُبز كثير فخُبِز له، وحمله فى الغَرائر على الإبل حتى وافَى مكة، فهَشَمَ ذلك الخبز، يعنى كَسَره وثَرده، ونحر تلك الإبل، ثم أَمَر بطبخها، ثم كَفأ القدور على الجفان، فأشبع أهلَ مكة؛ فكان ذلك أوّلَ الحَيَا بعد السَّنة التى أصابتهم؛ فسُمِّى بذلك هاشما، وفى ذلك يقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

(١) فى تاريخ اليعقوبى ١ : ٢٠٠ : «ابن عامر بن صعصعة».

(٢) فى نسب قريش (الورقة ٥ ب) : «وكانت ريطة بنت عبد مناف عند معيط بن عامر ... ابن كنانة، فولدت له هلالا».

(٣) فى نسب قريش (الورقة ٥ ب) : «ريطة بنت عبد مناف، وأمها هند بنت كعب بن سعد بن عوف من ثقيف».

(٤) فى الأصل : «وكنيته».

(٥) فى الأصل : «ابن عثمان»، تصحيف.

(٦) انظر طبقات ابن سعد ١ : ٤٣ (قسم أول).

(٧) انظر معجم البلدان ١ : ٣٦١.

عمرو العلى هَشَم الثَّرِيد لقومه * ورجالُ مَكّةَ مُسْنِتون عِجافُ[١]

قال: «فحَسده أُمَيَّةُ بن عبد شمس بن عبد مَناف ، وكان ذا مال ، فتكلّف أن يَصنع صنيع هاشم فعجز عنه ، فشمت به ناس من قُرَيش ، فغضِب ونال من هاشم ، ودعاه إلى المنافرة ، فكرِه هاشم ذلك لِسِنّه وقَـدرِه ، فلم تدَعْه قُريش وأَحفظوه » قال : « فإنى أُنافرك على خمسين ناقةً سُودَ الحَـدَق تَنحرها ببَطن مكّة ، والجلاءِ عن مكة عشرَ سنين . فرضِى أُمَيَّة بذلك ، وجعلا بينهما الكاهن الخُزَاعىّ ، فنفَّر[٢] هاشما عليـه ، فأخذ هاشمُ الإبل فنحَرها وأطعَمها مَن حضَره ، وخرج أُمَيَّـة إلى الشام ، فأقام بها عشرَ سنين ؛ فكانت هذه أوّل عداوة وقعت بين هاشم وأُمَيَّـة ، ثم وَلِى هاشم الرِّفادة والسِّقاية » .

ذكر ولاية هاشم الرِّفادة والسِّقاية

قال : « إن هاشما ، وعبدَ شمس ، والمُطَّلب ، ونَوْفلًا : بنى عبد مَناف أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار بن قُصَىّ مما كان قُصَىّ جعَل إلى عبد الدار من الحِجـابة ، واللِّواء ، والرِّفادة ، والسِّقاية ، والنَّدْوة ، ورأوا أنهم أحقُّ به منهـم لشَرَفهم عليهم ، وفضلهم فى قومهم ؛ وكان الذى قام بأمرهم هاشم ، فأبت بنو عبد الدار أن تُسـلم ذلك إليهم ، وقام بأمرهم عامرُ بن هاشم بن عبـد مَناف بن عَبد الدار ؛ فصار مع بنى عبد مَناف بن قُصَىّ بنو أَسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَىّ ، وبنو زُهْرة ابن كِلاب ، وبنو تَيْم بن مُرّة ، وبنو الحارث بن فِهْر ؛ وصار مع بنى عبـد الدار

(١) رواية ابن هشام فى السيرة ١ : ١٤٤ ، والروض الأنف ١ : ٩٤ :

« ... ... لقـومه قـوم بمكة مسنتين عجـاف »

وهى التى تتفق مع قافيـة الأبيات — ١١١ و ١٠١ — المكسورة . وعلى رواية النويرى تبعا للطبرى ٢ : ١٧٩ يكون فى البيت إقواء . (٢) نفر الحكم : قضى لأحد المتنافرين بالغلبة على الآخر .

بنو مخزوم، وسَهْم، وجُمَح ، وبنو عَدىّ بن كعب ؛ وخرجت من ذلك بنو عامر ابن لُؤَىّ ، ومُحارب بن فِهر؛ فلم يكونوا مع واحد من الفريقَيْن ، فعقد كلُّ قوم على أمرهم حِلفا مؤكّدا : ألا يتخاذلوا، ولا يُسلِمَ بعضُهم بعضا ، «ما بَلَّ بَحْرٌ صوفة»(١) .

فأخرجت بنو عبد مَناف ، ومن صار معهم ، جَفنةً مملوءة طِيبا ، فوضعوها حول الكعبة ، ثم غَمَس القومُ أيديَهم فيها ، وتعاهدوا وتعاقدوا وتحالفوا ، ومَسَحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفُسهم ، فسُمُّوا المطَيَّبين . وأخرجت بنو عبد الدار ومَن كان معهم جَفْنةً مِن دم ، فغمَسوا أيديَهم فيها ، وتعاقدوا وتحالفوا : ألا يتخاذلوا ما بَلَّ بحْرٌ صُوفة ؛ فسُمُّوا الأحلاف ، ولَعَقة الدّم(٢) ، وتهيئوا للقتال ، وعُبِّئت كلُّ قبيلة لقبيلة ؛ فبينما الناس على ذلك ، إذ تَداعوا إلى الصُّلح على أن يُعطوا بَنى عبد مَناف بن قُصَىّ السِّقاية والرِّفادة ، وتكونَ الحِجابةُ واللِّواءُ ودارُ النَّدوة إلى بَنى عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ، وتحاجز الناس ؛ فلم تزل دارُ النَّدوة فى بنى عبد الدار(٣) ، حتى باعها عِكْرِمة بن عامر ، ابن هاشم ، بن عبد مَناف ، بن عبد الدار ، بن قُصَىّ(٤) ، من مُعاوية بن أبى سُفيان ؛ فجعلها مُعاوية دارَ الإمارة » .

قال : « ووَلِى هاشم بن عبد مَناف بن قُصَىّ السِّقايةَ والرِّفادة ، وكان رجلا مُوسرا ، فكان يُخرِج فى كل عام مالا كثيرا ، وكان قوم من قُرَيش أهلَ يَسار يَتَرافدون ، فيرسل كل إنسان بمائة مثقال هِرَقْلية ، وغيرُهم يرسل بالشىء اليسير على

---

(١) يقصدون بمثل هذا التعبير تأبيد الحكم ؛ جاء فى اللسان : « ومن الأبديات قولهم : لا آتيك ما بل بحر صوفة ، و يقال : ما بل البحر الصوفة » .

(٢) سموا بذلك لأنهم لعقوا من ذلك الدم . انظر المحبر لابن حبيب ص ١٦٦

(٣) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٥ (قسم أول) : « فى يدى بنى » .

(٤) فى الأصل : « قصى بن معاوية » ، والتصويب عن طبقات ابن سعد ١ : ٤٥ (قسم أول) .

قدر حالهم، فكان هاشم، إذا حضر الحج، يأمر بحياض من أَدَم، فتُجعل فى موضع زَمزَم، ثم يُستقَى فيها الماء من البئار التى بمكة فيشربه الحاجّ، وكان يُطعمهم قبل التَّرْوِية بيوم بمكة، وبمِنًى، وبجَمْع[(١)]، وعَرَفة؛ وكان يَثْرُد لهم الخبز واللحم، والخبز والسَّمن، والسويق والتمر، ويحمل لهم الماء، فيستقون بمِنًى[(٢)]، والماءُ يومئذ قليل، [فى حياض الأَدَم[(٣)]]، إلى أن يَصدُروا من مِنًى، ثم تنقطع الضيافة ويتفرق الناس إلى بلادهم».

قال: «وهاشم بنُ عبدْ مَناف هو الذى أخذ الحِلْف لقُرَيش من قَيْصر أن تختلف آمنة، فكتب له كتابا، وكتب إلى النَّجاشى أن يُدخِل قُرَيشا أرضَه وكانوا تُجّارا، فخرج هاشم فى عِير لقُرَيش فيها تجارات؛ وكان طريقُهم على المدينة، فنزلوا بسُوق النَّبَط، فصادفوا سُوقا تقوم بها فى السنة يَحشِدون لها، فباعوا واشتروا، ونظروا إلى امرأة على موضع مُشرِف من السوق، فرأى امرأة تأمُر بما يُشترى ويُباع لها، فرأى امرأةً حازمة جَلْدة مع جَمال، فسأل هاشم عنها أأيِّم هى أم ذات زوج؟ فقيل له أيِّم كانت تحت أُحَيْحَة بن الجُلَاح، فولدت له عَمرا ومعبدا ثم فارقها، وكانت لا تنكح الرجال، لشَرفها فى قومها، حتى يَشرِطوا لها أنّ أمرها بيدها، فإذا كرِهت رجلا فارقته؛ وهى سَلْمى بنت عمرو[(٤)]، بن زيد[(٥)]، بن لَبيد، بن خِدَاش، ابن عامر، بن غَنْم، بن عدىّ، بن النجّار، فخطبها هاشم، فعرفت شرفه ونَسَبه فزوّجته نفسها، ودخل بها وصنع طعاما، ودعا مَن هناك من أصحاب العِير الذين كانوا معه، وكانوا

(١) «جمع»: علم المزدلفة. معجم البلدان ٣: ١٣٨. (٢) فى طبقات ابن سعد ١: ٤٥: (قسم أوّل): «فيسقون بمنى». (٣) تكملة عن ابن سعد ١: ٤٥ (قسم أوّل).
(٤) انظر المحبر لابن حبيب ص ٣٩٨. (٥) فى «نسب قريش» (الورقة ٦ أ): «سلمى بنت زيد بن عمرو».

أربعين رجلا من قُرَيش، ودعا من الخَزْرَج رجالا، وأقام بأصحابه أياما؛ فعلقت سَلْمَى بعبد المطّلب، وولدته وفى رأسه شَيْبة، فسُمِّى شَيْبة . وخرج هاشم فى أصحابه إلى الشام حتى بلغ غَزَّة فمات، ودفِن بغَزَّة[1] وله عشرون سنة، وقيل خمس وعشرون سنة، ورَجَعوا بتركته إلى وَلَده، وأَوْصَى هاشم إلى أخيه المطّلب ابن عبد مَناف .

وحكى ابن الأثير[2] أنه لما تزوج سَلْمَى شرط لها أبوها ألا تَلِدَ ولَدا إلا فى أهلها، فحملها هاشم إلى مكّة فحملت منه، فلما أَثْقَلَت ردّها إلى أهلها ومضى إلى الشام؛ وقيل إنه لم ينقُلها، وإنه خرج إلى الشام هو وعبد شَمس، فماتا جميعا بغَزّة فى عام واحد، وبقِى مالُهما إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام؛ فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر غزوة غزاها جاءه قيس بمالِها، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم مالَ هاشم إلى العبّاس بن عبد المطّلب، ففرّقه على كُبَراء بنِى هاشم، ودفع مالَ عبد شمس إلى سُفيان بن حَرْب، ففرّقه على كُبَراء بنى عبد شمس .

وقد حكى ابن الأثير[3]: أن عبد شمس مات بمكة فقُبِر بأَجْياد، وذلك بعد وفاة هاشم[4] بغَزّة . قال: ثم مات نوفل بسَلْمان[5] من طريق العراق، ومات المطلب برَدْمان[6] من أرض اليمن[7] والله أعلم .

---

(١) ولذلك تضاف إليه فيقال: غزة هاشم . وهى بفتح الغين والزاى المشدّدة المفتوحة، وتقع فى أقصى الشام من ناحية مصر . معجم البلدان ٦ : ٢٩٠ . (٢) فى الكامل ٢ : ٤، وأصل هذا الكلام للطبرى ٢ : ١٧٦ . (٣) فى الكامل ٢ : ٧، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ١٤٧ و ١٥٧ .

(٤) فى الأصل: «هشام»، تحريف . (٥) سلمان: ماء قديم، وهو فى طريقهم أيام الجاهلية من العراق إلى تهامة . معجم البلدان ٥ : ١١١ . (٦) ردمان بفتح الراء: بلد باليمن . انظر معجم البلدان ٤ : ٢٤٥ . وفى الأصل: «بريمان»، تحريف . (٧) فى الأصل، وابن الأثير ٢ : ٧ : «من أرض العراق»، تصحيف، والتصويب عن سيرة ابن هشام ١ : ١٤٥، ١٤٧، والطبرى ٢ : ١٨١، والروض الأنف ١ : ٩٥، والخبر عن البشر ٣ : ٦٤ (قسم أول) .

وقيل[1]: إن هاشمًا وعبدَ شمس توأمان، وإن أحدَهما وُلد قبل الآخر، قيل: إن الأوّل هاشم، وقيل: إنهما وُلدا وأُصبع أحدِهما ملتصقةٌ بجبهة صاحبه فنُحِّيت، فسال دمٌ[2] فقيل يكون بينهما دَمٌ. والله تعالى أعلم.

قال ابن الكلبي[3]: وولَد هاشم بن عبد مَناف أربعة نَفَر وخمسة نِسوة، وهم: شَيْبةُ الحَمْد، وهو عبد المطّلب، ورُقَيَّة ماتت وهي جارية لم تَبْرُز، وأُمُّهما سَلْمى بنت عمرو، وأبو صَيْفيّ واسمه عمرو وهو أكبرهم، وأُمه هند، بنت عمرو، بن ثَعلَبة، بن الحارث، بن مالك، بن سالم، بن غَنْم، بن عَوْف، بن الخَزْرج. وأَسَد ابن هاشم وأُمه قَيْلة، وكانت تُلقَّب الجَزُور[4]، بنت عامر، بن مالك، بن جَذِيمة، وهو المُصطَلِق بن خُزاعة، ونَضْلة بن هاشم، والشِّفاء، وأمهما أُمَيَّة[5] بنت عدِيّ، ابن عبد الله، بن دينار، بن مالك، بن سَلامان[6]، بن سَعد، بن قُضاعة[7]. والضَّعيفة بنت هاشم، وخالدة بنت هاشم، وأمهما أمّ عبد الله، وهي واقدة بنت أبي عَدِيّ، ويقال عديّ، وهو عامر، بن عبد نُهم، بن زيد، بن مازِن، بن صَعصَعة، وحيَّة[8]

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٢ : ٧ ، والطبرى ٢ : ١٨٠ . (٢) رواية ابن الأثير ٢ : ٧ : « فسال الدم » . (٣) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١١٢ (٤) فى نسب قريش (الورقة ٦ أ) ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أول) : « سميت الجزور لعظمها » . وفى الأصل : « الخزور » بالخاء ، تصحيف . (٥) هذه رواية ابن الكلبى ، ونقلها المقريزى فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٥ (قسم أول) ، وفى نسب قريش (الورقة ٦ أ) ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أول) رواية عن الزبير بن بكار : « أمية بنت ودّ بن عدىّ » (٦) كذا فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٥ (قسم أول) ، وفى طبقات ابن سعد ١ : ٥٢ (قسم أول) : « بن سعد من قضاعة » .
(٧) فى سيرة ابن هشام ١ : ١١٢ و١١٣ ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٥ و ٦٦ (قسم أول) : « وضعيفة بنت هاشم » . (٨) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ١١٢ ، ١١٣ ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أول) . وفى ابن سعد ١ : ٥٢ (قسم أول) : « حنة » .

بنت هاشم ، وأمها [أم][1] عدىّ بنت حَبيب ، ابن الحارث ، بن مالك ، بن حُطَيط
ابن جُشَم بن قسِىّ وهو ثقيف . والله عز وجل أعلم بالصواب .

ذكر أخبار عبد المطلب بن هاشم

قال ابن قتيبة[2] : « واسمه عامر » . والصحيح[3] عندهم ماذكره محمد بن إسحاق بن يَسار وغيره أن اسمه شيبة ، وكنيته أبو الحارث ، كُنِّىَ باسم ولده الحارث ، وهو أكبر ولده .

ولعبد المطّلب كنيةٌ أخرى ، وهى أبو البَطْحاء ؛ ولتَسْمِيته بهذين الاسمين ، وتَكْنِيته بأبى البَطْحاء أسباب نَذكُرها قريبا إن شاء الله تعالى . وأُمّ عبد المطلب سَلْمَى بنت عمرو[4] ، بن زيد ، بن لَبِيد ، بن خِداش ، بن عامر ، بن غَنْم ، ابن عَدِىّ[5] ، بن النّجار .

وقال ابن إسحاق : سَلْمَى بنت زيد ، بن عمرو ، بن لَبيد ، بن [حرام ، ابن][6] خِدَاش ، بن جُندُب ، بن عَدِىّ[7] ، بن النجار .

وقد تقدم آنفا خبر زواج هاشم بها .

---

(١) الزيادة من الخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أوّل) ، ونسب قريش (الورقة ٦ أ) . وفى سيرة ابن هشام ١ : ١١٣ ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أوّل) نقلا عن الزبير بن بكار : « وأم أبى صيفى ، وحية ، هند بنت عمرو بن ثعلبة الخزرجية » . وانظر السهيلى ١ : ٧٧ .

(٢) فى المعارف ص ٣٣ ، ونقله المقريزى فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٥ (قسم أوّل) عن ابن الكلبى وانظر تاج العروس (طلب) .

(٣) انظر شرح المواهب للزرقانى ١ : ٧١ .

(٤) هذه رواية ابن هشام ١ : ١١٢ ، ومصعب الزبيرى فى نسب قريش (ورقة ٦ أ) ، وإحدى روايتى الطبرى ٢ : ١٧٦ ، ونسبها المقريزى فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٥ ، ٦٧ (قسم أوّل) إلى ابن الكلبى .

(٥) نقله الطبرى ٢ : ١٧٦ ، وقد حكى القولين غير منسوبين ابن عبد البر فى الاستيعاب ١ : ١٥ .

(٦) التكملة عن الطبرى ٢ : ١٧٦ .

(٧) فى الأصل : « ... ابن النجار ، وكان يحيى بن معين يقول : كتاب موسى بن عقبة عن الزهرى أصح هذه الكتب ، وقد تقدم الخ » . وهى جملة دخيلة على النص ، فوجب إبعادها .

ذكر ما قيل فى سبب تسميته وكنيته

أمّا سبب تسميته شَيْبة فقيل إن أمّه ولدته وفى رأسه شَيْبة[1]، وكانت ظاهرةً فى ذُؤابته، فسمَّته شَيْبَة، وذلك فى غَيْبة أبيه. وقيل: إن أباه أوصاها إذا ولدت ذكرا أن تُسمّيه شَيْبة، فهو شَيْبةُ الحَمْد[2].

١٣/١٤ وفى تسميته[3] عبد المطلب أنه لمّا مات هاشم أقام شَيْبة بالمدينة عند أمه إلى أن بلغ سبع سنين، فمرّ رجل من بنى الحارث[4] بن عبد مناف[5] بالمدينة، فإذا غلمان يَنتضِلون[6]، فجعل شَيْبَة إذا أصاب[7] قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البَطْحاء[8]، فقال له الحارثىّ[9] من أنت قال: أنا شَيْبَة بن هاشم، بن عبد مَناف. فلما أتى الحارثىّ مكّة قال للطلب، وهو بالحِجْر[10]: يا أبا الحارث، رأيت ابن أخيك هاشم بيَثْرِب، وأخبره بحاله، ولا يَحْسُن بك أن تَتْرك مثله، فقال المطّلب: والله لا أرجع إلى أهلى حتى آتى به؛ فأعطاه الحارثىّ ناقته فركبها وقدم المدينة عشاء، فإذا غلمان يضربون

(١) تقدّم ذلك عن ابن الأثير ٢: ٤.

(٢) هذا قول محمد بن إسحق، وصححه السهيلى ١: ٦، وانظر الزرقانى على المواهب ١: ٧١

(٣) فى الأصل: «وفى تسمية عبد المطلب»، ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) فى الخبر عن البشر ٣: ٦٦ (قسم أوّل): «رجل من أهل تهامة».

(٥) فى الطبرى ٢: ١٧٧: «عبد مناة بيثرب».

(٦) ينتضلون: يستبقون فى رمى الأغراض بالسهام.

(٧) فى الطبرى ٢: ١٧٧: «إذا خسق».

(٨) يريد بطحاء مكّة، وهى متسع سهل بها. وانظر معجم البلدان ١: ٢١٣، ٢١٥، والخشنى ١: ٤٤

(٩) فى الأصل: «الحارث» تصحيف.

(١٠) الحجر بالكسر: حجر الكعبة، وهو ما تركت قريش فى بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام، وحجرت على الموضع ليعلم أنه من الكعبة. معجم البلدان ٣: ٢٢١، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ٢: ٨٠، تاج العروس (حجر).

كُرَة ، فعرف آبن أخيه ، فقال للقوم : هـذا آبن هاشم ؟ [١] قالوا نعم ، فبلغ أُمَّه أنه جاء ليأخذه فقالت : والله لو أنّ لك مالا مثل أُحُد [٢] ما أعطيتك إياه ، فقال : لا أنصرف حتى أَخْرُجَ به ؛ إنّ ابن أخى قد بَلَغ ، وهو غريب عن قومه . فيقال إنها دفعته إليه فأخذه بإذنها . وقيل إنه أَخَذه آختلاسا ، وأعانه على أخْذه رجل من خُزَاعة .

وقال آبن سعد فى طبقاته [٣] عن محمد بن واقد الأسلمىّ : إن ثابت بن المُنذر ابن حَرام ، وهو أبو حسّان بن ثابت الشاعر ، قدم مكّة مُعتَمِرا ، فلقِى المطّلب ، وكان له خليلا ، وكان المطّلب قد ولى السّقاية والرِّفادة بعد موت هاشم ، فقال له ثابت : لو رأيتَ آبنَ أخيك شَيْبة فينا لرأيتَ جَمالًا وهَيْبةً وشَرَفا ؛ لقد نظرتُ إليه ، وهو يناضل [٤] فِتيانًا من أخواله ، فيُدْخل مِرْماتَيْه [٥] جميعا فى مثل راحتى هذه ، ويقول كلما خَسَق [٦] : أنا ابن عَمْرو العُلَى ! فقال المطّلب : لا أُمْسى حتى أَخْرُجَ إليه فأَقْدَم به ، فخرج [٧] فورد المدينة ، فنزل فى ناحية ، وجعل يَسأل عنه حتى وجده يَرمى فى فتيان من أخواله ، فلما رآه عرف شَبَه أبيه فيه ، ففاضت عيناه ، وضَمّه إليه وكساه حُلّةً يمانية ، وأنشأ يقول :

عَرَفْتُ شَيْبةَ والنّجّارُ قد حفَلَت * أبناؤها حولَه بالنَّبْل تنتضلُ
عَرَفتُ أَجلادَه [٨] منّا وشِيمَتَه * ففاض منّى عليه وابِلٌ سَبِل [٩]

(١) فى الطبرى ٢ : ١٧٧ : « أهـذا ابن هاشم » . (٢) الكلمة فى الأصل غير واضحة ، ولعل ما أثبت أقرب إلى الأصل . (٣) فى الطبقات ١ : ٤٨ (قسم أول) .
(٤) يناضل فتيانا : يباريهم فى الرمى . (٥) المرماتان : سهمان يرمى بهما الرامى فيحرز سبقه .
(٦) خسق السهم : أصاب الغرض (٧) اختصر المؤلف نص ابن سعد ، وانظر الطبقات ١ : ٤٨ (قسم أول) . (٨) أجلاد الإنسان : جماعة شخصه ، ومن كلامهم : « ما أشبه أجلاده بأجلاد أبيه أى شخصه وجسمه » . (٩) أسبل الدمع : هطل ، والاسم السبل .

فأرسلت سلمى إلى المطّلب، فدعته إلى النزول عليها فقال: شأنى أخفّ من ذلك، ما أريد أن أحلّ عقدةً حتى أقبض آبن أخى فألحقه ببلده وقومه، فقالت: لستُ بمرسلته معك، وغلّظت عليه فقال: لاتفعلى[(١)] فإنى غيرُ منصرف حتى أخرج به معى، فإنّ المُقام ببلده خيرٌ له من المُقام ههنا، وهو ابنك حيث كان؛ فلما رأت أنه غير مقصّر حتى يخرج به استنظرته ثلاثة أيام، وتحوّل المطّلب إليهم ونزل عندهم[(٢)]، وأقام ثلاثا ثم آحتمله وانطلقا جميعا، ودخل به إلى مكّة فقالت[(٣)] قريش: هذا عبد المطّلب! فقال: ويحكم إنما هو آبن أخى شيبة بن عمرو.

وقيل إنه لما دخل إلى مكّة دخلها وشيبةُ معه على عجز ناقته، وذلك ضُحًى[(٤)]، والناسُ فى أسواقهم ومجالسهم، فقاموا يُرحّبون بقدوم المطّلب ويقولون له: من هذا معك؟ من هذا وراءك؟ فيقول: هذا عبدى، وفى رواية هذا عبدٌ آبتعته بيثرب[(٥)]، فأدخله المطّلب منزله على آمرأته خديجة بنت سعيد بن سهم، فقالت: من هذا معك؟ قال: عبدٌ لى؛ وآشترى له حُلّةً فلبسها، ثم خرج به العشىّ إلى مجلس بنى عبد مناف وأعلمهم[(٦)] أنه آبنُ أخيه؛ فجعل شيبةُ يطوف بمكّة، فإذا مرّ بقوم قالوا: هذا عبد المطّلب، فغلب ذلك عليه.

وفى تكنيته بأبى البطحاء أنه آستسقى لأهل مكّة فسُقوا لوقتهم، فقال له مشايخ قريش عند ذلك: هنيئا لك أبا البطحاء. وسنذكر إن شاء الله تعالى

(١) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٨ (قسم أوّل): «فقال المطلب لاتفعلى».
(٢) فى ابن سعد ١ : ٤٨ (قسم أوّل): «فنزل عندهم».
(٣) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٨ (قسم أوّل): «إلى مكّة ظهرا فقالت».
(٤) كذا فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٨ (قسم أوّل)؛ وفى كامل ابن الأثير ٢ : ٥ : «فقدمها ضحوة».
(٥) فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٨ (قسم أول): «عبد لى ابتعته».
(٦) فى ابن الأثير ٢ : ٥ : «فأعلمهم».

هذه القصّة بطولهــا فى المبَشِّرات برسول الله صلى الله عليــه وسلّم . فهذه أسباب تَسميته وتَكنيته[1] . والله أعلم .

وكان عبد المطلب جَسِيما ، أبيضَ ، وسيما ، طُوَالا ، فصيحا ؛ ما رآه أحَدٌ قطّ إلا أحبّــه . قال الواقدى : وأقام عبــدُ المطّلب بمكّة حتّى أدرك ، وخرج المطّلب بن عبد مَناف تاجرًا إلى أرض اليَمَن ، فهلك بَرْدمان من أرض اليمن ، فولِى عبدُ المطّلب بعدَه الرِّفادة والسِّقاية ؛ فلم يزل ذلك بيده .وهو يُطعِم[2] الحاجّ ويَسْقِيهم فى حِياض الأَدَم حتى حَفر زَمزَم ، فترَك السَّقىَ فى الحِياض ، وسقاهم من زَمزَم ، وكان يَحمِل المـاء من زَمزَم إلى عرفة فيَسقيهم . والله أعلم .

ذكر حَفْر عبد المطّلب زَمْزَم وما وُجِد فيها

قال محمــد بن إسحاق بن يســار رحمه الله بسنَدٍ رفَعه إلى علىّ بن أبى طــالب رضى الله عنــه قال[3] : قال عبــد المطّلب ؛ إنى لَنــائم فى الحِجْــر ، إذ أتانى آتٍ فقال : احفِر طِيبــة[4] قال : قلت : وما طِيبَــة ؟ قال : ثم ذهَب عنى ؛ فلمــا كان الغَد رجعت إلى مَضجِعى فنمتُ فيــه ، فجاءنى فقال[5] : احفِر زَمزَم ، قال : قلت وما زَمزَم ؟ قال : لا تُنزَف أبدا[6] ولا تُذمّ[7] ، تَسْقى الحَجيجَ الأعظم ، وهى بينَ الفَرث

(١) فى الأصل : «تسميه وكنيته» . (٢) رواية ابن سعد ١ : ٤٩ ١ (قسم أوّل) : «بيده يطعم الحاج ويسقيهم فى حياض من أدم» . (٣) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٥١ — ١٥٢ .

(٤) طيبة بكسر الطاء : علم على بئر زمزم . وانظر معجم البلدان ٦ : ٧٧ ، تاج العروس (طيب) .

(٥) اختصر المؤلف نص ابن إسحاق ، وقد ذكر بأوسع مما هنا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥١ . وانظر طبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول) ، وابن الأثير ٢ : ٥ . (٦) أى لا يفنى ماؤها على كثرة الاستقاء . وفى طبقات ابن سعد ٢ : ٤٩ (قسم أول) : «لا تنزح ولا تذم» . وفى ابن الأثير ٢ : ٥ : «قال : تراث من أبيك الأعظم لا تنزف ولا تذم» . (٧) لهم فى معنى «لا تذم» ثلاثة أقوال ، أحدها : لا تعاب من قولك ذممته : إذا عبته ، والثانى : لا تلفى مذمومة ؛ يقال : أذممته إذا وجدته مذموما ، والثالث : لا يوجد ماؤها قليلا ناقصا ؛ من قولك بئر ذمة : إذا كانت قليلة الماء .

والدّم، عند نُقْرة الغُراب الأَعصَم[1]، عنـد قَرية النّمل[2]. قال[3]: فلما بُيّن له شأنُها، ودُلّ على موضعها، وعَرَف أنه قد صُدِق، غَدَا بِمعْوله[4]، ومعـه ٱبنه الحارث، وليس له[5] يومئـذ ولدٌ غيرُه لحفَر، فلمّا بدَا لعبد المطّلب الطى[6] كَبّر، فعرَفَت قُرَيْش أنه قد أدرك حاجتَه، فقاموا إليه فقالوا: ياعبدَ المطّلب، إنّها بئر أبينا إسماعيل، و إن لنا فيها حَقّا، فأَشرِكنا مَعك فيها، قال: ما أنا بفاعل، إن هـذا الأمرَ قد خُصِصْتُ به دونَكم، وأعطِيتُه من بينكم، قالوا له: فأَنصِفنا، فإنا غيرُ تاركيك حتى نُخاصِمَك فيها، قال: فاجعلوا بيني و بينَكم مَن شئتُم أحاكِمْكُم إليه، قالوا: كاهنة بَني سَعْد بن هُذَيم[7]، قال نعَم. وكانت بِمَعان[8] من أشراف الشّام فركب عبدُ المطّلب ومعـه نَفَر من بَني أبيه من بَني عبد مَناف، وركب[9] من كُل قبيلة من قُرَيْش نفَرٌ

(١) الغراب الأعصم: الأحمر الرجلين والمنقار، أو هو الذى فى أحد جناحيه، أو فى إحدى رجليه ريشة بيضاء؛ وهذا الوصف عزيز الوجود فى الغربان. وكان — فيا رواه ابن سعد فى الطبقات ١ : ٤٩ (قسم أول) — غراب أعصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفرث والدم. وانظر تاج العروس (عصم)، ودلائل النبوة للبيهقى ١ : ٢٠ ظ. (٢) قرية النمل: الموضع الذى يجتمع فيه النمل.

(٣) القائل هو ابن إسحق، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ١٥١. (٤) المعول: الفأس.

(٥) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول): «الحارث وليس له».

(٦) قال الخشنى ١ : ٥١: «الطى: الحجارة التى طويت بها البئر، سميت بالمصدر». وفى طبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول): «الطوى». والطوى: البئر المطوية بالحجارة.

(٧) كذا فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول). وفى تاج العروس (هذم): «وسعد ابن هذيم كزبير باثبات الألف [يعنى فى «ابن»] بين سـعد وهذيم: أبو قبيلة، وهو ابن زيد بن ليث بن سود، لكن حضنه عبد حبشى أسود اسمه هذيم فغلبه عليه، ونسب إليه». وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ ولسان العرب (هذم): «سعد هذيم». وانظر الخشنى ١ : ٥٠، والسهيلى ١ : ١٦.

(٨) معان بفتح الميم وضمها: مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز. معجم البلدان ٣ : ٩٣، تاج العروس (معن). (٩) فى الأصل: «من بنى أمية؛ وركب»، والتصويب والتكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢، وطبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول). وفى ابن الأثير ٢ : ٥، وشرح المواهب للزرقانى ١ : ٩٣: «ومعه نفر من بنى عبد مناف».

والأرضُ إذ ذاك مَفاوِز ، فخرجوا(١) حتى إذا كانوا ببعض تلك المَفاوز بين الحجاز والشام ، فَنِيَ ماءُ عبد المطّلب وأصحابه ، فظمِئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقَوا مَن معَهم من قبائل قُرَيش فأبَوا عليهم ، وقالوا : إنّا بمَفازة ، ونحنُ نخشَى على أنفسُنا مثلَ ما أصابكم ؛ فلما رأى عبد المطّلب ما صَنَع القوم ، وما يتخوّف على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تَبَعٌ رأيك(٢) ، فمُرنا بما شئت ، ٥
قال : فإنى أرى أن يحفِر كلّ رجل منكم حُفرتَه لنفسه بما بكم الآن من القوّة ، فكلّما مات رجل دفَعه أصحابُه فى حُفْرته ثم واروه ، حتى يكونَ آخرُكم رجلا [واحدًا](٣) فيموتَ ضَيعةً(٤) ، فضيعة رجل واحد أيسَرُ من ضَيعة رَكْبٍ جميعا ، قالوا : نِعْمَ ما أمرتَ به . فقام كل رجل منهم فحفر حُفرتَه(٥) ؛ ثم قعَدوا ينتظرون الموت عطشًا ؛ ثم إن عبد المطّلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءَنا بأيدينا هكذا للموتِ لَعَجْزٌ(٦) ، ألَّا نَضربُ ١٠
فى الأرض ، ونَبتَغى لأنفسنا ؟ فعسَى اللهُ أن يرزقَنا ماءً ببعض البلاد . ارتحِلوا ! فارتحَلوا حتى إذا فرَغوا ، ومَن معَهم من قبائل قُرَيش ينظرُون إليهم ماهُم فاعلون ، تقدَّم عبدُ المطّلب إلى ناقته فركبها(٧) ، فلمّا انبعَثت به انفجَرت من تحت خُفّها عينُ [من](٨) ماءٍ عَذْب ، فكبَّر عبدُ المطّلب وكبر أصحابُه ، ثم نزَل فشرب ، وشرِب أصحابُه ،

---

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ : « قال : فخرجوا » . (٢) فى ابن هشام : ١٥
« إلا تبع لرأيك » . (٣) إضافة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ . وفى ابن الأثير ٢ : ٦ :
« حتى يكون آخركم موتا قد وارى الجميع ، فضيعة » . (٤) مات ضَيعة بكسر الضاد :
أى غير مفتقد ولا متعهد . (٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ « فقام كل واحد منهم » .
(٦) فى شرح المواهب للزرقانى ١ : ٩٣ : « ... للموت عجز ، لنضربن فى الأرض » ، وفى سيرة ابن
هشام ١ : ١٥٢ ، وابن الأثير ٢ : ٦ : « ... للموت لانضرب فى الأرض ، ولا نبتغى لأنفسنا لعجز » . ٢٠
(٧) فى ابن هشام ١ : ١٥٢ : « إلى راحلته » . (٨) زيادة عن ابن هشام ١ : ١٥٢ ،
وفى ابن الأثير ٢ : ٦ : « عين عذبة من ماء » .

وٱستقَوا حتى ملأوا أسقِيَتهم ، ثم دَعا القبائل من قُرَيش فقال : هَلُموا[1] إلى المـاء ، فقد سـقانا الله ، فٱشرَبوا وٱسـتَقُوا ، فجاءوا فشربوا وٱستقَوا ثم قالوا : قد والله قُضى لك علينا يا عبدَ المطّلب ، والله لا نُخاصِمُك فى زَمزَم أبدا ، إن الذى سقاك هذا المـاءَ بهذه الفَلاة لهو الذى سقاك زَمزَم ، فٱرجِع إلى سِقايتك راشدا ، فرجع ورجَعوا معه ، ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلَّوا بينَه و بينَها .

هذا أحد ما قيل فى حفر زمزم .

وفى رواية أخرَى : أنه قيل له : احفِر زَمزَم ، إنك إن حفَرتَها لم تندَم ، وهى تُراثٌ من أبيك الأعظم ، لا تُنزَف أبدا ولا تُذَم ، تَسقِى الحَجيجَ[2] لأعظم ، مثل نعام جافلٍ[3] لم يُقسَم . يَنـذِر فيها ناذرٌ لمنعِم ، تكون ميراثه وعقـدًا مُحكَم ، ليسَت كبعض ما قد تَعلَم ، وهى بينَ الفرث والدَم[4] .

قال ٱبن إسحاق : فزعَموا أنه حين قيل له ذلك قال : فأَين هى[5] ؟ قيل له عند قَريةِ النَّمـل[6] ، حيث يَنقُر الغرابُ غدا . فغدا[7] عبدُ المطّلب ومعـه ٱبنه الحارث ، فوجَد قريَةَ النَّمـل ، ووجد الغُراب ينقرُ عندَها بين الوثَنَين : إسَاف[8] ونائلة اللَّذَين كانت قُرَيش تنحرَ عندَهما ذَبائحَها ، فجاء بالمِعْوَل ، وقام ليحفِر حيثُ أُمِر ، فقامت

(١) كذا فى ابن الأثير ٢ : ٦ ، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ : « هلم إلى المـاء » .

(٢) جمع حاج . (٣) جافل : شارد . (٤) قال ابن هشام (١ : ١٥٤) . « وهذا الكلام ، والكلام الذى قبله من حديث على رضى الله عنه فى حفر زمزم ، من قوله : « لا تنزف ولا تذم » إلى قوله : « عند قرية النمل » عندنا سجع وليس شعرا » . (٥) نقله ابن هشام ١ : ١٥٤ .

(٦) فى ابن هشام ١ : ١٥٤ : « قال : وأين » . (٧) فى سـيرة ابن هشام ١ : ١٥٤ : « فعدا » بالعين المهملة . (٨) إساف « بوزن كتاب ، وسحاب » : صنم وضعه عمرو ابن لحى الخزاعى على الصفا ، ووضع نائلة (صنم أيضا) على المروة ، وحولها قصة تجدها فى كتاب الأصنام ، وتاج العروس (أسف) ، وشرح المواهب للزرقانى ١ : ٩٥ .

إليه قُرَيْش حين رأوا جِدّه فقالوا : والله لا نتركك تحفِرُ بين وثَنَيْنا هذَيْن اللذَيْن نَنحَرُ عندهما ؛ فقال عبد المطّلب لابنه الحارث : ذُدْ عنّي حتى أحفر، فوالله لأمضِيَنّ لما أُمرتُ به ، فلمّا عرَفوا أنه غير نازِع[1] خلّوا بينَه و بين الحفر وكفّوا عنه ، فلم يَحفِر إلا يسيرًا حتّى بدَا له الطَّيّ ، فكبّر وعرَف أنه قد صُدِق، فلما تمادَى به الحفْر وجد فيها غزالَين[2] من ذَهَب ، وهما الغزَالان اللذَان دفنتْ جُرْهُم فيها حين خَرَجَت من مكّة ، ووجد فيها سُيوفا قَلْعِيّة[3] وأدْرَاعا ، فقالت له قُرَيش : لنا معك في هذا شِرْكٌ[4] وحَقّ، قال : لا . ولكن هَلُمّ إلى أَمْرٍ نَصَف[5] بيني و بينكم ؛ نَضرِبُ عليها بالقِداح[6]، قالوا : وكيف نَصنَع؟ قال : أجعلُ للكعبة قِدْحَيْن، ولي قِدْحَيْن، ولكم قِدْحَيْن، فمَن خرَج قِدحاه على شيء كانَ له ،ومن تخلّف قِدْحاه فلا شَيْءَ له ، قالوا : أنصفْت ، فجعل قِدْحَيْن أصفرَيْن للكعبة، وقِدْحَيْن أسودَيْن له ، وقِدْحَين أبيضين لقُرَيش، ثم أعطَوها صاحبَ القداح الذى يَضرِب بها عند هُبَل،وهُبَل صَنَم في جوف الكَعبة ، وهوأعظم أصنامهم[7]، وقام عبد المطّلب يدعو[8]،وضرب صاحبُ

(١) نزع عن الأمر : كف عنه ، وفى الزرقانى ١ : ٩٥ : «غير تارك » .

(٢) فى الأصل : « فيها عين البئر من ذهب » ، تحريف .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٤ ، وابن الأثير ٢ : ٧ : « أسيافا قلعية » ، والقلعية نسبة إلى القلعة بفتح فسكون ، والمسمى بالقلعة موضعان أحدهما بالهند، والثانى باليمن ، و إليهما معا تنسب السيوف القلعية وانظر تاج العروس (قلع) . وفى ابن سعد ١ : ٥٠ (قسم أول) : « سيوفا قلعية وأظفارا » .

(٤) شرك : أى حصة ونصيب .

(٥) النصف : أن تعطى غيرك من الحق كالذى تأخذ لنفسك .

(٦) جمع قدح (بكسر فسكون) ؛ وهو سهم بغير نصل كانوا يستقسمون به ، وفى كيفية الاستقسام تفصيل تجده فى كتاب المسير والقداح لابن قتيبة ص ٣٨

(٧) أنظر البداية والنهاية ٢ : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١

(٨) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ : « يدعو الله عز وجل ، فضرب » .

القِـداح، فخرج الأصفران على الغزالَيْن [للكعبة][1]، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطّلب، وتخلّف قدحا قُرَيش، فضرب عبدُ المطّلب الأسيافَ بابًا للكعبة، وضربَ فى الباب الغزالَيْن[2]، فكان أول ذَهَبٍ حُلِّيَتْه الكعبة. وقيل إنه جعل القُفل والمفتاح من ذَهَب الغزالَيْن[3]. وعن محمّد بن عمرو بن واقد قال: كانت جُرهُمُ[4] حين أحسُّوا بالخروج من مكّة دفَنوا غزالَيْن وسبعةَ أسياف قَلْعِيّة، وخمسة أدراعٍ [سوابغ][5]، فوجدها عبد المطّلب.

هذا خبر حفر زَمزَم وما وُجد فيها، وقد تقدّم ذكر سبب خبر ردّمها فى أثناء أخبـار قُصَىّ بن كِلاب؛ فلنَذكُر من أخبار عبـد المطّلب خلافَ ذلك. والله الموفق للصواب.

ذكر خبر استسقاء عبد المطّلب لبنى قَيْس عَيلان[6] وهُذَيل ومَن معهم

حكى الزُّبَير بن بكّار فى أنساب قُـرَيش وبَنى هاشم، وبَنى عبد المطّلب قال: روَى إبراهيم بن محمد الشافعى عن أبيه، عن الوليد بن خالد المخزومىّ، عن سَعد بن حُذَافة الجُمَحىّ، عن محمد بن عَطِية العَوْفى، عن رجل من هُذَيل قال: قَحطتْ بلادُ

(١) تكملة عن سيرة ابن هشام ١: ١٥٥، والبداية والنهاية ٢: ٢٤٦.

(٢) فى البداية والنهاية ٢: ٢٤٦ وسيرة ابن هشام ١: ١٥: «الغزالين من ذهب، فكان».

(٣) فى طبقات ابن سعد ١: ٥٠ (قسم أول): "فضرب الغزالين صفائح فى وجه الكعبة، وكان من ذهب، وعلق الأسياف على البابين يريد أن يحرز به خزانة الكعبة؛ وجعل المفتاح والقفل من ذهب».

(٤) فى طبقات ابن سعد ١: ٥٠ (قسم أول): «قال: وكانت».

(٥) تكملة عن ابن سعد ١: ٥٠ (قسم أول).

(٦) فى الأصل «غيلان» بالمعجمة تصحيف.

قَيس، وأجدبت فلم تُصبهم سَماء يعقد بها الثَّرَى، ولا ينبُت بها الكَلَأ، فذاب الشّحم، وذهب اللحم، وتهافتوا ضُرًّا وهَزْلا، فاجتمعوا للشورَة و إجالة الرأى، وقد عزَموا على الرّحلة وانتجاع البلاد، فقالت فرقة منهم: انتجعوا بلادَ سَعد و بَطن العُشر (١)، وقالت فِرقَة أُخرَى: إنّ تَمِيًا عددٌ كثير لا يفضُل منهم ما يكفيكم، وقالت فرقة أُخرَى: لينتجع كلُّ ولدِ أبٍ منكم ولدَ أبٍ من غيركم، واعقِدوا معهم حِلفا تَشْرَكونهم به فى رَبعهم (٢)؛ فقام رجل حسَن الوَجه، مجتمع الخَلْق، جيّد الرأى، فقال: يابَنِي عَيلانَ (٣)، إنكم قد أصبحتُم فى أمرٍ ليس بالهَزْل؛ هذا أمر عظيمٌ خطَرُه، متباعدٌ أمرُه؛ قد بلَغَنا أن عبد المطّلب بن هاشم سيّد البَطْحاء استَسقَ فسُقِى، ودعَا فأُجيب، واستُجير به فأجار، فاجعَلوا قصدَكم إليه، ووفادتَكم عليه، فإن ذلك أوكَدُ للسّببَ، وأوجَهُ فى الطّلَب. قالوا: أحسَن الرّأى، فرحلت قيس وهُذَيل، ومَن دنَا منهم حتّى أتَوا عبدَالمطّلب، فقالوا: أفلَح الوجهُ أبا الحارث! نحن ذَووا أرحامك الواشِجات (٤)، أصابتنا سنُون مُجْدِبات، أهزَلن السّمين، وأنفَذن (٥) المَعين، وقد بلَغَنا خبرُك، و بان لنا أمرُك (٦)، وكلامًا نحوَ هذا.

فقال: موعدكم جبلُ عَرَفات، ثم خرج فى بَنِيه و بَنِى أُميّة حتى أتَى جَبَل عَرفات، فصعِد الجبل فقال: اللّهم ربَّ الريح العاصف، والرّعد القاصف، والبرق الخاطف، مُنشِئ السّحاب، ومالك الرّقاب، ذى المِنَن العِظام، والأيادى الجِسام؛ هذه مُضَر

(١) العشر بضم ففتح: شعب لهذيل قرب مكة، أو واد فى ديار تميم بين البصرة ومكة. و يقال: طن ذى عشر. ياقوت ٣: ١٧٩، تاج العروس ٣: ٤٠٤، لسان (عشر). (٢) الربع: المنزل. وفى الأصل: «ربعهم». (٣) فى الأصل: «غيلان» بالمعجمة، تصحيف.
(٤) أرحام واشجة: متصلة متآلفة. (٥) فى الأصل: «وأنفدنا»، تصحيف.
(٦) فى الأصل: «وبارلنا»، ولعل الصواب ما أثبت.

خيرُ البشر، تشكو سوءَ الحال، وشدّة الإمحال، قد احدودبت ظهورُها، وغارَت عيونُها، وشعِثَت شعورُها، وقد خلفوا نساء ضُلّعا، وصبيانا رُضّعا، وبهائم رُتّعا. فآتهم اللهم ريحًا جَرارة، وسحابا درّارة، تُضحِك أرضَهم، وتكشِف ضُرّهم. فما فرغ من كلامه حتى نشأت سَحابة دَكْناء فيها وذْق شَديد، فقال: هى هى، ثم قال يا معشرَ مُضَر، آرجِعوا فقد سُقِيتم، فرَجَعوا وآخضرَّت أرضُهم، وكثُرت مياهُهم.

هذا ما أورده الزُّبَير بن بكّار راوِى هذه القصّة، والله أعلم. [و] كانت بعد أن آستسقى لقُرَيش، وذلك بعد مَوْلد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى مُستَوفًى فى المُبشِّرات برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا. والله تعالى عز وجل أعلم.

ذكر نَذْر عبد المطّلب نحرَ آبنه وخروج القِداح على عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدائه

قال محمد بن سَعد فى طبقاته الكُبرى[1]، عن محمد بن عمرَ بن واقد الأسلَمىّ بسنَد رفَعه إلى عبد الله بن عبّاس وغيره رضى الله عنهم: «إن عبدَ المطّلب بنَ هاشم لما رأى قلّةَ أعوانه فى حَفْر زَمزَم نَذَر لئن أكمل الله له عشَرةَ ذكورٍ حتّى يراهم ــ أن يذبَح أحدَهم، فلما تكاملوا عشرةً[2] وهم: الحارث، والزُّبير[3]، وأبو طالب، وعبد الله، وحَمْزة، وأبو لَهَب، والغَيداق[4]، والمُقوَّم[5]، وضِرار، والعبّاس». هكذا نقل محمد

(١) ١: ٥٣ (قسم أوّل). (٢) فى طبقات ابن سعد ١: ٥٣ (قسم أول): «عشرة، فهم».
(٣) الزبير: بفتح الزاى عند البلاذرى وأبى القاسم الوزير، وضمها عند غيرهما. الزرقانى ١/ ٩٤.
(٤) اسم الغيداق: حجل، ولقب بالغيداق لكثرة خيره وسعة ماله. وآنظر الزرقانى ١: ٩٤، وسيرة ابن هشام ١: ١١٤. (٥) المقوم بكسر الواو المشدّدة وفتحها. وآنظر الزرقانى ١: ٩٤.

ابن سَعْد، وعد من العشرة حَمْزَةَ والمُقَوّم، ويردّ[1] هذا العددَ ما رُوى أن عبد المطّلب لم يتزوج أمّ حَمْزة إلا بعد الفِداء، وقد عدّ محمد بن السائب الكَلْبيّ أولادَ عبد المطلب الذكور اثنى عشر، فيهم المُغيرة، وقُثَم؛ وعدّهم الزُّبير بن بكّار ثلاثة عشر فيهم عبدُ الكَعبة، وحَمْزة، والمُقَوّم، والمُغيرة؛ هؤلاء الثلاثة إخوةٌ أشقّاء كلُّهم لهالَةَ بنت وُهيب[2]، وزواجُ عبدِ المطّلب هالةَ هذه كان بعد الفِداء على ما حكاه ابن سعد أيضا عن الواقدى، ولعلّ العشرة تَكمُل بقُثَم وعبدِ الكعبة. والله تعالى أعلم.

فلنرجع إلى سِياقة خبر محمد بن سَعد قال: «فلما تكاملوا عشرةً جمعهم، ثم أخبرَهم بنَذره، ودَعاهم إلى الوَفاء لله [به][3]، فما اختلَف عليه منهم أحَد، وقالوا: أَوْفِ بنَذْرك، وافعَل ما شئت، فقال: ليكتُبْ كل رجل منكم اسمَه فى قِدْحه ففعلوا، فدخل عبدُ المطّلب فى جَوْف الكعبة وقال للسادن[4]: اضرب بقِداحهم فضرب، فخرج قِدْح عبد الله أولَها، وكان عبدُ المطّلب يحبُّه، فأخذَ بيده يقوده إلى المذبَح ومعه المُدْيَة، فبكَى بناتُ عبد المطّلب وكنَّ قياما، وقالت إحداهنّ لأبيها: أعذِر فيه بأن تَضرب فى إبلك السَّوائم التى فى الحَرَم، فقال للسّادِن: اضرب عليه بالقِداح، وعلى عَشَرة من الإبل[5]، وكانت الديَةُ يومئذ عشرة من الإبل، فضَرب فخرج القِدْح على عبد الله، فجعل يزيد عشرًا عشرا، كلُّ ذلك

(١) أورد الزرقانى فى شرح المواهب ١/٩٤ هذا الاعتراض وناقشه.

(٢) فى الأصل: «أهيب»، والذى أثبت عن المعارف لابن قتيبة ص ٥٢، والزرقانى ١: ٩٤.

(٣) التكملة من طبقات ابن سعد ١: ٥٣ (قسم أول)، وسيرة ابن هشام ١: ١٦٠، وتاريخ الطبرى ٢: ١٧٣.

(٤) السادن: خادم بيت الأصنام.

(٥) فى طبقات ابن سعد ١: ٥٣ (قسم أول): «وعلى عشر من الابل، وكانت الدية يومئذ عشرا من الابل».

يخرج القِدْح على عبد الله حتى كَمَلَت مائة[1]، فضرب [بالقِدَاح][2] فخرج علىَ الإبل، فكبَّر عبد المطّلب والنـاسُ معه، واحتَمَل بناتُ عبد المطّلب أخاهنّ عبد الله، وقدَّم عبدُ المطّلب الإبلَ فنحرها بين الصَّفا والمروَة، وخلَّى بينها و بين كلّ من وَرَدها من إنسيٍّ أو سَبُعٍ أو طائر، لم يَذُبَّ[3] عنها أحدا، ولم يأكل منها هو ولا أحدٌ من ولده شيئا .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كانت الديةُ[4] يومئـذٍ عشرا من الإبل، وعبدُ المطّلب أوّلُ من سَنّ ديةَ النّفس مائةً من الإبل، فجرت فى قُرَيش والعرب مائة[5]، وأقرّها[6] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على ما كانت عليه .

هذا ما أورده محمد بن سَعد فى طبَقاته[7] . وقال أبو محمد عبـد الملك بن هشام فى السِّيرة : قال ابن إسحاق : وكان عبدُ المطّلب قد نَذَر حين لَقِىَ من قُرَيش ما لَقِىَ عنـد حَفر[8] زمزم : لئن وُلِد له عشَرة نفَر، ثم بلَغُـوا معه حتّى يَمنعوه، ليَنْحَرنّ أحدَهم لله تعالى عنـد الكعبة، فلمـّا توافى بنوه عَشَرة، وعَرَف أنهم سَيَمنعُونه جمَعَهـم ثم أخبَرَهم بنَـذْره، ودَعاهم إلى الوَفاء لله[9] بذلك، فأطاعوه وقالوا كيف نَصـنَع؟ قال : ليأخذ[10] كلُّ رجل منكُم قِدْحا، ثم ليَكتُب[11] فيـه آسمَه، ثم آئتونى[12]،

(١) رواية ابن سعد ١ : ٥٣ (قسم أول) : «حتى كلت المائة» . (٢) عن طبقات ابن سعد ١ : ٥٣ (قسم أول) . (٣) رواية ابن سعد ١ : ٥٤ (قسم أول) : «أو طائر، لا يذب» . (٤) فى الأصل : «عنهما، وكانت»، والمثبت رواية ابن سعد ١ : ٥٤ (قسم أول) . (٥) فى ابن سعد ١ : ٥٤ (قسم أول) : «مائة من الابل، وأقرها» . (٦) انظر الخبر عن البشر ٣ : ٨٩ (قسم أول) . (٧) السيرة ١ : ١٦٠ . وانظر الطبرى ٢ : ١٧٣ . (٨) فى الطبرى ٢ : ١٧٣ : «ما لقى فى حفر» . (٩) فى البداية والنهاية ٢ : ٢٤٨ : «لله عز وجل بذلك» . (١٠) فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٧٣ : «يأخذ كل واحد» . (١١) فى سيرة ابن هشام : «ثم يكتب»؛ وفى دلائل النبوة للبيهقى ١ : ورقة ٢١ أ : «قدحا، فيكتب» . (١٢) فى دلائل النبوة للبيهقى ١ : ورقة ٢٤ أ : «ثم يأتونى»

فَفعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هُبَل فى جوف الكعبة ، وكان هُبَل[1] على بئر فى جَوْف الكَعْبة ، وكانت تلك البئر هى التى يُجمع فيها ما يُهدَى للكعبة ، وكان عند هُبَل قِداحٌ سبعة ، كلُّ قِدْح منها فيه كتاب ، قدح فيه « العَقْل » إذا اختلفوا فى «العَقْل»[2] من يحمله منهم ضربوا بالقِداح السبعة[3] ، فعلى مَن خَرَج قِدْح «العَقْل» حَمْله ؛ وقِدْحٌ فيه « نَعَم » للأمر إذا أرادوه يُضرَب به فى القِداح ، فإن خَرَج قِدْح « نَعَم » عَمِلوا به ؛ وقِدْحٌ فيه « لا »[4] ، فإن خَرَج ذلك القِدْح لم يفعلوا ذلك الأمر ؛ وقِدْح فيه « منكم » ؛ وقِدْح فيه « مُلْصَق » ؛ وقِدح فيه « مِن غيركم » ؛ وقِدح فيه « المياه » إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضَربوا بالقِداح فيها ذلك القِدْح ، فحيثما خرج عَمِلوا به .

وكانوا إذا أرادوا أن يَختِنوا غلامًا أو يُنكِحوا مَنْكَحا ، أو يَدفِنوا ميّتا ، أو شَكّوا فى نسَب أحدهم ، ذهبوا إلى هُبَل وبمائة درهم وجَزُور ، فأعطوها صاحبَ القِداح الذى يَضْرِب بها[5] ، ثم قرّبوا صاحبَهم الذى يُريدون به ما يُريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا ! هذا فُلانُ بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرِج الحقّ فيه ، ثم يقولون لصاحب القِداح : اضرب ! فإن خَرَج عليه « منكم » كان منهم وسيطا[6] ، وإن خَرَج عليه « من غيركم » كان حَليفا ، وإن خَرَج عليه « مُلْصَق » كان على

(١) فى الطبرى ٢ : ١٧٣ : « وكانت هبل أعظم أصنام قريش ، وكانت على بئر فى جوف » . وانظر الزرقانى ١/٩٥ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٦ (قسم أوّل) . (٢) العقل : الدية .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٠ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٦ (قسم أوّل) : « السبعة ، فإن خرج العقل فعلى » . (٤) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٠ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٦ (قسم أوّل) : « فيه « لا » ، إذا أرادوا أمرا ضربوا به فى القداح فإذا » . (٥) فى الطبرى ٢ : ١٧٣ : « الذى يضربها » .

(٦) الوسيط : الخالص النسب ، والشريف فى قومه . ورواية الطبرى : « كان منكم وسيطا » .

منزلته فيهم[1] ، لا نَسَب له ولا حِلف[2] ، وإن خرج فى شىء مما سوَى هذا[3] ممّا يعملون به « نَعَم » عملوا به ، وإن خَرَج عليه « لا » أخّروه عامَه ذلك[4] حتى يأتوه به مرّة أُخرى ؛ ينتهون فى أُمورهم إلى ذلك ممّا خَرجت به القِداح ؛ فقال عبد المطّلب لصاحب القِداح : آضرب على بَنىّ هؤلاء بقِداحهم هذه ، وأخبَره بنَذْره الذى نَذَره ، فأعطاه[5] كلُّ رجل منهم قِدْحَه الذى فيه آسْمُه ، وكان عبد الله بن عبد المطّلب أصغر بنى أبيه[6] ، وهو أحبُّ ولَده إليه ، وهو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمّا أخذ صاحب القِداح القِداح ليضربَ بها قام عبد المطّلب عند هُبَل يدْعُو الله ، ثم ضَرب صاحبُ القِداح فخرج القِدْح على عبد الله ، فأخذ[7] عبد المطّلب بيده وأخذ الشَّفْرة ، ثم أقبل[8] إلى إساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قُرَيش من أنْديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبدَ المطّلب ؟ قال : أذبحُه ، فقالت له قُرَيش وبنُوه : والله لا تذبحه حتى تُعذِر فيه[9] ؛ لئن فعلتَ هذا[10] لا يزال الرّجل يأتى بابنه حتّى يذبحه ، فما بقاء

(١) فى الطبرى ٢ : ١٧٣ : « على منزلته منهم » .

(٢) عن الطبرى ٢ : ١٧٣ وابن هشام ١ : ١٦٠ ، وفى الأصل : « لانسب إليه ولا حلف » .

(٣) فى الأصل : « خرج فيه شىء » ، تصحيف ، والتصويب عن الطبرى ٢ : ١٧٣ .

(٤) رواية الطبرى ٢ : ١٧٣ : « أخروه عامهم فى ذلك حتى يأتوا به » .

(٥) فى ابن هشام ١ : ١٦٠ : « الذى نذر ، فأعطاه » ، وفى الطبرى ٢ : ١٧٣ « الذى نذر ، فأعطى كل » .

(٦) لعله يريد كان أصغر بنيه حين أراد الوفاء بنذره ، و يوجب هذا التوجيه أنه قد سلف له أن عبد المطلب لم يتزوج أم حمزة إلا بعد الفداء ، فيكون بذلك ولده منها أصغر من عبد الله . وانظر شرح الزرقانى على المواهب ١ : ٩٤ ، والروض الأنف ١ / ١٠٣ .

(٧) كذا فى الطبرى ٢ / ١٧٣ ، وفى رواية ابن هشام ١ : ١٦٠ : « فأخذه عبد المطلب » .

(٨) هذه رواية الطبرى ٢ : ١٧٣ ، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والبداية والنهاية ٢ : ٢٤٨ : « ثم أقبل به » .

(٩) فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٧٣ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والبداية ٢ : ٢٤٨ : « لا تذبحه أبدا » .

(١٠) فى الأصل : « تعذرعنه » ، تصحيف .

الناس على هذا ؟ ! وقال له المُغيرة بن عبد الله بن عمر[1] بن مَخزوم [بن يَقَظَة][2] — وكان عبد الله ٱبن أخت القَوم — : لا تَذْبَحه حتى تُعذِرَ[3] فيه ، فإن كان فِداؤُه بأموالنا فَدَيْناه ، وقالت له قُرَيش وبَنُوه : لاتفعَل ، وٱنطَلِق به إلى الحجاز فإنّ به عَرّافةً[4] لها تَابِعٌ فسَلْها ، ثم أنتَ على رأس أَمْرِك ، إن أَمَرَتك[5] بذبحه ذَبَحْتَه[6] ، وإن أَمَرَتك بأمرٍ لك وله فيه مَخرَج[7] قَبِلتَه ، فانطلَقُوا حتى قَدِموا المدينَة فوجدُوها — فيما يزعُمون — بخَيْبَر ، فَركبوا [إليها][8] حتى جاءوها فسألوها ، وقصّ عليها عبدُ المطّلب خَبَره [وخَبَر ابنه][9] ، فقالت لهم : قد جاءنى الخبَر ، كم الدِّيَةُ[10] فيكم ؟ قالوا : عشْرٌ من الإبل[11] ، قالت : فارجعوا إلى بلادكم وقرِّبوا[12] عشْرًا من الإبل ، ثم ٱضرِبوا عليها وعليه بالقِداح ، فإن خَرجَت على صاحِبكم فزِيدُوا[13] من الإبل حتى يَرضَى ربُّكم ،

---

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ : « بن عمرو » ، وفى الطبرى ٢ : ١٧٣ ، وابن الأثير ٢ : ٦ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ (قسم أوّل) ما يوافق رواية المؤلف . (٢) تكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والطبرى ٢ : ١٧٧ . (٣) فى سيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبرى ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ (قسم أوّل) : « القوم ، والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه » . (٤) اسمها قطبة فى قول ، وسجاح فى قول آخر . وانظر السهيلى ١ : ١٠٣ ، والبداية ٢ /٢٤٨ ، وشرح الزرقانى على المواهب ١ : ٩٦ .

(٥) فى الأصل : « ثم آيت » والمثبت عن ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والطبرى ٢ : ١٧٤ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ ، والبداية ٢ : ٢٤٨ . (٦) الطبرى ٢ : ١٧٤ : « أن تذبحه » ، البداية ٢ : ٢٤٨ : « بذبحه فاذبحه » . (٧) ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والطبرى ٢ : ١٧٤ : « وله فيه فرج » .

(٨) فى الأصل : « فركبوا حتى » ، والتكملة عن الطبرى ٢ : ١٧٣ (٩) تكملة عن ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والبداية ٢ : ٢٤٨ . (١٠) اختصر النويرى . والنص كما يرويه ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ ، وابن كثير فى البداية ٢ : ٢٤٨ : « ... فقالت لهم ٱرجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ، فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها فقالت لهم ... الخ » . (١١) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ : « الإبل ، وكانت كذلك ، قالت » . (١٢) فى البداية ٢ : ٢٤٨ : « بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم وقربوا » . (١٣) فى الطبرى : « فزيدوا فى الإبل » .

وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم، فخرجوا حتى قدموا مكة وفعلوا ذلك[1]، والقداح تقع على عبد الله، وعبد المطلب يزيد عشرا عشرا، وهو قائم يدعو حتى بلغت الإبل مائة، فخرج القدح على الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى، رضى ربك[2] يا عبد المطلب[3]، فقال عبد المطلب: لا والله! حتى أضرب عليه[4] بالقداح ثلاث مرات، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل، وعبد المطلب قائم يدعو، فخرج القدح فى كل مرة على الإبل، فنحرت عند ذلك. وذكر نحو ما تقدم.

ذكر زواج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم

روى محمد بن سعد[5] عن محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه، قال: كانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة[6] بن كلاب، فى حجر عمها وهيب بن عبد مناف، فمشى إليه عبد المطلب بابنه عبد الله أبى النبى صلى الله عليه وسلم،

(١) اختصر المؤلف نص ابن إسحاق أيضا، وقد ورد مفصلا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٣، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧. (٢) فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٧٤، وسيرة ابن هشام ١ : ١٦٤، والخبر عن البشر ٣ : ٨٨ : «قد انتهى رضا ربك» على الإضافة.

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٤ : «يا عبد المطلب، فزعموا أن عبد المطلب قال ... الخ».

(٤) فى الطبرى ٢ : ١٧٤، وسيرة ابن هشام ١ : ١٦٤، بداية ٢ : ٢٤٩، والخبر عن البشر ٣ : ٨٨ : «أضرب عليها». (٥) طبقات ١ : ٥٨ (قسم أول).

(٦) زهرة بضم الزاى وسكون الهاء، وفى صحاح الجوهرى «زهر»: أن زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة. قال السهيلى ١ : ٧٩ : «وهذا منكر غير معروف، وإنما زهرة جدهم كما قال ابن إسحق»، وقال: اسم زهرة المغيرة. وانظر الزرقانى ١ : ١٠٣، وتاج العروس (زهر).

فخطبه عليه آمنةَ فزوّجها عبدَ الله ، وخطَب إليـه عبدُ المطّلب بنُ هاشم فى مجلسه ذلك آبنتَـه هالةَ بنتَ وُهَيب على نفسه، فزوّجَه إياها ، فكان تزوّجهما فى مجلس واحد ، فولدت هالةُ لعبـد المطّلب حمزة[1] ، وكان حَمزةُ عمّ رسـول الله صـلى الله عليه وسلم فى النّسب، وأخاه من الرّضاعة .

٥ ونقَل أبو عُمَر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ[2] رحمه الله : أن عبد الله ابن عبد المطّلب تزوج آمنةَ وهو ابن ثلاثين سـنةً[3] . قال : وقيل بل كان يؤمئذ آبن خمس وعشرين سنة .

وعن محمـد بن السائب الكَلبىّ عن أبيه، وعن أبى الفيّاض الخَثعَمى قالا : لمـا تزوج عبدُ الله آمنةَ أقام عندها ثلاثا، وكانت تلك السُّنّة عندهم .

١٠ وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام[4] عن محمد بن إسحاق: إن عبد المطلب لمـا فدَى آبنه عبد الله أخَذ بيده، وخَرج به حتى أتى وَهْبَ بنَ عبد مَنَاف بن زُهْرةَ، وهو يومئذ سيّد بنى زُهرةَ نَسَبا وشَرَفا ، فزوّجه آبنَته آمنة ، وهى يومئذ أفضلُ آمرأةٍ فى قُرَيش نَسَـبا ومَوْضعا ، قال : فزَعَموا أنه دَخَل عليها حينَ أُمْلِكَها[5] مكانَه فوقَع عليها ، فحملت[6] برسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٥ (١) فى ابن سعد ١ : ٥٨ (قسم أوّل) : « حمزة . فكان » .
(٢) فى الاستيعاب ١ : ١٦ .
(٣) القائل ابن سعد (١ : ٥٨ قسم أول) .
(٤) السيرة ١ : ١٦٤ .
(٥) أملك المرأة بالبناء للجهول : تزوجها .
٢٠ (٦) فى البداية ٢ : ٢٤٩ : « فحملت منه برسول الله » .

ذكر خبر المرأة التى عرضت نفسها على عبد الله بن عبد المطلب وما أبدته من سبب ذلك

قد اختلف فى هذه المرأة، فمنهم من يقول : هى قُتَيلة[1]، بنتُ نوفل، بن أسد، ابن عبد العزّى، بن قُصَىّ[2]، وهى أخت ورقة بن نوفل. قال السهيلى[3]: اسمها رُقيقة[4] بنت نوفل تُكنّى أم قتال، وهى أختُ ورقة بن نوفل. ومنهم من يقول[5]: هى فاطمة بنتُ مُرّ الخثعمية، وقيل غيرُها. ونحن نذكر ما قالوه فى ذلك.

١/ ١٠

فأما عبد الملك بن هشام فقال[6]: لما انصرف عبد المطلب يوم الفداء آخذًا بيد ابنه عبد الله، فمرّ به على امرأة من بنى أسد، وهى أختُ ورقة بن نوفل، وهى عند الكعبة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبدَ الله ؟ قال : مع أبى، قالت : لك مثلُ الإبل التى نُحرت عنك وقَعْ علىّ الآن. قال : أنا مع أبى[7]، ولا أستطيع خلافَه ولا فراقَه، فخرج به عبد المطّلب حتى أتى وَهْب ابنَ عبد مَناف. وذكر خبر زواجه بآمنة، وأنه وقع عليها كما ذكرناه آنفا.

قال : ثم خرج من عندها، فأتى المرأة التى عَرَضت عليه ما عَرَضت، فقال لها : مالكِ لا تَعْرِضين علىّ اليوم ما كنتِ عرضتِ علىّ بالأمس ؟ قالت له : فارقك النُّور الذى كان معك بالأمس، فليس لى بكَ اليوم حاجة.

(١) بضم القاف وفتح المثناة الفوقية فتحتية ساكنة. (٢) فى طبقات ابن سعد ١ : ٥٨ (قسم أول) : « بن قصى : أخت ورقة ». وفى الأصل : « قصى بن أخت ورقة » تصحيف، والمثبت عن الطبرى ٢ : ١٧٣، وانظر السهيلى ١ : ١٠٢ (٣) فى الروض الأنف ورقة ٥٣ ب.

(٤) فى الأصل : « وفيقة »، تصحيف. وانظر الزرقانى ١ : ١٢٣ (بولاق).

(٥) هو قول أبى نعيم، وابن عساكر رواية عن ابن عباس. وانظر الروض ١ : ١٠٤، ١ : ١٠٢.

(٦) فى السيرة ١ : ١٦٤. وانظر الطبرى ٢ : ١٧٤، البداية ٢ : ٢٤٩.

(٧) فى الطبرى ٢ : ١٧٤، ابن الأثير ٢ : ٧، والبيهقى ١ : ٢٤ ب : « إن معى أبى ».

وقال الواقدي[(١)]: هي قُتَيْلَةَ بنتُ نَوْفَل . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنها امرأةٌ من بنى أسَد ، وهى أخت وَرَقة .

قال الواقدى: كانت تنظُرُ[(٢)] وتعْتاف[(٣)]، فمرّ بها عبدُ الله فدعته يستَبْضِع منها، ولزمت طَرَف ثوبِه فأبى وقال : حتى آتيك، وخَرج مُسرعاً[(٤)] حتى دخلَ على آمنةَ فوقع عليها ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رجَع إلى المرأة وهى تنتظره فقال : هل لكِ فى الذى عرَضتِ علىّ ؟ فقالت : لا . مررتَ وفى وجهكَ نورٌ ساطع، ثم رجعتَ وليس فيه ذلك النور .

قال[(٥)]: وقال بعضُهم قالت : مررتَ وبين عينيكَ غُرّة مثلُ غُرّة الفرَس ، ورجعتَ وليس هى فى وجهك .

وقال محمد بن عُمر بن واقد[(٦)]، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبى الفَيّاض الخَثْعَمى[(٧)]، قال: مرّ عبد الله بامرأة من خَثْعَم يُقال لها : فاطمة

---

(١) نقله ابن سعد ١ : ٥٨ — ٥٩ (قسم أول) .

(٢) نقله ابن سعد فى الطبقات ١ : ٥٨ (قسم أول) .

(٣) فى دلائل النبوة للبيهقى (١ : ورقة ٢٥ أ) : «وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصر واتبع الكتب، يقول : إنه لكائن فى هذه الأمة نبى فى بنى إسمعيل» ، وانظر البداية والنهاية ٢ : ٢٤٩ ، والزرقانى ١ : ١٠١ .

(٤) فى طبقات ابن سعد ١ : ٥٨ (قسم أول) : «وخرج سريعا» .

(٥) القائل الواقدى .

(٦) نقله ابن سعد ١ : ٥٩ (قسم أول) .

(٧) فى طبقات ابن سعد ١ : ٥٩ (قسم أول) : «الكلبى عن أبى الفياض» ، وانظر ابن الأثير ٢ : ٤ ، ودلائل النبوة لأبى نعيم ١ : ٣٩ .

بنتُ مُرّ[1]، وكانت من أجمل الناس وأشبه وأعفه[2]، وكانت قد قرأت الكتب[3]، وكان شَبابُ قُريش يتحدثون إليها، فرأت نور النبوّة فى وجه عبد الله فقالت : يا فتى ! من أنت ؟ فأخبرها، قالت : هل لك أن تقع علىّ[4] وأعطيك مائةً من الإبل؟ فنظر إليها وقال :

أمّا الحرامُ فالمماتُ دونَه * والحِلُّ لا حلَّ فأستبينَه

* فكيفَ بالأمر[5] الذى تَنوِينَه[6] *

ثم مضَى إلى امرأته آمنة، فكان معها، ثم ذكر الخثعمية وجمالَها، وما عرضت عليه، فأقبل عليها فلم يَرَ منها من الإقبال عليه آخرًا كما رآه منها أولا، فقال : هل لكِ فيما قلتِ لى؟ فقالت : « قد كان ذاك مَرَّةً[7] فاليومَ لا »، فذهبت مَثَلا، وقالت: أىّ شىء صنعتَ بعدى؟ قال : وقعت على زوجتى آمنة، قالت : إنى والله لست

(١) فى الطبرى ٢ : ١٧٤ : « كاهنة من خثعم يقال لها فاطمة بنت مر متهودة من أهل تبالة قد قرأت الكتب » . وانظر البداية ٢ : ٢٥٠ ، وابن الأثير ٢ : ٤ ، والزرقانى ١ : ١٠٢ .

(٢) كذا فى الأصل، وطبقات ابن سعد، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٣٩ .

(٣) رواية ابن سعد ١ : ٥٥ (قسم أول) : « قرأت الكتب » .

(٤) فى دلائل النبوة لأبى نعيم ١ : ٣٩ ، والبداية ٢ : ٢٥٠ : « تقع على الآن » .

(٥) فى الأصل : « فكيف للامر » ، وفى دلائل النبوة لأبى نعيم ١ : ٣٩ : « فكيف لى الأمر » ، والمثبت عن الطبرى ، وابن الأثير ٢ : ٤ ، والبداية والنهاية ٢ : ٢٥٠ ، وعيون الأثر ١ : ٢٤ .

(٦) هكذا رو يه أيضا الميدانى فى مجمع الأمثال ٢ : ٢٥ ، وفى ابن الأثير ، وأبى نعيم والبداية ، وعيون الأثر ١ : ٢٤ : « الذى تبغينه » .

(٧) رواية الميدانى ٢ : ٣٤ : « قد كان ذلك مرة » . والمثل يضرب فى الندم والإنابة بعد الاجترام .

بصاحبة زنية، ولكني رأيتُ نور النبوّة في وجهك[1]، فأردت أن يكون ذلك فيّ، وأبَى الله إلا يجعله حيث جعله .

وبلغ شبابَ قُريش ما عرضَت على عبد الله وتأبّيه عليها، فذكروا ذلك لها، فأنشأت تقول :

إنى رأيتُ مُخيلةً[2] عرضَت[3] * فتلألأت بحناتم القطر

فلمَأتُها[4] نورًا يضيء له[5] * ما حولَه كإضاءة الفجْر

* * *

ورأيتــه شرَفًا[6] أبـوءُ به * ما كلُّ قادح زنده يُورى

لله ما زُهْرِيةٌ سلبتْ * ثوبَيْكَ ما استلبَتْ وماتدرى[7]

١٠ وقالت أيضًا[8] :

بَنى هاشم قد غادَرَت من أخيكمُ * أمينــةُ إذ للبـاه يعتلجان[9]

كما غادَر المصباحَ بعــد خُبوِّه[10] * فتائلُ قــد ميثَت له بدهان

(١) فى الطبرى ٢ : ١٧٤ ، وابن الأثير ٢ : ٤ : « ريبة » .

(٢) المخيلة بالضم : السحابة التى إذا رأيتها حسبتها ماطرة . والمخيلة بالفتح : السحابة .

١ (٣) رواية الميدانى ٢ : ٣٥ « نشأت » .

(٤) لمأتها : أى أبصرتها ولمحتها . وفى الأصل : « فلماتها نور » تصحيف ، وانظر لسان العرب « لمأ » ، والطبرى ٢ : ١٧٤ .

(٥) فى ابن الأثير ٢ : ٤ : « يضىء به » .

(٦) فى الطبرى ٢ : ١٧٤ ، وابن الأثير ٢ : ٤ : « فرجوته فخرا » .

٢٠ (٧) رواية ابن الأثير ٢ : ٤ : « منك الذى سلبت وما تدرى » .

(٨) فى الأصل : « وقال » ، تصحيف .

(٩) رواية الطبرى ، وابن الأثير ، وابن كثير : « للباه يعتركان » .

(١٠) هكذا رويه الميدانى ٢ : ٣٥ ، وفى ابن الأثير ، والبداية : « عند خموده » .

وما كلُّ ما يَحوِى الفتى من تِلادِه[1] * بحَـزْمٍ[2] ولا ما فاته لِتَوانِ
فأجمِـلْ إذا طالبتَ أمرًا فإنه * سَيكفيكَه جَدّانِ يصطرعانِ
سَيكفيكَه إمّا يدٌ مُقْفَعِلّةٌ[3] * وإمّا يدٌ مبسـوطةٌ ببَيانِ
ولمّا قضَتْ منه أمينةُ ما قضَتْ * نبـا بَصَرِى عنـه وكَلّ لسانى[4]

وعن أبى يَزيد المَدَنى[5] قال: نُبِّئْتُ أن عبدَ الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم أتَى على آمرأة من خَثْعَم فرأت بينَ عينيه نورًا ساطعًا إلى السماء فقالت : هلْ لك فىّ؟ قال : نعم حتى أرمىَ الجَمْـرة، فآنطلق فرَمَى الجَمْرة، ثم أتَى آمرأتَه آمنةَ بنتَ وَهْب، ثم ذكر الخَثْعَمية[6] فأتاها فقالت: هل أتيتَ آمرأةً بعدى؟ قال نعم، آمرأتى آمنـةَ بنتَ وهْب ، قالت : فلا حاجةَ لى فيـك ، إنك مررتَ و بينَ عينيك نور ساطعٌ إلى السماء ، فلمـا وقعْتَ عليها ذهَب ؛ فأخبِرها أنهـا قد حَمَلت بخـير أهل[7] الأرض .

وقال محمد بن إسحاق : حدّثنى أبى إسحاقُ بن يَسار، أنه حُدِّث[8] أن عبـد الله إنمـا دَخَل على آمرأة كانت له مع آمِنـةَ بنتِ وَهْب، وقد عَمِل فى طين له ، وبه آثار من الطّين ، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لمـا رأت عليه من آثار الطّين ،

(١) رواية الميدانى ٢ : ٣٥ : « وما كل ما نال الفتى من نصيبه » .
(٢) رواية الطبرى، وابن الأثير : « ملاده * لعزم » .
(٣) مقفعلة : متقبضة، متشنجة الأصابع.
(٤) رواية ابن الأثير، والطبرى : « قضت * حوت منه فخرا ما لذلك شانى » .
(٥) فى الأصل : « المدينى »، والمثبت عن طبقات ابن سعد ١ : ٦٠ (قسم أول) .
(٦) فى طبقات ابن سعد ١ : ٦٠ (قسم أول) : « ثم ذكر يعنى الخثعمية » .
(٧) فى طبقات ابن سعد : « قد حملت خير أهل » .
(٨) فى الأصل : « أنه حدثه »، تصحيف .

فخرَج من عِنـدها فتوضّأ وغسَل ما كان به من ذلك الطّين ، ثم خرَج عامِدًا إلى آمنـةَ فمرّ بها ، فدعَتْه فأبَى عليها[١] ، وعمـد إلى آمنة فدخل عليْها ؛ فأصابَها فحملت بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مرّ بآمرأته تلك فقال لهـا : هل لكِ؟ قالت : لا . مَررتَ بى و بينَ عينيك غُرة، فدعوتُك فأبَيت[٢] ، ودخلتَ على آمنة فذهَبتْ بها .

قال ابنُ إسحاق[٣] : وزَعَموا أن آمرأتَه تلك كانت تُحدِّث : أنّه مَرّ بها و بينَ عينيْه مثلُ غُرة الفَرَس، قالت : فدعوتُه رجاءَ أن تكون تِلكَ بى، فأبَى علىّ، ودخل على آمنة فأصابها، فحملَتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم، أوسَطَ قومه نَسَبا، وأعظمَهم شَرَفًا من قِبَل أبيه وأُمّه . والله الفعال .

ذكرُ حَمْل آمِنَةَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما رأته، وما قِيل لهـا

حملت به صلى الله عليه وسلم أيامَ التّشريق فى شِعْبِ أبى طالب عنـد الجَمْرة الوُسْطَى، رواه أبو عُمر بن عبد البرّ[٤] عن الزبير بن بَكّار، وحكاه غيرُه أيضا .

وقيل حَمَلتْ به فى دار وُهَيب[٥] بن عبد مَنَاف بن زُهْرة بن كِلاب .

ورَوَى محمد بن عُمر بن واقد الأسْلَمى[٦] قال : حدّثنى علىّ بنُ يزيد، بن عبد الله، بن وهب بن زمعة عن أبيه، عن عمته قالت : كنا نسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ : « فدعته إلى نفسها فأبى » .

(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ : « غرة بيضاء، فدعوتك فأبيت على، ودخلت » .

(٣) نقله ابن هشام ١ : ١٦٥ . (٤) فى الاستيعاب ١ : ١٦ .

(٥) فى الأصل : « وهب بن عبد مناف » تصحيف، والتصويب من الاستيعاب ١ : ١٦ .

(٦) ورواه ابن سعد فى الطبقات ١ : ٦٠ (قسم أول)، وانظر الزرقانى ١ : ١٠٦ .

لمّا حَمَلَت به آمنةُ بنت وهب كانت تقول: ما شَعَرتُ أنى حَمَلت به، ولا وجدتُ له ثَقَلة[(1)] كما تجد النساء، إلا أنى قد أنكرتُ رفعَ حيضتى، فربما كانت ترفعُنى وتعود؛ وأتانى آتٍ، وأنا بين النائم واليَقْظان فقال: هل شَعَرتِ أنّكِ حَمَلتِ؟ فكأنى أقول ما أدرى، فقال: إنكِ قد حَملتِ بسيّد هذه الأمة ونبيّها، وذلك يومَ الإثنين، قالت: فكان ذلك مما يَقّن عندى الحَمْل، ثم أمهلنى حتى إذا دنَت ولادتى[(2)] أتانى ذلك الآتى فقال: قولى: «أُعيذه بالواحد الصَّمَد، من شَرّ كلِّ حاسِد». قالت: فكنتُ أقول ذلك.

وفى رواية محمد بن إسحاق[(3)] أنه قيل لها: إنكِ قد حَملتِ بسيِّد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولى: «أُعيذُه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا»[(4)].

وفى رواية أُخرى: امرت أُمه وهى حاملٌ برسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُسمّيَه أحمد. قالت أمه: فذكرتُ ذلك لنسائى، فقلن لى: تَعلَّقى حديدا فى عَضُدَيك وفى عُنُقك، قالت: ففعلتُ، فلم يكن يُترَك علىّ إلا أياما، فأجده قد قُطِع، فكنت لا أتعلقه.

وعن الزُّهْرِىّ قال: قالت آمنة: لقد عَلِقتُ به، فما وجَدتُ له مَشَقّة حتى وضعتُه.

قال ابن إسحاق[(5)]: ورأت[(6)] حين حَمَلت به أنه خَرَج منها نورٌ رأت به قُصُور بُصْرَى من أرض الشام. قد تواتَرتْ الأخبارُ الصحيحةُ بذلك.

---

(1) الثقلة بفتح المثلثة والقاف: الثقل، عن الزرقانى ١: ١٠٦.

(2) فى الأصل: «دنا ولادتى» تصحيف، والمثبت عن الزرقانى ١: ١٠٦ وعيون الأثر ١: ٢٤.

(3) نقله ابن هشام ١: ١٦٦. (4) أنظر الزرقانى ١: ١٠٨.

(5) سيرة ابن هشام ١: ١٦٦. (6) فى الأصل: «ورأت»، تصحيف.

وحكى الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطُبي في كتاب "الأعلام" له عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] أنه قال : وكان من دلائل حَمْل آمنةَ برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كُلّ دابّة كانت لقُرَيش نطقت تلك الليلة وقالت : حُمِل بمحمد وربِّ الكعبة ، وهو إمامُ الدنيا وسراج أهلها ؛ ولم تَبقَ كاهنةٌ في قُريش ولا في قبيلة من قبائل العَرَب إلا حُجِبت عن صاحبها ؛ وانتُزِع عِلْمُ الكَهَنة منهم ولم يَبقَ سريرٌ لمَلِك من ملوك الدُّنيا إلا أصبحَ منكوسا .

قال : وقال كعبُ الأحبار : وأصبحَتْ يومئذ أصنامُ الدنيا كلُّها منكوسةً مضغوطة فيها شياطينُها ، وأصبحَ عرشُ إبليسَ عدوِّ الله منكوسا .

قال : وقال ابن عباس رضي الله عنهما : وأصبح كلُّ مَلِكٍ أخرسَ[2] لا ينطق يومَه ذلك ، وفرّت وحوشُ[3] المشرق إلى وحوشِ[4] المغرب بالبِشارات ، وكذلك أهل البِحار [صار][5] يبشّر بعضُهم بعضا ؛ وله في كلّ شهر من شهوره[6] نداءٌ في الأرض ، ونداءٌ في السماء : أن أبشروا ، فقد آن لأبي القاسم أن يَخرُجَ[7] إلى الأرض ميمونا مباركا .

والله الموفِّق الفعّال .

---

(١) انظر الزرقاني ١ : ١٠٨ .

(٢) في الزرقاني ١ : ١٠٨ : « وكلت الملوك حتى لم يقدروا في ذلك اليوم على التكلم » .

(٣) في الأصل : « ومرت وحش » تصحيف ، والتصويب عن الزرقاني ١ : ١٠٨ .

(٤) في الأصل : « وحش » تصحيف .

(٥) عن شرح الزرقاني على المواهب ١ : ١٠٨ .

(٦) في الزرقاني ١ : ١٠٨ : « من شهور حمله » .

(٧) في الزرقاني ١ : ١٠٨ : « فقد آن أن يظهر أبو القاسم » .

ذكر وفاة عبد الله بن عبد المطّلب

روى أبو عبد الله محمد بن سَعْد، بسنَدٍ يرفعه إلى محمد بن كَعب، وأيوبَ بن عبد الرحمن بن أبى صَعصَعة، قالا : خرج عبد الله بن عبد المطّلب إلى الشام إلى غَزّة فى عِير من عِيرات قُرَيش يَحملون تِجارات، ففَرَغوا من تجاراتهم ثم ٱنصَرَفُوا فمرّوا بالمدينة وعبدُ الله يومئذ مريضٌ فقال : أنا أتخلّف عند أخوالى بنى عدىّ ابن النجّار، فأقام عندَهم مريضًا شهرا، ومضَى أصحابُه فقَدِموا مكّة، فسألهم عبدُ المطّلب عن عبد الله، فقالوا : خلّفناه عند أخواله وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب ولدَه الحارث[1]، فوجَده قد تُوفّى ودُفِن فى دار النابغة[2]، وهو رجل من بنى عَدىّ بن النّجار، فرجَع إلى أبيه فأخبرَه، فوجد عليه عبدُ المطلب وإخوته وأخَواته وجدا شديدا، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ حَمْلٌ .

ولعبد الله يومَ تُوفّى خمس وعشرون سنة .

قال الواقدى : هذا هو أثبتُ الأقاويل، والرواية فى وفاة عبدالله وسنّه عندنا .

وعن هشام بن السائب الكلبىّ عن أبيه، وعن عَوانة بن الحَكَم قالا : توفى عبدُ الله بن عبد المطّلب بعد ما أتَى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانيةٌ وعشرون شهرا، ويقال سبعةُ أشهر، وقيل شهران .

قال محمد بن سَعْد : والأول أثبت . وقال السُّهيلىّ[3] : «وأكثر العلماء على أنه كان فى المهد»، قال : «ذكره الدّولابى[4] وغيرُه» . والله تعالى أعلم .

---

(١) فى ابن الأثير ٢ : ٣ : أن المبعوث كان الزبير لا الحارث. (٢) هذه إحدى روايتى الطبرى؛ وفى ابن الأثير ٢ : ٤ : «التابغة الجعدى»؛ ورواية الطبرى الأخرى وعليها اقتصر الزرقانى ١ : ٢١٠ : «التابعة» بالتاء المثناة ثم الموحدة بعد الألف، ثم العين المهملة؛ والتابعة رجل من بنى عدى بن النجار .

(٣) الروض الأنف ١ : ١٠٧ . (٤) الدولابى بفتح الدال وضمها هو محمد بن أحمد ابن حماد بن سعيد الأنصارى أبو بشر . انظر الأنساب للسمعانى ٢٣٣ ب .

قال الواقدى : وترك عبدُالله بن عبد المطّلب أُمّ أيْمَن، واسْمُها بَرَكة ، وخَمْسَة أجمالٍ أَوَارِك ، يعنى تأكل الأراك ، وقطعة غنم ؛ فورث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله خير الوارثين .

ذكر مَولِد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وُلِد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة شرفها الله تعالى؛ قال الزُّبَير بن بكّار[1]: ولد صلى الله عليه وسلم فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف أخى الحجّاج . قال القُرطبى رحمه الله فى كتاب «الأعلام» له : إنّ الدار كانت فى الزُّقاق المعروف بزُقاق المولِد[2]، وكانت فى مُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يد عَقيل بن أبى طالب ثم فى أيدى ولده، ثم آشتراها محمد بن يوسف الثّقفىّ[3] من ولد عَقيل ، فأدخل البيت فى دارٍ بناها وسمّاها البيضاء ، فكان البيت فى الدار إلى أن حجّت الخيزُران[4] أمّ الهادى والرشيد ، فأخرجتْ البيت وجعلته مسجدا يشرع فى زُقاق المولد .

وكان مولده صلى الله عليه وسلم عام الفيل بعد قدُوم أصحاب الفيل بخمس وخمسين ليلة[5]، فى يوم الآثنين من شهر ربيع الأوّل ، قيل لليلتين خلتا منه ، وقيل

(١) انظر البداية والنهاية ٢ : ٢٦١ ، وعيون الأثر ١ : ٢٦ .

(٢) فى شرح الزرقانى على المواهب ١ : ١٣٦ : « ... بزقاق المدكك » بدال مهملة .

(٣) فى شرح المواهب ١ : ١٣٦ : « فأدخل البيت الذى ولد فيه المصطفى فى داره التى يقال لها البيضاء » . وسميت البيضاء لأنها بنيت بالجص وطليت به . السيرة الحلبية ١ : ٦٢ .

(٤) هكذا فى الكامل لابن الأثير ١ : ١٨٦ . وفى الروض الأنف ١ : ١٠٧ ، والزرقانى ١ : ١٣٦ : « وأما الدار التى لمحمد بن يوسف فقد بنتها زبيدة ، يعنى زوجة هارون الرشيد مسجدا حين حجت ، وهى عند الصفا » . وانظر شرح المقامات للشريشى ٢ : ٢٤٤ . وفى السيرة الحلبية ١ : ٦٢ محاولة للتوفيق بين النصين .

(٥) هو قول حكاه الدمياطى وآخرون . وانظر الزرقانى ١ : ١٣٠ .

أوّل اثنين منه من غير تعيين ، وقيل وُلِد فى شهر رمضان لاثنتى عشرةَ ليلةً خلت منـه، وهو العشرون من نيسان سنةَ ثمانمائة واثنتين للإسكندر ذى القرنين (١) .

والمشهور أنه ولد فى شهر ربيع الأوّل ؛ فيقول القائل : كيف يمكن أن تكون حملت به فى أيام التَّشْريق ، وولِد فى شهر ربيع الأول ، والمدّة بينهما إمّا أربعـة أشهر، أوستة عشر شهرا، ولم يُنقل إلينا أنه صلى الله عليه وسلم وُلِد لأقل من تسعة أشهر ولا أكثر منها؟ فالجواب أن الحج إذ ذاك لم يكن محصورا فى ذى الحجّـة، بل قد ثبت أنّ أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه حج بالناس فى السنة التاسعة من الهجرة، ووافق الحج فى ذى القِعْـدة ، فلما حّج رسـول الله صلى الله عليه وسلّم حجّـة الوداع فى السنة العاشرة، خطب فقال فى خطبته : « ألا إنّ الزمان قد آستدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض (٢)، السنة اثنـا عشرَ شهرا، منهـا أربعة حرم : ثلاثةٌ متواليـاتٌ ، ذو القِعدة، وذو الحِجّة، والمُحَـرّم، ورجبُ مُضَرَ (٣) الذى بين جُمـادى وشعبان» ، فيمكن أن يكون الحجُّ لمّـا حملت آمنة برسول الله صلى الله عليـه وسلم وافق فى جُمادى الآخرة ؛ ولا يمتنع هذا والله أعلم .

ورُوِى عن آبن عبـاس رضى الله عنهما أن آمنـة بنت وهب قالت : لقـد علِقتُ به ، تعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما وجدتُ له مشقّة حتى وضعتهُ ؛

(١) فى شرح الزرقانى على المواهب ١ : ١٣٠ — ١٣٢ ، تفصيل لهذه الأقوال ، مع نسبتها لقائليها . وانظر الروض الأنف ١ : ١٠٧ ، وعيون الأثر ١ : ٢٦ .

(٢) فى الروض الأنف ٢ : ٣٥١ : «والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا » .

(٣) فى لسان العرب (رجب) : « إنما قيل رجب مضر إضافة إليهم ، لأنهم كانوا أشـد تعظيما له من غيرهم ، فكأنهم اختصوا به » ، وفى الروض الأنف ٢ : ٣٥١ : « إنما قال رجب مضر، لأن ربيعة كانت تحرم فى رمضان وتسميه رجبا ، ... فبين صلى الله عليه وسلم أنه رجب مضر، لارجب ربيعة ، وأنه الذى بين جمادى وشعبان » .

فلما فَصَل منّي خرج منه نورٌ أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب (١)، ثم وقع على الأرض على يديه ، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها، ورفع رأسه إلى السماء .

وقال بعضهم : وقع جاثيا على ركبتيه رافعا رأسه إلى السماء ، وخرج معه نورٌ أضاءت له قصور الشّام وأسواقُها ، حتى رأيت أعناق الإبل ببُصْرى (٢). وعن حسّان ابن عطية : أن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا وُلِد وقع على كفّيه وركبتيه شاخصا (٣) بصرُه إلى السماء .

قالت أمُّه : فولدتُه نظيفا والله كما يولد السَّخْل ما به قَذَر . وقالت فاطمة بنتُ عبد الله أمّ عثمان بن [أبي] العاصي (٤)، وكانت شهدتْ وِلادة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعته أمّه آمنة وذلك ليلا ، قالت : فما شيءٌ أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإني لأنظر إلى النُّجوم تَدنُو حتى إني لأقول لتقعنّ عليّ (٥) . ١٠

وذكر الخطيب أبو بكر بن ثابت رحمه الله ، عن آمنةَ قالت : لمّا ولدتُ محمدا صلى الله عليه وسلم ثم خرج منْ بطني نظرت إليه ، فإذا هو ساجد لله عزّ وجلّ رافعٌ يديه إلى السماء كالمتضرِّع المبْتَهِل (٦)، ثم رأيت سحابة بيضاءَ قد اقبلت تنزِل من السماء حتى غشيَتْه ، فغيّبَتْه عن عيني برهَة ، فسمعت قائلا يقول : طوفوا بمحمد مشارقَ الأرض ومغاربَها ، وأَدخلوه البِحار كلَّها ليعرِف جميعُ الخلائق كلها باسمه ١٥

---

(١) انظر إنسان العيون ١ : ٤٦

(٢) انظر الروض الأنف ١ : ١١١ — ١١٢ ، والسيرة الحلبية ١ : ٥٦ .

(٣) انظر السيره الحلبية ١ : ٥٦ .

(٤) في الأصل : « عثمان بن العاص » ، والمثبت عن عيون الأثر ١ : ٢٧ ، والسيرة الحلبية ١ : ٥٨ ، وشرح المواهب ١ : ١١٦ . ٢٠

(٥) في صحة هذا الحديث كلام لهم . انظره في إنسان العيون ١ : ٥٨ .

(٦) في السيرة الحلبية ١ : ٥٤ ، والزرقاني ١ : ١١٢ : « ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرع » .

وصفته ، ويعرفوا بركته ، إنه حبيب لى ، لا يبقى شىء من الشرك إلا ذهب به .

قالت: ثم انجلت عنى فى أسرع من طرفة عين، فإذا أنا به مُدرَجٌ فى ثوب أبيض [(١)] أشدّ بياضا من اللبن ، وتحته حريرة خضراءُ قد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرّطب الأبيض ، وإذا قائلٌ يقول : قد قبض محمدٌ صلى الله عليه وسلم مفاتيح النُّصْرة ، ومفاتيح الدنيا ، ومفاتيح النبوّة .

وذكر الخطيب أيضا عنها فى شأن المَوْلِد : قالت : رأيت سحابة أعظمَ من الأولى ولها نور، [(٢)] أسمعُ فيها صهيل الخيل ، وخفقان الأجنحة ، [(٣)] وكلامَ الرجال ، حتى غشيتْه ، قالت : [(٤)] وغُيِّبتْ عنى وجهه أطول وأكثر من المرة الأولى ، فسمعتُ مناديًا ينادى : طوفوا بمحمد جميع الأرضين ، وعلى موالد النبيّين ، واعرضوه على كل روحانىّ من الجنّ ، و الإنس ، والملائكة ، والطير ، والوحوش ، وأعطوه خَلْق آدم ، ومعرفة شيث ، وشجاعة نوح ، [(٥)] وخُلّة إبراهيم ، ولسان إسماعيل ، ورضا إسحاق وفصاحة صالح ، وحكمة لوط ، وبُشْرى يعقوب ، وجمال يوسف ، وشدّة موسى وطاعة يونس ، وجهاد يوشع ، وصوت داود ، وحُبّ دانيال ، ووقار إلياس وعصمة يحيى ، وزُهْد عيسى ، [(٦)] وأغمسوه فى جميع أخلاق النبيّين عليه وعليهم السلام .

[(٧)] ثم انجلتْ عنّى فى أسرعَ من طَرْفَة العين ، فإذا به قد قَبَض على حَريرةٍ خضراء

(١) فى الأصل : « قال » . (٢) فى شرح الزرقانى ١ : ١١٣ : « ... رأيت سحابة عظيمة لها نور » . (٣) تريد الملائكة المتشكلين بصفة الرجال . وانظر الزرقانى ١ : ١١٣ .

(٤) فى الزرقانى ١ : ١١٣ : « وغيب عنى فسمعت مناديا » .

(٥) فى الأصل : « وحكمة إبراهيم » تصحيف ، والتصويب عن الزرقانى ١ : ١١٣ ، والإشارة إلى الآية : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

(٦) فى الزرقانى ١ : ١١٤ : « فى أخلاق النبيين » .

(٧) رواية الزرقانى ١ : ١١٤ : « قالت ، ثم انجلى عنى فإذا به » .

مطويّة طيّا شديدا، ينبع من تلك الحريرة ماءً معين، و إذا قائل يقول: بخ بخ! [١]
قبض محمدٌ صلى الله عليه وسلم على الدنيا كلّها، لم يبق خلقٌ كثيرٌ من أهلها إلا دخل [٢]
فى قبضته طائعا بإذن الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبيه ، قال : ولد رسولُ الله
صلى الله عليه وسلم مختونا مسرورا [٣] ، قال : وأعجب ذلك عبدَ المطّلب، وحظى
عنده، فقال : ليكوننّ لابنى هذا شأن .

وفى رواية : لمّا ولدت آمنةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، أرسلتْ إلى جدّه
عبدِ المطلب ، فجاء البشيرُ وهو جالس فى الحِجْر مع ولَده ورجالٍ من قومه ، فأخبره
أن آمنة ولَدت غلاما، فسُرّ بذلك، وقام هو ومن معه، فدخل عليها، فأخبرته بكل
ما رأت ، وما قيل لها فيه، وما أُمرتْ أن تُسمّيَه . قال : فأخذه عبدُ المطلب
فأدخله الكعبة، وقام عندها يدعو الله، و يشكر ما أعطاه . قال الواقدىّ: وأُخبرت
أنّ عبد المطلب قال يومئذ :

الحمد لله الذى أعطانى * هذا الغلامَ الطيّبَ الأردانِ
قد ساد فى المهدِ على الغلمانِ * أُعيذُه بالبيت ذى الأركانِ
حتى أراه بالغَ البنيانِ * اعيذُه من شرّ ذى شَنَانِ
* من حاسدٍ مضطرِب العِنانِ *

وقال القُرطبىّ: وقال أبو طالب : كنت تلك الليلة التى وُلد فيها محمد فى الكعبة
أُصلح فيها ما تهدّم منها، فلما انتصفَ الليل، إذا أنا بالبيت الحرام قد مال بجوانبه

(١) فى شرح المواهب ١ : ١١٤ : « و إذا بقائل » .
(٢) رواية الزرقانى ١ : ١١٤ : « لم يبق خلق من أهلها إلا » .
(٣) أى مقطوع السرة . عن الزرقانى ١ : ١٢٤ .

الأربعة ، فخرّ ساجدا فى مقام إبراهيم عليه السلام ، كالرجُل الساجد ، ثم آستوى قائما ، وأنا أسمع له تكبيرا عجيبا ينادى : الله أكبر ! الله ربُّ محمد المصطفى ! الآن طهّرنى ربى من أنجاس المشركين ، وحَمِيّة الجاهلية ! ونظرت إلى الأصنام كلها تنتفض كما ينتفض الثوب ، ونظرت إلى الصنم الأعظم « هُبَل » قد انكبّ فى الحِجْر ، وسمعت مناديا ينادى : ألا إن آمنة قد ولَدت محمدا ! وقد سُكِبتْ عليها سحائبُ الرحمة ، هذا طسْتُ الفِردوس قد انزِلَ ليُغسَل فيه الثّانية .

وعن حسّان بن ثابت الأنصارىّ ، قال[1] : والله إنى لَغلامٌ يَفَعَةٌ ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقِل كلّ ماسمِعت ، إذ سمعتُ يهوديا يَصرُخ على أُطُمَة[2] يَثرب : يا معشَر يهود ! حتى إذا اجتمعوا إليه ، قالوا له : ويلَك ! مالَك ؟ قال : طلع الليلةَ نجمُ أحمدَ الذى وُلِد به[3] .

ذكر أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكُناه

وأسماؤه صلى الله عليه وسلم كثيرة ، منها ماجاء بنصّ القرآن ، ومنها مانُقل إلينا من الكتب السالفة والصُّحُف المنزّلة ، ومنها ما جاء فى الأحاديث الصحيحة ومنها ما آشتهر على ألسنة الأئمة من الأمّة رضوانُ الله عليهم .

رُوِى عن جُبَيْر بن مُطْعِم ، قال[4] : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لى خمسة[5]

(١) رواه البيهقى وأبو نعيم . وانظر الزرقانى ١ : ١٢٠ .

(٢) الأطمة : الحصن ، أنث على معنى البقعة .

(٣) فى شرح المواهب ١ : ١٢٠ : « طلع نجم أحمد الذى ولد به فى هذه الليلة »

(٤) انظر شرح المواهب ٣ : ١١٥ .

(٥) هى رواية مالك فى الموطأ ، والبخارى عن طريقه ؛ وفى رواية الأكثر : « إن لى خمسة أسماء » . وانظر الزرقانى ٣ : ١١٥ .

أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يُحشَر الناس على قَدمى[1] ، وأنا العاقب » . قيل لأنه عقَب غيرَه من الأنبياء .

ورُوى عنه عليه السلام : « لى عشرة أسماء » ، فذكر الخمسةَ هذه ، قال : « وأنا رسول الرحمة ، ورسول الرّاحة ، ورسول المَلَاحم ، وأنا المقفّى ؛ قفّيت النبيّين ، وأنا قَيِّم » .

قال القاضى عياض[2] : والقَيِّم : الجامع الكامل ، قال : كذا وجدته ولم أروه وأُرَى صوابَه : قُثَم[3] بالثاء ، ورَوَى النقّاش[4] عنه عليه [الصلاة و] السلام[5] « لى فى القرآن سبعة أسماء : محمد ، وأحمد ، ويس ، وطه ، والمدّثّر ، والمُزّمّل ، وعبدُ الله » .

وفى حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : أنه كان عليه السلام يسمّى لنا نفسَه أسماء ؛ فيقول : أنا محمد ، وأحمد ، والمقفّى ، والحاشر ، ونبىُّ التّوبة ونبىّ المَلْحَمَة ، ويروى المَرْحَمَة ، والرحمة ؛ ومعنى المقفّى : معنى العاقب .

وقد جاءت من ألقابه وأسمائه صلى الله عليه وسلم فى القرآن عدّةٌ كثيرة سوى ماذكرناه ، منها النّور ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ ، والسِّراج المنير ، والشاهد ، والمبشّر والنذير ، وداعى الله ؛ قال الله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾

---

(١) روى «قدمى» بكسر الميم ، و بفتحها على التثنية ، ومعناه على الروايتين : يحشرون بعد الزمان الذى بعث فيه ؛ وفى رواية : يحشرون على عقبى . وانظر الزرقانى ٣ : ١١٦

(٢) فى شرح المواهب ٣ : ١٤١ : أن «القيم» اسم آخر غير «قثم» ، ورد فى كتب الأحاديث .

(٣) فسره الزرقانى ٣ : ١٢٠ نقلا عن القاضى عياض بأنه الجامع للخير ، أو الجواد .

(٤) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلى المتوفى سنة ٣٥١ . متروك الحديث . وانظر الزرقانى ٣ : ١١٨

(٥) عن شرح المواهب ٣ : ١١٨ ، حيث يروى هذا الحديث .

والبشير لقوله تعالى : ﴿ وبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ ﴾ ، والمنذر لقوله : ﴿ إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ ، والمذكِّر لقوله تعالى : ﴿ إنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ، والشهيد لقوله : ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، والخبير لقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال القاضي بكر بن العلاء (١) : المأمورُ بالسؤال غيرُ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والمسئول الخبير هو النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ والحق المبين لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ، وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ ، قيل : محمد وقيل : القرآن ، والرءوف الرحيم ؛ لقوله تعالى : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، والكريم ، والمكين ، والأمين ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ ، والرسول ، والنبي الأُمّيّ ؛ لقوله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ ، والوليّ ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، والفاتح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم ، فى حديث الإسراء عن ربه تعالى : «وجعلتك فاتحا وخاتما » ، وفيه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فاتحا وخاتما ، وقدم الصدق ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ قال قَتادةُ والحسَن وزيد بن أسلَم : قَدَمُ صِدق هو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ والعُروةُ الوثقَى قيل : محمد ، وقيل : القرآن ؛ والهادى ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

(١) هو بكر بن محمد بن العلاء بن زياد القشيرى أبو الفضل البصرى ثم المصرى المتوفى سنة ٣٤٤ . وانظر شرح المواهب ٣ : ١٦٧ .

ذكر ما جاء فى تسميته صلّى الله عليه وسلّم محمدا وأحمد
ومن تسمّى بمحمد قبله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وآشتقاق ذلك

أما اشتقاق هذه التسمية، فمحمد آسمٌ عَلَم ، وهو منقول من صفة من قولهم: رجلٌ محمّد ؛ وهو الكثير الخصال المحمودة ؛ والمحمّد فى لغة العرب : هو الذى يُحمَد حمدا بعدَ حمد مرةً بعد مرة. قال السهيلى (١) : « لم يكن محمد حتى كان أحمد حمِد ربّه فنبّأه وشرّفه؛ فلذلك تقدّم آسم أحمد على [الاسم الذى هو] محمد (٢) فذكره عيسى عليه السلام باسمه أحمد » .

وهو صلى الله عليه وسلم أولُ من سُمّى بأحمد، ولم يُسَمّ به أحد قبلَه من سائر الناس؛ وفى هذا حكمة عظيمة باهرة؛ لأن عيسى عليه السلام قال : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾، فمَنَع اللهُ تعالى بحكمته أن يُسَمّى أحدٌ به ولا يُدعَى به مَدْعُوٌّ قبلَه ، حتى لا يَدْخُلَ لَبس على ضعيف القلب .

وأما محمد (٣) ، فإن الله تعالى حَمَى أن يُسَمّى به أحدٌ من العرَب ، ولا من غيرِهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده صلى الله عليه وسلم : أن نَبِيًّا يُبعَث آسمُه محمد قد قَرُب إبّانُ مولده ، فسَمّى قوم من العرب أبناءهم .

قال أبو جعفر محمد بن حبيب (٤) : وهم ستة لاسابع لهم : محمد بن سُفيان بن مُجاشِع جَدُّ الفَرَزْدَق الشاعر ، وهو أوّل من سُمّى محمدا (٥) ، ومحمد بن أُحَيحة (٦) بن الجُلَاح

(١) فى الروض الأنف ١ : ١٠٦ . (٢) عن السهيلى ١ : ١٠٦ . (٣) هذا قول القاضى عياض ، نقله عنه البغدادى فى الخزانة ٢ : ٢٤ . (٤) انظر المحبر ص ١٣٠ .

(٥) فى خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٢٤ : « وذكر عبدان المروزى أن محمد بن أحيحة بن الجلاح أول من سمى محمدا فى الجاهلية » . (٦) ذكر البلاذرى منهم : محمد بن عقبة بن أحيحة . وهو محمد ابن أحيحة ، ينسب إلى أبيه مرة ، وإلى جده مرة أخرى . انظر الخزانة ٢ : ٢٤ ، والمحبر ص ١٣٠ .

الأوسيّ ، ومحمد بن حسّان الجُعْفيّ، ومحمد بن مَسْلَمة الأنصاري[1] ، ومحمد بن براء البكريّ، ومحمد بن خُزاعيّ السُّلَمى، وذكر فيهم أيضا محمد بن اليَحْمَديّ من الأزد واليمنُ تقول : إنه أوّل من تَسَمّى بمحمد . وذكر أبو الخطّاب بن دحية فيهم : محمد بن عِتْوارة[2] اللَّيْثى الكنانيّ ، ومحمد بن حِرْماز[3] بن مالك التَّميمى[4] المَعْمَريّ . وقال أبو بكر بن فورَك : « لا يُعْرَف في العرب من تَسَمَّى قبله بمحمد سوى محمد بن سُفيان، ومحمد بن أُحَيْحَة، ومحمد بن حُمْران[5]، وإن آباءَ هؤلاء الثلاثة[6] وفَدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأوّل، فأخبرهم بمَبعَث النبي صلى الله عليه وسلم وبِاسمه،وكان كل واحدٍ منهم قد خلّف امرأته حاملا[7] ، فطمِع في ذلك فنذَر كل واحد منهم إن وُلد له ولد ذكر أن يُسمّيه محمدا » .

---

(١) يقول ابن حجر : إن محمد بن مسلمة ولد بعد ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم؛ فعدّه من بين هؤلاء خطأ . وقال زين الدين العراق : العدّ صحيح من حيث إن النبوّة لم تكن ظهرت بعد . وانظر خزانة الأدب ٢ : ٢٤ .

(٢) في المحبر ص ١٣٠ : «محمد بن بر بن عتوارة» ؛ وضبط البلاذري اسم أبيه فقال : محمد بن بر بتشديد الراء ليس بعدها ألف ابن طريف بن عتوارة ؛ ويقال في نسبته العتواري . وقد غفل ابن دحية حيث عدّ فيهم محمد بن عتوارة وهو هو ؛ نسب إلى جده الأعلى . انظر الخزانة ٢ : ٢٤ .

(٣) كذا في الخزانة ٢ : ٢٤ ؛ وفي المحبر ص ١٣٠ : « الحرماز بن مالك بن عمرو بن تميم » .

(٤) في الأصل : « التيمى » ؛ والتصويب من نص المحبر ص ١٣٠ .

(٥) في الخزانة ٢ : ٢٤ : « محمد بن حمران بن أبي حمران ؛ واسمه ربيعة بن مالك الجعفي » وفي الروض الأنف ١ : ١٠٦ : « محمد بن حمران بن ربيعة » .

(٦) في الروض ١ : ١٠٦ نقلا عن ابن فورك : « وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا » .

(٧) في الروض الأنف ١ : ١٠٦ نقلا عن ابن فورك : « حاملا، فنذر » .

وذكر ابن سعد فيهم: محمد الجُشَمىّ . وقال ابن الأثير[1] : محمد بن عَدِىّ بن ربيعة بن سعد بن سَواد بن جُشَم بن سعد ؛ عِداده فى أهل المدينة[2]. وروى عبد الملك بن أبى سُوَيد المِنقَرىّ[3] عن جد أبيه خليفة، قال : سألت محمد بن عَدِىّ كيف سمّاك أبوك محمدا ؟ فضحك، ثم قال : أخبرنى أبى عَدِىّ بن ربيعة، قال: خرجت أنا وسفيان بن مُجاشِع، ويزيد بن ربيعة بن كنانة[4]، بن حُرقُوص ابن مازن، وأسامة بن مالك بن العَنْبَر[5] نريد ابنَ جَفنة، فلما قربنا منه نزلنا إلى شجرات وغدير، فأشرف علينا ديرانىّ فقال : إنى لأسمع لغة ليست لغة أهل هذه البلاد فقلنا : نعم ! نحن من مُضَر، قال : أى المُضَرِيِّين ؟ قلنا : خِندِف، فقال : إنه يُبعَث وَشيكاً نبىّ منكم، فخذوا نصيبكم منه تَسعَدوا ، قلنا ما اسمه ؟ قال : محمد فأتينا ابن جَفنَة، فلما انصرفنا وُلِد لكل منا ابن فسمّاه محمدا .

وقال محمد بن سعد : «أخبرنا محمد بن على، عن مَسلَمة ، عن عَلقَمة ، عن قَتادة بن السَّكَن[6]، قال : كان فى بنى تميم محمد بن سُفيان بن مُجاشِع، ومحمد الجُشَمىّ فى بنى سَواد، ومحمد الأُسَيِّدىّ[7]، ومحمد الفُقَيمىّ[8]؛ سمَّوهم طمَعا فى النبوّة؛ ثم حمَى الله تعالى كل من تَسمَّى بمحمد أن يدّعى النبوّة ، أو يدَّعيها أحد له ، أو يَظهر عليه سبب يُشكِّك أحدًا فى أمره ، حتى تحقّق ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع .

---

(١) أسد الغابة ٤ : ٣٥٢ . (٢) فى خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٢٤ عن ابن سعد : « عداده فى أهل الكوفة » . (٣) انظر خزانة الأدب ٢ : ٢٤ . (٤) فى خزانة الأدب ٢ : ٢٤ : « ويزيد بن عمرو بن ربيعة » . (٥) فى الخزانة أيضا : « ابن مالك بن حبيب ابن العنبر » . (٦) فى الخزانة ٢ : ٢٤، ٢٥ نقلا عن ابن سعد : « أبن سعد عن على بن محمد عن مسلمة بن محارب عن قتادة» . (٧) فى شرح المواهب ٣ : ١٦٠ : «محمد بن الأسيدى» ، قال : «وهو بضم الهمزة وفتح السين المهملة وكسر التحتية الثقيلة» . (٨) انظر شرح المواهب ٣ : ١٦٠

ومن أسمائه فى الكتب المنزلة صلى الله عليه وسلم

« العظيم » ، وقع فى أوّل سِفر من التوراة عن إسماعيل : وسيلد عظيما لأمة عظيمة .[١]

و « الجبّار » ، سُمّى بذلك فى كتاب داود عليه السلام ، فقال : تقلّد أيها الجبّار سيفك فإن ناموسك وشرائعك[٢] مقرونة بهيبة يمينك . قالوا[٣] : ومعناه فى حق النبى صلى الله عليه وسلم : إما لإصلاحه الأمة بالهداية[٤] والتعليم ، أو لقهره أعداءه ، أو لعلو منزلته على البشر ، وعظيم خَطَره[٥] . ونفى الله عز وجل عنه جَبْرِية التكبُّر فى القرآن فقال : ﴿ وما أنتَ عليهمْ بجبّارٍ ﴾ .

ومن أسمائه فيها[٦] : « المتوكّل » ، و « المختار »[٧] ، و « مُقيم السُّنّة »[٨] ، و « المقدّس » ، و « روح الحق » ، وهو معنى البارَقْليط[٩] فى الإنجيل ؛ وقال ثعلب : البارَقْليط : الذى يفرق بين الحق والباطل .

(١) انظر شرح المواهب ٣ : ١٦٧ و ١٦٨ . (٢) فى شرح المواهب للزرقانى ٣ : ١٧٢ : « ... وأما الجبار فسمى به فى مزامير داود فى قوله من مزمورة ٤٤ تقلد سيفك الخ » ، وانظر الكتاب المقدس (مزامير ٤٥) . (٣) نسب هذا القول فى شرح المواهب ٣ : ١٢٥ إلى القاضى عياض ، وابن دحية ، وعنهما نقله . (٤) فى شرح المواهب ٣ : ١٢٥ : « لإصلاحه للأمة » . (٥) فى شرح المواهب ٣ : ١٢٥ : « ... وعظيم خطره » . (٦) أى التوراة ، وانظر شرح المواهب ٣ : ١٤٣ . (٧) فى شرح المواهب ٣ : ١٤٦ : « مقيم السنة بعد الفترة كما هو نص الزبور ، ... ومعناه فى التوراة » . (٨) فى شرح المواهب ٣ : ١٤٦ : « سماه الله به فى الكتب السالفة » . (٩) البارقليط ، بالموحدة والفارقليط وبالفاء بدلها ، وفتح الراء والقاف بعدها لام مكسورة ، فتحتية ساكنة ، فطاء مهملة ؛ وبسكون الراء مع فتح القاف بعدها اللام المكسورة ، وبفتح الراء مع سكون القاف ، وبكسر الراء وسكون القاف ؛ قال فى المقتفى : وهو الصحيح — وقع فى إنجيل يوحنا ومعناه روح الحق . وفى النهاية لابن الأثير أن اسمه فى الكتب السالفة بارقليطا . انظر الزرقانى ٣ : ١٣٢ ، ١٧٨

ومنهـا مَاذ ماذ[1] ، ومعناه طيّب طيّب ، وحَمْطَايا[2] ، والخاتَم والخاتِم ؛ حكاه كعب الأحبار، قال : فقلت فالخاتِم الذى خُتِم به الأنبياء، والخاتَم أحسن الأنبياء خَلْقًا وخُلُقًا ، ويُسَمّى بالسريانية مُشَفَّح[3] ، والمُنْحَمِنّا[4] ، واسمه أيضا فى التوراة : أُحِيد[5] ، ورُوى ذلك عن ابن سيرين رحمه الله .

٢٤
١٤

ومن اسمائه ونعوته عليه السلام التى جرت على ألسنة أئمة الأمّة المصطفَى ، والمجتبَى ، والحبيب ، ورسـول ربّ العالمين ، والشفيع المشـفَّع والمتّقِى ، والمُصلِح ، والطاهر ، والمُهَيْمِن ، والصادق ، والضَّحوك ، والقتَّـال[6] ، وسيّد ولد آدم ، وسيد المرسلين ، و إمام المتقين ، وقائد الغُـرّ المُحَجَّلين ، وحبيب الله وخليل الرحمـن ، وصاحب الحوض المورود ، واللواء المعقود ، والشفاعة والمقـام المحمود ، وصاحب الوسيلة والفضيلة ، والدرجة الرَّفيعة ، وصاحب التـاج والمعراج والقَضيب ، وراكب البُراق والناقة والنَّجيب ، وصاحب الحجّة والسلطان ، والخاتَم والعلامة والبُرهان ، وصاحب الهِراوة والنّعلَين . صلى الله عليه وسلم .

---

(١) بجيم مفتوحة ، فألف غير مهموزة ، فذال معجمة منونة ، ثم ميم فألف فذال معجمة . وانظر الزرقانى ٣ : ١٤٠ و١٦٩ و١٩٠ . (٢) بفتح الحـاء وسكون الميم ، وطاء مهملة مخففة ، وألفين بينهما تحتية . وفى شرح الشفاء للشمنى ؛ بفتح الحاء وفتح الميم . قال الهروى : معناه حامى الحرم . وانظر الزرقانى ٣ : ١٨٨ . (٣) بشين معجمة وفاء مشدّدة مفتوحة ، ثم حاء مهملة بوزن محمد ؛ و يروى بالقاف بدل الفاء مفتوحة ومكسـورة . انظر الزرقانى ٣ : ١٨٨ و١٨٩ . (٤) بضم الميم الأولى وكسر الثانية ، وقيل بفتحهما ، وسكون النون الأولى وفتح الحاء المهملة وتشديد النون الثانية بعد الألف ؛ ومعناه كما فى الزرقانى ٣ : ١٨٨ روح القدس . (٥) قيل : بهمزة مضمومة ، وحاء مكسـورة فياء ساكنة بعدها دال ، وقيل بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح المثناة التحتية ، وقيل بفتح الهمزة وسكون الياء . وفى تهذيب الأسماء واللغات للنووى ١ : ٢٢ : « أن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : و إنما سميت أحيد لأنى أحيد عن أمتى نار جهنم » ، وانظر الزرقانى ٣ : ١٨٨ .

(٦) قال ابن فارس : سمى به لحرصه على الجهاد ، ومسارعته إلى القتال . وانظر الزرقانى ٣ : ١٤٠ .

قالوا : ومعنى صاحب القضيب : السّيف ، وقع ذلك مفسّرا فى الإنجيل ؛ قال : معه قضيب من حديد يقاتِل به ، وأُمّته كذلك[١] ؛ وأما الهِراوة التى وصف بها، فهى فى اللّغة العَصا[٢]، ولعلها القضيب الممشوق الذى انتقل إلى الخلفاء ؛ وأما صاحب التاج، فالمراد به العِمامة، ولم تكن حينئذٍ إلا للعرب .

٥ وكانت كُنيته المشهورة أبا القاسم ، وعن أنس أنه لمّا ولِد له إبراهيم ، جاءه جبريل فقال : السلام عليك يا أبا إبراهيم[٣] .

ذكر مَراضع رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإخوته من الرّضاعة، وما ظهر من معجزاته فى زمن رضاعه وحال طفوليته صلى الله عليه وسلم

١٠ قال محمد بن عمر بن واقد الأسلمى : أوّل من أرضع رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم ثُوَيْبَة[٤]،وهى جارية أبى لَهَب،أرضعتْه بلبن ابنها مَسْروح[٥] أياما قبل أن تَقدمَ حَليمة السّعدية، وكانت قد أرضعت قبله عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعتْ بعده أبا سَلَمة بن عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصِلها وهو بمكّة، وكانت خَديجة تُكرِمها وهى يومئذ مملوكة، وطلَبت إلى أبى لَهَب أن تبتاعها منه لتُعتِقها فأبَى أبو لَهَب ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه ١٥ وسلم إلى المدينة أعتقها أبو لَهَب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث إليها

(١) انظر شرح المواهب للزرقانى ٣ : ١٨٤ . (٢) انظر شرح المواهب ٣ : ١٨٤ .

(٣) للرسول صلى الله عليه وسلم كنى أخر . انظرها فى شرح المواهب ٣ : ١٥١ .

(٤) بضم المثلثة وفتح الواو، وسكون التحتية . توفيت سنة سبع من الهجرة . وفى إسلامها خلاف ٢٠ مذكور فى شرح المواهب ١ : ١٣٧ . (٥) بفتح الميم وسكون السين المهملة، وذكر فى السيرة الحلبية ١ : ٨٥، أنه بضم الميم أيضا، وانظر شرح المواهب ١ : ١٣٧ .

بصلة وكسوة ، حتى جاء خبرها أنها قد ماتت سنة سبع عند مرجعه من خيبر ، فقال : مافعل ابنها مسروح ؟ فقيل : مات قبلها ولم يبق من قرابتها أحد .

ثم أرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب ، وأبو ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شجنة (١) ، ابن جابر بن رزام بن ناصرة بن فصية (٢) (٣) بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان (٤) بن مضر ؛ واسم أبيه الذى أرضعه : الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان (٥) بن ناصرة ؛ ويقال هلال (٦) بن ناصرة بن فصية (٣) بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن .

وإخوته من الرضاعة منها : عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة (٧) بنت الحارث وهى الشيماء (٨) ، وكانت الشيماء تحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمها .

قال أبو عبد الله محمد بن إسحاق (٩) كانت حليمة بنت أبي ذؤيب تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرضعاء

(١) شجنة ، بكسر الشين المعجمة بجيم ساكنة فنون مفتوحة للتأنيث ، ويروى «سجنة» بالسين المهملة . وانظر شرح المواهب ١ : ١٤٤ . (٢) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٩ ، وفى شرح المواهب ١ : ١٤٤ : «بن ناصر» . (٣) بضم الفاء ، وفتح الصاد بوزن «سمية» فى ضبط ابن دريد ؛ وبفتح الفاء وكسر الصاد فى ضبط ابن سيده . وانظر تاج العروس (فصى) . (٤) رواية ابن هشام ١ : ١٦٩ : «بن قيس بن عيلان» . (٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٠ : «١٧٠ : «واسم أبيه الذى أرضعه صلى الله عليه وسلم : الحارث» . (٦) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٠ . وفى الأصل : «ملال» تصحيف . (٧) بضم الحاء المهملة ، وفتح الذال المعجمة بعدها ألف مد ، ثم فاء كما فى شرح السيرة لأبى ذر الخشنى ١ : ٥٥ نقلا عن ابن عبد البر ؛ ويروى «جذامة» بالجيم ، و «خذامة» بالخاء المعجمة . وانظر شرح المواهب ١ : ١٤٦ . (٨) بفتح الشين المعجمة وسكون التحتية المثناة ، ويقال لها أيضا : الشياء . وانظر الزرقانى ١ : ١٤٦

(٩) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٧١ ، وانظر شرح المواهب ١ : ١٤١

قال الواقدى : إنهن كنّ عشرا، قالت : فى سنة شهباء[1] لم تُبقِ شيئا[2]، فخرجتُ على أتان لى قمراء[3] معنا شارف[4] لنا، والله ماتُبِضُّ[5] بقطرة، وما تنام لنا ليلتنا أجمع مع صبيّنا الذى معى[6] من بكائه من الجوع، ما فى ثديىّ ما يُغنيه، وما فى شارفنا مايغذّيه، ولكنا نرجو[7] الغيث والفرج، فخرجتُ على أتانى تلك، فلقد أذَمَّتْ[8] بالرَّكْب حتى شقّ ذلك عليهم ضعفا وعَجَفا[9] حتى قدِمنا مكة، فما منّا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنّا[10] نرجو المعروف من أبى الصّبىّ، فكنا نقول: يتيم، ماعسى أن تصنع أمّه وجدّه ؟ فما بقيت امرأة قدمتْ معى إلا أخذتْ رضيعا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صَواحبي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبنّ[11] إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، قال : لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قال[12] : فذهبْتُ إليه فأخَذْتُه، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره، فلما أخذتُه رجعت به إلى رحلى، فلما وضعتُه فى حِجرى، أقبل عليه ثدياى بما شاء الله من لبن، فشرب حتى رَوِى، وشرب معه

---

(١) شهباء : ذات جدب وقحط، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٨٩ . (٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧١ : «لم تبق لنا شيئا» . (٣) أتان قمراء : لونها بياض فيه كدرة، وفى السيرة الحلبية ١ : ٨٩ : قمراء : شديدة البياض . (٤) الشارف : الناقة المسنة . (٥) ما تبض : ما ترشح بشىء . (٦) فى السيرة لابن هشام ١ : ١٧١، وشرح المواهب ١ : ١٤٢ : «وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا» . (٧) رواية ابن هشام ٢ : ١٧١ : «ولكنا كنا نرجو» . (٨) فى السيرة الحلبية ١ : ٨٩ : أذمت بالذال المعجمة : أى، جاءت بما تذم عليه، وفى شرح السيرة للخشنى ١ : ٥٥ : «ومن رواه أذمت فمعناه تأخرت بالركب أى تأخر الركب بسببها» . (٩) العجف : الهزال . (١٠) رواية ابن هشام ١ : ١٧٢ : «إنا إنما كنا» .

(١١) فى شرح المواهب ١ : ١٤٣ : «صواحبي ليس معى رضيع، لأنطلقن إلى» .

(١٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٢، وشرح المواهب ١ : ١٤٣ : «قالت»، ولعل تذكير الفعل ...

أخوه حتى رَوِى، ثم ناما، وما كنّا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا بها حافل، فحلب منها ماشرب وشربتُ، حتى انتهينا رِيًّا وشِبَعًا، فبتنا بخير ليلة.

٢٥
١٤

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تَعلَمى والله ياحليمة لقد أخذتِ نسمةً مباركة ، قالت : قلت والله إنى لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا فركبتُ أتانى وحملتُه عليها معى ، فوالله لقطَعتْ بالرَّكب ما يقدر عليها شيء[1] من حُمُرهم، حتى إن صواحبي ليقُلْن لى : ويْحكِ يا بنتَ أبى ذؤيب [ويحك][2] ! اربعى[3] علينا . أليسَت هذه أتانُك التى كنتِ خرجتِ عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ! إنها لهى هى ، فيقلن : والله إن لها لشأنًا . قالت : ثم قدِمنا منازلنا من بلاد بَنى سَعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غَنَمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لُبَّنًا[4] ، فنحلُب ونشرب، وما يحلُب إنسان قطرة لبن وما يجدها[5] فى ضَرع حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرُعْيانهم : ويلكم ! اسرَحوا حيث يسرَح راعى بنت أبى ذُؤَيب ، قالت : فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخيرة حتى مضت سنتاه وفصَلتُه، وكان يشِبّ شبابا لا يُشبه الغِلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جَفرا[6] ، قالت : فقدِمنا به على أمه ونحن أحرَص شيء على مكثه فينا لما كنّا نرى من بركته ، فكلّمنا أمّه ، وقلت لها : لو تركت بُنَىَّ عندى حتى يغلُظ، فإنى أخشى عليه وَباءَ مكة ، قالت : فلم نزل[7] به حتى ردّته معنا فرجعنا به

٥

١٠

١٥

(١) فى الأصل : « ما لا يقدر علىّ شىء » ، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ١٧٣ .
(٢) عن ابن هشام ١ : ١٧٣ . (٣) اربعى : انتظرى . وفى السيرة الحلبية ١ : ٩٠ : اربعى : اعطفى علينا بالرفق وعدم الشدّة فى السير . (٤) فى السيرة لابن هشام ١ : ١٧٣ ، وشرح المواهب ١ : ١٤٥ : « ولا يجدها » . (٥) الحاضر : المقيم فى المنزل ، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٩٠ . (٦) الجفر : الشديد الغليظ . (٧) فى سيرة ابن هشام ١ ١٧٣ : « قالت : فلم نزل بها » .

٢٠

فوالله إنه بعد مَقدَمنا بأشهر مع أخيه لَفِى بَهْمٍ[1] لنا خلْف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتدُّ[2]، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشىّ قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقّا بطنه ، فهما يَسُوطانه[3]، قالت : فخرجت[4] انا وأبوه نحوَه ، فوجدناه قائما منتقعاً[5] وجهُه ، فالتزمتُه والتزمه أبوه ، فقلنا : مالك يا بنىّ ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعانى فشقّا بطنى، فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ما هو؟ قالت : فرجعنا إلى خبائنا،فقال لى أبوه : يا حَليمة،لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أُصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ، قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمّه ، فقالت : ما أقدَمَك يا ظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابنى ، وقضيتُ الذى علىّ ، وتخوّفت الأحداث عليه، فأدّيتُه عليكِ[6] كما تحبِّين ، قالت : ما هذا شأنُك فاصدُقينى خبَرك ! فلم تدعنى حتى أخبرتها؛ قالت : أفتخوّفت عليه الشيطان؟ قلت نعم . قالت كلّا والله! ما للشيطان عليه من سبيل،وإن لبُنَىّ لشأنا ، أفلا أخبرك خبره؟ قلت : بلى! قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منّى نور أضاء له قصورُ بُصْرى[7] من أرض الشام ، ثم حملتُ به، فوالله ما رأيتُ من حملٍ قطُّ كان أخفَّ ولا أيسر منه،ووقع حين ولدتُه وإنه لواضعٌ يديه بالأرض، ورافعٌ رأسه إلى السّماء؛ دعيه عنكِ وانطلقى راشدة.

هكذا نقل ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحاق .

---

(١) البهم : الصغار من أولاد الضأن . (٢) اشتد فى عدوه : أسرع . (٣) فى السيرة الحلبية ١ : ٩٣ : « يسوطانه : يدخلان يديهما فى بطنه » ، وفى شرح الخشنى ١ : ٥٦ : « يقال سطت اللبن أو الدم أو غيرهما أسوطه : إذا ضربت بعضه ببعض ، واسم العود الذى يضرب به السوط » .

(٤) فى الأصل : « قال : فخرجت » ، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ١٧٤ .

(٥) انتقع لونه : تغيرت جلدة وجهه من خوف أو مرض ، وذهب دمه . (٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٤ : «فأديته إليك» . (٧) فى الأصل : «أضاء له قيصرى و بصرى من أرض الشام» ، والمثبت عن شرح المواهب ١ : ١٥٠ ؛ وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٤ : « أضاء لى قصور بصرى » .

وقال محمد بن سعد فى كتابه المترجم بالطبقات عن الواقدىّ : كان عمره يوم شُقّ بطنُه أربع سنين، و إن حَليمة أتت به أمّه آمنة بنتَ وهب وأخبرتها خبره وقالت : إنا لا نردّه إلّا على جَدْع أنفنا ؛ ثم رجَعت به أيضا، فكان عندها سنة أو نحوها، لا تَدَعُه يذهب مكانا بعيدا، ثم رأت غمامة تُظلّه ، إذا وقفَ وقفتْ ، و إذا سار سارت، فأفزعها ذلك من أمره، فقدمت به إلى أمّه لتردّه وهو آبن خمس سنين، فأضلّها[1] فى الناس، فالتمسَتْه فلم تجده، فأتت عبد المطّلب فأخبرته ، فالتمسه فلم يجده، فقام عند الكعبة فقال :

لا هُمَّ رُدّ راكبي محمّدا * أُردُدْه ربّى وآصطَنِع عندى يَدا
أنت الذى جعلتَه لى عَضُدا * لا يبعد الدهرُ به فيبعدا
* أنت الذى سمّيته محمّدا *

قال آبن اسحاق[2] : يزعمون أنه وجده ورَقَةُ بن نَوفَل بن أسد ورجل آخر من قُريش، فأتيا به عبد المطّلب، فقالا : هذا آبنك وجدناه بأعلى مكّة، فأخذه عبد المطلب فجعله على عُنقه وهو يطوف بالكعبة يعوّذه ويدعو له، ثم أرسل به إلى أمّه آمنة . وعن خالد بن مَعْدان الكَلَاعىّ[3] : أنّ نفرا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له : يارسول الله ! أَخبِرنا[4] عن نفسك، قال: نعم . أنا دعوة أبى إبراهيم، وبُشْرى عيسى ورأت أمى حين حملَت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، وآسترضعتُ فى بنى سَعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لى خَلْف بيوتنا نرعَى بَهْما لنا، إذ أتانى رجلان

(١) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٦، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٩٤ .
(٢) نقله ابن هشام ١ : ١٧٦ . (٣) ترجمته فى تهذيب التهذيب ٣ : ١١٨ . وقد روى هذا الخبر ابن هشام فى السيرة ١ : ١٧٥ . (٤) انظر عيون الأثر ١ : ٣٥ .

عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا، فأخذانى فشقّا بطنى، ثم آستخرجا[1] قلبى فشقّاه، فاستخرجا منه علقةً سوداء فطرحاها، ثم غسلا بطنى وقلبى بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنْه بعشرة من أمّته. فوزنى بهم فوزنتهم، ثم قال: زِنْه بمائة من أمّته، فوزننى بهم فوزَنتُهم، ثم قال: زِنْه بألف من أمّته، فوزننى بهم فوزَنتُهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمّته لوزَنها.

قال محمد بن إسحاق: وحدّثنى بعض أهل العلم[2] أن مما هاج أمّه السّعدية على ردّه إلى أمه، مع ما ذكرتْ لأمه مما أخبرتْها عنه، أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فِطامه، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلّبوه ثم قالوا لها: لنأخُذنّ هذا الغلام فلنذهبن به إلى مَلِكنا وبلدنا، فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره، فلم تكد تَنفَلِت به منهم.

ونقل محمد بن سعد[3]: أن آمنة أمّ النبى صلى الله عليه وسلم لمّا دفعتْه لحليمة السعديّة قالت لها: احفظى آبنى، وأخبرتْها بما رأت، فمرّ بها اليهود فقالت: ألا تحدّثونى عن آبنى هذا؟ فإنّى حملتُه كذا، ووضعتُه كذا، ورأيتُ كذا، كما وصفت آمنة، فقال بعضهم لبعض: اُقتلوه! ثم قالوا: أيتيم هو؟ فقالت: لا هذا أبوه[4] وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيما لقتلْناه[5]، قالت: فذهبت به.

وحَضَنَتْه صلى الله عليه وسلم أمّ أيمن [بَرَكَة][6] الحبشيّة حتى كَبِر، فأعتقها وزوّجها زيد بن حارثة، فولدتْ له أسامة بن زيد؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثها من أبيه. والله أعلم.

(١) كذا فى عيون الأثر ١ : ٣٥، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٥ : «ثم أخذانى فشقا بطنى واستخرجا». (٢) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٧٧. (٣) الطبقات ١ : ٧١ (قسم أول)، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٩٠. (٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٩٥ : «لها أبُه». (٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٩٥ : «يتيما قتلناه». (٦) عن السيرة الحلبية ١ : ١٠٥.

ذكر وفاة آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الواقدىّ وغيره من أهل العلم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما بلغتْ سنُّه ستَّ سنين خرجتْ به إلى أخواله بنى عَدِىّ بن النّجار بالمدينة تزورهم به ، ومعه أمّ أَيْمَن تحضنُه ، وهم على بعيرَيْن ، فنزلتْ به فى دار النابغة[1] ، فأقامت به عندهم شهرا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أمورا كانت فى مُقامه ذلك لمّا نظر إلى أُطُم بنى عَدِىّ بن النجّار عرفَه وقال : كنت ألاعب أُنَيسَة جاريةً من الأنصار على هذا الأُطُم ، وكنتُ مع غِلمانٍ من أخوالى ؛ ونظر إلى الدار فقال : هاهنا نزلتْ بى أمّى ، وفى هذه الدار قبرُ أبى عبد الله ، وأحسنتُ العَوْمَ فى بئر بنى عدىّ بن النجّار ، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه[2] ، فقالت أمّ أيمن : فسمعتُ أحدَهم يقول : هــذا نبىُّ هذه الأمّة ، وهــذه دارُ هِجْرته ، فوَعَيتُ ذلك كلّه من كلامه ؛ ثمّ رجعتُ به إلى مكّة ، فلمّا كانوا بالأَبْواء[3] [تُوفِّيتْ آمنةُ بنتُ وهب فقبرُها هنالك ، فرجعتْ به أمّ أيمن على البعيرين اللّذين قدموا عليهما إلى مكّة ، وكانت تحضنه مع أمّه ثم بعد أن ماتت ، فلما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم[4]] فى عمرة الحُدَيْبية قال : "إن الله أَذِن لمحمدٍ فى زيارة قبر أمّه" فأتاه صلى الله عليه وسلم فأصلحه وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له[5] ، فقال : أدركتْنى رحمتُها فبكيتُ . والله الرحمن .

(١) فى الأصل ، وطبقات ابن سعد : «النابغة» بالنون ، وفى شرح المواهب للزرقانى ١ : ١٦٣ : « التابعة بفوقية فوحدة فهملة : رجل من بنى عدى بن النجار » .

(٢) فى الزرقانى ١ : ١٤٦ : « ينظرون إلىّ ، قالت أم » .

(٣) الأبواء بفتح الهمزة : موضع بين مكّة والمدينة ، وهو إلى المدينة أقرب . معجم البلدان ١ : ٩٢

(٤) ما بين المربعين عن الزرقانى ١ : ١٦٤ ؛ وطبقات ابن سعد ١ : ٧٧ (قسم أول) .

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ١٠٥ : « فقيل له فى ذلك » .

ذكر كفالة عبد المطلب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم

قال: ولما تُوُفِّيتْ أمه آمنةُ قبضه إليه جدّه عبدُ المطلب وضمّه إليه ورَقّ عليه رِقّة لم يرِقّها على وَلَدِه، وكان يقرّبه منه ويدنيه، ويَدخُل عليه إذا خلا وإذا نام، ويجلس على فراشه؛ وكان يوضَع لعبد المطّلب فراشٌ فى ظِلّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فِراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بَنيه إجلالا له، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلامٌ حتى يجلس عليه، فيأخذَه أعمامُه ليؤخّروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ٱبنى، فوالله إنّ له لشأنا، ثم يُجلسه معه عليه، ويمسَح ظهرَه بيده، ويَسُرُّه ما يراه يصنع.

وقال قوم من بنى مُدْلِج[1] لعبد المطلب: إحتفِظ به، فإنّا لم نَر قدما أشبه بالقدم التى فى المقام منه؛ فقال عبد المطلب لأبى طالب: اِسمع ما يقول هؤلاء.

وسنذكر إن شاء الله خبرَ سيف بنِ ذى يَزَن مع عبد المطلب، وما بَشَّره من أمر النبى صلى الله عليه وسلم.

قالوا: وكان عبد المطلب لا يأكل طعاما إلا قال: علىّ بٱبنى فيؤتَى به إليه فلما بلغ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ثمانى سنين، هلك عبدُ المطّلب بنُ هاشم؛ ولما حضرتْه الوَفاة أَوصَى ٱبنَه أباطالب بحفظِه وكَفالتِه؛ [وكانت][2] وفاة عبد المطّلب ابن هاشم لثمانٍ مضين من عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجون، وهو يومئذ

(١) بنو مدلج: قبيلة من كنانة، وهم القافة العارفون بالآثار والعلامات، وانظر السيرة الحلبية ١ : ١٠٩ .

(٢) سقطت من الأصل .

ابن اثنتين وثمانين سنة ، وقيل ابن مائة وعشر سنين حكاه السهيلي[(1)][(2)] ؛ قال : « وهو أوّل من خَضَب بالسّواد من العَرَب » .

قال ابن قتيبة[(3)] : إنّه كَبِر وعَمِيَ ، وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رءوس الجبال ، ويقال له الفيّاض بجُوده ، ومُطْعِم طيرِ السماء . قال ابن الأثير[(4)]: « وهو أوّل من تحنّث بحِراء ، فكان إذا دخل شهر رمضان صعد حِراءَ وأطعَم المساكين » .

وسُئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أتذكر موتَ عبد المطّلب ؟ قال : نعم . أنا يومئذ ابن ثماني سنين ، قالت أمّ أيمن : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومئذ يَبكي خَلْفَ سريرِ عبد المطّلب .

قال : ولما هلك عبد المطلب وَلِيَ زمزمَ والسقايةَ عليها بَعده ابنُه العبّاس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ من أحدث إخوته سنّا ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده ، فأقرّها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على ما مضى .

وعن عبدالله بن عبّاس وغيره ، قالوا : لما تُوفّى عبدالمطلب قَبَض رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم عمُّه أبو طالب ، قيل بوصيةٍ من عبد المطلب ، فأحبّه حبّا شديدا ، وكان لايفارقه ، وكان يَخُصّه[(5)] بالطعام[(6)] ، وكان إذا أكل عيالُ أبى طالب جميعا أو فُرَادى

---

(١) فى عمر عبد المطلب أقوال أخرى تجدها فى السيرة الحلبية ١ : ١١٢ ، وشرح المواهب ١ : ١٨٩ .

(٢) الذى حكاه السهيلى ١ : ٥ ، ونقله عنه الزرقانى ١ : ١٨٩ : أنه عاش مائة وأربعين سنة . فلعل هذا القول سقط من نص النويرى .

(٣) فى المعارف ص ٣٣

(٤) فى الكامل ٢ : ٦

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٤ : « وكان يخصه بأحسن الطعام » .

(٦) هو قول حكاه الواقدى . ونقله الزرقانى ١ : ١٨٩

لم يَشبَعوا[1]، و إذا أكل معهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم شَبِعوا؛ فكان إذا أراد أن يغدّيهم[2] قال: كما أنتم حتّى يحضَرَ ابنى؛ فيأتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم، فيُفضِلون من طعامهم، و إن لم يكن معهم لم يَشبَعوا ، فيقول أبو طالب : إنك لَمُبارك؛ وكان الصّبيان يُصبِحون رُمْصًا شُعْثا، ويُصبح عليه السلام دَهِينا كَحِيلا[3] .

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام مع عمّه أبى طالب ، وخبر بَحِيرا الراهب

قالوا : لما بلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلم اثنتَىْ عشرةَ سنةً وعشرةَ أيّام ، خرج أبو طالب فى رَكْب تاجرا إلى الشام ، فلما تهيّأ للرحيل تعلّق به رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فرقّ له أبو طالب[4] وقال : والله لأخرجنّ به ، ولا يفارقُنى ولا أفارقُه أبدا ، فخرج به معه ، فلما نزل الرّكْب بُصْرَى من أرض الشام، وبها راهبٌ يقال له بَحِيرًا فى صَوْمَعةٍ له ، وكان إليه عِلمُ أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصّومَعة راهبٌ إليه يصير عِلمُهم عن كتابٍ فيها يتوارثونه كابرًا عن كابرٍ ، فلما نزلوا ذلك العام بَحِيرا وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك، وهو لا يكلمهم، فصنع[5] لهم طعاما كثيرا ، وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو فى صومعته، فى الرّكْب حين أقبلوا، وغمامةٌ تظلُّه من بين القوم،

(١) ذلك لأن أبا طالب كان مقلا من المال . انظر السيرة الحلبية ١ : ١١٤

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٤ : « ... أن يغذيهم أو يعشيهم يقول لهم » .

(٣) فى النهاية لابن الأثير٣ : ١٧١ : « يصبحون غمصا رمصا ، و يصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم صقيلا ، دهينا كحيلا » . وانظر الزرقانى ١ : ١٨٩

(٤) انظر السيرة الحلبية ١ : ١١٤

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٨ : « حتى كان ذلك العام صنع لهم » .

فلما نزلوا فى ظل شجرة قريبا منه ، نظر إلى الغمامة وقد أظلت الشجرة ، وتهصّرت[1] أغصانها على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظلّ تحتها[2] ، فلما رأى بَحيرا ذلك نزل من صَوْمعته ، وقد أمر بذلك الطعام فصُنع ، ثم أرسل إلى القوم فقال : إنى قد صنعتُ لكم طعاما يا معشر قريش ، فأنا أحبّ أن تحضُروا[3] كلّكم ؛ صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحُرّكم ؛ فقال له رجل منهم : يا بَحيرا إنّ لك لشأنا اليوم : قال له بحيرا : صدقتَ ، قد كان ما تقول فاجتمعوا إليه ، وتخلّف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنّه فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بَحيرا فى القوم لم يَرَ الصِّفةَ التى يعرِف ، فقال : يا معشر قُرَيش لا يتخلّف منكم أحد عن طعامى ، قالوا : ما تخلّف عنك أحد ينبغى أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنًّا تخلف فى رحالهم ، قال : لا تفعلوا أُدْعوه فليَحْضر ، فقال رجل من قريش : واللاتَ والعُزّى إن كان لَلُؤْمًا بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام[4] فاحتضنه وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بَحيرا جعل يلحَظه لحظا شديدا وينظُر إلى أشياءَ من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرّقوا قام إليه بحيرا فقال له : يا غلام ، أسألك بحق اللاتَ والعُزّى إلا ما أخبرتَنى عما أسألك عنه ، فقال : لا تسألنى بهما ! فوالله ما أبغضت شيئا قط بُغْضَهما ، فقال له : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ! فقال : سَلْنى

(١) تهصرت : تهدلت عليه .

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٨ : «وكان صلى الله عليه وسلم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة ، فلما جلس مال فىء الشجرة عليه» .

(٣) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٨ : « . . قريش ، وأحب أن تحضروا » .

(٤) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٩ : « ثم قام إليه فاحتضنه » ، وفى شرح المواهب ١ : ١٩٤ : « فقال رجل من قريش ... ثم قام الحارث بن عبد المطلب فأتى به » .

عمّا بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه، وهيئته، وأموره،(١) ورسول الله صلى الله عليه وسلم يُخبره، فيوافق ذلك ما عند بَحيرا من صفته، ثمّ نظر إلى خاتم النبوّة بين كتفيه، وكان مثل أثر المِحْجَم، فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له: ما هذا الغلامُ منك؟ قال: ابنى؟ قال له بَحيرا: ما هو بابنك،(٢) وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا؛ قال: فإنه ابن أخى، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمّه حُبْلَى به، قال: صدقتَ ارجع بابن أخيك إلى بلده فاحذر عليه اليهود،(٣) فوالله لئن رأوه وعَرَفوا منه ما عَرفت، ليَبْغُنَّهُ شَرًّا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرِعْ به إلى بلاده، فخرج أبو طالب سريعا حتّى أقدمه مكّة حين فرغ من تجارته بالشام.

وروُيَ أنّ زُرَيْرًا وتَمّاما ودَرِيسا، وهم نفر من أهل الكتاب، قد كانوا رأَوا من رسول الله صلى الله عليه وسلّم مِثْلَ ما رأى بَحيرًا فى ذلك السَّفَر الّذى كان فيه مع عمّه أبى طالب، فأرادوه،(٤) فردّهم عنه بَحيرا، وذكّرهم اللهَ وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لا يخلُصوا إليه،(٥) فعرّفهم ما قال لهم فتركوه وانصرفوا عنه؛ قال: فَشبّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يكلؤه الله ويَحفظُه ويَحوطُه لما يريد به من كرامته واصطفائه إنّه خيرُ الحافظين. والله المُعين.

(١) فى شرح المواهب ١ : ١٩٦ : « عن أشياء من حاله ونومه . . الخ ».

(٢) هذه رواية ابن هشام ١ : ١٩٣ أيضا، وفى السيرة الحلبية ١ : ١١٩ : « ما هو ابنك ».

(٣) فى عيون الأثر ١ : ٤٢، والسيرة الحلبية ١ : ١١٩ : « إلى بلاده، واحذر ».

(٤) كذا فى عيون الأثر ١ : ٤٢ . وفى السيرة الحلبية ١ : ١١٩ : « وأرادوا به سوءا فردّهم عنه بحيرا ».

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٩ : « يخلصوا إليه، فعند ذلك تركوه وانصرفوا عنه »، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٩٤ : « ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم، وصدّقوا بما قال فتركوه ».

ذكر رَعيته[1] صلّى الله عليه وسلّم الغَنَم

عن عبد الله بن عُمير رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما من نبيّ إلا قد رَعَى الغنم ، قالوا : وأنتَ يارسول الله ؟ قال : وأنا . وعن أبى هُريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما بعث الله نبيّا إلا راعِىَ غَنَم" ، قال له أصحابه : وأنت يا رسولَ الله ؟ قال : وأنا ، رعيتُها لأهل مكّة بالقراريط[2] .

وعن أبى سَلَمة بن عبد الرحمن ، قال : مَرُّوا على النّبى صلّى الله عليه وسلّم بثَمَرَ الأَراك فقال : عليكم بما اسودّ منه ، فإنّى كنتُ إذ أنا راعى الغنم ، قالوا : يا رسول الله ، رعيتَها ؟ قال : نعم . وما من نبيّ إلّا قد رَعاها .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه نحوه .

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام[3] : ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ، وقيل ابن عشرين ، هاجت حَرْب الفِجار[4] ، فشَهِدها صلّى الله عليه وسلّم ، وكان يُنَبِّل على أعمامه أى يردّ عليهم النَّبْل[5] .

---

(١) رعيته : بفتح الراء بمعنى رعيه ، وانظر السيرة الحلبية ١ : ١٢٥ .

(٢) فى معنى « القراريط » فى هذا الحديث خلاف ؛ قيل : هى أجزاء من الدراهم والدنانير؛ قال سويد بن سعيد : يعنى كل شاة بقيراط ؛ وقيل : القراريط موضع بمكة ، ولم يقصد فى الحديث القراريط من الذهب والفضة ؛ لأن العرب لم تكن تعرف القراريط بهذا المعنى . وانظر السيرة الحلبيه ١ : ١٢٦ .

(٣) السيرة ١ : ١٩٥ .

(٤) قال ابن هشام ١ : ١٩٨ ، نقلا عن ابن إسحاق : « وإنما سمى يوم الفجار بما استحل هذان الحيان ، كنانة وقيس عيلان ، فيه من المحارم » .

(٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٩٨ : « ... كنت أنبل على أعمامى : أى أردّ عليهم نبل عدوّهم إذا رموهم بها » .

وقد تقدّم ذِكْرُ حرْب الفِجار فى وقائع العرَب، وذلك فى الباب الخامس من القسم الرابع من الفن الخامس من كتابنا هذا؛ وهو فى السفر الثالث عشر من هذه النسخة والله الموفّق للصواب وإليه المَرْجع .

ذكر حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم حِلف الفُضُول

قال محمّد بن عمر بن واقد [بسند] يرفعه إلى حَكيم بن حِزام : كان حِلفُ الفضول مُنصَرَف قُرَيش من حَرْب الفِجار، ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذ ابن عشرين سنة، وكان الفِجار فى شوّال، وهذا الحِلفُ فى ذى القعدة[1]، وكان أشرفَ حِلْف كان قطّ ، وأوّل من دعا إليه الزُّبَيْر بن عبد المطّلب ، فآجتمعتْ بنو هاشم وزُهْرة ، وبنو أَسَد بن عبد العزّى وبنو تَيْم فى دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنعَ لهم طعاما ، تَعاقَدوا وتَعاهَدوا بالله لَيكونُنّ مع المظلوم حتّى يؤدّى إليه حقُّه "ما بَلّ بحرٌ صُوفَة"، فسمّت قريشٌ ذلك الحِلفَ حِلفَ الفُضول .

وقال آبن هشام[2] : تَعاقَدوا وتَعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها ، وغيرِهم ممن دخَلَها من سائر الناس إلّا قاموا معه ؛ وكانوا على مَن ظَلَمه حتى تُرَدَّ عليه مظلمتُه .

وعن جُبَيْر بن مُطْعِم ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما أُحبُّ أنّ لى بحِلف حَضَرتُه فى دار آبن جُدْعانَ حُمْرَ النَّعَم[3] وأَنّى أَغدِر به ؛ هاشمُ وزُهرة وتَيْم تَحالَفوا أن يكونوا مع المظلوم "ما بلّ بحرٌ صُوفة"، ولو دُعيتُ به لأجبتُ[4] ، وهو حِلْفُ الفُضول .

---

(١) انظر السيرة الحلبية ١ : ١٢٩ (٢) السيرة ١ : ١٤١

(٣) أى أنى لا أحب الغدر به و إن أعطيت حمر النعم فى ذلك .

(٤) يعنى لو قال قائل من المظلومين فى الإسلام : يآل حلف الفضول لأجبت .

قال الواقدى : ولا نعلم أحدا سبق بنى هاشم بهذا الحلف . وحكى أبو الفرج الأصفهانى[١] فى سبب تسمية هذا الحلف حلف الفضول : أن قوما من قريش قالوا فى هذا الحلف : هذا والله فضل من الحلف ، فسمى حلف الفضول . قال : وقال آخرون : تحالفوا على مثل حلف تحالف عليه قوم من جرهم[٢] فى هذا الأمر لا يقرون[٣] ظلما ببطن مكة إلا غيروه ، وأسماؤهم : الفضل بن شراعة ، والفضل بن قضاعة ، والفضل بن سماعة .

وروى أيضا بسنده إلى أبى[٤] إسحاق بن الفضل قال : إنما سمت قريش هذا الحلف حلف الفضول لأن نفرا من جرهم يقال لهم الفضل والفضال والفضيل تحالفوا على مثل ما تحالفت عليه قريش ، قال : وقال الواقدى[٥] : والصحيح أن قوما من جرهم يقال لهم فضل وفضالة وفضال ومفضل[٦] تحالفوا على مثل هذا فلما تحالفت قريش بهذا الحلف سموه بذلك . والله الموفق للصواب .

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشأم المرة الثانية فى التجارة وحديث نسطور

قال : ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة قال له عمه ابو طالب : أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وهذه عير قومك قد

(١) الأغانى بولاق ١٦ : ٦٥

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ١٣١ : «هم ثلاثة من جرهم كل واحد منهم يقال له الفضل ، وهم الفضل ابن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث» .

(٣) فى الأغانى ١٦ : ٦٥ : «الأمر أن لا يقروا» .

(٤) الأغانى ١٦ : ٦٧

(٥) الأغانى ١٦ : ٧٠

(٦) فى الأغانى ١٦ : ٧٠ : «على مثل هذا فى أيامهم ، فلما» .

حضَر خروجُها إلى الشام، وخديجةُ بنت خُوَيْلد تَبعثُ رجالا من قومك فى عِيرَاتها[١]، فلو جئتَها فعرضتَ نفسَكَ عليها لأسرعتْ إليك؛ وبلغ خديجةَ ذلك، فأرسلتْ إليه تقول: أنا أعطيك ضِعفَ ما أُعطى رجلا من قومك، فقال أبو طالب: هذا رزق ساقه الله إليك، فخرج رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ومعه مَيْسَرة غلام خديجة، وجعل عُمومتُه يُوصُون به أهلَ العِير، فساروا حتى قَدِموا بُصْرى[٢]، فنزلَا فى ظلّ شجرة، فقال نَسْطُورًا[٣] الراهب: ما نزل تحت هـذه الشجرة قطّ إلّا نبىّ. ثم سأل مَيْسرةَ عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقال: أفى عينيه حُمْـرة[٤]؟ قال: نعم لا تفارقه؛ قال: هـو نبىّ[٥]، وهو آخر الأنبياء؛ ثم باعَ رسولُ الله صلّى الله عليـه وسلّم سلعةً فوقع بينه وبين رجل تلاحٍ، فقال له: احلف باللّاتَ والعُزّى، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما حلفتُ بهما قطّ، وإنّى لأمُرّ فأعرِض عنهما، فقال الرجل القولُ قولُك، ثم قال لميسرة[٦]: هذا والله نبىّ تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم؛ وكان مَيْسَرة إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ يرى مَلَكين يُظِلّان رسول الله صلّى الله عليه وسلم من الشمس، فوعَى ذلك كلّه، وباعوا تجارتَهم، وربِحوا ضِعفَ ما كانوا يَرْبحون؛ فلما رجعوا وكانوا بمَرّ الظَّهْران[٧] قال ميسرة: يا محمّـد! انطلق إلى خديجة فأخبرها

(١) جمع الجمع لعير.

(٢) بضم الموحدة: مدينة حوران فتحت صلحا سـنة ١٣ هـ، وهى أول مدينة فتحت بالشـام. انظر الزرقانى ١: ١٩٤.

(٣) بفتح النون وسكون السين وضم الطاء وألف مقصورة. عن الزرقانى ١: ١٩٨.

(٤) كانت هذه الحمرة فى بياض عينه، وهى الشكلة، وجاء فى وصفه أنه كان أشكل العينين.

(٥) رواية الزرقانى ١: ١٩٩، والسيرة الحلبية ١: ١٣٣: «هو هو، وهو آخر الأنبياء».

(٦) فى السيرة الحلبية ١: ١٣٤: «ثم قال الرجل لميسرة».

(٧) مر الظهران: واد بين مكة وعسفان، وهو الذى تسميه العامة بطن مرو، وهو المعروف الآن بوادى فاطمة. عن السيرة الحلبية ١: ١٣٥

بما صنع الله على وجهك، فإنها تعرف (١) [لك] (٢) ذلك، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة وخديجة فى عُلية (٣) لها، فرأت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو على بعيره، ومَلَكان يُظلّان عليه، فأرَته نساءَها، فعجبن لذلك، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها فخبَّرها (٤) بما ربحوا فى وَجْههم ذلك، فسُرّت به، فلما دخل مَيْسرة عليها أخبرته بما رأت، فقال: قد رأيت هذا مذ خرجنا من الشام، وأخبرها بما قال نَسْطُورا، وبما قال الآخر الذى حالفه (٥) فى البيع، وقَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارتها، فربحتْ ضعفَ ما كانت تربح، وأَضعفتْ له ما سمّت له. والله المعين.

ذكر تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجةَ بنت خُوَيْلد

قال الواقدى بسند يرفعه إلى نَفيسة بنت مُنية (٦)؛ قالت: كانت خديجة بنتُ خُويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصىّ امرأةً حازمة جَلْدة شريفة لبيبة، وهى يومئذ أوسط (٧) قريش نَسَبا، وأعظمُهم شَرَفا، وأكثرُهم مالا، وكُلُّ قومها كان حريصا على نكاحها لو قَدَر على ذلك، قد طلبوها وبَذلوا (٨) لها الأموال؛ فأرسلتنى دسيسا (٩) إلى محمد بعد أن رجع فى عِيرها من الشام، فقلتُ: يا محمد، ما يمنعُك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدى ما أتزوّج به، قلتُ: فإن كُفيتَ ذلك، ودُعيتَ إلى الجَمال والمال والشَّرَف والكَفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هى؟ قلت خديجة، قال: وكيف لى بذلك؟

(١) الوجه: الوجهة. (٢) عن طبقات ابن سعد ١: ٢ : ٨١ (قسم أول).

(٣) العلية: الغرفة. (٤) فى الأصل: «يخبرها»، والمثبت عن ابن سعد، والسيرة الحلبية ١: ١٣٥، وفى شرح المواهب ١: ١٩٩: «فأخبرها». (٥) حالفه: استحلفه.

(٦) فى الأصل: «بنت منبه»، تصحيف. (٧) فى السيرة الحلبية ١: ١٣٧: «أوسط نساء قريش نسبا». (٨) فى السيرة الحلبية ١: ١٣٧: «وذكروا لها الأموال فلم تقبل». (٩) الدسيس: من تدسه ليأتيك بالأخبار.

قلت عليّ[1]، فأنا أفعل، فذهبتُ فأخبرتُها، فأرسلتْ إليه: أن آئت لساعةِ كذا وكذا، وأرسلَتْ إلى عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها . وقيل: إنّها أرسلتْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: يا بن العمّ! إنى قد رغبتُ فيك لقرابتك منّى، وشرفك فى قومك، وسِطَتِك[2] وأمانتِك عندهم، وحُسْنِ خُلُقك وصدقِ حديثِك؛ ثم عرضتْ نفسَها عليه، فذكر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة ابنُ عبد المطّلب حتى دخل على خُوَيلد بن أسد، وقيل: بل عمرو بن خُوَيلد بن أسد، وقيل: بل عمرو بن أُمية عمِّها، وكان شيخًا كبيرا وهو الصحيح، فخطبَها إليه. قيل: وحضر أبو طالب ورؤساء مُضَر، فخطب أبو طالب فقال:

" الحمد لله الذى جعلنا من ذرّية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئْضِئِ[3] مَعَدّ، وعُنصرِ مُضَر[4]، وجعلَنا حَضَنة بيته، وسُوّاس حَرَمه، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحَرَما آمنا، وجعلنا الحكّام على الناس؛ ثم إن ابن أخى هذا محمّد بن عبدالله، لا يوزَن به رجل إلا رجَح به، فإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظِلٌّ زائل، وأمر حائل، ومحمد مَن قد عرفتم[5] قرابتَه؛ وقد خطَب خديجةَ بنت خُوَيلد، وبذَل لها من الصَّداق ما آجلُه وعاجِله من مالى كذا، وهو واللهِ بعدَ هذا له نبأ عظيم، وخَطْب جليل[6]". فتزوّجها صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام، وخديجةُ يومئذ بنت ثمان وعشرين سنة، وقيل: بنت أربعين سنة، وأصدقَها صلى الله عليه

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ١٣٧ : « بذلك، فقلت بلى وأنا أفعل » .

(٢) سطتك : شرفك .

(٣) ضئضئ معدّ : أى معدنه وأصله .

(٤) عنصر مضر : أى أصله .

(٥) فى شرح المواهب ١ : ٢٠١ : « ومحمد ممن قد عرفتم » .

(٦) فى السيرة الحلبية ١ : ١٣٩، وشرح المواهب ١ : ٢٠٢ : « عظيم، وخطر جليل » .

وسلم ثِنْتَى عشرة أُوقِيــة ونَشًّا ذهبا ، الأُوقيــة أربعون ، والنَّشّ عشرون ، فذلك خمسمائة درهم .

وروى ابن هشام[1] : أنه أصدقها صلى الله عليه وسلم عشرين بَكْرَة .

ذكرُ حضورِ رسول الله صلى الله عليه وسلم هَدْمَ الكعبة وبناءَها

قالوا : ولما بلغ رســول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة شهِد هَدْم الكعبة وبنــاءها، وتَراضت قريش بحُكمه فيها؛ وكان سببُ هدم الكعبة وبنــائها ما رُوِى عن ابن عباس، ومحمد بن جُبير بن مُطْعِم، قالا : كانت الجُرُوف[2] مُطِلّةً على مكة، وكان السَّيل يدخل من أعلاها حتى يدخُل البيت فانصــدع، فخــافوا أن ينهدم ، وسُرِق منه حَلْيُه وغَزَال من ذهب كان عليه دُرٌّ وجوهر .

قال محمــد بن إسحق[3] : وكان كنز الكعبة فى بئرٍ فى جوفها ، فوُجِد عند دُوَيْك مولًى لبنى مُلَيح بن عمرو بن خُزاعة . قال ابن هشام : فقطعت قريش يده ، وزعمت قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دُوَيك .

وكانت الكعبة فوق القــامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وكانوا يهمّون بذلك ويهابون هَدمَها ، فلمــا سُرِق الكنز حَمَلَهــم ذلك على هدمها وبنــائها ؛ قال[4] : وكان البحــر قــد رَمَى بسفينةٍ إلى جُدّة لرجل من تجّار الروم فتحطمت . قال الواقدى : كان رأسُ أصحاب السفينة رجلا روميا اسمــه باَقُوم[5]، فنَجَّتها[6] الريح إلى

(١) السيرة ١ : ٢٠١ . (٢) فى الأصل وطبقات ابن سعد ١ : ٩٢ (قسم أول) : «الجرف مطلة» . (٣) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٠٥ ، وعبارته : «وذلك أن نفرا سرقوا كنز الكعبة ، وإنما كان يكون فى بئر» الخ . (٤) القائل ابن إسحق ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٥ .

(٥) باقوم ، بموحدة فألف فقاف مضمومة فواو ساكنة فميم ؛ ويقال : باقول باللام ؛ وهو نجار قبطى ، وقيل رومى . وانظر الزرقانى ١ : ٢٠٣ . (٦) نجتها : أى دفعتها .

الشُّعَيبة[1]، وكانت مرفأ السفُن قبلَ جُدَّة فتحطّمت؛ فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش فابتاعوا خَشَبها، وقدم معهم باَقُوم الرومىّ .

قال ابن اسحق[2] : فأعدّوا الخشب لتسقيفها، وكان بمكة رجل قِبطىّ نجار، فتهيأ لهم فى أنفسهم بعضُ ما يُصلِحها؛ وكانت حيةٌ تخرج من بئر الكعبة التى كان يُطرَح فيها ما يُهدَى لها، فتتشرّقُ[3] كل يوم على جدار الكعبة، ولا يدنو منها أحد إلا احْزَألّت[4] أى رفعت رأسها وكَشّت[5] وفتحت فاها، فكانوا يهابونها؛ فبينَا هى يوما تَتَشرَّقُ بعث اللهُ طائرا فاختَطفَها فَذهب بها، فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردْنا؛ عندنا عاملٌ رفيق، وعندنا خشَب، وقد كفانا الله عز وجل الحية .

فلما أجْمَعوا أمْرَهم[6] على هدمها و بنائها، قام أبو وَهب بن عمــرو بن عائذ بن عِمران بن مَخزوم، وهو خال أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتناول من الكعبة حجرًا، فوثَب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال : يامعشر قريش، لا تُدخِلوا فى بنائها من كَسْبكم إلا طيّبا، لا يدخل فيها مَهْر بَغىّ، ولا بيــع رِبًا، ولا مَظلَمة أحدٍ من الناس . ويقال إن الوليد بن المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخزوم هو الذى قال هذا القول .

قال الواقدىّ : فأمَروا بجمع الحجارة، و ببناء الكعبة منها؛ فبينَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم، وكانوا يضَعون أُزُرَهم على عواتقهم و يحملون الحجارة، ففعل

---

(١) معجم البلدان ٥ : ٢٧٥ . (٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٥ .

(٣) تتشرق : تبرز للشمس . عن الخشنى ١ : ٦٣ .

(٤) فى شرح الخشنى على سيرة ابن هشام ١ : ٦٣ : « احزألت : رفعت ذنبها » .

(٥) صوتت باحتكاك بعض جلدها ببعض . عن الخشنى ١ : ٦٣ .

(٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٥ : « أمرهم فى » .

ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فَلُبِطَ به : أى سقط من قيام، ونودى : عورتَك! فكان ذلك أوّل ما نُودِى، فقال له أبو طالب : يابنَ أخى اجعل إزارك على رأسك، فقال : ما أصابنى [ما أصابنى] إلا من التَّعَرِّى(١)؛ فما رؤيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم عورةٌ بعد ذلك .

قال ابن إسحاق(٢) : ثم إن قريشا جَزَّأَت(٣) الكعبة(٤)، فكان شق الباب لبنى عبد مَناف وزُهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانىّ لبنى مخزوم وقبائلَ من قُريش انضمّوا إليهم، وكان ظَهْرُ الكعبة لبنى جُمَحَ وسَهم، وكان شقّ الحِجر لبنى عبد الدّار ابن قُصَىّ وبنى أسَد بن عبد العُزَّى وبنى عَدِىّ بن كعب، وهو الحَطِيم(٥) .

وقال الواقدىّ : وقَع لبنى عبد مَناف وزُهرة وجهُ البيت، وهو ما بين الركن الأسود إلى ركن الحِجْر، ووقع لبنى أسَد بن عبد العُزَّى وبنى عبد الدار ما بين ركن الحِجْر إلى ركن الحِجْر الآخر، ووقَع لتَيْم ومَخزوم ما بين ركن الحِجر إلى الركن اليمانىّ، ووقع لسَهْم وجُمَح وعَدِىّ وعامر بن لُؤَىّ ما بين الركن إلى الركن الأسود .

قال ابن إسحاق(٦) : ثمّ إن الناس هابوا هَدْمَها ، وفَرِقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدأكم فى هدمها، فأخذ المِعْوَل، ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم تُرَعْ(٧)،

(١) فى الأصل : « ما أصابنى إلا فى تعرى » ، والتكملة والتصويب عن الزرقانى ١ : ٢٠٦ ، والسيرة الحلبية ١ : ١٤٣ . (٢) نقله ابن هشام ١ : ٢٠٧ ، والطبرى ٢ : ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٣) فى الأصل والطبرى ٢ : ٢٠٠ : « تجزأت » ، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٧ .
(٤) الشق : الناحية . (٥) سمى حطيما لأن الناس يزدحمون فيه حتى يحطم بعضهم بعضا . وانظر شرح السيرة للخشنى ١ : ٦٣ . (٦) نقله ابن هشام . (٧) لم ترع : لم تفزع . قال السهيلى ١ : ١٣١ : « وهى كلمة تقال عند تسكين الروع والتأنيس ، وإظهار اللين والبر فى القول، ولا روع فى هذا الموطن فينفى، ولكن الكلمة تقتضى اظهار قصد البر، فلذلك تكلموا بها » .

ويقال : لم تَزِغْ[1]، اللّهم إنا لا نريد إلا الخير؛ ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس به تلك الليلة[2]، وقالوا : ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئا، ورددناها كما كانت، وإن لم يُصبْه شيء فقد رضي الله ما صنعنا فنهدم، فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله، فهدّم وهدّم الناس معه حتى انتهى الهدم بهم إلى أساس إبراهيم عليه السلام، فأفضَوا إلى حجارة خُضْر كالأسنّة[3] آخذٍ بعضُها بعضا، فأدخل رجل من قريش عتلة بين حجرَيْن منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقّضت مكة[4] بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس .

قال[5] : ثم إن القبائل جمعت الحجارة لبنائها، كلٌّ قبيلة تجمع على حدة، وبنَوا حتى بلغ البنيان موضع الركن[6] . والله المستعان .

ذكر اختلاف قريش فى رفع الرُّكن وتراضيهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وخبر التحدّى

قال ابن إسحاق[7] : ولما بلغ البنيان إلى موضع الركن اختصموا فيه، كلٌّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأُخرى، حتى تحاوزوا وتحالفوا واعتدّوا للقتال[8]، فقرّبت بنو عبد الدار جَفنةً مملؤة دَما، ثم تعاقدوا هم وبنو عَدِىّ بن كعب

(١) لم تزغ : لم نمل عن دينك، ولاخرجنا عنه، وانظر الخشني ١ : ٦٣ . (٢) عن الطبرى ٢ : ٢٠١ . (٣) جمع سنان، شبهها بأسنة الرماح فى الخضرة، وتروى : «كالأسنمة» . وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٧، وشرح المواهب ١ : ٢٠٤، والروض الأنف ١ : ١٣٢ .

(٤) تنقضت : اهتزت، ورواية الطبرى ٢ : ٢٠١ : «انتقضت» .

(٥) القائل ابن إسحق، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٩، والطبرى ٢ : ٢٠١ .

(٦) يريد الحجر الأسود لأنه مبنىّ بالركن فسمى ركنا، وفى تاريخ الطبرى ٢ : ٢٠١ : «حتى إذا بلغ البنيان موضع الركن» . (٧) سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٩ . (٨) فى سيرة ابن هشام، والطبرى ٢ : ٢٠١ : «حتى تحاوزوا [أى انحاز كل إلى قبيله]، وتحالفوا وأعدّوا للقتال» .

ابن لُؤَىّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم ، فسُمُّوا لَعَقَة الدَّم؛ فمكثت قُريش على ذلك أربعَ ليال أو خمسا ، ثم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فقال أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان إذ ذاك أسَنَّ قريش كلِّها : يا معشرَ قُريش ! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل داخل يدخل[1] ؛ فدخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، هذا محمد ، رضينا به ؛ فلما انتهى إليهم وأخبَروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم : هَلُمَّ إلىّ ثوبا فأُتِى به ، وقيل : بل بَسَط رداءه فى الأرض ، وأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : ليأت[2] من كل رُبع من أرباع قريش رجل ، فكان من رُبع بنى عبد مَنَاف عُتْبة بن رَبيعة ، وفى الربع الثانى أبو زَمْعة ، والربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، والربع الرابع قيس بن عَدىّ .

هكذا نقل الواقدى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليأخذْ كلُّ رجل منكم بزاوية من زوايا الثّوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى موضعه ، فذهب رجل من أهل نجد ليُناول النبىّ صلى الله عليه وسلم حجرا يَشُدّ به الركن ، فقال العباس بن عبد المطلب : لا . ونحّاه ، وناول [العباس][3] رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حجراً ، فشَدّ به الركنَ ، فغضب النّجدىّ حين نُحِّى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنه ليس يَبْنى معنا فى البيت إلا منّا ؛ فقال النّجدىّ : يا عَجَبا لقوم أهل شَرَف ، وعقول ، وسِنٍّ ، وأموال ، عمدوا إلى أصغرهم سِنًّا ، وأقلّهم مالا ، فرأسوه عليهم فى مَكْرُمَتِهم وجُودِهم كأنهم

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٩ : « ... فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا ، فكان أوّل داخل » ، وانظر الطبرى ٢ : ٢٠١ .

(٢) فى الأصل وطبقات ابن سعد ١ : ٩٤ (قسم أوّل) : « ليأتى » تصحيف .

(٣) عن طبقات ابن سعد ١ : ٩٤ (قسم أوّل) .

جَذَمَ له ، أما والله لَيُفرقَنّهم شِيَعا ، وليقسِمَنّ بينهم حظوظا وجدودا[(١)] . ويقال إن النَّجدىَّ إبليسُ لعنه الله . فقال أبو طالب[(٢)] :

إنّ لنا أوّلَه وآخرَه ... فى الحكم والعدل الذى لا ننكرَه

وقد جهدنا جهدَه لنعمُرَه ... وقد عمرنا خيرَه وأكثرَه[(٣)]

* فإن يكن حقًّا ففينا أوفَرَه *

قال : ثم بنوا حتى انتهوا إلى موضع الخشَب ، وكان خمسة عشر جائزا[(٤)] سَقَفوا البيت عليه ، وبنَوه على ستة أعمِدة ، وأخرجوا الحِجْر من البيت ، قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قومك استقصروا فى[(٥)] بنيان الكعبة ، ولولا حَداثة عهدهم بالشِّرك أعدتُ فيه ما تركوا منه ، فإن بدَا لقومك من بعدى أن يبنوه ، فهلُمَّ أُرِيكِ ما تركوا منه ، فأراها قريبا من سبعة أذرع فى الحِجر[(٦)] ، وقال صلى الله عليه وسلم : ولجعلت لها بابَين شَرقيًّا وغربيا ، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها ؟ قالت : فقلت : لا أدرى . قال : تعزُّزًا أن لا يدخلها إلا من أرادوا .

قال ابن هشام[(٧)] : وكانت الكعبة على عَهد النبىّ صلى الله عليه وسلم ثمانى عشْرَةَ ذراعا ، وكانت تُكسَى القَباطِىَّ[(٨)] ثم كُسيت البرود[(٩)] ، وأولُ من كساها الديباج الحجّاج ابن يوسف[(١٠)] .

---

(١) فى الأصل : «ليفوتهم سبقا ، وليقيمنّ بينهم خطوطا وحدودا» . وانظر السيرة الحلبية ١ : ١٤٥ ، وطبقات ابن سعد ١ : ٩٤ (قسم أول) . (٢) انظر الروض الأنف ١ : ١٣٢ .

(٣) فى طبقات ابن سعد : «وأكبره» . (٤) الجائز : هو الخشبة التى توضع عليها أطراف العوارض فى سقف البيت . وفى الأصل : «حابرا» تصحيف . (٥) فى الأصل : «استعصروا من» ، وانظر صحيح البخارى ٢ : ١٤٦ . (٦) فى صحيح البخارى ٢ : ١٤٧ : «قال جرير : فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها» . (٧) فى السيرة ١ : ٢١١ . (٨) القباطى : ثياب بيض كانت تصنع بمصر . (٩) البرود : ثياب يمنية . (١٠) فى الروض الأنف ١ : ١٣٠ : أن ابن الزبير كساها الديباج قبله ، وكان خالد بن جعفر بن كلاب ممن كساها الديباج قبل الإسلام .

وحيث انتهينا إلى هــذه الغاية من أخبار رسول الله صــلى الله عليه وســلم ، فلنذكر من بشّر به .

ذكر المبشّرات برسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ مولده ومبعثه وبعدَ ذلك

جاءت البشائر برســول الله صلى الله عليه وســلم فى كتب الله تعالى المنزّلة على أنبيائه صلواتُ الله عليهم ، وفيما نُقِل إلينا[1] من كلامهم ، ووُجِد بخطّهم ، وبشّر به أحبارُ يهود ، وعلماءُ النّصارَى ، عما انتهى إليهم من العلوم التى تلقّوها عن الأنبياء صلوات الله عليهم ، ونَقلوها من صُحُفهم ، ومُخبّئات كتبهم ، وذخائر أسرارهم ، حتى اعترف قوم بنبوّته صلى الله عليه وسلم قبلَ مَولِده وظهوره بما شاء الله من السنين ، وأَوْصوا به مَن بَعدَهم ؛ ﴿ فَمِنْهُم مَن آمَنَ بِهِ ، وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنـْـه ﴾ ؛ وبشّر به أيضا قبلَ مَبْعَثِه كُهّان العرب ، عما كان يأتيهم من أخبار السّماء على لِسان شياطينهم الذين كانوا يَستَرِقون السَّمْع ومُنِعوا بالشُّهُب ، كما أخبرنا الله تعالى فى قوله : ﴿ وإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنها مَقَاعِد للسَّمْع فَمَنْ يَسْتَمِع الآنَ يَجِدْ لَه شِهَاباً رَصَدًا ﴾ ، ونطَق الجانُّ من أجواف الأصنام بالبِشارة به ، فكان ذلك سبباً لإسلام من سمِـع أصواتها ممن سبقت له من الله الحُسْنَى ، وهداه وأَرشده إلى اتّبَاع الحق ، والإيمانِ برسُول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به مِن عند الله ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى مواضعه .

فأما ما جاءت به الكتب المنزلة من الله تعالى مما يدل على نبوّة سيدنا رسول الله صــلى الله عليه وسلم فقد جاء ذلك فى القرآن العزيز ، وفى التوراة ، والإنجيل ، وزبور داود ، وكتُب الأنبياء : شِعْيا ، وشَمْعُون ، وحزقيل عليهم السلام .

(١) فى الأصل : « وما نقل » .

فأما ما جاء فى القرآن العزيز فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . قال أهل التفسير : أخذ الله الميثاق بالوحى، فلم يبعث نبيا إلا ذكر له محمدا ونعته ، وأخذ عليه[(1)] ميثاقه : إن أدركه ليؤمنن به ؛ وقيل : أن يبينه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه[(2)]، أنه قال : لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده ، إلا أخذ عليهم العهود فى محمد صلى الله عليه وسلم : لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه . ونحوه عن السدى وقتادة .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ . روى عن قتادة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : كنتُ أولَ الأنبياء فى الخلق ، وآخرهم فى البعث . قال القاضى عياض : فلذلك وقع ذكره مقدما هنا قبل نوح وغيره، صلى الله عليهم أجمعين .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى» الحديث . يشير بدعوة إبراهيم عليه السلام إلى قوله تعالى إخبارا عنه : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

(١) فى الأصل : «عليهم» ، وانظر شرح المواهب ٦ : ١٦٣ (٢) انظر شرح المواهب ٦ : ١٦٣

وأما ما جاء فى كتب الله السالفة ، فقد علمنا قطعًا أن أهل الكتاب بدّلوا فى كتب الله تعالى المنزّلة على أنبيائهم ، وحرّفوا كلمها عن مواضعه ، وحذفوا منها أشياء فيها صريح ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغيًا منهم وحسدًا وجحودا ونكالا وافتراء على الله تعالى . هذا لا مرية عندنا فيه ولا خلاف ، وقد اتفقوا على أشياء فى كتبهم وترجموا عنها بالعربية ، تدل على نبوّة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نحن نذكرها إن شاء الله ، وكتموا فيها ما أخبر به من أسلم من أحبار يهود وغيرهم ، وعرض ذلك على من استمر على كفره ، فلم يسعه إنكاره بل أقرّ به ، على ما نذكر إن شاء الله تعالى فى مواضعه .

فأما ما اتفقوا عليه مما جاء فى التوراة وترجموه بالعربية ورضوا ترجمته فمن ذلك قوله : « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبال فاران » . وفى ترجمة أخرى كذلك[1] : « تجلى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » . قال العلماء : وفى هذا تصريح بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الطور[2] هو الجبل الذى اصطفى الله تعالى موسى عليه بتكليمه ، وساعير : جبل بالشام منه ظهرت نبوّة عيسى بن مريم ، و بالقرب منه قرية الناصرة التى ولد فيها ، وفاران : هى مكة شرفها الله تعالى .

---

(١) فى معجم البلدان ٦ : ٣٢٣ : « ... وفى التوراة : جاء الله من سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » ، فجيئه من سيناء ، تكليمه لموسى ، و إشراقه من ساعير (وهى جبال فلسطين معجم ٥ : ١٠) : إنزاله الإنجيل على عيسى ، واستعلانه من جبال فاران : إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . وفاران : جبال مكة .

(٢) فى الأصل : « الطور وهو » . وانظر « خير البشر » لابن ظفر ص ٩ .

قال الشيخ حجة الدين أبو هاشم[1] محمد بن ظَفَر فى كتابه المترجم بخير البشر[2]: لا يخالف فى هذا أحد من أهل الكتاب . قال : « وأما قوله : جاء الله من طور سيناء فإن مجىء الله هو مجىء كتابه وأمره[3] كما قال الله تعالى :﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾؛ أى أتاهم أمره . وقوله : « وأشرق لنا من ساعير » كناية عن ظهور أمره وكلامه[4]، قال : وكذلك قوله : « واستعلن من جبال فاران » . أى ظهر أمره ، وكتابه ، وتوحيده ، وحمده ، وما شرعه رسولُه من ذكره بالأذان والتلبية[5] وغير ذلك ؛ قال ابن ظَفر : « وقرأت فى ترجمة[6] للتوراة خطابا لموسى عليه السلام، والمرادُ به الذين اختارهم لميقات ربه فأخذتهم الرَّجفة خصوصا، ثم سائر بنى إسرائيل عموما : والله ربك يقيم نبيا من إخوتك، فاستمع له كالذى سمعت ربّك فى حُوربت يوم الاجتماع حين قلت : لا أعود أسمع صوت الله[7] ربى لئلا أموت، فقال الله لى[8]: نِعْمَ ما قالوا، وسأقيم لهم نبيا مثلك من إخوتهم، وأجعل كلامى فى فمه، فيقول لهم : كلَّ شىء آمره به ، وأيُّما رجلٍ لم يُطع من تكلم باسمى فإنى أنتقم منه .

وفى هذا أدلّة[9] على نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم، منها قوله : « من إخوتهم » ، وموسى وقومُه من بنى إسحاق ، وإخوتهم بنو إسماعيل ، ولو كان الموعود من[10]

(١) فى الأصل : « هشام » تصحيف . (٢) ص ٩ .

(٣) فى خير البشر : « سيناء ، فمجىء » . (٤) فى الأصل : « ظهور أنوار كلامه » والمثبت عن ابن ظفر . (٥) فى خير البشر (ورقة ٥ أ من النسخة المخطوطة) : « وما شرعه لرسوله من الآداب والتلبية » . (٦) فى خير البشر ص ١٠ وانظر الزرقانى ٦ : ٢٠٠ (٧) فى خير البشر ص ١٠ من المطبوعة : « قلت لا أسمع صوت الله » ، وفى المخطوطة (ق ٥ ب) : « أسمع كلام الله ربى » .

(٨) فى المخطوطة من خير البشر (ق ٥ ب) : « فقال الله لى ، نعم ، نعم » .

(٩) فى خير البشر (ق ٥ ب) : « وفى هذا الكلام أدلة » .

(١٠) فى خير البشر (ق ٥ ب) : « ولو كان هذا النبى الموعود » .

بنى إسحاق ، لكان من أنفسهم ، لا من إخوتهم ، كما قال تعالى إخبارا عن إبراهيم في دعوته : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِم رَسُولًا مِنْهُم ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ لَقَد جَاءَكُم رَسُولٌ مِن أَنفُسِكُم ﴾ ؛ ومنها قوله : «نبيا مثلك» ، وقد قال فى التوراة : «لا يقوم فى بنى إسرائيل أحدٌ مثلُ موسى » ، وفى ترجمة أخرى : « مثلُ موسى لا يقوم فى بنى إسرائيل أبدا » ؛ ومنها قوله : « أَجعلُ كلامى فى فمه » ، فهو واضح أن المقصود به محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن معناه : أوحِى إليه بكلامى فينطق به ؛ وقوله : « أيّما رجلٍ لم يُطِع من تكلّم باسمى فإنى أنتقم منه » دليل على كذب اليهود فى قولهم : إن الله أمرنا بمعصية كلّ نبى دعا إلى دين شُنّى نسخًا لبعض ما شرعه موسى صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

وأما ما اتفقوا عليه ، ورضوا ترجمته مما فى الإنجيل فمن ذلك ما ترجموه فى الإنجيل : أن عيسى عليه السلام قال : « إن أحْبَبتمونى فاحفظوا وصيتى ، وأنا أطلب إلى أبى فيعطيكم بَارَقْلِيط آخر يكون معكم الدهرَ كلّه ، فهذا تصريح بأن الله سيبعث إليهم من يقوم مَقامه ، وينوب عنه فى تبليغ رسالات ربه ، وسياسة خلقه مَنابَه ، وتكون شريعته باقيةً مخلّدة أبدا » ، ولم يأت بذلك بعد عيسى إلا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومنه ما ترجموه : « إن هذا الكلام الذى سمعتُموه ليس هو لى ، بل للأب الذى أرسلنى ، كلّمكم بهذا وأنا معكم ، فأما البَارَقْلِيط : روحُ القدس الذى يُرسِل أبى باسمى ، فهو يعلّمكم كلّ شىء ، ويُذَكّركم جميعَ ما أقول لكم » .

قال ابن ظَفَر : قولهم : « أبى » : فهذه اللفظة عندنا مبدلة محرّفة ، وليست مُنكَرة الاستعمال عند أهل الكتابَيْن إشارةً إلى الرب سبحانه ، لأنها عندهم لفظة

تعظيم يخاطِب بها المتعلمِ مُعَلِّمه الذى يستمدّ العلمَ منه؛ قال : ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماءَ دينهم بالآباء الروحانية؛ قال : وأما قوله : « يرسله أبى باسمى » فهو إشارة إلى شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالصّدق والرسالة، وما تضمّنه القرآن من مَدحه وتنزيهه عما افتراه اليهودُ فى أمره .

ومما ترجموه ورَضُوا ترجمته قولهم : إنه قال : « إذْ قال البَارَقْلِيط الذى أرسل إليكم من عند أبى، روح الحق الذى يخرج من الأب ، فهو يشهَد لى، وأنتم تشهدون لى أيضا لكينونتكم معى من أوّل أمرى » .

قال : قوله « روح الحق الذى يخرج من الأب » كنايةٌ عن كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾.

وقوله : « يشهد لى » تصريح بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لم يشهد للسيح عليه السلام بالنبوّة ، والنزاهة عما افتُرِى عليه، وبأنه روحُ الله وكلمتُه وصفيُّه ورسولُه ، كتابٌ سوى القرآن ، ولم تزل الأممُ تكذّب المتّبِعين للسيح ، واليهودُ يفترون العظائم من البهتان، حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فشهِد للسيح بما شهِد به حَواريُّوه الذين كانوا معه من أوّل أمره، والمهتدون من أمته .

قال : ومما رَضُوه من الترجمة أيضا عن الإنجيل قوله فيه : « إن انطلاقى خير لكم، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم البَارَقْلِيط، فإذا انطلقتُ أرسلتُ به إليكم، فإذا جاء فنَّد أهلَ العلم » . قال : فهذا ظاهر ، وقولُه : « أرسلت به إليكم » إن كان سالما من التحريف، فمعناه مثل معنى قوله : « إن لم أنطلق لم يأتكم » ، وقوله : « فنّد » وصفٌ صريح للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى فنّد علماءَ اليهود والنّصارَى فيما أطبقوا عليه من أن المسيح قُتِل وصُلب بعد أن عُذِّب، وما انفرد

به علماءُ اليهود من بُهتانهم فى الطّعن على المسيح ، وما انفرد به علماءُ النَّصارى من الدعوة إلى ألوهية المسيح ، فرسول الله صلى الله عليه وسلّم فنّد جميعَهم. والتَّفنيدُ : التخطئةُ وتقبيحُ القول والرأى .

قال ابن ظَفَر : وقرأت فى ترجمة أخرى للإنجيل : أنه قال : « البارَقْليط لا يجيئكم ما لم أذهَب ، وإذا جاء وبَّخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه ما يَسمع يكلّمهم به ، ويَسوسُهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب» . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى وبّخ العلماءَ من أهل الكتاب على كتمان الحق ، وتحريف الكَلِم عن مواضعه ، وبيع الدِّين بالثّمن البَخْس من عَرَض[1] الدنيا ، وهو الذى أخبر بالحوادث والغيوب .

وقال ابن ظفر : والذى صح عندى فى معنى البارَقْليط : أنه الحكيم الذى يَعرِف السِّر ؛ وقد تقدّم ما يدلّ على أنه الرسول .

وأما ماجاء فى زَبور داود عليه السلام ممّا ترجمه أهل الكتاب ، فمن ذلك قوله : « اللهم ٱجعل جاعلَ السُّنة يحيَا ، يعلِّم الناسَ أنه بشر » ؛ ويفهم من هذا : أن داود عليه السلام أطلعه الله تعالى على ما سيقوله النصارَى فى المسيح إذا أرسله ، من أنه إلهٌ معبود ، فدعا الله سبحانَه بأن يبعث محمدا صلى الله عليه وسلم فيعلّمهم أن المسيح بشر .

وفيه أيضا ممـا ترجموه : «أنه فاضت الرحمةُ على شفتيك ، من أجل ذلك أُبارك عليك ، إلى الأبد ، فتقلّد السَّيف ، فإن بهاءك وحمدَك الغالب ، واركَب كلمة الحق ، فإن ناموسك وشرائعَك مقرونةٌ بهيبة يمينك ؛ والأممَ يخرون تحتَك » ؛ قال : فالذى قُرِنت شريعته بهيبة يمينه ، وخرّت الأمم تحتَه ، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فى الأصل : «مواضعه وسعله بنفس» ، وانظر الزرقانى ٦ : ٢٠٢

ومنها، وذكر رجلا فقال : «فإذا قام جاز من[1] البحر إلى البحر، ومن عند الأنهار إلى مُنقطَع البرّ، وخرّ أهل الجزائر قدّامه على وجوههم ورُكَبهم، ولحس أعداؤه التراب لهيبته ، وجاءته الملوك بالقرابين ، ودانت له الأمم بالطاعة ؛ لأنه يخلّص الضعيف المغلوب البائس ممن هو أقوى منه ، ويقوّى الضعيف الذى لا ناصر له، ويرحم المساكين، ويصلّى ويبارَكُ عليه فى كلّ وقت، ويدوم ذكرُه إلى الأبد » .

فهذا فى غاية الظّهور أن المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما ماترجموه من كتاب شعيا[2] عليه السلام ورَضُوا ترجمته فقوله[3] : « عبدى الذى سُرّت به نفسى أنزِلُ عليه وحيى ، فيُظْهِر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يُسمَع صوتُه فى الأسواق[4] ؛ يفتح العيون العُور، والآذان الصُّمّ ، ويحيى القلوب الغُلْف ؛ وما أُعطيه لا أُعطى أحدا[5] ، مُشَقَّح[6] يحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض . تفرح البرية وسكانها يهلّلون الله على كلّ شَرَف ، ويكررونه على كل رابية ، ولا يضعُف ولا يُغلَب ، ولا يميل إلى الهوَى ولا يُذَلّ الصالحين الذين هم كالقصَبة الضعيفة، بل يقوّى الصدّيقين ، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، أثرُ سلطانه على كتفيه » .

(١) فى خير البشر لابن ظفر ص ١٩ : « فقال فإذا جاز من البحر » .

(٢) ويقال أيضا : « سعيا » ، بسين مهملة ، و«أشعياء» . وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٣ ، ٢١٨ ، وتاج العروس ١٠ : ١٨٨ . (٣) فى الأصل : « قوله » .

(٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ : « . . ولايسمع صوته فى الأصوات لأن ضحكه كان التبسم » .

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ : « . . وما أعطيته لا أعطيه أحدا » .

(٦) فى السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ : مشقح بالشين المعجمة والحاء المهملة : أى زاهى » وانظر الزرقانى ٦ : ١٨٩ .

قال ابن ظَفَر[(١)] : هذه ترجمة السريانيين، وعبّر العبرانيون عنه بأن قالوا : «على كتفيه علامة النبوّة» ؛ فهذا كلّه صريح فى البشارة به صلى الله عليه وسلم، مع ما فيه من ذكر قيام دولة العرب بقوله : «تفرح البريّة وسكّانها» ؛ وأما قوله : [مُشَقَّح][(٢)] فهو محمد، لأن الشَّقْح بلُغتهم الحمد .

٥ ومما ترجموه منه أن شعياء عليه السلام قال: «قم نَظَّارا فانظر ما ترى، فأخبِر به، فقلت : أرى ركبين مقبلين، أحدهما على حمار ، والآخر على جَمَل؛ يقول أحدهما لصاحبه : سَقطَت بابِلَ وأصنامُها» فهذه بشارة صريحة بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه راكب الجَمَل لا محالة، ولأن مُلْك بابلَ إنما ذهب بنبوّته صلى الله عليه وسلم وعلى يد أصحابه ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

١٠ قال[(٤)] : وقد كان على باب من أبواب الإسكندرية صورة جَمَل من نحاس، عليه راكب من نحاس، فى هيئة العرب مؤتزر مُرتدٍ ، عليه عمامةٌ، وفى رجليه نعلان ، كلُّ ذلك من نحاس؛ وكانوا إذا تظالموا يقول المظلوم للظالم : أعطنى حقّى قبل أن يخرج هذا فيأخذَ لى بحقّى منك ، شئت أو أبيت ، ولم يزل الصَّنَمُ على ذلك حتى ٱفتتح عمرو بن العاص أرضَ مصر، فغيَّبوا الصنم .

١٥ ومنه : «أيَّتُها العاقر ! اِفرحى وٱهتزّى وانطلق بالتسبيح، فإن أهلَكِ يكونونَ أكثر من أهلى» . قال: فالعاقر مكة، لأنها بوادٍ غيرِ ذى زَرْع، أو لأن الله لم يبعث

---

(١) كذا فى خير البشر ص ١٤ ، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ .

(٢) فى الأصل : «وأما قوله فهو محمد» ، والتكملة من خير البشر لابن ظفر ، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ .

٢٠ (٣) ورد هذا الخبر فى السيرة الحلبية ١ : ٢١٨ بصورة تختلف عما هنا .

(٤) القائل ابن ظفر فى خير البشر ص ١٧ .

بها نبيا فى ذلك الزمن دون غيرها ، فهى عاقر، وقوله : « انطلق بالتسبيح » إشارة
إلى عمارتها بأهل ذكر الله ، وقوله : « يكون أهلك أكثر من أهلى » ، قال : إن
سلِم من التحريف وسوء العبارة «فمِنْ » زائدة، والمعنى أن المسلمين يكونون أكثر
أهل طاعة الله وتوحيده[1] ، وقد أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن أمّته أكثر أهل
الجنة. والآل والأهلُ يُكنَّى بهما عن [الجماعة] الخاصّة[2]، قال عبد المطلب بن هاشم :

نحن آلُ الله فى بلدتنا لم نزل آلاً[3] على عهد إرَمْ

ولمّا روجع أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى استخلافه عُمَر بن الخطّاب وقيل
له : ماذا تقول لربك وقد استخلفتَ علينا فظّا غليظا ؟ فقال : أقول تركتُ على
أهلك خيرَ أهلك . والله الفعّال .

ومن كتاب شمعون عليه السلام ممّا ترجموه ورَضُوا ترجمته قوله : « جاء الله
بالبيّنات[4] من جبال فاران ، وامتلأت السمواتُ والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته» .
وقد تقدّم أن جبال فاران هى جبال مكّة شرّفها الله ، ومجىء الله هو مجىء كتابه .

ومن كتاب حزقيل عليه السلام ممّا ترجموه من قصة ذُكر فيها ظهورُ اليهود
وعزّتُهم ، وكفرانُهم للنعم ، فشبّههم فيها بالكَرْمة حيثُ قال[5] : « لم تلبث تلك الكرمة
أن قُلِعت[6] بالسخطة ، ورُمى بها على الأرض ، فأحرقت السمائمُ أثرها ، فعند ذلك غُرِس
غرسٌ فى البدو ، وفى الأرض المهملة العَطْشَى ، فخرجت من أغصانه الفاضلة
نارٌ فأكلت تلك الكرمة حتى لم يوجد فيها قضيب » .

(١) فى خير البشر : « يكونون أكثر طاعة لله وتوحيدا له » . (٢) فى الأصل : « بهما عن الخاصة » ، والتكملة عن خير البشر . (٣) فى الأصل ، وخير البشر ص ٩ . « إلا » .
(٤) لا يزال المؤلف ينقل عن ابن ظفر ، والرواية عنده : « جاء الله بالبيان » .
(٥) فى الأصل : « بالكرمة ثم قال » . والمثبت عن خير البشر .
(٦) فى خير البشر : « أن قطعت » .

قال : فلا شك أن أرض البدو المهملة العَطْشَى هى أرض العرب ، وغَرْسُ الله الذى غَرَسه فيها هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أخزى الله به اليهود والله أعلم .

ومما نقل من كلام خَيْقُوق، وهو الذى زعمت اليهود أنه ادّعى النبوة فى عهد بُخْتُنَصَّر، وحكوا عنه أنه قال: « إذا جاءت الأُمّة الآخرة يسبّح بهم صاحبُ الجَمَل — أو قال: راكبُ الجَمَل — تسبيحا جديدا فى الكنائس الجُدُد، فافرحوا، وسيروا إلى صَهْيون بقلوب آمنة ، وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة التى أعطا كم الله فى الأيام الآخرة، أُمّة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شُفرتين، فينتقمون من الأمم الكافرة فى جميع الأقطار» ولا شكّ أن رَاكب الجَمَل أو صاحب الجَمَل من الأنبياء هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمة الجديدة هى العرب ، والكنائس الجدد هى المساجد ، وصهيون: مكة، والتسبيحة الجديدة : "لبّيك اللّهم لبّيك" .

ونقل أيضا عن خَيْقُوق هذا أنه قال: «جاء الله من اليَمَن ، وظهر القُدس على جبال فاران ، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد ، وملك بيمينه رقاب الأمم ، وأضاءت الأرض لنوره ، وحُملت خيلُه فى البحر» . والله أعلم .

ومما وجد بخط موسى بن عمران عليه السلام ما رَوَى مَعمر عن الزُّهرى أنه قال : أشخصنى هشام بن عبد الملك إلى الشام ، فلما كنتُ بالبَلْقاء وجدتُ حجرا مكتوبا عليه بالخط العبرانىّ ، فطلبتُ مَنْ يقرؤه ، فأُرشِدت إلى شيخ، فانطلقتُ به إلى الحجر، فقرأه وضحك، فقلت: ممّ تضحك؟ قال : أمر عجيب، مكتوب على هذا الحجر : باسمك اللهم جاء الحقُّ من ربّك، لسان عربىّ مبين؛ لا إله إلا الله محمد رسول الله . وكتبه موسى بن عمران بخطّ يده .

وإنما ألحقنا هذا الخبر بما قبله لأن موسى صلى الله عليه وسلم إنما يكتب بخطه ما تلقاه عن الله تعالى ، أو عن كُتبه المنَزّلة ؛ وهذا الذى أوردناه مما جاء فى كتب الله السالفة هو الذى أبداه أهل الكتاب وأثبتوه ، وترجموه ورضُوا ترجمته فى تحريفهم وتبديلهم .

وأما مَا كتَمه أهلُ الكتاب مّما فيه صريح ذِكر النبى صلى الله عليه وسلم ودلّنا عليه وأخبرنا به من أسلم[1] منهم ممّن جاز لنا أن نروى عنه ونَقبَل روايته ؛ مثل وَهْب ، وكَعب الأحبار ، وأبى ثعلبة بن أبى مالك .

فأما[2] ما جاء عن وهب بن منبّه ، فإنه رُوِى عنه أنه قال : قرأت فى بعض كتب الله المنزلة على نبىّ من بنى إسرائيل : « أن قم فى قومك، فقل يا سماء اسمعى ، ويا أرض أنصتى ؛ لأن الله يريد أن يقصّ شأن بنى إسرائيل : أنى ربّيتُهم بنعمتى، وآثرتُهم بكرامتى، واخترتُهم لنفسى، وأنى وجدتُ بنى إسرائيل كالغنَم الشاردة التى لا راعى لها، فردَدتُ شاردَها، وجمعتُ ضالّتها، وداويتُ مريضها ، وجبرتُ كسيرها ، وحفظت سمينها ؛ فلما فعلت بها ذلك بَطرت، فتناطَحت كباشُها، فقتل بعضها بعضا . فويل لهذه الأمّة الخاطئة، ويل لهؤلاء القوم الظالمين؛ إنى قضيت يومَ خلقتُ السموات والأرض قضاء حتما، وجعلت له أجلا مؤجّلا لابدّ منه ، فإن كانوا يعلمون الغيب فليخبروك متى حتمتُه ، وفى أى زمان يكون ذلك ، فإنى مُظْهِره على الدين كله ، فليخبروك متى يكون هذا ، ومن القائم به ، ومَن أعوانه وأنصاره ، إن كانوا يعلمون الغيب فإنى باعث بذلك رسولا من الأمّيّين ليس بفَظّ ولا غليظ ، ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا قوّال بالهُجْر والخَنَى ، أُسدّده

(١) فى الأصل : « به ابن أسلم » تصحيف .
(٢) فى الأصل : « وأما » .

بكل جميل ، وأَهَب له كلَّ خُلق كريم ، وأجعل السكينة على لسانه ، والتقوى ضميرَه ، والحكمة منطقَه ، والصدقَ والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروفَ خُلُقه والحقَّ شريعَته ، والعدل سيرته ، والإسلام ملّته ، أرفع به من الوضيعة ، وأُغْنِي به من العَيْلة ، وأَهدِى به من الضلالة ، وأؤلّف به بين قلوب متفرّقة ، وأهواء مختلفة ، وأجعل أمّته خير الأمم إيمانا بى وتوحيداً لى[1] ، وإخلاصا بما جاء به رسولى ، أُلْهِمهُم التسبيح والتحميد والتمجيد لى فى صلواتهم[2] ومساجدهم ومنقلَبهم ومثواهم ، يخرجون من ديارهم وأموالهم ٱبتغاء مرضاتى يقاتلون فى سبيلى صُفوفا ، ويصلّون لى[3] قياما وركوعا وسجودا ، يكبّرونى على كلّ شَرَف ، رهبان بالليل ، أُسد بالنهار ؛ ذلك فضلى أوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم » .

٣٧/١٤ ومنه ما روى عنه أنه قال : قرأت فى بعض الكتب القديمة : « قال الله تبارك وتعالى : وَعِزّتى وجَلالى لأُنزِلنّ على جبال العرب نورا يملأ ما بين المشرق والمغرب ، ولأُخرجن من ولد إسماعيل نبيا عربيا أُمّيا يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض ، كلهم يؤمن بى ربّا ، وبه رسولا ، ويكفرون بمِلَل آبائهم ، ويفرّون منها . قال موسى : سبحانك وتقدّست أسماؤك ! لقد كرّمت هذا النبي وشرّفته ، قال الله عز وجل : يا موسى إنى أنتقم من عدوّه فى الدنيا والآخرة ، وأُظهِر دعوته على كل دعوة ، وسلطانَه ومن معه[4] على البر والبحر ، وأُخرِج لهم من كنوز الأرض ، وأُذِلّ من خالف شريعتَه ؛ يا موسى : بالعدل ربّيتُه[5] ، وبالقسط أخرجتُه ؛

(١) فى خير البشر لابن ظفر : « . . وتوحيدا بى ، وإخلاصا لما جاء به » .

(٢) فى الأصل : « والتمجيد فى صلواتهم » . والمثبت عن خير البشر .

(٣) فى الأصل : « ويصلون قياما » ، والتكملة عن ابن ظفر حيث النقل عنه .

(٤) فى خير البشر : « ومن اتبعه » . (٥) فى خير البشر : « بالعدل زينته » .

وعزّتى لأستنقذنّ به أممًا من النار، فتحتُ الدنيا بإبراهيم، وختمتُها بمحمد، مثل كتابه الذى يجىء به، فأعقلوه يا بنى إسرائيل مثل السِّقاء المملوء لبنا يُمْخَضُ فيخرج زُبْدا، بكتابه أختِم الكتب، وبشريعته أختِم الشرائع، فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل فى شريعته فهو من الله برىء، أجعل أمّته يبنون فى مشارق الأرض ومغاربها مساجد، إذا ذكر اسمى فيها ذكر اسم ذلك النبىّ معى، لا يزول ذكره من الدنيا حتى تزول.

وأما ما جاء عن كعب الأحبار رحمه الله، فمن ذلك ما رُوِى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: يا كعب، أدركتَ النبىّ صلى الله عليه وسلم، وقد علمت أنّ موسى بنَ عمران تمنّى أن يكون فى أيامه فلم تَسلَم على يده، ثم أدركتَ أبا بكر وهو خيرٌ منّى فلم تَسلَم على يده، ثم أسلمتَ فى أيّامى، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تعجل علىّ، فإنى كنت أتثبّت حتى أنظر كيف الأمر؟ فوجدته كالذى هو فى التوراة. قال عمر: كيف هو فيها؟ قال: رأيت فى التوراة أن سيد الخلق، والصفوة من ولد آدم، يظهر من جبال فاران من منابت القَرَظ من الوادى المقدّس، فيُظهر التوحيد والحق، ثم ينتقل إلى طيبة، فتكون حروبه وأيامه بها، ثم يُقبَض فيها، ويُدفَن بها. قال عمر: ثم ماذا يا كعب؟ قال كعب: ثم يلى بعده الشيخ الصالح. قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يموت متّبعا. قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يلى بعده القرن الحديد — وفى لفظ: مدرع من حديد — قال عمر: وادَفْراه[1]! ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يُقتل شهيدًا، قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يلى صاحب

(١) الدفر بالدال المهملة: النتن، وقصد عمر التواضع، فذكر رائحة الحديد وأعرض عن صفاته الحسنة من القوة والقطع.

الحياء والكرم ، قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يُقتل مظلوما ، قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يلى صاحب المحجّة البيضاء ، والعدل والسواء ، صاحب الشَّرَف التام ، والعلم الجام[(١)] ، قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يموت شهيدا سعيدا ، قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم ينتقل الأمر إلى الشام ؛ قال عمر : حَسبُك يا كعب .

ومما جاء عنه ما رَوى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أن رجلا جاء إلى كعب الأحبار من بلاد اليَمَن فقال له : إن فلانا الحبر اليهودىّ أرسلنى إليك برسالة ، قال كعب : هاتها ! فقال : إنه يقول لك : ألم تكن فينا سيّدا شريفا مطاعا ؟ فما الذى أخرجك من دينك إلى أمّة محمد[(٢)] ؟ فقال له كعب : أتراك راجعا ؟ قال : نعم ، قال : فإن رجعت إليه فخذ بطَرَف ثوبه لئلا يفرّ منك وقل له : يقول لك كعب : أسألك بالذى ردّ موسى إلى أمّه ، وأسألك بالذى فلق البحر لموسى[(٣)] ، وأسألك بالذى ألقَى الألواح إلى موسى بن عمران فيها علمُ كلّ شىء ، ألست تجد فى كتاب الله أن أمّة محمد ثلاثة أثلاث ، فثلث يدخلون الجنّة بغير حساب ، وثلث يدخلون الجنة برحمة الله ، وثلث يحاسَبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ؛ فإنه سيقول لك : نعم . فقل له : يقول لك كعب : اجعلنى فى أىّ هذه الثلاثة شئت .

ومنه ما رواه عطاء بن يسار وأبو صالح عنه[(٤)] أنه قال : أجد فى التوراة : أحمد عبدى المختار ، لا فَظّ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يُجْزِ

(١) كذا فى خير البشر ص ٢٧ . والمعروف : «الجمّ» . (٢) فى خير البشر ص ٢٨ : « أمة أحمد » . (٣) فى خير البشر ص ٢٥ : « فرق البحر لموسى » . (٤) فى خير البشر ص ٢٨ : « أبو صالح عن كعب الأحبار » .

بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، أمّته الحمّادون ؛ يحمـدون الله على كلّ حال ، ويسبّحونه فى كلّ منزلة ، ويكبّرونه على كل شَرَف ، يأتزرون على أوساطهم ، ويصونون أطرافهم (١) ، وهم رُعاة الشمس ، ومؤذّنهم ينـادى فى جوّ السماء ، وصفُّهم فى الصلاة سواء؛ رهبان بالليل ، أُسـدٌ بالنهار ، لهم بالليل دَوِىٌّ كدوىّ النحل ، يصلّون الصلاة حيثما أدركتهم من الأرض ؛ مولده مكّة ، مُهاجَره طابة ، ولن يقبضـه الله حتى يقيم به الأمّة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح الله به أعيُنا عُمْيا ، وآذانا صُمّا ، وقلوبا غُلْفا .

ومنه ما روى أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب : دُلَّنى على أعلم الناس بما أنزل الله على موسى لأسمع كلامك معه ، فذكر له رجلا من اليهود باليمن ، فأشخصه إليه ، فجمع معاوية بينهما ، فقال له كعب : أسألك بالذى فرق البحر لموسى أتجد فى كتاب الله المُنَزّل أن موسى نظر فى التوراة فقـال : يا رب إنى أجد أمة مرحومة ، وهى خير أمّة أخرجت للنّاس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأوّل (٢) ، ويؤمنون بالكتاب الآخِر (٣) ، ويقاتلون أهل الضلالة ، حتى يقاتلوا الأعـور الكذّاب ، فاْجعلهم يا ربّ أمّتى ، قال : هم أمّة أحمـد ؟ قال الحـبر : نعم أجد ذلك ، ثم قال : كعب للحـبر : أنشـدك الله الذى فـرق البحرَ لموسى ، أتجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : رب إنى أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شَرَف كبّر ، وإذا هبط واديا حمد الله ، الصعيد

(١) فى شرح المواهب ١ : ٣٦١ : « يشدون أوساطهم ، ويطهرون أطرافهم » ، وشد الوسط عبارة عن الاجتهاد فى العبادة ، وتطهير الأطراف كناية عن الوضوء .

(٢) قيل : الكتاب الأول هو التوراة ، وقيل : المراد جنس الكتب السابقة . انظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٧ .

(٣) هو القرآن . انظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٧ .

لهم طهور ، يتطهّرون به من الجنابة كطهورهم بالمـاء حيث لا يجـدون المـاء ،
حيث كانوا فلهم مسجد ، غُرٌّ مُحَجَّلون من الوضوء ، فاجعلهم أمتى . قال :
هم أمة أحمـد ؟ فقـال الحبر : نعم أجد ذلك ؛ قال : أنشـدك الله الذى فرق
البحر لموسى ، أتجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : رب إنى
٥ أجد أمّة إذا هَمَّ أحدُهم بحسـنة ولم يعملها كُتبتْ له حسنة مِثلُها ، وإذا عملهـا
أُضعِفت له بعشر أمثالها إلى سـبعمائة ضعف ، وإذا هَمَّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب
عليه ، فإذا عَملها كُتبت عليه سيئة مِثلُها ، فاجعلهم أمّتى ، قال : هم أمّة أحمد ؟
قال الحـبر : نعم ، أجد ذلك ؛ قال كعب : أنشدك الله الذى فرق البحر لموسى ،
أتجـد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التـوراة فقال : يا رب إنى أجد أمّة
١٠ يأكلون كفّاراتهم وصدقاتهم ، إنهـم يُطعمونها مساكينَهم ولا يُحرِقونها كما كان
غيرهم من الأمم يفعل ؟ . وجاء فى حديث آخر غير هذا مّما هو منسوب إلى كتب
الله السالفة : « يأكلون قرابينَهم[1] فى بطونهم » . والمراد الضحايا .

ومنـه ما روى عنـه أنه قال : كان لأبى سِفرٌ من التوراة يجعـله فى تابوت
ويختم عليـه ، فلما مات أبى فتحتُه ، فإذا فيـه : إن نبيا يخرج فى آخر الزمان هو
١٥ خير الأنبياء[2] ، وأمّته خير الأمم ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله ، يكبّرون الله على
كل شَرَف ، ويصفُّون فى الصـلاة كصفوفهم فى القتال ، قلوبهم مصاحفهم ،
يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلين ، اسمُه أحمد ، وأُمته الحمّادونَ ، يحمدون الله على كل
شِـدّة ورخاء ، مولدُه مكة ، ودارُ هجرته طابَةَ ، لا يَلقَون عدوًّا إلا وبينَ أيديهم

(١) فى خير البشر : « قرباتهم » .
(٢) فى الأصل : « آخر الأنبياء » .

ملائكةٌ معهم رِماح ، تَحُفّ الله عليهم كتَحفُّن[1] الطير على فِراخها ، يدخُلون الجنّـة ؛ يأتى ثُلث منهم يدخلون الجنة بغير حساب[2] ، ثم يأتى ثُلث منهم بذنوب وخَطايا ، فيُغفَر لهم ، و يأتى ثلث بذنوب[3] وخَطايا عظام ، فيقول الله : اذهَبوا بهـم فزِنوهم وانظروا إلى أعمالهم، فيزِنونهم[4] و يقولون: ربنا ! وجدناهم قد أسرَفوا على أنفُسهم، ووجَدنا أعمالهم من الذنوب أمثالَ الجبال، غيرَ أنهم كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله فيقول الله : وعِزّتى لا أجعل مَن أخلص لى الشهادة كَمن كفَر بى ؛ قال كعب : فأنا أرجو أن أكون من هذه الثلاثة إن شاء الله تعالى .

ومنه ما روى أن رجلَين جلسا يتحدّثان وكعبُ الأحبـار قريبٌ منهما ، فقال أحدهما : رأيت فيما يرى النائم كأن الناس حُشِروا ، فرأيت النبيّين كلَّهم لهم نوران نوران ، ورأيت لأشياعهم[5] نورًا نورا ، ورأيتُ محمدا صـلى الله عليه وسـلم وما من شَعرة فى رأسِه ولا جسدِه إلا وفيها نور ، ورأيت أتباعَه ولهم نوران نوران ، فقال له كعب : اتق الله تعـالى يا عبدَ الله ! وانظر ما تحدّث[6] به ، فقال الرجل : إنمـا هى رؤيا مَنام أَخبَرتُ بها على ما أُرِيتُها ، فقال كعب : والذى بعث محمدًا بالحـق صلى الله عليه وسلم ، وأَنزل التوراة على موسى بن عِمران ، إنّ هـذا لفى كتاب الله المنزل على موسى بن عِمران كما ذكرت .

وأما ما جاء عن أبى ثَعلَبة[7] وهو أبو مالك ، وكان من أحبار يهود ، فقد روَى الواقـدىّ أن عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه قال له : يا أبا مالك ! أخبِرنى

(١) فى الأصل : «كتحنن» .
(٢) فى خير البشر : « تأتى ثلة منهم فيدخلون » .
(٣) فى خير البشر : « تأتى ثلة » .
(٤) فى الأصل : « فيزنوهم » تصحيف .
(٥) فى خير البشر : « لأتباعهم » .
(٦) فى خير البشر : «ما تحدّث» .
(٧) انظر خير البشر لابن ظفر ص ١٠ .

بصفة النبيّ صلّى الله عليه وسلم فى التّوراة، فقال : إن صفته فى توراة بنى إسرائيل[1] التى لم تُبَدَّل ولم تُغيِّر أحدٌ، من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وهو آخر الأنبياء ؛ وهو النبيّ العربىّ ، يأتى بدين إبراهيمَ الحنيف، يأتزر على وَسَطه ، ويغسل أطرافَه، فى عينَيه حُمْرة ، وبين كتِفيه خاتمُ النبوّة ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، يلبَس الشّملة ، ويجترئ بالبلْغة ويركب الحمار[2] ، ويمشى فى الأسواق ، سيفُه على عاتقه ، لا يبالى مَن لَقِيَ من الناس ، معه صلاةٌ لو كانت فى قوم نوح ما أُهلِكوا بالطُّوفان ، ولو كانت فى قوم عادٍ ما أُهلِكوا بالرّيح ، ولو كانت فى ثمودَ ما أُهلِكوا بالصّيحة ، مَولِدُه مكّة ، ومَنشَؤه وبدءُ نبوّته بها ، ودارُ هجرته يَثرِب بين لابَتَىْ حَرّةٍ ونخلٍ وسبخة ، وهو أُمّىٌّ لا يكتُب ولا يقرأ المكتوب ، وهو الحمّاد يحمَدُ الله على كلّ شدّة ورخاء ، سلطانُه بالشام ، وصاحبُه من الملائكة جبريلُ ، يلقَى من قومه أذًى شديدا ، ثم يُدَال عليهم فيحصُدهم حَصْدا ، تكون له وقَعات بيَثْرِب ، منها له ومنها عليه ، ثم له العاقِبة ، معه قومٌ هم إلى الموت أسرعُ من الماء من رأس الجبل إلى أسفله ، صدورُهم أناجيلُهم ، وقُربانُهم دماؤهم ، لُيوثُ النّهار رهبانُ الليل ، يُرعَب عدوّه منه مسيرةَ شهر، يباشر القتال بنفسه حتى يُجْرَح ويُكْلَم ، لا شُرطةَ معه ولا حَرَس ، الله يحرسه .

وكان من هؤلاء أيضا عبد الله بن سَلَام[3] ومُخَيرِيق[4] ؛ وسَنذكر أخبارهما إن شاء الله تعالى عند ذكر إسلامهما بعد الهجرة على ما تقف عليه هناك .

هذه روايةُ من أسلَم من أهل الكتاب .

---

(١) فى خير البشر ص ١٠ : « بنى هارون » .

(٢) فى خير البشر : « ويحارب على البغلة ، ويركب الجمل » .

(٣) بتخفيف اللام كما فى الروض الأنف ٢ : ٢٥ ، وانظر شرح الشفا للخفاجى ٣ : ٢٦٤ .

(٤) فى الأصل : « مخيرق » تصحيف ، والتصحيح عن سيرة ابن هشام ٢ : ١٦٤ ؛ وانظر الروض الأنف ٢ : ٢٦ ، ونسيم الرياض ٣ : ٢٦٥ .

وأما مَن بشَّر به صلّى الله عليه وسلم من أهل الكتابين ممّن لم يسلم ظاهرا، ولا عُلِم لهم إسلام، ومن أقرّ بنبوّته صلى الله عليه وسلم ولم يُدَر له مكان.

فمن[1] هؤلاء من بَشَّر به وأَخبر بنبوّته قبل مَولِدِه، ومنهم من ذكر ذلك حالَ مَولِده لقرائنَ كان يَرقُب وقوعها تدلّ على مَولِده فوقعت؛ ومنهم من بَشَّر به فى حال طفوليّته، ومنهم من بَشَّر به قبل مَبعَثِه، ومنهم من ذكر صِفتَه بعد مَبعثِه ورُؤيته له، وذكَرَ قَومه بها وحقّق عندهم أنه هو، ودليلُ كلٍّ منهم ما كان يجده عندَه من أخباره فى الكتُب السالفة التى تلقّاها عن أسلافه، ومنهم من أظهرَ صُحفا كانت عنده فيها صريحُ ذكره وصِفتِه، ومنهم من أظهرَ تِمثالَ صورته، وصُوَرَ بعض أصحابه وهيئتهم، وكان ذلك مصوّرا فى بيوتٍ فى بِيَعهم على ما نذكر ذلك مُسهبا[2] إن شاء الله.

فأما من بشّر به وأخبر بنبوّته وصِفتِه صلّى الله عليه وسلم قبل مولِدِه؛ فمن ذلك ما حكاه ابن إسحاق فى خبر تُبَّع الأوّل[3]، قال: وكان من الخمسة الذين كانت لهم الدنيا بأسرها، وكان له وزراء، واختار منهم واحدا، وأخرجه معه، وكان يسمّى عماريشا[4]، وأخذه لينظر فى مملكته، وخرج معه مائة ألف من الفرسان، وثلاثة وثلاثون ألفا، ومائة ألف وثلاثة عشر ألفا من الرَّجّالة، وكان إذا أتى بلدةً يختار منها عشرة رجال من حكمائها، حتى جاء إلى مكّة، فكان معه مائة ألف رجل من العلماء والحكماء الذين اختارهم من البلدان، فلم يَهَبْه أهل مكّة

(١) فى الأصل: «من».

(٢) فى الأصل: «سيبا».

(٣) وردت هذه البشرى فى ثمرات الأوراق ص ١١٠.

(٤) فى ثمرات الأوراق هنا وفيما يأتى: «عمار يا».

ولم يعظّموه ، فغضب لذلك ، ثم دعا وزيره عماريشا[(١)] وقال : كيف شأن أهل هذه البلدة ؟ فإنهم لم يهابونى ، ولم يخافوا عسكرى ، فقال : أيها الملك إنهم قوم عَرب[(٢)] جاهلون لا يعرفون شيئا ، وإن لهم بيتا يقال له كعبة ، وهم مُعجَبون بهذا البيت ، وهم قوم يعبدون الطّواغيت ، ويسجدون للأصنام . فقال الملك : وهم مُعجَبون بهذا البيت ؟ قال : نعم ، فنزل بعسكره ببطحاء مكّة ، وفكر فى نفسه دون الوزير ، وعزَم على هدم الكعبة ، وتسميتها خربة ، وأن يقتلَ رجالهم ، ويَسبِى نساءهم ، فأخذه الله بالصُّداع ، وتفجَّر من عينَيه وأُذنَيه ومُنخُرَيه وفمه ماء مُنتِن ، فلم يَصبِر عنه أحد طرفَة عين من نتن الريح ، فاستيقظ لذلك وقال لوزيره : اِجمع العلماء والحكماء والأطبّاء وشاوِرْهم فى أمرى ، فاجتمع عنده الأطبّاء والعلماء والحكماء ، فلم يقدروا على المُقام عنده ، ولم يمكنهم مداواته ، فقال : إنى جمعت الأطبّاء والعلماء والحكماء من جميع البلدان ، وقد وقعتُ فى هذه الحادثة ولم يقدروا على مُداواتى ، فقالوا بأجمعهم : إنا نَقدر على مُداواة ما يعرِض من أمور الأرض ، وهذا شىء من السماء لا نستطيع ردّ أمر السماء ، ثم اشتدّ أمرُه ، وتفرّق الناس عنه ، ولم يزل أمرُه فى شِدّة حتى أقبل الليل ، فجاء أحَدُ العلماء إلى الوزير وقال : إن بينى وبينك سرا ، وهو إن كان الملك يَصْدُقنى فى حديثه عالجته ، فاستبشر الوزير بذلك وأخذ بيده ، وحمله إلى الملك ، وأخبره بما قال الحكيم ، وما التمسه من صِدق الملك ، حتى يعالجَ علّته ، فاستبشر الملك بذلك ، وأذن له فى الدُّخول ، فلما دخل قال : أريد الخلوة ، فأُخلِىَ له المكان ، فقال : نويتَ لهذا البيت سوءا ؟ قال : نعم ، إنى نويتُ خرابه ، وقتل

---

(١) فى ثمرات الأوراق : « عماريا » وقال كيف شاهدت هذه البلدة » .

(٢) فى الأصل : « عربيون » ، والتصويب عن ثمرات الأوراق .

رجالهم ، وسبي ذراريهم ، فقال له : إنّ وجعك وما بُليتَ به من هذا ، اعلم أن صاحب هذا البيت قويٌّ يعلم الأسرار ، فبادر وأَخرِج من قلبك ما هممتَ به من أذى هــذا البيت ولك خيرُ الدنيا والآخرة ، قال الملك : أفعل ، قد أخرجتُ من قلبي جميــع المكروهات ، ونويت جميع الخيرات ، فلم يخرج العالم من عنــده حتى ٥ برئ من عِلّته ، وعافاه الله بقدرته ، فآمن بالله من ساعته ، وخرج من منزله صحيحا على دين إبراهيم عليه السلام ، وخلع على الكعبة سبعة أثواب ، وهــو أوّل من كسا الكعبة ، ودعا أهلَ مكة ، وأَمَرهم بحفظ الكعبة ، وخرج إلى يَثرِب ، وهي يومئذٍ بُقعةٌ فيها عينُ ماء ليس فيها بيتٌ مبنيّ ولا بنــاء ، فنزل على رأس العين هو وعسكُره وجميعُ العلماء الذين كانوا معه ، ومعهم رئيسُهم عماريشا الذى كان يَرى برأيه .

١٠ ثم إن العلماءَ والحكماء اجتَمعوا ، وكانوا أربعةَ آلاف ، فأَخرَجوا من بينهم أربعمائة هم أَعلمُهم ، وبايَع كلُّ واحدٍ منهم صاحبَه أن لا يَخرُجوا من ذلك المقام وإن ضَرَبهم الملِك أو قتَلهم ، فلما علِم الملكُ ما قد عَزَموا عليه ، قال للوزير : ما شأنُهم يمتنعون عن الخُروج معي ، وأنا محتاج إليهم؟ وأىُّ حِكمة فى نزولهم فى هذا المكان ، واختيارِهم إياه على سائر النَّواحى ، فلمــا أتاهم الوزير وسألهم عما عَزَموا عليــه ، ١٥ واختيارَهم المقــام بهذه البُقعة ، قالوا له : أيها الوزير ! إن شَرَف ذلك البيت ، وشَرَف هذه البُقعة التى نحن فيها بِشَرَف رجل يُبعَث فى آخر الزمان ، يقال له محمد ووصفوه ، ثم قالوا : طُوبَى لمن أدركه وآمن به ، وقــد كُنّا على رجاء أن نُدرِكَه أو يُدرِكَه أوْلادُنا ، فلما سمع الوزير مقالتَهم هَمَّ بالمُقام معهم ، فلما جاء وقت الرحيل أَمَرهم الملك أن يرتحلوا ، فقالوا : لا نفعل ، وقد أعلَمْنا الوزيرَ بحكمة مُقامنا ، فدعا ٢٠ الوزيرَ فأخبره بما سمع منهم ، فتفكّر الملك وهَمّ أن يقيم معهم سنةً رجاءَ أن يدرك محمدا صلى الله عليه وسلم ، فأقام وأمر الناس أن يبنوا أربعمائة دار ، لكل رجل من العلماء

دار، واشترى لكل واحد منهم جارية وأعتقها وزوّجها برجل منهم، وأعطى كلَّ واحد منهم عطاءً جزيلا، وأمرهم أن يُقيموا فى ذلك الموضع الى أن يجىء زمانُ النبى صلى الله عليه وسلم، ثم كتب كتابا وختَمه بخاتَم من ذهب، ودفعه إلى العالِم الكبير، وأمره أن يدفع الكتاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم إن أدركه، و إلا أوصَى به أولادَه بمثل ما أوصاه به، وكذلك أولاده حتّى ينتهى أمرُه إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وكان فى الكتاب: أما بعد فانى آمنتُ بك و بكتابك الذى أُنزِل عليك، وأنا على دينك وسُنّتك، وآمنتُ بربك وربِّ كلّ شىء، وآمنتُ بكل ما جاء من ربِّك من شرائع الإيمان والإسلام، فإن أدركتُك فيها ونعمت، و إن لم أُدركك فاشفَع لى، ولا تنسَنى يومَ القيامة، فإنى من أمّتك الأوّلين، وتابِعيك[(١)] قبلَ مجيئك، وأنا على ملّتك وملّة أبيك إبراهيم عليه السلام. ثم ختم الكتاب ونقش عليه: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ وكتب على عنوانه إلى محمد بن عبدالله نبيّ الله ورسوله، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، صلّى الله عليه وسلّم، من تُبّع الأول حِمْيَر بن حِمْيَر ابن وردع[(٢)] أمانةً لله فى يد من وقع اليه إلى أن يوصِله إلى صاحبه، ودفع الكتابَ إلى الرجل العالم الذى أبرأه من علّته. وصار تُبّع من يَثرب حتى مات بقلسان[(٢)] من بلاد الهند.

وكان من اليوم الذى مات فيه تُبَّع الى اليوم الذى بُعث فيه النبى صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا تزيد ولا تنقص، وكان الأنصار الذين نصروا النبى صلى الله عليه وسلم من أولاد أولئك العلماء والحكماء، فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة، سأله أهلُ القبائل أن يَنزِل عليهم على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى؛ فكانوا يتعلّقون بناقته وهو يقول: خَلّوا الناقة فإنها مأمورة، حتى جاءت الى دارَ أبى أيّوب، وكان من أولاد العالم الذى أبرأ تُبّعا برأيه.

(١) فى ثمرات الأوراق: «ووقد بايعتك». (٢) كذا فى الأصل.

قال ابن إسحاق: واستشار الأنصارُ عبدَ الرحمن بنَ عوف فى إيصال الكتاب الى النبي صلى الله عليه وسلم لمّا ظهر خبره قبلَ هجرته، فأشار عبد الرحمن أن يدفعوه الى رجل ثقة، فاختاروا رجلا يقال له أبو لَيلَى وكان من الأنصار، فدفعوا الكتاب إليه وأوصَوْه بحفظه، فأخذ الكتاب وخرج من المدينة على طريق مكة، فوجد النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قبيلة من بنى سُلَيم، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاه وقال: أنت أبو لَيلَى؟ فقال: نعم، قال: معك كتاب تُبّع الأول؟ قال: نعم، فبقى الرجل متفكّرا، وقال فى نفسه: إن هذا من العجائب، ثم قال له أبو لَيلَى: مَن أنت، فإنى لست أعرفك؟ إن فى وجهك أثرَ السحر، وتوهّم أنه ساحر، فقال له: بل أنا محمد رسول الله، هات الكتاب، فأخرجه ودفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم ودفعه الى علىّ كرم الله وجهه، فقرأه عليه، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم كلام تُبّع قال: مرحبا بالأخ الصالح ثلاثَ مرّات، ثم أمرَ أبا لَيلَى بالرجوع الى المدينة، فرجع وبشّر القوم بقدوم النبي صلى الله عليه وسلّم.

ومن ذلك ما روى أن أبا كَرِب تبان بن أسعد ملك اليمن أحد التبابعة[1] لما قصد بلاد الشرق[2]، جعل طريقه على يَثرب، فلم يهج أهلها، وخلّف بين أظهرهم ابنا له، فقُتل غِيلَةً، فقدمها وهو مُجمع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها، فجمع له أهل المدينة ورئيسُهم يومئذ عمرو بنُ طَلّة أحد بنى النجار؛ وهو عَمرو بن مُعاوية بن عمرو بن عامر بن زُرَيق بن عبد حارثة بن مالك بن النجّار، وطَلّة أمّه[3]؛ وهى بنت عامر بن زُرَيق بن عامر بن زُرَيق بن عبد حارثة.

(١) انظر الكامل لابن الأثير فى «ذكر حوادث العرب أيام قباذ».

(٢) فى التيجان ص ٢٩٤، وسيرة ابن هشام ١ : ٢١ : «المشرق».

(٣) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢١.

قال محمد بن إسحاق (١) :

وكان رجل من بنى عدى بن النجار ويقال له أحمر، عدا على رجل من أصحاب تبع حين نزل بهم فقتله، وذلك أنه وجده فى عذق له يجده، فضربه بمنجله فقتله، وقال : إنما التمر لمن أبره، فزاد ذلك تبعا حنقا عليهم فاقتتلوا، فكان أهل المدينة، وهم هذا الحى من الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل، فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا لكرام . وفى ذلك يقول حسان بن ثابت من قصيدة لم يذكر فيها قومه :

قروا تبعا بيض المواضى ضحاة وكوم عشار بالعشيات نهض

قال فبينا تبع على ذلك من حربهم (٢) إذ جاءه حبران من أحبار يهود من بنى قريظة عالمان راسخان، حين سمعا بما يريد من إهلاك يثرب وأهلها، فقالا له : أيها الملك، لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما : ولم ذلك ؟ قالا : هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش آخر الزمان، تكون داره وقراره، فرأى تبع أن لهما علما، فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما .

ومن ذلك خبر سلمان الفارسى (٣) وقصته فى سبب إسلامه وهجرته إلى المدينة . ٤٢/١٤
روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، قال : حدثنى سلمان الفارسى من فيه، قال : كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان، من أهل قرية يقال لها جى،

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢١ ، وانظر الخميس للديار بكرى ١ : ٢٧ .
(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٢ : «فبينا تبع على ذلك من قتالهم» .
(٣) انظر البداية والنهاية ٢ : ٣١٠ ، سيرة ابن هشام ١ : ٢٢٨ .

وكان أبى دِهْقانَ[1] قريته ، وكنت أحَبَّ خلق الله إليه ، ثم لم يزل به حبّه إياى حتى حبَسنى فى بيته كما تُحبَس الجارية ، واجتهدتُ فى المجوسية حتى كنت قَطِنَ النار[2] الذى يوقِدُها لا يتركها تخبُو ساعة ؛ قال : وكان لأبى ضَيْعَة عظيمة ، فشُغِل فى بنيان له يوما ، فقال يابنى : إنى قد شُغِلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضَيْعتى ، فاذهب إليها ، فأمرنى فيها ببعض ما يريد ثم قال : ولا تحتبس عنى ، فإنك إن احتبستَ عنّى كنتَ أهمّ إلىّ من ضيعتى وشغلتَنى عن كل شىء من أمرى ؛ قال : فخرجت أريدُ ضيعته التى بعثنى إليها ، فمررتُ بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يُصلُّون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس بحَبْس[3] أبى إياى فى بيته ، فلما سمعتُ أصواتهم دخلت عليهم أنظرُ ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ، ورغبتُ فى أمرهم وقلت : هذا والله خيرٌ من الدّين الذى نحنُ عليه ، فوالله ما بَرِحتُهم حتى غَرَبت الشمس ، وتركت ضَيعة أبى فلم آتِها ، ثم قلتُ لهم : أين أصل هذا الدِّين ؟ قالوا : بالشام ، فرجعتُ إلى أبى وقد بعث فى طلبى ، وشغلتُه عن عَمَله كلّه ، فلما جئتُه قال : أى بُنَىّ ! أين كنت؟ ألم أكن عهِدتُ إليك ما عهِدت؟ قلتُ : يا أبت ! مررتُ بأناس يُصلُّون فى كَنيسة لهم ، فأعجبنى ما رأيتُ من دينهم ، فوالله ما زلتُ من عندهم حتى غَرَبت الشَّمس ، قال : أى بُنى ! ليس فى ذلك الدين خير ، دينُك ودينُ آبائك خيرٌ منه ، قلتُ له : كلا والله ! إنه لَخيرٌ من ديننا ، قال : فخافنى فجعل فى رجلى قَيْدًا ثم حبَسنى فى بيته ، فبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدِم عليكم رَكْبٌ من الشام تجّار فأخبرونى بهم ، قال : فقدم عليهم رَكب من الشام تجار من النّصارَى فأخبرَونى بهم ، فقلت : إذا قضوا حوائجَهم ، وأرادوا الرَّجعة

(١) الدهقان رئيس الإقليم ، أو مقدم القرية أو زعيم فلاحى العجم (تاج — دهقن)

(٢) قطن النار : خادمها .

(٣) فى السيرة ١ : ٢٢٩ : « لحبس » .

إلى بلادهم، فآذِنُونى بهم ، فلما أرادوا الرّجعة أخبَرونى بهم ، فألقيت الحديد
من رجلى، ثم خرجت معهم حتى قدمتُ الشام، فلما قدمتها قلتُ: مَن أفضلُ أهل
هذا الدين علما ؟ قالوا الأُسْقُفُّ فى الكَنيسة ، فجئتُه فقلت : إنى رغبت فى هذا
الدين ، وأحببتُ أن أكون معَـك وأخدُمَك وكنيستَك ، وأتعـلّمَ منك ، وأصلّى
معـك ، قال : ادخل ، فدخلت معـه ، فكان رجُلَ سُـوء ، يأمرهم بالصّدقة
ويُرغّبهم فيها ، فإذا جمعوا إليـه شيئا منها اكتنزه لنفسه ولم يُعْطِه المساكين، حتى
جَمع سَبعَ قِلالٍ من ذهب ووَرِق، قال : وأبغضتُه بُغضًا شديدا لمـا رأيتُه يصنع،
ثم مات واجتمعَتْ له النّصارَى ليدفنوه فقلت لهم : إن هـذا رجل سَوء، يأمركم
بالصّدقَة ويرغّبكم فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يُعطِ المساكين منهـا
شـيئا، فقالوا لى : وما علمُك بذلك ؟ قلت : أنا أدلّكم على كنزه ، قالوا : فدُلَّنا
عليه ، فأريتُهم موضعَه ، فاستخرجوا سـبعَ قلال مملوءة ذهبا ووَرِقا ، فلما رأوها
قالوا : والله لا نَدفنُه أبدا ، فصَلَبوه ورجَمـوه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه
مكانَه، قال : يقول سَلْمان : فما رأيت رجلًا لا يصلّي الخمسَ أُرَى أنه أفضَل منه،
وأزهد فى الدنيا، ولا أرغب فى الآخرة، ولا أدأب ليلًا ونهاراً منه، قال: فأحببتُه
حبا لم أحبّه شيئا قبلَه ، فأقمتُ معـه زمانا، ثم حضرتْه الوفاة فقلت له : يا فلان
إنى قد كنتُ معك وأحببتُك حبا لم أُحِبّه شيئا قبلك ، وقـد حضَرك ما ترَى من
أمر الله، فإلى مَن تُوصِى بى وبمَ تأمُرُنى؟ قال : أى بُنَىّ، والله ما أعلم اليوم
أحدًا على ما كنتُ عليه ، لقد هلك الناس ، وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليـه ،
إلا رجلًا بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه، فالْحَق به . قال : فلمـا
مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب الموصِل فقلت له : يا فلان إن فلانا أوصانى عند
موته أن ألحَق بك، وأخبَرَنى أنك على أمره، فقال لى : أقِم عندى، فأقمت عنده

فوجدتُه خير رجل على أثر (١) صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرتْه الوفاة قلت له :
يا فلان إنّ فلانا أوصى بى إليك ، وأمرنى باللحوق بك، وقد حضرك من أمر
الله ما ترى، فإلى من توصى بى وبِمَ تأمرنى ؟ قال : يا بُنَىّ والله ما أعلم رجلا
على مثل ما كنّا عليه إلا رجلا بنصيبين، وهو فلان ، فالحق به ، فلما مات وغُيّب
لحقتُ بصاحب نصيبين ، فأخبرتُه خبرى ، وما أمرنى به صاحبى ، فقال : أقم ٥
عندى ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله
ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حُضر قلت له : يا فلان إن فلانا كان أوصى
بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من تُوصى بى وبم تأمرنى ؟
قال يا بُنَىّ والله ما أعلَمُه بقى أحد على أمرنا ، فلما مات وغُيّب لحقتُ بصاحب ٤٣/١٤
عَمّورية، فأخبرته خبرى ، فقال : أقِم عندى ، فأقمتُ عند خير رجل على هَدْى ١٠
أصحابه وأمرِهم ، قال : واكتسبتُ حتى كانت لى بقرات وغُنَيْمة، قال : ثم نزل
به أمرُ الله ، فلما حُضر قلت له : يا فلان إنى كنتُ مع فلان فأوصَى بى إلى
فلان ، ثم أوصَى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصَى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصَى
بى فلان إليك، فإلى من تُوصِى بى وبم تأمُرُنى؟ قال : يا بُنَىّ والله ما أعلَمه
أصبحَ أحدٌ على مثل ما كنّا عليه من الناس آمرك أن تأتيَه ، ولكنه قد أظلّ زمانُ ١٥
نبىّ هو مبعوثٌ بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجَرُه إلى
أرض بين حَرّتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفَى ؛ يأكل الهَدية ولا يأكل
الصّدَقة ، بين كتفَيْه خاتَم النبوّة ؛ فإن استطعتَ أن تلحق بتلك البلاد فافعل ؛
قال : ثم مات وغُيّب ، ومكثتُ بعَمّورية ما شاء الله أن أمكُث، ثم مرّ بى نفر
من كلْب تُجّار فقلت لهم، احملونى إلى أرض العَرَب، وأُعطيكم بقراتى هذه ، ٢٠

(١) فى السيرة لابن هشام ١ : ٢٣١ : « على أمر » .

وغُنَيمتى هذه، قالوا : نعم . وأعطيتُهُموها وحملونى معهم، حتى [إذا] بلغوا وادى القُرى ظلمونى فباعونى من رجل يَهُودىّ عبدًا ، فكنت عنده، و رأيتُ النخل ؛ ورجوت أن يكون البلد الذى وَصَفَ لى صاحبى ، ولم يَحِقّ فى نفسى ؛ فبينا أنا عنده ، إذ قدِم عليه ابنُ عمٍّ له من بنى قُرَيظة من المدينة ، فابتاعنى منه، فحملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُها بصِفَة صاحبى، فأقمت بها. وبُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام بمكة ما أقام، لا أسمعُ له بذِكرٍ معَ ما أنا فيه من شُغْل الرِّقّ، ثم هاجرَ إلى المدينة ، فوالله إنى لفى رأس عَذْقٍ لسيدى أعمَل له فيه بعضَ العمَل، وسيدى جالس تحتى إذ أقبل ابنُ عمٍّ له ، حتى وقف عليه فقال : يا فلان ، قاتل الله بنى قَيْلَة[1] ، إنهم والله الآن لمجتمعون بقُباء[2] ، على رَجُل قدِم عليهم من مكة اليوم يزعُمون أنه نبىّ ، قال : فلما سمعتُه أخذتنى العُرَواء[3] حتى ظنَنت أنى ساقط[4] على سيدى، فنزلتُ عن النخلة فجعلتُ أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ فغضب سيدى ولكمنى لَكمةً شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبِل على عملك ، فقلت لا شىءَ إنما أردتُ أن أستثبته عما قال . قال سلْمان : وكان عندى شىء قد جمعتُه ، فلما أمسيتُ أخذتُه ثم ذهبتُ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقُباء ، فدخلت عليه فقلتُ له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غُرَباء ذَووا حاجة ، وهذا شىء كان عندى للصّدقة، فرأيتكم أحقّ به من غيركم ، قال : فقرّبتُه إليه ، فقال لأصحابه : كلوا ! وأمسك يده

(١) يريد الأوس والخزرج؛ لأن قيلة بنت كامل أم الأوس والخزرج . وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٢

(٢) قباء بالضم : قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة .

(٣) العرواء : الرعدة والانتفاض من الحمى والبرد .

(٤) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٣ : « أنى سأسقط » .

فلم يأكل . قال : قلتُ فى نفسى : هذه واحدة ، ثم انصرفتُ عنه فجمعتُ شيئا ، وتحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم جئته به ، فقلت : إنى قد رأيتُك لا تأكل الصَّدَقة ، وهذه هَدية أكرمتُك بها ، قال : فأكل منها ، وأمر أصحابَه فأكلوا معه ، قال : قلت فى نفسى : هاتان ثنتان . قال : ثم جئتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ببَقيع الغَرْقَد[1] قد تَبع جنازَة رجل من أصحابه ، علىَّ شملتان لى ، وهو جالس فى أصحابه ، فسلّمت عليه ثم استدَرت أنظر إلى ظَهره ، هل أرَى الخاتَم الذى وُصف لى ، فلما رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرتُه ، عرَف أنى أستَثْبت من شىء وُصف لى ، فألقى رداءه عن ظَهره فنظرتُ إلى الخاتَم فعرفتُه فأكببت عليه أُقبّله وأَبكى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحوّل ! فتحولتُ فجلستُ بين يديه ، فقصَصت عليه حديثى كما حدثتُك يابنَ عباس ، فأعجب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يسمَع ذلك أصحابُه .

ثم شغَل سلمانَ الرِّق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرٌ وأُحُد . قال سَلمان : ثم قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : كاتِبْ يا سَلْمان ، فكاتَبتُ صاحِبى على ثلاثمائة نخلَة أُحْيِيها له بالفقير ، يعنى الآبار الصِّغار ، وأربعين أُوقية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أَعينوا أخاكم ، فأعانونى بالنَّخل ؛ الرجلُ بثلاثين وَدِيّة[2] ، والرّجل بعشرين وَدية ، والرجل بخمس عَشْرة وَدِية ، والرجلُ بعشر ؛ يُعين الرجُل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعَتْ لى ثلاثُمائة وَدية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب يا سَلْمان فَفَقِّر[3] لها ، فإذا فرغتَ فأتنى ، أكن أنا

(١) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة .

(٢) الودىّ : صغار النخل واحدتها ودية .

(٣) فقر لها : أى احفر لها .

أضعُها بيــدى . قال : ففقّرت، وأعاننى أصحابى حتى إذا فرغتُ جئتُه فأخبرتُه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معى إليها، فجعلْنا نقرّب إليه الوَدِىّ ، و يضعُه رسولُ الله صــلى الله عليه وســلم بيده حتى إذا فَرَغنا [1] ، فوالذى نفسُ سَلْمان بيده ما مات منها وَدِية واحدة، فأدّيتُ النخل، و بقى علىّ المــال ، فأُتِى رسول الله صلى الله عليــه وسلم بمثل بَيْضة الدّجاجة من ذَهب من بعض المعادن ، فقال : ما فعل الفارسىّ المُكَاتَب ؟ قال : فدُعيت، فقال : خذ هذه فأدّها ممــا عليك يا سَلْمان ، قال : وقلت وأين تقع هذه يا رسول الله ممــا علىّ؟ فقال : خذها، فإن الله سيؤدّى بها عنك، وفى رواية : فأخذَها رسول صلى الله عليه وسلم فقلّبها على لسانه ثم قال : خذها فأوفِهم منها . قال : فأخذتُها فوزنتُ لهم منها — والذى نَفسُ سَلْمان بيده — أربعين أُوقيةً ، فأوفيتُهم حقّهم منها، وعتَق سَلمانُ . فشهدتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخَندَق حُرّا ، ثم لم يُفتنى معه مَشْهد .

قال محمــد بن إسحاق [2] بسند رفعــه إلى عُمر بن عبد العزيز، أنه قال : حدِّثتُ عن سَلمان أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وســلم حين أخبره : إن صاحب عَمُّورية قال له : آئت كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلا بين غَيْضَتَين [3] يخرج فى كل ســنة من هذه الغَيْضة إلى هــذه الغَيْضة يعترضه ذَووا الأسقام [4]، فلا يدعو لأحَدٍ منهم إلا شُفِى، فآسأله عن هذا الدِّين الذى تَبتغِى، فهو يُخبرك عنه، قال سَلمان : فخرجتُ حتى جئت حيثُ وصف لى، فوجدتُ الناسَ قد اجتمعوا بمرضاهم هناك،

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٥ : « حتى فرغنا » .

(٢) نقله ابن هشام ١ : ٢٣٦ .

(٣) الغيضة : الشجر الملتف .

(٤) فى الأصل : « من هــذه الغيضة مستجيزا دواء الأسقام » ، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٦ .

حتى يخرج لهم تلك الليلة مُستجيزا من إحدى الغَيْضَتين إلى الأُخرى، فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض إلا شُفِي، وغلبونى عليه، فلم أخلُص إليه حتى دخل الغَيضة التى يريد أن يدخل إلى مَنكِبه[1]، قال : فتناولتُه، فقال : من هذا ؟ والتفت إلىّ، قلت يرحمك[2] الله أخبرنى عن الحنيفية دين إبراهيم، قال : إنك لتسألُنى عن شىء ما يَسأل عنه النـاسُ اليوم، وقد أظلّ زمانُ نبىٍّ يُبعَث بهـذا الدين من أهل الحَرَم، فأتِه، فهو يَحمِلُك عليه، ثم دخل. قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن[3] كنت صدقتَنى يا سَلمان، لقد لقيت عيسى ابنَ مريم[4].

وقد رُوِى حديثُ إسلام سَلْمان على غير هذا الوجه، إلا أنه غير مُنَافٍ له فيما هو مختصٌّ برسول الله صـلى الله عليه وسلم. والله سبحانه وتعـالى أعلم بالصواب وإليه المرجع.

وأما مَن بشّر به عند مَولده صلى الله عليه وسلم للقرائن التى كان يَتوقّع وقوعها تَدل على مَولده، فوقعت.

فمن ذلك ما رُوى أن يهـوديا قال لعبد المطّلب جدِّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم : يا سيدَ البَطْحاء إن المولود الذى كنتُ حدّثتكم عنه قـد وُلد البارحة، فقال عبدُ المطلب : لقد وُلد لى البارحةَ غلام، قال اليهودىّ : ما سميتَه ؟ قال : سميتُه محمدًا، قال اليهودىّ : هذه ثلاثٌ يشهدن علىّ بنبوته، إحداهن : أن نجمَه طلع البارحة، والثانية : أن اسمه محمد، والثالثة : أنه يُولَد فى صُبَابة قومه، وأنت يا عبدَ المطّلب صبابتهم[5].

(١) رواية ابن هشام ١ : ٢٣٦، والبداية ٢ : ٢١٤ : «إلا منكبه». (٢) ابن هشام ١ : ٢٣٦ : «فقلت». (٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٦، والبداية ٢ : ٣١٤ : «لئن صدقتنى». (٤) لهم فى هذا الحديث كلام تجده فى البداية لابن كثير ٢ : ٣١٤. (٥) فى الأصل : «صبابتهم، ح صبابة القوم : خالصتهم وخيارهم». وهى حاشية أدخلت بالمتن فيما أظن.

ومنه ما رُوِى أن حسّان بن ثابت قال : والله إنى لعلى أُطُمِى[1] فارع فى السَّحر إذ سمعت صوتا لم أسمع قط صوتا أنفذ[2] منه ، و إذا هو[3] صوت يهودىّ على أُطُم من آطام اليهود معه شُعلة نار ، فاجتمع النـاس إليه وأنكروا صُراخه فقالوا : مالك و يلك ! قال حسّان : فسمعتُه يقول : هذا كوكبُ أحمر قد طَلع ، وهو كوكب لا يطلُع إلّا بالنبوة ، ولم يبق من الأنبياء إلا أحمد ، قال حسّان : فجعل النـاس يضحَكون منــه و يعجبون لمـا أتَى به ، قال : وكان أبو قَيْس أحدُ بنى عدىّ بن النجّار قد ترهّب ولبس المُسوح ، فقيل له يا أبا قيس ! أنظر ما قال هذا اليهودى ! قال : صدَق و إن انتظار أحمـد هو الذى صنَع به ما صنَع ، ولعلّى أن أُدركه فأومنَ به ، فلما بلغه ظهور النبي صلى الله عليه وسلم بمكّة آمن به ، وقدم النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينة وقد نالت السنّ من أبى قَيْس .

وقــد أشرنا إلى خبرَ حسّان هــذا عند ذكرنا لمولد رســول الله صلى الله عليه وسلم . والأخبار فى هذا الباب كثيرة ، فلا نطوّل بسردها .

وأما من بشَّر به صلى الله عليه بعد مولِده فى حال طفوليته وحَداثة سنه .

فمن ذلك خبر سَيف بن ذِى يَزَن ، وقصّته مع عبــد المطلب ؛ وكان من خَبَره ما رواه الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البَيْهَقىّ رحمه الله فى كتابه المترجم بدلائل النبوّة قال : أخبرنا أبو سهل محمد بن نَصْرَوَيْه بن أحمد المَرْوَزِىّ بنيسابور ، قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن صالح المَعَافِرىّ ، قال : حدثنا أبو يَزَن الحِمْيَرِىّ إبراهيم ابن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن عُفَير بن زُرْعة بن سيف بن ذِى يَزَن ، قال :

(١) الاطم : حصن مبنى بحجارة ، أو كل بيت مربع مسطح .

(٢) فى خير البشر ص ٥٥ : « أنفذ منه » .

(٣) فى الأصل : « و إذا صوت يهودى » ، والمثبت من ابن ظفر ص ٥٥ .

حدّثنى عمّى أحمد بن حبيش بن عبد العزيز ، قال : حدثنى أبى عُفير ، قال : حدّثنى أبى زرْعَة بن سيف بن ذى يَزَن ، قال : لما ظهر سيف بن ذى يَزَن على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتَين أتَتْه وفود العرب وأشرافُها وشعراؤُها لتهنئته ، وتذكُّر ما كان من بَلائه وطلَبه بثأر قومه ، وأتاه وَفدُ قريش، منهم : عبد المطّلب بن هاشم ، وأُمَيةُ بن عبد شمس، وعبد الله ابن جُدْعان، وأسَد بن عبد العزّى، ووَهْب بن عبد مَناف، وقُصَىّ بن عبد الدار، فدخل عليه آذِنُه وهو فى قَصرٍ يقال له غُمْدان ، والملك مُضمَّخ بالعبير ، وعليه بُردان أخضَران ، مُرتدٍ بأحدهما متّزِرٌ بالآخر، سيفُه بين يدَيه، وعن يمينه وشماله الملوك ، فأخبر بمكانهم فأذن لهم، فدخلوا عليه ، فدنا منه عبد المطّلب فاستأذنه فى الكلام ، فقال : إن كنتَ ممن يتكلّم بين يدى الملوك فقد أذنّا لك ، فقال : إن الله عز وجل أحلّك أيها الملك محَلا رفيعا شامخا منيعا ، وأنبتَك نباتا طابت أُرومتُه ، وعظُمت جُرثومتُه ، وثبَت أصلُه، وبَسَق فرعُه ، فى أطيب موضع وأكرم مَعدِن ، وأنت — أبيتَ اللّعن — مَلِكُ العرب الذى عليه الاعتماد ، ومَعقِلها الذى تلجأ إليه العباد، سلفُك خير سلَف، وأنت لنا منهم خيرُ خلَف، فلن يَهلِك ذِكرُ من أنتَ خلفُه[1] ، ولن يخمُل ذكرُ من أنت سلفُه ، نحن أهل حَرَم الله وسَدَنة بيت الله ، أشخَصَنا إليك الذى أبهجَنا من كشفِك الكَرْب الذى فدَحَنا ، فنحن وَفد التّهنئة، لا وَفدُ المرزِئة .

قال له الملك : من أنت أيها المتكلّم[2] ؟ فقال : أنا عبدُ المطّلب بن هاشم ، قال : ابنُ أخينا ؟ قال : نعَم، قال : أدنُهْ ، ثم أقبَل عليه وعلى القوم فقال :

(١) فى دلائل النبوة للبيهقى (ق ٩٥ ر) : « ولن يخمل من » .
(٢) فى دلائل النبوة للبيهقى : « أيها الملك ومن » .

مرحبًا وأهلًا [وأرسلها مثلا] [1] ، وكان أول من تكلم بها ، وناقةً ورحلا ، ومُسْتَناخًا سهلا ، ومَلِكا رِبحلا [2] ، يُعطى عطاءً جزلا ، قد سمع الملكُ مقالتكم ، وعَرَف قرابتكم ، وقبِل وَسِيلتكم ، فإنكم أهلُ الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحِباء إذا ظعنتم ، ثم أنهضوا إلى دار الضِّيافة والوفود ، وأُجريت عليهم الأنزال [3] ، فأقاموا بذلك شهرا لا يصلون إليه ، ولا يُؤذَن لهم فى الانصراف ، ثم انتبه لهم انتباهةً فأرسل إلى عبد المطّلب فأدناه ثم قال له : يا عبدَالمطّلب ، إنى مُفْضٍ إليكَ من سِرّ عِلمى أمرًا لو غيرُك يكون لم أبُح به ، ولكنّى رأيتُك مَعدِنَه ، فأطلعتك عليه [4] ، فليكن عندك مُخبًّا [5] حتى يأذنَ الله عز وجل فيه ؛ إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون الذى ادّخرناه لأنفسنا ، واحتجنّاه [6] دون غيرنا ، خبرًا عظيمًا وخطرًا جسيمًا ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة للناس عامة ، ولرهطك كافة [7] ، ولك خاصّة ، فقال له عبد المطلب : مثلك أيها الملك سَرّ وبَرّ ، فما هذا فَداكَ [8] أهلِ الو بَرِ زُمَرًا بعد زُمر؟ قال : إذا وُلد بتهامة ، غلام بين كتفيه شامة [9] ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزّعامة ، إلى يوم القيامة . قال عبد المطلب : أيُّها الملك ، لقد أُبتُ بخبر ما آب بمثله وافد قوم ، ولولا هيبةُ الملك وإجلالُه وإعظامُه ؛ لسألته من بشارته [10] إياى ما أزداد به سرورا . قال له الملك : هذا حينه الذى يولَد فيه أو قد وُلد ، اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفُله جدّه وعمه ، قد ولدناه مرارا ، والله باعثه جِهارا ، وجاعلٌ له منا

(١) عن دلائل النبوّة للبيهق .
(٢) الرِبحل بكسر الراء وفتح الباء : الكثير العطاء .
(٣) الأنزال جمع نزل ، وهو قرى الضيف وإكرامه .
(٤) فى دلائل النبوّة للبيهق : « أطلعتك طلعه » .
(٥) فى دلائل النبوّة للبيهق : « مخبيا » .
(٦) فى الأصل : « واحتجبناه » والمثبت عن البداية ١ : ٣٢٩ .
(٧) فى الأصل : « وأن يطل » تصحيف .
(٨) فى دلائل النبوة للبيهق : « فما هو » .
(٩) فى البداية ١ : ٣٢٩ : « غلام به علامة ، بين كتفيه » .
(١٠) فى الأصل : « من سارّه »

أنصارا يُعزُّ بهم أولياءَه، ويُذل بهم أعداءَه، ويَضرب بهم الناس عن عَرض، ويستفتح بهم كرائم الأرض[١]، يَعبُد الرحمن، ويَدْحَض أو يدحر الشيطان، وتخمد النيران وتكسر الأوثان، قولُه فَصْل، وحكمُه عَدْل، يأمر بالمعروف ويفعلُه، وينهى عن المُنْكر ويُبطله. قال له عبد المطلب: عز جدّك، ودام مُلْكك، وعَلا كعبُك، فهل الملك سارّني بإفصاح؟ فقد أوضح لى بعض الإيضاح، قال له سيف [ابن ذى يَزَن][٢]: والبيت ذى الحُجُب، والعلامات على النُّصُب[٣]، إنك لجدّه يا عبدَ المطلب غير كذب، قال: فخرّ عبدُ المطّلب ساجدا، فقال له سيف ارفع رأسك، ثَلِجَ صدرُك، وعَلا كعبُك[٤]، فهل أحسستَ بشيء مما ذكرتُ؟ قال: نعم أيها الملك، إنه كان لى ابن وكنت به مُعجبا، وعليه رفيقا، وإنى زوّجته كريمةً من كرائم قومى[٥] آمنةَ بنتَ وَهْب بن عبد مَناف، فجاءت بغلام وسميتُه محمدا، مات أبوه وأمه، وكفلتُه أنا وعمُّه. قال له ابن ذى يَزَن: إن الذى قلتُ لك كما قلتُ، فاحتفظ بابنك[٦] واحذر عليه اليهود، فإنهم أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا، واطْوِ ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإنى لست آمَن أن تُداخلهم النَّفاسَة، من أن تكون لكم الرياسَة، فيصبون له الحبائل، ويبغون له الغوائل[٧]، وهم فاعلون ذلك أو أبناؤهم من غير شك[٨]، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبلَ مَبعثه، لسِرت

(١) فى البداية ٢: ٣٢٩: «ويستبيح بهم».

(٢) عن دلائل النبوة للبيهقى، وفى البداية ١: ٣٣٠: «فقال ابن ذى يزن».

(٣) فى البداية، ودلائل النبوة للبيهقى: «على النقب».

(٤) فى البداية ١: ٣٣٠: «وعلا أمرك».

(٥) البداية: «كرائم قومه». (٦) فى الأصل: «فاحتفظ من ابنك».

(٧) فى الأصل: «وينعون له»؛ تصحيف.

(٨) فى الأصل: «وأبناؤهم عن شك».

بخيـل ورَجْلى حتى أجيء يثربَ دارَ مُلكه [1] ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق، والعـلم السابق، أن بيثربَ استحكامَ أمرِه، وأهلَ نُصرته، وموضعَ قبرِه، ولولا أنى أقيه الآفات، وأحذَر عليه العاهات، لأعليتُ على — حداثة سِنّه — أمرَه، ولأوطأتُ على أسنان العرب كَعبَه [2] ، ولكن سأصرفُ ذلك إليك من غير تقصيرٍ بمن معك، ثم دعا بالقوم ، وأمر لكل رجل منهم بعشرة أعْبُدٍ سود، وعشر إماء سود، وحلّتين من حلل البرود، وخمسة أرطال ذهب، وعشرة ارطالٍ فضة، ومائةٍ من الإبل، وكرِش مملوء عنبرا، ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال [له [3]] : إذا حال الحول فائتنى بخبره ، قال : فمات سيف بن ذى يَزَن قبل أن يَحولَ عليه الحَوْل، وكان عبدُ المطلب كثيرًا ما يقول : يا معشر قريش، لا يَغبِطنى رجلٌ منكم بجزيل عطاء المَلِك، وإن كثُر، فإنه إلى نَفاد ، ولكن يَغبطنى بما يَبقى لى ولعقبى ذِكرُه ونخره، فإذا قيل وما هو ؟ قال : سيُعلَم ما أقول ولو بعدَ حين .

قال البيهقى [4] وقد رُوى هذا الحديث أيضا عن الكلبىّ أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما .

ومن ذلك رؤيا رقيقة بنت أبى صيفىّ وقصة استسقاء عبد المطلب بن هاشم وكان من خبرها ما رواه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى [4] رحمه الله بسند عن مَخْرَمة بن نَوْفل عن أمه رقيقة بنت أبى صَيفىّ بن هاشم، وكانت لِدَةَ عبد المطلب، قالت : تتابعت على قريش سنون أقحلت الضرع [5] ، وأرقّت العظم [6] ، قالت :

(١) فى دلائل النبوّة للبيهقى : «حتى أصير يثرب دار ملكى » . وفى الأصل : « حتى أحيى ثرب » .
(٢) فى البداية ١ : ٣٣٠ : « ولأوطأت أسنان العرب عقبه » .
(٣) عن البداية ١ : ٣٣٠ . (٤) فى دلائل النبوّة (ورقة ٩٧ و) .
(٥) فى دلائل النبوّة : « أقحلت الجلد » . (٦) فى الأصل : « العظم فينا » .

فبينا أنا نائمة اللّهم أو مُهَوِّمة إذا هاتفٌ يصرخ بصوت صَحِلٍ صَيِّت يقول : معشر قريش، إن هذا النبي المبعوث منكم قد أظلّكم أيامه، وهذا إبان نجومه، وفى رواية عنها : مبعوث منكم، وهذا إبان مَخرجه بِخُيِّلا بالخير والخصْب، وفى رواية بالحيا والخصْب ، ألا فانظروا رجلا منكم وَسِيطا عُظَّاما جُسَّاما أبيض بَضًّا ، أوطف الأهداب ، سهل الخَدّين ، أشم العرنين ، له فخر يكظم عليه ، وسنة تهدى إليه ، ألا فليخلُص هو وولدُه وليَهبِط إليه من[1] كل بطن رجلٌ فليشُنّوا[2] من الماء ، وليمَسّوا من الطيب ، ثم ليستلموا الركن . وفى رواية وليَطّوفوا بالبيت سبعا ، ثم ليرتقوا أبا قُبَيس فليَستَسْق الرجل، وليؤمِّن القوم [ألا وفيهم الطاهر والطيب لذاته ، ألا بُعثتم شئتم وعشتم][3]، قالت : فأصبحتُ — علِم الله — مذعورةً قد اقشَعرَّ جلدى، ووَلِه عَقلى، واقتصصْتُ رؤياى، فوالحُرْمَة والحَرَم ما بقى أبطحىٌّ إلا قال : هذا شَيْبة الحمد، هذا شيبة، وتتامّت[4] إليه رجالات قُريش، وهَبَط إليه من كل بَطْن رجل، فشَنّوا وطَيّبوا[5] ، واستلموا وطافوا ، ثم ارتَقَوا أبا قُبَيس ، وطفِقوا جَنابَيْه ما يَبلغ سَعيُهم مَهْلَة، حتى إذا استوَى بذِرْوة الجبل، قام عبد المطلب ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام قد أيفَعَ أو كَرِب ، فقال عبد المطلب : اللهم سادَّ الخلَّة ، وكاشف الكُرْبة ، أنت مُعْلِم ، وفى رواية عالم غير مُعَلَّم ومسئول غير مُبَخَّل ، وهذه عِبِدّاؤك[6] وإماؤك عذرات حرمك يشكُون إليك سَنَتَهم[7] أذهبت الخفَّ والظلف، اللهم فأمطرن غيثا مُغدقا مَريعا[8]، فوالكعبة ماراموا حتى تفجّرت السماء بمائها، واكتظ

---

(١) فى دلائل النبوة : «وليدلف إليه» . (٢) الشن : الصب المتقطع . وفى رواية للبيهقى أيضا : «فليشربوا من الماء» . (٣) عن دلائل النبوة للبيهقى ورقة ٩٦ ظ . (٤) فى الأصل : «الحمد وتناقت» . (٥) فى الأصل : «فشنوا ومشوا» . (٦) فى الأصل : «بعد حرمك» ، والمثبت عن البيهقى . (٧) فى دلائل النبوة للبيهقى : «سنتهم التى قد أقحلت» (٨) كذا فى الأصل ، وفى حاشية دلائل النبوة للبيهقى ورقة ٩٦ ظ : «وكثلا» .

الوادى بثجيجه ، فسمعتُ شيخانَ[(١)] قريش وجِلّتها : عبـدَ الله بن جُدْعان ، وحَرْبَ ابن أميـة ، وهشامَ بن المغيرة ، يقولون لعبد المطلب : هنيئا لك أبا البطحاء أى عاش بك أهل البطحاء ، وفى ذلك تقول رُقَيقة :

بشيبةِ الحمـدِ أسقى الله بلدتنـا * لما فقـدنا[(٢)] الحيـا واجلَّوذ المطرُ

فجـادَ بالمـاء جَونىٌّ له سَـيَل * دانٍ فعاشت به الأنعام[(٣)] والشجر

منًّا من[(٤)] الله بالميمون طائرُه * وخيرِ من بُشِّرت يوما به مُضَرُ

مباركِ الأمرِ يُستسقى الغمامُ به * ما فى الأنام له عِدْلٌ ولا خَطَـر

وأما مَن بشّر به صلى الله عليه وسلم قبيل مَبعثه ، فمن ذلك خبر اليهودىّ الذى هو من بنى عبد الأشهَل . وكان مِن خَبَره ما رواه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى بسنده عن سَلَمة بن سلامة بن وقش ، قال : كان بين أبياتنا يهودىّ ، فخرج على نادِى قومه بنى عبد الأشهَل ذاتَ غداة ، فذكَرَ البعثَ والقيامة والجنةَ والنارَ والحسابَ والميزان ، فقال ذلك لأصحاب وثَنٍ لا يُرون أنّ بعثًا كائن بعـدَ الموت ، وذلك قبلَ مَبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ويحك يا فلان ، وهذا كائن ؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنة ونار ، يُجزَوْن من أعمالهم ؟ قال : نعم ، والذى يحلف به ، لوددتُ أن حَظّى من تلك النار أن تُوقِدوا أعظمَ تَنُّورٍ فى داركم فتَحْمونه ، ثم تَقذِفونى فيه ، ثم تُطبِقوا علىّ ، وأنّى أنجو من النار غدا فقيل له يا فلان ، فما علامة ذلك ؟ قال : نبى يُبعَث من ناحية هـذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة

(١) فى الأصل : « شيخان من » ، والمثبت عن البيهقى (ورقة ٩٦ ظ) .

(٢) رواية البيهقى (ق ٩٧ و) : « وقد فقدنا » .

(٣) رواية البيهقى : « به الأمصار » .

(٤) رواية البيهقى : « سيل من » .

واليمن . قالوا : فتى تُراه ؟ فرمى بطرفه، فرآنى وأنا مضطجع بفناء باب أهلى، وأنا أحدث القوم [فقال] : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركْه فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لحىّ بين أظهرهم فآمنّا به وصدّقناه، وكفَرَ به بغيا وحسَدا، فقلنا له : يا فلان ، ألستَ الذى قلتَ ما قلت وأخبرتنا ؟ فقال : بلى . ولكن لا أومن به .

ومنه خبر إسلام أَسِيد(١) وثَعْلَبة ابنَى سَعْيَة و راشد بن عُبَيد .

روى البيهقى(٢) رحمه الله عن عاصم بن عُمر بن قَتادة، عن شيخ من بنى قُرَيظَة ، قال : هل تدرون عمّ كان إسلام أَسِيد وثَعْلَبة ابنى سَعْيَة، وأَسَد(٣) بن عُبيد ، نَفَرٍ من بنى هَدَل(٤) لم يكونوا من بنى قُرَيظة، ولا النَّضِير(٥)، كانوا فوق ذلك ؟ فقلت : لا . قال : فإنه قدم علينا رجل من الشام من يَهودَ يقال ابن الهَيَّبَان، وكنيته أبو عُمير، كذا ذكره الواقدى ، فأقام عندنا ، والله ما رأينا رجلا قطّ لا يُصلّى الخمسَ خيرا منه ، فقدِم علينا قبل مَبعَث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين، فكُنّا إذا أَقْحَطْنا وقلّ علينا المطر نقول : يابن الهَيَّبَان ، اخرج فاستَسْقِ لنا ، فيقول : لا والله، حتى تُقدِّموا أمامَ مَخْرجكم صَدَقة ؛ فنقول : كم ؟ فيقول : صاعٌ من تمرٍ(٦) أو مُدَّين من شَعير

---

(١) أسيد بفتح الهمزة وكسر السين المهملة كما فى الروض الأنف .

(٢) روى حديث إسلامهما ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٢٦ بالسند نفسه ، وابن كثير فى البداية ٢ : ٣٠٩ وانظر خير البشر ص ٣٥ ومابعدها .

(٣) فى الأصل : « وراشد بن عبيد » تصحيف . والتصويب عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٦ .

(٤) هدل بفتح الهاء والدال أيضا ، وقيل بسكون الدال . انظر السيرة الحلبية ١ : ١٨٥ .

(٥) فى تاريخ الطبرى : « وهم نفر من بنى هدل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير، نسبهم فوق ذلك، هم بنو عم القوم » . وفى سيرة ابن هشام ١ : ٢٢٧ « هدل إخوة بنى قريظة ، كانوا معهم فى جاهليتهم ثم كانوا ساداتهم فى الإسلام » .

(٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٢٧ ، والسيرة الحلبية ١ : ١٨٥ : « صاعا من تمر » .

فنُخرجه، ثم يَخرُج[(1)] إلى ظَاهر حَرَّتنا ونحن معه، فيستَسْقِي، فوالله مايقوم من مجلسه حتى يمرّ السَّحاب[(2)]؛ قد فعَل ذلك غيرَ مَرَّة ولا مَرَّتين، ولا ثلاثة؛ لحضَرَته الوفاة، واجتمعنا إليه، فقال: يامعشَر يهود، ماتُرَونه أخرجني من أرض الخَمْر[(3)] والخَمِير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إنه إنما أخرجني [أني][(4)] أتوقَّع خروجَ نبيّ قد أظَلَّ زمانُه، هذه البلاد مُهاجَرُه، [وكنت أرجو أن يبعث][(4)] فأتّبعه، [وقد أظلكم زمانه][(4)] فلا تُسبَقُنّ إليه إذا خرجَ يا معشَر يهود، فإنه يُبعَث بسفك الدّماء، وسَبْي الذَّرارى والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه. ثم مات؛ فلما كانت الليلة التى فُتحت فيها قُرَيظة قال أولئك الثلاثة الفتية، وكانوا شبابا أحداثا: يامعشر يهود: والله إنه لَلنّبيُّ الذى ذَكر لكم ابن الهَيّبان، فقالوا: ما هو به، قالوا: بلى والله! إنها لصِفته[(5)]، ثم نزلوا فأسلَموا، وخلَّوا أموالَهم وأولادَهم وأهاليهم؛ فلما فتَح رسول الله الحِصن ردَّ ذلك عليهم.

ومنه ماروى أن عبدَ الله بن مسعود كان يُحدّث[(6)] عن أبى بكر الصّدّيق رضى الله عنهما، قال[(7)]: خرجتُ إلى اليمن فى تجارة قبل أن يُبعث النبى صلى الله عليه وسلم، فنزلتُ على شيخ من الأزد عالم، قد قرأ الكُتُب وحوَى علماً كثيرا، وأتى عليه من

(1) فى سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية: «فنخرجها ثم يخرج بنا ... فيستسق»

(2) فى سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية: «حتى يمر السحاب، ونسق».

(3) فى السيرة الحلبية ١: ١٨٥: «من أهل الخمر»، بالتحريك، و بإسكان الميم، وهو الشجر الملتف.

(4) عن سيرة ابن هشام ١: ٢٢٧.

(5) فى سيرة ابن هشام ١: ٢٢٨: «والله إنه لهو بصفته».

(6) انظر خير البشر لابن ظفر ص ٥٨ — ٥٩، والسيرة الحلبية ١: ٢٧٤.

(7) رواية ابن ظفر ص ٥٨. «عنه أنه قال».

السن ثلاثمائة وتسعون سنة[1]، فلما تأملني قال: أحسَبك تيميا[2] فقلت: نعم، أنا من تيم ابن مُرَّة، أنا عبدُ الله بن عُثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سَعد[3] بن تَيم بن مُرَّة، قال: بَقيت[4] لى فيك واحدة، قلت: ماهي؟ قال: اكشف لى عن بَطنك، قلت: لا أفعل أو تُخبرَني لم ذلك، فقال: إنى لأجد فى العِلم الصَّحيح الصادق أن نَبيًّا يُبعَث بالحَرَم يُعاوِنه على أمره فَتًى وكَهْل، فأما الفتى فخَوّاض غَمَرات، وكَشّاف مُعضِلات، وأما الكَهْل فأبيض نحيف، على بطنه شامة، وعلى فَخِذِه اليُسرى علامة، ولا عليك[5] أن تُرِيَني ماخفى علىّ؛ قال أبو بكر رضى الله عنه: فكشفتُ له عن بَطنى، فرأى شامةً سوداء فوق سُرَّتى، فقال: هو أنت[6] وربِّ الكَعْبة، وإنى مُتقدِّم إليك فى أمرٍ فاحذره، قلت: وماهو؟ قال إياك والميلَ عن الهُدَى وتمسَّك بالطريقة المُثْلى، وخَف الله عزَّ وجلّ فيما أعطاك وخوَّلك.

قال أبو بكر رضى الله عنه: فقضَيتُ باليمن أَرَبى، ثم أتيتُ الشيخَ لأودِّعَه[7]، فقال: أحامِلٌ أنت مِنّى أبياتًا إلى ذلك النَّبىّ[8]؟ قلت: نعم، فأنشأ يقول:

---

(١) ابن ظفر: «من السن ثلاثة وتسعون».

(٢) فى خير البشر لابن ظفر: «أحسبك حرميا، فقال أبو بكر: فقلت»، وفى السيرة الحلبية ١: ٢٧٥: «أحسبك حرميا، أحسبك قرشيا، أحسبك تيميا». وانظر الزرقانى ١: ٢٤٠.

(٣) فى خير البشر: «بن سعيد».

(٤) فى الأصل: «لقيت»، تصحيف. والتصويب عن خير البشر، والسيرة الحلبية ١: ٢٧٥.

(٥) فى خير البشر: «فلا عليك».

(٦) فى خير البشر والسيرة الحلبية ١: ٢٧٥ وشرح المواهب ١: ٢٤٠: «أنت هو».

(٧) كذا فى السيرة الحلبية ١: ٢٧٥، ورواية ابن ظفر فى خير البشر: «الشيخ أودعه».

(٨) فى خير البشر، وشرح المواهب ١: ٢٤٠: «أحامل أنت منى أبياتا إلى ذلك النبى، فقلت»، وفى السيرة الحلبية: «أحافظ عنى أبياتا فى الشعر قلتها فى ذلك النبى، قلت نعم».

ألم تَرَ أنّى قــد سئمت مَعــاشِرى * ونفسى وقد أصبحتُ فى الحَىِّ راهنا [1]
حَيِيتُ وفى الأيام للمــرء عِـبرةٌ * ثلاث مئين ثم تسعين آمِنــا [2]
وصاحبتُ أحبــارًا [3] أناروا بعلمهم * غياهِبَ جَهلٍ ما ترى فيه طابِنــا [4]
وكم راهب فــوق عنشبيل [5] قائمٍ * لقيت وما غادرتُ فى البحث كاهِنا
وكلّهــم لمــا تعطَّشتُ قال لى * بأن نَبِيًّا ســوف تلقاه دائنــا [6]
بمكةَ والأوثانُ فيها عزيزةٌ * فيركَسها حتى تراها دواهنــا [7]
فمــا زلتُ أدعو الله فى كل حاضرٍ * حَلَلتُ به سِرًّا وجهــرًا معالنــا
وقــد خمــدَت منّى شرارة قُــوّتى * وأُلفيتُ شيخًا لا أُطيق الشَّواجنا [8]
وأنتَ وربِّ البيتِ تلــقَى محمــدًا * بعــامِك هــذا قد أقام البَرَاهنــا
فحَىِّ رســولَ الله عنّى فإننى * على دينه أَحيا وإن كنتُ واهنا [9]
فيــاليتَنى أدركــتُه فى شبيبتى * فكنتُ له عبــدًا وإلا العُجَاهنــا [10]
عليــه ســلام الله ما ذَرَّ شــارقٌ * تألّق هنّافا من النــور هافنــا [11]

(١) فى خير البشر ص ٦٢ : « الراهن : المقيم الثابت » . (٢) رواية ابن ظفر « ثلاث سنين ثم تسعين » . (٣) فى مخطوط خير البشر ١٤ ظ : « وصافيت » .
(٤) الطابن : العارف بالشيء . (٥) كذا فى الأصــل .
(٦) فى مخطوطة خير البشر : « كائنا » .
(٧) فى الأصل « ... والأوثان منها ... كواهنا » .
(٨) الشواجن : الطرق المتداخلة المتخالفة ؛ أى لا أطيق السير فى هذه الأرض ، عن ابن ظفر .
(٩) الواهن : الضعيف . (١٠) العجاهن : الخادم .
(١١) كذا . وفى خير البشر ص ٦٢ : «وقوله : هافنا هو الضعيف» . ولم أجد فى معاجم اللغة ما يؤيده ، ولعلها : « آفنا » .

قال أبو بكر رضى الله عنه : فحفظتُ وصيتَه وشعرَه وقدمتُ مكة، فجاءنى شَيْبَةُ بن ربيعة، وأبو جَهل بن هشام، وأبو البَختَرِىّ، وعُقبَةُ بن أبى مُعَيط، ورِجالَاتُ قريش مسلِّمين علىّ، فقلت : هل حدَثَ أمر؟ فقالوا(١) : حدَث أمر عظيم؛ هذا محمد بن عبد الله يَزعُم أنه نَبِىّ أرسله الله إلى النّاس، ولولا أنتَ ما انتظرنا به، فإذ جئتَ فأنتَ البغيــة والنُّهيةُ(٢)، قال : فأظهرتُ لهم تعجُّبًا وصرفتُهم على أحسن شىء(٣)، وذهبتُ أسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لى : هو فى مَنزِل خَديجة، فقرَعتُ الباب عليه فخرج إلىّ فقلتُ : يا محمّد، فقدت من نادى قومك فاتهموك بالغيبة وتركت دين آبائك، فقال يا أبابكر، إنى رسول الله إليك و إلى الناس كلهم [فآمِن بالله](٤)، فقلتُ وما آيتُك؟ قال: الشيخ الذى لقيتَه باليمن، قلت: وكم من شيخ قد لقيت، وبعت منه واشتريت، وأخذت وأعطيت! قال: الشيخ الذى أخبرك عنى، وأفادك الأبيات، قلت : من أخبرك بهـذا يا حبيبى؟ قال : المَلَك العظيم الذى كان يأتى الأنبياءَ قبلى، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال أبو بكر رضى الله عنــه : فانصرفت وما أحد أشـدّ سرورا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامى .

وأما من ذكر صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مَبعَثِه ورؤيته له، وذكَرَ قومه بها، وحقّق عنـدهم أنه هو، لِـمَا كان يجد عنـده من العلم بصفته صلى الله عليه وسلم .

(١) فى خير البشر : « قالوا حدث » .

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٧٥ : « فأنت الغاية والكفاية » .

(٣) [illegible] : « فصرفتهم فى حس مس » ، والمثبت عن السيرة الحلبية ١ : ٢٧٥ ، وانظر [illegible] ٣٤٠ .

(٤) [illegible] ١ : ٢٧٥ ، وخير البشر (ورقة ١٥ ظ) وشرح المواهب ١ : ٢٤٠ .

فمن ذلك ما رُوِى (١) أن صفية بنت حُيَىّ بن أخطب قالت : كنت أحبَّ الناس إلى أبى ، وكان عمى أشدَّ حُبًّا لى ، فأتيا النبىّ صلى الله عليه وسلم بقُبَاء ، ثم رجَعا من عنده ثقيلَيْن لا يلتفتان نحوى ، ولا يَنظران إلىّ ، فسمعتُ عَمّى يقول لأبى : هل تعرِفُه ؟ قال : نعم . قال فماذا عندك فيه ؟ قال : عَداوتُه إلى آخر الدّهر ، قال عمى لأبى : أُنشِدُك اللهَ أن تطيعنى يا أخى فى هذا ، ثم اعصِنى فيما سواه ، هلُمّ نتبعه ، فقال أبى : لا ؛ والله لا أراك له عدوًا ، فقال عمى : إنك تُهلكنا ، وتُهلك نفسك ، إن هذا نبىّ السَّيف ، وجعل عَمّى يكلّمه وهو يأبى إلا كلامَه الأوّل ، قالت صفية : فلما كان الليل ، وجدت نِسوةً من بنى النّضير جالسات يقلن : والله ما أحسن حُيَىّ ابن أخطب بخلاف أخيه ، إنا لنعلم أن هذا نبىّ مذكور فى الكتب ، وقالت عَجوز منهنّ : سمعتُ أبى يقول لإخوتى : إن نَبيا من العرب يقال له أحمد ، مولده بمكة ، ودار هجرته يثرب ، وهو خير الأنبياء ، فإن خرج وأنتم أحياء ، فاتّبِعوه ؛ قالت صَفية : وإذا هن كلهنّ يُزرين على أبى ، ويتعتّبن عليه فعلَه .

ومنه ما قاله كعب بن عمرو لبنى قُرَيظة عند حِصارهم . وسنذكر ذلك إن شاء الله فى الغزوات ، وقد تقدّم خبر بَحيرا ، ونَسْطُور ، فلا فائدة فى إعادته هنا .

وأما من أظهر صُحُفا كانت عنده فيها صريح ذكره صلى الله عليه وسلم ، فمن ذلك ما رُوِى أن رجلا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم بورَقة ورِثها عن أبيه عن جدّه ، وذكر أن سلفَه كانوا يتوارثونها على وجه الدهر ، فإذا فيها : « اسمُ الله وقوله الحق ، وقول الظالمين فى تَبار ، هذا ذِكْرٌ لأمّة تأتى فى آخر الزّمان ، يأتزِرون على أوسَاطهم ، ويغسلون أطرافَهم ، ويخوضُون البَحر إلى أعدائهم ، فيهم صلاة

(١) روى ابن هشام هذا الخبر بمعناه مختصرا فى السيرة ٢ : ١٦٥ .

لو كانت فى قوم نُوح ما هلكوا فى الطوفان ؛ أو فى ثمود ما أهلكوا بالصَّيْحة » .
قال : فقُرِئت الورقةُ على الناس ، وأمَر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظها .

ومنه ما رُوِى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه نزل بالبَلِيح (١) إلى جانب دير ،
فأتاه قَيِّم الدير فقال يا أمير المؤمنين : إنى وَرِثت عن آبائى كتاباً قديماً كتَبه أصحابُ
المسيح عليه السلام ؛ فإن شئتَ قرأتُه عليك ؛ قال : نَعَم ، هات كتابك ؛ فجاء بكتاب
فإذا فيه : الحمد لله الذى قضَى ما قضى ، وسَطَّر ما سَطَّر ، إنّه باعث فى الأمّيين
رسولًا يعلّمهم الكتابَ والحكمةَ ، ويَدُلُّهم على سبيل الجنة ، لا فَظٌّ ولا غَليظ ،
ولا صَخّاب فى الأسواق ، ولا يَجْزِى بالسيئة السّيئة ، ولكن يعفو ويصفَح ، أمتُه
الحمّادون لله فى كل هُبوط ونَشْزٍ وصُعود ، تذلل ألسنتهم بالتكبير والتهليل ، يُنصَر
دينهم على كل من ناوأه .

ومنه ما روى أن أبا ذُؤيب الزّاهد قال : دخلت فى سياحتى ديرا فقلت
للراهب القَيّم عليه : أعندك فائدة ؟ قال : نعم . لك يا عربىّ ، قلت : هاتها !
قال : فأخرج لى ورقةً فيها أربعةُ أسطر ، فذكر أنها من الكتب المنْزَلة ؛
ففى السطر الأول منها : يقول الجبّار تبارك وتعالى : أنا الله لا إله إلا أنا وَحْدى
لا شريك لى ؛ والسطر الثانى : محمد المختار عبدى ورسولى ؛ والسطر الثالث :
أمته الحَمّادون ، أمته الحَمّادون ، أُمّتُه الحَمّادون ، والسطر الرابع : رعاة الشمس ،
رعاة الشمس ، رعاة الشمس .

وأما من أظهر تمثال صُورته صلى الله عليه وسلم وصُوَر بعض أصحابه رضى الله
عنهم ، وذلك مصوّر عندهم فى بيوت فى بِيَعهم .

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٨٢ .

فمن ذلك ما روى عن دِحية بن خليفة الكلبيّ رسول رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلى قيصر أنه قال : لقيت قيصرَ بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بدمَشق ، فأُدخلت عليه خاليا ، فناولتُه الكتاب فقبّل خاتمَهَ وفَضّه وقرأه ، ثم وضَعه على وسادةٍ أمامَه ، ثم دعا بَطارقته وزُعماء دينِه فقام فيهم على وَسائد بُنيت له ، ثم خَطَبهم فقال : هذا كتاب النبيّ الذى بشّر به عيسى المسيح ، وأخبر أنه من وَلد إسماعيل ، قال : فنخَروا نَخْرة عظيمة ، وحاصُوا فأومَى إليهم بيده أن اسكتُوا ، ثم قال : إنما جرَّبتُكم لأرى غضبَكم لدينكم ، ونصركم له ، وصرفهم[1] ، ثم استدعانى من الغَد فأخلانى ، وأنّسنى بحديثه ، وأدخلنى بيتا عظيما فيه ثلاثمائة وثلاثةَ عشَر صورة ، فإذا هى صور الأنبياء المرسلين صلى الله عليهم[2] وسلم فقال : انظر مَن صاحبُك مِن هؤلاء ، فنظرتُ فإذا صورة النبيّ صلى الله عليه وسلم كأنما ينطق ، فقلت : هو هذا ، فقال : صدقت ، ثم أرانى صورة عن يمينه فقال : من هذا ؟ قلت : هذه صورة رجل من قومه آسمه أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فاشار إلى صورة أخرى عن يساره ، فقلت : هذه صورة رجل من قومه يقال له عمر رضى الله عنه ، فقال : إنا نجد فى الكتاب أن بصاحبيه هذين يُتِمّ الله أمرَه . قال دِحْية : فلما قدمتُ على النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبرتُه ، قال : صدق ، بأبى بكر وعمر يُتمّ الله هذا الأمرَ بعدى . والله الموفق .

ومنه ما رُوى عن حَكيم[3] بن حِزام قال : دخلتُ الشام للتجارة[4] قبل أن أسلم ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فأرسل قيصرُ إلينا[5] ، فجئناه ومعنا أميةُ بن

(١) فى الأصل : «وصرفه» . (٢) فى الأصل : «صلى الله عليه» . (٣) حديث حكيم هذا مروى فى السيرة الحلبية ١ : ١٨٦ . (٤) فى السيرة الحلبية ١ : ١٨٦ : «الشام لتجارة» . (٥) فى السيرة الحلبية ١ : ١٨٦ : « فأرسل إلينا ملك الروم » .

أبى الصَّلت الثّقفىّ ، فقال : من أى العرب أنتم ؟ وما قرابتكُم من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال حكيم : فقلت أنا ابن عمه ، يجمعنى وإياه الأب الخامس ، فقال : هل أنتم صادقِىّ فيما أُرِيكُمُوه وأسألكم عنه ؟ قلنا : نعم ، نَصدُقك أيها المَلك ، فقال : أنتم ممن اتَّبعه أو ممن ردّ عليه؟ قلنا : ممن ردّ عليه ما جاء به وعاداه ، ولكنا نَصْدُقك مع هذا ، قال : آحلفوا لى بآلهتكم لتَصدُقُنّنى فى جميع ما أسألكم عنه وأَعرِضه عليكم ، فحلفنا له وأعطيناه من المواثيق ما أرضاه ، فسألَنا عن أشياء مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه بها ، ثم نهض واستنهَضنا معه ، فأتى كنيسة فى قصره ، فأمر بفتحها ودخل ونحن معه ، وجاء إلى ستر وأمر بكشفه فإذا صورة رجل ، قال : أتعرفون مَن هذه صورتُه ؟ قلنا : لا . قال : هذه صورة آدم ، ثم تتبّع أبواباً يفتحُها ويكشف عن صور الأنبياء واحدا بعد واحد ، ويقول : هذا صاحبكم ؟ (١) فنقول : لا . حتى فتح باباً وكشف لنا سترا عن صورة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، هذه صورة صاحبنا ، فقال : أتدرون منذكم صُوِّرت ؟ قلنا : لا . قال : منذ أكثر من ألف سنة ، فإن صاحبكم (٢) نبىٌّ مرسل فاتّبِعوه ، ولوددت أنى عنده فأشرب ما يغسل من قدمَيه (٣) .

وقد ورد فى الصحيحين (٤) خبرُ قيصر مع أبى سُفيان لمّا سأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ١٨٦ : « أما هذا صاحبكم » .

(٢) فى السيرة الحلبية : « وإن صاحبكم لنبى » .

(٣) فى الأصل : « قدميه » .

(٤) صحيح البخارى ١ : ٨ ، ٤ : ٤٥ .

ومنه ما روى عن جُبَير بن مُطْعِم(١) أنه قال: لما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم: خرجتُ تاجرا إلى الشام، فأرسل إلىّ عظيمُ الأساقفة فأتيته فقال: هل تعرف هذا الرجل الذى ظهر بمكة، يزعم أنه نبىّ؟ قال: فقلت هو آبن عمى، فأخذ بيدى وأدخلنى بيتا فيه تماثيلُ وقال: انظر ترى صورته ههنا؟ فنظرتُ فلم أر شيئا فأخرجنى من ذلك البيت، وأدخلنى بيتا أكبرَ منه فيه مثلها، وقال: انظر هل تراه ههنا، فنظرت فإذا صورة النبىّ صلى الله عليه وسلم، وإذا صورة أبى بكر وهو آخِذٌ بعَقِب النبى صلى الله عليه وسلم، وإذا صورةُ عمر وهو آخِذٌ بعَقِب أبى بكر، فقال: هل رأيته؟ فقلت: نعم هوذا، قال: أتعرف الذى أخذ بعقبه؟ قلت: نعم، هو آبن أبى قُحَافَة، قال: وهل تعرف الذى هو آخِذٌ بعَقِبه؟ قلت نَعم، هذا عمر بن الخطاب آبن عمِّنا، فقال: أشهَد أنه رسول الله، وأن هذا هو الخليفة من بَعده، وأن هذا هو الخليفة من بعدِ هذا.

وهذا بابٌ متسع لو استقصيناه لطال، ولو سطرنا ما وقفنا عليه منه لانبسطت هذه السيرة، وخرجت عن حدّ الاختصار، وفيما أوردناه كفاية.

فلنذكر بشائر كُهَّان العرب والله أعلم.

وأما من بَشَّر به صلى الله عليه وسلم من كُهّان العرب فقد قدمنا فى الباب الثالث من القسم الثانى من الفن الثانى من كتابنا هذا أخبارَ الكهنة، وذكرنا طرَفا من إخبارهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، مما نَستثنيه فى هذا الموضع، ونَذكرُ ما عداه، ولا يُشترَط الاستيعاب لتعذُّره، ولا إثباتُ جميع ما وقفنا عليه أيضا من ذلك لأنه يُوجِب البَسط والإطالة، بل نذكرُ من ذلك ما نقف إن شاء الله تعالى عليه مما فيه الكفاية، و إن كانت نبوّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم أظهرَ

(١) نقله فى السيرة الحلبية مختصرا ١ : ١٨٦.

وأشهر وأقطع من أن يُحتاج فيهما إلى ذكر ما ذكرناه ، وما نذكره ، وإنما نُورد ما أوردناه ليقف عليه من لم يتتبع أحواله صلى الله عليه وسلم، ولا طالعَ سيرةَ، وليعلم أن امره صلى الله عليه وسلم لم يَفجأ الناس، بل جاءهم على بيّنـةٍ واستبصار، وآثار وأخبار، ومعجزات ظهرت ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى .

فمن بَشائر الكُهّان رؤيا رَبيعة بن نصر وتأويل سَطيح وشِقّ لهـا .

قال محمـد بن إسحاق بن يَسار المطّلبيّ[(١)] : كان ربيعـة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التَّابعـة ، فرأى رؤيا هالته [وفَظِع بها][(٢)] ، فلم يدَع كاهنا ولا ساحرا ولا [عائفـا ولا][(٢)] مُنجّما من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظِعتُ بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها ، قالوا له : اقصُصها علينا نخبرْك بتأويلها ، قال : إنى إن أخبرتُكم بهـا لم أطمئنّ إلى خبَركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرفُ تأويلها إلا من عرفَها قبلَ أن أُخبره بها ، فقال له رجل منهم : فإن كان المَلك يريد هـذا فليبعث إلى سَطيح وشِـقّ[(٣)] ، فإنه ليس أحدٌ أعلم منهما ، فإنهما يُخبرانه بمـا سأل عنه .

قال ابن هشام : واسم سَطِيح[(٤)] : رَبيع بن رَبيعة بن مسعود بن مازن بن ذِئْب ابن عَدىّ بن مَازن بن غَسّان[(٥)] . وشِقّ بن صَعب بن يَشكُر بن رُهم بن أفرَك بن قَيس ابن عَبْقَر بن أنمار بن نزار .

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٥ ، وانظر دلائل أبى نعيم ص ٨٦ . (٢) زيادة عن ابن هشام ١ : ١٥ ، وفظع بالأمر : اشتدّ عليه . (٣) يذكر عن وهب ابن منبه أنه قال لسطيح أنى لك هذا العلم ، فقال : لى صاحب من الجن استمع إلى أخبار السماء من طور سيناء حين كلم الله موسى . فهو يؤدّى إلىّ من ذلك ما يؤدّيه . انظر الروض الأنف ١ : ١٨ . (٤) فى المعمرين ص ٤ ـــ ٥ ذكر لسطيح ، ومولده ، وانظر الروض الأنف ١ : ١٩ ، والخشنى ١ : ٧ .

(٥) فى الأصل : « بن حسان » والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ١٦ .

قال ابن إسحاق :

فبعث إليهما ، فقدم عليه سَطِيح قبل شِق ، فقال له : إنى رأيتُ رؤيا هالتني وفظعت بها فأخبرني بها ، فإنك إن قضيتها أصبتَ[1] تأويلها ، قال : أفعل ؛ رأيتَ حُممة[2] ، خرجت من ظُلُمة ، فوقعت بأرض تهمة[3] ، فأكلت منها كلّ ذات جمجمة[4] ؛ فقال له الملك : ما أخطأتَ منها شيئًا يا سَطِيح ، فما عندك فى تأويلها ؟ قال : أحلف بما بين الحرّتين[5] من حَنَش ، لتهبطنّ أرضَكم الحبش ، فليملكُنّ ما بين أبين[6] إلى جُرَش[7] ، فقال الملك : وأبيك يا سَطِيح إن هذا لنا لَغائظ مُوجِع ، فمتى هو كائن ، أفى زمانى أم بعدَه ؟ قال : لا ، بل بعدَه بحين ، أكثر من ستّين أو سبعين ، يمضين من السنين ، قال : أفيدوم ذلك من مُلكهم أم ينقطع ؟ قال : لا ، بل ينقطع لبضع وسبعين[8] من السنين ، ثم يُقتلون ويُخرَجون منها هاربين ، قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليه إرم ذى يزن[9] ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحدا باليمن ، قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال : ومَن يقطعه ؟ قال : نبيّ زكيّ ، يأتيه الوحى من قِبَل العليّ ، قال : وممن هذا النبيّ ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فِهر بن مالك بن النّضر ، يكون المُلك فى قومه إلى آخر الدّهر ، قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم ، يوم يُجمع فيه الأوّلون

---

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦ : « فإنك إن أصبتها أصبت » . (٢) الحممة : قطعة من نار ، وفى الأصل : « جمجمة » تصحيف . (٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦ : « بأرض تهمة » . والتهمة : الأرض المنخفضة ، انظر السهيلى ١ : ١٩ . (٤) الجمجمة : الرأس . (٥) الحرة : أرض فيها حجارة سود . خشنى ١ : ٨ . (٦) أبين بفتح الهمزة وتكسر : بلد باليمن . انظر السهيلى ١ : ١٩ ، والخشنى ١ : ٨ . (٧) جرش بضم الجيم وفتح الراء : من مخاليف اليمن من جهة مكة ، وقيل مدينة باليمن . (٨) فى دلائل أبى نعيم ص ٨٧ : « لبضع وستين » . (٩) رواية أبى نعيم : « يليه ابن ذى يزن » .

والآخرون، يَسعَد فيه المُحسنون ، ويَشقَى فيه المسيئون، قال : أحقٌّ ما تُخبرني ؟ قال : نَعَم، والشَّفَق والغَسَق، والفلَق إذا اتَّسق؛ إن ما أنبأتك به لحَقّ .

ثم قدم عليه شِقّ فقال له كقوله لسَطيح ، وكتمه ما قال سَطيح ، لينظر أيتّفقان أمْ يختلفان ؟ فقال : نعم، رأيتَ حُمَمَة[1]، خرجت من ظُلُمة[2]، فوقعت بين روضةٍ وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نَسَمَة .

فلما قال ذلك عرف أنهما قد اتّفقا ، وأن قولهما واحدٌ، فقال له الملك : ما أخطأتَ ياشِقّ منها شيئا ، فما عندك فى تأويلها ؟ فقال : أحلفُ بما بين الحرَّتين من إنسان، ليَنزِلُنَّ أرضكم السودان، فليَغلبُنَّ على كلِّ طَفلَة[3] البَنان، وليَملكُنّ ما بين أَبيَنَ إلى نَجْران، فقال له الملك : وأبيك ياشِقّ، إن هذا لنا لغائظٌ موجع، فمتى هو كائن أفى زمانى أم بعدَه؟ قال: لا، بل بعدَه بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذُو شان ، ويذيقهم أشدَّ الهوان ، قال : ومن هذا العظيم الشان ؟ قال : غلام ليس بدَنِيّ[4] ولا مُدنٍ[5] يخرج عليهم من بيت ذى يَزَن، قال: أفيدوم سلطانُه أم ينقطع؟ قال : بل ينقطع برسول مُرسَل ، يأتى بالحق والعَدْل بين أهل الدين والفضْل ، يكون المُلْك فى قومه إلى يوم الفَصْل، قال : وما يومُ الفَصْل ؟ قال : يوم تُجزَى فيه الوُلاة، يدعَى فيه من السماء بدَعَوات، يُسمع فيها الأحياء والأموات ، ويُجمع فيها الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتّقى الفوزُ والخيرات ، قال : أحقٌّ ما تقول ؟ قال :إى وربِّ السماء والأرض، وما بينهما من رَفع وخَفض، إنّ ما أنبأتُك به لحق ما فيه أَمَض[6] ، قال : فوقع فى نفس رَبيعةَ بن نَصر ما قالا ، فجهّز بنيه وأهلَ بيته

(١) فى الأصل : « قال » .
(٢) فى دلائل أبى نعيم ص ٨٧ : « جمجمة » تصحيف .
(٣) الطفلة : الناعمة الرخصة .
(٤) الدنىّ : المقصر فى الأمور أو الذى يتبع خسيسها .
(٥) المدنى : الذى جمع الضعف مع الدناءة . وانظر الروض الأنف ١ : ١٩ .
(٦) الأمض : الشك أو الباطل . خشنى ١ : ٨ . وانظر ابن هشام ١ : ١٩

إلى العـراق بمـا يُصلحهم ، وكتب إلى مَلِك من ملوك فارس يقـال له سابور ، فأسكنهم في الحيرة ، فمن بقية ولد رَبيعة بن نَصر النُّعمانُ المنذر .

ومن ذلك ما رُوِى أن مَرْثَد بن عبـد كَلال قفَل من غَزاة غزاها بغنائمَ عظيمة ، فوفَد عليه زعماء العَرَب وشعراؤها وخطباؤها يُهنِّئونه ؛ فرفع الحجـابَ عن الوافدين ، فأوسَعَهم عطاءً ، واشتدّ سرورُه بتقريظ الخطباء والشعراء ، فبينا هو على ذلك أُرِيَ في المنام رؤيا أَخافته وذعَرَته وهالَتْه في حال مَنامه ، فلما انتبـه أُنسِيَها حـتى ما تذكَّر منها شيئا ، وثبَت ارتياعُه في نفسه لهـا ، فانقلب سرورُه حزنا ، فاحتَجب عن الوفود حتى أساءوا الظن به ، ثم حشَد الكُهّان ، فجعل يخلو بكاهن كاهن ثم يقول : أخبِرْني عما أريد أن أسألك ، فيجيبُه الكاهن بأن لا علمَ عندى ، حتى لم يدَع كاهنًا علمه ، فتضاعف قلقُه ، فقالت له أمُّه ، وكانت قد تكهّنت : أبيتَ اللعن ! إن الكواهن أهـدَى إلى ما تسألُ عنـه ، لأن أتباع الكواهن من الجن ألطَف من أتباع الكُهّان ، فأمَرَ بحشر الكواهن إليه ، وسألهن كما سأل الكُهّـان فلم يجد عند واحدة منهن علمَ ما أراد علمَه ، فلما يئس من طَلِبته سلا عنها ؛ ثم إنه بعد ذلك ذهَب يتصيّد فأوغَل في الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفِعت له أبياتٌ في ذُرَى جبل وقـد لفَحه الهجير ، فعدل إلى الأبيات ، وقصَد منها بيتا منها كان مُنفردًا عنهـا ، فبرزَت إليه منه عجـوزٌ فقالت : انزل بالرَّحب والسَّعة ، والأمن والدَّعة ، والجفنة المدعْدعة ، والعلبـة المترعة ، فنزل عن جواده ودخل البيت ، فلمـا احتجب عن الشمس وخفَقت عليـه الأرواح نام فـلم يستيقظ حتى تَصرَّم الهجير ، فجلس يمسح عينيـه فإذا بين يديه فتـاة لم ير مثلها جمـالا وقَواما ، فقالت له : أَبيتَ اللّعن أيها الملك الهُمام ! هل لك في الطعام ؟ فاشـتدّ إشفاقه ، وخاف على نفسه لمـا رأى أنهـا قد عرفَتـه ، وتصامم عن كلمتها . فقالت له :

لا حذَر ، فِـدَاك البشر ، بجـدّك الأكبر ، وحظّنا بك الأوفر ، ثم قربت إليـه ثريدا وقديدا وحَيْسًا ، وقامت تذب عنـه حتى انتهى أكله ثم سَقته لبنـا صريفا وضَريبا فشرب ما شاء ، وجعل يتأملها مقبلة ومدبرة فملأت عينيه حُسنا ، وقلبَه هَوًى، ثم قال لها : ما اسمك ياجارية ؟ قالت : اسمى عُفيراء، قال لها : من الذى دعوته الملِك الهمام ؟ قالت : مرثد العظِيم الشان ، الحاشرُ الكواهنِ والكُهّان ، لمعضلة يُعَلّ بها الجان، قال يا عُفيراء : أتعلمين ما تلك المعضلة؟ قالت : أجل أيها الملك الهُمام، إنها رؤيا مَنام، ليست بأضغاث أحلام، قال : أصبت يا عُفيراء، فما تلك الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصير زوابع ، بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دُخان ساطع ، يقفوها نهر مُتدافع ، وسمعتَ فيما أنت سامع ، دعاء ذى جرس صادع : هلمّوا إلى المشارع ، هَـلمُوا إلى المشارع، رَوِىٌّ جارع، وغَرِق كارع . قال الملك : أجل هذه رؤياى ! فما تأويلها يا عفيراء ؟ قالت : الأعاصير[(١)] الزوابع ، ملوكٌ تَبـابع ، والنهر علم واسـع ، والداعى نبى شافع ، والجـارع ولىّ له تابع ، والكارع عدوّ له منازع . قال: يا عفيراء أَسَلْمٌ هذا النبىّ أم حرب ؟ قالت : أُقسم برافع السماء، ومُنزِل المـاء[(٢)] من العَماء ، إنه لمُبطِـل الدماء، ومُنطِـق العقائل نطق الإماء . قال الملك : إلام يدعو يا عُفَيراء؟ قالت : إلى صلاة وصيام ، وصِـلة أرحام ، وكسر أصنام ، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام . قال الملك : يا عفيراء، مَن قومُه ؟ قالت: مضر بن نِزار، ولهم منه نقع مثار، يَتَجَلّى عن ذَبح و إسار، قال: يا عُفيراء : إذا ذُبِح قومه فمن أَعضادُه؟ قالت : أَعضادُه غطاريف يمانون، طائرهم به ميمون، يغزيهم فيعزون[(٣)]، ويُدمِّث بهم الحـزون ، فإلى نَصره يعتزون، فأطرق

(١) فى الأصل : « قالت : الزوابع » . (٢) فى الأصل : « ومنزل الماء » ، والذى أثبت عن تاريخ الخميس ١ : ٢٩ . (٣) فى تاريخ الخميس : « يغزو بهم فيغزون » .

الملك يؤامر نفسه فى خطبتها ، فقالت : أبيتَ اللعن ! إن تابعى غيور ، ولأمرى صبور ، وناكحى مقبور ، والكلَف بى ثُبور . فنهض الملك مُبادرا ، بجال فى صهوة جَواده ، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقة كَوْماء .

ويشبه ما ذكرناه رؤيا الموبذان وقد تقدّمت فى أخبار الكهان .

ومن ذلك ما روى عن لهيب بن مالك اللّهبى أنه قال : حضرتُ عند[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت الكهانة[2] فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسولَ الله ! نحن أوّلُ من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند القذف بالنجوم ، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خَطَر بن مالك ، وكان شيخا كبيرا قد أتت عليه مائة سنة وثمانون سنة ، وكان أعلمَ كُهّاننا[3] ، فقلنا له : يا خطر[4] ، هل عندك علم من هذه النجوم التى يُرْمَى بها ؟ فإنا قد فزعنا لها ، وقد خفنا سوءَ عاقبتها ، فقال : ائتونى بسَحَر[5] ، أخبرْكم الخبرَ ، بخيرٍ أم ضرر . وأمْنٍ أم حَذَر[6] ، قال : فانصرفنا عنه يومنا ، فلما كان من غدٍ فى وجه السحر أتيناه ، فإذا هو قائم على قدميه شاخص إلى السماء بعينيه . فناديناه يا خطر ، فأومأ إلينا أن آمسكوا

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٨ : « حضرت مع » .

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٨ : « فذكرت عنده الكهانة » .

(٣) رواية السيرة الحلبية : «وقد أتت عليه مائتا سنة ... وكان من أعلم» . وفى الخميس ١ : ٣٠ : « قد أتى عليه من العمر مائة وثمانون سنة ، وكان من أعلم » .

(٤) خطر بالخاء المعجمة والطاء المهملة والراء ، عن السيرة الحلبية .

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٨ : « ائتونى قبيل الفجر » .

(٦) هكذا رواية الديار بكرى فى الخميس ١ : ٣٠ ، وفى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٨ : « الخبر ، الخير أم الضرر » .

فأمسكا، فانقضّ نجم من السماء عظيم، فصرَخ الكاهن : أصابَه إصابُه[1]، خامَره عقابُه، عاجلَه عذابه، أحرقَه شهابُه، زايلَه جوابُه، يا ويله ما حالُه، بَلْبَلَه بَلْبالُه[2]، عاوده خَبالُه، تقطعت حِباله، وغيرت أحواله؛ ثم أمسك طويلا، ثم قال : يا معشَر بني قَحْطان، أخبركم بالحق والبيان، أقسمتُ بالكعبة ذاتِ الأركان، والبلَدِ المؤتَمن السكان[3]. قد منع السمعَ عتاةُ الجان، بثاقبٍ بكفّ ذي سلطان، من أجل مبعوثٍ عظيمِ الشان، يبعث بالتنزيل والقرآن، وبالهُدَى وفاضل الفرقان، تبطل به عبادة الأوثان. قال : قلنا يا خَطَر، إنك لتذكر أمرا عجيبا، فماذا ترى لقومك ؟ فقال :

أرى لقومي ما أرى لنفسي * أن يتبعوا خيرَ نبي الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس * يبعث من مكةَ دار الحمس[4]
* بمحكم التنزيل غير اللبس *

قلنا : يا خطر، ومَنْ هو[5] ؟ فقال : والحياةِ والعيْش، إنه لمن قُرَيش. ما في حكمه طيش، ولا في خُلُقه هيش[6]، يكون في جيش وأيّ جيش، من آل قحطان وآل رَيْش[7]. قال : قلنا بيّن لنا من أيّ قريش هو، قال : والبيتِ ذي الدعائم، والرُّكن

(١) إصابه : جمع وصب بحمل وجمال، فالهمزة بدل من الواو. عن السيرة الحلبية ١ : ٢٠٠. والمعروف أن جمع وصب أوصاب.

(٢) البلبال : الغم.

(٣) في السيرة الحلبية ١ : ٢٠٨ : « السدان »، والسدان : الخدم.

(٤) الحمس : بضم الحاء المهملة وإسكان الميم : هم قريش، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢٠٩.

(٥) في تاريخ الخميس : « ومن ».

(٦) هيش : أي ليس في طبيعته وسجيته قول قبيح. عن السيرة الحلبية ١ : ٢٠٩.

(٧) إيش، ويقال : ريش، وهم قبيلة من الجن. عن السيرة الحلبية ١ : ٢٠٩.

والأحاثم[١]، إنه لمن نَجل هاشم، من معشر أكارم، يُبعث بالملاحم، وقتلِ كلّ ظالم؛ ثم قال : هذا هو البيان، أخبَرنى به رئيس الجانّ؛ ثم قال : الله أكبر، جاء الحق وظهَر، وانقطع عن الجنّ الخبَر؛ ثم سكَت[٢] فأُغمى عليه، فما أفاق إلا بَعد ثلاث[٣] فقال : لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد نطق عن مثل نُبوّة، وإنه لَيُبعث يوم القيامة أمّة وحده » . والله أعلم .

ومنه ما رِوى أن سفيان بن مُجاشع بن دارِم اختمل دياتِ دماءٍ كانت من قومه، فخرج يستعين فيها، فدفع إلى حَىّ من تميم، فإذاهم مجتمعون إلى كاهنة تقول : « العزيزُ من وَالاه، والذّليل من خالاه، والموفورُ من مَالاه، والموتُور من عَاداه »؛ قال سفيان : من تذكُرين لله أبوك ؟ فقالت : « صاحبَ حِلّ وحرم، وهدى وعلم وبطش وحِلم، وحرب وسَلم، رأس رءوس، ورائض يَسوس[٤]، وماحِى بوس، وماهد وُعُوس، «وناعِش منعوس»[٥]؛ قال سفيان : من هو لله أبوك؟ قالت : « نبىّ مؤيّد، قد آن حين يوجد، ودنا أوان يولد، يبعث إلى الأحمر والأسود، بكتاب لا يفنّد، اسمه محمد»؛ قال سفيان : لله أبوك، أعربىّ هو أم عجمىّ؟ قالت : «أما والسماء ذات العَنان، والشجر ذاتِ الأفنان، إنه لمن مَعَدّ بن عدنان، فقدْك يا سفيان »؛ فأمسك سفيان عن سؤالها، ثم إن سفيان وُلِد له غلام فسماه محمداً لِما رجاه من أن يكون النبيَّ الموصوف .

ومنه ما رُوى أن عَمرو بن مَعديكرب عوتب على ارتداده عن الإسلام فقال : والله ما هو إلا الشّقاء، ولقد علِمت أن محمدًا رسولُ الله قبل أن يوحَى إليه، قيل : كيف كان ذلك يا أبا ثور؟ قال : حدَث بين بنى زُبَيد تَناجُش وتَظالُم، ونما

(١) الأحاثم جمع الجمع لـ « حوم » ويريد بها بئر زمزم . وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢٠٩ .
(٢) فى السيرة الحلبية : «ثم سكن وأغمى» . (٣) فى السيرة الحلبية : «بعد ثلاثة أيام» .
(٤) كذا . ولعله « يسوس » . (٥) فى النص كلمات غير واضحة لم نهتد إلى تصويبها .

إلى أن سفك بعضهم دماء بعض ، ففزع حلماؤهم إلى كاهنٍ لهم رَجَوا أن يكون عنده المخرَج مما نزل بهم، فقال الكاهن : « أُقسِم بالسماء ذات الأبراج ، والأرض ذات الأدراج ، والريح ذات العَجاج ، والبحار ذات الأمواج ، والجبال ذات الفجاج ، إنّ هـذا الإمراج والارتجاج ، لِلَقاح ذو نَتاج» ؛ قالوا : وما نَتاجُه ؟ قال : « ظهور نبيّ صادق، بكتاب ناطق، وحسام والِق (١) »، قالوا : أين يظهر؟ وإلامَ يدعو ؟ قال: «يظهر بصلاح؛ ويدعو إلى الفَلاح، ويُعطِّل القداح، وينهَى عن الرَّاح والسِّفاح ، وعن كل أمر قُباح » ؛ قالوا: ممن هو؟ قال: « من وَلَد الشيخ الأكرم، حافرِ زَمزَم، ومُطعم الطير الحُوَّم، والسباع الصُوَّم» ؛ قالوا: وما اسمه ؟ قال : « اسمه محمد ، وعزّه سَرمَد، وخَصمه مُكمَد » .

فهذه جملة كافية من أخبـار الكُهّان . فلنذكر ما نطق به الجانّ من أجواف الأصنام، وما سُمِـع من الهواتف، والله المستعان .

وأما مَن بشّر به عليـه الصلاة والسـلام من الجانّ الذين نطقوا من أجواف الأصنام وما سمع من العتائر .

فمن ذلك ما رُوِى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى سبب إسلام عمر، وأنه كان قد ضمِن لقريش قتلَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وخرج لذلك، فمرّ بقومٍ من خُزاعة وقد اعتمدوا صَنَمًا لهم يريدون أن يتحاكموا إليه ، فقالوا لعمر : أُدخل لتشهد الحكم ، فدخل معهم، فلما مثلوا بين يدى الصَّنَم (٢) سمعوا هاتفًا من جوفه يقول:

يأيهـا الناس ذوو الأجسامِ * ما أنتمُ وطائش الأحـلامِ (٣)

(١) رواية السيرة الحلبية ١ : ١٩٦ : « وحسام فالق » . (٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٢ : « كان أبو هريرة يحدث أن قوما من خثعم كانوا عند صنم لهم جلوسا ، وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم، فبينا الخثعميون عند صنم لهم إذ سمعوا هاتفا يهتف ويقول» . وانظر شرح المواهب ١ : ٢٧٦

(٣) رواية الأبيات بهـذه الصورة فى شرح المواهب ١ : ٢٧٦ ، وفى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٣ تختلف روايتها عما هنا زيادة ونقصا ، وانظر دلائل أبى نعيم ص ٧٨ .

ومُسْنِدُ الحكمِ إلى الأصنامِ * أصبحتمُ كراتِعِ الأنعامِ
أما ترون ما أرى أمامي * من ساطعٍ يجلو دُجَى الظلامِ
قد لاحَ للناظرِ من تهامِ * وقد بدا للناظرِ الشآمي
محمد ذو البرّ والإكرامِ * أكرمه الرحمنُ من إمامِ
قدجاء بعدَ الشِّرك بالإسلامِ * يأمر بالصلاة والصيامِ
والبرّ والصِّلات للأرحامِ * ويزجرُ الناسَ عن الآثامِ
فبادِروا سَبقًا إلى الإسلامِ * بلا فتورٍ وبلا إحجامِ

قال : فتفرّق القوم عن الصنم ولم يحضُره يومئذٍ أحد إلّا أسلم؛ ثم ذكر ابنُ عباس انطلاقَ عمر إلى منزلِ أخته على ما نذكر ذلك أو نحوَه عِند ذكرنا إسلامَ عمر رضى الله عنه .

قال : ثم خرج لقصدِ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلقيه رجال من بنى سُليم[2] قد تنافروا إلى صَنَم لهم ليحكم بينهم اسمه الضِّمار[3]، فدعَوا عمر إلى الدخول معهم إليه ففعل، فلما وقَفوا بين يدى الصَّنَم سمعوا هاتفا من جوفه يقول :

أودَى الضِّمار وكان يُعبَد مرةً[4] * قبلَ الكتاب وقبلَ بعث محمد
إن الذى ورِث النبوّة والهدَى * بعد ابن مريمَ من قُريش مهتدِى
سَيقولُ من عَبَد الضِّمار ومثله * ليت الضِّمار ومثله لم يُعبَد

(١) رواية السيرة الحلبية ١ : ٢٠٣ : « ومسندوا » ، وانظر دلائل أبي نعيم ص ٧٨ .
(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٠ : « ... عباس بن مرداس قال : كان لمرداس السلمى وثن يعبده يقال له ضمار » ، وانظر دلائل أبى نعيم ص ٧٩ .
(٣) ضمار بكسر الضاد المعجمة وميم مخففة بعدها ألف ثم راء مهملة ، عن السيرة الحلبية ١ : ٢٠٠ .
(٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٠ ، وشرح المواهب ١ : ٢٧٧ « يعبد مدة » .

أبشر أبا حفص بدينٍ صادقٍ * تهدى إليه بالكتاب المرشد
واصبر أبا حفص قليلا إنه * يأتيك عن فَرَق أعزَّ بنى عدى
لا تعجلنّ فأنت ناصرُ دينه * حقًّا يقينا باللسان وباليد

قال : فعجب القوم منه ونكّسه عمر ، وغيّر الله ما فى صدره من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنه ماروى أن وائل بن حُجْر وكان ملكًا مطاعا(١)، وكان له صنم من العقيق الأحمر يعبده ويحبه حبّا شديدا، ولم يكن يُكَلَّم منه، إلا أنه كان يرجو ذلك، فيكثر له السجود، ويَعْتر له العتائر، فبينا هو نائم فى الظهيرة أيقظه صوت مُنكَر من المخدع الذى فيه الصنم، فقام من مضجعه وأتاه فسجد أمامه، فإذا قائل(٢) يقول :

يا عجبا(٣) لوائل بن حُجْر * يُخال يدرى وهو ليس يدرى
ماذا يرجّى من نحيت صخر * ليس بذى عُرْف ولا ذى نكر
ولا بذى نفع ولا ذى ضرّ * لو كان ذا حِجْر(٤) أطاع أمرى

قال وائل : فرفعت رأسى واستويتُ جالسا، ثم قلت : قد أسمعتَ أيها الناصح(٥)، فماذا تأمرنى ؟ فقال :

ارحل إلى يثرب ذات النّخل * وسر إليها سيرَ مُشمعلّ
تدن بدين(٦) الصائم المصلّى * محمدِ المرسَل(٧) خيرِ الرُّسْل

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «وكان قيلا من أقيال حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم» .
(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «وإذا قائل» .
(٣) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «وا عجبا» .
(٤) الحجر : العقل .
(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «أيها الهاتف الناصح» .
(٦) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «تدين دين» .
(٧) فى السيرة الحلبية : «محمد النبى» .

قال وائل : ثم خرّ الصنم بوجهه فانكسر أنفه، واندقّت عنقه ، فقمت إليه بجملته رُفاتا ، ثم سرت مسرعًا حتى أتيت المدينة ؛ وذكر إسلامَه بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم . والله المعين .

ومنه خبر مازن الطائى فى سبب إسلامه

٥ رواه البيهقى فى دلائل النبوة بسند قال : كان مازن الطائى[(١)] بأرض عمان بقرية تدعى سمايل[(٢)]، وكان يسدن الأصنام لأهله ، وكان له صنم يقال له باجر[(٣)]، قال مازن: فعترت[(٤)] ذات يوم عتيرة؛ والعَتيرة : الذبيحة[(٥)]، فسمعتُ صوتا من الصنم يقول : يا مازن : أقبل إلىّ أقبل، تسمع ما لا يجهل، هذا نبى مرسل، جاء بحق منزل، فآمِنْ به كى تعدل، عن حرّ نار تُشعل، وقودها بالجندل .

١٠ قال مازن : فقلت والله إن هذا لعجَب ، ثم عترت بعد عشرة أيام عتيرة أخرى ، فسمعت صوتا آخرَ أبينَ من الأوّل وهو يقول : يا مازن اسمع تسرّ ، ظَهَر خير وبَطَن شرّ ، بعث نبىّ من مضر ، بدين الله الكُبر[(٦)]، فدع نحيتا من حجر ، تسلم من حرّ سَقَر ؛ قال مازن : فقلت إن هذا والله لعجَب ، إنه لَخيرٌ يُراد بى[(٧)] ؛ وقدم علينا رجل من أهل الحجاز فقلنا : ما الخبر وراءك ؟ قال :

---

١٥ (١) له ترجمة فى أسد الغابة ٤ : ٢٦٩ ، وخبره هذا فى دلائل أبى نعيم ص ٧٦ .

(٢) فى دلائل أبى نعيم ص ٧٦ : «سمايا» ، وفى تاج العروس (سمل ، شمل) : «وسمائل : اسم قرية ويقال بالشين ، وهى من أرض عمان» . (٣) باجر، بفتح الجيم ويكسر، ويقال بالحاء المهملة . وانظر تاج العروس (بجر) . (٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : « فعترنا » .

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : « وهى الذبيحة مطلقا ، وقيل فى رجب خاصة » .

٢٠ (٦) رواية أبى نعيم ص ٧٦ : « الله الأكبر » . (٧) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ ، ودلائل أبى نعيم ص ٧٧ : « قال : قد ظهر رجل يقال له أحمد يقول لمن أتاه » .

خرج رجل بتهامة يقول لمن أتاه : أجيبوا داعى الله عز وجل ، يقال له أحمد ، قال : فقلت هذا والله نبأ ما سمعت ، فثرت[1] إلى الصنم فكسّرته أجذاذا ، وشددت راحلتى ورحلت ، حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشرح الله صدرى للإسلام فأسلمت ، وأنشأت أقول :

كسرتُ باجر أجذاذا وكان لنا * ربا نطيف به ضلًّا بتضلالِ

فالهاشمىّ هدانا من ضلالتنا * ولم يكن دينه[2] منّى على بال

يا راكبا بلّغن عمرا وإخوته[3] * أنى لما قال ربّى باجرٌ قالى

قال مازن : فقلت يا رسول الله ، إنى امرؤ مولَع بالطرّب وشرب الخمر ، وبالهلوك[4] من النساء ، وألحّت علينا السنون[5] فأذهبن الأموال ، وأهزلن الذرارى والرجال ، وليس لى ولد ، فادْعُ الله أن يذهب عنى ما أجد ، ويأتينى بالحيا ، ويهب لى ولدا ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : اللهم أبدله بالطّرب قراءة القرآن ، وبالحرام الحلال ، [وبالخمر رِيًّا لا إثم فيه ، وبالعُهر عفّة الفرج[6]] وائته بالحيا ، وهب له ولدا .

قال مازن : فأذهب الله عنى كل ما أجد ، وأخصبت عمان ، وتزوجت أربع حرائر[7] ، ووُهب لى حيان بن مازن ، وأنشأت أقول :

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : « فنزلت إلى الصنم »

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : « دينه شيئا » .

(٣) فى دلائل أبى نعيم ص ٧٧ ، والسيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : «عمرا و إخوتها» ؛ و يعنى بعمرو و إخوتها بنى الصامت وبنى خطامة ، وهى بطن من طيء .

(٤) الهلوك من النساء : الفاجرة .

(٥) ألحت علينا السنون : دامت علينا أيام القحط .

(٦) عن عيون الأثر ١ : ٧٦ ، والسيرة الحلبية ١ : ٢٠١ .

(٧) فى دلائل أبى نعيم ص ٧٧ : « حرائر ، وحفظت شطر القرآن » ، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ ، وعيون الأثر ١ : ٧٦ .

إليك رسولَ الله خبّت مطيّتى * تجوب الفَيافى من عُمانَ إلى العَرْج
لتشفع لى ياخيرَ من وطئ الحصا * فيغفرَ لى ربى فأرجعَ بالفُلْج[1]
إلى معشرٍ خالفتُ فى الله دينَهم * فلا رأيهم رأيى ولا شَرجُهم شَرْجى[2]
وكنت امرأً بالعُهْر[3] والخمر مولَعا * شبابىَ حتى آذنَ الجسم بالنَّهْج[4]
فبدّلنى بالخمــر خوفًا وخشية * وبالعُهْر إحصانا وحصّن لى فرجى
فأصبحتُ همّى فى جهادٍ ونيّتى * فللّه ما صَــومى ولله ماحَجّى

٥

قال مازن: فلما رجعت إلى قومى أنّبونى وشتمونى، وأمروا شاعرهم فهجانى، فقلت إن هجوتهم فإنمــا أهجو نفسى، فتركتهم، قال: ثم إن القوم ندموا وكنت القيِّم بأمورهم، فقالوا ما عسى أن نصنعَ به، فجاءنى منهم أَزْفَلَة[5] عظيمة فقالوا: يابن عمّ، عِبْنا عليك أمرا فنهيناك عنه، فإذ أبيتَ فنحن تاركوك، ارجع معَنا، فرجعتُ معهم، فأسلموا بعدُ كلُّهم .

٥٦/١٤

١٠

ومازن هذا هو الذى أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض عمان .

ومنه ما روى عن جبير بن مُطْعِم عن أبيه قال: كنا جلوسا عند صنمٍ لنا، فإذا صائح يصيح من جوفه: اسمعوا إلى العَجَب، وتوقّعوا حادثا قد اقترب، استراق السمع ذُهب، وتُرمَى [الجنُّ] بالشُّهُب، لنبىٍّ من العرب، هاشمىِّ النسب،

١٥

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١، ٢٠٢ : « ليغفر لى ذنبى » ، والفلج: الفوز والظفر
(٢) الشرج، بالشين: الشكل والطريق . عن السيرة الحلبية ١ : ٢٠٢؛ وفى الأصل : « مرجهم مرجى» . (٣) فى الأصل : « بالرعب » والتصويب عن السيرة الحلبية ١ : ٢٠٢ ودلائل أبى نعيم ص ٧٨ . (٤) النهج : البلى . وانظر النهاية ٤ : ١٨٥ .
(٥) الأزفلة بفتح الهمزة والفاء : الجماعة من الناس؛ وفى الأصل : « إن قلة » تصحيف .

٢٠

مولده بمكّة ، ومُهاجَره يَثرِب ؛ قال : وهذا قبل أن يظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومنه ماروى عن عبد الله بن ساعدة الهذلى أنه قال : كنا نعبد صنما يقال له سُواع ، وكانت لى غَنَم بخريت فسقُتها إليه وأدنيتها منه أرجو بركته ، فسمعت مناديا من جوف الصّنم يقول: العجب كل العجَب، سُدلت الحجب، ورميت الجن بالشُّهب ، وسقطت النُّصُب، ونزل خير الكُتب، على خير العرب؛ قال : فسقت غنمى وعدتُ إلى أهلى ، وقد بُغِّضَت إلىّ الأوثان، فجعلت أنقّب عن الحوادث حتى بلَغنى ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته فأسلمت .

وسنذكر إن شاء الله تعالى فى خبر إسلام الجن ماهتفوا به فأسلم بسببه من أسلَم لمّا سمِعوا — ما تقِف عليه هناك .

وحيث ذكرنا ماذكرنا من المبشّرات، فلنذكر مبعثه صلى الله عليه وسلم ،

ذكر مَبعَث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بدِئَ به من النبوّة

روِى عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : أول ما بدِئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوّة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة[1]، لا يَرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رُؤيا فى نومِ الإجاعات كَفَلَق الصُّبح[2]، وحبب الله إليه الخلوة ، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده .

---

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٣٣ : « الرؤيا الصالحة » ، قال : فالمراد بالصالحة الصادقة . وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٤٩

(٢) فلق الصبح : ضياؤه .

وروى محمد بن إسحاق بن يسار المطّلبي عن عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان[1] ابن العلاء بن حارثة الثقفيّ[2] ، وكان واعية[3] ، عن بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته ، وابتدأه بالنبوّة ، كان إذا خرج لحاجته أبعَدَ حتى تحسر[4] عنه البيوت ، ويُفضِي إلى شِعاب[5] مكّة وبطون أوديتها[6] ، فلا يمرّ بحجَرٍ ولا شجرٍ إلا قال : السلام عليك يا رسولَ الله ، فيلتفتُ حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة ؛ فمكث صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضانَ .

وعن البَراء بن عازب رضي الله عنه قال : بعث اللهُ محمدا صلى الله عليه وسلم وله يومئذٍ أربعون سنة ويوم ، فأتاه جبريل ليلةَ السبت وليلةَ الأحد، ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة ليلةً خلت من شهر رمضانَ في حِراء ، وهو أوّل موضع نزل فيه القرآن .

وحكى أبو عمر بن عبد البرّ أن محمدَ بن موسى الخُوارزميّ قال : بُعث نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لثمانٍ خلت من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. فكان من مَولِده إلى أن بعثه الله عز وجل أربعون سنة ويوم .

---

(١) في الأصل : « بن عبد الله » ، والذي أثبتناه عن ابن هشام ١ : ٢٥٤

(٢) في سيرة ابن هشام : « جارية » .

(٣) الواعية : الحافظ الفقيه ، والتاء للمبالغة .

(٤) تحسر : تبعد عنه ، وتخلى عنها . عن الخشنى ١ : ٧٥ .

(٥) الشعاب : المواضع الخفية بين الجبال . عن الخشنى ١ : ٥٧ .

(٦) في الأصل : « وتطوف » ، وصححت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٠

وعن عبـد الله بن الزبير وغيره : كان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يجاور في حراء [شهراً] (١) من كل سنة ، يطعم مَنْ جاءه من المساكين، فإذا قضى صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك، كان أولَ مايبدأ به — إذا انصرف من جِواره — الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا أو ماشاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله به فيـه من كرامته ما أراد، من السنة التى بَعَثَه فيها، وذلك فى شهر رمضان، خرج صلى الله عليه وسلم إلى حِراء (٢) كما كان يخرج لجواره ومعه أهلُه، حتى إذا كانت الليلةُ التى أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العبادَ بها، جاءه جبريل بأمر الله؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاءنى وأنا نائم بنمط (٣) من ديباج فيه كتاب، فقال : اقرأ؛ [قال] (٤) : قلت : ما أقرأ؟ قال : فغتّنى (٥) به حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلنى فقال : اقرأ؛ قلت : ما أقرأ؟ قال : فغتّنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال : اقرأ؛ قلت : ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لى بمثل ما صَنع . فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ اقْرأ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الذى عَلَّمَ بِالقَلَمِ عَلَّمَ الإنسانَ مالم يَعْلَمْ ﴾ . قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى، وهببت من نومى، فكأنّما كُتِبَ (٦) فى قلبى كتابا؛ قال : فخرجت حتى إذا كنتُ فى وسطٍ من الجبل سمعتُ صوتاً من السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال : فرفعت رأسى أنظر [إلى السماء] (٤)؛ فإذا جبريل فى صـورة رجُل صافّ قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله، وأنا

(١) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٠ . (٢) حراء : جبـل على ثلاثة أميال من مكة . معجم البلدان ٣ : ٢٣٩ . (٣) النمط : ضرب من الثياب المصبغة .

(٤) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٢ ، ٢٥٣

(٥) فغتنى، وفى رواية : غطنى، أى عصرنى عصرا شديدا حتى وجدت منه المشقة .

(٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٣ : « فكأنما كتبت » .

جبريل، [قال][1] : فوقفتُ أنظر إليه، فما أتقدّم وما أتأخر، وجعلتُ أصرف وجهى [عنه][1] فى آفاق السماء، فما أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدّم أمامى وما أرجع ورائى حتى بَعثَت خديجة رُسلَها فى طلبى، فبلغوا [أعلى][1] مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف فى مكانى ذلك؛ ثم انصرف عنى .

٥ وانصرفت راجعًا إلى أهلى حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها [مضيفا إليها][2] فقالت : ياأبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا [أعلى][1] مكة ورجعوا إلىّ ، فحدّثتها[3] بالذى رأيت ، فقالت : أبشر يابنَ عمّ واثبُت ، فوالذى نفسُ خديجةَ بيده إنى لأرجو[4] أن تكون نبىّ هذه الأمة .

ثم قامت فجمعتْ عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى وَرقَة بن نَوفل بن أسد بن ١٠ عبد العُزّى[5] ، وهو ابن عمها ، وكان قد تنصر فى الجاهلية وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرَتْه بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قُدُّوس قُدُّوس، والذى نفسُ ورقةَ بيده ، لئن كنتِ صدَقْتِنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسَى، و إنه لنبىّ هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٥ فأخبرته بقول ورَقة بن نَوفَل ، فلما قضَى رسول الله صلى الله عليه وسلم جِواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو

---

(١) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٢، ٢٥٣ . (٢) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٣ . ويقال أضفت إلى الرجل : إذا ملت نحوه ولصقت به ، عن الخشنى ١ : ٧٦ .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٣ : « ثم حدثتها » .

٢٠ (٤) ابن هشام ، وعيون الأثر ١ : ٨٦ : « إنى لأرجو » .

(٥) فى سيرة ابن هشام : « العزى بن قصي وهو ابن عمها وكان ورقة قد » .

يطوف بالكعبة فقال: يابن أخى، أخبرنى بما رأيتَ وسمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال له ورقــة: والذى نفسى بيده إنك لنبىٌّ هــذه الأمة، ولقد جاءك النـاموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكذبنّـه، ولتؤذينّه، ولتخرجنه، ولتقاتلنّه[1]، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم، لأنصرنّ الله نصرًا يعلمهُ، ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخَه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

وذكر الإمام العــدل سليمان التّيمى فى سِيره[2] أن النبي صلى الله عليه وسـلم حين أخبر خديجةَ عن جبريل، ولم تكن سَمِعت باسمه قطّ، ركبت[3] إلى بَحيرا الرّاهب إلى الشام، قال الزهرىّ هو حَبر من يهود تيماء، فسألَته عن جبريل، فقال لها: قدّوس قدّوس، يا سيدة نِساء قُريش، أنّى لك بهذا الاسم؟ فقالت: بعْلى ابن عمّى أخبرنى أنه يأتيه، فقال: قدّوس قدّوس ماعَلِم به إلا نبىّ، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشياطين لا تجترئُ[4] أن تمثّل به ولا تتسمّى به .

وكان غلامٌ لعتبة بن ربيعــة بن عبد شمس اسمه عدّاس من أهل نِينَوَى[5] مدينة يونس عليه السلام، عنده عِلم من الكتّاب أرسلت تسأله عن جبريل فقال: قدّوس [قدّوس][6] أنّى لهذه البلاد بِذكر جبريل يا سيدةَ نِساء قُريش؟ فأخبرته بقول النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عدّاس مثلَ قول الراهب .

(١) الهاء المتصلة بهذه الأفعال للسكت .

(٢) نقله فى السيرة الحلبية ١ : ٢٤٤ عن ابن دحية . وانظر ترجمة سليمان بن بلال التيمى فى تهذيب التهذيب لابن حجر ٤ : ١٧٥ .

(٣) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٤٤ : «كتبت إلى بحيرا» .

(٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٤٤ : «فان الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به، ولا أن يتسمى» .

(٥) معجم البلدان ٨ : ٣٦٨ .

(٦) عن السيرة الحلبية ١ : ٢٤٣ .

وروى البخارى — رحمه الله — فى صحيحه (١) بإسناده عن هشام بن عُروة عن أبيه، عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتينى مثل صَلْصَلة (٢) الجَرَس وهو أشدّه علىّ ، فيفصِم (٣) عنى وقد وعَيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لى المَلَك رجلا فيكلّمنى فأعى ما يقول. قالت عائشة : ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيفصِم عنه و إنّ جبينه ليتفصَّد (٤) عَرَقا .

و بسنده (٥) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أوّلُ ما بدِئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يَرى رؤيا إلا جاءت مثل فلَق الصُّبح ، ثم حُبّب إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حراء، فيتحنّث فيه، وهو التعبُّد الليالى ذواتِ العدد قبل أن ينزِع إلى أهله ، و يتزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاء الحق وهو فى غار حراء، فجاءه المَلَك فقال: اقرأ، قال: قلت : ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجَهْد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطّنى الثانيةَ حتى بلغ منى الجَهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطّنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يَرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خُوَيلد، فقال : زمّلونى زمّلونى، فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد

(١) صحيح البخارى ١ : ٦ . (٢) الصلصلة : صوت الحديد إذا حرّك .
(٣) يفصم عنى : يقلع . (٤) يتفصد : يسيل عرقا . (٥) صحيح البخارى ١ : ٧، ٤ : ١٥١، وانظر ٦ : ١٧٣ .

خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلّا والله ، ما يُخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرّحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرِى الضيف ، وتُعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة ، وكان آمرءًا تنصّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتّاب العبرانىّ [1] ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخًا كبيرا قد عمِى ، فقالت له خديجة : يابن عم آسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرَ ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يُخرجك قومُك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوَمُخرِجىّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودِى ، وإن يُدرِكْنى يومُك أنصُرك نصرًا مؤزّرا ، ثم لم ينشَب ورقة أن تُوفى ، وفتر الوحى .

قال ابن شهاب [2] : وأخبرنى أبو سلَمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارىّ قال وهو يحدّث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : بينا أنا أمشى إذ سمعتُ صوتا من السماء ، فرفعت بصرى فإذا الملَك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسىّ بين السماء والأرض ، فرعِبت منه ، فرجعت فقلت : زمّلونى زمّلونى ، فأنزل الله : ﴿ يٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ، فحمى الوحى وتتابع .

قال محمد بن إسحاق [3] :

وحدّثنى إسماعيل بن أبى حكيم مولَى آل الزّبير أنه حُدِّث عن خديجة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ابن عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا

(١) رواية البخارى ٦ : ١٧٤ : « وكان يكتب الكتّاب العربىّ ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله » . (٢) لا يزال النقل عن صحيح البخارى ١ : ٧ .

(٣) نقله ابن هشام فى السيرة عنه ١ : ٢٥٤ .

الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال نعم ، قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به ، فجاءه جبريل
عليه السلام كما كان يصنع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياخديجة ،
هـذا جبريل قد جاءنى قالت : قم يابن عم فاجلس على فخـذى اليسرى ، فقـام
فجلس عليها ، قالت : هل تراه؟ قال : نعم ، قالت : فتحوّل فاقعد(١) على فخذى اليمنى ،
قال : فتحوّل فقعد على فخذها اليمنى(٢) ، فقالت : هل تراه؟ قال : نعم ، قالت : فتحوّل
فاجلس فى حِجرى ، فتحوّل فجلس فى حِجرها ، ثم قالت : هل تراه ؟ قال : نعم :
قال : فحَسَرَتْ وألقت خِمارها ورسـولُ الله صلى الله عليه وسلم جالس فى حجرها
ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا . قالت يابن عم : اُثبُت وأبشِر ، فوالله إنه لملَك ،
ما هذا بشيطان .

وكانت خديجة رضى الله عنها أوّل من آمن بالله و برسوله وصدّق بمـا جاء به .
وحكى أبو عمر بن عبد البر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرّ أمره ثلاث سنين
ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه والدعاءِ إليه ، فأظهره بعد ثلاث سنين من مبعثه .
قال : وقال الشعبى : أُخبِرتُ أن إسرافيل تراءى له ثلاثَ سنين . وروى ابن عبدالبر
بسنده إلى الشعبىّ قال : بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأر بعين ، ووُكّل به
إسرافيل عليه السلام ثلاثَ سنين ، ثم وُكّل به جبريل عليه السلام . وفى روايةٍ عنه :
ثم بُعث إليه جبريل بالرسالة . وعنه أيضا قال : أنزلت عليه النبوّةُ وهو ابن أر بعين ،
فقرن نبوّته إسرافيل عليه السلام ثلاثَ سنين ، وكان يعلّمه الكلمةَ والشىء ، ولم ينزل
عليه القرآن على لسانه ، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوّته جبريل عليه السلام ،
فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة .

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٥ : « فاجلس » .
(٢) رواية ابن هشام : « فجلس » .

٥٩/١٤

ذكر فترة الوحى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وما أُنزل بعد فترته

قال[1] : وفتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترةً[2] حتى شقّ ذلك عليه وأحزنه . واختُلف فى مدة فترة الوحى ، فقال ابن جُرَيج : احتبس عنه الوحى اثنى عشر يوما ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خمسةَ عشر يوما ، وقيل : خمسة وعشرين . وقال مُقاتل : أربعين يوما . والله أعلم .

روى البخارىّ[3] — رحمه الله — عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وساق الحديث بنحو ما تقدّم ، قال : وفتر الوحى فترة حتى حزِن النبى صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنًا غدا منه مِرارًا كى يتردّى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفَى بذروة جبل لكى يُلقِى نفسه منه تبدّى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقرّ نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفَى بذروة جبل تبدّى له جبريل وقال له مثل ذلك . قال : وتكلم المشركون عند فَترة الوحى بكلام ، فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ السورةَ بكمالها ؛ وقيل فى سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تَرك قيام الليل ليلتين أو ثلاثًا لشكوى[4] أصابته ، فجاءت امرأة فقالت : يا محمد ، إنى لأرجو أن يكون شيطانُك قد تَرَكك لم أره قَرَبك منذ ليلتين أو ثلاث[5] ، فأنزل الله تعالى السورة .

(١) القائل ابن إسحاق . وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٧ .
(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٧ : « فترة فى ذلك حتى » .
(٣) الجامع الصحيح ٦ : ١٧٢ ، ١٧٤ ، وانظر عيون الأثر ١ : ٨٥ .
(٤) الشكوى : المرض . (٥) فى الأصل : « أو ثلاثا » .

قال القاضى أبو الفضل عياض بن موسى رحمه الله فى كتابه المترجم (بالشفا بتعريف حقوق المصطفى)[1] : تضمّنت هــذه السّورة من كرامة الله تعالى لنبيّه وتنويهه به وتعظيمه إياه ستّة وجوه :

الأوّل — القَسَم له عما أخبر به من حاله بقوله : ﴿ والضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ أى وربِّ الضحى ، وهذا لَمِنْ عِظَمِ درجات المبرّة .

الثانى — بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ أى ما تركك وما أبغضك ، وقيل ما أهملك بعد أن اصطفاك .

الثــالث — قوله : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ .

قال ابن إسحاق : أى مالك فى مَرجعك عنــد الله أعظم ممـا أعطاك الله من كرامة الدنيا . وقال سهل : أى ما ذخرتُ لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك فى الدنيا .

الرابع — قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ، وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام فى الدّارين والزّيادة .

قال ابن إسحاق[2] : يُرْضيه بالفَلْج فى الدّنيا والثواب فى الآخرة . وقيل : يُعْطيه الحوضَ والشفاعة ، ورُوِى عن بعض آل النبى[3] صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ليس فى القرآن آية أرجَى منها . ولا يَرضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يدخلَ أحد من أُمّته النار» .

---

(١) انظر شرح الخفاجى على الشفا ١ : ٢٠٤ وما بعدها .

(٢) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٥٩ ، وعبارته « فترضى من الفلج فى الدنيا والثواب » . وانظر نسيم الرياض ١ : ٢٠٧ . والفلج : الفوز والظفر .

(٣) هو على بن أبى طالب ، أو الحسن بن محمد بن الحنفية . وانظر نسيم الرياض ١ : ٢٠٧

الخامس — ما عدّه الله تعالى عليه من نعمه، وقرّره من آلائه قبله فى بقية السورة، من هدايته إلى ما هداه له، أو هداية الناس به على آختلاف التفاسير، ولا مالَ له فأغناه بما آتاه، أو بما جعله فى قلبه من القناعة والغنى، ويتيماً لحدب عليه عمّه وآواه إليه، وقيل: آواه إلى الله، وقيل: يتيما لا مثالَ لك فآواك إليه، وقيل المعنى ألم يجدْك فهدى بك ضالاً، وأغنى بك عائلا، وآوى بك يتيما، ذكّره بهذه المِنن، وأنه — على المعلوم من التفسير — لم يهمله فى حال صغره وعَيلته ويُتْمه، وقبل معرفته به ولا ودّعه ولا قلاه، فكيف بعد آختصاصه واصطفائه . والله أعلم

السادس — أمْرُه بإظهار نعمته عليه، وشكر ما شرّفه به بنشره وإشادة ذكره بقوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، فإنّ من شكر النعمة التحدُّثَ بها، وهذا خاصّ له، عامّ لأمته .

وقال ابن إسحاق[1] : أى بما جاءك من الله من نعمته وكرامته من النبوّة، فحدّث بها أى آذكرها وادْعُ إليها . قال : فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوّة سرّاً[2] إلى من يطمئنّ إليه من أهله . قال : ثم فُرضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم . والله الموفّق لطاعته .

ذكر فَرض الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى عن عائشة أمّ المؤمنين — رضى الله عنها — أنها قالت : افترُضت[3] الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل ما افتُرضت ركعتين ركعتين[4] كلَّ صلاة، ثم إن الله تعالى أتمّها فى الحضَر أربعا، وأقرها فى السفَر على فرضها الأوّل ركعتين .

قال محمد بن إسحاق :

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٩ . (٢) فى الأصل : «النبوة بسرى» ، والتصويب عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٩ . (٣) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٠ . (٤) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٠ : « افترضت عليه ركعتين » .

وحدّثني بعض أهل العلم أن الصلاة حين افتُرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عينٌ فتوضّأ جبريل (١) ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر [إليه] (٢) ليُريَه كيف الطُّهور للصلاة، ثم توضّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريلَ توضّأ، ثم قام به جبريل فصلَّى به، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته، ثم انصرف جبريل، (٣) فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى خديجة فتوضّأ لها ليُريَها كيف الطُّهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضّأت كما توضّأ [لها] (٤) رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صلَّى بها كما صلى به جبريل (٥) فصلَّت بصلاته.

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: "لما فُرضت الصلاة على رسول (٦) الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فصلَّى به الظُّهر حين مالت الشمس، ثم صلَّى به العصر حين كان ظِلُّه مثلَه، ثم صلّى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشَّفَق، ثم صلّى به الصبح حين طلع الفجر، ثم جاء فصلّى (٧) به الظهر من غدٍ حين كان ظِلّه مثله، ثم صلى به العصر حين كان ظِلّه مثلَيه، ثم صلّى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلثُ الليل الأوّل، ثم صلّى به الصبح مُسفِرا غير مشرِق، ثم قال: يا محمد الصلاة فيما بين صلاتِك اليومَ وصلاتِك بالأمس (٨) ".

(١) في سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٠ : «جبريل عليه السلام ورسول». (٢) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٠. (٣) في سيرة ابن هشام ٢ : ١٦ : «جبريل عليه السلام فجاء».
(٤) عن ابن هشام، والسيرة الحلبية ١ : ٢٦٤. (٥) للسهيلي في الروض الأنف ١ : ١٦٢ كلام في هذا الحديث وسنده يحسن الوقوف عليه. وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢٦٤.
(٦) رواه ابن هشام ١ : ٢٦١.
(٧) في الأصل: «الفجر ثم صلى به الظهر حين كان» والذي أثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٢.
(٨) ناقش السهيلي في الروض الأنف ١ : ١٦٣ إيراد هذا الحديث هنا، لأن هذه القصة كانت في الغد من ليلة الإسراء، وذلك بعد ما نبئ النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أعوام. ثم ذكر كلامهم في ذلك.

ذكر أوّل من أسلم وآمن بالله تعالى وبرسوله

صلى الله عليه وسلم وصدّق بما جاء به من عند الله

قد تقدّم أن أوّل من آمن خديجة رضى الله عنها، وذهب محمد بن إسحاق[1] إلى أن أوّل من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلّى وصدّق بما جاء به[2] من الله تعالى علىّ بن أبى طالب، ثم زيد بن حارثة[3] مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أبو بكر الصدّيق[4] رضى الله عنهم. وسنذكر إن شاء الله إسلام كل واحد منهم.

أما إسلام أبى بكر الصديق رضى الله عنه فالذى عليه الأكثرون أنه أوّل من أسلم من الذكور، وقد روى أبو الفرَج بن الجَوْزىّ رحمه الله فى كتابه المترجم (بصفة الصفوة) عن ابن عبّاس[5]، وحسّان بن ثابت، وأسماءَ بنت أبى بكر، وإبراهيم النَّخَعىّ، قالوا كلُّهم: أوّل من أسلم أبو بكر، قال: وقال يوسف بن يعقوب بن الماجشون: أدركت أبى ومَشيختنا محمدَ بن المنكدر، وربيعةَ بن أبى عبد الرحمن، وصالح ابن كَيْسان، وسعد بن إبراهيم، وعثمان بن محمد الأخنسى، وهم لا يشكّون أن أوّل القوم [إسلاماً][6] أبو بكر.

وروى أبو الفرج بسنده[7] عن ابن عباس أنه قال: "أوّل من صلى أبو بكر رضى الله عنه"، ثم تمثّل بأبياتِ حسّان بن ثابت:

إذا تذكَّرت شجوًا من أخى ثِقَةٍ * فاذكُر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خيرَ البرية أتقاها وأعدلَها * إلا النبىّ، وأولاها بما حملا
الثانى التالى المحمود مشهدُه * وأوّل الناس حقا صدّق الرسُلا

والله يهدى من يشاء.

---

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٦٢. (٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٢: «بما جاءه».
(٣) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٤، وأسد الغابة ٢ : ٢٢٤. (٤) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٦.
(٥) ١ : ٨٩. (٦) عن صفة الصفوة ١ : ٨٩. (٧) صفة الصفوة ١ : ٨٩.

٦١/١٤

وأما إسلام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه — فقد اختلف فى سنّه حالَ إسلامه ؛ فقيل : أسلَم وهو آبن عشر سنين[1]، وقيل: تِسع سنين، وقيل اثنتى عشرة سنة، وقيل أكثر من ذلك إلى عشرين سنة، وهو بعيد، لأنّه آمن فى آبتداء الأمر وظهور النبوّة . والله أعلم .

٥ وكان من حديث إسلامه ما رواه محمد بن إسحاق[2] عن عبد الله بن أبى نَجيح عن مُجاهد بن جَبْر بن أبى الحجّاج، قال : كان من نعمة الله على علىّ بن أبى طالب ومما صنع الله له وأراده به من الخير أن قريشا أصابتهم أَزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عِيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمّه العباس، وكان من أيسر بنى هاشم : يا عبّاس، إن أخاك أبا طالب كثيرُ العيال، وقد أصاب الناسَ

١٠ ماترى من هذه الأزمة، فانطلِق بنا إليه فلنخفّف[3] [عنه] من عياله ؛ آخذُ من بنيه رجلا، وتأخذ أنت[4] رجلا فنكفلهما[5] عنه، فقال العباس : نعم، فانطلقا حتى أتيا[6] أبا طالب، فقالا [له] : إنا نريد[7] أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما [أبو طالب][8] : إذا تركتُما لى عَقيلا فاصنعا ما شئتما ؛ ويقال قال : عقيلا وطالبا ؛ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّا فضمه إليه ، وأخذ العبّاس

---

١٥ (١) نقل ابن عبد البر فى الاستيعاب ص ٢٧١ هذا القول عن ابن إسحاق، ثم ذكر بقية الأقوال فى سنه يوم أسلم . (٢) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٦٢ .

(٣) فى الأصل : « فلنخفف من عياله »، والذى أثبت عن ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٤) فى الأصل : « وتأخذ رجلا »، والمثبت عن ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٥) فى الأصل : « فنكفهما »، والمثبت عن ابن هشام ص ١٥٩ (طبعة أوربا) .

٢٠ (٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٣ : « حتى أتيا » .

(٧) فى الأصل : « فقالا إنا نريد »، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٨) فى الأصل : « فقال لهما إذا »، والمثبت عن ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

جعفرا [فضمّه إليه](١)، فلم يزل علىّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبيا فاتّبعه علىّ وآمن به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم(٢).

قال ابن إسحاق :

وذكر بعضُ أهل العلم أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضَرت الصلاة خرج إلى شِعاب مكّة وخرج معه علىّ بن أبى طالب مُستخفيا من عمه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصلّيان الصلوات فيها(٣)، فإذا أمسَيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكُثا، ثم إن أبا طالب عثَر عليهما يوما وهما يصَلِّيان، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يابن أخى، ما هذا الدين الذى أَراك تَدين به ؟ قال : أى عَمّ، هذا دينُ الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم(٤)، بعثنى الله به رسولا إلى العباد، وأنت أَىْ عم أحقّ من بذَلتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهُدَى، وأحقّ من أجابنى إليه، وأعاننى عليه، أو كما قال. فقال أبو طالب : أى ابنَ أخى، إنى والله لا أستطيع(٥) أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلُص إليك شئٌ تكرهه ما بقيت.

وذكروا أنه قال لابنه علىّ : أى بُنَىّ ما هذا الدين الذى أنتَ عليه ؟ فقال : يا أبت، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم وصدّقتُه بما جاء به، وصليت معه لله واتّبعته. فزعموا أنه قال له : أَمَا إنه لم يدعك إلا إلى خيرٍ فالزمْه.

---

(١) فى الأصل : « جعفرا فلم يزل »، والتكلة عن ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٢) فى سيرة ابن هشام : « حتى أسلم واستغنى عنه » .

(٣) فى الأصل : « فيصليان الصلاة »، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٤) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٣ : « أبينا إبراهيم أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى » .

(٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٤ : « إنى لا أستطيع » .

وأما إسلام زيد بن حارثة[١] رضى الله عنه — فقال[٢] محمد بن إسحاق :

ثم أسلم زيد بن حارثة بن شُرَحْبِيل بن كعب بن عبد العُزّى بن امرئ القيس الكلبى مولَى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نسبه ابن الكلبى فقال : زيد ابن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العُزّى[٣] بن يزيد بن امرئ القيس بن عامر ابن النّعمان بن عبدوُدّ بن امرئ القيس بن نعمان بن عمران بن عبد عوف بن عوف ابن كِنانة بن بكر بن عوف بن عُذرة بن زَيد اللّات بن رُفَيدة بن ثَور بن كلب ابن وَبْرة بن تَغلِب بن حُلوان بن عِمران بن الحاف بن قُضاعة بن مالك بن عمرو ابن مرة بن مالك بن حِمْير بن سَبأ بن يَشْجُب بن يَعرُب بن قحطان .

قال أبو عمر[٤] : وربّما اختلفوا فى الأسماء وتقديم بعضها على بعض وزيادة شىء فيها[٥] . قال[٦] : ولم يتابَع ابن إسحاق على قوله[٧] « شرحبيل » وإنما « شَراحيل » .

وقال ابن الكلبى : وأمّ زيد سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت، من بنى معن من طيئ[٨] .

(١) ترجمة زيد بن حارثة فى الاستيعاب ١٩١ ، وأسد الغابة ١ : ٢٣٤ .

(٢) فى الأصل : « قال » .

(٣) هذه رواية ابن عبد البر فى الاستيعاب، وفى سيرة ابن هشام ١ : ٦٢٤ : « العزى بن امرئ القيس » .

(٤) فى الاستيعاب ص ١٩١ .

(٥) فى الأصل : « وزيادة فى شىء منها » . والمثبت عن الاستيعاب ص ١٩١ ، حيث النقل عنه .

(٦) القائل ابن عبد البر .

(٧) فى الأصل : « على شىء منها ، وإنما هو شاحيل » تصحيف ، والتصويب عن الاستيعاب ص ١٩١ ، وانظر أسد الغابة ٢ : ٢٢٤ .

(٨) فى الأصل : « عامر بن طيء » ، والذى أثبت عن الاستيعاب ص ١٩١ ، وأسد الغابة ٢ : ٢٢٤ .

قال ابن إسحاق (١) : وصلّى زيد بعد علىّ بن أبى طالب . قال أبو محمد عبد الملك ابن هشام: وكان حكيم بن حِزام بن خُوَيلد قدم من الشام برقيق منه زيد بن حارثة (٢)، وصيفٌ ، فدخلتْ عليه عمّته خديجة بنت خُوَيلد ، وهى يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لها : اختارِى يا عمّة ، أىّ هؤلاء الغلمان شِئْت فهو لكِ، فاختارت زَيدا، فأخذتْه، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها، فاستوهَبه منها، فوهبتْه له ، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبنّاه، وذلك قبل أن يوحَى إليه ، وكان أبوه حارثة قد جزِع عليه جَزعا شديدا وبكى عليه حين فَقده ، ثم قدِم عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن شئتَ فأقِم عندى، وإن شئتَ فانطلق مع أبيك" ؛ قال: بل أُقيم عندك؛ فلم يزل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله، فصدّقه وأسلم وصلّى معه ، فلما أنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ أُدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ قال : أنا زيد ابن حارثة . وقد روَى أبو عمر وغيرُه أن حارثة لما فقد ابنَه زيدا قال :

بكيت على زيدٍ ولم أدرِ ما فعلْ * أحىٌّ يرجَّى (٣) أم أتى دونه الأجلْ
فو الله ما أدرى وإن كنتُ سائلا * أغالَك سَهْلُ الأرض (٤) أم غالك الجبلْ
فياليت شعرى هل لك الدهرَ رجعةٌ (٥) * فحسبى من الدنيا رجوعك لى بَجَلْ (٦)

(١) نقله ابن هشام ١ : ١٦٤ .
(٢) فى سيرة ابن هشام : « فيهم زيد » .
(٣) كذا فى الاستيعاب ص ١٩٢ ، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ : « أحى فيرجى » .
(٤) فى سيرة ابن هشام :
« ... أدرى وإنى لسائل * أغالك بعدى السهل ... »
ورواية المؤلف عن ابن عبد البر فى الاستيعاب .
(٥) ابن هشام : « أوبة » .
(٦) بجل بمعنى حسب . وفى أسد الغابة ٢ : ١٩٥ : « لى علل » .

تذكّرنيه الشمسُ عنــد طلوعها * وتَعرِض ذِكراه إذا قارب الطَّفلْ[1]

وإن هبّت الأرواح هيّجن ذِكرَه * فيا طولَ ما حُزنى عليـه وما وجلْ

سأُعمِلَ نَصّ العيس فى الأرض جاهدا * ولا أسأم التّطوافَ أو تسأم الإبلْ

حيــاتى أو تأتى علىّ منيَّــتى * وكلّ امرئٍ فانٍ وإن غرّه الأملْ[2]

٥ سأُوصى به قيسا وعمْــرا كليهما * وأُوصِى يزيدا ثم من بعــده جبلْ[3]

يعنى جبلةَ بن حارثة أخا زيد، ويزيدَ أخا زيد لأمه، وهــو يزيد بن كعب ابن شَراحيل .

قال[4]: فحجّ ناسٌ من كَلب[5] فرأوا زيدا فعرفَهــم وعرفوه، وقال لهم : أبلغوا أهلى[6] هذه الأبيات، فإنى أعلم أنهم قد جزِعوا علىّ، فقال :

١٠ أحِنُّ إلى قـومى وإن كنتُ نائيًا * فإنّى قَعيــدُ البيتِ عنــد المَشاعرِ

فكفّوا من الوجْد الذى قد شجاكُم * ولا تُعمِلوا فى الأرض نَصَّ الأباعر

فإنّى بحمــد الله فى خير أُسْــرَةٍ * كرام مَعَدٍّ كابرا بعــد كابر

فانطلق الكلبيّون فأعلَموا أباه، فقــال : ابنى ورب الكعبة، فوصــفوا له موضعَه وعند مَنْ هو، فخرج حارثة وكعب ابنا شَراحيل لفدائه، وقدما مكّة[7]، فسألا عن النبى ١٥ صلى الله عليه وسلم، فقيل: هُوَ فى المسجد، فدخلَا عليه فقالا : يابن عبد المطّلب،

(١) رواية ابن هشام : « ... ذكراه إذا غربها أفل »

(٢) ابن هشام : « فكل امرئ » .

(٣) هذا البيت لم يورده ابن هشام .

(٤) القائل ابن عبد البر فى الاستيعاب ص ١٩٢

٢٠ (٥) فى الأصل « أناس من كعب » ، والتصويب عن الاستيعاب ص ١٩٢

(٦) فى الاستيعاب ص ١٩٢ : « أبلغوا عنى أهلى » .

(٧) فى الاستيعاب ص ١٩٢ ، وأسد الغابة ٢ : ٢٢٥ : « فقدما » .

يآ بن هاشم ، يآ بن سيّد قومه ، أنتم أهلُ حرم الله وجيرانُه ، تفكّون العانى ، وتُطعمون الأسير ، جئناك فى ابننا عندك ، فامنُنْ علينا وأحسِن إلينا في فدائه ؛ قال : ومن هو؟ قالا : زيد بن حارثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فهلّا غير ذلك"(١)؟ قالوا : وما هو؟ قال : "ادعوه فأخيِّره(٢) ، فإن آختاركم فهو لكم ، و إن اختارنى فهو لِى ، فوالله ما أنا بالذى أختار على مَن اختارنى أحدا" . قالوا(٣) : قد زِدْتنا على النَّصَف وأحسنت إلينا ، فدعاه(٤) فقال : "هل تعرف هؤلاء"؟ قال : نعم ، قال "مَنْ هذا"(٥) ؟ قال : أبى ، وهذا عمى ، قال : "فأنا مَنْ قد علمت(٦) ، وقد رأيتَ صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما" ، فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً(٧) ، أنت منى مكان الأب والعم ، فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرّية ، وعلى أبيك وعمك وأهلِ(٨) بيتك ؟ قال : نعم ، قد رأيت مِنْ هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحِجر فقال : يا معشرَ مَنْ حضر ، اشهدوا أنّ زيدا آبنى يرِثنى وأرِثه" . فلما رأى ذلك أبوه وعمُّه طابت نفوسُهما وانصرفا .

ودُعى زيدَ بنَ محمد حتى جاء الله بالإسلام ، فنزلت : ﴿ أُدْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ﴾ ، فدُعِىَ يومئذ زيدَ بنَ حارثة ، ودُعى الأدعياءُ إلى آبائهم . والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : « من هو قال » والمثبت عن أسد الغابة ، والاستيعاب .
(٢) فى الأصل : « فأخيروه » .
(٣) فى الاستيعاب وأسد الغابة : « قالا » .
(٤) فى الاستيعاب ١ : ٥٢٨ : « وأحسنت فدعاه » .
(٥) عن الاستيعاب ، وانظر أسد الغابة ٢ : ٢٢٥ .
(٦) فى أسد الغابة ٢ : ٢٢٥ : « قد عرفت » .
(٧) فى أسد الغابة ٢ : ٢٢٥ : « فقال : ما أريدهما ، وما أنا بالذى » .
(٨) فى الاستيعاب ص ١٩٢ : « وعلى أهل » .

ذكر من أسلم بدعاء أبي بكر الصدّيق — رضوان الله عليهم —

قال محمد بن إسحاق[١] :

لما أسلم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه أظهر إسلامه، ودعا إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر رجلا مألفا[٢] لقومه محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشرّ، وكان رجلا تاجرا ذا خُلُق ومعروف، وكان رجالُ قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحُسن مجالسته .

فجعل يدعو إلى الإسلام مَنْ وثق به من قومه ممّنْ يَغشاه ويجلس إليه[٣] ، فأسلم بدعائه رضى الله عنه، عثمانُ بن عفّان[٤]، والزُّبَير بن العوّام[٥]، وعبد الرحمن بن عَوف[٦]، وسَعد بن أبي وقّاص[٧]، وطلحةُ بن عُبيد الله[٨]، فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استجابوا له[٩]، فأسلموا وصلّوا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ما دعوتُ أحدا إلى الاسلام إلا كانت عنده كَبْوة[١٠] ونظر وتردّد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قُحافة، ما عَكَم[١١] عنه حين ذكرته له وما تردّد فيه" .

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٦٥

(٢) المألف : الموضع الذى يألفه الناس ، ووصف أبى بكر به على نوع من التجوّز .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ : « إلى الله وإلى الاسلام » .

(٤) الخليفة الثالث قتل سنة ٣٥ . ترجمته فى الاستيعاب ١ : ٤٨٧ والخلاصة للخزرجى ص ٢٢١ ، وغيرهما .

(٥) ابن عمة رسول الله ، توفى سنة ٣٦ بعد وقعة الجمل . وانظر الاستيعاب ٢٠٧

(٦) المتوفى سنة ٣٢ على خلاف ، وانظر الاستيعاب ٤٠٢

(٧) آخر العشرة المبشرين موتا ، مات بالعقيق بقصره على عشرة أميال من المدينة سنة ٥٦ على خلاف . وانظر الاستيعاب ٥٥٨

(٨) أحد العشرة أيضا ، وكان الرسول يسميه طلحة الجود ، وطلحة الخير . مات يوم الجمل سنة ٣٦ . وانظر الاستيعاب ٢١٣

(٩) فى الأصل : « وسلم حتى » .

(١٠) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٩ : « كانت فيه عنده كبوة » .

(١١) ماعكم : ماتلبّث .

قال ابن إسحاق : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا بالإسلام الناسَ فصلّوا وصدّقوا بما جاء من الله .

ثم أسلم أبو عُبيدة[١]، واسمه عامر بن عبد الله بن الجرّاح ، وأبو سلَمة ، واسمه عبد الله بن عبد الأسد[٢]، والأَرقم بن أبي الأَرقم ، واسم أبي الأرقم عبدُ مَناف بن أسد ابن عبد الله بن عمر بن مَخزوم[٣]، وعثمان بن مَظعون[٤]، وأخواه قُدامة[٥]، وعبد الله[٦] ابنا مَظعون ، وعُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مَناف بن قُصيّ بن كلاب بن مُرّة ابن كَعب بن لُؤيّ[٧]، وسعيد بن زيد[٨]، وامرأته فاطمة بنة الخطّاب أخت عمر[٩]،

(١) أحد العشرة ، توفى سنة ١٨ فى طاعون عمواس . وانظر الاستيعاب ٤٦٠

(٢) ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم برة بنت عبد المطلب ، وأخوه من الرضاعة . توفى بعد مرجعه من بدر . وانظر الاستيعاب ص ٣٧٩

(٣) هو سابع من أسلم ، وهو من البدريين ، توفى سنة ٥٥ على خلاف ، وانظر الاستيعاب ٥٠ ، والإصابة ١ : ٢٨ .

(٤) أسلم بعد ثلاثة عشر رجلا ، وهاجر إلى الحبشة ، توفى فى السنة الثانية من الهجرة ، وانظر الإصابة ٢ : ٤٦٤ والاستيعاب ٤٩٤ .

(٥) يكنى أبا عمرو ، هاجر الهجرتين وشهد بدرا : مات فى خلافة على ، واختلفوا فى تحديد سنة وفاته . وانظر الإصابة ٣ : ٢٢٩ ، والاستيعاب ٥٤٨ .

(٦) أبو محمد ، هاجر إلى الحبشة ، وقد وردت أخباره فى ترجمة أخيه عثمان فى الإصابة ٢ : ٤٦٤ ، ٢ : ٣٧١ : وانظر الاستيعاب ٣٧٠ .

(٧) كان رأس بنى عبد مناف ، هاجر وشهد بدرا ، واستشهد بها ، وانظر الإصابة ٢ : ٤٤٩ ، والاستيعاب ٤٢٢ .

(٨) المتوفى بالعقيق سنة ٥١ ، وهو أحد العشرة ، وانظر ترجمته فى الاستيعاب ٥٥٢ .

(٩) تكنى أم جميل ، ولها أثر فى إسلام الخليفة عمر . انظر ترجمتها فى الإصابة ٤ : ٣٨١ ، والاستيعاب ٧٧٤

وأسماء وعائشة بنتا[1] أبي بكر[2] ، وكانت عائشة صغيرة ، وخبّاب بن الأرت[3] حليف بني زُهرة ، وعُمَير بن أبي وقّاص أخو سعد[4] ، وعبد الله بن مسعود[5] ، ومَسْعود بن القاري ، وهو مسعود بن رَبيعة ، [أو الربيع] [6] ، وسَليط بن عمرو ابن عبد شمس[7] ، وعَيّاش بن أبي ربيعة بن المُغيرة[8] ، وامرأته أسماء بنت سلامة ابن مُخَرِّبة التميمية[9] ، وخُنَيس بن حُذافة بن قيس[10] ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب[11] ، وعبد الله بن جحش[12] وأخوه أبو أحمد بن جحش[13] حليفا بني أمية ،

---

(١) كانت تسمى ذات النطاقين ، وقد رويت عنها أحاديث . توفيت بمكة سنة ٧٣ عن سن عالية ، وانظر الاستيعاب ٧٢٤ .

(٢) زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، روى عنها كثير من الأحاديث . توفيت سنة ٥٧ . وانظر الاستيعاب ٧٦٤ .

(٣) أبو عبدالله التميمي ، عذب في سبيل الله ، ومات بالكوفة سنة ٣٧ . وانظر الاستيعاب ٦٤٨ .

(٤) قتل يوم بدر شهيدا وله من العمر ١٦ سنة . وانظر الاستيعاب ٤٣٦ .

(٥) أبو عبد الرحمن ، من زهاد الصحابة ، توفي بالمدينة سنة ٣٢ ، وانظر الاستيعاب ٣٧٠ .

(٦) يكنى أبا عمير ، وهو من القارة ، وهم الهون بن خزيمة بن مدركة . مات سنة ٣٠ ، وانظر الاستيعاب ٢٨١ . وفي الأصل : «بن ربيعة وسليط » .

(٧) من المهاجرين الأولين ، شهد بدرا وسافر عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمامة ، وقتل سنة ١٤ ، وانظر الاستيعاب ٥٩٦ .

(٨) في الأصل : « وعياد » ، والتصويب عن ابن هشام ١ : ٢٧٣ ، والاستيعاب ٢ : ٥٠٨ . وانظر الإصابة ٥ : ٤٧ .

(٩) في الأصل : « ابن جحر » ، والتصويب عن ابن هشام ١ : ٢٧٣ . وانظر الإصابة ٨ : ٧ .

(١٠) من المهاجرين الأولين ، مات بأحد . وانظر الاستيعاب ١٦٩ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٤ .

(١١) كان حليف عمر بن الخطاب حسبما قال أبو عبيدة ، شهد بدرا وسائر المشاهد . وتوفي سنة ٣٣ على خلاف . وانظر الاستيعاب ٤٦١ ، سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٤ . وفي الأصل : «حليف الخطاب» .

(١٢) حليف لبني عبد شمس ، أو لحرب بن أمية ، وهو من المهاجرين الأولين ، مات يوم أحد ومثل به ، ودفن مع حمزة في قبر واحد . وانظر الاستيعاب ٣٥٢ ، سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٤ .

(١٣) في اسمه عبد جحش ، وكان شاعرا . انظر ترجمته في الاستيعاب ٦٤١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٤ .

وجعفر بن أبي طالب،[1] وامرأته أسماء بنت عُمَيس،[2] وحاطب بن الحارث بن مَعْمَر، وامرأته فاطمة بنت المجلّل بن عبد الله،[3] وأخوه خطّاب بن الحارث، وامرأته فُكَيْهة بنت يسار،[4] ومَعْمَر بن الحارث بن معمر،[5] والسائب بن عثمان بن مظعون،[6] والمطّلب ابن أزهر بن عبد عوف،[7] وامرأته رَمْلة بنت أبي عوف بن صُبَيْرة، والنّحام واسمه نُعَيم بن عبد الله،[8] وعامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر الصدّيق،[9] وخالد بن سعيد بن العاص ابن أميّة؛[10] وقد رُوِي أن خالد بن سعيد كان خامس من أسلم، وأن إسلامه كان بعد سعد بن أبي وقّاص، حكاه أبو عُمَر،[11] وامرأته أمينة بنت خَلَف بن أَسْعد،[12] وحاطب

(١) مات يوم مؤتة وله من العمر ٤١ سنة . وانظر الاستيعاب ٨١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ . (٢) هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها . وانظر أخبارها فى الاستيعاب ٧٢٥ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

(٣) الاستيعاب ١٣٣ ، وفى ترجمته ذكرت امرأته فاطمة وذكر إسلامها ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

(٤) الاستيعاب ١٤٩ ، وقد ذكرت أيضا معه امرأته وذكر إسلامها ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

(٥) هو ابن أخت عثمان بن مظعون ، آخى النبي بينه و بين معاذ بن عفراء ، وتوفى فى خلافة عمر . وانظر الاستيعاب ٢٧٨ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

(٦) هو أخو عثمان بن مظعون ، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا . وانظر الاستيعاب ٥٨٨ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ .

(٧) مات بالحبشة مهاجرا ، وانظر الاستيعاب ٢٦٨ ، والإصابة ٨ : ٨٦ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ .

(٨) أسلم قبل عمر ، وكان يكتم إسلامه . واختلف فى وفاته ؛ فقيل بأجنادين ، وقيل باليرموك ، وانظر الاستيعاب ٣١١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ .

(٩) كان مملوكا للطفيل بن عبد الله ، فأسلم وهو مملوك ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه ، ورافق النبي وأبا بكر فى هجرتهما . وانظر الاستيعاب ٤٦٢ ، سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٧ .

(١٠) أسلم مع أبي بكر وهاجر إلى الحبشة ، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات مذحج ، وعلى صنعاء اليمن . وفى مكان وفاته خلاف . وانظر الاستيعاب ١٥٤ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٧ .

(١١) فى الاستيعاب ١٥٤ ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٧ .

(١٢) الاستيعاب ٧٢٦ ، واسم امرأته عند ابن عبد البر « أميمة » ، وانظر أسد الغابة ٥ : ٤٠٢ .

ابن عَمرو بن عبد شمس[1]، وأبو حُذَيفة[2] واسمه مهشم بنُ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ابن عبدَمناف، ويقال فى اسمه هشيم، ويقال هاشم، وواقد[3] بن عبد الله بن عبد مناف ابن عرين بن ثعلَبة[4]، وخالد[5]، وعامر[6]، وعاقل[7]، وإياس[8]، بنو البُكَير بن عبد ياليل وعمار[9] بن ياسر حليف بنى مخزوم، وصُهيب[10] بن سِنان .

٥ قال ابن إسحاق[11] :

ثم دخل الناس [فى الإسلام[12]] أرسالا من الرجال والنساء، حتى فشا ذِكر الإسـلام [بمكة وتُحدث به[12]] .

ولنذكر من كانت له سابقة فى الإسلام غير من ذكرنا والله الموفّق للصواب .

---

(١) هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا، وانظر الاستيعاب ١٣٣ .

١٠ (٢) نقـله ابن عبد البر فى الاستيعاب ٦٥٣ فى ترجمة أبى حذيفة هـذا، وانظر الروض الأنف ١ : ١٦٧ . (٣) الاستيعاب ٦٢٣ .

(٤) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٨، والاستيعاب ٦٢٣

(٥) حالف فى الجاهلية نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب، فهو وولده حلفاء بنى عدى، قتل سنة أربع من الهجرة . وانظر الاستيعاب ١٥٦ .

١٥ (٦) يقال فيه أيضا : ابن أبى البكير . وانظر الاستيعاب ٤٦١ .

(٧) كان اسمه غافلا، فسماه النبي عاقلا . قتل ببدر وسنه ٣٤ سنة، وانظر الاستيعاب ٥٢٤ .

(٨) يقال فيه أيضا : إياس بن أبى البكير، أسلم فى دار الأرقم، له ترجمة فى الاستيعاب ٤٧ .

(٩) هو عنسيّ النسب وحالف بنى مخزوم، عذب فى الله وشهد المشاهد كلها، وفيه ورد الأثر : " يقتل عمار الفئة الباغية " . وانظر الاستيعاب ٤٣٤ .

٢٠ (١٠) يقال فيـه ابن سنان الرومى لأنه تعلم لسان الروم حيث سبوه وهو صغير، وهـو من النمر بن قاسط، وكان أبوه عاملا لكسرى على الأبلة . وانظر ترجمته فى الاستيعاب ٣٢٥ .

(١١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٨٠ .

(١٢) عن ابن هشام ١ : ٢٨٠ .

ذكر تسمية من كانت لهم سابقة فى الإسلام

من العرب من غير قريش

كانت لجماعة سابقةُ إسلام، وهم من غير قريش، فرأينا أن نذكرهم فى هذا الموضع لسابقتهم فى الإسلام .

منهم أبو ذَرّ[1] جُندُب بن جُنادة الغِفارىّ، واختُلف فى اسمه اختلافا كثيرا، ٥
والمشهور ما ذكرناه، واختُلف أيضا فيما بعدَ جُنادة، فقيل جُنادة بن قَيس بن عمرو ابن صُعَير بن حرام بن غِفار، وقيل جنادة بن صُعَير بن عَبيد بن حرام بن غِفار، ويقال جُنادة بن سُفيان بن عبيد بن [صُعير بن][2] حرام بن غِفار؛ أسلم أبو ذَرّ بعد ثلاثة، وقيل: بعد أربعة، فكان خامسا، وله فى سبب إسلامه حديث حَسَن، نذكره إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لأخبار وفود العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠
فى وفد غِفار على ما تقف عليه، وهو فى السِّفر السادس عَشر من كتابنا هذا .
وأسلَم بسبب إسلامه أخوه أُنَيس[3] بن جُنادة وأُمّهما رملة بنت الوقيعة الغِفاريّة[4] .

ومنهم عمرو بن عَبسة[5] بن عامر بن خالد بن غاضرة بن عتّاب بن امرئ القيس ابن بُهثة[6] بن سليم، يكنَى أبا نجيح، ويقال أبو شعيب . قال أبو عمر بن عبد البر: ٦٤/١٤
روينا عنه من وجوه أنه قال: أُلقِىَ فى روعى أن عبادة الأوثان باطل، فسمعنى رجل ١٥
وأنا أتكلم بذلك، فقال: يا عمرو، إن بمكة رجلا يقول كما تقول، قال: فأقبلت إلى مكة

(١) فى صفة الصفوة لابن الجوزى ١ : ٢٣٨ وما بعدها، ترجمة مفصلة لأبى ذر الغفارى، وانظر الحلية لأبى نعيم ١ : ١٥٦، والاستيعاب ٨٢ .
(٢) عن تاج العروس (صعر) .
(٣) كان أكبر من أخيه أبى ذر . له ترجمة فى الإصابة ١ : ٨٨ . ٢٠
(٤) لها ترجمة فى الإصابة ٤ : ٣٠١ .
(٥) فى الأصل: «عمرو بن عنبسة» . وانظر ترجمته فى أسد الغابة ٤ : ١٢٠، والاستيعاب ٤٤٣
(٦) فى الاستيعاب ص ٤٤٣ .

أَوّلَ ما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو مُستخْفٍ[(١)]، فقيل لى : إنك لا تقدر عليه إلا بالّليل حين يطوف، فقمت بين يدى الكعبة فما شعرت إلا بصوته يهلّل، فخرجت إليه فقلت من أنت؟ قال : أنا نبيّ الله، فقلت وما نبيُّ الله؟ قال : رسول الله، قلت وبم أرسلك؟ قال : بأنْ[(٢)] يُعبــد الله وحدَه ولا يُشرَك به شيء، وتُكسَر الأوثان وتُحقَنَ الدماء، [وتُوصلَ الأرحام][(٣)]، قلتُ : ومن معَك على هذا؟ قال : حُرٌّ وعبد، يعنى أبا بكر وبلالا، فقلت : ٱبسط يدك أبايعْك، فبايعتُه على الإسلام. قال : فلقد رأيتُنى وأنا رُبع[(٤)] الإسلام، قال : قلت أقيم معك يارسول الله؟ قال : "لا. ولكن ٱلحق بقومك فإذا سمعتَ أنى قد خرجت فٱتبعنى"، قال : فلحقتُ بقومى، فمكثت دهرا منتظرا[(٥)] خبره حتى أتت رفقة من يثرب فسألتهم الخبر[(٦)]، فقالوا : خرج محمد من مكة إلى المدينة. قال : فارتحلت فأتيتهُ فقلت : أتعرفنى؟ قال : "نعم، أنت الرجل الذى أتيتنا بمكة"[(٧)]. وروَى أبو عمر أيضا بسنده إلى أبى أُمامة البـاهلى أنه حدث عن عمرو بن عَبَسة[(٨)] قال : "رغبتُ عن آلهة قومى فى ٱلجاهلية ورأيت أنها آلهة باطلة[(٩)]، يعبدون الحجارة، وهى لا تضرّ ولا تنفع[(١٠)]، قال : فلقيتُ رجلا من أهل الكتاب فسألته عن أفضل الدين، فقال : يخرج رجل من مكّة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها، وهو يأتى بأفضل الدين، فإذا سمعتَ به فاتّبعه، فلم يكن لى همّ

---

(١) هكذا فى الاستيعاب ٣ ٤٤٣، وفى أسد الغابة ٤ : ١٢٠ : «مختف».

(٢) فى الاستيعاب ٣ ٤٤٣ : «قال أن». (٣) عن أسد الغابة ٤ : ١٢٠.

(٤) فى أسد الغابة ٤ : ١٢٠ : «وإنى لربع».

(٥) فى الأصل : «بقومى، وكنت دهرا منتظرا»، والذى أثبت عن الاستيعاب ٣ ٤٤٣، وانظر أسد الغابة ٤ : ١٢٠.

(٦) فى الاستيعاب : «فسألتهم عن الخبر». (٧) فى الاستيعاب ص ٤٤٤.

(٨) فى الأصل : «عنبسة»، وانظر الاستيعاب ٤٤٤. (٩) فى الأصل : «آلهة باطل»، وانظر الاستيعاب. (١٠) فى الاستيعاب : «والحجارة لا».

إلا مكّة أسأل هل حدث فيها حَدَث؟ (١) فيقولون: لا. فأنصرف إلى أهلى، وأهلى من الطريق غيرُ بعيد، فأعترض الركبان خارجين من مكة فأسألهم هل حدث فيها حدث؟ فيقولون: لا. فإنى لقاعد على الطريق يوماً إذ مرّ (٢) بى راكب فقلت من أين أنت؟ (٣) قال: من مكّة، قلت: هل فيها من خَبَر؟ قال: نعم، رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها، قلت: صاحبى الذى أريد، فشدَدْت راحلتى، وجئت مكة، ونزلت منزلى الذى كنت أنزل فيه، فسألت عنه، فوجدته مستخفيا، ووجدت قريشا إلبًا عليه، فتلطّفتُ حتى دخلتُ عليه، فسلّمت ثم قلت: من أنت؟ قال: «نبيّ الله» (٤)، قلت: وما النبي؟ قال: «رسول الله»، قلت: من أرسلك؟ قال: «الله»، قلت بم أرسلك؟ قال: "أن تُوصَل الارحامُ، وتحقَن الدماءُ، وتُؤمن السبلُ، وتكَسَّر الأوثان، ويُعبدَ الله وحده لا يشرك به شيء". فقلت: نعمَ ما أُرسلتَ به؛ أشهدك أنى قد آمنت بك وصدّقتك، أَمكث معك أم ما تأمرنى؟ (٥). قال: "قد رأيتَ كراهة الناس لما جئتُ به، فامكُث فى أهلك، فإذا سمعتَ أنى خرجت مخرجًا فاتّبعنى". فلما سمعتُ به (٦) خرج إلى المدنية سرتُ حتى قدمتُ عليه فقلت: يا نبيَّ الله، هل تعرفنى؟ قال: "نعم، أنت السُّلَمىّ الذى جئتنى بمكّة فقلتَ لى كذا، وقلتُ لك كذا" (٧).

---

(١) فى الاستيعاب ص ٤٤٤ : « حدث فيها أمر ».

(٢) فى الاستيعاب : «الطريق إذ مر».

(٣) فى الأصل : « من أين قال ».

(٤) رواية الاستيعاب : «قال نبي، قلت : وما النبي؟ قال : رسول، قلت»

(٥) فى الاستيعاب : « أم تأمرنى أن آتى أهلى ».

(٦) فى الاستيعاب : « به أنه خرج ».

(٧) فى الاستيعاب : « كذا وقلت كذا ».

ومنهم عتبة بن غَزْوان بن جابر[1]، ويقال عُتْبة بن غَزْوان بن الحارث بن جابر ابن وهب بن نُسيب[2] بن زيد بن مالك بن الحارث بن عوف بن [الحارث بن][3] مازن بن منصور بن عِكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان[4] بن مضر بن نزار المازنى حليف لبنى نوفل بن عبد مناف[5]، يكنى أبا عبد الله، وقيل أبا غَزْوان، كان إسلامُه بعد ستّة رجال، فهو سابعُ سبعة [فى إسلامه، وقد قال ذلك فى خطبته بالبصرة : " لقد رأيتُنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله سابعَ سبعةٍ][6] مالنا طعامٌ إلا ورق الشَّجر حتى قَرِحَتْ أشداقُنا ". رضى الله عنهم أجمعين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

ذكر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام

قال محمد بن إسحاق[7] :

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلَّوا ذهبوا فى الشِّعاب، فاستخفَوْا بصَلاتهم من قومهم، فبينا سعدُ بن أبى وقّاص فى نَفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شِعْب من شِعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين وهم يصلّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يَصْنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبى وقّاص يومئذ رجلا من المشركين بِلَحى[8] بعير، فشجّه[9]، فكان أولَ دم هُرِيقَ فى الإسلام.

(١) ترجمته فى الاستيعاب ٥٠٥، وأسد الغابة ٣ : ٣٦٣، والإصابة ٢ : ٤٤٨.
(٢) كذا فى الاستيعاب، وفى أسد الغابة : «وهيب». (٣) عن أسد الغابة ٣ : ٣٦٣.
(٤) كذا فى أسد الغابة وفى الأصل : «بن قيس بن عيلان». (٥) فى أسد الغابة، والاستيعاب : «مناف بن قصى يكنى». (٦) عن أسد الغابة ٣ : ٣٦٤. والاستيعاب ص ٥٠٥، وفى الأصل : «سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لنا».
(٧) نقله ابن هشام ١ : ٢٨١. (٨) الخشنى ١ : ٨١ «اللحى : العظم الذى على الخد».
(٩) شجه : جرحه فى وجهه أو رأسه.

ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يَصْدَع(١) بما جاء به(٢) من عند الله وأن ينادىَ الناس بأمره، وأن يدعوَهم إلى الله تعالى، فكان يدعو(٣) ثلاث سنين مستخفيا، إلى أن أمر الله بإظهار الدعاء.

قال محمد بن سعد(٤): قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى(٥): لما أمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يُعلم الناس نزولَ الوحى عليه، ويدعوَهم إلى الإيمان به، كبر ذلك عليه، فنزل قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، قالت عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحرَس حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القُبَّة(٦)، فقال [لهم]: "أيها الناس، انصرفوا فقد عصمنى الله"؛ قيل: يعصمك من قتلهم أن يقتلوك، فبلَّغ عند ذلك الرسالة.

وعن الزهرىّ(٧)، قال: دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام سرا وجهرا، فاستجاب لله تعالى مَنْ شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كَثُر من آمن بالله؛ وكفارُ قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مرَّ عليهم فى مجالسهم يشيرون إليه: إنّ غلامَ بنى عبد المطلبُ ليُكلَّم من السماء، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التى يعبدونها دونَه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فعند ذلك عادَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم وناكَروه، وأجمعوا عَلاقة(٨).

(١) انظر طبقات ابن سعد ١: ١٣٢ (قسم أول). (٢) رواية ابن سعد: «بما جاءه من».
(٣) رواية ابن سعد فى الطبقات ١: ١٣٢ (قسم أول): «يدعو من أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين». (٤) فى الطبقات ١: ١٣٢ (قسم أول). (٥) فى دلائل النبوة للبيهقى ورقة ١٤١
(٦) عن دلائل النبوة للبيهقى. (٧) طبقات ابن سعد ١: ١٣٣. (٨) العلاقة: الخصومة.

قال ابن عباس[1] رضي الله عنه : لما أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصَّفا فقال : "يا معشر قريش"، فقالت قريش: محمد على الصَّفا يهتف، فأقبلوا واجتمعوا، فقالوا: مالك يا محمد؟ فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقونى"؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متَّهم، وما جرَّبنا عليك كذبا قط، قال: "فإنى نذير لكم بين يدى عذابٍ شديد يا بنى عبد المطلب يا بنى عبد مَناف يا بنى زُهرة "، حتى عدَّد الأفخاد من قريش " إن الله أمرنى أن أُنذر عشيرتى الأقربين، وإنى لا أملك لكم من الدُّنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله" قال: فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ السورةَ كلَّها . قال الواقدى[2] : لما أظهر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ومن مَعه ، وفشا أمره بمكّة، ودعا بعضُهم بعضا، فكان أبو بكر يدعو ناحيةً سرًّا، وكان سعيد بن زيد مثله[3] ، وعثمانُ مثلَ ذلك ، [وكان عُمر يدعو علانيةً وحمزةُ ابن عبد المطلب[4]] وأبو عُبيدة بن الجراح ؛ فغضبت قريش من ذلك ، وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحَسَدُ والبَغى، وأشخص به[5] منهم رجالٌ فبادَوه، وتستَّر آخرون وهم على ذلك الرّأى، إلا أنهم يُنزّهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) نقله ابن سعد فى الطبقات ١ : ١٣٣ (قسم أول)، وابن كثير فى البداية ٣ : ٣٨ على خلاف فى الرواية .
(٢) نقله ابن سعد فى الطبقات ١ : ١٣٢ (قسم أول) .
(٣) فى طبقات ابن سعد : « زيد مثل ذلك، وكان عثمان » .
(٤) عن ابن سعد فى الطبقات ١ : ١٣٣ (قسم أول) .
(٥) أشخصوا به : أقلقوه .

ذكر أعداء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

الذين جاهروا بالعداوة

قالوا : كان[1] أهل العداوة والمباداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين يَطلبون الجدلَ والخصومة : أبو جهل بن هشام، وأبو لَهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يَغوث، والحارث بن قيس بن عَدىّ، والوليد بن المُغيرة، [وأمية وأُبَىّ ابنا خلَف ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة][2] ، والعاص بن وائل ، والنَّضر ابن الحارث، ومُنبِّه بن الحجاج، وزُهير بن أبى أُمية ،والسائب بن صيفىّ[بن عابد][3]، والأسود بن عبد الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هشام[4] ، وعُقبة بن أَبى مُعَيط ، وأبو الأَصْدَى[5] ، وهو الذى نطحته الأَروَى ، والحَكَم ابن أبى العاص، وعَدىّ بن الحمرَاء، وذلك أنهم كانوا جيرانَه؛ والذين[6] كانت تنتهى عداوةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم : أبو جهل ، وأبو لَهب ، وعُقْبة ابن أبى مُعَيط؛ وكان عُتبة[7] وشَيبة ابنا ربيعة وأبو سُفيان بن حَرب أهلَ عداوة، ولكنهم لم يُشخِصوا بالنبى صلى الله عليه وسلم؛ كانوا كنحو قريش ، ولم يسلم من هؤلاء إلا أبو سُفيان والحَكَم بن أبى العاص .

(١) انظر طبقات ابن سعد ١ : ١٣٣ (قسم أوّل) .

(٢) عن ابن سعد ١ : ١٣٣ (قسم أوّل) .

(٣) عن ابن سعد أيضا .

(٤) فى طبقات ابن سعد : « ابن هاشم » .

(٥) ابن سعد : « وابن الأصدى الهذلى » .

(٦) فى الأصل : « والذى كانت » تصحيف .

(٧) انظر طبقات ابن سعد ١ : ١٣٤ : (قسم أوّل) ، وشرح المواهب ١ : ٢٨٢ ، والبداية ٣ : ٤٧ .

ذكر دخول قريش على أبي طالب في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان بينهم من المحاورات

قال محمد بن إسحاق[١] :

لما رأت قُريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُعتِبهم[٢] من شيء أنكروه عليه، ورأوا أن عمّه أبا طالب قد حدِب عليه، وقام دونه فلم يسلِمه[٣] لهم، مشى رجال من أشراف قُريش إلى أبي طالب، وهم : عُقْبة وشيبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس، وأبو سُفيان صَخر بن حرب، وأبو البختريّ العاص بن هشام، والأسود بن المطّلب بن أسَد، وأبو جهل عمرو بن هشام، ونَبيه ومُنبّه ابنا الحجّاج ابن عامر، والعاص بن وائل، فقالوا : يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سَبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامَنا وضلّل آباءَنا ، فإما أن تكفّه عنا ، وإما أن تخلّي بيننا وبينه ، فإنك على سبيل[٤] ما نحن عليه من خِلافه فنكفيكَه ، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا، وردّهم ردّا جميلا، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه يُظهِر دينَ الله ويدعو إليه، ثم شَرِيَ[٥] الأمرُ بينه وبينهم حتى تَباعد الرّجال وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذِكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها، فتذامروا[٦] فيه، وحضّ بعضُهم بعضا عليه ،

(١) نقله ابن هشام في السيرة ١ : ٢٨٢ ، وانظر عيون الأثر ١ : ٩٩ .

(٢) لا يعتبهم : لا يرضيهم ؛ يقال استعتبني فأعتبته : أي أرضيته وأزلت العتاب عنه .

(٣) في عيون الأثر ١ : ٩٩ : « ولم يسلمه » .

(٤) في الطبري ٢ : ٢١٨ وعيون الأثر ١ : ٩٩ ، والبداية : ٣ ؛ ٤٧ : « على مثل » .

(٥) شرى الأمر : اشتدّ واستفحل ، وفي الأصل : « سرى » تصحيف .

(٦) تذامروا : أي تلاوموا على فوت الفرصة ، أو حض بعضهم بعضا على الجد في القتال . وانظر شرح المواهب للزرقاني ١ : ٢٤٨ .

ثم مشوا إلى أبي طالب مرّة أخرى فقالوا : يا أبا طالب ، إن لك سنًّا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَه عنّا ، وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شَتْمِ آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفّه عنا ، أو ننازلَه وإيّاك في ذلك حتى يهلِك أحدُ الفريقَيْن ؛ ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتُهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا خِذلانه .

فبعث أبو طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق عليّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلْني من الأمر ما لا أطيق ؛ قال : فظَنّ (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه ، وأنه خاذِله ومسلِمُه ، وأنه قد ضَعف عن نُصرته والقيامِ معه ، فقال له (٢) : "يا عمّ ، والله لو وضعوا الشّمس في يميني والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظْهِره الله أو أهلِك فيه ما تركْتُه" ؛ ثم استعبَر (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبِل يابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذهب يابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أُسلِمك لشيءٍ أبدا .

قال (٤) : ثم إن قُريشا لما عرفوا (٥) أن أبا طالب قد أبى خِذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعُمارة ابن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : يا أبا طالب ، هذا عُمارة بن الوليد أنهَدُ (٦) فتى في قُريش وأجملُه ، فخذه فلك عَقلُه ونَصرُه ، واتّخذه ولدا فهو لك ، وأسلِم لنا ابن أخيك هذا

(١) في الأصل : « قد بذل » .
(٢) في البداية (٣ : ٤٨) عن ابن إسحاق : « فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عم » .
(٣) في سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٥ ، وعيون الأثر ١ : ١٠٠ ، والبداية ٣ : ٤٨ : « وسلم فبكى ثم قام » .
(٤) القائل ابن إسحاق ، وانظر السيرة لابن هشام ١ : ٢٨٥ ، وعيون الأثر ١ : ١٠٠ .
(٥) في سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٥ ، وعيون الأثر : « حين عرفوا » .
(٦) أنهد : أشد وأقوى .

الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنمـا هو رجُل برجل، قال: والله لبئس ما تسومونني[1]، أتعطونني[2] ابنكم[3] أغذُوه لكم، وأُعطيكم ابني تقتلونه ؟ هـذا والله ما لا يكون أبدا ، فقـال له المطعِم[4] بن عدِىّ ابن نوفل بن عبد مَناف بن قُصىّ : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومُك، وجهدوا على التخلُّص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا؛ فقال له أبو طالب : والله ما أنصفونى ، ولكنّك أجمعت[5] خِذلانى ومظاهرة القوم علىّ، فاصنع ما بدا لك، فحَقَب[6] الأمرُ، وحَميت الحربُ، وتنابذ القوم، وبادَى بعضُهم بعضا .

قال الواقدى[7] :

لمـا أجابهم أبو طالب بمـا قدّمناه من أنهـم ما أنصفوه قالوا له : فأرسِـل إليه فلنُعطه النّصَف، فأرسل إليه أبو طالب، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يابن أخى، هؤلاء عُمومتك، وأشراف قومك، وقد أرادوا ينصفونك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قولوا أَسمع" قالوا : تَدعُنا وآلهتنا، وندعُك وإلهَك، قال أبو طالب : قد أنصفَك القوم فاقبَل منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرأيتكم[8] إن أعطيتكم هذه هل أنتم مُعطِىّ كلمةً إن أنتم تكلّمتم بها، ملكتم بها العَرب، ودانت لكم بهـا العجَم"؟ فقال أبو جهل : إنّ هذه لكلمةٌ مربِحـة، نعم، وأبيك

(١) فى الأصل ، وعيون الأثر : « رجل كرجل » ، وانظر البداية ٣ : ٤٨ .
(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٥ : «فقال» .
(٣) فى الأصل : « أتمطونى » .
(٤) فى الأصل : « فقال له المطعم » تصحيف ، وانظر الطبرى ٢ : ٢٢٠ .
(٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٨ ، وعيون الأثر : « قد أجمعت » .
(٦) حقب الأمر : زاد واشتدّ .
(٧) نقله ابن سعد فى الطبقات ١ : ١٣٥ (قسم أوّل) .
(٨) فى رواية ابن سعد : « أرأيتم » .

لنقـولنّها وعشَر أمثالهـا ، قال : « قولوا لا إله إلا الله » ، فاشمأزّوا ونفروا منها وغضبوا، وقاموا وهم يقولون: ﴿ وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾، و يقال: إن الذى تكلّم بهـا عُقبة بن أبى مُعَيط ، وقالوا : لا نعود إليه أبدًا، وما خيرٌ من أن نغتال محمدا[1] . فلمـا كان من تلك الليلة[2]، فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء أبو طالب وعُمومته إلى منزله فلم يجدوه، بجمع فِتيانا من بنى هاشم و بنى المطّلب ، ثم قال : ليأخُذ كلُّ واحدٍ حديدةً صارمة ، ثم ليتبعْنى إذا دخلت المسجد فليجلس كلُّ فتًى منكم إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظليّة، يعنى أبا جهل، فإنه لم يغب عن شرٍّ إن كان محمد قد قُتِل ، فقال الفِتيان : نفعل، فجـاء زيد بن حارثة، فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال : يا زَيد، أَحْسَسْتَ[3]، ابنَ أخى ؟ قال: نعم، كنت معه آنفا، فقال أبو طالب : لا أدخل بيتى أبدًا حتى أراه، فخرج زيد مسرعا حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهوَ فى بيتٍ عند الصَّفا، ومعه أصحابه يتحدّثون، فأخبَره الخبر، فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى طالب، فقال : يابن أخى، أين كنت ؟ أكنتَ فى خير ؟ قال : نعم، قال : ادخل بيتَك، فدخل رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده فوقف على أندية قُريش ومعه الفِتيان الهاشميّون والمطّلبيّون، فقال : يا معشر قُريش، هل تدرون ما هَممت به ؟ قالوا : لا . فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان : اكشِفوا عما فى أيديكم ، فكشَفوا فإذا كلُّ رجل معـه حديدة صارمة ، فقال : والله لو قتلتموه ما بقّيتُ منكم أحدا حتى نتفانَى نحن وأنتم ، فانكسر القوم ، وكان أشدَّهم انكسارا أبو جهل .

---

(١) ابن سعد : « يغتال محمد » . (٢) ابن سعد « كان مساء تلك » .
(٣) أحسستَ : هل رأيت .

ذكر تحزب قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذاهم له ولأصحابه

قال ابن إسحاق (1) :

لما أيست قريش من أبي طالب، وأنه لا يخذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يسلمه أبدا، تآمروا (2) بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [الذين أسلموا معه] (3) ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، فقام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ذلك في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه، فقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب فإنه تمادى على غيه وكفره .

قال (4) : ثم اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستفد (5) عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيا نقول به، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ؛ قالوا : نقول كاهن؛ قال : لا ، والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة (6)

(1) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٧ .

(2) في سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٧ : « تذامروا » ؛ وانظر الزرقاني ١ : ٢٤٨ ؛ والبداية ٣ : ٤٩ .

(3) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٧ ، وانظر الزرقاني ١ : ٢٤٨ ، والبداية ٣ : ٤٩ .

(4) القائل ابن إسحاق ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٨ وعيون الأثر ١ : ١٠١ .

(5) في عيون الأثر : « ستقدم » .

(6) في الأصل : « برمرمة » .

الكاهن ولا سجعه، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما[1] هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته؛ قالوا : فنقول شاعر؛ قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزه وهزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر؛ قالوا : فتقول : ساحر، قال : ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحار وسِحرهم، فما هو بنَفْثه ولا عَقده[2]؛ قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذْق[3]، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : ساحر، جاء بقولٍ هو سحر يفرِّق[4] بين المرء وأبيه، وبين المرء [وأخيه ، وبين المرء] [5] وزوجه، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إياه وذكروا له أمره، فأنزل الله تعالى فى الوليد ابن المغيرة : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى خصيما مخالفا ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ . قال ابن هشام : بَسَر[6] أى كرّه وجهه، ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ .

---

(١) فى عيون الأثر : « والله ما هو » .

(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٩ : « بنفثهم، ولا عقدهم » .

(٣) يروى أيضا : « لغدق » بغين معجمة ، وكسر الدال ، وفى الأصل : « لغدقه » ، وانظر شرح المواهب ١ : ٢٥١ ، وعيون الأثر ١ : ١٠١ .

(٤) فى عيون الأثر ١ : ١٠١ : « يفرق به بين » .

(٥) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٩ ، وعيون الأثر ١ : ١٠١ .

(٦) فى السيرة ١ : ٢٨٩ .

قال ابن إسحاق[١] :

وأنزل الله فى النَّفر الذين كانوا معه يصنّفون القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما جاء به من عند الله : ﴿ الذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ ﴾ أى أصنافا ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

٥ قال ابن إسحاق[٢] :

وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتشر ذِكْرُه فى بلاد العرب كلها . قال[٣] : ثم ابتدأت قُريش فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فأغروا به صلى الله عليه وسلم سفهاءهم ، فكذّبوه وآذوه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مُظهِرٌ لأمر الله لايستخفِى به ، مُبادٍ لهم

١٠ بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إيّاهم[٤] على كفرهم .

قال محمد بن إسحاق[٥] :

حدّثنى يحيى بن عُروة عن الزُّبير عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال : قلت له ما أكثرُ ما رأيت قريشا أصابوا[٦] من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يُظْهِرون[٦] من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع

١٥ أشرافهم يوما فى الحِجْر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثلَما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قَطّ ؛ سفّه أحلامنا ، وشتم آباءنا ،

---

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٩٠ .

(٢) نقله ابن هشام ١ : ٢٩١ ، وانظر عيون الأثر ١ : ١٠١ .

(٣) نقله ابن هشام ١ : ٣٠٨ .

٢٠ (٤) فى الأصل : « وفراق آبائهم » تحريف .

(٥) انظر تاريخ الطبرى ٢ : ٢٢٣ .

(٦) فى تاريخ الطبرى ٢ : ٢٢٣ : « أصابت ... ... كانت تظهر » .

وعاب ديننا ، وفرّق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ؛ لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا ؛ فبينما هم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، قال : فعرفتُ ذلك فى وجهه صلى الله عليه وسلم ، ثم مضى ، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتُ ذلك فى وجهه ، ثم مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : "أتسمعون يامعشر قريش؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذَّبح [(١)]". قال : فأخذت كلمتُه القوم حتى ما منهم رجُل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدَّهم فيه وَصاةً [(٢)] قبل ذلك ليَرْفَؤُه [(٣)] بأحسن مايجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنتَ جهولا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحِجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا دنا منكم و باداكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم فى ذلك طلع رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وَثبةَ رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول : "نعم ، أنا الذى أقول ذلك". قال : فلقد رأيتُ رجلا منهم أخذ بِمَجمع [(٤)] ردائه ، فقام أبو بكر دونَه وهو يبكى و يقول : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ، ثم انصرفوا عنه . فإن ذلك لأشدُّ ما رأيتُ قريشا نالوا منه قطّ [(٥)] .

(١) زاد أبو نعيم فى الدلائل ص ١٦٥ : « ... وأشار بيده إلى حلقه » . وفى الأصل : « بالربح » ، والمثبت عن ابن هشام ١ : ٣٠٩ ، وانظر شرح المواهب ١ : ٢٥١

(٢) الوصاة : الوصية . (٣) ليرفؤه : يهدئه .

(٤) فى تاريخ الطبرى ٢ : ٢٢٣ : « بجمع ردائه » .

(٥) ذكر هذا الخبر بمعناه فى شرح المواهب ١ : ٢٥١ ، وانظر الطبرى ٢ : ٢٢٣ .

قالت أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما : لقد رجع أبو بكر يومئذ وقد صدّعوا فرق[1] رأسه ممّا جبذوه بلحيته، وكان رجلا كثير الشعر .

وخرّج الترمذىّ الحكيم فى «نوادر الأصول» ، من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : اجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل هذا يجأه وهذا يتلتله[2] ، فاستغاث النبىّ صلى الله عليه وسلم فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ ذا ويتلتل ذا ، ويقول بأعلى صوته : ويلكم ، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾[3] ، والله إنه لرسول الله ، فقطعت إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئذ ، فقال علىّ : والله ليوم أبى بكر خيرٌ من مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه فى كتابه ، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل .

قال ابن هشام[4] :

حدّثنى بعض أهل العلم : أن أشدّ ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش : أنه خرج يوما فلم يلقه أحد من الناس إلا كذّبه وآذاه [لا] حرٌّ[5] ولا عبدٌ ، فرجع صلى الله عليه وسلم إلى منزله فتدثّر من شدّة ما أصابه ، فأنزل الله عز وجل عليه : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ .

(١) فى الأصل : «فوق» ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٣١٠ .
(٢) فى شرح المواهب ١ : ٢٥٢ : «وهذا يتابه» .
(٣) نقله بمعناه فى شرح المواهب ١ : ٢٥٢ .
(٤) فى السيرة ١ : ٣٨٠ .
(٥) فى الأصل : «وآذاه حرّ ولا» .

ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال محمد بن إسحاق[١] :

حدثني رجلٌ من أسلَم كان واعية[٢] : أن أبا جَهل بن هشام مر برسولِ الله صلى الله عليه وسلم عند الصَّفا فآذاه وشتمه ، ونال منه بعضَ ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلِّمه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ومولاةٌ لعبد الله بن جُدْعان تسمعُ ذلك ، ثم انصرف أبو جهل عنه عامدًا إلى نادِي قريش عند الكعبة ، فلم يلبث حمزةُ بن عبد المطلب أن أقبل متوشِّحا قوسه[٣] ، راجعا من قَنَص له ، وكان حمزة أعزَّ فتًى في قريش وأشدَّه شكيمة ، فلما مر بمولاة ابن جُدْعان قالت له : يا أبا عُمارة : لو رأيتَ ما لقى ابن أخيك محمد آنفًا من أبي جَهْل ابن هشام ؛ وجَده ههنا جالسًا فآذاه وسبَّه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلِّمه محمد ، فغضِب حمزة ، فخرج يسعَى حتى دخل المسجد فنظر إلى أبي جهلٍ جالسا في القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ، فشجَّه شجَّة منكرة ، ثم قال : أتشتُمه؟ فأنا[٤] على دينه أقول ما يقول ، فرُدَّ ذلك علىّ إن استطعت ، فقامت رجال بني مخزوم إلى حمزة ليَنصُروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عُمارة ، فإني والله لقد سَبَبت ابن أخيه سَبًّا قبيحا ، وتَمَّ حمزةُ على إسلامه ، وعلى ما بايَع[٥] عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ؛ فلما أسلم حمزة عرفت

(١) نقله ابن هشام في السيرة ١ : ٣١١ ، وانظر شرح المواهب ١ : ٢٥٥ .

(٢) في عيون الأثر ١ : ١٠٤ : « وكان راعية » .

(٣) في عيون الأثر : « متوشحا سيفه » .

(٤) في سيرة ابن هشام ١ : ٣١٢ ، وشرح المواهب ١ : ٢٥٦ : « وأنا » .

(٥) في سيرة ابن هشام ١ : ٣١٢ : « ما تابع » ، وانظر شرح المواهب ١ : ٢٦٥ .

قُريش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد عَزّ وامتنع، وأن حمزةَ سيمنعه، فكَفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه قبلُ، قال : وكان إسلام حمزةَ قبل إسلام عمر ابن الخطاب — رضى الله عنهما — بثلاثة أيام.[1]

ذِكرُ مشيِ عُتبة بنِ ربيعةَ، والوليدِ بنِ المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسماعهما القرآن، واعترافِهما أنه لا يشبه شيئا من كلامهم، وما أشار [به] عُتبة على أشراف قُريش فى أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

قال محمد بن إسحاق[2] :

حدّثنى يزيد بن زياد[3]، عن محمد بن كعب القُرَظىّ قال : حُدِّثت أن عُتبة بن ربيعة — وكان سيّدا — قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، والنبىُّ صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحدَه : يا معشر قُريش، ألا أقوم إلى محمّد فأكلّمه وأعرِضَ عليه أمورًا، لعلّه يقبل بعضَها فنعطيه أيّها شاء ويكفّ عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثُرون، فقالوا : بلى يا أبا الوليد، فقُم إليه فكلّمه، فقام إليه عُتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يابن أخى، إنّك منّا حيث قد علِمتَ من السِّطة فى العشيرة، والمكانِ فى النسب، وإنّك قد أتيت قومَك بأمرٍ عظيم فرّقتَ به جماعَتهم، وسفّهت به أحلامَهم، وعِبتَ[4] به آلهتَهم ودينَهم، وكفّرت به من مضى

(١) فى شرح المواهب ١ : ٢٥٦ : «سنة ست من النبوّة وقيل فى السنة الثانية»، وانظر أسد الغابة ٢ : ٤٦ — ٥٠.
(٢) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٣١٣، وابن سيد الناس فى عيون الأثر ١ : ١٠٥.
(٣) فى عيون الأثر : «ابن أبى زياد».
(٤) فى الأصل : «عيبت»، والمثبت رواية ابن هشام.

من آبائهم ، فاسمَع منى أَعرِضْ عليك أُمورا تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها(١) ، قال : "قل ياأبا الوليد أسمع" ، قال : يابن أخى ، إن كنتَ إنما تريد مما جئتَ به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرنا مالًا ، وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطعَ أمرا دونك ، وإن كنت تريد مُلكا ملَّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيّا(٢) تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبْنا لك الطّبّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه ، فإنه ربّما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى منه ، أو كما قال له . حتى إذا فرغ عُتبة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يسمع(٣) منه قال : "أقد فرغتَ ياأباالوليد"؟ قال : نعم ، قال : "فاسمع منى" ، قال : أفعل ، قال : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤)﴾ . ثم مضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها عُتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلفَ ظهره معتمدًا عليهما(٥) يستمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى السّجدة(٦) فسَجد ، ثم قال : "قد سمعتَ ياأبا الوليد ما سمعتَ ، فأنت وذاك" .

فقام عُتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذَهب به ، فلما جلَس إليهم قالوا : ما وراءك

(١) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ٣١٣ ، وفى شرح المواهب ١ : ٢٥٨ : « منا » .

(٢) الرئى بفتح الراء فهمزة مكسورة فياء مشدّدة : التابع من الجن ، وقيل : التابع المحبوب من الجن . وانظر النهاية (رأى) ، وشرح المواهب ١ : ٢٥٨ .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ٣١٤ : « يستمع » .

(٤) سورة فصلت الآيات من ١ — ٤ .

(٥) فى الأصل : « معتمدا عليها » ، والمثبت رواية ابن هشام .

(٦) عيون الأثر ١ : ١٠٦ : « السجدة منها فسجد » .

يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله[1] قطّ ، والله ما هو بالشِّعر ، ولا بالسِّحر ، ولا بالكَهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونَنّ لقوله الذى سمعتُ نبأٌ [عظيم][2] ، فإن تصبْه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم[3] ، وإن يَظْهَر على العرَب فملكه ملكُكم ، وعزُّه عزّكم ، وكنتم أسعد الناس به ؛ فقالوا[4] : سَحَرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بَدا لكم .

وروى أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقىّ[5] بسنده إلى جابر بن عبد الله ، قال : قال أبو جهل والملأُ من قُريش : لقد انتشر علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكَهانة والشِّعر فكلّمه ، ثم أتانا ببيان أمره ؟ فقال عتبة : لقد سمعتُ بقول السحَرة والكهانة والشعر ، وعلمت من ذلك علماً ، وما يخفَى علىّ إن كان كذلك ، فأتاه عُتبة فقال[6] : يا محمد ، أنت خيرٌ أم هاشم ؟ [أنت خيرٌ أم عبد المطّلب[7]] ؟ أنت خيرٌ أم عبد الله ؟ فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فيم تشتم آلهتنا ، وتضلّل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة عَقَدْنا ألويتَنا لك ، فكنتَ رأسَنا ما بقيت ، وإن كان بك الباه زوّجناك عشرَ نسوةٍ تختارُ من أىّ بنات قريش شئت ، وإن كان بك المالُ جمعْنا لك من أموالنا ما تستغنِى بها أنت وعَقِبك من بعدك ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلّم ؛ فلما فرغ من حديثه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) فى سيرة ابن هشام : «أنى قد سمعت» .

(٢) فى الأصل ، وعيون الأثر ١ : ١٠٦ : «نبأ فإن» ، والرواية المثبتة عن ابن هشام ١ : ٣١٤ .

(٣) فى الأصل : «لغيركم» . (٤) فى سيرة ابن هشام ، وعيون الأثر : «قالوا» .

(٥) دلائل النبوّة ورقة ١٤٦ . (٦) فى دلائل النبوّة : «فأتاه ، فلما أتاه قال له عتبة» .

(٧) عن دلائل النبوّة .

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ (١) حتى بلغ قوله تعالى : ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (٢)، فأمسك عُتبة علَى فِي النبيّ صلى الله عليه وسلم، وناشَده الرَّحِم أن يكفَّ، ولم يخرج إلى أهله واحتبَس عنهم؛ فقال أبو جهل : يا عُتْبة، ما حسِبنا إلا أنك صَبَوْت إلى محمد وأعجبك أمرُه، فإن كانت بك حاجةٌ جمعنا لك من أموالنا ما يُغنيك عن طعام محمد ، فغضب وأقسم بالله لا يكلّم محمدا أبدا، وقال: لقد علمتم أنّي مِن أكثرِ قريش مالا، ولكنى أتيته، وقصّ عليهم القِصّة، قال : فأجابنى بشيء والله ما هو بِسحرٍ ولا شِعر ولا كَهانة، قرأ علىّ : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ﴾ إلى قوله : ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عادٍ وثَمُودَ﴾ فأمسكت بفِيه وناشدتُه الرحم أن يكفّ، وقد علمتُم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فيه ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .

وأما الوليد بن المغيرة فقد روَى أبو بكر أحمد بن الحسين البيْهقىّ (٣) بسنده عن عِكرمة عن ابن عباس أن الوَليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال : يا عمّ إن قومك يرَوْن أن يجمعوا لك مالا، قال : لِمَ؟ قال : ليُعطوكَه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قِبَله، قال : قد علِمتْ قريشٌ أنى من أكثرها مالا، قال : فقل فيه قولا يَبلُغ قومَك أنك مُنكِرٌ (٤) له، وأنك كاره له، فقال (٥) : وما ذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّى، ولا أعلم برَجَزِه ولا بقَصيده منّى، ولا بأشعار الجنّ؛ والله ما يُشبِه الذى يقول شيئا من هذا، [و] (٦) والله إن لقوله الذى يقول لحَلاوة، و إن عليه لطَلاوة، و إنه لمثمر أعلاه، مُغدِقٌ أسفلهُ ، و إنه ليَعلُو وما يُعلَى ، و إنه ليَحطم ما تحته . قال :

(١) سورة فصلت الآيات من ١ — ٣
(٢) سورة فصلت آية ١٣
(٣) دلائل النبوّة ورقة ١٤٥ .
(٤) فى دلائل النبوّة : « منكر لها »
(٥) فى دلائل النبوّة : « قال » .
(٦) تكملة من دلائل النبوّة

لا يرضى عنك قومُك حتى تقول فيه . قال : فدَعْنى حتى أفكّر فيه ، فلما فكّر قال : هذا سِحر يُؤْثَر، يأثره عن غيره[1] ، فنزل قولُه تعالى : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ... ﴾[2] الآيات .

وعن عِكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال له : اقرأ علىّ، فقرأ عليه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[3]، قال : أعِد علىّ، فأعاد عليه النبىّ صلّى الله عليه وسلم فقال : والله إنّ له لحلاوة، وإنّ [عليه لطَلاوة، وإن][4] أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمَغدِق، وما يقول هذا بشر .

ذِكر اجتماع أشراف قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

٧١/١٤

وما عرضوا عليه وما طلبوا منه أن يُريَهم ويُخبرَهم به من القصص، وأخبار مَن سَلف وغير ذلك من غيّهم ، وما أُنزل عليه فى ذلك ممّا سنذكره إن شاء الله تعالى، ويُترجم على بعض ما انطوت عليه هذه الترجمة من القَصص بما يدل عليها، ويبيّنها من التراجم وإن كانت داخلة فيها .

قال محمد بن إسحاق[5] :

ثم إن الإسلام جعل يفشُو بمكّة فى قبائل قريش ، فى الرجال والنساء . وقُريش تحبِس من قَدَرتْ على حبسه ، وتفتِن من استطاعت فِتنتَه من المسلمين، ثم اجتمعت أشرافُ قريش من كلّ قبيلة ، كما رُوِى عن سعيد بن

(١) فى الأصل : « فأثره عن غيره » وانظر دلائل النبوّة ورقة ١٤٥ .
(٢) صورة المدثر آية ١١ .
(٣) سورة النحل آية ٩٠ .
(٤) فى الأصل : « لحلاوة ، وإن أعلاه » ، والتكملة عن البيهقى حيث النقل عنه .
(٥) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٣١٥ .

جُبير وابنِ عباس ، قالا : اجتمع عُتبة بن ربيعة ، وشَيبة بن رَبيعة ، وأبو سُفيان ابن حَرب ، والنّضر بن الحارث بن كَلَدة ، وأبو البَختَرىّ بن هِشام ، والأسود ابن المطّلب بن أسَد ، وزَمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جَهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أميّة ، والعاص بن وائل ، ونُبيه ومُنبّه ابنا الحجّاج السَّهميّان ، وأمية ابن خَلَف ، أو من اجتمع منهم ، فاجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظَهْر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعذِروا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشرافَ قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك ، فأتِهم ؛ فجاءهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سريعًا ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بَداء ، وكان حريصًا عليهم ، يحبّ رُشدَهم[(١)] ، حتى جَلس إليهم فقالوا : يا محمد إنّا قد بَعثنا إليك لنكلّمك ، وإنا والله لا نعلَم رجلا من العرب أدخلَ على قومه ما أدخلتَ [على قومك][(٢)] ؛ لقد شتمتَ الآباء ، وعِبت الدِّين ، وسبّبتَ[(٣)] الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرّقت الجماعة ، فما بَقِيَ أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، أوكما قالوا له ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك ، وكلّموه بنحو ما كلّمه به عُتبة بن رَبيعة على ما قدّمناه آنفا .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما بي [ما][(٤)] تقولون ، ما جئتُ بما جئتُكم أطلُب به أموالَكم ، ولا الشرفَ فيكم ، ولا المُلكَ عليكم ، ولكنّ الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل عليكم[(٥)] كتابا ، وأمَرنى أن أكون بشيرا ونذيرا ، فبلّغتُ لكم رسالاتِ ربّى ونصحتُ لكم ، فإن تَقبلوا منّى ما جئتكم به فهو حظّكم فى الدنيا والآخرة ، وإن

(١) فى ابن هشام بعد قوله « رشدهم » : « ويعز عليه عنتهم » .

(٢) تكملة عن ابن هشام الجزء الأول ص ٣١٥ .

(٣) فى سيرة ابن هشام : « وشتمت الآلهة » .

(٤) تكملة عن ابن هشام .

(٥) فى ابن هشام « علىّ » وهو الصواب .

تردّوه علىّ أصبرْ لأمر الله حتّى يحكمَ الله بينى و بينكم" أو كما قال — صلى الله عليه وسلم — . [قالوا يا محمد](1) : فإن كنت غير قابل منّا شيئا ممّا عَرَضناه عليك فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلدا، ولا أقلّ ماء ولا أشدّ عيشا منّا ، فسلْ لنا ربّك الذى بعثك به فليسيِّر عنّا هـذه الجبالَ التى ضيّقتْ علينا ، وليَبسُط لنا بلادنا ، وليَخرِّق(2) لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليَبعثْ لنا مَنْ مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يُبعث لنـا منهم قصىّ بن كلاب ، فإنه كان شيخَ صـدق ، فنسألهم عما تقول: أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعتَ لنا ما سألناك عرفْنا به منزلَتـك من الله ، وأنه بعثك رسـولا كما تقول . فقال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "ما بهذا بُعثت إليكم ، إنمـا جئتكم من الله بمـا بعثنى به ، وقد بلّغتكم ما أرسلتُ به إليكم ، فإن تَقبلـوه فهو حظّكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه علىّ أصبرْ لأمر الله حتّى يَحكمَ اللهُ بينى و بينكم" . قالوا له : فإذا لم تَفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سَلْ ربّك أن يَبعثَ معك مَلَكا يصدقك بمـا تقول ، ويراجعنا عنك ، وسَـلْه فليجعل لك جِنانًا وقُصـورا وكُنوزا من ذهب وفضّة يغنيك بها عمـا نراك تبتغى ، فإنّك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاشَ كما نَلتمس ، حتى نعرف فضلَك ومنزلتَك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يَسأل ربّه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا"، — أوكما قال — "فإن تَقبلوا ما جئتُكم به فهو حظّكم

(1) تكملة عن ابن هشام يقتضيها سياق الكلام .

(2) رواية ابن هشام « وليفجر » .

فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بينى و بينكم". قالوا : فأسقط السماء علينا كِسَفا كما زعمت أن ربّك إن شاء فعل ، فإنّا لا نؤمن لك إلّا أن تفعل . فقال صلى الله عليه وسلم : "ذلك إلى الله، إن شاء يفعلْه بكم فعل" قالوا : يا محمد ، أفما علم ربُّك أنّا سنجلس معك ونسألك عمّا سألناك عنه ونطلب ، فيتقدّم إليك فيُعلمك ما تُراجعنا به ، ويُخبرك بما هو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ؟ إنه قد بلَغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمٰن ، و إنا والله لا نؤمن بالرحمٰن أبدا ، فقد أعذرْنا إليك يا محمد، و إنا والله لا نتركك وما بلغتَ منّا حتى نُهلكك أو تُهْلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهى بَناتُ الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتىَ بالله والملائكة قَبيلا ؛ فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة — وهو آبن عمّته — فقال له : يا محمد، عرض عليك قومُك ما عرضوا فلم تَقبلْه منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتَك من الله كما تقول ، ويصدّقوك ويتّبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلَك عليهم، ومنزلتَك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجّل لهم بعضَ ما تخوّفهم به من العذاب فلم تفعل — أو كما قال له — فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتّخذ إلى السماء سُلّما ، ثم ترقَى فيه وأنا أنظر إليك حتّى تأتيها ، ثم تأتى معك بصكّ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وآيم الله لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أنى أصدّقك ؛ ثم آنصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا أَسِفا لما فاته ممّا كان يطمع به من قومه حين دعوه[1] .

(١) فى الأصل : « عن دعوة » ، والتصويب عن آبن هشام ج ١ ص ٣١٩ .

ذكر قصة أبى جَهْل فى الحَجَر الذى قصد قتلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، وما شاهَدَه من حماية الله تعالى لنبيِّه ، وكفايتِه إيّاه ورجوعِه إلى قومه وإخبارِهم بما شاهد

قال ابن إسحاق : ولمّا قام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إنّ محمدا قد أبى إلّا ما تَرَوْن من عيبِ ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسبّ(١) آلهتنا ؛ و إنى أعاهد الله لأجلسنّ له غدا بحَجَر ما أطيق حَمْلَه ، فإذا سجد فَضَخْتُ به رأسَه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنعْ بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ؛ قالوا : والله لا نُسلِمك لشىء أبدا ، فامض لما تريد ، فلمّا أصبح أخذ حَجَرا كما وصف ، ثم جلس ينتظره ، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى إلى بيت المَقدِس : وكان إذا صلّى صلّى بين الركن اليمانىّ والحجرِ الأسوَد : وجعل الكعبةَ بينه و بين الشام ، وقام يصلّى وقريشٌ فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جَهْلٍ فاعل ، فلمّا سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتَمَل أبو جهل الحَجَر ثم أتى(٢) نحوَه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقِعا لونُه ، مرعوبا قد يبست يداه على حَجَرِه حتى قذف الحجر من يدِه ، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : مالك يا أبا الحَكَم ؟ فقال : قمتُ إليه لأفعل [به](٣) ما قلتُ لكم البارحة ، فلمّا دنوتُ منه عَرَض لى دونَه فحلٌ من الإبل ؛ والله ما رأيت مثلَ هامتِه

(١) فى السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣١٩ : « وشتم » .
(٢) عبارة السيرة « أقبل » .
(٣) تكملة من ابن هشام .

ولا قَصَرَتِهِ[1] ولا أنيابه لفحلٍ قطّ ، فهمّ أن يأكلنى . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ذاك جبريل لو دنا لأخذه" .

ومثل هذه القصة أيضا ، ما رواه ابن إسحاق قال : قدم رجل من إراش — ويقال إراشة[2] — بإبل له مكة فابتاعها منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها ، فأقبل الإراشى حتى وقف على نادٍ من أندية قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناحية المسجد جالس ، فقال الإراشى : يامعشر قريش ، مَن رجل يُؤْدِينى[3] على أبى الحَكَم بن هشام ، فإنى رجلٌ غريبٌ ابنُ سبيل ، وقد غلبنى على حقّ ؛ فقال له القوم : أترى ذلك الرجلَ الجالسَ ؟ — يريدون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يهزءون به — اذهب إليه فهو مُؤْدِيكَ عليه ؛ فأقبلَ الإراشىُّ حتى وقف على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : ياعبد الله ، إن أبا الحَكَم قد غلبنى على حقٍّ لى قِبَلَه ، وأنا غريبٌ وابنُ سبيل ، ولقد سألتُ هؤلاء القومَ عن رجل يُؤْدِينى عليه فأشاروا لى إليك ، فخذ [لى][4] حقّى منه يرحمك الله ، قال : "انطلق إليه" ، وقام معه صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قام [معه][4] قالوا لرجل ممّن معهم : اِتبعه فانظر ماذا يصنع ؟ قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضَرَب عليه بابه ، فقال : مَن هذا ؟ قال : "محمّدٌ فاخْرُجْ إلىّ" فخرج وما فى وجهه رائحة[5] (أى دم) قد انتقع[6] لونُه فقال : أعطِ هذا الرجلَ حقّه

(١) القصرة (بالتحريك) : أصل العنق . (٢) إراشة (بالكسر) : بطن من خثعم .

(٣) من يؤدينى على أبى الحكم ؛ أى على أخذ حقى منه ، من آداه على فلان أى أعانه وقوّاه . ورواية ابن كثير ج ٣ ص ٤٥ « يعدينى » ، وهو بمعناه .

(٤) تكملة عن ابن هشام .

(٥) أى أنه مصفر من الخوف . والذى فى ابن كثير ج ٣ ص ٤٥ « فخرج وما فى وجهه قطرة دم » .

(٦) انتقع لونه (بالبناء للمجهول) : تغير لما نزل به .

قال : نعم ، لا يبرح[(١)] حتّى أعطيَه [الّذى له][(٢)] ، ودخل فخرج إليه بحقّه فدفعه إليه ، ثم آنصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال للإراشيّ : اِلحقْ بشأنك ؛ فأقبل الإراشيّ حتّى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيرا ، فقد والله أخذ لى حقّى ، وجاء الرجل الّذى بعثوه معه فأخبرهم الخبر ، قال : ثمّ لم يَلْبَثْ أبو جهل أن جاء ، فقالوا له : وَيْلَك ! والله ما رأينا مثلَ ما صنعتَ قطّ ! قال : ويْحَكُم ! واللهِ ما هو إلّا أن ضَرَب علىّ بابى ، وسمعتُ صوته ، فمُلِئْتُ رُعْبا ، ثم خرجتُ إليه وإنّ فوق رأسه لَفَحْلا من الإبل ما رأيتُ مثل هامَتِه ولا قَصَرَته ولا أنيابِه لِفحل قطّ ، والله لو أَبَيْتُ لأكلنى .

ذكرُ خبرِ النّضر بنِ الحارث ، وما قال لقريش ، وإرسالِهم إيّاه إلى يثربَ إلى أحبار يهودَ وعُقبةَ بنِ أبى مُعَيْط وما عادا به

قال : ولمّا رجع أبو جهل إلى قريش ، وألقَى الحجَرَ من يده وقصّ عليهم ما شاهد قام النضرُ بنُ الحارث بنِ كَلَدة فقال : يامعشر قريش ، إنه واللهِ قد نزل بكم أمرٌ ما أَتيتم له بحيلة بعدُ ، قد كان محمّــدٌ فيكم غلاما حَدَثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمَكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدْغَيه الشيبَ — وقد جاءكم بما جاءكم به — قلتم : ساحر ، لا وآلله ما هو بساحر ، لقد رأينا السَّحَرة ، نَفْثَهم وعقدَهم . وقلتم : كاهن ، لا وآلله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكَهَنة ، تَخَالُجهم ، وسمعنا سجعَهم . وقلتم : شاعر ، لا وآلله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافَه كلَّها ؛

(١) فى ابن هشام : « لا تبرح » .

(٢) تكلة من ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨ .

هَزَجَه ورَجَزَه . وقلتم مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون، ما هو بخَنقِـه ، ولا وَسْوَسَتِه، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فأنظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

قال آبن إسحاق : وكان النضر بنُ الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قَدِم الحِيرة وتعلّم بها أحاديثَ ملوكِ الفُرْس و رستم[1] و إسفنديار، فكان إذا جلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذَكّر فيه بالله وحذّر قومَه ما أصاب مَن قَبْلَهم من الأمم من نِقْمة الله ، خَلَفه فى مجلسه إذا أقام ، ثم قال : والله يا معشر قريش أنا أحسنُ حديثا منه ، فهلمّ[2] فأنا أحدّثكم أحسنَ من حديثه ، ثم يحدّثهم عن ملوك فارسَ ورستم و إسفنديار، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى !

قيل : والنضر هذا هو الذى قال[فيما بلغنى][3] : ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ ٱللّٰهُ﴾[4]، قال آبن عباس : نزل فيه ثمانُ آياتٍ من القرآن : قوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[5]، وكلّ ما ذُكر فيه الأساطيرُ من القرآن . قال : فلما قال لهم النضر بنُ الحارث ماقال بعثوه، وبعثوا معه عقبةَ بنَ أبى مُعَيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عن محمّد ، وصِفَا لهم صفتَه وأَخبِراهم بقوله ، فإنّهم أهل الكتاب الأوّل ، وعندهم

(١) هو رستم بن ريسان من ملوك الترك فى زمن الكيانية قتله إسفنديار بن كى يشتاسف . وفى تاج العروس « إسفنداياد » .

(٢) ورد فى ابن هشام، بعد هذه الكلمة قوله « إلىّ » .

(٣) زيادة من ابن هشام بعد هذه الكلمة قوله « فيما بلغنى » .

(٤) سورة الأنعام آية ٩٣ .

(٥) سورة القلم آية ١٥ .

علمٌ حسن — ليس عندنا — من علم الأنبياء ؛ فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبارَ يهودَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هـذا ، فقال لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مُرْسَل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فَرَوْا فيه رأيكم ، سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوّل، ما كان من أمرهم ؟ فإنّه قد كان لهم حديثٌ عجيب ؛ وسلوه عن رجل طوّافٍ قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها ، ما كان نبؤُه؟ وسلوه عن الرُّوح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فاتّبعوه فإنه نبيّ ، و إن لم يفعل فهو رجل متقوّل فروا فيه رأيكم . فجاءوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد، أخبرنا عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوّل قد كانت لهم قصّة عَجَب ؛ وعن رجل كان طوّافا قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها ؛ وأخبِرْنا عن الرُّوح ما هي؟ فقال لهم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "أُخبركم بما سألتم عنه غدًا"، ولم يستثنِ بالمشيئة، فانصرفوا عنه ، فمكث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون خمس عشرة ليلةً لا يُحدث اللهُ في ذلك وحيًا ، ولا يأتيه جبريلُ حتى أرجفَ[1] أهلُ مكّة وقالوا : وعَدَنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا[2] بشيء مما سألناه عنـه ، وحتى أحزن رسولَ الله صـلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه ، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهـلُ مكة ؛ ثم جاءه جبريل من الله بسورة الكهف فيها خبرُ ما سألوا عنه ، فيقال : إنه صـلى الله عليـه وسلم قال لجبريل حين جاءه : لقـد احتبستَ عنّي حتى سؤتُ ظنّا ؛ فقال له جبريل :

(١) يقال : أرجف القوم ، إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن .

(٢) كذا في ابن هشام . وهو الصواب . والذي في الأصل : « لا تخبروا » ؛ وهو تحريف .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾(١) .

ذكر ما اشتملت عليه سورة الكهف مما سألوه عنه

قال أبو محمد عبدُ الملك بنُ هشام رحمه الله تعالى : افتتح اللهُ عزّ وجلّ السورةَ بحمده، وذكر نبوّة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ يعنى محمدا . قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا ﴾ أى معتدلا لا اختلاف فيه . قوله : ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أى عاجل عقوبته فى الدنيا وعذابًا أليما فى الآخرة . قوله : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ أى دار الخُلد لا يموتون فيها، الّذين صدّقوك بما جئتَ به مما كذَّبك به غيرُهم ، وعملوا بما أمرتَهم من الأعمال . قوله : ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ يعنى قريشا فى قولهم : إنّا نعبد الملائكةَ وهى بناتُ الله . قوله : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ الّذين أعظموا فراقهم(٢) . قوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أى قولهم : إنّ الملائكة بناتُ الله . قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ أى مُهلكٌ نفسك لحزنه صلى الله عليه وسلم عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم ، أى لا تفعل . قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى أيهم أتبع لأمرى، وأعملُ لطاعتى . قوله : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾(٣) أى الأرض،

(١) سورة مريم آية ٦٤ (٢) زاد فى ابن هشام والقرطبى قوله : « وعيب دينهم » .

(٣) سورة الكهف الآيات من ١ — ٨ . والصعيد : وجه الأرض . والجرز : الأرض التى لا تنبت شيئا .

و إنّ ما عليها لفانٍ وزائل ، ولكنّ المرجعُ إلىّ فأجزى كلّا بفعله ، فلا تأس ، ولا يحزُنك ما ترى وتسمع فيها ، ثم أستقبل القصّة (١) فيما سألوه عنه من شأن الفتية .

فقال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، أى قد كان من آياتى فيما وضعت على العباد من حججى (٢) ما هو أعجب من ذلك .

٥ قال ابن هشام : والرقيم الكتاب الذى يرقم فيه بخبرهم ، وجمعه رُقُم .

ثم قال : ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ إلى قوله : ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أى لم (٣) يشركوا بى كما أشركتم [بى] ما ليس لكم به علم . قال : والشَّطَطُ، الغُلُوّ (٤) ومجاوزة الحق . قوله : ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾، أى بحجّة بالغة . ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ إلى قوله : ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾.

١٠ قال ابن هشام : تزاوَرُ، تميل، وهو من الزَّوَر، و﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾، أى تجاوزهم وتتركهم عن شمالها . والفَجْوة : السعة، وجمعها الفجاء . قوله : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أى فى الحجّة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممّن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم فى صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم . قوله : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ إلى قوله ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ (٥) الوصيد : الباب . قال عبيد بنُ (٦) وهب العبسىّ منشدا :

١٥ بأرض فلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها ... علىّ ومعروفى بها غير مُنْكَرِ

(١) رواية ابن هشام ص ١٩١ « ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه » الخ .

(٢) عبارة ابن إسحاق : « من حججى » .

(٣) تكملة عن ابن هشام والجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٣٤٩ .

(٤) فى الأصل : « العلو » بالمهملة، والتصويب عن ابن هشام .

٢٠ (٥) سورة الكهف الآيات من ٩ — ١٨

(٦) كذا فى الأصل وابن هشام . والذى فى القرطبى ج ١٠ ص ٣٥١ « عبد بن وهب » .

والوصيد أيضا الفناء، وجمعه وصائد ووُصُد ووُصْدان قوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ أهل المُلك ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾. قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يعنى أحبار يهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم، فانهم لا علم لهم بهم. قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ﴾ إلى قوله ﴿رَشَدًا﴾ أى لا تقولنّ لشىء سألوك عنه كما قلت فى هذا: إنى مخبركم غداً، واستثن بمشيئة الله ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ لخير مما سألتمونى عنه رَشَدا، فإنّك لا تدرى ما أنا صانع فى ذلك. قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أى سيقولون ذلك. ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أى لم يخف عليه شىء مما سألوا عنه، وقال الله عزّ وجل، فيما سألوه عنه من أمر الطّوّاف، وهو ذو القرنين: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[1] الآيات، إلى آخر خبره. وقد ذكرنا قصة ذى القرنين فى الباب الأوّل من القسم الرابع من الفنّ الخامس من كتابنا هذا، وهى فى الجزء الثانى عشر[2] من هذه النسخة، ولا فائدة فى إعادتها.

وقال تعالى فيما سألوه عنه من [أمر][3] الرّوح[4]: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[5] رُوِى عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما قال: لمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال

(١) سورة الكهف الآيات من ١٨ — ٨٣ (٢) من تجزئة المؤلف.
(٣) تكلة عن ابن هشام ص ١٩٦
(٤) فى تفسير معنى الروح أقوال كثيرة أوردها القرطبى فى جامعه ١٠ : ٣٢٣.
(٥) سورة الإسراء آية ٨٥

أحبارُ يهودَ : يا محمد، أرأيت قولك : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) إيّانا تريد أم قومَكَ ؟ قال : كلّا . قالوا : فإنّك تتلو فيما جاءك إنّا قد أُوتينا التوراة فيها بيانُ كلّ شيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنّها في علم الله قليل، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه» فأنزل اللهُ تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) ، أي أن التوراة في هذا من علم الله قليل .

ذكر ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال، وتقطّع الأرض وبعث من مضى من آبائهم من الموتى، وما سألوه لنفسه، وما قالوه له بعد ذلك

أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله صلى الله عليه وسلم فيما سأله قومُه لأنفسهم فيما قدّمنا ذكره، قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (٣)، أي لا أصنع من ذلك إلّا ما شئت . وأنزل عليه في قولهم : خذ لنفسك ما سألوه أن يأخذ لنفسه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ (٤) . ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ ﴾ (٥)، أي من أن تمشي في الأسواق

(١) سورة الإسراء : ٨٥ (٢) سورة لقمان : ٢٧ (٣) سورة الرعد : ٣١
(٤) سورة الفرقان : ٧، ٨ (٥) سورة الفرقان : ١٠

وتلتمس المعاش ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾. وأنزل عليه في ذلك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (١)، أي جعلتُ بعضَكم لبعض بلاءً لتصبروا ، ولو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رُسُلي ولا يخالفوا لفعلتُ . وأنزل عليه فيما قال عبدُ الله بنُ أمية : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (٢)، وأنزل عليه في قولهم : إنّا قد بلغنا [أنك] (٣) إنما يعلّمك رجل باليمامة يقال له الرحمٰن ، ولن نؤمن به أبدا ؛ قولَه تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (٤) . وأنزل عليه فيما قال أبو جهل وما همّ به قولَه تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾ (٥) إلى آخر السورة . قال ابن هشام : لنسفعنْ : لنجذبنّ ولنأخذنّ . والنادى : المجلس الذي يجتمع فيه القوم ويقضون فيه أمورَهم ، وجمعُه أندية . يقول : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ (٦) أي أهلَ ناديه ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ (٧) أي أهل القرية . وأنزل عليه فيما عرضوه عليه من أموالهم : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٨) .

٧٦
١٤

---

(١) سورة الفرقان : ٢٠ (٢) سورة الإسراء : ٩٠ — ٩٣
(٣) الزيادة عن ابن هشام ١ : ٣٢٢ (٤) سورة الرعد : ٣٠ (٥) سورة العلق : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . (٦) سورة العلق : ١٧ . (٧) سورة يوسف : ٨٢ .
(٨) سورة سبأ : ٤٧ .

ذكر ما كان من عناد قريش بعد ذلك وعقودهم[1]

قال : فلمّا جاءهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحقّ، وعرفوا صدقَه فيما حدّث، وموقعَ نبوّته فيما جاءهم به من علم الغُيوب حين سألوه عمّا سألوه عتَوْا على الله واستمرّوا فى طغيانهم وعلى كفرهم، فقال قائلهم : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2] فإنكم إن ناظرتموه وخاصمتموه غلبكم . فقال أبو جهل يوما — وهو يهزأ برسول الله وما جاء به من الحقّ — : يامعشر قريش، يزعم محمد أنّما جنودُ الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددا [وكثْرةً][3]، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم . فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[4] إلى آخر القصّة .

قال : ولمّا قال بعضهم لبعض : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ جعلوا إذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو فى صلاته يتفرّقون عنه، ويأبون أن يسمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضَ ما يتلو من القرآن وهو يصلّى استرق السمعَ دونَهم فَرَقا منهم، فإن رأى أنّهم قد عرفوا به أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم أن يستمع، وإن خفض صلى الله عليه وسلم صوتَه ظنّ الّذى يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته، وسمع هو شيئا دونَهم أصاخَ له يستمع منه، فأنزل الله تعالى قولَه : ﴿وَلَا تَجْهَرْ

(١) عقودهم، أى عهودهم، من قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) أى بالعهود .

(٢) سورة فصلت : ٢٦

(٣) الزيادة عن ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٥

(٤) سورة المدثر ٣١ .

بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا[1]) يقول : لا تجهر بصلاتك فيفرّوا[2] عنك، ولا تخافت بها، فلا يَسمعها من يحبّ أن يسمعها ممن يسترقُها دونهم لعلّه يرعوِى إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

ذكر أوّل من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم

رُوى عن عروة بنِ الزّبير عن أبيه قال : كان أوّلَ مَنْ جهر بالقرآن بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عبدُ الله بنُ مسعود . قال : اجتمع يوما أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعتْ قريش هذا القرآنَ يُجهَر لها به قطّ مِنْ[3] رجل يُسْمِعُهُمُوه . فقال عبد الله بن مسعود : أنا؛ قالوا : إنّا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعونى، إن الله سيمنعنى؛ قال : فغدا ابن مسعود حتى أتى المَقام فى وقت الضُّحى وقريشٌ فى أنديتها، ثم قال رافعا صوته : (بِسْمِ ٱللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ[4]) ثم استقبلها يقرؤُها ، وتأمّلوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابْنُ أمِّ عَبْد ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعضَ ما جاء به محمّد ؛ فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه[5] وهو يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يَبلُغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا بوجهه ، فقالوا : هذا الذى خشينا عليك . قال : ما كان أعداءُ الله أهونَ علىّ منهم الآن ، وإن شئتم لأغادينّهم بمثلِها غدا ؛ قالوا : لا ، حَسْبُك ، قد أسمعتَهم ما يكرهون . والله الموفّق .

(١) سورة الإسراء : ١١٠ . (٢) رواية ابن هشام « فيتفرقوا » .
(٣) كذا فى الأصل . ورواية ابن هشام «فمن رجل» بصيغة الاستفهام والمعنى عليها يستقيم أيضا .
(٤) آيتا ١ ، ٢ من سورة الرحمن .
(٥) عبارة ابن هشام « ثم أثروا فى وجهه » .

ذكر ما نال أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

من أذى قريش وعذابهم ليفتنوهم عن دينهم

قال محمّد بن إسحاق : ثم إنهم عَدَوْا على من أسلم واتبع رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم من أصحابه ، فوثبتْ كلُّ قبيلة على من فيها من المسلمين ، يجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضّرب والجوع والعطش ، وبرَمْضاء مكّة إذا آشتد الحرّ ، مَن آستَضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يُفتَن[1] من شدّة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم مَن يعصمه الله ، فكان بلالُ بنُ رَباح[2] مولى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما لبعض بنى جُمَح مولَّدا من مولَّديهم ، وكان صادقَ الإسلام ، طاهرَ القلب ، فكان أميّة بن خلف يخرجه إذا حَميت الظَّهيرة فيَطرحه على ظهره فى بطحاء مكّة ، ثم يأمر بالصَّخْرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمّد ، وتعبدَ اللاتَ والعُزَّى ، فيقول — وهو فى ذلك البلاء — أَحَد أَحَد ، فكان ورقةُ بنُ نوفل يمّر به وهو يعذّب بذلك وهو يقول : أَحَد أَحَد ، فيقول : أَحَد أَحَد والله يا بلال ، ثم يقبل على أميّة بن خلف وهو يصنع به ذلك فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتّخذنّه حنانا[3] ، حتى مرّ به أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوما وهم يصنعون به ذلك ، فقال لأميّة : ألا تتقى اللهَ فى هذا المسكين ، حتّى متى ! فقال : أنت أفسدتَه فأنقِذه ممّا ترى ، قال : أفعَل ، عندى غلام أسوَد أجلدُ منه وأقوى ، وهو على دينك ، أُعطيكَه به . قال : قد قبلتُ ، قال : هو لك . فأعطاه أبو بكر

(١) فى الأصل : « فمن يفتتن » وما أثبتناه عن ابن هشام (١ : ٢٠٥) .

(٢) فى الأصل ما يفيد أن بلالا كان من موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس كذلك ، فإن بلالا هذا كان من خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا من مواليه . انظر المعارف ص ٨٨ ، وابن كثير ج ٣ ص ٥٧ .

(٣) لأجعلن قبره موضع حنان ، فأزوره وأتبرك به .

غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه، ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، وهم عامر بن فهيرة، شهد بدرا وأحدا[1]، وأم عميس[2]، وزنيرة — وكانت رومية لبني عبد الدار — فأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، وما ينفعان. فردّ الله إليها بصرها؛ وأعتق النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول: والله لا أعتقكما أبدا؛ فقال أبو بكر: حلّ[3] يا أم فلان؛ فقالت: حلّ أنت؛ أفسدتهما فأعتقهما، قال فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا؛ قال: أخذتهما وهما حرّتان، ارجعا إليها طحينها؛ قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نردّه إليها؛ قال: وذاك إن شئتما. ومرّ بجارية من بني مؤمّل (حيّ من بني عديّ بن كعب) — وكانت مسلمة — وكان عمر يعذبها لتترك الإسلام، وعمر يومئذ مشرك، وهو يضربها حتى إذا ملّ قال: إني أعتذر إليك، لم أتركك إلا ملالة، فيقول: كذا يفعل الله بك. فابتاعها فأعتقها، فقال أبو قحافة لأبي بكر: يا بنيّ، أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك؛ فقال أبو بكر: يا أبت إني إنما أريد لله عزّ وجلّ ما أريد؛ فيقال: إن هذه الآيات أنزلت فيه رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ إلى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[4].

قال محمد بن إسحاق: وكان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه وكانوا أهل بيت إسلام — إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمرّ بهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فيقول: "صبرا آل ياسر موعدكم الجنة"،

(١) زاد في ابن هشام ٣ : ٢٠٣ «وقتل يوم بئر معونة شهيدا». (٢) في الأصل «أم غبيس» بالباء، والتصويب عن ابن هشام. (٣) أي تحللي من يمينك. (٤) الآيات ٥ ، ٦ ، ٢١ من سورة الليل.

فأما أمّه فقتلوها وهى تأبى إلا الإسلام (١) . قال أبو عمر : وهى سُمَيّة ، كانت أمَةً لأبى حُذَيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عَمرو بن مخزوم ، فزوّجها من حليفه ياسر بن عامر بن مالك العبسى ، فولَدت له عمّارا ، فأعتقه أبو حذيفة . وسميّة هذه أوّل شهيدةٍ فى الإسلام . وجاءها أبو جَهْل بحَرْبة فى قُبلها فقتلها ، فقال عمّار : يا رسول الله ، بُلِغ منا — أو بُلِغ منها كلّ مبلغ — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صبرًا يا أبا اليقظان ، اللهم لا تُعَذِّبْ أحدا من آل ياسر بالنار (٢) » .

٧٨/١٤

قال ابن إسحاق : وكان أبو جهل هو الذى يُغرى بهم فى رجال قريش إذا سمع برجل قد أسلم ، فإن كان له شرف ومَنَعة أنّبه وخزّاه : فيقول : تركتَ دين أبيك وهو خير منك ، لنسفّهن حلمك ولَنُفَيِّلَنّ (٣) رأيك ، ولنضعنّ شرفك ؛ وإن كان تاجرا ، قال : والله لنُكسِدنّ (٤) تجارتك ، ولنهلكنّ مالك ؛ وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به . وروى عن سعيد بن جُبير قال : قلت لابن عبّاس رضى الله عنهم : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم من العذاب ما يُعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم ، والله إنْ كانوا ليَضربون أحدَهم ويُجيعونه ويُعطشونه ، حتى ما يقدر أن يستوىَ جالسا من شدة الضرّ الذى به ، حتى يعطيَهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له : اللّات والعزّى إلهان من دون الله ، فيقول : نعم ، حتى إن الجُعَل ليمرّ بهم فيقولون له : هذا الجعَل إلهُك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، افتداءً منهم ممّا يَبلغون من جهده . والله المعين .

(١) كذا فى ابن هشام جـ ١ : ٣٤٢ ، وفى ابن كثير جـ ٣ ص ٥٩ : « فيقتلوها فتأبى إلا الإسلام » ، والذى فى الأصل : « تقتلونها تابا الإسلام » ، ولا يخفى ما فيه من تحريف .

(٢) فى الروض الأنف : « آل عمار » . (٣) لنفيلن ، من فيل رأيه : خطأه .

(٤) فى الأصل : « لنكسرن » . تصحيف . والتصويب عن ابن هشام ١ : ٣٤٢ ، ابن كثير جـ ٣ : ٥٧ .

ذكرُ هجرةِ أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الحبشة، وهى الهجرة الأولى

قال محمد بن إسحاق: لما رأى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ما يصيب أصحابَه من البلاء والعذاب، وما هو فيه من العافية لمكانه من الله تعالى ومن عمّه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها مَلِكا لا يُظلم عنده أحد — وهى أرض صدق — حتى يجعل الله لكم فرَجا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك من خرج منهم مخافةَ الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أوّل هجرة كانت فى الإسلام.

قال الواقدىّ: خرجوا متسلّلين سرًّا، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، حتى آنتهوا إلى الشُّعَيْبة[(١)] منهم الراكب والماشى، ووفّق الله لهم ساعةَ جاءوا سفينتين للتّجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مَخرجُهم فى نصف رجب من السنة الخامسة من حين تنبّأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوهم.

قال ابن إسحاق. كان أوّلَ من خرجَ من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس عثمان بن عفان معه امرأته رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن بنى عبد شمس: أبو حذيفة بن عُتبة، معه آمرأته سَهْلة آبنة سُهَيل، وُلدتْ بأرض الحبشة محمدَ بنَ [أبى][(٢)] حذيفة. ومن بنى أسد بن عبد العزّى: الزبير بن العوّام. ومن بنى عبد الدار: مصعب بن عُمَير بن هاشم. ومن بنى زُهرة بن كلاب:

(١) الشعيبة بجهينة: مرسى السفن من ساحل بحر الحجاز، كان مرسى سفن مكة قبل جدّة.

(٢) ساقطة من الأصل. والتكلة عن ابن هشام ج ١ ص ٣٤٤.

عبد الرحمن بن عوف . ومن بنى مخزوم : أبو سَلَمة بن عبد الأسَد، معه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة . ومن بنى جُمَح : عثمان بن مَظْعون بن حبيب . ومن بنى عدى بن كعب : عامرُ بن ربيعة، معه امرأته ليلى بنت أبى حَثْمة بن غانم؛ ومن بنى عامر بن لؤى : أبو سَبْرة بن أبى رُهْم بن عبد العُزّى[1]؛ ومن بنى الحارث ابن فهر : سُهيل بنُ بَيْضاء، وهو سهيل بن وهب بن ربيعة . قال : هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ، وكان عليهم عثمانُ بن مظعون .

وزاد الواقدى : حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، فجعلهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة . قال : فقدمْنا أرضَ الحبشة ، فجاورْنا بها خيرَ جارٍ[2]، أمِنّا على ديننا ، وعبدْنا الله تعالى لا نُؤْذَى ، ولا نُسمع شيئا نكرهه . والله أعلم .

ذكرُ رجوع أهل هذه الهجرة إلى مكّة ، وما قيل فى سبب رجوعهم

قال محمد بن سعد عن محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه : لمّا رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قومه كفًّا عنه ، جلس خاليا ، فتمنّى فقال : ليته لا ينزل علىّ شىء ينفّرهم عنى، وقارب رسول الله صلى الله [عليه وسلم][3] قومَه ودنا منهم ودَنوا منه ، فجلس يوما مجلسا فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة، فقرأ عليهم : ﴿والنَّجْمِ إذَا هَوَى﴾[4] حتى بلغ : ﴿أفَرَأيْتُمُ اللاتَ والعُزّى . ومَنَاةَ الثّالثَةَ الأُخْرَى﴾[4]. ألقى الشيطان على لسانه كلمتين : « تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى » ولما بلغ «الغرانيق العلا» ، وفى أخرى : « والغرانقة العلا[5]، تلك الشفاعة تُرتجى »

(١) ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق أن أبا سبرة كانت معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو (٣ : ٦٧) . وابن هشام (١ : ٣٥٢) .
(٢) زاد ابن هشام (١ : ٣٥٨) . هنا قوله : « النجاشى » .
(٣) ساقطة من الأصل . (٤) سورة النجم الآيات ١ — ٢٠
(٥) كذا فى الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٥٨ طبع بولاق .

قال الواقدىّ : فتكلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بهما[1] ، ثم مضى فقرأ السورة كلّها ، وسجد وسجد القومُ جميعا ، ورفع المغيرة بنُ الوليد ترابا إلى جَبْهته فسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود . ويقال : إن أبا أُحَيْحة سعيدَ بنَ العاص أخذ ترابا فسجد عليه ، ورفعه إلى جَبهته — وكان شيخا كبيرا — فرضوا بما تكلّم به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يُحيى ويُميت ويخلق ويَرزق ، ولكنّ آلهتنا هذه تَشفع لنا عنده ، فأمّا إذ جعلتَ لها نصيبا[2] عندك فنحن معك ، فكبُر ذلك على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من[3] قولهم حتى جلس فى البيت فلمّا أمسى أتاه جبريلُ فعرض عليه السورةَ ، فقال جبريل : ما جئتك بهاتين الكلمتين ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «قلتُ على الله ما لم يَقُل» . فأوحى الله إليه : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ .

وقال : ففشت تلك السَّجْدة فى الناس حتى بلغتْ أرضَ الحبشة ، فبلغ أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن أهل مكّة قد سجدوا فأسلموا ، حتى إن الوليد ابنَ المغيرة وأبا أحيحة قد سجدا خلف النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فقال القوم : فمَن بقىَ بمكّة إذا أسلم هؤلاء ! قالوا : عشائرُنا أحبُّ إلينا ؛ فخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعةٍ من نهار لَقوا رَكْبًا من كِنانة ، فسألوهم عن قريش

(١) قال صاحب الجامع لأحكام القرآن جـ ١٢ ص ٨١ : إن هذا الحديث الذى فيه الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ونحوها ولم يدخله البخارى ولا مسلم ولا ذكره فى علمه مصنف مشهور . اهـ . وذكر القاضى عياض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم من الإخبار عن شىء بخلاف ما هو عليه لا قصدا ولا سهوا ولا غلطا ... اهـ . ونحن نقطع أن هذا لا يجوز على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المعصوم الصادق فى التبليغ .

(٢) فى الأصل : «فيمن» . والصواب عن (السيرة الحلبية ١ : ٣٠٤) ، (وعيون الأثر ١ : ١٢٠) .

(٣) فى الأصل : «حين» ، وما أثبتناه عن عيون الأثر .

وعن حالهم، فقال الركب : ذكر محمد آلهتهم بخير، فتابعه الملأ، ثم ارتد عنها، فعاد يشتم آلهتهم، وعادوا له بالشر، فتركناهم على ذلك، فأتمر القوم فى الرجوع إلى أرض الحبشة، ثم قالوا : قد بلغنا، ندخل فننظر ما فيه قريش، ويحدث عهدا من أراد بأهله، ثم نرجع . قال : فدخلوا مكة، ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار، إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيرا، ثم رجع إلى أرض الحبشة . قال الواقدى : فكان خروجهم فى شهر رجب سنة خمس (يريد من النبوّة)[1]، فأقاموا شعبان ورمضان وقدموا فى شوال من السنة .

وحيث ذكرنا هذا الحديث فلنذكر ما جاء فى توهينه .

ذكر ما ورد فى توهين هذا الحديث والكلام عليه فى التوهين والتسليم

قال القاضى عياض بن موسى بن عياض رحمه الله، فى كتابه المترجم (بالشفا بتعريف حقوق المصطفى) صلى الله عليه وسلم :

اعلم أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما فى توهين أصله، والثانى [على][2] تسليمه .

أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول : إنه فى الصلاة، وآخر يقول قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول : قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول : بل حدّث نفسه فسها، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على

(١) هذه من قول المؤلف . انظر الذخائر والأعلاق لابن سلام الباهلى ص ٢٠٤ (طبع الوهبية) .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها عن الشفا للقاضى عياض جـ ٢ ص ٢٨

لسانه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك ؛ وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ؛ فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال : «والله ما هكذا أنزلت» إلى غير ذلك من آختلاف الرواة ، ومن حُكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية[1] ، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فيما أحسب — الشك في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة — وذكر القصة . قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نُبِّه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه .

وأما حديث الكلبي فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره ، لقوة ضعفه وكذبه كما أشار البزار إليه ، قال : والذي منه في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ والنَّجْمِ ﴾ وهو بمكة ، فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . هذا توهينه من طريق النقل ، والله أعلم بالصواب .

وأما جهة المعنى : فقد قامت الحجة ، وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . أما من تمنّيه أن يُنزل عليه مِثلُ هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر ، أو أن يتسور عليه الشيطان ، و يشبه عليه القرآن حتى

(١) كذا في الشفاء للقاضي عياض ص ١١٨ ؛ والذي في الأصل : « فاتنة » .

يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه، حتى يُنبّهه جبريل عليهما السلام، وذلك كله ممتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم، أو يقول ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمدا — وذلك كفر — أو سهواً، وهو معصوم من هذا كله، وقد تقرر بالبرهان والإجماع عصمته عليه السلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدا ولا سهوا، أو أن يتشبه عليه ما يلقيه الملك مما يلقى الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو يتقوّل على الله؛ لا عمدا ولا سهوا[1]، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ[2] ﴾ الآية، وقال : ﴿ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ[3] ﴾ الآية .

ووجه ثان، وهو استحالة هذه القصة نظرا وعرفا، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام[4]، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم؛ ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم، ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك — وهذا لا يخفى على أدنى متأمل — فكيف بمن رَجَح حلمه، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟ !

ووجه ثالث، أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندى المشركين، وضَعَفَة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين، وارتداد مَنْ فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأقل شبهة؛ ولم يَحْك أحد فى هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصَّوْلة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا فى قصة الإسراء وقصة القضية[5]، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت،

(١) زاد هنا فى الشفاء ص ١٣٠ قوله : «مالم ينزل عليه» . (٢) سورة الحاقة : ٤٤ .
(٣) سورة الإسراء : ٧٥ . (٤) فى الأصل : «الالتئام» تصحيف . والتصويب عن الشفاء . (٥) راجع شرح الشفا جـ ٤ : ١١٢ فى قصة القضية .

ولا تشغيب[1] للعادى حينئذ أشدّ من هذه الحادثة لو أمكنت ؛ فما روى عن معاند فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ؛ فدل على بُطلها، واجتثاث أصلها .

قال القاضى عياض : ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفَّلى المحدّثين، ليلبّس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع، ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآيتين، وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم ؛ فمضمونه هذا .

ومفهومه أن الله عصمه من أن يفترى، وثبّته حتى لم يركن إليهم قليلا، فكيف كثيرا ! وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم، وأنه قال عليه السلام : «افتريت على الله وقلت مالم يقل» ؛ وهذا ضد مفهوم الآية، وهى تضعّف الحديث لو صح ، فكيف ولا صحة له ! ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كل ما فى القرآن كاد فهو ما لا يكون ، قال الله تعالى : ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[2]، ولم يذهب . قال القاضى القشيرى[3] : ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مرّ بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها، ووعدوه الإيمان به إن فعل، فما فعل ولا كان ليفعل صلى الله عليه وسلم .

وأما المأخذ الثانى — وهو مبنىّ على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعاذنا الله من صحته — فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ذكرها القاضى عياض[4] وضعّف بعضها، واستحسن بعضا، نذكر منها ما استحسنه وجوّزه إن شاء الله .

(١) أى ولا تهييج للفتنة والشر . (٢) سورة النور : ٤٣ .
(٣) فى الأصل : «القشرى» وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما فى القاضى عياض ص ١٢١ .
(٤) الشفاء جـ ٢ ص ١١٦ — ١٢٣ .

منها ما ذكره القاضى أبو بكر فى أجوبته عن هذا الحديث ، قال : لعل النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ذلك أثناء تلاوته ؛ على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، لقول إبراهيم عليه السلام : ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾[1] على أحد التأويلات ، يريد : أهذا ربى ؟ ! ولقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾[2] بعد السكت و بيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته ، وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلو . قال القاضى عياض : ولا يُعترض على هذا بما روى أنه كان فى الصلاة ، فقد كان الكلام فيها قبل [غير][3] ممنوع ، قال : والذى يظهر و يترجح فى تأويله عند القاضى أبى بكر ، وعند غيره من المحققين على تسليمه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربّه يرتّل القرآن ترتيلا ، ويفصّل الآىَ تفصيلا فى قراءته ، كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار ، فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله تعالى ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم فى ذمّ الأوثان وعيبها ما عرف منه . وقد حكى موسى بن عقبة فى مغازيه نحو هذا ، وقال : إن المسلمين لم يسمعوها ، و إنما ألقى الشيطان ذلك فى أسماع المشركين وقلوبهم .

قال القاضى عياض : و يكون ما روى من حُزن النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

---

(١) سورة الأنعام : ٧٦ . (٢) سورة الأنبياء : ٦٣ .

(٣) ساقطة من الأصل . والتكملة عن الشفاء جـ ٢ ص ١٢٢ .

وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ[(١)] ﴾ الآية ، فمعنى ﴿ تَمَنَّى ﴾ تلا ، قال الله تعالى : ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ[(٢)] ﴾ أى تلاوة ، وقوله : ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ[(٣)] ﴾ أى يذهبه و يزيل اللبس به ، ويحكم آياته ، قال : ومما يظهر فى تأويله أيضا أن مجاهدا روى هذه القصة : «والغرانقة العلا» . فإن سلمنا القصة قلنا : لا يبعد أنّ هـذا كان قرآنا ، والمراد بالغرانقة العلا ، وأن شفاعتهنّ لترتجى : الملائكة على هذه الرواية ، وبهذا فسر الكلبيّ الغرانقة أنهـا الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنـات الله ، كما حكى الله عنهم وردّ عليهم فى هـذه السورة بقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى[(٤)] ﴾ ، فأنكر الله كل هذا من قولهم ؛ ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ، فلما تأوّله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ، ولبّس عليهم الشـيطان ذلك ، وزينه فى قلوبهم ، وألقـاه إليهم ؛ نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجـد الشيطان بهما للتلبيس سبيلا ، كما نسخ كثيرا من القرآن ورفعت تلاوته . قال : وكان فى إنزال الله تعـالى لذلك حكمة ، وفى نسخه حكمة ، ليضلّ به من يشاء ، ويهـدى من يشاء وما يضـل به إلا الفاسقين ، و ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّـيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعْـلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ[(٥)] ﴾ .

وقيـل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا قرأ هذه السورة [وبلغ إلى ذكر اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، خاف الكفار أن يأتى بشىء من ذمها ، فسبقوا

---

(١) سورة الحج : ٥١ ، وذكر القرطبي خبر القاضي عياض عند تفسيره للآية جـ ١٢ ص ٨٢ .

(٢) سورة البقرة : ٧٨ . (٣) سورة الحج : ٥٢ . (٤) سورة النجم : ٢١ .

(٥) سورة الحج : ٥٣، ٥٤

[إلى][1] مدحها بتلك الكلمتين؛ ليخلطوا تلاوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ويشغبوا عليه على عادتهم، وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2]، ونُسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حزن لذلك من كذبهم وافترائهم عليه، فسلّاه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾[3] الآية، وبين للناس الحقّ من ذلك من الباطل، وحفظ القرآن وأحكم آياته، ودفع ما لبّس به العدوّ؛ كما ضَمِنه الله تعالى من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[4] الآية، هذا ما ورد فى الجواب عن هذا الحديث. فلنرجع إلى تتمة أخباره وسِيَره صلى الله عليه وسلّم تسليما كثيرا.

ذكر الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة ومن هاجر إليها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الواقدىّ: لما قدم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من الهجرة الأولى اشتدّ عليهم قومهم، ونيطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذى شديدا، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله؛ فهجرتنا الأولى، وهذه الآخرة إلى النجاشىّ ولستَ معنا، فقال صلى الله عليه وسلم: أنتم مهاجرون إلى الله و إلىّ، لكم هاتان الهجرتان جميعا، قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله.

قال ابن سعد: وكان عدّة من خرج فى هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانون ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية، وسبع غرائب. وقد عدّهم أبو محمد عبد الملك بن هشام حسبما رواه عن محمد بن إسحاق بن يسار — رحمهم الله تعالى —

(١) ساقطة من الأصل، والتكلة عن الشفاء ٢ : ١٢٤ (٢) سورة فصلت : ٢٦
(٣) سورة النحل : ٤٣ (٤) سورة الحجر : ٩

فلم يزد على ذلك . وأورد أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى رحمه الله فى كتاب (الاستيعاب) ؛ فى تراجم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ؛ أنهم ممن هاجروا إلى أرض الحبشة ممن لم يذكرهم ابن هشام ، نحن نذكرهم إن شاء الله تعالى ونُنبّه عليهم .

قال ابن هشام : كان منهم من بنى هاشم بن عبد مناف ، جعفر بن أبى طالب معه امرأته أسماء بنت عُميس (١) ولدت بأرض الحبشة عبدَ الله بن جعفر ، ومن بنى أميّة بن عبد شمس عثمان بن عفان رضى الله عنه ، معه امرأته رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أميّة ، معه امرأته فاطمة بنت صفوان ، وأخوه خالد بن سعيد ، معه امرأته أُمَينة بنت خلف بن أسعد الخزاعية ، ويقال فيها هُمَينة (٢) ، ولدت بأرض الحبشة سعد بن خالد ، وآمنة بنت خالد . ومن حلفائهم من بنى أسد بن خزيمة عبد الله بن جحش بن رئاب ؛ وأخوه عبيد الله ابن جحش ، معه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب . وذكر أبو عمر فى ترجمة عبد الله بن جحش أنه هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه أبى أحمد وعبد الله ، فعلى هذا يكون أبو أحمد ممن هاجر إلى الحبشة ؛ واسمه عبد بن جحش ، وكان أعمى ، وعدّ أيضا محمد بن عبد الله بن جحش أنه هاجر مع أبيه وكان صغيرا . ١٥

قال ابن هشام : وقيس بن عبد الله رجل من بنى أسد بن خزيمة ، معه امرأته بركة بنت يسار [مولاة] (٣) أبى سفيان بن حرب ، ومُعَيقيب بن أبى فاطمة ؛ [وهؤلاء] (٤) آل سعيد بن العاص .

(١) فى الأصل «عبس» والصواب عن ابن هشام ، والسيرة الحلبية ، والاستيعاب .
(٢) رواية ابن هشام «سعيد بن خالد» . (٣) ساقطة من الأصل . والتكملة من ابن هشام ١ : ٣٤٦ ، وابن كثير ٣ : ٦٧ . (٤) ساقطة من الأصل . والتكملة عن ابن هشام . ٢٠
وفى ابن كثير ٣ : ٦٧ «وهو من موالى سعيد بن العاص» .

ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . قال أبو عمرو : معه آمرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ، وَلدت له هنالك محمدَ بن أبى حذيفة . قال ابن هشام : وأبو موسى الأشعرىّ وآسمه عبد الله ابن قيس . قال أبو عمر فى ترجمة عبد الله بن قيس : الصحيح[1] أن أبا موسى رجع بعد ٥ قدومه مكة ، ومحالفته من حالف من بنى عبد شمس إلى بلاد قومه ، فأقام بها حتى قدم مع الأشعريين نحو خمسين رجلا فى سفينة ، فألقتهم الريح إلى النجاشى بأرض الحبشة فوافقوا خروج جعفر وأصحابه منها ، فأتوا معهم ، وقدمت السفينتان معا : سفينة الأشعريين ، وسفينة جعفر وأصحابه . والله تعالى أعلم بالصواب .

٨٣/١٤

ومن بنى نوفل بن عبد مناف : عُتبة بن غَزْوان حليف لهم من بنى مازن ؛ ١٠ ومن بنى زَمعة بن ربيعة وعَمرو بن أمية بن الحارث مات بالحبشة .

قال أبو عمر بن عبد البر فى ترجمة خالد بن حزام بن خويلد بن أسد[2] : إنه هاجر إلى أرض الحبشة فى المرّة الثانية ، فنهشته حيّة ، فمات فى الطريق قبل وصوله . والله المستعان وإليه المردّ .

ومن بنى عبد [الدار][3] بن قُصَىّ مُصعب : بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف ١٥ ابن عبد الدار ، وسُويبط[4] بن سعد بن حُريملة[5] بن مالك بن عُميلة بن السباق ابن عبد الدار ، وجَهْم بن قيس بن عبد بن شرحبيل بن هاشم بن عبد الدار معه آمرأته [أمّ][6] حرملة بنت عبد بن الأسود الخزاعية — ويقال : حُريملة — وابناه عمرو بن جهم ، وخُزيمة بن جهم ؛ وأبو الروم بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف ؛

(١) الاستيعاب ١ : ٣٩٢ (٢) فى الاستيعاب ١ : ١٥٩ : «أسيد» . (٣) الزيادة ٢٠ عن ابن هشام ١ : ٣٤٧ (٤) فى الأصل «سوسط» تصحيف . (٥) فى ابن هشام وغيره : «حرملة» . (٦) الزيادة عن ابن هشام ١ : ٣٤٧ ، والاستيعاب ، وابن كثير .

ابن عبد الدار بن قُصى أخو مصعب ، وفِراس بن النضر بن الحارث بن علقمة ابن كَلَدة بن عبد مناف بن عبد الدار . وقال أبو عمر فى ترجمة أبى بكر[1] : مولى لبنى عبد الدار ؛ قال يقال : إنه من الأزد كان ممن عذب فى الله فلم يزل كذلك حتى كانت الهجرة الثانية مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن بنى زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف ، وعامر بن ابى وقّاص ، وأبو وقاص مالك بن وهيب ، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف ، معه امرأته رملة بنت أبى عوف ، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطلب . قال أبو عمر بن عبد البر : وطليب بن أزهر بن عبد عوف وأخوه المطلب ، هاجر مع أخيه إلى أرض الحبشة وبها ماتا جميعا .

قال ابن هشام : ومن حلفائهم من هذيل : عبد الله بن مسعود ، وأخوه عتبة بن مسعود .

ومن بَهراء المقداد بن عَمرو بن ثَعلبة ، وكان يقال له : المِقْداد بن الأسود ابن عبد يغوث بن عبد مناف بن زُهرة ، وذلك أنه كان تبنّاه فى الجاهلية وحالفه . حكاه ابن إسحاق .

ومن بنى تيم بن مرّة الحارث بن خالد بن صخر ، معه امرأته رَيْطة بنت الحارث ابن جبيلة ، ولدت له بأرض الحبشة موسى بن الحارث ، وزينب بنت الحارث ، وفاطمة بنت الحارث[2] ، وعمرو بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة .

ومن بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد بن هلال ، معه امرأته أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة ، ولدت له بأرض الحبشة زينب ، وشماسا واسمه عثمان بن عثمان بن الشريد ، وهبّار بن سفيان بن عبد الأسد ، وأخوه عبد الله بن سفيان ، وهشام بن أبى حذيفة بن المغيرة ، وسَلَمة بن هشام بن المغيرة

(١) كذا بالأصل ، ولم نعثر على هذا القول لابن عبد البر فى كتاب : الاستيعاب ، فى ترجمة أبى بكر .

(٢) زاد ابن هشام « عائشة بنت الحارث » .

وعيّاش بن أبى ربيعة بن المغيرة . ومن حلفائهم معتّب بن عوف بن عامر — وهو الذى يقال له عَيهامة — ونسبه أبو عمر فقال : معتب بن عوف بن عمر بن الفضل ابن عَفيف بن كُليب بن حبشية . قال ابن هشام، ويقال: حُبْشية بن سلول ، وهو الذى يقال له : معتب بن حمراء، وعمّار بن ياسر . ذكره أبو عمر، وشك فيه ابن هشام .

٥ ومن بنى جُمح عثمان بن مَظْعون ، وابنه السائب بن عثمان ، وأخواه قُدامة وعبد الله ابنا مظعون . قال أبو عمر : والسائب بن مظعون ممن هاجر إلى أرض الحبشة، وهو أخو عثمان لأبويه، حكاه عن العدوى . قال ابن هشام : وحاطب ابن الحرث بن مَعْمر، معه امرأته فاطمة بنت المجلّل بن عبد الله ، وابناه محمد والحارث ، وقيل وُلدا هناك ، وأخوه حطاب(١) بن الحارث، معه امرأته فكيهة ١٠ بنت يسار، وقيل : ولدت له ابنه محمدا هناك ؛ وسفيان بن مَعْمر بن حبيب معه ابناه : جابر وجنادة، ومعه امرأته أمهما حَسَنة، وابنها شُرحْبيل بن حَسَنة ، وهو شُرحبيل بن عبد الله أحد بنى الغَوث بن مُرّ، وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : هو شرحبيل بن عبد الله من بنى جُمح، وعثمان بن ربيعة بن أُهبان بن وهب ابن حذافة بن جمح . قال الواقدى : و نبيه بن عثمان بن ربيعة . والله أعلم .

١٥ ومن بنى سهم بن عمرو بن هُصيص : خُنيس بن حذافة ، وعبد الله ابن الحارث ،وهشام بن العاص بن وائل، وقيس بن حذافة، وأبو قيس بن الحارث ابن قيس ، وعبد الله بن حذافة بن قيس، والحارث بن الحارث بن قيس، ومعمر ابن الحارث بن قيس ، و بشر بن الحارث بن قيس ، وأخ له من أمه من بنى تميم ، يقال له : سَعيد بن عمرو ، وسعيد بن الحارث بن قيس ، والسائب

٩٤/١٤

٢٠ (١) فى الأصل « خطاب » و يوافقه ابن كثير — والصواب عن ابن هشام والاستيعاب ، وأسد الغابة .

ابن الحارث بن قيس . وقال أبو عمر : وتميم بن الحارث بن قيس ، والحارث ابن قيس بن عدى ، وهو والد شه والحارث ، وعمير بن رئاب بن حذيفة ، ومحمية ابن جزء حليف لهم من زبيد[1] .

ومن بنى عدى بن كعب معمر بن عبد الله بن نضلة ، وعروة بن عبد العزى ، وعدى بن نضلة وابنه النعمان ، فمات عدى بالحبشة ، فورثه ابنه النعمان ، وهو أول وارث فى الإسلام ، وعامر بن ربيعة حليف لآل الخطاب ، معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة .

ومن بنى عامر بن لؤى أبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن مخرمة بن عبد العزى ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، وسليط بن عمرو بن عبد شمس . وأخوه السكران بن عمرو ، معه امرأته سودة بنت زمعة ، ومالك بن ربيعة بن قيس معه امرأته عمرة بنت السعدى ، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، وسعد بن خولة حليف لهم من اليمن .

ومن بنى الحارث بن فهر أبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح ، وسهيل بن وهب وهو ابن بيضاء ، وعمرو بن أبى سرح بن ربيعة ، وعياض بن زهير بن أبى شداد ، وعمرو بن الحارث بن زهير ، وعثمان بن عبد غنم بن زهير ، وسعد بن عبد قيس ابن لقيط بن عامر ، والحارث بن عبد قيس بن لقيط . وقال أبو عمر بن عبد البر : إن عبد الله بن عرفطة بن عدى بن أمية بن خدارة بن عوف بن النجار بن الخزرج الأنصارى هاجر إلى أرض الحبشة مع جعفر بن أبى طالب ، وهو حليف لبنى الحارث بن الخزرج ، وذكره ابن منده[2] أيضا لجميع من هاجر على هذا الحكم

(١) فى الأصل «الحارث» وصوبناه عن ابن عبد البر . (٢) أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن منده الأصفهانى ، ولد سنة ٤٣٤ ، ومات سنة ٥١٢ بأصفهان . ابن خلكان (٥ : ٢١٧) .

بمـا فيه من زيادات ابن عبد البرّ، خلا أبناءهم الذين خرجوا معهم صغارا، ومن ولد هناك آثنـان وتسعون رجلا ، وثمانى عشرة آمرأة ، والأبناء الصغار سبعة . والله أعلم

ذكر إرسال قريش إلى النجاشىّ فى شأن من هاجر إلى الحبشة، وطلبهم منــه وإسـلامه

٥

عن أمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت : لمـا نزلنا أرض الحبشــة جاورْنا بهـا خيرَ جار، النجاشىّ، [أمِنّا] (١) على دِيننا، وعبدنا الله لا نُؤذَى، ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا آئتمـروا بينهم أن يبعثـوا إلى النجاشىّ فينـا رجلين جَلْدين، وأن يهدوا للنجاشىّ هدايا ممـا يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا ١٠ له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبـل أن تكلّما النجاشىّ فيهم، ثم قدّما إلى النجاشىّ هداياه ، ثم سَـلاه أن يسلّمهم إليكما قبل أن يكلّمهم . قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشى، ونحن عنده بخير دار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلّما النجاشىّ ، وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد ضـوى إلى بلد ١٥ الملك منّا غلمان سُـفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينـكم، وجاءوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم لنردّهم إليهم، فإذا كلّمنا الملكَ فيهم فأشيروا عليـه أن يسلّمهم إلينا ولا يكلّمهم ، فقالوا : نعم ، ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشىّ فقبلها ، ثم كلّماه فقالا : أيها الملك ، إنه قد

(١) الزيادة عن آبن هشام ١ : ٣٥٨ ٢٠

ضَوَى(١) إلى بلدك منّا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، جاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم عليهم ؛ فهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . قالت : ولم يكن شىء أبغضَ إلى عبد الله وعمرو من أن يسمع إلى كلامهم النجاشىّ ، فقالت بطارقته : صَدقَا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، فأسْلِمْهُمْ(٢) لهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم ، قالت : فغضب النجاشىّ وقال : لاها الله ! إذًا لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ؛ حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، و إن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم(٣) ، وأحسنت جوارَهم ما جاورونى .

85/14

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا أجبتموه(٤) ، قالوا : نقول والله ما علمنا وما أمرَنا نبيُّنا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن ، فلما جاءوا وقد دعا النجاشىّ أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ؛ سألهم فقال : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومَكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ؛ ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذى كلّمه جعفر بن أبى طالب فقال : أيها الملك ، كنّا قوما أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام [ونأكل](٥) الميتة ، ونأتى الفواحشَ ، ونقتطع(٦) الأرحامَ ، ونُسىء الجوار ، ويأكل القوىّ

(١) ضوى : لجأ . (٢) فى الأصل : «قال» ، والصواب عن (ابن هشام ١ : ٣٥٩) .
(٣) كذا فى الأصل . ورواية ابن هشام والديار بكرى فى تاريخ الخميس ١ : ٢٩٠ «منعتهم منهما» .
(٤) فى ابن هشام والديار بكرى « جئتموه » . (٥) الزيادة من ابن هشام .
(٦) فى ابن هشام والديار بكرى « نقطع » .

منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منّا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة [و][1] الأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فعدّد عليه أمور الإسلام، فصدقناه، وآمنّا به واتّبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرّمنا [ما][2] حرم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا و بين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك، فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شىء، قال : نعم، قال : فاقرأه علىّ، فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كهيعص ﴾[3]، قال : فبكى والله النجاشى حتى اخضلّت لحيته، وبكت أساقفته حتى اخضلّت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشىّ : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فلا والله لا أسلّمهم إليكما ، ولا يكادون .

قالت : فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينّه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم، فقال له عبد الله بن أبى ربيعة : لا تفعل فإن لهم أرحاما، وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم

---

(١) ساقطة من الأصل . (٢) فى الأصل : « مما » والصواب عن ابن هشام .

(٣) سورة مريم : ١

عَبْدٌ. قالت: ثم غدا عليه [من](١) الغد فقال: يأيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم فاسألهم عمّا يقولون فيه، فأرسل إليهم فسألهم عنه. قالت أمّ سلمة: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القومُ، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون فى عيسى بن مريمَ إذا سألكم عنه؟، قالوا: نقول والله كما قال الله، وما جاءنا به نبينا؛ كائنا فى ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون فى عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا، نقول هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشىّ بيَده إلى الأرض، ثم أخذ منها عودا، ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ممّا قلتَ هذا العود. فتناخرت(٢) بطارقته من حوله حين قال ماقال، فقال: و إن نخرتم، والله أنتم شُيوم بأرضى — والشُّيوم: الآمنون — من سبّكم غَرِم، من سبّكم غَرِم، من سبّكم غرِم! وما أحب أن لى دَبْرا من ذهب، وأنى آذيت رجلا منكم — والدَّبْر بلسان الحبشة الجبل — ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ ملكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة.

٨٦ / ١٤

قال الزهرىّ: فحدثت عروة بن الزبير حديث(٣) أمّ سلمة قال: هل تدرى ما قوله: «ما أخذ الله منّى الرشوة حين ردّ علىّ ملكى. فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىّ فأطيع الناس فيه»؟ قلت: لا، قال: فإن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها حدثتنى

(١) زيادة عن ابن هشام. (٢) نخرت الأساقفة: تكلمت بلغتهم. (الديار بكرى ١: ٢٩١). وفى ابن هشام «تناخرت». (٣) فى الأصل «حدثت» والصواب ما أثبتناه عن ابن هشام، والديار بكرى.

أن أباه كان ملك قومه، ولم يكن له ولد إلا النجاشيّ، وكان للنجاشيّ عمّ له من صلبه اثنا عشر رجلا، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشيّ، وملّكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صلبه اثنى عشر رجلا يتوارثون[1] ملكه من بعده، فغدوا على أبي النجاشيّ فقتلوه وملّكوا أخاه، فمكثو على ذلك حينا، ونشأ النجاشيّ مع عمه، وكان لبيبا حازما،
٥ فغلب على أمر عمه، ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشة مكانه منه، قالت: والله لقد غلب[2] هذا الفتى على أمر عمه، وإنا لنتخوف أن يملكه علينا، وإن ملّكه علينا قتلنا أجمعين، لقد عرف أنّا نحن قتلنا أباه. فمشوا إلى عمّه فقالوا: إما أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا، فإنّا قد خفناه على أنفسنا، قال:
١٠ ويلكم! قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم! بل أُخرجه من دياركم، فخرجوا به إلى السوق، فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم، فقذفه فى سفينته وانطلق به حتى إذا كانت العشاء من ذلك اليوم، هاجت سحابة من سحائب الخريف، فخرج عمّه يستمطر تحتها، فأصابته صاعقة فقتلته، ففزع الحبشة إلى وَلَده، فاذا هو محمّق ليس فى ولده خير، فمرج على الحبشة أمرهم، فلما ضاق عليهم ماهم فيه
١٥ من ذلك قال بعضهم لبعض: تعلّموا والله آن ملككم[3] الذى لا يقيم أمركم غيره للذى بعتم[4] غدوة، فان كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه، قال: فخرجوا فى طلبه، فأخذوه من الرجل الذى باعوه له، ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج، وأقعدوه على سرير

(١) فى الأصل «يتوارثوا» وهو تحريف.
(٢) فى الأصل «علمت»، والصواب عن ابن هشام (١ : ٢٢٢).
(٣) فى الأصل «ملكم»، والصواب عن ابن هشام، والديار بكرى.
٢٠ (٤) فى الأصل «يقيم»، والصواب عن ابن هشام، وفى الديار بكرى «بعتموه».

الملك وملكوه، فجاءهم التاجر الذى باعوه منه، فقال: إما أن تعطونى مالى، و إما أن أكلمه فى ذلك، قالوا : لا نعطيك شيئا، قال: فإذًا والله أكلمه، قالوا: فدونك. فجاء فجلس بين يديه، فقال: أيها الملك، ابتعتُ غلاما من قوم فى السوق بستمائة درهم، فأسلموا إلىّ غلامى، وأخذوا دراهمى، حتى إذا سرت بغلامى ؛ أدركونى فأخذوه منّى، ومنعونى دراهمى، فقال لهم النجاشىّ: لتعطنّه دراهمه أو ليضعن غلامُه يده فى يده؛ فليذهبن به حيث شاء، قالوا: بل نعطيه دراهمه. قالت: فلذلك يقول: «ما أخذ الله منّى الرشوة حين ردّ على مُلكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىّ فأطيع الناسَ فيه» . قال: وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته فى دينه، وعدله فى حكمه.

قال ابن إسحاق، وحدثنى جعفر بن محمد عن أبيه، قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشىّ: إنك فارقت ديننا، وخرجوا عليه. فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإنْ هُزِمْتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، و إن ظَفِرتُ فاثبتوا. ثم عمد إلى كتابٍ فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا عبده ورسوله، و يشهد أن عيسى عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعلها[1] فى قَبائه عند المنكب الأيمن[2]، وخرج إلى الحبشة وصفّوا له، فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحقّ الناس بكم؟ قالوا: بلى؛ قال: فكيف رأيتم سيرتى فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمتَ أنّ عيسى عبد، قال: فما تقولون أنتم فى عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابن الله فقال النجاشىّ و وضع يده على صدره على قَبائه: هو يشهد أن عيسى بنَ مريم، لم يزد على هذا شيئا. و إنما يعنى ما كتب، فرضُوا وانصرفوا، فبلغ ذلك النبى

---

(١) كذا فى الأصل. والذى فى ابن هشام «جعله» وهو أظهر.

(٢) فى الأصل: «اللاتى»، وهو تحريف؛ والتصويب عن ابن هشام.

صلى الله عليه وسلم، فلما مات النجاشيّ صلى عليه، وآستغفر له . وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إسلامه .

ذكر إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه

رُوى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "اللهم أَعِزّ الإسلام بأحبّ الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب ، أو أبى جهل بن هشام"[1]. وعن سعيد بن المسيّب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى عمرَ بن الخطاب أو أبا جهل بن هشام قال : "اللهم آشدد دينك بأحبهما إليك" فشدّ دينه بعمر، وعنه صلى الله عليه وسلم : "اللهم أعِزّ الدين بعمر بن الخطاب".

قال ابن إسحاق ومحمد بن سعد فى طبقاته : ليس بينهما تنافٍ إلا فى مغايرة بعض الألفاظ ، أو زيادةٍ أوردها أحدُهما دون الآخر، ونحن نورد ما يتعين إيراده منهما .

قالا : خرج عمر بن الخطاب متوشّحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه ، قد ذكروا له أنهم قد آجتمعوا فى بيتٍ عند الصفا، وهم قريب أربعين : من بين رجالٍ ونساء[2]، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبى قحافة ، وعلى بن أبى طالب فى رجالٍ من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعيم بن عبد الله النّحّام، وهو رجل من قومه من بنى عدىّ بن كعب كان قد أسلم وهو يخفى إسلامه عن عمر، فقال : أين تريد يا عمر؟ فقال :

(١) فى الأصل : «أبا جهل»، وهو تحريف .

(٢) 'رة ابن هشام : «وهم قريب من أربعين : ما بين رجال ونساء» .

أريد محمدا، هذا الذى فرّق أمر قريش(١) وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: لقد غرّتك نفسك(٢) يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا! وهذا عمر. ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذى أنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن ختنك وأختك قد صبوا، وتركا دينك الذى أنت عليه.

قال ابن إسحاق: فقال له نعيم: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأىّ أهل بيتى؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه، وعندهما خبّاب بن الأرتّ، معه صحيفة فيها: (طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسّ عمر تغيب خبّاب فى مخدع لهم — أو فى بعض البيت — وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها(٣)، فلما دخل عمر قال: ما هذه الهينمة(٤) التى سمعتُ؟ قالا: ما سمعتَ شيئا، قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما اتبعتما(٥) محمدا على دينه. فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحقّ فى غير دينك! فوثب عمر على ختنه فبطش به ووطئه وطئًا شديدا، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالا: نعم قد أسلمنا وآمنّا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع

---

(١) رواية ابن هشام: «هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش».

(٢) فى ابن هشام «نفسك من نفسك».

(٣) زاد فى ابن هشام: «وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما».

(٤) الهينمة: الكلام الخفى الذى لا يفهم.

(٥) فى ابن هشام: «تابعتما».

فارعوى[1]، وقال [لأخته][2] : أعطيني هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد — وكان عمر كاتبا — فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها[3]، قال : لا تخافى، وحلف لهـا بآلهته ليردّنّها إذا قرأها إليهـا ، فطمعت فى إسلامه وقالت له : يا أخى إنك نَجِس على شِرْكك، وإنه لا يمسُّها إلا الطاهر، فقام عمر فآغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها ﴿ طَهَ ﴾، فلما قرأ منها صدرا قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خَبّاب بن الأرتّ خرج إليه، فقال له : يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّـه، فإنى سمعته أمسِ يقول : "اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بنِ هشام، أو بعمر بن الخطاب"، فالله اللهَ يا عمر! فقال له عمـر : فدلّنى على محمد حتى آتيه فأُسلِم، فقال له خَباب : هو فى بيتٍ عند الصفا معه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشّحه، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، فنظر من خَلَل الباب[4]، فرآه وهو فَزِع، فقال : يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف، فقال حمـزة : فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إيذن له" فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة، فأخذ بحُجْزَته — أو بمجمع ردائه — ثم جَبَذه جبذة شديدة، وقال: " ما جاء بك يابن الخطاب؟ ، فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة " . قال أنس بن مالكٍ فى روايته : " حتى ينزل الله بك من الخزى

(١) ارعوى : كف . (٢) التكملة عن ابن هشام (١ : ٣٦٩) .
(٣) فى الأصل «علينا» ، وما أثبتناه عن ابن هشام .
(٤) زاد ابن هشام « فرآه متوشحا السيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع » .

ما أنزل بالوليد بن المغيرة" . فقال عمر : يارسول الله، جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء به من عند الله ، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف بها أهل البيت أن عمر قد أسلم .

٨٨ / ١٤

قال محمد بن سعد بن منيع فى طبقاته : أسلم عمر بن الخطاب بعد أن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار ابن الأرقم بعد أربعين أونيّف وأربعين من رجال ونساء قد أسلموا قبله .

وقال ابن المسيّب : أسلم عمر بعد أربعين رجلا وعشر نسوة .

وعن عبد الله بن ثعلبة قال : أسلم عمر بعد خمسة وأربعين رجلا وإحدى عشرة آمرأة .

ويردّ هذه الأقوال أن إسلام عمر كان بعد الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة؛ وقد تظافرت الروايات أنّ أهل الهجرة كانوا أكثر من ثمانين رجلا، ولعل إسلامه وقع وفى مكة ممن أسلم هذه العدّة التى ذكرت ، خلاف من هاجر إلى أرض الحبشة . والله أعلم .

قال ابن إسحاق : حدّثنى نافع[1] عن آبن عمر رضى الله عنهم قال : لما أسلم عمر بن الخطاب قال : أى قريش أنقل للحديث ؟ قيل : جميل بن معمر الجمحى[2]، قال : فغدا عليه ، قال عبد الله بن عمر : وغدوت معه أتبع أثره وأنظر ماذا يفعل

---

(١) فى ابن هشام « نافع مولى عبد الله بن عمر » .

(٢) جميل بن معمر هذا هو الذى يقال له : ذو القلبين ، وفيه نزلت « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » وفيه يقول الشاعر :

وكيف ترانى بالمدينة بعد ما قضى وطرا منها جميل بن معمر

الديار بكرى جـ ١ : ١٢٤

وأنا غلام أعقل[1] كلّ ما رأيت، حتى جاءه، فقال : أعلمتَ يا جميل أنى أسلمت ودخلتُ فى دين محمد ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجرّ رداءه ، واتبعه عمر واتبعت أبى، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش — وهم فى أنديتهم حول الكعبة — ألا إنّ ابن الخطاب قد صبأ[2]، فيقول عمر من خلفه : كذبتَ، ولكنّى أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدا عبده ورسوله ، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم و يقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم. قال : وطَلَح — يعنى أعيا — وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله لو قد كنا ثلثمائة لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حُلّة حِبَرة[3] وقميص موشّى ، حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، قال : فَمَهْ ! رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أترَوْن بنى عدىّ بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ! خلّوا عن الرجل ، قال : فو الله لكأنما كانوا ثوبا كُشط عنه . قال : فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبَهْ، مَن الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ، جزاه الله خيرا ؟ قال : ذاك العاص ابن وائل السّهمىّ، لا جزاه الله خيرا .

قال عبد الله بن مسعود : ما كنا نقدر أن نصلّى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا وصلّى عند الكعبة وصلينا معه . وقال : إن إسلام عمر كان فتحا، وإنّ هجرته كانت نصرا، وإنّ إمارته كانت رحمة .

(١) فى الأصول : «أغيل» ، وهو تصحيف ، وما أثبتناه عن ابن هشام وابن كثير (٣ : ٨١) والمواهب (١ : ٣٣٢) . (٢) صبأ، ككرم ومنع : خرج من دين الى دين .

(٣) الحبرة : ضرب من برود اليمن .

وعن صُهيب بن سِنان قال : لمـا أسـلم عمر ظهر الإسـلام ، ودُعى إلى الله علانيــة ، وجلسنا حول البيت حلقا ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعضَ ما يأتى به .

وكان إســلام عمر فى ذى الحجة من الســنة السادسة من النبوّة ، وهو آبن ست وعشرين سنة . ٥

ذكر تعاقد قريش على بنى هاشم وبنى المطلب وآنحيازِ بنى هاشم وبنى المطلب إلى أبى طالب ودخولِهم فى شِعبه

قال محمـد بن إسحاق وغيره من أهل السِّيَر : لمـا رأت قريش أن أصحاب رســول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا أصابوا فيه أمْنا وقَرارا ، وأن النجاشىّ قد أكرمهم ، ومنع [من لجأ إليه](1) منهم ، وأنّ عمر قد أسلم قبله حمزة بن عبد المطلب ، ١٠ وجعل الإسلام يفشو فى القبائل ، اجتمعوا وآئتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ؛ على ألا ينكِحوا إليهم ولا يُنكِحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم . فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفة ، ثم تعاهــدوا وتعاقدوا وتوافقــوا على ذلك ، ثم علّقوا الصحيفةَ فى جوف الكعبــة توكيدا على أنفسهم . وكان كاتب الصحيفــة(2) منصــور بن عِكرمة بن عامر بن هاشم بن عبــد مناف بن ١٥

(١) الزيادة من آبن هشام .

(٢) أكثر المصــادر على أن كاتب الصحيفــة هو منصــور بن عكرمة . وفى المواهب : أنه هشـام ابن عمرو بن الحارث ؛ وقيــل طلحة بن أبى طلحة ، وقيل منصور بن عبد شرحبيل . راجع ابن هشام (١ : ٣٧٥) ، والسيرة الحلبيــة (١ : ٣٦٦) ، وعيــون الأثر (١ : ١٢٦) ، والديار بكرى (١ : ٢٩٧) ، والبداية (٣ : ٩٦) ، والمواهب (١ : ٣٣٥) . ٢٠

عبد الدار بن قصيّ ، ويقال : عمه بغيض بن عامر ، قاله الزبير وابن الكلبيّ ؛ — ويقال : النضر بن الحارث — فشَلّتْ يدُه .

قال محمد بن عمر بن واقد : وحصروا بنى هاشم فى شِعْب[1] أبى طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانحاز بنو المطلب إلى أبى طالب فى شِعبه مع بنى هاشم ، وخرج أبو لهب إلى قريش ، وظاهرهم على بنى هاشم وبنى المطلب ، وقطعوا عنهم المِيرة والمادّة ، فكانوا لا يخرجون إلا من مَوْسِم إلى مَوْسِم ، حتى بلغهم الجَهْد ، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشِّعْب ، فمن قريش مَنْ سرّه ذلك ، ومنهم من ساءه ، وقال : انظروا ما أصاب كاتب الصحيفة ! فأقاموا فى الشِّعب ثلاث سنين ، ثم أطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على أمر صحيفتهم ، وأن الأَرَضة قد أكلت ما فيها من جور وظلم ، وبقى ما كان فيها من ذكر الله .

قال : فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طالب ، فذكر ذلك أبو طالب لإخوته ، وخرجوا إلى المسجد ، فقال أبو طالب لكفّار قريش : إن ابن أخى قد أخبرنى — ولم يَكْذِبنى قطّ — أن الله سلّط على صحيفتكم الأَرَضة فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعةِ رحِم ، وبقى فيها ما ذُكر به الله ، فإن كان ابن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذبا دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتُموه . قالوا : قد أنْصَفْتنا ، فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها ، فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسُقِطَ فى أيديهم ، ونُكِسوا على رءوسهم . فقال أبو طالب : علام نُحْبَس ونُحصر وقد بان الأمر ؟! ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة . فقال : اللهم انصرنا على مَنْ ظلمنا ، وقطع

(١) ويعرف بشعب أبى يوسف ، انظر معجم البلدان .

أرحامنا ، وآستحل ما يحرم عليه منا . ثم آنصرفوا إلى الشِّعب . وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببنى هاشم : فيهم مُطْعِم بن عدِىّ ، وعَدى بن قيس ، وزَمْعة آبن الأسود، وأبو البَخْترىّ بن هِشَام، وزهير بْن أبى أميـة . ولبسوا السلاح؛ ثم خرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، وكان خروجهم من الشِّعب فى السـنة العاشرة من النبوّة، وقيل : كان مُكْث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الشِّعب سنتين . ٥

وحكى أبو محمـد عبد الملك بن هشـام ، عن أبى عبد الله محمـد بن إسحـاق — رحمهم الله — فى سبب نَقْض الصحيفة غير ماقدّمناه مما حكاه محمد بن سعدٍ عن الواقـدىّ .

قال آبن إسحاق بعد أن ذكر من شدّة ما لاقاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب من الضائقة ماذكر : ثم إنه قام فى نقض الصحيفة — التى تكاتبت فيها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب — نَفَر من قريش ، ولم يُبْلِ فيها أحد أحسن من بلاء هشام بنِ عمرو[1] بنِ ربيعة بنِ الحارث بنِ حبيب بنِ نصر بنِ مالك آبن حِسْل بن عامر بن لؤىّ، وذلك أنه كان ابن أخى نَضلة بنِ هاشم بن عبد مناف لأمّه، وكان هشام لبنى هاشمٍ واصلا، وكان ذا شرفٍ فى قومه ، فكان يأتى بالبعير وبنـو هاشِم وبنـو المطلب فى الشعب ليلا، وقد أوْقَره طعاما، حتى إذا أقبله فَمَ الشِّعب خلع خِطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشِّعب عليهم، ويأتى به قد أوقره بُرًّا، فيفعل به مثل ذلك . ١٠ ١٥

قال : ثم إنه مشى إلى زُهير بن أبى أميـة بن المغيرة المخزومىّ — وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب — فقال : يا زُهير، وقد رضيت أنَا نأكل الطعام ونلبس ٢٠

(١) فى الأصل : «عمر» ، والصواب عن ابن هشام ، والمواهب ، وعيون الأثر ، والاستيعاب .

الثياب ، وننكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم ، ولا يَنكحون ولا يُنكَح إليهم ، أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم ابنِ هشام ثم دعوتَه إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا ، قال : ويحك يا هشام ! فماذا أصنع ؟ أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نَقْضها حتى أنقضها ، قال : قد وجدتَ رجلا ، قال : من هو؟ قال : أنا، قال له زهير : اِبغنا ثالثا، فذهب إلى المطعِم بن عدىّ فقال له : يا مطعم أقد رضيت أن يهلِك بطنانِ من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنّهم إليها منكم سِراعا، قال : ويحك، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال : قد وجدتَ ثانيا، قال : من هو؟ قال : أنا، قال : ابغنا ثالثا ، قال : قد فعلتُ، قال : من هو ؟ قال : زهير، قال : ابغنا رابعا ، قال : فذهب إلى أبى البَخْتَرِىّ بنِ هشام فقال له نحوًا مما قال لمُطعم، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم ، قال : فمن هو ؟ قال زهير والمطعِم وأنا معك، قال : ابغنا خامسا، فذهب إلى زمعة بنِ الأسود آبن المطلب ، فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقّهم، فقال : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم، ثم سَمّى له القوم ، فاتّعدوا خَطْم الحَجُون[1] ليلا بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقُضوها .

وقال زُهير : أنا أبدؤكم فأكون أوّل من يتكلم . فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عليه حُلّة ، فطاف بالبيت سَبعا ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكَى لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم ! والله لا أقعد حتى تُشَق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . فقال أبو جهل

(١) كذا بالأصل . وخطم الحجون : أنفه النادر منه ؛ والذى فى ابن هشام والبداية بالمهملة ، والحطم : الموضع الذى حطم منه ، أى ثلم فبقى منقطعا .

— وكان فى ناحية المسجد — : كذبت، والله لا تُشَقّ[(١)] ! قال زَمعة بن الأسود : أنت والله أكذب، مارضينا كتابتها حيث كُتبتْ، قال أبو البَخترىّ : صدق زَمعة، لا نرضى ما كتِب فيها ولا نقِرّ به، قال المطعم : صدقتما وكذب من قال غيرذلك؛ نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها !

وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك .

فقال أبوجهل: هذا أمر قضِىَ بليل، وتشوور فيه بغير هذا المكان[(٢)] — وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد — وقام المطعم إلى الصحيفة ليشُقّها فوجد الأَرَضة قد أكلتها، إلا « باسمِك اللهم » .

ثم حكى ابن هشام نحوا ممّا ذكره الواقدىّ من خبرها على ما قدّمناه، وأن أولئك الرهط الذين ذكرناهم صنعوا ماصنعوا مما ذكرناه بعد كلام أبى طالب . والله تعالى أعلم .

ذِكر من عاد من أرض الحبشة ممن هاجر إليها، وكيف دخلوا مكة

قال ابن إسحاق رحمهما الله : وبلغ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دَنَوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدّثوا به من إسلامهم كان باطلا، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوارٍ أو مُستخفيا . فكان من قدم عليه مكة، منهم فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة فشهد بَدْرا وأُحدا ، ومن حبِس عنه حتى فاته ذلك .

ومن مات منهم بمكة من بنى عبد شمس : عثمان بن عفان معه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، معه امرأته سَهْلة بنت سُهيل .

(١) فى الأصل «على» وهو تحريف . (٢) فى الأصل «تشور فيه لغير» ؛ وهو تحريف .

ومن حلفائهم عبد الله بن جَحْش بن رِئاب .

ومن بنى نَوْفل بن عبد مناف عُتبة بن غَزْوان حليف لهم .

ومن بنى أسد بن عبد العُزّى الزبير بن العوّام .

ومن بنى عبد الدار مُصْعب بن عمير، وسُوَيبط بن سعد .

٥ ومن بنى عبد [بن] قصىّ[1] طُلَيب بن عمير .

ومن بنى زُهرة بن كِلاب عبد الرحمن بن عوف، والمِقداد بن عمرو؛ حليف لهم، وعبد الله بن مسعود؛ حليف لهم .

ومن بنى مَخْزوم أبو سَلَمة بن عبد الأسد ؛ معه آمرأته أمّ سَلَمة، وشمّاس آبن عثمان، وسَلَمة بن هِشام ، حبسه عمه بمكة فلم يهاجر إلا بعد الخندق[2] ، وعيّاش

١٠ آبن أبى ربيعة بن المغيرة، ومن حلفائهم عمّار بن ياسر[3]، ومعتّب بن عوف من خزاعة .

ومن بنى جُمَح عُثمان بن مظعون وآبنه السائب بن عثمان ، وقُدامة وعبد آلله آبنا مظعون .

ومن بنى سَهْم خُنَيس بن حُذافة ، وهشام بن العاص بن وائل ؛ حبس بمكة فلم يهاجر إلا بعد الخندق .

١٥ ومن بنى عَدىّ بن كعب عامر بن ربيعة حليف لهم ، معه آمرأته ليلى بنت أبى حَثْمة .

ومن بنى عامر بن لُؤى عبد الله بن مَخْرمة ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو . حبس بعد الهجرة ، فلما كان يوم بدر آنحاز من المشركين إلى رسول الله صلى الله

---

(١) من ابن هشام .

٢٠ (٢) فى ابن هشام (٢ : ٦)، « فلم يقدم إلا بعد بدر وأحد والخندق » .

(٣) فى ابن هشام ما نصه : « إن عمارا يشك فيه ، أكان خرج إلى الحبشة أم لا » .

عليه وسلم، وأبو سَبْرة بن أبى رُهم، معه آمرأته أمّ كلثوم[(١)]، والسّكران بن عمرو معه آمرأته سَودة بنت زَمْعة؛ مات بمكة قبل الهجرة. ومن حلفائهم سعد بن خولة.

ومن بنى الحارث بن فِهر أبو عُبيدة عامر بن عبد الله بن الجرّاح، وعمرو آبن الحارث بن زهير، وسُهيل بن بَيضاء، وعمرو بن أبى سَرْح بن ربيعة بن هلال.

٥

بجميع من قدم مكة ثلاثة وثلاثون رجلا، فكان من دخل منهم بجوار عثمان آبن مظعون دخل بجوار من الوليد بن المغيرة، فلما رأى مافيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد، قال: والله إنّ غُدوّى ورَواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشّرْك، وأصحابى[(٢)] وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لَنَقْصٌ كبير فى نفسى، فمشى إلى الوليد آبن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وَفتْ ذمّتك، وقد رددت إليكَ جوارك؛ فقال له: يا بن أخى، لعله آذاك أحد من قومى، قال: لا، ولكنى أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: فآنطلِقْ إلى المسجد فردّ علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية، فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى، قال: صدق، وجدته كريما وفىّ الجوار[(٣)]، ولكنى أحببت ألا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره، ثم انصرف عثمان.

٩١/١٤ ١٠ ١٥

وأبو سَلمة بن عبد الأسد دخل بجوار من أبى طالب بن عبد المطلب، فمشى إليه رجال من بنى مخزوم فقالوا: يا أبا طالب[(٤)]، منعت منا ابن أخيك محمدا، فمالك

(١) فى ابن هشام: «أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو».
(٢) فى الأصل: «أصحاب». وما أثبتناه عن ابن هشام.
(٣) فى ابن هشام: «وفيا كريم الجوار».
(٤) فى الأصل: «يا أبا المطلب»، وما أثبتناه عن ابن هشام.

٢٠

ولصاحبنا تمنعه مِنّا ! قال : إنه استجارَ بى ؛ وهــو ابن أختى ، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى ، فقام أبو لهب فقــال : يا معشر قريش ، والله لقــد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون توثّبون عليه فى جواره من بين قومه، والله لتنتهنّ عنــه أو لنقومنّ معــه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد ، فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عُتبة . قال : وأقام بقيتهم بأرض الحبشة إلى سنة سبع من الهجرة، فقدموا بعــد فتح خيبر ، وقد رأينا أن نذكرهم فى هذا الموضع ؛ لتكون أخبارهم متواليــة .

ذكر من قدم من أرض الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخَيْبَر ، ومن قدم بعد ذلك ومن هلك منهم هناك

قال ابن إسحاق : كان من قدم منهم إلى خيبر فى سنة سبع من الهجرة مع جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه فى السفينتين ستة عشر رجلا ، وهم من بنى هاشم بن عبد مناف : جعفر بن أبى طالب، معه امرأته أسماء بنت عُمَيس، وابنه عبد الله؛ ولد بأرض الحبشة .

ومن بنى عَبْــد شمس خالد بن ســعيد بن العاص ، معــه امرأته أمينة بنت خلف، وابناه سعيد بن خالد، وأمة بنت خالد ؛ ولدتهما بأرض الحبشة، وأخوه عمرو بن سَعيد ، ومعيقيب بن[1] أبى فاطمة ، وأبو موسى الأشعرى ؛ واسمه عبد الله بن قيس .

ومن بنى أسد الأسود[2] بن نَوْفل بن خُوَيلد .

(١) فى الأصل : « معيقب » . وما أثبتناه عن (ابن هشام ٤ : ٤) .

(٢) فى الأصل : « الأسد » . والصواب عن ابن هشام .

ومن بنى عبد الدار [بن] قُصىّ[1] جَهْم بن قيس ، معه ابناه عمرو بن جَهْم ، وخُزيمة بنت جَهْم ، وكانت معه امرأته أمّ حَرْملة بنت عبد الأسود ، هلكت بأرض الحبشة .

ومن بنى زُهرة بن كلاب عامر بن أبى وقّاص ، وعُتبة بن مسعود حليف لهم من هُذيل .

ومن بنى تيم بن مُرّة الحارث بن خالد بن صَخْر ، هلكت امرأته رَيْطَة بالحبشة .

ومن بنى جُمح عثمان بن ربيعة بن أهبان .

ومن بنى سَهم مَحمِية بن الجَزْء[2] حليف لهم من بنى زُبيد .

ومن بنى عَدىّ بن كعب مَعْمر بن عبد الله بن نَضْلة .

ومن بنى عامر بن لؤىّ أبو حاطب بن عمرو ، ومالك بن ربيعة : معه امرأته عَمرة بنت السعدىّ .

ومن بنى الحارث بن فِهْر الحارث بن [عبد[3]] قيس بن لَقيط ، وحمل معهم نساء من نساء مَن هلك هناك .

هؤلاء الذين قدموا مع جعفر فى السفينتين . وقدم بعد ذلك ستة وعشرون رجلا ، وهم :

من بنى أمية قيس بن عبد الله الأسدىّ ، أسدِ خزيمة ، حليف لهم .

---

(١) ساقطة من الأصل . وما أثبتناه عن ابن هشام .

(٢) كذا ضبط هذا الاسم فى التاج والتكملة من ابن هشام .

(٣) الزيادة من ابن هشام .

ومن بنى أسد يزيد بن زَمعة بنِ الأسود، قتل يوم حُنينٍ شهيدا .

ومن بنى عبد الدار : أبو الروم بن عُمير، وفراس بن النضر بنِ الحارث بن كَلَدة .

ومن بنى تَيم بن مرة عمرو بن عثمان بن عمرو .

ومن بنى مخزوم هَبّار بن سفيان ، وأخوه عبد الله ، وهشام بن أبى حُذيفة

٥ ابن المغيرة .

ومن بنى جُمح سفيان بن مَعْمر ، وآبناه جُنَادة وجابر ، وأمهما حَسَنة[1] ، وأخوهما لأبيهما شُرَحْبيل بن حَسَنة .

ومن بنى سهم قيس بن حذافة بنِ قيس ، وأبو قيس بن الحارث بنِ قيس ، و بشر بن الحارث بن قيس ، وأخ له من أمه من بنى تميم يقال له : سعيد بن عمرو .

١٠ وسعيد بن الحارث بن قيس ، والسائب بنِ الحارث بنِ قيس ، وعُمير بن رئاب . ابنِ حُذيفة .

ومن بنى عامر بن لؤى سَليط بن عمرو .

ومن بنى الحارث بن فهر عثمان بن عبد غَنْم[2] ، وسعيد بن عبد قيس بنِ لَقيط ، وعِياض بن زُهير بن أبى شدّاد .

١٥ وهلك بأرض الحبشة ممن هاجر إليها ثمانية ، وهم :

من بنى عبد شمس ، من حلفائهم عبيد الله بن جحش بنِ رِئاب ، تنصّر ومات بأرض الحبشة نصرانيا ، وكانت معه آمرأته أمّ حبيبة بنت أبى سفيان ، فخلف عليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

٩٢
—
١٤

(١) كذا ضبط هذا الاسم بالتحريك فى التاج ضبطا بالعبارة .

٢٠ (٢) و يقال فيه سعد كما فى ابن هشام والاستيعاب .

ومن بنى أسد عمرو بن أمية بن الحارث .

ومن بنى زهرة بن كلاب المطلب بن أزهر بن عوف ، ومعه امرأته رملة بنت أبى عوف، فولدت له هناك عبد الله بن المطلب .

ومن بنى جُمح حاطب بن الحارث بن معمّر ، وكان معه امرأته فاطمة بنت المحلّل (١) بن عبد الله، وابناه محمد والحارث ، فقدمت امرأته وابناه مع جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه فى أحد السفينتين، وأخوه حطاب بن الحارث، وكان معه امرأته فُكيهة بنت يَسار قدمت مع جعفر أيضا .

ومن بنى سهم عبد الله بن الحارث بن قيس .

ومن بنى عدىّ بن كعب عُروة بن عبد العزّى بن حُرثان ، وكان مع عدىّ ابنه النعمان، فقدِم مع من قدِم من المسلمين .

فهؤلاء الذين ذكرناهم هم الذين ذكرهم ابن إسحاق، وعدّهم أنهم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة ، وحصر عِدّتهم كما تقدّم . وأمّا من ذكرنا ممن ذكر أبو عمر يوسف بن عبد البرّ فى كتابه أنهم ممن هاجر إلى أرض الحبشة فلم نقف على تاريخ عودِهم فنذكره .

ذكر من أنزِل فيه القرآن من مشركى قريش وما أنزِل فيهم

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : ولمّا حَمى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من قريش ومنعه منها ، وقام عمه أبو طالب وقومه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، جعلت قريش يهمِزونه ويستهزئون به ويخاصمونه ، والقرآن ينزل فيهم، منهم من سماه الله تعالى، ومنهم من نزل فيه فى عامّة من ذكر الله من الكفار .

(١) فى بعض نسخ ابن هشام وأسد الغابة «المجلل» بالجيم .

فكان من سمى ممن نزل فيه القرآن أبو لهب بن عبد المطلب ، وآمرأته أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب ، فأنزل الله فيهما قوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ . قال : وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[قال ابن إسحاق : فذكر لى أن أم جميل حمالة الحطب ، حين سمعت ما أنزل فيها، وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله(١)] وهو جالس فى المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وفى يدها فِهر(٢) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت : يا أبا بكر، أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إنى لشاعرة :

مُذَمَّمًا عَصَيْنَا * وَأَمْرَه أَبَيْنَا

وَدِينَه قَلَيْنَا

ثم آنصرفت .

قال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى .

وأمية بن خلف بن وهب الجُمَحى؛ كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه ، فأنزل الله تعالى فيه قوله :﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾، السورة كلها .

(١) الزيادة عن ابن هشام : (١ : ٣٨١) .
(٢) الفهر : الحجر الذى يملأ الكف .

قال ابن هشام : الْهُمَزة : الذى يَشْتُم الرجل علانيـة ، و يكسِر عينه عليـه و يغمِز به . واللُّمَزة : الذى يعيب الناس سِرًّا و يؤذيهم .

والعاص بن وائل السَّهمىّ ؛ كان إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقِب له ، لو قد مات ٱنقطع ذكره واسترحتم منه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .

والكوثر : ماء هو خير من الدنيا وما فيها ؛ وقيل : الكوثر : العظيم ، وقيل : الخير الكثير .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الكوثر الذى أعطاك الله ؟ فقال : نهر فى الجنة كما بين صَنْعاء إلى أَيْلة[1] ، آنيته كعدد نجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ أبدا ، وأنزل الله فيه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾[2] ، وكان سبب ذلك أن خَبَّاب بن الأرتّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نشأ بمكة يعمل السيوف ، وكان قد باع من العاص بنِ وائل السَّهمىّ سيوفا عملها له ؛ حتى كان له عليه مال ، فجاءه يتقاضاه ، فقال : ياخَبَّاب ، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ٱبتغى أهلها من ذهب أو فِضّة أو ثياب أو خدم ! قال خباب : بلى ، قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة حتى أرجع إلى تلك الدار ؛ فأقضيك هنالك حقّك ، فوالله لا تكون أنت وأصحابك آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظًّا فى ذلك ، فأنزل الله ذلك فيه .

(١) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام . وقيل من أول الحجاز وآخر الشام ؛ سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام . (معجم البلدان) .

(٢) سورة مريم (٧٧ — ٨٠) .

وأبو جهل بن هشام، لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبنّ إلهك الذى تعبده، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(1)، فكفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبّ آلهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله .

٥ ولما ذكر الله شجرة الزّقوم تخويفا لهم قال أبو جهل : يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزّقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا ، قال : عجوة يثرب بالزُّبد، والله لئن استمكنا منها لنزقمنها، فأنزل الله فيه : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ . كَغَلْىِ الْحَمِيمِ ﴾(2)، أى ليس كما يقول .

والنضر بن الحارث بن كَلَدة بن عَلقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصىّ؛ ١٠ كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فدعا فيه إلى الله ، وتلا فيه القرآن، وحذّر فيه قريشا ما أصاب الأمم الخالية ، خَلَفه فى مجلسه إذا قام فحدّثهم عن رستم وملوك الفرس وإسفنديار، ثم يقول : والله ما محمد بأحسنَ حديثا منّى، وما حديثه إلا أساطير الأوّلين اكتتبها كما اكتتبتها، فأنزل الله فيه : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوَاتِ ١٥ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾(3) . وأنزل فيه : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾(4) . ونزل فيه : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(5) ، والأفّاك : الكذّاب .

---

(1) سورة الأنعام (١٠٨) . (2) سورة الدخان (٤٣ — ٤٦)
(3) سورة الفرقان ٥ — ٦ . (4) سورة القلم ١٥ .
٢٠ (5) سورة الجاثية ٧ — ٨ .

قال : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهما ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعرض له النضر فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾(١) ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي حتى جلس ، فقال له الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد ، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ! فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى : أمَا والله لو وجدته لخصمته ، فسألوا محمدا : أكلُّ ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عَبَده ؟ ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عُزَيْرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، فعجب الوليد ومن كان حضر معه في المجلس من قول عبد الله ، ورأوا أنه قد احتجّ وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : "كلّ من أحبّ أن يُعبد من دون الله فهو مع من عَبَده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ، ومن أمرتهم بعبادته" ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾(٢) ، أي عيسى بن مريم ، وعُزَيْر ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله .

(١) سورة الأنبياء ٩٨ — ١٠٠ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠١ — ١٠٢

ونزل فيما ذكروا أنهم يعبدون الملائكة، وأنها بنات الله قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾، إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

٥ ونزل فيما ذكر من أمر عيسى عليه السلام أنه يُعْبَد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجته : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٢)، أي يصدّون عن أمرك، ثم ذكر عيسى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ (٣)، أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء

١٠ الموتى ، وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤) .

والأخنس بن شَرِيق بن عمرو بن وَهْب الثقفيّ ، حليف بني زُهرة ، وكان من أشراف القوم ، وممن يستمع منه ، فكان يُصيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويردّ عليه، فأنزل الله فيه : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ إلى قوله :

١٥ ﴿ زَنِيمٍ ﴾ (٥)، والزّنيم : العديد للقوم (٦) .

والوليد بن المغيرة قال : أيُنزل على محمد وأُترك ! وأنا كبير قريش وسيّدها ! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفيّ سيد ثقيف، ونحن (٧) عظيما القريتين! فأنزل

(١) سورة الأنبياء ٢٩ . (٢) سورة الزخرف ٥٧ . (٣) سورة الزخرف ٥٩ — ٦١ . (٤) سورة الزخرف ٦١ . (٥) سورة القلم ١٠ — ١٣ .

٢٠ (٦) العديد : الرجل يدخل نفسه فى قبيلة ليعد منها ، وليس له فيها عشيرة .

(٧) فى الأصل : « فهن » وما صوبناه عن ابن هشام (١ : ٣٨٧) .

الله تعالى فيه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [(١)] .

وأُبىّ بن خلف بن وهب بن حُذَافة بن جُمَح ، وعُقْبة بن أبى مُعَيط — وكانا متصافيين حَسناً ما بينهما — فجلس عُقْبةُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، فبلغ ذلك أُبيّاً ، فأتى عُقبةَ فقال : ألم يبلغنى أنك [(٢)] جالستَ محمدا وسمعتَ منه ! ثم قال : وَجْهى من وجهك حرام أن أكلمك — وآستغلظ من اليمين — إن أنت جلست أو سمعت منـه ، أو لم تأته فتتفل فى وجهه . ففعل عدوّ الله عُقبة بن أبى مُعَيط ، فأنزل الله فيهما : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [(٣)] . ومشى أُبىّ بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [بعظم [(٤)]] بالٍ قد آرفتّ [(٥)] ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرى [(٦)] ؟ ثم فتّه بيده ونفخه فى الريح نحو النبى صلى الله عليه وسـلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ماتكونان هكذا ، ثم يدخلك النار " ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [(٧)] .

---

(١) سورة الزخرف ٣١ — ٣٢ . (٢) فى الأصل : « ألم يبلغك أنى » ، وما أثبتناه عن ابن هشام . (٣) سورة الفرقان ٢٧ — ٢٩ (٤) الزيادة عن ابن هشام . (٥) ارفت : تكسر وتفتت . (٦) فى ابن هشام : « وأرم » . (٧) سورة يس ٧٨ — ٨٠

وٱعترض رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالكعبة الأسودُ بن المطلب ٱبن أسد، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل — وكانوا ذوى أسنان فى قومهم — فقالوا : يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى تعبد خيرا كنا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذتَ بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ... السورة .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ، فقال له زَمْعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يغُوث، وأبىّ بن خلف، والعاص بن وائل : لو جعل معك يا محمد ملَك يحدّث عنك الناس، ويرى معك ! فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [1] .
والله المستعان .

ذكر خروج أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه إلى الهجرة وعوده، وجواره وردّه الجوار

قال : وكان أبو بكر رضى الله عنه كما روى الزهرىّ عن عُروة عن عائشة رضى الله عنها حين ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها ما أصابه من الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجرا حتى إذا سار من

(١) سورة الأنعام ٨ — ٩

مكة يوما أو يومين لقيه ٱبن الدّغُنّة[(١)]، ويقال فيه: الدُّغَيْنة — أخو بنى الحارث بن بكر ٱبن عبد مناة بن كنانة، والهُون بن خُزَيمة بن مُدرِكة، وبنى المُصْطَلِق بن خُزاعة، تحالفوا جميعا فسُمّوا الأحابيش للحلف[(٢)] — فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ، قال: ولِمَ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتُعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتَكْسِب المعدوم، ارجع وأنت فى جِوارى. فرجع معه حتى إذا دخل مكة، قام ٱبن الدّغُنّة فقال: يا معشر قريش، إنى قد أجرت ٱبن أبى قحافة فلا يعرضنّ له أحد إلا بخير، فكفّوا عنه.

قال: وكان لأبى بكر مسجد على باب داره فى بنى جُمَح، فكان يصلى فيه، وكان رجلا رقيقا، إذا قرأ القرآن ٱستبكى، فتقف عليه الصبيان والعبيد والنساء فيعجبون لما يرون من هيئته، فمشى من قريش إلى ٱبن الدّغُنّة رجال فقالوا: إنك لم تُجِر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يَرِقّ، ونحن نتخوّف على صبياننا ونسائنا وضَعَفتنا أن يَفْتِنهم، فأْته فَمُرْه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء.

قالت: فمشى ٱبن الدّغُنّة إليه فقال: يا أبا بكر، إنى لم أُجرك لتؤذى قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت به، وتأذّوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت. قال: أوَ أردّ عليك جوارك، وأرضى بجوار الله؟ قال: فاردد علىّ جوارى، قال: قد رددته عليك، فقام ٱبن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إن ٱبن أبى قحافة قد ردّ علىّ جوارى فشأنكم بصاحبكم.

(١) هو مالك بن الدغنة سيد الأحابيش. (٢) يقال إنهم تحالفوا عند جبل يقال له حبشى، فاشتق لهم منه هذا الاسم، (راجع الروض الأنف ١ : ٢٣١).

ذكر وفاة أبى طالب بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَشْيِ أشراف قريش إليه فى مرضه ، وما قالوه وأنزل فيهم

كانت وفاة أبى طالب بعد نقض الصحيفة، وخروج بنى هاشم وبنى المطلب من الشِّعْب بثمانية أشهر وأحدٍ وعشرين يوما، وماتت خديجة بعـده بثلاثة أيام. حكاه الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلَف الدمياطى رحمه الله فى مختصر السيرة النبـوية .

وقال محمد بن سعد : كان بينهما شهر وخمسة أيام[(١)] .

قال[(٢)] محمـد بن إسحاق : لمـا ٱشـتكى أبو طالب وبلغ قريشا ثقله ، فمشى إليه أشراف قريش وهم : عُقْبَة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهـل بن هشام، وأمية بن خلَف، وأبو سفيان بْن حرب فى رجالٍ من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك مِنا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى ، وتخوّفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ٱبن أخيك، فٱدعه نخذ له مِنا، وخذ لنا منه، ليكفّ عنا ونكفّ عنه، وليدَعْنا وديننا ، وندعه ودينه .

فبعث إليه فجاءه فقال له: يا بن أخى، هؤلاء أشراف قومك قد ٱجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلمةٌ[(٣)] واحدة تملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم" فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات، فقال. "تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ماتعبدون من دونه "، قال : فصفّقوا بأيديهم، وقالوا : "أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا، إن أمرك لعجب ! ثم قال

---

(١) ابن سعد ١ : ١٤١ (٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٥٨ . (٣) فى ابن هشام : ٢ : ٥٩ : « نعم، كلمة واحدة تعطونيها ، تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » .

بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل يعطيكم شيئا مما تريدون ؛ فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا . فقال أبو طالب : والله ما رأيتك سألتهم شططا .

قال : فلما قالها أبو طالب طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه[1] ، فجعل يقول له : "ياعم فأنت فقلها؛أستحل بها لك الشفاعة يوم القيامة"، قال : يا بن أخى لولا مخافة السُّبّة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظنّ قريش أنى قلتها جزعا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها .

قال ابن عباس : فلما تقارب من أبى طالب الموت، نظر العباس إليه يحرّك شفتيه، فأصغى إليه بأذنه، فقال: يا بن أخى، والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرتَه أن يقولها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم أسمع"، ثم هلك أبو طالب.

والذى ورد فى الصحيح . أن آخر ما سمع من أبى طالب ؛ هو على دين عبد المطلب .

قال ابن إسحاق : وأنزل الله فى الرهط الذين اجتمعوا إلى أبى طالب وقالوا ما قالوا ، قوله تعالى : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ[2] ﴾ . قال : يريدون بالملّة الآخرة النصارى؛ لقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ[3] ﴾ .

(١) فى ابن هشام ٢ : ٥٩ : « فى إسلامه » .

(٢) سورة ص ١ — ٧ . (٣) سورة المائدة : ٧٣ .

ذكر وفاة خديجة بنت خُوَيْلِد زوج النبيّ
صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها

كانت وفاة خديجة رضى الله عنها بعد وفاة أبى طالب كما تقدّم ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين على ماصححه الشيخ شرف الدين الدمياطىّ رحمه الله فى مختصر السيرة النبوية ، قال :

وبقيت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الوحى خمس عشرة سنة ، وبعده تسع سنين وثمـانية أشهر ، وهى أوّل من أسلم من النساء بلا خلاف ، ولعلها أوّل من أسـلم من الناس ، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزير صدق . روى أن آدم عليه السلام قال : « إنى لَسيد البشر يوم القيامة إلا رجل من ذريتى فضل علىّ باثنين ؛ كانت زوجته عونا له ، وكانت زوجتى عونا علىّ ، وأعانه الله على شـيطانه فأسلم ، وكفر شيطانى » . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أمرت أن أبشر خديجة ببيتٍ فى الجنة من قَصَبٍ ، لا صَخَب فيه ولا نَصب " ، قالوا : والقَصَب ها هنا : اللؤلؤ . ودفنت خديجة بالحَجُون ، ولم تكن شرعت الصلاة على الميت بعد . والله أعلم .

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وعوده إلى مكة

قال : لمـا هلك أبو طالب نالت قريش من رسـول الله صلىَّ الله عليه وسلم مالم تكن تناله فى حياة عمه .

قال محمد بن سعد[1] : فبلغ ذلك أبا لهب ، فجاءه فقال : يامحمد ، امض لمـا أردت وما كنتَ صانعا إذا كان أبو طالب حيًّـا فاصنعه ، لا واللّات ، لا يُوصـل إليك

(١) الطبقات ١ : ١٤١

حتى أموت . قال : وسبّ ٱبن الغَيْطَلة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأقبل عليه أبو لهب فنال منه ، فولّى وهو يصيح : يامعشر قريش، صَبَا أبو عُتبة ، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبى لهب فقال : مافارقتُ دين عبد المطلب، ولكنى أمنع ٱبن أخى أن يُضام ، حتى يمضى لما يريد، قالوا : قد أحسنت وأجملت ووصلت الرّحم، فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك أياما يذهب ويأتى، ولا يعترض له أحد من قريش ، وهابوا أبا لهب إلى أن جاء عُقْبَة بن أبى مُعيط ، وأبو جهل ابن هشام إلى أبى لهب فقالا : أخبرك ٱبن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فقالا[1] له : يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ قال : "مع قومه" ، فخرج أبو لهب إليهما فقال : قد سألته فقال : "مع قومه"، فقالا : يزعم أنه فى النار، فقالا : يا محمد، أيدخل عبد المطلب النار؟ ، فقال : "نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار" . فقال أبو لهب : والله لا برحت لك عدوّا أبدا ، وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار، فاشتدّ عليه هو وسائر قريش ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف .

قال محمد بن سعد : خرج ومعه زيد بن حارثة ، وذلك فى ليال بقين من شوّال سنة عشر من حين النبوّة، فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدَع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلّمه ، فلم يجيبوه ، وخافوا على أحداثهم ، فقالوا : يا محمد، ٱخرج من بلدنا والحق بمجابك[2] من الأرض . وأغرَوْا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى إن رجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لَتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه . حتى لقد شُجّ فى رأسه شِجاجا، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعا إلى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة .

(١) فى الأصل : « فقال » ، وما أثبتناه من ابن سعد ١ : ١٤٢

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٣٨٥ : « بمنجاتك » .

وقال ابن إسحاق[(١)] : لما أغروا به سفهاءهم، لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حائط[(٢)] لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، فجلس فى ظل حبلة[(٣)]، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف، فتحركت له رحمتهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس، فقالا له : خذ قطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق، ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل حتى وضعه بين يديه صلى الله عليه وسلم، وقال له : كُلْ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بسم الله" فأكل، فنظر عداس إليه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له صلى الله عليه وسلم : "ومن أهل أىّ البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك"؟ . قال : نصرانىّ، وأنا رجل من أهل نينوى[(٤)]، فقال له : "أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى" ؟ فقال عداس : وما يدريك ما يونس؟ قال : "ذاك أخى، كان نبيا وأنا نبىّ"، فأقبل عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّل رأسه وقدميه ويديه، فقال أحد ابنى ربيعة لصاحبه : أمّا غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك! ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ! قال : يا سيدى، ما فى الأرض شىء خير من هذا العبد، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبىّ، قالا : ويحك يا عداس ! لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه .

قال : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة[(٥)] أتاه جنّ نصيبين[(٦)]، على ما نذكر ذلك إن شاء

(١) ابن هشام ٢ : ٦١
(٢) الحائط : البستان إذا كان عليه جدار .
(٣) الحبلة : شجرة العنب .
(٤) نينوى : من قرى الموصل .
(٥) نخلة : محلة ما بين مكة والطائف .
(٦) نصيبين : قاعدة ديار ربيعة .

الله فى أخبار الوفود على رسول الله صلى الله عليـه وسلم على ما تقف عليـه هناك، وهو فى آخر وفادات العرب .

قال : وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنَخْلَة أياما، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهـم وهم أخرجوك ؟ فقال : "يا زيد ، إن الله جاعل لمـا ترى فَرَجًا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه"، ثم آنتهى إلى حِرَاء، فأرسل رجلا من خُزَاعة إلى مُطْعِم بن عدىّ يقول : "أدخل فى جوارك"؟ فقال : نعم ، ودعا بنيه وقومه، فقال : تَلَبّسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإنى قد أجرت محمدا، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه زيد بن حارثة حتى آنتهى إلى المسجد الحرام، فقام مُطعِم بن عدىّ على راحلته فنادى : يا معشر قريش، إنى قد أجرت محمدا ؛ فلا يَهْجُه أحد منكم ، فآنتهى صلى الله عليه وسلم إلى الرّكن فآستلمه، وصلى ركعتين ، وآنصرف إلى بيتـه ، ومُطْعِم وولده مُطيفون به ، فلذلك قال حسان بن ثابت الأنصارىّ فى رثائه لمطعِم من قصيدته :

فلو كان مجدٌ يُخْلِد الدهرَ واحِدًا * مِن الناسِ، أبقى مَجْدُه اليومَ مُطْعِما[(1)]

أجَرْتَ رسولَ الله مِنهمْ فأصبحوا * عبيـدَك ما لَبّى مُهِـلٌّ وأحْرَما

وحكى محمد بن إسحاق: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأخنس بن شَرِيق ليُجيره ، فقال : أنا حليف ، والحليف لا يُجير ؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو فقال : إن بنى عامر[(2)] لا تُجير على بنى كعب ، فبعث إلى المطعِم بن عدىّ فأجابه .

---

(١) رواية الديوان بشرح البرقوقى : ٣٩٨

ولو أن مجـدا أخلد الدهر واحدا * من الناس أبقى مجـده الدهر مطعما .

(٢) فى الأصل « أنى من بنى عمر » وهو تحريف . وصـوبناه عن ابن هشام ٢ : ٢٠ ، والحلبية ١ : ٣٩١

ذكر خبر الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم
من مكة إلى البيت المقدس ، وخبر المعراج به صلى الله عليه وسلم إلى السموات العلا ، و إلى سدرة المنتهى ، وماشاهد فى ذلك من الكرامة والاصطفاء والمناجاة ، وفرض الصلاة ، وغير ذلك مما يراه من آيات ربه الكبرى ، صلى الله عليه وسلم

٥

وخبر الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح متفق على صحته بنص الكتاب والأحاديث الصحيحة . أما الكتاب العزيز ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٢) .

١٠ — ٩٨/١٤ — ١٥

وأما الأحاديث الواردة فى ذلك فسنذكرها إن شاء الله تعالى .

وكان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا ، وقد أتت عليه إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر .

---

٢٠ (١) سورة الإسراء : ١ . (٢) سورة النجم ١ — ١٨ .

وقال ابن سعد فى طبقاته عن عائشة وأم هانئ وابن عباس قالوا : أُسرِىَ برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة من شِعب أبى طالب [إلى بيت المقدس][1] . والله أعلم .

والأحاديث الصحيحة بصحة الإسراء قد جاءت من طرق كثيرة ، وقد رأينا أن نبدأ منها بأكملها وأجمعها ، وهو حديث ثابت البُنَانىّ عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، ثم نذكر زيادات عن غيره يتعين ذكرها .

أما حديث ثابت البُنانىّ[2] فهو مما رويناه بإسناد متصل عن مسلم بن الحجاج ، قال حدّثنا شيبان بن فرّوخ ، قال حدّثنا حماد بن سلمة ، قال حدّثنا ثابت البنانىّ عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُتيتُ بالبُراق وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طَرْفه " . قال : " فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التى يَرْبط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءنى جبريل بإناء من خمرٍ وإناءٍ من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل : اخترتَ الفِطرة ، ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت؟ قال : جبريل ، قيل : من معك؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه؟ قال : قد بعث إليه ، ففُتِح لنا فإذا بآدم صلى الله عليه وسلم ، فرحّب بى ودعا لى بخير ، ثم عُرِج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل فقيل : من أنت؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه ، ففتحَ لنا ، فإذا أنا بابْنَى الخالة عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما وسلم ، فرحّبا بى ودعوا لى بخير ، ثم عُرِج بنا إلى السماء الثالثة ،

(١) التكملة من ابن سعد . القسم الأول من الجزء الأول ص ١٤٣

(٢) الحديث فى الشفاء ١ : ١٤١ وما بعدها .

وذكر مثل الأوّل ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، وإذا هو قد أُعطى شطر الحسن، فرحّب بى، ودعا لى بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء الرابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإدريس فرحّب بى ودعا لى بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون(١) فرحّب بى، ودعا لى بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى فرحّب بى، ودعا لى بخير، ثم عُرج بى إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه، ثم ذهب بى إلى سِدْرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفِيَلة، وإذا ثمرها كالقِلال(٢)". قال: "فلما غَشِيَها من أمر الله ما غَشِى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلىّ ما أوحى، ففرض علىّ خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، فنزلتُ إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمّتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمّتك لا يُطيقون(٣) ذلك، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل". قال: "فرجعت إلى ربى فقلت: يارب خفف عن أمّتى، فحطّ عنى خمسا، فرجعت إلى موسى فقلت: حَطَّ عنى خمسا"، قال(٤): إنّ أمّتك لا يُطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: "فلم أزل أراجع بين ربى تعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد، إنهنّ خمس صلوات، كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومَنْ همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها

---

(١) فى الأصل: «موسى» — وما أثبتناه عن مسلم، والشفاء.

(٢) فى دلائل النبوة ١: ١٩٦ والبخارى: ٤: ٧٢: «نبقها كأنه قلال هجر».

(٣) فى عيون الأثر ١: ١٤٥: «لا تطيق».

(٤) فى الأصل: «فقلت»، وهو تحريف.

كتبت له عشرا، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة". قال: "فنزلت[1] حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه".

وروى يونس عن ابن شهاب عن أنس قال: كان أبو ذرّ يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فُرِج سقف بيتي[2]، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء". فذكر القصة.

وروى قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة الحديث بمثله، وفيه تقديم وتأخير، وزيادة ونقص، وخلاف في ترتيب الأنبياء والسموات، وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود. وهذان الحديثان يدلان على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شُقّ جوفُه عند الإسراء، وقد تقدم الخبر أنه شُقّ جوفه وهو عند ظئره في حال طفوليته، فيكون على هذا شُقّ جوفُه مرتين. والله أعلم بالصواب.

ونقل عن الشيخ عبد القادر محمد بن أبي الحسن الصعبي في مختصر السيرة الحديث له قال: روى أبو داود الطيالسي في مسنده[3]، قال: حدّثنا حماد بن سلمة قال أخبرني أبو عمران الجَوْني عن رجل عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف هو وخديجة شهرا، فوافق ذلك رمضان، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمع: السلام عليكم، قالت: فظننت أنه فجئه الحق[4]، فقال:

---

(١) في الأصل: «فتركت»، وما أثبتناه عن الشفاء ١: ١٤٣، وعيون الأثر ١: ١٤٥

(٢) في عيون الأثر، وصحيح مسلم ١: ١٠٢، والشفاء ١: ١٥٣: «بيتي وأنا بمكة».

(٣) ص ٢١٥. (٤) في مسند الطيالسي: «بفجأة الجن»، والحق هنا: الموت.

" أبشروا فإن السلام خير " ، ثم رأى يوما آخر جبريل عليه السلام على الشمس جناح له بالمشرق، وجناح له بالمغرب، قالت : فبهتّ منه، قالت[1] : فانطلق يريد أهله ، فإذا هو بجبريل عليه السلام بينه و بين الباب ، قال : " فكلمني حتى أنست به ثم وعدني موعدا ، فجئت لموعده ، واحتبس عليّ جبريل ، فلما أراد أن يرجع إذا هو وميكائيل عليهما السلام ، فهبط جبريل عليه السلام إلى الأرض ، و بقي ميكائيل بين السماء والأرض " ، قال : " فأخذني فسلقني لحلاوة القفا[2] ، وشقّ عن بطني ، فأخرج منه ماشاء الله ، ثم غسله في طَستٍ من ذهب ثم أعاده ، ثم كفأني كما يكفأ الإناء ، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مَسّ الخاتم ، ثم قال لي : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ولم أقرأ كتابا قط ، فأخذ بحلقي حتى أجهشت بالبكاء ، ثم قال : ﴿ اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ " . قال : " فما نسيت بعد ، فوزنني برجل فوزنته ، ثم وزنني بآخر فوزنته ، ثم وزنني بمائة ، فقال ميكائيل : تبعته أمته وربّ الكعبة " . قال : " ثم جئت إلى منزلي ، فما يلقاني حجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، حتى دخلت على خديجة فقالت : السلام عليك يا رسول الله " .

فيدل هذا الحديث على أنه شُقّ جوفه أيضا عند الوحي ، فيكون شُقّ جوفُه ثلاث مرات ، مرة وهو عند ظِئْرة ، ومرةً عند الوحي في أول النبوة ، كما يقتضي هذا الحديث ، ومرة ثالثة عند الإسراء ، كما روى عن أبي ذرّ ، ومالك بن صَعْصَعَة . والله أعلم .

---

(١) في الأصل « قال » وما أثبتناه عن مسند الطيالسي ص ٢١٥ .

(٢) سلقني لحلاوة القفا : أي ألقاني على ظهري . وذكر الطيالسي : « صلقني » ، والأول أشهر .

وإنما أوردنا حديث الطيالسيّ فى هذا الموضع على سبيل الاستطراد ، لأن موضعه يصلح أن يكون عند ذكر حديث المبعث ، وقد أثبتنا هناك الأحاديث الصحيحة ؛ فلنرجع إلى ما نحن فيه من حديث الإسراء .

وأمّا ما ورد فى الأحاديث الأخر من الروايات التى يتعين ذكرها :

فمنها حديث ابن شهاب وفيه قول كل نبيّ : " مرحبا بالنبيّ الصالح ، والأخ الصالح إلا آدم وإبراهيم فقالا له : والابن الصالح " .

وفيه من طريق ابن عباس رضى الله عنهما : " ثم عُرِج بى حتى ظهرت بمستوًى أسمع فيه صَريف الأقلام " .

وعن أنس : " ثم انطلق بى حتى أتيت سِدْرة المنتهى ، فغشيها ألوان لم أدرِ ما هى " ، قال : " ثم أُدخِلت الجنة[1] " .

وفى حديث مالك بن صَعْصَعة : " فلما جاوزته — يعنى موسى — بكى ، فنودى ما يبكيك ؟ قال : ربّ ، هذا غلام بعثته بعدى ؛ يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتى " .

وفى حديث أبى هريرة : " وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء ، فحانت الصلاة فأممتهم فقال قائل : يا محمد ، هذا مالك خازن النار فَسَلِّمْ[2] عليه ، فالتفت فبدأنى بالسلام " .

وفى حديث أبى هريرة : " ثم سار حتى أتى بيت المقدس ، فنزل فربط فرسه إلى صخرة وصلى مع الملائكة ، فلما قضيت الصلاة ، قالوا : ياجبريل من هذا

(١) زاد فى عيون الأثر ١ : ١٤٥ ، ودلائل النبوة ١٩٨ ، وصحيح مسلم ١ : ١٠٣ « فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك » .

(٢) فى دلائل النبوة ١٩٠ ، وصحيح مسلم ١ : ١٠٩ : « فالتفت إليه » .

معك ؟ ، قال : هذا محمد رسول الله خاتم النبيين ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم، قالوا : حيّاه من أخ وخليفة ! فنعم الأخ ونعم الخليفة ! ثم لَقَوْا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم ". وذكر كلام كل واحد منهم ؛ وهم إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان . ثم ذكر كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : وإن محمدا صلى الله عليه وسلم أثنى على ربه ، فقال : " كلكم أثنى على ربه ، وأنا أثنى على ربي ؛ الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا، وأنزل علىّ الفرقان فيه تبيان كل شىء، وجعل أمتى خير أمة، وجعل أمتى أمة وَسَطا ، وجعل أمتى هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وِزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحا وخاتما " . فقال إبراهيم : بهذا فَضَلكم محمد . ثم ذكر أنه عُرِج به إلى السماء الدنيا ، ومن سماء إلى سماء، نحو ما تقدم .

وفى حديث ابن مسعود : "وانتهى بى إلى سِدرة المنتهى، وهى فى السماء السادسة ؛ إليها ينتهى ما يُعْرَج[1] به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيُقبض [منها][2] " . قال تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ ، قال : فَرَاش من ذهب .

وفى رواية أبى هريرة رضى الله عنه، من طريق الربيع بن أنس: " فقيل لى : هذه سِدرة المنتهى، ينتهى إليها كل أحدٍ من أمتك خَلَا[3] على سبيلك" . وهى السِّدْرة المنتهى يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبنٍ لم يتغيّر طعمُه ، وأنهارٌ من خمر لذّةٍ للشاربين ، وأنهار من عسل مصفًّى . وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما، وإن ورقة منها مظلّة الخلق . فغشيها نور، وغشيتْها الملائكة .

(١) فى الأصل : « يقبض » ، وما أثبتناه عن صحيح مسلم ١ : ١٠٩، والشفاء .
(٢) الزيادة عن صحيح مسلم، والشفاء .
(٣) خلا على سبيلك : أى مضى على طريقتك وسنتك .

قال : فهو قوله تعالى : ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾؛ فقال تبارك وتعالى له : «سل» ؛ فقال : "إنك اتخذتَ إبراهيم خليلا ، وأعطيتَه مُلكا عظيما ، وكلّمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما ، وألنتَ له الحديد ، وسخّرتَ له الجبال ، وأعطيتَ سليمان مُلكا عظيما، سخّرت له الجنّ والانس والشياطينَ والرياح ، وأعطيته ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلّمتَ عيسى التوارة والإنجيل ، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ، وأعَذْتَه وأمّه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن له عليهما سبيل" .

فقال[1] له ربّه : « قد اتخذتك حبيبا » فهو مكتوب فى التوراة : « محمد حبيب الرحمن ، وأرسلتك[2] إلى الناس كافة ، وجعلت أمتك [هم][3] الأوّلون وهم الآخرون ، وجعلت أمتَك لا تجوز لهم خُطْبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلتك أوّل النبيّين خَلقا ، وآخرَهم بَعْثا ، وأعطيتك سبعا من المثانى ولَم أُعطِها نبيّا قبلَك ، وأعطيتك خواتيمَ سورة البقرة من كنزٍ تحت عرشى ، لم أعطها نبيّا قبلك ، وجعلتُك فاتحا وخاتما » .

وفى الرواية[4] الأخرى ، قال : فأُعطىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا : أعطِىَ الصلوات الخمس ، وأعطِىَ خواتيمَ سورة البقرة ، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئا من أمّته المقحمات[5] .

وقال : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾؛ الآيتين . قيل : رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح . وفى حديث شَرِيك : «أنه رأى موسى فى السابعة» قال : بتفضيل

(١) فى الأصل : « وقال » وما أثبتناه عن الشفاء .

(٢) فى الأصل : « أرسلك » وما أثبتناه عن الشفاء .

(٣) ساقطة من الأصل ، والزيادة عن الشفاء .

(٤) [illegible] ابن مسعود ؛ انظر صحيح مسلم ١ : ١٠٩

(٥) المقحمات : [illegible] الكبائر من الذنوب .

كلام الله، قال : «ثم علا به فوق ذلك بمـا لا يعلم إلا الله، فقال موسى : لم أظن أن يُرفع علىّ أحد » .

وقد روى عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم صلّى بالأنبياء ببيت المَقدِس . وعنه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "بينا أنا قاعد ذات يوم إذ دخل علىّ جبريل عليه السلام فوكَز بيْن كتفىّ، فقمت إلى شجرة فيها مثل وَكْرَى الطائر، فقعد فى واحدة، وقعدت فى الأخرى فنَمَتْ[(١)] حتى سدّت الخافقين، ولو شئتُ لمسستُ السماء، وأنا أقلِّب طَرْفى، ونظرتُ جبريلَ كأنه حِلْس[(٢)] لا طِئ[(٣)]، فعرفتُ فضلَ علمه بالله علىّ ؛ وفُتِـح لى باب السماء، ورأيت النـور الأعظم، وإذا دونى الحجـاب وفُرَجه الدرّ والياقوت، ثم أوحى الله إلىّ ما شاء أن يوحى " .

وذكر البزّار عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: لمـّا أراد الله أن يعلّم رسولَه الأذان جاءه جبريل بدابة يقال لها البُراق، فذهب يركبها، فآستصعبتْ عليه، فقال لها جبريل : آسكنِى، فوالله ما ركبَكِ عبد أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسـلم ؛ فركبها حتى أتى بهـا إلى الحجاب الذى يلى الرحمن تعـالى، فبينا هو كذلك إذ خرج مَلَك [من][(٤)] الحجاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ياجبريل، من هذا ؟ " . قال : والذى بعثك بالحقّ إنى لأقرب الخلق مكانا، وإنّ هـذا الملَك ما رأيته منذ خُلِقت قبل ساعتى هذه، فقال الملك : الله أكبر، الله أكبر، فقيل مِن وراء الحجاب : صدق عبـدى، أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال الملك : أشهد أن

(١) فى دلائل النبوّة : « فسمت وآرتفعت » .

(٢) الحلس : كساء رقيق يوضع تحت القتب أو البرذعة . ولاطئ : لاصـق بالأرض — والمراد أن جبريل لمـا قرب من السماء غشيته مهابة حتى خضع وآلتصق بالأرض .

(٣) فى الأصل : « لاطئا » ؛ وهو تحريف .

(٤) تكلة من الشفاء .

لا إله إلا الله، فقيل من وراء الحجاب : «صدق عبدى، أنا لا إله إلا أنا» ، وذكر مثل هذه فى بقيّة الأذان ، إلا أنه لم يذكر جوابا عن قوله : حىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح ، وقال : ثم أخذ الملك بيد محمد فقدّمه ، فأمّ أهلَ السماء فيهم آدمُ ونوحٌ[1] .

قال القاضى عياض بن موسى رحمه الله : ما فى هذا الحديث من ذكر الحجاب فهو فى حقّ المخلوق لا فى حقّ الخالق، فهم المحجوبون ، والبارى جل اسمُه منزّه عما يحجبه ، إذ الحُجُب إنما تُحيط بمقدّر محسوس[2]، ولكنّ حُجُبَه على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء وكيف شاء ومتى شاء، كقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾[3] . قال : فقوله فى هذا الحديث : «الحجاب» يجب أن يقال : إنه حجاب حُجِب به مَنْ وراءه من ملائكته عن الأطلاع على ما دونه من سلطانه وعظمته، وعجائب ملكوته وجبروته . ويدل عليه من الحديث قول جبريل عن المَلَك الذى خرج من ورائه : إن هذا الملك ما رأيتُه منذ خلقتُ قبل ساعتى هذه، فدلّ [على][4] أن هذا الحجاب لم يختص بالذات .

ويدل عليه قول كعب فى تفسيره : سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، قال : إليها ينتهى علم الملائكة، وعندها يجدون أمر الله لا يجاوزها علمُهم .

قال : وأما قوله «الذى يلى الرحمن»[5] ، فيُحمل على حذف المضاف [أى] الذى يلى عرش الرحمن، أو أمرًا ما من عظيم آياته، أو مبادئ حقائق معارفه مما هو أعلم به، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[6] أى أهلها .

(١) زاد فى هامش الشفاء جـ ١ ص ١٤٩ : « إبراهيم »
(٢) فى الأصل : « محبوس » ، وما أثبتناه عن الشفاء .
(٣) سورة المطففين ١٥ . (٤) ساقطة من الأصل ، وما أثبتناه عن الشفاء .
(٥) الزيادة عن الشفاء . (٦) سورة يوسف ٨٢ .

وقوله : « فقيل من وراء الحجاب، صدق عبدى، أنا أكبر » فظاهره أنه سمع في هذا الموطن كلامَ الله ولكن من وراء حجاب، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾(١) [أى](٢) وهو لا يراه؛ حجب بصره عن رؤيته ، فإن صحّ القول بأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فيحتمل أنه فى غير هذا الموطن بعد هذا أو قبله رُفِع الحجاب عن بصره حتى رآه . والله أعلم بالصواب . ٥

ذكر من قال : إن الإسراء كان بالجسد وفى اليَقَظَة

قد اختلف العلماء على ثلاث مقالات؛ فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، وأنه رؤيا منام . وذهبتْ طائفة إلى أنّ الإسراء كان بالجسد يقظةً إلى بيت المقدس و إلى السماء بالروح. والذى عليه الأكثرون — وقال به معظم السلف — أنه إسراء بالجسد، وفى اليقظة . ١٠

قال القاضى عياض بن موسى بن عياض : وهذا هو الحق، وهو قول ابن عبّاس ، وجابر ، وأنس، وحُذيفة ، وعمر، وأبو هريرة، ومالك بن صَعْصَعة، وأبى حَبّة البدرى، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جُبَير، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جُرَيج ؛ وهو قول الطبرى ، وابن حنبل، وغيرهما ، وقد أبطلوا حُجج من قال خلافَ ذلك بأدلّة يطول علينا شرحُها . ١٥

قال القاضى عياض : والحقّ [من هذا](٣) والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها ، وعليه تدل الآية ، وصحيح الأخبار والاعتبار — ١٠٢/١٤

(١) سورة الشورى ٥١ (٢) الزيادة عن الشفاء ١ : ١٥٠ ٢٠
(٣) زيادة من الشفاء .

ولا يُعدَل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل [إلا][1] عند الاستحالة، وليس فى الإسراء بجسده وحالِ يَقظته استحالة ، إذ لو كان مناما لقال : بروح عبده ، ولم يقل : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ — وقولُه[2] : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ . ولو كان مناما لمَـا كانت فيه آيةٌ ولا معجزة ، ولَمَـا استبعده الكفّار ولا كذّبوه فيه ، ولا ارتدّ به ضعفاء من أسلم وافتَتَنوا به ، إذ مثلُ هـذا من المنامات لا يُنكر، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أنّ خبره إنمـا كان عن جِسمه وحالِ يقظته إلى ما ذُكر فى الحديث من ذِكر صلاته بالأنبياء ببيت المقـدس فى رواية أنس، أو فى السماء على ما رَوى غيُره ، وذكر مجىء جبريل له بالبراق ، وخبر المِعراج واستِفتاح السماء، فيقـال[3] : ومن معك ؟ فيقول : محمد ، ولقائِه الأنبياء فيها ، وخبرِهم معـه ، وترحيبِهم به ، وشأنِه فى فرض الصلاة ومراجعتِه مع موسى فى ذلك، وفى بعض هـذه الأخبار : "فأخذ — يعنى جبريل — بيدى، فعَرَج بى إلى السماء" إلى قوله : "ثم عَرَج بى حتى ظهرتُ بمستوًى أسمعُ فيه صوتَ[4] الأقلام ؛ وأنه وصل إلى سِدرة المنتهى ، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكَره" .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : هى رؤيا عينٍ رآها النبى صلى الله عليه وسلم لا رؤيا منـام، والآىُ فى ذلك كثيرة، والأدلة واضحـة ، فلا نطوّل بسردها، وفيما أوردناه منها فيما قدّمنا ذكره كفاية . والله أعلم .

---

(١) ساقطة من الأصل ، وما أثبتناه عن الشفاء .

(٢) بالرفع معطوفا على كلمة « الآية » فى الصفحة السابقة . وانظر شرح الشفا للقارى ٢٣٣/١

(٣) فى الأصل : « فيقول » ، وما أثبتناه عن الشفاء .

(٤) فى الشفاء : « صريف » ، وهو يوافق ما فى عيون الأثر، وصحيح مسلم .

ذكر ما ورد فى رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه تبارك وتعالى ، ومناجاته له ، وكلامه ودنوّه وقربه من ربه عزّ وجلّ ، ومن جوّز ذلك ومن منَعه ، وما قيل فى مشكل حديث الدّنوّ والقرب

٥ أما الرؤية فقد آختلف السلف فى رؤيته صلى الله عليه وسلم لربّه عزّ وجل ، فأنكرته عائشة .

رُوى عن مسروق أنه قال لعائشة رضى الله عنها : يا أمّ المؤمنين، هل رأى محمد ربّه ؟ فقالت : لقد قَفّ[1] شعرى مما قلت؛ ثلاث من حدّثك بهنّ فقد كذب، [من حدّثك أن محمدا رأى ربّه فقد كذب][2] ثم قرأت ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾[3] الآية [ثم ذكر الحديث][2] . وقالت جماعة بقول عائشة ، وهو المشهور عن آبن ١٠ مسعود .

ومثله عن أبى هريرة : إنما رأى جبريل ، وآختلِف عنه . وقال بإنكار هذا وآمتناع رؤيته فى الدنيا [جماعةٌ][2] من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما أنه رآه بعينه . وروى عطاء عنه : رآه بقلبه، ١٥ وعن أبى العالية [عنه][2] رآه بفؤاده مرتين .

وذكر آبن إسحاق : أن آبن عمر رضى الله عنهما أرسل إلى آبن عباس رضى الله عنهما يسأله : هل رأى محمدٌ ربّه ؟ قال : نعم، والأشهر [عنه][2] أنه رأى ربه بعينيه . وقال : إن الله آختص موسى بالكلام، وإبراهيم بالخُلّة، ومحمدا بالرؤية .

(١) قف شعرى : وقف من الفزع . (٢) الزيادة من الشفا ١ : ١٥٨

٢٠ (٣) سورة الأنعام ١٠٣

وحجته قوله : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْـرَى﴾ .

وقال المـاوردىّ : قيل إنّ الله تعالى قسم كلامه ورؤيتـه بين موسى ومحمد، فرآه محمد مرتين، وكلّمه موسى مرتين .

وحكى أبو الفتح الرازىّ، وأبو الليث السَّمَرْقَنْدىّ ذِكْرَها[1] عن كعب . وروى ٥ عبد الله بن الحارث، قال : آجتمع آبن عباس وكعب، فقال آبن عباس : أمّا نحن بنى هاشم فنقول : إنّ محمدا قد رأى ربه مرتين، فكبر كعب حتى جاوبته الجبال، وقال : إنّ الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد، فكلمه موسى، ورآه محمد بقلبه .

وحكى السَّمَرْقَنْدىّ عن محمد بن كعب القُرَظِىّ، وربيع بن أنس : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "رأيت ربى" — وذكر كلمة — فقال : "يا محمد فيم ١٠ يختصم الملأ الأعلى" . الحديث .

وحَكَى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه، وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكِىّ عن عِكرمة، وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن آبن مسعود، وحكى آبن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة : هل رأى محمد ربه ؟ فقال : نعم .

وحكى النقّاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث آبن عبـاس، ١٥ بعينه رآه رآه، حتى آنقطع نَفَسُ أحمد .

وقد آختلف فى تأويل الآية عن آبن عبـاس وعِكرمة والحسن وآبن مسعود، فحكى عن آبن مسعود، وعِكرمة : رآه بقلبه . ١٠٣/١٤

وعن الحسن وآبن مسعود : رأى جبريلَ . وعن آبن عطاء فى قوله تعـالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[2]، قال : شرح صدره للرؤية، وشرح صدر موسى للكلام . ٢٠

(١) أى الحكاية التى ذكرها المـاوردى . (٢) سورة الانشراح ١

وقال أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرىّ وجماعة من أصحابه : إنه رأى الله ببصره وعينى رأسه[1] وقال : كل آية أوتيها نبىّ من الأنبياء عليهم السلام فقد أوتى مثلها نبيّنا، وخص من بينهم بتفضيل الرؤية .

قال القاضى أبو الفضل عياض بن موسى رحمه الله : والحق الذى لا آمتراء فيه أن رؤيته تعالى فى الدنيا جائزة عقلا، وليس فى العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها فى الدنيا سؤال موسى عليه السلام لها، ومحال أن يجهل نبىّ مايجوز على الله تعالى وما لايجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذى لايعلمه إلا من علّمه الله، فقال له الله تعالى : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ أى لن تطيق ولا تحتمل رؤيتى ، ثم ضرب له مثالا بما هو أقوى من نبيّه موسى وأثبت وهو الجبل . قال : وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته فى الدنيا، بل فيه جوازها على الجملة، وليس فى الشرع دليل قاطع على آستحالتها ولا آمتناعها ، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة .

قال : ولا حجة لمن يستدلّ على منعها بقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ لأختلاف التأويلات فى الآية، وقد آستدل بعضهم بهذه الآية نفسها على جواز الرؤية، وعدم آستحالتها على الجملة . وقد قيل : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ، أى لا تحيط به، وهو قول ابن عباس، وقد قيل : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ . وإنما يدركه المبصرون . قال : وكل هذه التأويلات لا تقتضى منع الرؤية ولا آستحالتها ، وحيث تتطرّق التأويلات وتتسلط الاحتمالات ، فليس للقطع سبيل ، وكذلك وجوب الرؤية لنبينا صلى الله عليه وسلم ، والقول بأنه رآه بعينه . فليس فيه قاطع أيضا ولا نصّ، إذ المعوّل فيه على آيتى النجم، والتنازع فيهما مأثور ، والاحتمال لهما ممكن ، ولا أثر قاطع متواتر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بذلك . والله تعالى أعلم بالصواب .

(١) فى الأصل : « وعين رأسه » ، وما أثبتناه عن الشفاء .

وأما المناجاة والكلام والقرب والدنو وما جاء من الكلام على مشكل هذا الحديث ؛ فقد اختلف فى الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بقوله : ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾، وهل كان ذلك الوحى بواسطة أو بغير واسطة ؟ فأكثر المفسرين على أن الموحى اللهُ إلى جبريل ، وجبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . [فذكر عن](١) جعفر بن محمد الصادق، قال : أوحى الله إليه بلا واسطة . ونحوه عن الواسطى، وإليه ذهب بعض المتكلمين وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس ، وأنكره آخرون . وحكى النقاش عن ابن عباس عنه عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾، قال : "فارقنى جبريل، وانقطعت الأصوات عنى فسمعت كلام ربى، وهو يقول : ليهدأ روعُك يا محمد، أُدْنُ أدن" . وقد تقدم ذكر حديث الأذان، وقول الملك : الله أكبر الله أكبر، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدى ، أنا أكبر ، أنا أكبر .

وقد احتجوا بقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾(٢)، فقالوا : هى ثلاثة أقسام؛ من وراء حجاب كتكليم موسى، وبإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء، وأكثر أحوال نبينا صلى الله عليه وسلم ، الثالث قوله : ﴿وَحْيًا﴾ . قالوا : ولم يبق من تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة، وقد قيل : الوحى هنا ما يلقيه فى قلب النبيّ صلى الله عليه وسلم دون واسطة ، وكلام الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع .

وأما قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ فأكثر المفسرين أن الدنو والتدلّى منقسم ما بين محمد وجبريل عليهما السلام، أو مختص

(١) الزيادة من الشفاء . (٢) سورة الشورى ٥١ .

١٠٤/١٤

بأحدهما من الآخر، أو من سِدْرة المنتهى . وقال ابن عباس : هو محمد دنا فتدلى من ربه . وقيــل : معنى دنا قرب ، وتدلّى : زاد فى القرب ، وقيل : هما بمعنى واحد أى قرب . وحكى مكىّ والمــاوردىّ عن ابن عباس ، هو الربّ دنا من محمد فتدلى إليه ، أى أمرُه وحكمه . وحكى النقاش عن الحسن، قال : دنا من عبــده محمد صلى الله عليــه وسلم ، فقرب منه فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته . قال وقال ابن عباس : هو مقدّم ومؤخر، تدلّى الرفرف[1] لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، فجلس عليه ، ثم رفع فدنا من ربه . وفى الصحيح عن أنس بن مالك : "عرج بى جبريل إلى سِــدْرة المنتهى، ودنا الجبار ربّ العزة فتدلىّ حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه خمسين صلاة". الحديث. وعن محمد بن كعب : هو محمد دنا من ربه ، فكان قاب قوسين . وقال جعفر ابن محمد : أدناه ربه منــه ، حتى كان منه كقاب قوســين ، قال جعفر : والدنوّ من الله لا حدّ له ، ومن العبــاد بالحدود . وقال أيضا : انقطعت الكيفيــة عن الدنو، ألا ترى كيف حَجَبَ جبريلَ عن دنوه ، ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلّى بسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب!

وقد تكلموا على مشكل هذا الحديث ، فقال القاضى عياض رحمه الله : اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقــرب هنا من الله و إلى الله فليس بدنو مكان ولا قرب مدى، بل كما ذكرنا[2] عن جعفر الصادق ليس بدنو حدّ، وإنما دنو النبيّ صلى الله عليه وسلم من ربه، وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته ، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته ، ومن الله تعالى له مسرة وتأنيس، وبسط

(١) الرفرف : البساط الأخضر .

(٢) فى الأصل : « بل كان ذكر » ، وما أثبتناه عن الشفاء ١ : ١٦٧

وإكرام، ويتأول فيه ما يتأول فى قوله : "ينزل ربنا إلى سماء الدنيا" على أحد الوجوه ، نزول إفضال وإجمال ، وقبول وإحسان . وقال الواسطى : من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثمّ مسافة ، بل كل ما دنا بنفسه من الحق تدلّى بعدا ، يعنى عن درك حقيقته ، إذ لا دنو للحقّ ولا بعد .

وقوله : ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ، فمن جعل الضمير عائدا إلى الله لا إلى جبريل على هذا كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المحلّ ، وإيضاح المعرفة ، والإشراف على الحقيقة من محمد صلى الله عليه وسلم ، وعبارةً عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهار التحفّى ، وإنافة المنزلة والمرتبة من الله له ، ويتأول [فيه][1] ما يتأول فى قوله : "من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ، ومن آتانى يمشى أتيته هرولة" ، قربٌ بالإجابة والقبول ، وإتيانٌ بالإحسان وتعجيل المأمول .

وقد أخذ الكلام فى هذا المعنى حقّه ، فلنذكر ما كان بعد الإسراء [من][2] الأخبار .

ذكر ما كان بعد الإسراء من إنكار قريش لذلك وما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من وصفه لهم البيت المقدس، وإخباره لهم بخبر عيرهم ، وارتداد من ارتدّ

روى الشيخ الإمام أبو بكر أحمد البيهقى بسنده عن شدّاد بن أوس رضى الله عنه ، قال: قلنا يارسول الله كيف أُسرِىَ بك؟ فذكر نحو ماتقدّم من خبر الإسراء، وفيه زيادة ونقص، قال : وفيه أن جبريل عليه السلام أنزله فصلى بيثرب، ثم صلى

(١) الزيادة عن الشفاء . (٢) زيادة يقتضيها المقام .

بمدين عند شجرة موسى عليه السلام، ثم صلى ببيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم عليه السلام، ثم صلى فى المسجد الأقصى، وأنه صلى الله عليه وسلم مرّ بعير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيرا قد جمعه فلان، قال: "فسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد". قال: "ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة، فأتانى أبو بكر فقال: يا رسول الله، أين كنت الليلة فقد التمستك فى مظانّك" فقلت[1]: علمتَ أنّى أتيتُ بيت المقدس الليلة؟. فقال: يارسول الله، مسيرة شهر! فصفه لى، قال: "ففتح لى صراط كأنى أنظر إليه، لايسألنى عن شىء إلا أنبأته عنه". فقال: أشهد أنك رسول الله حقا، فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبى كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة، فقال: "إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا، ينزلون بكذا وكذا، و يأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم[2] عليه مِسح[3] أسود، وغِرارتان سوداوان" وإنهم أشرفوا ينظرون . فأقبلت العير نصفَ النهار على ما وَصف لهم صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية يونس بن بُكير فى زيادة المغازى: أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العير، قالوا: متى يجىء؟ قال: "يوم الأربعاء". فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون، وقد ولى النهار ولم تجىء، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزِيدَ له فى النهار ساعة، وحبست عليه الشمس .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيتُنى فى الحِجْر وقريش تسألنى عن مَسْراىَ، فسألونى عن أشياء

(١) دلائل النبوّة: «فقال» . (٢) جمل آدم: أبيض مع سواد المقلتين .
(٣) المسح: الكساء من الشعر .

من بيت المقدس، لم أُثْبِتها[1] فكَرِبت كربا ما كَرِبتُ مثلَه قطّ، فرفعه الله لى أنظر إليه ما يسألونى عن شىء إلا أنبأتهم به ".

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدّثون بذلك، فآرتد ناس ممن آمنوا به وصدّقوه، وسعوا إلى أبى بكر فقالوا: هل لك فى صاحبك؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل الصبح! قال: نعم، إنى لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك؛ أصدقه بخبر السماء فى غَدْوة أو رَوحة، فلذلك سمى أبو بكر رضى الله عنه الصدّيق.

*

ذكر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قبائل العرب فى المواسم

قال محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه إلى غير واحد، قالوا: أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث سنين من أوّل نبوّته يدعو مستخفيا، ثم أعلن فى الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين؛ يوافى المواسم كل عام يتبع الحاجّ فى منازلهم بعُكاظ ومَجَنّة، وذى المجاز[2] يدعوهم؛ حتى يبلّغ رسالة ربه تعالى، وأبو لهب يمشى وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئٌ كاذب، فيقولون: أُسرتُك وعشيرتُك أعلم بك حيث لم يتبعوك، فيقول: "اللهم لو شئتَ لم يكونوا هكذا"، قال الواقدىّ: فكان من سُمِّىَ لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خَصَفَة[3]، وفزارة،

(١) لم أثبتها: لم أحفظها لاشتغالى بأهم منها. والكرب: الغم.

(٢) عكاظ ومجنة وذو المجاز: أسماء أسواق كانت للعرب فى الجاهلية.

(٣) فى الأصل: «خفصة»، وهو تصحيف.

وغسّان[1] ، ومرّة ، وحنيفة ، وسُلَيم ، وعبس ، و بنو نصر ، و بنو البَكّاء ، وكندة ، وكلب ، والحارث بن كعب[2] ، وعُذْرة ، والحَضارمة ؛ فلم يستجبْ منهم أحد .

قال محمد بن إسحاق : حدّثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عبّاد يحدّث[3] أبى قال : إنّى لَغلام شابّ مع أبى بِمِنًى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : "يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما يُعبَدُ من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدّقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به " ، قال : وخلفَه رجل أحول وضىء له غديرتان ، عليه حُلّة عَدَنيّة ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يا بنى فلان ، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تَسلخُوا اللات والعزّى من أعناقكم ، وحلفاءَكم من الجنّ من بنى مالك بن أُقَيْش[4] ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه ، قال : فقلت لأبى : يا أبت من هذا الرجل [الذى][5] يتبعه و يردّ عليه ما يقول؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

قال ابن إسحاق : حدّثنى الزهرىّ أنه صلّى الله عليه وسلّم أتى بنى عامر ابنِ صعصعة فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فِراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ،

(١) فى الأصل : « حسان » ، وهو تصحيف . (٢) فى شرح المواهب : كعب .

(٣) فى الأصل : « يحدثه » وما أثبتناه عن ابن هشام ، وابن كثير ، والمواهب .

(٤) إلى هذا الحى تنسب الإبل الأقيشية .

(٥) هذه الزيادة عن ابن هشام .

ثم قال له : أرأيتَ إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على مَنْ خالفك أيكون لنا الأمر بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفنهدفُ[1] نحورنا [للعرب دونك[2]]، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه ، فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، قد كانت أدركته السنّ ، حتى لا يقدر أن يوافى معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه فى ذلك العام ، سألهم عما كان فى موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش ، ثم أحد بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبىّ يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ، قال : فوضع الشيخ يده على رأسه ، ثم قال : يا بنى عامر ، هل لها من تلافٍ ! هل لذناباها من مطلب[3] ! والذى نفس فلان بيده ، ما تقوّلها إسماعيلىّ قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم .

١٠٦ / ١٤

قال : وحدّثنى عاصم بن عُمر[4] عن قتادة الأنصارى عن أشياخ من قومه قالوا : قدم سويد بن الصامت أخو بنى عمرو بن عوف [مكّة[5]] حاجا أو معتمرا ، وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم : الكامل لجلده وشرفه ونسبه وشعره ، فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلّة[6] لقمان (يعنى حكمة لقمان) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها علىّ ، فعرضها عليه ، فقال : "إن هذا لكلام حسن ،

(١) نهدف : أى نجعلها هدفا لسهامهم . (٢) الزيادة عن ابن هشام .

(٣) هذا مثل مشهور يضرب لما فات . وأصله من ذنابى الطائر اذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به .

(٤) فى الأصل وعيون الأثر : ١ : ١٠٤ « عمرو » وما أثبتناه عن ابن هشام وشذرات الذهب ج ٥ : ٥٣ (٥) الزيادة عن ابن هشام . (٦) المجلة : الصحيفة .

لكن الذى معى أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله علىّ هو هدى ونور". فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه ، وقال : إنّ هذا لقول حسن؛ ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج، قال : فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم ، وكان قتلُه قبل بُعاث (1) .

قال ابن إسحاق أيضا : وحدّثنى الحصين بن عبد الرحمن بن عَمرو بن سعد ابن معاذ عن محمود بن لبيد ، قال : لما قدم أبو الحَيْسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من بنى الخزرج، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاهم فجلس إليهم فقال: "هل لكم فى خير مما جئتم له "؟ ، فقالوا: وما ذلك ؟ قال: "أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علىّ الكتاب". قال : ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال لهم إياس بن معاذ — وكان غلاما حدثا — : أىْ قوم، هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحَيْسر حَفْنة من [تراب] (2) البطحاء، فضرب بها وجهَ إياس بن معاذ؛ وقال : دعْنا منك، فلعَمرى لقد جئنا لغير هذا ، قال : فصمت إياس، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرفوا إلى المدينة ، فكان وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس ابن معاذ أن هلك . قال محمود بن لبيد : فأخبرنى مَنْ حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله و يكبره، ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلما، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ما سمع . والله أعلم .

(1) قبل بعاث : أى قبل يوم بعاث . (2) تكملة من ابن هشام ج ٢ : ٦٩

ذكر خبر مفروق بن عمرو وأصحابه وما أجابوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند دعائه قبائل العرب

روى الشيخ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي بسنده عن عبد الله بن عباس، قال: حدثني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم من فيه[1]، قال: لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر رضي الله عنه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدّم أبو بكر، وكان مقدَّما في كل خير، وكان رجلا نسابة، فسلم وقال: ممن القوم؟ قالوا من ربيعة، قال: وأي ربيعة أنتم؟ من هامها[2] أم من لهازمها؟ فقالوا: بل من الهامة العظمى، [فقال أبو بكر: وأيّ هامتها العظمى][3] أنتم؟ قالوا: من ذُهْل الأكبر، قال: منكم عوف الذى يقال [له][4]: «لا حُرّ بوادى عوف»؟ قالوا: لا، قال: فمنكم جسّاس بن مرّة، حامى الذمار، ومانع الجار؟ قالوا: لا، قال: فمنكم بسطام بن قيس، أبو اللواء، ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا، قال: فمنكم الحوفزان[5] قاتل الملوك، وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا، قال: فمنكم المزدلف[6] صاحب العمامة الفردة، قالوا: لا، قال: فمنكم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا.

(١) الخبر فى دلائل النبوّة المجلد الأول، الورقة ٢١٠

(٢) فى الأصل: «أهلها» وهو تصحيف. واللهازم جمع لهزم: وهو فى أصل اللغة: العظم الناتئ تحت الأذن.

(٣) الزيادة عن دلائل النبوّة.

(٤) فى الأصل: «يقول»؛ وما أثبتناه عن دلائل النبوّة؛ وانظر مجمع الأمثال ٢: ١٥٧

(٥) الحوفزان: لقب الحارث بن شريك الشيبانى.

(٦) المزدلف: لقب عمرو بن أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان؛ لقب بذلك؛ لاقترابه من الأقران فى الحروب وازدلافه إليهم؛ وكان إذا ركب لم يعتمّ معه غيره (انظر تاج العروس).

قال فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا . قال أبو بكر : فلستم من ذُهْل الأكبر ، أنتم من ذُهْل الأصغر . قال : فقام إليه غلام من بنى شيبان يقال له دَغْفل حين بقَل[1] وجهه ، فقال :

إنّ على سائلنا أن نسألهْ * والعبء لا نعرفه أو نحمله

يا هذا ، إنك قد سألتنا فأخبرناك ، ولم نكتمك شيئا ، فمن الرجل؟ قال أبو بكر : أنا من قريش ، فقال الفتى : بَخٍ بَخٍ ! أهل الشرف والرياسة ، فمن أىّ القرشيين أنت؟ قال : من ولد تيم بن مُرة . فقال الفتى : أمكنت والله الرّامىَ من سواء أمنكم قصىّ الذى جمع القبائل من فِهْر؟ فكان يدعى فى قريش مُجَمعا ؟ قال : لا ، قال : فمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ، ورجال مكة مسنتون عجاف[2]؟ قال : لا ، قال : فمنكم شيبة الحمد عبد المطلب ، مطعم طير السماء ، الذى كأنّ وجهه القمر يضىء فى الليلة الداجية ؟ قال : لا ، قال : فمن أهل الإفاضة بالناس أنت ؟ قال : لا ، قال : فمن أهل الحجابة أنت؟ قال : لا ، قال : فمن أهل السقاية أنت ؟ قال : لا ، قال : فمن أهل الندوة أنت؟ قال : لا ، قال : فمن أهل الرِّفادة أنت؟ قال : لا ، واجتذب أبو بكر زمام ناقته راجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الغلام :

صادَفَ دَرُّ السيل درءا يَدْفَعُهْ[3] * يهيضه حِينا وحِينًا يصرعهْ

---

(١) بقل وجهه : أى أوّل مانبتت لحيته . وفى الدلائل : « تبين » .

(٢) يشير الى قول ابن الزبعرى :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

اللسان مادة (سنت) .

(٣) فى الأصل : « صادف درّسيل درة » وهو تصحيف ، وما أثبتناه عن دلائل النبوّة .

أما والله لو شئت لأخبرتك من قريش، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عليّ : فقلت : يا أبا بكر، لقد وقعت من الأعراب على باقعة (١) ، قال : أجل يا أبا الحسن ، « ما من طامة إلا وفوقها طامة » ، و « البلاء موكل بالمنطق » .

قال : ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدّم أبو بكر فسلم وقال: ممن القوم ؟ قالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس ! وفيهم مفروق بن عمرو ، وهانئ بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق قد غلبهم جمالا ولسانا ، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبتيه (٢) ، وكان أدنى القوم مجلسا ، فقال أبو بكر : كيف العددُ فيكم؟ فقال مفروق : إنا لنزيد على ألف ، ولن تغلب ألف من قلة ، فقال أبو بكر: فكيف المَنعة فيكم؟ قال مفروق : علينا الجهد، ولكل قوم جِدّ، فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم و بين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشدُّ ما نكون غضبا حين نلقى، و إنا لأشدُّ ما نكون لقاء حين نغضب، و إنا لنؤثر الجيادَ على الأولاد، والسلاح على اللِّقاح (٣)، والنصرُ من عند الله، يُديلنا مرة، و يُديل علينا أخرى ، لعلك أخو قريش ؟ فقال أبو بكر : قد بلغكم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا هو ذا، قال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذلك، و إلام تدعو يا أخا قريش؟ فتقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس، وقام أبو بكر يُظلّه بثوبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،

---

(١) الباقعة : الرجل الذكي العارف لا يفوته شيء . (٢) التريبة : أعلى صدر الانسان تحت الذقن . (٣) اللقاح : الإبل ؛ واحدته لقوح ، بالفتح .

وأن محمدا عبــده ورسوله ، وإلى أن تأوونى وتنصرونى ، فإنّ قريشا قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسله، وآستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنيّ الحميد».
فقال مفروق بن عمرو : وإلام تدعونا يا أخا قريش؟ فوالله ماسمعت كلاما أحسن من هذا ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾
٥ إلى قوله : ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١)، فقال مفروق: وإلامَ تدعونا يا أخا قريش؟ فوالله ماهذا من كلام أهل الأرض، قال : فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، إلى قوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢)، فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أُفِكَ(٣) قوم كذبوك وظاهروا(٤) عليك — وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام هانئ بن قبيصة فقال:
١٠ وهذا هانئ شيخنا وصاحب ديننا . قال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإنى أرى إن تركنا ديننا وآتبعناك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، إنه زلل فى الرأى، وقلة نظر فى العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر فى العاقبة، وكأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنّى شيخنا وصاحبُ حربنا،
١٥ فقال المثنّى: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا، ومشايعتك على دينك، وإنّا إنما نزلنا بين صِيرين(٥) : اليمامة والسّمامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذان الصِّيران»؟ . فقال : أنهار كسرى ومياه العرب، فأمّا ما كان من أنهـار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره

(١) سورة الأنعام ١٥١ — ١٥٢ (٢) سورة النحل ٩٠
٢٠ (٣) أفك : كذب . (٤) ظاهروا عليك، أى أعانوا عليك .
(٥) الصير بالكسر : الماء يحضره الناس، ويروى : بين صيرتين، فعلة منه .

١٠٨/١٤

غير مقبول، وأما ما كان مما يلي مياه العرب، فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا؛ أنا لا نحدث حَدَثا، ولا نأوى محدثا، فإنى أرى أن هذا الأمر الذى تدعونا إليه يا أخا قريش مما يكره الملوك، فإن أحببت أن نأويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دينَ الله لن ينصرَه إلّا مَنْ حاطه من جميع جوانبه. أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثّكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبّحون الله وتقدّسونه»؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك، قال: فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[1]، ثم نهض، قابضا على يد أبى بكر وهو يقول: «يا أبا بكر، أيّةُ أخلاق فى الجاهلية ما أشرفها! بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم من بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم»، قال: فدفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سُرّ بما كان من أبى بكر، ومعرفته بأنسابهم.

ذكر بيعة العقبة الأولى

قال محمد بن إسحاق: فلما أراد الله تعالى إظهارَ دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [فى][2] الموسم الذى لقى فيه الأنصار[3]، فعرض نفسه على قبائل العرب كما يصنع فى كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا، فقال لهم: «من أنتم»؟ قالوا:

---

(١) سورة الأحزاب ٤٥ — ٤٦ (٢) من ابن هشام: ٢ : ٧٠

(٣) فى ابن هشام: «الذى لقيه فيه النفر من الأنصار».

نفر من الخزرج، قال : " أمِنْ موالى يهود " ؟ قالوا : نعم، قال[1] : " أفلا تجلسون أكلمكم " ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله وعرَض [عليهم][2] الإسلام، وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان يهودُ معهم فى بلادهم ، وكانوا أهلَ كتاب وعِلم ، وكانوا هم أهلَ شِرْك وأوثان، وكانوا قد غزَوْهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبيًّا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتّبعه فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم، تعلّموا والله أنه للنبىّ الذى توعد[3] به يهود ، فلا تسبقنّكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرَض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قومَ بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، وعسى أن يجمَعهم الله بك ، فتقدم عليهم فتدعوهم إلى أمرك ، وتعرِض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك . ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدّقوا .

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى[4] : فاختلِف علينا فى أول مَنْ أسلم من الأنصار وأجاب . فذكروا الرجل بعينه ، وذكروا الرجلين ، وذكروا أنه لم يكن أحد أوّل من الستة . وذكرهم .

وقال محمد بن عمر بن واقد : هذا عندنا أثبتُ ما سمعنا فيهم، وهو المجمَع عليه ، وهم من بنى النجّار : أسعد بن زُرارة بن عُدَس ، وعوف بن الحارث [وهو][5] ابن عفراء . ومن بنى زريق : رافع بن مالك . ومن بنى سلمة بن سعد : قطبة

(١) فى الأصل « قالوا » وهو تحريف . (٢) الزيادة عن ابن هشام .
(٣) فى ابن هشام : « توعدكم » . (٤) الطبقات جـ ١ ق ١ : ١٤٦ .
(٥) تكلة من ابن هشام ؛ وعفراء هى أمه ؛ (وانظر أسد الغابة ٤ : ١١٥) .

ابن عامر بن حديدة . ومن بنى حرام بن كعب : عقبة بن عامر بن نابى . ومن بنى عبيد بن عدى بن ساعدة : جابر بن عبد الله ؛ ولم يذكر ابن إسحاق غيرهم .

قال : ثم قدموا المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام ، فأسلم مَنْ أسلم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدى : وأوّل مسجد قرئ به القرآن بالمدينة مسجد بنى زريق . والله أعلم . ٥

١٠٩/١٤

ذكر بيعة العقبة الثانية

(وقد ترجم عليها بعضهم بالأولى)

قال : فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا .

قال محمد بن سعد : ليس [فيهم][1] عندنا خلاف ، فلقوه بالعقَبة ، وهى العقبة الأولى ، فبايعوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يُفرَض عليهم الحرب ، وكان من هؤلاء خمسة ممّن حضر البيعة الأولى من الستة المجمع عليهم ، وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك ، وعُقبة بن عامر ، وقُطبة بن عامر بن حديدة ، ومنهم من وقع الاختلاف فيه : هل شهد البيعة الأولى أو لم يشهدها ؟ وهم ستة نفر : معاذ بن الحارث [وهو][2] ابن عفراء ، أخو عوف ، وذكوان بن [عبد][3] قيس بن خلدة ، وعبادة بن الصامت ابن قيس ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة ، وأبو الهيثم بن التيهان ، واسمه مالك ، وعويم بن ساعدة ، وهما من الأوس . ١٠ ١٥

وممن لم يشهد البيعة الأولى بلا خلاف : العباس بن عبادة بن نَضْلة .

---

(١) الزيادة عن ابن سعد . (٢) من ابن هشام ج ٢ : ٧١ (٣) من ابن سعد . ٢٠

روى محمد بن إسحاق عن عبادة بن الصامت قال : كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء — وذلك قبل أن تفترض الحرب — على ألّا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غَشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحدّه فى الدنيا فهو كفّارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله؛ إن شاء عذب، وإن شاء غفر . قال : فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يُقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة، وكان منزله على أسعد بن زرارة .

قال محمد بن سعد : ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله الإسلام، وكان أسعد ابن زرارة يُجَمِّع[1] بالمدينة بمن أسلم، وروى أن مصعب كان يُجَمِّع بهم . والله أعلم

ذكر بيعة العقبة الثالثة

وهم السبعون (وترجم عليها ابن سعد بالثانية)

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى، عن محمد بن عمر بن واقد، بإسناد إلى عبادة بن الصامت، وسفيان بن أبى العوجاء ، وقَتادة ، ويزيد بن رومان ، قال الواقدى : دخل حديث بعضهم فى حديث بعض ، قالوا : لما حضر الحج مشى أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا بعضُهم إلى بعض يتواعدون المسير إلى الحج ، وموافاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإسلام يومئذ فاشٍ بالمدينة، فخرجوا وهم سبعون يزيدون رجلا أو رجلين فى خَمَر[2] الأوس والخزرج،

(١) يجمع : يؤمهم فى صلاة الجمعة .

(٢) الخمر : جماعة الناس وكثرتهم .

وهم خمسمائة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فسلموا عليه ، ثم وعدهم مِنى ، وسط أيام التشريق ليلة النَّفْر الأوّل ، إذا هدأت الرِّجْل [أن] [(١)] يوافوه فى الشِّعب الأيمن إذا انحدروا من مِنى بأسفل العقبة [(٢)] ، وأمرهم ألّا ينبهوا نائما ، ولا ينتظروا غائبا . قال : فخرجَ القوم بعد هدءة يتسلّلون ، الرجل والرجلان ، وقد سبقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الموضع ، معه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه غيره .

وقال محمد بن إسحاق : إنهم سبَقوه إلى الشِّعب وانتظروه ، وهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان : نَسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدىّ ، حتى أقبل ومعه عمُّه العباس .

قال ابن سعد : فكان أوَّلُ مَن طلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم : رافع ابن مالك الزُّرَقىّ ، ثم توافَى السبعون ، ومعهم امرأتان ، فكان أوّل من تكلم العباس ابن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزْرج ، إنكم قد دعوتُم محمدا إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعزّ الناس فى عشيرته ، يمنعه والله منا مَنْ كان على قوله ، ومَنْ لم يكن منا على قوله منعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناسَ كلَّهم غيرَكم [(٣)] ، فإن كنتم أهلَ قوّة وجلَد وبَصَر بالحرب ، واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، ترميكم عن قوس واحدة ، فارتئُوا رأيكم [(٤)] ، ولا تَفَرَّقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإنّ أحسن الحديث أصدقُه .

(١) الزيادة عن ابن سعد جـ ١ ق ١ : ١٤٩
(٢) فى الأصل : « من ثنايا سفل » وما أثبتناه عن الطبقات .
(٣) زاد فى ابن سعد : « وائتمروا بينكم » .
(٤) فى الأصل : « عنكم » . وما أثبتناه عن ابن سعد .

وقال ابنُ إسحاق[1] : إنّ العبـاس قال : يا معشر الخزرج ، إنّ محمدا منّا حيث قـد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممّن هو على مثـلِ رأينا فيـه ، فهو فى عزّ من قومه ، ومَنعة فى بلده ، وإنّه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم ، واللّحوق بكم ؛ فإن كنتم ترَوْن أنكم وافون له بمـا دعَوْتموه إليـه، ومانِعوه ممّن خالفـه، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترَوْن أنّكم مسـلِموه وخاذلوه بعـد الخروج به إليـكم فمن الآنَ فدعوه ، فإنه فى عزّ ومَنَعة من قومه و بلده .

قال ابن سعد : فقال البرَاء بن معرور : قـد سمعنا ما قلت ، وإنا والله لو كان فى أنفسنا غيرُ ما نَنطق به لقلناه ، ولكنّا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق — فيما رواه بسـنده عن كعب بن مالك : فقلنا له : سمعنـا ما قلت ، فتكلم يا رسـول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلّم رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغّب فى الإسـلام ثم قال : "أبايعكم على أن تمنعونى فيما تمنعونَ منه نساءكم وأبناءكم" . قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزرنا[2] — يعنى نساءنا — فبايِعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب[3]، وأهل الحَلْقة ورثناها كابرا عن كابر .

قال ابن سعد : ويقال : إن أبا الهيثم بن التَّيهان كان أوّل من تكلم فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]، وقالوا : نقبَله على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف ؛ قال : ولَغطوا . فقال العباس وهو آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر ابن هشام : ٢٤٨ ، إمتاع الأسماع : ٣٥ . (٢) الأزر : جمع إزار ككتاب، وهو الثوب، وكثيرا ما يكنون عن المرأة بالإزار ، كما يكنون عنها بالثياب، والفراش .

(٣) فى ابن هشام : « أبناء الحروب » . (٤) زاد فى ابن سعد قوله : « وصدّقه » .

وسلم : أخفوا جرسكم فإن علينا عيونا ، وقدموا ذوى أسنانكم فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم . فتكلم البراء بن معرور ، فأجاب العباس ، ثم قال : ابسط يدك يا رسول الله ، وكان أول من ضرب على يد رسول الله البراء بن معرور — ويقال : أبو الهيثم بن التيهان ، ويقال : أسعد بن زرارة — ثم ضرب السبعون كلهم على يده و بايعوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن موسى أخذ من بنى إسرائيل آثنى عشر نقيبا فلا يجدن منكم أحد فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لى جبريل " ، ثم قال[(١)] للنقباء : " أنتم كفلاء على غيركم ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى " ، قالوا : نعم ، قال : فلما بايعوا وكملوا ، صاح الشيطان على العقبة بأبعد صوت سمع : يا أهل الأخاشب ، هل لكم فى محمد والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انفضوا إلى رحالكم " ، فقال العباس ابن عبادة بن نضلة : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنا لم نؤمر[(٢)] بذلك فانفضوا إلى رحالكم " ، فتفرقوا إلى رحالهم ، فلما أصبح القوم غدت عليهم جلة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شعب الأنصار ، فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنا بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة ، وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا ، وآيم الله ما حى من العرب أبغض إلينا إن شبت[(٣)] بيننا وبينه الحرب منكم ، قال : فانبعث من كان هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم

---

(١) عبارة ابن سعد : « فلما تخيرهم قال للنقباء » الخ .

(٢) فى الأصل : « إنا لن نأمن بذلك » ، والتصويب من ابن سعد .

(٣) فى ابن سعد : « تنشب » .

بالله ما كان هذا وما علمنا ، وجعل ابن أبىّ يقول : هذا باطل ، وما كان هذا ،
وما كان قومى ليفتاتوا علىّ بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومى حتى
يؤامرونى ، فلما رجعت قريش مِنْ عندهم رحل البراء بن معرور ، فتقدّم إلى بطن
يأجج [(١)] ، وتلاحق أصحابُه من المسلمين ، وجعلت قريش تطلبهم فى كل وجه ،
ولا تَعدَّوا طريق المدينة ، وحزّبوا عليهم [(٢)] ، فأدركوا سعد بن عبادة ، فجعلوا يده إلى
٥ عنقه بنِسعة [(٣)] ، وجعلوا يضربونه و يجزون شعره ، وكان ذا جُمّة [(٤)] حتى دخلوا مكة [(٥)] ،
فجاءه مطعِم بن عدىّ ، والحارث بن أمية بن عبد شمس فخلصاه من أيديهم ،
وائتمرت الأنصار حين فقدوا سعد بن عبادة أن يكرّوا إليه ، فإذا سعد قد طلع
عليهم ، فرحل القوم جميعا إلى المدينة .

١٠ ## ذكر تسمية من شهد العقَبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال محمد بن إسحاق : كانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، فكان مَنْ شهدها ‏(١١١/١٤)
من الأوس أحد عشر رجلا ، وهم أُسَيد بن الحُضَير ، وأبو الهيثم بن التيّهان ، وسلمة
ابن سلامة بن وقْش ، وظهير بن رافع بن عدىّ ، وأبو بردة هانئ بن نيار ، ونهير
١٥ ابن الهيثم بن نابى ، وسعد بن خيثمة بن الحارث ، ورفاعة بن عبد المنذر ، وعبد الله
ابن جبير بن النعمان ، ومعن بن عدىّ بن الجد بن عجلان ، وعُوَيم بن ساعدة .
وشهدها من الخزرج أحدٌ وستون رجلا : منهم من بنى النجّار أحدَ عشر رجلا ،

---

(١) يأجج كيسمع و ينصر و يضرب : اسم مكان على ثمانية أميال من مكة .
(٢) فى ابن سعد : «طرق» . (٣) النسعة بالكسر : سير مضفور يجعل زماما للبعير وغيره .
٢٠ (٤) الجمة من شعر الرأس : ما سقط على المنكبين ، وهى أكثر من الوفرة .
(٥) فى ابن سعد : « أدخلوه » .

وهم أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب، ومعاذ بن الحارث بن رفاعة، وأخوه عوف ابن الحارث، وأخوه معوّذ بن الحارث، وعُمارة بن حزم بن زيد، وأسعد بن زُرارة ابن عُدَس[1]، وسهل بن عَتِيك بن النعمان، وأوْس بن ثابت بن المنذر بن حرام، وأبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود، وقيس بن أبي صعصعة، وعمرو بن غُزَيّة ابن عمرو بن ثعلبة.

ومن بني الحارث بن الخزرج سبعة نفر، وهم: سعد بن الربيع بن عمرو، وخارجة بن زيد بن أبي زهير، وعبد الله بن رواحة، وبشير بن سعد بن ثعلبة، وعبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، وخَلّاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو، وعُقْبة ابن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة[2].

ومن بني بياضة بن عامر بن زُرَيق ثلاثة نفر، وهم: زياد بن لَبِيد بن ثعلبة ابن سِنان، وفروة [بن][3] عمرو بن ودقة[4]، وخالد بن قيس بن مالك بن العجلان.

ومن بني زريق بن عامر بن زريق ثلاثة نفر: رافع بن مالك بن العجلان ابن عمرو، وذَكْوان بن عبد قيس بن خَلَدة بن مُخَلَّد بن عامر بن زريق — وكان خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان معه بمكة فهاجر، فكان يقال له: مهاجريّ أنصاري — وعبّاد بن قيس بن عامر بن خالد.

ومن بني سلِمَة بن سعد بن عليّ بن أسد أحد عشر رجلا: البراء بن معرور ابن صخر، وابنه بِشر بن البَراء، وسنان بن صيفيّ بن صخر، والطفيل بن النعمان

(١) عدس: قال ابن بري: صوابه بضمتين، وقال الجوهري: كقثم.

(٢) في الأصل: «تسير»؛ وما أثبتناه عن ابن هشام والاستيعاب.

(٣) تكملة من ابن هشام. (٤) في الاشتقاق: وذفة بذال معجمة وقاف، وفي الاستيعاب: ودفة، بدال وفاء، قال ابن هشام: هو الأصح.

ابن خنساء ، ومعقل بن المنذر بن سرح ، ويزيد بن المنذر بن سرح، ومسعود ابن يزيد بن سبيع ، والضحاك بن حارثة بن زيد، ويزيد بن حرام بن سُبيع ، وجبّار ابن صخر بن أمية بن خنساء ، والطفيل بن مالك بن خنساء .

ومن بنى سواد بن غَنْم بن كعب بن سلمة : كعب بن مالك بن أبى كعب عمرو بن القَيْن بن كعب بن سواد، وهو الشاعر .

ومن بنى غَنْم بن سواد بن غَنْم خمسة نفر، وهم : سليم بن حديدة ، ويزيد ابن عامر بن حديدة، وهو أبو المنذر[(١)]، وأبو اليسر، واسمه كَعْب بن عمرو، وصيفىّ ابن سواد بن عباد، وقُطْبَة بن عامر بن حديدة، أخو يزيد .

ومن بنى نابِى بن عمرو بن سواد بن غَنْم خمسة نفر : ثعلبة بن غنمة بن عدىّ ابن نابى، وعمرو بن غنمة بن عدىّ، وعبس بن عامر بن عدىّ . وعبد الله بن أنيس حليف لهم من قضاعة ، وخالد بن عمرو بن عدىّ .

ومن بنى حرام بن كعب سبعة[(٢)] نفر، وهم : عبد الله بن عمرو بن حرام، وابنه جابر بن عبد الله، ومعاذ بن عمرو بن الجموح ، وثابت بن الجِذع — والجذع ثعلبة ابن زيد — ، وعمير بن الحارث بن ثعلبة، وخديج بن سلامة بن أوس، ومعاذ ابن جبل بن عمرو بن أوس ، مات بعمْواس عام الطاعون .

ومن بنى عوف بن الخزرج أربعة نفر، وهم : عُبادة بن الصامت بن قيس، والعباس بن عبادة بن نضلة — وكان ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فأقام[(٣)] فكان يقال له : مهاجرىّ أنصارى ، قتل يوم أحد —

(١) كذا فى ابن هشام . والذى فى الأصل : « ابن » .
(٢) فى الأصل : « خمسة » — وما أثبتناه عن ابن هشام : ٢ : ١٠٧
(٣) فى ابن هشام جـ ٢ : ١٠٧ « فأقام معه بها » .

وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة حليف لهم من بنى عُصَيّة من بَلِىّ ، وعمرو بن الحارث بن لَبْدة بن عمرو .

ومن بنى سالم بن غَنْم بن عوف — وهم بنو الحُبَلى — رجلان : رفاعة بن عمرو ابن ثعلبة بن مالك ، وعقبة بن وهب بن كلدة بن الجعد حليف لهم ، وكان ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى مكة ، فكان يقال له : مهاجرى أنصارى .

ومن بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج رجلان : سعد بن عبادة بن دُلَيْم ابن حارثة ، والمنذر بن عمرو بن خُنَيْس ، وامرأتان ، وهما : نسيبة ابنة كعب ابن عمرو ، وهى أم عمارة ، وأم منيع ، واسمها أسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى ، ولم يصافحهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان لا يصافح النساء ، وإنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن قال : اذهبن ، وكان النقباء من هؤلاء اثنى عشر رجلا ، وهم : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع بن عمرو ، وعبد الله بن رواحة ابن امرئ القيس ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبد الله ابن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت بن قيس ، وسعد بن عبادة بن دُلَيم ، والمنذر بن عمرو بن حنيس[1] ويقال : ابن خنيس ، هؤلاء من الخزرج .

ومن الأوس ثلاثة نفر : أسيد بن حُضَير ، وسعد بن خيثمة بن الحارث ، ورفاعة بن عبد المنذر .

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : وأهل العلم يعدّون أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدّون رفاعة . والله أعلم بالصواب .

(١) كذا فى الأصل ، والذى فى ابن هشام : « خنش » .

ذكر أوّل آية أنزلت فى القتال

قال محمد بن إسحاق : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقَبة الأولَى لم يؤذن له فى الحرب، ولم تُحلل له الدماء، و إنما أمر بالدعاء إلى الله ، والصبرِ على الأذى، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه حتى فتنوهم عن دينهم، وأخرجوهم من بلادهم ، فلما عَتَتْ قريش على الله ؛ أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال ، فكانت أوّل آية أنزلت فى إذنه تعالى له فى الحرب ، قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[1] . ثم أنزل الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[2] ؛ أى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ، ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ ﴾ ، أى حتى يعبد الله لا يعبد غيره .

ذكر أوّل من هاجر من مكة إلى المدينة

قال محمد بن إسحاق : لما أذن الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى الحرب، و بايعه الأنصارُ على الإسلام ، والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللُّحوق بإخوانهم من الأنصار ؛

(١) سورة الحج ٣٩ — ٤١ (٢) سورة البقرة ١٩٣

وقال: "إن الله قد جعل لكم إخوانا، ودارا تأمنون بهـا"، فخرجوا أرْسالا[1]، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسـلم بمكّة ينتظر الإذنَ من الله فى الهجرة إلى المدينـة ، فكان أوّل من هاجر من المهاجرين من قريش : أبو سلَمة عبد الله بن عبد الأسـد ابن هلال بن عبـد الله المخزومىّ ، وكانت هجرته قبـل بيعَة العقبة بسنَة ، وكان قد قدِم من أرض الحبشة ، فلمـا آذتْه قريش ، و بلَغه إسلامُ مَنْ أسـلم من الأنصار هاجر إلى المدينـة ، فنزل بقرية بنى عمـرو بن عوف بقُباء على أحمد بن مبشِّر ابن عبـد المنذر ، ثم كان أوّل من قدمها بعـد أبى سلمة عامر بن ربيعـة حليف بنى عدىّ بن كعب، معه آمرأته ليلى بنت أبى حَثْمة بن غانم[2]، ثم عبدالله بن جَحْش ابن رِئاب ، حليف بنى أمية آبن عبد شمس، احتمل بأهله و بأخيه عبد بن جحش، وهـو أبو أحمـد، وكان رجلًا ضرير البصر، وكان يطوف مكّة بغير قائد، وكانت عنده الفَرْعة بنت أبى سـفيان بن حرب ، نزل هؤلاء كلهـم بقُبَـاء على أحمـد ابن مبشر أيضا ، ثم قـدِم المهاجرون أرسـالا ، ثم خرج عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه ، وعياش بن أبى ربيعـة فى عشرين من المسـلمين، منهـم : زيد بن الخطّاب أخـو عمر ، وسـعيد بن زيد بن عمـرو بن نُفَيـل ، وخُنَيْس ابن حذافة السهمىّ ، وواقد بن عبد الله التيمىّ حليف بنى عدىّ ، وعبد الله وعمرو ابنا سراقة بن المعتمر — ويقال : عمر بدل عمرو — وخولِىّ بن أبى خولىّ، حليف الخطاب، وأخوه مالك — ويقال : هلال بن أبى خولىّ بدل مالك — وبنو البُكَير الأربعة : إياس، وعاقل، وخالد، وعامر . ويقال : وكان مع عمر ابنه عبد الله ابن عمر .

(١) أرسالا : جماعات .

(٢) فى أسد الغابة : «حثمة بن حذيفة بن غانم» .

قال ابن إسحاق: فنزل عمر بن الخطاب، وعيّاش بن أبى ربيعة فى بنى عمرو ابن عوف بقُباء، بخاء أبو جهل والحارث ابنا هشام إلى عيّاش إلى المدينة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، فكلماه فى الرجوع، وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمشُط رأسها مُشط، ولا تستظلّ من شمس حتى تراك، فرقّ لهما. قال عمر ابن الخطاب: فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا [ليفتنوك][1] عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمَّك القملُ لامتشطت، ولو اشتد عليها حرّ مكة لاستظلّت. فقال: أبرّ قَسَم أمى، ولى هناك مال فآخذه. قال عمر: فقلت له: يا عياش، والله إنك لتعلم أنى من أكثر قريش مالا، فلك نصفُ مالى ولا تذهب معهما. قال: فأبَى إلا أن يخرج معهما، فقلت: أما إذْ فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا أخى والله لقد استغلظتُ بعيرى هذا، أفلا تُعقبنى[2] على ناقتك؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض أوثقاه[3] رباطا، ثم دخلا به [مكة[4]]، وفتناه فافتتن. رواه ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر.

قال ابن إسحاق: ودخلا به مكة نهارا موثقا، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا. قال ابن عمر فى حديثه فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صَرْفا ولا عدلا ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى

(١) الزيادة عن ابن هشام ٢ : ١١٨

(٢) تعقبنى على ناقتك: من قولهم أعقب زيد عمرا، أى ركبا بالنوبة.

(٣) فى ابن هشام: ٢ : ١١٩ «عدوا عليه فأوثقاه وربطاه».

(٤) الزيادة عن ابن هشام.

الكفر لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله فيهم، وفى قولنا وقولهم لأنفسهم : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١) ، قال عمر : فكتبتها بيدى فى صحيفة، وبعثتُ بها إلى هشام بن العاص، فلما قرأها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدّثنى مَنْ أثق به أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو بالمدينة : "مَنْ لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن أبى العاص" ؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة، فقدمها مستخفيا، فلقى آمرأة تحمل طعاما فقال لها: أين تريدين يا أمةَ الله؟ قالت : أريد هذين المحبوسَيْن — تعنيهما — فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا قد حُبسا فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسوّر عليهما ، ثم أخذ مَروة (٢) فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما (٣)، ثم حملهما على بعيره وسار بهما، فعثر فدميت إصبعه فقال :

هل أنت إلا إصبعٌ دَميتِ ✱ وفى سبيل الله ما لقيتِ

نعود إلى تتمة أخبار عمر فى هجرته — قال آبن إسحاق: ونزل عمر بن الخطاب حين نزل (٤) المدينة ومن لحق به من أهله وقومه، وأخوه زيد بن الخطاب، وعمرو وعبد الله

(١) سورة الزمر ٥٣ — ٥٥ .

(٢) المروة : واحدة المرو، وهى حجارة بيض براقة تورى النار .

(٣) زاد فى ابن هشام بعد هذا : « فكان يقال لسيفه : ذو المروة لذلك » .

(٤) فى ابن هشام : « قدم » . ومؤدّى الروايتين واحد .

ابنا سُراقة بن المعتمر، وخُنيس بن حُذافة السهمىّ — وكان صهره على ابنته حفصة خلف عليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعده — وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وواقد بن عبد الله التميمىّ، حليف لهم، وخولىّ بن خولىّ، ومالك بن خولىّ، حليفان لهم، وبنو البكير الأربعة: إياس، وعاقل، وعامر، وخالد، حلفاؤهم، وهم من بنى سعد بن ليث، على رفاعة بن المنذر بقُباء(١)، ثم تتابع المهاجرون(٢)، فنزل طلحة بن عبيد الله، وصهيب بن سنان على خُبَيب بن إساف(٣) أخى بلحارث بن الخزرج(٤)، ويقال: بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة، ونزل حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مَرْثَد كَنّاز بن حصين، وابنه مرثد الغنويّان حليفا حمزة ابن عبد المطلب، وأَنَسة وأبو كبشة موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم على كلثوم ابن هِدم(٥) أخى بنى عمرو بن عوف بقُباء — ويقال: بل نزلوا على سعد بن خيثمة، ويقال: بل نزل حمزة على أسعد بن زُرارة — ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخواه الطّفيل والحُصَين، ومِسْطَح بن أُثاثة بن عبّاد بن المطلب، وسُوَيبط بن سعد بن حُرَيملة(٦)، أخو بنى عبد الدار، وطُليب بن عمير أخو بنى عبد بن قصىّ، وخبّاب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة أخى بلعجلان بقُباء، ونزل

(١) قباء: على فرسخ من المدينة.

(٢) فى الأصل: «المهاجرين»؛ وهو خطأ من الناسخ.

(٣) ويقال فيه: «يساف» بياء مفتوحة: وهو ابن عتبة، ولم يكن حين نزل المهاجرون عليه مسلما، بل أخر إسلامه حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر (عن الاستيعاب ملخصا).

(٤) زاد فى ابن هشام بعد هذه الكلمة قوله: «بالسنح».

(٥) فى أسد الغابة: «ابن هرم»، بالراء. وفى ابن سعد، والاستيعاب: «ابن الهدم».

(٦) كذا فى الأصل، وابن هشام، وفى الاستيعاب، وأسد الغابة، والتاج، والإصابة: «حرملة».

١١٤/١٤

عبد الرحمن بن عوف فى رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخى بلحارث ابن الخزرج فى دار بلحارث ، ونزل الزبير بن العوام ، وأبو سبْرة بن أبى رُهم بن عبد العزّى على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجُلَاح بالعُصَبة (١) دار بنى جحجبى (٢) . ونزل مصعب بن عمير بن هاشم أخو بنى عبد الدار على سعد بن مُعاذ ابن النعمان فى دار بنى عبد الأشهل . ونزل أبو حذيفة بن عُتْبة بن ربيعة ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وعُتْبة بن غزوان بن جابر على عباد بن بِشر بن وقْش أخى بنى عبد الأشهل فى دار بنى عبد الأشهل . ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت ابن المنذر أخى حسان بن ثابت فى دار بنى النجار . وكان يقال : نزل العزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة ، وذلك أنه كان عَزَبا .

ذكر اجتماع قريش فى دار الندوة ، وتشاورهم فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم ، واتفاقهم على قتله ، وحماية الله تعالى له ، وخبر الشيخ النجدىّ ، وهو إبليس ، أخزاه الله

قال محمد بن إسحاق ، يرفعه إلى عبد الله بن عباس وغيره قالوا : لما (٣) رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كانت له شِيَعٌ وأصحاب من غيرهم من غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا ، وأصابوا منهم مَنَعة ، فحذروا خروجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة — وهى دار قصىّ بن

(١) عصبة ، كهمزة ؛ كذا ضبطه ياقوت ، وذكر انه حصن بقباء ؛ ونقل عن ابن هشام أيضا أنه ضبطه بالضم ثم السكون . (٢) جحجبى : جد أحيحة بن الجلاح اليثربى .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٢٤

كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها — يتشاورون ما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)] ، فلما اجتمعوا لذلك، واتّعدوا له ، غدوا فى يوم الموعد ، وهو اليوم المسمى يوم الزَّحمة[(٢)] ، فاعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل عليه بَتّ[(٣)] — قال الواقدى : مشتمل الصماء[(٤)] فى بَتّ — قال : فوقف على باب الدار، فلما رأوه قالوا : مَن الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد، سمع بالذى اتّعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى ألّا يُعدِمكم منه رأيا ونُصحا ، قالوا : أجل، فادخل ، فدخل معهم ، وقد اجتمع أشراف قريش، وهم : عُتْبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وطُعيمة بن عدىّ ، وجُبير بن مطعِم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، والنّضر بن الحارث بن كَلَدَة ، وأبو البَخْتَرِىّ ابن هشام، وزَمْعة بن الأسود بن المطلب ، وحكيم بن حِزام ، وأبو جهل ابن هشام ، ونُبيه ومنبّه ابنا الحجاج ، وأُمية بن خلف ، وغيرهم ممن لا يعدّ من قريش ، فقال بعضُهم لبعض : إنّ هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمَنُه على الوثوب علينا ممن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا ، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله : زهير والنابغة، ومَنْ مضى منهم حتى يصيبَه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدىّ : لا والله، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرُجنّ أمرُه من وراء الباب الذى أغلقتم

---

(١) فى ابن هشام : « حين خافوه » .

(٢) سمى يوم الزحمة لتزاحم أشراف القبائل القرشية فى دار الندوة .

(٣) فى ابن هشام : « بتلة » ، والبتلة والبت : الكساء الغليظ .

(٤) واشتمال الصماء هو أن يشتمل الرجل بالثوب حتى يجلل به جسده ولا يرفع منه جانبا ، فيكون فيه فرجة يخرج منها يده، وهو التلفع ، (اللسان — شمل) .

دونه إلى أصحابه ، ولأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره ، فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله [ما] [1] نبالى أين ذهب ، ولاحيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه ، أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حُسْنَ حديثه ، وحلاوة مَنْطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لئن فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حىّ من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم ليسير بهم إليكم حتى يطأكم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ؛ دبِّروا فيه رأيا غير هذا . فقال أبو جهل بن هشام : إنّ لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جَليدا نَسيبا وَسيطا فَتيا ، ثم نعطى كلَّ فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمُه فى القبائل جميعا ، [فلم يقدِرْ بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا] [2] ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم . فقال النجدى : القول ما قال الرجل ؛ هذا الرأى لا أرى [3] غيره .

وحكى أن هذا الرأى كان رأى الشيخ النجدى ، وأنه لما أشار به قالوا : كلّهم : صدق النجدى ، صدق النجدى ! والله أعلم .

قال : فتفرّق القوم وقد أجمعوا على ذلك .

فأتى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بالخبر ، وقال له : لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه ، قال : فلما كانت عَتَمة

(١) من ابن هشام . (٢) عن ابن هشام . (٣) ابن هشام : « لا رأى غيره » .

من الليل آجتمعوا على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرصُدونه حتى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانَهم قال لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : "نَمْ على فراشي، وتَسَجّ ببُرْدِي هذا الحضرميّ الأخضر، فنَمْ فيه؛ فإنه لن يخلُصَ إليك شيء تكرهه منهم".

قال : فقال أبو جهل ومَنْ معه على الباب : إن محمدا يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم نار تحرقون فيها. قال : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال : "نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدُهم"، وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه، فجعل ينثُر التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من سورة يس : ﴿يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ . إلى قوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (1) .

ولم يبق منهم رجل إلا وضعَ على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمدا، قال : خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضعَ على رأسه ترابا وآنطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كلُّ رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا ينظرون فيه فيروْن عليا على الفراش متسجّيا ببُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائما عليه بُردُه. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليّ عن الفراش؛ فقالوا : والله لقد كان صدَقنا الذى حدّثنا .

---

(1) سورة يس ١ — ٩

قال ابن إسحاق : فكانَ ممـا أنزل من القرآن في ذلك اليوم قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ (٢) .

ذكر ابتداء هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضى الله عنه

قال محمد بن إسحاق : لمّا هاجر أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، أقام هو بمكة بعدهم ينتظر الإذنَ من الله تعالى في الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة إلا أبو بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب رضى الله عنهما ، ومن حُبس أو فُتن . وكان أبو بكر يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة كثيرا فيقول له : "لا تعجل لعلّ الله أن يجعل لك صاحبا"، فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يَعني نفسَه .

وروى عن عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتىَ بيت أبي بكر أحد طَرفَيِ النهار إما بُكْرة وإما عَشية، [حتى] (٣) إذا كان اليوم الذى أذن الله تعالى فيه لرسوله في الهجرة والخروج من مكة أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة في ساعة كان لا يأتى فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حَدَث، فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره ،

(١) سورة الأنفال ٣٠ . (٢) سورة الطور ٣٠ — ٣١

(٣) الزيادة من ابن هشام .

بجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء، فقال
رســول الله صلى الله عليه وسلم : " أخرج عنّى مَن عندك " قال : يا رسول الله ،
إنما هما آبنتاى، وما ذاك فداك أبى وأمى؟ قال : " إن الله أذن لى فى الخروج " .
فقال أبو بكر : الصحبة يا رســول الله ! قال : " الصحبــة " . قالت : فوالله
٥ ما شعرت قط قبــل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفَــرح حتى رأيت أبا بكر يبكى
يومئــذ ، ثم قال : يا نبىّ الله، إن هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا . فآستأجرا
عبد الله بن أرقط — وقيل : الأريقط — الليثى وكان مشركا ، يدلّهما على الطريق ،
ودفعا إليــه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما . قال آبن إسحاق : ولم يعلم
بخروج رســول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا أبو بكر وآل أبى بكر ،
١٠ وعلى بن أبى طالب ، أخبره رســول الله صلى الله عليــه وسلم بخروجه ، وأمره أن
يتخلف بعــده ، حتى يؤدى عن رســول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت
عنده للناس .

ذكر خبر الغار وما قيل فيه

قال : لمــا أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروجَ أتى أبا بكر فخرجا من
١٥ خَوْخة لأبى بكر فى ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور — جبلٍ بأسفل مكة — فدخلاه،
وأمر أبو بكر آبنه عبــد الله أن يتسمّع لهما ما يقول النــاس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما
إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليــوم من الخبر، وأمر عامر بن فُهيرة مولاه أن يرعى
غنمَه نهارة ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار، وكانت أسمــاءُ بنت أبى بكر تأتيهما
من الطعام إذا أمست بمــا يصلِحهما .

٢٠ قال آبن هشام : حدّثنى بعضُ أهــل العلم أن الحسن بن أبى الحسن قال :
لمــا آنتهى رســول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا دخل أبو بكر قبل

رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس الغار لينظر أفيه سبع أو حيّة يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

قال ابن إسحاق : فأقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ، ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائةَ ناقة لمن يردّه عليهم . وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون فى شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر ، وكان عامر بن فُهيرة مولَى أبى بكر يرعى فى رعاء من أهل مكة ، فإذا أمسى أراحَ عليهما غنم أبى بكر فآحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثرَه الغنم حتى يعفّى عليه .

وقال محمد بن سعد بسنده إلى زيد بن أرقم وأنس بن مالك ، والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهم : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الغار أمرَ الله شجرة فنبتت فى وجه النبيّ صلى الله عليه وسلم فسترته ، وأمر العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته ، وأمر حمامتين وحْشيتين فوقفتا بفم الغار ، وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل بأسيافهم وعِصيّهم وهَراواتهم حتى إذا كانوا من النبى صلى الله عليه و لم قدْر أربعين ذراعا ، نظر أوّلهم فرأى الحمامتين فرجع فقال له أصحابه : مالك لم تنظر فى الغار ؟ قال : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار ، فعرفت أنْ ليس فيه أحد . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ، فعرف أنّ الله عز وجل درأ عنه بهما .

وقال بعض من حضر فى طلبه : إن عليه من العنكبوت ما هو قبل ميلاد محمد .

وقال أبو بكر رضى الله عنه : فنظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رُءوسنا فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا ، فقال : "يا أبا بكر ، ما ظنُّك بآثنين الله ثالثهما" ! قال : ومكثنا فى الغار ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر .

قال محمد بن سعد : قالت عائشة رضى الله عنها : وجهزناهما أحبَّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفرة فى جِراب ، فقطعت أسماء قطعة من نِطاقها فاوكَأَتْ به الجراب ، وقطعةً أخرى صيرتها عِصاما لفم القربة؛ فلذلك سميت أسماء ذات النِّطاقين .

قال محمد بن سعد بسند يرفعه إلى أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما أنها قالت : لما خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه آحتمل ماله كلّه معه ، — خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف — فآنطلق بها معه ، فدخل علينا جدّى أبو قحافة وقد ذهب بَصَرُه ، فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قال فقلت : كلّا يا أبت ، إنه ترك لنا خيرا كثيرا . قالت أسماء : فأخذت أحجارا فوضعتها فى كُوّة البيت حيث كان أبى يضع فيها ماله ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقلت : ضع يا أبت يدَك على هذا المال ، فوضع يده عليه وقال : لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم ؛ فلا والله ما ترك لنا شيئا ، ولكنى أردت أن أسكّن الشيخ بذلك . والله أعلم .

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه من الغار، وتوجههما إلى المدينة، وما كان من أمر سُراقة بن مالك ، وأم معبد وغير ذلك إلى أن آنتهيا إلى المدينة

كان خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه من الغار ليلة الآثنين لأربعٍ خَلَوْن من شهر ربيع الأوّل ، وذلك أنه لما مضت الأيام الثلاثة، وسكَن عنهما الناس أتاهما عبدالله بن الأُريقط براحلتيهما و بعيرٍ له ، فقرّب أبو بكر رضى الله عنه الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدّم له أفضلَهما[1]

(١) فى الأصل : «لفسلهما» والصواب ما أثبتناه كما فى ابن هشام جـ ٢ : ١٣١

ثم قال : اركب فداك أبي وأمي يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لا أركب بعيرا ليس لي"، قال: فهي لك يارسول الله بأبي أنت وأمي! قال : "لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها[1] به" ؟ ، قال: كذا وكذا، قال: " قد أخذتها بذلك ".

قال محمد بن سعد: وكان أبو بكر آشتراهما بثمانمائة درهم من نَعَم بني قُشَيْر، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إحداهما وهي القَصْواء .

قال آبن إسحاق : فركبا وآنطلقا ، وأردفَ أبو بكر رضي الله عنه مولاه عامر بن فُهَيرة خلْفه ليخدمهما في الطريق .

قال أبو بكر رضي الله عنه : أسريْنا ليلتنا ويومنا حتى إذا قام قائم الظهيرة وآنقطع الطريق ، ولم يمر أحد ، رُفعت لنا صخرة لها ظلّ لم تأت عليه الشمس . قال : فسويت للنبيّ صلى الله عليه وسلم مكانًا في ظلها، وكان معي فَرْو ففرشته، وقلت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : نم حتى أنفضَ ما حولك ، فخرجت فإذا أنا براعٍ قد أقبل يريد من الصخرة مثلما أردنا ، وكان يأتيها قبل ذلك فقلت : ياراعي، لمن أنت؟ قال : لرجل من أهل المدينة يعني مكة، قال: قلت: هل في شائك من لَبن ؟ قال : نعم، قال : فجاءني بشاة فجعلت أمسح الغُبار عن ضَرْعها وحلبت في إداوةٍ معي كُثبةً[2] من لبن، وكان معي ماء للنبيّ صلى الله عليه وسلم في إداوة فصببتُ على اللبن من الماء لأبرده ، فوافيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قام من نومه فشرب وقال : " ما آن الرحيل " ؟ قلت : بلى، قال : فأرسلنا حتى إذا كنا بأرض صَلبة جاء سُراقة بن مالك بن جُعشُم ،فبكى أبو بكر وقال: يارسول الله قد أُتينا، قال : " كلا "، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فآرتطم فرس سراقة — أي

(١) في الأصل : «ابتعتهما» ، و«أخذتهما» والصواب، عن ابن هشام .

(٢) كثبة : قليل .

احتبس إلى بطنه — فقال : قد أعلم أن قد دعوتمـا علىّ فآدعوَا لى، ولكما علىّ أن أردّ الناس عنكما ولا أضرّكما . قال : فدعا له فرجع ووفى وجعـل يردّ الناس ويقول : قد كفيتم ما هاهنا . وقد روى عن سراقة أنه قال لأبى جهل بن هشام :

أبا حَكَمٍ والله لو كنتَ شاهدا * لأمرِ جوادى إذ تسوخُ قوائمُهْ

علمتَ ولم تشككْ بأنّ محمدا * رسـولٌ ببرهان فمن ذا يقاومُهْ!

عليك بكف القوم عنـه فإننى * أرى أمرَه يوما ستبدو معالمُهْ

بأمرٍ يودّ الناس فيه بأسرِهم * بأنّ جميع النـاس طُرا[1] تسالمُهْ

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدّثنى الزُّهرى أنّ عبدَ الرحمن بن مالك ابن جعشم حدّثه عن أبيه عن عمه سراقة بن مالك قال : لمـا خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من مكّة مهاجرا إلى المدينة، جعلتْ فيه قريش مائةَ ناقة لمن يردّه عليهم، فبينما أنا جالسٌ فى نادى قومى أقبلَ رجلٌ منا حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيتُ رَكَبة ثلاثة مرّوا علىّ آنفا، إنى لأراهم محمدا وأصحابه، قال : فأومأتُ إليه بعينى أن آسكت، ثم قلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالّة لهم، قال : لعله[2] . ثم قمت فدخلت بيتى وأمرت بفرسى فقِيـدَ إلى بطن الوادى ، وأمرت بسـلاحى فأخرج من دُبُر حُجْرتى، ثم أخذت قِداحى التى أستقسِم بها[3]، ثم آنطلقت فلبست لأمتى، ثم أخرجتُ قداحى فاستقسمت بها، فخرج السهم الذى أكره: «لا يضره»، قال: وكنت أرجو أن أردّه على قريش فآخذ المائة، فركبت الفرس فى أثره، فبينما فرسى يشتدّ بى عثر فسقطت عنه، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قِداحى فآستقسمت بها فخرج السّهم

(١) فى الأصل : « طورا » ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى الدلائل : قال : « لعله » ثم سكت قال فكثت قليلا ثم قمت » .

(٣) فى الأصل : « الذى » ، ما أثبتناه عن ابن هشام جـ ٢ : ١٣٤

الذى أكره «ولا يضره»، قال فأبيت إلا أن أتبعه فركبت فى أثره، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى فذهبتْ يداه فى الأرض وسقطتُ عنـه ، ثم انتزع يده من الأرض وتبعهما دُخَانٌ كالإعصار، فعرفتُ حين رأيتُ ذلك أنه قد منـع منّى وأنه ظاهر، فناديتُ القوم : أنا سراقة بن جعشم ، أَنْظِرونى أكلّمكم، فوالله لا يأتينكم منى شيء تكرهونه ، فقال رســول الله صلى الله عليه وسـلم لأبى بكر: "قل له وما تبتغى منـا"؟ فقال لى ذلك أبو بكر، قلت : تكتب لى كتابا يكون بينى و بينك، قال : "اكتب له يا أبا بكر"، فكتب لى كتابا فى عَظْم أو فى رقعة أو فى خرقة ثم ألقاه إلىّ فأخذته فجعلته فى كنانتى، ثم رجعتُ فـلم أذكر شيئا ممـا كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رســول الله صلى الله عليه وسلم، وَفَرَغ من حُنَيْن والطائف، فرحت ومعى الكتاب لألقـاه فلقيته بالجعرانة[1] ، فدخلتُ فى كتيبة من خيل الأنصار فجعـلوا يقرعوننى بالرماح و يقولون : إليك إليك ماذا تريد ؟ قال : فدنوت من رســول الله صـلى الله عليه وسلم وهو على ناقته، والله إنى لأنظر إلى ساقه فى غَرْزه[2] كأنهـا جمارة، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله،هذا كتابك أنا سراقة بن جعشم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يوم وفاء و برّ، ادْنُه"، قال فدنوت منه فأسلمت . والله الهادى للصواب .

*
* *

ومروا على خيمتى أم معبد الخزاعية ،واسم أم معبد عاتكة بنت خالد بن منقذ ابن ربيعة[3] ، و يقال : عاتكة بنت خالد بن خليف ، وكانت بَرْزة[4] جلدة تجلس بفناء

(١) الجعرانة بكسر الجيم وتشديد الراء : ماء بين مكة والطائف على سبعة أميال من مكة .

(٢) الغرز للرحل : هو كالركاب للسرج، وفى الدلائل والنهاية : «كأنه جمارة»، والجمارة : قلب النخلة وشحمتها . (٣) فى الأصل : «خلف»، وما أثبتناه عن أسد الغابة، والمواهب .

(٤) البرزة : التى تظهر للناس .

القبة تَسق وتُطعم ، فسألوها تمرا ولحما يشترونه منها ، فلم يصيبوا عندها من ذلك شيئا ، وكان القوم مُرْملين مُسْنِتين[1][2] ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة فى كِسْر الخيمة ، فقال : " ما هـذه الشاة يا أم معبد " ؟ قالت : شاة خلّفها الجهْد عن الغنم ، قال : " هل بها من لبن " ؟ قالت : هى أجهد من ذلك ، قال : " أتأذنين أن أحلبها " ؟ قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبا فاحلبها . فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها وسمّى الله ، ودعا لها فى شاتها ، فتفاجّت عليه — أى فتحت ما بين رجليها — ودَرّت ، ودعا بإناء يُرْبِض الرَّهْط — أى يُرويهم — فحلب فيه ثجّا[3] ثم سقاها حتى رَوِيَت ، ثم سقى أصحابه حتى رَوُوا ، ثم شرب آخرَهم ، ثم حلب إناءً حتى ملأه ثم غادره عندها ، وبايعها وارتحلوا عنها ، وأصبح صوتٌ بمكة عالٍ يسمعونه ، ولا يدرون مَن صاحبُه وهو يقول :

جزى الله ربُّ الناس خيرَ جزائه * رَفيقَين قالا[4] خيمتَىْ أمِّ مَعْبَد

هما نزلا بالبِرّ وارتحلا به * فأفلح مَن أمسى رفيقَ محمد

فيا لَقُصَىٍّ ما زَوَى[5] الله عنكم * به من فعَال لا تُجارَى[6] وسُودَد

لِيَهْنِ بنى كعبٍ مكانُ فتاتهم * ومقعدُها للمؤمنين بمرصَد

سَلُوا أختَكم عن شاتها وإنائها * فإنكمُ إن تسألوا الشاة تَشْهَد

دعاها بشاة حائل فتحلّبَتْ * له بصَريح[7] ضَرّةُ[8] الشاة مُزْبِد

فغادَرها رَهْنًا لديها لحالب * تَدِرّ بها فى مَصْدر ثم مَوْرِد[9]

(١) فى الأصل : « المنه » وهو تصحيف ، والتصحيح من السيرة الحلبية ، وفى الدلائل وغيرها : « الخيمة » . (٢) مرملين : نفد زادهم . ومسنتين : مجدبين . (٣) ثجا : أى لبنا كثيرا . (٤) قالا : نزلا وقت القيلولة . (٥) زوى : صرف . (٦) تجارى : بالراء ، وفى رواية بالزاى . (٧) الصريح : اللبن الخالص . (٨) الضرة : أصل الضرع . (٩) فى مصدر ثم مورد : أى يحلبها مرة ثم أخرى ، والمعنى : ترك الشاة عندها ذات لبن .

قال ابن إسحاق : ولما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل أسفل من عسفان (١) ، ثم سلك بهما أسفل أمج (٢) ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قديدا (٣) ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار (٤) ، ثم سلك بهما ثنية المرة (٥) ، ثم سلك بهما لقفا (٦) — ويقال لفتا (٧) — ثم أجاز بهما مدلجة (٨) لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح (٩) ، ثم سلك بهما مرجح مجاج ، ثم تبطن بهما [مرجح] (١٠) من ذى الغضوين (١١) ، ويقال : العصوين ، ثم بطن ذى كشر (١٢) ، ثم أخذ بهما على الجداجد (١٣) ، ثم على الأجرد (١٤) ، ثم سلك بهما ذا سلم (١٥) [من بطن] (١٦) أعداء مدلجة تعهن (١٧) ، ثم على العبابيد — ويقال : العبابيب ، ويقال :

١١٩
١٤

(١) عسفان كعثمان : موضع بين مكة والمدينة . (٢) أمج : بلد بين مكة والمدينة فيه مزارع .

(٣) قديد : موضع قرب مكة . (٤) الخرار : موضع قرب الجحفة . ١٠

(٥) ثنية المرة : موضع ، تخفيف المرأة . (٦) لقف : موضع كثير الماء لا زرع فيه .

(٧) لفت : واد فى طريق المدينة ، وقد وقع الخلاف فى لقف ولفت فى حديث الهجرة وكلاهما صحيح ، وهذا موضع ، وذاك آخر .

(٨) المدلجة : الحوض الذى يفرغ فيه الساقى دلوه .

(٩) مجاج : بفتح الميم موضع ، وفيه خلاف . راجع ياقوت . ١٥

(١٠) ساقطة من الأصل ، وما أثبتناه عن ابن هشام ٢ : ١٣٦ ، وانظر ياقوت .

(١١) ذو الغضوين : بفتح الغين والضاد المعجمتين تثنية الغضا .

(١٢) فى الأصل «كشد» ، وهو تحريف . وكشر : موضع بين مكة والمدينة .

(١٣) الجداجد : جمع جدجد بضم الجيمين وهى البئر القديمة . ياقوت .

(١٤) الأجرد : أحد جبلى جهينة ، بين المدينة والشام . ٢٠

(١٥) ذو سلم : واد من أرض بنى البكاء على طريق البصرة إلى مكة .

(١٦) الزيادة عن ابن هشام .

(١٧) تعهن : عين ماء على ثلاثة أميال من السقيا ، بين مكة والمدينة . والأعداء : النواحى .

العِثْيانة — ثم أجاز بهما الفاجَة[1] ، ويقال : القاحَة ، ثم هبط بهما العَرْج[2] ، وقد أبطأ عليهم بعضُ ظهرهم فحمل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ يقال له : أوس بن حجر على جمل له إلى المدينة ، وبعث معه غلاما له يقال له : مسعود بن هُنَيْدة ، ثم خرج بهما دليلهما من العرْج ، فسلك ثنية العائر عن يمين رَكُوبة[3] — ويقال الغابر — حتى هبط بهما [بطن][4] رِئْم ، ثم قدم بهما قُبَاء على بنى عمرو بن عوف . قال الشيخ شرف الدين الدمياطى : وكان عبد الله بن الأريقط على كفره ، ولم يعلم له إسلامٌ .

ذكر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه إلى المدينة

قال محمد بن إسحاق : كان مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبَاء يوم الآثنين لآثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين الضّحا ، وكادت الشمس تعتدل ، وهو صلى الله عليه وسلم آبن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك بعد أن بعثه الله تعالى بثلاث عشرة سنة . وقال الخوارزمىّ : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرا يوم الآثنين ، وهو اليوم الثامن من شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين من عام الفيل ، ويوم عشرين من أيلول ، فكان من مبعثه إلى يوم هاجر ودخل المدينة ثلاث عشرة سنة كاملة . قال ابن إسحاق : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا بخروجه من مكة وتَوَكّفوا[5] قدومه ، يخرجون إذا صلوا

(١) الفاجة والقاحة : مدينة على ثلاث مراحل من المدينة ، قبل السقيا بنحو ميل .
(٢) العرج : مكان بين مكة والمدينة على جادة الحاج ، تذكر مع السقيا .
(٣) ركوبة : ثنية بين مكة والمدينة عند العرج .
(٤) ساقطة من الأصل ، والزيادة عن ابن هشام
(٥) توكفوا : آستشعروا قدومه وانتظروه .

الصبح إلى ظاهر الحرّة ينتظرونه ، فلا يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال
فيدخلون ، وذلك فى أيام حارة ، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله
عليه وسلم جلسوا على عادتهم ، حتى إذا لم يبق ظل دخلوا بيوتهم ، فقدم رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين دخلوا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من يهود ،
فصرخ بأعلى صوته : يا بنى قيلة(1) ، هذا جدكم قد جاء ، قال : فخرجوا إلى رسول الله ٥
صلى الله عليه وسلم وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنّه ،
وأكثر الأنصار لم يكن يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فأقبل
الناس وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى إذا زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفوه عند ذلك ، قال : فنزل رسول الله صلى الله
عليه وسلم على كلثوم بن هِدْم أخى بنى عمرو بن عوف ، وهو الأصح ، وكان إذا ١٠
خرج من منزل كلثوم جلس للناس فى بيت سعد بن خَيْثَمة ، وذلك أنه كان عَزَبا
لا أهل له ، وكان منزل العُزّاب من المهاجرين ، ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه
على خُبَيْب بن إساف أحد بنى الحارث بن الخزرج بالسُّنْح ، وقيل : بل نزل
على خارجة بن زيد . وأقام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بمكة ثلاث ليال ،
حتى أدّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، ثم لحق ١٥
برسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل معه على كلثوم بن هِدم ، فأقام رسول الله صلى
الله عليه وسلم بقُباء من يوم الاثنين إلى آخر يوم الخميس أربعة أيام .

---

(1) بنو قيلة : هم الأنصار ، وقيلة : اسم جدة كانت لهم .

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قباء وتحوله إلى المدينة، وصلاته الجمعة، ونزوله على أبي أيوب خالد بن زيد

قال محمد بن إسحاق : ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة من منزل كلثوم فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وادى رانوناء[1] ، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة . قال محمد بن سعد : صلاها بمن كان معه من المسلمين وهم مائة . قال ابن إسحاق : فأتاه عِتْبان بن مالك ، وعباس بن عبادة بن نضلة ، فى رجال من بنى سالم بن عوف ، فقالوا : يارسول الله، أقم عندنا فى العدد والعدّة والمنعة، قال : "خلوا سبيلها فإنها مأمورة" لخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة ، اعترضه سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو فى رجال من بنى ساعدة ، فقالوا مثل ذلك ، وقال مثل ما قال لأولئك ، لخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع ، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن رواحة فى رجال من بلحارث من الخزرج ، فقالوا مثل ذلك ، وقال مثل ما قال، لخلوا سبيلها فانطلقت، حتى إذا مرت بدار بنى عدىّ بن النجار وهم أخواله اعترضه سليط بن قيس، وأبو سليط أُسَيْرة[2] بن أبى خارجة فى رجال من بنى عدىّ بن النجار، فقالوا : يا رسول الله هلّم إلى أخوالك إلى العدد والعُدّة والمنعة ، فقال كما قال لأولئك ، لخلوا سبيلها فانطلقت ، حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ مِربد[3] لغلامين يتيمين من بنى النجار ، فى حجر

(١) رانوناء بنونين : بين قباء والمدينة يلتق مع بطحان فى دار بنى زريق .

(٢) الذى فى أسد الغابة : « أسيرة بن عمرو بن قيس بن مالك » .

(٣) مربد : الموضع الذى يجمع فيه الزرع والتمر للتجفيف .

معاذ بن عَفْراء وهما سهل وسُهيل آبنا عمرو ، فلما بركت ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينزل ، فسارت غير بعيد ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تَحَلْحَلَتْ (١) ورَزَمت ووضعت جِرانها ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى : لما بركت الناقة جعل الناس يكلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النزول عليهم ، وجاء أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب فحطّ رحلَه فأدخله منزله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المرء مع رحله" ، وجاء أسعد بن زُرارة فأخذ بزِمام راحلته فكانت عنده ، قال زيد بن ثابت : فأول هدية دخلتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزل أبى أيوب هديةٌ دخلتُ بها إناءٌ قَصْعَةٌ مَثْرُود فيها خبز وسمن ولبن ، فقلت : أرسلتْ بهذه القصعة أُمّى ، فقال : "بارك الله فيك" ، ودعا أصحابه فأكلوا ، فلم أَرِم (٢) الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عبادة ، ثريد وعُراق (٣) ، وما كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ، يتناوبون ذلك حتى تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل أبى أيوب ، وكان مقامه فيه سبعة أشهر .

وقال آبن إسحاق : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، حتى بنى له فيها مسجده ومساكنه . والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : « تجليلت » ، وما أثبتناه عن آبن هشام ؛ وقال السهيلى : إن ابن قتيبة فسره بتلحلحت — بتقديم اللام — لزمت مكانها ، وكذا فسره فى النهاية : تلحلحت أقامت ولزمت مكانها ولم تبرح ضد تحلحل . ورزمت الناقة : إذا أقامت من الكلال ، وجرانها : عنقها .

(٢) فلم أرم : لم أبرح .

(٣) عراق : جمع عرق وهو جمع نادر ، والعرق (بالسكون) : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم .

وبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من منزل أبى أيوب زيدَ بن حارثة ؛ وأبا رافع ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ، فقدما إلى مكة لفاطمة وأم كلثوم عليهما السلام ٱبنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسَوْدة بنت زَمْعة زوجته ، وأسامة بن زيد ، وحمل زيد بن حارثة ٱمرأته أمّ أيْمَن مع ٱبنها أسامة بن زيد ، وخرج عبد الله بن أبى بكر معهم بعيال أبى بكر فيهم عائشة ، فقدموا المدينة فأنزلهم فى بيت حارثة بن النعمان ، وكانت رُقَيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحبشة مع زوجها عثمان بن عفان . قال ابن إسحاق بسنده إلى أبى أيوب قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى السُّفْل ، وأنا وأم أيوب فى العُلْو ، فقلت له : يا نبىّ الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت وكن فى العُلْو ، وننزل نحن ونكون فى السُّفْل ، فقال : "يا أبا أيوب ، إنّ أرْفَق بنا ومن يغشانا أن نكون فى سُفْل البيت" ، قال : فلقد ٱنكسر حُبٌّ[1] لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ، ننشّف بها الماء ، تخوّفا أن يقطُر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، قال : وكنّا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا ردّ علينا فضله تيَمَّمْتُ أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه ، نبتغى بذلك البركة حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه ، وقد جعلنا له فيه بصلا أو ثوما ، قال : فردّه ولم أر ليده فيه أثرا ، فجئته فزِعا ، فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ؟ فكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك للبركة ، قال : " فإنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجِى[2] فأما أنتم فكلوه " ، فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة . والله المستعان .

---

(١) الحب : جرة كبيرة . (٢) أناجى من المناجاة : وهى أن يحدث الإنسان غيره .

١٢١
١٤

ذكر بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيوته بالمدينة

قال محمد بن سعد عن محمد بن عمر بن واقد قال : حدثنى مَعْمَر بن راشد عن الزهرى قال : بركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موضع المسجد، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين ، وكان مِرْبدا لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار ، وكانا فى حَجْر أبى أُمامة أسعد بن زُرارة ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغلامين فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجدا فقالا : بل نهبُه لك يا رسول الله، فأبى صلى الله عليه وسلم حتى ابتاعه منهما . قال ابن سعد : وقال غير مَعمر عن الزهرى : فابتاعه بعشرة دنانير، وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك ، فكان جدارا مجدّرا ليس عليه سقف ، وقبلته إلى بيت المقدس ، وكان أسعد بن زرارة بناه، فكان يصلى بأصحابه فيه، ويجمّع بهم فيه الجمعة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل الذى بالحديقة وبالغَرْقَد الذى فيه أن تقطع ، وأمر باللبِن فضُرب ، وكان فى المِرْبَد قبور جاهلية فأمر بها فنُبِشَت ، وبالعظام أن تُغيَّب، وكان فى المِرْبد ماء مُسْتَنْجِل[1] فسيّروه حتى ذهب، فأسّس رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وأسسوا معه ، فجعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخّره مائة ذراع ، وفى هذين الجانبين مثل ذلك فهو مُرَبَّع ، ويقال : كان أقل من المائة، وجعلوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللّبِن ، وبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه، ويقول : " اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرين ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار " قال : وقال قائل من المسلمين يرتجز :

لَئِن قَعَدْنا والنبيُّ يعملُ * لذاك مِنّا العملُ المضَلّلُ

(١) مستنجل : مستنقع، والنجل الماء الذى يخرج من الأرض نزا .

قال : ودخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللبن فقال : يارسول الله ، قتلونى ؛ يحملون علىّ ما لا يحملون ، قالت أم سلمة : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وفرته[1] بيده ، وكان رجلا جَعْدا ، ويقول : " ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية " ، قال ابن سعد : وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبْلة المسجد إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : بابا فى مؤخره ، وبابا يقال له : باب الرحمة ، وهو الباب الذى يدعى باب عاتكة ، والباب الثالث الذى يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل طول الجدار بسطةً ، وعمده الجذوع ، وسقفه جريدا ، فقيل له : ألا تسقّفه؟ فقال : " عريش[2] كعريش موسى خشيبات وثُمام[3] الشأن أعجل من ذلك " قال : وبنى بيوتا إلى جنبه باللبن ، وسقفها بجذوع النخل والجريد ، فلما فرغ من البناء ، بنى لعائشة رضى الله عنها [فى البيت الذى يليه شارع إلى المسجد][4] على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل فقُطِع ، وبقبور المشركين فنُبِشت ، وبالخِرَب فسويت ، قال : فصفوا النخل قِبلة ، وجعلوا عِضادتيه[5] حجارة .

ذكر بناء المسجد الذى أُسّس على التقوى وهو مسجد قُباء

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى بسنده إلى سهل بن سعد وأبى غَزِيّة وأبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنهم قال : لما صُرِفت القبلة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء فقدّم جِدار المسجد إلى موضعه اليوم وأسّسه ، وقال :

(١) الوفرة : شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن . (٢) العريش : كل ما يستظل به ، سئل الحسن عن معنى " عريش موسى " فقال : إذا رفع يده بلغ العريش أى السقف ، وفى الدلائل : قيل لرسول الله إلى متى نصلى تحت هذا الجريد؟ فقال : " ما بى رغبة عن أخى موسى عريش كعريش أخى موسى " . (٣) الثمام : نبت ضعيف يسد به خصاص البيوت . (٤) الزيادة من ابن سعد ، وفى الأصل : « بنا بعائشة » وهو خطأ (راجع ابن سعد ج ١ : ق ٢ : ٢) . (٥) العضادة : جانب العتبة من الباب ، والضمير للمسجد .

"جبريل يؤمّ بى البيت"، ونقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الحجارة لبنائه.
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه كل سبت ماشيا، وقال صلى الله عليه وسلم:
"من توضأ فأسبغ الوضوء ثم جاء مسجد قباء فصلى فيه كان له أجر عُمرة"، وكان
عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأتيه يوم الاثنين ويوم الخميس، وقال: لو كان
بطَرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل. قال: وكان أبو أيوب يقول:
هذا المسجد الذى أسس على التقوى. وكان أبىّ بن كعب وغيره يقولون: بل
هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ذكر ما أصاب المهاجرين من حُمّى المدينة، ودعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم

روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: لما قدم رسول الله صلى
الله عليه وسلم المدينة قدِمها وهى أَوْبَأُ أرض الله من الحمّى؛ فأصاب أصحابه منها
بلاءٌ وسقم، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم. قالت: فكان
أبو بكر رضى الله عنه، وعامر بن فهيرة وبلال، موليا أبى بكر مع أبى بكر فى بيت
واحد فأصابتهم الحمى، فدخلتُ عليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا [الحجاب][1]
وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدّة الوعك، فدنوت من أبى بكر فقلت: كيف
تجدك يا أبتِ؟ فقال:

كلُّ امرئٍ مُصَبَّح فى أهله * والموتُ أدْنَى من شِراك نَعْلِه

قالت: فقلت والله ما يدرى أبى ما يقول، ثم دنوت إلى عامر بن فُهيرة، فقلت:
كيف تجدك ياعامر؟ فقال:

---

(١) الزيادة عن الديار بكرى ١ : ٣٥٠، ودلائل النبوة.

لقد وَجدتُ الموتَ قبلَ ذَوْقِه * إنّ الجَبانَ حَتفُه من فوقِه[1]
كلّ آمرِئٍ مُجاهد بطَوْقِه * كالثّور يحمى جِلْدَه بِرَوْقِه[2]

فقلت : والله مايدرى عامر مايقول؛ قالت : وكان بِلال إذا تركته الحمّى آضطجع بفناء البيت، ثم يرفع عقيرته[3] فيقول :

٥ ألا لَيْت شعرى هَلْ أبيتَنّ ليلةً * بفَخٍّ[4] وحَوْلِى إذْخِرٌ[5] وجَليلُ[6]
وهل أرِدَنْ يوماً مِياهَ مَجَنّةٍ[7] * وهل يَبْدُوَنْ لى شامَةٌ وطَفِيلُ[8]

قالت عائشة : فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماسمعت منهم، فقلت: إنهم ليهْذُون، وما يعقلون من شدّة الحمى . فقال : " اللهم حَبّب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشدّ، و بارك لنا فى مُدّها وصاعها، وآنقل و باءها إلى مَهْيَعَة"؛ وهى الجحفة.

١٠ ذكر مؤاخاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار

كان ذلك بعد مَقْدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ روى محمد بنْ سعد عن الزهرىّ وغيره قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحق والمواساة، يتوارثون بعد الممات دون ذوى الأرحام، وكانوا تسعين رجلا؛ خمسة

١٥ (١) الحتف : الهلاك . (٢) الروق : القرن . (٣) عقيرته : صوته .
(٤) فخ : موضع خارج مكة فيه ماء، آغتسل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم .
(٥) الإذخر : من نبات مكة طيب الرائحة . (٦) الجليل : هو الثمام .
(٧) مجنة، بكسر الميم و بفتحها وهو الأكثر : موضع أسفل مكة على أميال ، كانت تقام فيها سوق للعرب .
٢٠ (٨) شامة وطفيل : قيل هما جبلان بنواحى مكة ، وقيل هما عينان .

وأربعون من المهاجرين ، وخمسة وأربعون من الأنصار ، قال ويقال : مائة ؛ خمسون من المهاجرين ، وخمسون من الأنصار ، فلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [1] . فنسخت هذه الآية ما كان قبلها ، وانقطعت المؤاخاة فى الميراث .

ذكر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أمر بكتبه بين المهاجرين والأنصار ، وموادعة يهود ، وإقرارهم على دينهم ، وما اشترطه فيه عليهم ولهم

كان مضمون الكتاب على ما أورده ابن هشام عن ابن إسحاق : "بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي [صلى الله عليه وسلم] [2] بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رِبعتهم [3] يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم [4] بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى [5] ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها

(١) سورة الأنفال ٧٥ (٢) الزيادة من ابن هشام . (٣) ربعة كعنبة : حالة حسنة أو أمرهم الذى كانوا عليه ، وفى النهاية : « إنهم أمة واحدة على رباعتهم ، يقال : القوم على رباعتهم وربعاتهم أى على استقامتهم ، يريد أنهم على أمرهم الذى كانوا عليه » . وقوله : يتعاقلون : العقل الدية التى تجب على العاقلة ، وهى دية الخطأ ، والعاقلة : عصبة القاتل . (٤) العانى : الأسير .
(٥) معاقلهم الأولى : أى يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها ، والمعاقل الديات .

بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النّجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، [وبنو النَّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين](١) وبنو الأَوْس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحا(٢) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عَقْل ، وإنه لا يُحالِف(٣) مؤمنٌ مولَى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بَغَى منهم ، أو ابتغى دسيعة(٤) ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنا فى كافر ، ولا يَنْصر كافرا على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم مَوالى بعض دون الناس ، وإنه مَن [تَبِعنا من](٥) يهود فإن له النصر والأُسْوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سِلْم(٦) المؤمنين واحدةٌ ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله عزّ وجل إلا على سَواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غَزَت معنا يُعْقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يُبِىء(٧) بعضهم عن بعض ، بما نال دماءهم فى سبيل الله عزّ وجل ،

(١) زيادة عن ابن هشام ٢ : ١٤٨ (٢) المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال ، وفى الأصل : «مفدحا» ، وما أثبتناه عن ابن هشام . (٣) ولا يحالف : المحالفة : المؤاخاة والمعاقدة . (٤) الدسيعة : العطية ، أى طلب أن يدفعوا له عطية على سبيل الظلم .

(٥) الزيادة من ابن هشام ، وفى الأصل : «وأنه من يهود فإن له النصر» . وهذا خطأ .

(٦) السلم بالكسر ويفتح : الصلح يذكر ويؤنث .

(٧) يبىء ، هو من البواء : أى المساواة .

و إن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، و إنه لا يُجير مشركٌ مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن ، و إن من آعتبط [1] مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قَوَدٌ به ، إلا أن يرضى ولىّ المقتول ، و إن المؤمنين عليه كافّةً ، ولا يحل لهم [إلا] [2] القيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثا ولا يؤويه ، و إن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ ، و إنكم مهما آختلفتم فيه من شىء فإن مردّه إلى الله و إلى محمد [صلى الله عليه وسلم] [2] و إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، و إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظَلَم وأَثِم فإنه لا يُوتِغ [3] إلا نفسه وأهل بيته ، و إن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، و إن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، [و إن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، و إن ليهود بنى جُشَم مثل ماليهود بنى عوف] [2] ، و إن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، و إن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظَلَم وأَثِم ، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته ، و إن جَفْنَة بطن من بنى ثعلبة [كأنفسهم] [2] و إن لبنى الشُّطَيْبة مثل ماليهود بنى عوف ، و إن البِرّ دون الإثم ، و إن موالى ثعلبة كأنفسهم ، و إن بِطانة [4] يهود كأنفسهم ، و إنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، و إنه لا يُنْحَجز على ثأرِ جُرْحٍ ، و إنه من قَتَل فبنفسه [فَتَك ، وأهل بيته] [2] إلا من ظلم ، و إن الله على أَبَرِّ هذا [5] ، و إن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، و إن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، [و إن بينهم النصح والنصيحة ، والبِرّ دون الإثم ، و إنه لم يأثم آمرؤ

(١) آعتبط : قتل بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله ، والقود بفتحتين : القصاص . وفى الأصل : « قوديه » ، وهو تصحيف ، وما أثبتناه عن آبن هشام .

(٢) الزيادة من آبن هشام .

(٣) يوتغ : يهلك .

(٤) بطانة الرجل : خاصته وأهل بيته .

(٥) على أبر هذا : أى على الرضا به .

بحليفه ، و إن النصر للظلوم ، و إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، و إن يثرب حرام جوفها لأهل هـذه الصحيفة[1]] ، و إن الجـار كالنفس غير مُضَارّ ولا آثم ، و إنه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها ، و إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو آشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله و إلى محمد رسـول الله ، و إن الله على أتق ما فى هذه الصحيفة وأبرّه ، و إنه لاتجار قريش ولا من نصرها ، و إن بينهم النصر على من دهم يثربَ . و إذا دعوا إلى صلح يصالحونه و يلبسونه ، فإنهم يصالحونه و يلبسونه ، و إنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل أُناس[2] حِصّتهم من جانبهم الذى قِبَلهم ، و إن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثـل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البِرّ المحْض من أهل هذه الصحيفة — ويقال مع البر المحسن — و إن البِرّ دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفســه ، و إن الله على أصدق ما فى هــذه الصحيفة وأبرّه ، و إنه لا يحول هـذا الكتاب دون ظالم ولا آثم ، و إنه من خرج آمِنٌ ، ومن قعـد آمِنٌ بالمدينة إلا من ظَلَم وأَثِم ، و إن الله جارٌ لمن بَرّ واتّقى ومحمد رسول الله " .

ذكر أخبار المنافقين من الأوس والخزرج وما أُنزل فيهم من القرآن

وقد رأيت أن أجمـع ما فرقه أهل السير من أخبار المنـافقين ، وأضم بعضه إلى بعض ، وأورده جملة واحدة ، فإن ذلك لم يكن فى وقت واحد ولا فى سـنة بعينها ، بل أورده أهل السير بحسب ما وقع ، وفرقوه فى الغزوات وغيرها ، فآثرت جمعه فى هذا الموضع ، وما كان قد وقع فى غزاة أو حادثة نبهت عليه فى موضعه على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة عن ابن هشام . (٢) فى الأصل : « إنسان » والمثبت عن ابن هشام .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : كان رجال من الأوس والخزرج ممن أسلم وهو على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعثة، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره، واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جُنّة من القتل ، ونافقوا فى السر ، وكان هواهم مع يهود ؛ لتكذيبهم و جحودهم الإسلام ؛ فكان منهم من الأوس من بنى عمرو بن عوف، ثم من بنى لَوْذان بن عمرو بن عوف : زُوَىّ بن الحارث ، ومن بنى حُبَيْب بن عمرو : جُلَاس بن سُوَيْد بن صامت ؛ وأخوه الحارث بن سويد ، قال : وجُلَاس هو الذى قال عند تخلفه عن غزوة تبوك : لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شرّ من الحمير ، فرفع ذلك من قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عُمَيْر بن سعد ، وكان فى حجر جُلَاس خلف على أمه بعد أبيه ، فلما تكلم جُلَاس بهذا قال له عمير : والله يا جلاس ، إنك لأحبّ الناس إلىّ ، وأحسنهم عندى يدا ، وأعزّهم علىّ أن يصيبه شىء يكرهه ، ولقد قلتَ مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنّك ، ولئن صمتُّ عليها ليهلكن دينى ، ولإحداهما أيسر علىّ من الأخرى ، ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال ، فحلف جلاس لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالله لقد كذب علىّ عمير ، وما قلت ما قال ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١) ، قال ابن إسحاق : فزعموا أنه تاب فحسنت توبته حتى عرف منه الإسلام والخير . والله أعلم بالصواب .

(١) سورة التوبة ٧٤

وأما أخوه الحارث بن سُوَيد فإنه قتل المجذَّر بن ذياد البَلَوِيّ في يوم أُحُد ولحق بقريش ، وكان المجذَّر قتل سُوَيد بن صامت في بعض الحروب التي كانت بين الاوس والخزرج ، فلما كان يوم أحد قتله بأبيه . قال ابن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما يذكرون — أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتله إن هو ظفر به ففاته ، وكان بمكة ثم بعث إلى أخيه جُلَاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه ، فأنزل الله فيه — فيما حُكِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(١) إلى آخر القصة . وكان من المنافقين من بني ضُبيعة ابن يزيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بجاد بن عثمان بن عامر . ونَبْتَل ابن الحارث ، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى : "من أحبّ أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث" ، وكان رجلا جسيما أدلم(٢) ، ثائر شعر الرأس ، أحمر العينين ، أسفع(٣) الخدين ، وكان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتحدث إليه ويسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذي قال : إنما محمد أُذُنٌ ، من حدثه شيئا صدقه . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٤) ، وأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم به وبصفته فيما حكاه ابن إسحاق . وأبو حَبِيبة بن الأزعر ، وكان ممن بني مسجد الضِّرار . وثعلبة بن حاطب ، ومُعَتِّب بن قُشَير ، وهما اللذان عاهدا الله ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٥) ، ومُعتِّب هو الذي

(١) سورة آل عمران ٨٦ (٢) الأدلم : الأسود الطويل . (٣) السفع : اسوداد مشرب بحمرة . (٤) سورة التوبة : ٦١ (٥) سورة التوبة : ٧٥

قال يوم أحد : لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتلنا ها هنا ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قوله : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾[1] إلى آخر القصة . وهو الذى قال يوم الأحزاب : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط ، فأنزل الله فيه : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2] . والحارث بن حاطب — وقال ابن هشام : ثعلبة والحارث ابنا حاطب ، هما من بنى أمية بن زيد من أهل بدر ، وليسا من المنافقين — والله أعلم . ومنهم عبّاد بن حُنَيف أخو سهل ، وبَحْزَج ، وهو ممن بنى مسجد الضِّرار ، وعمرو بن خِذام ، وعبد الله بن نَبْتَل ، وجارية بن عامر ابن العَطّاف وابناه زيد ومُجَمِّع ، وهم ممن بنى مسجد الضِّرار . وكان مُجَمِّع غلاما حَدَثا قد جمع من القرآن أكثره ، فكان يصلى بهم فيه ، فلما كان فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه كُلِّم عمر فى مُجَمِّع ليصلى ببنى عمرو بن عوف فى مسجدهم ، فقال عمر : لا ، أو ليس بإمام المنافقين فى مسجد الضِّرار ! فقال : يا أمير المؤمنين والله الذى لا إله إلا هو ما علمت بشىء من أمرهم إلا على أحسن ما ذكروا ؛ فزعموا أن عمر تركه يصلى بقومه . ومن بنى أمية بن زيد بن مالك وديعة بن ثابت وهو ممن بنى مسجد الضِّرار ، وهو الذى قال : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيه وفيمن قال بقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾[3] إلى آخر القصة .

ومن بنى عُبَيْد بن زيد بن مالك خِذام بن خالد ، وهو الذى أخرج مسجدُ الضِّرار من داره ، وبِشْر ورافع ابنا زيد . ومن بنى النَّبيت مِرْبَع بن قَيْظِىّ وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجاز حائطه ، ورسول الله

(١) سورة آل عمران : ١٥٤ (٢) سورة الأحزاب : ١٢ (٣) سورة التوبة ٦٥ .

صلى الله عليه وسلم عامدٌ إلى أُحُد : لا أُحِلّ لك يا محمد إن كنت نبيًّا أن تمرّ بحائطى ، وأخذ فى يده حَفْنــة من تراب ثم قال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بهــذا التراب غيرك لرميتك به ؛ فابتــدره القوم ليقتلوه، فقال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "دعوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصيرة"، وضربه سعد بن زيد بالقوس فشجّه ؛ وأخوه أَوْس بن قَيْظى، وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق : إن بيوتنا عَوْرَةٌ، فأْذَنْ لنا أن نرجع إليها، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (١) . ومن بنى ظَفَر — وآسم ظفر كعب — حاطب بن أمية بن رافع، وبُشَيْر بن أُبَيْرِق، وهو أبو طُعْمَة سارق الدِّرْعَيْن الذى أنزل الله فيه : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (٢) . وقُزْمَان حليفٌ لهم . قال آبن إسحاق بسنده : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : "إنه لمن أهل النار"، فلما كان يوم أُحُد قاتل قتالا شديدا حتى قتل تسعة من المشركين، وأثْبَتَتْه الجراحة، فحمل إلى دار بنى ظَفَر، فقال له رجال من المسلمين : أَبْشِر يا قُزْمَانُ، فقد أَبْلَيْت اليوم، وقد أصابك ما ترى فى الله، قال : بمــاذا أُبَشَّر، والله ما قاتلت إلا حَمِيَّة عن قومى، فلما آشتدّت به جراحه أخذ سهما من كنانته، فقطع به رَوَاهِش يده فقتل نفسه . قال آبن إسحاق : ولم يكن فى بنى عبد الأَشْهَل منافقٌ ولا منافقة إلا أن الضحاك بن ثابت أحد بنى كعب رهط ســعد بن زيد قد كان يُتّهم بالنفاق وحُبِّ يهود . قال ابن إسحاق : وكان جُلَاس ابن سُوَيْد قبل توبته، ومعتب بن قُشَيْر، ورافع بن زيد، وبِشْرٌ، هم الذين دعاهم رجالٌ من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعوهم إلى حُكّام الجاهلية فأنزل الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ

(١) سورة الأحزاب ١٣ . (٢) سورة النساء ١٠٧

أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (١) ﴾ إلى آخر القصة . فهؤلاء الذين ذكرناهم من الأوس .

ومن الخزرج من بنى النجار رافع بن وَدِيعة ، وزيد بن عمرو ، وعمرو ابن قيس، وقيس بن عمرو بن سهل . ومن بنى جُشَم بن الخزرج الجَدّ بن قيس ، وهو الذى يقول : يا محمد ائذن لى ولا تَفْتِنِّى ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٢) ﴾ ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال له وهو فى جهازه إلى تبوك : " يا جَدّ ، هل لك العامَ فى جلاد بنى الأصفر " ؟ قال : يا رسول الله ، أو تأذن لى ولا تَفْتِنِّى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رَجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " أذنت لك "، فأنزل الله تعالى فيه ما أنزل . ومن بنى عوف بن الخزرج عبد الله بن أبىّ بن سَلُول، وكان رأس المنافقين وكانوا يجتمعون إليه . قال محمد بن إسحاق : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وسيد أهلها عبد الله بن أُبىّ بن سَلُول ، لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين — حتى جاء الإسلام — غيره ؛ قال : ومعه رجل من الأوس هو فى قومه شريف مطاع ، وهو أبو عامر عبد الله ابن عمرو بن صَيْفِىّ بن النعمان ، أحد بنى ضُبَيْعة بن زيد ، وهو أخو حنظلة الغَسيل (٣) وكان قد ترهّب فى الجاهلية ولبس المُسُوح ، وكان يقال له : الراهب ، فشقيا بشرفهما .

(١) سورة النساء ٦٠ (٢) سورة التوبة ٤٩

(٣) سمى الغسيل لأن الملائكة غسلته ؛ وذلك أنه خرج جنبا حين سمع الصيحة يوم أحد فمات وهو يقاتل فى سبيل الله ، فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الملائكة تغسله .

فاما عبد الله بن أُبَىّ فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملّكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضَغِن ، ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آستلبه مُلْكا ، فلما رأى قومَه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مُصِرًّا على نفاق . وقد روى عن [أسامة ابن زيد](1) بن حارثة قال : ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عُبادة يعوده من شكوى أصابته ، على حمار عليه إكَافٌ فوقه قَطِيفة فَدَكِيّة مختطمة بحبل من ليف ، وأردفنى صلى الله عليه وسلم خلفه ، قال : فمر بعبد الله بن أُبَىّ بن سلول ، وهو فى ظلّ مُزاحِمٍ أُطُمِه(2) ، وحوله رجال من قومه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تَذَمَّم(3) من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلّم ثم جلس فتلا القرآن ، ودعا إلى الله عزّ وجل ، وذكّر بالله وحذّر وبشّر وأنذر ، قال : وهو زامّ(4) لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته ، قال : ياهذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقّا ، فآجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدّثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تَغُتّه به ، ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه . فقال عبد الله بن رَوَاحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى فآغْشنا به وأتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله ما نحبّ ، وما أكرمنا الله به وهدانا له ، فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يَكُنْ مولاك خَصْمك لم تَزَلْ * تَذِلّ ويَصْرَعْك الذين تُصارِعُ
وهل يَنْهَضُ البازِى بغير جَناحِه * وإنْ جُذّ يومًا رِيشُه فهو وَاقعُ

قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عُبادة وفى وجهه ما قال عدوّ الله ، فقال سعد : والله يارسول الله ، إنى لأرى فى وجهك شيئا ، لكأنك

(1) الزيادة من ابن هشام . (2) مزاحم : اسم الأطم . والأطم : الحصن .
(3) تذمم : آستنكف . (4) زام : رافع رأسه لا يقبل عليه كبرا .

سمعت شيئا تكرهه . قال: "أجل"، ثم أخبره بما قال آبن أُبيّ، فقال: يارسول الله آرفُق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، و إنا لننظم له الخَرَز لنتوّجه، فإنه ليرى أنك قد سلبته مُلكا. وكانت مقالة عبد الله بن أبيّ هذه قبل تلفظه بالإسلام، وسنورد إن شاء الله تعالى من أخباره فى الغزوات، وآنحيازه عن المسلمين بثُلُث الناس يوم أُحُد، وما قاله فى غزوة المرَيْسيع وغيرها ما تقف عليه فى مواضعه، مما تستدل به على صحة نفاقه، وإصراره فى الباطن على كفره. وأما أبو عامر فإنه أبى إلا الإصرار على كفره، وفارق قومه حين آجتمعوا على الإسلام، فخرج إلى مكة ببضعة عشر رجلا، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق، وهو أوّل من أنشب الحرب يوم أُحُد على ما نذكره إن شاء الله تعالى. قال: وكان أبو عامر قد أتى النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال: ماهذا الذى جئت به؟ قال: "جئت بالحنيفية دين إبراهيم"، قال: فأنا عليها، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنك لست عليها"، قال: بلى، إنك أدخلت يامحمد فى الحنيفية ماليس منها، قال: "ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية"، قال: الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا — يعرِّض برسول الله صلى الله عليه وسلم: أى إنك ما جئت بها كذلك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أجَلْ، فمن كذب يفعل الله به ذلك"، فكان هو ذاك، خرج إلى مكة، فلما آفتتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، فمات به طريدا غريبا وحيدا.

ومن المنافقين من أحبار يهود

ممن تعوّذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق: سعد آبن حُنَيف، وزيد بن اللُّصَيت، ونُعمان بن أوْفَى[1]، وعثمان بن أبى أوفى. وزيد

(١) سيأتى للؤلف أنه آبن أبى أوفى.

آبن اللُّصَيْت هو الذى قاتل عمر بن الخطاب بسوق بنى قَيْنُقاع، وهو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، ولا يدرى أين ناقته ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وجاءه الخبر بما قال ودلّه الله عليها — : " إن فلانا قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدرى أين ناقته ، و إنى والله لا آتيكم إلا ماعلمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى هذا الشِّعْب ، قد حبستها شجرة بزمامها" ، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما وصف . ومنهم رافع بن حُرَيْمِلة وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات : " قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين " . ورفاعة [بن زيد][1] بن التابوت، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هبت ريح وهو قافل من غزوة بنى المصطلق وآشتدت ، حتى أشفق منها المسلمون : "لا تخافوا، فإنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار"، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وجد رفاعة بن زيد مات ذلك اليومَ الذى هبت فيه الريح . وسِلْسِلَة بن بِرْهَام، وكِنَانة بن صُوريا .

وكان هؤلاء يحضرون المسجد يسمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون منهم، ويستهزئون بدينهم . قال آبن إسحاق : فآجتمع يوما منهم فى المسجد ناس، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدّثون بينهم بأقصى أصواتهم[2]، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا، فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس احد بنى النجار — وكان صاحب آلهتهم فى الجاهلية — فأخذ برجله يسحبه حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول : أتخرجنى يا أبا أيوب من مِرْبَد بنى ثعلبة ! ثم أقبل أبو أيوب أيضا إلى رافع بن وَدِيعَة أحد بنى النجار فلبّبه

(١) الزيادة من آبن هشام . (٢) فى آبن هشام : « خافضى أصواتهم » .

بردائه ، ثم نتره نترا شديدا[1] ، ولطم وجهه وأخرجه ، وهو يقول : أُفٍّ لك منافقا خبيثا ! أدراجَك[2] يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام عُمارة ابن حَزْم إلى زيد بن عمرو — وكان رجلا طويل اللحية — فأخذ بلحيته فقاده بها قَوْدا عنيفا حتى أخرجه ، ثم جمع عُمارة يديه فلَدَمه[3] بهما في صدره لدمة خرَّ منها ، فقال : خدَشْتَنِي يا عُمارة ، قال : أبعدك الله يا منافق ، فما أعدّ الله لك من العذاب أشدّ من ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام أبو محمد مسعود ابن أَوْس من بني النجار إلى قيس بن عمرو بن سهل ، وكان قيس غلاما شابا ولا يُعلم في المنافقين شاب غيره ، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه . وقام عبد الله ابن الحارث من بَلْخُدْرة[4] رهط أبي سعيد الخدري إلى الحارث بن عمرو ، وكان ذا جُمّة ، فأخذ بجُمّته فسحبه بها سحبا عنيفا على ما مرّ به من الأرض حتى أخرجه ، فقال له : لقد أغلظت يابن الحارث ، فقال له : إنك أهل لذلك — أي عدوّ الله — لما أنزل فيك ، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنك نجس . وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَيّ بن الحارث فأخرجه إخراجا عنيفا ، وأفّف[5] منه ، وقال : غلب عليك الشيطانُ وأمرُه

قال : فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين ؛ وفي هؤلاء من المنافقين ، وفي أحبار يهود أنزل الله تعالى صدر سورة البقرة إلى المائة منها ؛ والله أعلم .

فالذي منها مما يختص بالمنافقين قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[6] إلى قوله : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[7] . وقوله :

(١) نتره : جذبه . (٢) أدراجك : أي ارجع من الطريق التي جئت منها .

(٣) اللدم : الضرب ببطن الكف . (٤) بلخدرة : يريد بني الخدرة .

(٥) أفف منه : أي قال له أف . (٦) سورة البقرة ٨ (٧) سورة البقرة ١٥

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾[(١)] أى شك فزادهم الله شكا. وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[(٢)] لأنهم كانوا يقولون : إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب . وقوله : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ أى من تهود ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى على مثل ما أنتم عليه ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾[(٣)] أى إنما نستهزئ بالقوم ونلعب بهم . ثم ضرب الله لهم مثلا فقال : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾[(٤)] الآية ؛ أى يبصرون الحقّ ويقولون به ، حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفئوه بكفرهم ونفاقهم فيه ، فتركهم الله فى ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى ، ولا يستقيمون على حق . ثم قال تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[(٥)] أى عن الخير ، لا يرجعون إلى هدى . وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾[(٦)] الصيّب : المطر . قال ابن إسحاق : أى هم من ظلمة ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل ، على الذى هم عليه من الخلاف والتخوف لكم ، على مثل ما وُصف ، من الذى هو فى ظلمة الصيّب ، يجعل أصابعه فى أذنيه من الصواعق حذر الموت . ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى منزل ذلك بهم من النقمة . وقوله : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ أى لشدة ضوء الحقّ ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ أى يعرفون الحقّ ويتكلمون به ، فهم من قولهم على استقامة ، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾[(٧)] أى لما تركوا الحقّ بعد معرفته . والله تعالى أعلم بالصواب .

(١) سورة البقرة ١٠ (٢) سورة البقرة ١٣ (٣) سورة البقرة ١٤
(٤) سورة البقرة ١٧ (٥) سورة البقرة ١٨ (٦) سورة البقرة ١٩
(٧) سورة البقرة ٢٠

وحيث ذكرنا ما ذكرنا من أخبار المنافقين ، فلنذكر أخبار يهود ، ونجمع ما تفرق منها على نحو ما تقدّم .

ذكر شيء من أخبار يهود الذين نصبوا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل فيهم من القرآن

قال : لما أظهر الله تعالى دينه ، وآطمأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ٥
آجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار ، وآستحكم أمر الإسلام ، نصبت أحبار يهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا ، مع تحققهم نبوته ، وصحة رسالته ، وأنه الذى نص الله تعالى عليه فى التوراة ؛ فكانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعنّتونه ، وهم من بنى النضير : حُيَيّ بن أخطب ، وأخواه أبو ياسر وحُدَيّ ، وسلام بن مِشْكَم ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحُقَيْق ، والربيع ١٠
آبن الربيع بن أبى الحقيق ، وعمرو بن جِحَاش ، وكعب بن الأشرف ، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، وكَرْدَم بن قيس حليفه أيضا . ومن بنى ثعلبة بن الفِطْيَوْن[1] — ويقال فيه الفِطْيَوس — عبد الله بن صُورِيا الأعور ، وهو أعلم أهل زمانه بالحجاز بالتوراة ، وآبن صَلُوبا ، ومُخَيْرِيق ، وكان حبرهم . ومن بنى قَيْنُقاع : زيد بن الصُّلَيْت — ويقال فيه اللُّصَيْت — وسعد بن حُنَيف ، ومحمود بن سَيْحان ، وعُزَيْز ١٥
آبن أبى عُزَيْز ، وعبد الله بن صَيْف — ويقال ابن ضَيف — وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفِنْحاص ، وأَشْيَع ، ونُعمان بن أضا ، وبحرىّ بن عمرو ، وشاس ابن عدىّ بن قيس ، وزيد بن الحارث ، ونُعمان بن عمرو ، وسُكَيْن بن أبى سُكَيْن ، وعَدىّ بن زيد ، ونعمان بن أبى أوفى ، أبو أنس ، ومحمود بن دَحْية ، ومالك بن صَيْف ، وكعب بن راشد ، وعازر ، ورافع بن أبى رافع ، وخالد ، وأزار بن ٢٠

(١) الفطيون : كلمة عبرانية ، وهى عبارة عن كل من ولى أمر اليهود وملكهم .

أبى أزار — ويقال فيه : آزر بن أبى آزر — ورافع بن حارثة ، ورافع بن خارجة ، ومالك بن عوف ، ورفاعة بن زيد ، وعبد الله بن سَلَام بن الحارث ؛ وكان حبرهم وأعلمهم ، وكان اسمه الحُصَيْن ، فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

١٢٩ / ١٤

٥ ومن بنى قريظة الزبير بن باطا بن وهب ، وعَزّال بن شَمْوَال ، وكعب ابن أسد . وشَمْوِيل بن زيد ، وجبل بن عمرو ، والنّحام بن زيد ، وقَرْدَم بن كعب ، ووهب بن زيد ، ونافع بن أبى نافع ، وأبو نافع ، وعدىّ بن زيد ، والحارث بن عوف ، وكَرْدَم بن زيد ، وأسامة بن حبيب ، ورافع بن رُمَيْلة ، وجبل بن أبى قُشَيْر ، ووهب بن يهوذا .

١٠ ومن يهود بنى زُرَيْق لَبِيد بن أعْصَم الساحر . ومن يهود بنى الحارثة : كنانة ابن صُورِيا . ومن يهود بنى عمرو بن عوف قَرْدَم بن عمرو . ومن يهود بنى النجار : سِلسِلة بن بَرْهام ؛ هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العداوة لله تعالى ولرسوله ، لم يستثن منهم إلا عبد الله بن سَلَام ومُخَيْرِيق ، فإنهما أسلما . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع .

ذكر إسلام عبد الله بن سلام(١) ، ومخيريق

١٥ أمّا عبد الله بن سلام فإنه كان عالما حبرا من أحبار يهود ؛ حكى محمد بن إسحاق عن خبر إسلامه رواية عن بعض أهله عنه قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته و إسلامه وزمانه الذى كنا نتوكّف(٢) له ، فكنت مُسِرًّا لذلك صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ،

(١) يلاحظ أنه لا يوجد من اسمه سلام بالتخفيف فى المسلمين ، سلام بالتخفيف فى اليهود . وراجع (الروض الأنف ٢ : ٢٥) .

(٢) نتوكف له : أى ننتظر وقوعه .

فلما نزل بقُباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجلٌ حتى أخبر بقدومه، وأنا على رأس نخلة أعمــل فيها ، وعمتى خلدة[1] بنت الحــارث تحتى جالسةٌ ، فلمــا سمعتُ الخبر كَبَّرتُ ؛ فقالت عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبــك الله ! والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادما ما زدت . قال : قلت لهــا : أى عمــة ، هو والله أخو موسى بن عمرانــ وعلى دينه، بُعث بمــا بُعث به؛ قالت : أى ٱبن أخى، هذا النبى الذى كنا نخبر به أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قلتُ نعم؛ قالت : فذاك إذاً؛ قال : ثم خرجتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ؛ فلما رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رســول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رســول الله، إنّ يهــود قومٌ بُهتٌ[2] ، وإنى أحبّ أن تدخلنى بعض بيوتك فتغيّبنى عنهم، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبــل أن يعلموا بإســلامى، فإنهم إن علموا به بهتونى ؛ قال : فأدخلنى رســول الله صلى الله عليه وسلم بعض بيوته ، ودخلوا عليــه فكلموه وساءلوه ثم قال لهم : "أىّ رجل الحصين بن سَلَام فيكم" ؟ فقالوا : سيدنا وٱبن سيدنا وعالمنا؛ فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود ، ٱتقوا الله وٱقبــلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله، وأومن به، وأصدقه وأعرفه؛ فقالوا : كذبت، ثم وقعوا بى، فقلت لرسول الله صــلى الله عليه وســلم : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهتٌ، أهــل غدر وكذب وفجور ؛ ؟ قال : وأظهرت إســلامى وإسلام أهــل بيتى ، وأسلمت عمتى خلدة بنت الحارث فحسن إسلامها .

(١) ويقال : «خالدة» . (٢) بهت : جمع بهوت ، والبهوت : المباهت مبالغة فى ٱسم الفاعل ، من البهتان وهو الكذب (راجع نهاية ابن الأثير) .

وأمّا مُخَيْريق — قال ابن إسحاق : كان حبرا عالما، وكان غنيا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد فى علمه ، وغلب عليه إلْف دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أُحُد وهو يوم السبت، قال : يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أنّ نصر محمد عليكم لحقّ؛ قالوا : إنّ اليوم يوم السبت، قال : لا سَبت لكم ، ثم أخـذ سلاحه فخرج حتى أتى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وأصحابه بأُحُد ، وعهـد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت فى هـذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع فيها ما أراه الله ؛ فلما اقتتل النـاس قاتل حتى قُتِل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى يقول : "مُخَيْريق خير يهود" ، وقَبَض رسـول الله صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامّة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها .

* * *

قال : وكان مما أنزل الله تعالى فى أمر اليهود صدرا من سورة البقرة، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] أى إنهم قد كفروا بمـا عندك من ذكرٍ لهم ، وجحدوا ما أُخذ عليهم من الميثاق لك ، فقد كفروا بمـا جاءك ، وبما عندهم ممـا جاءهم به غيرك ، فكيف يستمعون منك إنذارا أو تحذيرا !

وقـوله : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ أى عن الهدى لن يصيبوه أبدا، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2] أى بمـا هم عليه من خلافك .

وقوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

(١) سورة البقرة ٦ (٢) سورة البقرة ٧

وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [1] ﴾ ، أى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به ، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم .

ثم قال الله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [2] ﴾ أى تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من التوراة ، وتتركون أنفسكم ، وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسولى ، وتنقضون ميثاقى ، وتجحدون ما تعلمون من كتابى . [ثم] [3] عدد عليهم أحداثهم فيما سلف ، فذكر لهم العجل ، وقولهم لموسى : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً [4] ﴾ وصعقتهم عند ذلك ، ثم إحياء الله لهم وإظلالهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المنّ والسلوى ، وقوله لهم : ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ [5] ﴾ أى قولوا ما آمركم به أحطّ به ذنوبكم عنكم ؛ وتبديلهم ذلك ، إلى ما ذكره الله تعالى من أخبارهم مع موسى .

ثم قال الله تعالى والخطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم ولمن معه من المؤمنين : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [6] ﴾ قال الفريق الذى أخبر الله عنهم أنهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه ؛ وهم الذين قالوا لموسى صلى الله عليه وسلم : ياموسى ، قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا ، فأسمعنا كلامه حين يكلمك ، فطلب موسى ذلك من ربه لهم ، فقال تعالى : مرهم فليتطهّروا وليطهّروا ثيابهم ويصوموا ، ففعلوا ، ثم خرج بهم حتى أتى الطور ، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى فوقعوا سُجودا وكلمه ربه ، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم ، حتى عقلوا ما سمعوا ، ثم انصرف بهم موسى إلى بنى إسرائيل ، فلما جاءهم حرّف فريق ممن سمع ما أمرهم به ، وقالوا

(١) سورة البقرة ٤٠ — ٤٢ (٢) سورة البقرة ٤٤ (٣) الزيادة من ابن هشام .
(٤) سورة النساء ١٥٣ (٥) سورة البقرة ٥٨ (٦) سورة البقرة ٧٥

حين قال موسى لبنى إسرائيل : إنّ الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق : إنما قال كذا وكذا خلافا لما قال الله تعالى لهم، فهم الذين عنى الله تعالى . ثم قال : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ (١) أى بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدّثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) أى تقرون بأنه نبىّ، وهو يخبرهم أنه النبىّ الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا، اجحدوه فلا تُقرُّوا لهم به، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٣) أى إلا تلاوة ، والأمّىّ هو الذى يقرأ ولا يكتب ، معناه أنهم لا يعلمون الكتاب فلا يدرون ما فيه، فهم يجحدون نبوّتك بالظن . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) قال ابن عباس رضى الله عنهما : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يعذّب الله تعالى الناس فى النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا فى النار من أيام الآخرة، وإنما هى سبعة أيام، ثم ينقطع العذاب، فأنزل الله تعالى ذلك، ثم قال : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ أى من عمل مثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كفره بما له من حسنة ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٥) . ثم قال تعالى يذمّهم : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ

(١) سورة البقرة ١٤ (٢) سورة البقرة ٧٦ (٣) سورة البقرة ٧٧، ٧٨

(٤) سورة البقرة ٨٠ (٥) سورة البقرة ٨١ .

بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ[1] ﴾ أى تركتم ذلك كله . ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ[2] ﴾ . قال ابن إسحاق : أقررتم على أن هـذا حق من ميثاق عليكم ، ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ[3] ﴾ ، أى أهل الشرك ، حتى يسفكوا دماءهم معهم ، ويُخرِجوهم من ديارهم معهم ، ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ﴾ وقد عرفتم أن ذلك عليكم فى دينكم ، ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ أى أتفادونهم مؤمنين بذلك وتخرجونهم كفارا بذلك ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[4] ﴾ فأنبهم بذلك من فعلهم ، وقد حرّم عليهم فى التوراة سفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فداء أسرائهم فكانوا فريقين ، منهم بنو قَيْنُقاع ولَفُّهم[5] حلفاء الخزرج ، والنّضير وقُريظة ، ولَفُّهم حلفاء الأوس ، وكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قَيْنقاع مع الخزرج ، وخرجت بنو النّضير وقُريظة مع الأوس يظاهر كلّ واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يتسافكوا دماءهم بينهم ، وبأيديهم

(١) سورة البقرة ٨٣ . (٢) سورة البقرة ٨٤ . (٣) سورة البقرة ٨٥ .
(٤) سورة البقرة ٨٥، ٨٦ (٥) لفهم ، أى من عدّ فيهم .

التوراة يعرفون منها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، لا يعرفون جنة ولا نارا، ولا بعثا ولا قيامة، ولا كتابا، ولا حلالا ولا حراما، فإذا وضعت الحرب [أوزارها](١) افتدوا أساراهم تصديقا لما فى التوراة وأخذا به، يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدى الأوس، [و](٢) يفتدى بنو النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم، ويطلون(٣) ما أصابوا من الدماء، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم؛ يقول الله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾(٤) أى تفاديه بحكم التوراة وتقتله، وفى حكم التوراة: ألا تفعل: [تقتله](٥)، وتخرجه من داره، وتظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان ابتغاء عرض الدنيا. ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أى الآيات التى كانت له من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، والخبر بكثير من الغيوب مما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم، ثم ذكر كفرهم بذلك كله، فقال : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾(٦) ثم قال : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٧)؛ وذلك أنهم كانوا يقولون للأنصار لما كانوا على جاهليتهم : إن نبيا يبعث الآن قد أظل زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم اتبعه الأنصار

---

(١) تكملة من ابن هشام. (٢) تكملة عن ابن هشام.
(٣) فى الأصل : «ويطلبون»؛ والصواب ما أثبتناه عن ابن هشام. ويطلون هنا : يبطلون.
(٤) البقرة ٨٥ (٥) تكملة عن ابن هشام. (٦) البقرة ٨٧
(٧) البقرة ٨٨، ٨٩

وكفر به يهود ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾، ثم قال : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١) ، غضب الله عليهم فيما صنعوا من مخالفتهم حكم التوراة ، وغضب عليهم بكفرهم بهذا النبيّ الذى أُرسل إليهم ، ثم أنّبهم برفع الطور ، وآتخاذ العجل إلها من دون الله ؛ ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) أى آدعوا بالموت على أىّ الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك ، فأعلمهم أنهم لم يتمنوه فقال : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٣) أى بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك ، فيقال : لو تمنوه يومَ قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودىّ إلا مات ، ثم ذكر رغبتهم فى الحياة فقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ (٤) أى ماهو بمُنْجيه ؛ وذلك أنّ المشرك لا يرجو بعثا بعد الموت ، فهو يحب طول الحياة ، وأنّ اليهودىّ قد عرف ماله فى الآخرة من الخزى بما صنع فيما عنده من العلم . وآلله تعالى الهادى للصواب ، وإليه المرجع والمآب .

ذكر سؤال أحبار يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم وآشتراطهم على أنفسهم أنه إن أجابهم عما سألوه آمنوا به ، ورجوعهم عن الشرط

١٣٢ / ١٤

وذلك أنّ نفرا من أحبار يهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن أربع نسألك عنهنّ ، فإن فعلت آتبعناك وصدّقناك وآمنا بك ؛ فقال : "عليكم بهذا عهد الله وميثاقه إن أخبرتكم بذلك لتصدّقُنّنى" ؟ قالوا : نعم ؛

(١) سورة البقرة ٩٠ (٢) سورة البقرة ٩٤ (٣) سورة البقرة ٩٥ (٤) سورة البقرة ٩٦

قال : "فآسألوا عما بدا لكم" قالوا : أخبرنا كيف يُشْبه الولد أمّه، وإنما النطفة من الرجل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَنْشُدُكم بالله وبأيّامه عند بنى إسرائيل هل تعرفون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتهما علت صاحبتها كان لها الشبه" ؟ قالوا : اللهم نعم، قالوا : فأخبرنا كيف نومك ؟ قال : "أَنْشُدكم بالله وبأيّامه عند بنى إسرائيل،هل تعلمون أن نوم الذى تزعمون أنى لست به تنام عينه وقلبه يقظان" ؟ [قالوا[1] : اللهم نعم ، قال : "فكذلك نومى، تنام عينى وقلبى يقظان"] قالوا : فأخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه ؟ قال: "أَنْشُدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل،هل تعلمون أنه كان أحبّ الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها ، وأنه آشتكى شكوى فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحبّ الطعام والشراب إليه شكرا لله تعالى ، فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها" ؟ قالوا : اللهم نعم، قالوا : فأخبرنا عن الرُّوح ؟ قال : "أَنْشُدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل، هل تعلمونه جبريل، وهو الذى يأتينى"؟ قالوا : اللهم نعم ، ولكنه يا محمد ، لنا عدوّ، وهو ملَك، إنما يأتى بالشدّة وبسفك الدماء، ولولا ذلك لآتبعناك ، فأنزل الله فيهم : (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ . وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ . أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَآتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ

(١) الزيادة من آبن هشام

النّاسَ السِّحْرَ ﴾ وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما ذكر سليمان فى المرسلين قال بعض أحبار يهود : ألا تعجبون من محمد ! يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا، ووالله ما كان إلا ساحرا، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ أى بأتباعهم السحر وعملهم به، ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾[1]، قال ابن إسحاق : وحدثنى من لا أتهم عن عكرمة، عن ابن ٥ عباس أنه كان يقول : الذى حرم إسرائيل على نفسه : زائدتا الكبد، والكليتان، والشحم، إلا ما على الظهر، فإن ذلك كان يقرّب للقربان فتأكله النار . والله أعلم بالصواب .

ذكر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه إلى يهود خيبر ١٠

عن ابن عباس رضى الله عنهما : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه ، المصدّق بما جاء به موسى، ألا إنّ الله قد قال لكم : يامعشر أهل التوراة — وإنكم تجدون ذلك فى كتابكم : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ ١٥ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2]؛ وإنّى أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذى أطعم مَنْ كان قبلكم من أسباطكم المنّ والسلوى، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى

١٣٣/١٤

(١) سورة البقرة من ٩٧ — ١٠٢ (٢) سورة الفتح ٢٩

٢٠

أنجاهم من فرعون وعمله إلا اخبرتمونا هل تجدون فيما أنزل عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم؛ ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(١) فأدعوكم إلى الله و إلى نبيه " .

ذكر ما قاله أحبار يهود فى قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴾ ، و﴿ الٓمٓصٓ ﴾ و﴿ الٓر ﴾ ، و﴿ الٓمٓر ﴾

٥

حكى محمد بن إسحاق أنّ أبا ياسر(٢) بن أخطب مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو: ﴿الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(٣)، فأتى أخاه حُيَيّ بن أخطب فى رجال من يهود. فقال : تعلّموا ، والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه :﴿الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾، فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم، فمشى حُيَيّ فى أولئك النفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : يامحمد، ألم تذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك: ﴿الٓمٓ﴾؟ فقال : "بلى"، قالوا : أجاءك بها جبريل من عند الله؟ قال : "نعم"، فقالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ، ما نعلمه بيّن لنبيّ منهم ما مدّة ملكه ، وما أُكل أمتــه غيرك . فأقبل حُيَيّ بن أخطب على من معــه ، فقال لهم : الألِف واحدة، واللام ثلاثون ، والميم أربعون؛ فهذه إحدى وسبعون سنة ، أفتدخلون فى دين إنما مدّة ملكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد، هل مع هذا غيره ؟ قال : "نعم" قال : ماذا ؟ قال : ﴿الٓمٓصٓ﴾ قال : فهذه أثقل وأطول، الألِف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون؛ والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة(٤)، هل مع هذا يامحمد غيره؟ قال: "نعم ﴿الٓر﴾". قال : هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مائتان ، فهذه

١٠

١٥

(١) البقرة ٢٥٦ (٢) فى الأصل : «إياس» ؛ صوابه ما أثبتنا كما فى ابن هشام جـ ٢ : ١٩٤
(٣) البقرة آية ١ — ٢ (٤) فى الأصل «وثلاثون» وهو خطأ صوابه ما أثبتنا .

٢٠

إحدى وثلاثون ومائتان ، هل مع هذا غيره يا محمد ؟ قال : " نعم (الٓمٓر) " قال : هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة ، ثم قال : لقد لُبِّس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا ؟ ثم قاموا عنه ؛ فقال أبو ياسر لأخيه حُيَيّ ولمن معه من الأحبار : ما يُدريكم ، لعله قد جُمع هذا كلّه لمحمد ؛ سبعمائة وأربع [وثلاثون] [1] سنة ، قالوا : لقد تشابه علينا أمره ، فيقال : إنّ قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) [2] نزلت فيهم ، وقيل : إنما نزلت فى وفد نَجْران ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر شىء من مقالات أحبارِ يهود ، وما أنزل من القرآن فى ذلك

كان من مقالاتهم ما قاله مالك بن الضَّيْف [3] حين بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر لهم ما أُخذ عليهم من الميثاق ، وما عُهد إليهم فيه ، فقال : والله ما عُهد إلينا فى محمد عهد ، وما أُخذ له علينا ميثاق ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه : (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) [4] . وقال ابن صَلُوبا الفِطْيونى [5] لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، ما جئتنا بشىء نعرفه ، وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها ؛ فأنزل الله تعالى : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ) [6] .

---

(١) فى الأصل : « وأربع سنين » والتصويب عن ابن هشام . (٢) آل عمران ٧

(٣) وفى ابن هشام : « الصيف » ؛ بالصاد المهملة ، وهما روايتان كما تقدّم . (٤) البقرة ١٠٠

(٥) قال فى الروض الأنف : « الفطيونى كلمة عبرانية ، وهى عبارة عن كل من ولى أمر اليهود وملكهم ، كالنجاشى لمن ملك الحبشة » . (٦) البقرة ٩٩

وقال رافع بن حُرَيْملة، ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يامحمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجّر لنا أنهارا نتبعك ونصدّقك، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) قال : وكان حُيَيّ بن أخطب [وأخوه أبو ياسر بن أخطب] (٢) من أشدّ يهود للعرب حسدا ؛ فكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله عزّ وجل فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) قال : ولما قدم أهل نَجْرانَ من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رافع بن حُريملة : ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل، فقال رجل من أهل نجْران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء، وجحد نبوّة موسى، وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤). وقال رافع لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يامحمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله يكلمنا تكليما حتى نسمع كلامه، فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥). وقال عبد الله بن صُوريا الفِطيونيّ الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الهدى

(١) سورة البقرة ١٠٨ (٢) هذه التكملة أثبتناها عن ابن هشام جـ ٢ : ١٩٧
(٣) سورة البقرة ١٠٩ (٤) سورة البقرة ١١٣ (٥) سورة البقرة ١١٨

إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ؛ وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله تعالى في أقوالهم : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) . وتكلموا عند صرف القبلة بما نذكره إن شاء الله في حوادث السنة الثانية .

قال : وسأل معاذ بن جبل ، وسعد بن معاذ ، وخارجة بن زيد ، نفرا من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة ، فكتموهم إياه وأبوا أن يخبروهم ، فأنزل الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٢) . ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه ، وحذرهم عذاب الله ، فقال رافع بن خارجة ، ومالك بن عوف : بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم منا ، وخيرا منا ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

قال : ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزاة بدر جمع يهود في سوق بني قَيْنُقاع ، وقال لهم : " يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشا " فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش ، كانوا أغمارا (٤) لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا

(١) سورة البقرة من ١٣٥ — ١٤١ (٢) سورة البقرة ١٥٩ (٣) سورة البقرة ١٧٠
(٤) الأغمار ، جمع غمر ، مثلثة الغين : وهو الذي لم يجرب الأمور .

فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)[1] .

قال: ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المِدراس[2] على جماعة من يهود ؛ فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فقال له النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد: وعلى أى دين [أنت][3] يا محمد؟ قال: "على ملة إبراهيم ودينه" قالا: فإن إبراهيم كان يهوديا ؛ فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فهلم إلى التوراة فهى بيننا و بينكم"؛ فأنزل الله فيهما: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)[4]. وقال أحبار يهود ونصارى نجران حين آجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنازعوا، فقال الأحبار: كان إبراهيم يهوديا، وقالت النصارى: كان نصرانيا؛ فأنزل الله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)[5]. وقال عبد الله بن صَيْف[6]، وعدىّ بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم، فأنزل الله تعالى فيهم: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ

١٣٥/١٤

(١) سورة آل عمران ١٢ — ١٣
(٢) بيت المدراس: بيت اليهود يتدارسون فيه كتابهم.
(٣) الزيادة من ابن هشام.
(٤) سورة آل عمران ٢٣، ٢٤
(٥) سورة آل عمران من ٦٥ — ٦٨
(٦) قال ابن هشام: «ويقال ابن ضيف».

تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]. وقال أبو رافع القُرَظى - حين اجتمعت الأحبار من يهود والنصارى من أهل نَجْران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد، تريد منا أن نعبدك كما يعبد النصارى عيسى بن مريم؟ وقال رجل من أهل نجران يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثنى ولا أمرنى" فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[2]، والربانيون هم العلماء والفقهاء، ثم ذكر تعالى ما أخذ عليهم وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه إذا هو جاءهم، فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ ﴾[3] إلى آخر القصة . والله أعلم .

ذكر ما ألقاه شأس بن قيس اليهودىّ بين الأوس والخزرج من الفتنة، ورجوعهم إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم

قال محمد بن إسحاق : مرّ شأس بن قيس، وكان شيخا عظيم الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج، قد اجتمعوا فى مجلس يتحدثون، فغاظه ما هم عليه

(١) سورة آل عمران من ٧١ — ٧٣ (٢) سورة آل عمران ٧٩، ٨٠
(٣) سورة آل عمران ٨١

من الألفة والجماعة وصلاح ذاتِ البَيْن على الإسلام ، بعد ما كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد آجتمع ملأ بنى قَيْلة[1] بهذه البلاد ، لا واللّه ما لنا معهم إذا آجتمع ملؤهم بها من قرار ؛ فأمر شابا من يهود كان معه أن يجلس معهم[2] ، ثم يذكر يوم بُعاث[3] وما كان قبله ، وأن ينشدهم بعض ما كانوا قالوه من الأشعار يوم بُعاث ، وهو يوم آقتتلت فيه الأوس والخزرج ، فكان الظّفر فيه للأوس ، وكان عليهم يومئذ حُضَير بن سِماك الأشهلىّ ، أبو أسيد بن حُضَير ، وعلى الخزرج عمرو ابن النعمان البَياضىّ ، فقُتِلا جميعا ، ففعل الشاب ذلك ، فتكلّم القوم ، وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الرّكب ، أَوْس بن قَيْظىّ الأوسىّ ، وجَبّار بن صخر الخزرجىّ ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما للآخر : إن شئتم رددناها الآن[4] جَذَعَة ؛ فغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة ، وهى الحَرّة ، وقالوا : السلاحَ السلاحَ ، وخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين ، فقال : "يا معشر المسلمين ، اللّه اللّه ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم اللّه إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع عنكم به أمر الجاهلية ، وآستنقذكم به من الكفر ، وألّف به بينكم ! " فعرف القوم أنها نَزْغة من الشيطان ، وكيد من عدوّهم ، فبكوا ، وعانق بعضهم بعضا ، ثم آنصرفوا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأنزل اللّه تعالى فى شاس بن قيس : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[5]

---

(١) قيلة : هى أم الأوس والخزرج .

(٢) فى الأصل : « معه » ، وصوبناه عن ابن هشام ج ٢ : ٢٠٤ .

(٣) يوم بعاث : من أيام العرب ، معروف . وسيأتى بعد .

(٤) رددناها الآن جذعة : أى رددنا الآخر إلى أوله .

(٥) سورة آل عمران ٩٨ ، ٩٩

وأنزل فى أوس بن قَيظىّ وجبّار بن صخر، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

ذكر ما تكلم به يهود فى شأن من أسلم منهم وما أنزل الله تعالى فى ذلك

قال[2] : لما أسلم عبد الله بن سَلَام، وثعلبة بن سَعْيَة، وأُسَيْد بن سَعْية، وأَسَد ابن عُبيد، ومن أسلم معهم من يهود وآمنوا وصدّقوا، قال أهل الكفر من أحبار يهود : ما آمن بمحمد واتّبعه إلا شِرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[3]،

(١) سورة آل عمران ١٠٠ — ١٠٥ . (٢) هو ابن إسحاق .

(٣) سورة آل عمران ١١٣ — ١١٤

قال : وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود ، لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ ، [أى تؤمنون بكتابكم و بما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم كنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم][1]، ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[2] ، قال : ودخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى بيت المِدْراس[3] على يهود ، فوجد جماعة كثيرة منهم قد اجتمعوا إلى حبر من أحبارهم يقال له فِنْحاص ، ومعه حبر آخر يقال له أَشْيَع ؛ فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدا لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال لأبى بكر : والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا

(١) التكملة من ابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٧

(٢) سورة آل عمران من ١١٨ — ١٢٠

(٣) انظر هامش رقم ٢ من صفحة ٣٧٧ من هذا السفر .

وقال: والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا و بينك لضربت عنقك، أى عدوّ الله.
فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أنظر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر: "ما حملك على ما صنعت"؟.
فقال: يا رسول الله، إنّ عدوّ الله قال قولا عظيما — وذكر قوله — فلما قال ذلك غضبت لله وضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك، وقال: ما قلتُ [ذلك][1]،
فأنزل الله فى ذلك تصديقا لأبى بكر رضى الله عنه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[2]، وأنزل الله تعالى فى أبى بكر وغضبه فى ذلك: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[3]. قال: وكان كَرْدَم بن قيس، وأسامة بن حبيب ونافع بن أبى نافع، وبَحْرِىّ بن عمرو، وحُيَىّ بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت، يأتون رجالا من الأنصار يتنصحون لهم فيقولون: لا تُنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها، ولا تسارعوا فى النفقة، فإنكم لا تدرون علامَ يكون، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى من التوراة التى فيها تصديق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا. وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا. وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾[4] قال: وكان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود، إذا تكلّم[5] رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٣٧ / ١٤

(١) الزيادة من ابن هشام. (٢) سورة آل عمران ١٨١ (٣) سورة آل عمران ١٨٦
(٤) سورة النساء ٣٧ — ٣٩ (٥) كذا فى الأصل، وفى ابن هشام: «كلم رسول الله».

لَوَى لسانه وقال : أرعنا سمعك يا محمد حتى نُفْهمك ، ثم طعن فى الإسلام وعابه ، فأنزل الله تعالى فيــه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ . واللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بالله نَصِيرًا . مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١) . قال: وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء من أحبار يهود ، منهم عبد الله بن صُوريا الأعور ، وكعب ابن أسد ، فقال : "يامعشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون انّ الذى جئتكم به لحقّ " ، قالوا : ما نعرف ذلك يا محمد ، وأصرّوا على الكفر ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا ﴾(٢) . قال : وقال سُكَيْن ، وعدىّ بن زيد : يامحمد ، مانعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(٣) . ودخلت طائفة منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : "أما والله إنكم لتعلمون أنّى [رسول من الله إليكم](٤) "! قالوا : ما نعلمه ، وما نشهد عليه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله تعالى :

(١) سورة النساء من ٤٤ — ٤٦
(٢) سورة النساء ٤٧
(٣) سورة النساء ١٦٣ — ١٦٥
(٤) الزيادة من ابن هشام .

﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [١].

وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان بن أَضَا، وبَحْرِيّ بن عمرو، وشأس ابن عدىّ [٢]، فكلّموه وكلّمهم، ودعاهم إلى الله وحذّرهم نِقمته، فقالوا: ما تُخوّفنا يا محمد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [٣]. قال: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود إلى الإسلام، ورغّبهم فيه، وحذّرهم عقوبة الله، فأبوا وكفروا وجحدوا، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد ابن عُبادة، وعقبة بن وهب: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه بصفته، فقال رافع ابن حُريملة، ووهب بن يهود: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٤].

ذكر قصة الرَّجْم

رُوِى عن أبى هُريرة رضى الله عنه أنه قال: إن أحبار يهود اجتمعوا فى بيت المِدْرَاس [٥] حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وقد زنى رجل بينهم بعد إحصانه بامرأةٍ من يهود قد أحصنت، فقالوا: ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة إلى محمد، فاسألوه كيف الحُكْم فيهما، وولّوه الحُكْم عليهما، فإن عمل فيهما

(١) سورة النساء ١٦٦ (٢) فى الأصل: «على» والتصويب عن ابن هشام ج ٢ : ٢١٢
(٣) سورة المائدة ١٨ (٤) سورة المائدة ١٩ (٥) فى ابن هشام: «منهم».

بعملكم من التَّجْبية — والتجبية : الجَلْد بحبلٍ من ليف قد طُلِيَ بقارٍ، ثم تُسَوَّد وجوههما، ثم يحملان على حمارين، وتجعل وجوههما من قبل أدبار الحمارين — فاتبعوه فإنما هو مَلِك، وصدّقوه، وإن هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبيّ، فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه، فأتوه فقالوا: يا محمد، هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت، فاحكم فيهما، فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى أحبارهم في بيت المدراس، فقال: "يا معشر يهود أخرجوا إليّ علماءكم"، فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا وأبا ياسر بن أخطب، ووهب بن يهوذا، فقالوا: هؤلاء علماؤنا، فساءلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قالوا: هذا عبد الله بن صوريا أعلمُ من بقي بالتوراة، فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان غلاما شابا مِنْ أحدثهم سِنّاً، فقال له: "يا بن صوريا، أنْشُدك الله، وأذكّرك بأيّامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن الله حَكَمَ فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم في التوراة"؟ قال: اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم إنهم لَيعرفون أنك لَنبيٌّ مرسل، ولكنهم يحسدونك، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر برجمهما، فرُجِما عند باب مسجده، ثم كَفَر بعد ذلك ابن صوريا، وجحد نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾، أي الرجم، ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ

وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١) ﴾ إلى آخر القصة .

ورُوِى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برَجْمهما ، فرُجما بباب مسجده ، فلما وَجَدَ اليهودىّ مَسّ الحجارة قام إلى صاحبته يَجْنَأ (٢) عليها يقيها مسّ الحجارة حتى قُتلا جميعا .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : لما حكّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما دعاهم بالتوراة ، وجلس حَبْرٌ منهم يتلوها ، وقد وضع يده على آية الرَّجْم ، فضرب عبد الله بن سَلَام يد الحبر ، ثم قال : هذه يا نبىّ الله آية الرَّجْم ، يأبى أن يتلوها عليك ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويحكم يا معشر يهود ! ما دعاكم إلى ترك حكم الله وهو بأيديكم " ؟ ! فقالوا : أمَا إنه كان فينا يُعْمَل به ، حتى زنى رجل منا بعد إحصانه من بيوت الملوك وأهل الشرف فمنعه الملك من الرجم ، ثم زنى رجل من بعده فأراد أن يرجمه فقالوا : لا والله ، حتى ترجم فلانا ، فلما قالوا ذلك اجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التَّجْبِيَة ، وأماتوا ذكر الرَّجْم والعمل به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فأنا أوّل من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به " . ثم أمر بهما فرُجما عند باب مسجده ، قال عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما : [كنتُ (٣)] فيمن رجمهما . قال : واجتمع كعب بن أسد

(١) سورة المائدة من ٤١ — ٤٤ (٢) جنأ عليها : أى أكب عليها ، ويروى «حنا» .

(٣) تكملة من ابن هشام .

وآبن صَلُوبا، وعبد الله بن صُورِيا، وشأس بن قيس . وقال بعضهم لبعض : آذهبوا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر، فأتوه فقالوا : يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وأنا إن آتبعناك آتبعك يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، أفنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن بك ونصدّقك ؟ فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1] .

قال : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحبار يهود أبو ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع ، وعازر بن أبي عازر ، وخالد بن زيد ، وأزار بن أبي أزار[2] ، وأشيع ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال صلى الله عليه وسلم : " نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" .

فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته، وقالوا : لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾[3] . قال : وأتاه صلى الله عليه وسلم رافع ابن حارثة ، وسَلّام بن مِشْكَم ، ومالك بن الصَّيْف، ورافع بن حُرَيْمِلة فقالوا : يا محمد ، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ، وتؤمن بما عندنا من التوراة ،

(١) سورة المائدة ٤٩ — ٥٠ . (٢) قال ابن هشام : « ويقال آزر بن أبى آزر » .
(٣) سورة المائدة ٥٩

وتشهد أنها من الله حقّ ؟ قال : " بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من أحداثكم ". قالوا : فإنا نأخذ بما فى أيدينا؛ فإنا على الهدى والحقّ ، ولا نؤمن بك ولا نتبعك ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

قال : وأتاه صلى الله عليه وسلم النَّحّامُ بن زيد ، وقَرْدَم بن كعب، وبَحْرِىّ ابن عمرو، فقالوا : يا محمد، أما تعلم مع الله إلها غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا إله غيره ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو "؛ فأنزل الله تعالى فيهم وفى قولهم : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

قال : وكان رفاعة بن زيد بن التابوت ، وسُوَيد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، فكان رجال من المسلمين يوادّونهما، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ (٣) . وقال جبل (٤) بن أبى قشير ، وشَمْويل بن زيد لرسول الله صلى الله عليه

(١) سورة المائدة ٦٨ (٢) سورة الأنعام ١٩ — ٢٠ (٣) سورة المائدة ٥٧ — ٦١ (٤) فى الأصل : « جبل بن بشير » ، والتصويب من ابن هشام .

وسلم : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول؟ فأنزل الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

٥ وقال محمود بن سَيْحان ونُعْمان بن أَضَاء، وبَحْرىّ بن عمرو، وعُزَير بن أبى عُزَير، وسَلّام بن مِشْكَم ، وفِنْحَاص، وعبد الله بن صُورِيا، وابن صَلُوبا، وكنانة بن الربيع بن أبى الحُقَيْق، وأشيع، وكعب بن أسد، لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أحقّ يا محمد أن هذا الذى جئت به حقّ من عند الله ؟ فإنا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما والله إنكم لتعرفون أنه

١٠ من عند الله، تجدونه مكتوبا عندكم ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا به ما جاءوا به" فقالوا عند ذلك : يا محمد، أما يعلمك هذا إنس ولا جنٌّ ؟ فقال : "أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله ، وأنى لرسول الله ؛ تجدون ذلك مكتوبا عندكم فى التوراة" قالوا : يا محمد ، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ، ويَقْدِر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه ،

١٤٠/١٤

١٥ وإلا جئناك بمثل ما تأتى به . فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2]، والظهير : العَوْن .

قال : وأتى[3] رَهْط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق فمن خَلَقه ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم

٢ (١) سورة الأعراف ١٨٧ . (٢) سورة الإسراء ٨٨ .
(٣) فى ابن هشام : «أتى رسول الله» .

حتى ٱنْتُقِع لونُه[١]، فجاءه جبريل عليه السلام فَسَكَّنه، فقال: خَفِّض عليك يارسول الله، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[٢]، فلما تلاها عليهم قالوا: فصِفْ لنا كيف خَلْقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عَضُده؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل فقال له مثل ما قال له أول مرة، وجاءه من الله بجواب ما سألوه فقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٣]، وكانت سؤالاتُ يهود وعَنَتهم وبغيهم وتحريفهم وتبديلهم كثيرة؛ قد نطق بذلك كله القرآن، وجاء بالرّد عليهم وبتكذيبهم وتفريقهم، ثم سلط الله عليهم المسلمين، وحكّم فيهم سيوفهم فقتلوهم وأجلوهم وٱستأصلوا شأفتهم، وأسَرُوا وسَبَوْا منهم، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى الغزوات والسرايا، فلما أيسوا وأبْلسوا عمدوا إلى تخيُّلات أُخَر من السِّحر والسّم.

ذكر ما ورد من أن يهود سحروا رسول الله صلى الله عليه وسلم

قالوا: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة الحُدَيبية سنة ست من مُهاجَره، ودخل المحرّمُ سنة سبع، جاءت رؤساء يهود الذين بقوا بالمدينة ممن يظهر الإسلام وهو منافق، إلى لَبِيد بن الأعْصَم اليهودىّ حليف بنى زُرَيق، وكان ساحرا، قد علمت ذلك يهود أنه أعلمهم بالسِّحر وبالسُّموم، فقالوا له: يا أبا الأعصم أنتَ أسحرُ منا، وقد سَحَرْنا محمدا، فسحره منا الرجال والنساء فلم نصنع شيئا، وأنت

(١) ٱنتقع لونه: تغير. (٢) سورة الإخلاص.
(٣) سورة الزمر ٦٧.

ترى أثره فينا ، وخلافه ديننا ، ومن قتل منا وأجلى[1] ، ونحن نجعل لك على ذلك جُعلا على أن تسحره لنا سحرا ينكؤه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعمد إلى مشط وما يُمشَط من الرأس من الشعر فعقد فيه عُقَدا وتَفَل فيه تَفْلا ، وجعله فى جُفّ طَلْعةٍ[2] ذكرٍ ، ثم آنتهى به حتى جعله تحت أُرْعُوفة[3] البئر ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرا أنكره ، حتى يُخَيَّل إليه أنه يفعل الشىء ولا يفعله ، وأنكر بصره حتى دلّه الله على ذلك[4] ؛ فدعا جُبَير آبن إياس الزُّرَقىّ وكان ممن شهد بدرا فدله على موضع فى بئر ذَرْوان[5] تحت أُرْعُوفة البئر، فخرج جُبير حتى آستخرجه ، ثم أرسل إلى لبيد بن الأعصم ، فقال : "ما حملك على ما صنعت ، فقد دلّنى الله على سحرك وأخبرنى بما صنعت" ؟ فقال : حُبّ الدنانير يا أبا القاسم . قال محمد بن سعد ، قال إسحاق بن عبد الله : فأخبرت عبد الرحمن آبن كعب بن مالك بهذا الحديث ، فقال : إنما سحره بنات أعصم أخوات لَبِيد ، وكنّ أسحر من لبيد وأخبث ، وكان لَبِيد هو الذى ذهب به فأدخله تحت أرعوفة البئر ، قال : فلما عَقَدوا تلك العقد أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الساعة بصره ، ودَسّ بناتُ أعصم إحداهنّ ، فدخلت على عائشة فخبّرتها عائشة — أو سمعت عائشة تذكر ما أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بصره — ثم خرجت إلى أخواتها وإلى لبيد فأخبرتهم ، فقالت إحداهنّ : إن يكن نبيا فسيُخْبَر ، وإن يك

(١) فى الأصل : « وأجلا » وهو تحريف ، والتصويب عن ابن سعد .

(٢) الجف : وعاء الطلع ، وهو الغشاء الذى يكون فوقه . و « ذكر » صفة لجف .

(٣) الأرعوفة والراعوفة : صخرة تترك فى أسفل البئر إذا حفرت ، تكون ناتئة ، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقى عليها . وقيل : هى حجر يكون على رأس البئر يقوم المستقى عليه .

(٤) فى الطبقات : « دله الله عليه » .

(٥) بئر ذروان : بالمدينة فى بستان بنى زريق من اليهود .

غير ذلك فسوف يدلّهه[1] هذا السحر حتى يذهب عقله ، فيكون بما نال من قومنا وأهل ديننا . فدله الله عليه :

وفى الصحيح عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سُحِر[2] ، حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشىء ولم يصنعه ، حتى إذا كان ذات يوم رأيته يدعو ، فقال : "أشَعَرتِ[3] أن الله قد أفتانى فيما آستفتيته[4] ، أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلىّ ، فقال أحدهما : ما وجع الرجل ؟ فقال الآخر : مَطْبُوب[5] ، فقال : من طَبّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فيم ؟ قال : فى مُشْط ومُشاطة فى جُفّ طَلْعَةِ ذكرٍ ، قال : فأين هو ؟ قال : فى ذى ذَرْوان[6]" ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رجع أخبر عائشة فقال : "كأنّ نخلها رءوس الشياطين ، وكأنّ ماءها نُقَاعة الحنّاء" ، قالت فقلت : يارسول الله ، فأخرجه للناس ، قال : "أمّا والله قد شفانى ، وخَشِيت أن أثوّر على الناس منه شرا[7]" .

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأُخِّذ[8] عن النساء وعن الطعام والشراب ، فهبط عليه ملَكان وهو بين النائم واليقظان فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال : أحدهما لصاحبه :

---

(١) دلهه : حيره وأدهشه . وفى الأصل « يدله » ، وهو تصحيف .

(٢) فى الطبقات : « سحر له » .

(٣) اشعرت : أعلمت ؟ . والخطاب للسيدة عائشة رضى الله عنها .

(٤) المعنى : أجابنى عما سألته عنه .

(٥) مطبوب : مسحور ؛ عبر عن السحر بالطب كما عبروا عن اللديغ بالسليم تفاؤلا .

(٦) فى الصحيح : « فى بئر ذروان » ، وهما روايتان .

(٧) قال القسطلانى : « الشر تذكر السحر وتعلمه ، وهو من باب ترك المصلحة خوف المفسدة » .

(٨) أخذ : حبس بالسحر .

ما شكواه ؟ قال : طُبّ — يعني سُحر(١) — قال: ومن فعله ؟ قال : لَبِيد بن أعْصَم اليهودىّ ، قال : ففى أى شىء جعله ؟ قال : فى طَلْعـة ، قال : فأين وضعها ؟ قال : فى بئر ذَرْوَان تحت صخرة، قال: فما شفاؤه ؟ قال تُنزح البئر، وتُرفع الصخرة وتُستخرج الطَّلْعة . وآرتفع الملكان، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى علىّ وعمّار فأمرهما أن يأتيا الرَّكِىّ فيفعلا الذى سمع ، فأتياها وماؤها كأنه قد خُضِب بالحنّاء فنزحاها ، ثم رفعا الصخرة فأخرجا طَلْعة ، فإذا فيها إحدى عشرة عُقْـدة، ونزلت هاتان السورتان : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قرأ آية آنحلت عُقْدة، حتى آنحلت العُقَد، وآنتشر نبىّ الله صلى الله عليه وسلم للنساء والطعام والشراب .

وجاء فى حديث آخر أن جبريل وميكائيل عليهما السلام أخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن السِّحر، وأنه صلى الله عليه وسلم أخذ لَبيدًا ، فاعترف فعفا عنه، رُوِى عفوه عنه عن غير واحد ؛ قال عِكرمة : ثم [كان](٢) يراه بعـد عفوه فيعرض عنه . وحيث ذكرنا حدث السِّحر فلا بأس أن نصله بالكلام على مشكله . والله أعلم بالصواب .

ذكر الكلام على مشكل حديث السِّحر

وقد تكلم القاضى عياض بن موسى بن عياض على هـذا الحديث فقال : هذا الحديث صحيح متفق على صحته، وقـد طعنت فيه الملحدة ، وتذرّعت به لسخف عقولها . وتلبيسها على أمثالها إلى التشكيك فى الشرع ، وقـد نزّه الله الشَّرع والنبى صلى الله عليه وسلم عما يُدخل فى أمره لَبْسًا ، وإنما السِّحر مرض من الأمراض

(١) قال فى النهاية : «كنوا بالطب عن السحر تفاؤلا بالبرء؛ كما كنوا عن اللديغ فقالوا : سليم» .
(٢) الزيادة من مصنفات .

وعارض من العِلَل يجوز عليه كأنواع الأمراض ، مما لا ينكر ولا يَقدح فى نبوته ، وأما ما ورد أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشىء ولا يفعله ، فليس فى هذا ما يُدخِل عليه داخلةً[1] فى شىء من تبليغه وشريعته ، ويقدح فى صدقه ؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا ، وإنما هـذا فيما يجوز طُرُوُّه عليه فى أمر دنياه التى يبعث بسببها ، ولا فُضِّل من أجلها ، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر ، فغير بعيـد أن يُخَيَّل إليـه من أمورها ما لا حقيقة له ، ثم ينجلى عنـه كما كان .

وأيضا فقد فسر هذا الحديث الآخر من قوله : "حتى يُخَيَّل إليه أنه يأتى أهله ولا يأتيهن" . وقد قال سفيان[2] : وهذا أشدّ ما يكون من السحر ، ولم يأت فى خبر منها أنه نقل عنه فى ذلك قول ، بخلاف ما أخبر أنه فعله ولم يفعله ، وإنما كانت خواطر وتخيلات . وقد قيل : إن المراد بالحديث أنه كان يتخيل لشىء أنه فعله ، وما فعله لكنه تخييل لا يعتقد صحته ، فتكون اعتقاداته كلها على السَّداد ، وأقواله على الصحة . قال : هذا ما وقفت عليـه لأئمتنا من الأجوبة عن هذا الحديث .

قال : لكنه قد ظهر لى فى هـذا الحديث تأويل أجلى وأبعـد من مطاعين ذوى الأضاليل يستفاد من نفس الحديث ، وهو أن عبد الرزاق قد روى هذا الحديث عن ابن المسيّب ، وعُروة بن الزبير ، وقال فيه عنهما : سحر يهود بنى زُرَيق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوه فى بئر حتى كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُنكر بصره[3] . ثم دله الله على ما صنعوا ، فاستخرجه من البئر .

فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أن السحر إنما يُسلَّط على ظاهره وجوارحه ، لا على قلبه واعتقاده وعقله ، وأنه إنما أُتى فى بصره ، وحبسه عن وَطْء

(١) الداخلة : النقيصة والعيب والفساد .	(٢) هو ابن عيينة كما صرح به فى سنده فى البخارى .	(٣) أى ما أبصره ، أو ينكر نفس رؤيته لتأثير السحر فيه (شرح الشفاء) .

نسائه ، ويكون معنى قوله : "يخيل إليـه أنه يأتى أهله ولا يأتيهنّ"، أى يظهر له من نشاطه ومتقدّم عادته القُدرة على النساء ، فإذا دنا منهنّ أصابته أُخْذَةٌ بالسِّحر، فلم يقـدر على إتيانهنّ ، كما يَعْترى من أُخِّذ واْعترِض ، قال : ولعله لمثل هذا أشار سفيان بقوله : وهذا أشدّ ما يكون من السِّحر . والله أعلم بالصواب .

ذكر خبر الشاة التى سُمّ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان ذلك فى غَزاة خَيْبر ، بعد أن آفتتحها رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه لمـا آفتتح خَيْبَر وحصونها وآطْماتها ، أهدت إليه زينب آبنـة الحارث آمرأة سَلَام بن مِشْكَم وهى آبنة أخى مَرْحَبْ الذى بارز يوم خيبر، وقتل — على ما نذكره إن شاء الله — شاة مَصْلِيَّة، وقد سألتْ : أىّ عضو من الشاة أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل لها : الذِّراع، وأكثرت فيها السّمّ، ثم سَمَّت سائر الشاة، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الذراع ، فَلَاك منها مُضغة فلم يُسغها ، وكان معـه بِشْر بن البَرَاء بن مَعْرور، فأخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسـول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها .

وروى الشيخ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقىّ فى دلائل النبوّة أنه صلى الله عليه وسلم أساغها ، ثم قال لأصحابه : "آرفعوا أيديكم فإنّ كتِف هذه الشاة يخبرنى أنها قد بُغِيتُ فيه"[1]، قال بشر بن البراء : والذى أكرمك لقد وجدت ذلك فى أكلتى التى أكلت ، فما منعنى أن ألفظها إلا أنى أعظمت أن أنغصك طعامك ، فلما أسغتَ

(١) الحديث فى الدلائل نصه : « يخبرنى أن قد بغيت فيها » ، بغيت : طلبت ، من بغى يبغى بغاء ، بالضم ؛ إذا طلب . (نهاية ابن الأثير) .

مافى فيك لم أكن لأرغب بنفسى عن نفسك، ثم دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فآعترفت ، فقال : "ما حملك على ذلك" ؟ قالت : بلغتَ من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان مَلكا آسترحت منه ، و إن كان نبيا فسَيُخْبَر ، فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات بشر بن البراء . والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلها ، قيل : سلّمها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها . والله تعالى أعلم . ٥

+ + +

وحيث ذكرنا من سيرته صلى الله عليه وسلم ما ذكرناه ، فلنذكر هنا حوادث السنين بعد الهجرة خلا الغزوات والسّرَايا والوفود، فإنا نورد ذلك إن شاء الله تعالى فيما بعد على ما تقف عليه .

ذكر الحوادث بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة النبوية على حكم السنين؛ من السنة الأولى إلى السنة العاشرة خلا ما آستثنيناه ، وقدّمناه ١٠

حوادث السنة الأولى

فيها جعلت صلاة العصر أربع ركعات ، وكانت ركعتين وذلك بعد مَقْدَمه صلى الله عليه وسلم بشهر . وفيها صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٥ الجمعة حين آرتحل من قُبَاء إلى المدينة ، صلاها فى طريقه ببنى سالم على ما تقدّم، وهى أوّل جمعة صلاها ، وأوّل خطبة خطبها فى الإسلام . وفيها بَنَى صلى الله عليه وسلم مسجده ومساكنه، ومسجد قُباء على ما تقدّم . وفيها آخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار بعد مقدمه بثمانية أشهر، وقد تقدّم ذكر ذلك . وفيها أسلم عبد الله بن سَلَام . وفيها وُلد عبد الله بن الزبير بالمدينة . وفيها مات أبو قيس ٢٠ كلثوم بن الهدهد، وهو أوّل من مات من المسلمين بالمدينة. ومات سعد بن زُرارة أبو أمامة . وفيها أعْرس صلى الله عليه وسلم بعائشة رضى الله عنها .

حوادث السنة الثانية

١٤٣/٤٤

فى هذه السنة توفيت رُقَيّة بنت النبى صلى الله عليه وسلم زوج عثمان بن عفان، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ببدر، وتوفى عثمان بن مظعون بعد [رجوع][1] رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزاة بدر وشهدها عثمان . وفيها صُرفت القبلة .

٥

ذكر صرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة وما تكلم به اليهود وما أنزل الله تعالى فى ذلك من القرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة يصلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا ، كما ورد فى صحيح البخارى وغيره . وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبل البيت ، فقال : " يا جبريل وددت أن الله تعالى صرف وجهى عن قِبلة يهود "، فقال جبريل : إنما أنا عبد فادع ربك وسَلْه . ١٠ وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ[2] ﴾ .

قال محمد بن سعد : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين من الظهر ١٥ فى مسجده بالمسلمين، ثم أُمر أن يوجّه إلى المسجد الحرام فآستدار إليه، ودار معه المسلمون ، قال ويقال : بل زار رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ بِشْر بن البراء ابن معرور فى بنى سَلِمَة، فصنعت له طعاما، وحانت الظهر، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ركعتين، ثم أُمر أن يُوَجّه إلى الكعبة، فآستدار إلى الكعبة، واستقبل الميزاب فسمى المسجد مسجد القِبلتين، وذلك يوم الأثنين للنصف من ٢٠ شهر رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مُهاجَره صلى الله عليه وسلم .

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) سورة البقرة ١٤٤

وروى البخارى أن أوّل صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلاة العصر، وصلى معه قومٌ، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال : أشهد بالله لقد صليتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة، فداروا كما هم قِبل البيت .

قال ابن إسحاق : ولما صُرفت القبلة أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رفاعةُ ابن قيس ، وقَرْدم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، ورافع بن أبى رافع ، والحجاج ابن عمرو ، والربيع بن الربيع بن أبى الحُقَيْق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحُقَيق ، فقالوا : يا محمد، ما ولّاك عن قِبلتك التى كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ! ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها [نتّبعك](١) ونصدّقك — وإنما يريدون فتنته عن دينه — فأنزل الله : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(٢) ﴾، أى إيمانكم بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعكم إياه الى القبلة الأخرى . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

(١) الزيادة من ابن هشام . (٢) سورة البقرة ١٤٢ — ١٤٣ .

إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١) ﴾ . والله أعلم .

ذكر خبر الأذان

١٤٤ / ١٤

قال محمد بن سعد بسنده إلى نافع بن جبير (٢)، وعُروة بن الزبير، وزيد بن أسلم، وسعيد بن المسيّب ، قالوا : كان الناس فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يؤمر بالاذان ينادى منادى النبى صلى الله عليه وسلم : «الصلاة جامعة»؛ فيجتمع الناس فلما صُرفت القبلة إلى الكعبة أمر بالأذان، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهمّه أمر الأذان، وأنهم ذكروا أشياء (٣) يجمعون بها الناس للصلاة ، فقال بعضهم : البُوق ، وقال بعضهم : الناقوس ؛ فبينما هم على ذلك إذْ نام عبد الله ابن زيد الخزرجىّ، فأرى فى المنام أن رجلا مرّ وعليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس ، قال فقلت : أتبيع الناقوس ؟ قال : ماذا تريد به ؟ فقلت : أريد أن أبتاعه لكى أضرب به للصلاة لجماعة الناس، قال : فأنا أحدثك بخير لكم من ذلك؛ تقول : الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله، حىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله . فأتى عبد الله ابن زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : "قم مع بلال فألق عليه ما قيل لك وليؤذّن بذلك" ، ففعل . وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : لقد رأيت مثل الذى رآه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فلله الحمد"

(١) سورة البقرة ١٤٤ — ١٤٧ .

(٢) فى الأصل : «رافع بن جبير» وهو تصحيف، والتصويب عن ابن سعد، وتهذيب التهذيب .

(٣) فى الأصل : «شيئا» وما أثبتناه عن ابن سعد .

فذلك أثبت . قالوا : وأُذِّن بالأذان وبقى يُنادَى فى الناس : « الصلاة جامعة » ؛ للأمر يحدث ، فيحضرون له يُخبَرون به ، مثل فَتْحٍ يُقرأ ، أو أمر يؤمرون به ، فينادَى : « الصلاة جامعة » ، وإن كان فى غير وقت الصلاة . وقد قدّمنا خبر الأذان من رواية على بن أبى طالب فى قصة الإسراء . والله أعلم .

٥ وفى هذه السنة فُرِض صوم رمضان فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة ، وفُرِضت زكاة الفطر قبل العيد بيومين ، وفيها ضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين ، أحدهما عن أمته ، والآخر عن محمد وآله ، وفيها وُلد النعمان بن بشير ، وفيها أعرس علىّ بن أبى طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنهما . والله أعلم

حوادث السنة الثالثة ١٠

فيها تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم حَفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . وفيها توفّى عثمان بن مظعون عند بعضهم . وفيها تزوّج عثمان بن عفان رضى الله عنه أمّ كُلثوم بنت النبي صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة . وفيها ولد الحسن بن على رضى الله عنهما فى النصف من رمضان .

حوادث السنة الرابعة ١٥

فيها حُرّمت الخمر فى شهر ربيع الأول ، وقيل : حرّمت فى السنة الثالثة . وفيها صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فى غزوة ذات الرِّقاع . وفيها قُصِرت الصلاة . وفيها وِلد الحسين بن على رضى الله عنهما . وفيها ماتت زينب بنت خُزيمة الهلالية أم المؤمنين . وفيها تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سَلَمة

فى شوال ، وتزوّج زينب بنت جحش فى ذى القعدة على الصحيح . وفيه نزل الحجاب .

ذكر نزول الحجاب على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٤٥/١٤

كان سبب نزول الحجاب مارواه البخارى عن آبن شهاب قال : أخبرنى أنس بن مالك ، قال : كان أول ما أنزل الحجاب فى مُبْتَنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ؛ أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم عَروسا ، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ، ثم خرجوا ، وبقى منهم رَهْط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطالوا المكث ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجتُ معه كى يخرجوا ، فمشى صلى الله عليه وسلم ومشيتُ معه ، حتى جاء عَتَبة حُجْرة عائشة رضى الله عنها ، ثم ظنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم خرجوا ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجعتُ معه حتى دخل على زينب ، فإذا هم جلوس لم يتفرقوا ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجعتُ معه حتى بلغ عَتَبة حُجْرة عائشة ، فظنّ أن قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا ؛ وأنزل الله الحجاب ، فضرب بينى وبينه سترا ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (١) الآية . وعن عُروة بن الزّبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : كان عمر رضوان الله عليه يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : آحجب نساءك يا رسول الله ، قالت : فلم يفعل . وكان أزواج

(١) سورة الأحزاب ٥٣ .

النبيّ صلى الله عليه وسلم يخرجن لَيْلا إلى لَيْل قِبَل المَنَاصِع[1] فخرجت سَوْدَة بنت زَمْعَة وكانت آمرأة طويلة، فرآها عمر بن الخطاب وهو فى المجلس، فقال: عرفتك يا سَوْدَة — حرصا على أن ينزل الحجاب — فأنزل الله [الحجاب][2]. وفى هذه السنة فُرِضت الزكاة فى المال.

حوادث السنة الخامسة

فيها تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم ريحانة بنت زيد النَّضْرية، وجُويرِية بنت الحارث المُصْطَلِقيّة. وفيها زلزلت المدينة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يَستعتِبكم[3] فأعتِبوه". وفيها سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل. وقد تقدم ذِكر ذلك فى الباب الأول من القسم الثالث من الفن الثالث فى الجزء التاسع من هذه النسخة. وفيها كانت غزوة بنى المُصْطَلِق بالمُرَيْسِيع. وحدث فى هذه الغزوة وقائع نذكرها فى هذا الموضع؛ فيها ما وقع بين المهاجرين والأنصار، وحديث الإفك، وخبر التيمُّم.

ذكر ما وقع بين المهاجرين والأنصار[4] فى غزوة المريسيع

وما قاله عبد الله بن أُبيّ بن سلول المنافق

قال محمد بن إسحاق: لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على المُرَيْسِيع — وهو ماء لبنى المصطلق[5] — فى نزوله عن غزوته إياهم، وَرَدت واردةُ الناس،

(١) المناصع (جمع منصع): صعيد واسع آخر المدينة جهة البقيع.

(٢) الزيادة من البخارى، وبالأصل بياض.

(٣) آستعتب: طلب أن يعتب أى يسترضى؛ تقول: آستعتبته فأعتبنى؛ أى آسترضيته فأرضانى.

(٤) فى الأصل: «والآراء»، ولا معنى له.

(٥) بنو المصطلق: هم بنو جذيمة بن كعب؛ من خزاعة.

ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بنى غِفار، يقال له جَهْجَاهُ بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جَهْجَاه وسنان بن وَبَر الجهنىّ — حليف بنى عوف بن الخزرج — على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنىّ : يا معشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أُبىّ، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم — غلام حَدَث — فقال : أوَ قدْ فعلوها ! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أُعِدُّنا وجلابيب قريش[1] هذه إلا كما قال الأُول : سَمِّن كلبك يأكُلْك ؛ أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعَزُّ منها الأذلَّ . ثم أقبل على من حضره من قومه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم[2] أموالكم، والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . قال : فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال عمر : مُرْ به عبّاد بن بِشْر فليقتله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا، ولكن أَذِّنْ بالرحيل"، فارتحل الناس فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها، وجاء عبد الله بن أُبىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف بالله : ما قلت ما قال زيد بن أرقم عنّى، وما تكلمت به، فقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام أَوْهَم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل .

فلما آستقلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه أُسَيْد بن حُضَيْر فقال : يا نبىّ الله، والله لقد رُحْتَ فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها . قال : " أو ما بلغك

---

(١) جلابيب قريش : لقب من كان أسلم من المهاجرين ؛ لقبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب : الأزر الغلاظ، وكانوا يلتحفون بها، فلقبوهم بذلك .

(٢) فى الأصل : « أحللتموه بلادكم وقاسمتموه أموالكم »، وما أثبتناه عن ابن هشام .

ما قال صاحبكم " ؟ قال : أىّ صاحب ؟ قال : " عبد الله بن أبىّ " قال، وما قال يا رسول الله ؟ قال: "زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذل" قال: فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال : يا رسول الله ، أرْفُقْ به ، فوالله لقد جاء الله بك و إنّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه ، فإنه ليرى أنك أستلبته مُلكا. قال: ثم متن(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذاك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم(٢) الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا إلا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياما. قال : و إنما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان من عبد الله بن أبىّ .

قال: ثم هبت ريح شديدة تخوّفها الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تخوّفوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار ". فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بنى قَيْنُقاع — وكان من عظماء يهود، وكهفا للنافقين — مات ذلك اليوم .

ونزلت السورة التى ذكر الله تعالى فيها المنافقين فى آبن أبىّ ومَن قال بقوله ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأُذُن زيد بن أرقم ثم قال: "هذا الذى أوفى لله بأُذُنه ". و بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبىّ بن سلول ما كان من أمر أبيه . فقال : يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أُبىّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، إنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل

(١) متن بالناس : أى سار بهم يومه أجمع .

(٢) فى الأصل : « آذته » ؛ وما أثبتناه عن آبن هشام .

النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نترفّق به ونحسن صحبته ما بقى معنا "، وكان بعد ذلك إذا أحدث حدَثا كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنّفونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : " كيف ترى يا عمر ؛ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لى اقتله لأرْعِدَتْ [له](١) آنُفٌ لو أمرتُها اليوم [بقتله](١) لقتَلَتْه "، فقال عمر: قد والله علمتُ لأمْرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

* * *

ومن الحوادث فى هذه الغزوة حديث الإفك .

ذكر حديث الإفك وما تكلم به من تكلم من المنافقين وغيرهم فيه وما أنزله الله تعالى من براءة عائشة، وفضل أبيها رضوان الله عليهما

هذا الحديث قد تداوله الرواة وأهل الأخبار والسِّيَر ، فمنهم من زاد فيه زيادات كثيرة، وذكر تحامُلَ من تحامَلَ فى أمر الإفك، وتعصُّبَ من تعصَّبَ، فعلمت أن إيراد ذلك من أقوالهم يقتضى أن يصير فى نفس من سمعه من أهل السنّة شيئا ممن تكلم عليه بما تكلّم ، ولعل ذلك لم يقع ، فرأيتُ أن أقتصر منه على ما ثبت فى صحيح البخارىّ ، واتّصل لنا بالرواية الصحيحة ، وذكرتُ زيادات ذكرها ابن إسحاق — رحمه الله — ويحتاج إلى إيرادها مما لا ضرر فيه، نبهت عليها بعد مساق الحديث على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى . ولنبدأ بحديث البخارىّ(٢) :

حدّثنا الشيخان المسندان المعمَّران، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى طالب نعمة الصالحىّ الحجّار ، وستّ الوزراء أمّ محمد وزيرة بنت القاضى شمس الدين عمر ابن أسعد بن المنجا التَّنُوخيّة الدّمشقيان قراءة عليهما وأنا أسمع ، بالمدرسة المنصورية

(١) الزيادة من ابن هشام . (٢) الحديث من صحيح البخارى ٦ : ٥

التى هى بين القصرين بالقاهرة المعزّية ، فى جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة ،
قالا : حدّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى
الزّبيدىّ ، فى شوّال سنة ثلاثين وستمائة ، بدمشق بالجامع المظفّرىّ بسفح جبل
قاسيون ، قال : حدّثنا أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى بن شعيب السّجزىّ(١) قراءة
عليه ونحن نسمع ببغداد ، فى آخر سنة آثنتين وأوّل سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ،
قال : حدّثنا الشيخ أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفّر الداودىّ(٢) فى شوّال
وذى القعدة سنة خمس وستين وأربعمائة ، قال : اخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد
ابن حمويه السَّرَخْسىّ فى صفر سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة ، قال : أخبرنا أبو عبدالله
محمد بن يوسف بن مطر الفَرَبْرىّ بفَرَبْر(٣) سنة ستّ عشرة وثلثمائة ، قال : أخبرنا أبو عبد الله
محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارىّ قراءة عليه بتِبْرِيز سنة ثمان وأربعين ومائتين ،
ومرة فى سنة آثنتين وخمسين ، قال : حدّثنا يحيى بن بُكَير ، قال : حدّثنا الليث عن
يونس عن آبن شهاب ، قال : أخبرنى عُروة بن الزُّبير ، وسعيد بن المسيّب ،
وعَلْقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود ، عن حديث عائشة
زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله مما قالوا ،
وكلٌّ حدّثنى طائفةً من الحديث ، و بعضُ حديثهم يُصدِّق بعضا ، و إن كان
بعضهم أوعى له من بعض ، الذى حدّثنى عُروة عن عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه
وسلم ؛ أن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج

(١) السجزىّ : نسبة إلى سجستان على غير قياس ؛ وفى الأصل « المنجرى » وهو تصحيف .
(٢) فى الأصل « الداوردى » ، وصوّبناه عن السمعانى .
(٣) فربر : بلد قرب بخارى .

أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج [بها][١] رسول الله صلى الله عليه وسلم معــه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غَزْوة[٢] غزاها فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل الحِجاب، فأنا أُحْمَل فى هَوْدجى وأُنْزَل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوته تلك وقَفَل، ودنونا

٥ من المدينة قافلين، آذنَ ليلةً بالرحيل، فقمت حين آذنُوا بالرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأنى أقبلتُ إلى رَحْلى فإذا عِقْد لى من جَزْع ظَفَارِ[٣] قد انقطع ، فالتمست عِقْدى وحبسنى ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يَرْحَلون لى، فاحتملوا هَوْدَجى فرحَلوه على بعيرى الذى كنتُ ركبتُ ، وهم يحسبون أنّى فيــه ، وكان النساءُ إذ ذاك خِفافاً لم يُثْقلهنّ اللحم، إنما تأكل العُلْقة[٤] من الطعام، فلم يستنكر

١٠ القوم خِفّة الهودَج حين رفعوه، وكنتُ جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدتُ عِقْدى بعدما استمرّ الجيش، فجئتُ منازلهم وليس بهــا داعٍ ولا مجيبٌ ، فأممتُ منزلى الذى كنتُ به ، وظننتُ أنهم سيفقدونى فيرجعون إلىّ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتْنى عينى فنمتُ ، وكان صَفْوان بن المعَطّل السُّلَمىّ ثم الذَّكوانىّ من وراء الجيش ، فأدْلَجَ فأصبح عنــد منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين

١٥ رآنى ، وكان يرانى قبل الحجــاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفنى ، فخمّرتُ وجهى بجلبابى ، ووالله ما كلّمنى كلمةً ، ولا سمعتُ منــه كلمةً غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش

---

(١) الزيادة من البخارى . (٢) هى غزوة بنى المصطلق من خزاعة .

(٣) الجزع : خرز معروف فى سواده بياض كالعروق . وظفار: مدينة باليمن . ويروى « أظفار »

٢٠ بالهمزة المفتوحة وسكون الظاء . (٤) العلقة كغرفة : القليل .

بعدما نزلوا مُوغِرِين[1] فى نحر الظهيرة[1]، فهلك من هلك[2]. وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبيّ بن سلول. فقدمنا المدينة، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهرا، والناس يُفيضون فى قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبنى[3] فى وجعى؛ أنّى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللُّطفَ الذى كنتُ أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلّم[4] ثم ينصرف، فذلك الذى يريبنى، ولا أشعر بالشرّ حتى خرجتُ بعدما نقَهتُ، فخرجت معى أمّ مِسْطَح قِبَل المناصع — وهو مُتبرَّزنا — وكنا لا نخرج إلّا ليلاً إلى لَيْل، وذلك قبل أن تتّخذ الكُنُف قريبا من بيوتنا، وأمْرُنا أمْرُ العرب الأُوَل فى التبرز [قِبَل][5] الغائط. فانطلقت أنا وأمّ مِسْطح، وهى بنت أبى رُهْم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر ابن عامر خالةُ أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه، وابنُها مِسْطح بن أثاثة، فأقبلت أنا وأمّ مِسْطح قِبَل بيتى قد فرغنا من شأننا، فعثَرت أمّ مِسْطح [فى مِرْطها][5]، فقالت: تَعِس مِسْطح، فقلتُ لها: بئس ما قلت: أتسبِّين رجلا قد شَهِد بدرا؟! قالت: أىْ هَنْتاه، أو لم تسمعى ما قال؟ قالت قلتُ: وما قال؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضا على مرضى، قالت: فلما رجعتُ إلى بيتى، ودخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "كيف تيكم"؟ فقلت: أتأذن لى أن آتى أبوىّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلهما؛ قالت: فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوىّ،

(١) موغرين: داخلين، ونحر الظهيرة: هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع.
(٢) أى بسبب الإفك. (٣) يريبنى (بفتح أوله وبضمه): أى يشككنى و يوهمنى.
(٤) زاد البخارى بعد هذا: «ثم يقول كيف تيكم ... الخ».
(٥) الزيادة عن البخارى.

فقلت لأمّى : يا أُمّتاه ، ما يتحدّث الناس ؟ قالت : يا بُنيّة ، هَوّنى عليك ،
فوالله لَقلّما كانت امرأة قَطّ وضيئةٌ عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن
عليها، قالت فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدّث الناس بهذا ؟ ! قالت : فبكيت
تلك الليلة حتى أصبحت لا يَرقأ(١) لى دَمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكى ،
٥ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب وأُسامة بن زيد رضى الله
عنهما حين ٱستلبث الوحىُ(٢) يستأمرهما فى فِراق أهله . قالت: فأما أُسامة بن زيد،
فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يَعلم لهم
فى نفسه من الوُدّ ، فقال : يا رسول الله ، أهلَك وما نعلم إلا خيرا . وأما علىّ بن
أبى طالب — رضى الله عنه — فقال: يا رسول الله، لم يُضيّق الله عليك، والنساء سواها
١٠ كثير، وإن تسأل الجارية تَصدقْك(٣): قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَريرة،
فقال : "أى بَريرة، هل رأيت من شىء يريبك" ؟ قالت بَريرة : لا والذى بعثك
بالحقّ، إنْ رأيتُ عليها أمرا أَغمِصُه(٤) عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السنّ تنام عن
عجين أهلها، فتأتى الداجنُ(٥) فتأكله. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فٱستعذَر من
عبد الله بن أُبىّ بن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر:
١٥ "يا معشر المسلمين ، من يَعذِرنى(٦) من رجلٍ قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ! فوالله
ما علمتُ على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ماعلمتُ عليه إلّا خيراً ، وما كان

---

(١) لا يرقأ : لا ينقطع . (٢) الوحى : بالرفع فاعل ؛ أى طال لبث نزوله ، وضبط
بالنصب على أنه مفعول به ؛ أى استبطأ النبى صلى الله عليه وسلم الوحى .
(٣) فى الأصل : « كثيرون تسأل ... الخ » ، وما أثبتناه عن البخارى .
٢٠ (٤) إن رأيت : ما رأيت . وأغمصه : أعيبه .
(٥) الداجن : الشاة التى تألف البيوت ولا تخرج إلى المرعى .
(٦) من يعذرنى : من يقوم بعذرى إن كافأته على قبيح فعله ، ولا يلومنى ! أو من ينصرنى !

يَدخُل على أهلى إلّا معى ". فقام سعد بن معاذ الأنصارىّ فقال : يا رسول الله، أنا أُعذِرك منــه ، إن كان من الأوس ضربتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخَزْرج أمرتَنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سـعد بن عُبادة وهو سيّد الخَزْرج ، وكان قبــل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحَمِيّــة[1] . فقال لسعد : كذبتَ ، لَعَمْرُ الله[2] لا تقتله ، ولا تقدر على قتله ، وقام أُسَيْد بن حُضَيْر — وهو ابن عم سعد — فقال لسعد بن عُبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فتثاور الحيّان : الأوسُ والخزرجُ حتى همّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليــه وسلم يُخَفِّضهم[3] حتى سكتوا وسكتَ . قالت : فبكيتُ يومى ذلك لا يَرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، قالت : وأصبح أبواى عنــدى ، وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يَرقأ لى دمع ، يظنان أن البكاء فالق كَبِدى ، فقالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى فاستأذنتْ علىّ امرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها ، فجلست تبكى معى ، قالت : فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلّم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندى منذ قيــل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى ، قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ، ثم قال : " أمّا بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنــك كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنتِ ألممتِ بذنب ، فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه " . قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قَلَصَ دمعى حتى ما أُحِسّ منه قَطْرة ، فقلت لأبى : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال : والله

(١) احتملته الحمية : أى أغضبته .
(٢) لعمر الله : أى وبقاء الله .
(٣) يخفضهم : يسكنهم ، ويهون عليهم الأمر .

١٤٩ / ١٤

ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : إنى والله لقد علمتُ ؛ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدّقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تُصدِّقونى بذلك ، ولئن اعترفت بأمرٍ والله يعلم أنى بريئة منه لتصدقنّى ، والله ما أجد لكم مَثَلا إلا قولَ أبى يوسف ، قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ . قالت : ثم تحوّلتُ فاضطجعتُ على فراشى ، قالت : وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله يبرئنى ببراءتى ، ولكن والله ما كنتُ أظن أنّ الله مُنزلٌ فى شأنى وحيًا يُتلى ، ولَشأنى فى نفسى كان أحقرَ من أن يتكلّمَ الله فىّ بأمرٍ يُتلى ، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رامَ[1] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزِل عليه ، فأخذه ما يأخذه من البُرَحاء[2] ، حتى إنه ليتحدّر منه مثلُ الجُمَانِ[3] من العرق — وهو فى يوم شاتٍ — من ثِقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سُرِّىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سُرِّىَ عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلّم بها : « يا عائشة ، أمّا اللهُ فقد برّأك » ، فقالت أمى : قومى إليه ، قالت فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عزّ وجل ، وأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ . لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

(١) ما رام : أى ما فارق . (٢) البرحاء : العرق من شدة ثقل الوحى .
(٣) الجمان : اللؤلؤ .

فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴾[1]، قالت عائشة : فلما أنزل الله تعالى هذا في براءتي ، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة — رضي الله عنها — ما قال ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾[2] . قال أبو بكر رضي الله عنه : بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا . قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال : " يا زينب ، ماذا علمت أو رأيت "؟ ، فقالت : يا رسول الله ، أحمي سمعي وبصري ، ما رأيت إلا خيرا ، قالت : وهي التي كانت تساميني[3] من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك . انتهى حديث البخاري .

---

(١) سورة النور ١١ — ٢٠ (٢) سوره النور ٢٢

(٣) تساميني : أي تضاهيني ، وتفاخرني بجمالها ومكانتها عند النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو محمد عبد الملك بن هشام بسنده إلى عُروة بن الزُّبير، وعبد الله
ابن عبد الله بن عُتبة، وعبد الله بن الزبير، وعَمْرة بنت عبد الرحمن، كلهم يُحدّث
عن عائشة — رضى الله عنهم — بنحو هذا الحديث، وزاد فيه من قول أسامة
ابن زيد، فأثنى خيرا، وقاله، ثم قال : يا رسول الله، أهلك ولا نعلم إلا خيرا،
وهذا هو الكذب والباطل . قال : وأمّا علىّ بن أبى طالب فإنه قال : يارسول الله، ٥
إنّ النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تَستخلِف، وَاسأل الجارية فإنها ستَصْدُقك .
قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرِيرة ليسألها، فقام إليها علىّ بن أبى طالب
فضربها ضربا شديدا، وقال : اَصْدُقِى رسول الله . وساق نحو ما تقدم . ١٥٠/١٤
وقال فى خبر الوحى : قالت فوالله ما بَرِح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه
حتى تَغشّاه من الله ما كان يَتغشّاه، فسُجِّى بثوبه، ووُضِعت له وِسادة من أَدَم ١٠
تحت رأسه، فأمّا أنا حين رأيت ما رأيت فوالله ما فزِعتُ ولا باليتُ، قد عرفت
أنى منه بريئة، وأنّ الله غير ظالمى، وأمّا أبواى، فوالذى نفس عائشة بيده،
ما سُرِّىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننتُ لتخرجنّ أنفسُهما فَرَقا من
أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس . وساق الحديث بنحو ما تقدم . ثم قال : قالت
ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس يخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل عليه ١٥
من القرآن فى ذلك، ثم أمر بمِسْطح بن أُثاثة، وحسّان بن ثابت، وحَمْنة بنت
جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُربوا حدّهم، فقال رجل من المسلمين
فى ذلك :

لقد ذاقَ حسّانُ الذى كان أهلَه * وحَمْنـةُ إذ قالوا هَجِيرًا[1] ومِسْطَحُ
تَعاطَوْا برجم[2] الغيبِ زوجَ نبيِّهم * وسَخْطةَ ذى العَرْشِ الكريمِ فأَتْرَحوا

(١) الهجير : الفحش من القول . (٢) الرجم : الظن، وأترحوا : أحزنوا .

وآذَوْا رسولَ الله فيها بجُلّلوا * مَخازى تَبْقَى عُمّموها وفُضِّحُوا
وصُبّتْ عليهم مُحْصَداتٌ كأنها * شآبيبُ قَطْرٍ من ذُرَى المُزْنِ تَسْفَحُ [1]

وحكى أبو عمر بن عبد البر فى ترجمة مِسْطح — وهو عوف بن أُثاثة بن عبّاد ابن عبد المطلب بن عبد مناف بن قُصىّ ، وأمه سلمى بنت صخر بن عامر خالة أبو بكر الصدّيق . قال : وذكر الأموى عن أبيه عن ابن إسحاق قال قال أبو بكر يذكر مسطحا :

يا عوفُ ويحكَ هَلّا قلتَ عارِفةً * من الكلام ولم تُتبع بها طمَعا
وأدركتْكَ حُمَيّا مَعْشَرٍ أُنُفٍ * ولم تكن قاطعًا يا عوفُ مَنْ قطعا
هَلّا حَرِبْتَ من الأقوام إذ حسدوا . * فلا تقولُ ولو عاينتَه قَذَعا
لمّا رميتَ حَصانًا غيرَ مُقْرِفَةٍ * أمينةَ الجَيْبِ لم نعلم لها خَضَعا
فيمن رماها وكنتم مَعْشَرا أُفُكًا * فى سَيِّءِ القول من لفظ الخنَا شرَعا
فأنزل الله وَحْيًا فى براءتها * وبين عوفٍ وبين الله ما صَنَعا
فإن أَعِشْ أَجْزِ عوفًا عن مقالته * شَرَّ الجزاءِ إذا أُلْفِيتُه تَبِعا

ولعل هذا الشِّعر إن صحّ عن أبى بكر فيكون قاله قبل نزول قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ الآية . فإنه قد صح أن أبا بكر قال عند نزولها : والله إنّى أحبّ أن يغفر الله لى ، ورَجَع إلى مِسْطح النفقةَ التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها عنه أبدا .

وقال محمد بن إسحاق : حدّثنى أبى إسحاق بن يَسَار عن بعض رجال بنى النجار : أن أبا أيوب خالد بن زيد ، قالت له امرأته أمّ أيوب : ألا تسمع ما يقول

(١) محصدات : يعنى سياطا محكمة الفتل شديدات . شآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر . والذرى : الأعالى . وتسفح : تسيل .

الناس فى عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، أكنتِ يا أمّ أيوب فاعلة ؟ قالت : لا والله ما كنتُ لأفعله ؛ قال : فعائشة والله خيرٌ منك . فلما نزل القرآن بذكر من قال من أهل الفاحشة ما قال أهل الإفك، ثم قال : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ ، أى فقالوا كما قال أبو أيوب وصاحبته .

٥ قال ابن إسحاق : وكان حسّان بن ثابت قال شعرا يُعرِّض فيه بصفوان بن المعطّل؛ فاعترضه صفوان فضربه بالسيف ، ثم قال :

تَلَقَّ ذُبابَ السَّيف عنكَ فإنّنى * غلامٌ إذا هُوجِيتُ لستُ بشاعرِ

فوثب ثابت بن قيس بن شمّاس على صفوان بن المعطّل حين ضرب حسّان فجمع يديه إلى عنقه بحبل ، ثم انطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخَزْرج ، فلقيه ١٠ عبد الله بن رَواحة فقال : ما هذا ؟ قال : أما أُعجِبك[1] ! ضربَ حسّانَ بالسيف والله ما أراه إلا قد قتله ؛ فقال له عبد الله بن رَوَاحة : هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء مما صنعت؟ قال : لا والله ؛ قال : لقد اجترأتَ ، أطلق الرجل ، فأطلقه ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا ذلك له ، فدعا حسّان وصفوان ، فقال صفوان : يارسول الله ، آذانى وهجانى ، فحملنى الغضب فضربته ، فقال رسول الله ١٥ صلى الله عليه وسلم : " ياحسّان ، أتَشَوَّهتَ[2] على قومى أن هداهم الله للإسلام "؟ ثم قال : " أَحسِنْ يا حسّان فى الذى قد أصابك " قال : هى لك ؛ فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عوضا عنها بَيْرَحا — وهى قصر بنى حُدَيْلة — كانت مالا لأبى طلحة وتصدّق بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاها حسّانَ فى ضربته ، وأعطاه

١٥١ / ١٤

(١) قال السهيلى : «معناه أما يجعلك تعجب ، تقول عجبت من الشىء وأعجبنى الشىء إذا كان ذلك العجب من مكروه أو محبوب» . (٢) أتشوهت على قومى : أقبحت ذلك من فعلهم حين سميتهم ٢٠ بالجلابيب من أجل هجرتهم إلى الله ورسوله .

سيرين — أَمَةٌ قِبْطِيَّةٌ — فولدت له عبد الرحمن بن حسّان . قال : وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : لقد سُئل عن ٱبن المعطَّل فوجدوه رجلا حَصُورا ما يأتى النساء ، ثم قُتِل بعد ذلك شهيدا رضى الله عنه .

وقال حسّان بن ثابت يعتذر من الذى كان منه فى شأن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ (1) * وتُصبحُ غَرْثَى من لُحوم الغَوَافِلِ

عَقِيلةُ حَىٍّ من لُؤَىِّ بن غالبٍ (2) * كِرام المساعى مجدُهم غير زائلِ

مُهَذَّبَةٌ قد طَيَّبَ اللهُ خِيمَها (3) * وطَهَّرها من كلّ سُوءٍ وباطلِ

فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زَعَمْتُمُ * فلا رَفعتْ سَوْطِى إلىّ أناملى

وكيف ووُدّى ما حَيِيتُ ونُصرتى * لآلِ رسول الله زَيْنِ المحافلِ

له رَتَبٌ عالٍ على الناس كلِّهم * تَقَاصَرَ عنها سَوْرَةُ (4) المتطاولِ

فإنّ الذى قد قيل ليس بِلائِطٍ (5) * ولكنّه قولُ ٱمرئٍ بِى ماحِلِ (6)

وقد روينا عن البخارىّ رحمه الله بالإسناد المتقدم، قال : حدثنا محمد بن يوسف، قال : حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق عن عائشة.

(1) الحصان : العفيفة . الرزان : الملازمة موضعها ، التى لا تتصرف كثيرا . ما تزن : أى ما تتهم . غرثى : جائعة . الغوافل : جمع غافلة ؛ أى لا ترتع فى أعراض الناس .

(2) العقيلة : الكريمة . المساعى (جمع مسعاة) : وهو ما يسعى فيه من طلب المجد والكرم .

(3) الخيم : الطبع والأصل . (4) السورة : المنزلة ، والرتبة .

(5) اللائط : اللاحق واللازق . (6) كذا فى الأصل ، والذى فى ديوان حسان :

... الدهر بل قول ٱمرئ بى ماحل *

الماحل الساعى بالنميمة .

رضى الله عنها قالت : جاء حسّان بن ثابت يستأذن عليها، قلت : أتأذنين لهذا ؟ قالت : أو ليس قد أصابه عذاب عظيم؟ قال سفيان : تعنى ذهاب بصره، فقال :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِريبةٍ * وتُصبِحُ غَرْثَى مِن لُحوم الغَوافِل

قالت : لكن أنتَ[1] .

وعن مسروق أيضا قال : دخل حسّان على عائشة فَشبَّب فقال : حَصانٌ رَزانٌ ... ... البيت . قالت : لستَ كذلك، قلت : تَدعِين هذا يدخل عليك وقد أنزل الله : ﴿وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ ؟ قالت : وأىُّ عذاب أشدُّ من العمى ! وقد كان يَرُدُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر خبر التيمم

من أهل العلم من ذهب إلى أن آية التيمم أنزلت فى غزوة المُرَيسِيع[2] ، ومنهم من ذهب إلى أنها أنزلت فى غيرها . روى أبو عبد الله محمد البخارىّ رحمه الله بسنده عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبَيْداء — أو بذات الجيش — انقطع عِقْد لى، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه، وأقام الناسُ معه وليسوا على ماء، فأتى الناسُ إلى أبى بكر الصِّدِّيق فقالوا : ألَا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضعٌ رأسه على فخذى قد نام، فقال :

(١) إشارة إلى أنه أعتابها فى قصة الإفك .

(٢) المريسيع : ماء لبنى خزاعة بينه و بين الفرع (بضم الفاء والراء) مسيرة يوم ، وهذه الغزوة هى غزوة بنى المصطلق . (المواهب) .

حَبَسْتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم والناسَ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء!
فقالت عائشة: فعاتبنى أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعننى بيده
فى خاصرتى، فلا يمنعنى من التحرك إلا مكانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على
فخذى، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية
التَّيمم فتيمَّموا، فقال أُسَيد بن الحُضَيْر: ما هى بأوّل بركتكم يا آل أبى بكر. ٥ ١٥٢/١٤
قالت: فبعثنا البعير الذى كنتُ عليه، فأصبنا العِقْد تحتَه.

حوادث السنة السادسة(١)

فيها كانت غزوة الحُدَيبِيَة، وبيعة الرِّضوان، وهُدنة قريش، على ما نذكر
ذلك كله فى الغزوات إن شاء الله تعالى، وفيها قُحِطَ الناسُ، فاستسقى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالناس فى شهر رمضان فسُقوا، وفيها هاجرت أمّ كلثوم. ١٠

ذكر هجرة أمّ كلثوم بنت عُقبة بن أبى مُعَيْط، وما أنزل الله تعالى فى هجرة النساء

لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة الحُدَيبِيَة، بعد أن حلت
الهُدْنة، وتقررت القَضِيّة، وكان فيما وقع عليه الصُّلْح: أنه من جاء إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وَليّه ردّه إليهم، ورَدّ من رَدّ من رجال ١٥
المسلمين، على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى الغزوات. ثم هاجرت أمّ كلثوم بنت
عُقبة بن أبى مُعَيط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك المدة، فخرج أخواها
عُمارة والوليد، ابنا عقبة، حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألانه أن
يردّها عليهما بالعهد الذى بينه وبين قريش، فلم يفعل؛ وذلك أن الله عز وجل

(١) فى الأصل: «الثالثة» وهو تحريف. ٢٠

أنزل : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾[1] ، فمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء لذلك ، وأمر بردّ صَدُقاتهنّ إليهم إن هم ردّوا على المسلمين صدُقات من حَبسوا عنهم من نسائهم .

قال ابن إسحاق : ولما أنزل الله تعالى قوله : ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ ، كان ممن طلّق عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه ، طلّق امرأتيه قُرَيْبَة ابنة أبي أمية ابن المغيرة ، فتزوّجها بعده معاوية بن أبي سفيان ، وأمّ كلثوم بنت جَرْوَل أمّ عُبيد الله ابن عمر الخُزَاعية ، فتزوّجها أبو جَهْم بن حُذَيفة بن غانم ، وكانوا إذ ذاك على شركهم . والله أعلم .

[حوادث السنة السابعة[2]]

فيها تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، وصَفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث الهلالية . وفيها أسلم أبو هُرَيرة — واسمه في الجاهلية عُمَير بن عامر بن عبد ذى الشَّرَى ، وفى الإسلام عبد الرحمن بن صخر الدَّوسيّ ، وأسماؤه كثيرة بحسب ما ورد من اختلاف أقوال الرواة ، وقد صححوا ما ذكرناه ، والله أعلم — وعمران بن حُصَين . وفيها حُرِّمت الحُمُر الأهلية ، ومُتْعة النساء

(١) سورة الممتحنة ١٠ — ١١ (٢) العنوان ساقط من الأصل .

على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى غزوة خَيْبر . وفيها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الرُّسل إلى الملوك ، وقدم حاطب بن أبى بَلْتَعة من عند المُقَوْقِس بمارِية بنت شَمْعون القِبْطية أمّ إبراهيم عليه السلام وأختها شِيرِين . وفيها قدم جعفر بن أبى طالب ومن كان قد بقى من المهاجرين بأرض الحبشة ، وقد تقدم ذكرهم .

حوادث السنة الثامنة

فيها وُلد إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مارية . وفيها توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها وَهَبَت سَوْدَة زوج النبى صلى الله عليه وسلم يومها لعائشة رضى الله عنها حين أراد طلاقها . وفيها عُمِل مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطب عليه .

ذكر اتخاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر وخطبته عليه

روى محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى بسنده عن أبى هُريرة رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إلى جِذْع فى المسجد قائما ، فقال : " إن القيام قد شَقّ علىّ " ، فقال له تميم الدارىّ : ألا أعمل لك مِنْبرا كما رأيتُ يُصنع بالشام ؟ ، فشاور رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلمين فى ذلك ، فرأوا أن يتخذه ، فقال العباس بن عبد المطلب : إن لى غلاما يقال له كِلاب أَعْمَلُ الناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مُرْه أن يعمله " ، فأرسله إلى أَثْلة بالغابة فقطعها ، ثم عمل منها درجتين ومقعدا ، ثم جاء به فوضعه فى موضعه [اليوم](١) ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عليه وقال : " مِنْبرى هذا على تُرعة من تُرع الجنة ، وقوائم مِنْبرى رواتب فى الجنة " . وعن سهل بن سعد

(١) الزيادة من ابن سعد .

وقد سئل عن مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أى عُود هو ؟ فقال : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلانة ــ آمرأة سماها ــ فقال : "مُرِى غلامَكِ النجار يعمل لى أعوادا أكلّم الناس عليها"، فعمل هذه الثلاث درجات من طَرْفَاء الغابة، فأمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه فى هذا الموضع . وقد رُوى عن باقُوم الرومىّ أنه قال : صنعت لرسـول الله صلى الله عليه وسلم مِنبرا من طرفاء، ثلاث درجات : القعدة ودرجتيه؛ رواه عنه صالح مولى التَّوْءَمة[(١)] . حكاه أبو عمر فى ترجمة باقوم . ولمـا آنتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه كان من حَنِين الجِذْع ما نذكره إن شاء الله تعالى فى معجزاته صلى الله عليه وسلم .

وفى هـذه السنة أسلم عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، على ما نشرح ذلك .

ذكر إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة

كان سبب إسلامهم على ما حكاه محمـد بن إسحاق بسنده يرفعه إلى عمـرو بن العـاص، قال عمـرو : لمـا آنصرفنا مع الأحزاب عن الخنـدق جمعتُ رجالا من قريش كانوا يرون رأيى، ويسمعون منّى ، فقلت لهم : تَعلَّموا والله أنى أرى أمر محمد يعلو الأمورَ عُلوًّا مُنكرا ، وإنّى قد رأيتُ أمرًا فمـا ترون فيـه ؟ قالوا : وماذا رأيت؟ قال : رأيت أن نَلْحق بالنّجاشى فنكون عنـده، فإن ظهر محمد على قومنا كنّا عند النّجاشىّ، فإنّا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يَدَىْ محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير . قالوا : إن هـذا

(١) التوءمة : هى بنت أمية بن خلف الجمحى، وإنما قيل لها : التوءمة لأنها كانت معها أخت لها فى بطن . (انظر أسد الغابة) .

لرأيٌ، قلت : فاجمعوا ما يُهدَى له ، وكان أحبَّ ما يُهدَى إليه من أرضنا الأَدَم ، بخمعنا أَدَمًا كثيرا ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليــه . فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضَّمْرىّ ، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم قـد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه ، قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية، ولو قد دخلت على النَّجاشىّ وسألته إياه فأعطانيه فضربتُ عنقه، فإذا فعلتُ ذلك رأت قريش أنى قد أجْزَأْت عنها، فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال لى : مرحباً بصديقى، أهديتَ لى من بلادك شيئا؟ قلت : نعم أيها الملك، قد أهديت لك أَدَمًا كثيرا ، ثم قرّبته إليه فأعجبه ، ثم قلت له : أيها الملك، إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطنيه لأقتله ، فإنهُ قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ، قال : فغضب، ثم مدّ يده فضرب بهــا أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو آنشقت الأرض لدخلت فيها فَرَقا منــه ، ثم قلت له : أيها الملك، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتكه ، قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه النّامُوس الأكبر الذى كان يأتى موسى صلى الله عليه وسلم لتقتله ! فقلت : أيها الملك، أكذاك هو؟ قال : وَيْحكَ يا عمرو، أطعنى وآتّبِعه، فإنه والله لعلى الحقّ، وليظهرنّ على من خالفــه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال : قلت : أفتبايعنى له على الإسلام ؟ قال : نعم ، فبسط يده فبايعته على الإســلام، ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه، وكتمتهم إسلامى .

ثم خرجت عامدا إلى رســول الله صلى الله عليه وسلم، فلقيت خالد بن الوليد وهو مقبل من مكة ، فقلت : إلى أين يا أبا سليمان ؟ فقال : لقد آستقام المَنْسِم(١)،

(١) آستقام المنسم : معناه تبين الطريق ووضح ، وفى الأصل : «المبسم» وفى آبن هشام «الميسم» والتصويب عن الخشنى ، وآبن الأثير .

وإن الرجل لنبيّ ، أذهب والله فأسلم فحتى متى ! قال قلت : والله ما جئتُ إلا لأسلم، قال : فقدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت : يا رسول الله، إني أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدّم من ذنبي ولا أذكر ما تأخر، فقال : " يا عمرو : بايع، فإن الإسلام يَجُبّ(١) ما كان قبله، وإن الهجرة تَجُبُّ ما كان قبلها "، فبايعت ثم انصرفت .

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما فأسلم حين أسلما .

حوادث السنة التاسعة

فيها آلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسائه، وأقسم ألّا يدخل عليهنّ شهرا . وكان سبب الإيلاء ما رواه البخاريّ بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ العسل والحلواء، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهنّ ، فدخل على حَفْصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس فغِرْتُ ، فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عُكّة عسل، فسقت النبيّ صلى الله عليه وسلم منه شَرْبة ، فقلت : أمَا والله لنحتالنّ له ، فقلت لسَوْدة بنت زَمْعة : إنه سيدنو منكِ، فإذا دنا منك فقولي له : أكلتَ مَغَافير، سيقول لكِ : لا ، فقولي له : ما هذه الريح التي أجد ؟ فإنه سيقول لكِ : سقتني حفصة شَرْبة عسل، فقولي له : جَرَسَتْ(٢) نحلُه العُرْفُطَ، وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفية ذلك، قالت : تقول سَوْدة فوالله ما هو إلا أن قام على

---

(١) يجب : يقطع ويمحو . (٢) جرست : أكلت؛ يقال للنحل الجوارس ، والعرفط : شجر الطلح، وله صمغ كريه الرائحة ، فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه .

الباب فأردت أن أباديه بما أمرتني به فرقا منك . ومن رواية مسلم — قالت تقول سودة : فوالذي لا إله إلا هو لقد كدت أباديه بالذي قلت لي ، وإنه لعلى الباب فرقا منك . قال البخاري : فلما دنا منها قالت له سودة : يارسول الله ، أكلت مغافير؟ قال : " لا " قلت : فما هذه الريح التي أجد منك ؟ قال : "سقتني حفصة شربة عسل " فقالت : جرست نحله العرفط ، فلما دار الي قلت له نحو ذلك ، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له : ألا أسقيك منه؟ قال : " لا حاجة لي فيه " قالت : تقول سودة والله لقد حرمناه(1) ، قلت لها : اسكتي(2) .

وفي رواية عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ، إني أجد منك ريح مغافير ، قال : "لا ، ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا" ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(3) .

وروى مسلم بن الحجاج في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي ، فتغضبت يوما على امرأتي ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ماتنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فانطلقت فدخلت

(1) حرمناه : منعناه من العسل .

(2) قلت لها اسكتي : أي قالت السيدة عائشة لسودة اسكتي ؛ لئلا يظهر ما دبرته لحفصة .

(3) سورة التحريم آية 1

على حَفْصة فقلت : أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : نعم [فقلت : أتهجره إحداكنّ إلى الليل ؟ قالت : نعم، فقلت[1]] : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمَنُ إحداكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فإذا هى قد هلكت ، لا تراجعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيئا ، وسليني ما بدا لك ، ولا يغرّنك أن كانت جارتك هى أَوْسَمُ وأحبُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، يريد عائشة .

١٥٥ / ١٤

ومن رواية البخارى قال : خرجت حتى دخلتُ على أمّ سَلَمة لقرابتى منها فكلمتها ، فقالت أمّ سَلَمة : عجباً لك يا بن الخطّاب ! دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، فأخذتنى والله أَخْذًا كَسَرَتْنِى عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها .

رجعنا إلى حديث مسلم — قال عمر : وكان لى جار من الأنصار فكنّا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل يوما ، وأنزل يوما ، فيأتينى بخبر الوَحْىِ وغيره ، وآتيه بمثل ذلك ، وكنّا نتحدّث أن غسّان تُنعِل الخيل لِغزونا[2] ، فنزل صاحبى ، ثم أتانى عِشاء فضرب بابى ، ثم نادانى فخرجت إليه ، فقال : حدث أمرٌ عظيم ، فقلت : ماذا ، أجاءت غسّان؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ، طلّق النبىُّ صلى الله عليه وسلم نساءَه ، فقلت : قد خابت حَفْصة وخَسِرت ، وقد كنتُ أظنّ هذا كائنا ، حتى إذا صلّيتُ الصبح شددت علىّ ثيابى ، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهى تبكى ، فقلت : أطلقكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : لا أدرى ، ها هو ذا معتزل فى هذه المَشْرُبة ، فأتيت غلامًا له أسود فقلت : آستأذنْ لعمر ، فدخل ثم خرج إلىّ فقال : قد ذكرتك له فصَمَتَ ، فانطلقتُ

(١) الزيادة من صحيح مسلم ج ٤ : ١٩٣ . (٢) فى مسلم : « لتغزونا »

حتى انتهيتُ إلى المنبر بخلستُ ، فإذا عنده رهطٌ جلوس يبكى بعضهم ، فجلست قليلا ثم غلبنى ما أجد، ثم أتيتُ الغلام فقلت : آستأذِنْ لعمر، فدخل ثم خرج إلىّ ، فقال: قد ذكرتك له فصمَتَ ، فولّيتُ مدبرا ، فإذا الغلام يدعونى ، فقال : آدْخُل فقــد أَذِن لك ، فدخلتُ فسلّمتُ على رســول الله صلى الله عليه وســلم ، فإذا هو مُتّكِئٌ على رَمْلِ(١) حصير قد أثّر فى جنبه ، فقلت : أطلقت يا رســول الله نساءك ؟ فرفع رأســه إلىّ وقال : "لا" فقلت : الله أكبر ، لو رأيتَنــا يا رســول الله ، وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قَدِمْنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم ، فطَفِق نساؤنا يتعلّمْن من نسائهــم ، فتغَضَّبْتُ على آمرأتى يوما فإذا هى تراجعنى ، فأنكرتُ أن تراجعنى ، فقالت : ما تُنكر أن أراجعك ؟ فوالله إنّ أزواج النبىّ صلى الله عليه وســلم ليراجِعْنَه وتهْجُره إحداهنّ اليــوم إلى الليل ، فقلت : قــد خاب من فعل ذلك منهنّ وخَسِر ، أفتأمن إحداهنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله صلى الله عليه وســلم فإذا هى قد هلكت ، فتبسّمَ رسول الله صلى الله عليه وســلم ، فقلت : يا رســول الله ، قــد دخلت على حَفْصــة فقلت : لا يَغُرّنكِ أن كانت جارتُكِ هى أَوْسَمَ منكِ وأحبَّ إلى رسول الله منكِ ، فتبسم أخرى .

ومن رواية البخارىّ ــ قال عمر: فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث ، فلما بلغت حديث أمّ سَــلَمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر التّبسم فيما قبلها .

قال مســلم فى حديثــه : فقلت أستأنس(٢) يا رســول الله ؟ قال : "نعم" فجلستُ فــرفعتُ رأسى فى البيت ، فــوالله ما رأيت فيــه شــيئا يردّ البصر

(١) رمل حصير : نسجه ، ليس له وطاء سواه .

(٢) المراد بهذه الكلمة الاستئذان فى الأنس والمحادثة ، كما يستفاد من الشرح .

إلا أَهُبًا[1] ثلاثة ، فقلت : آدع الله يا رسول الله أن يُوَسّع على أمتك ، فقد وَسّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسا ثم قال : " أفى شك أنت يا آبن الخطاب، أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا " فقلت : آستغفرلى يا رسول الله ، قال : وكان أقسم ألّا يدخل عليهنّ شهرا من شدة مَوْجِدته[2] عليهنّ حتى عاتبه الله عزّ وجلّ .

وعن عُرْوة عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما مضى تسع وعشرون ليلة دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم — بدأ بى — فقلت : يارسول الله، إنك أقسمت ألّا تدخل علينا شهرا ، و إنك دخلت من تسع وعشرين، أعدّهن ؟ فقال : " إنّ الشهر تسع وعشرون " ثم قال : " يا عائشة ، إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك ألّا تعجلى حتى تستأمرى أبويك " ثم قرأ علىّ الآية : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ حتى بلغ ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3] فقالت عائشة : قد علِم والله أن أبوىّ لم يكونا ليأمرانى بفراقه ، فقلت : أو فى هذا أستأمر أبوىّ ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدارَ الآخرة . وفيها هَدَم رسولُ الله مسجد الضِّرَار .

ذكر خبر مسجد الضرار وهدمه ومن آتخذه من المنافقين

وكان هدم مسجد الضِّرار عند مُنْصَرَف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تَبُوك ، وكان أصحابه الذين بنوه آثنى عشر رجلا : وهم خِذَام بن خالد ومن داره خرج ، وثَعْلَبة بن حاطب ، ومُعَتّب بن قُشَيْر ، وأبو حَبِيبة بن الأزعر ، وعبّاد آبن حُنَيف ، وجارية بن عامر، وآبناه مجمّع وزيد، ونَبْتَل بن الحارث ، وبَحْزَج من بنى ضُبَيعة، وبِجَاد بن عثمان من بنى ضُبَيعة، ووَدِيعة بن ثابت، فأتوا رسول الله

١٥٦ / ١٤

(١) الأهب : الجلود . (٢) الموجدة : الغضب . (٣) سورة الأحزاب آية ٢٨ — ٢٩

صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تَبُوك ، فقالوا : يا رسول الله، قد بنينا مسجدا لذى العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، و إنا نحبّ أن تأتينا فتصلى لنا فيه، فقال : " إنّى على جَناح سَفَر وحال شُغل — أو كما قال صلى الله عليه وسلم — ولو قد قَدِمْنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم فصلينا لكم فيه " فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تَبُوك نزل بِذِى أَوَان — بلد بينه و بين المدينة ساعة من نهار — أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخْشُم أخا بنى سالم بن عوف ، ومَعْن بن عدىّ ، أو أخاه عاصم بن عدىّ ، فقال : " انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحَرِّقاه " فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُّخْشُم ، فقال مالك لِمَعْن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى، فدخل إلى أهله فأخذ سَعَفا من النَّخل فأشعل فيه نارا، ثم [خرجا][(1)] يشتَدّان حتى دخلاه وفيه أهله فحرّقاه وهدماه وتفرّقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ واللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[(2)] ﴾ .

وفيها لاعَنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بينَ العَجْلانىّ و بين امرأته فى مسجده بعد صلاة العصر فى شعبان، وكان عُوَيْمِر قدِم من تَبُوك فوجدها حُبْلَى . وفى شوّال منها

(١) الزيادة من ابن هشام . (٢) سورة التوبه ١٠٧ — ١١٠

مات عبدالله بن أبىّ بن سَلُول المنافق، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يصلّ بعدها على منافق؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾[1] الآية .

وفيها ماتت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها نَعَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم النجاشىَّ فى اليوم الذى مات فيه بالحبشة ، قيل : فى شهر رجب . وفيها أسلم كعب بن زُهير . والله أعلم بالصواب .

ذكر إسلام كَعْب بن زُهَير بن أبى سُلْمَى وآمتداحه رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان سبب إسلامه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا آنصرف عن الطائف كتب أخوه بُجَيْر بن زُهَيْر إليه يخبره أن النبى صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بمكة ممن كان يهجوه و يؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش كآبن الزِّبَعْرَى ، وهُبَيْرة بن أبى وَهْب قد هربوا فى كل وَجْه ؛ فإن كانت لك فى نفسك حاجة فَطِر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، و إن أنت لم تفعل فآنْجُ إلى نَجَائك من الأرض . وكان كعب قد كتب إلى أخيه بُجَيْر لمّا بلغه إسلامه :

أَلَا أَبْلِغَا عَنِّى بُجَيْرًا رسالةً * فهل لك فيما قُلْتُ وَيْحك هل لَكَا ؟
شَرِبْتَ مع المَأْمون كأْسًا رَوِيَّةً * فأَنْهَلَكَ المأمونُ منها وعَلَّكَا[2]
وخالفتَ أسبابَ الهُدى وآتَّبَعْتَه * على أىِّ شَىْءٍ وَيْبَ غَيْرِك دَلَّكَا[3]
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أُمًّا ولا أبًا * عليه ولم تُدرك عليه أخًا لَكَا

(١) سورة التوبة ٨٤ (٢) المأمون : يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت قريش تسميه المأمون والأمين . والنهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى .
(٣) ويب غيرك : ويح غيرك .

١٥٧
١٤

ويروى :

على خُلُقٍ لم تُلفِ يومًا أبًا له * عليه وما تُلفِى عليه أبًا لكا

فإن أنتَ لم تفعلْ فلستُ بآسِفٍ * ولا قائلٍ إمّا عَثَرتَ : لَعًا لكا! (١)

وبعث بها إليه، فلما أتت بُجَيرًا كره أن يكتمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لما سمع] (٢) قوله « سقاك بها المأمون » : " صَدَق وإنه لكذوب، [أنا المأمون] (٢) " ولما سمع قوله « على خُلُقٍ لم تُلفِ أمًّا ولا أبًا عليه» قال : " [أَجَلْ] (٢) لم يُلفِ عليه أباه ولا أمه " فكتب بُجَيرٌ إلى كعب :

مَنْ مُبلِغٌ كَعْبًا فهل لكَ فى التى * تَلُومُ عليها باطلًا وهى أَحْزَمُ

إلى اللهِ لا العُزَّى ولا اللّاتِ وَحْدَه * فتَنْجُو إذا كان النَّجاءُ وتَسْلَمُ

لدى يومِ لا يَنْجُو وليس بمُفْلِتٍ * من الناس إلا طاهرُ القلب مُسْلِمُ

فدِينُ زُهَيرٍ وهو لا شيءَ دِينُه * ودِينُ أبى سُلْمَى علىَّ مُحَرَّمُ

قال : فلما بلغ كَعْبًا كتابُ أخيه ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأَرْجف به من كان فى حاضره (٣) من عدوّه، فقالوا : هو مقتول، فقال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر فيها خوفَه، وإرْجافَ الوُشاة به من عدوّه، وخرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جُهَينة، فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلّى الصبح فصلّى معه، ثم أشار الجُهَنِىّ لكَعْب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : هذا رسول الله فقم إليه فاستأمِنْه، فقام حتى جلس إليه، فوضع يده فى يده، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) لعا : كلمة تقال لمن عثر، دعاء له أن ينتعش من سقطته. (٢) الزيادات من ابن هشام، والذى فى شرح الديوان للسكرى : "صدق! أنا المأمون، وإنه لكاذب". (٣) حاضره : حيه.

لا يعرفه ، فقال: يا رسول الله إنّ كَعْبَ بن زُهَيْر قد جاء ليستأمن منك تائبا مُسْلما، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم" فقال: أنا يا رسول الله كعب بن زُهير، فوثب رجل من الأنصار وقال: يارسول الله، دعنى وعدوّ الله أَضرِبْ عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعه عنك، فإنه قد جاء تائبا نازِعا (١)" . قال : فغضب كعب على هـذا الحىّ من الانصار لِمَا صَنَع به صاحبهم، وأنشد كعب قصيدته؛ وهى :

بَانَتْ سُعادُ فقلبي اليومَ مَتْبُولُ * مُتَيَّمٌ عندها لم يُجْزَ مَكْبُولُ (٢)
وما سعادُ غداةَ البَيْنِ إذ بَرَزَتْ * إلا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ (٣)
هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرةً * لا يُشْتَكَى قِصَرٌ منها ولا طُولُ (٤)
تَجْلُو عَوارِضَ ذى ظَلْمٍ إذا ٱبْتَسَمَتْ * كأنه مُنْهَلٌ بالرّاحِ مَعْلُولُ (٥)
شُجَّتْ بذى شَبَمٍ من ماءِ مَحْنِيَةٍ * صافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وهو مَشْمُولُ (٦)
تَنْفِي الرِّياحُ القَذَى عنه وأَفْرَطَه * من صَوْبِ غادِيةٍ بِيضٌ يَعالِيلُ (٧)

(١) نازعا : أى مائلا إلى الإسلام، أو كافا عن الشرك .

(٢) بانت : فارقت . متبول : غلبه الحب وهيمه . متيم : ذلله الحب . مكبول : مقيد . يروى : « لم يفد » : من الفداء . ولم يجز من الجزاء .

(٣) البين : الفراق . ويروى : « غداة البين إذ رحلوا » . والأغن : الذى فى صوته غنة . وغضيض الطرف : فاتر الطرف، أراد التشبيه . (٤) الهيف : ضمر البطن ورقة الخاصرة .

(٥) العوارض : الأسنان ما بين الثنية والضرس . والظلم : ماء الأسنان وبريقها . ومنهل : قد أنهل بالراح : الخمر، والنهل : أول شربة . والمعلول : قد سقى مرتين، والعلل : الشرب الثانى .

(٦) شجت : مزجت بالماء . والشبم : الماء البارد . المحنية : منعطف الوادى . الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . مشمول : أصابته ريح الشمال فبردته .

(٧) عنه : أى عن الماء الصافى . أفرطه : ملأه . الصوب : المطر . الغادية : السحابة التى تأتى بالغداة . اليعلول : الغدير . يروى : «من صوب سارية» .

وَيْلُ أمِّها خُلَّةً لو أنها صَدَقَتْ * بوَعْدِها أو لَوَ انَّ النُّصْحَ مقبولُ (١)

لكنها خُلَّةٌ قد سِيطَ من دمِها * فَجْعٌ ووَلْعٌ وإخْلافٌ وتَبْديلُ (٢)

فما تقومُ على حالٍ تكونُ بِهِ * كما تَلَوَّنُ فى أثوابِها الغُولُ (٣)

كانت مَواعيدُ عُرْقوبٍ لها مَثَلًا * وما مَواعيدُها إلّا الأباطيلُ (٤)

وما تَمَسَّكُ بالعهدِ التى زَعَمتْ * إلّا كما يُمْسِكُ الماءَ الغَرابيلُ (٥)

أرْجُو وآمُلُ أن يَعْجَلْنَ فى أبَدٍ * وما لَهُنَّ إخالُ الدهرَ تعجيلُ (٦)

فلا يَغُرَّنْكَ ما مَنَّتْ وما وَعدتْ * إنّ الأمانِيَّ والأحلامَ تَضْليلُ

أمْسَتْ سُعادُ بأرضٍ ما يُبَلِّغُها * إلا العِتاقُ النَّجيباتُ المَراسيلُ (٧)

ولا يُبَلِّغُها إلا عُذافِرةٌ * فيها على الأَيْنِ إرْقالٌ وتَبْغيلُ (٨)

---

(١) يروى : «أكرم بها خلة» . وفى الديوان : «ياويحها خلة» .

(٢) سيط : خلط . الفجع : المصيبة . الولع : الكذب . يريد أنها قد خلط بدمها الفجع بالمصائب، والكذب فى الأخبار، وإخلاف الوعد، وتبديل خليل بآخر، وصار ذلك سجية لها .

(٣) الغول : السعلاة، وهى أنثى الشياطين، سميت بذلك لأنها فيما زعموا تغتالهم، أو لأنها تتراءى لهم فى الفلوات، وتتلون بألوان شتى، وتضلهم عن الطريق .

(٤) عرقوب : رجل يضرب به المثل فى خلف الوعد، وكان بالمدينة .

(٥) يروى : «تمسك بالوصل» .

(٦) أبد : زمن . يريد أنه يتمنى الوفاء بما وعدن على عجل ولو مرة فى الدهر، وتعجيل : تصديق، ويروى :

أرجو وآمل أن تدنو مودّتها * وما إخال لدينا منك تنويل

(٧) المراسيل : الخفاف . يقول : لا يبلغنى سعاد إلا مثل هذه النوق لبعدها .

(٨) فى الديوان وابن هشام : «ولن يبلغها» . عذافرة : شديدة غليظة، والأين : الإعياء . الإرقال : أن تعدو وتنفض رأسها، والتبغيل : ضرب من الهملجة المختلطة بالعنق .

من كل نَضّاخَة الذِّفْرَى إذا عَرِقَتْ * عُرْضَتُها طامِسُ الأعْلامِ مجهولُ (١)

تَرْمى النِّجادَ بِعَيْنَىْ مُفْرَدٍ لَهِقٍ * إذا توقَّدَتِ الحُزَّانُ والمِيلُ (٢)

ضَخْمٌ مُقَلَّدُها فَعْمٌ مُقَيَّدُها * فى خَلْقِها عن بَنَاتِ الفَحْلِ تفضيلُ (٣)

١٥٨
١٤

حَرْفٌ أخوها أبوها من مُهَجَّنَةٍ * وعَمُّها خالُها قَوْداءُ شِمْليلُ (٤)

يَمْشِى القُرَادُ عليها ثم يُزْلِقُه * منها لَبَانٌ وأَقْرابٌ زَهَالِيلُ (٥)

عَيْرانةٌ قُذِفَتْ بالنَّحْضِ عن عُرُضٍ * مِرْفَقُها عن بَنَاتِ الزَّوْرِ مَفْتُولُ (٦)

(١) نضاخة : فوارة، يصفها بكرم الأصل . الذفرى : النقرة خلف أذن الناقة والبعير، أوّل ما يعرق منهما . عرضتها : همتها ؛ أى قوية على السفر . طامس : دارس . الأعلام : العلامات ، أى قوية على قطع الأعلام المندرسة المجهولة .

(٢) النجاد : المشرف من الأرض ، ويروى : «الغيوب» : ما غاب من الأرض . المفرد : الذى خذل عن صواحبه . اللهق : الشديد البياض . الحزان (جمع حزيز — بزايين) : المكان الغليظ الصلب . والميل جمع ميلاء : العقدة الضخمة من الرمل ، وقيل : هو مد البصر . يقول : إنها لا تكسل ولا تفتر فى الهاجرة .

(٣) مقلدها : رقبتها . فعم : ممتلئ ، ويروى : «عبل» : وهو الضخم . المقيد : الرسغ . بنات الفحل : النوق . أى لها فضل عليهن . فى شرح ابن هشام بيتان بعد هذا البيت ليسا بالأصل :

غلباء وجناء علكوم مذكرة * فى دفها سعة قدامها ميل

وجلدها من أطوم ما يؤيسه * طلح بضاحية المتنين مهزول

(٤) الحرف : القطعة البارزة من الجبل ، أى مثله فى القوة والصلابة ، أو حرف الخط فى الرقة والضمورة . أخوها أبوها : أى جمل حمل على أمه فوضعت ناقة ، فصار الجمل أخاها وأباها . والمهجنة من النوق : الكريمة ، والتهجين اختلاف الأبوين ، وهو مدح فى الإبل ، وذم فى بنى آدم . عمها خالها : يعنى أن عمها وخالها من جنس واحد ، أى إنها كريمة الطرفين من أبيها وأمها . قوداء : الطويلة الظهر والعنق . والشمليل : الخفيفة السريعة .

(٥) اللبان بفتح اللام : الصدر ، والأقراب : الخواصر ، والزهاليل : الملس .

(٦) عيرانة : تشبه العير فى صلابتها ، قذفت بالنحض : كاملة الخلق لم ينقصها الحلب ، والنحض اللحم . العرض : الجوانب ، وبنات الزور : الأضلع المقدمات ، المفتول : المدمج المحكم .

قَنْــوَاءُ فى حُرَّتَيْهـا للبصير بهـا * عِتْقٌ مُبِينٌ وفى الخَدَّيْنِ تَسْهِيلُ (١)

كأنّ ما فات عَيْنَيْهـا ومَذْبَحَهـا * مِن خَطْمِها ومن اللَّحْيَيْنِ بِرْطِيـلُ (٢)

تُمِرُّ مثلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذا خُصَلٍ * فى غارِزٍ لم تَخَــوَّنْه الأَحَالِيــلُ (٣)

تَهْوِى على يَسَراتٍ وهْىَ لاهِيَــةٌ * ذَوَابِــلٌ وَقْعُهُنَّ الأرضَ تَحْلِيـلُ (٤)

سُمْرُ العُجَاياتِ يَتْرُكْنَ الحَصَى زِيَمًا * لَمْ يَقِهِنَّ سَــوَادَ الأُكْمِ تَنْعِيـلُ (٥)

يَــوْمًا يَظَلُّ به الحِـرْباءُ مُرْتَبِئًا * كأنّ ضاحِيَــه فى النّـار مَمْـلُولُ (٦)

وقال للقوم حادِيهم وقد جَعَلتْ * بُقْعُ الجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصَى قِيلُوا (٧)

---

(١) قنواء : فى أنفها كالحدب . حرتاها : أذناها . والعتق : الكرم ، وسهلة الخدين : سائلتهما غير مرتفعة الوجنتين .

(٢) [illegible] . [illegible] . [illegible] . [illegible] . [illegible] من حديد ، أو حجر مستطيل ، وصفها بكـ[illegible] .

(٣) عسيب النخل : جريدها . والغارز : الضرع ، قد غرز وقل لبنه . لم تخونه : لم تنقصه . الأحاليل : مجارى اللبن . يريد تمر ذنبها على ضرعها .

(٤) تهوى : تسير بسرعة . ويروى : «تخذى» ومعناهما واحد . واليسرات : القوائم الخفاف . ذوابل : ليست برهلة . وقعهن الأرض : إشارة إلى سرعة رفعها قوائمها ، وتحليل : مثل تحلة اليمين . أى كما يحلف الإنسان على الشيء ليفعلته ، فيفعل منه اليسير ليتحلل من قسمه .

(٥) سمر : فى ألوانها ، وهى اليسرات فى البيت السابق . العجايات : عصب باطن اليدين . زيما : متفرقة ، يقول : لا يحتجن أن ينعلن لأنهن غلاظ الأخفاف .

(٦) الحرباء : ذكر أم حبين ، وهو حيوان يتلون ألوانا بحر الشمس . مرتبئا : مرتقبا ؛ وذلك إذا كان فوق شرف ، ويروى : «مصطخما» : منتصبا ، ويروى : «مصطخدا» : تصلى بحر الشمس . الضاحى : البارز للشمس . مملول : من مللت الخبز ، جعلته فى الملة بفتح الميم : الحفرة المحماة ، أو الرماد الحار .

(٧) الحادى : سائق الإبل . بقــع : ذات اللون الأبقع . الجنادب : جراد صغير ، فى أشــد ما تكون الهاجرة يكون ذلك . قيلوا : من القيلولة ، وهى الإبراد عند الهاجرة ، وفى الديوان : «ورق الجنادب» ، الورق جمع أورق ، وهو الأخضر إلى سواد ، او على لون الرماد .

كأنّ أوْبَ ذراعيْها وقد عرِقتْ * وقـد تلفَّع بالقُـورِ العَسَاقيـلُ (١)

أَوْبُ يدَىْ فاقـدٍ شَمْطَاءَ مُعْوِلةٍ * قامتْ بجَاوَبها نُكْدٌ مثاكِيـلُ (٢)

نَوّاحةٌ رِخْوةُ الضَّبْعين ليس لها * لـمّا نَعَى بِكْرَها النـاعون معْقولُ (٣)

تَفْـرِى اللَّبـانَ بكفَّيْها ومِدْرَعُها * مُشَـقَّقٌ عن تَرَاقيهـا رَعَابِيـلُ (٤)

تَسْـعَى الوُشَـاةُ بجَنْبَيْها وقولُهُـمُ * إنك يابن أبى سُـلْمَى لمقـتولُ (٥)

وقال كلُّ صَديقٍ كنتُ آمُـلُه * لا أُلْهِيَنَّكَ إنّى عنـكَ مَشْـغولُ (٦)

فقلتُ خَلُّوا طـريقى لا أبَا لكُمُ * فكلُّ ما قَـدَّر الرحمنُ مفعـولُ

كلُّ ابنِ أُنثَى و إن طالت سلامتُه * يومًا على آلةٍ حَـدْباءَ محمـولُ (٧)

نُبِّئْتُ أنّ رسـولَ الله أوْعَـدَنى * والعَفْوُ عنـدَ رسولِ الله مأمولُ

مَهْلًا هداكَ الذى أعطاكَ نافلةَ الـ * ـقُـرْآنِ فيهـا مواعيظٌ وتفصيـلُ (٨)

(١) أوب : رجع ، تلفع : تلحف ، القور جمع قارة : الأكمة ، وقيل جبـل يرتفع طولا ولا يرتفع عرضا . والعساقيل : السراب .

(٢) شمطاء : العجوز التى لا ترجو ولدا ، معولة : من العويل ، إنما أراد امرأة نعى لها ولدها ، نكد جمع نكداء : التى لا يعيش لها ولد . مثاكيل جمع مثكال : التى فقدت أولادا كثيرة . ويروى الشطر الأول :

* شدّ النهار ذراعا عيطل نصف *

(٣) رخوة : مسترخية ، الضبع بسكون الباء : العضد ، يريد شديدة الحركة ، والمعقول : العقل .

(٤) تفرى : تشق ، اللبان : الصدر ، مدرعها قميصها : شبه الناقة بالمرأة التى تشق الثياب عن صدرها ، الرعابيل : المتخرقة المتمزقة .

(٥) تسعى من السعاية : وهى الوشاية ، بجنبيها : حولها ، ويروى : جنابيها .

(٦) لا ألهينك : لا أشغلك عما أنت فيه . ويروى : «لا ألفينك» ؛ أى لا أكون معك .

(٧) الآلة : النعش . حدباء : معوجة .

(٨) النافلة ، قال ابن هشام : النافلة العطية المتطوع بها زيادة على غيرها ، وذلك إشارة إلى أن القرآن مع ما أنعم الله على نبيه به من العلوم العظيمة زيادة على تلك العلوم .

لا تأخُذَنِّى بأقوالِ الوُشاةِ ولم * أذنبْ ولو كَثُرَتْ فىَّ الأقاويلُ

لقد أقومُ مَقامًا لو يقومُ به * أرَى وأسمعُ ما لو يَسْمعُ الفيلُ

لظَلَّ تُرْعَدُ مِن وَجْدٍ بوادِرُه * إن لم يَكُنْ مِن رسول الله تَنْوِيلُ (١)

حتى وَضَعْتُ يَمِينِى ما أنازِعها * فى كَفِّ ذى نَقِماتٍ قَوْلُه القِيلُ (٢)

فلَهْوَ أخوفُ عندى إذْ أُكَلِّمه * وقيلَ إنَّك مَنْسُوبٌ ومَسْئولُ (٣)

٥

من ضَيْغَمٍ بضَراء الأرضِ مُخْدَرُه * فى بطن عَثَّرَ غِيلٌ دونه غِيلُ (٤)

يَغْدُو فيَلْحَمُ ضِرغامَيْن عيشُهما * لحمٌ من الناس مَعْفُورٌ خَرَاذيلُ (٥)

إذا يُساوِرُ قِرْنًا لا يَحِلُّ له * أنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إلَّا وَهْوَ مَفْلُولُ (٦)

منه تَظَلُّ حَمِيرُ الجَوِّ نافِرَةً * ولا تَمَشَّى بِوادِيه الأراجيلُ (٧)

١٠

(١) لظل ترعد جواب « لو » الأولى وهو دالّ على جواب « لو » الثانية ؛ الوجد : شدة الحزن . والبوادر : اللحم الذى بين العنق والكتف . والذى فى الشروح :

لظلّ يرعد إلا أن يكون له * من الرسول بإذن الله تنويل

تنويل ، من النائل : وهو العطاء ، والمراد هنا : العفو والأمان ؛ وفى السيرة الهشامية بعد هذا البيت :

ما زلت أقتطع البيداء مدّرعا * جنح الظلام وثوب الليل مسدول

١٥

(٢) أنازعها : أى وضعت يمينى فى يمينه وضع طاعة لا أنازعه . ويريد بصاحب النقمات : النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان ينتقم من الكفار . القيل : القول الصادق .

(٣) منسوب : مسئول عما صدر منك ، ويروى : مسبور .

(٤) الضيغم : الأسد ، ضراء جمع ضار : من ضرى بكذا ولع به ، والمشهور كما فى الشروح : « بضراء الأسد مخدره » . عثر : موضع باليمن كثير الأسد ، والغيل : الشجر الملتف . ويروى :

٢٠

* من خادر من ليوث الأسد مسكنه *

(٥) يلحم ضرغامين : يطعمهما لحم الناس ، معفور : ملقى فى العفر : التراب . خراذيل ، بمعجمة ومهملة : قطعا . (٦) القرن : مقاومك فى الشجاعة أو العلم ، يساور : يواثب ، مفلول : منهزم ، ويروى : « مجدول » : ملقى فى الجدالة وهى الأرض . (٧) الجو هنا : الوادى ، والبر الواسع ، ويروى ضامزة : ساكتة ، مكان « نافرة » . الأراجيل : جمع أرجال جمع رجل .

ولا يزالُ بواديه أخو ثقةٍ * مُطَرَّحُ البَزِّ والدِّرسَينِ مأكولُ (١)

إنَّ الرسولَ لنورٌ يُستَضاءُ به * مُهنَّدٌ من سُيوفِ اللهِ مسلولُ (٢)

أغرُّ أبلَجُ يُستَسقَى الغَمامُ به * كأنَّ طلعتَه فى الليلِ قنديلُ (٣)

فى عُصبةٍ من قريشٍ قال قائلُهم * ببطنِ مكّةَ لمّا أسلَموا زُولُوا (٤)

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ * عند اللقاءِ ولا مِيلٌ معازيلُ (٥)

يمشُون مَشيَ الجِمالِ الزُّهرِ يَعصِمهُمْ * ضَربٌ إذا عرّدَ السُّودُ التَّنابيلُ (٦)

شُمُّ العَرانينِ أبطالٌ لَبوسُهُمُ * من نَسجِ داودَ فى الهيجا سَرابيلُ (٧)

بِيضٌ سَوابغُ قد شُكَّتْ لها حَلَقٌ * كأنّها حَلَقُ القَفعاءِ مجدولُ (٨)

١٥٩
١٤

(١) البز : الثياب ، والسلاح . والدرسان : الثياب الخلقة ، ويروى : «مضرج» ، ومقتول .

(٢) الرواية المشهورة : «لسيف» ، وهذه الرواية أحسن ؛ لأن النور هو الذى يستضاء به ، مهند : مطبوع من حديد الهند .

(٣) أغر : أبيض الوجه بالنور ، أبلج : مشرق الوجه ، يستسق : يطلب الغيث به من الغمام وهو السحاب ، طلعته : أول ما يبدو منه ، القنديل : السراج .

(٤) يروى : «فتية» ، والمعنى واحد ، زولوا : انتقلوا من مكة إلى المدينة ، والعصبة : أراد به الجماعة لا العدد الذى هو من عشرة إلى أربعين .

(٥) أنكاس ، جمع نكس بكسر النون : الرجل الضعيف المهين ، كشف ، جمع أكشف : الذى لا ترس معه ، ميل جمع أميل : الذى لا سيف معه ، أو الذى لا يحسن الركوب ولا يستقر على السرج ، والمعازيل جمع معزال : الذى لا سلاح معه .

(٦) الزهر : البيض ، يعصمهم : يمنعهم ، عرد : فر ، ونكل ، وجبن ، التنابيل جمع تنبال : القصير .

(٧) العرانين : الأنوف ، الشمم : حدة فى طرف الأنف مع تشمير ، لبوسهم : لباسهم ، نسج داود : الدروع ، الهيجاء : الحرب ، سرابيل جمع سربال : القميص .

(٨) بيض : مجلوة صافية ، سوابغ جمع سابغ : الطويل التام ، شكت : أدخل بعض حلقها فى بعض وسمرت ، ويروى : «سكت» : ضيقت ، القفعاء : شجر لها ورق وثمر مثل حلق الدروع ، مجدول : مفتول .

ليسوا مَفَارِيحَ إن نالتْ رِمَاحُهم * قوماً وليسوا مَجَازِيعًا إذا نِيلُوا

لا يَقَعُ الطَّعْنُ إلّا في نُحُورِهمُ * وما لهم عن حِياضِ الموتِ تَهْلِيلُ(١)

قال ابن إسحاق : فلما قال كعب في قصيدته : « إذا عَرّد السُّودُ التنابيل » ، وإنما أراد معشر الأنصار ، وخصّ المهاجرين من قريش بمدحته ، غضبت الأنصار عليه ، فقال بعد ذلك يمتدح الأنصار من قصيدة له :

من سَرّهُ كَرَمُ الحياةِ فلا يَزَلْ * في مِقْنَبٍ(٢) مِنْ صالحى الأنصارِ

ورِثوا المكارمَ كابرًا عن كابرٍ * إنّ الخِيارَ(٣) هُمُ بنو الأخيارِ

المُكْرِهينَ السَّمْهَرِىَّ بأذرعٍ * كَسَوالِفِ(٤) الهِنْدِىِّ غيرِ قِصارِ

والناظرين بأعينٍ مُحْمَرّةٍ * كالجَمْرِ غيرِ كَليلةِ الإبْصارِ

والبائعين نفوسهم لنبيِّهم * للموتِ يومَ تَعانُقٍ وكِرارِ(٥)

يتطهّرون(٦) يَرَوْنَه نُسُكا لهم * بدماء مَن عَلِقوا مِن الكفّارِ

دَرِبُوا كما دَرِبَتْ ببطنِ خَفِيّةٍ(٧) * غُلْبُ الرِّقابِ من الأُسُودِ ضَوارِى

وإذا حَلَلْتَ(٨) ليمنعوك إليهمُ * أصبحتَ عند مَعاقِلِ الأَغْفارِ

(١) تهليل : هروب من الحرب . (٢) المقنب : ألف وأقل ، قاله أبو عمرو . وقال الأصمعى : هم الجماعة من الفوارس نحو الثلاثين أكثر وأقل ، واحتج أبو عمرو بقول الجعدى : « بألف يكتب أو بمقنب » . يكتب : يجمع . (٣) رواية الديوان « الكرام » .

(٤) كذا فى الأصل . وعبارة الديوان رواية السكرى « كصواقل » وفى رواية « كسوافل » .

(٥) كذا فى الأصل وابن هشام . ورواية ابن سلام « يوم الهياج وسطوة الجبار » وفى الأغانى « عند الهياج وسطوة الجبار » وفى ابن الأثير :

والباذلين نفوسهم ودماءهم * يوم الهياج وسطوة الجبار

(٦) رواية الديوان : * يتطهرون كأنه نسك لهم * (٧) خفية : موضع كثير الأسد .

(٨) فى الديوان « نزلت » . والأغفار : أولاد الأروى ، واحدها غفر بضم فسكون ، والأروى أنثى الوعل .

ضَربوا عَليًّا يــومَ بَدْرٍ ضربةً * دانت لوَقْعتِها جميعُ نِــزارِ (١)

لو يَعْــلَمُ الأقــوامُ علمِىَ كلَّه * فيهـم لَصدَّقـنِى الذين أُمارِى

قــومٌ إذا خَوَت النجومُ فإنهــم * للطارِقين النـازلـين مَقـارِى (٢)

قال ابن هشام : ويقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له حين أنشد « بانت سـعاد فقلبى اليوم متبول » : " لولا ذكرتَ الأنصار بخير، فإنّ الأنصار لذلك أهل " .

ذكر حج أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه بالناس وأذان علىّ رضى الله عنه بسورة براءة

قال : وفى ذى القعدة سنة تسع من الهجرة، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصدّيق رضى الله عنـه أميرا على الحاج ليقيم للسلمين حجهـم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين، ثم نزلت سورة براءة فى نقض ما بين رسـول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليـه فيما بينهم وبينـه، ألّا يُصَدّ عن البيت أحدٌ جاءه ولا يُخاف أحدٌ فى الشهر الحرام، وكان عهدا عاما بينـه وبين الناس من أهـل الشرك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : " اخرج بهذه القصة من صدر براءة، فأذّن فى النـاس يوم النَّحر إذا اجتمعوا بمنًى

(١) على : قالوا هو على بن بكر بن وائل . ويقال : على أخو عبـد مناة بن كنانة بن خزيمة من أمه . (شرح ديوان كعب للسكرى) . وفى هامش الأصل : « علىّ هذا الذى ذكره، هو على بن أمية ابن خلف » .

(٢) المقارى : الذين يقرون الضيف . ويروى فى الديوان :

وهم إذا خوت النجـوم فإنهم * للطـائفين السائلين مقارى

أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مُشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدّته" فخرج علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العَضْباء حتى أدرك أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه بالطريق، فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال: أمير أو مأمور؛ قال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر رضى الله عنه للناس حجهم، وذلك فى ذى القعدة، حتى إذا كان يوم النحر قام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، فأذن فى الناس بما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: «أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحجّ بعد العام مُشرِك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عَهد فهو له إلى مدته» وأجّل الناس أربعة أشهرٍ من يوم أذّن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم(١)، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى مدّة فهو له إلى مدته، فلم يحج بعد ذلك العام مُشرك، ولم يطف بالبيت عُريان، ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حوادث السنة العاشرة

فيها كانت حجّة الوداع، سنذكرها إن شاء الله تعالى فى حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفيها نزل فى يوم جمعة قوله عزّ وجلّ: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾(٢). وفيها نزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾(٣)

(١) فى ابن هشام: «أو بلادهم». (٢) سورة المائدة ٣

(٣) سورة النور ٥٨

الآية . وكانوا لا يفعلونه قبل ذلك . وفيها مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول . وفى كل سنة من هذه السنين العشر غزوات وسرايا ووقائع تُذكر إن شاء الله تعالى فى مواضعها، والله المستعان الهادى .

***

صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع عشر فى الأصل الثانى المرموز له بحرف (ا)

« كمل الجزء الرابع عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، للشيخ الإمام شهاب الدين أحمد النُّويرى رحمه الله تعالى ، على يد كاتبه أضعف الخلق وأحقرهم إلى الرحمة ، نور الدين بن شرف الدين العاملى بلدا ، الشافعى مذهبا ، غفر الله له ولوالديه ، ولمن يطالعه ويدعو له . آمين » .

***

تم بعون الله تعالى تحقيق الجزء السادس عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » من تجزئة طبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٧ من جمادى الثانية سنة ١٣٧٤ هـ الموافق ١٠ من فبراير سنة ١٩٥٥ م .

ويليه الجزء السابع عشر ، وأوله : « ذكر غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فهـــرس المراجـــع

الاستيعاب لابن عبد البر ، حيدر أباد ١٣١٨

أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، الوهبية ١٢٨٠

الاشتقاق لابن دريد ، جوتنجن ١٧٥٤ م

الإصابة فى تمييز الصحابة ، الشرفية ١٣٢٧

الأصنام لابن الكلبى ، دار الكتب المصرية ١٣٤٣

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، بولاق ١٢٨٥

الاكتفا بما تضمنه من مغازى المصطفى ، مخطوطة دار الكتب ٢٤٤٢ حديث .

الإكمال لابن ماكولا ، مخطوطة دار الكتب ٨ مصطلح .

الإنباه على قبائل الرواه لابن عبد البر نشره القدسى ١٣٥٠

الأنساب للسمعانى ، ليدن ١٩١٢م .

البداية والنهاية لابن كثير ، السعادة ١٣٥١

تاريخ ابن الأثير ، بولاق ١٢٩٠

تاريخ الخميس للديار بكرى ، الوهبية بمصر ١٢٨٣

تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط دار الكتب ١٠٤١ تاريخ تيمور .

تاريخ الطبرى ، الحسينية بالقاهرة ١٣٣٦

تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨

تهذيب الأسماء واللغات للنووى ، المنيرية بالقاهرة .

تهذيب التهذيب ، حيدرآباد ١٣٢٧

تهـذيب الكمال للمزى ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٢٥ مصطلح .

التيجان فى ملوك حمير ، حيدرآباد ١٣٤٧

ثمرات الأوراق لابن حجة ، الوهبية ١٣٠٠

الجامع الصغير للسيوطى ، بولاق ١٢٨٦

جمهرة الأنساب لابن حزم ، المعارف ١٩٤٨ م

حلية الأولياء لأبى نعيم ، السعادة ١٣٥٧

الحماسة بشرح التبريزى

حياة الحيوان للدميرى ، البابى الحلبى ١٣٠٥

الخبر عن البشر للقريزى ، مخطوطة دار الكتب ٩٤٧ تاريخ .

خزانة الأدب للبغدادى ، بولاق ١٢١٩

خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجى ، بولاق ١٣٠١

خير البشر لابن ظفر ، القاهرة ١٢٨٠

خير البشر ، مخطوطة دار الكتب ١٥ مجاميع

دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٢١٢ حديث .

دلائل النبوة لأبى نعيم ، حيدرآباد ١٣٢٠

الروض الأنف للسهيلى ، الجمالية بمصر ١٣٣٢

السيرة الحلبية ، مصر ١٣٢٠

السيرة النبوية لابن هشام ، مصطفى الحلبى ١٣٥٥ ، وجوتنجن ١٨٦٠ م .

شرح السيرة للخشنى ، هندية ١٣٢٩

شرح الشفاء للخفاجى = نسيم الرياض .

شرح الشفاء للشمنى = مزيل الخفا .

شرح المواهب اللدنية للزرقانى ، بولاق ١٢٧٨

صفة الصفوة ، حيدرآباد ١٣٥٥

طبقات ابن سعد ، ليدن ١٣٢١

طبقات القراء ، السعادة ١٣٥١

عيون الأثر لابن سيد الناس نشره القدسى ١٣٥٦

الكامل فى الضعفاء لابن عدى ، مخطوطة ٩٦ مصطلح .

كنوز الحقائق للناوى ، مصر ١٣٠٥

مجمع الأمثال للميدانى ، بولاق ١٢٨٤

المحبر لابن حبيب ، حيدر آباد ١٣٦١
مزيل الخفا عن ألفاظ الشفاء للشمنى ، مخطوطة دار الكتب ٣٧٥ حديث .
المعارف لابن قتيبة ، الحسينية ١٣٥٣
معجم البلدان ، السعادة ١٣٢٤
معجم الطبرانى ، مخطوطة دار الكتب ١٣٥٣ حديث .
المعمرين لأبى حاتم ، السعادة ١٣٢٣
المقتفى من سيرة المصطفى لبدر الدين بن حبيب الموصلى ، مخطوطة دار الكتب ٣٠٩ تاريخ .
المقدمة الفاضلية ، مخطوطة دار الكتب ١٩ تاريخ .
الميسر والقداح لابن قتيبة ، السلفية
نسب قريش مخطوط دار الكتب ٤١٥١ تاريخ .
نسب معد لابن الكلبى ، مخطوطة ٩٩٥٩ تاريخ
نسيم الرياض ، الآستانة ١٢٦٧
النهاية لابن الأثير ، بولاق ١٣١١
الوافى بالوفيات ، مخطوطة دار الكتب ١٢١٩ تاريخ .
وفيات الأعيان ، بولاق ١٢٩٩

الخطأ والصواب

س	ص	الخطأ	الصواب
١٢	٣	طابجة	طابخة
٢	٤	نبت ابن حمل	نبت بن حمل
٧	٤	قينان ابن مهلائيل	قينان بن مهلائيل
٨	٧	أمَرَ	أمَر
٦	١٢	صلُبه	صُلبه
٢٠	١٢	تابع العروس	تاج العروس
٤	١٣	حزيمة	خزيمة
٩	١٣	الحشنى	الخشنيّ
٥	٢١	سلول بن كعبَ	سلول بن كعبٍ
١	٣٨	توأمان	توءمان
١٤	٤٣	تذمَ	تذمُّ
٢١	٤٧	المسير	الميسر
٦	٤٩	تشرُكونهم	تشرَكونهم
١٢	٤٩	أنفذن	أنفدن
١٣	٥١	السادنِ	السادنِ
١	٥٧	خطبه	خطب
٦	٥٧	القائل آبن سعد.... الخ	القائل آبن عبد البر ١ : ١٢
٨	٦٢	وَهّب	وَهْب
١٤	٦٤	الزّهرى	الزُّهرى
١٠	٨٢	قال	قالت
٢١	٨٧	١ : ٧٧	١ : ٧٣

س	ص	الخطـــأ	الصـــواب
٨	٩١	يعـــزف	يعـــرف
٧	٩٣	فإنى كنت إذ أنا	فإنى كنت أجتنيه إذ أنا
١١	١٠٢	خبر التحدى	خبر النجدى
٢٠	١٠٧	فاران جبال مكة	فاران مكة
١٢	١١٠	تكذّب	تكذِّب
١٥	١٢٦	اختيارَهم	اختيارِهم
١١	١٤٠	فاحتفط	فاحتفظ
٣	١٤٢	بخيهّـــلا	فخيهّـــلا
٩	١٤٢	بعثتم شئتم	بعثتم إذا شئتم
١٠	١٤٤	يقال ابن الهيّبان	يقال له ابن الهيّبان
٢	١٥٧	النعمان المنـــذر	النعمان بن المنذر
١٥	١٥٧	قصد منها بيتا منها	فقصد بيتا منها
٣	١٧٦	ابن جريج .	ابن جريج
٢٢	١٨٣	عامر بن طيء	معن بن طيء
١٩	١٩١	يقتل عمار الفئة الباغية	تقتل عمارا الفئة الباغية
١٨	١٩٦	علاقِة	علاقّة
١٨	٢٣٥	فالها فى نادى	قالها فى نادى
٢٠	٢٣٦	ص ١١٨	ص ١١٨ ج ٢
٢١	٢٦١	خظم	خطم
٢	٢٦٧	كلـــذة	كلـــدة
١٥	٢٧٧	تملكون	يملكون
١٥	٢٨٦	السيرة الحديث له	الســـيرة له
٢	٢٨٧	قالت فبهت	قال : فبهت
١٥	٢٨٧	عند الوحى، كما فيكون	عند الوحى، فيكون

*
* *

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء السادس عشر من كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" بمطبعة دار الكتب المصرية فى شهر شعبان سنة ١٣٧٤ هـ (مارس سنة ١٩٥٥ م) ما

محمود عثمان الرزاز

مراقب المطبعة بدار الكتب المصرية

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر — ٩٠١١٨

القاهرة

